

جامعة تونس الأولى  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

التاريخ الحضاري لجنوب بلاد الشام "فلسطين والأردن" في  
عصر الأيوبيين ودولة المماليك الأولى "البحرية"

[من سنة 567 هـ = 784 م / 1171 - 1382 م]

رسالة دكتوراه الدولة في

التاريخ الحضاري الإسلامي

- العصور الوسطى -

إعداد الباحث

أحمد نهار عيسى شناق

إشراف الأستاذة / الدكتورة

منيرة شابوطو

أستاذة تاريخ العصور الوسطى في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

[جامعة تونس الأولى]

28 جويلية - 1997 تونس

جامعة تونس الأولى  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

التاريخ الحضاري لجنوب بلاد الشام "فلسطين والأردن" في  
عصر الأيوبيين ودولة المماليك الأولى "البحرية"  
[من سنة 567 هـ - 784 هـ / 1171 - 1382 م]

رسالة دكتوراه الدولة في  
التاريخ الحضاري الإسلامي  
- العصور الوسطى -

إعداد الباحث  
أحمد نهار عيسى شناق

إشراف الأستاذة / الدكتورة  
منيرة شابوطو

أستاذة تاريخ العصور الوسطى في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
[جامعة تونس الأولى]  
28 جويلية - 1997 تونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم إني أشهدك وأشهد حملة عرشك  
وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت  
وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك أدى  
الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وأنا على ذلك لمن  
الشاهدين والحمد لله رب العالمين



## شكر وتقدير

وفي بداية التعريف بالبحث يتوجه الباحث العربي بالحمد والشكر لله تعالى الذي منحني الصحة والعافية والقدرة على التحمل والصبر والسهر الطويل.

كما يتوجه الباحث بالشكر الجزيل إلى استاذي الفاضل الدكتور هشام جعيط الذي بدأ معي المشوار الطويل وكان له أكبر الأثر في إخراج هذا البحث إلى دائرة الضوء خلا ل خمس سنوات والذي لم يسعفه العمر بإكمال اشرافه على هذا البحث لإحالاته على التقاعد.

فكانت عناية الله ورحمته بي بأن من عليّ بالاستاذة الجليلة العالمة / الدكتورة منيرة شابوطو التي أكملت الإشراف على هذا البحث رغم أعبائها الثقافية الثقيلة فكانت بعلمها الغزير وتوجيهاتها السديدة وراء كل كلمة من كلماته وكان تشجيعها خير حافز على مواصلة الطريق وتخطي العقبات والصعاب فلها شكري وتقديري ما حييت كما أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان وصادق الثناء للأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على ما يبدونه من ملاحظات وتوجيهات علمية لإخراج هذا البحث التاريخي في كتاب قيم للأجيال الإسلامية ..

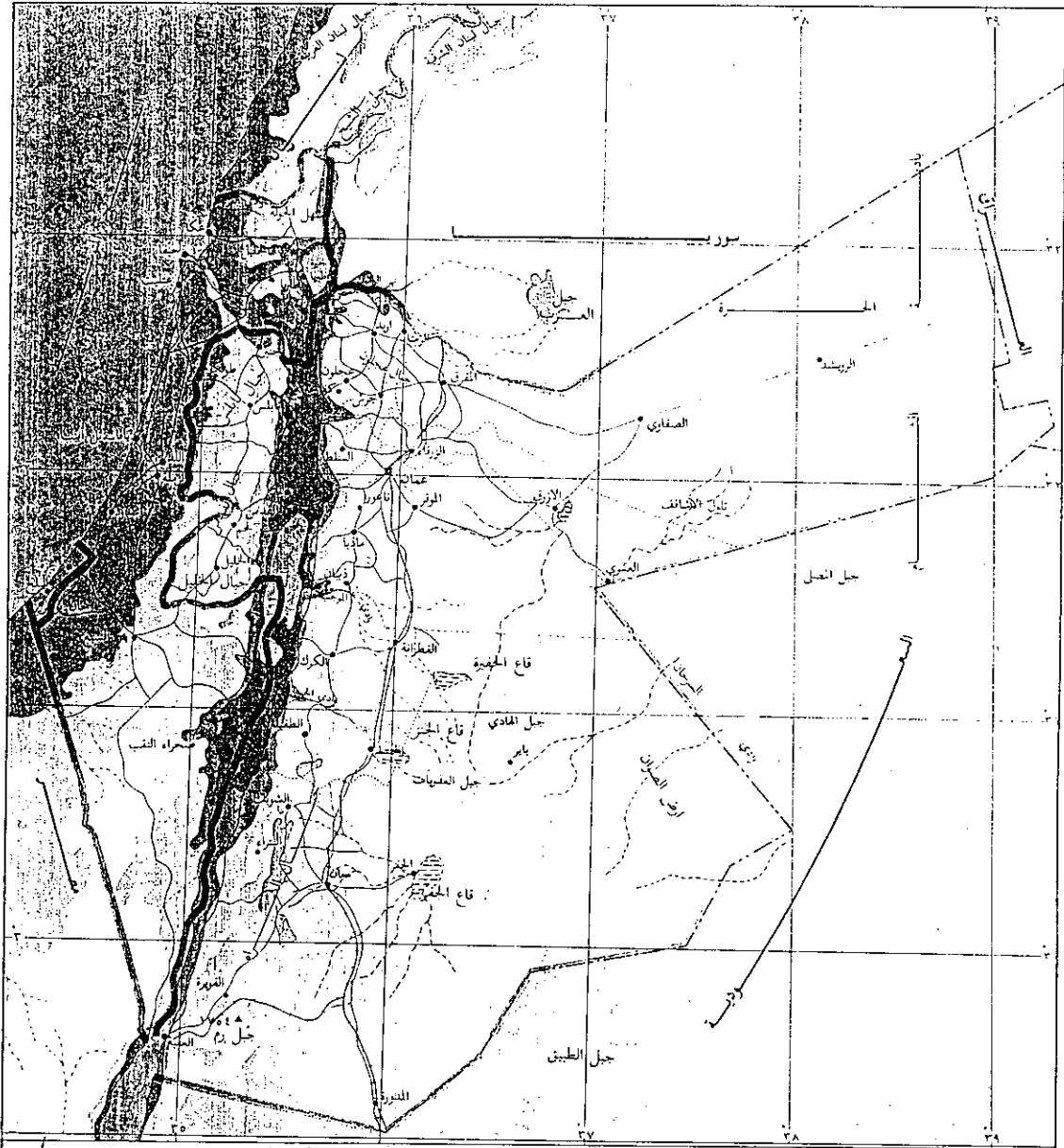
ولايسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لمسؤولي دار الكتب المصرية بولاق -القاهرة ومسؤولي مكتبة عين شمس للرسائل الجامعية ومسؤولي مكتبة جامعة اليرموك/اربد ومكتبة بلدية اربد ومكتبة زايد في جامعة الإمارات العربية المتحدة



ولمسؤولي مركز الدراسات التاريخية والوثائق بأبو ظبي وإلى مسؤولي مركز التراث والتاريخ بأبوظبي والعين وإلى مكتبة وزارة الإعلام في مدينة العين وإلى رفيق الدرب الأستاذ علي مرشدة الذي راجعها لغوياً وإلى السيد صالح "محمد أمين" الشناق الذي أخرجها بهذا الشكل المتقن والجميل، جزاه الله عنا كل الخير.

وأختم شكري إلى من يستحق الشكر والتقدير إلى زوجتي وأبنائي العشرة الذين أخذت من حقوقهم علي في الإشراف والتربية لتفرغي للدراسة والبحث اليومي بعد العمل الشاق من سفر وتواجد في المكتبات العامة والخاصة.

والله ولي التوفيق



فهرس المصطلحات



سكة حديد  
مجرى مائي دائم  
مجرى مائي غير دائم  
نقطة ارتفاع  
قاع ملحي  
قاع طيني

عاصمة  
مدينة  
حدود دولية  
خط هذنة  
حد اداري  
طريق رئيسي

مقياس الرسم

مقياس الرسم

## الموقع الجغرافي للأردن وفلسطين

يمتد الاردن بين خطي طول  $34.52^{\circ}$  و  $39.12^{\circ}$  شرقاً وبين دائرتي عرض  $29.17^{\circ}$  و  $33.23^{\circ}$  شمالاً أي فيما يقرب من اربع درجات طولية وأربع درجات عرضية.

ويتميز هذا الموقع كونه يقع بين بيئتين مختلفتين، البيئة الصحراوية وبيئة البحر المتوسط، كما يعد جزءاً من الأرض التي نزلت فيها الديانات السماوية الثلاث<sup>(1)</sup>.

تبلغ مساحته  $89.5444 \text{ كم}^2$  وترتيبها 105 بين دول العالم البالغة 170 دولة<sup>(2)</sup> وعدد السكان 3.000.000 بموجب تقدير عام 1989 وترتيبها 102 بين دول العالم من حيث تعداد السكان عام 1986، وعاصمته عمان. اما عملته النقدية فهي الدينار الاردني ويبلغ الدخل القومي للفرد 1710 دولار سنوياً عام 1982<sup>(3)</sup>.

وأما فلسطين فمساحتها  $20.770 \text{ كم}^2$  المتنوعة من سهول ساحلية ومرتفعات غربية وشرقية واغوار منخفضة وترتيبها 131 بنسبة للمساحة، وعاصمتها القدس، وعدد سكانها حسب تقدير 1986م مايزيد عن اربعة ملايين نسمة (4.489.000)، وترتيبها بين الدول 95 بموجب تقدير عام 1986 والدخل القومي للفرد 5360 دولار سنوياً<sup>(4)</sup> وعملته النقدية كانت الجنيه الفلسطيني ثم الدينار الاردني في عصرنا الحاضر.

ومن القاء نظرة على خريطة جنوب بلاد الشام نجزم القول بأن فلسطين والاردن وحدة جغرافية وبشرية متكاملة لايمكن تجزئتها.

وبالنسبة لمواطني الأصلي شرقي الاردن فإنه يتجاوز في اهميته وفي مغزاه الجغرافي نطاق رقعته الارضية البالغة تسعين ألف كيلو متر مربع وسكانه الرايين على أربعة ملايين ونصف اليوم. فهو بحكم موقع متوسط بين أقطار عربية يشكل مزيجاً من عناصر الجغرافية الطبيعية والبشرية لمجال أرضي أوسع، يمتد عبر شمال شبه الجزيرة العربية على ملتقى

(1) د. حابس سمّاري: السياحة والاستجمام في الأردن، عمان 1415هـ، 1994م، ص8.

(2) الاطلس المدرسي الاردني - المركز الجغرافي الملكي الاردني، وزارة التربية والتعليم، ط1، 1409هـ - 1989م، ص100.

(3) ن م، ص88.

(4) ن م ن ص.

الصحراء بالاستبس بعالم البحر المتوسط ليضم بين جناحيه طابع البداوة الاصيل في الجنوب والشرق والشمال الشرقي، وأسلوب الاستقرار العريق في الشمال والغرب، وينعكس هذا على كل انتماءات الاردن الذي يبدو كبضعة من سورية وتماثل فلسطين، وكأنه امتداد للعراق والسعودية حيث نرى استقامة حدوده البرية مع شقيقاته العربية.

أما موارده الطبيعية فهي قليلة لكبر مساحة الصحراء المتمثلة في بادية الشام في أقصى الشرق والصحراء المدارية في الغور كما يمتاز بتنوع هضابه وجباله الحرجية في عجلون وبيناته النهرية الفيضية حول نهر الاردن الذي أكسبه لمحة طبيعية من أرض النيل والرافدين، بالإضافة لواحاته في الأزرق شرقاً الممتدة للجوف "الداخلية" بشمال المملكة العربية السعودية.

أما سكانه على قلتهم فتجسيد حقيقي لخصائص الامة العربية ومشاكلها، من نزوع البدو الى التوطن، وهجرة الريفيين للمدن ولأجنيين في مخيمات، بالإضافة لهجرة نحو الشرق (هجرة العقول باتجاه الخليج العربي) بحثاً عن الرزق لكثرة الطاقات البشرية المتعلمة المتخرجة من جامعاتها الرسمية والاهلية التي نافت الآن عن خمس عشرة جامعة.

جدول الرقعة والحدود بالكيلو متر المربع.

الضفة الشرقية	الضفة الغربية	البحر الميت	المجموع
88000	5200	950	94150

الحدود بالكيلو متر

السعودية	العراق	سوريا	نهر الأردن	البحر الميت	وادي عربة	خليج العرب	المجموع
726	133	455	100	90	190	30	1724

-تم حساب الاطوال والمساحات من الخارطة الطبغرافية للمملكة الاردنية الهاشمية الصادرة

عن مديرية المساحة العسكرية الاردنية عام 1978م.

بمقياس 1:250.000.

ونقلت هذه الجداول من كتاب جغرافية الاردن للدكتور صلاح الدين بحيري -قسم

الجغرافية-الجامعة الاردنية- مكتبة الجامع الحسيني-عمان 1973م.



كان الباحث مدركاً لوعورة الطريق لطول المدة الزمنية للبحث والتي زادت عن قرنين من الزمن.

كما توقع الباحث أنه سيجد صعوبات جمة عندما يتصدى لدراسة جميع الجوانب الحضارية والإدارية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية.

لقد كانت كل الأمور في تقدير الباحث، ومع ذلك فقد أقدم على اختيار البحث وقد وافق الأستاذ الدكتور هشام جعبيط أستاذ تاريخ العصور الوسطى في جامعة تونس الأولى على هذا الموضوع وتلمست منه التشجيع والإرشاد والتوجيه المناسب بينما انتقدت الدكتورة منيرة شابوطو هذا البحث لطول المدة الزمنية للبحث وتشعيب جوانبه وكانت ترى اختيار جانب حضاري فقط في هذه الفترة الزمنية ولكن إنسانيتها وشفقتها على الباحث بعد إكمال بحث رأت أن لا تعيد الباحث من درجة الصفر رافة به وتقديراً لجهوده الطويلة في البحث ومراعاة لكبر سنه. وقد حاول الباحث أن يسلك السبيل العلمي السليم بقدر الإمكان مستهدفاً الصدق والحقيقة والدقة في التعبير لإظهار الصورة الحضارية لجنوب بلاد الشام مستمدة كما تقدمه المصادر في معلومات متوخياً إبراز الحقيقة العلمية بصرف النظر عن كيفية تقبل الناس لها.

فبدأ الباحث السعي والجد في البحث في بطون الكتب التاريخية والجغرافية والأدبية انطلاقاً من المنهج الذي اتبعه الباحث وهو دراسة التاريخ الحضاري لجنوب بلاد الشام زمن الأيوبيين ودولة المماليك الأولى إدارياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً بعد النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي والتي ذكرت مآثر هذا العصر وما تخلد آثارهم في بطونها.

وأما الجوانب التاريخية في هذه الدراسة المتواضعة فقد قمت بكتابة التعليقات عليها والإشارة إلى الكتب التي زخرت بها مصادر ومراجع ما كان منها أحداثاً وما كان منها أعلاماً من ملوك ووزراء وعلماء وأسماء مدن ونحوها.

وقد اشتمل البحث على خمسة فصول ومقدمة وخاتمة فضلاً عن قائمة المصادر والمراجع والملاحق.

وأما الفصل الأول وهو بعنوان "عروبة المنطقة وأهميتها الحضارية" :

فقد تحدثت فيه عن الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير، ودور القبائل العربية في الأردن وفلسطين أثناء الحروب الصليبية والمغولية.

وقسمت الفصل الثاني وهو بعنوان "النظام الإداري في جنوب بلاد الشام، فلسطين والأردن" إلى:

- لمحة إدارية "أصل التسمية وفضائل الشام".
- التقسيم الجغرافي لبلاد الشام وحدوده الجغرافية.
- التقسيم الإداري الأيوبي في جنوب بلاد الشام. {567-648/ 1170-1250}
- ويشمل أ - الجهاز الإداري زمن الصليبيين.
- ب - السياسة الأيوبية الداخلية.
- ج - الإدارة أيوبية في شرقي الأردن.
- د - الجيش الأيوبي.
- هـ - السياسة الأيوبية الخارجية.
- النظام الإداري المملوكي في جنوبي بلاد الشام.
- ويشمل:
- أ- التقسيمات الإدارية.
- ب - الجهاز الإداري في الدولة المملوكية.
- ج - أساليب الحكم المملوكي ويشمل:
- السياسة الداخلية والخارجية.

وكان الفصل الثالث: بعنوان "الحياة الاقتصادية".

مشتماً على:

- النظام الاقطاعي الصليبي والأيوبي والمملوكي.

- الحياة الزراعية في فلسطين والأردن.

أ- الزراعة الأيوبية.

ب- الزراعة المملوكية.

- الصناعات في جنوبي بلاد الشام القائمة على الانتاج الزراعي والحيواني والثروة

المعدنية.

- التجارة الداخلية والخارجية.

- النقود.

- النظام المالي الأيوبي والمملوكي.

وأما الفصل الرابع فكان بعنوان "الحياة الاجتماعية" وأشتمل على الأحوال

السكانية:

- الطبقات الاجتماعية.

- الحياة الاجتماعية لأهل الذمة.

- اللباس.

- العادات والتقاليد.

وكان الفصل الخامس بعنوان "الحياة الفكرية" مشتماً على:

- الحياة الدينية.

- الحياة الأدبية.

- الحياة العلمية.



وقد أوضح الباحث أثر الحياة الأدبية في الحياة العلمية والاجتماعية إذ اتخذت الدولة الأيوبية والمملوكية لوناً تركياً وعربياً مما أحدث تغييراً في الحياة الاجتماعية وسبب الكثير من المتاعب وشجع العديد من العصبية على الظهور، ووسّع نواحي الثقافة ونوع تركيب المجتمع وظهرت عيوب ونتائج لم تكن مألوفة في المجتمع العربي الأصيل وإنما هي صدق لجانب منحرف من الخلق الفارسي والتركي ويرى الباحث أنه "إذا كانت الحياة السياسية تصنع الإطار العام لتصور العصر فإن الحياة الاجتماعية تصور البيئة التي عاش فيها الشعراء والعلماء والبيئة الفكرية والأدبية التي تعوض النقص في ذكر الحوادث التاريخية في ذلك العصر.

أما الخاتمة فقد اشتملت على نتائج الدراسة الحضارية وتحليل للدوافع والمعوقات الحضارية في عصر الأيوبيين والمماليك بما فيها من سلبيات وإيجابيات.

واختتمت البحث بقائمة المصادر والمراجع والملاحق من خرائط ورسوم بيانية وقائمة سلاطين الأيوبيين والمماليك البحرية وغيرها.

## تحليل مصادر البحث الأساسية

لقد كانت منهجيتي في البحث إتباع المنهج التحليلي والمنهج المقارن وحرصت على التعمق في الدراسة مع التزام الأمانة العلمية في تناول وعرض المادة التاريخية فكان اعتمادي على المصادر الأساسية الأصلية للمؤرخين والكتّاب الذين عاصروا فترة البحث الزمنية والرجوع أحياناً للمصادر الثانوية للمقارنة بين وجهة نظر هذه المصادر والمراجع ليكون بحثي أقرب إلى الواقع والصحة.

فاعتمدت في بحثي على مجموعة من المصادر المختلفة كالمخطوطات وكتب التاريخ العام وتاريخ الأسرتين الأيوبية والمملوكية وتاريخ بعض المدن العربية كبيت المقدس وعكا والكرك وغيرها وكتباً أخرى من التراجم كوفيات الأعيان لأبن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن الفقطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وخريدة القصر للأصفهاني والأعلام لخير الدين الزركلي، وأعلام النساء لكحالة وغيرها وأرى أنه من الضروري استعراض وتحليل المصادر الأصلية التي كان بعضها معاصراً للفترة موضوع الدراسة وبعضها متقدماً أو متأخراً نسبياً، لكنها بمجموعها شكلت الأساس التي قامت عليه هذه الدراسة وسأقوم بعرض وتحليل لبعض المصادر الأساسية التي رتبته بحسب أهميتها للبحث ولعل من الإنصاف أن أبدأ بالمؤرخ الأديب عماد الدين الإصفهاني، أبو عبد الله محمد بن صفى الدين محمد بن حامد المتوفي عام 597هـ/1200م المولود بأصفهان عام 519هـ/1125م<sup>(1)</sup>. وتلقاه بالمدرسة النظامية في بغداد وتخرج منها فقيهاً شافعي المذهب، اتصل بخدمة الوزير ابن هبيرة زمن المسترشد بالله ثم رحل إلى دمشق بعد وفاته عام

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء، ج18، ص11، وابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج4، ص332، وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص147، وأبو شامة: ذيل الروضتين، ص27 وابن شاكر الكتبي: الوافي بالوفيات، ج1، ص133، والسبكي: طبقات الشافعية، ج6، ص176.

552هـ/1156م، واتصل بنور الدين وصلاح الدين الأيوبي<sup>(1)</sup>. ويعتبر هذا المؤرخ من أبرز كتاب ومؤرخي عصر صلاح الدين ومن أكثرهم صحة له فقد أحاطه بثقافة عصره ومارس عدة وظائف في التدريس وديوان الإنشاء في الدولتين النورية والصلاحية<sup>(2)</sup>.

وقد وصفه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين بقوله: "العماد كالزناد الوقاد"<sup>(3)</sup>.

وقد صنف أكثر من عشرين كتاباً في التاريخ والشعر أهمها: "البرق الشامي" والفتح القسي في الفتح القدسي" وخريدة القصر وجريدة العصر"<sup>(4)</sup>. التي أفادتني قصائدها في معرفة الحركة الأدبية التي تزعمها الشعراء لدفع الناس إلى تحرير القدس.

وكتاب "البرق الشامي" سبع مجلدات تحدث فيه عن نفسه ورحلته من العراق إلى الشام وخدمته السلطانين نور الدين وصلاح الدين.

وسبب تسميته بالبرق لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطبيعتها وسرعة انقضائها<sup>(5)</sup> وختمه عند وفاة صلاح الدين. وهكذا يكون قد ضمنه أحداث ثمان وعشرين سنة، وهي فترة التحاقه بديواني نور الدين وصلاح الدين هذا وقد لازم صلاح الدين في حطين وفتح الساحل الشامي "السوري والفلسطيني" وكتب كتب المستأمنين الصليبيين وكتب البشائر إلى الأقليم بالنصر<sup>(6)</sup> ومن الجدير بالملاحظة أنه لا يوجد من السبع مجلدات سوى الجزء الثالث الموجود

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص30-31، حيث ولاه نور الدين التدريس في المدرسة التي أنشأها في باب الفرج بدمشق وأطلق عليها: المدرسة العمادية" وذكر مؤلفاته: الجريدة والفتح القسي والبرق الشامي؛ والصفدي: الوافي بالوفيات: باعتناء هلمون بيتر، طبعة فسالن، المانيا 1961، ج1، ص139.

(2) أبو شامة: ذيل الروضتين، ص27. والسيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، ص26.

(3) ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير/ ج9، ص64، بغداد، 1934.

(4) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في عصر الامارات، ج5، ص561، 322. وقد وصف الخريدة بـ"دائرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي" حتى عام 570هـ/1174م.

(5) سنا البرق الشامي" اختصار البنداري، تحقيق دكتور: رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م، ص52: وقد قام بهذا الإختصار بناءً على رغبة الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق. انظر ن. م. ص49. وتكلم عن الأحداث ما بين 563-589هـ.

(6) انظر الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمود صبح، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة، 1965، ص132.

الآن في مكتبة بودلين بجامعة اكسفورد رقم 11 Bruce والجزء الخامس تحت رقم Marsh 425<sup>(1)</sup>.

لذا فقد اعتمدت على مادة هذا المصدر فيما نقله إلينا أبو شامة في الروضتين بالإضافة إلى المختصر الذي ألفه البنداري المتوفي (643هـ) بأسم: "سنا الرق الشامي" الذي حققه الدكتور رمضان شنشني بيروت 1971م.

وقد اشتمل "سنا البرق الشامي" على الكثير من روايات "البرق الشامي" وأفادني هذا المختصر بإلغاء الأضواء على كثير من الجوانب الحضارية لعصر صلاح الدين بالإضافة للعلاقة السياسية بين صلاح الدين ونور الدين أما أسلوبه في الكتابة فقد استخدم في كتابته صيغة الجمع، فكان يقول: "وأشرفنا على جبله" و "رحلنا ظهر يوم كذا"<sup>(2)</sup>.

وقد علل المستشرق "جب" أسباب هذه الصيغة بقوله: "لا تجوز نسبة هذه إلى الغرور والإعتداد بالنفس بل إلى عادته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين"<sup>(3)</sup>. وأما كتابه الثالث الذي اعتمدت عليه فهو: "الفتح القسي في الفتح القدسي" والذي شرع بتأليفه بعد وفاة صلاح الدين عام 589هـ/1193م.

وشرح فيه أعمال صلاح الدين البطولية في فتح القدس من 583-589هـ/1187-1192م ومعرفة رسائل الصليبيين التي استخدموها ضد المسلمين كسلاح الجنس إلى جانب الأسلحة المادية.

وهذا الكتاب غني بالتراجم والإقطاعات والمصطلحات والأوقاف والأسلحة<sup>(4)</sup>. ويلاحظ على كتاباته التاريخية السجع والمحسنات اللغوية من تورية وجناس وطباق، والاقتباس من أي الذكر الحكيم، وتضمين الشعر، مما جعل هذا كله يتعب القارئ في استخلاص الحقائق التاريخية بسهولة، مما جعل بعض المؤرخين القدامى والحديثين ينتقدون

(1) Cohen & Lewes, Population and revenue in the towns of Palestine, U.S.A. 1978, p.55.

(2) د. سعادوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة،

1962، ص 23.

(3) انظر جب: صلاح الدين الأيوبي، تحرير يوسف إيش، بيروت، 1972.

(4) تحقيق وتقديم، محمد محمود صبح، القاهرة، 1965.

أسلوبه الخطابي أمثال أبي شامة<sup>(1)</sup> ولين بول<sup>(2)</sup> وقد سمي كتابه الفتح القسي: باعتبار انتصار المسلمين في حطين: هجرة الإسلام الثانية إلى بيت المقدس وذلك باقتراح زميله القاضي الفاضل<sup>(3)</sup>، كما سلك نظام الحوليات كمذكرات يومية يرويها شاهد عيان، ولوحظ مبالغة في ذكر الأرقام<sup>(4)</sup>.

**والاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة لابن شداد والمتوفي 684هـ/1286م**  
وهو عز الدين أبي عبدالله محمد بن ابراهيم بن شداد الحلبي<sup>(5)</sup> المولود في حلب عام 613هـ/1217م والمتوفي في مصر وهو في خدمة الظاهر بيبرس ودفن فيها بسفح جبل المقطم.

وهذا الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء اعتمدت منها على الجزء الثاني الخاص بتاريخ دمشق والاجناد الثلاثة الأخرى (لبنان والأردن وفلسطين) والذي نشره الدكتور سامي الدهان 1963م، وقد أشرف المعهد الفرنسي على طباعتها في المطبعة الكاثوليكية والكتاب كله حققه يحيى زكريا عبارة - منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومية - دمشق، 1978.

(1) أبو شامة: الروضتين ، ج1، ق1 ص8.

(2) جب: صلاح الدين الأيوبي، ص72، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص133.

(3) الفتح القسي، ص49-57، الصفدي. ن م، ج1، ص140.

(4) ابن الأثير: الكامل، طبعة دار صادر، بيروت، 1966، ج11، ص429.

(5) هناك التباس بين بهاء الدين بن شداد الحلبي مؤرخ صلاح الدين الأيوبي المولود في الموصل والذي توفي في حلب عام 632هـ/1234م. مؤلف كتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " والذي عمل قاضياً لحلب ومشرفاً على أوقافها: انظر ابن شداد: ن م، المقدمة ص4، وقد أخذت منه في التعرف على علاقة الأيوبيين زمن صلاح الدين مع الصليبيين في الشام وخاصة في فتح القدس وصلاح الرملة وعلاقته مع الاباطرة البيزنطية في القسطنطينية، انظر ابن رشد : ن م ص133، ذكر في إحدى الوثائق التي أرسلها صلاح الدين إلى القسطنطينية كيفية إقامة الخطبة بالمسجد الإسلامي فيها وترجع أهميته إلى أنه كان سماعاً أو مشاهداً أو مشاركاً.

د. أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص265، والعزّي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1 ص11.

وترجع أهميته لأن ابن شداد غاصر أواخر الدولة الأيوبية والظاهر بيبرس ويعتبر هذا الكتاب شاملاً للحياة الإقتصادية من تجارة وزراعة وأسواق واقطاعات<sup>(1)</sup>.  
إذ عمل وزيراً للسلطان الظاهر بيبرس وأهداه هذا الكتاب، فكان كاتباً بليغاً ووزيراً سياسياً وشاهد عيان حيث دون معلوماته عن كل بلد مرّ به مضيفاً لذلك ما كتب عن هذا البلد في المصادر المكتوبة فكان هذا الكتاب أوسع ما كتبه العرب في تاريخ الشام وكأنه موسوعة موجزة في التاريخ والجغرافيا والأدب والفن<sup>(2)</sup> لأنه أخذ عمّن سبقه مثل ابن عساكر في تاريخ دمشق وقرأ كتب المسالك والممالك وإن لم يصرّح بأكثر من ذكر أسمائها وأضاف عليها ليخرج كتاباً في الشام كله<sup>(3)</sup> مرتباً ذلك ترتيباً زمنياً بالإضافة للمعلومات الجغرافية عن مدن الأردن وفلسطين والمقدسات فيها لجميع الطوائف الدينية ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية منذ القرن الخامس الهجري كما ذكر<sup>(4)</sup>.

ثقافته: تتقف بعلوم القرآن، والحديث التي سادت القرن السابع الهجري بالإضافة للغة العربية وعلومها، وقد توسع في دراساته التاريخية وإطلاعه على مؤلفات كبار المؤرخين كالطبري وابن الأثير وابن العديم وابن عساكر وكتب المذكرات ككتاب الاعتبار وغيره، واطلع على دواوين الشعراء فحفظ لنا أروع ما جاءت به قرائح الشعراء.

أسلوبه: كان أسلوبه مترسلاً كغيره لسيادة مذهب الترسل في القرنين الخامس والسادس الهجريين، فاعتنى بالصناعة اللفظية والزخرفية القولية، أكثر من استخدام البديع والموازنة والسجع والازدواج، إذا استخدم الجمل القصيرة ذات الفواصل، كما تأثر بأسلوب القاضي الفاضل.

(1) ن م، ط1، 1306هـ/1962م.

(2) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، ج2، ق1، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1956.

(3) ن م، المقدمة ص 10-11، 20-22، وسيشار له فيما بعد: ابن شداد: الاعلاق الخطيرة.

(4) ن م، ج1، ص37.

مدح المؤرخين له: لقد مدحه ابن كثير بقوله: "كان فاضلاً مشهوراً.....وكان معنياً بالتاريخ"(1).

ومدحه اليافعي بقوله: "الرئيس المنشيء البليغ"(2).

وأما صلاح الصفدي فسمّاه: "الصدر المنشيء الجلبي، الأديب الفاضل"(3).

بينما قال عنه ابن الفرات: "الصاحب" كان الوزير المشير عز الدين فاضلاً ديناً مؤرخاً رئيساً، معظماً عند الأمراء الأكابر محبوباً إليهم"(4).

كما ذكره المستشرق الروسي كراتشكو فسكي: "بأن أصله من حلب وأنه شغل منذ شبابه الأول مناصب إدارية لدى الأيوبيين وكان خبيراً في الشؤون المالية، الأمر الذي ينعكس بشدة في كتابه وأخذ طرفاً في النشاط الدبلوماسي لعصره فشارك في النضال العسكري ضد الزحف المغولي..... ثم هاجر للقاهرة، بعد استيلاء المغول على حلب عام 658هـ/1260م. وهناك تمتع برعاية الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وتوفي في القاهرة.

وله تراجم في الأعلام(5) ومعجم المؤلفين(6) ودائرة المعارف الإسلامية(7) ويرى البعض أنه ظلم نفسه لأنه لم يؤرخ لنفسه أسوةً بسابقيه كالحموي ومعاصره ابن العديم وغيرهما، فقصر في حق نفسه، وبقيت جوانب كثيرة من حياته مطموسة، مثل شيوخه الذين تتلمذ عليهم.

وأما كتاب المقرئزي "السلوك لمعرفة دول الملوك: لتقي الدين أحمد بن علي المقرئزي المولود عام 766هـ/1364م، المتوفي عام 845هـ/1441م، شيخ المؤرخين المصريين وصاحب مدرسة تاريخية: سمّتها العامة: "تنوع مادة الكتابة في التاريخ السياسي والاقتصادي وخاصة الدولية الأيوبية والمملوكية حتى عصره متبعاً نظام الحوليات، إذ دون

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص305.

(2) اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص201.

(3) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج4، ص189-190.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج8، ص23.

(5) الزركلي: الاعلام، ج7، ص173.

(6) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج10، ص299.

(7) دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص326.

حوادث كل عام بفصل مستقل تحت عنوان باسم ذلك، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها<sup>(1)</sup>.

كما اشتملت كتابته بالموضوعية والواقعية وخاصة أحداث العصر المملوكي التي كتبها على شكل مذكرات يومية، ونقل عن مؤرخين ضاعت آثارهم وكانت موجودة في عصره. وقد استفدت منه كثيراً في معرفة الكثير من المعلومات الإدارية وأنواع الوظائف المدنية والدينية والعلمية والعسكرية والأوضاع الاقتصادية وعلاقة نواب الشام بالسلطين والعادات الاجتماعية وأخبار أهل الذمة ودورهم في إدارة الدولة<sup>(2)</sup> ومعرفة العلاقات الخارجية الأيوبية أو المملوكية مع الدول الصليبية وبيزنطية وأثر ذلك على النصارى داخل الدولة الإسلامية<sup>(3)</sup>.

وقد اعتمدت على القسم الثاني/ الجزء الثالث ص 23 الذي حققه وقدمه ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى/ كلية الآداب، جامعة القاهرة، مطبعة دار الكتب 1389هـ/ 1970م.

أما الجزء الأول والثاني فقد حقق كل منها في ثلاثة أقسام سنة 1958 المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة المتوفي عام 1968م.

---

(1) زيادة: المؤرخون في مصر، ص 94.

والمقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق محمد مصطفى زيادة: وسعيد عاشور، 4 أجزاء كل جزء ثلاثة أقسام.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 3، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1970م، ص 512.

ذكر فيه: "إصدار السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 700هـ/ 1300م. بإلزام أهل الذمة بالقيود لتطبيقها في جميع أنحاء البلاد المصرية والشامية ماعدا الكرك والشوبك لأن غالبية سكانها من النصارى.

(3) المقريزي: ن م، ج 3، ق 1، ص 106، يذكر فيه عن الفرنج: "... وانضم اليهم من كان بالثغر من النصارى ودلّوهم على دور الأغنياء فأخذوا ما فيها": حوادث عام 767هـ/ 1365م، أثناء حملة لوزنجان على الاسكندرية.



أما كتابه "الخطط المقرزية" المعروف باسم المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار فهو ج 1: 498 صفحة وج 2: 521 صفحة من الحجم الكبير حيث أرّخ فيه لمدينة القاهرة على مر العصور، وذكر معالمها بالإضافة لأحوال أهل الذمة<sup>(1)</sup> لتوليّه منصب المحتسب في مصر. واستفدت منه في معرفة رتب الأمراء المماليك وإقطاعاتهم بحسب رتبهم العسكرية ومرتببات الأجناد، وذكر بالتفصيل عن النظم الحضارية في عهد صلاح الدين والضرائب التي ألغاه، ودور العلم والخوانق التي أنشأها.

وقد ألف هذا الكتاب بعد زيارته مكاتب دمشق والقاهرة ومكة، وقد إعتد المقرزي على كتاب المؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدي حيث نقل مسوداته دون الإشارة لذلك كما قال السخاوي<sup>(2)</sup>. ويلاحظ إشادة المستشرقين الغربيين بالمقرزي، واعتبروه ثقة واختاروا الأجزاء الأولى من السلوك وترجموها إلى لغاتهم يقول عنها وليم موير<sup>(3)</sup>: "وكتاباتة الكثيرة لها مكانتها العظيمة من التقدير، وتمتاز سجلات حوادث الأزمنة السابقة بأنها نتيجة بحث مجتهد وتدقيق تاريخي، أما حوادث زمنه فكان فيها شاهد عيان عدل فذكرها غير متجهز".

ويعتبره المؤرخ المعاصر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذاً له<sup>(4)</sup>. والحق أن كتاب السلوك يضم أخباراً هامة عن الأيوبيين أيضاً قل أن أوردها مؤرخ معاصر لهذه الأسرة.

---

(1) محمد مصطفى زيادة: السلوك للمقرزي "مجلة الرسالة الإنسانية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مجلد 2، ج 9، 1964، ص 512-513 وقال عنه "لكن المقرزي عاد واعترف بأنه استعان بمسودات الأوحدي ومصادرهما من كتبه المسماة: "دور العسود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة".

(2) ن م، ص 513.

كما ذكر زيادة: قول السخاوي الساخر: "إنه كتاب مفيد لكون المقرزي ظفر بمسودة الأوحدي فأخذها وزاد عليها زوائد غير طائفة".

(3) وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، القاهرة، 1924م، ص 7.

(4) محمد مصطفى زيادة: السلوك لمعرفة دول المماليك، القاهرة، 1958، ج 3، ق 3.

ومن المخطوطات الهامة التي قمت بتحليلها "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمحي الدين بن عبد الظاهر السعدي المصري (ت 692هـ/1292م)<sup>(1)</sup>.

ويعتبر هذا الكتاب حلقة مهمة في سلسلة التاريخ الإسلامي والعربي، فهو مخطوط في استانبول تحت رقم 4367 وعدد ورقاتها 194 وفي كل ورقة صفحتان وفي كل صفحة 17 سطراً حققها عبد العزيز الخويطر واستعاض عن الأجزاء المفقودة منها بمخطوطة المتحف البريطاني<sup>(2)</sup> المسجلة تحت رقم 239331 ونال بها شهادة الدكتوراه عام 1960م من جامعة لندن وكاتب هذه المخطوطة موثوق به لأنه عمل في ديوان الإنشاء في عهد قطز، واستمر في عهد بيبرس ونال ثقته، ورافقه في حملته إلى الشام ضد المغول<sup>(3)</sup>. كما ترجع أهميتها بما حصل عليه المؤلف المعاصر للأحداث من الوثائق الرسمية التي كان بعضها من إنشائه وظيفياً فيما يتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية<sup>(4)</sup>.

فكانت مصادره شفهية من السلطان بيبرس<sup>(5)</sup> وشخصيات حكومية بارزة، ومصادر كتابته من المؤلفين السابقين لزمانه كالبلاذري في فتوح البلدان وابن الأثير في الكامل والسمعاني في تاريخه وابن حمدون في التذكرة وغيرهم.....

ويقول عبد العزيز الخويطر أنها كتبت زمن الظاهر بيبرس لاستعماله "كلمة نصره الله" حينما يتكلم عن بيبرس وكلمة "زيدت عظمته حين يتكلم عن ملك المغول بركة رئيس القبيلة الذهبية المعاصرة لبيبرس<sup>(6)</sup>.

---

(1) ابن عبد الظاهر/محي الدين السعدي المصري (ت 692هـ/1292م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1396هـ/1976) وسيشار له "ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر".

(2) ن.م، ص3.

(3) ابن عبد الظاهر، م س، ص9.

(4) ن.م، ص15.

(5) ن.م، ص21.

(6) ن.م، ص.

**اسلوبه:** ترتيب الحوادث حسب السنوات حتى مات ببيرس عام 676هـ دونها بذكر اليوم والشهر والوقت من النهار<sup>(1)</sup> وكان شاهد عيان للأحداث لحضوره مجالس السلطان وسماعه المناقشات.

ويبقى في نظرنا كونه كاتباً رسمياً للسلطان قد ينقص من صحة المعلومات تأثير السلطان عليه. وهو يكتب سيرته إذ ذكر "بأن الظاهر ببيرس قام بقتل قطز وحده" في حين يذكر شافع بن علي في المختصر: "أن الذي ضرب الضربة الأولى هو سلاح دار قطز ولم تكن قاتلة فأجهز عليه ببيرس"<sup>(2)</sup>.

ومن كتب الموسوعات الإسلامية التي اعتمدت عليها فكانت:

**كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب:** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد المعروف بالنويري، المتوفي سنة 733هـ/1333م.

وهو عبارة عن موسوعة كبيرة شملت كثيراً من المعارف الأدبية والتاريخية في العصر المملوكي المكونة من إحدى وثلاثين جزءاً طبع منها ثمانية عشر جزءاً، والباقية من 19-31 وهي القسم التاريخي، فما زالت مخطوطة.

وترجع أهميتها إلى عمل مؤلفها بنسخ الكتب، وتقلبه في عدة مناصب إدارية ومالية بالإضافة إلى ناظر الجيش في طرابلس وكتابة الانشاء 710هـ/1301م زمن السلطان الناصر محمد وناظر أملاكه. ثم انقطاعه وتفرغه للدراسة والمطالعة، حيث فكر أخيراً في تأليف هذه الموسوعة<sup>(3)</sup> وقد أخذت منه في الجزء الثامن عن الزراعة في بلاد الشام من حيث الحاصلات الزراعية والري وخراج الأرض الزراعية وطريقة مقاسمة الأرض عند الفلاحين.

---

(1) ن م، ص22.

(2) شافع بن علي، مختصر السيرة، ص9.

وللمزيد من المعرفة عن رواياته خوفاً ورهبة من السلطان انظر:

ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص202، وابن واصل: مفرج الكروب ج2، ص422. والنويري: نهاية الأرب ج29، ص2.

(3) عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1388هـ/1969م، ص62-63 (وسيشار له فيما بعد، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية).

كما احتوى كتابه على المعرفة اللازمة كطبقة الكتاب، وأشار إلى وجود السقاة والغلمان الملاح والجواري الحسان في مجالس الممالك، ونقل عنه ابن يغري بردي في النجوم الزاهرة، ولم يختلف عن ابن الفرات إلا في ترتيب الأحداث، أما المادة التاريخية فتكاد تكون متطابقة وقد مزج بين القضايا التاريخية والإدارية والجغرافية في إطار أدبي ممتع وطبع في 17 مجلداً بدار الكتب المصرية منذ 1348هـ/ 1930م.

كما يعتبر مصدراً موثقاً لأواخر الدولة الأيوبية ونهاية إمارة الكرك، لأنه حضر نص اليمين الذي خلفه بيبرس للمغيث عمر أمير الكرك ثم نكته باليمين وإصدار الأمر بقتله<sup>(1)</sup> وأنهت موسوعته عند أحداث سنة 730هـ .

وموسوعة: "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لشهاب الدين أحمد بن محي الدين بن فضل الله العمري المتوفي سنة 749هـ/ 1348م. (20 جزء، 43 مجلد)<sup>(2)</sup>.

يعتبر هذا المؤلف من كتاب الموسوعات، ومن مواليد دمشق، وقضاتها، ورئيساً لديوان الإنشاء فيها، وفي القاهرة<sup>(3)</sup> في العصر المملوكي وترجع أهمية الكتاب لكونه موسوعة سياسية واجتماعية وجغرافية وعلمية<sup>(4)</sup> ويعتبر مصدراً رئيسياً لتاريخ الشام ومصر في العصر المملوكي حيث اعتمد عليه القلقشندي في موسوعته صبح الأعشى، لغزارة مادته وتنوعها ونفاستها، ومازال معظم اجزائه مخطوطة، ولم يُنشر منها إلا الجزء الأول نشره الأستاذ أحمد زكي باشا عام 1924م.

واستفدت من الجزء الأول الباب السادس الخاص بمصر والشام، والذي حققه أيمن فؤاد سيد ودوريتا كرافولسكي، من حيث الحياة الاجتماعية والمحاصيل الزراعية في بلاد الشام

---

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 549 معارف عامة، جزء 27، ورقة 105.

(2) عنان: م.س، ص.

(3) كراتشكوفسكي، م.س، ج1، ص 410-411.

(4) الصفدي: خليل بن أبيك بن عبد الله، (ت 764هـ/ 1362م)، الوافي بالوفيات، ج2، تحقيق، محمد يوسف نجم، فيسبدان، فرانز تسكاينز، ط2، 1982، ص252، قال عنه: ما أعلم أن لأحد مثله .....

وكذلك الديارات النصرانية في بلاد الشام وحسن العلاقات بني المسلمين والنصارى، حيث ذكر استضافة الرهبان وإكرامهم له، واصفاً ذلك بشعره.

وكتابه: التعريف بالمصطلح الشريف فقد استفدت منه في عمل الدواوين وتحديد المناطق الجغرافية في بلاد الشام.

وموسوعة القلقشندي، أبو العباس أحمد المتوفي عام 821هـ/1418م.

بعنوان "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" الموسوعة الكبرى المولفة من أربعة عشر جزءاً والتي تعتبر سجلاً عظيماً لمختلف أنواع المعرفة السياسية والإقتصادية والاجتماعية والثقافية طوال العصور الوسطى<sup>(1)</sup>.

لقد برع المؤلف في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء كما عمل بنسخ الكتب<sup>(2)</sup> وتقلب في عدة وظائف مالية وإدارية وكتائباً في ديوان الإنشاء ثم رئيساً له عام 791هـ/1389م، فكان رئيساً لكتاب الدواوين وأعمال الإنشاء فجاء كتابه وافيًا. مما ساهم في اخراج موسوعته العلمية الشاملة لميادين التاريخ والأدب والاقتصاد والاجتماع الأسري وحفظ العديد من المعاهدات والمراسلات بين سلاطين الأيوبيين والمماليك مع الدول الأوروبية<sup>(3)</sup> وقد أخذت من هذه الموسوعة في معظم فصول هذه الدراسة بمعلوماته عن نيايات بلاد الشام وفي تفسير الكثير من المصطلحات والوظائف والرتب العسكرية وأوضاع البدو في عصر المماليك وقد أخذ معلوماته الجغرافية من

(1) احمد عزت عبد الكريم: ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، القاهرة، 1973، ص9.

(2) القلقشندي، "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" ج5، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، ص317، وانظر كراتشكوفسكي: إنماتوس يوليا نوفتس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، لجنة التأليف والترجمة، جامعة الدول العربية، القاهرة، ج1، ص401.

(3) القلقشندي، "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" ج5، شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، ج8، ص317، شرح وتعليق يوسف علي الطويل، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1987/378م، ص28، عنان، محمد عبدالله، مؤرخو مصر الإسلامية، م س، وسيشار له: القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة ط1، 388هـ/1969م. ص76-79، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# الفصل الأول

أولاً : لمحة عن الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير.  
ثانياً : عروبة المنطقة وأهميتها الحضارية.  
ثالثاً : دور القبائل العربية في الأردن وفلسطين أثناء الحروب  
الصلبية والمغولية.

## أولاً : لمحة عن الحالة السياسية في العصر العباسي الأخير

تمهيد:

لقد تميز العصر العباسي الأول بقوة الخلافة، عندما كانت الخلافة العباسية تملك القوة السياسية والعسكرية ورئاسة المسلمين الدينية والدينية، كما كان الخليفة العباسي يعين الولاة والسلطين الذين كانوا يعترفون بسيادة الدولة عليهم وتقديم الولاء للخلفاء، لذا لم يستطع أحد منهم تجاوز حقوق الخليفة.

أما في العصر العباسي الثاني، عندما دبَّ الضعف في كيان الخلافة الإسلامية لسيطرة الأتراك عليها، شق بعض الأمراء عصا الطاعة، نتيجة لظهور بوادر النزعات القومية والإقليمية والطائفية، فقامت الدول التركية الانفصالية عن الخلافة العباسية كالطولونية في مصر والشام والحجاز والأخشيدية والحمدانية العربية في شمال الشام، والفاطمية في شمال أفريقيا والذين اعتبروا أنفسهم خلفاء حقيقيين للنبي صلى الله عليه وسلم، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان عام 279/900م.

ومن الناحية الحضارية فقد امتد النشاط الفكري والسياسي الى المشرق حيث حصل امتزاج حضاري بين الثقافات الفارسية والهندية والسريانية والنبطية والرومية فبلغت الحياة العلمية أوجها، وأصبح العالم الاسلامي حافلاً بالمراكز الحضارية الكبرى في المشرق والمغرب على السواء، بالإضافة الى ازدهار الحالة الاقتصادية واستمرت الحالة السياسية للخلافة العباسية في تداعيها في العصر العباسي الأخير مما جعلها تفقد حقوقها الدينية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث أصبح الخليفة رئيساً روحياً في بغداد فقط بعد أن نازعه عليها المتغلبون والطامحون والمتشرون وراء دعوات باطنية إذ بدأوا يجهرن في الانفصال عن جسم الدولة العباسية، بعد أن أصبح الوزراء والقادة الكبار وأصحاب الدواوين منهم، أما السلطين والأمراء السنيين فقد احتفظوا بولائهم وطاعتهم لتلك السلطة كالزنكيين والأيوبيين وخاصة أيام الخليفة المستضيء بالله الذي كان يرسل لهم الخلع الثمينة في كل المناسبات، فكان غرضهم من تأييدهم للخلافة العباسية نابعاً من إيمانهم بقدسية الخلافة والحصول على تأييدها



الروحي والمعنوي عند المسلمين ليتمكنوا من الصمود أمام هجمات الصليبيين وبعض الأمراء المسلمين المعارضين لهم.

وهكذا أصبح الوضع السياسي والاقتصادي والديني في القرن الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر الميلادي معقداً للغاية نتيجة للقوى الحاكمة المختلفة والمتناقضة فيما بينها من أجل البقاء والسيطرة ناهيك عن المنازعات المذهبية والسياسية بين الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر والخلافة العباسية السنية في بغداد، والقوى المحلية الأخرى السنية كالسلاجقة والزنكيين والأيوبيين، ثم تحول الصراع في العصر العباسي الأخير بين الخلافة العباسية والسلاجقة سياسياً رغم مذهبهما السني حيث كانت الخلافة العباسية تتاضل من أجل الإبقاء على كيانها ضد السلاجقة الأتراك<sup>(1)</sup>، كما كانت تخوض بعد سنة 555هـ/1161م صراعاً عنيفاً للمحافظة على سلطانها وإعادة هيبتها المفقودة.

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحاً لصراع العباسيين، والفاطميين، والقبائل العربية المحلية، والأتراك السلاجقة "التركمان" والقادة الأتراك العسكريين، والخوارزميين وذلك نظراً لأهميتها السياسية والاقتصادية والدينية بالنسبة لهذه القوى، في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين<sup>(2)</sup> تنتهز الفرصة الملائمة لتوقع بينهم كي يخلو لها الجو لتأسيس ملكاً لها على انقاض هؤلاء وتم لهم ذلك، ومما يؤسف له فرحة الفاطميين بالانتصار الصليبي في الحملة الأولى شماتة بالعباسيين وقصر نظرهم السياسي، ثم ابتلي العالم الإسلامي بالهجوم المغولي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

(1) أنظر: أحمد شناق: رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، 1990.

(2) لقد كثرت التسميات لهذه الحروب ولمن اشترك فيها، فبعض المؤرخين العرب كابن تغري بردي مثلاً اسماهم الفرنجة: حيث أطلق اسم الفرنجة على كل محارب مسيحي غير عربي بينما أطلقها Emanuel Sivan اللاتيني على المسيحيين الغربيين لا على الروم. بينما ارتبط اسم الحروب الصليبية بشعار الصليب الذي رسموه باللون الأحمر على اكتافهم وسلاحهم وبالنسبة للمسيحيين فهي ذات مدلول ديني حديث أطلق على كل من يدين بالنصرانية سواء اشترك في الحروب ضد الشرق الإسلامي أم لم يشترك. بينما ذكرت المصادر الإسلامية كلمة النصراني كما ورد في القرآن الكريم الذي لم يرد فيه "المسيحيون". أنظر بالنسبة للتسميات: "ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص146، أبو شامة: الروضتين ج1، ص32. رانسيمان: المدينة البيزنطية، ص210، وعبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين في مصر، ص448.

هذا بالإضافة لوضع المسلمين المؤسف في الطرف الغربي للعالم الاسلامي في الأندلس عام 484هـ/1090م زمن ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين، فكانت جميع هذه الأحوال المساعدة آنذاك ملائمة لغزوات الصليبية ونجاحها فوجهوا ضربتهم الأولى لسوريا عام 490هـ/1096م، بينما كان أمراء المسلمين مختلفين متنازعين.

وهكذا نلاحظ أن هذا الضعف والانقسام واللامبالاة بالمصلحة العليا للإسلام والمسلمين، كان من العوامل الهامة في نجاح الصليبيين في شن حربهم على المسلمين مما مكنهم من تأسيس الإمارات اللاتينية في الرها وأنطاكية والقدس وطرابلس في بلاد الشام.

أما بالنسبة لدور الدولة السلجوقية في القرن السادس الهجري في بلاد الشام فقد كانت قوة عسكرية قادة جيشها من المماليك الأتراك "الأتابكة" لأنهم لم يعتمدوا على الأمراء في القيادات العليا وإمرة الأمراء فكانوا يستعينون بالضرورة بالأرقاء الذين تم شراؤهم لتربية أولاد السلاطين والأمراء الحكام، كما كان في معية السلاطين ممالك مجلوبون من القبجاق "من أنريجان" وكانوا يكافؤون على خدماتهم الهامة بالعتق وتولي المناصب الكبرى في القصر أو الجيش - وهذا مكنهم من الحلول محل ساداتهم حين ضعف سلاطين السلاجقة، وانقسمت دولهم إلى إمارات كثيرة بإدارة المماليك، كما عملوا نواباً للسلاطين السلاجقة الصغار الذين حولوا هذه النيابات إلى حكومات حقيقية كما حدث مع طغتكين مملوك تَتَش "أحد سلاجقة الروم" حينئذ كان أتابكاً لدقاق والذي أصبح طغتكين سلطاناً بعد وفاة دقاق، وكذلك عماد الدين زنكي مؤسس دولة الأتابكة في الموصل وحلب والذي كان مملوكاً للسلطان ملكشاه السلجوقي بخراسان وهكذا كانت الدولة السلجوقية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي باستثناء سلاجقة الروم - في يد هؤلاء القادة الذين شكلوا مجموعة مميزة من الدول الصغيرة.

ومما يلاحظ على دور السلاجقة الأتراك تطلعهم لحكم بلاد الشام ومصر بحجة توحيد العالم الاسلامي تحت السيادة العباسية، وبالنسبة لتطلعهم لبلاد الشام فقد استولى القائد السلجوقي اتسر أيام ألب أرسلان على الرملة ثم القدس 463هـ/1071م من الفاطميين<sup>(1)</sup> وأعلن فيها

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص152، 169، وابن الجوزي: المنتظم، ج8، ص284، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص87.

الخطبة للعباسيين والسلاجقة دون معارضة أو إراقة دماء واتخذ القدس قاعدة انطلاق للسيطرة على جنوب بلاد الشام فاستولى على طبرية وما يجاورها عدا عسقلان، حيث كان مهمهم الاستيلاء على دمشق وعكا الساحلية كمركزين تجاريين هامين في التجارة البرية والبحرية.

ثم تنبه اتسز لأهمية شرقي الأردن للقضاء على قوة القبائل العربية هناك، أو استمالتهم اليه ولموقع شرقي الأردن الهام في السيطرة على الطرق التجارية بين مصر والشام وطرق الحجاج الى بيت الله الحرام، فقام اتسز بالهجوم على حصن عمّان "مركز البلقاء"<sup>(1)</sup> واستولى عليه<sup>(2)</sup>.

ثم تحرك جنوباً فاحتل جنوبي الأردن، وعاد مرة أخرى لفلسطين لاحتلال مدينة الرملة "قصة فلسطين، فوجدها خراباً نتيجة للزلزال عام 460هـ/1068م<sup>(3)</sup> فأعاد تعميرها، وجلب لها الفلاحين وزرعوها بالزيتون، ثم تطلع لتأمين مراكز استراتيجية في شمالي فلسطين نحو عكا وصيدا اللتين كانتا خاضعتين لبدر الجمالي الذي استمال القبائل العربية هناك من بني كلب لذلك فشل السلاجقة في احتلالها<sup>(4)</sup>.

وهكذا نجح السلاجقة بالاستيلاء على شرقي الأردن ومعظم فلسطين وأخبر اتسز الخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي في بغداد ملكشاه، وأرسل للخليفة مبالغ مالية مع الهدايا الثمينة، بلغت قيمتها ثلاثين ألف دينار<sup>(5)</sup> رمزاً لتبعية السلاجقة للخلافة العباسية.

ولم ييأس اتسز في محاولة غزوه لعكا واحتلالها حيث نجح في الاستيلاء عليها عام 476هـ/1078م كما استطاع بعد محاولات عديدة احتلال دمشق عام 468هـ/1071م فأصبح

(1) ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص15.

(2) سبط ابن الجوزي: وآة الزمان، ص153.

(3) ياقوت الحموي، ن م، ج4، ط69، سبط بن الجوزي: ن س، ص155، وابن الجوزي: م س، ج8، ص248.

(4) سبط ابن لجوزي: ن م، ص1403، وابن الأثير: الكامل، ج15، ص60.

(5) سبط ابن الجوزي: ن م، ص197.

سيد البلاد دون منازع وخطب للخليفة المقتدي بأمر الله وملكشاه<sup>(1)</sup> وتلقب بالملك العظيم وسماه المؤرخون صاحب الشام<sup>(2)</sup>.

ولكن هذا التوسع السلجوقي أدى الى صراع مستمر بين الشام ومصر مما أضعف هذه المنطقة اقتصادياً وعسكرياً الأمر الذي سهل احتلال الصليبية لها في ظل الفرقة والتجزئة لهذا الصراع السلجوقي الفاطمي كما أحدث هذا الصراع تغيرات اجتماعية وفكرية في جنوب بلاد الشام بعد دخول عناصر كردية وتركمانية وتركية، كما انتشر فيها نظام الإقطاع العسكري، وقيام أتابكيات متعددة ومتصارعة على حساب الفاطميين والقوى العربية المحلية التي انتهى وجودها على أيدي السلاجقة والصليبيين.

---

(1) ابن الأثير، م س، ج 15، ص 68، وابن تغري بردي : م س، ج 5، ص 101-102، وابن أبي الدم: التاريخ

المظفرى، ورقة 147 "مخطوط 1".

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 20، ص 46-48.

لذا نلاحظ فشل محاولات الوحدة بين الشام ومصر ضد الخطر الصليبي الداهم على الجميع، حتى قيض الله لهم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي اللذان نجحا في بناء الوحدة الشاملة بين مصر والشام والجزيرة الفراتية، وذلك لقطع الطريق على المحاولات الصليبية في احتلال مصر أيام ضعف الفاطميين حيث انجزوها كما نعلم وأعادوا مصر بعد اسقاط الخلافة الفاطمية الى الخلافة العباسية، فوضعوا أساس دولة جديدة هي الدولة الأيوبية<sup>(1)</sup>، هذا وقد عاصر صلاح الدين الأيوبي الخليفة العباسي في بغداد الناصر لدين الله. وتوفي في دمشق متأثراً

(1) ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق1 ص285. وقامت دولة الأكراد من بني أيوب من عام 567هـ/1174م حيث يرجع أصلها الى أذربيجان من بلاد الكرج ويعتبر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الكردي مؤسس هذه الدولة ولقب بالملك الناصر أبو المظفر والذي ولد بقلعة تكريت شمالي بغداد عام 532هـ/1137م عندما كان أبوه في خدمة زنكي "عماد الدين" وبعد استشهاد عماد الدين زنكي على يد خادمه نتيجة مؤامرة حاكمة ومديرة بعد استرجاعه مدينة الرها عام 539هـ/1144م استمر أيوب وأولاده في خدمة ابنه نور الدين الذي استولى على بلاد الشام في محاولته جمع شمل المسلمين في مصر والشام لتكوين جبهة اسلامية قوية، فكان أن أرسل الى الخليفة الفاطمي العاضد الذي استجده به ليخلصه من صراع الوزراء الذي كاد أن يؤدي لاحتلال الصليبيين لمصر، أخاه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الذي عين وزيراً في مصر وبعد موته، انتقلت الوزارة لابن أخيه صلاح الدين الذين أعلن إلغاء الخلافة الفاطمية وضم مصر للخلافة العباسية في بغداد، مما جعل نور الدين محمود يبقيه في حكم مصر نيابة عنه، حيث قام باصلاح الديار المصرية وابطل المكوس والمظالم الفاطمية.

انظر ابن اياس: ن م، ج1، ق1، القاهرة ط2/1402هـ/1982م، ص237.

حتى قال الشاعر:	أصبح الملك بعد آل عبيد	مشرقاً بالملوك من آل شادي
	وغدا الشرق يحسد الغرب	عدلاً ومصر تزهو على بغداد
	لا كفر عون والعزير ومن	كان بها كالخصي والأستاذ

ولفظ الأستاذ: يعني كافور الإخشيدي. ابن اياس، ن.م. 238. وتوفي الملك السعيد نور الدين محمود زنكي المرابط المجاهد صاحب دمشق عام 569/1374م. ودفن في دمشق، حيث كان أول من لقب بالسلطان مع وجود الخلفاء بعد ملكشاه السلجوقي وأول من استخدم الحمام الزاجل في البريد.

انظر ابن اياس، ن.م. ص24 علماً بأن لقب السلطان يطلق على من يملك عدة بلاد من الموصل والشام ومصر وفي ولايته عدة ملوك وعسكره عشرة آلاف فارس.

وبعد وفاته انفرد صلاح الدين بمصر والشام ولقب بالسلطان وكان أشهر أعماله في مصر: (أ) تأسيس جيش من الأكراد بحدود اثني عشر ألفاً بدلاً من جيش الفاطميين السابق والمكون من الصقالبة والأرمن والعبيد الزنج وشناترة العرب.

(ب) حول الجامع الأزهر من مركز لدعوة الشيعة الى مركز للدعوة السنية.

(ج) بنى سور القاهرة عام 572هـ/1177م بدلاً من سور جوهر الصقلي باني القاهرة عام 361هـ/972م فجعل

له صلاح الدين أحد عشر باباً بإشراف الخصي بهاء الدين قراقوش ابن اياس: ن م ص243.

(د) وشرع في بناء قلعة الجبل في القاهرة لتكون داراً لملكه.

بمرضه في صفر عام 589هـ/1194م، ودفن في مدرسة مجاهد الدين عن عمر يناهز واحداً وسبعين عاماً، وكانت سلطنته بالشام ومصر حوالي أربعاً وعشرين سنة منذ أيام العادل نور الدين محمود<sup>(1)</sup>.

والملاحظ على علاقة الدولة العباسية في بغداد بصلاح الدين الأيوبي بأنها اعتراف وتأييد للأيوبيين بعد رجحان كفتهم وقضائهم على الدولة الفاطمية في مصر، لذا قامت الدولة الأيوبية مستقلة عن الخلافة العباسية وكذلك لم ينظر الناس اليهم كمعرب أو أكراد، بل كانت الظروف تحتم على الجميع النظر اليهم بحكم العقيدة الدينية وتبنيهم للحضارة العربية الإسلامية. كما يلاحظ اعتماد صلاح الدين في تأسيس دولته على اخوته وأبناء عمومته ثم أبنائه، حيث خصهم بالاقطاعات الكبيرة والمناصر العالية وبعد وفاته حدث صراع مرير على الحكم بين هؤلاء مما كان له الأثر السيء على الجبهة الإسلامية وتقويض صمودها أمام الفرنجة المحتلة لجنوبي بلاد الشام.

ويهمنا في هذا البحث، أيوبيو الكرك<sup>(2)</sup> الذين حكموا من عام 584-661هـ-1186م-1263م. فكان على المعظم عيسى حماية جبهة الشام وعلى أخيه انقاذ الجبهة المصرية من خطر الصليبيين أيضاً، واستطاعا انقاذ البلاد من الحملة الصليبية الخامسة على دمياط في مصر عام 618هـ/1221م.

ومما يؤسف له هنا عودة الصراع بين الأخوة الثلاثة أبناء العادل -الكامل والمعظم والأشرف- حيث اضطر الكامل الى الاستجداد بعدوه فريدريك الثاني ضد أخيه المعظم عيسى مقابل تسليمه بيت المقدس وما فتحه صلاح الدين في الساحل الفلسطيني فاعتبر خائناً لمقايسة فلسطين بدمياط خوفاً من تقدم الفرنج نحو مصر كما تبعه أخوه المعظم بعقد حلف مع جلال

(1) ابن اياس: ن م، ج1 ق1، ص247.

(2) العادل الأول: سيف الدين أبو بكر نجم الدين أيوب من 584هـ - 592هـ/1186-1191م. والمعظم عيسى بن العادل الأول: 592-615هـ/1194-1218م. والناصر داود بن المعظم عيسى في فترات حكمه 615-626هـ/1218-1229م. 626-647هـ/1229-1250م. والمغيث فتح الدين عمر بن العادل الثاني أبو بكر بن الكامل محمد. أنظر ستانلي بول: الدول الإسلامية، ترجمة صبحي فرزات، 1995، ص166-167.

الدين الخوارزمي ضد أخيه الأشرف عام 623هـ/1226م<sup>(1)</sup>. وبعد وفاة المعظم عيسى عام 624هـ/1227م انتقلت السلطة لابنه الناصر داود الذي استطاع استرداد بيت المقدس من الصليبيين<sup>(2)</sup> عام 637هـ/1239م ولكن الصالح اسماعيل -صاحب دمشق تنازل عنه مرة ثانية للصليبيين مقابل مساعدتهم له ضد ابن أخيه الصالح ابن الملك الكامل صاحب مصر<sup>(3)</sup> الذي أصيب بمرض الغانغرينا بعد قطع فخذه والذي استطاع تخليصه ثانية من الصليبيين عام 641هـ/1244م بمساعدة الخوارزميين وحرر طبرية ونابلس، وتمكن من توحيد الدولة الأيوبية، مما أغضب الغرب وقاموا بالحملة السادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذي وقع في الأسر<sup>(4)</sup> وتوفي الصالح أيوب بعد أن أكمل المعركة وهزم الصليبيين في المنصورة وتوفي عام 647هـ/1249م في الأوقات الحرجة التي داهمت فيها الأخطار الدولة الأيوبية وأندرت بانهيائها مما دفع زوجة أبيه شجرة الدر إلى اخفاء موت زوجها وأرسلت لابنه الوحيد توران شاه للحضور من حصن كيفا وديار بكر حيث كان نائباً لأبيه هناك<sup>(5)</sup> واستعدت القاهرة لاستقباله حينما وصل إليها بعد اعلانه سلطاناً في دمشق<sup>(6)</sup>.

ولكنه قتل عام 648هـ/1250م بعد سبعين يوماً من حكمه نتيجة لمؤامرة بعض أمراء المماليك الذين أحسوا بخطرهم عليهم للمحافظة على مكاسبهم، بعد أن شعروا بسلوكه المعادي لهم بالإضافة لحقد سرية أبيه شجرة الدر لمطالبته إياها بمال أبيه ومجوهراته فنصبوا شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب "أم خليل" الذي توفي في حياة والده". على أن يكون الأمير المعز أيبك التركماني مديراً للمملكة معها فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بني أيوب وخطب لها على المنابر<sup>(7)</sup>.

(1) سعيد عاشور، مصر والشام ص 69-83. وأمينه بيطار: تاريخ العصر الأيوبي، دمشق (1401-1402هـ/1981-1982م) ص 184.

(2) بعد أن تنازل عنه الكامل لفردريك الثاني الصليبي عام 626هـ/1229م، بالإضافة لبيت لحم والناصرية وتبنين وحيفا مع عقد هدنة لمدة عشر سنوات. سعيد عاشور: ن م، ص 91. وانظر مولر: القلاع، ص 24-25.

(3) أمينه بيطار: م س، ص 94.

(4) المقرئزي: السلوك، ج 1، ق 2، ص 361، ابن تعري بردى: م س، دار الكتب المصرية، 1963، ج 6، ص 325-364، وعاشور: م س، ص 106. وانظر أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين: حوادث 642هـ.

(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 364، بيروت ط 1987 م ج 13 ص 194.

(6) المقرئزي: السلوك: ج 1 ص 351-353، وابن كثير: البداية والنهاية: تحقيق أحمد أبو ملحم ورفقاءه ومحمد مختار باشا: التوقيقات الإلهية في مقارنة التواريخ الهجرية.

(7) ابن إياس: م س ص 285، بالسنيين الأفرنجية والقبطية، دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمد عماره المؤسسة العربية للدراسات 1400هـ/1980م، ج 1، ص 681. ابن إياس، ن م، ص 286 أن مرتبة خاتون ونوبه خاتون التي تدور في القلعة بعد العشاء بالطبل.

وهنا لابد من التنويه لموقف الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد الذي غضب لتولي امرأة إمرة المسلمين حيث بعث لهم رسالة ضمنها حديثاً شريفاً بما معناه "لا يفلح قوماً ولّوا أمرهم امرأة" فخلعت نفسها أمام الأمراء والقضاة فكانت مدة سلطتها "80 يوماً" ثمانين يوماً كما اشار عليها القاضي تاج الدين بن بنت الأغر بالزواج من الأمير المعز أبيك التركماني، فوافقت فبايعوه كأول ملك من ملوك المماليك الترك بمصر<sup>(1)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك: ج1 ق2، ص358-359، 368. وأورد ما في رسالة المستعصم: "إن كانت الرجال قد عذمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلاً".  
وانظر ابن اياس: ن م، ص287 حيث ذكر شعر أبو الحسين بن الجزار بهذه المناسبة فيمن ولي ملك مصر من ملوك بني أيوب الأكراد.

ثم تولاها الصلاح يوسف	ثم العزيز ابنه امتنصف
ثم اتى الأفضل نور الدين	وبعده العادل ذو التمكن
ثم ابنه الكامل ثم العادل	كلاهما بالحكم فيه عادل
ثم اتى الصالح وهو الأعظم	ثم تولاها ابنه المعظم
وبعده أم خليل ملكة	وطالت الأفعال منها وزكت
والملك الأشرف كان طفلاً	فلم يدير عقدها والحلاً.

وشجرة الدر: تركية الأصل، وقيل أرمنية، اشتراها الصالح نجم الدين أيوب وحظيت عنده بمكانة رفيعة، ودام حكمها ثمانين يوماً بعد وفاته لاعتراض الخليفة العباسي عليها.

انظر: المقرئزي: السلوك ج1 ق2، ص361.  
ثم تنازلت لعز الدين أبيك التركماني عن الحكم ظاهرياً بعد زواجها منه وبدأت سعيها للتخلص منه عام 654هـ/126م فقتلته، ولكنها قتلت بأوامر السلطان نور الدين علي بن عز الدين بواسطة جوارى أمه بالقباقيب والنعال حتى ماتت واتخذ قطز أتباعاً له.

المقرئزي: السلوك، ج1، ص384، 401.

وانظر: ابن اياس بدائع الزهور، ج1 ق1، ص294.  
أما عز الدين أبيك التركماني الملقب بالملك المعز أبيك فكان أصله من ممالك الصالح نجم الدين أيوب، إذ اشتراه واعتقه وصار أميراً في حياة أستاذه الملك الصالح وبقي أتباعاً للعسكر بعد مقتل الملك المعظم توران شاه، وأصبح سلطاناً بعد خلع شجرة الدر من السلطة: ابن اياس: ن م، ص288.

هذا ويذكر ابن اياس في ص 291 أنه حدث في أيام المعز حوادث طبيعية أنذر الله بها زوال ملك بني العباس حيث حدث عام 648هـ/1250م هبوب رياح شديدة في مكة مزقت أستار الكعبة الشريفة واحترق المسجد النبوي الشريف، ومنبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهكذا قامت دولة المماليك الأتراك في مصر.

أصل الأتراك: ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص288 ذكر عن الحسن البصري قوله: "أصل الترك من ولد يافت من نوح عليه السلام، فيافت هو أبو الترك، وأجوج وأجوج بنو عم الترك، وإنما سميت الترك تركاً، إن الإسكندر ذو القرنين، لما بنى السد علي أجوج وأجوج، كان منهم طائفة غائبة وقت بناء السد، فما علموا ببناؤه، فتركوا خارج السد، فسميت هذه الطائفة "تركا" كونهم تركوا خارجاً عن السد، فالترك طائفة من نسل تلك الشردمة التي تركت، والله أعلم بحقيقة ذلك".

كما ذكر ابن اياس قول صاحب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" إن طائفة هذه الترك كانوا عدة قبائل، يسكنون بالبلاد الشمالية، لا يتخذون جداراً، ولا يستوطنون وطناً، بل ينتقلون من الأرض في أماكن شتى، عند مصافهم ومشاتيهم، وقد تناسلوا وكثروا وفرقوا في البلاد.

وفي سنة 626هـ/ اجتاحت بلادهم المغول فكروهم ونهبوا أولادهم ونساءهم وباعوهم للتجار، فاشترى الملك الصالح بن نجم الدين أيوب منهم، واسكنهم في قلعة الروضة، حيث مكن الله لهم الأسباب، وعوضهم بعد المذلة والهوان بعد دخولهم في الاسلام بالملك والسيادة. ابن اياس، ن م ص289.



ولم يتقبل الناس هذا الوضع الجديد باستيلاء العبيد المماليك على السلطة من أسيادهم بغير وجه حق<sup>(1)</sup>.

كما رفضت الإمارات الأيوبية في بلاد الشام الاعتراف بسلطة المماليك الجديدة لاسقاطهم السلطة الأيوبية في مصر وانقسام المماليك وفرار بعضهم الى الشام وتحريضهم للأيوبيين في بلاد الشام على غزو مصر، فكانت فرصة سانحة لضرب سلطة المماليك واضعافها في مصر أراد الأيوبيين استغلالها بعد انقسام المماليك على أنفسهم بقيادة الناصر يوسف بن أيوب حيث سيطر على سوريا وحتى عجلون في شرقي الأردن وتوجهوا لقتال المماليك في مصر العباسية فتنبه عز الدين أيبك الذي تولى الحكم بعد شجرة الدر من الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق (648هـ/1250م - 649هـ/1250م). فخرج الي بلدة العباسية وعكس فيها لمدة ثلاث سنوات تحسباً لهجوم عسكري من بلاد الشام<sup>(2)</sup> حتى أنهت الخلافة العباسية حالة الطوارئ هذه بوساطتها بين المماليك والأيوبيين وعقد صلح بين الطرفين بعد نجاح وسيطها المفوض نجم الدين البادرائي عام 651هـ/1253م بترسيم الحدود بينهما على أن يكون لأيبك الديار المصرية وساحل الشام الى فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن وبعدها للملك الناصر يوسف الأيوبي. فكان هذا اعترافاً رسمياً من الأيوبيين بسلطة المماليك الجديدة في مصر<sup>(3)</sup>. وخدمت

---

(1) ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن دار الكتب، ج7، ص13 (سيشار له فيما بعد هكذا): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة. ذكر قول الناس: "لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة".

(2) العباسية: بليدة أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية/ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979، ج4، ص75. (سيشار له فيما بعد هكذا: ياقوت الحموي: معجم البلدان).

وانظر: ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج4، تحقيق عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1972 ص386-787.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، م7، ج13، ص209 واليونيني: ذيل مرآة الزمان طبعة الهند 1955 ص58. والمقريري: السلوك ج1، ق2، 358/ وابن تغري بردي: ن م: ج7 ص12 وأبو الفداء: المختصر: ج3، ص195، 199 وابن خلدون: العبر مجلد 5 ص801، 810، هذا واعتبر ابن اياس م. س، ج1، ص95 بأن أول المماليك البحرية المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي ولكن لين بول ومعظم كتب التاريخ الأوروبية تعتبر شجرة الدر أول ملوك المماليك وهو خطأ واضح.

الظروف السياسية الطارئة على الساحة الإسلامية لإثبات شرعية حكمهم بتحملهم مسؤولية الدفاع عن البلاد برد جحافل المغول التتارية المتوحشة التي أسقطت الخلافة العباسية في بغداد بعام 656هـ/1258م بعد تدميرها وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله (640-656هـ / 1242 - 1258م).

واستمر زحفها الى بلاد الشام والاستيلاء على مدنها بعد عجز الأيوبيين عن مواجهة هذا الخطر<sup>(1)</sup>.

فأثبتوا قدرتهم في الدفاع عن البلاد بعد انتصارهم بقيادة المظفر قطز على المغول بقيادة كتبغاين نوين في معركة عين جالوت في 26 رمضان 658هـ/ 3 أيلول 1260<sup>(2)</sup>. مما أكسبهم الحق في حكم البلاد وإنهاء الصراع مع الأيوبيين على السلطة بعد ضمهم للامارات الأيوبية في بلاد الشام الى حكمهم.

### التعريف بالمماليك البحرية:

يرى الباحث ضرورة التعريف بالمماليك البحرية وذلك للدور الهام والخطير الذي لعبه المماليك<sup>(3)</sup> في التاريخ الاسلامي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وعلمياً واجتماعياً منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله 218-227هـ/ 833-842م بينما كان أول من أحضرهم الى مصر هو أحمد بن طولون<sup>(4)</sup> ثم أكثر منهم قادة الأخشيديين والفاطمييين والسلاجقة والأيوبيين للاستعانة بهم<sup>(5)</sup>. ثم استقدمهم الى مصر السلطان الأيوبي الصالح نجم

(1) أبو الفداء: المختصر، ج3، ص20، ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص291.

(2) عين جالوت: بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، ياقوت الحموي، م س: ج4، ص177، معجم البلدان وابن كثير: البداية والنهاية، م7، ج13، ص233.

(3) المملوك: هو العبد الذي يشتري ويباع واقتصرت هذه التسمية على فئة الرقيق الأبيض من أسواق النخاسة البيضاء الذين اشتروهم الخلفاء والولاطين لتكوين فرقاً عسكرية خاصة حتى اصبحوا يشكلون معظم الجيش للدولة الإسلامية المتأخرة: البلاذري (أبو العباس أحمد): فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص432. وأحمد العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - دار النهضة العربية، بيروت 1969 ص11.

(4) ابن اياس: م س: ج1، ق1، ص162.

(5) ابن تغري بردي: م س: ج4، ص256.

الدين أيوب<sup>(1)</sup>، حتى تكمنوا من تسلم سدة الحكم لمدة ثلاثة قرون تقريباً عرفت باسم العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م).

وانقسم عصرهم الى قسمين دولة المماليك البحرية "التركية" (648-782هـ/1250-1382م)، ودولة المماليك البرجية "الجركسية" والتي تبعتها مصر والشام بعد اسقاطها لحكم الأيوبيين الذي استمر ما يقارب السبعين عاماً. (567-648هـ/1171-1250م).<sup>(2)</sup>

وكان عز الدين أيبك التركماني أول سلطان في الديار المصرية والشامية وكانت مدة الملك المعز في السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية سبع سنين وثلاثة أشهر، منها مدة انفراده بالسلطنة خمس سنين وثلاثة أشهر، وقد شاركه في السلطنة من الأيوبيين الملك الأشرف عيسى بن الملك مسعود صاحب حماة سنة وثلاثة أشهر.<sup>(3)</sup>

---

(1) لقد جلب الصالح نجم الدين أيوب 638هـ/1240م عدداً كبيراً من الأتراك وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة خاصة بجزيرة الروضة في نهر النيل بالقاهرة لإسكانهم فعرفوا بالمماليك الصالحة، المقريري: تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مجمل مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط2، 1957، ج1، ق1 ص339-340 (سيشار له فيما بعد المقريري: السلوك).

وانظر: أبو الفداء و(عماد الدين اسماعيل): المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية، 1325هـ-ج3، ص176 (سيشار له فيما بعد: أبو الفداء: المختصر والنجوم ج6، ص359)

والعبادي: ن م، ص94 وسماهم بالبحرية بالنسبة الى بحر النيل، المقريري ن م، ج1، ق2، ص340-341 والقلقشندي: صبح الأعشى: ج4، ص469 حيث يرجع أصولهم الى بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود.

وظهروا على مسرح الأحداث العسكرية بتصدي فرسانهم للصليبيين في معركة المنصورة بقيادة توران شاه ابن نجم الدين أيوب بمصر عام 647هـ/1249م بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب وتسلم شجرة الدر مقاليد الحكم.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق احمد أبو ملحم ورفقاء، دار الكتب العلمية، بيروت ط3، 1987، م7، ج3، ص194، وأبو الفداء، ن م، ج3، ص181، وأبو شامة، شهاب الدين المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهر الحسن الكوثري، مراجعة عزة العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت 1974، ص185 "سيشار له "الذيل".

(3) أبو شامة، ن م، ص295.

هذا وقد خلفه ابنه الملك المنصور نور الدين علي وكان قطز نائب السلطنة في مصر أيام الملك المنصور عام 655هـ/1257م وعمره احدى وعشرين سنة<sup>(1)</sup>. وقام على تدبير ملكه الأمير علم الدين سنجر الحلبي.<sup>(2)</sup>

وفي عهده هجم هولاكو على بغداد 656هـ/1258م وخرّبها وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله ثم تعدى الفرات إلى حلب وحماه واحتلّهما وزحف على البلاد الشامية، يريد التوجه لمصر، فجمع قطز نائب السلطنة بمصر القضاة ومشايخ العلم وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضي الله عنه.<sup>(3)</sup>

ثم اتفق الأمراء مع القضاة في إقامة سلطان تركي تهابه الرعية بعد اضطراب الأحوال في بلاد المسلمين، فوقع الاتفاق على سلطنة الأتابكي قطز، وخلع السلطان الملك المنصور بعد أن حكم ثلاث سنين إلا أربعة أشهر، حيث كانت أمه تدبر أحوال مملكته لأنه كان طائش العقل يلعب بالحمام مع الأولاد والغلمان، وسجن مع أمه وإخوته في ثغر دمياط وعين ركن الدين بيبرس البندقداري أتابكاً للعسكر<sup>(4)</sup> وبويع قطز بالسلطنة يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة 657هـ/1259م. وكان قطز من مماليك المعز أيبك التركماني اشتراه من سبايا التتر ورقاه حتى أصبح أتابك العسكر بمصر. وأسمه محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد ملوك الشرق عندما وقع في سبايا التتر.<sup>(5)</sup>

ووصل جيش هولاكو إلى العريش ثم خرج المظفر قطز في شعبان 658هـ/1260م، إلى الريدانية ثم إلى عين جالوت في فلسطين وانتصر على التتار<sup>(6)</sup> ودخل قطز دمشق فخلع على الأمير علم الدين سنجر الحلبي وعينه نائباً للشام، واستخلص البلاد الشامية من أيدي أولاد بني

(1) أبو شامة، ن م، ص 296.

(2) أبو شامة، ن م، ص 297.

(3) أبو شامة، ن م، ص 301.

(4) أبو شامة، ن م، ص 302.

(5) أبو شامة، ن م، ص 303.

(6) أبو شامة، ن م، ص 306.

أيوب، وقرر العودة الى مصر، هذا وقد اتفق جماعة من الأمراء على قتله بقيادة بيبرس البندقداري الذي قتله وجلس على عرش السلطنة ودفن بالقرين قرب الصالحية بدمشق. كما واستمرت قوتهم الضاربة للدفاع عن العالم الاسلامي بجهود أربعة وعشرين سلطاناً منهم أربعة عشر سلطاناً من أسرة قلاوون حتى انتهت عام 784هـ/1382م. فكانت الدولة التي ابتدأت بإمراة وانتهت بصبي<sup>(1)</sup>.

وللحق نقول بأنهم لعبوا دوراً بارزاً في ميادين الغزو والجهاد ضد المغول والصليبيين<sup>(2)</sup>، حيث انهوا الاحتلال الصليبي لبلاد الشام بعد جهاد طويل، ولكن آثار هذه الحروب بقيت في أعماق النفوس في الشرق والغرب حيث ظهرت مرة أخرى بشكل الاستعمار الحديث في عصرنا الحالي.

ومن الجدير بالذكر أن ننوه بالنسبة، لتسمية هذه الدولة التركية بدولة المماليك البحرية، حيث نرى بأن هذه التسمية لا تتفق مع الحقائق التاريخية، بل هي تسمية اصطلاح عليها المؤرخون الحديثون من باب التعميم، وذلك لأن السلطان قطز لم يكن من المماليك البحرية بل كان مملوكاً للسلطان المعز أيبك التركماني ولم يكن من مماليك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(3)</sup>.

أما بالنسبة للدول التي عاصرت الحروب الصليبية، فنرى أنها قامت على أساس فريضة الجهاد، وعندما تخلت عن هذه الفريضة أو تقاعست فقدت مبرر وجودها الشرعي وأدى ذلك لسقوطها لتحل محلها دولة أخرى تقيم فريضة الجهاد.

فالدولة السلجوقية اكتسبت شرعيتها بجهاد البيزنطيين، وعندما عجزوا عن صد الحملة الصليبية الأولى سقطت وحلت محلها الدولة الزنكية التي قامت بفريضة الجهاد بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وحين عجزت عن إقامة فريضة الجهاد بعد موت نور الدين

(1) المقرئزي: الخطط، ج2، ص241.

(2) استطاع قلاوون منذ عام 685هـ/1287م الاستيلاء على قلعة المرقب الحصينة واستولى على طرابلس 689/1291م وباقي ممتلكات الصليبيين في انطاكية، وفي عام 691هـ/1293م سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين في فلسطين بيد ابنه الأشرف خليل، حيث غادروا بعدها المدن الساحلية، وارتحل الفرسان والتجار الى قبرص مؤذناً بانتهاء سلطنة الفرنجة التي استمرت ما يعادل قرنين من الزمان. انظر: مولر: القلاع ص31. فانتتهت هذه الحروب في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي (490-691هـ) (1096-1293م).

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ص391، والمقرئزي: السلوك، ج1، ص437.

محمود حلت محلها الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي أفنى حياته في جهاد الصليبيين وحرر القدس، وبعد وفاته بدأ حلفاؤه يتفacsون عن أداء فريضة الجهاد فأخفقوا في الوقوف أمام الصليبيين لذا فقدت الدولة مبرر وجودها الشرعي وسقطت بأيدي ممالكها "دولة المماليك البحرية" الذين اكتسبوا الشرعية لدولتهم من جهادهم وهزيمتهم للمغول في عين جالوت واقتلاع آخر الجذور الصليبية من بلاد الشام فدرأوا الأخطار عن بلاد المسلمين.

كما لوحظ معاناة بلاد الشام من التمزق السياسي والحروب الأهلية نتيجة عدم الوعي للقوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى لعدم إدراكهم بمدى وأبعاد الخطر المغولي، ولا سيما حين أخذ المغول منذ وقت مبكر في الإغارة على العراق والجزيرة لمراقبة القوى الإسلامية في هذه المناطق ومعرفة إمكاناتها وقدراتها على الصمود تمهيداً للغزوة الكبرى بقيادة هولاكو.

كما لم يدرك حكام المسلمين في بلاد الشرق الأدنى مغزى سياسة المغول التي قامت على الإنفراد بكل دولة إسلامية على حدة، حتى يسهل القضاء عليهم جميعاً مثل الخوارزمية والسلاجقة والأيوبيين، حيث دأب الخوارزميون على مشاركة المغول في نهب وتدمير كل المناطق التي يمرون بها دون أن يؤثر إسلامهم في سلوكهم، فكانت بلاد الشام خراباً على أيدي الخوارزمية قبيل الغزوة المغولي بينما تحالفوا مع الأيوبيين ضد الصليبيين مما يدل حرصهم على مصالحهم الخاصة كما أخضع المغول دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة 641هـ/1243م فطوقوا بذلك العراق والجزيرة وبلاد الشام من الشمال والشرق الأمر الذي سهل مهمة هولاكو فيما بعد. هذا بالإضافة إلى عدم وعي الأيوبيين بخطر المغول وليس أدل على ذلك من المواقف المتناقضة للناصر يوسف صاحب الشام الذي كان يتصل بهم لمساعدته.

وبالنسبة للوضع الإداري والوزاري في العصر العباسي الأخير فكان مضطرباً تبعاً للاضطراب السياسي العام في الدولة، فالخلافة ضعيفة، وحياة الناس فوضى وأصحاب المطامع والأغراض يعملون في الخفاء على زعزعة أركان الدولة وتجزئتها وأصحاب الدواوين والقادة العسكريين والوزراء يتنازعون الأمر فيما بينهم حتى أدى ذلك إلى إنزواء الخلفاء العباسيين في قصورهم يحاولون استعادة مكانتهم الدينية والاجتماعية فقط بانصرافهم إلى إقامة الشعائر

الدينية، فكانت الخلافة العباسية، في هذا العهد رئاسة دينية تشريعية فقط واستمرت على ذلك النهج حتى قضى عليها هولاكو المغولي بقتل آخرهم المستعصم بالله 656هـ/1258م.

وننوه هنا بأن ما حدث للخلافة والمسلمين من ويلات ونكبات كان سُخطاً من الله كدليل على غضبه لابتعادهم عن أوامر الله ونواهيه وبقي العالم الإسلامي بدون خليفة إلى أن قَبِضَ الله لهم عام 658هـ/1260م الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر باحياء الخلافة العباسية باستقدامه الإمام أحمد بن الإمام الظاهر بالله العباسي الذي نجا من مذابح المغول وبأيعه هو والأمراء والعلماء في مصر وتلقب بالمستنصر بالله، واستمرت الخلافة العباسية الاسمية في مصر طيلة عهد المماليك حتى قضى عليها العثمانيون بقيادة سليم الأول العثماني.

## ثانياً : عروبة المنطقة وأهميتها الحضارية

### مقدمة :

لقد برع العرب في باب الأنساب، فاتبعوها من جدّ الى جد، حتى وصلوا بها الى بعد سحيق من تاريخ الانسانية. فقد فاخر النعمان بن المنذر ملك الحيرة في العراق كسرى أنو شروان ملك الفرس بقوله عن قومه العرب بأنهم حفاظ أنساب<sup>(1)</sup>. فهذه ميزة خصّ الله بها الأمة العربية " كنتم خير أمة اخرجت للناس"<sup>(2)</sup> حتى لا تذيب أصولها الشعوبية والاستعمار الحديث الذي حرص على طمس الهوية العربية وعمل على منع قيام وحدة عربية، بل خلف وراءه عقداً نفسية في نفوس العرب من حيث "احتقار النفس"، أي "الكفر بالذات" والاستجداء للغير " ليعمل على ذوبان الشخصية العربية في الشخصية الاوربية ، وكبت العقل العربي من الإنطلاق. علماً بأن تاريخنا الحضاري المجيد يبرهن على نكاء العقل العربي الخلاق المبدع<sup>(3)</sup> فعلينا كعرب أن نؤمن بشخصيتنا العربية ونعمل دائيين على استعادة مجدنا الخالد واسترداد تاريخنا المندثر. هذا بالاضافة لإحساس ملايين العرب بالإحباط والأسف والحسرة لماحل بأمتنا العربية من ضعف وتخاذل وهزائم أمام الصهيونية وليدة الاستعمار الحديث، ومنذ سنين طويله مرت من عمر أمتنا العربية والاسلامية بين جد وهزل، ألف المستشرقون والصهاينة ومقلدون من المؤرخين المحدثين والكتاب العرب<sup>(4)</sup> مئات الكتب والتي

(1) سمير عبد الرزاق القطب، أنساب العرب، منشورات دار البيان، بيروت، ص7 ذكر قول النعمان بن المنذر في مفاخرة أمام كسرى: "وأما أنسابها واحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت أباؤها وأصولها، وكثيراً من أولها، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ولا يعرفه، وليس لأحد من العرب إلا يسمى آباء وأباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا يتنسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه".

(2) سورة آل عمران، آيه 110.

(3) فالحضارة الاوربية قامت على الحضارة الاسلامية العربية في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي والاندلس في العصور الوسطى، بل نجد الآن في مكتباتها ومتاحفها ماسرقة من تراثنا فنسبته الى نفسها زوراً وبهتاناً، وها هي اليوم تبغينا أفكار أجدادنا بأغلى الأسعار، فهذه حقيقة ينبغي لها ان تبقى راسخة في أذهان أجيالنا العربية حتى الأزل.

(4) د. احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص19

وبريستيد: العصور القديمة، الترجمة العربية بيروت، 1926، ص 15

وكرليتر: الاساطير السورية، الترجمة العربية، ص42-44 حيث ذكر تأثير الاداب السورية على الاداب التوراتية

وجوستاف لوبون : تاريخ الحضارات الأولى ص146. ولفنجستون : تاريخ اللغات السامية ص78.



سببت لنا هزيمة فكرية ألحقت بقضايا أمتنا المصرية أفدح الأضرار بإتاحتها الفرصة الذهبية للاستعمار والصهيوني أن يكسب الجولة الأولى في فلسطين حتى أن إسرائيل قد استعانت على اغتصاب فلسطين بتزييف الحقائق أكثر مما عنيينا نحن بايضاحها أمام العالم. حيث كتبت الصهيونية مؤلفات أسطورية مزيفة فرضتها على العالم لطمس الحقائق التي تقلب تاريخ اليهود رأساً على عقب ويصبح بحاجة إلى إعادة تدوينه من جديد على ضوء الجديد من المكتشفات الأثرية والابحاث العلمية التاريخية<sup>(1)</sup> والحقائق التي تتبع من القرآن الكريم الشاهد الأمثل على تزييفهم للتوراة والتاريخ الانساني. وقرآنا الكريم لا يعترف إلا بالتوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى " وكتبنا له الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء"<sup>(2)</sup> ولكن اليهود تخلصوا من هذه التوراة وكتبوا غيرها بما يتلاءم مع مخططاتهم لاستعمار فلسطين وشرقي الاردن الى النيل والفرات<sup>(3)</sup>. كما لعنهم الله بادعائهم بأنهم شعب الله المختار<sup>(4)</sup> وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تبرهن على كذبهم وتزويرهم وتضليلهم وادعائهم بأن التوراة الحالية المزيفة هي من عند الههم الشرير -يهوه- الذي يأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف<sup>(5)</sup> ثم أضافوا لهذه التوراة المزيفة ما اقتبسوه من حضارة الكنعانيين والبابليين أيام اسرهم على يدي بنوخذ نصر الكلداني، وحضارات الامم الاخرى، في وادي النيل وبلاد الرافدين بوجه عام.<sup>(6)</sup>

ولقد قصدت من هذه المقدمة اثبات عروبة المنطقة موضوع البحث (فلسطين وشرقي الاردن) وفضح زيف الصهيونية سليمة تلك الجماعات المشاكسة وغير الموغوب فيها والتي

<sup>(1)</sup> وول ديورات، قصة الحضارة، الترجمة العربية ج2 ص367 حيث قال لا يمكن اعتبار اسفار التوراة ومدونات التلمود مرجعاً أصيلاً. ص368-370.

<sup>(2)</sup> سورة الأعراف، آية 145.

<sup>(3)</sup> سورة النساء آية 46 قال تعالى "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه" وسورة البقرة آية 79 قال تعالى: "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون".

<sup>(4)</sup> سورة المائدة : آية 13 قال تعالى: " فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به".

<sup>(5)</sup> سورة البقرة، آية 75. "وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون".

<sup>(6)</sup> أنظر د. محمود الشريف : " اليهود في القرآن الكريم " ص 29-35.

خرجت من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد والتي ادعت فيما بعد ببني اسرائيل دونما أي حق أو صلة تربطها باسرائيل.....

فالمعروف تاريخياً أن سكان فلسطين الاصليين كانوا عرباً ساميين هاجروا من شبه الجزيرة العربية حوالي سنة 2500 ق.م أي أكثر من ألفي عام قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الأحداث، حيث اقتبس الموسويون حضارة الكنعانيين وثقافتهم فيما بعد.<sup>(1)</sup> ففي الميدان الحضاري الذي هو موضع البحث وَضَحْ لَنَا بأنهم لم يكن لهم مخلفات حضارية ترفع من شأن الإنسانية من علوم وصناعة وفنون بل كان مجمل تاريخهم الوحشية في القتل والاسر للبرية، وارتكابهم المنكرات كالمغول، فلم يتجاوزوا مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ،<sup>(2)</sup> حيث أباحوا لأنفسهم ظُلماً وعدواناً اخراج العرب من فلسطين ديارهم الأصلية منذ القدم عام 1948م، هؤلاء العرب الذين وصفهم الله بقوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس"<sup>(3)</sup> ولكن اليهود للحق كارهون<sup>(4)</sup> بقولهم أنهم من أعقاب بني اسرائيل الأوائل بينما يشهد التاريخ بانهم من شذاذ الأفاق الذي جاؤوا لفلسطين من خمس قارات وما يقارب منه ودولتين بعد صدور وعد بلفور المشؤوم في 2-11-1917م. "قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين"<sup>(5)</sup>. فالحجة لاتقرع إلا بالحجة. وهكذا افتضح أمرهم في العصور الحديثة بعد صدور "بروتوكولات حكماء صهيون" التي تعتبر بحق أسوأ نموذج للسلوك الانساني في التاريخ البشري لما يدعون اليه من اقرار الموبقات وارتكاب الفاحشه والفتنة ليستقيم لهم الأمر وحدهم بهدف استعمار العالم كله سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعسكرياً وبوادر هذا واضح للعيان اليوم من تحكمهم في السياسة العالمية والاقتصاد العالمي والصحافة العالمية لذا فجهادنا لتحرير مقدساتنا يهدف ايضاً لتحرير الانسانية من هذا الأخطبوط السرطاني الشيطاني. فعلى الأجيال العربية الفتية الصاعدة أن تتطلق بعزم وإصرار وإيمان للبحث في تاريخها وآدابها لتجد ركانز أصيلة لبناء نهضة

(1) د.احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص19 ونتيجة اكتشافاته التاريخية التي استمرت خلال عام في العراق وأخذ بها العلماء بالاجماع تقريباً .

(2) أنظر غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعتر وفليب حتى.

(3) سورة آل عمران، آية 110.

(4) سورة المؤمنون، آية 7.

(5) سورة البقرة، آية 111.

حضارية انسانية شاملة ومستقبل مشرق ليصبح ذي وزن بالغ في الميزان الدولي وذي قيمة ذاتية في تاريخ الحضارة. وقد شهد تاريخنا المجيد قادة مخلصين جمعوا الأمة على الجهاد ووحّدوا صفوف الأمة العربية لمواجهة الغزوات الصليبية والتتارية خاصة في بلاد الشام شمالها وجنوبها. لذا نرى ضرورة الإشارة الى عروبة المنطقة موضوع البحث عبر التاريخ البشري قديماً وحديثاً لمعرفة صلات العرب القوية بها.

### القبائل العربية في جنوب بلاد الشام

لقد اتفق النسابون العرب<sup>(1)</sup> على إرجاع العرب الى جدّهم سام<sup>(2)</sup> في شبه الجزيرة العربية وقسموهم الى ثلاثة أقسام هي:

أولاً: العرب البائدة: وهم الذين بادوا، ولم يصلنا من أخبارهم إلا ماورد في القصص القرآني الكريم والأحاديث الشريفة وبعض كتب الأدب القديمة. وكان من أشهر قبائلهم الكنعانيون وطسم وجديس وعاد وثمرود وعمليق وعبد نجم وأميم وعبيل وجرهم .... وغيرها<sup>(3)</sup> وسنشير الى بعض القبائل التي لها علاقة مع جنوب بلاد الشام حيث نزلت هذه القبائل فلسطين في عهدها الكنعاني الممتد من عام 2500-1000 ق.م.<sup>(4)</sup>

(1) الانساب: فن عربي أصيل منذ الجاهلية حيث فاختروا به في أسواقهم التجارية (عكاظ، ومجنة، وذئ المجاز). حيث كانوا يفاخرون بانسابهم، وكان لعلماء الأنساب منزلة رفيعة في المجتمع العربي قبل الاسلام ويعتبرون من أهل الرأي، وكان ابو بكر الصديق " نسبة سمير عبد الرزاق القطب: م.س ص 9 وظهرت كتب الانساب مثل " جمهرة النسب: هشام ابن السائب الكلبي المتوفى عام 206هـ و " نسب قريش لمؤلفه: مصعب بن عبد الله المتوفى عام 236هـ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم المتوفى عام 456هـ/1060م.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج1، دار المعارف، بمصر، 1960، ص 209 وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، بيروت، 1957-1958 ص 42: ذكرنا حديثاً شريفاً نصه: " سام أبو العرب ".

(3) الطبري: ن م، ج1 ص 402 ذكر: (( ..... معاذ وثمرود والعماليق وأميم وجديس وطسم وهم العرب .... لسانهم الذي جيلوا عليه لسان عربي)).

(4) د. مصطفى دار الدباغ: القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1399هـ/1979م. ص 11 فقد نزلت جماعة من جديس وطسم بلاد مدين: التي تجاور أرض معان الأردنية ( الفلقشندي) نهاية الأرب، ص 19. وغور البلاونة: بغور الاردن المجاور لغور ابي عبيدة ومزارة، والوهادنة في محافظة اربد اليوم، والغور وكورة جبل جرش قرب الغور: انظر كرد علي خطط الشام، دمشق 1925 - 1928، ج1 ص 65. ومصطفى الدباغ، ن م، ج1، ق1 ص 712 هذا ومن سلالات طسم في شرقي الاردن: المطيرين في البلقاء، الذين نوح منهم فرغ الى الفالروحة في غزة د. مصطفى الدباغ: ن م، ج1 ق2 ص 225.

هذا وقد ذكر القرآن الكريم عاداً ونبههم هود في شرقي حضرموت بالاحقاف والشحر<sup>(1)</sup>، ويلاحظ علاقة هود ببلاد الشام من وجود بقاع تحمل اسمه كقرية النبي هود من أعمال اربد - جرش كما تذكر الروايات بأنه مدفون فيها.<sup>(2)</sup> وكان هوداً أول ملك عربي طال عمره وكثر ولده، واستولى ولده شداد على بلاد الشام<sup>(3)</sup> والعراق والهند. كما هاجر النبي صالح ومن آمن معه من قوم ثمود العربييه جنوبي العقبة من مدائن صالح إلى فلسطين<sup>(4)</sup> في الرملة<sup>(5)</sup> وبقي فيها حتى وفاته<sup>(6)</sup> ولسيدنا صالح مقامات كثيرة في فلسطين في غزة والخليل وعكا<sup>(7)</sup>، كما توجد في فلسطين قرية النبي صالح من أعمال رام الله نسبة إلى هذا النبي العربي الذي نزلها. كما كانت منازل ثمود في حسمي جنوب الاردن،<sup>(8)</sup> وذهب البعض إلى ان قبيلة الحويطات جنوبي الاردن هي من بقايا ثمود ومدین<sup>(9)</sup> وتقتن ما بين تيماء والكرك، كما أن الجرامقه في جبال صفد بفلسطين هم من ولد جاتر ولد ثمود<sup>(10)</sup> أما العمالقه فهم والكنعانيون شعب واحد،<sup>(11)</sup> سكن جدهم عمليق في جوار مكة المكرمة ثم انتشرت قبيلته في الجزيرة العربييه والشام ومصر

(1) سورة الاعراف، آية 65. وسورة هود، آية 50. وسورة الاحقاف، آية 21. قال تعالى: "واذكر أحصاء عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف..."

(2) ناصر خسرو، سفرنامه ص 51 يذكر بأنه زار قبر هود في قرية (اعبلين) من أعمال حيفا وبحضيرته شجرة خروب.

(3) اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1960، ج2، ص13 وابن خلدون: عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1966-1968، ج2، ص35 وأن المقصود "بارم ذات العماد" هي إرم أو "بئر ارم" شرقي العقبة في الاردن. (الدباغ، م س ج1، ص18. بينما يقول النويري: "ان اليهود لما دخلوا أريحا بقيادة" يوشع بن نون" في القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان بها بقية من عاد: النويري: نهاية الارب ج13، ص265.

(4) ابن الاثير، الكامل، (بيروت 1965، 1966)، ج1، ص93.

(5) المسعودي: مروج الذهب، بيروت 1966م، ج2، ص17.

(6) النويري: نهاية الارب في فنون الأدب، 21 جزء، القاهرة 1923 - 1976، ج13، ص85. بينما يزعم البعض بأن هوداً وصالح توفيا في مكة، الدباغ، ن م، ص21.

(7) انظر د. مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ج1 ق2 ص211، ج5 ق2 ص360-365. وياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت 1955-1957 هـ ص320.

(8) الدباغ ن. م، ص23. وعلي جواد: تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 1950، 1972، ج4، ص167.

(9) الدباغ، جزيرة العرب، ج1، ص78، 131، 132.

(10) ابن خلدون، م س، بيروت، 1966، ج2، ص14.

(11) الطبري، م س، ج1، ص20: "وسلائل عمليق نزلت جنوب بلاد الشام في جهات الخليل وعرفوا بمجابهة الشام لكبر أحسامهم. يقول د. مصطفى الدباغ: ن م، ج5، ص298. "ان العمالقة هم الذين بنوا بيت جبرين" من أعمال الخليل، ".

والعراق.<sup>(1)</sup> كما أن العمالقة الكنعانيين كانوا أول شعب عربي حارب اليهود لصد غزواتهم على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبمساعدة جيرانهم المؤابيين<sup>(2)</sup> والمدنيين<sup>(3)</sup> الذين سكنوا مرج ابن عامر في فلسطين وأذلوا اليهود هناك<sup>(4)</sup>. ثم عادوا الى جنوب فلسطين.<sup>(5)</sup> وقد بعث الله النبي شعيب الى قبيلة مدين<sup>(6)</sup> وتوجد اليوم مواقع ومزارات في فلسطين نسبة للنبي شعيب العربي الفلسطيني، في طبريا<sup>(7)</sup> وحطين<sup>(8)</sup>، ومقام النبي شعيب جنوب مدينة السلط في الاردن. ومن القبائل العربية البائدة الذين نزلوا فلسطين في عصرها الكنعاني العربي الأموريون<sup>(9)</sup>، والمعنونيون<sup>(10)</sup> والأدوميون والمؤابيون والعمونيون<sup>(11)</sup> والذين تصدوا لليهود عندما جاءوا لغزو فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. هذا وقد اختفى اسم الأدوميين وأبناء عمومتهم من العرب البائدة في بوتقة الكنعانيين العرب في فلسطين ونرجح أن فلاحي فلسطين اليوم هم من ذراري الكنعانيين ومن امتزج بهم من القبائل العربية الأخرى رغم موجات الغزوات والفتوحات التي مرت عليهم.

(1) الطبري : ن م، ن ص.

(2) ابن قتيبة : عبد الله الدينوري، : عيون الاخبار، القاهرة ج4 ص43. (بدون تاريخ)

(3) المدنيين : عرب نسبة الى مدين بن النبي ابراهيم من زوجته " قطورا بنت بقطين " الكنعانية ( الدباغ : القبائل العربية ص 27 وقد أخرجت إحدى قوافلهم في القرن السابع عشر قبل الميلاد يوسف بن يعقوب من البئر التي القاه بها اخوته. " النويري: نهاية الارب، ج13/ص 168.

(4) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج1، ق1، ص408.

(5) المقرئزي : الخطط ج1 ص 331.

(6) الطبري: م س، ج1، ص 309. وابن الأثير: الكامل، ج1، ص157، سورة هود آية 94، 95.

(7) وفيها مسجد الانبياء فيه قبر ينسب الى شعيب وبنته زوجة موسى، الدباغ: القبائل العربية ص31.

(8) الهروي، علي، كتاب الإرشادات على معرفة الزيارات، دمشق 1953م ص20.

(9) الأموريون: انشأوا مدنهم في " تل الحسي " على مسافة 18 كم جنوب غربي بيت حيرين في فلسطين و 26 كم للشمال الغربي من غزة " الدباغ " القبائل العربية، ص32 ط2 1986. وفي " تل النجيلة " الذي يبعد 28 كم شمال شرقي غزة وفي شعليم: قرية سلفيت جنوب شرقي اللد. الدباغ : ن م، ص33.

(10) المعنونيون: دولتهم في اليمن ما بين 300 - 630 ق.م وصلوا بتجارنتهم الى شواطئ البحر الابيض المتوسط، فكانت مدينة معان الاردنيه مركزاً لسلعهم وتجارنتهم في فلسطين وقد غزا جماعة منهم جنوبي فلسطين وكانوا دولة حتى عهد الاسكندر الكبير انظر: الدباغ: بلادنا فلسطين. ج1 ق1، ص403-406، 409.

(11) في حوالى عام 1500 ق.م نزلت القبائل العربية الموآبية والأدومية والعمونية جنوب شرق الشام بجانب الكنعانيين في فلسطين ولبنان فقد نزلت القبائل الأدومية ما بين " العقبة " وبين نهر الحسا الذي يصب في البحر الميت وامتد نفوذهم الى الخليل وبيت حيرين وكان منهم النبي أيوب الذي ذكر في القرآن الكريم أربع مرات " سورة النساء آية 163 وسورة الانعام آية 84 وسورة الأنبياء، 83، وسورة ص 41. وهو النبي الذي عرف بصيره وانظر الدباغ: بلادنا فلسطين ج1 ق1، ص498-499.

**ثانياً : العرب العاربة:** وهم اليمانيون من نسل قحطان بن عامر بن سام بن نوح ويرى بعض المؤرخين أنه عاش في نحو القرن العشرين قبل الميلاد<sup>(1)</sup>. هذا وللقحطانيين صلات وثيقة بفلسطين منذ أيام الفتوحات الإسلامية التي كان يغلب على جيوشها القحطانيون والباقي من العدنانيين ثم زاد عددهم في بلاد الشام بالهجرة والتوالد. لأن الشام كانت ملجأ العرب منذ القدم، فقد انتشرت قبيلة قضاعة الحميرية في زمن تيطس الروماني (79-81م) في المناطق الواقعة بين جبل الشيخ وجبال فلسطين والبلقاء والغور والعقبة وجبال الكرك<sup>(2)</sup> وفيها كبار الصحابة أمثال : دحية بن خليفة بن عامر الكلبي الذي يعثه الرسول الكريم في السنة السادسة للهجرة الى قيصر الروم يدعوهُ للإسلام، وشهد اليرموك وسكن فلسطين وتوفي في قرية الدحي<sup>(3)</sup> من أعمال الناصرة في خلافة معاوية<sup>(4)</sup> كما نسبَ الى الجد عامر مرج بن عامر في فلسطين وكانت الرئاسة لبني بحدل الكلبي زمن الأمويين حيث ساعدوا مروان بن الحكم في معركة مرج راهط عام 684م، كما تزوج منهم معاوية ميسون بنت بحدل الكلبي وهي أم ولده يزيد<sup>(5)</sup> ومن العشائر الفلسطينية التي تنسب اليوم الى بني كلب عشيرة السراحين في بئر السبع والهديبات في جبل الخليل والفحيلي في قضاء طبرية<sup>(6)</sup> أما بالنسبة للعشائر الاردنية التي تنسب الى بني كلب في الوقت الحاضر

(1) الدباغ: القبائل العربية ج3، ط2. 1988 بيروت، ص43. ومن أمهات قبائل قحطان: حمير وكهلان.  
(2) الدباغ: ن.م ص43-44 ومن بطون قضاعة في فلسطين بنو كلب، وجهينة، وقدامة، وبنو بهراء وبنو عذرة. وانظر القلقشندي: م س، ج1 ص316 ذكر بني كلب في دومة الجندل وتبوك واطراف الشام في الجاهلية، ثم نزلت غور الاردن وجنوبي عكا والساحل في أوائل الأموي. وانظر: ولها وزن : يوليوس: الترجمة العربية الدولة العربية سقوطها دمشق، 1956، ص 143، يذكر ان عاصمة بني كلب تدمر، وكانت تنتشر في دومة الجندل وتبوك ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ج2 ص521 وانظر ابن حجر: احمد بن علي: الاصابة في تمييز الصحابة، القاهرة 1328هـ، ج1 ص563 وابن عساكر تهذيب تاريخ ابن عساكر: دمشق، 1332هـ ج2، ط39 حيث ينسبون الى بني كلب حارثة بن شرحبيل الكلبي " أبو زيد بن حارثة مولى رسول الله وجد اسامة بن زيد الذي سكن الرملة في فلسطين ومات فيها سنة 5هـ، ابن الاثير : م س، ج2، ص311.

(3) الدباغ: بلادنا فلسطين : ج7 ق2، ص21.

(4) ابن حجر: الاصابة، ج1، ص 473.

(5) الدباغ: القبائل العربية، ط2، ص84 ط2.

(6) ن.م. ص 49.

## - العوران : في محافظة الطفيلة<sup>(1)</sup>

- والرواشدة: في قرية " عي " بالكرك وفي قرية قميم و " الكتة " في لواء عجلون<sup>(2)</sup> وكان من فروع قبيلة قضاة أيضاً قبيلة بلي والنسبة اليها بلوي التي سكنت في جبال الشراة ومعان وأيلة<sup>(3)</sup>، ومن عشائرها اليوم في جنوب فلسطين " عرب البلاونة " في قضاء بئر السبع ومنهم ابو سليل وعشيرة الظلام " عرب المريد في صفد"، "عرب النقر في حيفا"<sup>(4)</sup>.  
أما في شرقي الاردن فمنهم بنو عطا في وادي موسى والسلايطة والشخاتره والشنيكات<sup>(5)</sup> والشرايرة في اربد وضواحيها<sup>(6)</sup> ومن قبائل قضاة أيضاً في جنوب بلاد الشام قبيلة جهينة، التي كانت تسكن الجولان وحوران والغور الفلسطيني " غرب نهر الاردن"<sup>(7)</sup> وبعد الفتوحات الاسلامية انتشرت جهينة في مختلف انحاء الشام ومصر ومن بطون هذه القبيلة " الجرادات " في فلسطين وشرقي الاردن اليوم في " سال " و " بشرى " ومن فروعها " الجبور " إحدى بطون الكعابنة في شرقي الاردن<sup>(8)</sup> هذا بالاضافة الى قبيلة بنى جرم من بطون قضاة التي سكنت ما بين غزه وجبال الشراة في الكرك<sup>(9)</sup> ومن سلالة جرم في شمال الاردن عشيرة العزام في قم وصيدور وججين وكفرعان. ومن بطون قضاة في فلسطين " بنو قدامة " في بلاد جماعين من أعمال نابلس الذين نزحوا أيام الغزو الصليبي عام 1153هـ الى دمشق في حي الصالحية<sup>(10)</sup> وأما بنو عوف في شرقي الاردن فكانوا في " جبل عوف " بالقرب من عجلون ودخلوا في طاعة

(1) بيك، فريدريك : تاريخ شرق الاردن وقبائلها، القدس، 1934 ص 343 وهم من الشرارات من بني كلب من القحطانية.

(2) فريدريك بيك، م س، ص 355، وقد سمي العرب سهل البقاع اللبناني قديماً "بقاع كلب" نسبة لهذه القبيلة ثم بقاع العزيز نسبة الى العزيز بن صلاح الدين الأيوبي عزيز مصر وسوسة، (1193 - 1198م). أنظر الدباغ : بلادنا فلسطين، ج1، ق1، ص602.

(3) كحالة: معجم قبائل العرب: ج1 ص105.

(4) دباغ: ن م، ج3، ق2، ص372، وج1 ق1 ص236، وج6 ق2، ص233.

(5) بيك، ن م، ص 250، 258.

(6) ن.م ص 275 والشرايرة أبناء عم البلاونة في الغور الذي سمي باسمهم والذي يوجد فيه الآن مزار " الصحابي الجليل ابو عبيدة عامر بن الجراح " وقد زرته وصليت في مسجده. ومن عرب البلاونة ايضاً: الزفنة في الياودة وقويسمة وخريبة السوق في محافظة عمان. بيك : ن م، ص 257.

(7) الدباغ: القبائل العربية ج2 ص55.

(8) ن.م ص57. ج2 وبيك: ن م، ص22.

(9) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخير " تاريخ ابن خلدون، ج2 ص517، ص535 يقول: تقع جبال الشراة شمال محافظة معان وتمتد من الشوبك الى رأس النقب وعلى بعد 38 كم من مدينة معان، وفي جنوبها تبدأ جبال حسمي.

(10) القلقشندي: م س، ص 397، والمقريري: البيان والاعراب عمن حل بأرض مصر من الاعراب، مصر 1334هـ، ص 397.

صلاح الدين الأيوبي بعد بناء اسامة بن منقذ أحد امراء صلاح الدين الأيوبي قلعة عجلون<sup>(1)</sup> " قلعة الربض اليوم " التي ينسب اليها " عشيرة الربضي في عجلون اليوم وقد هاجر فرع منها عام 1825م الى رام الله في فلسطين عرفوا بـ " آل العجلوني"<sup>(2)</sup> وبنو طيء من بني كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان بن سام نزلوا في اليمن والحجاز ونجد ثم انتشروا في العراق والشام بعد الفتوحات الإسلامية، وكانوا أصحاب الرئاسة في العرب<sup>(3)</sup> ومنهم بنوا الجراح في البلقاء والرملة، وآل ربيعة من بني الجراح زمن الزنكيين ومنهم آل فضل من ربيعة زمن المماليك الذين أبلوا بلاءً حسناً في محاربه الافرنج والمغول<sup>(4)</sup> ومن آل فضل اليوم آل طوقان في نابلس الذين يتفرع منهم: آل خليفة والخواجة والبيكات ورحال والأغوات وعبد الرزاق. وتعرف طيء اليوم باسم قبيلة " شمّر" في نجد والحجاز وجنوبي بلاد الشام مثل عشيرة الحجايا في الكرك، والعربيات في السلط والغيايين من تابعي بني صخر<sup>(5)</sup> بالاضافة الى عشيرة الحيارات في بئر السبع والجريان في يعبد، والعاجرة في الغور الفلسطيني<sup>(6)</sup> أما بنو جرم فهم من بطون طيء الفلسطينية في غزة والداروم<sup>(7)</sup> وتوجد قرية الجرم في محافظة اربد في الغور. أما بنو جذيمة: فمنهم بنو سهيل في الداروم، والعبادلة في خان يونس<sup>(8)</sup> والقدره ببلاد غزة، وبنو لام جنوب حيفا الساحلية<sup>(9)</sup> وبنو سُنْبِس من بطون طيء الذين نزلوا جنوبي فلسطين، وتتسب اليهم اليوم " خربة سُنْبِس " في اقليم غزة<sup>(10)</sup> ومنهم قبيلة الحارثية<sup>(11)</sup> ومن بني سُنْبِس عشيرة

(1) القلقشندي: ن س : ج4 ص 86.

(2) الدباغ: القبائل العربية ط2 ص 63.

(3) النويري : م س، ص 326، وابن خلدون، م س، ج2/ص530.

(4) القلقشندي: س، ص 111.

(5) بيك: م.س، ص 22.

(6) الدباغ: القبائل العربية، ط2، ص 79.

(7) الداروم هي الاقسام الجنوبية من بيت جبرين في العهد الروماني ومن مدنها اليوم " السموع " و " بطة " و " دوما " و " خويلبه " (للدباغ: ن.م. ص 80.

(8) انظر النويري: ن م، ص 298 والدباغ: بلادنا فلسطين ج1 ق2 ص296.

(9) نزل هناك الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي في بلدة بني لام انظر القلقشندي: ن م، ص 448.

(10) الدباغ: بلادنا فلسطين ج1 ق2 ص249.

(11) ابن خلدون: تاريخه، ج6، ص 12 يقول عنهم " أنهم من اوفر القبائل عدداً متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لاجتيازونها الى القفار ومنهم " ابن طرباي" الذي ايد السلطان العثماني سليم الاول فاتح الشام، و احمد طرباي بن علي الحارثي " امير اللجون (979-

1057هـ-1571-1648م) انظر بلادنا فلسطين: ج3، ق2، ص43.



الروسان شمال الأردن وأما قبيلة ثعلبة من بني طيء فقد نزلوا جنوب بلاد الشام وكانوا مجاهدين ضد الفرنج<sup>(1)</sup> كما تزعمهم عام 750 هـ/1352م "سنجر بن علي" الذي انتصر على جرم ونهب القدس والخليل واللد والرملة، ولكن المماليك اضطروه للفرار الى البادية واخرجوه من القدس بعد تطويقهم له قرب اللد<sup>(2)</sup> ومنهم في فلسطين بنو زريق وبنو درما<sup>(3)</sup>، والنفيعا<sup>(4)</sup> والعليميون<sup>(5)</sup> والمساهرة<sup>(6)</sup> في غزه والعقيليون<sup>(7)</sup> ومنهم آل الشؤا في غزه اليوم ومن احلاف ثعلبة طيء ببلاد الشام والنعيمات في بلاد سبع والخليل والبلقاء والكرك<sup>(8)</sup> ومن قبائل كهلان : أ-كندة التي استقرت في بلاد البلقاء بعد الفتوحات الاسلاميه ومنهم شرحبيل بن حسنة الذي فتح شمال فلسطين ومات في طاعون عمواس ودفن في الغور. ومنهم امرؤ القيس بن عابس الكندي<sup>(9)</sup> ومن فلسطيني كندة رجاء بن حيوة الكندي المولود في بيسان والمتوفي عام 112هـ/730م الذي كان اميناً على بيوت وأموال وخزائن عبد الملك بن مروان ثم مستشاراً لعمر بن عبد العزيز ومنهم عبادة بن منسي القاضي الملقب بسيد أهل الأردن المتوفي عام 736/118 والشاعر المحدث بن المبارك الطبراني<sup>(10)</sup>

ب- ومنهم الصعوب في طولكرم والحوث في يافا وبنو الصدف في ديرغسانة من اعمال رام الله<sup>(11)</sup>

ج- ومنهم بنو خثعم الذين نزلوا فلسطين أيام الفتح، ومنهم الصحابي تميم بن ورقاء الذي حضر فتح قيساريه الفلسطينيه عام 19هـ/640م ومنهم التابعي: مالك بن عبد الله الخثعمي الذي

(1) المقرئزي: البيان والاعراب ص3، والقلقشندي، ن م ص195.

(2) المقرئزي: السلوك: ج2 ق3، ص804-807.

(3) القلقشندي: م س، ص251، 271.

(4) شقير، نعوم، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، القاهرة 1916 ص 110.

(5) القلقشندي: صبح الاعشى ج1 ص 323.

(6) القلقشندي: نهاية الأرب ص 159.

(7) الدباغ: بلادنا فلسطين ج1 ق2، ص 388.

(8) الدباغ: القبائل العربية، ط2، ص 93.

(9) ابن حجر: الاصابة م.س، ج1 ص63-64.

(10) ابن عساكر: علي بن الحسن، تهذيب تاريخ ابن عساكر، دمشق 1332هـ، ج4 ص361.

(11) الدباغ: القبائل العربية ص96-97.

كان قائد جيوش الصوائف زمن معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان والذي غزا بلاد الروم عام 46هـ/661م وغنم منهم واستشهد عام 55هـ/670م<sup>(1)</sup>

د- بنو زبيد من كهلان : في غزه ومنهم عرب السواعد في قضاء عكا وحيفا ومنهم الفريجات في جبل عجلون وجبع قضاء جنين<sup>(2)</sup> والديكة في شرقي الاردن<sup>(3)</sup>.

هـ- ومنهم بنو الأشعر الذي ينسب لهم ابو موسى الأشعري الذي سكن مدينة الرملة وولاه عمر بن الخطاب البصرة وعينه عثمان على الكوفة وكان ما كان من امره في التحكيم<sup>(4)</sup> وقد نزل الأشعريون ايام الفتوحات الاسلامية في طبرية، عاصمة جند الاردن، وقد مدحهم الرسول الكريم<sup>(5)</sup> أما بنو جذام قبل الاسلام فقد حاربوا عبدالله بن رواحة في غزوة مؤتة عام 8هـ/629م وكانت منازلهم ما بين عمان ومعان ومدينة غزة، ومنهم روح بن زنباع<sup>(6)</sup> وزير عبد الملك بن مروان. هذا وقد انحاز الجذاميون الى معاوية في نزاعه مع علي بن أبي طالب<sup>(7)</sup>، كما بايعوا مروان بن الحكم في الجابية قرب دمشق متأثرين بخطبة روح بن زنباع<sup>(8)</sup>، فاستعمله مروان على فلسطين بعد معركة مرج راهط بعد هزيمة الضحاك بن قيس<sup>(9)</sup> والي الزبير على أهل الشام عام 65هـ/684م الذين بايعوا ابن الزبير عدا أهل الاردن وشمالى فلسطين ولكن وجاهة هذه العائلة اضمحلت بقيام الدولة العباسية، عدا الفرع الزنباعي في مصر حيث تولى أحد احفاد روح بن زنباع (حمل اسمه روح بن زنباع)

(1) ابن حجر : م س ج3 ص347.

(2) الدباغ: القبائل العربية، ص 101.

(3) بيلك، م.س ص 221.

(4) انظر الفلقشندي: م س، ص 168، كحالة "معجم قبائل العرب ج1 ص31 وابن حجر: الاصابة ج4 ص187.

(5) النويري: م س، ج7، ص64. ذكر حديثاً شريفاً نصه: " يا بني هاشم ان زوجوا الاشعرين وتزوجوا إليهم. فانهم في الناس كصرة المسك وكالأترج الذي إن شمته ظاهراً وجدته طيباً وإن اختبرت باطنه وجدته طيباً".

(6) انظر ابن حجر م.س ج1 ص524 الاصفهاني، الاغاني ج9 ص232 وابن تغري بردي، م س، القاهرة ج1، ص205. وانظر الدينوري عيون الاخبار ج1/ص102.

(7) الدباغ القبائل العربية ص 113.

(8) الطبري. م س. ج5 ص536.

(9) وانظر الاندلسي أحمد بن عبدربه، العقد الفريد القاهرة، 1953، ص14 يذكر بانه أشار على عبد الملك بتعيين الحجاج بن يوسف الثقفي اميراً على الجند فثبت ملك الأمويين ومات روح في شمالي فلسطين عام 84هـ/703م في عهد عبد الملك، لمزيد من المعلومات انظر: الاصفهاني: الاغاني ص227 وما بعدها وابن عساكر، م س، ج5/ص339.

ولاية مصر على الصلاة والخراج عام 176هـ/795م.<sup>(1)</sup> ومن فروع بني جذام في بلادنا اليوم بنوعائد: الذين كانوا يقيمون بين بلبس في مصر الى أيلة والكرك وبنو عقبه في الكرك.<sup>(2)</sup> هذا وقد اكرم الظاهر بيبرس امراء العائد في غزة عام 661هـ/1263م وكلفهم بخدمة البريد وإحضار الخيل اللازمة له. كما كلفهم بحراسة الحجاج الى العقبة<sup>(3)</sup> وتنتسب اليهم عشائر العباييده في بئر السبع وعائلة هيكل في يافا والعايدي من التياها. والشبول والربيع في الأردن وعرب السواحر في بيت لحم ومن جذام اليوم قبيلة بنى صخر من أقوى عشائر شرقي الأردن الى الشرق من عمان ومأدبا ولهم فروع في فلسطين مثل الكعابنة في الخليل وهم أحلاف آل فضل في الشام ويحتمل ان يكون " الدعجيون " ومنازلهم حول الكرك هم " الدعجة " المستقرون في بلاد الكرك اليوم<sup>(4)</sup> وقبلية لخم تمت بالقراية لقبيلة جذام<sup>(5)</sup> وقد انتشروا قبل الاسلام في الشام والعراق وباديتها وفي فلسطين ومنهم المناذرة ملوك الحيرة بالعراق وقد نزلوا في أواخر القرن الثاني الميلادي جنوبي فلسطين وامتدوا غرب البحر الميت<sup>(6)</sup> وشاركوا في فتح مصر ونزلوا في الرملة وامتدوا حتى نابلس ومن تبوك الى زغر " غور الصافي " ثم بحيرة لوط والخليل وصفورية وحووران والجولان وغيرها<sup>(7)</sup> ومن اشهر قادة المسلمين الذين ينتسبون الى اللخمييين موسى بن نصير

(1) ابن تغري بردي : م س، ج2 ص83 وظهر من اتباعه عائلة بني عبد الظاهر الزنباغي الذي نبغ فيها عبد الله بن عبد الظاهر الزنباغي (620-692هـ/1122-1293) المولود في مصر في عهد الملك الكامل الأيوبي حيث كان أشهر قضاة الممالك البحرية حيث اشتهر في عهد بيبرس وقلان وتوفي في عهد الأشرف خليل الذي طهر البلاد من فلول الفرنجة. ومنهم محمد الزنباغي المولود عام 638هـ/1233م بالقاهرة. وأول من سمي بكاتب السر في الديار المصرية فكان صاحب ديوان الانشاء فيها وخدم بيبرس وقلان انظر الزركلي: خير الدين، الاعلام، القاهرة 1954-1959 ج4، ص232 وتوفي بدمشق عام 691هـ/1293م. دائرة المعارف الاسلامية القاهرة ج1/337-338.

(2) ابن خلدون: تاريخه ج2 ص535.

(3) القلقشندي - م س، ص 333.

(4) بيلك م. س ص 258

(5) ابن عبد ربه: م س، ج3 ص401 وقيل سُمي بهذا الاسم لانه لطم " لخم وجه اخيه فقام أخوه وحذم اصبع أخيه الذي سمي جذاماً ". وقيل ان القافلة اللخمية اخرجت يوسف بن يعقوب من الجب عام 1678ق.م الذي يقع قرب قرية عرابية في قضاء جنين. وقيل ان اصحاب الكهف منهم انظر عمر بن يوسف : طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، دمشق 1949، ص33.

(6) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج1، ق1، ص710.

(7) كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق، 1949 ج3 ص712 وغور الصافي على شاطئ البحر الميت الجنوبي الشرقي ومنهم تميم الداري: الذي أعطاه الرسول الكريم جبرون "الخليل" بقلعتها وحرماها وبيت ابراهيم وبيت عينون الطيري، م س، ج3 ص174.

(19-97هـ/640-715م) والذي اختلف في مكان ولادته<sup>(1)</sup> والذي ولاه الوليد بن عبد الملك جميع مقاطعات افريقيا الشمالية حيث اسلم البربر على يديه وكان له فضل فتح الاندلس لكن سليمان بن عبد الملك عزله وأهانته وعاش بقية حياته فقيراً<sup>(2)</sup> ومنهم : القاضي الفاضل (529-566هـ/1135-1172م) اللخمي العسقلاني من أهل عسقلان والذي كان أبوه قاضي بيسان وكانوا اخوة ثلاثة نزلوا في الاسكندرية وكان القاضي الفاضل يحب الكتابة والانشاء فخدم بديوان الانشاء في الاسكندرية أيام الخليفة الفاطمي الحافظ ثم نقل إلى ديوان المكاتبات في القاهرة الذي كان يرأسه ابن الخلال. وبلغت مسودات رسائله حوالي مائة مجلد<sup>(3)</sup> تم وزر القاضي الفاضل لصالح الدين الأيوبي ولولديه في مصر والشام من بعد<sup>(4)</sup> ومن رؤساء اللخمين المتدينين الشيخ الامام عبد العزيز بن الحسين الداري الخليلي الذي أنشأ المدرسة المجدية في مصر ودرس فيها ابنه عمر<sup>(5)</sup> وكان عبد الرحمن بن عمر اللخمي المولود في القدس عام 749هـ/1352م أحد محدثي بيت المقدس<sup>(6)</sup> ومن فروع لخم " بنو نيهان " في بئر السبع وإجزم من أعمال حيفا، والمسايد في الغور النابلسي ودار الديك في جبل نابلس والرفيدات في نابلس والقدس وقرية الرفيد شمالي اربد وبنو سماك حول الكرك<sup>(7)</sup>، والمجالي في الكرك وهم من رهط تميم الداري. وهكذا نرى بأن أهل فلسطين كانوا ومازالوا من لخم وجذام وكثيراً ما سميت الشام بـ " أرض لخم وجذام "<sup>(8)</sup>

(1) انظر المقرئ: نفح الطيب في غص الاندلس الرطيب، بيروت ج1 ص288 والبلاذري: احمد بن يحيى، فتوح البلدان، بيروت 1957م ص346 والذي يقول فيه " كان نصير أبو موسى سبي أيام أبي بكر من جبل الجليل بالشام وولده موسى بقرية كفرمري، مما جعل البعض يظن انها قرية بشري في ظاهر بيروت. وانظر ياتوت: معجم البلدان ج4 ص471 فيذكر مولده بقرية " كفرمري " وسبي ابوه من جبل الجليل واعتقه بعض بنى اميه ورجع الى الشام وولد له موسى بقرية يقال لها كفرمري وقد تكون كفرمري هي قرية كفرمري في فلسطين.

(2) انظر: المقرئ: ن م، ج1 ص283، 284، 287 وابن خلكان: وفيات الأعيان ج4 ص402، وابن الأثير الكامل ج5 ص22.

(3) انظر: ابن خلكان: ن م، ج2، ص333، 334، 335.

(4) ابن خلكان ن م، ج2 ص337.

(5) الذهبي، محمد بن احمد: العبر في اخبار من غير، الكويت، 1961م، ص329.

(6) الدباغ: القبائل العربية ج1 ص147.

(7) القلقشندي: صبح الأعشى ج1/334.

(8) الدباغ: م س، ص150 ذكر بان تحية ملوك لخم وجذام " أبيات اللعن " ومعناها: " أبيات أن تأتي من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه " وقالوا : أول من حي بتحية الملك، " أبيات اللعن وانعم صباحاً " يعرب بن قحطان.

وأما الغساسنة " بنو جفنة " فكانوا من الأزد من كهلان في اليمن، وهاجروا في أواخر القرن الثالث الميلادي الى تدمر وحوران واليرموك واعتنقوا النصرانية تحت الحماية البيزنطية. واليهيم ينسب " بناء القسطل " و "الزرقاء " و " أذرح " و " الجرباء " و " معان القديمة " وغيرها في شرقي الاردن ومن شيوخهم جبلة بن الأيهم<sup>(1)</sup> وقد ارتبط اسمهم في قرية " دير غسانة " من أعمال رام الله ومنهم الحدادين في فلسطين وخاصة بيت المقدس. وأما الفرع الذي نزل بشرقي الاردن فقد تفرق في قرى شمالي الاردن مثل " عنبة " و " سموغ " و " خنزيرة " الأشرفية اليوم ودير ابي سعيد وفي الصلت بالبلقاء<sup>(2)</sup> ومنهم آل سماوي في الناصرة وحيفا وعمان والفحيص<sup>(3)</sup> والعزيرات والمعايطة في ديرة الكرك، ومنهم بنو نمر في الحصن من أعمال اربد ومنهم أكثر المسيحيين العرب<sup>(4)</sup> لقد ذكر ابن اياس قول صاحب كتاب " روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر " أن أول من ملك الشام من بنى غسان بن جفنة بن عمرو بن ثعلبة فدانت له قبيلة قضاعه، ثم نقل الملك في أولاده الى أن انتهى في جبلة بن الأيهم الذي تنصر زمن عمر بن الخطاب ويعود أصل غسان إلى قبيلة الأزد من ولد كهلان بن سبأ من اليمن الى الشام حيث نزلوا في ضيعة من أعمال الشام تسمى غسان فسموا بها واطلق عليهم اسم بنو غسان<sup>(5)</sup> وكان ملكهم قبل الاسلام باربعمائة سنة ، حيث كان أول ملوكهم الحارث بن عمرو بن عامر بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، ثم تداول ملك الشام منهم سبعة وثلاثون ملكاً ومدة ملكهم ستمائة وست عشرة سنة الى أن كان آخرهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم وارتد الى النصرانية في زمن عمر بن الخطاب<sup>(6)</sup> الذي هدد بضرب عنقه ان ارتد فهرب الى القسطنطينية عند ملكها هرقل مع هداياه الجزيلة وأقام عنده الى ان مات بها. وكثر نسله في القسطنطينية ، وهم العرب المنتصرة، وسكنوا بلدة كسا بالقرب من ارض الروم فاكتسبوا هذه العجمة في

(1) للمزيد من المعلومات: انظر: كحالة/ معجم قبائل العرب ج3، ص882 والقلقشندي: م س، ج1 131، والنويري، م س، ص 388.

(2) بيك: م.س، ص 246.

(3) بيك، ن.م ص 247-248.

(4) حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان، بيروت 1959، ج1، ص 444.

(5) ابن اياس محمد بن الحنفى بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1 ق2 ص313.

(6) ن.م ن ص- ذكر قصة الرجل الذي وطئ ازاره وهو يطوف البيت العتيق وضربه له ، ورَفَضَه حكم عمر باضاء خضمه.

ألسنتهم، وقد استدلوا على أن الجراكسة من العرب لسمرة ألوانهم ونحافة أبدانهم<sup>(1)</sup> وأما الأوس والخزرج " الأنصار " فكانا أخوان في موطنهما الأصلي اليمن ونشبت بينهما حروب دامية لمدة عشر سنوات قبل الاسلام انتصر فيها الأوس وهم اربع عشرة قبيلة<sup>(2)</sup> ومن سلالتهم في فلسطين آل الصامت في منطقة الرملة والقدس<sup>(3)</sup> ومنهم آل غانم من الخزرج في بورين من أعمال نابلس نسبة الى جدهم غانم بن علي الخزرجي المولود في بورين عام 562هـ/1164م والذي ولاه صلاح الدين الأيوبي " الرباط الصلاحي " أي الخانقاه الصلاحية للعلماء الصوفيين وفي القدس اليوم " حارة الغوانمة " بجوار الحرم الشريف. وسمي باب الحرم المؤدي الى الحارة " بباب الغوانمة"<sup>(4)</sup> ومنهم آل نسييه في القدس<sup>(5)</sup>.

**ثالثاً : العرب المستعربة :** الذين يرجعون بنسبهم الى النبي " اسماعيل بن ابراهيم<sup>(6)</sup> وسموا بالاسماعيلين ثم بالعنانيين نسبة الى عدنان من رجال القرن السادس قبل الميلاد، وكانت منازلهم في الحجاز وتهامة ونجد. ومكة " قريش " وقد ولد عام 1794 ق.م من امه هاجر جارية سيدنا ابراهيم في فلسطين وقد اختلف في مكان ولادته بفلسطين<sup>(7)</sup> وقد

(1) ابن اياس، ن.م ص 314 و 315 حيث ذكر ابن اياس قول قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني في تاريخه عن أصلهم: بان سبب تسمية هذه القبيلة بالجراكسة بسبب جر كساء حيلة بن الأيهم، وقد أيد ذلك بن البارع ناصر الدين بن قانصوه في قصيدته.

جر كس نيل الملوك وما	وما عزهم في في قصر مكتسب
أيهم المذكور جرهم	من ال غسان يتسب
وأبوهم مثله ملك	وكذا أبأوه النجب
هذه بالحق نسبهم	وبصدق تشهد الكتب
كان طومان باي آخرهم	ملكا أعني الذي صلبوا

(2) عمر بن يوسف: طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، ص 9

(3) العليمي، الانس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل ج3/ص4.

(4) الدباغ: القبائل العربية ص 161.

(5) العليمي، ن م، ص 417. ومن سلائل الأزدي في فلسطين " المنارة " في مدينة طرية، والشقران وآل جرار في جنين ونابلس.

(6) المسعودي: م س، ج2 ص 21 ذكر: " وقيل انما سمي اسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حيث هربت من سيدتنا سارة، وقيل ان الله سمع دعاء ابراهيم ".

(7) انظر: الطبري: م.س، ج1 ص 311، وعنه اخذ ابن الأثير: الكامل: ج1 ص 104 وياقوت الحموي، معجم البلدان ج4 ص 373، ودائرة فن للبيستاني، بيروت، 1876م ج1، ص 245. وقضى سنيّاً من طفولته في " رامة الخليل " على بعد كيلو مترين شمال مدينة الخليل. الدباغ، بلادنا فلسطين ج5 ق 2 ص 163.

وردت قصته في القرآن الكريم<sup>(1)</sup> وقد تزوج اسماعيل بفتاة من قبيلة "جرهم" فولدت له اثنا عشر ولداً هم آباء العرب المستعربة اليوم ومنهم عدنان الذي ينتهي اليه نسب الرسول الكريم، وشارك اسماعيل والده في بناء الكعبة<sup>(2)</sup> ومن بطون العدنانيين بنو إيلاد الذين هاجروا من الحجاز الى العراق والبحرين وجنوب الشام وخضعوا للغساسنة حيث تنصروا كأكثر عرب الروم<sup>(3)</sup> وكذلك بنو عنزة التي دخلت حوران وشرق الاردن واصبحت سيدة بادية الشام حتى وادي الفرات واطراف العراق<sup>(4)</sup> ومن سلالة غزة في فلسطين قبيلة الترابيين في بئر السبع التي تعود الى بنى عطية الحجازية التي ينسب اليها آل النتنشة في الخليل، وعائلة الهباب في يافا. وفي شرقي الاردن أفخاذ ينسبون الى بني عطية في محافظة الكرك كعيال هليلة وبعض عشائر الحويطات جنوب الكرك وعرب السوالمة شمال يافا وهم من الرولة عشيرة النصيرات في منطقة بني عبيد في محافظة اربد ومنهم ايضاً عشيرة العبيدات في محافظة اربد و "الجزازية" في السلط. ومن قبائل ربعة العدنانية "آل النمر" في نابلس وينتسب "بنو هاني" في محافظة اربد الى عشيرة آل النمر<sup>(5)</sup> وأما عشيرة بكر بن وائل العدنانية فقد نزلت بجنين وما جاورها<sup>(6)</sup> وكذلك قبيلة بنو كنانة العدنانية التي هاجرت من جهات مكة ونزلت في فلسطين بجوار عسقلان بجانب لحم وجذام وعاملة وكندة وقيس وغيرها<sup>(7)</sup> هذا وتنسب

(1) سورة ابراهيم آية 37 "ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم".

(2) سورة آل عمران آية 96، وسورة البقرة آية 126. وهو ولده الذبيح علي "منى" على يسار الذاهب لعرفات على رأي أكثره المؤرخين "سورة الصافات" آيات 101-107. وقد دفن سيدنا ابراهيم في مدينة الخليل. كما عاصر عدنانا يختصر حوالي (605-562 ق.م) القلقشندي: م س، ص 353.

(3) القلقشندي: م س، ص 424، 353 وانظر البكري: ابي عبيد الله عبد الله، معجم ما استعجم، القاهرة 1947-1951 ج1 ص 75 ومنهم قس بن ساعدة الأيادي الذي يضرب به المثل في البلاغة وتوفي عام 625/23.

(4) بيك: م س، ج2، ص 5 وما بعدها.

(5) القلقشندي: م س، ص 432، 77.

(6) القلقشندي: صبح الاعشى ج1/338.

(7) ابن سعد، طبقات ابن سعد ج1 ص 20 ذكر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "ان الله اصطفى من ولده ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم والى بني كنانة ينتسب العلماء المشهورون ابن البلان: علي بن عبد الله العسقلاني من القراء المشهورين والمتوفي في دمشق 636هـ/1238م "انظر: ابن الجزري: محمد بن محمد: طبقات القراء، مصر 1932، ج1 ص 554. والمفتي المدرس احمد بن ارسلان الرملي المولود في الرملة عام 773 ثم سلك طريق الصوفية السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، ج1 ص 282 واحمد بن علي الكنتاني العسقلاني المعروف بابن حجر من أمة العلم والتاريخ (773-852هـ/1372-1444م).

الى بنى كنانه عائلة الخطيب "في بيت المقدس"<sup>(1)</sup> وأما بنو مُضر فهم قبيلة عدنانية من مُضر بن نزار من بنى عدنان في الحجاز الذين كانت لهم الرئاسة بمكة<sup>(2)</sup> وهاجرت الى فلسطين بعد ظهور الاسلام في ديار نابلس، كما نقل هشام بن عبد الملك الأموي كثيراً من بطونها وافخاذها الى بلاد الشام ومصر<sup>(3)</sup> وخاصة نابلس<sup>(4)</sup> ومنها قبلية قيس عيلان التي هاجرت الى أريحا وعمان وبئر السبع وحوران<sup>(5)</sup>، وتفرع من قيس عيلان "بنو عدوان" الذين هاجروا من الحجاز<sup>(6)</sup> وسكنوا منطقة البلقاء في غور نمرين والكفرين وحسبان ومن القبائل العدنانية التي نزلت الشام جنوب بلاد بنو ذبيان في الغور الفلسطيني وبنو جشم جنوبي فلسطين<sup>(7)</sup> وبنو هلال في بئر السبع وحوران<sup>(8)</sup> ومن قبائل الحجاز في جنوب بلاد الشام قبيلة "الحويطات" في جنوب الأردن وسيناء. وقريش العدنانية التي استقرت بعد الفتح الاسلامي في أريحا وعمان<sup>(9)</sup> هذا وقام النبي القرشي العدناني محمد صلى الله عليه وسلم بثلاث رحلات الى جنوب بلاد الشام فمر في معان والحسا، وخان الزبيب "أبنى" وعمان، والمفرق في الاردن اليوم<sup>(10)</sup> وفي غزوة تبوك

(1) الدباغ: القبائل العربية ص 187.

(2) ابن خلدون: تاريخه، ج2 ص 630. وانظر: القلقشندي صبح الاعشى ج1 ص 339.

(3) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الاسلامي، القاهرة، ج4 ص 68.

(4) القلقشندي: صبح الاعشى ج1/339.

(5) الدباغ: بلادنا فلسطين ج2، ق 2 ص 510.

(6) القلقشندي: م س، ص 354.

(7) وهم الذين قاوموا رجوع اليهود الى فلسطين بعد السبي البابلي على يد كورش الفارسي " 530-550 ق.م " الدباغ: بلادنا فلسطين ج1 ق 1 ص 585.

(8) النويري: نهاية الارب ج1 ص 427-487/1036-1094م.

(9) الدومنيكي، الأب أس. مرمرجي: بلدانية فلسطين العربية، بيروت 1948، ص10، وانظر النويري نهاية الارب ج16 ص 37 ذكر بان هاشم وعبد شمس التوأمين لأبيهم عبد مناف وأنهما كانا يخرجان للتجارة في بلاد الشام وماتتا بغزة في عام واحد ومن أولاد عبد شمس أمية جد الأمويين الذي نزل بصفوريه في منطقة الناصرة بفلسطين كما كان ابو سفيان بن حرب ينزل في بلاد الشام للتجارة في قرية يقينس" بالقرب من جسر وادي شعيب في بلاد السلط.

(10) كانت الرحلة الاولى وعمره اثنا عشرة سنة حيث وصل بصرى من بلاد حوران التي تبعد 40 كم للجنوب الشرقي من درعا محمد حسنين هيكل، حياة محمد، القاهرة 1935، ص112-113 والرحلة الثانية وعمره خمس وعشرون سنة خرج باموال خديجة برفقة ميسرة غلام خديجة محمد حسنين هيكل: ن م ج119-120 والرحلة الثالثة: هي رحلة الاسراء والمعراج عام 621م. سورة الاسراء، آية 1. وسورة النجم من الآية 1-18 والنويري: نهاية الارب ج16، ص 283.



عام 9هـ/630م حضر " يوحنا بن رؤية " صاحب العقبة وصالح الرسول(ص) على  
جزية سنوية فأهدى الرسول بغلة بيضاء وأهداه الرسول بردة كما اقبل عليه ممثلون عن  
اهل "أذرح" و "جرباء" في جنوب الاردن معلنين خضوعهم وأذرح تبعد 22كم شمال  
غربي معان وبها كان التحكيم. ومن سلالات أو نسل الرسول الكريم في جنوب بلاد  
الشام عائلة الدباغ في يافا والتي تعود بنسبها الى الأدارسة من الحسينيين أولاد الحسن  
بن علي بن ابي طالب ومنهم " الزعبيّة " في الناصرة وقراها، ويافا وحيفا، وطوباس،  
والسلط وعجلون والرمثا، وعائلة زيد الكيلاني، وعشيرة الملكاوية في محافظة اربد  
وأبناء عمهم في حيفا والناصرة وبيت المقدس<sup>(1)</sup> وعائلة " أبو الرب " في جنين و " آل  
البرقاوي " في طولكرم وغيرهم ومما يجدر ذكره ان العائلتين المالكتين في الاردن  
والمغرب من أحفاد الحسن رضي الله عنه. أما العشائر التي تعود الى الحسين، عشائر  
المومنية والصمادية والقضاة، والخصاونة وسعادة في ام الفحم " بالاضافة الى عائلات  
ترجع نسبها الى الحسين بن علي في بيت المقدس وغزة ويافا ونابلس والسلط<sup>(2)</sup>

وأما الجعافرة: وهم بنو جعفر الطيار بن أبي طالب الذي استشهد في مؤته ومن أحفاده  
عائلات هاشم والحنبلي والنقيب في نابلس والنوايسة في قرية "عي" في محافظة الكرك<sup>(3)</sup> ومن  
بنى المطلب الإمام الشافعي (محمد بن ادريس) المولود في غزة عام 150هـ/767م والحسن بن  
حمد النابلسي الحنبلي المتوفي عام 772هـ/1370م العالم القارئ الف معجم ذكر فيه عدة رجال  
وشيوخ من مصر والشام، أما العباسيون من سلالة العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم  
فمنهم في فلسطين " آل الغصين " في غزة والرملة، والقلازين من التياها في ديرة بئر السبع،

<sup>(1)</sup> الدباغ: القبائل العربية ص 217. ومن اشهر الحسينيين الفلسطينيين ظاهر العمر من عشيرة الزيدانية في الناصرة وبعض قرى الجليل وفي  
منطقة العارضة في محافظة اربد.

<sup>(2)</sup> الأشراف: ويطلق على سلالة السبطين الحسن والحسين أبناء فاطمة الزهراء اسم الأشراف: الدباغ: القبائل الغربية ص 21 ومن خلفاء  
الفاطميين الحادي عشر الحافظ لدين الله ابو الميمون عبد المجيد بن محمد المولود في عسقلان بفلسطين عام 554هـ/1149م والملقب  
باسم الامير عبد المجيد العسقلاني وخدم في كنفه القاضي الفاضل العسقلاني في ديوان انشائه وتوفي هذا الخليفة عام 524هـ/  
1129م. الدباغ: القبائل العربية ص 221. (الدولة الفاطمية من 297-567هـ/ 909-1171م).

<sup>(3)</sup> القلقشندي: م س، ص 124، ج 1 ص 360.

وآل العباسي في صفد والحوائرة في جبل نابلس<sup>(1)</sup> وبالنسبة للأمويين أبناء أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فقد سكنوا سواحل فلسطين وفي القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي كان سكان العقبة ومعان من بني أمية ومواليهم<sup>(2)</sup> ومن أمويي فلسطين يحيى بن علي بن عبدالله القرشي النابلسي المالكي (584-662هـ) كان من حفاظ الحديث وأصبح رئيساً للحديث بالديار المصرية، ومنهم آل طهبوب في الخليل<sup>(3)</sup> وأما العمريون فهم بطن من بني عدي بن كعب من قريش العدنانية/ من أقارب عمر بن الخطاب ويتواجدون في القدس وبيت عور وعجلون والبلقاء<sup>(4)</sup> وعشيرة العمريين والمساكين من عشائر الكورة في منطقة اربد شمال الاردن. وللمساكين فروع في فلسطين في قرى برقين وفقوعه وعرايه من أعمال جنين، وصفورية من أعمال الناصرة<sup>(5)</sup> وأما بنو فهر القرشيين فمنهم في فلسطين بنو الجراح والجوهري والخماش وأبي الهدى في نابلس، والجرارحة والشرمان في قرية المزار من أعمال اربد.<sup>(6)</sup> وبنو مخزوم بطن من مرة بن كعب بن لؤي من قريش، منهم خالد بن الوليد وابو جهل، ومن العائلات التي تنتسب لبني مخزوم في الأردن الشريفة في دير أبي سعيد من أعمال اربد، وأقاربهم من عائلة الخالدي في القدس وقدورة في صفد<sup>(7)</sup> كما توجد عائلة الخالدي أيضاً في جنين وحطين من أعمال طبرية وفي قرى الرملة وقيسارية من أعمال حيفا<sup>(8)</sup> وبنو عروة بطن من الزبير بن أسد بن العربي بن قصي من قريش العدنانية وكان من أحفاد عقبة في فلسطين العالم محمد بن محمد الزبيري العزيري العزي المولود بالقدس (724-808هـ/ 1326-1406م)<sup>(9)</sup>.

(1) الدباغ: القبائل العربية ص 223-224.

(2) الدباغ بلادنا فلسطين ج2 ق2 ص487، 496.

(3) الدباغ: القبائل العربية ص 226.

(4) المرادي: سلك الدر في أعيان القرن الثاني عشر، بغداد، ج4 ص238 والزركلبي: الاعلام ج7 ص 321، وانظر الفلقشندي م س، ص122.

(5) الدباغ: القبائل العربية ص229.

(6) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى ج7، ص398، لمعرفة الشخصيات العلمية.

(7) بيك .م.س، ص 322

(8) الدباغ: القبائل العربية ص 233، 234-548هـ ومن علماء قيسارية محمد بن مضر المخزومي (478-548هـ) كان شاعراً وأديباً وعالماً بالهندسة والحساب والنجوم ومنهم وزير نور الدين محمود زنكي: خالد بن محمد المتوفى عام 588هـ ومنهم زمن الظاهر بيبرس: عبدالله بن محمد الذي كان وزيراً للسعيد ابن الظاهر بيبرس وكان أديباً وشاعراً.

(9) الدباغ: القبائل العربية ص 235.

وبنو شيبه: فهم بطن بن عبدالدار من قريش العدنانية وهم حجب الكعبة منذ زمن قصي ومنهم في فلسطين " السعديون " في قرية المزار من أعمال جنين، وفي عكا وسيلة الحارثية وغيرها<sup>(1)</sup> ومن أشهر علمائهم في فلسطين الذي أسهموا في النهضة العلمية. محمد بن ظاهر الشيباني المقدسي، محدث ومؤرخ وشاعر ولد في القدس وتوفي في بغداد عام 1113/507م<sup>(2)</sup> وشهاب بن خراش الشيباني: صحابي ومحدث<sup>(3)</sup>.

وبنو عامر بن لؤي بن فهر من ( قريش ) العدنانيين فمنهم في غزة عائلة " النخالة " ومن علمائهم في فلسطين عبد الحميد الكاتب الأموي لعبد الملك وابنه يزيد ومروان بن محمد والذي ضرب به المثل في البلاغة<sup>(4)</sup> وقتل مع مروان بن محمد في مصر عام 132 هـ/750م.

وبنو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر من ( قريش ) الذي يتصل بنسب الرسول الكريم فقد استقر قسم منهم في فلسطين في سنجل، وسلواد، وترمس عيا وبدو من أعمال رام الله<sup>(5)</sup>

وهكذا نرى ان سكان جنوبي بلاد الشام كانوا قبائل متعددة من أصول قحطانية وعدنانية، بالإضافة الى من نزلها من الافرنج والأتراك والاكرد والألبان ( الأرناؤط ) والشركس والبشناق والأروام والآرمن وغيرهم ممن تعربوا، وحمل هؤلاء المهاجرون أسماء الأقوام أو المدن التي انتسبوا اليها أو الصناعة التي امتهنوها أو الوظيفة التي شغلوها فقبل عائلة البشناق والاستانبولي والكرد والترك، والشركس، والارناؤط والعنابلي.

وبما أنني قصدت في هذا البحث من تعريف القارئ بحقيقة تاريخ جنوب بلاد الشام ودور الحضارة العربية في تكوين المجتمعين الفلسطيني والأردني وتصحيح بعض الأخطاء الشائعة التي وقع فيها معظم الكتاب والمؤرخين العرب من ارجاع تاريخ اليهود الى عهود قديمة لم يكن

(1) ن.م ص 236.

(2) الزركلي: الاعلام ج7 ص41، وابن خلكان: وفيات الأعيان ج3، ص415.

(3) ابن عساكر: تاريخه ج6 ص342.

(4) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار ج1 ص26-27 وابن عبد ربه، العقد الفر يد ج4 ص165.

(5) ابن سعد: م.س، ج7 ص398، وابن حجر: الاصابة، ج2، ص49.

لهم فيها أي وجود<sup>(1)</sup> ولاظهار بطلان ادعاءاتهم في فلسطين وشرقي الأردن وغيرها من الأراضي العربية السامية، أهل الحضارة والثقافة، ولأنه للأخطار المحدقة بامتنا العربية والتي

(1) تواجد الكنعانيون في فلسطين قبل ظهور النبي موسى وأتباعه بألفي عام "د. سوسة : م س ص 19  
وأما مصطلح اسرائيل فالمقصود به : يعقوب حفيد ابراهيم الخليل وأبناؤه هم بنوا اسرائيل وكان دورهم محصور في منطقة "حاران" حرّان  
اليوم في الجزيرة الفراتية حيث تعتبر وطنهم الأصلي أما فلسطين فهي أرض غربتهم فكان عهد ابراهيم الخليل هناك في القرن 17 ق.م  
قبل هجرتهم لفلسطين وكانت لغتهم هي اللغة الأم للشعوب السامية من كنعانيين وآراميين وعمويين وغيرهم علما بان سيدنا ابراهيم  
كان ينتمي للعشائر الآرامية وتكلم لغتهم د. سوسة : م س ص 27.

وكلمة اسرائيل : كانت اسما لمكان في فلسطين وهي تسمية كنعانية وردت في الكتابات المصرية التي ترجع الى ما قبل عصر موسى كما  
أن أسماء ابرام "ابراهيم" ويعقوب ويوسف وردت في كتابات مصرية تعود الى عصر ما قبل موسى مما يدل على أنها كنعانية. أما كلمة  
موسوي أو قوم موسى : فهم من الجنود الفارين من جيش الفرعون تصحبهم جماعة من بقايا الهكسوس وكانوا يدينون في البداية  
بديانة أختاتون التوحيدية "فرعون مصر" وكان هذا بعد ستمائة عام من ظهور بني بني اسرائيل حيث هاجر الموسويون في عهد  
الفرعون رمسيس الثاني 1290 ق.م أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهناك رأي في عهد منفتح (1232 - 1224 ق.م) وأن  
موسى تلقى الألواح في مدين ومات فيها.

بينما يقول فيليب حتى : ان النبي عاموس "موسى" أول موحد في التاريخ البشري في القرن الثامن قبل الميلاد (750 ق.م) وأن أختاتون  
عاش ما بين 1375 - 1358 ق.م أي بعد ابراهيم الخليل بستماية عام اذ بعث ابراهيم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. د. فيليب  
حتى، سوريا، الطبعة الانجليزية ص 213 - 214.  
S. Ferued, "Moses and Monotheism, p 35.

وخلفه في قيادة اليهود الى فلسطين يوشع ووصلوا الى اريحا عام 1186 ق.م واصطدموا بأهلها من الكنعانيين واليبوسيين فكتب موسى  
الواحة بالهيوغليفيه المصرية، فموسى مصري تربى في البلاط الفرعوني وتزوج من امرأة حسب زعم التوراة "يوسفوس"  
انظر غوستاف لويون : م س، ص 33.

غير أن شريعة موسى هذه لم يعثر عليها حتى الآن. وعندما هاجر هؤلاء الموسويون لفلسطين تكلموا بلغة الكنعانيين وقلدهم في كل  
شيء حتى ديانتهم الوطنية وانعرفوا عن ديانة موسى وشريعته وهؤلاء هم الذين عرفوا فيما بعد باليهود د. سوسة م س، ص 27، 28.  
وتسمية (يهود) فهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سبهم نبوخذ نصر الى بابل في القرن السادس قبل الميلاد / نسبة  
الى مملكة يهوذا المنقرضة. وكانت لهجتهم قبيل السبي الآرامية د. سوسة ص 28، وبها دونوا التوراة الحالية أيام الأسر في بابل أي بعد  
سيدنا موسى بشماتية عام وعرفت هذه اللهجة "آرامية التوراة" وهذه بلا شك غير توراة موسى ويمكن تسميتها "بتوراة اليهود".

وأما كلمة عبري أو عبراني : فقد اطلقت في الألف الثانية قبل الميلاد على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام  
وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة، حتى صارت كلمة "عبري" مرادفة لابن الصحراء بوجه عام، وبهذا المعنى وردت كلمة  
"الابري" و"الهيبري" و"الخبيرو" و"العبيرو" وذلك في المصادر المسمارية د. سوسة، م س، ص 25. في بلاد الرافدين والفرعونية في  
مصر، د. سوسة، م س، ص 25، ولم يكن للاسرائيليين والموسويين واليهود أي وجود بعد. لذا فان نعت ابراهيم الخليل "بالعبراني"  
كما ورد في التوراة انما اريد به معنى العبريين "العبيرو" وهم القبائل البدوية العربية، ومنها القبائل الآرامية العربية التي ينتمي اليها  
ابراهيم الخليل لذا يجب التمييز بين العبري من جهة وبين الاسرائيليين أو الموسوي أو اليهودي في بحث تاريخ فلسطين القديم حيث لم  
يرد مصطلح عبري أو "عبراني" في القرآن الكريم مطلقا وانما ورد ذكر "الاسرائيليين" و"قوم موسى" و"يهود" الذي هادوا.

ويتضح من هذا ان عصر ابراهيم الخليل هذا هو عصر عربي ليست له صلة بعصر اليهود وقد نيه القرآن الكريم لذلك بقوله تعالى : "يا  
أهل الكتاب لما تحاجون في ابراهيم \* وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده \* أفلا تعقلون ..... ما كان ابراهيم يهوديا ولا  
نصرانيا \* ولكن كان حنيفا مسلما \* وما كان من المشركين" سورة آل عمران آية 65.

هذا وقد استعمل حاخامات اليهود كلمة عبري في وقت متأخر في فلسطين. انظر : دائرة المعارف البريطانية ط 1 1965، ج 11، ص 79.

و M. F. Unger : "Israel and Arameans of Damascus, 1975, pp. 10 - 11

وعبد الحق فاضل، سومر، عدد 14، 1985، ص 180 - 189.

تستهدف وجودها التاريخي والحضاري والقومي لاستئصالها واذابتها في مشروع "الشرق أوسطية" والعالم الجديد بعد حرب الخليج العراقية سنة 1990م، لذا يتضح مغالطات التوراة الحديثة الصهيونية بإدعائها بوجود بني إسرائيل في عصر ابراهيم الخليل في القرن 19 ق.م قبل ان يخلق يعقوب "إسرائيل" الذي هو من أحفاد ابراهيم كما ذكرت وجودهم بعد عهد يعقوب بحوالي ستمائة عام أي في عهد موسى عندما دخلت جماعته أرض كنعان "فلسطين" بعد هجرتها من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والأحداث كيهود الخزر والأتراك الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق ويهود أوروبا وأمريكا والعالم أجمع، فهم على رأي التوراة نفس أبناء يعقوب الذي عاش قبل 3700 سنة فهذا منطق غريب ولكن الأغرب منه هو قبول كثير من الباحثين والمؤرخين لهذا الخلط.

والهدف من ذلك كله هو جعل فلسطين موطنهم الأصلي على الرغم من تأكيد التوراة ذاتها بانها أرض غريبة بالنسبة لابراهيم واسحق ويعقوب وأبناء يعقوب (إسرائيل) الذين ولدوا في حرّان ونشأوا فيها، وابتدع اليهود مدونو التوراة فكرة "منح الرب أرض كنعان الى ابراهيم وذريته" وأنه أمرهم بإبادة الكنعانيين أطفالا وشيوخا ونساء، كما نسبوا هذا الدين الى ابراهيم ويعقوب وموسى زورا لذا سماهم القرآن الكريم "كفارا" لكذبهم على موسى وتحريفهم التوراة

قال تعالى : "ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا ..... وباعوا بغضب من الله .... ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق \* ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون"<sup>(1)</sup>. هذا وقد فرق القرآن الكريم بين بني إسرائيل ذرية ابراهيم الخليل من جهة وبين

<sup>(1)</sup> سورة آل عمران، الآية 112.

اليهود المتأخرين من جهة أخرى، وذلك باستعمال اسمين فاطلق اسم "بني اسرائيل" في مواضع الرضا، وسموا باليهود في حالات السخط عليهم.<sup>(1)</sup>

وهكذا يمكن القول بان ابراهيم كان عراقي المولد عربيا في قوميته نسبة لوطنه الأصلي في شبه الجزيرة العربية وبادية العراق والشام بانتمائه للقبائل الآرامية هناك.<sup>(2)</sup>

وهذه القبائل التي هاجرت من شبه الجزيرة الى ضفاف الفرات في شمال سوريا، ثم انتقل بعض أسرها الى بلاد الرافدين ومنها اسرة ابراهيم الخليل وكانت هجرته حوالي الألف الثانية قبل الميلاد، ويؤيد القرآن الكريم هذا الرأي "ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"<sup>(3)</sup>.

<sup>(1)</sup> هذا وقد قسم الدكتور احمد سوسة تاريخ فلسطين العربية الى ثلاثة ادوار :

اولا : عصر ابراهيم الخليل واسحق ويعقوب : ويرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو عصر عربي قائم بذاته لغة وثقافة ودنيا حيث نبه القرآن الكريم برابط ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق وليس بفلسطين والتي كان مغتزا فيها ويتأكد من التوراة ذاتها علما بان ابراهيم الخليل كان رسولا وزعيما عربيا يحمل رسالته الانسانية لكل الأمم بدعوته الى فكرة التوحيد وقد عرف الكنعانيون والآراميون الاله "ايل" الذي دعا ابراهيم الخليل لعبادته.

ثانياً : عصر سيدنا موسى عليه السلام : ويبدأ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو عصر متصل بمصر ولغة هذا العصر الميروغليفيه المصرية في بداية الأمر ثم الكنعانية بعد الهجرة وانتهى هذا العصر بالسي البابلي على يد نبوخذ نصر الكلداني في القرن السادس قبل الميلاد وكانت الثقافة كنعانية لان العبرية تكونت فيما بعد ما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد عندما بدأوا يدونون التوراة بالآرامية بمعنى أنه لا توجد لغة خاصة لليهود وقد أشار لذلك بريستيد : العصور القديمة، الترجمة العربية، بيروت، 1926، ص55.

ثالثاً : عصر اليهود : ويبدأ في القرن السادس قبل الميلاد في اعقاب السبي البابلي وهو عهد يهودي بلغته وثقافته ودينه ويمثل بداية اليهودية ويؤكد الدكتور سوسة في ضوء المكتشفات الأثرية بان التوراة التي بين ايدينا مقتبسة من الديانات الكنعانية والبابلية والمصرية وأنها كتبت بعد عهد النبي موسى بعدة قرون من عصر اليهود أي حوالي ثمانمائة عام حيث كتب موسى بالميروغليفيه المصرية. د. سوسة / م س : ص 30 - 37.

<sup>(2)</sup> عبد الحق فاضل : مغامرات لغوية، بيروت، بدون تاريخ، ص 21.

وولفستون : تاريخ اللغات السامية، ص78، 164.

وويلز : تاريخ معالم الانسانية، الكتاب الرابع، ص 290 - 291.

ديورانت : قصة الحضارة، الترجمة العربية، ج2، م1، ص368 - 370 "قصة الطوفان".

د. سوسة : فيضانات بغداد في التاريخ، ج1، ص49-201

و S. Daiches, "The Hewisin Babylonian, p. 7

و P. Hiti. History of syria, pp. 128 - 140

Jastrow : Hebrew and Babylonian Tradition 1914, pp. 108 - 109.

<sup>(3)</sup> سورة آل عمران، آية 67. وقال تعالى : "يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون" آل عمران، آية 56.

وهكذا يتضح لنا البرهان القويم على عروبة فلسطين كما أن الأوان للباحثين للتحرر من التقيد بنصوص التوراة في اثناء بحثهم في تاريخ فلسطين القديم كما يؤكد الدكتور احمد سوسة بالرجوع للكشوف الأثرية ومعرفة النصوص القديمة التي سبقت التوراة بعشرات من القرون وذلك للتمييز بين الغث والسمين واقتضاء التواريخ حسب تسلسلها الزمني وتعد هذه العجالة من الشواهد التاريخية الأكيدة على عروبة فلسطين بعرض الأصول السكانية والقبائل العربية التي سكنت جنوب بلاد الشام.

وقد حتمت الضرورة وللضرورة احكام إثبات عروبة بيت المقدس قبله المسلمين الأولى<sup>(1)</sup> وخاصة بعد اعلان حكومة اسرائيل تهويد القدس واتخاذها عاصمة للدولة العبرية (Urusalim) فقد هاجر سكانها الأصوليون وهم الكنعانيون من شبه الجزيرة العربية الى بيت المقدس قبل خمسة آلاف سنة، ودعوها مدينة السلام نسبة الى "سالم" أو "شالم" إله السلام عندهم. ثم انتقل هذا الاسم الى الشعوب القديمة عن طريق سكان بلاد الرافدين الذين كانوا يلفظونه "أورسالم" بمعنى مدينة السلام، والذي حُرِف فيما بعد الى "يروشاليم" و "هيروسوليم" و "جيروزالم" و "جيروسليم اليوم".<sup>(2)</sup>

وهكذا حرفت الأمم القديمة اسم مدينة السلام في نقوشهم التاريخية، فذكرها الأكاديون "اورسالم" uruslim، كما ورد اسمها في نقش مصري قديم يعود للقرن التاسع قبل الميلاد باسم "Aushamen".

وهكذا نرى اسماء بيت المقدس عند الأمم القديمة تعود الى تحريف اسمها الكنعاني

فذكرها اليهود "yerushayim" "أورشليم"<sup>(3)</sup>

وذكرها اليونان واللاتين "Hirosolyma"

وذكرها الغرب اليوم "Jerusalem"

(1) سورة الاسراء : "سبحان الذي اسرى بعبيده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ...."، آية 1.

(2) الدباغ : بلادنا فلسطين، ج9، ق2، ص5.

و ur : كلمة سومرية معناها مدينة، ص23.

(3) مصطفى الدباغ : م س، ص24.

هذا وبلغت مساحة البلدة زمن اليبوسيين ما بين 16-18 فداناً<sup>(1)</sup> كما نسب ابن العبري بناءها الى ملكي صادق ملك اليبوسيين وسماها "بيت السلام"<sup>(2)</sup>، ثم تمكن النبي داوود بن عيسى من الاستيلاء عليها فأزال صبغتها الكنعانية العربية التي اصطبغت بها قبله بألفي عام وسماها مدينة "داوود" ثم خلفه ابنه سليمان فوسع مساحتها حتى أصبحت "155" فداناً وبني الهيكل فوق المكان الذي تعبد فيه "ملكي صادق" حيث موقع الحرم الشريف اليوم وهكذا نلاحظ بأن داوود وسليمان كانا مجددين لبنائها وليساً المؤسسين كما خضعت لحكم المصريين في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد بعد طرد الهكسوس، ثم تمكن البدو "الخابيري" في عهد اخناتون (1375-1358 ق.م) فلم يعد إليها الحكم المصري الا في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد في عهد سيتي الأول (1317-1301 ق.م).<sup>(3)</sup>

هذا وقد سميت "اورشليم" منذ القرن العاشر قبل الميلاد الى عام 135م وكانت عاصمة للمملكة اليهودية التي حكمها عشرون ملكاً خلال 337 سنة<sup>(4)</sup> كان أولهم رَحْبَعَام بن سليمان اذ هاجم شيشق فرعون مصر الليبي المملكة عام 926 ق.م واستولى على القدس فاضحى اليهود عبيداً له<sup>(5)</sup> ولما تمكن الأشوريون سنة 722 ق.م بقيادة سرجون الثاني من تدمير مملكة اسرائيل وحمل سكان السامرة الى الأسر أعلن حزقيا بن آحاز ملك القدس خضوعه التام. ثم أتى الى سنحاريب بن سرجون (705-681 ق.م) ودفع جزية كبيرة من الفضة والذهب.<sup>(6)</sup>

وفي أثناء حكم يهوياكين (598-597 ق.م) تمكن نبوخذ نصر الكلداني من احتلال بيت المقدس وسبى عائلته ورؤساء اليهود الى بابل عام 597 ق.م

وكان آخر ملوك اليهود في اورشليم صدفيا بن يوشا (597-586 ق.م) واسمه الحقيقي "مشنيا" والذي غير اسمه نبوخذ نصر عندما عينه عوضاً عن ابن أخيه يهوياكين، ولما تمرد على

(1) الفدان : 0.40 من الهكتار وبعادل 4 دونمات والدونم يساوي الف متر مربع.

(2) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص14، وهو المؤرخ غريغوريوس ابو الفرج ولد عام 1226م في مدينة ملاطية بتركيا وتوفي عام 1286م. وانظر : الحنبلي، بحر الدين : الأنس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل ص5.

(3) مصطفى الدباغ : ن م، ص40.

(4) الدباغ : ن م، ص.

(5) الدباغ، ن م، ج9، ص41.

(6) ن م، ص49، وبوست، قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص306.



نبوخذ نصر هرب من القدس الى اريحا حيث اسره البابليون وهكذا انتهت الأسرة المالكة، اسرة النبي والملك داوود، في اورشليم واحرق بختنصر الهيكل وأسر آلاف السكان فأذاق اليهود الذل والمهانة وبعد ذلك خضعت اورشليم تحت الحكم الفارسي زمن الملك كورش<sup>(1)</sup> وزوجته "استير" واسمها بالعبرية "هداسا" أي شجرة لاس لجمالها ما بين 332-538 ق.م، وعين زربابل ملكا عليها الذي أعاد بناء الهيكل سنة 515 ق.م حتى سنة 20 ق.م عندما بنى هيردوس الكبير الهيكل الجديد.

وظلت القدس تحت الحكم الفارسي حتى احتلها الاسكندر المكدوني فدخلت تحت الحكم اليوناني من سنة 332-63 ق.م، وذلك عندما استولى عليها الاسكندر سنة 332 ق.م.<sup>(2)</sup> ثم خضعت لحكم البطالسة في مصر بعد وفاة الاسكندر سنة 322 ق.م بقيادة بطليموس الأول ثم انتقلت سنة 198 ق.م الى حكم السلوقيين في سوريا ثم انتقلت الى حكم الرومان سنة 63 ق.م.<sup>(3)</sup>

ويعتبر هيرودوس الروماني باني الهيكل والقصر الذي يدعى قلعة داوود خطأ على مقربة من باب الخليل من الجهة الشرقية الجنوبية أعظم بناء في القدس وفي أواخر حكم هيرودوس ولد المسيح عليه السلام.

وخلف "أرخياوس" اباه هيرودوس على اورشليم ولكن أوغسطس قيصر خلفه من الملك سنة 6 ق.م بعد حكم عشر سنوات.

وتولى القدس ولاية رومانيون مثل بيلاطس البنطي (26-36م) الذي حدثت وقائع سيدنا عيسى عليه السلام في عهده.

وكانت قيصرية - قيسارية مركز الولاية فكان بيلاطس يأتي الى اورشليم لينظر في أمرها. ووافق تحت ضغط اليهود على محاكمة المسيح وجلده وصلبه.<sup>(4)</sup>

(1) كورش اسم عبراني معناه "راعٍ" قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص53.

(2) سليم ابراهيم صادر : تاريخ اليوسيفوس اليهودي، بيروت، المكتبة المعرفية، ص27 - 28.

(3) بوست : قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص165. والدكتور علي حسين الخربوطلي، العرب واليهود في العصر الاسلامي، ص9.

(4) انجيل متى ج27، ص25. الدباغ، م س، ص66.

هذا وقد دمر الرومان أورشليم مرتين الأولى عام 70م على يد طيطوس "تيطس" الذي دمرها وأحرق الهيكل ومرة ثانية سنة 135م على يد هدریان الذي مسحها من عالم الوجود وشتت أهلها ولم يبق منها سوى الذكريات وانقطعت صلة اليهود بها مدة ثمانية عشر قرناً متواصلة وسميت المدينة باسم الملك ايلياء بعد إسكان اليونانيين محل اليهود، وبنوا برجاً على باب الهيكل وسمي اليوم محراب داود فلم يسكنها يهودي واحد لمدة ألف سنة، كما لم يكن فيها في القرون الخمسة التي تلت المدة المذكورة أكثر من خمسين يهودياً.<sup>(1)</sup>

وقد بنى ايلياء سوراً لبيت المقدس الذي بنى فوقه الأسوار الحالية السلطان سليمان القانوني<sup>(2)</sup>

ولما اعتنق الامبراطور قسطنطين (306-337م) المسيحية جعلها ديانة الحكومة الرسمية، وحضرت والدته "هيلانة" الى القدس عام 326م. وأمرت ببناء كنيسة القيامة عام 335م والتي يعتقد المسيحيون أنها ضمت قبر المسيح قبل رفعه الى السماء.<sup>(3)</sup>

وقد سمح قسطنطين لليهود بدخول القدس مرة واحدة في السنة حيث منعهم هدریا من دخولها بتاتاً، وأعاد قسطنطين اسمها "أورشليم" عام 324م. ولكن اسمها ايليا بقي متداولاً بين الناس، فهو الاسم الذي عرفه المسلمون عند الفتح الاسلامي في القرن السابع للميلاد وسميت بيت المقدس أي المكان المطهر من الذنوب.<sup>(4)</sup>

### وكان الحرم القدسي الشريف

قدس البشر منذ آلاف السنين، حين كان ملكي صادق وجماعته من الموحدين يتعبدون فيه، وذهب الكثيرون الى أن الصخرة هي المكان الذي أراد ابراهيم ان يضحي ابنه عليها، وبعد ذلك بقرون عديدة أقام النبي والملك سليمان بن داود هيكله، وفي القرن الثاني الميلادي بنى هدریان الروماني عليه معبده الوثني ....، وأخيراً الاسراء والمعراج، فالمسجد الذي بناه عمر بن

(1) أوراق عارف العارف : المجموعة التاسعة، ص79، والديباغ، م س، ص72.

(2) قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص134، 1964م.

(3) (طوطح وشحادة، خليل وبولس، تاريخ القدس ودليلها 1940)، ص19،

(4) النويري، نهاية الارب في فنون الأدب ج1، ص325.

الخطاب ومن بعده عبد الملك بن مروان ولهذا قدسه الموحدون الأوائل (ملكي صادق وإبراهيم وجماعته) واليهود والوثنيون والمسلمون.

ويتألف الحرم القدسي الشريف من مسجدين : مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وما بينهما وما حولهما من منشآت حتى الأسوار اذ تبلغ مساحتها (104900م<sup>2</sup>) بنى هذين المسجدين عبد الملك بن مروان سنة 66هـ/685م وأوقف عليهما خراج مصر لمدة سبع سنوات.<sup>(1)</sup>

**فأما مسجد الصخرة :** فيعتبر من آثار الأمويين الرائعة حيث بنوا قبة الصخرة عام

70هـ/690م على مكان الجامع البسيط الذي بناه عمر بن الخطاب على شكل مئمن.

**وبالنسبة للمسجد الأقصى :** فيقع على بعد 500م جنوب مسجد الصخرة الشريفة، ويبدو ان عبد الملك شرع في اقامته بعد أن أتم بناء مسجد الصخرة، وأنه تم بناؤه في عهد ابنه الوليد، والأمويون كانوا أول من استحدث المئذنة والمحراب في المساجد<sup>(2)</sup> كما أعاد عبد الملك وابنه الوليد بناء القدس وتجميلها بالمساجد والقصور بعد ان خربها الفرس سنة 614م.<sup>(3)</sup>

وفي عام 407 هـ سقطت قبة الصخرة. ثم اعيد بناؤها عام 413هـ/1022م في عهد الظاهر علي أبو الحسن الخليفة الفاطمي السابع (تولى الأمر 411-427 هـ/1020-1035م) وقيل أن الحاكم بأمر الله هو الذي قام بتعميرها.<sup>(4)</sup>

وفي عام 165 هـ/1071م سقطت القدس بأيدي السلاجقة، ثم استردها الفاطميون منهم في 26 آب من عام 1098م من الأرمن عمال السلاجقة، وبعدها احتل المصريون كل فلسطين

<sup>(1)</sup> الدباغ : ص119، وانظر : سامح كمال الدين : العمارة في صدر الاسلام ص19. وعارف العارف : تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ص74، 75.

<sup>(2)</sup> الدباغ، ص123.

<sup>(3)</sup> العابدي : نحن والآثار، عمان سنة 1972، ص16-105

والآثار الاسلامية في فلسطين والأردن والقصور الأموية في جنوب الأقصى، 123-134، كما أمر عبد الملك بن مروان بتعميد الطريق بين بيت المقدس ودمشق مروراً باريحا.

<sup>(4)</sup> حتى، فيليب : تاريخ العرب المطول، ج3، ص736.

وانظر الذهبي : العبر في خير غير، ج3، ص96. ج3، ص269، في حين ذكر ثورة أهل القدس ضد السلاجقة سنة 469 هـ/1077م ففضى على هذه الثورة القائد التركماني أئمز بن أوق حيث قتل ما يقارب من ثلاث آلاف شخص. وانظر كرد علي، خطط الشام، ج1، ص265، أما الذين احتموا بالصخرة فآخذ منهم مالا كثيرا.

ومدوا نفوذهم الى نهر الكلب شمالا ونهر الأردن شرقاً<sup>(1)</sup> وبعد ذلك بعام احتل الاقرنج بيت المقدس سنة 1099م.

وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس)، ويزورونها ويضحون اضحية العيد اذ يبلغ عدد الزائرين أكثر من عشرين ألف شخص.<sup>(2)</sup> ومن أقدم من ذكرها بهذا الاسم الشاعر ابو العلاء المعري المتوفي سنة 449 هـ/1057م اذ قال :

واخلع حذاءك اذا حاذيتها ورعاً      كفعل موسى كليم الله في القدس<sup>(3)</sup>

كما ذكر القدس الشريف يحيى بن سعيد الانطاكي في كتابه "تاريخ الذيل" الذي الفه عام 458 هـ/1063م.<sup>(4)</sup> كما ذكرها بهذا الاسم ابن بطوطة في رحلته في القرن الرابع عشر الميلادي، والظاهري في قول منه في القرن الخامس عشر، ومجير الدين تاريخه (901هـ/1496م) وقد ثبت العثمانيون هذه التسمية : القدس الشريف - "قدس شريف"<sup>(5)</sup>

وذكر البكري الأندلسي المتوفي سنة 487 هـ في كتابه "معجم ما استعجم" حول أسماء بيت المقدس مثل إيلياء : ومعناها : بيت الله.<sup>(6)</sup>

ونحو كلمة صهيون : قال اسم لبيت المقدس بكسر الصاد<sup>(7)</sup> وأما صهيون بفتح الصاد فاسم قبيلة.

وشلم : اسم لبيت المقدس

قال الأعشى :

وقد طُفْتُ للمال آفاقه      عَمَّانَ فحمص فأوري شليم

قال ابو عبيدة : شليم بكسر اللام : بيت المقدس. قال ثعلب هو سليم، بالسین معربة.<sup>(8)</sup>

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص237.

(2) ناصر خسرو : سفرنامه، ص55-57.

(3) الديباغ، م س، ص135.

(4) الدومنيكي، الأب، م س، بلدانية فلسطين العربية، بيروت، سنة 1948، ص33.

(5) مصطفى الديباغ، ص137.

(6) البكري الأندلسي : معجم ما استعجم، ج1، ص217.

(7) ن م، ج2، ص844.

(8) ن م، ج2، ص807.

واليه أسري بالرسول الكريم والذي عرج منه الى السماء.

هذا وقد نصت الوثيقة العمرية لبطريك القدس بانه لا يسكن المدينة أحد من اليهود كما قام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد باعادة بناء القدس وتجميلها بالقصور والمساجد، وعبدوا الطريق بينها وبين العاصمة دمشق.<sup>(1)</sup>

وبعد تحريرها من الافرنج في العهد الأيوبي بنيت فيها المدارس والمساجد والحمامات والمستشفيات والزوايا والرباطات للحجاج القادمين واستعاد الحرم الشريف بهاءه، وبنيت حوله السبل وأقنية الماء وصهاريجه، واصبحت ساحته بأروقته مدارس لمختلف العلوم الدينية يفد إليها العلماء من مختلف الأقطار "كالمدرسة الصلاحية" التي اعتبرت من اشهر معاهد العصور الوسطى العلمية.

كما بنى الظاهر بيبرس سنة 668 هـ/1269م مقام النبي موسى، الذي كان يقصده أهل بيت المقدس سنويا بعد فصل الشتاء، فتحول الى موسم وطني فلسطيني كبير، واليوم تحاول الادارة الاسرائيلية المحتلة القضاء على الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية منذ عام 1967م حيث حاولوا حرق المسجد الأقصى عام 1969م لتصبح القدس يهودية بعبادتها وسكانها، ويقولون ان للمسلمين مكة وللمسيحيين روما وهذا يكفيهم، وليس لنا سوى القدس.<sup>(2)</sup>

ان المدينة المقدسة ستكون سعيدة باحياء اتفاقية "عمر" العربي المسلم وصفرونيوس - السوري المسيحي وسيعود للعالم سلامه واطمئنانه اذا شملت هذه الاتفاقيات عموم الديار المقدسة وذلك عملا بقول المسيح "ان الخلاص هو من اليهود"<sup>(3)</sup>

والحقيقة الواضحة كضوء الشمس بان الصليبيين القدماء بمذابحهم لأهل بيت المقدس والجدد ممثلين بالبريطانيين الذين ساعدوا على إخراج سكانها من وطنهم بالقوة.

(1) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج 9، ص 8.

(2) الدباغ، ن م، ج 9، ص 10.

(3) انجيل يوحنا، ج 4، ص 22، كما قال البابا عام 1973م بمناسبة حرب تشرين: "عندما يغادر العرب القدس ترحل المسيحية في ركايبهم" نشرة بطريركية الروم الكاثوليك بمناسبة حرب تشرين أول 1973، دمشق، كانون ثاني 1974، ص 44.

وهكذا نرى ان الصليبيين أهلكوا أهلها العرب قديما وحديثاً، والادارة الاسرائيلية منذ استيلائها على القدس في 1967/6/7 خططت للقضاء على المقدسات الاسلامية والمسيحية لتصبح القدس يهودية. لذا فلا يجوز للاروبيين أو اليهود حكم القدس.

كما اود الاشارة الى حقيقة تاريخية بالنسبة للوجود اليهودي في فلسطين حيث كان ضئيلا لا قيمة له من الناحية الديمغرافية السكانية ولم يكن لهم تأثير حضاري فيها كما سنرى في الفصول التالية المعطيات الحضارية العربية سواء كانت علمية او ثقافية او معمارية منذ 5000 ق.م وحتى اليوم. حيث تشكلت أول دولة عربية من الأنباط في جنوب الأردن في القرن السادس قبل الميلاد، متخذين من سلع "الرقيم" والبتراء اليوم عاصمة لهم والتي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم مما قدموه للبشرية من ترتيب الحروف الأبجدية "أ، ب، ج، د، هـ، و، ز" وميز الخط النبطي حذف الحركات الممدودة في الكتابة واثباتها في النطق مثل كلمة (مالك) التي كتبت "ملك بدون الف وتنطق مالك" وفي القرآن الكريم الكثير من خصائص الخط النبطية، وقد سميت زمن الرومان ببلاد العرب الصخرية Arabia Perea أو Arabia Petrix.

وقبل الاسلام مرّ الرسول الكريم بالهضبة الاردنية في رحلتين لحساب عمه وخديجة بنت خويلد مما يثبت العلاقات التجارية الحجازية بجنوب الأردن، حيث كان سكان جنوب الأردن عربا كما ذكرنا في الفصل الأول من الجزيرة العربية هاجروا اليها منذ فجر التاريخ بالاضافة الى العلاقات الدينية والروحية قبل وبعد البعثة النبوية، كما عبرت الجيوش العربية الاسلامية الفاتحة الاردن الى باقي أجزاء الشام، وازدهرت في العصر الأموي، فقصورهم الأثرية ما زالت الشاهد التاريخي على ازدهار حضارتهم، كما تشكلت في جنوب الأردن أول حركة سرية في تاريخ الاسلام في "الحميمة" الدعوة العباسية التي أطاحت بالدولة الأموية.

وفي العصر الحاضر تصدى بعض المفكرين المحققين المراعين للأمانة العلمية للأساطير الصهيونية التي اقاموا عليها سياستهم الحالية وتأتي أهمية كتاب روجيه جارودي انه يهودي الأصل درس التوراة وفند الأساطير التأسيسية للسياسة الاسرائيلية والتي تتمثل فيما يلي :

اولا : شعب الله المختار : "مقولة لا تملك أي أساس تاريخي لانه يعتمد على تفسير خاطئ للوعد بالأرض حسبما جاء في سفر التكوين".

ثانيا : ربطت الصهيونية النص الديني بالفعل السياسي اليومي المباشر، فحولت الاسطورة السابقة الى تاريخ ومطامع من خلال "الفهلوة التاريخية" وتحويلها الى تبرير سياسي، واستخدام روايات التوراة كأدوات، لأن هذه الروايات ظلت تلعب دورا حاسما في صيرورة العالم الغربي من حيث أنها كانت وما زالت تستخدم كغطاء فكري لكل اعمالها الدموية منذ اضطهاد اليهود على يد تيطس الروماني، ثم على ايدي المسيحيين وحتى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش و "الأحلاف المقدسة" والسيطرات الاستعمارية التي مارستها الصهيونية "الشعب المختار" وصولا الى عمليات الاغتصاب والابتزاز الاسرائيلية في الشرق الأوسط وعبر الولايات المتحدة الأمريكية من خلال ضغط اللوبي الصهيوني للسيطرة على العالم سياسيا وفطريا واقتصاديا واجتماعيا بتصدير الانحلال الخلقي ونزع الشباب من دينهم.

وهكذا تمكنت الصهيونية من تحويل الأسطورة الى تاريخ باستغلالها هذا الماضي الأسطوري لتوجيه مستقبلها السياسي وكيانها الدخيل على الأرض الفلسطينية العربية. علما بان التوراة تمجد وتعظم سياسة الابداء والتصفية العرقية كما ورد في سفر "تثنية الاشتراع"<sup>(1)</sup> "ويسلمهم الرب الهك بين يديك ويوقع عليهم اضطرابا شديدا حتى يفنوا، ويدفع ملوكهم الى يديك، فقمحوا أسماءهم من تحت السماء فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم" فكان نتيجة ذلك إبادة ملوك مدين العرب وسبي نسائهم وأطفالهم ثم قتلهم زمن سيدنا موسى عليه السلام كما تزعم التوراة، ثم خلفه يشوع الذي استمر في فتح كنعان" فلسطين على سياسة التصفية العرقية التي أمر بها اله الجيوش وذلك في طريقهم من لاكيش "الجش" في بلاد الرافدين الى عجلون في شرقي نهر الأردن وأبادوا سكانها تماما وتقدم نحو "حبرون" الخليل اليوم وإباد سكانها الكنعانيين وسار على هذه التصفية العرقية في معظم قرى ومدن كنعان الفلسطينية<sup>(2)</sup>

(1) جريدة الخليج، العدد 6199، ص29، الشارقة، دولة الامارات العربية المتحدة، 21 ذي الحجة 1416 هـ / 8 مايو 1996م / نشرت كتاب روجيه جارودي المفكر الفرنسي اليهودي الأصل ضد الصهيونية.

(2) عندما يبدأ غزو فلسطين "كنعان"، "فسمع الرب صوت اسرائيل ودفع اليهم الكنعانيين فأبسلوهم هم ومدنهم." العدد ، الفصل الحادي والعشرين، الآية 3.

وأما فيما يختص بالاموريين وملوكهم فنقول الآية : "وأخذ اسرائيل جميع تلك المدن فسكنوا في جميع مدن الاموريين" الفصل الحادي والعشرين، الآية 135.

ومن المشين مفاخرتهم بتسمية هذه الابداء الجماعية "التصفية المقدسة" في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وهكذا نرى من شارون الى مائير كاهانا الطريقة التي يتصرف بها الصهاينة تجاه فلسطين فالطريق الذي سلكه يشوع هو الطريق نفسه الذي سلكه مناحيم بيغن عندما قام بمذبحة دير ياسين في 9 ابريل سنة 1948م وذبح سكانها البالغين 254 من الرجال والنساء والأطفال كوسيلة ارهابية لتفريغ فلسطين من سكانها وكما فعل رفائيل ايثنان في مجازر صبرا وشاتيلا في مخيمات لبنان الفلسطينية سنة 1982. وبهذا حققوا التصفية العرقية التي تتبع من مبدأ "النقاء العرقي الذي يحرم اختلاط الدم اليهودي بـ "الدم النجس" لكل الآخرين"<sup>(1)</sup>.

---

(1) اسفار موسى الخمسة.



## الأثر الحضاري للقبائل العربية في جنوب بلاد الشام

لقد كان للقبائل العربية في جنوب بلاد الشام قبل الاسلام أهمية ونفوذ في شؤون المنطقة، وخاصة في دولة الغساسنة أمثال : ابن زنباع الموظف الكبير في جمارك الغساسنة، وفرو بن عمرو الجذامي من كبار موظفي الادارة عند الروم حيث كان بنو جذام على رأس القبائل القحطانية في فلسطين.

كما تعاون بنو جذامة بزعامة رُوْح بن زنباع مع بني أمية لتثبيت ملكهم والقضاء على الثورات والفتن في معركة صفين وضد ابن الزبير في الحجاز أيام يزيد بن معاوية.

لذا أصبح رُوْح مستشارا سياسيا لعبد الملك بن مروان في دمشق والعراق وأشار بتعيين الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراق الذي كان له الفضل الأكبر في استقرار الأمور في الشرق الاسلامي. واستمر أولاد روح في زعامة بني جذام في فلسطين حتى زالت دولة الأمويين.

كما كان لقبيلة كندة العربية نفوذ ومكانة في نفوس الأمويين خاصة زمن سليمان بن عبد الملك الذي عين رجاء بن حيوة الفقيه البيساني الكندي مستشارا له والذي أشار عليه بجعل الخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز، كما كان أمينا على خزائن الأموال زمن عبد الملك حتى توفي عام 112 هـ/720م..

هذا بالإضافة إلى عبد الحميد بن يحيى الكاتب الشهيد من بني عامر وزير مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقتل معه عام 132 هـ/750م. وموسى بن نصير اللخمي فاتح الأندلس من جبل الجليل، والذي كان والده رئيس حرس معاوية.

وفي العهد العباسي : كان للحميمة<sup>(1)</sup> أثر كبير في التاريخ العباسي حيث ولد بها السفاح وأخوه المنصور والمهدي بن المنصور.

هذا وقد اكتسب المنصور علمه وفراسته وفصاحته وشجاعته من بدو المنطقة من لحم وجذام وغسان وغيرهم.

(1) الحميمة : على عین الطريق من معان الى العقبة بعد 12 كم وتبعد عن العقبة 87 كم.

وبعد مقتل أبو مسلم الخراساني ولى المنصور الربيع بن يونس الكيساني من جبل الجليل في فلسطين منصب الوزير وولى ابنه الفضل منصب الحاجب.

واستمر في عملهما زمن ابنه المهدي وبقي الفضل وزيرا للهادي وحاجبا لهارون الرشيد ووزيراً لابنه الأمين وولى ابنه العباس بن فضل بن الربيع حاجبته ويرى بعض المؤرخين أن نكبة البرامكة كانت على يد الفضل بن الربيع الذي تولى الوزارة بعدهم<sup>(1)</sup>. مما يشير الى انتصار القومية العربية على الفارسية التي قامت عليها الثورة العباسية، كما برز من طبريا الوزير العباسي "معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الطبراني زمن المهدي وألف كتاب الخراج والوزير أحمد بن أبي خالد بن عبد الرحمن الكاتب من جند الأردن زمن المأمون، كما عين الأمين محمد بن سعد السرح الكناني على اليمن.

#### صور القبائل العربية زمن الفاطميين في جنوب بلاد الشام

لقد عين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427-487هـ/1026-1094م) الداهية الفلسطيني "الحسن بن علي أبي محمد اليازوري"<sup>(2)</sup> لانقاذ البلاد من الأزمة المالية فنجح بذلك. وكان له الفضل في تعريب الجزء الأكبر من المغرب بارساله قبائل عربية للاستيطان: وتوفي عام 450هـ/1049م.

فسادت الفوضى مما جعل المستنصر بالله يستدعي بدر الجمالي حاكم عكا للقاهرة لتولي الوزارة مستصحباً معه جند الفلسطينيين فساد الأمن وعم الخير الناس 466هـ/1068م. كما وزر ابنه من بعده "الأفضل أحمد أبو القاسم" واسترد بيت المقدس من السلاجقة عام 491هـ/1093م.

هذا بالإضافة الى ابن الخليفة الفاطمي الحادي عشر الحافظ لدين الله عبد المجيد بن المستنصر<sup>(3)</sup> الذي كان من مواليد عسقلان عام 467هـ/1069م.

(1) الدباغ : فلسطينيات 6، ص 82.

(2) يازور : قرية فلسطينية تبعد 7 كم عن يافا، وكان قاضياً في الرملة كما كان فقيها يكرم العلماء. انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج 12، ص 72.

(3) تولى الخلافة عام 524هـ/1126م. وتوفي عام 544هـ/1146م. الدباغ : فلسطينيات، ج 6، ص 84.

ويلاحظ أن سكان بلاد الشام العرب كانوا يعتبرون الدولة دولتهم يشاركون في سياستها وإدارتها. لذا كانوا يثورون ضد أي خليفة ينحرف عن تقاليدهم ومعتقداتهم، فينفصلون عنه. كما حدث زمن الحاكم بالله الفاطمي (386-411هـ/488-1013م).

فاستقلوا عنه وخلعوا بيعته وبايعوا الحسن بن جعفر العلوي الحسيني شريف مكة الذي استدعوه إلى الرملة، والمعروف أن بني الجراح من قبيلة طي "شمّر اليوم" كانوا قد أسسوا إمارة لهم في البلقاء وباديتها وامتد نفوذهم إلى نواحي القدس والرملة التي اتخذوها مقراً لهم. حتى انتهت ضربات الفاطميين عام 420هـ/1022م على يد الخليفة الفاطمي علي بن الحاكم بأمر الله بعد أن استمرت سبعاً وخمسين سنة من 363-420هـ/965-1022<sup>(1)</sup>.

وكان ظهور آل جراح على مسرح الأحداث السياسية في جنوب بلاد الشام منذ عام 358هـ/968م أي منذ قدوم الفاطميين لبلاد الشام فتحالف زعيمهم حسان بن المفرج بن الجراح على القرامطة لمهاجمة الفاطميين في مصر عام 361-363هـ/973-975م<sup>(2)</sup>.

وكانت علاقة آل جراح مع الفاطميين غير ثابتة من حيث الولاء والعصيان والخروج عن طاعتهم وذلك لرغبتهم في تكوين إمارة خاصة بهم<sup>(3)</sup>، ونجحوا في ذلك حيث أسسوا إمارة لهم في فلسطين والأردن مركزها مدينة الرملة بعد تحررهم من نفوذ الحمدانيين في الموصل وحلب<sup>(4)</sup>. وعندما أصبحت بلاد الشام وحدة سياسية وإدارية زمن الفاطميين وخاصة في عهد المستنصر بالله<sup>(5)</sup>.

(1) الدباغ : فلسطينيات، ج6، ص30، وعبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر : مكتبة الحرية الحديثة بالقاهرة، 1985، ص128-149. هذا وكان الفاطميون قد نجحوا في احتلال بلاد الشام والتغلب على القوى المحلية فيها كآل جراح ما بين 358-362هـ/962-972م. د. جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي لبلاد الشام والعراق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957، ص40-41.

(2) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة، المتوفى 555هـ/1160م : ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ط1، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر 1403هـ/1983م، ص16، 18، 20. وابن خلدون : (ت 808هـ/1406م)، العبر، تحقيق خليل شحادة، بيروت، راجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، 1981م ج4، ص108.

(3) ابن القلانسي : ن م، ص103، حاشية "1". وابن خلدون : العبر، ج4، ص32.

(4) ابن خلدون : ن م، ن ص. ومصطفى الحيارى: الإمارة الطائفة في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ط1 1977م، ص32-44.

(5) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، جزآن، ط3، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1985، ج1، ص135-190.

رأى فيهم الفاطميون خطراً على نفوذهم في بلاد الشام، لذا حاولوا كسب ولاءهم عن طريق المال والإقطاعات بعد أن كانوا مواليين للعلويين في الحجاز<sup>(1)</sup> وكانت هذه العلاقة تخضع للظروف السياسية ومصلحة الطرفين، فعندما تنكر الفاطميون لآل جراح لعدم وفائهم بعهودهم معهم، وخرجوا عن طاعتهم لمدة سنتين وخمسة أشهر، وسيطروا على فلسطين ونهبوا الأهالي اضطرت الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله 386-411هـ/996-1020م أن يخمد شوكتهم بالقوة العسكرية فهربوا إلى الصحراء، متوسلين له بالسماح لهم بالعودة مقابل التوقف عن أعمال الفوضى والشغب في المنطقة<sup>(2)</sup> فوافق الخليفة الفاطمي عام 404هـ/1013م. والتزم آل جراح بذلك.

ولكنهم عملوا على استعادة نفوذهم بعد وفاته والاستقلال في فلسطين<sup>(3)</sup> بتحالفهم مع عرب الشام سنة 411هـ/1022م، لتقسيم بلاد الشام بينهم على أن تكون الرملة وما يتبعها إلى حدود مصر لآل جراح الطائيين مما يؤول حكم دمشق وما حولها للكليبيين، وحلب وما يتبعها للمرداسيين<sup>(4)</sup>

وحاولوا الاستعانة بالروم ولكنهم فشلوا لعلاقة الفاطميين الوطيدة مع الروم آنذاك<sup>(5)</sup> فاعتمدوا على أنفسهم وبدأوا بتنفيذ الاتفاق بينهم عام 414هـ/1025م، وهكذا خرجت معظم بلاد الشام عن طاعة الفاطميين وسادتها الفوضى والاضطرابات حتى عام 419هـ/1028م حيث قضى عليهم الخليفة الفاطمي بقوة عسكرية، ثم أرسل حملة عسكرية أخرى لحماية حصون الفاطميين بسواحل الشام<sup>(6)</sup> وعزز ذلك بعقد معاهدة حسن جوار مع الروم عام

(1) المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، حرّان، ج 21، مكتبة الثقافة العربية، ج 2، القاهرة، 1987م، ص 157-158، 287.

(2) المقرئزي : ن م، ج 2، ص 157-158. وجمال سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ص 46. وابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد ت 1232هـ/681م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ثمانية أجزاء، ج 2، ص 175. وابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 123 (13 جزء، دارصادر، بيروت، وابن خلدون : العبر، ج 4، ص 73.

(3) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ص 27، 141.

(4) المقرئزي : اتعاظ الخفاء، ج 2، ص 155-166. وجمال الدين سرور : ن م، ص 141. وابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب، 3 أجزاء، تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي، دمشق، 1951-1968م.

(5) جمال سرور : ن م، ن ص. والحباري، مصطفى : ن م، ص 51.

(6) المقرئزي : اتعاظ الخفاء، ج 2، ص 150-162. وابن القلانسي : م س، ص 119.

Lane poole Ahistory of Egyptian middle Ages, p. 160

418هـ/1027م<sup>(1)</sup> كما حدث صدام عسكري آخر بينهم عام 420هـ/1024م انتهى بهزيمة الأمراء العرب وهروب آل جراح نحو البادية ومنها لشمال الشام في ضواحي أنطاكية والتجأوا للروم<sup>(2)</sup>.

وبقي آل جراح حتى عام 423هـ/1041م يتحينون الفرص عندما سادت الفوضى بلاد الشام بعد وفاة حاكم دمشق الدزيري فعادوا واستولوا على فلسطين<sup>(3)</sup> ولكن الفاطميين اخضعوهم ونقلوا العناصر القيادية الى الدلتا في مصر<sup>(4)</sup> ولكن آل جراح استمروا في سياستهم العدائية ضد الفاطميين وساهموا في هزيمة قواتهم امام بني مرداس الكلابيين عام 442هـ/1050م<sup>(5)</sup> وعام 448هـ/1050م<sup>(6)</sup>.

وهكذا نلاحظ أن تعارض المصالح بينهما بالإضافة الى الخلاف المذهبي (السني والشيعي) وسوء معاملة الولاة الفاطميين لهم وشعورهم بأنهم أصحاب البلاد الأولى بالسلطة من الفاطميين الغزاة دفعهم لاستغلال الفرص المناسبة للثورة واشاعة عدم الاستقرار في مناطق نفوذ الفاطميين في جنوبي بلاد الشام عندما كانت الدولة الفاطمية تعاني من أزمات سياسية واقتصادية في مصر.

وفيما يتعلق بالكلبيين فقد كانت قبيلة بني كلب العربية القحطانية الأصل اليمانية تتمركز في دمشق وما حولها مثل البقاع وحمص وتدمر وباديتها وفلسطين والأردن حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي<sup>(7)</sup> ولم يكن لها اسرة تنزعها كآل جراح.

وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي انتشرت هذه القبيلة في بادية الشام<sup>(8)</sup> وظهرت على مسرح الأحداث السياسية منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في بلاد الشام

(1) العربي : الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، 1982، ص778-719.

(2) ابن الجوزي : المنتظم، ج8، ص45. وابن الأثير الكامل، ج9، ص230-231. والعيني : عقد الجمان، ج19، ص577.

(3) ابن خلدون : العبر، ج4، ص79، 352. وابو الفداء : المختصر، (ت 732هـ/1331م) 4 أجزاء في مجلدين، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص160.

(4) هاملتون جب : صلاح الدين، مترجم، ص27.

(5) ابن العديم / م س، ج1، ص266.

(6) ن م، ج1، ص278-279.

(7) ابن حزم : ت 456هـ/1062م، جمهرة انساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1962، ص456-459. والبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر : (ت 279هـ/892م) : أنساب الأشراف، ط بيت المقدس، ج5، ص138.

(8) ابن خلدون : العبر، ج4، ص326.

كغيرها من القبائل التي خضعت للحمدانيين مما اثار مخاوف الفاطميين وتأرجحت علاقاتهم بهم كآل جراح وفقاً لمصالحهم المتضاربة<sup>(1)</sup> حيث وقف زعيمهم سفيان بن عليان الكلبي بجانب والي دمشق منغوتكين عام 387هـ/997م ثم انقلبوا عليه حينما أغراهم الفاطميون بالمال ثم اتحدوا مع آل جراح عام 414هـ/1023م لاقتسام الشام معهم واستمر هذا الحال حتى عام 419هـ/1083م، وعادوا لطاعة الفاطميين بعد وفاة سنان الكلبي.

ثم انقلبوا على الفاطميين بوقوفهم مع عرب الشام مع حاكم حلب ثمال بن صالح عام 442هـ/1055م، 448هـ/1056م<sup>(2)</sup> كما خرجوا عن طاعتهم منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بوقوفهم الى جانب اعدائهم من العرب في بلاد الشام مستغلين الأزمات الاقتصادية الخانقة التي كانت تعاني منها الدولة الفاطمية أيام المستنصر بالله لمدة سبع سنوات (457-465هـ/1064-1070م)<sup>(3)</sup> فثاروا ضد والي دمشق بدر الجمالي ثم هرب لصيدا ولاحقه مسمار بن سنان وهكذا استمر الكلييون بمساعدة أهالي دمشق ضد الفاطميين حتى مجئ السلاجقة فوقفوا الى جانبهم لمقاومة الفاطميين.

ونرجع هذا الى نفس الاسباب التي جعلت آل جراح يثرون ضد الفاطميين، لذا كان حكم الفاطميين لبلاد الشام غير مستقر مستغلين بثورة العربان وكثرة عزل وتعيين الولاة الفاطميين. وهكذا نلاحظ بالنسبة لدور القبائل البدوية انه كانت توجه للبدو دائما تهمة الاخلال بالأمن من نهب وقطع الطرق التجارية وفرض الأتاوات كبني طيء في فلسطين وكتب في منطقة حوران والثنية والبلقاء وبالمقابل فقد استخدموا في فترات اخرى حراسة الطرق التجارية والقوافل<sup>(4)</sup>.

(1) ابن القلانسي : م س، ص 77-78.

(2) المقرئزي : اتعاظ، م س، ج 2، ص 210، وابن العديم : م س، ج 1، ص 66، 278-279.

(3) ابن عساكر : التاريخ الكبير، 19 جزء، مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم 3366، ويوجد منه نسخة مصورة في مكتبة جامعة

اليرموك بالاردن، ورقة 302.

(4) ابن حوقل : صورة الأرض، ص 165.

هذا وفي أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عندما كان اقليم الشام يتبع الخلافة الفاطمية في القاهرة، فقد خضع جزء من جنوب الشام لزعامات بدوية أمثال بني الجراح في الرملة وبني مرة من كلب الذين تمركزوا حول صرخد.

ونلاحظ هنا عدم استقلالية بني الجراح وبني كلب كالمرداسيين "من بني كلاب أيضاً في شمال سوريا" وبسبب قربهم الجغرافي من مصر الفاطمية. وربما رضي الفاطميون بالدولة المرداسية تحت ضغط الظروف العامة والموقع الجغرافي وذلك للوقوف أمام الدولة الكردية في الجزيرة ودولة بني عقيل في نصيبين والموصل.

وفي عام 462هـ/1064م كان بدر بن حازم الجراح الطائي يسيطر على البلقاء وما حولها من قلاع في عمان، وحسان بن مسمار الكلبي يسيطر على جبل حوران وما حوله كحصن صرخد الذي بناه لنفسه، فلم يبق لوالي الشام الفاطمي بدر الجمالي غير عكا وصيدا<sup>(1)</sup> وكان جميع هؤلاء على الولاء الاسمي للخلافة الفاطمية في القاهرة. وذلك بعد محاولة الكلابيين قبل ذلك عام 415هـ/1024م تشكيل حلف بدوي شامي لطرد الفاطميين وتقاسم حكم الشام فيما بينهم حيث تقام دولة طائية في الجنوب في الرملة بفلسطين وتكون من نصيب بني الجراح وحسان بن المفرج، ودولة كلبية في دمشق بزعامة سنان بن عليان ودولة كلابية في حلب لبني مرداس ولكن هذا الحلف فشل عام 419هـ/1028م لتفرق القوى البدوية وتمزقها الداخلي، ففرض النظام الفاطمي نفوذه على جنوب بلاد الشام.

وهكذا كانت حالة بلاد الشام السياسية والاقتصادية قبيل وصول الأتراك إليها وذلك نتيجة الفقر ومظالم الفاطميين المالية والحروب والمنازعات الداخلية والأوبئة والمجاعات. ومنذ عام 463هـ/1070م وصلت جماعات سلجوقية عسكرية في عملية فتح سياسي عسكري ليرتبط تاريخ الشام مع تاريخ الترك<sup>(2)</sup>.

(1) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، ورقة 121، (مخطوط).

(2) ابن العديم : زبدة الحلب، ج2، ص16.

ويلاحظ على السياسة الفاطمية في جنوب بلاد الشام استعانتها منذ عام 462هـ/1069م بالناوكية "جماعة من التركمان الخوارزمية" لكسر شوكة العرب البدو<sup>(1)</sup>، حيث كان من زعمائهم في جنوبي الشام ابن أخ ابن خان الخوارزمي عام 464هـ/1072م<sup>(2)</sup>.  
ويذكر المؤرخون ظهور زعامة جديدة لهم بقيادة اتسر بن أوق<sup>(3)</sup> إذ فتحوا الرملة وبيت المقدس، ثم طبريا واقتسموا غلات البلاد، وندم بدر الجمالي على استخدامه لهؤلاء الاتراك الخوارزميين بعد انقلابهم عليه وسيطرتهم على كافة المناطق الداخلية لولايتيه الشامية<sup>(4)</sup> وفتح بيت المقدس وتأسيس مملكة اتسر في فلسطين ما بين 463-471هـ/1070-1078م<sup>(5)</sup>.  
وبقي الوضع كذلك حتى دخلها السلاجقة زمن ملكشاه بعد ضعف اتسر بزعامة تنتش عام 472هـ/1079م<sup>(6)</sup>.

وحاصر تنتش القدس حيث كان بها اتباع اتسر فيها عام 478هـ/1079م ولم يتمكن منها حتى عام 475هـ/1082م<sup>(7)</sup>.

وهكذا كان دخول الأتراك الغز لجنوبي بلاد الشام لملء الفراغ السياسي نتيجة الصراعات البدوية والضعف العسكري، ولم يدخلوا كغزاة طامعين وإنما دعاهم الوالي الفاطمي لجنوبي بلاد الشام كما دعاهم الأمير المرداسي في شمالي الشام، وقد رافق دخولهم الفتن والتمزق السياسي الفاطمي والبيزنطي أيضاً بالإضافة للتدهور الاقتصادي ويلاحظ أن الموجة التركمانية جاءت معها بعدد كبير من أبناء الشعوب الأخرى، كالأكراد الذين أصبح لهم دور قيادي فيما بعد صلاح الدين الكردي، هذا مع العلم بأن الجماعات التركمانية التي توطنت في بلاد الشام تراوح عددها ما بين 15-20 ألفاً قبيل مجيء الصليبيين.

(1) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، صورة مخطوط بباريس ، ص134 وجهها وظهرا، دار الكتب المصرية.

(2) ابن العديم : ن م، ج2، ص31.

(3) ابن كثير : ن م، ج10، ص103، "يذكر اسم اتسيس والصحيح انه اتسر واما المقريري فيكتبه أطر.

(4) سبط ابن الجوزي : ن م، ص135. ذكر اسباب الاختلاف بين الناوكية الخوازميون والجمالي ما بين عام 462-463هـ : "طلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا فقال ما عندي مال. وما سلطتكم على العرب الا ان تقتنعوا بنهبهم وما اقطعكم من الشام فقالوا نحن اخذنا البلاد بسيوفنا .... ثم جاؤوا فنزلوا على طبرية ....".

(5) سبط ابن الجوزي : ن م، ص146 وجهها وظهرا، وابن الاثير : الكامل، ج1، ص68.

(6) سبط ابن الجوزي : ن م، ص47، وابن العديم : م س، ج2، ص56.

(7) سبط ابن الجوزي : ن م، ص174-175.



## وبالنسبة لدور القبائل العربية في جنوب بلاد الشام زمن الحروب الصليبية:

لقد أدت سياسة الصليبيين ضد السكان من مسلمين ومسيحيين في القدس وغيرها من مدن فلسطين ومن مذابح جماعية<sup>(1)</sup> وطرد سكاني جماعي بهدف الاستيطان في مدينة القدس<sup>(2)</sup>، إضافة الى سوء معاملتهم للمسلمين في المناطق التي خضعت لسيطرتهم وايداء المزارعين بالحبس والعقاب والضرائب الباهضة<sup>(3)</sup>. كل هذا الى ازدياد كراهية السكان للغزاة الصليبيين المستعمرين لبلادهم وخاصة عندما حاولوا تغيير معالم الأرض العربية الاسلامية ومقدساتها كتحويل قبة الصخرة الى كنيسة لاتينية باسم معبد السيد "Templum Domini"، وغيروا اسم المسجد الأقصى لمعبد باسم معبد سليمان<sup>(4)</sup> "Templum Solomonis"، وقسموه الى ثلاثة أقسام الأول صار كنيسة والثاني مسكناً لهيئة الداوية والثالث مستودعاً ل ذخائرهم ومهماتهم العسكرية.<sup>(5)</sup>

هذا بالإضافة الى إحراقهم المصاحف وإرسالهم رؤوس القتلى المسلمين الى بلادهم كنوع من الدعاية للحروب الصليبية<sup>(6)</sup> ولتحويل أرض المسلمين الى أرض لاتينية تدين بالمسيحية الكاثوليكية على مذهب كنيسة روما<sup>(7)</sup> بعد القضاء على الإسلام.

<sup>(1)</sup> Runciman, Vol. I, P.187.

<sup>(2)</sup> براور، عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده وخليفة، ط1 القاهرة 1981م، ص98.

<sup>(3)</sup> ابن طولون الصالح، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، ج1، ص26.

<sup>(4)</sup> جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص228. وعبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط القاهرة، ص200. وعارف العارف، تاريخ القدس، ط القاهرة، ص74.

<sup>(5)</sup> جوزيف نسيم، م س، ص228. وللمزيد من المعرفة عن تحويل مساجد المسلمين في القدس الشريف الى كنائس أنظر اب جبير، الرحلة، ابن شداد الحلبي، الاعلاق الخطيرة، ج2، ص202. وسعيد عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط بيروت

1977م، ص200. Runciman, Vo.: II, P.340.

<sup>(6)</sup> الذهبي، دول الاسلام، ج2، ص119، وابن ابيك الدواداري، الدرر المطلوب ص213. وابن واصل، فرج الكروب في أخبار بني أيوب/ ج4، ص44. وشاكر بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ط. بيروت 1972، ص259. وميخائيل اسكندر، القدس عبر

التاريخ، ط1. القاهرة 1972، ص58.

<sup>(7)</sup> جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص265.

لذا كانت ردة فعل المؤرخين والأدباء والكتاب المسلمين الى وصفهم بعبارة "الكافر"<sup>(1)</sup> أو في صيغة الجمع "الكفرة"<sup>(2)</sup> و "كفار"<sup>(3)</sup> أو "عبدة الصليب"<sup>(4)</sup>.

هذا وقد غلبت هذه التعبيرات على المصادر الاسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي بعد نجاح حركة الجهاد الاسلامي في تصفية الوجود الصليبي في جنوب بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجرية / الثاني عشر والثالث عشر الميلادية.<sup>(5)</sup>

لذا كانت نتائج سياسة مملكة بيت المقدس العدوانية ذات الطابع الهجومي بعد اكثارهم من القلاع والحصون التي انطلق منها فرسانهم لتهديد حياة المسلمين<sup>(6)</sup> ومصدر رزقهم وذلك بما رافق عمليات القتل والابادة الجماعية من سلب ونهب وتخريب للممتلكات الاسلامية والمحاصيل الزراعية وتعطيل تجارتهم بفرض الرسوم الباهضة<sup>(7)</sup>، كل هذا أدى الى ملء قلوب المسلمين كراهية ورغبة في التخلص من هذا الكيان الصليبي الغريب على الأرض العربية فهبوا مدافعين عن كيانهم ولبوا نداء الجهاد الذي رفعه صلاح الدين الأيوبي للمشاركة في تحرير أراضيهم في معركة حطين الحاسمة 583هـ/1187م، وما تلاها من مواجهات حتى أضعفوا الكيان الصليبي من خلال نشاطهم العسكري في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وطردهم نهائياً أيام المماليك.

وهكذا يلاحظ ارتباط حركة الجهاد الاسلامي ضد الوجود الصليبي بعوامل السياسة الصليبية في المنطقة، وعوامل أخرى سياسية وفكرية نبعت من حركة المجتمع الاسلامي نفسه، ويلاحظ أيضاً دور الفقهاء والعلماء المسلمين<sup>(8)</sup> في تشجيع وتنشيط حركة الجهاد

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، تحقيق صبيح، ص378. وبراور، عالم الصليبيين، ص74. وابن أيك الدواداري: الدرر المطلوب، ص160، ص378.

(2) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، ورقة 33.

(3) القاضي الفاضل، انشاءات القاضي الفاضل، تحقيق فتحة البراوي، ط1 القاهرة 1960م، ص107.

(4) ابن أيك ن م، م س، ص198.

(5) لامونت، الحروب الصليبية والجهاد، في دراسات اسلامية، ط. بيروت 1960م، ص107. وكاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، ط. بيروت 1973، ص316.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص269.

(7) ابن جبير: م س، ص210.

(8) المقرئ، السلوك، ج1، ق2، ص529.

الاسلاميا لإضافة للمدارس وأماكن العبادة وخاصة المسجد بدوره الهام في حياة المجتمع الاسلامي حين كان مركزاً للحياة الدينية والمدنية.<sup>(1)</sup>

وقد أثبتت الأحداث التاريخية موقف أهالي جنوب بلاد الشام البطولي برفضهم الاحتلال الاجنبي المتمثل بالصليبية والمغول، فقاوموه قدر استطاعتهم لكن الظروف العامة المحيطة بهم من الصراعات الاسلامية المتمثلة بين الفاطميين والسلاجقة عام 495هـ/1101م<sup>(2)</sup>، وما لحق بهم من ظلم وقهر نتيجة هذا الصراع<sup>(3)</sup>، وموقف هؤلاء المخزي من مجريات الأحداث وتخاذلهم في التصدي للحملة الصليبية الاولى، بل شلت الخيانة عقول بعض قادتهم كالافضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين في مصر الذي مد يده لمصافحة المعتدين الصليبيين لاقتسام بلاد الشام معهم متأثراً بأنانيته البغيضة<sup>(4)</sup> لانتزاع ملك مصر من الفاطميين واضعاف السلاجقة الاتراك وتثبيت حكمه، مما دفع أهالي جنوب بلاد الشام إلى الاعتماد على انفسهم والتضحية والاستشهاد من أجل الدفاع عن بلادهم ومقدساتهم وخاصة بعد استيلاء الفرنجة على بيت المقدس والذي امتد حكمهم له من 492-583هـ/1099-1187م، ولم ينجدهم احد<sup>(5)</sup> فرفضوا التعامل والتعاون معهم، مما دفعهم للهجرة الى شرقي الاردن وسوريا الامر الذي نتج عنه اهمال الزراعة في الساحل الفلسطيني كعقاب اقتصادي للمعتدين<sup>(6)</sup>. مما اضطر الصليبيين الى

(1) حسين مؤنس، المساجد، ط. الكويت 1981م، ص34. وعبد النعم ماجد، الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، ط. القاهرة 1963م، ص94-95.

(2) لقد تحالفت قبائل طيء وبني كلب العربية عام 414هـ/1023م لاقتسام البلاد الشامية فيما بينهم. فهاجمهم الفاطميون وقضوا على هذا الحلف لشعورهم بخطر هذا الحلف على حكمهم. وانظر الاثير: الكامل، ج7، ص244، وابن العديم: م س، ص323، 230 وابن خلدون: العبر: مجلد4، ص582 وابن القلائسي: ذيل تاريخ دمشق، ص74. كما كان لقبائل ربيعة دور طليعي ومؤثر زمن الاتابك زنكي صاحب الموصول وطفنكين السلجوقي حاكم دمشق علماً بان بني ربيعة هم ابناء حازم من بني الجراح من طيء عرب الجنوب في بلاد الشام. انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص203، كحالة: م س، ج2، ص421.

(3) ابن القلائسي: ذيل تاريخ دمشق: بيروت، 1908، ص140.

(4) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5، ص153 حيث قال: ((واشتغل بها عن السواحل الشامية حتى استولت الفرنج على عاليها، وندم على ذلك حين لا ينفع الندم)). والمقريري: اتعاظ الخفء، ج3، ص24، "والأفضل هو أبو القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ولد في عكا من أصل أرمني عام 408هـ/1061م".

(5) ابن القلائسي، م س، ص140.

Wiliam of Tyre, Ahitozy of deads done boyond the Sea, U.S.A. 1943, vol,1, P.345.

(6) حيث اعتبر وليم الصوري ترك الزراعة كعقوبة ليعاني الصليبيون من الجوع. وانظر فوشيه دي شاركر :

Wiliam of Tyre, op. Cit vol 1 p.409 Fulcher of chaers, op. cit, vol, 1, p.130.

تشجيع الهجرة المعاكسة نحو فلسطين فقاموا. بتهجير سكان البلقاء والسلط ووادي موسى النصارى الى القدس بالترغيب والترهيب واسكنوهم في حي اطلقوا عليه اسم ((حي المشاركة)) للعمل بالتجارة والصناعة لقلّة السكان. ثم تحركوا نحو جنوب شرقي الاردن عام 504هـ/1106م لاستراتيجيتها بين الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية والعراق، ولكثرة قلاعها، وخيراتها بقيادة "بغدوين الاول" الذي جدد بناء قلعة الشوبك وسماها (مونتريال) وبنى قلعة "قرعون" في العقبة، فأرعبوا البلاد كلها مما دفع بعض القبائل للسيطرة على طريق بيت المقدس -الرملة وقد وصف وليم الصوري هذه المقاومة الوطنية المشروعة تجنباً على الحقيقة بحرب العصابات، وسمى سكان القرى بـ (Casalia) لرفضهم الاحتلال الصليبي، وانضمامهم الى صفوف المجاهدين في بلاد الشام حيث عملوا كأدلاء لهم عند دخولهم فلسطين وحولوا كل البلاد لمقاطعة من الرعب حيث لم يجرؤ أحد منهم على الخروج من التحصينات<sup>(1)</sup> كما خرج بنو عياد من الكرك تلبية لنداء صلاح الدين الايوبي الى الشام ومصر بعد ان اجبرهم الصليبيون على تقديم خدمات لهم كناقلي اخبار وأدلاء طرق. فأراد صلاح الدين حرمان الفرنجة من هذه المميزات.

وهكذا نرى الموقف الايجابي البطولي لسكان جنوب بلاد الشام من الاحتلال الصليبي وبالمقاومة قدر استطاعتهم والحقما شهدت به الاعداء<sup>(2)</sup>. بينما اغفلت المصادر التاريخية العربية الاشارة اليها، وذلك لاشتغال المؤرخين الرسميين بالتأليف لكبار الامراء والخلفاء والسلاطين، وربما بسبب انعزال تلك المقاومة في داخل فلسطين، بينما تركزت مراكز حركة التأليف التاريخي للصراع الاسلامي الصليبي قبل تحرير بيت المقدس عام 1187/583 خارج تلك المناطق التي شهدت عنف تلك المقاومة.

(1) ابو المحاسن : م س، ج 5، ص 153.

(2) حيث ذكر وليم الصوري : ((..... وكانت البلاد مليئة بالعصابات مما دفع بغدوين الاول لمهاجمة سكان القرى المحيطة بالقدس، وسفك دماء كثيرة...)). كما تابع وليم الصوري: حقه الصليبي على شعبنا بقوله : ((انهم كانوا اعداء قساة على شعبنا وعلموا عدونا كيفية تدميرنا، لاملاكهم معلومات كافية عن حالتنا، اذ لا يوجد اكثر دماراً وتأثيراً من وجود عدو داخل ابوابنا وحولوا كل

البلاد لمقاطعة من الرعب... Wiliam of Tyre, Op. Cit, vol, 1, P.408.

فابن القلانسي ركز على دمشق وحركة الجهاد الاسلامي، ويبدو عدم وصوله روايات كافية عن حجم المقاومة الداخلية، فإغفل الإشارة إليها في تاريخه. وقد اشار الرحالة الاوربيون في مملكة بيت المقدس الى مقاومة القبائل العربية، أمثال ((سايو لف)) البريطاني الذي قام برحلة ما بين 1102-1103م زمن الملك بلدوين الاول والذي يذكر ايضا بان الصليبيين استولوا على عكا Acras وتسمى أيضا "Accaron" عام 1104<sup>(1)</sup>.

وكان عنوان الرحلة:

Saewulfiad Peregrinatione saewulfiad Hiersolymanet Terrae Sanctam.

وقد اعتمد الدكتور محمد مؤنس احمد على الترجمة الانجليزية لهذه الرحلة<sup>(2)</sup> وتمثل هذه الرحلة الى فلسطين اهمية خاصة كرحلة مبكرة خلال السنوات الأولى للاستقرار الصليبي في بلاد الشام والتي تعطينا صورة هامة عن الصراع الاسلامي الصليبي خلال ذلك العهد المبكر وتوضح الصعاب التي واجهت بعض الحجاج الصليبيين في طريقهم الى الاماكن المقدسة بالإضافة الى مظاهر التدمير والتخريب لكثير من المدن في فلسطين.

ومن الجوانب الهامة في رحلته وصفه للمقاومة العربية الاسلامية ضد الحجاج الصليبيين القادمين من اوربا خلال الطريق<sup>(3)</sup> من يافا الى بيت المقدس حيث قطعها في يومين ووصف هذا الطريق في ص 9-8 من يافا Joppa الى بيت المقدس Jerusalem كانت خطيرة بسبب تواجد

(1) المقدسي: أحسن القاسم، ط ليدن 1967م، ص 162-163، ناصر خسرو: سفرنامه تحقيق الحشاش ط. القاهرة 1945، ص 15، الادريسي: نزهة المشتاق الى اختراق الافاق: تحقيق جابريلي وديلاملا وآخرون، طبعة نابلي، ج4، ص 365، ابن جبير، الرحلة ط بيروت 1980م ص 27، ابن بطوطة: الرحلة، ط بيروت 1962 ص 35.

(2) د. محمد مؤنس، الرحالة الاوربيون ص 42-45 و ص 262 الملحق. William of Tyre, vol.1, PP. 454-456.

(3) لقد وصف الدكتور محمد مؤنس محمد عوض هذا الطريق بين يافا والقدس بطبيعته الجبلية بطول سبع وستين كيلومتراً، حيث يبدأ من غرب بيت المقدس من الباب الغربي ((باب يافا)) ويمتد على هضبة القدس عبر دير ياسين وابو غوش ثم الرملة- وشيد الصليبيون ستة حصون لتأمين هذا الطريق: د. محمد مؤنس أحمد عوض: التنظيمات الدينية الاسلامية والمسيحية بلاد الشام، ص 375. وانظر: سيد فرج: القدس عربية اسلامية، القاهرة العدد 3، السنة 8 يناير 1984م ص 12 وانظر د. محمود الحويري: الاوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ط 1، القاهرة، 1979 ص 186، والواقع انه اخطأ في ذكر قلعة شقيف ارنون بين يافا وبيت المقدس، حيث تقع هذه القلعة في جنوب لبنان، وربما نقل عن احد الرحالة الاوربية وانظر عبد العزيز عبد الله: دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس، اللاذقية حتى عام 1187م. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الزقازيق، 1988، ص 122.

القبائل العربية في تلك المناطق الجبلية الوعرة، حيث كانوا يختبئون في الكهوف الصخرية لمراقبة هذا الطريق ليل نهار لمهاجمة الحجاج الصليبيين وبصورة فجائية واختفائهم بسرعة، وروى رؤيته لجثث الصليبيين على جانبي الطريق تلتهمها الوحوش.

وهكذا يتضح لنا عنف المقاومة الاسلامية في ذلك الطريق حيث بلغت حداً من السرعة دفعت الصليبيين الى تجنب دفن قتلاهم خوفاً من هجوم المسلمين المباغت عليهم .

وقد وصف سايولف الانجليزي هذه المقاومة بالقرصنة والسلب والنهب ونسي مجازر الصليبيين في بيت المقدس وحيفا ويافا وعكا عند فتحها تعبيراً عن حقه الدفين على المسلمين.

فكان هؤلاء العرب المسلمون يقومون بواجب الجهاد وتحرير اراضيهم من الصليبيين القراصنة اصحاب المجازر البشرية في فلسطين.

كما ادركت القبائل العربية الاسلامية بأن اولئك الحجاج يشكلون دعماً بشرياً للكيان الصليبي من حيث المشاركة في المعارك الحربية او المساعدة في بناء القلاع والحصون.

وقد ظهر التعصب الديني في وصف سايولف للمسلمين حيث يشير الى بلاد العرب Arabia بقوله ((وعلى الجانب الاخر من الاردن (نهر الاردن) توجد بلاد العرب وهي التي تناصب المسيحيين عداً شديداً ولا تصادق كل الذين يؤمنون بالله))<sup>(1)</sup> .

كما ظهر حقه على العرب بنسبة كل مكان مخرب بهدم في فلسطين الى العرب<sup>(2)</sup> .

ونرد عليه بان مثل هذا التدمير -ان وجد- في المدن الفلسطينية فقد كان نتيجة للحروب الاسلامية الصليبية، كمدينة بيت لحم حيث ذكر بانه لا يوجد منزلاً تركه العرب قابلاً للسكن، بل تم سلب كل شيء ونهبه<sup>(3)</sup> ، وكذلك ما حدث في مدينة الخليل<sup>(4)</sup> ، التي نهبت وخربت على أيدي العرب كما خربوا مدينة الناصرة بصورة كاملة<sup>(5)</sup> .

(1) Saewulf. P. 23.

(2) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط. القاهرة 1948م، ص 82.

(3) Saewulf , p.24.

(4) Ibid, P. 24.

(5) Ibid, P.24. وابن الفلانسى: ذيل تاريخ دمشق او ضمن حوادث عام 1106/500 فساد الصليبيين في أعمال الراد وقيامهم

بالتخريب والنهب والسلب.

هذا وقد اكد الرحالة الروسي دانيال "Abbot Daniel" الى بيت المقدس عام (1106-1107م) مقاومة القبائل العربية الاسلامية حجاج بيت المقدس في طريق يافا - بيت المقدس، مما جعل مملكة بيت المقدس تعهد بأمر الدفاع عن هذا الطريق الى عناصر فرسان الداوية ((Templars)) مما جعل الحجاج الصليبيين في رعب دائم خلال هذا الطريق الجبلي<sup>(1)</sup> . ومن المرجح ان عناصر البدو من أبناء القبائل العربية قد ساهموا بنصيب وافر في هذا المجال.

كما يدل هذا على عدم تمكن الصليبيين من سيطرتهم على هذه المناطق خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الاستقرار الصليبي في المنطقة فقامت حركة المقاومة العربية الاسلامية على هذا الطريق الممر الحيوي والرئيسي للحجاج القادمين من اوروبا لزيارة بيت المقدس بما يشبه حرب العصابات ضد الصليبيين التي اعتمدت على اسلوب الكر والفر والمباغلة لتحقيق اكبر الخسائر في صفوف الصليبيين. فكان هذا هو الحل المنطقي لمواجهتهم بعد احتلالهم لاجزاء هامة من بلاد الشام.

كما أبرز دانيال الروسي صوراً أخرى للمقاومة العربية متمثلة في حامية عسقلان ((Ascalon)) حيث نفذت هذه الحامية ثلاث غزوات كبيرة ضد أملاك الصليبيين في الاعوام (1101م، 1102م، 1105م). وثلاث غزوات صغيرة خلال أعوام (1105، 1113، 1107م)<sup>(2)</sup>.

ويؤكد فوشية الشارترى ((Fulcher de Chartres)) شجاعة وبطولة حامية عسقلان قليلة العدد بتفوقها وانتصارها على القوات الصليبية كثيرة العدد حيث تمكن من اختراق الصفوف الصليبية والوصول الى اسوار القدس وإشعال الحرائق هناك<sup>(3)</sup> . كما شكلت قاعدة للاسطول الفاطمي هناك<sup>(4)</sup> مما حفز الصليبيين لاسقاطها واخضاعها لهم.

(1) د. محمد مؤنس عوض، ص 79.

(2) ن م، ن ص.

(3) Fulcher of Cartres, p.29, p.250.

(4) Stevenson, The Crusades in the east, p.172. Lane poole Ahistory of Egypt in the middle east, London, 1901, p.173.

وهكذا كشفت هذه الرحلة طبيعة الاخطار الحربية والاضاع الامنية غير المستقرة التي عانى منها الصليبيون في بداية استقرارهم هناك وجدير بالذكر أن هؤلاء الرحالة سايولف ودانيال الروسي وغيرهم امثال متليوس (1118-1130) ويوحنا الورز برجي الالماني (1160-1170م) ، وايوفرو زين الروسيه (1162-1172) .

وغيرهم الى بيت المقدس، قد حرصوا على اظهار الصعاب والمخاطر التي عانوا منها للوصول الى الاماكن المقدسة في فلسطين من عواصف وهجمات المسلمين عليهم، وذلك ليهاهوا معاصريهم والاجيال اللاحقة بهم لقوة ايمانهم وتقواهم التي امدتهم بالصبر والمثابرة، وليظهروا لهم ايضاً بطولاتهم الفردية لرفع معنويات هذه الاجيال لتتبع خطاهم والقُدوم الى الاماكن المقدسة.

ثم تطورت المقاومة العربية في عهد الصحوة الاسلامية زمن صلاح الدين الايوبي على شكل متطوعين في الجيش الصلاحي او ادلاء للجيش ما بين مصر والشام.

اذ ساهم بدو سيناء وجنوبي فلسطين مساهمة فعالة ونافعة كأدلاء لعساكر صلاح الدين التي تنطلق من مصر باتجاه الشام أو بالعكس<sup>(1)</sup> كما ساهم أهل غزة بفلسطين بصناعة سروج الخيل المعدة للفرسان المسلمين<sup>(2)</sup> هذا وقد اعتمد عمه أسد الدين شركوه على القبائل العربية في مصر والشام، والمعروف أن لفظ العرب كان يطلق على الجماعات البدوية أو ابناء القبائل، رغم ان سكان المدن كانوا عرباً كذلك.

ثم سار صلاح الدين على خطى عمه في ادخال العرب الى جيشه حيث ظهر في العرض العسكري الذي أقامه صلاح الدين يوم 8 محرم 11/567 ايلول 1171 قبيل وفاة العاضد بيومين وعلى اثر قطعه للخطبة الفاطمية في المسجد يوم الجمعة، وشوهد في هذا العرض العسكري العرب الجذاميون<sup>(3)</sup> ، وكان عددهم سبعة الاف فارس، ثم خفض عددهم الى الف وثلاثمائة فارس، وخفض راتبهم الى العشر مما كانوا يأخذونه، أي الى مائة الف دينار، وهذا ما فعله مع

(1) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 11.

(2) ن.م. ص 113.

(3) المقرئزي: السلوك، ج1، ص 47.



العرب الثعالبة ايضاً، مما اثار معارضتهم وجعلهم يلوحون بترك الخدمة والانضمام الى الفرنجة<sup>(1)</sup>، علماً بان موطن الثعالبة بين العريش ورفح أي مما يلي أرض مصر من جهة الشام، اما قبيلة جذام فكان موطنها بين القاهرة وعقبة ايله<sup>(2)</sup>، وكانوا قد قدموا مصر مع الفتح الاسلامي<sup>(3)</sup>.

كما تعاونت جماعات اخرى من العرب مع صلاح الدين رغبة في الجهاد، او الحصول على الغنائم، بصفة جنود غير نظاميين، كما حصل مع نور الدين زنكي عندما تعاون معه عرب الشام امثال بنو بحتر القحطاني الذين اقرهم على ما بأيديهم<sup>(4)</sup> كما اعتمد نور الدين على العرب القاطنين في جنوب بلاد الشام كأدلاء لجيشه، بين مصر والشام<sup>(5)</sup> والذين استمروا بهذه المهمة في جيش صلاح الدين الأيوبي على الرغم من أن قسماً منهم تحولوا للعمل لحساب الصليبيين<sup>(6)</sup>، لاسيما مع ريتشارد قلب الاسد<sup>(7)</sup>.

ونرجح أن أسباب انضمامهم للصليبيين كان نتيجة للصراع القبلي بين بدو المنطقة أو طمعاً في زيادة المكافأة المالية التي دفعها لهم الصليبيون زيادة عما كان يدفع لهم صلاح الدين لتهريب الحبوب الى الفرنجة<sup>(8)</sup> بالإضافة الى النزعة البدوية التي كان يعوزها الوعي الديني

(1) ن.م، ن.ص.

(2) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق د. عبد المجيد عابدين، ملتزم الطبع والنشر عالم الكتب، القاهرة، 1961، ص19.

(3) ن.م، ص23.

(4) صالح بن يحيى، كتاب تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1969، ص90. وابراهيم علي طرحان: النظم الاقطاعية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1988، ص32.

(5) اسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، مطبع جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930، ص11.

(6) ابو شامة: الروضتين، ج1، ق2، ص526، سبط ابن الجوزي، ابو المظفر شمس الدين قنزا وعلي التركي (ت256/654م: امرأة الزمان في تاريخ الاعيان مطبعة حيدر آباد الدكن، الهند، 1951، ج8، ق1، ص293.

(7) ابن شداد الأسدي: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق الشيال، القاهرة 1964، ج1، ق2، ص526. وابن واصل (ت1299/697): مفرج الكروب في اخبار بني ايوب القاهرة 1953م، ج2، ص28، ابو شامة: الروضتين في اخبار الدولتين،

مجلد يضم ج1، ج2، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1287هـ/ج2، ص192.

(8) المقرئ: السلوك، ج1 ص71 وانظر: البنداري: قوام الدين الفتح بن علي (ت القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي: سنا البرق الشامي) تلخيص البرق الشامي للعماد الاصفهاني، تحقيق د. رمضان شلش، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971 وجب: صلاح الدين ص173 (نقلا عن مخطوط البرق الشامي ج3 ورقة 170.

والتوجيه والتنظيم لمسايرة حركة الجهاد، مع العلم بأن معظمهم ظلوا تائبين على موقفهم من الجهاد الاسلامي والتطوع في صفوف الجيش الاسلامي.

ولكن البدو المتعاونين مع الصليبيين اصبحوا مصدر متاعب لجيش صلاح الدين وخاصة قبيلة بني عباد والتي كانت تسكن منطقة صرخد الملاصقة لحوران من جهة الاردن<sup>(1)</sup>.

مما أجبر صلاح الدين على ابعاد مائتي فارس من ابطال الحرب من هذه القبيلة وغيرها عام 568هـ/1170م الى دمشق، وطلب من نور الدين محمود اعطاءهم إقطاعات اقليمية ليبعدهم عن ساحة الحرب مع الصليبيين، لانهم كانوا يشكلون خطراً على المنطقة العراقية بين مصر والشام لمعرفة بطرقها<sup>(2)</sup>.

كنما تشير المصادر التاريخية الى استخدام الكمائن<sup>(3)</sup> البدوية العربية في جيش صلاح الدين وخاصة بعد عام 585هـ/1189م للتحرش بقوى اعدائه الصليبيين، ليشاغلهم ولكي لا يفسح المجال لراحة جنودهم وليمنعهم من جمع قواتهم حول عكا، فكان على الجيش الايوبي، ان يدافع عن عكا من جهة، وأن يفرض الحصار على الصليبيين الذين يحاصرون عكا من جهة أخرى، ويرسل الكمائن للتحرش بالجماعات الصليبية هنا وهناك من جهة ثالثة. ومما هو جدير بالذكر أن مواصفات فارس الكمين كانت متوفرة بشكل عام في جماعات البدو من عرب جنوبي بلاد الشام حتى حدود مصر، فشكل هؤلاء احتياطاً جيداً في تزويد جيش صلاح الدين بالقوات الضرورية في أوقات الحرج لشن الغارات على العدو مع القدرة على التظاهر بالهزيمة والضعف امام العدو، مع القدرة على الاندفاع السريع لخفتهم<sup>(4)</sup>.

(1) البنداري: ن م، ج 1، ص 125، والقلقشندي، نهاية الارب في معرفة انساب العرب، مطبعة النجاح، بغداد 1958، ص 4-13.

(2) دريد عبد القادر نوري: سياسة صلاح الدين، مطبعة الارشاد، بغداد 1976، ص 102-103.

(3) الكمائن: تعني ارسال عدد قليل من المحاربين الفرسان الى جهات العدو ومباغتته، والابقاع به في مناقشات محدودة لا تصل الى حد القتال الواسع النطاق، فكانت الكمائن سرية الأوسي الانصاري، عمر بن ابراهيم (أوائل القرن التاسع/أوائل القرن الخامس عشر الميلادي): تفريغ الكروب في تدبير الحروب، حققه وترجمه الى الانجليزية الدكتور جورج سكانيون، منشورات الجامعة الامريكية بالقاهرة، 1961، ص 71.

(4) ابن شداد: ن م، ص 108.

وكانت الاحراش الكثيفة والجبال المغطاة بالاشجار في فلسطين عاملاً اساسياً في نجاح عمل الكمائن بالإضافة لشجاعة البدو من القبائل العربية هناك ومعرفتهم الاكيدة بالطرق الوعرة ليلاً ونهاراً بين جيش صلاح الدين والصليبيين في الساحل.

فقد ارسلت هذه الكمائن للقيام بعمليات عسكرية محدودة الاثر لاحراج العدو وجعله لا يشعر بالامان، بما يشبه اليوم الأعمال الفدائية أو المغاوير فكان لجماعات البدو وامراء العرب دور بارز في عمليات الكمين في العهد الايوبي.

ولعل من أبرز حوادث الكمين ما وقع في جمادي الاخرة عام 585هـ/1189م حيث ارسل صلاح الدين كميناً من العرب ليمنع الصليبيين من الخروج من صور الى جبل تبينين<sup>(1)</sup>، لجمع الحشيش أو الحطب ويبدو أن الصليبيين قد علموا بأمر الكمين فاستعدوا لذلك ودار قتال بينهم حيث قتل من الفرنجة زهاء عشرة أشخاص ستة منهم واربعة من امراء العرب من بني ربيعة كالأمير زامل بن تبّل، والأمير حجّي بن منصور، والامير مطرف بن رفيع، وآخر معهم<sup>(2)</sup>.

وهكذا نلاحظ دور بني ربيعة الطليعي في جيش صلاح الدين باستشهاد هؤلاء الامراء من أبناء ربيعة.

كما ذكر ابن شداد قائلاً ((خرج العدو للاحتشاش من طرف النهر، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب...لخفتهم)) فهجموا على الفرقة الصليبية على حين غرة ((وقتلوا منهم خلقاً عظيماً واسروا جماعة، واحضروا رؤساء عدة بين يديه، فخلع عليهم وأحسن اليهم))<sup>(3)</sup>.

ويذكر ابن شداد انه خرج مع السلطان صلاح الدين ليطلع على اعمال كمين من العرب في بطون أحد وديانة جنوبي الشام<sup>(4)</sup> فقتلوا من الصليبيين ستين صليبياً فعاد السلطان الى خيمته شمال طبرية فعاتبه الملك ريتشارد على ذلك.

(1) تبينين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين صور ودمشق. الحموي: معجم البلدان، ج2 ص14. والعماد: الفتح القسي، ط. القاهرة، ص135.

(2) العماد الأصفهانى: ن م، ص294. ابن شداد: م س، ص151، ابن الاثير، م س، ج11، ص30-31. ابو شامة: الروضتين ج2/ص141، ابن واصل: مفرج الكروب ج2 ص287-288.

(3) ابن شداد: ن م، ص108، العماد: م س، ص306، وابن واصل: ن م، ج2، ص294.

(4) ابن شداد: ن م، ص200 العماد الكاتب، ص559-560، تحقيق محمد صبح، الدار القومية للطباعة، القاهرة 1965، ص394.

ومن حوادث الكمين الكثيرة ما نصب مراراً أثناء حصار عكا، وكان أعظمها ما حدث في 22 شوال عام 586هـ/1190م حيث وضع السلطان صلاح الدين كميناً في سفح جبل شمال عكا اطلق عليه المؤرخون اسم ((وقعة الكمين<sup>(1)</sup>)).

حيث حضره المؤرخ ابن شداد كشاهد عيان والعماد الكاتب، فخرج قسم من الكمين لمناوشة الصليبيين بالنشاب فلحقهم مائتا فارس<sup>(2)</sup> وطاردهم على الخيل حتى أتوا الى كمينهم الذي خرج اليهم فجأة فانهزم الصليبيون، فقتلوا عدداً منهم واسروا الباقي مع خيولهم وبشروا السلطان بالنصر فخرج لاستقبالهم في تل كيسان<sup>(3)</sup> وتفقد الاسرى الصليبيين وكان بينهم مقدم العسكر الفرنسي، وخازن الملك، فقيدهم وأرسلهم إلى دمشق<sup>(4)</sup>.

وفي الختام نشير الى تطوع ابناء القبائل العربية في شمال الشام وجنوبها بالانضمام لجيش صلاح الدين حياً في الجهاد في سبيل الله ورغبة منهم في تحرير الارض العربية الاسلامية من الاحتلال الصليبي وذلك عندما وصل عهد الصحوة الاسلامية الى ذروته ايام صلاح الدين والذي بدأ بظهور المجاهد عماد الدين زنكي وابنه الشهيد نور الدين محمود، فلا غرابة اذ وجدنا ذروة التطوع في جيش صلاح الدين في موقعه حطين وفتح بيت المقدس والمعارك التي اعقبت ذلك في حصار عكا وغيرها، فكان هذا التطوع مدهشاً لدرجة انه استدعى انتباه المؤرخين<sup>(5)</sup> حيث قصده العلماء والصالحون للتطوع<sup>(6)</sup>.

هذا واختلفت واجبات الجند المتطوعة عن واجبات أفراد الجيش النظامي، حيث توكل اليهم الإغارة على العدو قبل نشوب المعركة لازعاجه في قواعده، وتخريب طرق امداداته وتموينه وقطع طرق المواصلات لعرقلة تجمعاته، كما توكل اليهم مهمة مطاردة العدو بعد

(1) ابن شداد: ن م، ص150، العماد الكاتب: ن م، ص448، ابو شامة: م س، ج2 ص180 ابن واصل: مفرج الكروب ص344.

(2) ابن شداد: ن م، ص151، العماد الكاتب، م س، ص448 وفي الروضتين م س اربعمائة فارس نقلاً عن البرق الشامي.

(3) تل كيسان: موضع في مرج عكا من سواحل الشام، معجم البلدان، ج2، ص43.

(4) ابن شداد، م س ص151، العماد . م س، 449 ابو شامة: م س ج2/180، ابن واصل: م س، ج2 ص344-345.

(5) ابن كثير: م س، ج12 ص322. Lane Poole, Salaelin, p. 204.

(6) ابن كثير: ن م، ص324.

تقهقرهم<sup>(1)</sup> ، أو أن يوضعوا في جناحي الجيش النظامي للاحاطة بجناحي العدو دون اختلاطهم بالجند المدربين. ولم يكونوا مدربين جيداً على صنوف القتال.

وربما كان تطوع بعض أبناء القبائل العربية الاسلامية للحصول على مكاسب مادية<sup>(2)</sup> فقد اعطاهم نور الدين من بيت المال من نصيبهم من الصدقات ((الزكاة)) لانهم كانوا يتمتعون بحظوة كبيرة عند نور الدين وصلاح الدين، فنالوا كل تقدير واحترام مادي ومعنوي.

ويذكر أن أصحاب نور الدين عاتبوه لكثرة الأشعطيّات للمتطوعين فقضى وقال لهم: ((والله إني لأرجو النصر بأولئك ... كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني، وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطيء))<sup>(3)</sup> .

وكثيراً ما كان يندفع هؤلاء العرب المتطوعين بحماس ديني دون خبرة حربية فيكونون اول الضحايا ويسببون الارباك والفوضى في صفوف الجيش الصلاحي ومن أمثلة ذلك ما حصل في جمادي الأولى عام 585هـ/1189م عندما خرج صلاح الدين مع عديد قليل من جنده وصعد الجبل لاستطلاع ما يفعله الفرنج المخيمون على مسافة قصيرة من المسلمين فظن العرب المتطوعون في جيشه وبعض العجم ان صلاح الدين ذهب للحرب فتوغلوا في أرض العدو وبعدها كثيراً عن جيشهم ورفضوا الرجوع عندما ارسل صلاح الدين من يقنعهم بالرجوع<sup>(4)</sup> وتوغلوا داخل قوات الفرنج الذين قتلوهم جميعاً مما دفع صلاح الدين الى التأثر لهم والانتقام من الصليبيين قتلاً وغرقاً<sup>(5)</sup> .

(1) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، نشر الدار القومية ، القاهرة، 1966، ص271-272.

(2) النويري: نهاية الارب، ج6، ص153، ابو يعلى الفراء: الاحكام السلطانية تصحيح وتعليق: محمد حامد النقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وابولاده بمصر، 1938/1356 ص23. وسعداوي، جيش مصر، ص17 نقلاً عن ابن منكلي - مخطوط.

(3) ابن الاثير: م س، ج11، ص296، ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبد الحي (ت1678/1089) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مطبعة القديس، القاهرة، ط1931/1350 ج4، ص181.

(4) ابن الاثير: ن م، ج12، ص29.

(5) ابن الاثير، ن م، ص30، ابن واصل. م س، ج2 ص285-286.

ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء المتطوعين كانوا ينتمون الى مختلف الفئات الاجتماعية من المسلمين من أبناء القبائل العربية في القرى والمدن فقراء وأغنياء، فقهاء وصوفية<sup>(1)</sup> . وقد أطلق نور الدين اسم الأحداث على المتطوعين<sup>(2)</sup> ، كما كان لخطباء المساجد الأثر الكبير في توجيههم لرفد الجيش الصلاحي بعد خطبة الجمعة، فيخرجون من المساجد وهم يرددون الهتافات والدعوات زرافات ووحدانا ملتحقين بمعسكر الجيش الصلاحي، حيث كان صلاح الدين يوكل اليهم أحياناً قتل الأسرى بأيديهم كما حصل في بيت الاحزان<sup>(3)</sup> عام 575هـ/1179م، وكما حدث بعد معركة حطين بقتلهم أسرى الفرقتين الصليبيتين الداوية والإستبارية<sup>(4)</sup> .

وهكذا لاحظنا أهمية القبائل العربية في الشام عامة وجنوبها خاصة أيام الحروب الصليبية، إذ زودوا الامراء المسلمين بقوات إضافية للإغارة على الصليبيين في عدة مناسبات، كما حدث عام 574هـ/1179م حيث استعان بهم صلاح الدين الايوبي في حروبه الحاسمة ضد الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ((ريكاردوس)) الملقب بقلب الاسد على طريق القدس، حيث اسهمت القبائل العربية بتقديمها العساكر والخيالة<sup>(5)</sup> .

كما كان أفراد هذا القبائل العربية يلتحقون بالجيش الاسلامي حياً في الجهاد او طمعاً في الغنائم وهو ما يطلق عليه بالمتطوعين لقتال الصليبيين ((الجنود الاضافيون في جيش صلاح الدين)) كما حدث عام 575هـ/1179م أثناء الهجوم على قلعة صليبية عند مخاضة الاحزان قرب حطين، كما أشعلوا النيران في العشب اليابس يوم حطين 583هـ/1187م مما ساعدت الريح على حمل النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر النار والدخان وحر القتال، مما

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص340.

(2) د. سعداوي، م س، ص16.

(3) ابو شامة: م س، ج2، ص11، البنداري: سنا البرق الشامي (تلخيص البرق الشامي للعماد الكاتب الاصفهاني) تحقيق د. رمضان شنش، بيروت ج1، ص336.

(4) فليب حتى: تاريخ العرب، ص634، محمد العروس المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب دار الكتب الشرقية، تونس 1954، ص70، وتعني الداوية: وهي تحريف الكلمة سريانية بمعنى فرسان المسيح الفقراء، والاستبارية: فرسان القديس يوحنا .

(5) المقرئزي: السلوك، ج1، ق1، ص7، وابن شداد: النوادر السلطانية، ص213-215.

عجل بهزيمة الصليبيين المنكرة ويسرت للمسلمين تحرير بيت المقدس<sup>(1)</sup> ، كما أشار بعض المؤرخين إلى فضل بدو الشام في تزويد صلاح الدين بقوات اضافية للاغارة على الصليبية<sup>(2)</sup> .

وهكذا كانت القبائل الرحل من القوة الاحتياطية الاقليمية ايضاً.

وكان صلاح الدين الايوبي يوكل لأفراد العصابات من الأعراب بالمرابطة على التلال

وتعقب الصليبيين في فصل الشتاء، عندما كان يسمح لعساكره بالعودة الى اهلهم.

كما حدث عام 587هـ/1191م لمهاجمة جيش ريتشارد قلب الاسد المرابط قرب اللد حيث

كانوا يهجمون على جنوده بين الفينة والاخرى، حتى ان بعض الشجعان من رجال البدو كانوا

يدخلون على معسكرات الصليبيين ويأسرون بعضهم مع معداتهم وأموالهم بوضع الخناجر على

نحورهم، وهكذا كان الاغراب يلحقون الخسائر الفادحة بمؤخرات المعسكر الصليبي<sup>(3)</sup> .

كما شاركت عشيرة الدوايمة في فلسطين صلاح الدين الايوبي في معارك التحرير

لاخراج الصليبيين من قلعتها الحصينة، بعد طردهم من قلعة الداروم قرب غزة كما اهتم بها

المماليك لموقعها العسكري والاستراتيجي<sup>(4)</sup> .

وبالنسبة لدور قبائل بني عوف في عجلون شمال شرقي الاردن عندما كانت الحرب

سجالاً بين بلدوين الصليبي وطغتكين السلجوقي في دمشق عام 514هـ/1115م. فقد وقفوا على

الحياض من صراع الصليبيين والسلاجقة المسلمين لذا لم يهتم بهم الطرفان ولطبيعة البلاد الجبلية

الصعبة وحياض أهلها. خاصة بعد تدمير بلدوين الثاني حصن جرش<sup>(5)</sup> .

(1) ابو شامة: م س، ج2، ص11.

(2) نوري، دريد عبد القادر، سياسة صلاح الدين الايوبي في مصر والشام والجزيرة ، 570-589هـ/1174-1193م، ص457، وجب صلاح الدين، ص573. حيث اشير الى بني منقذ أصحاب شيزر، وقبائل بني طيء كمتطوعين أيضاً في جيش صلاح الدين وابن اصيل، م س، ج2 ص285 ذكر اهمية المتطوعين في معركة حطين في ملاحقة الصليبيين الفارين من المعركة لقطع الطريق عليهم والتأثر منهم، علماً بأنه نصحهم بعدم اللحاق بجيشه في هذه المعركة ولم يجروا على ذلك.

(3) ابن شداد: النوادر السلانية، ص192-193.

(4) مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجليل، بيروت، 1963، ج2، ص386. وانظر: موسى عبد السلام ،

قرية الدوايمة، دار الجليل للنشر، عمان، 1985م ص29.

(5) فررديك بيك م.س ص142 هامش 63 يذكر ان مسيحياً يدعى عجلون بني ديرا على هذه البقعة وان قرية كفرنجة (كفر الفرنجة)

كان يقطن بها بعض اسرى الصليبيين الذين استخدموا في بناء القلعة القدية على التل المقابل.

وعندما جاء الايوبيون بزعامة صلاح الدين الايوبي واحرز انتصارات عديدة على الصليبية في شرقي الاردن وجه أنظاره الى شمال شرقي الاردن فاعز الى احد امرائه عز الدين اسامة ببناء قلعة عجلون ليحمي طرق المواصلات بين سوريا ومصر ولتكون نداءً لقلعة كوكب الهوا اللاتينية غربها في فلسطين ، وبعد سقوط مملكة اللاتين في فلسطين بعد معركة حطين عام 583هـ/1187م استسلمت قلاعهم في شرقي الاردن كقلعة الكرك 584هـ/1188 وكوكب الهوا وصفد والشوبك 585هـ/1189م وطهر صلاح الدين شرقي الاردن من الصليبيين ولم يمهله العمر حيث توفي 589هـ/1193م وتقاسم أفراد عائلته مملكته الواسعة فكانت جنوبي بلاد الشام ودمشق من نصيب ابنه الاكبر الافضل.

وبالنسبة لقبائل الصلت في شرقي الاردن فقد تعرضت قبيلة بني رحمان من سكان قرية كفر يهوذا المجاورة لمدينة الصلت لقافلة ايوبية فنهبوا وسبوا جواري الملك المعظم عيسى فهاجمهم المعظم عيسى ودمر القرية وقتل عدداً كبيراً منهم<sup>(1)</sup> في حوالي عام 594هـ/1198م، فكانت هذه الحادثة سبباً لبنائه قلعة السلط لحماية مسالك طرق البلقاء التجارية.

وفي عام 618هـ/1220م استتجد الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ابي بكر ايوب بعربان الشام بعد احتلال الفرنجة دمياط لمدة ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً فلبى عدد كبير من البدو العساكر الشامية بحضورهم الى مصر مع عساكر السلطان التي بلغت عشرين ألف مقاتل<sup>(2)</sup> فأصبح عدد العساكر اربعين ألف مقاتل<sup>(3)</sup>.

اضطر بعدها الفرنجة لطلب الامان والرحيل عن دمياط وعقد الصلح بينهما واطلاق

الاسرى<sup>(4)</sup>.

(1) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 39/ص 81.

(2) ابن اياس : م س ، ج 1 ، ق 1 ، ص 259.

(3) ن م ، ص 261.

(4) ن م ، ص 262.



## نشاط أهل فلسطين في طرد الفرنجة زمن المماليك.

لقد شكل الامير شهاب الدين القمري جيشاً من التركمان والعربان وسار الى ابواب عكا لمهاجمة الفرنج، فاسروا جماعة منهم مع دوابهم<sup>(1)</sup>، وكان ذلك بأمر من بيبرس عندما كان يحاصر قلعة قيسارية ليشغل الصليبيين في عكا ويمنعهم من ارسال نجدات للفرنجة المحاصرين في قيسارية<sup>(2)</sup> وذلك عام 663هـ/1265م

وفي 669هـ/1271م سار السلطان بيبرس سراً الى الكرك، وعين علاء الدين ايدكين استاذ الدار نائباً على الكرك بعد نقله عز الدين أيدمر من الكرك لنيابة الشام، وذلك عندما سمع بخروج العربان مع شيخهم عيسى بن مهنا فوزع على خواصه اربعمائة الف درهم واثنى عشر الف دينار لكسب ولائهم لمنازلة العربان المتمردين عند اللزوم<sup>(3)</sup>.

هذا وقد تمتع هؤلاء العربان بمركز اجتماعي اعلى من مرتبة الفلاحين<sup>(4)</sup> لما قدموه من مساعدات عسكرية وقت الحروب الصليبية والداخلية زمن المماليك كما فأوكل المماليك الى مشايخهم حفظ الامن والنظام في مناطقهم<sup>(5)</sup> كما قاموا بدور ارشاد الحجاج المسيحيين وحمايتهم مقابل مبالغ من المال لشيخوهم<sup>(6)</sup> ثم بدأت قبائل العربان التي استوطنت بيت المقدس وما حوله تتحول تدريجياً الى شعب زراعي مستقر. اما بالنسبة للالتزامات العسكرية على البدو فان المماليك سجلوهم في ديوان الجيش لمعرفة قبائلهم واعدائهم وخدماتهم الحربية للدولة وهي التجارية والمهمات الشريفة<sup>(7)</sup>.

(1) ابن عبد الظاهر : محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 231.

(2) ن م، ن ص.

(3) ابن ظاهر م س، ن ص.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 193.

(5) العبادي: قيام دولة المماليك الاولى، نشر مؤسسة شباب الجامعات اسكندرية 1982، ص 129.

(6) Herry Formly (Rev): Avisit to the East, London. 1843 pp.328-329. حيث اشاد الرحالة الاوربيون

بهذا الدور.

(7) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص 103-136.

فقد ذكر ما يلي: "فالتحاريد تنقسم على نوعين نوع الى الغزوات ونوع الى المحاريرين البغاة سواء كان في ذلك السلطان بنفسه او يعين من يختاره من جيشه فيكون على برمر واستعداد من الخيالة والرجالة والرماة بحيث انهم اذا صاروا الى العدو المخذول فهزموه مع الفروع والاصول، واما المهمات الشريفة فقد أصبحت ضرورة ثغر من الثغور او لشيء من الاطراف او حفظ ما يقتضي حفظه او ما يناسب ذلك.

وأما عن الالتزامات غير الحربية، فقد خلع الظاهر بيبرس على امرائهم، وضمنهم البلاد والزمهم بجمع الزكاة ((العداد)) المفروضة على قطعان القبائل العربية والتركمانية سنوياً حيث قدرت بالآلاف. هذا بالإضافة الى خدمة البريد واحضار الخيل برسمه<sup>(1)</sup>.

### أما بالنسبة لصور القبائل العربية في العصر المملوكي بشكل عام

فقد ظهر دورها الكبير في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي في معركة عين جالوت 658هـ/1260م، والتي أدت لطرد الغزاة التتار وتحطيم احلامهم على قلعة الصمود العربية. كما ساهمت هذه القبائل بتحرير الساحل الشامي<sup>(2)</sup> من الصليبيين المحتلين، حيث انزلوا الهزيمة بهم اثناء حصار عكا عام 696هـ/1291م في عهد الاشرف خليل بن قلاوون. وهكذا طردوا خاسنيين مطأطني الرؤوس والحسرة تملأ قلوبهم وهم هاربون الى بلادهم حيث نسوا أنهم مُغتصبون وأن الشعوب لا تنسى حقها، وأن صاحب الحق لا بد يوماً أن يستعد لاسترجاع حقه، والحرب سجال ولكل زمن دولة ورجال.

كما نلاحظ نموذجاً من الوحدة القبلية والقومية عند قبائل عرب الشام عند مجئ المماليك مما ساهم في نجاحها في القيام بدور حربي وحضاري في بلاد الشام<sup>(3)</sup> مثل آل مهنا وآل علي وآل مراد وآل دغفل وآل ثابت ومن هؤلاء تفرعت فروع ربيعة عن ابنه فضل<sup>(4)</sup> والذين كان لهم دور سياسي في العصر المملوكي، فقد برز منهم ما بين عهد المعز اييك التركماني وعهد المنصور قلاوون زامل بن علي بن حديثة امير آل علي واخوه ابو بكر بن علي احد امراء آل علي<sup>(5)</sup>، وأحمد بن حجي امير عربان آل مراد بالبلاد القبلية في جنوب بلاد الشام، والذين كان لهم شرف الدفاع عن الشام ضد التتار، ومن بلادهم هضبة الجولان ومرتفعات طبرية وصفد<sup>(6)</sup>،

(1) المقرئزي: السلوك ج1، ق 2، في حديثة عن سنة 661هـ.

(2) الفلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص178.

(3) الفلقشندي: ن.م، ج12، ص130.

(4) ابن خلدون: العبر، مجلد2، ط لبنان 1977، ص532.

(5) الفلقشندي: ن.م، ج1، ص203.

(6) المقرئزي: السلوك ج1، ص3، 690، 785.

وعيسى بن مهنا امير عربان آل فضل بالبلاد الشرقية والشمالية<sup>(1)</sup> ويرجع هؤلاء في نسبهم الى بني الجراح في الاردن وفلسطين<sup>(2)</sup>.

أما دور بني الجراح في الاردن وفلسطين في زمن المماليك فقد ظهر ذلك ايام ((مهنا الاول)) أمير آل عيسى أحد بطون آل جراح والذي ساهم في انتصار قطز بمعركة عين جالوت عام 658هـ/1260م.

كما استقبل ابنه ((عيسى بن مهنا)) الظاهر بيبرس بعد معركة عين جالوت عندما فر من خصومه لاجئاً اليه، فحمّاه وأعطاه من خيار خيله فرساً أصيلة، لذا كافأه بيبرس عندما اعتلى العرش عرفاناً بالجميل فعينه اميراً على آل فضل إلى ان مات، حيث عهد لابنه مهنا بن عيسى بالامارة على عربيه واستمر في ذلك حتى زمن المنصور قلاوون والذي اغدق عليه واجله واحترمه<sup>(3)</sup>.

وكان من أمرائهم العظام عام 743هـ/1345م، عيسى بن الفضل والذي لم يمهله القدر اذ توفي في بيت المقدس عام 744هـ/1346م في زمن اسماعيل بن الناصر بن قلاوون. كما لعبوا دوراً سياسياً عام 660هـ/1262م في احياء الخلافة العباسية عندما رافق اميرهم ناصر الدين بن مهنا شيخ العرب في بلاد الشام<sup>(4)</sup> الامام احمد بن أمير المؤمنين الظاهر بامر الله وعم الخليفة المستعصم بالله واخو الخليفة المستنصر بالله حيث كان معتقلاً عند جماعة من عربان العراق، فشهد الشيخ ناصر الدين بن مهنا وعربه بنسبه امام القضاء في القاهرة، فبيع بالخلافة، وتلقب بالمستنصر بالله على لقب أخيه خليفة بغداد وفوض للظاهر بيبرس أمر البلاد الشامية والمصرية.

(1) الفلقشندي: ن م، ج 4، ص 265.

(2) لقد اسسوا امارتهم في البلقاء والرملة والتي استمرت عاصمة لهم من (360-420هـ و 971-1028م). وبرزوا في عهد نور الدين زنكي من (511-569هـ/1118-1174م) حيث نبغ منهم (ربيعه بن حازم بن علي بن دغفل بن جراح الذي كون اماره مرموقة نالت حفاوة عند نور الدين زنكي ووالده، وبعد ربيعة خلفه ابنه فضل الذي سيطر على البادية بين الشام والعراق ونجد زمن المماليك، وسطروا صفحة مضيئة في جهادهم ضد الفرنجة.

(3) الفلقشندي: نهاية الارب، ص 111.

(4) ابن اياس: م س: ج 1 ص 31-314.

واستشهد هذا الامير في حملته على التتار عام 661هـ/1263م<sup>(1)</sup> وكذلك عندما جاؤوا من بغداد فيما بعد مع شخص آخر اسمه الامام احمد من اولاد الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله بن المقتدي واثبتوا بنسبه فبويج بالخلافة ولقبوه الحاكم بامر الله ونقش اسمه على الدنانير والدراهم مع اسم السلطان<sup>(2)</sup>.

وبالرغم من هذا الدور القيادي والبطولي والمؤيد لسلطين المماليك فقد ظهرت حركات معارضة للمماليك وخاصة زمن الظاهر بيبرس حينما خرج عليه الامير زامل امير آل علي احدى قبائل الشام فعزله عن الامارة وصادر اقطاعاته وسجنه في مصر ثم أفرج عنه واعاده لاماراته واقطاعاته بعد تعهده بالولاء والطاعة له، ولكنه حاول الخروج عليه مرة اخرى، فصادر اقطاعاته ومنحها لاحد أخويه.

لقد ادرك الظاهر بيبرس اهمية شرقي الأردن منذ اعتلائه عرش السلطنة المملوكية الاولى اثناء حروبه ضد المغول والصليبيين فعمل على تقوية قلاعها في كل من عجلون والصلت والكرك والشوبك ليقوم بذلك خطأ دفاعياً حصيناً امام اعدائه التتار والفرنجة بعد شحنها بالجنود والعتاد والمؤن.

وأوكل اليهم توفير الامن والحماية التجارية على طريق دمشق القاهرة ودمشق الحجاز للسيطرة على تجارة الترانسيت الشرقية وطرق الحجيج من مصر والشام .

وبالنسبة لدور قبائل شرقي الاردن في زمنه فقد اعتمد على القبائل العربية المحيطة بالكرك حيث اقطعهم اراضي زراعية كثيرة<sup>(3)</sup> بعد العفو عنهم<sup>(4)</sup> وجعل بلدتهم الكرك نيابة هامة

(1) ن.م، ص 314.

(2) ن.م، ص 320.

(3) النويري: نهاية الارب، ج 28، لوحة 23، (مخطوط)، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ص 492، وابن بطوطة، الرحلة ج 1 ص 23.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب (تاريخ الواصلين)، لوحة 420 "مخطوط".

تولى رعايتها بنفسه، حيث زارها حوالي خمس مرات ايام حكمه عام 661هـ/1263م، لاعتماده على جيشها وكان يغدق عليهم من الخلع والعطايا<sup>(1)</sup>.

كما ساهم امراء بني عقيل وغيرهم من امراء العربان حول قلعة الشوبك في خدمته بعد حركة عصيان الكرك الايوبية عام 669هـ/1270م<sup>(2)</sup>.

واغدق على خواصه اربعمائة الف درهم واثنى عشر الف دينار ليكسب ولاءهم ولمنازلة العربان المتمردين عند اللزوم<sup>(3)</sup>. حيث قدموا له الجمال والخيول والسلاح والمؤن مما مكنه من دخول قلعة الكرك لذا اولى الشوبك عنايته وجدد فيها وزاد عليها.

كما اكرم قبائل عجلون واقام لهم مسجداً بقيادة قاضيها أحمد بن عبد الصمد المصري الاصل الشافعي المذهب عام 643هـ/1246م نظراً لخدماتهم وكسب ولاءهم وأمر واليها عز الدين أيك العلاني بتجديد قلعتها وتوسيعها<sup>(4)</sup> وزيادة ابراجها، وتنظيف الخندق المحيط بها. لاتخاذها مركزاً للقيادة العسكرية والاشراف على المواصلات بين الشام ومصر<sup>(5)</sup>.

وكذلك فعل مع أهالي الصلت وحسبان وعمان وزيزاء<sup>(6)</sup> كما اتخذها سجنًا لخصومه السياسيين من امراء العرب كالاميران سعد الدين خضر بن حجي أمير بني بحتر، والامير عمر بن مخلول<sup>(7)</sup> كبير امراء آل فضل.

(1) النويري: نهاية الارب، ج28 لوحة 39 "مخطوط" المقريري: ن م، ج1، ص555. وذلك بعد ان سقط عن فرسه وكسرت فخذه عند بركة زبواء في الثامن من محرم 1267/0665م وتمثال للشفاء. اليوناني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص360، النويري: ن م، ج28، لوحة 39، مخطوط، ابو الفداء: المختصر، ج4، ص4.

(2) اليوناني: ن م، ج1، ص555، النويري: ن م، ج28 لوحة 53، 54، مخطوط، المقريري: ن م، ج1، ص595.

(3) ابن اياس: م س، ج1، ص391.

(4) اليوناني: م س، ج4، ص101، 102.

(5) المقريري: السلوك: ج1 ص446، 534. ومازال يوجد نقش تذكاري يخلد اعماله في قلعة عجلون على كتلة من الصخر ملقاة في ساحة البرج الجنوبي الغربي من القلعة، كتب عليه: "عمل في ايام مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس الصالحى اعز الله انتظاره ينظر العبد القصير الراجي غفر الله وغفراته ملك الامراء عز الدين أيك العلاني بتاريخ العشرين من شعبان سنة تسعة وخمسين وستمائة)).

(6) اليوناني: ن م، ج3، ص260.

(7) ن م، ج3 ص7، العمري: مسالك الابصار، ج16، ق3، لوحة 623، مخطوط بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ المحجرة ج9، لوحة 114، مخطوط.

وفي سنة 679هـ/1281م خرج الامير شمس الدين سنقر الاشقر نائب السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفى الصالحي النجمي السابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية، في دمشق عن طاعة السلطان وتسلطن في بلاد الشام، وجمع العساكر العربان من جنوب بلاد الشام ووجههم بقيادة الامير شمس الدين قرر سنقر المعزي الى غزة فالتقوا بالعسكر المصري، وانهزم العسكر الشامي وأسر جماعة من أعيان الامراء كما انضم اليه احد الامراء العرب شرف الدين عيسى بن مهنا وهربا من دمشق الى قلعة صهيون.

كما شارك عربان الشام ومن انضم اليهم من امراء القبائل العربية امثال الامير شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مري في ميمنة جيش السلطان الملك المنصور سيف الدين

(2) النويري: نهاية الارب ج 31 ص 29.

بن قلاوون في مواجهة التتار عند هجومهم على حماة وحمص بقيادة أبغابن هولالكو وانتصر  
السلطان بهذه الموقعة قرب حمص سنة 680هـ/1281 وعاد السلطان لمصر<sup>(1)</sup>.

وفي عام 683هـ/1284 توفي الامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة امير  
العرب وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب. وتولى امارة العرب منذ الدولة الظاهرية -وصلحت  
العربان به لانه كان تقياً ورعاً خيراً انتفع الاسلام به في مواطن كثيرة.

هذا وقد عين السلطان المملوكي الملك المنصور ابنه الامير حسام الدين مهنا اميراً على  
عرب الشام وزاده السلطان اقطاعاً، فسلك طريق والده في الخير والاحسان، فأطاعه العرب  
كافة، وعظم شأنه عند الملوك وغيرهم<sup>(2)</sup>.

وفي عام 692هـ/1292م اعتقل السلطان الاشرف خليل بن قلاوون أمير لعرب حسام  
الدين مهنا بن عيسى واخوته في سلمية وولى ابن عمه الامير محمد بن أبي بكر علي بن  
حذيفة<sup>(3)</sup>.

كما امر السلطان الاشرف عام 692هـ/1292م الامير عز الدين ايبك الافرم بهدم قلعة  
الشوبك<sup>(4)</sup> وكان من الاولى تحصينها لانها معقل من معاقل الاسلام وذخائر المسلمين فدل هذا  
على فساد الرأي<sup>(5)</sup>.

كما هدم قبلها عكا وخربها بعد احتلال الصليبيين من 587-690هـ/1189-1391م، من  
صلاح الدين الى 690/1391م بعد حصارها 44 يوماً، حيث خضعت للفرنجة 130 سنة<sup>(6)</sup>.  
وربما فعل ذلك حتى لا يعود اليها الفرنجة من البحر مرة ثانية وكان من الأولى تحصينها  
ووضع حاميات بها.

(1) التويري: ن م، ج 31، ص 33.

(2) التويري: ن م ج 31، ص 121.

(3) التويري: م س، ج 31 ص 251، ابن الفرات، م س، ج 8، ص 156.

(4) التويري: ن م، ج 31، ص 252 ابن الفرات، ن م، ج 8، ص 156.

(5) ابن الفرات، ن م، ج 8 ص 156.

(6) التويري: ن م، ج 31، ص 199، ابن الفرات، ن م، ج 8، ص 112، المقرئ: السلوك، ج 1، ص 765.

وفي عام 767هـ/1369م حضر الامير حبار بن مهنا امير آل فضل من عربان حماة بعد عصيانه على السلطان الاشرف قلاوون، بخلع عليه واقره في إمرة آل فضل<sup>(1)</sup>.

كما شارك العربان بزعامة امرائهم في ثورة سنقر الاشقر نائب دمشق عام 678هـ/1280م والامراء الظاهرية اصحاب الكرك<sup>(2)</sup>، ضد السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون مثل الامير شرف الدين عيسى ابن مهنا امير العرب بالبلاد الشرقية والشمالية والامير شهاب الدين احمد بن حجي امير العرب بالبلاد القبلية (جنوب بلاد الشام)<sup>(3)</sup> وعندما اساعت المجموعات التجارية الصليبية والايطالية عام 689هـ/1290م باعتدائهم على التجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم خارجين بذلك المعاهدة المعقودة بين قلاوون سلطان المماليك وهنري الثامن ملك القدس مما دفع قلاوون لاعلان الجهاد وطلب من كل قرية ومدينة في بلاد الشام المشاركة في الاعداد للحملة لتطهير البلاد من الصليبيين من آخر معاقلهم في عكا فلبوا نداه من كل حذب وصوب باسلحتهم الثقيلة والخفيفة ولكن القدر فاجأه بالموت فقاد الحملة ابنه المجاهد الاشرف خليل فشارك عربان الكرك بقيادة أميرهم سابق الدين عبيدة أمير بني عقبة<sup>(4)</sup> زمن السلطان الاشرف خليل بن قلاوون في حصار عكا عام 690هـ/1291م لطرد الصليبيين منها بالإضافة لقبائل بلاد الشام<sup>(6)</sup> التي ساهمت في تطهير سواحل الشام من الفرنجة بعد استيلاء المماليك على عكا وصيدا وصور وبيروت وحيفا وعتليت وطرطوس<sup>(7)</sup>.

(1) ابن اياس: م س، ط2، ص29.

(2) لقد انعم السلطان قلاوون على عربان الكرك واقطع امراءهم وجعل الكرك خزانة وحصناً له ولأولاده بعد ان أصلح ما تهدم من قلعتها ومنازلها العيني عقد الجمان ج20، ق4، لوحة 706، والمقريري، السلوك، ج1 ص732، والنويري: م س، ج29، لوحة 37 ((مخطوط)) وابن الفرات: ن م، ج8، ص38.

(3) وتشمل بلاد حوران وشمال الأردن والاعواز ولانها تقع قبلي دمشق. القلقشندي: م س، ج4، ص103. وانظر: اليونيني: م س، ج4، ص36، الذهبي: م س، ج2، ص180 ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ج7 ص167، المقريري: م س، ج1 ص676.

(4) المقريري: السلوك، ج1، ص760.

(5) ن م، ج1، ص765.

(6) ابوالفداء: المختصر في اخبار البشر، ج4، ص25، وابن الوردي تمة المختصر، ج2 ص235، وذكر بانه شارك في الاستعدادات العسكرية ونقل المنحني لحصار عكا وانظر: بيبس الدوادار. زبدة الفكرة، ج9، لوحة 283، مخطوط، حيث كان نائباً للكرك وشارك بقيادة جيش الكرك في حصن عكا.

(7) المقريري: السلوك ج1، ص765، ابو الفداء: ن م، ج4، ص27، الذهبي: دول الاسلام ج2 ص180، ابن كثير: البداية والنهاية ج13، ص321، (Setton, op, cit, vol.2 p597, Muir the mameluke p.44). (Mameluke, P.44).



وبهذا النصر المبين تحرر الشرق العربي من الاستعمار الصليبي بعد قرنين من الزمان  
(492-690هـ/1099-1291م).

وفي زمن الناصر محمد بن قلاوون وقفت قبائل شرقي الاردن بجانبه عندما قرر استرداد  
عرشه بقيادة زعيم عرب آل زبيد في عجلون بالإضافة لقبائل حوران من قيسية ويمينه وقبائل  
حسبان وعربانها التي غمرها بعطاياه وخلعه ورتب امور منطقة البلقاء وقراها وعربانها عام  
717هـ/1319<sup>(1)</sup> وقبائل حسبان وعربانها التي غمرها بعطفه الزائد فخفف عنهم المكوس، وبني  
فيها منشآت عديدة، واستمر في زيارته المتكررة لها<sup>(2)</sup>.

وكما خص قبائل هذه المناطق بعطفه وعنايته فقد كان للترك شأن كبير في عهده حيث  
جعلها مقراً لابنائهم وخزانة امواله ووصفها بالارض الطيبة التي لم يخلق مثلها في البلاد<sup>(3)</sup> ،  
ومقابل ذلك لم يتهاون مع الاعراب الخارجين على طاعته عام 717هـ/1319م كأبناء عشيرة  
بني نمير وبني ربيعة الذي خرجوا على السلطنة وتحصنوا في قلعة سلع Sala (الجيش) في  
المدخل الغربي لوادي موسى باتجاه البتراء حيث سير اليهم عدة حملات عسكرية اخمدت  
ثورتهم وقتلت حوالي عشرين شخصاً منهم<sup>(4)</sup> فعمل بذلك على توفير الأمن والاستقرار للمنطقة.  
ومن القبائل التي خصها الناصر محمد بكرمه وعطاياه واقطاعاته بنو عقبة وبنو مهدي،  
وبنو زهير<sup>(5)</sup> هذا بالإضافة لتكريمه لبعض الشخصيات من العلماء وغيرهم، كالحبراصي أبي

(1) ابن ابيك: كنز الدرر، ج9، ص206، الذهبي، دول الاسلام، ج2، ص215.

(2) النويري: ن م، ج31، لوحة 6 "مخطوط". والمقريزي: السلوك، ج2، ص272، 335. وابن الوردي: م س، ج2، ص296. وانظر

النهضة العمرانية، في شرقي الاردن زمن الناصر محمد الفصل الخامس.

(3) القلقشندي صبح الاعشى، ج12، ص224، 222، 226، 228.

(4) السمع: شق في الجبل واصلها عبري بمعنى (الصخر) وبتر Petrae لفطر يوناني بمعنى الصخر وتعني الجيش: طريقاً طبعاً في سفح جبل  
(انظر ياقوت: معجم البلدان ج3، ص117، المقريزي: السلوك ج2، ص176، Robert, The Holy Land, vol.3, 176, p.2.

(5) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص80.

العباس احمد بن موسى الزرعي الحنبلي احد الامرين بالمعروف والناهين عن المنكر في قرية حبراص شمال مدينة اربد<sup>(1)</sup> .

وعالم الكيمياء الكركي المدعو يوسف الكيمائي الكركي الذي اغدق عليه اموال لاكمال تجاربه العلمية ولكنه قتله في النهاية لعدم قدرته على تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب حسب دعواه<sup>(2)</sup>.

وفي الكرك ترعرع الامير احمد بن الناصر محمد بن قلاوون منذ عام 726هـ/1328م وأحبه اهلهما وتمسك بعاداتهم وتقاليدهم فأحبوه وتقربوا منه فأصبح كانه واحد منهم فبدأ ثورته بمساندتهم له في الكرك لتسلم السلطة من المماليك بعد عزلهم لأخيه الملك المنصور أبي بكر على يد الأمير قوصون<sup>(3)</sup> ثم قتله في قوص بصعيد مصر عام 745هـ/1347م<sup>(4)</sup> فكان اغتياله من عوامل نجاح ثورة احمد بن الناصر محمد بن قلاوون بمساندة اهل الكرك واقضاء الامير المملوكي قوصون عن سدة الحكم وبإشر سلطنته من الكرك<sup>(5)</sup> بعد أن اعترف به الخليفة ابو العباس احمد بن المستكفي وكتب بتولي السلطنة في مصر و الشام<sup>(6)</sup> وببيع الناصر احمد بالسلطنة في مصر عام 742هـ/1344م.

ولكنه انتقل الى الكرك لكثرة ما عانى من تأمر امراء المماليك ضده، وجعل حراسه وخاصة من الكركيين<sup>(7)</sup> حتى أنه لبس لباسهم<sup>(8)</sup> .

(1) ابو المحاسن: م س، ج 11 ص 12، وابن كثير: م س، ج 14، ص 274.

(2) النويري: م س، ج 31، لوحة 105، 106، العيني: عقد الجمان ج 24، ق 1، لوحة 17، 18 "مخطوط".

(3) المقرئزي: السلوك ج 2 ص 593، ابو المحاسن: م س، ج 10، ص 49، ابن كثير: م س، ج 14، ص 195.

(4) ابو المحاسن: ن م، ج 10، ص 32.

(5) ابن كثير: ن م، ج 14، ص 199، ابو المحاسن: م س، ج 10، ص 34.

(6) الفلقشندي: م س، ج 6، ص 426-430، ومآثر الانافة، ج 3، ص 265-273.

(7) ابن قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ اهل الاسلام، ج 1، لوحة 26 مخطوط، ابن خلدون: العبر، ج 5، ص 445، ابو المحاسن: م س،

ج 10، ص 59.

(8) كان لباسهم كاملية مفرجة وعمامة بلتامين، ماير: الملابس المملوكية ص 25، وانظر المقرئزي: السلوك ج 2 ص 610، 617، 618.

وأبو المحاسن: ن م، ج 10، ص 67، 69. وابن قاضي شهبه: ن م، ج 1، لوحة 27، 38، مخطوط وابن دقماق: الجواهر الثمين لوحة 158، "مخطوط". وابن الوردي: م س، ج 2، ص 335، وابن خلدون: العبر، ج 5، ص 445.

كما نصره اهالي شرقي الاردن بما فيهم أهل الكرك والشرارة ومؤاب عندما خلعه امراء المماليك لاتخاذ الكرك مركزاً لحكمه ونصبوا اخاه اسماعيل في السلطنة 743هـ/1345م بعد ثلاثة اشهر وثلاثة عشر يوماً من حكمه<sup>(1)</sup> .

فيما شارك اهل صفد في حصار قلعة الكرك مع قوات السلطان اسماعيل في حملته الثامنة ضد القلعة<sup>(2)</sup> .

وكان امير عرب الفضل في بادية الشام وفلسطين عيسى بن فضل بن عيس بن مهنا بن مانع شرف الدين من آل الفضل من طيء ، تولى امارة عربية بعد وفاة ابن عمه سليمان بن مهنا 743هـ/1345م، ولكنه توفي 744هـ/1345م في عهد اسماعيل بن الناصر بن قلاوون السلطان السادس عشر من سلاطين المماليك البحرية<sup>(3)</sup> .

ولكن كثرة الحملات وشدة الحصار لقلعة الكرك واغراء زعماء الكرك كالشيخ بالغ ومسعود ابن ابي الليث بالوعود والخلع والمال والاقطاعات مقابل خيانة الناصر أحمد لتسليم مدينة الكرك بشرط منحهم الامان من قبل السلطان اسماعيل في مصر، فساهموا في هزيمة الناصر أحمد وسقوط قلعة الكرك لصالح أخيه السلطان اسماعيل<sup>(4)</sup> وربما كان تصرف أهل الكرك هذا بعد خسائرهم الكبيرة في الرجال والعتاد نتيجة للحملات الثمانية للقوات المصرية والشامية والصفدية بقيادة سنجر الجا ولي وتيقنهم بخسارة المعركة فمالوا الى الكفة الراحبة بعد أن نفذت أقواتهم وقاية لانفسهم مما لا تحمد عقباه لو استمروا مع الناصر احمد الذي وقع في

(1) المقرئزي: السلوك، ج2 ص618، 624، ابو المحاسن: ن م، ج10، ص70، 81، وابن الصيرفي: نزهة النفوس والابدان، ج1، ص42، ويقول المقرئزي: بان قبائل بني ربيعة وبني غمر وقفوا بقوة وحزم لجانب الناصر احمد بينما انحاز بنو عقبة من عرب الكرك الى جيش اخيه السلطان اسماعيل ، انظر: ابن قاضي شهبه: ن م، ج1، لوحة 516، مخطوط، حيث يحلل انضمام عرب بنو عقبة للسلطان اسماعيل ضد الناصر احمد لان زعيمهم كان يتمتع باقطاعات وامتيازات سيفقدها اذا خالف السلطان في القاهرة وعليه تقديم المعونة بموجب نظام الاقطاع العسكري المملوكي. المقرئزي: السلوك، ج2، ص799.

(2) ابن قاضي شهبه: ن م، ج1، ص63 مخطوط، المقرئزي: السلوك، ج2، ص660 والعيني: عقد الجمان، ج24، ق1 لوحة 71، مخطوط، وابو المحاسن: ن م، ج1 ص91.

(3) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، منشورات دار الكتاب اللبناني، 1968 مجلد 5 ص 943 وابن قاضي شهبه: م س، ج5، ص291.

(4) ابن كثير: م س، ج14، ص212، ابن قاضي شهبه: م س، ج1، لوحة 63، مخطوط، المقرئزي: السلوك، ج2، ص654-661 ابو المحاسن: م س، ج1، ص92.

الاسر وقتل خنقا وقطعت رأسه في ليلة ربيع اول 745هـ/17 يوليو 1244م<sup>(1)</sup> بيد الامير منجك اليوسفي الناصري وقدم لأخيه السلطان اسماعيل الذي هاله منظر الرأس ففجع بأخيه وأصيب بالصرع حتى وفاته في 4 ربيع الآخر 746هـ/13 اغسطس 1345م<sup>(2)</sup> فانتقلت السلطنة الى اخيه سيف الدين شعبان ولقبوه بالكامل. ولكنهم قتلوه في جمادي الاخرة 747هـ/19 سبتمبر 1346م.

وهكذا انتهت أكبر ثورة واطول حصار دام مدة سنتين تقريبا<sup>(3)</sup> وبدأ نجم السلطنة المملوكية بالأفول والتدهور حتى أصبح السلاطين ورقة لعب بايدي المماليك<sup>(4)</sup> ونصبوا أخيه زين الدين حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون وتوالت الكوارث على دولة المماليك الاولى ببلاتهم بمرض الطاعون الذي قضى على كثير من سكان شرقي الاردن وفلسطين وذلك في جمادي الاولى 748هـ/1347م اغسطس<sup>(5)</sup> فكان من الطبيعي ان يترتب على ذلك نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة لقلّة المشتغلين بالزراعة لموت الفلاحين<sup>(6)</sup> ، فانعدم الامن الاقتصادي والاجتماعي لكثرة السلب والنهب وقطع الطرق، حيث أعلنت العربان عام 750هـ/1349م شق عصا الطاعة، ضد السلطة المركزية في القاهرة، كعرب الكرك والبلقاء وبنو ربيعة وبنو نمير، الذين هزموا نائب الكرك جكتمر<sup>(7)</sup> ، فتشجعت عربان ثعلبة وجرم والعائد بغزو فلسطين وقطع طرقها ونهب المسافرين<sup>(8)</sup> واسر نائب غزة الامير يلجك واندفعوا

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 8 ص 90، ابن كثير: م س، ج 14 ص 213 المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 662، ابو المحاسن: ن م، ج 10، ص 93، 71، ابن بهادر: فتوح النصر، لوحة 661، مخطوط.

(2) المقرئزي: السلوك : ج 2، ص 677، الغيني: عقد الجمان، ج 24، ق 1، لوحة 74، مخطوط ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 10، ص 95.

(3) المقرئزي: ن م، ج 2، ص 713، ابو المحاسن: ن م، ج 10، ص 140 ابن كثير: ن م، ج 14، ص 219.

(4) ثم قتلوه بعد عام يوم 12 رمضان 748هـ/17 ديسمبر 1347م ونصبوا أخاه الامير حسين سلطان مكانه. المقرئزي: ن م، ج 2، ص 744، ابو المحاسن، ن م، ج 10، ص 172.

(5) ابن بطوطة: الرحلة، ج 2، ص 176، 177، المقرئزي: ن م، ج 2، ص 774، 775، 777، 784، ابو المحاسن: ن م، ج 10، ص 197، 198، 209.

Jacob, Hisstory of Palestine, p306, Ziadeh, Urban life in syria, p.61.

(6) المقرئزي: ن م، ج 2، ص 775، ابو المحاسن: ن م، ج 10، ص 198.

(7) المقرئزي: ن م، ج 2، ص 771، 799.

(8) ن م، ج 2، ص 798.

نحو الاغوار حيث وصلوا القصير المعيني (الشونة الشمالية) وقتلوا اعداداً كثيرة من سكان جبال عجلون، وعمال معاصر السكر ونهبوها<sup>(1)</sup> ثم اتجهوا الى فلسطين فهاجموا القدس والخليل واللد والرملة واعتدوا على السكان ونهبوا ممتلكاتهم فارسل اليهم السلطان حملة عسكرية لتأديبهم فهربوا الى الحجاز<sup>(2)</sup> واحتال سيف الدين النجمي نائب غزة على زعمائهم وقبض عليهم 750هـ/1349م<sup>(3)</sup>، كما احتال الامير قبلاي على أمير بني جرم شادي بن فضل واعتقله، فخلا الجو لعدوه سنجر بن علي أمير ثعلبة الذي استفاد من هذا الوضع، وعم الهدوء بلاد الشام ومصر بعد فترة طويلة من الاضطرابات والفوضى مما اضعفها امام التوسع المغولي بقيادة تيمورلنك.

وفي عام 751هـ/1350م احتاج السلطان الناصر حسن الى رجال بني مهدي في البلقاء وبني عقبة في الكرك وعرب شطي والامير فضل بن عيسى بن مهنا لضرب كبار امرائه المتنفذين في مدينة العقبة لمنع أي اتفاق قد يعقد بين الامير طاز ويبيغا روس<sup>(4)</sup>، فحاول بذلك القبض على الكثير منهم وسجنهم، مما أوغر صدور كبار الامراء الطامعين في الحكم بقيادة صرغتمش واجبروه على التنازل عن العرش وسجنه<sup>(5)</sup> وتعيين اخيه صالح بن الناصر في 28 جماد الاخر 752هـ/23 اغسطس 1351<sup>(6)</sup>.

وبالنسبة لسياسة المماليك تجاه القبائل العربية زمن السلطان الملك المنصور قلاوون، بعد أن شعر السلاطين بضرورة استقرار هذه القبائل العربي فتدخل في وقف الحرب بين القبائل العربية في سوريا الوسطى التي نشبت بسبب المراعي والاستيطان، وبسبب الصراع بين أفراد الاسرة الواحدة حول رئاسة القبائل، فجعل زعامة القبائل العربية هناك لآل فضل وآل علي، بعد

(1) ن م، ص 864.

(2) ن م، ص 805.

(3) ن م، ص.

(4) ن م، ص 826 ابو المحاسن: م س، ج 10، ص 222.

(5) ابو المحاسن: ن م، ص 231.

(6) المقرئ: ن م، ص 849، ابو المحاسن: ن م، ص 254.

أن حدد لكل قبيلة منازلها وواجباتها، وعين لزعامتها الشيخ الامير فخر الدين عثمان على آل فضل وآل علي وحدد واجباته بالطاعة للمماليك<sup>(1)</sup> .

هذا بالإضافة للدور الذي لعبته قبائل شرقي الاردن وعربانها وفلاحيتها في صراع الامراء المماليك على النفوذ السلطاني فيما بينهم وفي صراعاتهم مع السلاطين - فقد وقعت فتن وحروب بين هذه القبائل كما جرت عام 762هـ/1361م في عهد السلطان الملك المنصور محمد بن حاجي، حيث اُقتل فلاحو قرى عجلون بانقسامهم الى فريقين: يمنية وقيسية وهلك عدد كبير من الطرفين، ودمرت قرية عين جنا القريبة من عجلون وقطعوا اشجارها وعاثوا فساداً في تلك المنطقة<sup>(2)</sup> ، مما حدا بالسلطان للتدخل وقرار الامن حيث ارسل اليهم حملة عسكرية بقيادة نائب دمشق الامير علاء الدين الذي اجبرهم على الصلح فعاد الهدوء والاستقرار الى نواحي عجلون<sup>(3)</sup> لمدة عامين حيث تم عزل السلطان عام 764هـ/1363م وعينوا مكانه ابن عمه الملك الاشرف شعبان بن حسين الذي كان طفلاً في العاشرة من عمره، فعادت المناوشات بين القبائل التي ساهمت في صراع الامراء والسلاطين على الحكم<sup>(4)</sup> بالإضافة الى الكوارث الطبيعية كأسراب الجراد التي اكلت محاصيل الزراعة<sup>(5)</sup> .

فأدى ذلك الى خرابها واضمحلال شأنها واصبحت الكرك في اواخر عصر دولة المماليك البحرية منفى للثوار وسجناً لهم .

وفي عام 773هـ/1372م ثار الامير حبار بن مهنا ضد الامير قشتمر نائب السلطنة في حلب وقتله ، ثم حضر للقاهرة لتقديم الولاء فخلع السلطان عليه واقره في إمره العرب على عادته بعد أن عفا عنه<sup>(6)</sup> لأن ما يهم سلاطين المماليك تأمين مصالحهم بجميع الوسائل وشتى

(1) ابن الفرات: م. س، ج 7، ص 177-179.

(2) ابن كثير: م. س، ج 14، ص 289، وقد ذكرها باسم (عين حينا) والظاهر انه هناك خطأ في التنقيط، حيث مازالت هذه القرية تحمل اسم (عين جنا حتى اليوم).

(3) ن م، ج 14، ص 290.

(4) المقرئ: السلوك: ج 3، ص 82-83، (ذكر وفاة السلطان المنصور في سجنه عام 801هـ) وابو المحاسن: م. س، ج 11 ص 7.

(5) القلقشندي: م. س، ج 1، ص 457.

(6) محمد بن اياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة 1403هـ/1983م، ط 2، حقه محمد مصطفى، ج 1، ق 2.

الأساليب كما شارك عربان جبل نابلس والتركمان في ثورة وتمرد الامير طشتمر نائب الشام ضد السلطان علي بن الاشرف شعبان لتعيينه الامير أئيبك البديري أتابكا للعسكر في القاهرة، فهجم الجميع على سجن الكرك واطلقوا من كان فيه من الامراء<sup>(1)</sup> وقرروا السير لمصر ولكنهم رجعوا بعد علمهم بسجن ائيبك في الاسكندرية نتيجة ثورة ضده كما حدث بالنسبة لسجن المماليك الاجلاب<sup>(2)</sup> كبرقوق وبركة وجركس الخليل وغيرهم<sup>(3)</sup> والظاهر أن المماليك اهلوا منطقة شرقي الاردن في نهاية حكمهم وهذا أمر طبيعي ان دل علي شيء فانما يدل على حالة الضعف العام والفساد الاداري والاجتماعي حيث كان النظام السياسي يعاني من سكرات الموت حيث كان على حافة الانهيار وخاصة في عهد الملك الاشرف شعبان حيث لم يرد ذكر شرقي الاردن في عهده الا في مناسبتين هما :

- وقف بستان وحمام وقرية أدر بشرقي الكرك للنفقة على مدرسة برأس الرملة بالقاهرة<sup>(4)</sup> .
- واثاء عزمه على الحج حيث وصل الى مدينة العقبة ولكن الاقدار عاكسته بقيام الامراء المرافقين له بعزله ومحاولة اغتياله في العقبة، فقفل راجعاً الى القاهرة، فعينوا ابنه ((علي)) قبل ان يصل اليها في 778هـ/1377م وخنقوه في قلعة الجبل بعد وصوله<sup>(5)</sup> حيث تمكن المماليك الاجلاب من السيطرة على الحكم نتيجة هذه الفتنة بمصر فسقطت بذلك دولة المماليك الاولى من السلطان علي بن الاشرف الذي اتاح لهم فرصة السيطرة على مقاليد الحكم<sup>(6)</sup> .

(1) ن م، ج 1، ق 2، ص 206.

(2) المماليك الاجلاب: هم المماليك الذين يجلبون من بلادهم كباراً، اصحاب مهن مختلفة وغير مديرين على القروسية، اساءوا الى الناس بظلمهم وشورهم في مصر والشام، د. يوسف غوانمة: التاريخ السياسي الشرقي الاردن في العصر المملوكي، ص 270.

(3) المقرئزي: السلوك، ج 3، ص 153، 155، وكان الاشرف شعبان قد سجن بقوق العثماني عام 779هـ/ لمدة خمس سنوات في الكرك وقد استغل هذا الامير المتنفذ القرارات والقلل في الوصول الى السلطنة والحكم، وأقام بذلك دولة المماليك الجراكسة.

(4) د. يوسف غوانمة: ن م، ص 271.

(5) المقرئزي: السلوك، ج 3، ص 269، 270، 273، 530، وابن خلدون: العبر، ج 5، ص 464 وابن الصيرفي: نزهة النفوس

والايدان، ج 1، ص 114.

(6) المقرئزي: ن م، ج 3، ص 286، 289، 308.

كما ثار عربان منطقة الازرق في شرقي الاردن قرب العقبة في موسم الحج من عام 780هـ/1379م حيث هاجموا الحجاج العائدين من أداء فريضة الحج ونهبوهم وادى ذلك لموت نصف الحجاج من الذين هربوا خوفاً الى الصحراء فظلوا الطريق وماتوا عطشاً وجوعاً<sup>(1)</sup> . وفي شهر ذي الحجة من عام 781هـ/1378 توفي الامير العربي قازان بن مهنا بن عيسى بن مانع بن حديثه بن فضل بن ربيعة امير آل فضل<sup>(2)</sup> .

ويجول في خاطرنا سؤال هنا لماذا أبقي عليهم بالرغم من خروجهم على طاعته والجواب هو حاجته الماسة لهؤلاء العربان حيث كانوا يشكلون نصف جيشه وهو يواجه اشرس عدو من التتار الذين كانوا متجهين نحو مصر، وحاجة الممالك اليهم ايضاً في استخدامهم احياناً للقضاء على معارضيتهم من الامراء كما حدث عندما طلب السلطان محمد بن قلاوون من الامير العربي موسى بن مهنا بالقبض على تنكر نائب الشام المملوكي عام 740هـ/1340م<sup>(3)</sup> . وهكذا لعبوا دوراً في القضاء على الفتن السياسية بين سلاطين الممالك ونواب الشام التابعين لهم، بالإضافة الى دورهم العسكري حيث كانوا يشكلون جزءاً من الجيش المملوكي كما نرى. كما ساعدوا بعض السلاطين لاعادته الى ملكه كالسلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 709هـ/1309م حيث استرجع بمساعدتهم سلطنته للمرة الثالثة فكافأهم، بان جعل الامرة فيهم والحق أميرهم شطي<sup>(4)</sup> بن عقبة بآل فضل وأمرآء آل مرة لرفع منزلته حيث أقطعه والبسه الخلع السلطانية واجزل له ولعربه العطاء<sup>(5)</sup> واقام فيها مؤسسات الخدمات العامة كالمستشفيات والمدارس ودار العدل والمساواة.

(1) ابن اياس: م.س، ص238.

(2) ن.م، ص252.

(3) المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص465، 535. وابن خلدون: العبر، مجلد5، ص941.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) ورقة 420، مخطوط، والنويري: نهاية الارب، ج28، ورقة 23، مخطوط. أورد تولية الظاهر بيبرس بني عقبة عرب الكرك وبني مهدي عرب البلقاء أمن البلاد وحماية طرق الحجاز مقابل اخذ الرهائن منهم لضمان قيامهم بهذا الواجب وهذا يدل على عدم الثقة بالعربان الذين كانوا يتصرفون حسب مصالحهم.

(5) الفلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص243، حيث يصف امتيازات عربان الشام من عطاء الذهب والفضة والدراهم والخلع المطرزة وملابس النساء المزركشة والنويري: م.س، في معرفة انساب العرب ص88، 89.



أما عرب آل مرا ((من آل ربيعة بن طيء)) في شمال الاردن الممتد من الزرقاء والظليل الى حوران وبصرى والجولان<sup>(1)</sup> ، فقد عهد اليهم بدر ك من حوران الى البلقاء بالإضافة الى تقديم الف جندي من الفرسان للدولة<sup>(2)</sup>. وكان أميرهم يعين بمرسوم سلطاني من القاهرة<sup>(3)</sup> .

### وبالنسبة لحدود القبائل زمر الملك الناصر محمد بر قلاوون

فقد واجه ثورة قبائل آل فضل وآل علي وذلك حين ثار احد أمراء آل فضل وانضم الى قرا سنقر الاقرم عدو السلطان الناصر محمد بينما بقي اخوه شجاع الدين مخلصاً للسلطان الناصر، مكافأة بتعيينه اميراً على آل فضل 718هـ/1317م<sup>(4)</sup>.

ويلاحظ على هذه القبائل العربية عدم خضوعها للحكم المركزي لبدأوتها حيث كانت تتور ضد المماليك بالرغم من الامتيازات الممنوحة لها فيهاجم العربان قوافل الحجاج وينهبونهم، كما يهاجمون القرى البعيدة على اطراف الصحراء عندما يوقف السلطان اقطاعات احد أمرائهم<sup>(5)</sup> مما ادى لخراب كثير من المدن والقرى بالإضافة الى ما نجم عن الكوارث العامة كالزلازل وانتشار الأوبئة والأمراض.

بينما يرى الدكتور غوانمة ان هذه الثورات كانت مظهراً اولياً لانبعاث الروح القومية العربية ضد السيطرة المملوكية الاجنبية وذلك لمشاركة العرب (مسلمين ومسيحيين) في هذه الثورة<sup>(6)</sup> .

هذا ونلاحظ تولي الامراء مناصب قيادية في عربانهم كرئيس للقبيلة او امير لها، فكانوا سادات العرب ووجوهها، حيث نالوا الحفاوة عند سلاطين المماليك بعد تعاونهم معهم، فاقطعوا

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص80. النويري: م س، ص97، والقلقشندي: ن م، ج7، ص188، ج12، ص130، الخالدي: المقصد الرفيع المنشأ: ورقة 156 مخطوط.

(2) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص105.

(3) القلقشندي: ن م، ج4، ص241، ورقة 157 مخطوط. والخالدي، ن م، ص157/ مخطوط.

(4) القلقشندي: ن م، ج12، ص118-120.

(5) السبكي: م.س، ص75، 76.

(6) د. يوسف غوانمة، دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، ص28.

الاقطاعات الكبيرة<sup>(1)</sup> كما خصوهم بميزانيات مالية ثابتة للنفقة عليهم اثناء ضيافتهم للسلطين حيث ذكر القلقشندي ان ما انفقه احد السلطين لاستضافة بعض امراء هؤلاء العربان ما يقارب ستة وثلاثين الف دينار<sup>(2)</sup>.

وهكذا نلاحظ اهميتهم كقوة ضاربة في جيش المماليك للدفاع عن بلادهم حيث شكل المماليك كتائب خاصة بالقبائل مثل كتيبة آل مرا الذين كان عددهم في الجيش حوالي مائة فارس<sup>(3)</sup> واحياناً كتائب مشاة من اربعة الاف فارس حسب الظروف والحاجة اليهم في احدى المعارك ضد التتار<sup>(4)</sup>.

كما كان تنظيمهم داخل الجيش على اساس القبيلة فتبقى القبيلة متحدة في عناصرها الوطنية متراسة الصفوف في المعركة. وقد ذكر بعض المؤرخين<sup>(5)</sup> انقسام الجيش المملوكي الى قسمين هي ديوان الجيش الشامي وديوان الجيش المصري الذي ضم المماليك والتركمان والاكراد وغيرهم من قبائل مصر العربية اما الجيش الشامي فقد تكون من آل علي وآل مرا وبني عقبة وبني مهدي والعائد، حيث بلغ مجمل عددهم تسعة وعشرين ألفاً ما بين فارس ورجال، وكانت اسلحتهم الرمح والسيف والترس والقوس.

وكان العرب فرساناً شجعاناً يجيدون فن القتال حيث اهتموا بخيولهم مما جعل سلطين المماليك ينفقون عليهم حيث أغدقوا عليهم العطاءات امثال بيبرس ومحمد بن قلاوون. وكان جيش الكرك اول من استخدم سلاح المدافع في بلاد الشام سنة 743هـ/1342م اثناء ثورة الناصر احمد بن قلاوون الذي اتخذ الكرك عاصمة له واصدر منها المراسيم السلطانية الى مصر والشام وغيرها. واستعان برجال الكرك بالوظائف الكبيرة مما أثار حفيظة امراء المماليك خوفاً على جنسيتهم ومصالحهم فقرروا القضاء على هذا الاتجاه واعادوا العاصمة للقاهرة<sup>(6)</sup>.

(1) ابن كثير: م س، ج 13، ص 220، وابن خلدون: العبر، ج 5، ص 820، وابن تغري: م س، ج 7، ص 363، 300.

(2) النويري: نهاية الارب، ص 102-207.

(3) النويري: ن م، ج 6، ص 189. وابن شاهين، م س، ص 105.

(4) المقرئ: السلوك: ج 1، ص 3، 690.

(5) تحليل بن شاهين: (غرس الدين بن خليل ت 873هـ/1468م: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، 1893،

ص 105.

(6) د. يوسف غوانمة، ن م، ص 30.

هذا وتجدر الإشارة الى احفاد آل الفضل بن ربيعة اليوم في جنوب بلاد الشام فمنهم عشيرة الحيارى والعابد والفاعور في السلط وعرب ((العيسى)) في شمال شرقي الاردن وجبل الدروز، والصبابحة في محافظة عمان.

أما في فلسطين فمنهم آل طوقان في نابلس وآل الريمائي في قضاء رام الله وعرب الحذيفات في قضاء طبرية وكعوش في صفد والذين امتد فرعهم الى وادي موسى وغور دامية في شرقي الاردن.

هذا ونعتز بدورهم البطولي في تصديهم للصليبيين والمغول وغيرهم فقد قاوم احفادهم ((عرب الفاعور)) جيوش المستعمرين والغزاة من بريطانيين وفرنسيين وصهاينة بعد الحرب العالمية الاولى<sup>(1)</sup>.

وقد هدد البدو قوافل الحجاج زمن المماليك البحرية واستمروا في ذلك زمن المماليك الجراكسة مما دفع سلاطينهم لبناء القلاع والحصون على طول الطريق الى الحجاز فمنعوا البدو من الغزو والسلب، ولكن البدو عادوا لنشاطهم بعد أن دب الضعف والفساد في اواخر المملكة المملوكية فاغاروا على الكرك والقدس بين عامي 907-910هـ/1502-1505م وصدّ أمراء سوريا هذه الغارة. ولكن الاتراك العثمانيين قضوا على دولة المماليك في سوريا ومصر بعد معركتي مرج دابق والريدانية بعد ان دامت حوالي 257 عاماً.

<sup>(1)</sup> هذا فقد وصفهم ماكسي فون ابنهايم ((Oppenheim)) في مطلع القرن العشرين حيث قال: (( تقع مضاربهم في شمال غربي الجولان بين القنيطرة وبحيرة الحولة شمال طبرية، ومازال شيوخهم من أعرق البيوتات في بلاد الشام)). انظر الدباغ: القبائل العربية ص78.

# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# الفصل الثاني

النظام الإداري في جنوب بلاد الشام  
( فلسطين والأردن )

## أولاً : أصل التسمية لبلاد الشام

لقد اختلف في سبب هذه التسمية، فقد قيل لكثرة قراها وقربها من بعضها البعض فشبهوها بالشامات التي في جسم الانسان ((الخال)) لاختلاف لون ارضها كالحمرة والبياض والسواد، فسمي شاماً كما سمي الخال في الجسم شامة.

كما قيل لأن قوماً من كنعان نزلوها فتشاءموها، كأهل اليمن من يمنهم، كما يقال تيامنوا وتياسروا فسميت باليمن، وفي اللغة أشام أي أتى الشام<sup>(1)</sup> وقيل أن معنى الشام: الطيب، وإنما سميت شاماً لأنها عن شمال الكعبة كما سمي باليمن ما كان عن يمين الكعبة<sup>(2)</sup>، هذا وورد في قوله تعالى ((الذي باركنا حوله))<sup>(3)</sup> قال السهيلي هي الشام وقال تعالى : ((وأصحاب المشأمة))<sup>(4)</sup> وقيل أنها مأخوذة من اليد الشؤمى أي اليسرى<sup>(5)</sup>.

وقيل أنه سمي شاماً من أسماء أحد أبناء نوح -شام بالسريانية وهو ((سام بن نوح))، وقيل لوجود شامات أي أراضي بيضا وحمراء وسوداء<sup>(6)</sup>.

كما لفظه العرب الشام والشام الذي يشمل سوريا ولبنان وفلسطين والاردن.

أما كلمة أردن فتعني الجريان الدائم للماء أي النهر، ففي المعجم الوسيط نجد معنى أردن تعني: دام، والدوام هنا لجريان الماء وعدم انقطاعه<sup>(7)</sup>.

(1) ابن شداد: عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن الحلبي (ت 684هـ/1286م): ((الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والاردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، 1962م. ج2، ق1 ص8. والنووي: ابو زكريا محي الدين بن شرف (ت 676هـ/1278: تهذيب الاسماء واللغات، دار الكتب بيروت، ج1، ق2، ط71 ويشارك النووي: تهذيب.

وابن منظور: ابو الفضل جمال الدين مكرم: لسان العرب، دار صادر بيروت، 1968، م12، ص324. وميشارله ابن منظور ((لسان)). وشيخ الربوة: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الانتصاري الدمشقي (ت 727هـ/1327م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، المطبعة الاكاديمية، المانيا، 1865، ص169.

(2) الظاهري: عز الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راوسيس، مطبعة باريس، ط1، 1894، اعاد النشر دار العرب للبستان، القاهرة 1988-1989، ص31، وابن عساكر، ابي القاسم علي بن الحسن (الجزآن 1، 2)، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق. (1371-1373هـ/1951-1954م) ج1، ص8-9، وقيل أن اسمها كان سوريا في أول الأمر.

(3) آية (1) سورة الاسراء، آية 10.

(4) سورة الواقعة آية: 9، والعمرى: م.س، ص170.

(5) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص190.

(6) البدرى: نزعة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، 1341هـ/1923م، ص12، وما بعد وأبو الفداء، تقويم البلدان، ط باريس، 1860، ص235.

(7) ابراهيم مصطفى واحمد حسن الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، جزآن، دار الدعوة، استانبول، 1986، ج1، ص339.

كما ورد اسم الاردن في حديث شريف: ((لا تزالون تقاتلون الكفار، حتى يقاتل بقاياكم الدجال ببطن الاردن، انتم من غربيه والدجال من شرقية... قال الأوسي ما كنت ادري أين الاردن حتى سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم))<sup>(1)</sup>.

وفي عصر الخلفاء الراشدين ذكر جند الأردن وقصبتها طبرية<sup>(2)</sup> ولجند الأردن من الكور وصور وعكا وقدس وبيشان وبيت راس وأفيق والجولان وفحل وجرش، وغلب على سواد الاردن وجميع أراضيها أخلاط من العرب والعجم<sup>(3)</sup>.

وقد فتحها شرحبيل بن حسنة زمن ابي بكر الصديق عنوة عدا طبرية حيث صالح أهلها على انصاف منازلهم وكنائسهم ولكنهم نقضوا العهد في خلافة عمر بن الخطاب فأمر أبو عبيدة الجراح عمرو بن العاص بغزوهم على رأس أربعة، الاف مجاهد ففتحها على مثل صلح شرحبيل بمساعدة يزيد بن أبي سفيان عام 14هـ/635م<sup>(4)</sup>.

أما معاوية بن أبي سفيان فقد نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن صور وصيدا عام 42هـ/662م<sup>(5)</sup>.

(1) البكري: عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم، نشر وستفلد في مجلدين في غوتنجن، سنة 1877، ص90. وانظر الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج1، ص200، قال: ((وللاردن عدة كور منها كورة طبريا وكورة بيسان، وكورة بيت راس، وكورة حدث وكورة صفورية وكورة عكا وذكر بان هشام بن عبد الملك نقل الصناعة من الاردن بعكا الى صور.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، نشر دي غويه، ليدن، 1866م، ص116.

واليعقوبي: البلدان، نشر دي غويه، ليدن، 1891، ص159، وتاريخ اليعقوبي، ص329.

(3) اليعقوبي: ن م، نشر هوتسما، ليدن، 1883، ص327. والمقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي غويه، ليدن، 1906، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: نشر وستفلد في غوتنجن، 1849، ص95.

ذكر من مدن الأردن: قلنس، صور، عكا، اللحون، بيسان، أذرعات، ص154.

(4) البلاذري، م.س، ص114، واليعقوبي: البلدان، ص327.

(5) البلاذري، ن.م، ن ص116.

أما في العصور الحديثة فقد أطلق المؤرخ الصليبي وليم الصوري لأول مرة اسم شرقي الأردن على بلادنا بتسميتها : Trans Jordanen و Ulta Jordanen<sup>(1)</sup>.

ثم نقل عنه بعض مؤرخي الحروب الصليبية وغيرهم من المؤرخين المحدثين<sup>(2)</sup> هذه التسمية حتى استقر الرأي على اسم Trans Jordan ومعناها وراء الأردن ((شرقي الأردن)). بخلاف المؤرخ فرديريك بك الذي قال : (بأن اسم شرقي الأردن كان معروفاً بين عامي 810، 873 ق.م، أيام غزو الآشوريين لسوريا وفلسطين<sup>(3)</sup>).

بينما سماها المؤرخ الأردني المعاصر، د. يوسف غوانمة بامارة الكرك الأيوبية التي أسسها الملك الناصر داوود بن المعظم عيسى<sup>(4)</sup>.

ويلاحظ أن الأراضي الواقعة شرقي نهر الأردن كانت قسماً من سوريا في مختلف عهود التاريخ، ولكنها كانت قسماً مهماً طوال العهد العثماني<sup>(5)</sup>.  
أما فلسطين فقد ذكر ياقوت عدة روايات في اسمها<sup>(6)</sup> :

فقد قيل بأنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى فلسطين بن سام بن أرم بن سام بن نوح، وقال هشام: إنما سميت نسبة إلى مليسيتين بن كسلوفيم من بني يافث بن نوح ثم عرب فليستين وقال الزجاجي سميت بفلسطين بن كلثوم من ولد فلان ابن نوح.  
وقال ابن الكلبي: في قوله تعالى "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم" هي أرض فلسطين وفي الأرض التي باركنا فيها للعالمين...)) قال هي فلسطين.

(1) د. يوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي ((الممالك البحرية))، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1982، ص25، وأضاف قائلاً بأنها ضمت بلاد جلعاد وعمون ومواب، كما سماها في موضع آخر Trans Jordanen.  
(2) Ziadeh, Urban Life in syria, . Runciman A history of the crusades, Cambridge, 1967, vol,2 p.230.  
Beirut, 1953, p.68.  
وفيليب حتى : العرب: تاريخ موجز - دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1965م، ص16. وأحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، 1969، ص208.

(3) فرديريك بك: تاريخ شرقي الأردن ص13.

(4) د. يوسف غوانمة: ن م، ص26، حيث ذكر حدودها الجغرافية من نهر اليرموك شمالاً إلى معان وخليج العقبة جنوباً ومن الأزرق وباير شرقاً إلى نهر الأردن والبحر الميت ووادي عربة غرباً، وهي تمثل الكيان الأردني الحالي. ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ج1، ق1، ص83-84. Smith, The historical geograhpy of the Holy land. p.535.

(5) أحمد السلطان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة، ص223.

(6) ياقوت الحموي: المشترك ص334 وانظر الدباغ: بلدانية فلسطين العربية - المدن ص13.



وكذلك كانت كلمة فلسطين غربي نهر الاردن تسمى ارض كنعان كما ورد في التوراة :  
((من الاردن أي نهر الاردن عبّر يوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام -العسكري الى  
ارض كنعان لفتحها والسيطرة عليها بعد أن رفض الشعب المختار الانصياع لأوامر موسى  
وذلك لشدة رعبهم من أصحاب الارض)) ولم تطلق كلمة اردن في حينه على الارض الواقعة  
شرقي النهر بل اقتصرت على النهر نفسه<sup>(1)</sup>.

وقيل سميت بذلك لأن أول من نزلها فلسطين بن كيسوحين بن لقطين بن يونان بن يافث  
بن نوح...<sup>(2)</sup>.

كما قال عنها الادريسي : (فلسطين أول أحواز الشام وحدودها من المغرب من رفح الى  
اللاجون وعرضها من يافا الى اريحا مسيرة يومين)<sup>(3)</sup>.

واما سبب تسمية مدينة القدس ((ببيت المقدس)) فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، قال  
تعالى : ((يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا  
خاسرين))<sup>(4)</sup>. والمقدسة : أي المطهرة التي أمركم الله بها، وقيل الطور وما حوله ، وقيل دمشق  
وفلسطين وبعض الاردن، وقيل الشام نقله العلامة البيضاوي<sup>(5)</sup>.

### فضائل الشام

لقد أنعم الله على أهل الشام بفضل سكانهم فيه لقدسية ارضه كما ورد في الاحاديث  
الصحيحة "ولكن الارض المقدسة لا تقدر احداً ، وانما يقدر الانسان عمله"<sup>(6)</sup>.

<sup>(1)</sup> يوشع، 3: 15-16 مقال في جريدة السبيل الاردنية عدد 39 السنة الأولى الثلاثاء من 26 تموز الى 1 آب (اغسطس، 1994، ص14)

تحت عنوان : ((الاردن في التاريخ)).

<sup>2</sup> مجير الدين الحنبلي، م.س، ص416.

<sup>3</sup> : الادريسي، م.س، ص11.

<sup>(4)</sup> سورة المائدة ، آية 21.

<sup>(5)</sup> ابراهيم بن عبد الرحمن الحيارى المدني (ت 1083هـ) تحفة الادباء وسلوة الغريباء، ((رحلته)) تحقيق رجاء محمود السامرائي/وزارة  
الثقافة والاعلام، سلسلة كتب التراث(12) ص76.

<sup>(6)</sup> ابن تيمية، مناقب الشام وأهله، ط1، بيروت ، 1370هـ/1960م، المكتب الاسلامي ص8.

هذا وقد ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء<sup>(1)</sup>.

ففي القرآن الكريم وردت آيات تشير الى فضائل الشام كقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"<sup>(2)</sup>.

وقوله تعالى: "وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين ونجيناهم ولوطاً الى الارض التي باركنا فيها للعالمين"<sup>(3)</sup>.

وقوله تعالى: "ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين"<sup>(4)</sup>.

وهكذا نرى مسرى الرسول الكريم اليها وهجرة ابراهيم قبله اليها، ومملكة سليمان بها وفيها ايضاً الطور الذي كلم الله عليه موسى<sup>(5)</sup>، وقوله تعالى: "والتين والزيتون وطور سينين"<sup>(6)</sup>.

واليها المحشر والمعاد<sup>(7)</sup> لأول الحشر<sup>(8)</sup> فبنه على الحشر الثاني، فمكة بعد مبدأ وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الامر حيث أسري بالنبي الكريم من مكة الى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام<sup>(9)</sup>.

(1) يروي شيخ الاسلام ابن تيمية ايام غزو التتار لدمشق أنه سافر لمصر عام 700هـ لاستدعاء العسكر المصري وبعد ان أمر اهل دمشق بلزوم دمشق ونهاهم عن الفرار لمصر، ورجع قبل الجيش المصري وكتب رسالة قارن فيها بين غزوة الخندق وموقف المسلمين تجاه التتار وبشر المسلمين بالنصر، فالرياح التي جاءت يوم الخندق قابلها ثلوج وامطار فاقت المألوف والمعتاد وكانت من اسباب رحيل التتار. ورحيل الاحزاب عن المدينة بعد مناوشات بسيطة، قابلة رحيل التتار عن الشام هذه السنة، بعد مناوشات بسيطة حول دمشق وحماه. ابن تيمية، ن م، ص 73.

(2) سورة الاسراء، آية 1، وحوله هي ارض الشام.

(3) سورة الانبياء، الاية 70، 71، ومعلوم ان الله نجي ابراهيم ولوطاً الى ارض الشام من ارض الجزيرة والعراق.

(4) سورة الانبياء الاية 81، أي انها كانت تجري الى ارض الشام التي فيها مملكة سليمان.

(5) سورة مريم، الاية 52، ((ونادينا من جانب الطور الايمن وقرنناه نجياً)).

(6) سورة التين، الايتان 1، 2.

(7) ابن تيمية. ن م، ص 78.

(8) سورة الحشر، الاية 2.

(9) ابن تيمية، ن م، ص 78.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ستجدون أجناداً ، جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق، فقال الحوالي يا رسول الله اختر لي؟ قال : عليك بالشام فانها خيرة الله من أرضه يجتبي اليها حزيه من عباده، فمن أبى فليلق بيمنه وليتق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله<sup>(1)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم : ((إن ملائكة الرحمن باسطة اجنحتها على الشام<sup>(2)</sup> ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "طوبى للشام"<sup>(3)</sup> فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله ؟ قال : لان ملائكة الرحمة باسطة اجنحتها عليها وقوله : "وغفر دار المؤمنين بالشام"<sup>(4)</sup>.

وقوله صلى الله عليه وسلم : لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق الى ان تقوم الساعة"<sup>(5)</sup>.

وقال صلى الله عليه وسلم : "ينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق<sup>(6)</sup> ويكفي الشام فضلاً وجود بيت المقدس فيه حيث قال صلى الله عليه وسلم : "من زار بيت المقدس محتسباً أعطاه الله ثواب ألف شهيد"<sup>(7)</sup>.

وفي حديث قدسي آخر: "قال الله تعالى لبيت المقدس أنت جنتي وقديسي وصفوتي من بلادي من يسكنك فبرحمة مني ومن خرج منك فبسخط مني عليه"<sup>(8)</sup>.

(1) ابن تيمية ص82، ((يقول انه حديث صحيح، أخرجه احمد والطحاوي في ((مشكل الآثار)) وابو الحسن الربيعي في ((فضائل الشام ودمشق)) من طرق خمسة عن عبد الله بن حواله مرفوعاً بعضها صحيح الاسناد.

(2) ابن تيمية، ن م، ص84-85.

(3) ن م، ن ص. رواه زيد بن ثابت وأخرجه احمد ج5/ص184، 185، وابن ابي شيبة في المصنف (1527) والترمذي، وابو الحسن الربيعي، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

(4) ابن تيمية: ن م، ص85 قال : انه حديث صحيح أخرجه احمد (ج4/ص104) وابن سعد في الطبقات (ج7/ص427-428) والبغوي في ((مختصر المعجم)) (ج9/ص130) وغيرهم.

(5) ابن تيمية: ن م، ص62، ذكر الرواية عن ابي هريرة وقد أورده ابن حبان في ((الثقات)) وأورده الهيثمي في موضعين من "المجمع" (ج7/ص288).

ورواه الطبراني في ((الوسط)) وابو يعلى ورجالة ثقات.

(6) ابن تيمية: ن م، ص58 ويذكر انه حديث صحيح أخرجه مسلم (ج8/ص197) وابو داود (ج2/ص213) وابن ماجة (ج2/ص508-512) والترمذي (ج2/ص37) والحاكم (ج4/ص492-494) واهم (ج4/ص181) وقال الترمذي حديث صحيح

والحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(7) الظاهري: ن م، باريس، 1893م، ط1، ص17.

(8) العليمي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، النجف، 1968م، ج1، ص228.

ونختم حديثنا عن مناقب الشام وأهله برواية أبي عمرو الشيباني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس يعد من الخلفاء إلا من ملك المسجدين المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس الشريف"<sup>(1)</sup>.

وهكذا نرى أهمية الحديث السياسي الذي يقلل من شأن قادة المسلمين الذين لا يسعون بجدية لتحرير تلك الأراضي من الصهاينة والصليبيين الجدد لأن مكانة بيت المقدس كبيرة في قلوب المسلمين، فمن يفرط في حق المسجد الأقصى فقد فرط في حق من حقوق الله. فقد روى أبو داود وابن ماجه عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس فقال صلى الله عليه وسلم : "أرض المحشر والمنشر، أتتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كآلف صلاة في غيره، قلت أرأيت إن لم أستطع أن أتحمّل إليه؟ قال: فتهدى له زيتاً يسرج فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه"<sup>(2)</sup>.

وللشعر نصيب في بيان مناقب الشام وأهله<sup>(3)</sup> :

بلاد الشام من خير البلاد	لأجل الأنبياء ذوي الرشاد
فان بها مدافنهم جميعاً	سوى طه الرسول إلى العباد
وحذّ الشام طولاً من عريش	إلى أرض الفرات المستجاد
ومن جسر المسيح يقال عرضاً	إلى طرسوس البلد المراد
ومن يافا كذاك إلى معانٍ	فشام كل ذلك من بلاد

كما أكد الرسول الكريم على ملكية العرب لمدينة الخليل<sup>(4)</sup> ((حبرون)) حين أقطعها لتميم الداري وإخوانه فيما يحاول اليهود اقتسام مدينة الخليل اليوم مع المسلمين.

(1) الظاهري: ن م، ج 1، ص 341.

(2) جريدة الاتحاد، عدد يوم 5 رمضان 1416هـ/17/1/1996م دولة الامارات العربية المتحدة. ص 11.

(3) النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل (ت 1143هـ/1721): الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق عبد الحميد مراد، ط دار

المعرفة، دمشق 1989، ص 476.

(4) هذا البلد المقدس الذي جاء في الحديث الشريف عن أهميته وقديسيته ((عن أبي هريرة قال : قال الرسول: ((ولما أسري بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال : انزل فصل ركعتين فان هناك ولد اخوك عيسى ثم الى الصخرة وشرقي الحرم تربة لوط)) وبداخل المسجد قبر يوسف بنى مسجدها سليمان بواسطة الجن وبداخل المسجد الغار المكرم المقدس وفيه بنو ابراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم. "اي داخل الحرم الإبراهيمي". بحجر الدين الحنبلي الاتس الجليل - القاهرة، مصر ، 1866/1283، ص 425. وأورد صورة النسخة. بسم الله الرحمن الرحيم ((هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري)) وإخوته حبرون والمرطوم)) ((بيت عنبون وبيت ابراهيم وما بينهما)) ((نطية بت بدمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم)) ((ولأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله. فمن آذاهم)) لعنهم الله. شهد عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وكتب علي بن أبو طالب وشهد)) هذه نسخة كهنته.

## ثانياً : التقسيم الجغرافي لبلاد الشام

لقد اطلق اسم الشام على كل ما يقع وراء نهر الفرات الى سواحل البحر المتوسط غرباً والبادية من أيلة الى الفرات، ثم من الفرات الى حدود آسيا الصغرى شرقاً، وبلاد الروم حتى الثغور شمالاً وصحراء سيناء حتى رفح جنوباً<sup>(1)</sup>.

وقال بعضهم ان معدل طول بلاد الشام حوالي ألف كيلومتراً وعرضه من الغرب الى الشرق نحو اربعمائة وخمسين كيلومتر<sup>(2)</sup>.

كما قدر القدماء طوله من العريش الى الفرات بمسيرة شهر وعرضه من جبلي أجا وسلمى<sup>(3)</sup> الى البحر المتوسط نحو عشرين يوماً.

هذا وتقع بلاد الشام فلكياً ما بين خطي طول 34-37، وخطي عرض 31،34، كما تقع في وسط غرب قارة آسيا على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط من خليج الاسكندرون شمالاً حتى شواطئ شبه جزيرة سيناء جنوباً<sup>(4)</sup>. فكانت صلة الوصل بين آسيا واوروبا وافريقيا. كما قدر الجغرافيون طولها بالزمن الذي يستغرق لقطعه بنحو شهر من العريش الى الفرات.

اما عرضها فقدره عشرين يوماً تقريباً من جبلي طيء أجا وسلمى من القبلية الى بحر الروم<sup>(5)</sup> وأغلب جغرافي هذه الفترة اتفقوا مع ياقوت في تحديد بلاد الشام بينما خالفه شيخ الربوة حيث قال : ان طول بلاد الشام يمتد من فلسطين الى العريش بنحو سبعة وعشرين يوماً

(1) ابن حوقل: صورة الارض، ليدن، 1938، ص154. والقلقشندي: صوء الصبح المسفر، القاهرة، 1906، ج1، ص279-281. وفتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية، الكتاب الأول، القاهرة، ص160.

(2) محمد كرد علي: خطط الشام، دمشق، 1983، ج1، ص12.

(3) أجا وسلمى: جيلان جنوب الشراه في شرق الاردن.

(4) الطرزي عبد الله: ((جغرافية الاردن، الموسوعة الاردنية ج1، ص18-19.

(5) ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص313.

العريش : مدينة على الحدود بين مصر والشام، على ساحل بحر الروم، خربها الافرنج، ش البغدادي: صفى الدين عبد المؤمن، (ت1338/739)، مراد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، تحقيق علي البحايوي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1954، ج2، ص935، وأما أجا: أحد جبلي طيء، فيه قرى بني طيء والمسافة عشر ليال من دون فيد الى اقصى أجا الى القرى من ناحية الشام. البغدادي: ن م، ج1، ص28.

وعرضها من منبج الى طرسوس<sup>(1)</sup>. وهكذا اختلف الجغرافيون الاوائل في وصف حدود بلاد الشام وطبيعتها الجغرافية حسب تقسيم المنطقة في عصره كوراً او أجناداً فقد ذكرها اغلب الجغرافيين بشكل عام دون ذكر الحد الشمالي مع الروم، لعدم ثبات هذا الحد في أيدي المسلمين، وتعهد البعض الى إغفاله، ثم النظرة الاسلامية لمسألة الحدود لبلاد الشام وبقيت هكذا حتى تم تقسيمها الى أربع دول بعد الحرب العالمية الثانية.

(1) الاصطنحري: ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت933/321)، المسالك والمملك. د:ت، ص55. وشيخ الربوة: نجبة الدهر، ص192. ملطية: بلدة من بلاد الروم تحادي الشام، ياقوت: م.س، ج5، ص192. ومنبج/ مدينة غنية بفواكهها وخضرواتها، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، ياقوت: ن م، ج5، ص206.

والمقدسي: شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت999/390)، أحسن التقاسيم، تحقيق غازي، طليعات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1980، ص150، اللذين اعتبرا بلاد الشام وحدة جغرافية. كما جعل ابو الفداء حد الشام الجنوبي من رفح الى ما بين الشوبك وأيلة، علماً بأن أيلة هي الحد الذي ذكره غيره من الجغرافيين أبو الفداء: تقويم البلدان، ص257. بينما حددها ابن فضل الله العمري بموجب التقسيمات الادارية في زمنه حيث قال: ((فأما ما هو في زماننا وعليه قانون ديواننا، فانه اذ قال السلطان: بلاد الشام ونائب الشام لا يريد الا دمشق ونائبها ولايته من لدن العرش-حد بلاد مصر الى اخر سلمية مما هو شرق بشمال والى الرحبة مما هو شرق حمص، وقد اضيف اليها في أيام سلطتنا بلاد جعير وحققا أن تكون مع حلب فعلى هذا قد صارت مملكة دمشق مشتملة على الشام الأعلى وما يليه وما يلي بعضه الأدنى وليس يخرج عنها من ذلكم الاحماة، وما أخرج مع صفد، ومع طرابلس وأفرد به والكرك ويكون في نيابة نائبها نيابة غزة ونيابة دمشق ونيابة حمص وبعض شيء مما يقتضي الحق أن يكون في نيابة حلب)). ابن فضل الله العمري: ابو العباس شهاب الدين احمد بن يحيى (ت1348/744): التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص225-226.

وسلمية: بلدة في ناحية الرية من أعمال حماة، يمينها مسيرة يومين (البغدادي، مراصد، ج2، ص818 وجعير: تقع على الفرات بين بالس والركة قرب صفين، نسبت الى اسم ملكها الاعمى من بني قسنبر: البغدادي، ن م، ج1، ص335. وبالس: على الفرات من الجانب المغربي، البغدادي، ن م، ج1، ص157. والشوبك: قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وأيلة قرب الكرك، البغدادي، مراصد، ج2، ص818. وأيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام البغدادي: مراصد، ج1، ص138.

وللمزيد من المعرفة عن حدود بلاد الشام، انظر القلقشندي، صبح، ج4، ص75-76 والسيوطي، ابو عبد الله محمد بن شهاب الدين احمد بن علي ابن عبد الخالق المنهاجي (ت1475/880)، تحاف الإخصا بفصائل المسجد الأقصى، تحقيق احمد رمضان، الهيئة المصرية، القاهرة، 1984م، ق2، ص132. والنابلسي: ن م، 1989م، ص476.

## أسماء الشام وحدودها الجغرافية

لقد كان الهمداني (ت 945/334) أول جغرافي اعتبر بلاد الشام وحدة بلدانية واحدة<sup>(1)</sup>. أما الاصطخري فقد (كتب ما بين 318-321هـ/930-933م) وأطلق عليها ((أرض الشام)<sup>(2)</sup> بينما ذكر المقدسي (ت 378هـ/988) اقليم الشام قاصداً بذلك وحدة بلاد الشام الجغرافية<sup>(3)</sup>، وذكر ابن حوقل صاحب كتاب صورة الأرض اسم كلمة ((الشام)) مجردة<sup>(4)</sup>.

أما بقية جغرافيي القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي الذين كتبوا عن الشام فقد كتبوا عن الكور التي تتكون منها ديار الشام وأجنادها<sup>(5)</sup>. كابن خرداذبة (ت 272 هـ / 885 م) في كتابه ((المسالك والممالك))<sup>(6)</sup> واليعقوبي (ت 288 هـ / 891 م)<sup>(7)</sup>. وهكذا نلاحظ اختلاف الجغرافيين حول تسمية وتحديد اجزاء الشام حيث يذكر ابن خرداذبة "كورقنسرين" وكورة دمشق وكورة الاردن لكنه يقول اقليم حمص وبعدها<sup>(8)</sup>.

بينما نرى اليعقوبي يذكر التسمية التي تعود الى صدر الاسلام فيقسم الشام الى أجناد الاردن وفلسطين ودمشق وحمص ولا يذكر جند قنسرين<sup>(9)</sup>. بخلاف الاصطخري الذي يذكره ويصف الجبال والشرار<sup>(10)</sup>.

(1) اذ عتوّن الفصل الخاص بها بقوله: ((القول في الشام)) الهمداني ص 91.  
(2) الاصطخري: المسالك والممالك ص 43، د. عبد الكر غراية ورفاقه: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر، ط 1، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1974م، ص 147-148، فالاصطخري يقول: ((وأما الشام فان غربها بحر الروم وشرقها البادية من ايلة الى الفرات ثم من الفرات الى حد الروم، وشمالها بلاد الروم، وجنوبها حد مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور. الاصطخري: المسالك والممالك، نشر وتحقيق آصف بن علي أصغر، القاهرة، جزيان 1955-1961م، ص 43.

(3) وصف المقدس التلويّن الطبيعي لاقليم الشام ص 151: ((وضع هذا الاقليم ظريف هو اربعة صفوف، فالصف الأول ما يلي بحر الروم وهو السهل، رمال منعقدة ممتدة، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل. والصف الثاني الجبل: مُشَجَّر ذو قرى وعيون ومزار يقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجون وقدس والباقع وانطاكية والصف الثالث: الاغوار، ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان ايلة وتبوك وصفر واربعا وبيسان وطريا وبانياس والصف الرابع، هو سيف البادية)).

(4) ابن حوقل، صورة الأرض ص 153.

(5) عبد الكريم غراية ورفاقه: م.س، ص 147. والمقدسي: م.س، ص 151.

(6) ابن خرداذبة: م.س، ص 75-76، ذكر الكور التي تكون فيها بلاد الشام.

(7) اليعقوبي: البلدان ص 324 وما بعدها ذكر أحفادها.

(8) ابن خرداذبة: م.س، ص 75-76. ذكر الكور التي تتكون ذكر أجنادها.

(9) اليعقوبي، م، ص 234 وما بعد منها بلاد الشام، وعبد الكريم غراية ورفاقه: م.س، ص 148-149.

(10) الاصطخري: م.س، ص 43، 44.

وأما المقدسي فيضيف إليها كوراً سادساً هو كور الشراه وعاصمتها صُغُر<sup>(1)</sup> ويحدد معنى كلمة : ((المصر)) فقهياً ولغوياً:<sup>(2)</sup>.

كما يلاحظ اختلافهم على أمر المدينة والقصبة التابعة لهذه الاجناد وذلك بسبب الحالة السياسية لبلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كما اختلفوا في وحدة قياس المسافات بين المدن حيث استعمل ابن خرداذبة الفراسخ والاميال<sup>(3)</sup> ، واستعمل الاصطخري اليوم والمرحلة بنفس المعنى<sup>(4)</sup> وهما متساويان، بينما استخدم المقدسي اليوم والمرحلة والبريد في معنى واحد<sup>(5)</sup>.

وأورد في الاصطخري بالنسبة للمسافات بين مدن جنوب بلاد الشام ان المسافة من دمشق الى طبرية اربعة أيام، ومن طبرية الى الرملة ثلاثة ايام ومن الرملة الى رفح يومان، وقدر المسافة من يافا- الرملة- القدس- اريحا- زُغُر- جبال الشراه- معان بستة ايام. ومن الرملة الى يافا بنصف يوم ومن الرملة الى بيت المقدس بيوم، ومن بيت المقدس الى مسجد ابراهيم بيوم، ومن بيت المقدس الى اريحا بيوم، ومن بيت المقدس الى البلقاء بيومين ومن الرملة الى قيسارية بيوم، ومن الرملة الى نابلس بيومين ومن اريحا الى زُغُر بيومين. ومن زُغُر الى جبال الشراه بيوم ومن جبال الشراه الى آخر الشراه بيوم ((ومركزها أذرح)).

ويذكر ان قصبة فلسطين : الرملة.

وأما طبرية فانها قصبة الاردن فمن طبرية الى صور يوم ومنها الى عقبة فيق يوم ومنها الى بيسان يومان خفيفان، والى عكا يوم، وأشار الى ان الاردن كان اصغر اجناد الشام واقصرها مسافة<sup>(6)</sup>.

(1) المقدسي: احسن التقاسيم، ص 154-155. وغراية ورفاهه، م.س، ص 149.

(2) المقدسي : ن م، ص 47، يذكر رأي المقدسي: وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد دخله السلطان الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقاليم مثل دمشق.. وربما كان لمصر او للقصبة نواح... فالاقاليم اربعة عشر، ستة عربية.. ثم الشام.. وثمانية عجمية.. ولا بد لكل اقليم من كور ثم لا بد لكل كور من قصبة ثم من كل قصبة من مدن.. وليس كل قصبة مصرًا..

(3) ابن خرداذبة: م.س، ص 97-100.

(4) الاصطخري: ن.م، ص 48.

(5) المقدسي ن.م، ص 190.

(6) الاصطخري: ن م، ص 48-49.



هذا ويذكر المقدسي اسماء اربعة وسيتين مدينة في اقليم الشام واعتبر مدينة دمشق مصراً وست مدن قصبات تتبعها مدن أخرى مثل طبرية والرملة وزُغُر ودمشق وحلب وحمص والباقي مدن عادية<sup>(1)</sup>.

وأما الثغور البحرية في جنوب بلاد الشام فهي سواحل جند الاردن مثل صور وعكا وسواحل جند فلسطين قيسارية وارسوف ويافا وعسقلان وغزة<sup>(2)</sup>.

### وبالنسبة لحدود بلاد الشام :

فقد لاحظنا اختلاف الجغرافيين بالنسبة لحدود الشام كما ورد في التعريف في المصطلح الشريف للعمري و((تقويم البلدان)) لأبي الفداء.

ففي التعريف: جعل العمري: حده الشمالي الى البحر الرومي وحده الغربي الى مصر، اما في ((تقويم البلدان فجعل حده الشمالي البلاد التي بين الفرات والبحر الرومي ((المتوسط)) فادخل بلاد الارمن المتصلة بشمال حلب، وجعل حده الغربي البحر الرومي من طرسوس الى رفح.

ونرى بان سبب هذا الخلاف هو موقع البحر الرومي عن الشام غرباً وشمالاً مما جعلهما يختلفان بالنسبة لموقع الجهة - لان بعض هذه الحدود قد تكون شرقية عن بعض الشام وجنوبية عن البعض الاخر كالبلقاء: فهي جنوبية عن حلب وشرقية على غزة.

بينما ذكر القلقشندي<sup>(3)</sup> بان حدوده من القبلية ((الجنوب، تيه بني اسرائيل وبر الحجاز والسماوة الى مرمى الفرات بالعراق وهذه كلها من جهة جزيرة العرب وحده من الشرق طرفي السماوة والفرات ، وحده من الشمال البحر الرومي وحده من الغرب حد مصر.

(1) المقدسي: م.س، ص 47-48-54-151 وما بعدها ويقول: بان الصف الرابع هو سيف البادية وهي جبال عالية وباردة، متصلة مع البادية ذات قرى عيون واشجار يقع فيها من البلدان مآب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب /المقدسي: ن م، ص 62-63. بينما يذكر ابن خرداذبة، م.س، ص 75 عدد المدن 35 مدينة واليعقوبي م.س، ص 30، مدينة والأصطخري م س، ص 43، 25 مدينة وابن حوقل: م.س، ص 153، 31 مدينة.

(2) ابن قدامة: خراج ابن قدامة، ص 252-255، و د. عبد الكريم غرايبة، م.س، ص 158.

(3) القلقشندي/ م.س، ج 1، ص 75.

### ثالثاً : التقسيم الإداري لجغرافية جنوب بلاد الشام

لقد قسمت صحاري الشام الى قسمين رئيسيين هما بادية الشام والبلقاء مركز عبور القوافل الصحراوية بين الشام والجزيرة العربية والعراق، وفيها السهول والمنخفضات التي يجري فيها نهر الاردن المسمى "بالشريعة"، وفرعه اليرموك المتفرع من أنهار تتبع من جبل الشيخ شمال لبنان ويمتد جنوباً الى فلسطين، وهناك عدة أنهار منها نهر العوجاء الذي يجري من جبل الجليل في فلسطين<sup>(1)</sup>.

وقد خضعت جنوب بلاد الشام الى تقسيمات ادارية مختلفة عبر العصور التاريخية على اساس ان كل تقسيم اداري كيان مستقل بذاته، فجعل بعضهم من بلاد فلسطين والقدس شاماً (الشام الاعلى) أو (الشام الأولى)، وجعلوا الاردن الشام الثانية ومركزه طبرية، والشام الثالثة فكانت تشمل الغوطة ومركزها دمشق والشام الرابعة فكانت حمص ومركزها مدينة حمص<sup>(2)</sup>. أما الشام الخامسة فكانت قنسرين ومركزها حلب<sup>(3)</sup>.

وأما تسمية الشام بسوريا فكان ذلك في العصر البيزنطي، والفارسي، وبالنسبة للاقسام :

كما قسم العرب الاوائل الشام الى خمسة أقسام<sup>(4)</sup> :

- الشام الأولى ((فلسطين)): وحدودها من طريق العريش وغزة والرملة وبيت المقدس ومركزها الرملة.

- الشام الثانية ((الاردن)): ومدينتها العظمى طبرية وتشمل الغور واليرموك وبيسان.

- الشام الثالثة : وهي دمشق وطرابلس.

- الشام الرابعة: هي ارض حمص.

(1) القلقشندي: م.س، ج4، ص75.

(2) ن.م، ج4، ص683، ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة، 1305، ج4، ص278، حسن ابو العينين: لبنان، دراسة جغرافية بيروت، 1980، ص13.

(3) القلقشندي: م.س، ج4، ص83.

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج6، ص251. وكان من أنبياء فلسطين اسماعيل عليه السلام (عبد السميع) والنبي شعيب امير مدين بين العقبة ومعان في القرن 13 ق.م، الدباغ فلسطينيات، ص30-32. والنبي أيوب في خرائب العيسى، من أعمال معان في الاردن في منتصف القرن 13 ق.م، الدباغ: ن م، ص34-35. والنبي شعيب: امير مدين بين العقبة ومعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقبره في طبرية انظر: الدباغ: فلسطين، ج1، ص34-35.

- والشام الخامسة: وهي قنسرين ومدينتها العظمى حلب وانطاكية.

وأما الجغرافيون الاوائل فقد قسموا الشام الى خمسة اقسام ادارية<sup>(1)</sup> هي:

اولاً : فلسطين: من حدود مصر وتشمل غزة ورملة فلسطين، ومن مدنها: ايليا لبيت المقدس، وعسقلان، واللد ونابلس والخليل (حبرون) وعرضها من يافا الى اريحا ومسيرة فلسطين طولاً اربعة ايام.

ثانياً : حوران: ومركزه طبرية، ومن مدنها الغور واليرموك وبيسان.

ثالثاً : الغوطة: ومركزها دمشق، ومن مدنها طرابلس وصفد وبعلبك.

رابعاً : حمص وفيها سلمية، ولا تدخلها حية ولا عقرب، نزلها خمسمائة من أصحاب الرسول وفيها مزار علي بن ابي طالب كرم الله وجهه.

خامساً : قنسرين: ومركزها حلب ومن مدنها: حماة، وسربين وانطاكية التي قيل انها قرية حبيب النجار.

كما ذكر مجيد الدين الحنبلي تقسيماً آخر للوائل بالنسبة لبلاد الشام كما يلي:

- الشام الأولى - فلسطين واوسطها الرملة<sup>(2)</sup>.

- الشام الثانية - حوران ومركزها طبرية.

- الشام الثالثة - الغوطة ومركزها دمشق.

- الشام الرابعة - حمص.

<sup>(1)</sup> الظاهري: م.س، ص42.

<sup>(2)</sup> بحير الدين الحنبلي م.س، ص416. أما ابن حوقل: فقد لفظها الشام فقال: ((وكور الشام فهي جند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم والتغور، وبين تغور الشام وتغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بينهما، وجبل اللكام جبل داخل في بلد الروم)). ابن حوقل م.س، ص154، انظر الملحق صورة الارض لابن حوقل. وانظر بالنسبة لهذا التقسيم ايضا: الأصبخري: م.س، مجلد 3، ص675، 687. وانظر ابن حوقل ن.م، ص157، فقد قال عن جند فلسطين ((وهو اول اجناد الشام مما يلي المغرب وعرضه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفع الى حد اللحون، وعرضه من يافا الى ربحا مسيرة يومين، وتواحي زغر وديار قوم لوط والشره والجبال فمضمومة الى هذا الجند، وهي منها في العمل الى ايلة. وديار قوم لوط والبحيرة الميتة وزغر الى بيسان وطبرية يسمى الغور لانها بين جبلين وسائر مياه بلاد الشام يتبع اليها وبعضها من الاردن وبعضها من فلسطين)). (أما الاردن فمدينتها الكرى طبرية وهي على بحيرة عذبة الماء. وبعض الغور من حد الاردن الى ان يجاوز بيسان، فاذا جاوزه كان من حد فلسطين)). ابن حوقل، ن.م، ص160.

- الشام الخامسة - قنسرين ومركزها حلب ونلاحظ تشابهاً بين هذين التقسيمين.

تقسيمات ادارية لجنوبي بلاد الشام زمن الفرس لمدة قرنين من الزمان (538-332 ق.م)  
لقد كانت سوريا الكبرى ((بلاد الشام)) الولاية الخامسة في مملكة الفرس والتي شملت  
ايضاً قبرص (وما وراء النهر) وعاصمتها دمشق.

هذا وقد قسم الفرس هذه الولاية الى عدة ألوية منها :

((لواء فينيقيا)) و ((لواء العربية)) ويشمل فلسطين وشرقي نهر الاردن وصحاريها وكان  
على رأس كل ولاية حاكماً محلياً من أهل البلاد مستقلاً في ولايته ادارياً وسياسياً<sup>(1)</sup> وكانت  
جميعها تستخدم اللغة الارامية وتنتقشها على مسكوكاتها وفي وقائعها الرسمية والمكاتبات العادية.  
وعندما خضعت جنوب بلاد الشام للدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) مع بداية القرن  
الخامس (400م) قسموها الى ثلاثة اقسام: (2).

- فلسطين الأولى Palaestine Prima وتضم القدس ونابلس والخليل ومعظم مدن الساحل حتى  
رفح، وعاصمتها قيصرية.

- فلسطين الثانية Palaestine Secunda وتشمل على الجليل وام قيس وطبرية وقلعة الحصن  
وعاصمتها بيسان.

- فلسطين الثالثة Palaestina Tertia وتضم بلاد العرب الانباط ومنطقة بئر السبع  
وعاصمتها البتراء وحتى جزر تيران عند مدخل خليج العقبة.

هذا بالاضافة لعدة اقسام ادارية اخرى شملت جميع البلاد الشامية منها فنيقية البحرية  
(فنيقية الأولى) التي ضمت الاراضي الفلسطينية مدن حيفا وعكا ثم فنيقية الثانية، وسوريا الأولى

(1) الشيخ نسيب الحازن، من الساميين للعرب، بيروت 1912، ص 84. واحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص 226.  
وسليم عرفات المبيض، النقود العربية الفلسطينية وسكها المدنية الاجنبية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام 1946م، الهيئة المصرية  
العامّة للكتاب، 1989م، ص 31.

(2) الشيخ نسيب الحازن ن.م، ن.ص، وانظر الملحق: خريطة التقسيمات الادارية في الفترة البيزنطية من كتاب سليم عرفات، النقود العربية  
الفلسطينية ج 131، ص 143، (جند الاردن وجند فلسطين) وبالنسبة لمدينة السك الفلسطينية انظر الملحق خريطة، من كتاب سليم  
عرفات، ص 141، صدر الاسلام و ص 145، في العصر الاموي ص 159، في العصر العباسي والطولوني والآخر، ص 169، مدن  
السك في العصر الفاطمي والسلجوقي، ص 181، مدن السلط الصليبية.

والثانية، وقد اسمرت هذه التقسيمات الادارية حتى الفتح الاسلامي<sup>(1)</sup>. حيث ادخل عليها تعديل بسيط.

فاشتمل جند الاردن: على شمال الاردن (اربد وجرش وطبرية وصفد والناصره وعكا وحيفا وعاصمته طبرية).

اما جند فلسطين فشمل باقي فلسطين + السلط والشوبك والكرك<sup>(2)</sup>.

هذا ولم ترد كلمة سوزيا في مصادر التاريخ الاسلامي، لان كلمة سوريا أصلها بيزنطي<sup>(3)</sup>.

كما استمر التقسيم الاداري البيزنطي في العصر الاموي والذي كان مبنيا على اساس وجود معسكرات الجيش واخذت اسم الجند لوجود الاجناد التي كانت تتغير من وقت لآخر فكانت في العصر الاموي خمسة اجناد هي :-

جند فلسطين ومركزها بيت المقدس.

وجند الاردن ومركزها طبرية.

وجند الغوطة ومركزها دمشق ومن سواحلها طرابلس.

وجند حمص ومركزها حمص.

وجند قنسرين ومركزها حلب.

وقد لعبت قبائل الشام العربية دوراً هاماً في العصر الاموي وخاصة القيسية واليمانية.

وتغير الحال في العصر العباسي، فلم يحتل الشام المكانة الاولى كالعصر الاموي نتيجة للظروف السياسية المستجدة في بلاد الشام فحدث تغيير في التقسيم الاداري تحت حكم الطولونيين والاختشديين ثم الفاطميين في مصر.

(1) سليم عرفات المبيض: م.س، سنة 1989، ص129.

(2) انظر الخريطة رقم التقسيمات الادارية لبلاد الشام في العصر الاسلامي.

(3) القلقشندي: م.س، ج1، ص83، ذكرها وهو يصف التقسيم القديم للشام وذكر تقسيم الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ولم يذكر كلمة سوريا، كما ذكر كلمة بلاد الشام، ونائب الشام ولم يكن يقصد بها سوى دمشق ونائبها.

وبقي التقسيم الإداري كولايات كما هو حتى العصر الأيوبي حيث قسمت الى ولايات  
عندما قسم صلاح الدين الأيوبي الشام بين ابنائه وأخوته، وأطلق على كل قسم منها اسم ((مملكة  
وحاكمها الملك)) مثل مملكة الكرك ومملكة صرخد ومملكة حمص<sup>(1)</sup>.

وأما الأيوبيون فقد اضافوا الى الشام الجزيرة الفراتية، وقسموها اقطاعات وامارات مثل:  
دمشق، حلب، حمص، حماة بعلبك، الكرك، الشوبك، بيت المقدس، ديار بكر، ماردين، آمد،  
ميفارقين، لبنان (اطلقوا عليه اسم الغرب (القسم الساحلي) ويشمل: بيروت وصيدا وصور  
وطرابلس ويافا وعكا وعسقلان وغزة).

أما اصل الأيوبيين فيشير ابن الاثير الى ان جدهم نجم الدين أيوب من بلدة دودين من  
أكراد اذربيجان (الروادية)<sup>(2)</sup>.

والحقيقة بان هذا لا يهمنا كثيراً سواء كانوا عرباً أم أكراداً فهم مسلمون ولا عصبية في  
الاسلام.

وأبو الفداء من أحفاد الأيوبيين.

هذا وقد اقتسم الناصر داوود وعمه الكامل اقتسما ادارة المناطق التالية:  
فأخذ الناصر : الكرك واعمالها مع الصلت والبقاء والاغوار جميعها ونابلس واعمال  
القدس وبيت جبريل.

بينما أخذ الملك الكامل: دمشق والشوبك والخليل وطبرية وغزة وعسقلان واللد والرملة  
وما بأيدي المسلمين من الساحل<sup>(3)</sup>.

وبعد وفاة الملك عام 635هـ/1237م بدمشق عاد الصراع بين ابناء ملوك بني أيوب على  
اقتسام البلاد.

(1) الفلقشندي: م.س، ج4، ص91، محمد راغب الحلي، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، بيروت 1923، ص283، 293.

(2) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، 1402، 1982، ج11، ص341. اما بهاء الدين بن شداد والعماد الاصفهاني لم  
يلحقوهم بالاكرد. وأما ابن خلكان: فانه يرجع نسبهم الى العرب من عدنان وآدم عليه السلام ابن خلكان: وفيات الاعيان، تحقيق  
الدكتور احسان عباس، دار صادر بيروت، فيما ادعى ابو الفداء: م.س، بانهم من بني امية، 1969، ج7، ص140.

(3) المقرئ: السلوك ج1، ص235.

واستطاع الناصر داود استرجاع القدس بالقوة في 6 جمادي الأولى سنة 637هـ-7 كانون الأول سنة 1239م وطرد الفرنج منها<sup>(1)</sup>، وبعد اربع سنوات رجع اليها الفرنج باتفاق مع الناصر داود صاحب الكرك والقدس والصالح اسماعيل صاحب دمشق عندما ساعدهما في حربهما ضد صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل فشربوا الخمر بالصخرة وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى عام 641هـ/1243م<sup>(2)</sup> بينما تغيرت التسمية في عهد المماليك وسميت الاقسام الادارية بالنيابات بسبب تعيين السلاطين نواباً لهم على تلك الاقاليم واعلاها دمشق<sup>(3)</sup>.

فنيابة الكرك : ترجع لعهد صلاح الدين الأيوبي الذي فتحها عام 584هـ/1188م واصبحت نيابة في عهد الظاهر بيبرس المملوكي عام 665/1266<sup>(4)</sup> حيث اشتهرت كمركز استراتيجي للمواصلات في الشام والتي كان يلجأ لها سلاطين المماليك غالباً في حالة طردهم من السلطة.

وهكذا نرى بان التقسيم الاداري للشام الى نيابات لم يستقر الا بعد عام 732/1331 بوفاة عماد الدين اسماعيل (أبو الفداء) آخر ملوك حماة من البيت الأيوبي، وولاية ابنه الافضل محمد حيث اصبحت سادس نيابات الشام عام 742هـ/1343م.

(1) المقرئزي: ن م، ج 1، ص 291.

(2) المقرئزي: م.س، ج 2، ص 315.

(3) القلقشندي: م.س، ج 12، ص 199.

(4) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 176.

رابعاً : النظام الإداري الأيوبي في جنوب بلاد الشام. (648-567هـ/1169-1250م).

1250م).

#### مقدمة اصارة:

لقد ورث الأيوبيون تراث الخلافة الفاطمية في مصر وأضافوا اليه تراث الخلافة العباسية في بغداد بما فيها حركة الاحياء السلجوقي في الشرق وذلك خلال ثمانين عاماً من حكمهم 567-648هـ/1171-1250م مما ساهم في اخراج مزيج حضاري أيوبي ناضج في مصر والشام والعراق.

هذا وكان لسقوط الدولة الفاطمية الشيعية اثر كبير في احياء الدعوة السنية، في ظل الخلافة العباسية السنية، كما أثر هذا في تقريب اوجه الخلافات السياسية والكلامية بين الفرق الاسلامية بعد ممارسة الفرق الشيعية المتمثلة في الدعوة الفاطمية بمصر والنزارية في ايران واتباعها في الشام.

وبالنسبة لنظام الحكم والإدارة فقد سارت على النظم الدينية السنية التي عرفتھا الدول الاسلامية من قبل.

أما إمارة الأيوبيين في بلاد الشام فقد كانت إمارة استيلاء تابعة للخلافة العباسية ، مع تمتعها بحكم ذاتي مميز سياسياً وشرعياً، حيث فوضهم الخليفة العباسي سلطاته في بلاد الشام ومصر ومنحهم الخلع التي منحها للبويعيين والسلاجقة من قبل لضعفه.

ومن الامثلة على التقاف ملوك الاطراف الأيوبيين حول الخلافة العباسية إجتماعياً وسياسياً وعسكرياً عند استجابة السلطان الأيوبي العادل الأول الذي استجاب لدعوة الفتوة الناصرية<sup>(1)</sup> التي تزعمها الخليفة العباسي الناصر لدين الله، مما كان له الاثر في دعم فريضة الجهاد ضد الصليبية وطردهم من بلاد الشام.

(1) كانت دعوة سياسية نهجت نهج الفتوة العربية القديمة وما ارتبط بها من فروسية وتعاليم اخلاقية لدعم الدولة العباسية لجذب الفتیان، والقبابات في تنظيم الفتوة.



وهكذا نلاحظ أن الإدارة في بلاد الشام في العصر الأيوبي تضيف الى النمط الذي كانت عليه في العصر الفاطمي، لأن الأيوبيين كانوا قوما حديثي العهد بالدولة ووارثي دولة عريقة في النظام والإدارة، فكان طبيعياً أن يحافظوا على أسلوب الإدارة القديمة إلا ما اقتضته طبيعة السياسة الجديدة والخلاف المذهبي، إذ أبعدوا الموظفين الشيعة وغيروا أسلوب القضاء بما يلائم المذهب الشافعي بدل المذهب الفاطمي.

وأما من حيث السلطان الأيوبي أو نائبه فكانت سلطته مطلقة من حيث التصرف في شؤون البلاد، يساعد نائب ومجموعة موظفين بالإضافة للقضاة الذين يساعدون السلطان في إدارة البلاد من النواحي القضائية أو المدنية، حيث أنشأ الملك العادل نور الدين محمود في دمشق داراً للقضاء سماها (دار العدل) كان يجلس فيها للفصل في القضاء والقيام بالاعمال الادارية والاصلاحية.

كما أنشأ صلاح الدين الأيوبي دار عدل في مصر أيضاً للنظر في المظالم لاحقاق الحق حيث كان يجلس فيها في ايام مخصصة ومن حوله قضاة المذاهب الاربعة ومعهم صاحب بيت المال وامراء الجيش يساعدهم مجموعة من أصحاب الوظائف الكبرى وموظفي الإدارة وهكذا كان يفعل نوابه في أقاليم الشام وغيرها في دور العدل التي شيدها على غرار ذلك.

كما كان للمحتسب شأن كبير لملاحقته اهل المنكر والمفسدين واهل الغش وتأديبهم وقمع مفسدهم، بالإضافة الى مراقبة الطرق وتوسيعها وتنظيمها والحكم على اهل المباني المتداعية بازالتها.

مستعيناً بصاحب الشرطة وصاحب القضاء بتنفيذ العقوبات وتأديب اهل المنكرات وإقامة التعزيرات.

كما كان صاحب الشرطة من كبار رجال الدولة واكثرهم نفوذاً وجاهاً، وكان له مقر خاص يجلس فيه، ويبعث اعوانه ووكلاءه لتنفيذ الاحكام واقامة الحدود.

وأما الحاجب فكان ايضاً من أرباب المناصب الادارية العليا لتوليه أمر باب السلطان، وقد أكثر الأيوبيون والمماليك من الحجاب لان المماليك ساروا على النمط الأيوبي في الإدارة مع تعديلات وزيادة في شعب الإدارة كما سيأتي لاحقاً.

وأما بالنسبة للإدارة في جنوب بلاد الشام فقد كانت إدارة صليبية قبل دخول الأيوبيين إليها، لذا كان لابد من الإشارة الى نموذج اداري صليبي في جنوب بلاد الشام لان الحضارة مزيج من خبرات الشعوب.

واكتفيت بنموذج الإدارة في بيت المقدس، المملكة الصليبية الرئيسية في جنوب بلاد الشام لان استمرار الحملات الصليبية وتأسيسهم دويلات في بلاد الشام ألهم مشاعر المؤرخين القدامى من المسلمين والصليبيين فيما وضعوه من التاريخ الحولي وأهملوا النظام الاداري والدبلوماسية سوى بالاشارة المقتضبة فقصدت بهذه سد بعض الثغرات في التأليف التاريخي إدارياً وسياسياً ودبلوماسياً.

## الإدارة في بيت المقدس في عهد الصليبيين:

### مقدمة:

بعد أن استقر الصليبيون في بلاد الشام واستوطنوا سواحل الشام لتأمين الاتصال مع المغرب اقاموا ممالك لهم في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس ويهمنا في هذا البحث مملكة بيت المقدس كجزء من جنوب بلاد الشام.

فكان من الطبيعي أن يطبقوا في هذه المملكة النظم التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الاوربي، فكان ملك بيت المقدس على رأس النظام الاقطاعي.

ويليه اربعة من كبار الامراء لكل منهم موظفوه، ثم اعقب ذلك مجموعة الامراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، ولم يتمتع ملوك بيت المقدس بالسلطة التامة على قواتهم العسكرية الأوروبية كما أن الحجاج المسيحيين لم يكونوا ملزمين بالخضوع لهم.

أما الرهبان الفرسان وأتباعهم من المقطعين في الحرب فكانوا ملزمين الى حد ما فقط وعلى وجه العموم فإن ملوك القدس الستة الأوائل تمتعوا بقدر كامل من السلطة.

وبالنسبة لمواردها الاقتصادية فكانت كثيرة وافرة منها طرق الإغارة على القرى والضياح والقوافل الاسلامية بهدف السلب والنهب، وما يأخذونه من الحقول والمزارع التابعة لهم.

بالإضافة للضرائب التجارية التي فرضت على الصادرات والواردات والموانئ والضمان والحجاج.

وأخيراً كانت وسائلهم لتوطيد حكمهم في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، هي الحروب المستمرة للسيطرة على المزيد من الأراضي وطلب النجدة من الغرب.

لذا كان من الطبيعي ظهور طبقة أرستقراطية عسكرية تستغل الشعوب الخاضعة لها اقتصادياً، ثم تكيفهم مع البيئة الشرقية اجتماعياً لتوطيد مركزهم بين هذه الشعوب. فتولد شعب جديد في بلاد الشام.

### نظام الحكم:

لقد تم تنويع بلدوين الأول خلفاً لأخيه جودفري البويوني يوم عيد الميلاد الموافق 26 ديسمبر 1155م، في كنيسة العذراء ببيت لحم حيث وضع دايمبرت بطريرك بيت المقدس ومندوب البابا في الأراضي المقدسة التاج على رأسه، فكان أول ملوك القدس من الصليبيين فأقام دولة علمانية، وانتهت فكرة إقامة حكومة دينية في القدس<sup>(1)</sup>. ولكن بالحفاظ على ممارسة البابا لحقه في شؤون الدين والدنيا عن طريق مندوبه بقصد المحافظة آنذاك على نظرة السمو البابوي التي ترجع الى أيام البابا جريجوري الأول 590-604<sup>(2)</sup>.

واستطاع بلدوين الأول التخلص من مندوب البابا دايمبرت واستبداله بأبرمار بطريركا للقدس لما لمسه فيه من الابتعاد عن الشؤون السياسية<sup>(3)</sup>.

وهكذا تمكن بلدوين الأول من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى في حكومة بيت المقدس بعد أن أضعف سلطة بطريرك القدس حيث أصبح يتدخل في اختياره دون التدخل في المسائل الدينية داخل الكنيسة<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> William of Tyre, 1, p. 427-28. Runciman, ahistory of the crusades. Vol,11, P297.

<sup>(2)</sup> BRYCE (j) The Holy Roman Empire, (London 1950).

<sup>(3)</sup> William of Tyre, 1, p.468.

<sup>(4)</sup> Runciman, Ahistory of the Crusades, 11, op. cit, p.167 Wiliam of Tyre, 1, pp.481-483.

كما نرى اعتراف البابوية بالسلطة العلمانية القوية للتصدي لهجمات المسلمين في فلسطين دون المساس بحرية الكنيسة الدينية في القدس<sup>(1)</sup>.

وبالنسبة للوضع الاداري لبيت المقدس أيام الاحتلال الصليبي فقد اعتمد الحكم على الأسس الاقطاعية والقضائية كما ورد في دستورها: Assize of Jeraslem. ففي عهد الملك غودفري، قسمت البلاد الى أربع إقطاعات كبرى هي: يافا والكرك والجليل وصيدا بالاضافة الى اثنتي عشرة اقطاعية صغرى، كما كانت القدس وطبريا وعكا اقطاعات خاصة للملك، وكان رؤساء هذه الاقطاعات الكبرى والصغرى يقطعون جزءاً من أراضيهم لأتباع جدد مقابل تعهدات مالية وعسكرية<sup>(2)</sup>.

### أما حكومة بيت المقدس:

لقد نظمت على اساس اقطاعية بان قسمت إلى عدد من الاقطاعات والضيايع للأمرء الموالين للملك<sup>(3)</sup>.

وقد شملت املاك مملكة بيت المقدس الضفة الغربية كلها فيما بين الخليل في الجنوب ونابلس في الشمال، بينما كانت املاك الملك الخاصة ((الدومين)) على الساحل الفلسطيني هي صور ويافا وعكا بالاضافة للقدس ثم أضيف اليها الداروم "مدينة دير البلح حالياً" جنوب غزة، بعد ذلك<sup>(4)</sup>.

ثم يأتي بعد الملك اربعة بارونات في يافا وعسقلان ومقاطعة الكرك ((ومنتريال)) وامارة الجليل، ومقاطعة صيدا، ولكل منهم جهازه الاداري، فكانوا اشبه بالملك نفسه<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> Runciman A history of The Crusades, 11, p.310.

<sup>(2)</sup> د. عبد القادر يوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 87. و د. خاشع المعاضدي ورفقاه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ط 2، 1986.

<sup>(3)</sup> Mayer, The Crusades.

<sup>(4)</sup> براور: عالم الصليبية، ترجمة وتقديم وتعقيب دكتور قاسم عبده قاسم. و د. محمد خليفة حسن، ط 1، دار المعارف، 1981. ص 130.

<sup>(5)</sup> ARCL, The Crusades, p.116.

كما كان يتبع مملكة بيت المقدس اثنتا عشرة مقاطعة صغيرة<sup>(1)</sup> وهي نابلس والخليل وقيسارية وارسوف وحيفا وبيسان، وقيمون وتبنين وبانياس واسكندرونه واللد وبيروت. وكان اهم بارونات هذه المقاطعات بارونات قيسارية وتبنين لدورهما الهام في تاريخ مملكة بيت المقدس.

كما كان نظام الحكم في بيت المقدس بالنسبة للأمرأء انتخابيا من حيث المبدأ وفقا للتراث السياسي الجرمانى في العصور الوسطى<sup>(2)</sup> بتأييد من الكنيسة<sup>(3)</sup>. اما بالنسبة للملك فقد كان إنتخابيا في الفترة الأولى من استيطانهم في فلسطين ثم اخذوا بمبدأ الوراثة 572هـ/1174م عند تولية بلدوين الرابع ملكا بعد أبيه<sup>(4)</sup>.

ونتج عن ذلك وراثة الاقطاع ولم يفرق الصليبيون من بين الذكور والاناث<sup>(5)</sup> فأدى هذا لنتائج خطيرة وهي انتقال العرش الى أسر جديدة عند عدم وجود ورثة ذكور وانتقال الاقطاعات من الوراثة لزوجها كما حدث زمن بلدوين الثاني 525هـ/1127م<sup>(6)</sup> ، فكان نظام الوراثة هذا من عوامل ضعف المملكة لكثرة الطامعين بالعرش من زوجاتهم رغم عدم توافر الصفات الجديرة بالعرش الملكي فنتج عن ذلك كثير من الصراعات التي ادت لتدخل المحكمة العليا للفصل بين المتنازعين<sup>(7)</sup>.

ويرى البعض بأن الملك لم تكن له السلطة الحقيقية الكاملة في هذا النظام الاقطاعي الشامل للاقطاعات البارونية على النمط الفرنسي، فكان سيداً إقطاعياً مسيطراً<sup>(8)</sup> وقد اختلف المؤرخون المحدثون حول هذا الموضوع فبينما يرى باركر سيطرة الارستقراطية في بيت المقدس وتفوقها

(1) Conder, Jenusalem, [162].

(2) جمعة الجندي، حياة الفرنج ونظمهم في الشام، رسالة دكتوراه عين شمس، 1985م، ص185 فما بعد.

(3) كانتور: التاريخ الوسيط ج1، ص180، 181.

(4) باركر: الحروب الصليبية ص66، ويرى باركر ان فكرة المساواة بين الملك والنبلاء، التي سادت في بيت المقدس آنذاك قد ادت الى هذا التغيير.

(5) ن.م، ص67.

(6) ن.م، ن.ص.

(7) Wiliam of Tyre, 11, p.38. عاشور المعركة الصليبية ج1، 535، باركر، ن.م، ص68.

(8) Brooke, Ahistory of Europe, 1911-1198 (2nd, london, 1947) p.317. وليم الابخر: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة

د.مصطفى زيادة القاهرة، 1959، ج2، ص700. باركر: ن.م.

على الملكية لانها سبقتها<sup>(1)</sup>. يرى براور أن النظام الإقطاعي الفرنجي في فلسطين لم يؤد إلى ضعف السلطة المركزية، لأن الملك كان القائد الأعلى للجيش<sup>(2)</sup> ونحن نميل إلى هذا الرأي ليستطيع مواجهة الاخطار الخارجية للاحتفاظ بالاراضي المحلية وكان ملوك بيت المقدس يمنحون الإقطاعات والضياح، والقرى لإتباعهم ليضمنوا لهم مصدر رزق ثابت وليمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية كما فضل ملوك بيت المقدس الاحتفاظ بالارض تحت إشرافهم الخاص في بداية الامر ليضمنوا السيطرة على النبلاء والفرسان بمنحهم الإقطاعات المالية والتي يجوز منحها مدى الحياة، ويصح توارثها<sup>(3)</sup>.

وهكذا نرى بأن الطبقة الأرستقراطية التي تكونت في مملكة بيت المقدس خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، كانت غير قادرة على الاستقرار في الإقطاعات الهامة لأن الملك كان يستطيع نقل ملكية الارض من عائلة الى أخرى<sup>(4)</sup> إذا غضب الملك عليهم.

أما الملك فكان يمارس السلطة القضائية في بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وله سلطة النظر في الدعاوي والفصل. إذ من حقه مصادرة أي إقطاع بلا دعوى قضائية وكذلك الجرائم الأخرى<sup>(5)</sup>.

كما خضعت طوائف الرهبان لسلطة الملك لضعفها كقوة إقطاعية عسكرية تابعة للملكية القوية التي توجت بمباركة البابوية منذ زمن بلدوين الأول. فكان عصيان أوامر الملك أو القبح في أعمال الملوك يعرض للاعدام<sup>(6)</sup>.

وهذا في رأينا يشبه نظرية الحق الملكي المقدس عند آل ساسان والتي سادت أوروبا في العصر الحديث قبيل الثورة الفرنسية.

(1) باركر: م.س، ص 67.

(2) براور: م.س، ص 128، ويؤيد هذا الرأي الباز العربي: نحو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي.

(3) Runciman, 11, p.298, Keer, The crusades pp.36-37.

(4) Mayer, The Crusades, p.155.

(5) ن.م، ن.ص.

(6) Runciman, 11,p.300. . William of Tyre, 11, p.394.

وكان الملك القائد الأعلى للجيش أيام الحروب والسلام.

كما تولى رئاسة المحكمة العليا Haute Cour<sup>(1)</sup> وينوب عنه أحد كبار الموظفين في حالة غيابه<sup>(2)</sup>.

وكانت هذه المحكمة بالإضافة لأقرارها العدل في المجتمع تمثل مجلساً استشارياً للحكم حيث يناقش فيها أمور السياسة الخارجية وإعلان الحرب والسلام وفرض الضرائب الاستثنائية وكان رأي الملك فيها حاسماً<sup>(3)</sup>.

كما امتد نفوذ الملك خارج حدود فلسطين إلى الرها وإنطاكية وطرابلس لاعتبارات كثيرة، ولو من الناحية النظرية وذلك لأن السيد المسيح رسمه ملكاً عليها ولأن القدس مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة مقصد الحجاج المسيحيين<sup>(4)</sup>.

فكان ملك بيت المقدس يتدخل لحل الخلافات بين أمراء الكيانات الصليبية الأخرى في الشرق<sup>(5)</sup>.

ثم بدأت سلطة الملك تضعف بنمو قوة طبقة الفرسان والنبلاء وبعد أن رست أقدام الأسرات<sup>(6)</sup> الأرستقراطية في اقطاعاتها<sup>(7)</sup> ما بين (1130-1160م).

وقد وردت واجبات الملك نحو مقطعيه في قوانين بيت المقدس منذ زمن جودفري.

حيث يلتزم الملك باحترام حقوق أتباعه فإذا لم يحافظ على ذلك كان لهم الحق شرعاً وقانوناً في رفض ما هو مطلوب منهم من الخدمة العسكرية وحتى القيام ضده بثورات مشروعه وهو الحق الذي عرف باسم (diffidati)<sup>(8)</sup>.

<sup>(1)</sup> Runciman, 11, p.300.

<sup>(2)</sup> Brooke, A history of Europe, p.317. وباركر: م.س، ص73، وقد شبهها باركر بمحكمة الاقران أي ان تولى الملك لرئاستها

لم يكن لاتساع حقوقه Judicium Parium وإنما للمحافظة على حقوق النبلاء كما هو حادث في إنجلترا.

<sup>(3)</sup> براور: م.س، ص131-132.

<sup>(4)</sup> Runciman, 1, p.299. وعاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص478. ونيقولا: زيادة: الرحالة، ص18.

<sup>(5)</sup> ابن القلانسي، م.س، ص163.

<sup>(6)</sup> Mayer, The Crusades, p.155.

<sup>(7)</sup> العربي: نمو طبقة النبلاء الاقطاعية، ص46.

<sup>(8)</sup> جمعة الجنيدي: م.س، ص185.

وبالنسبة للضرائب فكان فرض الضرائب الإستثنائية غير الإقطاعية من اختصاصات الملك كما حدث 564هـ/1166م في المحكمة العليا بنابلس عندما دعى الملك ((أموري)) الأول لفرض ضريبة العشور على كل المنقولات في المملكة فأقرتها المحكمة العليا<sup>(1)</sup> ، وفي سنة 581هـ/1183م، فرضت المحكمة العليا ضريبة غير إقطاعية على العقارات والمنقولات على جميع المواطنين دون التفرقة بين جيش ودين<sup>(2)</sup>.

وقد ضعفت مملكة بيت المقدس في أواخر سنة 582هـ/1186م وأوائل سنة 583هـ/1187م وتلاشت هيبتها عندما أخبر جاي صلاح الدين الأيوبي عن عجزه لإخضاع تابعة وإلزامهم باحترام الهدنة مع المسلمين<sup>(3)</sup> حتى أسقطت معركة حطين (4 يونيو 1187) هذه المملكة اللاتينية الأولى<sup>(4)</sup>.

وأما المحاكم الأخرى في بيت المقدس فكانت :

المحاكم البورجوازية Cour de Bourgeois :

وهي تخص الأحرار الصليبيين من غير النبلاء في عهد إماري الأول ((أموري)) في ظل مدينة المدن الصليبية الكبرى<sup>(5)</sup>.

وقامت بمهام تسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين الأحرار وقبول طلبات الاستئناف من المتضررين من السكان الأصليين<sup>(6)</sup>.

وكانت هناك محاكم إيطالية في الأحياء الإيطالية يرأس كل منها القنصل<sup>(7)</sup>.

وبلغ عدد المحاكم في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ثلاثاً وثلاثين محكمة من المحاكم البورجوازية<sup>(8)</sup> حيث كانت تعقد أيام الاثنين والأربعاء والجمعة فيما عدا الأعياد<sup>(9)</sup>.

(1) William of Tyre, 11, p.314.

(2) Praver: Latinkindom, p.120.

(3) William of Tyre, 11, p.499. . Grousset, Histoire des Croisades, 1, p.778.

واين الأثير: م.س، ج9، ص174.

(4) أبو شامة: م.س، ج2، ص76-83، ابن الأثير ج8، ص177-179. وابن شداد: م.س، ص81-82، أبو المحاسن: م.س، ج6، ص31-34.

(5) Runcima, 11, p.310, Brooke, A history of Europe., p.317.

(6) براور: م.س، ص136. Mayer, the crusades p.171.

(7) باركر: م.س، ص79.

(8) Mayer: The crusades, p.171.

(9) Runcimen, 11, p.302.



هذا وقد راعى الفرنج ديانات الأهالي الأصليين فيما يتعلق بحلف اليمين في محاكم المدن فكان المسلمون يقسمون على القرآن الكريم واليهود على التوراة والأرمن والسريان واليونان على الصليب<sup>(1)</sup>.

وكان يسمح للمسلم أن يُرَى نفسه بحلف اليمين إذا لم تكن أدلّة كافية ضده حتى لو كان هذا الطرف من الفرنجة.

وبالنسبة للأجناس المختلفة أو الأديان المختلفة فلا يُدان المتهم إلا إذا شهد شهود اثبات من نفس جنس المتهم<sup>(2)</sup>. وقد شهد المسلمون بعدالة القضاء الفرنجي<sup>(3)</sup> كما رضي المسلمون بعدالة الفرنج<sup>(4)</sup>.

ومن المحاكم الأخرى محاكم السلسلة التي أخذ اسمها من السلسلة التي تغلق باب المواني في العصور الوسطى Cour de la Chaine وكان يتولى رئاستها القناصل أو وكلاؤهم للفصل في القضايا المتعلقة بشؤون البحرية<sup>(5)</sup> كرسوم الجمر ك ورسوم السفن حيث تبلغ نتيجة الحكم إلى محكمة المدينة للتنفيذ<sup>(6)</sup>.

### الجهاز الإداري في مملكة بيت المقدس.

كان الملك يختار مجموعة من كبار الموظفين في بلاطه وأعلامهم رتبة هو القهرمان "SENESCHAL"<sup>(7)</sup> المعروف باسم الصنجيل عربيا، وكان يشرف على المواكب والإحتفالات ويحمل الصولجان يوم تتويج الملك ويتقدمه في المواكب، وهو من أعضاء المحكمة العليا ويتولى رئاستها عند غياب الملك<sup>(8)</sup>. وكان له السيادة على كافة حجاب المحاكم في مملكة

(1) ن.م، ن.ص.

(2) ن.م، ن.ص.

(3) اسامة بن منقذ: م.س، ص 64-65 اورد قضايا من ذلك.

(4) ابن جبير: الرحلة ص211.

(5) Runcimayn, cit, p.302.

(6) براور: م.س، ص137.

(7) Keer, The Cusady p.173.

(8) Prawar, Latin Kingdom. p38.

بيت المقدس ويشرف على املاك واموال الملك الخاصة. والحصون والقلاع ويعين ويترد موظفيها<sup>(1)</sup>.

كما ينوب عن الملك في الاشراف على شؤون الجيش في حالة غيابه<sup>(2)</sup> كما يشرف على ديوان الجند وصرف مرتباتهم.

ويليه المقدم العسكري الأول الكونستابل "Constable" الكنداسطيل<sup>(3)</sup> وفاقت سلطاته سلطات القهرمان لحالة الحرب المستمرة بين المسلمين والصليبيين لانه كان قائداً للجيش تحت رئاسة الملك العليا ويشرف على تنظيماته وامداداته<sup>(4)</sup>.

ويليه قيم المراسم المارشال "Marshal" من كبار القادة العسكريين ويدين للكونستابل بالطاعة ووظيفته الاشراف على شؤون الجند المأجورين.

ويليه الياور "Chamber Lain" وكان اقرب الموظفين للملك المشرف على شؤون الملك الخاصة وهو ما يشبه اليوم وزير البلاط الملكي ويقطعه الملك خمس قرى قرب عكا<sup>(5)</sup>.

ويليه الساقى الملكي "Buticularius" مسؤول احتفالات<sup>(6)</sup>.

فان هناك نائب ((فيكونت)) له واجبات ادارية وقضائية وتشبه وظيفته وظيفة النواب في انجلترا في عهد النورمان<sup>(7)</sup>. أي ممثل الماك في إقطاعاته، كما يمثل السيد الاقطاعي في مدن بارونية ويتولى جباية الضرائب المحلية، وكان مسؤولاً عن المحاكم البورجوازية وعن استتاب الامن ووظيفته غير وراثية.

ثم كبير كتاب الانشاء Chancellor يختار من بين رجال الدين وهي وظيفة كنيسية<sup>(8)</sup>.

(1) ابن واصل م.س: ج 2، ص 76.

(2) AR cher, The Curusales , p.124.

(3) ابن القلانسي: م.س، ص 197.

(4) Keer, p.178.

(5) Runciman, 11, p.303-304, Keer, p.38, Prawer, p.1124.

(6) William of Tyre: 11,p.344, Mayer, The crusade, p.161.

(7) Keer, p.38.

(8) Runciman, 11, p.304.

وهكذا تعددت الوظائف في محكمة بيت المقدس لتعكس النظام الاوروبي منذ عهد شارلمان  
مستمراً لمدة قرنين في فلسطين.

فكانت مملكة محافظة لم يحدث صراع وظيفي فيها لان الملك يعين فيها من اراد من كبار  
النبلاء الذين تربوا تربية سياسية خاصة.

هذا ونلخص اجهزة الحكم في بيت المقدس زمن الصليبيين كما يلي :

1- المؤسسة الملكية: وعلى رأسها الملك وهو القائد العام للجيش.

2- المؤسسات القضائية وتتكون من:

أ- المحكمة العليا: برئاسة الملك وأعضاؤها من كبار الإقطاعيين.

ب- المحاكم الصغرى في المدن: برئاسة نائب الملك ويساعده اثنا عشر محلفاً من أتباعه  
اللاتين.

ج- المحاكم الطائفية أو المحلية: للنظر في قضايا الناس حسب تقاليدهم الدينية، وهي مؤلفة  
من خمسة أعضاء على شرط ان يكون اثنان منهم من اللاتين، والبقية من سكان الطائفة  
الدينية.

د- المحاكم التجارية: وهي خاصة بتجار المدن الايطالية للفصل في خصوماتهم حسب  
قوانين بلادهم.

3- المؤسسة الادارية.

4- الجيش الصليبي في بيت المقدس فكان يعتمد في تكوينه على :

أ- التعهدات الاقطاعية: حيث كان امراء المدن يجهزون عدداً من الفرسان.

ب- الحرس الملكي الخاص: وهو يعتمد على الاقطاعات الملكية مقابل رواتب نقدية او  
نوعية.

ج- فرق الفرسان الدينية وهي:

1) فرسان المعبد "Knights of The Temple" وهي فرق فردية ديرية اسسها فرنسي

(هيويايان) مع سبعة من زملائه في القدس، حيث خصصت رواقاً في المسجد الاقصى

في ساحة معبد سليمان بن داود، وتحولت لمؤسسة عسكرية.

(2) فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) وهم اصحاب المستشفيات العسكرية ويسمىهم المسلمون بالداوية لعلمهم بالتطبيب، ثم تحولت هذه المؤسسة الدينية الخيرية لمؤسسة عسكرية.

(3) فرسان التيوتون: وهي فرقة المانية اسسها بجارة السفن الالمانية اثناء الحملة الصليبية الثالثة عام 585هـ/1189م اثناء حصارهم لعكا، فقد تبرعوا بسفنهم كمستشفيات عسكرية ثم كونوا فرقة عسكرية.

د- اساطيل المدن الايطالية التي ساهمت في احتلال السواحل مقابل امتيازات اقتصادية في فلسطين كالبنادقة والجنويين والبيزنين.

هـ- الوافدون المسلحون: فكانوا مصدراً عسكرياً مؤقتاً<sup>(1)</sup>.

5- ديوان بيت المال "Secnete" وتخزن فيه كل مستحقات الملك الاقطاعية، ويصرف منه من المرتبات ضمن سجلات رسمية<sup>(2)</sup>.

(1) د. عبد القادر يوسف: علاقات بين الشرق والغرب ص 89.

(2) رينسيما ن: م.س، ج 2، 486. ولمعرفة المزيد انظر: واسامة بن منقذ، الاعتبار و Runciman, vol 11.

Wiliam of Tyre vol 11. وبراور: م.س، و Keer, the crusades.

## خامساً : السياسة الداخلية الأيوبية

أولاً: علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية: 567هـ - 589هـ / 1171 - 1193م

لقد أبدى الولاء والإخلاص والطاعة للخليفة العباسي، ففي عام 567هـ/1171م بدأت علاقته بالخلافة العباسية عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي في مصر وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي بأمر نور الدين زنكي والدعوة للخليفة العباسي المستضيء بالله العباسي السني، وأسقط الدولة الفاطمية الشيعية. فكتب صلاح الدين المستضيء بالله<sup>(1)</sup>.

وفرّح الخليفة العباسي بذلك، وسير الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين، مع عدد من الأعلام السود -شعار العباسيين- لرفعها فوق الدواوين والمساجد<sup>(2)</sup> وبعد وفاة نور الدين محمود طلب صلاح الدين من الخليفة تقليده ما كان للولاية الفورية في مصر والمغرب والشام واليمن<sup>(3)</sup>. فعينه المستضيء بالله سلطاناً على مصر والشام بعد أن وثق بقوته كحارس أمين لها. فكان صلاح الدين يطلع الخلافة العباسية على جميع إنجازاته وتحركاته وذلك لكسب تأييدها ضد الأمراء النوريين المناوئين له<sup>(4)</sup>.

كما أوعز إلى مستشاريه وقضاته وكتابه أمثال عماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين شداد والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الفلسطيني ليرسلوا رسائل وكتباً إلى الخلفاء العباسيين والأمراء وأصحاب الشأن وشيوخ القبائل العربية كتعبئة فكرية للشعب العربي المسلم لمواجهة الغزو الصليبي.

<sup>(1)</sup> ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص343-344. كتب في رسالته للمستضيء بالله أن الجمعة أصبحت جامعة، والمذلة في شيع الظلال شائعة وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسما أعداء الله أصفاء. أي أن الخلافة العباسية أصبحت ظاهرة.

<sup>(2)</sup> ابن الأثير، م س، ج1، ص369-371، أبو شامة: م س ج1، ص991. وابن واصل: م س ج1، ص218.

<sup>(3)</sup> القلقشندي: صبح الأعشى، ج13، ص82-90. وقد صور الشاعر ابن الدهان العلاقة بين الخلافة وصلاح الدين سنة 570هـ/1171م بقوله:

وأتاك منشور الخلافة شاكرًا	لك إن أعدت الحق حياً منشرا
لما أعدت الحق في أربابه	ورددت للمستوجب مئرا
خلع أتاك وللعلي في طيها	نشر وطى عداك في أن تنشرا
ديوان ابن الدهان ج1، ص45-53.	

<sup>(4)</sup> أبو شامة: م س، ج1، ص254، القزاز: الحياة السياسية في العراق، ص256-257.

## ثانياً: علاقة الخلافة العباسية بالسلطنة الأيوبية:

لقد فوض الخلفاء العباسيون لسلطين بني أيوب جميع سلطاتهم الشرعية بما فيها الدينية والإدارية والحربية، وترك لهم حق اختيار الأكفاء من رعاياهم للوظائف الكبيرة<sup>(1)</sup>. وفي كل البلدان التي ضمها الأيوبيون إلى ممتلكاتهم فبالنسبة لسلطات الخليفة الشرعية التي فوضها الخليفة العباسي الناصر لدين الله لصالح الدين الأيوبي فكانت السلطات السياسية العامة التي يمنحها الخليفة للسلطين، والتي يمنحها السلطين بدورهم لكبار الأمراء والموظفين كقيادة الجيوش، وإقامة الصلاة ونظر المظالم والحسبة ونظرة الأوقاف والجبايات الشرعية وصرفها في الأوجه الشرعية وخاصة ولاية القضاء التي تقوم على العدل والمساواة بين الناس في أحكامها<sup>(2)</sup>.

ومن السلطات الدينية التي فوضها الخلفاء العباسيون للسلطين الأيوبيين إمامة السلطان في صلاة الجمع والأعياد، والإشراف على تعمير المساجد وحماية وتأمين قوافل الحج<sup>(3)</sup>. ومن السلطات الحربية التي حولها لهم أيضاً ضرورة جهاد الفرنجة كفريضة اسلامية<sup>(4)</sup>. وتتبع فلول الشيعة وهي من المهام الموكلة إلى المحتسب<sup>(5)</sup>.

(1) القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة، أورد وثيقتين لتقليد الخليفة العباسي الناصر لدين الله لصالح الدين الأيوبي ج3: ص86-98 وتقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله العباسي للملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر ج3: ص99-121. وترجع أهمية هاتين الوثيقتين لزمن صدرهما في قيام الدولة الأيوبية وفي عصر استقرارها واتساعها زمن الكامل. وكانت هذه التقاليد تعدد فضائل ومناقب البيت العباسي ويلاحظ عليها الأخذ بمبدأ "عظمة الأئمة" وأنه حاز "مواريت النبوة والإمامة أي أن الله اختاره بعصمته القوية كما اختاره إماماً للمسلمين: وهذا يشابه مع جنوح السياسة الفاطمية الشرعية بالنسبة للخلافة والتي تأخذ بمبدأ "التنصيب" و"عصمة الأئمة": أي مبدأ "الحكم الإلهي" والمفاهيم "الثيوقراطية للدولة، كما أشارت هذه الفكرة إلى طاعة الخليفة الواجبة على الناس، كما اتصفت هذه التقاليد الخليفة بالصفات الدينية كصيغة "صلوات الله عليه وسلامه" وهي أيضاً صيغ شيعية. القلقشندي: ن م، ج3، ص100-101، 102، 103، 104 وانظر عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ج1، ص51-77. كما نلاحظ هذا في التفويض الخلفي من حيث ارتكاز المفاهيم السياسية على أساس أخلاقي من السنة النبوية. كما تشير إلى وجوب طاعة الخليفة العباسي والولاء للخلافة العباسية. القلقشندي: ن م، ج3 ص87-89 تقليد صلاح الدين، وتقليد الملك الكامل، ص107-110.

(2) القلقشندي: م س، ج1، ص74-80 ولو حظ من هذه التقاليد بتوضيح الخليفة لكل سلطة مخولة للسلطان الأيوبي، والشرح لكيفية اختيار الموظفين لها.

(3) انظر القلقشندي: ن م، ج3، ص114-115، ورد ذلك في تقليد الملك الكامل.

(4) ن م، ج3 ص94، ورد ذلك في تقليد صلاح الدين.

(5) ن م، ج3، ص93-94 وص111-115 "في تقليد الملك الكامل".

أما الألقاب التي منحها الخلفاء لسلطين بني أيوب فكانت متشابهة لحد ما حسب مهمات السلطان الموكلة اليه<sup>(1)</sup>، كما كان يُذيلها بالأسباب التي جعلته يستحق هذا اللقب<sup>(2)</sup> ويلاحظ أن هذه الألقاب منحتهم السلطة الشرعية في العالم الاسلامي أمام بقية ملوك الأطراف التابعين. كما استخدم الأيوبيون التصوف كوسيلة أساسية بجانب المدارس السننية لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر، كما عملوا على إحياء الخلافة العباسية بالعراق بعد أن ترددت نداءات استصلاح الدين والخلافة العباسية في أرجاء العالم الاسلامي داعية لوحدة المسلمين للجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين.

كما استمر شعار الوحدة الاسلامية حول الخلافة العباسية مرفوعاً طوال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بحيث كانت فكرة قيام خلافة أخرى أمراً مستهجناً من مؤرخي المشرق الاسلامي، حيث أوكلت القيادة السياسية في بغداد قيادة حركة الجهاد الاسلامي إلى الأيوبيين منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، فنهضوا بها بكل جدارة بعد أن ورثوا ممتلكات الفاطميين بجنوب الشام والحجاز واليمن وبرقة وممتلكات الزنكيين في الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام، كما امتد نفوذهم إلى أرمينية "خلاط وميافا رفين" فجاوروا شمالاً دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى والدولة الخوارزمية بإيران. ونلاحظ أن جميع غزوات صلاح الدين وفتوحاته للساحل الشامي قد تمت باسم الخلافة العباسية، فكان يستشير الخليفة العباسي، ثم يرسل اليه مكاتبات رسمية فيها خبر البشارة بالنصر وتفاصيلها<sup>(3)</sup>.

(1) القلقشندي: (م س) ج3، ص87، 88، ص1-2، ص12-14.

فكان لقب صلاح الدين الملك الأجل، السيد صلاح الدين عز الاسلام، عماد الدولة، جمال الأمة، فخر الملة، صفى الخلافة، تاج الملوك والسلطين، قاهر الخوارج والمتمردين، ألب غازي بك يوسف بن أيوب" أما الملك الكامل فكان لقبه "الملك الأجل، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط، عز الدين، ركن الاسلام، أثير الأنام، تاج الملوك والسلطين، قانع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، ألب غازي بك: محمد بن أبي بكر بن أيوب.

(2) ن م ج3، ص106، ص4-6، وقد ذكر الخليفة: بأنه تم منح هذه الألقاب رعاية لسوابق خدمته وخدمة أجداده وآبائه، ان لقب "ألب غازي بك يشير الى مجدهم في محاربة الفرنجة".

(3) القلقشندي: م س، ج8، ص281-289، ج6، ص517-520، 496، 504، 506. والعماد: الفتح القسي، ص183-189، 279-284، 365-368.

وتلقب آخر سلاطين الأيوبيين الملك الصالح نجم الدين أيوب "بشهریار الشام" سلطان العرب والعجم صاحب الحرمين الشريفين ملك البرين والبحرين، ملك الهند والسند واليمن" ليُظهر بلوغ الدولة أقصى اتساعها في أيامه.

ونرى أن الألقاب الرسمية والفخرية لسلاطين الأيوبيين، أوضحت النفوذ السياسي والديني لصالح الدين، وأهمية السلطنة الأيوبيّة بالنسبة للعالم الاسلامي والخلافة العباسية، وأن الخلافة العباسية بذلت جهوداً دبلوماسية كبيرة لجمع ملوك الأطراف للتصدي للصليبيين والمغول. وفي سبيل استكمال الوحدة السياسية والمذهبية لبلاد المشرق الاسلامي حول الخلافة العباسية منذ عصر الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي عاصر صلاح الدين الأيوبي، وبلغت الخلافة في عهده أقوى مراحل يقظتها حيث جمع الأمراء والسلاطين حول الخلافة في تنظيم اجتماعي عسكري عرف بنظام الفتوة<sup>(1)</sup> منذ عام 578هـ/1182م حيث لبس الخليفة وحاشيته سراويل الفتوة<sup>(2)</sup> وأغلب الظن أن الخليفة الناصر لدين الله قد أراد جمع شمل رعية كل ملك في تنظيم شعبي عسكري قوي ضد الصليبيين بحيث تم تجميع القوى المعنوية الاسلامية والقيم الأخلاقية والمهارات الحربية للفتوة في سبيل الإعداد المعنوي والحربي للأمة تحت راية الخليفة العباسي الزعيم الروحي للاسلام.

ويلاحظ أن سلاطين بني أيوب كانوا أول من قصدهم الخليفة الناصر ليضمهم الى الفتوة، ففي عام 599هـ/1202م بعث الخلع وسراويل الفتوة الى الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده مع عبد الجبار والعقاب، نقيبي تنظيم الفتوة بالعراق، فلبس العادل الخلع والسراويل<sup>(3)</sup>. واعترف به سلطاناً على جميع البيت الأيوبي<sup>(4)</sup>.

وهكذا حققت الفتوة النفوذ السياسي للخليفة العباسي لدى ملوك وسلاطين المسلمين، ونجحت في محاربة بقايا التشيع الاسماعيلي، وضم شيعها للدعوة السنية، فأوجدت مفاهيماً ومثلاً عالياً للفتوة والفروسية الاسلامية، مما أحدث ردود فعل في الغرب الأوروبي، جسدتها في خيال

(1) عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب، د.ت، ص 246-247.

(2) ابن العماد الحنبلي: كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، بغداد، 1956م، ص 152-168.

(3) سبط الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص 513.

(4) ابن أبيك : الدرر، ص 165.



الأوروبيين سيرة البطل العربي الشهير اسامه بن منقذ<sup>(1)</sup> وسيرة البطل الكردي الاسلامي صلاح الدين الذي أصبح اسمه "Salahdin" رمزاً للعظمة والمجد والفخار فنقلت أوروبا نظام الفروسية عن العرب الذي ظهر في نظام فرسان المعبد<sup>(2)</sup>.

ويمكننا تشبيه نظام الفتوة العباسي وخاصة للشباب والفتيان والأحداث بأقرب ما يكون الى تنظيمات المقاومة الشعبية في العصر الحاضر أو هيئات الكشافة، ولا ريب، أن إطلاق تسمية الفتوة على التدريبات العسكرية والرياضية التي يتلقاها طلبة المدارس الثانوية والجامعات اليوم هي تسمية قديمة جداً ولها دلالتها المستمدة من أحداث التاريخ الاسلامي. وقد نقل المماليك عن الأيوبيين نظام الفتوة، بحيث صار السلطان المملوكي، هو الرئيس الأعلى لطائفة الفتوة في عصره<sup>(3)</sup>.

### السياسة الداخلية للأيوبيين :

لقد عمل الأيوبيون كمن سبقهم من الزنكيين والسلاجقة في تأمين طريق الحج ورفع الضرائب عن الحجاج وتخصيص الأوقاف للصرف عليهم وإرسال كسوة الكعبة المشرفة من مصر بعد كتابة اسم الخليفة العباسي عليها بطرز النسيج وتعيين الموظفين لخدمة الكعبة وحمايتهم لركب الحجاج الوافدين، إذ أن لواء الحج كان من أكبر الوظائف الاسلامية التي ينبغي فيها الخليفة وملوك الأطراف "السلطين" كبار أمرائهم لذا كان يخطب في الحرمين الشريفين بذكر الخليفة العباسي والسلطان الأيوبي بعده ولم تخضع جنوب بلاد الشام للأيوبيين إلا في أواخر أيام صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين واستيلائه على الكرك وبيت المقدس وكانت بلاد الشام في عصر صلاح الدين إمارة خاضعة للإمارات الصليبية اللاتينية أو خاضعة لإمارات أيوبية ذات استقلال ذاتي. وقد وردت نسخة لتوقيع السلطان صلاح الدين لأخيه العادل

(1) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار أو سيرة أسامة، وقد نشره Derenbourg بباريس 1899م، واعد نشره فيليب حتى عام 1930م.

(2) عمر الدسوقي : م س، ص 267-276.

(3) المقريري : السلوك، ج 1، ص 725.

أبي بكر باقطاع الديار المصرية، وبلاد الشام وغيرها ((بلاد الجزيرة وديار بكر  
580هـ/1184)) بعد هدنته مع نصارى عكا<sup>(1)</sup>

ولما كانت النظم المملوكية امتداداً للنظم الأيوبية فقد قلدهم في أنظمتهم حتى أنهم أوعزوا  
لفقهاء عصرهم بتأليف كتب تحمل أسماء سلاطينهم وألقابهم وتوضع في خزائنهم ليرجعوا إليها  
وقت الحاجة، ليتخذوها منهجاً في سياسة الدولة والرعية على أساس شرعي، بحيث شمل ذلك  
جميع سلاطين الأيوبيين والمماليك البحرية<sup>(2)</sup>.

وكانت بلاد الشام بعد خضوع أغلبها لصالح الدين عام 583هـ/1187م من الناحية  
الإدارية والمالية تابعة للدواوين المصرية في الإدارة المركزية للسلطنة الأيوبية في مصر<sup>(3)</sup>، أو  
على الأقل كانت الدواوين بالشام فروعاً للدواوين المصرية المركزية، خاصة وأن صلاح الدين  
بعد خروجه من مصر عام 573هـ/1177م قاصداً جهاد الصليبيين لم يرجع لمصر ثانية حتى  
توفي بدمشق سنة 589هـ/1193م.

### ثالثاً: السياسة الداخلية في عهد صلاح الدين الأيوبي داخل بيت المقدس :

لقد تمثلت سياسته الداخلية بإزالة آثار العدوان الصليبي في بيت المقدس ككشف الجدار  
الساخر لمحراب المسجد الأقصى الذي بناه الصليبيون في وجه المحراب وأعاد نصب المنبر في  
المسجد الأقصى لإقامة خطبة الجمعة، وفرش صحن الجامع بالبسط الثمينة، وأضاء المسجد  
الأقصى بالقناديل الجميلة<sup>(4)</sup>.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص144-148.

(2) أهم المؤلفات في السياسة الشرعية التي وصلتنا بهذا الخصوص من عصر المماليك البحرية، 648-784هـ مثل: آثار الأول في ترتيب  
الدول: لمحمد بن عبد الله العباسي بدأه سنة 708هـ، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج1 ص284-287.

(3) المنذري، زكي الدين: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار معروف، مطبعة الآداب في التحف الأرشف، 1388هـ/1968م، ج1،  
ص189.

(4) أبو شامة: م س، ج2، ص108-109، 112، وابن واصل: م س، ج2، ص217. أحضر المنبر من حلب وكان قد صنعه نور الدين  
محمود وهو الذي أحرقة اليهود في أغسطس 1969م. الدباغ: بلادنا فلسطين، ص197. وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ج12،  
ص326، وابن الأثير م س: ج11، ص546 وكان الافرنج قد بنوا على الصخرة كنيسة ومذبحة وجعلوا فيها الصور والتمائيل فامر  
بكتفها: الجنيلي، محي الدين: الأنس الجليل، ص218-219. غي لي استرنج strange: فلسطين في العهد الاسلامي ص115  
الترجمة العربية، ن م، عمان 1970.

هذا وقد افتتح المدارس في القدس لتدريس الفقه على المذهب الشافعي وحول دار البطريرك هرقل رباطاً لفقراء الصوفية بعد مغادرته<sup>(1)</sup>. وكان اول خطيب يخطب خطبة الجمعة، بحضور صلاح الدين الأيوبي الإمام القاضي محيي الدين بن الزكي بأمر من صلاح الدين<sup>(2)</sup>. فكان لهذه الخطبة أهمية كبيرة لتعبيرها عن وجدان المسلمين بعد أن نصرهم الله بعودة بيت المقدس.

#### وبالنسبة لإجازات صلاح الدين العمرانية في بيت المقدس:

فقد أنشأ المدارس والمعاهد والمستشفيات والملاجيء والأربطة ورمم أسوار البلدة وحصونها.

وأما الوظائف الإدارية في القدس: فقد عين صلاح الدين الأمير التركي سباروخ والياً على بيت المقدس، كما عين موسى بن غانم الأنصاري على الأوقاف وأبا عبدالله محمد بن أبي بكر بن خضر القرشي وكالة بيت المال كما ولّى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصللي المولد والمنشأ الحلبي الشافعي، المعروف بابن شداد قضاء بيت المقدس والعساكر والتدريس في المدرسة الصلاحية<sup>(3)</sup>.

ومن مشاريعه العمرانية تحويل كنيسة جند حنه إلى مدرسة شافعية عند باب الأسباط<sup>(4)</sup>. وتحويل دار البطريرك قرب كنيسة القيامة إلى رباط (خا نقاه) وقد أوقفها للصوفية وأوقف أوقافاً للنفقة عليها وعين برهان الدين بن غانم شيخاً للمدرسة الصلاحية<sup>(5)</sup> والتي كان عميدها "شيخها" يعين من قبل السلطان لأهميتها.

(1) أبو شامة: م س، ج2، ص114.

(2) أبو شامة: ن م، ج2، ص110-111، وابن واصل، م س ج2، ص218-228. وابن خلكان، م س ج6، ص180-182.

والخيلي، م س، ج1، ص332-336.

(3) ن م، ص327-387، وابن شداد، م س، 539-632هـ/1145-1234م) وقد نسب لإخواله بني شداد لموت أبيه وهو صغير ونشأته عندهم، وهو مؤرخ وقاضي كبير، اصطحبه صلاح الدين في بعض غزواته فدون كثيراً من أخباره منها "النوادر السلطانية والحاسن

اليوسفية في سيرة صلاح الدين وتوفي في حلب.

(4) بنيت هذه الكنيسة في أواخر القرن الخامس الميلادي فوق بيت والدة مريم العذراء "حنه" في أواخر القرن الخامس الميلادي، الدباغ: م

س، ص205.

(5) أصبحت فيما بعد الحرب العالمية الأولى كلية علمية دينية زمن جمال باشا العثماني (الدباغ م س ص206).

## ب- الإدارة في شرقي الأردن زمن الأيوبيين:

### مقدمة:

بعد إقامة السلاجقة إمارات مستقلة في بلاد الشام كدمشق وبيت المقدس وغيرها، أصبحت عمان والبلقاء والشرارة تابعة لإمارة دمشق السلجوقية.

واستمرت عمان في زهوها أيام الزنكية حيث مرت منها جيوش نور الدين محمد زنكي بقيادة اسد الدين شيركوه والتي كانت متوجهة الى مصر للقضاء على صراع الوزراء الفاطميين في فترة الصراع الصليبي مما يشير الى بقائها خارج السيطرة الصليبية بعكس الكرك والشوبك التي احتلها الصليبيون<sup>(1)</sup>.

وبعد أن أصبح صلاح الدين نائب نور الدين زنكي في مصر كوّن جبهة قوية ضمت دمشق والقاهرة لتحرير بيت المقدس فيما بعد. ولكن هذه الجبهة العسكرية كان يعوزها الاتصال وطرق الحج والتجارة التي سيطر عليها الصليبيون في الكرك فجهز نور الدين محمود حملة عسكرية عام 565هـ/1170م لغزو الكرك ماراً بعمان والبلقاء فحاصر الكرك وعاد لعدم تمكنه من فتحها<sup>(2)</sup>.

واستمرت محاولة انتزاع الكرك من الصليبيين بعد وفاته بقيادة صلاح الدين الأيوبي عام 579هـ/1183م الذي مر في الزرقاء وعمان وحسبان، ولكنه لم يستطع فتحها ايضاً لمناعة أسوارها وقلاعها<sup>(3)</sup>. ثم تمكن من فتحها بعد معركة حطين 583هـ/1187م.

وهكذا دخلت شرقي الأردن كلها في نطاق المملكة الأيوبية وإذا قدر لعمان والزرقاء والبلقاء النجاة من الاحتلال الصليبي الغاشم إلا أن المغول كانوا لها بالمرصاد بعد احتلالهم دمشق عام 658هـ/1260م، إذ تقدموا جنوباً نحو شرقي الأردن وعاثوا فيها خراباً ودمروا

(1) ابن القلانسي: م س، ص 158.

(2) ابو شامة: م س، ج 1، ق 2، ص 464، حيث رافق هذا المؤرخ هذه الحملة ووصفها لنا.

(3) ابن الأثير: م س، ج 11، ص 502.

قلاعها في عجلون وقتلوا أعداداً كبيرة في عمّان والصلت وعجلون ووصلوا إلى زيزاء قرب عمان<sup>(1)</sup>.

وجاء الفرج لشرقي الأردن بعد عين جالوت 658هـ/1260 حيث اهتم بها المماليك اهتماماً كبيراً لموقعها الاستراتيجي بين دمشق والقاهرة مركز السلطنة. وهكذا نرى بأن الدور السياسي والحضاري لجنوبي الأردن بدأ في العصر الأيوبي وازدهر في عصر المماليك البحرية، فقد كانت الكرك مركزاً لنيابة السلطنة عام (661هـ/1263م) وولّوا عليها أميراً برتبة كبيرة. كما أن الناصر محمد وُلّي على الكرك ابنه الناصر أحمد، وجعلها مركزاً لتربية أبنائه وتعليمهم الفروسية<sup>(2)</sup>.

وبالنسبة لمدينة عمّان فقد ذكر ابن شداد "أن عمّان مدينة البلقاء، سميت بعمّان بن لوط كما يذكر ابن كور جند الشام تسعة منها كورة الظاهرة ومدينتها عمان<sup>(3)</sup>.

ففي زمن السلاجقة كانت عمّان والبلقاء والشرّاء تابعة لإمارة دمشق السلجوقية<sup>(4)</sup>. وفي عهد الأيوبيين أقطع صلاح الدين الصلت والبلقاء لأخيه العادل سنة 588هـ/1192م بعد أن أصبحت شرقي الأردن تابعة للحكم الأيوبي بعد معركة حطين 583هـ/1187م واشترط صلاح الدين على أخيه العادل تقديم ستة آلاف غرارة غلة من لبلقاء والصلت تُرسَل إلى بيت المقدس<sup>(5)</sup>.

وبالنسبة للصلت فقد أقطعها صلاح الدين لأخيه العادل إضافة للشوبك والكرك<sup>(6)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك، ج1، ص424.

(2) د. يوسف حسن غوانم، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص27.

(3) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص41، 83 (المتوفى عام 684هـ/1280م) "يذكر كورة دمشق واقليمها: كورة حوران، كورة الجولان،

وظاهر البلقاء، جبل الغور، وكورة مؤاب وكورة جبال الشرّاء، وكورة عمّان والجاثية وابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص77.

(4) ابن القلانسي: م س، ص158. Jacob, History of Palestine, P.183 Ann: Jordan, P.39.

(5) المقرئزي: السلوك، ج3، ص30. ذكر صرغتمش نائب السلطان حسن بن محمد بن قلاوون (755-762هـ/1357-1364م) نقل

إليها الولاية والقضاء من حسيان.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص244.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حدث صراع بين أبنائه وإخوانه على الحكم فاز به عمهم العادل حيث استولى على معظم ممتلكات صلاح الدين، وبعد وفاة العزيز بن صلاح الدين حاكم مصر عام 594هـ/1198م عين أولاده عملاً على الولايات، فكان الكامل على مصر، والمعظم عيسى على دمشق وجنوب سوريا (عجلون والبلقاء والصلت) بعد خلعه عز الدين أسامة عن حكمها عام 609هـ/1211م وسجنه في الكرك وعين بدلاً منه أيبك ابن عبدالله، أحد مماليكه، الذي أثبت حسن الإدارة والمقدرة في عمران البلاد وتصليح قلعة الربرض وتوسيعها عام 611-216هـ/1214-1215م، ونشر الأمن والاستقرار بعد أن قضى على ثورة أهل الصلت وبناء قلعتها الجبلية لتسرف على جميع أنحاء البلدة، واتخذها عاصمة للبلقاء عوضاً عن عاصمتها القديمة حسان، كما بنى قلعة الأزرق لتأمين طريق الحج بعد أن أكثر أيضاً من بناء المخافر والقلاع لحماية قوافل الحج وبقي حاكماً للبلقاء وعجلون والصلت حتى عام 637هـ/1239م حيث عزل ونفي لإتهامه بتشجيعه لأحد أولاد سيده ضد والده العادل الذي توفي عام 614هـ/1218م والذي خلفه ولده المعظم على سوريا والكامل على مصر وبعد وفاة المعظم 624هـ/1227م خلفه ابنه الناصر داود على سوريا وكانت شرقي الأردن ضمن مملكته<sup>(1)</sup>.

واستمر الصراع بين الكامل وابن أخيه الناصر داود على السلطة حتى سيطر الكامل على دمشق ولم يبق للناصر إلا غور الأردن والبلقاء وقسم من الكرك كما استمر الصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية في مصر والشام حيث انتزع الصالح أيوب سلطان مصر عام 645هـ/1247م مملكة الناصر داود ما عدا قلعة الكرك التي سقطت عام 647هـ/1249م.

وبعد وفاة سلطان مصر الصالح أيوب خلفه ابنه توران شاه، الذي كان غائباً في ديار بكر. ولكن شجرة الدر إحدى جواري السلطان وزوجته أخفت موت السلطان خوفاً من تنازع الأمراء على العرش، وحكمت بمؤازرة ثلاثة من الأمراء المخلصين حتى عودة توران شاه ولكن توران شاه قتل بعد سنة من تسلمه العرش فانتخب أمراء المماليك شجرة الدر ملكة عليهم ولقبوها "عصمة الدين" فانقسمت الدولة الأيوبية الى قسمين: دمشق مع عجلون والبلقاء واستأثر

(1) انظر: فردريك بيك، م س: ص 147-148، 149.

بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب وبقي جنوب شرقي الأردن قسماً من المملكة المصرية<sup>(1)</sup>.

ثم تزوجت شجرة الدر أحد المماليك عز الدين أيبك التركماني والذي كان قائداً للجيش المصرية ترضية للرأي العام. فأطلق سراح المغيث عمر أحد أحفاد الكامل الذي سجنه الصالح أيوب في قلعة الشوبك<sup>(2)</sup>، ولكنه انقضّ على قلعة الكرك واحتلها وقاد ثورة لإعادة السلالة الأيوبية لرئاسة الحكم فهزّمه عز الدين أيبك ولكنه أبقى له جنوب شرقي الأردن لإرضائه وكسب ودّه.

ولكن شجرة الدر قتلت أيبك عام 655هـ/1257م غيرة بعد اعلانه عن رغبته في الزواج من ابنة لولو أمير الموصل بعد أن أحرقتها نار الغيرة، مما أثار غضب امراء المماليك الذين سجنوها ثم أعدموها وألقوها في خندق القلعة ثم دفنت جثتها قرب مقام السيدة نفيسة في القاهرة<sup>(3)</sup>.

وهكذا يعتبر جلاء الملك الناصر يوسف عن قلعة الربرض انتهاءً لحكم الأيوبيين في سوريا وشرقي الأردن. كما انتقلت مصر إلى أيدي المماليك بعد اغتيال توران شاه 648هـ/1250م. بعد ذلك فوجيء العالم الاسلامي بالزحف المغولي الذين استولوا على دمشق وزحفوا الى عجلون والصلت عام 658هـ/1260م والتي أعاد بناءها الظاهر بيبرس ودمروا قلاعها مثل الربرض وقلعة بيبرس. ولم يملكوا كثيراً لهزيمتهم في عين جالوت على يد قطز. وأما بالنسبة لأهم المؤسسات في الدولة الأيوبية فكانت الوزارة والجيش كنموذج اداري للنظام الأيوبي.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جلد 4، ص 72. Stephenson: The crusaders in the East. P. 317.

(2) Stanely Lane Poole: A History of Egypt, 1941 2nd. ed, P. 257.

(3) فردريك بيك، م س، ص 152.

## الوزارة الأيوبية:

لقد تحول زعماء الأيوبيين بالنسبة لوضعهم السياسي والشرعي من وزراء تفويض الى سلاطين مفوضين زمن الفاطميين وبعد سقوط الفاطميين اتخذ الأيوبيون وزراء تنفيذ من أرباب الأقاليم وكذلك كان وزراء الممالك أيضاً وزراء تنفيذ بمصر بعد أن استولى السلاطين على جميع السلطات الفعلية، ولاعتبار السلطان من الناحية الشرعية وزير تفويض للخليفة العباسي في العصرين الأيوبي والمملوكي<sup>(1)</sup>.

هذا وقد لوحظ من دراسة التاريخ السياسي للأيوبيين أن سلاطينهم اسندوا الى وزراءهم من اسرة أولاد شيخ الشيوخ<sup>(2)</sup> مهاماً عسكرية قيادية لبراعة أولاد شيخ الشيوخ بالقلم والسيف<sup>(3)</sup>.

## مهام الوزير في العصر الأيوبي

لقد رأينا مما سبق أن وزراء الأيوبيين نفذوا أوامر السلطان بتدبير الملك والإشراف على دواوين الدولة وأجهزتها التنفيذية، فكانوا يتلقون الأوامر من السلطان، وقاموا بدور الوساطة بين الشعب والسلطان وشغلوا منصب السفارة بين السلاطين وغيرهم من الملوك، ورشّحوا الموظفين للسلطان ليعينهم في الوظائف الإدارية، وأشرفوا مباشرة على دواوين الإداريين المركزية

<sup>(1)</sup> الخالدي: المقصد الرفيع، م س، ورقة 192 مخطوط/ المقريري: الخطط، ج2، ص305، الماوردي: الأحكام السلطانية، ص20، ص28-32.

ومما يؤكد هذا أن ألقاب الوزير في العصرين الأيوبيين والمملوكي كانت مطابقة لألقاب وزراء التنفيذ التي حددها الفقهاء مثل الوزير الأجل السيد، الصدر الكبير، جلال الدين، شرف الإسلام فخر الأنام، فهو لم يلقب بـ "أمير الجيوش" انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج11، ص38-39. والمقريري: الخطط، ج2، ص304، ص19-28. هذا بالإضافة الى أن أوصاف الوزير كما جاءت في تقليده تنطبق على وزير التنفيذ التي حددها الفقهاء انظر القلقشندي: ن م، ج11، ص38، ص12-18. كما لوحظ أن مهام الوزير في نص التقليد تنطبق على مهام وزير التنفيذ من حيث تدبير الملك وعمارة البلاد، انظر الماوردي: م س، ص25-28، النويري: م س، ج6، ص124-127، القلقشندي: ن م، ج11، ص38، ص12-18.

<sup>(2)</sup> وهو زعيم الترك المسلمين في الشمال انظر: ابن ابيك: الدرر: ص309، 310، 320، 329، 366، 373-376.

<sup>(3)</sup> ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص145-146، وابن واصل: م س، ج5، ص189-200، ج4، ص256-257. حيث أرسل الملك العادل الثاني وزير أبيه عماد الدين بن شيخ الشيوخ محاصرة دمشق 635هـ/1237م وفي سنة 638هـ/1240م أرسل الملك الصالح نجم الدين بن شيخ الشيوخ لتأديب الملك الناصر داود في الكرك. انظر أبو المحاسن: م س، ج6، ص345 وابن واصل: م س، ج5، ص300-310. وابن أيلك: الدرر: ص347 كما أرسل الملك الصالح نجم الدين فخر الدين ابن شيخ الشيوخ 644هـ/1246م لمحاصرة الملك الناصر داود في الكرك وكان فخر الدين أكثر أولاد الشيخ مشاركة في المهام العسكرية. سبط الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص77، وابن العميد: م س، ص158، المقريري: السلوك، ج1، ص113.



والمحليّة، وقد زاد أبناء شيخ الشيوخ في امتيازاتهم الوظيفية الادارية بأن كلفوا بمهام عسكرية كقيادة الجيوش كما لوحظ تعدد الوزراء في أرجاء دولتهم<sup>(1)</sup>.

وهكذا يلاحظ أن تعدّد الوزراء في الدولة الايوبية كان نتيجة للاستقلال الذاتي لملوك الأطراف ولامركزية الادارة التي أوجدها نظام الأقطاع الإداري الحربي في جميع أرجاء دولتهم جريباً على العرف الإقطاعي السلجوقي وقد استمرت ظاهرة تعدد الوزراء في العصر المملوكي بمصر والشام أما النسبة لدار الوزارة في القاهرة فقد كان هناك داران للوزارة منذ نهاية العصر الأيوبي وطوال العصر المملوكي، وهي: دار الوزراء الكبرى بالقاهرة وقد تحولت إلى دار ضيافة وإقامة المراسيم الحكومية مثل التحليف للسلطان الجديد، ودار الوزارة التي كانت بالقلعة وتعرف بقاعة الصاحب<sup>(2)</sup>. هذا وقد بدأ منصب الوزارة في التداعي تدريجياً منذ بداية العصر الأيوبي وذلك لتصدي بعض السلاطين كالمك العادل لمهام الوزارة وعدم استوزاره للوزراء، وفي المقابل شهدنا تعاظم نفوذ بعض الوزراء الأيوبيين من أولاد شيخ الشيوخ وجميعهم بين سلطتي السيف والقلم.

أما في العصر المملوكي: فقد استمر نفوذ الوزراء في التقلص وأصبحت مهمتهم الإشراف على الشؤون المالية وخاصة الجبايات، حيث اضطر بعضهم إلى جباية المكوس بنفسه أيام الأزمات، مع العلم أن الأيوبيين ألغوا ضريبة المكوس لعدم شرعيتها<sup>(3)</sup>، فلم يكن لهم شأن يذكر، ولم يظهر وزراء كبار كنتيجة طبيعية لهذه الدولة العسكرية الاقطاعية القائمة على القوة، وكان

(1) فقد كان للسلطان العادل وزيره الخاص: الصفي بن أبي بكر بينما كان لولي عهده الملك الكامل وزيراً آخر هو: ابن قاضي دارا. انظر: الماوردي: م، ص 27، وابن واصل: م س، ج 2، ص 129، 167. وأبو شامة: م س، ص 52. والقلقشندي: صبح الأعشى: ج 5، ص 452.

(2) المقريري: السلوك، ط 1، ص 326، 343، ج 3، ص 333، 378، 362-363.

(3) السبكي: معبد النعم، ص 27-28.

وانظر ابن خلدون: المقدمة، ص 230: الذي ارجع ضعف منصب الوزارة في العصر المملوكي الى سيطرة السلطان والحاجب على أهم اختصاصات الوزير. "... فرأوا أن الوزارة قد ابتدئت بتزعم أولئك عنها، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور "الخليفة العباسي. عصر ونظرة ومع ذلك متعقب وأحب بنظر الأمير... وبقيت مرؤسه ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة - العالية في الدولة عن اسم الوزارة ... واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية. وانظر: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 76، ذكر ان انشاء وظيفة نائب السلطان في العصر الأيوبي أضعف أهمية الوزير، فانحطت الوزارة في العصر الأيوبي والمملوكي.

وانظر المقريري: الخطط: ج 3، ص 362-363 قال: "وكانت وظيفة الوزارة أجل رتبة، أرباب الأقلام .... إلا أن ملوك الدولة التركية قدموا رتبة النيابة على الوزارة، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها... ثم انقسم. ما كان للوزير الى ثلاثة: هم الناظر في المال، وناظر الخاص، وكتاب الديوان، فإنه كان يقع في دار العدل ما كان يقع به الوزير مباشرة واستقلال ... ثم تلاشت الوزارة في أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد...."

لقب الوزير: "صاحب" وكان عمله لتدبير أمور المملكة الادارية<sup>(1)</sup>. وكانت تصدر مراسيم سلطانية لتقليد الوزراء كمرسوم تقليد الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس للصاحب، بهاء الدين بن حنا الوزارة من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر<sup>(2)</sup> ومرسوم تنصيب الناصر بن قلاوون بتقليد صاحب تاج الدين محمد فخر الدين بن صاحب بهاء الدين علي بن حنا الوزارة عام 693هـ وكان من انشاء شهاب الدين محمود الحلبي<sup>(3)</sup>.

هذا وقد لعبت الكرك دوراً هاماً في تاريخ العصر الاسلامي الوسيط ضد الفرنجة الصليبيين الذين استعمروا جزءاً من عالمنا الاسلامي بعد أن قويض الله للأمة الاسلامية القيادة الايوبية في مصر والشام التي تصدت للمستعمرين الغاشمين في بيت المقدس والذين تستروا وراء قناع ديني كاذب<sup>(4)</sup> مستغلة بذلك ظروف الشرق الاسلامي المتمثلة في التفكك وضعف الخلافة العباسية وانحلال وعجز الخلافة الفاطمية، وتدهور القوة السلجوقية مما ساعدهم على قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية، وتأمين مناطق استراتيجية لحمايتها وامدادها لمنطقة شرقي الأردن بعد تأسيس قلعتي الشوبك والعقبة سنة 509هـ / 1110م لاحكام السيطرة على تجارة البحر الاحمر، وجددوا بناءها. أما بالنسبة للنموذج الاداري الأيوبي في جنوب شرقي الأردن فكانت مملكة الكرك الأيوبية في جنوب شرقي الأردن.

مقدمة تاريخية عن مدينة الكرك : إذ يعود تاريخها الى 850 ق.م. عندما أكمل بناءها الملك المؤابي يشع والكرك كلمة آرامية الأصل أو سريانية<sup>(5)</sup> عربت وأدخلت الى اللغة العربية

(1) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص217-121.

(2) القلقشندي: م س، ج 11، ص270، 272، والسيوطي: م س، ج2، ص217-221.

(3) القلقشندي: ن م، ج11، ص275-278.

(4) سعيد عاشور: تاريخ الحركة الصليبية، القاهرة، 1963م، ج1، ص27-43، جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص37-110، اسكندرية، 1967، ص37-110، عمر كمال: مملكة بيت المقدس الصليبية، مطبعة رويال بالاسكندرية، 1958م.

(5) يذكر فيليب حتى: تاريخ سوريا وفلسطين، ج3، 2138 بأن الآراميين بعد تنصرهم باعتناق المسيحية سمو لغتهم بالسريانية بدل الآرامية. وأصلها "كرحا" أو "كاركو" وحرفت حتى أصبحت الكرك.

وعن الآرامية أخذها اللاتين<sup>(1)</sup>. وبالنسبة لوضع الكرك أيام المعظم عيسى (615-624هـ/1218-1227م. بعد أن أصبح والياً عليها من قبل أبيه الملك العادل -حيث حولها الى مدينة غنية بالاسواق ومزدهرة بعمرائها. وقد اعتمدت على مياه الأمطار كقلعتها التي وفرت مياه الشرب في صهاريج<sup>(2)</sup> خاصة أما المنطقة المحيطة بالمدينة والمسماة "بالثنية" فكانت منطقة استراحة للحجاج ومكاناً لتجميع الجند، ومكاناً للانتظار قبل دخول المدينة وقلعتها لمن يرغب بطلب الأذن للدخول اليها<sup>(3)</sup> إضافة إلى خصب الوديان وكثرة أشجارها المثمرة، لذلك ازدحمت بالسكان الذين عملوا بزراعة القمح الذي اعتمدت عليه مملكة بيت المقدس ونواحيها<sup>(4)</sup> أما أبراجها العالية فكانت تشرف على البحر الميت والقدس، ويذكر المورخ "ستانلي" كيفية الاتصال بين برج داوود ببيت المقدس وأبراج الكرك بإيقاد النار ليلاً في مناور الحصن لارسال اشارات ضوئية يُقهم منها طلب النجدة<sup>(5)</sup> وقد أسس الملك الناصر داوود امارة الكرك الأيوبية 626هـ / 1229م. وشملت الكرك وأعمالها والبلقاء والصلت وعجلون والأغوار<sup>(6)</sup> جميعها ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل والخليل. وقد نعمت الأردن بالأمن والاستقرار في هذه الفترة.

(1) يوسف غوانمة امارة الكرك الأيوبية ط3، وقد ورد اسمها في التوراة (1) تحت اسماء "كيرحارسه" Kir-Hareseth فالقطع الأول (كير) يعني الحصن أو القلعة والمقطع الثاني "حارسه" تعني "تلاً" يعلوه بناء بالعيرية: أي أنها تعني "المدينة المحصنة" أو القلعة المحصنة على تل ارجع الأصل التسمية ، غوانمة: ن م، ص43-51.

#### S Tanley "Arthur P.: Sinai and Palastine, P. 523

ورانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العرتي، بيروت 1967-1968، ج2، ص371، ياقوت الحموي م س، ج4، ص390-341، القاهرة 1407، ج4، ص390-391، حيث يقول بأنها كلمة عممية لقلعة حصينة في نواحي البلقاء في طرف الشام. تميزاً لها عن كرك نوح بين بعلبك ودمشق، وبها قبر نوح. ابن شداد: الاغلاط الخطيرة، ج3، ص270. ونسق الازهار في عجيب الأنظار، ص42، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 439 جغرافيا. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، حققه أحمد زكي باشا، القاهرة 1924، ج1، ص215.

(2) العمري: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج20، ورقة 493 مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 544 معارف عامة.

(3) العمري: مسالك الأبصار، ج2، قسم 1، ورقة 171 مخطوط، وابن بطوطة الرحلة، ج1، ص67.

(4) رانسيمان: م س، ج2، ص371

(5) Stanlye Sinai and Palastine, P. 167.

(6) الغور: غور الأردن بالشام بين دمشق وبيت المقدس وهوارض منخفضة عنها ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة أيام في نهر الأردن وعرضه نحو فرسخين، وفيه قرى كثيرة وهضبة نيسان وفي طرفه الغربي بحيرة طبريا وفي طرفه الشرقي بحيرة زغر، ياقوت، م س، ج4، ص574، 216-218. سبط الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص432. ابن ابيك: كنز الدرر، ج7. واليونيني: م س، ج1، ص129. انظر ابن شداد الاغلاط من الخطيرة ص65.

بهذه الإشارة اكتفي بالنسبة لموضع الكرك لأن المؤرخ الدكتور يوسف حسن درويش غوانمة قد أشبع هذا الموضوع في كتابه إمارة الكرك الأيوبية<sup>(1)</sup>.

### وبالنسبة للموضع الإداري لإمارة الكرك زمن الأيوبيين:

لقد كانت الكرك والشوبك من اقطاعات صلاح الدين لأخيه العادل عام 583هـ/1187م. ثم أضاف إليها الصلت والبلقاء عام 588هـ/1192، على أن يقدم ستة آلاف غرارة من غلتها إلى بيت المقدس<sup>(2)</sup> وفي عام 594هـ/1189م. أصبح المعظم عيسى نائباً لوالده في دمشق فأصبحت أملاكه: بلاد الغور والكرك والشوبك والصلت وصرخد وأرض فلسطين بما فيها القدس والساحل<sup>(3)</sup> فركز اهتمامه بمنطقة شرقي الأردن ونشر فيها الأمن والاستقرار ورَمَمَ ما هدمه الصليبيون وأعاد بناءه وشجّع الزراعة<sup>(4)</sup> وبنى قلعتها<sup>(5)</sup> كما ضمت الصلت لإمارة الكرك عام 626هـ/1229م. تحت حكم الناصر داوود ابن المعظم عيسى<sup>(6)</sup> مؤسس هذه الإمارة واستمر تقدمها واستقرارها زمن المماليك تقديراً لأهميتها الاستراتيجية<sup>(7)</sup>.

وبالنسبة لمدينة عمان فقد أصبحت في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مركزاً لكورة البلقاء التابعة لدمشق<sup>(8)</sup>. من أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بسبب منافسة حسان والصلت لها في زعامة البلقاء<sup>(9)</sup>. ثم تبوأ مركزها الأول عند منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أيام السلطان حسن بن محمد قلاوون (755-

(1) د. غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، دائرة العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، دار الفكر، عمان، ط2، 1982م.

(2) ابن شداد: النواذر السلطانية، ص244، أبو شامة: م س، ص9، 197. وابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص379، م س، ج2. ص104. والغرارة: 12 كيلة: ابن الوردي: تمة المختصر، ج2، ص104.

(3) المقرئزي: السلوك ج1، ص168.

(4) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج2، ص233.

(5) ابن شداد. م س، ج2، ص84.

(6) د. يوسف غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، ط2، عمان، 1982. ص18. وقال: أن هذه الإمارة تمثل الكيان الأردني الحالي.

(7) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص423، ابن أبيك كنز الدرر، ج7، ص295. اليونيني: م س، ج1، ص129.

(8) ابن الوردي: (فريدة العجائب)، ص22، 23. وابن شداد: م س، ج3، ص41، ص175.

(9) البلقاء: نسبة إلى بانيها: البلقاء بن سورية من بني عمان بن لوط. (الفلقشندي: م س، ج4، ص106).

762هـ<sup>(1)</sup> حيث جعلها نائبه الأمير صرغتمش مركزاً للبقاء بدلاً من حسابان بعد نقله القضاء والولاية لها<sup>(2)</sup>.

#### وبالنسبة للأيوبيين في الكرك

1- العادل الأول	584-651هـ/1188-1218م
2- المعظم عيسى	615-624هـ/1218-1227م
3- الناصر داوود	624-647هـ/1227-1249م
4- الصالح نجم الدين أيوب	647هـ/1249م
5- المعظم توران شاه	647-648هـ/1249-1250م
6- المغيـث عمر	648-658هـ/1250-1260م

#### وبالنسبة للخلفاء العباسيين في بغداد المعاصرين للأيوبيين فهم :

1- الناصر لدين الله	575-622هـ/1178-1225م
2- الظاهر بأمر الله	622-623هـ/1225-1226م
3- المستنصر بالله	623-640هـ/1226-1242م
4- المستعصم بالله	640-656هـ/1242-1258م

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص30.

(2) المقرئزي: ن م، ج3، ص30. ومنذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي نافستها مدينتا الصلت وحسبان وتقوقعت في قرية صغيرة، وفي العصر العثماني هاجر إليها الشركس واستمرت على هامش الأحداث حتى القرن العشرين حين أصبحت عاصمة لشرقي الأردن (خير الدين الزركلي: عاماً سن في عمان، ص6).

## سادساً : الجيش الأيوبي

### مقدمة

لقد كانت بلاد الشام مركزاً للمقاومة الاسلامية ضد الصليبيين منذ زمن نور الدين محمود عام 549هـ/ 1154م عندما كانت تحت حكم مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابكه<sup>(1)</sup>، ثم اتخذ صلاح الدين دمشق عام 570هـ/ 1174م مركزاً للحكم الأيوبي في بلاد الشام لقربها من الأماكن التي يحتلها الصليبيون ناهيك عن متانة أسوارها ورخاءها المعيشي وطيب هوائها ومنها انطلقت القوات الأيوبية للإغارة على حصن الكرك المنيع عدة مرات والى طبريا وحطين عام 583-584هـ/ 1187-1188م وإلى صفد وكوكب وبيسان وغيرها<sup>(2)</sup>. وكانت الجيوش تعود لها بعد انتهاء الحروب<sup>(3)</sup> بصفتها مركز القيادة والامداد والتموين والتدريب<sup>(4)</sup> ومعسكراً للأسرى لذا كان لابد من الاشارة الى الاقطاع الحربي الأيوبي والمؤسسات العسكرية في الجيش الأيوبي باختصار لأهمية هذا الجيش في التصدي والانتصار على أعداء الأمة العربية والاسلامية.

### الإقطاع الحربي في الشرق الاسلامي

من المعروف أن هذا النظام تأسس زمن السلاجقة الذين تميزت دولتهم بالصفة الحربية العامة نتيجة لظروفها الداخلية والخارجية إذ استبدلت الرواتب والأعطيات النقدية بالنظام الإقطاعي الحربي بمنح البلاد لكبار القادة العسكريين وذلك على يد الوزير نظام الملك ليقوموا بشؤون البلاد وإعمارها<sup>(5)</sup>.

(1) ابن الأثير: م س، ج 11، ص 197.

(2) جان سوفاجيه: دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1936م، ص 34.

(3) ابن العديم: زبدة الخلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، طبع 1967م. ج 3، ص 9-21، 26.

108، 101، 91، 84، 79، 74، 73-72، 56، 55، 27.

(4) ابن جبير: الرحلة، ص 261، م س، و: أبو الفداء: م س، ص 90/91، وأبو شامة: م س، ج 1، ص 2، ص 579.

(5) حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص 34، 26، ونظير حسان سعداوي: جيش مصر في أيام صلاح الدين، ص 2.

وعندما جاء الأيوبيون طبق صلاح الدين الأيوبي هذا النظام بمنحه قادة جيشه الإقطاعيات مقابل تقديم الخدمات الحربية عند الحاجة له طالما يؤدي الخدمة العسكرية المتفق عليها في شروط عقد الإقطاع غير الوراثي حيث يتمتع بالأرض المقطعة طالما يؤدي الخدمة العسكرية المتفق عليها بعكس الإقطاع الزنكي حتى لا يرث أطفال الإمراء ذلك مما يسبب الارتباك والفوضى<sup>(1)</sup>.

وللمقطع الحق في جمع الضرائب للنفقة عليه وعلى معيشة جنده مقابل تقديم الخدمات كالخدمات المالية مثل الضرائب الحربية للسلطان والزكاة والجوالي. وخدمات مدنية: كراية شؤون الأمن والعناية بالزراعة وصيانة الجسور وما وفر على السلطان نفقات الجيوش من حيث الأموال والمؤن والأسلحة<sup>(2)</sup>، ولكن كان لهذا النظام آثار سلبية سيئة على القوة العسكرية وسير المعارك من حيث عودة القادة المقطعين بعساكرهم في مواسم الحصاد الى اقطاعاتهم للإشراف على جني المحاصيل وتخزينها مما قد يسبب حرجاً عسكرياً للسلطان والحاق الهزيمة به<sup>(3)</sup> هذا وكانت شخصية صلاح الدين وحنكته السياسية وعقيدته الجهادية برفع راية الجهاد دائماً تخفف من هذه الآثار السلبية لنظام الإقطاع الحربي حيث عادت هذه الآثار السلبية لتطفو على سطح الأحداث بوضوح بعد وفاته وذلك نتيجة احتفاظ الأمراء والقادة المقطعين بجيوش خاصة بهم مما دفعهم الى محاولة الاستقلال عن السلطان الأيوبي والاستبداد بالسلطة وتوسيع اقطاعاتهم على حساب الآخرين<sup>(4)</sup> بالإضافة الى سعي الإمراء الذين ليس لهم اقطاعات للحصول على

<sup>(1)</sup> Cahen Article Ayyubids in Encyclopadea of Islam, New edition; Hassaneinrabie, the financial System of Egypt, pp 28,30,32,57.

<sup>(2)</sup> حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص26،34، ونظير حسان سعداوي: م س، ص2.

<sup>(3)</sup> Rabie, Ibid: pp64-70 كما حدث لصلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام عام 571هـ/1175م فاضطر لتوقيع صلح مع صاحب طرابلس عندما سمح للجيوش بالعودة لجني المحصول فكادت الهزيمة أن تلحق به وكما حدث مع الملك العادل الأيوبي عام 603هـ/1207م عندما عرف ضجر عساكره ورغبتهم في العودة لجني الفواكه والتمر في موسم الحصاد ببلاد الشام فاضطر لتوقيع صلح مع صاحب طرابلس.

<sup>(4)</sup> النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27(ت733هـ/1331م)، دار الكتب المصرية رقم 549، معارف عامة. ورقة 222، مخطوط كما حدث عام 607هـ/1210م عندما اكتشف العادل توسع الأمير عز الدين أسامة في جنوب بلاد الشام بضمه عجلون وكركب فاستدعاه للتحقيق وسجن بالكرك وصادر أمواله.

هذا وقد أقطع ابنه المعظم عيسى اقطاعات واسعة في بلاد الشام شملت الساحل الى العريش جنوباً وبيت المقدس والكرك والشوبك والغور وعاصمتها جميعاً القدس. الصفدي: الوافي، ج2، ص236. والمقريزي: السلوك ج1، ص168-169.

إقطاعات لهم من السلطان مستغلين ظروفه وضعفه الأمر الذي أوجد حالة من الارتباك السياسي وعدم الاستقرار الأمني في البلاد. حيث تقلب الأمراء في ولانهم لسلاطين الأيوبيين لمن يمنحهم إيراداً أكثر كما لوحظ تشابك إقطاعات أبناء السلاطين<sup>(1)</sup> وكبار القادة العسكريين. أما الآثار السلبية للإقطاع الحربي فإنه حول الفلاحين إلى ما يشبه عبيد الأرض الخاضعين لرحمة طبقة كبار الإمراء الإقطاعيين.

فاستدركت الدولة الأيوبية هذا الأمر بوضع قيود على الإمراء الإقطاعيين شملت الأمر بالمعروف، والمحافظة على الإقطاع وحسن الجوار مع جيرانه من الإمراء المقطعين<sup>(2)</sup>. كما أضافوا إجراءات ضبط أخرى كتحديد الإيجار والجباية الذي يدفعه الفلاح لسيده الإقطاعي مما حمى الفلاحين من تعسف الإمراء الإقطاعيين وحدّ من نفوذهم وثروتهم غير المشروعة<sup>(3)</sup>. وبالنسبة لحجم الجيش الأيوبي فقد تحدث كثير من المؤرخين عن أعداد الجيش الأيوبي<sup>(4)</sup>، واتفق الجميع على أن أكبر حجم وصل إليه الجيش الأيوبي الموحد كان في موقعه حطين 583هـ/1187م.

الإقطاع العسكري<sup>(5)</sup>: لقد سار صلاح الدين الأيوبي على النظام النوري "تور الدين محمود" لأن الدولة النورية الأيوبية نشأت من خلال الدولة الزنكية وكانت متممة لها وحدثت بعض التغيرات في هذا النظام بسبب الظروف المستجدة.

(1) ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، ص232، ذكر أن العادل خلف سبعة عشر ولداً كان معظمهم يحكم في بلاد الشام والجزيرة ومصر، وسعى أبناؤه الصغار التابعين لإخوتهم الكبار للحصول على ممتلكات أوسع عندما يكبرون.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص33-43، ج3، ص144-148.

(3) انظر Poliak: The Ayyubid Feudalism. p430

(4) ابن الأثير: م س، ج11، ص531: ذكر عددهم "أثنى عشر ألف فارس ممن كان له الإقطاع والجامكية سوى المتطوعة. وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب ج3، ص92، أبو شامة: م س، ج2، ص76، ابن واصل: م س، ج2، ص187، والمقريزي: السلوك ج1، ص93، ابن كثير: م س، ج2، ص320، والجامكية: راتب من يخدم في دواوين السلطان، القلقشندي: ن م، ج3، ص460، ج5، ص140 وهي لفظ فارسي. وانظر نسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ج2، ص798-790 وقدّر عدد الجيش النظامي لصلاح الدين بأثنى عشر ألفاً وانضمام كتائب المقطوعة من خلفائه حتى بلغ ثمانية عشر ألف رجل.

(5) ومعنى ذلك: هو توزيع "إقطاع" الأراضي على كبار إمراء الدولة وأقرباء السلطان ومنحهم حرية التصرف في إدارة هذه الأراضي بدل منحهم الرواتب، وصرف وارداتها لاتباعهم داخل إقطاعية مقابل إسهامهم في المعارك الحربية التي يعلنها السلطان بإرسال الجند اللازم مع نفقاتهم كاملة للميدان. وانظر: البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، طبع شركة طبع الكتب العربية، مطبعة الموسوعات 1900م ص55، والحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، نشر كلية بنحاج، الأهور 1937م، ص68. بولياك: النظم الإقطاعية ص59-60.



وكان النظام الإقطاعي العسكري في بلاد الشام أكثر وضوحاً من بلاد مصر وذلك لانقسام بلاد الشام السياسي عبر تاريخها. فقد خصص له ديوان سمي بديوان الإقطاع المشرف على الجيش<sup>(1)</sup> ولم يكن هذا الإقطاع وراثياً بالمعنى الكامل، بل كان يُورَثُ الأمير إقطاعه لإبنه الأكبر الراشد أحياناً، أما إذا كان طفلاً صغيراً جعل عليه وصياً بمثابة أتابك له حتى يكبر<sup>(2)</sup>.

وكان لكل أمير ديوان إقطاعي يسجل فيه أسماء جنده وسلاحهم ودوابهم<sup>(3)</sup> وكان الأمير ينفق ثلثي دخل الإمارة على تجهيز وإعاشة الجند<sup>(4)</sup> ليبقى جاهزاً وعلى أتم الاستعداد لحين الطلب<sup>(5)</sup> ويقون في أراضيهم في موسم الزراعة والحصاد إلا إذا كان هناك حالة حرب، وكان الأعداء يستغلون موسم الحصاد للهجوم وهكذا كان هؤلاء الجند الإقطاعيون "جند الإقطاعيات عماد الدولة العسكري في الدفاع عن نفسها".

وكان ديوان الإقطاع "ديوان المجلس" ملحقاً بديوان الجيش، ولا يستطيع صاحب ديوان الجيش أن يغير شيئاً من الإقطاعيات أو الأجناد إلا بمرسوم<sup>(6)</sup> لأن حدود الإقطاعية محددة في الشهادة الممنوحة للإقطاعي.

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف - مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312هـ، ص35-68 وانظر محمد حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، 1964م، ص35. ذكر مهمة المقطع: وهي قيامه بتأدية خدمات حرية بقيادة عدد من الجند المشاة والفرسان عند خروجه للحرب مع السلطان.

(2) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل وحلب، تحقيق د.عبدالقادر طليمات، طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة 1963م، ص169، أبو شامة: م س، ج1، ص20. ابن واصل: م س، ج1، ص280. ومعنى أتابك: "الأمير الأب" بالمعنى اللغوي: القلقشندي: م س، ج4، ص18، وابن الأثير: ج10، ص8، ود. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص123.

(3) ابن الأثير: الباهر، ص169.

(4) برنارد لويس، العرب في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1995م، ص222. وانظر ابن الأثير: الباهر، ص169 حيث نقل على لسان نور الدين محمود قوله: "نحن كل وقت بصدد التغيير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد، دخل الوهن على الاسلام". وابن واصل: م س، ج1، ص280.

(5) أبو شامة: لروصتين، ج1، ص2، 565، يذكر نقلاً عن ابن أبي طي: "أن الصقليين بقيادة جورج لما تحركوا ليقوموا بإزالة قواتهم على الاسكندرية عام 569هـ/1173م، كتبوا الى الملك الفرنسي أن العساكر -يقصد عساكر صلاح الدين- متباعدة في نواحي إقطاعهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم".

(6) القلقشندي: ن م، ج3، ص488، المقرئ: الخطط، طبعة أوفست: ج2، ص242.

وقد ورث صلاح الدين الأيوبي الإقطاع النوري والفاطمي<sup>(1)</sup> محاولاً الاستفادة منه لصالح الجهاد الاسلامي ولمصلحة الحكم الأيوبي.

ويشمل الإقطاع الأمراء الشجعان الذين يلحقون الهزائم بالعدو بينما يسجل باقي الأمراء على لوائح العطاء فتصرف لهم الجامكية، فهم جزء من الجيش النظامي المستعد للقتال دوماً الى جانب جنود الأمراء الاقطاعيين، وسُمِّي الخارجون عن الإقطاع "البطالين"<sup>(2)</sup>.

ومن أمثلة ذلك عندما استبدل صلاح الدين القوات الموجودة داخل عكا بقوات جديدة، أمر بالمناداة بالبطالين لقبض النفقات<sup>(3)</sup>.

كما لم يعرف عدد الفرسان والرجال الذين يقدمهم كل أمير إقطاعي إلى جيش صلاح الدين<sup>(4)</sup> إلا أنه كان من المؤكد أن الخدمات الحربية الاقطاعية، كانت تزيد بزيادة الإقطاع كما كان صلاح الدين يعيد النظر بالاقطاعات الممنوحة من وقت لآخر كما حدث مع اخيه الملك العادل في عام 587هـ/1191م. عندما طلب منه التنازل عن كل اقطاعياته بالشام ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء والأجزاء الجنوبية لبلاد الشام، وكذلك عن نصف ما يملكه بمصر وعوضه باقطاعه في البلاد الشرقية<sup>(5)</sup>.

(1) كان الإقطاع الفاطمي بمثابة اقطاع استغلال أي يكون للأمير حق استثمار الأرض والانتفاع من انتاجها بينما لا يحق له توريثها أو تملكها ملكية مطلقة بل يتمتع بها حسب المدة المقررة. انظر الماوردي: الاحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعه مصطفى الباي الحلبي، مصر 1960، ص 194-197.

(2) أبو شامة: م س، ج 1، ق 2، ص 532 نقلاً عن ابن أبي طي، المقرئ: السلوك، ج 1، ص 36.

(3) الأصفهاني، عماد الدين الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965م، ص 457.

(4) المقرئ: الخطط، طبعة بولاق، ج 1، ص 147، ذكر سبب ذلك هو أنه لم يحاول احداً من المؤرخين افراد الجيوش والعساكر بتأليف خاص.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938م، ج 6، ص 99. د. طرخان: النظم الاقطاعية، ص 39.

## عناصر الجيش الأيوبي

لقد كانت عناصره مكونة من:

- بعض عساكر الدولة النورية<sup>(1)</sup>
- بعض عساكر الفاطميين<sup>(2)</sup>
- والفرسان التركمان من قبيلة ياروك<sup>(3)</sup>
- وقوات شيركوه الخاصة من مماليكه الأسيدي<sup>(4)</sup>
- وعربان الشام والأكراد<sup>(5)</sup> وبقية عشائر التركمان<sup>(6)</sup> وهؤلاء كونوا الجيش الشعبي كما هو الحال في عصرنا الحاضر.

ويلاحظ أن صلاح الدين الأيوبي ربما أحسَّ بضرورة إعادة النظر في كيفية توزيع أقاليم الدولة وحصونها على أبنائه. وكان من أمراء صلاح الدين في جنوب بلاد الشام ذوي الخطوة والجاه عنده كعز الدين أسامة الذي أقطعه كوكب وعجلون<sup>(7)</sup>. وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري "المشطوب" والذي أقطعه نابلس وأعمالها<sup>(8)</sup> وبعد موته عام 588هـ/ 1192م خلفه ابنه عماد الدين.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج11، ص336، أبو شامة: م س، ج، ص155، ابن كثير: م س، ج12، ص255.

(2) وبعد إسقاط صلاح الدين للدولة الفاطمية الشيعية عام 567هـ/ 1171م كان من الطبيعي أن يبعد عساكر الفاطميين، هذا وقد أقيم عرض عسكري لجيشه عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي الذي بلغ أربعة عشر ألف فارس من الطواشية والذي يبلغ راتب الفارس منهم 700-1200 دينار. جب: صلاح الدين الأيوبي، ص161، هامش 31.

والطواشية: جندي من الفئة الأولى والأعلى من مرتبة الجنود النظاميين. أنظر العربي: مصر في عهد الأيوبيين، ص154 هامش رقم1، ثم يأتي بعدهم في المرتبة: القراغلامية: وهم الجنود العاديون، ن م، ن ص، هامش 2. وهم فرق الاستطلاع المكلفة بمراقبة الطرق أثناء سير الجيوش. المقرئ: السلوك، ج1، ق1، ص75، هامش رقم 3.

(3) جب: ن م، ص154.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص172-173.

(5) المقرئ: البيان والأعراب في تاريخ العرب في وادي النيل، تحقيق تأليف عبد المجيد عابدين، القاهرة، 1961، ص117.

(6) زكي، محمد أمين، تاريخ الكرد وكردستان، ترجمة محمد علي عويس، القاهرة، 1961، ج1، ص145.

(7) أبو الفداء: المختصر، ج5، ص115.

(8) ابن كثير: ن م، ج12، ص352.

تنظيم الجيش الأيوبي : لقد اتبع صلاح الدين الأيوبي نظاماً خاصاً لجيشه كالتالي :

أ- نظام التخميس على شكل كتائب تشبه الصليب من حيث الجذع في الوسط "قلب" ومقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة بما يشبه جسم الانسان<sup>(1)</sup>.

وكان السلطان يعيى العسكر ويتفقد الصفوف بنفسه<sup>(2)</sup>. ويتصل بجميع أقسام الجيش بحيث يكون مشرفاً على سير المعركة.

ب- الحلقة الخاصة والمماليك السلطانية: وكانت مكونة من عساكر محيطة بصلاح الدين بما يشبه الحراسة وكان لها أهمية خاصة في المعارك المختلفة<sup>(3)</sup>.

كما عرف الجيش الأيوبي نظام المماليك<sup>(4)</sup> فنشأت مجموعة من سلاطين المماليك والحرس الأرقاء للسلاطين الأيوبيين وقد أسسها صلاح الدين الأيوبي، لذا كان الجيش المصري في عهد المماليك من بقايا الجيوش الأيوبية التي كان معظمها من المماليك الأتراك وبقايا الأكراد<sup>(5)</sup> كما أطلق على خاصة ممالك السلطان اسم الحلقة الخاصة<sup>(6)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأيوبيين لم يكونوا اتابكة ولم يكونوا ممالك لأحد ولم يجر عليهم رق<sup>(7)</sup>. وقد وضع لنا قوة المماليك في الجيش الأيوبي بعد وفاته<sup>(8)</sup> كالفرقة الصلاحية التي كانت بقيادة فخر الدين جهاركس والتي ناصرت الملك عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، والفرقة الاسدية بقيادة سيف الدين يازكوج مملوك شيركوه. التي ساندت الملك العادل.

(1) العماد الاصفهاني: م س، ص 89، 154.

(2) د. محسن، محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، بيروت ص 148.

(3) ابن الاثير: الكامل، ج 12/ص 81، 15، وانظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 147، 178 وذكر ابو شامة: في الروضتين، ج 1، ق 2، ص 438 بأن هذه الفرقة هي الفرقة الصلاحية أو الناصرية.

(4) انظر: أبو شامة: ن.م.ن.ص، "فكان الخبايرين تحت امرة القائد الكبير يسمون باسمه لأنهم من مماليكه أو غلمانهم فالنورية: ممالك نور الدين والاسدية ممالك اسد الدين شيركوه". وابن تغري بردي: م س: ج 6، ص 124.

(5) ابن تغري بردي: ن م، ن ص.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 178، وابن الاثير: الكامل، ج 12، ص 15، أبو شامة: م س، ج 1، ق 1، ص 504.

(7) ابن تغري بردي: ن م، ج 6، ص 5.

(8) ابن تغري: ن م، ج 6، ص 13، المقرئزي السلوك، ج 1، ص 125.

## وبالنسبة لزي العسكريين من قادة وجنود فكانت كالآتي:

لباس الرأس : الكلوتات<sup>(1)</sup> الصفر على الرؤوس المكشوفة بغير عمائم وذوائب، شعورهم مرخاة تحتها للجميع<sup>(2)</sup>. إلا أن صلاح الدين استحدث لباساً آخر يحمل السنجق على رأسه والزم الأجناد بشد السيوف في أوساطهم وجعل الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب<sup>(3)</sup>. بينما استحدث المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق عام 651-624هـ/1227-1214م عادة لبس الكلوة الصفراء بلاشاش<sup>(4)</sup> بعكس صلاح الدين الذي أمر بلبسها مع الشاش واستمر لباس المعظم عيسى زمن المماليك حتى عهد الملك الأشرف خليل ابن السلطان محمد بن قلاوون الذي أمر باعادة الشاش على الكلوة كعهد صلاح الدين<sup>(5)</sup>. وأما لباس البدن: فكان الأقيبة<sup>(6)</sup> التتيرية الواسعة والتكلات فوقها ثم القباء الاسلامي فوق ذلك. مع شد السيف من جهة اليسار والصولق<sup>(7)</sup> والكرلك<sup>(8)</sup> من جهة اليمين، وكان لباس الصيف يختلف عن لباس الشتاء.

## كتائب الجيش وسلاحها:

لقد استخدم الجيش الأيوبي نظام الأطلاب الذي يقوم على أساس تقسيم الجيش الى مجاميع "كتائب" حيث يكون على رأس كل 170-200 فرس أمير مقدم<sup>(9)</sup> ولكن ليس بالدقة والتنظيم

(1) الكلوتات : نوع من اللباس الهندي والمصري للامراء: انظر: دوزي: المعجم المفضل باسماء الملابس عند العرب، ترجمة: د. أكرم فاضل، طبعة دار الحرية، وزارة الاعلام، بغداد، 1971م، ص85.

(2) القلقشندي: م س، ج4، ط3، ص5، 39.

(3) أبو الفداء: المختصر، ج4، ص311. والقلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص6.

(4) الشاش قطعة من البز تلف حول طاقية أو عرقية أو حول الرأس. وهي كلمة معادلة للعمامة، دوزي، ن م، ص197-199. وانظر القلقشندي: ن م، ج4، ص5.

(5) ن.م. ج4، ص6.

(6) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

(7) الصولق: كيس من جلد يربط على الجانب الأيمن من الحياصة توضع فيه حاجات السفر من الزاد وجمعه صوالق. انظر المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص789، واللفظ تركي يعني جهة اليسار.

(8) الكرلك: السكين أو الخنجر انظر سعيد الديوبجي: الموصل في العهد الاتابكي، مطبعة شفيق، بغداد 1958، ص72.

(9) المقرئزي، الخطوط، طبعة المعهد، ج2، ق1، ص16.

المملوكي<sup>(1)</sup> ومن الجدير بالذكر أن الجيش الأيوبي انقسم الى ثلاثة أصناف بالإضافة للصنف الجانبيه وهي:

1- صنف الفرسان "الخيالة" وهو عصب الجيش في حروب العصور الوسطى ومن مهام الفرسان الاستطلاع والقتال لسرعتهم المميزة في الكشف والقتال والمطاردة وقطع طرق الإمدادات ونجدة المواقع الأخرى المعرضة للخطر المفاجئ، وكان وضعهم الطبيعي خلف المشاة<sup>(2)</sup>.

2- صنف المشاة "الرجالة" وهو القسم الأعظم من الجيش الذي يقوم بأعباء القتال وتحمل نتائجه وأسلحتهم خفيفة تقليدية كالسيف والرمح والقوس وكانوا يُخرجون الأعداء من خنادقهم ويقتلونهم<sup>(3)</sup> وسموا أيضاً بجماعة الأخبار<sup>(4)</sup>.

3- والصنف الثالث كانت الفرق المساعدة التي عرفت باسماء الأسلحة التي تستخدمها كالنفاطين والمنجنقيين والنقابين والخرسانية الذين يقاتلون في الدبابات<sup>(5)</sup> والتموين والمخابرة والجاندرية: المختصين بعمليات الحصار<sup>(6)</sup>. وكان صلاح الدين يستعرض فرق الجيش قبل المعركة ويتفقد الأسلحة والخطط العسكرية كما فعل قبل التوجه الى حطين حيث نظم مواقع كل الفرق وقياداتهم في الميمنة والميسرة ثم جعل الجاليشية "الرماة" أمام الجيش<sup>(7)</sup> وكان بجانب صلاح الدين شخص يلقب بالجاويز مهمته إعلان القتال واستنفار الجند، وأمر

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 76، 148، 160، 185: الأصفهاني، عماد الدين الكاتب: م س، ص 69، 70، 115.

(2) د. محسن محمد حسين، م س، ص 154، نقلها عن مخطوطة الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب. ونقل نصاً من قول الطرسوسي "ولتكن الخيالة والأبطال من وراء الرجالة ينتظرون الحملة فإذا هموا بها، فتح لهم باب يحملون منه"

(3) طه الهاشمي: دروس في المعلومات الجغرافية، مطبعة الشعب، بغداد 1936، ص 166.

(4) أجناد: تستخدم هذه اللفظة في المصادر على ثلاثة معاني فهي تستخدم بصفة الجمع للفظ. جندي "أجناد": كما تطلق على الفرسان في القوات النظامية وتستخدم في صيغة الجمع للدلالة على القوات العسكرية في منطقة ما. جب، م س، ص 174. كما تطلق على الولايات أو الأقاليم العسكرية المجاورة لبلاد العدو فكانت بلاد الشام مثلاً أربعة أجناد هي: دمشق وحمص والاردن وفلسطين.

العمرى وزملاؤه: الجيش العربي في صدر الدولة العباسية، بغداد، 1963، ص 123

(5) الدبابية: برج مربع خشبي على أربع عجلات ثم أصبحت على ثمان عجلات زمن العباسيين وتوسع لعشرة رجال وبدخلها سلام مستعرضة لتسلك الحصون، العمرى، ن م. ص 120.

(6) العماد الاصفهاني: ن م، ص 69-70. رجب، م س، ص 174-176. والقلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 8.

(7) الجاليشية: الراية العظيمة التي في راسها خصلة شعر ثم أطلقت على مقدمة القلب في الجيش على الطليعة منه.

بعض أفراد الجيش بمهام حسب ظروف المعركة<sup>(1)</sup> وتشجيع المقاتلين بيث نتائج النصر بكلمات حماسية كندائه " يا عساكر الموحدين"<sup>(2)</sup>.

وبالإضافة للجيش الدائم ضم جيشه فرقاً مساعدة من العرب والأكراد والتركمان مقابل الأجور<sup>(3)</sup>. بالإضافة إلى المتطوعين في الجيش الأيوبي حياً في الجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض العربية الإسلامية من الاحتلال الصليبي الغاشم. كما كان يلحق بالجيش فرقاً هندسية خاصة لقتال الأسوار والخنادق ونصب المعدات الحربية كالمنجنيق والدبابات والأقواس الثقيلة. وقاذفات النفط وبناء المعسكرات والأسوار وتشديد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفر الآبار وتغيير مجاري الأنهار لتعطيش الأعداء<sup>(4)</sup> وقد استعان صلاح الدين الأيوبي بالفرق الهندسية في حصاره لبيت المقدس<sup>(5)</sup>.

هذا بالإضافة للفرقة الطبية المتخصصة بالأسعافات للجرحى والمرضى بما يشبه مستشفى الميدان اليوم حيث كانت تحمل على ظهر الحيوان وتتصب الخيام للعلاج والإسعاف<sup>(6)</sup>. كما كان يرافق الجيش فرقة الموسيقى العسكرية لإثارة حماس المقاتلين بعد مناداة الجاويش بالعسكر للاستعداد للقتال، فتشد الرايات وتضرب الكوسات<sup>(7)</sup> مما يدل على اهتمام صلاح الدين بالموسيقى العسكرية 'المارشات' اليوم وسمي المكان المخصص لها بـ"الطبلخانة" أي مكان الطبل العسكرية بعد نشر الأعلام والبيارق<sup>(8)</sup>.

(1) الجاويش أو الجاوش أو الشاويش: كلمة تركية، المقريري: السلوك، ج1، ص70، هامش 2، وابن واصل: م س، ج2، ص

295، هامش 1

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص190، وابن واصل، ن م، ج2، ص29، 326، أبو شامة: م س، ج2، ص76.

(3) Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 316

(4) أبو شامة: ن م، ج2، ص62-63، وابن واصل: ن م، ج2، ص162.

(5) ابن الأثير: م س، ج11، ص547، أبو شامة: ن م، ج2، ص9، ابن تغري بردي: م س، ج6، ص36.

(6) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، اصدار دار الفكر، بيروت، 1957م، ج3، ص191، 259، 265،

268، 297، 298، 299، والعماد الأصفهاني: م س، ص576، 577.

(7) الكوسات: صنوج تشبه الرّس الصغير يلق بأحدهما على الآخر بايقاع خاص، القلقشندي صبح الأعشى، ج4، ص9. وابن شداد: ن

م، ص149.

(8) المقريري: المخطط، طبعة الأوفست، ج2، ص233. وابن شداد: ن م، ص119. ذكر: "أن اسم النافخ في البوق كان يسمى منفراً

والذي يضرب بالصنوج النحاسية كان يسمى كوسي والناقر على الطبل "بنداد" حيث كانت تعرف الفرق الموسيقية في أوقات القتال ببقية الأيام بمعدل ثلاث مرات يومياً والمقريري، المخطط، ج2، ص233. وعند قدوم شخصية عسكرية هامة بعد نشر الأعلام والبيارق.

وكان هناك حملة أعلام الجيش السلطاني والحفاظ عليها والتي كانت تُميّز جماعة عسكرية عن غيرها. وسميت الرنوك<sup>(1)</sup>. أما لون علم صلاح الدين فكان الأصفر وفي وسطه صورة النسر<sup>(2)</sup> رمزاً للفرق بالإضافة لأنواع أخرى للرايات الصلاحية الأخرى كالعصابة المصنوعة من الحرير الأصفر المطرز بالذهب والمكتوب عليها ألقاب السلطان، والجاليش الراية التي في رأسها خصلة من الشعر والسناجق: الرايات الصفراء الصغار<sup>(3)</sup>.

وأما القوات البحرية المتمثلة بالأسطول: فقد بلغت قطع الأسطول عام 575هـ/1179م ثمانون قطعة بحرية فيها ستون من المراكب الضخمة المسماة بالشواني والمزودة بالأبراج والقلاع والتي تحمل حوالي 150 رجلاً والمستخدم في الدفاع والهجوم<sup>(4)</sup> والباقي منها عشرون طراداً من السفن الصغيرة سريعة الحركة وحاملة للخيول<sup>(5)</sup>. هذا وقد قسمه صلاح الدين إلى قسمين مهمة الأول منها حماية شواطئ مصر والدفاع عنها ويتكون من ثلاثين سفينة ومهمة الثاني مهاجمة الصليبيين وموانئهم في سواحل بلاد الشام ويتكون من ثلاثين سفينة أيضاً<sup>(6)</sup>. أما معدات السفن الحربية فكانت من معدات العصور الوسطى مثل: الزرد والخوذ والتروس والرماح والكلاليب والسلاسل برمانة حديد في رؤوسها "الباسليقات" وغيرها. بالإضافة إلى صناديق في أعلى السفينة "التوابيت" يصعد إليها الرجال قبل الاقتراب من سفن العدو، ومعهم

(1) ابن شداد: ن م، ن ص. وابن واصل: ن م، ج2، ص373-374. جمع رنك: وهي لفظ فارسي (كردي) معناه اللون، حيث يدل على الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له على إمارة معينة. د. عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1951م، ص29.

(2) وبالنسبة لعادة استخدام صورة النسر فكانت عادة قديمة منذ السومريين أنظر حتي، فليب، تاريخ سورية ولبنان، ترجمة كمال الياسي مراجعة د. جبرائيل جبور، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين المطبعة البوليسية، بيروت، 1959م، ص251. كما نقش عماد الدين زنكي صورة النسر على النقود ورسمه الأرتقيون على راياتهم وعنهم أخذ صلاح الدين مبتكراً اللون الأصفر لرايته "العماد: م س: ص10، وأبو شامة: م س، ج1، ق2، ص697. بينما لم يستخدم جميع سلاطين الأيوبيين هذا اللون الأصفر حيث اتخذ الملك الناصر داوود صاحب دمشق "جند الملك العادل" اللون الأسود لارضاء الخليفة العباسي: انظر: د. الباز العريبي م س. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1967، ص227. وقد أشار إلى استخدام الرنوك في المشرق والمغرب منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

(3) د. سعد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص352.

(4) د. سعد ماهر: ن م، ص352

(5) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص339. وأبو شامة: الروضتين، ج2، ص11، حيث بلغت قطع أسطوله عام 575هـ/1879م. نقلاً عن

ابن أبي طي، ستين سفينة وعشرين طراداً.

(6) أبو شامة: ن م، ج2، ص22.



حجارة صغيرة أو قوارير النفط الحارقة لرمي الأعداء بها، كما زودت السفينة باللحام "أداة كالفأس في مقدمة السفينة مكونة من حديدة طويلة كسنان الرمح لتتقب سفن العدو، والكلاليب التي يسحبون بها سفن العدو، والألواح كالجسور الخشبية التي يعبرون عليها ويقاثلون جنودها<sup>(1)</sup>. وقد فتح باسطوله عكا وحاصر مدينة صور وكانت له قواعد بحرية في مصر وببيروت. وقام الاسطول بواجبه من حيث مهاجمة موانئهم في عكا وإغلاق راحتهم على الساحل الفلسطيني وساحل البحر الأحمر برده غارة ارناط صاحب الكرك قرب ايله عام 578هـ/ 1182م<sup>(2)</sup>. فاثبت وجوده في البحر الأحمر والبحر المتوسط وخاصة بعد موقعة حطين 583هـ/ 1187م، واستيلائه على عكا، وهكذا كان الاسطول اليد العاملة الثانية بجانب القوات البرية لاجراج الصليبيين من ساحل الشام.

ولكن مما يؤسف له عدم اهتمام خلفاء صلاح الدين بالاسطول بعد وفاته مما أدى لضعف قوته وأثره في المعارك مع الصليبيين<sup>(3)</sup> حتى أواخر الدولة الأيوبية عندما فكروا في الاهتمام به أيام الحملتين الخامسة 616هـ/ 1219م، والسابعة 646هـ/ 1249م على مصر<sup>(4)</sup>. هذا وقد وردت الراية الصلاحية الصفراء في قصائد المديح عند تحقيق النصر على الصليبيين<sup>(5)</sup>.

- (1) ماهر: البحرية في مصر، ص 203-204، والصالح: النظم الاسلامية، بيروت 1465، ص 517  
(2) كانت السفن تصنع في دار الصناعة بمصر وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال الى شاطئ البحر الأحمر حيث يتم تجميعها وتركيبها بقيادة الحاجب حسام الدين لولو وانتصر على اسطول ارناط الصليبي. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج 2، ص 788.  
(3) المقرئزي: المراعظ والاعتبار، ج 2، ص 194.  
(4) التويري: نهاية الأرب، ج 28، ورقة 192، مخطوط ذكر وصية الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه بالاهتمام بالاسطول لمواجهة الأعداء.  
(5) قصيدة الشاعر بهاء الدين أبو الحسن الساعاتي الخرساني (ت 604هـ/ 1207م) الذي هنا بها صلاح الدين الأيوبي عند انتصاره على الصليبيين عام 575هـ/ 1179م في بيت الأحرار قائلاً:

"وما رُفعت أعلامك الصفر ساعة  
الى أن غدت أكبادها السود ترجفُ  
كبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ  
وساد به دينٌ حنيفٌ ومصحفُ  
أتسكن أوطان النبين عصبه  
تمين لدى إيمانها حين تحلفُ  
نصحتكم - والنصح في الدين واجبُ  
فدروا بيت يعقوب، فقد جاء يوسفُ"

كما مدحه الشاعر: العلم الشاتاني بقصيدته الرائية:

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا  
فسر واملك الدنيا فأتت بها أخرى

انظر "ابن خلكان: م س، ج 7، ص 211، والبنداري: سنا البرق الشامي، ج 1، ص 250، وأبو شامة: م س، ج 1، ق 2، ص 696.

وهكذا كانت الراية على مر العصور التاريخية رمزاً للسيادة حيث ترفع على مؤسسات الدولة والقلاع والحصون والمؤسسات الحربية الرئيسة، كما كان التقليد العسكري في الحرب نزع راية المهزوم ورفع راية المنتصر مكانها<sup>(1)</sup>.

### التعبئة والتموين في جيش صلاح الدين

فبالنسبة للعبئة فقد اختار القادة العسكريين الأفاضل القادرين على القتال المستمر دون هوانة بالإضافة إلى التخطيط المسبق للمعارك ومتابعته للجند في جميع معاركه<sup>(2)</sup>. وكان يقسم جنده إلى عدة أقسام لراحتهم لمواصلة القتال<sup>(3)</sup>. واستخدم في تنظيم جيشه أثناء المعركة المقدمة والقلب الذي يوجد فيه مع حرسه الشخصي والميمنة والميسرة والمؤخرة أو الساقة بالإضافة إلى فرق الاستطلاع والكمائن<sup>(4)</sup>.

أما التموين أثناء المعركة: فقد اعتمد الجندي على ما يحمله من مواد غذائية بسيطة بالإضافة إلى ما يستولي عليه من مؤن العدو<sup>(5)</sup>. هذا بالإضافة إلى قافلة التموين المرافقة للجيش والتي تحمل ما يحتاجه الجند من سلاح وغذاء توزعها جماعة خاصة على القادة والأمراء لتوزيعها على جنودهم.

بينما كانت راية الصليبيين المصنوعة من خرقة بيضاء على شكل صلبان وكانت تحمل على عربة مسحوبة بالبعال: "ابن شداد: النوادر، ص 149، وابن واصل: م س، ج 2، ص 343. وربما يشبه الآن علم منظمة الصليب الأحمر الدولية.

(1) كما فعل الصليبيون عند احتلالهم عكا وانزاعهم علم الاسلام: انظر ابن شداد: النوادر، ص 171، وابو شامة: م س، ج 2، ص 188.

(2) البنداري: م س، ج 1، ص 210-211.

(3) ابن شداد: م س، ص 92.

(4) سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص 225.

(5) ابن شداد: ن م، ص 53، 62، أبو شامة: ن م، ج 1، ص 27.

## المؤسسات الإدارية العسكرية الأيوبية

أولاً: ديوان الجيش: المختص بشؤون الجيش حيث يشرف على جميع الشؤون العسكرية وخصص له صلاح الدين الأيوبي ميزانية كبيرة للصرف على الأجناد بالإضافة الى توزيع اقطاعاتهم<sup>(1)</sup>.

وهو ما يشبه وزارة الدفاع اليوم ويتولاه خبير مسلم برتبة عالية<sup>(2)</sup>، إلا أن مسؤوليته تنحصر في معرفة أحوال الجند، وتسجيل الأمور الخاصة بحضورهم وغيابهم وأوضاعهم الصحية ووفاتهم<sup>(3)</sup>. وقد تولى ديوان الجيش أيام صلاح الدين في مصر، المهذب بن أبي المليح مماتي حتى وفاته (577هـ/1181م)، إذ تولاه ابنه الأسعد: "صاحب كتاب الدواوين" سيرة صلاح الدين " وقوانين الدواوين"<sup>(4)</sup>.

(1) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص360، 361، جب: م س، ص202-203

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص488.

(3) ن.م. ن.ص

(4) العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شؤون مصر، نشر أحمد أمين، شوقي ضيف، وإحسان عباس، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1990، ج1، ص13.

## ثانياً : البريد والاستخبارات العسكرية الأيوبية :

لقد خصص الأيوبيون ديواناً خاصاً لتنظيم أمور البريد العسكري حيث كان موظفو البريد يرسلون الأخبار بواسطة الأبل السريعة "النجب"<sup>(1)</sup>، التي تنتقل بين المحطات البريدية المزودة بالماء والزاد والعلف. حيث يستبدلون هناك هجناً مستريحة لإكمال واجبهم بأقصر وقت<sup>(2)</sup>. كما امتاز بريد واستخبارات صلاح الدين الأيوبي بالتفوق في الاداء على بريد الصليبيين<sup>(3)</sup>، كما اشترى العملاء الصليبيين لتزويده بأخبار قومهم عند عزيمتهم الهجوم على عكا<sup>(4)</sup> وأخبار الحملة الألمانية<sup>(5)</sup>.

كما استخدم موظفو البريد الحمام الزاجل والسباحين لمعرفة أوضاع المسلمين المحاصرين في عكا وإرسال المال اللازم لهم فالبطل الأيوبي العوام عيسى الذي كان يخترق الحصار البحري الصليبي على عكا للوصول الى المسلمين بعد تثبيت قطع الذهب والرسائل المشمعة على وسطه والحمام في يده<sup>(6)</sup>.

(1) النجيب من الأبل: هو القوي منها وسريع الحركة. انظر الزبيدي، أبو الفيض محب الدين محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت1206هـ/1791م: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ، ج1، ص477. بينما كان البريد يرسل قبل آل زنكي والأيوبيين بواسطة خيول مقصوصة الأذنان تميزاً لها عن غيرها، وانظر العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص186-187، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص37. ومحمد كرد علي: خطط الشام، مطبعة الزرق، دمشق، 1925، ج5، ص18.

(2) د. عطية مصطفى مشرقة: نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين، مطبعة الاعتماد، منشورات الفكر العربي، ص132. الأوسي عمر بن ابراهيم: اوائل القرن التاسع الهجري/ اوائل القرن الخامس عشر الميلادي. تفريج الكروب في تدبير الحروب، حققه وترجمه الى الإنجليزية الدكتور جورج مكائون، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 1961م، ص17، حيث ذكر صفات موظفي البريد "العيون والجواسيس" ذوو حكمة وفراسة وشجاعة وذكاء ودهاء وصاحب حيل وخداع خبير بالاسفار.

(3) نسيمان، م س، ج2، ص671، 673، نقلاً عن وليم الصوري يذكر حادثة هزيمة صلاح الدين سنة 573هـ/1177م، في الرملة جنوب فلسطين ونجاح بريد صلاح الدين في القضاء على الشائعات في مصر بمقتل صلاح الدين وخوفاً من انقضاء الطامعين في الحكم على الحكم الايوبي.

وانظر Treece, Henry: The Crusades, New York, 1962, p131

وأبو شامة: م س، ج1، ق2، ص207، والبنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت في القرن السابع هـ/الثالث عشر الميلادي: سنا البرق الشامي "تلخيص الرق الشامي" للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت 1971م، ج1، ص260.

(4) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص131، 134.

(5) ن. م. ص140.

(6) ن. م. ص135-136، وانظر العماد الأصفهاني: م س، ص423، وأبو شامة: ن م، ج2، ص16.

### ثالثاً : اليزك<sup>(1)</sup> "فرق الاستكشافات"

والتي ترسل الى جهة العدو قبل تحرك الجيش نحوه. بخلاف الجاليش الجزء الأمامي من مركز القلب. هذا وكانت مهمة اليزك ايصال المعلومات العسكرية الحالية لقيادة الجيش بالسرعة الممكنة بما يشبه الاستخبارات العسكرية في الجيوش الحديثة اليوم. وكانوا يركبون الجياد الهادئة السريعة ويتحاشون الاشتباك مع العدو<sup>(2)</sup>.

وكان يتولى أمر اليزك شخصيات عسكرية كبيرة من الامراء وغيرهم كالملك العادل أخي السلطان<sup>(3)</sup> وابنه الملك الأفضل<sup>(4)</sup> وكبار امرائه<sup>(5)</sup> الذين يتناوبون على قيادة اليزك<sup>(6)</sup> كما كان واجب اليزك تفقد أحوال المدن خاصة بيت المقدس حين هدها الصليبيون بعد تحريرها عام 583هـ/1187م برئاسة أخيه الملك العادل الذي سار في رمضان عام 587هـ/1191م<sup>(7)</sup>.

ثم أضاف صلاح الدين مهمة الكمائن لليزك بعد ذلك كما حدث في طريق يافا بقيادة الأمير بدر الدين دلدرم الذي كمن حول الطريق لقافلة صليبية تحمل أرزاقاً ونجح في الاستيلاء عليها<sup>(8)</sup>، ثم أمر اليزك فيما بعد بمقاتلة الصليبيين في مناسبات كثيرة من حيث حماية الجيش الأيوبي من هجوم مباغت كما حصل عند انطاكية<sup>(9)</sup>، وكاد مرة يأسر الملك ريتشارد، قلب الاسد، بعد اصابته بطعنه<sup>(10)</sup>.

وهكذا يلاحظ أهمية التنظيم العسكري الذي ضم في صفوفه خيرة الجنود والفرسان وأشجعهم، وكانت أعدادهم تتوقف على نوع المهمة التي يقومون بها فوصل الى ألف فارس

(1) اليزك: كلمة فارسية معناها طلائع الجيش، ابن واصل: م س، ج 1، ص 38، هامش 3 وانظر أدبي شير: الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1908م، ص 16. ومحمد التوحي: المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت ط 1، 1969، ص 619.

(2) الأوسي: تفريخ الكروب، ص 601، والمهرمقي: مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون، القاهرة، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص 48-49.

(3) ابن شداد: م س، ص 192.

(4) ابن الأثير: الكامل: ج 12، ص 69.

(5) ابن شداد: ن م، ص 212، 217، 231، والعماد الأصفهاني: م س، ص 541، 542. وأبو شامة: م س، ج 2، ص 191.

(6) ابن شداد: ن م، ص 182.

(7) ن.م. ص 192، 231.

حول عكا حينما غادرها صلاح الدين، كما نلاحظ تطور مهماته من استطلاع أخبار العدو الى المواجهة العسكرية مع العدو الصليبي والدفاع عن المدن الاسلامية والجيش الأيوبي بالاضافة للكمان والهجوم ومفاجاة العدو بهجوم سريع.

رابعاً : حمام البريد "الحمام الزاجل" أو الحمام الهواذي لقدرته العجيبة على الإهتمام إلى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة<sup>(1)</sup> ولهذا ارتفعت اثنائه إلى ما يزيد عن ألف دينار حتى وصل ثمن بيضه الى عشرين دينار ايضاً<sup>(2)</sup>. كما كان لهذا الحمام البريدي مطارات منتظمة "الأوكار" يشرف عليها حراس "براجون" للإعتناء بشؤون الحمام من تدريب وإطعام وإطلاق واستقبال وراحة<sup>(3)</sup>. ويمنع البراج من قطع الرسالة من رجله بل يأخذه للسلطان لوجود اسرار عسكرية وغيرها حتى ولو كان السلطان نائماً فيوقظه مراعاة للأمور العاجلة<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة للرسائل التي يحملها الحمام فقد كانت خالية من البسملة وعلى ورق خفيف مؤرخه بالساعة واليوم، وتربط تحت الجناح لحمايتها من المطر، ثم تنقل في البرج الثاني لجناح حمامة أخرى وهكذا حتى ينتهي الى برج المدينة التي فيها السلطان أو الشخص المرسل اليه ليفتحها بنفسه<sup>(5)</sup>. وكان من الاجراءات الاحترازية لتأمين وصول الرسائل هي كتابتها على نسختين وإرسالها مع حمامتين يفصل بينهما فارق من الزمن بما يقارب الساعة حتى إذا قُتِلت إحدى الحمامتين بواسطة الطيور الجارحة أو وقعت في أيدي الأعداء أمكن الاعتماد على

(1) الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1938، ج3، ص214. وسماء الدميري: "الشيطانة، انظر الدميري، كمال الدين أبو البقاء (ت808هـ/1405م) حياة الحيوان الكبرى، دار الطباعة، القاهرة 1292هـ، ج1، ص296. بينما وصفه القاضي الفاضل باسم "ملائكة الملوك" لامنته. انظر ابو شامة: م س، ج1، ق2، ص521. والسيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص166. وأمين الخولي: المجدية والسلم، مطبعة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة 1960، ص72. بأنه يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد "اي حوالي ألف كيلو متر في الساعة" ويرى بأن هذا غير معقول وفيه مبالغة.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص39.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص184، يذكر المسافة بين مطار وآخر 4 فراسخ أي حوالي 12 كم.

(4) السيوطي: ن م، ج2، ص166.

(5) القلقشندي: ن م، ج1، ص119.

الحمامة الأخرى<sup>(1)</sup>. هذا ومن المعلوم بأنه كان للحمام الزاجل البريدي شأن كبير في مخابرات الأمم القديمة إلا أن المسلمين كانوا أكثر عناية به من سواهم<sup>(2)</sup>. وخاصة زمن الدولة الأتابكية أيام نور الدين محمود وبعده صلاح الدين الأيوبي نظراً لظروف الصراع مع الصليبيين<sup>(3)</sup>. وبالنسبة لمحطات الحمام في فلسطين: فقد وجدها الأيوبيون إرثاً عن الزنكيين وكل ما فعله صلاح الدين أنه زاد من ربط الشام بمصر بواسطة البريد الجوي من بلبيس الى الشام والصالحية وقطياً<sup>(4)</sup> ثم الى غزة جنوب فلسطين ومنها إلى مدينة الخليل ثم الى اللد ومنها الى قاقون<sup>(5)</sup> ثم أتى جنين وصفد وبيسان واربد وطفس والصنمين<sup>(6)</sup> ودمشق. كما كان هناك خط من كل من هذه المراكز الى ماجاورها من المدن. فمن بيسان الى أذرعات<sup>(7)</sup>. كما كان الجيش الأيوبي يصطحب معه حمام الجهة التي ينوي الاتصال بها أو طلب المعونة<sup>(8)</sup> منها هذا كما استخدم الأيوبيون رموزاً خاصة لا يفهمها العدو بما يسمى اليوم بالشفيفرات<sup>(9)</sup>. ولم يذكر المؤرخون أية إشارة حول استعمال النار والدخان في عهد صلاح الدين أو نور الدين كإحدى وسائل الاتصال البريدي عند المغول الذين استعملوه في الشام وإيران<sup>(10)</sup>.

(1) الفلقشندي. ص 118-119، ويذكر المقرئري بأنه جرت العادة ألا تطلق الحمامة في الجو المطر ولا قبل تغذيتها: المقرئري: الخطط، مطبعة الأوفست، ج2، ص 231-232.

(2) جورج زبدان: تاريخ التمدن الاسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، مؤسسة خليفة للطباعة بيروت، 1967، ج1، ص 233.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريق، ص 196، الذي يقول أن نور الدين استخدمه عام 565هـ/1169م. والظاهر: زبدة كشف الممالك ص 117، ود. عطية مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، مطبعة الاعتماد، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص 132-136). وانظر ابن الاثير: الباهر: ص 37، حول استخدام الأتابكة للحمام. والظاهر: زبدة كشف الممالك ص 117. ومادة بريد: حول استخدام الأتابكة للحمام في دائرة المعارف الاسلامية، ص 1933، ج3، ص 610 بقلم هاريمان، والعماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص 119، وأبو شامة: م س، ج1، ص 520-521، وابن واصل: م س، ج1، ص 28.

(4) قطيا قرية مصرية قرب الفرما: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 374.

(5) قاقون: اسم حصن قرب الرملة بفلسطين على مسافة نصف يوم من قيسارية الحموي: ن. م. ج 4، ص 299. بنيامين التطللي: رحلة بنيامين، المطبعة الشرقية سنة 1954، ص 95.

(6) الصنمين: قرية في أوائل حوران من أعمال دمشق، بينها وبين دمشق مرحلتان. الحموي: م س، ج3، ص 431.

(7) أذرعات: بلد في أطراف الشام تجاور أرض البلقاء، وعمّان: ن، ياقوت الحموي: ن. م. ج 1، ص 130.

(8) ابن الاثير: الكامل، ج 11، ص 452-453، يذكر عام 574هـ/1178م حين هاجم الصليبيون دمشق وارسال صلاح الدين ابن اخيه عز الدين لنجدتها فأمره باعلامه باخباره عند وصوله دمشق. انظر أبو شامة: م س، ج 2، ص 6 في جادته 575هـ/1179م وانظر ابن شداد: النوادر، ص 141، في احداث عكا عام 586هـ/1190م مع الصليبيين.

(9) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 360.

(10) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص 35، وهذا يبرز الفروق الحضارية عند المسلمين والمغول.

ويهمنا أن نشير الى دور القبائل العربية في جيش صلاح الدين الأيوبي حيث استخدمهم في الكمائن<sup>(1)</sup> للعدو الصليبي التي تختبئ وتباغت العدو وتوقع به في مناوشات محدودة تقوم بها سرية<sup>(2)</sup> أو جريدة<sup>(3)</sup> من المحاربين فقد ساعدت أحراش فلسطين الكثيفة وجبالها الوعرة على صلاحيتها للكمائن المعدة للعدو الصليبي حتى تحرق الأرض تحت قدميه فتجعله لا يشعر بالأمان بما يشبه العمل الفدائي اليوم والمغاوير<sup>(4)</sup>. كما حدث في كمين شمال عكا في 22 شوال عام 586هـ/1190م الذي سماه المؤرخون وقعة الكمين.

هذا وقد استمر صلاح الدين الأيوبي في استخدام الكمائن حتى وقع صلح الرملة مع ريتشارد قلب الاسد.

ويلاحظ أن قيادة صلاح الدين الأيوبي كانت جماعية واستشارية ولم تكن فردية دكتاتورية إذ كان يساعده في التخطيط وإدارة المعارك مجلس حربي بما يشبه اليوم "أركان الجيش" المكون من صلاح الدين وإخوته خاصة العادل وأولاده الكبار "الأفضل علي" و"غازي" وأولاد أخيه أمثال "تقي الدين، عمر" و"خالد شهاب الدين محمود الحارمي" وكبار الأمراء والقادة القدامى والجدد ومستشاره "القاضي الفاضل" وقاضي العسكر "بهاء الدين بن شداد" المؤرخ، و"قراقوش" وسيف الدين الهكاري، وغيرهم من الأمراء. فكان صلاح الدين يستشيرهم قبل بدء المعارك وعند الحصار والضرورة<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ على هذه التشكيلية الاستعانة بالأقارب كالأنظمة الملكية اليوم.

ويلاحظ أيضاً أن صلاح الدين كان يشاور أصحابه في كل المناسبات والأحداث الخطيرة ويأخذ برأي الأكثرية حفاظاً على مصالح المسلمين وحرصاً على احترام رأي امرائه.

(1) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص294، ابن شداد: النوادر ص101، ابن الأثير: الكامل، ج11، ص303-31، وأبو شامة م س، ج2، ص141، وابن واصل: م س، ج2، ص294.

(2) السرية: مجموعة من العساكر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت429هـ/1036م) فقه اللغة وسر العربية مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1959م، ص329.

(3) الجريدة: قلة من العساكر أقل من السرية، جردت من سائرها ن م، ن ص.

(4) ابن شداد: النوادر: ص150، العماد: ن م، ص448، وأبو شامة: ن م، ج1، ص18. ذكر أن عدد الكمين 400 فارس نقلاً عن البرق الشامي.

(5) ابن شداد: ن م، ص114، 126، 131، 203، 204. حيث يروي ما كان يحدث في جلسات المجلس الحربي لأنه كما عضواً فيه وانظر : العماد: ن م ص322-324، 393-394، 413. وأبو شامة: ن م: ج2، ص146.



## ثامناً : السياسة الخارجية لمملوك أيوب

### أولاً: مع الخلافة العباسية:

لقد توطدت العلاقة بينهما حين أسقط صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية في مصر عام 567هـ/1171م وإعلان الخطبة للخليفة العباسي، الأمر الذي دفع الخلافة العباسية إلى إرسال الخلع والتشريعات لصلاح الدين الأيوبي احتفالاً بعودة الوحدة للعالم الاسلامي بعد انقسامه زهاء قرنين من الزمان من قيام الخلافة الفاطمية 358-567هـ/ 969-1171م<sup>(1)</sup> فما كان من صلاح الدين إلا إكرام رسل الخليفة العباسي لتأكيد ولائه الدائم للخلافة العباسية وكسب الشرعية في كل الأعمال التي يقوم بها، ثم أتبعها بخطوة راسخة من العلاقات باقتلعه جذور التشيع من مصر. كما حرص خلفاؤه على إعلان تبعيتهم الاسمية والروحية للخلافة العباسية والاعلان دائماً عن الولاء له رغم ضعفها وانحلالها، وذلك لصبغ حكمهم بالصبغة الشرعية كما فعل الابن الأكبر لصلاح الدين الأفضل<sup>(2)</sup> صاحب دمشق بعد وفاة ابيه 589هـ/1193م إذ أرسل ارسال هدية للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) الصليبوت الذهبي "الصليب" الذي غنمه صلاح الدين في معركة حطين والذي يزن عشرين رطلاً بالإضافة للتحف الجميلة الأخرى<sup>(3)</sup>.

وكذلك فعل الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب<sup>(4)</sup> والسلطان العادل الأيوبي، بعد سيطرته على مصر والشام 599هـ/1202م. حين أرسل الهدايا للخليفة الناصر لدين الله<sup>(5)</sup>.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج11، ص368-371، البنداري: سنا البرق الشامي، ج1، ص115-117، ابن واصل: م س، ج1، ص200،

المقريزي: السلوك ج1، ص47.

(2) أرسل رسالتين: من انشاء العماد الكاتب للخليفة العباسي ذكرهما ابن واصل: ن م، ج3، ص5-8.

(3) أبو شامة: م س، ج2، ص225، العماد الاصفهاني: م س، ص65، وابن واصل: ن م، ج3، ص8، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص435.

(4) ابن واصل: ن م، ج3، ص9.

(5) ابن واصل: ن م، ج3، ص206، أبو شامة: ن م، ص33، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تارسخ العصور الوسطى، ص80. وانظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج8، ص534، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ج5، ق1،

ص63-65، وأبو الفداء: المختصر: ج3، ص108-109، ابن ابيك: كنز الدرر، ج7، ص166.

وهكذا يتضح لنا حرص الأيوبيين على احترام الخليفة العباسي لإضفاء الشرعية على حكمهم. لمكانة الخلافة العباسية في نفوس عامة المسلمين في بلاد الشام بصفة الخليفة العباسي إماماً للمسلمين ورمزاً للوحدة. وذلك على الرغم من ضعفها وعدم قدرتها على التأثير في سير الحوادث في التصدي للصليبيين<sup>(1)</sup>.

وتمسك حكام بني أيوب بهذه العلاقة حتى في أيام الصراع الداخلي بينهم كما حدث بين المعظم واخويه الكامل والأشرف عام 622هـ/1225م<sup>(2)</sup>. لأنهم كانوا يرون في الخلافة العباسية الملاذ الأخير لهم وقت الأزمات كما حصل مع ابن الناصر داوود وعمه الكامل عام 633هـ/1235م حينما لجأ ابن الناصر مستغيثاً بالخليفة العباسي المستنصر بالله، فذهب معه الهدايا، فخلع عليه وعلى أصحابه بعد أن مدحه بقصيدة:

فأنت إمام العدل والعرف الذي	به شرفت أنسابه ومناصبه
ويأتيك غيري من بلاد قريبة	له الأمن فيها صاحب لايجانبه
فيلقى دنواً منك لم ألق مثله	ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه <sup>(3)</sup>

وعاد الى دمشق مع رسول الخليفة لعمه العادل، فقبل شفاعته الخلافة فيه<sup>(4)</sup> وهكذا لعبت الخلافة العباسية دوراً في رأب الصدع وتسوية الخلافات بين ملوك بني أيوب في الوقت الذي دهم فيه خطر المغول من الشرق عام 635هـ/1237م<sup>(5)</sup>، لأنها كانت أكثر إحساساً بخطر المغول الذين هددوا عاصمة الخلافة العباسية مع اقترابهم من بغداد في الوقت الذي اشتد فيه الصراع بين مماليك مصر وبقايا الأيوبيين في بلاد الشام الأمر الذي دفع الخليفة العباسي الأخير المستنصر بالله للسعي في توحيد جهود المسلمين عندما أرسل رسالة الى الناصر يوسف

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ص204.

(2) سبط ابن الجوزي: م س، ج8، ص634، ابن تغري بردي: م س، ج6، ص260-261، أبو شامة: م س، ص147-148، ابن كثير: م س، ج13، ص112، ابن ابيك: م س، ج7، ص280-281.

(3) نص القصيدة في تاريخ ابن الفرات، ج6، لوحة 333-336، مخطوط ابن واصل: م س، ج5، ص102-106.

(4) ابن واصل: ن م، ج5، ص110-114، ويذكر ابن واصل بأنه رافق الناصر داوود الى الكرك بعد خروجه من دمشق سنة 633هـ ومعه الأعلام السود التي جعلها رنكة:

والرنك: جمع رنوك: لفظ فارسي معرب معناه اللون، ومعناه الشعار أو العلامة التي يتخذها الشخص لنفسه ويفرد بها دون غيره وينقشها على أبواب بيوته وممتلكاته، كما يضعها على سروج خيوله وسيوفه ابن واصل: ن م، ج5، ص112.

(5) ابن واصل: ن م، ج5، ص152، ابن كثير: ن م، ج3، ص148. والمقرئ: السلوك، ج1، ص257-258.

الأيوبي صاحب حلب يأمره فيها لمصالحة المعز أيبك التركماني في مصر وأن يتفقا على حرب التتار وذلك عام 651هـ/ 1253م و 654هـ/ 1256م، 656هـ/ 1258م<sup>(1)</sup> حين طلب من المعين صاحب الكرك والناصر داوود إرسال العساكر لمواجهة المغول، فسار الناصر داوود نحو بغداد ماراً بدمشق حيث بلغه آنذاك سقوط بغداد بأيدي المغول<sup>(2)</sup>.

وهكذا ظلت الخلافة العباسية حتى آخر لحظة من عمرها تنهض بمسؤولياتها وتعمل قدر طاقتها على توحيد جهود المسلمين لمواجهة الأخطار الخارجية الصليبية والمغولية.

### علاقة الأيوبيين مع السلاجقة:

لقد فرض الوضع الجغرافي لدولة سلاجقة الروم بجواره للدولة الأيوبية في شمال الشام وأعلى الجزيرة علاقات متشابكة بين الدولتين، تميّزت بالجنب والشّد حسب مصالح الطرفين، حيث ساد الود حيناً والمنافسة والعداء حيناً آخر كما حدث زمن صلاح الدين الأيوبي من علاقات حسنة<sup>(3)</sup>، بينما ساءت زمن أخيه العادل عندما استولى على ممتلكات ابن أخيه الأفضل ابن صلاح الدين في شمالي الجزيرة، مما دفع الأفضل سنة 597هـ/ 1203م إلى انحيازه لسلطان سلاجقة الروم وخطب له ببلاذ نكاية في عمه العادل، مما دفع السلاجقة إلى إرسال الخلع للأفضل وضرب السكة باسمه<sup>(4)</sup>.

كما احتفظ الملك الظاهر في حلب بعلاقات حسن الجوار مع دولة السلاجقة الروم لتداخل الحدود بينها ولعدم قدرته على مجابهة السلاجقة ثم ساءت العلاقات بينهما لطمع سلطان سلاجقة كيكافوس في قلاع حلب بل في حلب نفسها عام 616هـ/ 1118م عندما انتصر عليه الأشرف بن العادل وفشلت حملته على حلب<sup>(5)</sup>. ولكن العلاقات عادت إلى طبيعتها بعد موت كيكافوس سنة

(1) بيريوس: التحفة المملوكية، ورقة 7أ، وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 55-56. والمقريزي: السلوك، ج 1، ص 331، 398، وابو الفدا: م س، ج 3، ص 177.

(2) أبو الفدا: المختصر، ج 3، ص 195، وابن تغري بردي: م س، ج 7، ص 25، وسعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص 81-82. وابن كثير: م س، ج 13، ص 184.

(3) ابن الأثير: الكامل: ج 2، ص 761، 201.

(4) ن. م. ج 2، ص 182، 183، ابن راصل: م س، ج 3، ص 150-153، ابن كثير: ن م، ج 13، ص 41.

(5) ابن الأثير: ن م، ج 12/ ص 349، وابن العديم: زبدة الحلب، ج 3، ص 183، ابن راصل: م س، ج 3، ص 286.

616هـ/ 1219م وتولّى أخيه العرش<sup>(1)</sup> "علاء الدين كيغياذ بن كيخسر" و"616-634هـ/ 1219-1236م" إذ أرسل الأشرف واتفق معه بينما ساءت العلاقات بين السلطان الكامل الأيوبي وأخيه الملك الأشرف مع سلاجقة الروم وحدثت بينهما حروب استمرت من 631-633هـ/ 1234-1236م حتى استعاد الرها وحران من السلاجقة<sup>(2)</sup>.

وهكذا استمرت العلاقة ضعيفاً وهبوطاً حسب المصالح المشتركة والظروف السياسية التي فرضت نفسها على المنطقة.

### علاقة الأيوبيين مع الدولة الخوارزمية:

لقد أدّى الصراع بين ملوك بني أيوب إلى استجداد بعضهم بالخوارزمية الذين لم يعرفوا الإخلاص والولاء إلا لمن يدفع أكثر كما حدث عام 637هـ/ 1239م بعد اعتقال الصالح أيوب بالكرك<sup>(3)</sup>. وكذلك عام 640هـ/ 1242م<sup>(4)</sup> وعام 644هـ/ 1246م<sup>(5)</sup> ولكن الدور الإيجابي الذي يستحق الذكر في بلاد الشام حينما استجابوا لدعوة الصالح أيوب لاسترداد بيت المقدس عام 642هـ/ 1244م من الصليبيين<sup>(6)</sup>.

وهكذا نرى دور الخوارزمية والسلاجقة المزدوج والمتناقض في الوقت نفسه في بلاد الشام، حيث نشروا الخراب والدمار في بلاد الشام والجزيرة واضعفوا الحياة الاقتصادية

(1) ابن العديم: م س، ج 3، ص 188، ابن واصل: م س، ج 4، ص 30/ 5، ص 184، المقرئ: السلوك، ج 1، ص 221، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: مخطوط ج 6، لوحة 434-435، مخطوط. وابن كثير: م س، ج 13، ص 146، وابن الأثير: الكامل، ج 12، ص 489.

(2) انظر: ابن واصل: ن م، ج 5، ص 34، 74، 76، 77، 78، 82، 98، 99، 109، 110، المقرئ: ن م، ج 1، ص 247-248، وابن العديم: زبدة الخلب، ج 3، ص 216-218، وابن الفرات: ن م، ج 6، لوحة 257، لوحة 260-261، أبو الفداء: م س، ج 3، ص 154-155، وابن تغري بردي: م س، ج 6، ص 282-283، وابن كثير: ن م، ج 13، ص 144، وابن أبيك: كنز الدرر: ج 7، ص 315-316.

(3) انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج 5، ص 178-179، 205-506، وسبط ابن الجوزي: م س، ج 8، ص 704، أبو الفداء: المختصر، ج 3، ص 162، المقرئ: السلوك، ج 1، ص 269، 280.

(4) ابن العديم: ن م، ج 3، ص 262-265، ابن واصل: ن م، ص 309-311، وانظر أبو الفداء: ن م، ج 3، ص 171، سبط ابن الجوزي: ن م، ج 8، ص 738.

(5) ابن واصل: ن م، ج 5، ص 313-314.

(6) ن م، ص 282-287.

والعمران قبيل الغزو المغولي، من ناحية، بينما ساهموا في استرداد بيت المقدس من ناحية أخرى.

### ثانياً: علاقة الأيوبيين مع القوى غير الإسلامية:

كمملكة أرمينية الصغرى: غربي الفرات وشماله، لقد ساهم ملوكهم في مساعدة الصليبيين في تأسيس أول إمارة صليبية في الرها 491هـ/1098م<sup>(1)</sup>. ووقفوا في الجهة المعادية للمسلمين واستمروا في عدائهم أيام الحملات الصليبية على بلاد الشام وخاصة زمن ملكهم ليو الثاني<sup>(2)</sup>. حيث دخل في صراع عسكري مع ملوك الأيوبيين وخاصة زمن الملك الظاهر وعمه العادل<sup>(3)</sup>.

أما مع الامبراطورية الرومانية المقدسة: فقد أصبحت العلاقات حسنة بعد أخذ الامبراطور فردريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية "بيت المقدس" عن طريق الصلح من السلطان الكامل الأيوبي عام 626هـ/1229م واتسمت علاقة فردريك الثاني بالود والصداقة بصورة عامة مع المسلمين<sup>(4)</sup>.

ويرى بعض المؤرخين أن فردريك الثاني لم يَقمَ أيَّ اعتبار للبابوية ولا لمصالح الصليبية في بلاد الشام، حتَّى "بيت المقدس" لم يكن من أهدافه إلاَّ لحفظ مكانته في الغرب الأوروبي وإبطال أي حجة تنتزع بها البابوية ضده<sup>(5)</sup>. وبعد مدة عرض على السلطان الكامل إعادة بيت المقدس له<sup>(6)</sup>. ويرى البعض بأن ظروف الكامل الأيوبي الصعبة من حيث المنازعات الداخلية

(1) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينيا في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص 234-237.

(2) ابن واصل: م س، ج 3، ص 140، 153، 154-155، أبو الفدا: ن م، ج 3، ص 105، والمقريري: السلوك، ج 1، ص 162-163، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص 946.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 3، ص 156-158، وابن واصل: م س، ج 3، ص 170-171، وابن الأثير: الكامل، ج 2، ص 238-239، ابن تغري بردي، م س، ج 6، ص 190.

(4) ابن واصل: ن م، ج 4، ص 234، 242، 244-245. والمقريري: السلوك ج 1، ص 231-232. العليمي الحنبلي: م س، ج 1، ص 405-406، سبط ابن الجوزي: م س، ج 8، ص 655-656.

(5) المقريري: ن م، ج 1، ص 230، حيث ذكر رسالة فردريك لسفير الكامل فخر الدين الشيخ يعتذر فيه للكامل ويقول: "بأنه لولا بخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك فما له من غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج".

(6) ابن الفرات: م س، مخطوط، ج 6، ورقة 48، مخطوط. وابن واصل، ن م، ج 4، ص 246.

الأيوبية مع السلاجقة الروم والخوارزمية قد حالت بينه وبين استرداد القدس كيلا يفتح جبهة جديدة مع الصليبيين في بلاد الشام ومع البابوية والغرب الأوروبي<sup>(1)</sup>.

مع التزامه بموجب اتفاقية يافا مع الكامل بعدم المشاركة والمساعدة في أية حملة صليبية ضد أراض الدولة الأيوبية. وقد استمرت العلاقات المتينة بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان الكامل 635هـ/1237م أيام ابنه العادل الثاني<sup>(2)</sup>. وكذلك زمن الصالح أيوب الذي استولى على مصر والشام فتراسل بالود والصدقة مع فردريك الثاني 638هـ/1240م<sup>(3)</sup>. كما هو وضع الأمة العربية حالياً وخاصة السلطة الفلسطينية مع الصهاينة. واستمرت العلاقة الحسنة بين الامبراطورية الرومانية المقدسة ودولة المماليك البحرية زمن ما نفريد ابن فردريك عام 659هـ/1261م<sup>(4)</sup>.

### علاقة الأيوبيين مع المغول:

من المؤسف حقاً أن الناصر يوسف ملك بلاد الشام لم يكن يدرك أبعاد الخطر المغولي وطبيعة المرحلة القادمة<sup>(5)</sup> فأرسل ابنه العزيز محمد إلى هولاكو سنة 655هـ/1257م بالهدايا طالباً منه نجدةً لانتزاع مصر من أيدي المماليك<sup>(6)</sup>. ونحن نرى بأن ظروفه الصعبة في نزاعه مع ممالك مصر ومع المغيـث عمر صاحب الكرك ومع ركن الدين بيبرس قائد المماليك البحرية الفارين إلى الشام سنة 652هـ/1254م هي التي دفعته إلى ذلك ولكن لا نعتبر ذلك مبرراً للاستعانة بالعدو المغولي كنوع من الأمانة وحب الذات انطلاقاً من المصالح الشخصية.

(1) د. علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكة المكرمة، ط1، 1408هـ/1988م، ص363.

(2) ابن الفرات: م س، مخطوط، ج6، ورقة 48، مخطوط. وابن واصل: م س، ج4، ص246.

(3) رنيسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص382.

(4) يذكر ابن واصل انه ذهب في سفارة من قبل السلطان الظاهر بيبرس الى الملك مانفريد ابن فردريك. ابن واصل: ن م، ج4، ص248.

(5) رشيد الدين الحمذاني: جامع التواريخ، مجلد2، ج1، ص305، اليونيني: ذيل مرآة لزمان، ج، ص145، وابن تغري بردي: م س، ج7، ص56.

(6) المقرئزي: السلوك، ج1، ص410-411.

ومهما يكن فإن تخاذل ملوك وحكام بلاد الشرق الأدنى وتفرق كلمتهم قبل الغزو المغولي هو الذي مهد لانتصارات المغول<sup>(1)</sup>. وتجدر بنا الإشارة إلى وعي ركن الدير ببيرس قائد طائفة المماليك البحرية الهاربة لبلاد الشام بإدراكه خطر المغول حين طلب من الناصر يوسف سنة 657هـ/1259م أن يمدّه بأربعة آلاف فارس للسير إلى شاطئ الفرات لحراسته ومنع المغول من إقامة الجسور للعبور إلى بلاد الشام، ولكن للأسف رفض السلطان الناصر يوسف هذا الطلب فراسل السلطان سيف الدين قطز في مصر وتناسى الخلافات معه وسار إلى مصر وانضم إليه حيث لعب دوراً حاسماً في صد المغول بعد معركة عين جالوت<sup>(2)</sup>. كما تجدر الإشارة إلى حقيقة هامة في صراع المسلمين مع أعدائهم الصليبيين والمغول ومحاولتهم إقامة تحالف للقضاء نهائياً على المسلمين في بلاد الشام الذي لو نجح لكانت الكارثة الكبرى ولما تحقق النصر للمسلمين في عين جالوت حيث سيهددون مؤخرة جيش المماليك في فلسطين فكانت رحمة الله بالمسلمين المجاهدين من فشل جهود الغرب الأوروبي في إقامة هذا التحالف الصليبي المغولي باستثناء الدور الذي لعبه هيثوم ملك أرمينيا الصغرى الذي شارك في هجوم المغول على بلاد الشام وشاركه بوهيمند السادس صاحب انطاكية بينما تقاعس بقية الصليبيين عن إجابة هيثوم إلى طلبه<sup>(3)</sup>.

(1) قال اليوناني: "والله ما خرجت البلاد عن أيدينا إلا بتخاذل بعضنا عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى" اليونانيون ن م، ج1، ص344.

(2) ابن تغري بردي: م س. ج7، ص100-101.

(3) لمزيد من المعلومات: انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1048-1049، حسن حبشي: الشرق العربي بين شقي الرحى، ص36-37، جوفيل: القديس لويس، ص84، 87.

## تاسعاً : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية الطليبية

### مقدمة:

لقد عرف العرب والمسلمون أصول وقواعد الدبلوماسية ولم يعتمدوا على السيف فقط. كما بدا للبعض من المؤرخين الغربيين والمستشرقين الذين ألصقوا بالاسلام تهماً ومزاعم باطلة، فالقرآن الكريم وضع اسس الدبلوماسية في العلاقات الخارجية للمسلمين سلماً أو حرباً.

وقد وضحت الدبلوماسية الاسلامية للعالم في أدق مرحلة تاريخية من حياتها عندما تعرضت لعدوان الصليبيين<sup>(1)</sup> خلال قرنين من الزمان وبدا للكثير أن العلاقة كانت بين المسلمين والصليبيين عدائية ومعارك مستمرة لذا مازالت العلاقات الدبلوماسية العربية الاسلامية بحاجة لمزيد من الدراسة والبحث لتوضيح النشاط الدبلوماسي الاسلامي من حيث إيجاد الحلول للمشاكل مع أعدائهم قبل ايقاف القتال وتبادل الأسرى.

وعلى الباحث أن يميز في دراسته بين التاريخ السياسي العام والتاريخ الدبلوماسي وعليه أن يرجع الى الوثائق الدبلوماسية، وديوان الانشاء، وقواعد الشريعة الاسلامية التي تتعلق بالدبلوماسية والعلاقات السلمية، العلاقات الاقتصادية التي اسهمت في قيام تلك العلاقات، والدبلوماسية مصطلح قديم يرجع الى أصول كلاسيكية يونانية<sup>(2)</sup> ثم انتقل منهم الى الرومان ثم الى اللغات الأوروبية الحديثة كالفرنسية والانجليزية كما انتقل الى العربية وغيرها من اللغات. ومهما قيل عنها فإنها علاقات سلمية رسمية بين الدول تشمل عناصر ومقومات ومهام أساسية وتحتاج الى مهارة وحذق في إدارة العلاقات الدولية وإجراء المفاوضات.

(1) حسب تعريف المؤرخين الغربيين أو (الفرنجية) حسب تعريف المؤرخين العرب والمسلمين وعلى وجه التحديد من سنة 491-690هـ/1097-1291م وهم الأوروبيون الغربيون الذين استوطنوا الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

(2) د. عمر كمال توفيق، دراسة تحليلية زئاقية في التاريخ الدبلوماسي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1986، ص17: اشتقت من الفعل اليوناني diploo دبلو ومعناه: يطوي أو يثنى، ومنه جاء اسم تلك الوثيقة أو المكاتب الرسمية التي تطوى أو تثنى والتي عرفت باسم دبلوما diploma التي كان يعث بها الحكام وأصحاب السلطات بعضهم الى بعض في علاقاتهم الرسمية، وكانت تخول لحاملها امتيازات ومعاملة خاصة اثناء سفره لأداء المهمة الملقاة على عاتقه، وقد استخدم اللفظ بهذا المعنى السياسي أو المشرع الروماني شيشرون، وفي العصر الحديث اعتمد على معناها في معجم اكسفورد أي إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات بواسطة السفراء أو المبعوثين، وأن الدبلوماسية هي عمل الدبلوماسي وفنه في إدارة العلاقات انظر كلمة diplomacy في

The Oxford English Dictionary, by Lewis and Short.



وقد تدرجت العلاقات الدبلوماسية منذ التاريخ القديم فعرفت دول الشرق الأدنى القديم إبان ازدهار حضاراتها القديمة، ودول الإغريق والرومان، وفي العصور الوسطى انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين: القسم الغربي الذي اجتاحتها القبائل الجرمانية وانشأت به عدداً من الممالك والامارات المستقلة، وسيطرت عليه الكنيسة الكاثوليكية بزعامه البابوية، وساد فيه النظام الإقطاعي.

والقسم الشرقي الذي عرف ببلاد الروم أو الدولة البيزنطية، وساد فيه المذهب الارثوذكسي والثقافة الهلنستية، وكان لها نشاط واضح في استخدام الدبلوماسية في علاقاتها الخارجية، أما المسلمون فقد اعتمدوا على وسيلتين اساسيتين هما الجهاد والعلاقات السلمية أو الدبلوماسية. وقد ورد في القرآن الكريم ما يسمح للانسان باختيار دينه قال تعالى: "لا إكراه في الدين"<sup>(1)</sup> و "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" و "جادلهم بالتي هي أحسن"<sup>(2)</sup> كما ورد: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"<sup>(3)</sup> و "قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين"<sup>(4)</sup> و "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله...."<sup>(5)</sup> وهناك أيضاً "يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة"<sup>(6)</sup>.

هذا وقد اختلف فقهاء المسلمين في أصل علاقة الدولة الاسلامية بالدول غير الاسلامية ولكن من المؤكد أن المسلمين عرفوا العلاقات الدبلوماسية في سياستهم الخارجية منذ فترة مبكرة من تاريخهم، حيث اهتموا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة للدخول في هذه العلاقات وعقد الصلح والمعاهدات وفقاً لما تسمح به الشريعة الاسلامية زمن الرسول (ص)<sup>(7)</sup> والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وفقاً لما اقتضته الظروف حيث كان هناك دار الاسلام وهي البلاد

(1) سورة البقرة، آية 256

(2) سورة النحل، آية 125.

(3) سورة العنكبوت، آية 46.

(4) سورة البقرة، آية 190

(5) سورة الانفال، آية 61.

(6) سورة البقرة، آية 208

(7) انظر ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1383هـ/1963م، ج3، ص781، حيث عقد الرسول صلح الحديبية سنة 6هـ لمدة عشر سنين مع مشركي قريش ولم تدم سوى سنتين لأن أهل مكة نقضوا العهد.

الاسلامية ودار الحرب وهي البلاد غير الاسلامية التي لم يغلب الاسلام على أهلها وزاد عليها فيما بعد دار العهد أو الصلح<sup>(1)</sup> فقامت علاقات دبلوماسية بين دار الاسلام ودار الحرب.

### مصطلح المعاهدة والتعريف به

تحتل المعاهدات مكانة خاصة بين الوثائق الدبلوماسية، لأنها تحدد أسس التعامل السلمي بين الدول، أو لكونها المرحلة النهائية لجهود السفراء في مفاوضاتهم مع الطرف الآخر، لذا تعد المعاهدات مصدراً أساسياً لدراسة التاريخ الدبلوماسي. وبالنسبة للمسلمين كانت هناك شروط شرعية بصياغة معينة.

### مقارنة بين المعاهدة والاتفاقية:

يطلق مصطلح المعاهدة على العقود الدولية التي لها أهمية خاصة بالنسبة لأهدافها أو لموضوعها أو لمكانة الدول المشتركة بها في حين أن الاتفاقية تتضمن تعهدات ثانوية محدودة، قد تخص مسائل ثقافية أو تجارية أو اقتصادية.

لذا يصعب التمييز بينهما في بعض الأحيان<sup>(2)</sup>. وقد عرف المسلمون نظام العهود والمواثيق والتعامل مع المجتمعات السياسية غير الاسلامية منذ فجر الإسلام، من الناحية الشرعية واللغوية باستعمالهم كلمة عهد وما يُشتق منها، وجاءت في المعاجم العربية كلمات المعاهدة أو التعاهد، والتعهد والاعتهاد كأمر واحد، وهو إحداث العهد بما عهده.

والعهد هو كل ما عاهد الله عليه وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد. والمعاهد، من كان بينك وبينه عهد، وأطلق غالباً على أهل الذمة، وقد يطلق على الكفار إذا عقد معهم صلح لترك الحرب<sup>(3)</sup>.

(1) الشافعي: الامام ابو عبد الله محمد بن أدريس: الأم، ط1، القاهرة 1322. ص103-104.

(2) فاضل زكي: الدبلوماسية في النظرية والتطبيق، ص214-215 أو (عمر كمال، م س، ص189).

(3) السرخسي: شرح السير الكبير للشيخاني، ترجمة صلاح الدين المنجد وعبد العزيز حسن، ج5، القاهرة 1971-1972، باب 60، ص1689. وانظر مجيد خوري: الحرب والسلام في مشرعة الاسلام، بيروت، 1973، ص271-273. وانظر مادة عهد لسان العرب لابن منظور.

والعهد في القرآن الكريم أوسع من معناه في القانون الغربي "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم" (1) وقوله تعالى: "إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم أن الله يحب المتقين" (2).

وقد سمى المسلمون المعاهدات في المجتمعات السياسية الإسلامية باسم عقود الصلح ومع الدول غير الإسلامية: "المهادنة" و"الموادعة" أو "المسالمة" أو "المقاضاة" أو "المواصفة". و"المهادنة" في اللغة هي المصالحة، والاسم "هدنة"، و"الموادعة" لأن بمقتضاها تحل الراحة من تعب الحرب ومسؤولياته، والمسالمة لأن بتحقيقها يسلم كل من أهل الجبهتين من الآخر، و"المقاضاة" بمعنى الفصل والحكم لأن الاتفاقية تصف ما يوقع عليه الصالح وفي الشرع (3)، فالمهادنة وما يراد منها عبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر أو بين نائبيهما (4) وقد شهد النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي اضطراباً واضمحلالاً في قوى الفرنجة بالشام، نتيجة لتزايد الصراع الداخلي بإماراتهم والذي شمل الملوك والامراء الإقطاعيين والجماعيين الداوية والاسبتارية والقومينات التجارية في الشام، ناهيك عن انصراف دول الغرب عن القضية الصليبية لتتجه بمصالحها المحلية، فانتهت تلك الفترة بسقوط آخر المعقل الصليبية في الشام 1291م.

وهكذا نرى بأن للمعاهدات مكانة خاصة بين الوثائق الدبلوماسية لأنها تحدد أسس التعامل السلمي بين الدول وأنها المرحلة النهائية لجهود السفراء في مفاوضاتهم، لذا تعتبر المعاهدات مصدر أساسي لدراسة التاريخ الدبلوماسي، وبالنسبة للمسلمين في هذه الفترة، فقد برز السلطان بيبرس كبطل قومي في جمع كلمة المسلمين بعد صلاح الدين الأيوبي لتخليص البلاد الشامية من الحكم الأجنبي خاصة بعد انتصار المماليك على المغول في موقعة عين جالوت عام 658هـ/1260م. واستمراره في توجيه أشد الضربات للصليبيين لاسترداد البلدان الإسلامية

(1) سورة النحل، آية 91.

(2) سورة التوبة، آية 4.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، ج 14، ص 2-3، السرخسي، م س، ج 5، ص 689.

(4) القلقشندي: ن م، ص 3.

المحصنة من قبل الداوية والاسبتارية، وقد سار على خطته بحماس زائد في رفع راية الاسلام السلطان قلاوون، ومن الملاحظ أن تعاقد المسلمين مع أطراف متعددة من الفرنجة في الشام ودول الغرب الأوروبي لافتقارهم الى تمركز السلطة بينهم. لذا نجد المسلمين يعقدون معاهدات مع جماعة الاسبتارية في حصن الأكراد والمرقب في زمن السلطان بيبرس 4 رمضان 665هـ/ مايو 1267م وتارة أخرى مع الإسبتارية المقيمين في قلعة عكا. كما عاهدوا ملكة الفرنجة في بيروت<sup>(1)</sup> زمن بيبرس 6 رمضان 667هـ/ مايو 1269م. وعاهدوا الفرنجة في عكا زمن السلطان قلاوون (5 ربيع الأول 682هـ/ 5 مايو 1283م) هذا وقد عقد المسلمون معاهدات مع المسؤولين في الغرب الأوروبي مثل ملك أرجون زمن قلاوون (689هـ/ 1291م) وحكام جنوة المهتمين بالشرق الأدنى الاسلامي سياسياً واقتصادياً ودينياً زمن قلاوون أيضاً، الأمر الذي دفعهم لعقد معاهدات دبلوماسية مع المسلمين حيث كانت جنوة إحدى الوحدات السياسية الرئيسية التي انقسمت اليها شبه الجزيرة الإيطالية في العصور الوسطى، والتي أصبحت بفضل موقعها الاستراتيجي من أعظم القوى البحرية التجارية في إيطاليا. وكان لها مستعمرات ومراكز في الشرق الأدنى والبحر الأسود، مما أثار غيرة منافستها البندقية وبيزا، وعرفها المسلمون باسم مملكة الجنويين<sup>(2)</sup>.

وكان النظام السياسي في جنوة يقوم على أساس نظام القومون<sup>(3)</sup>. وبعد ازدياد التنافس بين العائلات النبيلة في القومون، اتفق النبلاء على إيجاد وظيفة الحاكم podesta (بودستا) بشرط أن يكون غريباً عن المدينة ومن أصل نبيل مهمته حفظ السلام بداخل القومون. وكانت حكومة جنوة مثل البندقية يسيطر عليها التجار الأثرياء الذين أصبحوا يحكمون عن طريق قنصلين اثنين، ومع ازدياد قوة الطبقة البورجوازية المتوسطة، ظهرت وظيفة قبطان الشعب capitanò de

(1) عمر كمال: م.س. ص 257، 259، 280، وأورد نص المعاهدة في ص 282-285.

(2) الفلقشندي: صبح الأعشى ج، 3، ص 235، ج 5، 405، 406.

(3) تحريف لكلمة commune وأساسه حلف أو اتحاد من التجار والصناع وغيرهم أقاموه في عدد من المدن لضمان حقوقهم المدنية في وجه سلطة امراء الإقطاع في أوروبا في العصور الوسطى، ومع تطور هذا النظام أصبح يدل على المدن المستقلة التي تتمتع بحقوقها السياسية والاقتصادية، وهكذا تحول القومون الى وحدة سياسية مستقلة لها نظمها وجهازها الإداري برئاسة كبار المسؤولين الذين يحكمون بالنيابة عن مواطني القومون، د. عمر كمال: م.س، ص 280-281.

populo (ممثل العناصر البورجوازية غير النبلاء) وهو المسؤول أمام النقابات بداخل المدينة، وكان لكل من البودستا والقبطان مجلسه الاستشاري الخاص.

### العلاقات السياسية مع الصليبيير:

لقد رأيت في البداية المقارنة بين سياسة الصليبيين والأيوبيين وقد قارن المؤرخ ستيفن رنسمان بين وحشية الصليبيين في مذابحهم في القدس عندما دخلوها، ورحمة المسلمين وتسامحهم عندما حرروها بقيادة صلاح الدين الأيوبي فلم يُخرج المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة وبقوا في بيت المقدس مقابل دفع الجزية والفدية المقررة عليهم، ولم تهتم كنيسة القيامة، وأُرسل امبراطور القسطنطينية اسحاق انجيلوس سفارة لتهنئة صلاح الدين، وطلب منه إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، فاستجاب صلاح الدين لطلبه<sup>(1)</sup>، واستمر الحجاج المسيحيون يتوافدون عليها إبان عهد صلاح الدين الأيوبي<sup>(2)</sup>.

لذا فقد تمثلت هذه العلاقات في عقود الصلح والمراسلات السياسية والسماح للرعايا النصارى بزيارة بيت المقدس وللمسلمين بزيارة إنجلترا ومن أمثلة هذا صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا 588هـ/1192م<sup>(3)</sup>. وصلح عكا بين السلطان المنصور قلاوون وحكام عكا من الفرنج سنة 682هـ/1285م<sup>(4)</sup>. والمعاهدة التي عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين وخايمي الثاني صاحب برشلونة من بلاد الأندلس سنة 692هـ/1293م وتضمنت حرية التنقل بين بلاد المسلمين والأندلس<sup>(5)</sup>. وبالنسبة لوجود القناصل كممثلين للدول الأجنبية لرعاية شؤون الحجاج في القدس سنة 620هـ/1223م عندما أصدر البابا هونوريوس الثالث مرسوماً باعتراف الكنيسة الكاثوليكية بالرهبان الفرنيسكان في القدس، ليسند اليهم حق رعاية الأماكن المقدسة فوق جبل صهيون<sup>(6)</sup>. بعد الاتفاق مع الأيوبيين سنة 643هـ/1245م على رعاية

(1) رنسمان: م س، ص 281-282. ج 2، ص 752-756.

(2) العماد الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، وزارة الثقافة والارشاد القومي - القاهرة، ص 134.

(3) صلح الرملة في شعبان 588هـ/12 ايلول (سبتمبر) 1192م، أمر فيه صلاح الدين بالناداة بما يلي: "الا أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل"، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 234، 235.

(4) صلح عكا: سمح فيه للنصارى بحرية الحج الى بيت المقدس وزيارة كنيسة الناصرة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج 14، ص 73.

(5) القلقشندي، ن م، ج 14، ص 8.

(6) دراج، أحمد، الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ص 22

هذه الأماكن<sup>(1)</sup>، وزاد نفوذ الفرنسيين في السياسة في زمن المماليك حيث أصبح لهم قنصل يمثلهم مع ترجمان<sup>(2)</sup>.

ويلاحظ أن تسمية السلطان صلاح الدين الأيوبي للملك الصليبي بولدوين الرابع "بحافظ بيت المقدس" و"ليس بملك بيت المقدس"، إنما يدل على تحفظ المسلمين لأهمية هذه المدينة بالنسبة لهم وعدم استعدادهم للتنازل عن حقهم في حكمها<sup>(3)</sup>.

ومن الصيغ التي استخدمت في رسم مكاتبة بابا (باب) روما<sup>(4)</sup>:

"ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية، الباب الجليل، القديسي، الروحاني، الخاشع، العامل بابا رومية، عظيم الملة المسيحية" قدوة الطائفة العيسوية، ملك ملوك النصرانية، حافظ الجسور والخلجان، ملاذ البطارقة والاساقفة والقسوس والرهبان، تالي الأناجيل، معرف طائفته التحريم والتحليل، صديق الملوك والسلطين".

أما صيغ رسم مكاتبة ملوك الفرنجة فكانت<sup>(5)</sup>:

"... الملك الأجل الأعز الكبير المؤيد الحظير، العالم العامل الظهير العادل الأورح المجتبي، شمس الملة النصرانية، جلال الطائفة الصليبية، عضد الأمة الفرنجية، فخر أبناء المعمودية، عمدة المماليك ضابط العساكر المسيحية ... تثبت الله نعمه وعزّز موارده جوده...".

ومن الرسوم الواردة المستعملة في مخاطبة ملوك الفرنج:

"الحضرة السامية، الملك الجليل الهام، الأسد الباسل الضرغام الغضنفر... بطل النصرانية، عماد بني المعمودية، حامل راية المسيحية، وارث التيجان، شبيه يوحنا المعمدان محب المسلمين صديق الملوك والسلطين"، وبالنسبة لرسم مكاتبة الملكة الافرنجية<sup>(6)</sup>:

(1) ن م، ص 25، شافعي، أمل الزمة في مصر، ص 268

(2) ن م، ص 38.

(3) الفلقشندي: م س، ج 7، ص 115-116. ذكر النص: "خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالسعد الصاعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد".

(4) ن م، ج 6، ص 173، ج 8، ص 43.

(5) ن م، ج 6، ص 176، ج 7، ص 118.

(6) ن م، ج 6، ص 174، ج 14، ص 40.

"الملكة الجليلية المكرّمة المَبْجَلَة الموقرة المُفَخَّمة المُعزَّزة فلانة، العاملة في ملتها العادلة في مملكتها، كبيرة دين النصرانية، نصيرة الملة العيسويّة حامية الثَّغور، صديقة الملوك والسلّاطين".

وأما رسم مكاتبة النّواب والقناصل<sup>(1)</sup>:

"القومس الجليل المَبْجَل المُعزَّز الهام الضرغام... فخر الامة المسيحية رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية".

ومن أمثلة مخاطبة المسؤولين عن المدن التجارية الايطالية: دوك Doge البندقية<sup>(2)</sup>:

"الدوك الجليل المكرم المَبْجَل الموقر البطل الهمام الضرغام الغضنفر الخطير مجد الملة النصرانية فخر العيسوية، عماد بني المعمودية، معز بابا رومية، صديق الملوك والسلّاطين".  
ورسم مخاطبة حكام جنوة (وهم البودستا والكبطان والمشايخ) "حضرة البودستا والكبطان الجليلين المكرمين الموقرين المَبْجَلين الحظيرين فلان وفلان، والمشايخ الأكابر المحترمين، اصحاب الرأي والمشورة، الكمنون (القومون) بجنوة، أمجاد الآلهة المسيحية أكابر النصرانية"<sup>(3)</sup>.

وأما المخاطبات في الحالات المناسبة لتحقيق التقارب والتفاهم فكانت كالتالي :

"... وجعل الله من السلامة يداً لا تُزَعزَع من أوطانه، ولا تنزعه من سلطانه، ولا تُوجَد له إلاّ الإستقرار لتيجانه، واستمراراً لملكه على مادارت على حصونه مناطق خلجانه..."<sup>(4)</sup>

**حفل استقبال السفراء والقناصل:**

لقد أعد المسلمون "بروتوكولات" رسوم خاصة لاستقبالهم حسب قواعد دقيقة لتحقيق الفائدة التي يرجونها وراء ذلك. فقد لجأوا إلى الظهور بمظاهر القوة والعظمة في مراسم الاستقبال لإرهاب أعدائهم والتأثير في من يتصل بهم، كما أظهروا كثيراً من الحفاوة والكرم مع

(1) المقريري: السلوك: ج 1، ص 966 (من رسالة بيبس الى أمير انطاكية وطرابلس).

(2) القلقشندي: م. س. ج 6، ص 179، ج 8، ص 47.

(3) ن م: ج 8، ص 46.

(4) ن م: ج 8، ص 51.

السفراء لاستمالتهم وكسب ودهم إضافة للأمان الذي ضمنوه للسفراء الأجانب، هذا وقد خصصوا ميزانية خاصة لاستقبال الرسل والسفراء، وكلفوا موظفين خاضعين لاستقبالهم والعناية بهم<sup>(1)</sup>. وكان اختيارهم يعتمد على الشخصية والخبرة واللباقة والمعرفة باللغات ويلاحظ أن عمل المهندار يشبه عمل مدير المراسم والتشريفات في العصر الحديث<sup>(2)</sup>.

وقد منح وضع المسلمون امتيازات للسفراء الأجانب كما فرضوا عليهم التزامات أثناء إقامتهم في دار الإسلام فضلاً عن حصانتهم وسلامة مرافقيهم وإعفائهم من دفع الضرائب والمكوس طالما لم يتاجروا، كما سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية مع الالتزام باحترام معتقدات المسلمين وشعائرهم وعدم إيذائهم بآدخال المحرمات<sup>(3)</sup>.

أما النظام القنصلي فقد سبق نظام التمثيل الدبلوماسي الدائم وقام بعلاقات سليمة بين المسلمين والصليبيين. وقد اقتضى ضرورة ظهور هذا النظام تطور التجارة الدولية الذي يتطلب سفر التجار والإقامة في بلاد نائية تختلف في قوانينها عن بلادهم، فاختار التجار من بينهم من يتولى شؤون جالياتهم، ويقضي في المنازعات الداخلية بين أفرادها وفقاً لشرائعهم الوطنية الخاصة. ولقب هذا الشخص بالقنصل الذي استمر حتى العصر الحديث ومع امتداد النشاط التجاري الخارجي لدول غرب أوروبا إلى الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط انتقل هذا النظام إلى ذلك الاتجاه للدولة البيزنطية والدول والامارات الإسلامية في الشرق الأدنى، ثم انتشر هذا النظام القنصلي في البلاد الإسلامية بعد أن أسهمت الحركة الصليبية في نموه وازدهاره. فكان القنصل يرعى شؤون مواطنيه في المدينة الموجودة بها من حيث التجارة والمصادقة على توقيعات العقود والصكوك ويرأس المحكمة الخاصة بهم<sup>(4)</sup>.

(1) صلاح الدين المنجد: النظم الدبلوماسية في الإسلام، ص 153، وعمر كمال، م س، ص 128 من القابهم نائب صاحب الدار في الدولة الفاطمية وفي العصر الأيوبي المملوكي عرف هذا الموظف باسم المهندار: وهو لفظ فارسي يطلق على من يتصدى لتلقي الرسل ويقوم بأمرهم، القلقشندي: م س، ج 5، ص 459.

(2) القلقشندي: م س، ج 4، ص 58-59 حيث أورد نصاً مفصلاً للنظام المتبع في استقبال السفراء الصليبيين والرسل.

(3) لمزيد من التفاصيل انظر: المقرئ: السلوك، ج 1، ق 1، ص 221-223، أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 188.

(4) د. عمر كمال توفيق: م س، ص 138-139، وانظر Consul in The Oxford English Dictionary.



## الدبلوماسية الأيوبية بعد صلاح الدين:

لقد اسهمت الأحوال السياسية في الدولة الأيوبية من نهر دجلة إلى نهر النيل في قيام العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والفرنجة وذلك بسبب الصراع الداخلي بين أمراء البيت الأيوبي - خاصة في مصر مركز الثقل في العالم الإسلامي - مما أدى إلى إضعاف قوتهم في مواجهة الصليبيين خاصة زمن كل من السلطان الملك العادل (ت 615هـ/1218م) والسلطان الملك الكامل (ت 635هـ/1237م)<sup>(1)</sup>. واستمرت حرب الوراثة بعد موت العادل بين ابنائه الثلاثة، الملك الكامل في مصر والمعظم في الشام (دمشق) والأشرف في إقليم الجزيرة، وزاد لهيب هذه الحرب تحالف المعظم والأشرف ضد الكامل في مصر الذي كان يتهدهده خطر الصليبيين بقيادة الامبراطور فردريك الثاني الألماني والملقب بأعجوبة الدنيا Super Mundi والذي أقسم للبابا سنة 1225م على القيام بحملة صليبية<sup>(2)</sup>، فدفعت هذه الظروف الداخلية والخارجية الحرجة الملك الكامل الأيوبي للدخول في مفاوضات عام 624هـ/1226م مع الامبراطور في صقلية ترأسها فخر الدين مقابل توماس<sup>(3)</sup> رسول الامبراطور التي انتهت بعقد اتفاقية يافا في 18 فبراير/1229م 626هـ تلك المعاهدة التي استكرها أكثرية الصليبيين والمسلمين على حد سواء. والتي كان من شروطها تسليم بيت المقدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يمتد من اللد إلى يافا على البحر المتوسط، إضافة إلى الناصرة وغرب الخليل على أن يبقى في أيدي المسلمين منطقة الحرم والصخرة والمسجد الأقصى<sup>(4)</sup>.

كما ورث المماليك من بعدهم هذه المشاكل السياسية الداخلية والخارجية والتي أجبرتهم على الدخول في علاقات دبلوماسية مع الصليبيين وهكذا كانت مشاكل المماليك امتداداً لأوضاع

(1) انقسمت دولة صلاح الدين بعد وفاته بين ابنائه: الأفضل في دمشق، والعزير في القاهرة، والظاهر في حلب، وأخيه الملك العادل سيف الدين في الكرك والشوبك. فكان هناك ما يشبه حرب الوراثة في البيت الأيوبي مما دفع الملك العادل للعمل على توحيد الدولة الأيوبية - هذا الجهد المضني الذي يحتاج إلى علاقات سلمية مع الصليبيين فقد صلحاً معهم في الأول من يوليو عام 595هـ/1198م على أساس قواعد صلح الرملة الذي عقده صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد عام 589هـ/1192م. انظر المقرئزي: السلوك ج 1، ص 141.

(2) د. عمر كمال، م.س. 72.

(3) المقرئزي: ن م، ج 1، ص 221-222.

(4) المقرئزي: ن م، ج 1، ص 223، ونسيان: م س، ج 3، ص 331 أورد نص حربي للمعاهدة ص 86-87.

العهد الأيوبي من حيث طبيعة النظام الإقطاعي وصراع الأمراء على السلطة وأخطار المغول الخارجية.

ومن قراءتنا للمفاوضات التي دارت بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد نستطيع تكوين فكرة تفصيلية عن طبيعة المفاوضات بين المسلمين والصليبيين خلال قرنين من الزمان. بحيث نستطيع تكوين انطباع عن الأشخاص الذين يقومون بالمفاوضات، والموضوعات، وما تتطلبه تلك المفاوضات من مهارة وحذر مع الألتجاء إلى الشدة والترهيب عند الضرورة، واستعمال اللباقة حتى يتيسر الوصول إلى حلول للخلافات والمنازعات.

وعلى أية حال، فالمفاوضات إنما كانت السبيل المؤدي لعقد الهدنة والمعاهدات. وهكذا يكون من الملاحظ على لجوء المسلمين لعقد صلح "هدنة" أو "اتفاقات" مع الصليبيين لضرورات متعددة بهدف التعرض لهجماتهم أو بهدف مواجهة إمارات إسلامية أخرى أو بسبب الصراع على الحكم بين الوزراء، أو لضمان وقوف القوى الصليبية على الحياد للتفرغ لبعض القوى الصليبية الأخرى<sup>(1)</sup>، كما دفع ذلك الأمراء المتنافسين الناشئين إلى إقامة أحلاف عسكرية معهم لمواجهة القوى الإسلامية المنافسة لهم. كما نرى أسباباً أخرى أسهمت في قيام علاقات دبلوماسية في موضوع الأسرى والتفاوض في إطلاق سراحهم بالتبادل أو الفدية. كما فعل صلاح الدين مع الدولة الشرقية البيزنطية الأرثوذكسية<sup>(2)</sup> مما أثار هاذ التصرف جواً من القلق في الممالك الصليبية<sup>(3)</sup> كما لوحظ على أعضاء البعثات الدبلوماسية جمع المعلومات السياسية والإقتصادية والاجتماعية والمعنوية بما يشبه عمل السفارات اليوم بما تقوم به من أعمال تجسس<sup>(4)</sup> لصالح دولتها، لذا اتخذت الإمارات الإسلامية الاحتياطات اللازمة لمنع السفراء والمبعوثين الأجانب من الاطلاع على أحوالهم بتخصيص من يستقبلهم لمرافقتهم إلى الداخل.

(1) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 336، يذكر بأن نور الدين هادن الصليبين ودفع لهم الجزية لمدة سنة بعد ضمه لدمشق، شوال 551هـ/نوفمبر 1156م.

(2) تقرب صلاح الدين إلى امبراطورهم اسحق الثاني بإرسال سفارة له مع 190 أسير من رعايا دولته ليكسبه لجانبه مستغلاً عداوة هذا الملك الصليبين لأسباب دينية وعدم ثقته بالصليبين لذا أخرجه صلاح الدين بانتصاراته على الصليبين وفتح القدس، أسد رستم: الروم وصلاتهم بالعرب، بيروت، 1965م، ج 2، ص 166-167. ود. عمر كمال تاريخ الامبراطورية البيزنطية، القاهرة 1967، ص 146.

(3) أسد رستم: م س، ج 2، ص 171-172.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج 1، ص 123-124 كتب عن الجواسيس والاستخبارات.

وقد لجأ المسلمون لوسيلة أخرى لمعرفة أحوال العدو وذلك بالسماح لرسل الفرنجة بالتردد على البلاد الاسلامية أثناء إجراء المفاوضات لاستخلاص بعض المعلومات لمعرفة ما هم عليه من قوة أو ضعف<sup>(1)</sup>.

أما بالنسبة للصليبيين فنلاحظ أن أهدافهم من وراء المفاوضات السعي لعدم قيام جبهة اسلامية موحدة ضدهم فلقوا إلى توجيه رسلهم إلى بعض الإمارات الإسلامية والدخول معها في مفاوضات لاستمالتها وتحبيدها ولو بشكل مؤقت<sup>(2)</sup>. فعملوا على ايجاد شرخ وتصدع في الوحدة الاسلامية في مرات عديدة سواء كان ذلك في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر للميلاد وفي الختام نضيف بعض العوامل الأخرى من حيث الرقعة الجغرافية المجاورة للإمارات الاسلامية<sup>(3)</sup> والقوة العددية للعناصر الصليبية المستقرة في الشرق، والنظم السياسية<sup>(4)</sup> التي عاشت في ظلها وعلاقتها مع المغرب الأوروبي من حيث الامدادات والمساعدات والمذاهب الكنسية المختلفة من ارثوذكسية في بيت المقدس ومارونية (المسيحيون الشرقيون) في طرابلس وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح.

(1) ابن شداد: النوادر، ص 231، حيث علق على سماح صلاح الدين الأيوبي لرسل الافرنج بالتزدد أثناء المفاوضات بأنه كان يقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل.

(2) كما فعلوا عندما علموا بالعداء المذهبي بين السلاجقة والفاطمين وتنازعهم على بلاد الشام فارسلوا سفارة إلى مصر أثناء مرورهم بآسيا الصغرى وذلك بناء على نصيحة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومن الجير بشؤون الشرق الأوسط. أنظر: رنسمان: م.س. ج 1، ص 326، وابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 273 اصدار سنة 491هـ.

(3) رنسمان: م.س. ج 2، ص 473 يذكر على سبيل المثال استمرار وجود المسلمين بأعداد كبيرة في الإمارات التي خضعت للفرنجية بمدينة نابلس وعلى امتداد الطريق من عكا لبانياس حيث كان معظمهم من الفلاحين المسلمين كما وجدت قبائل بدوية على امتداد الطريق الجنوبي للمملكة وفيما وراء نهر الأردن.

(4) كانت السلطة العليا في الإمارات الصليبية ملكية إقطاعية تحد من سلطاتها عدة هيئات ونظم داخلية منها الكنيسة بامتيازاتها والجماعات الرهبانية الحاربة كالدأوية Templars والاستبارية Hospitalier وامتيازات قومونات Communes المدن التجارية الايطالية والبروفنسالية في مدن المملكة الصليبية في الشام وامتيازات النبلاء الصليبيين الذين شاركوا في الغزو أنظر: رنسمان: م.س. ج 2، ص 498، د. عمر كمال: م.س. ص 80.

## النظام الإداري المملوكي في جنوب بلاد الشام:

### أولاً : لمحة سياسية عن كيفية استيلاء المماليك على بلاد الشام:

وذلك عندما أرسل المغر إيبك التركماني قائد الجيش فارس الدين أقطاي الجمदार على رأس ثلاثة آلاف فارس فوصل غزة واستولى على الساحل ونابلس الى نهر الأردن في مستهل سنة 649هـ/1251م، فتصدى له الناصر يوسف الأيوبي واستعاد غزة وهنا تدخلت الخلافة العباسية في بغداد عام 650هـ/1252م رغم ظروفها الصعبة بإرسال مبعوثيها لعقد صلح بين الطرفين واستغل المماليك الوساطة والمفاوضات<sup>(1)</sup> والزحف العسكري لتعزيز مواقعهم في المفاوضات للحصول على تنازلات من الطرف الآخر<sup>(2)</sup>. وتم الصلح عام 651هـ/1253م.

(1) ابن إيبك: م س ج 8، ص 19. وابن كثير: م س، ج 13، ص 181، المقرئ: السلوك، ج 1، ص 381.

(2) ابن إيبك: ن. م. ج 8، ص 22، حيث تسلم المماليك قلعة الشوبك سنة 651هـ/1253م فوافق الناصر يوسف على عقد الصلح الذي اشرف عليه الخليفة وللناصر يوسف الأيوبي بقية بلاد الشام وإطلاق الأسرى وتم الصلح عام 651هـ/1253م. فكان ذلك احياء للخلافة العباسية في القاهرة. بعد أن شعر سلاطين المماليك بضرورة احياء الخلافة العباسية لاضفاء الشرعية على حكمهم الذي اغتصبوه من سادتهم الأيوبيين، إذ حاولوا في البداية التحايل على الأيوبيين باشتراك بعضهم في الحكم بالإضافة الى اغتصاب السلطة من بعضهم عندما اغتصب الظاهر بيبرس منصب السلطان من قطر قاهر المغول في عين جالوت ولمواجهة الثورات ضده، أنظر النويري: نهاية الأرب ج 28، ورقة 18 (مخطوط). لذا اسرع الظاهر بيبرس لاستدعاء الأمير العباسي -أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي من دمشق الى القاهرة وبايعه أمام الشهود والفقهاء ولقبه المستنصر بالله. فقام الخليفة بعد ذلك بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة في حفل كبير في جهة المطرية بالقاهرة وهكذا أخذ التفويض بالحكم من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الاسلامي وهي الخلافة، المقرئ: السلوك، ج 1، ص 453-457. وضرب النقود باسم السلطان والخليفة بالإضافة للدعاء له قبل السلطان مما جعله يتضابق فيما بعد من ذلك ففكر في الخلاص منه بعد أن كسب الرأي العام في العالم الاسلامي فأعلن بأنه يرغب في إعادة الخليفة لبغداد، فصحبته الى دمشق ثم تركه يتجه عبر الصحراء برفقة جماعة من الأعراب والترك نحو بغداد. السيوطي تاريخ الخلفاء ص 317-318 مما أدى لمقتله على يد المغول: انظر السيوطي ن م، ن ص. وابن شاکر الكتيبي: عيون التواريخ، ج 20، ورقة 430 (مخطوط). ونصب مكانه الأمير العباسي ابو العباس أحمد وبايعه بالخلافة سنة 662هـ/1264م ولقبه الحاكم بأمر الله ولكنه حرص على الحد من نفوذه.

انظر السيوطي: ن. م.، ص. ن. ص. والنويري: م س، ج 28، ص 129

هذا واستمر الوضع طوال العصر المملوكي على هذه الحالة بأن يفوض الخليفة الأمور العامة للسلطان ويُدعى له قبل السلطان على المنابر. وكان يكفي بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالأعياد: القلقشندي: صبح الأعشى، ج 34، ص 275، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين: المقرئ: المواعظ، ج 3، ص 249.

وهكذا تم اعتراف الناصر يوسف بقيام دولة المماليك وسيطرتها على أجزاء هامة من جنوب بلاد الشام<sup>(1)</sup> وقد تجددت الحروب بين الأيوبيين والمماليك منذ عام 655هـ/1257م<sup>(2)</sup>.  
وفشل الأيوبيون بقيادة المغيـث عمر صاحب الكرك في استرداد مصر من المماليك بزعامة سيف الدين قطز عام 656هـ/1258م<sup>(3)</sup>. واستمر الصراع العسكري بين الأيوبيين أنفسهم<sup>(4)</sup> وبينهم وبين المماليك في مصر في ظل اجتياح المغول لشرقي العالم الاسلامي وزحفهم على الجزيرة وبلاد الشام مما أدى لضعف المواجهة الاسلامية لبقايا الصليبيين في بلاد الشام بالإضافة الى استنزافها للكثير من الطاقات البشرية والمادية التي كان من الممكن ادخالها لمواجهة زحف المغول على بلاد الشام.

(1) سبط ابن الجوزي: م س، ج 8، ص 78، ابو الفداء: م س، ج 3، ص 186، ابن ابيك: م س، ج 8، ص 22-23، والمقريري: السلوك ج 1، ص 385-386، ابن تغري بردي: م س، ج 7، ص 10.

Lanepoole: Palestine Under The Moselems, P.441.

(2) سبط ابن الجوزي: م س، ص 785.

(3) بيبرس: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج 9، تحقيق زبيدة محمد عطا (رسالة دكتوراه لم تطبع) القاهرة، عين شمس ص 13. أبو الفداء: المختصر، ج 3، ص 195، ابن تغري بردي: م س، ج 7، ص 98-99.

(4) بين الناصر يوسف والمغيث عمر، بيبرس زبدة الفكرة ج 9، ص 14، المقريري: السلوك، ج 1، ص 411-414.

ثانياً: النظام الإداري المملوكي في جنوبي بلاد الشام :

أولاً : لمحة إدارية

ثانياً : التقسيمات الإدارية في بلاد الشام وشرقي الأردن

ثالثاً : الجهاز الإداري في الدولة المملوكية

أ- الوظائف العسكرية.

ب- الوظائف الديوانية "وظائف أرباب الأقلام".

ج- الوظائف الدينية.

د- المصطلحات المملوكية.

رابعاً : أساليب الحكم المملوكي.

أ- السياسة الداخلية.

ب- السياسة الخارجية.

1- مع الدول الإسلامية.

2- مع الدول غير الإسلامية

## أولاً : لمحة إحصائية:

لقد سار المماليك على النمط الأيوبي في الحكم بعد زوال ملك الأيوبيين واستيلائهم على دفة الحكم، ولكنهم زادوا في شُعب الإدارة، كما كان السلطان رأس النظام، فإذا كان طفلاً تولى الأمر عنه القيم المُسمّى "أتابك" أو وصياً ويحق له التصرف في أمور المملكة ويليه كبير الأمراء "قائد الجيش" والملقب بـ"أتابك العسكر" ويليه "مقدمو الألو" (1).

كما يلاحظ على النظام المملوكي أنهم لم يستطيعوا تأصيل الشرعية في نفوس أمراء وضباط الجيش المملوكي وذلك بعد قتل بيبرس لقطز، والجلوس معه كما لم يتركوا إلا المناصب الدينية والقضائية والتجارية والأدبية لأفراد الشعب مما أدى الى ضعفهم في النهاية، وبالنسبة لعلاقاتهم مع الخلافة العباسية كان لابد من تأصيل فكرة شرعية الخلافة العباسية (2) على الرغم من خلع السلاطين لبعض الخلفاء أمثال الناصر محمد بن قلاوون الذي خلع الخليفة الواثق ونصب مكانه الحاكم بأمر الله (3). وكان يتم بعد المبايعة اصدار الخليفة الوصايا للرعية والحكام لتطبيق العدالة وحثهم على الجهاد لاسترجاع ما اغتصبه الاعداء مع الوعيد والتهديد والترغيب ثم يعلن أنه قلد السلطان الملك الناصر ما وراء سريره..... وأمير المؤمنين قد وكل عنه..... عينا لا تنام، وقلد سيف بطل همام (4).

وقد تمكن بعض الخلفاء من توريث ابنائهم الخلافة أو إخوتهم ان لم يكن لهم ولد كالمعتضد بالله الذي عهد لابنه المتوكل سنة 763هـ/1365م.

(1) غرس الدين خليل الظاهري، زبدة كشف الممالك، طبعة باريس، ص112 وكان في مقدمة كل واحد منهم مائة مملوك وهو مقدم على ألف جندي وتدق على بابه طبول وزمور يومياً بشكل معروف وأوقات معروفة. ومن وظائف مقدمي الألو امارة السلاح، وامارة المجلس، وامارة الأخوار السلطاني.

(2) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ج2، ص59-60، 63، 67.

(3) ويذكر: أن الملفت للنظر هو طريقة أخذ البيعة والعهد للخليفة، وأن الخليفة مصدر السلطات وأنه هو الذي ينصب السلاطين ويعزهم وأن الجميع يضحون في سبيل الله وفي سبيله وسبيل شرعية الخلافة وهيبتها حيث كان يجمع على هذه البيعة اصحاب العقد والخل وولاة الأمور والحكام والأعلام وجملة الاعلام وحماة السيف والأعلام، ن م، ج2، ص70-79.

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج2، ص70-74.

والواقع أن منصب الخليفة كان منصباً اسماً لا أهمية له بعد أن تمتع الخلفاء بدورهم ولم يكن دورهم سوى التوقيع على المراسيم فقط. وإصدار الغهود والألقاب الفخمة كما ظهر عندما بايع السلطان الملك الظاهر بيبرس المستنصر بالله بالخلافة والذي لقبه بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني...<sup>(1)</sup>

كما حاول السلاطين تأكيد شرعيتهم في نفوس الناس كالظاهر بيبرس بتقليد ولي عهد له الملك السعيد اعتماداً على القوة علماً بأن جميع السلاطين كانوا يحرصون على استصدار هذه التقاليد لإضفاء الشرعية على سلطنتهم وفعل ذلك المنصور قلاوون لإبنيه الكامل الصالح علاء الدين<sup>(2)</sup>.

وقد لوحظ أن الخليفة الحاكم بأمر الله أصدر ثلاثة تقاليد اسلامية للناصر وكتبها ولاجين رغماً عنه وقد حدث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أن ترك العرش ولجأ إلى الكرك لمضايقة شخصين له هما ركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سار خوفاً منهما ويتضح ذلك من كتابته لهما بأنه ذهب إلى الكرك للترويح عن النفس وللاقامة بشكل دائم... ودعاهم إلى طاعة نائبه<sup>(3)</sup> ولكنه استقال بعد اصرارهما على تنازله عن العرش<sup>(4)</sup>. وارسل لبيبرس مرسوماً باسم الملك المظفر... وارسل له مرسوماً يمنحه حكم الكرك وملكها مدى الحياة معللاً للناس تنازله عن العرش برغبته في الاعتكاف للعبادة والزهد في الدنيا عام 708هـ/1309م ولحق به المؤرخ النويري وكان هذا للمرة الثانية وعاد للحكم عام 709هـ/1310م<sup>(5)</sup>. وهذا مشابه لما يحدث اليوم في الأنظمة الحديثة بعد انقضاء العسكرين على الحكم بما يعرف بالانقلاب

(1) ن.م.ج2، ص53-58. والذي عهد لابنه خليل ولقبه بالملك الأشرف صلاح الدين.

(2) المقرئزي: السلوك، ج1، ص964-971.

(3) ابن تغري بردي: م.س. القاهرة، دار الكتب المصرية، 1929، ج8، ص180-181.

قال: "فإن كنتم ممالئكم وممالئكم أبي فاطميو نائي ولا تخالفوه في أمر من الأمور فأننا لا أريد لكم إلا الخير... وإن كنتم لا تسمعوا مني فأننا متوكل على الله والسلام". ولكن جوابهما كان قاسياً بأنهما لن يدعاه في الاستقرار بالكرك: "... ولو كثر شاكرك، ونخرج الملك من يدك". فاستقال الملك واعتزل في قلعة الكرك ووافق بيبرس على ذلك.

(4) المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرون لجنة التأليف والنشر، 1934، ج2، ص46.

(5) النويري: شهاب الدين أحمد "نهاية الأرب في فنون الأدب"، ط2، القاهرة 709هـ/1310م دار الكتب المصرية، 1924، ج8، ص159-163 أورد ذكر الملك الناصر بالشكر ولقب الأمير بيبرس بالملك والسلطان ولقب نفسه بالمملوك محمد بن قلاوون.



الأبيض وإجبار الحاكم "رئيس الدولة" على الإعلان عن رغبته في التنازل عن العرش لظروف صحية.

وبعد مدة أصبحت الكرك ملجأ لكل معارض وساخط على الملك المظفر بيبرس فساءت العلاقات بينهما بعد علمه بتجميع الملك السابق للمعارضة حوله، فانذره بضرورة إرسال المماليك الموجودين عنده وإرجاع الخيل والمال التي أخذها معه إلى الكرك<sup>(1)</sup>.

فرد عليه الناصر ببراعة سياسية بإظهار الخشوع والطاعة له حتى يكمل استعداداته للجولة الفاصلة بينهما<sup>(2)</sup>.

كما حاول هذا السلطان الملك المظفر بيبرس إغراء زعيم المماليك في بلاد الشام قراسنقر الأشقر بأرسال الخلع والمال ولكن ذلك لم يقنعه بما حدث فبدأ بتشكيل جبهة معارضة من نائب طرابلس ونائب حماة لخلع الملك المظفر وإعادة الملك الناصر لعرشه حيث بدأ الثلاثة بزعامة قراسنقر يرسلون الناصر ويخططون للثورة حيث طلب الناصر منهم الإستعداد والتأني والصبر لجمع القوة المناسبة والمكافئة لقوة الملك المظفر في مصر<sup>(3)</sup> وفعلاً نجحت خطة الناصر وعاد لعرشه في مصر وأرسل المظفر من مخبئه رسالة للملك الناصر يعترف بسلطته وطاعته<sup>(4)</sup>.

هذا وقد لوحظ أن معظم الولاة كانوا من العسكريين، فعندما ضعف السلاطين بعد بيبرس وقلالون والناصر؟، أصبحوا خطراً يهدد السلطة لأن الوالي كان قائداً للجيش المرابط في تلك الولاية كما كان الإقطاع العسكري هو الأساس في دولة المماليك حيث اقطعوا فرسانهم وضباطهم وجنودهم إقطاعات حسب اهيمتهم، فأصبحت هناك طبقة عسكرية حاكمة، وبقي الشعب يعمل في هذه الإقطاعات. وإقطعوا الذين أبلوا بلاء حسناً في المعارك ضد المغول كما فعل بيبرس<sup>(5)</sup> وتفاوتت الإقطاعات بين إقطاع فرد قرية بكاملها أو اميرين قرية واحدة مناصفة أو ثلاثة أو أربعة. ويقدم الفائض من المحاصيل إلى المقطعين.

(1) المقرئزي: السلوك، ج8، ص256-297.

(2) ن.م.ن ص

(3) ابن تغري بردي، م.س. ج8، ص241-242

(4) ن م، ج8، ص270-271.

(5) المقرئزي: ن م. ج1، ق2، ص530-534.

وكان للسلطان مجلس استشاري مثل الظاهر بيبرس: أمثال العز بن عبد السلام في مصر والنووي في دمشق وبلاد الشام الذين كانوا ينصحونه، ويوجهونه وينبهونه الى أخطائه فيلتزم بذلك<sup>(1)</sup>.

ويعتبر السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك<sup>2</sup> لأن الفترة الطويلة نسبياً التي قضاها في الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدراً من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها بعد أن قَبِضَ الله له النصر على أعدائه من المغول والفرنجة والأرمن فملك دمشق وبلبك وعجلون والصلت والشوبك والكرك وصرخد وغيرها حتى شملت دولته مصر وسوريا وكثير من بر الأناضول وأفريقيا والنوبة وبرقة وبعض بلاد العرب وكان أول ما فعله مبايعة الخليفة العباسي أحمد بن الإمام ابن الإمام الناصر الذي حضر مع عربانه من بغداد إلى دمشق ثم القاهرة. فبايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله سنة 659هـ/1261م وأشهد الفقهاء والأئمة والأمراء في القلعة ولقبوه بالإمام المستنصر بالله، ثم قام الخليفة بتولية السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما سيفتحه من البلاد الأخرى ثم بايع الناس، وكتب السلطان بيبرس الى البلاد ليأخذ البيعة له<sup>(3)</sup>. ومما تجدر الإشارة إليه أنه استحدث نظاماً إدارية جديدة مما يجعلنا نجزم القول بأن دولة المماليك اتخذت في عهده طابعها المميز الإداري الذي سارت عليه حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي كما كان كغيره من المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة<sup>(4)</sup>.

(1) السيوطي، م س، ج2، ص97-103

(2) وبالنسبة لوصول المماليك للحكم فكانت البداية منذ أن قتلت شجرة الدر زوجها السلطان عز الدين أيبك التركماني خوفاً من الزواج عليها عام 650هـ/1252م فقتلها مماليكه وولوا ابنه المنصور عي بن أيبك. وفي عام 657هـ/1261م قبض الأمير قطز مستشار الملك المنصور بن المعز عليه وتسلبطن محله ولقب نفسه بالملك المنصور ثم قتله بيبرس واستلم الحكم. المقرئ: السلوك، ج1، ص2، ص405-417. وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص52. وابن واصل: م س، ق1، ص39. وفيليب حتى، م س، م2، ص880.

(3) المقرئ: السلوك، ج1، ص450. وابن عبد الظاهر: ن م، ص101، وأمر بذكر اسم الخليفة على المنابر ونقش السكة باسمهما وخطب الخليفة يوم الجمعة الموافق سابع عشر من رجب في جامع القلعة وفي يوم السبت السادس من شوال 659هـ/1261م سافر بيبرس وبرفته الخليفة الى الشام حيث ترك الخليفة في جبل الصالحية في دمشق. ابن عبد الظاهر: ن م، ص111-112.

(4) وذلك لأن نظرهم للسلطان كانت على أنه مملوك كبير انتخبه رفاقه الذين يشعرون بأن كل منهم نذل له ويعتقدون بأولوية الامراء الكبار والشجعان والاذكياء والأكثر اتباعاً والأغنى مالا.

انظر ستانكي بول: سيرة القاهرة، ص180، وابن عبد الظاهر: ن م، ص203-215. Muir The Mameluke, p86.

إلا أنه غلبت عليه غريزة الأبوة فتحدى طبيعة المماليك و نظامهم وورث العرش لابنه  
البكر سعيد بركة، حيث أخذ البيعة له من كبار الأمراء بعد أن أقسموا يمين الطاعة للملك السعيد  
بركة عام 660هـ/1262م<sup>(1)</sup>، كما أوصاه ابنه بضرورة الحيطة والحذر من كبار الامراء عند  
موته<sup>(2)</sup>.

هذا وقد تحققت نبوءته بحيث ظلوا ينظرون لابنه السلطان بركة بعين الصبي، وسببوا له  
المتاعب في مصر والشام حتى أجبره كبار أمراء المماليك على خلع نفسه عام 678هـ/1380م  
مقابل إقطاعه الكرك وأعمالها<sup>(3)</sup> وإقطاع أخيه خضر الشوبك وأعمالها وذلك لأنهم لم يقتنعوا  
بمبدأ الوراثة في الحكم.

ويلاحظ فشل النظام الملكي الوراثي عند المماليك بتساوي كبار أمرائهم في الأصل  
والترتبة، وتقارب قوتهم العسكرية وذلك على الرغم من محاولة بعض السلاطين توريث أبنائهم  
كما ذكرنا كالسلطان الظاهر بيبرس عام 662هـ/1264م والناصر محمد بن قلاوون حيث ورث

(1) المقريري: السلوك، ج1، ص468-515 حيث أقام احتفالاً كبيراً قرأ فيه عهد السلطنة للملك السعيد على القضاء والفقهاء والأمراء.  
(2) ابن واصل: م س، ج2، ص240 فقال في وصيته "فهؤلاء الامراء الاكابر يرونك بعين الصغير فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك  
وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته، لا ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً في هذا وافعل ما امرتك في هذا ، وافعل ما أمرتك به والا  
ضاعت مصلحتك.

(3) انظر بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، لوحة 137 مخطوط والنويري م س: ج28 صوحة 126 مخطوط والعيني: م س: ج20، ق4،  
لوحة 644، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة. واليوني: ذيل مرآة الزمان: ج4، ص5، وابن كثير: م س، ج3، ص288. وأبو  
الحسن: م س، ج7، ص269، وأبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص66، والمقريري: ن م، ج1، ص655. وبعد موت الملك السعيد  
في الكرك عام 678هـ/1280م ودفنه في مؤته بالقرب من مقبرة جعفر الطيار حيث نقل فيما بعد الى دمشق ودفن بمقبرة والده الظاهر  
بيبرس.

وقيل أن السلطان المنصور قلاوون هو الذي أمر بدس السم له للتخلص منه كمنافس على السلطة. واعتبر المؤسس الثاني لدولة المماليك في  
مصر والشام واستمر في عائلته حوالي مائة سنة: (انظر ابن عبد الظاهر: تشریف الايام والعصور، ص178، وبيبرس الدوادار: ن م،  
ج9، لوحة 273 وابو الفداء: م س، ج4، ص25.

واليوني: ذيل مرآة الزمان، ج13، ص33، الصفدي: الوافي بالوفيات، م س، ج2، ص272، والمقريري: ن م، ج1، ص669، وأبو  
الحسن: ن م، ج7، ص272، وتسلم الملك بعده أخوه نجم الدين خضر ولقبوه بالملك المسعود. والذي قام بشورة ضد الملك المنصور  
قلاوون في مصر وحدثت مجابهة بينهما حتى أصبحت الأردن مقسمة بين ثلاث فرق هي: القسم الشمالي منها: تحت سلطة سنقر  
الأشقر الثائر بدمشق والقسم الأوسط (البلقاء ومواب والشراه بيد الملك المسعود" والشوبك بيد المنصور قلاوون. انظر بيبرس  
الدوادار: ن م، ج9، لوحة 148، مخطوط. والنويري: ن م: ج29، لوحة 6 مخطوط، وابن خلدون: العبر، ج5، ص395 -  
المقريري: السلوك ج1، ص669. ومن الجدير بالملاحظة أن السلطان قلاوون عين المؤرخ بيبرس الدوادار في نيابة الكرك بعد نقل  
نائبها عز الدين ابيك الرملي الى نيابة قلعة صفد وجعل بامرته مائة فارس: (بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، لوحة 261 مخطوط.

ولده ابي بكر المنصور قبل وفاته<sup>(1)</sup> واستطاع ستة من أبنائه الذكور الاثني عشر الوصول للسلطة لفترات قصيرة<sup>(2)</sup>. وكانت القيادة الجماعية مكونة من ثمانية أمراء لتحمل أعباء السلطة باتباع مبدأ الشورى بينهم<sup>(3)</sup>. وكانوا من حاشية السلطان في القاهرة والمكونة من الجاشنكير<sup>(4)</sup> والخزندار<sup>(5)</sup> والسلحدار<sup>(6)</sup> واميّر جاندار<sup>(7)</sup> والحاجب<sup>(8)</sup> والاستادار<sup>(9)</sup>. ومن سلاطينهم الكبار سياسياً وعسكرياً السلطان المنصور قلاوون في صراعه مع الصليبيين والمغول<sup>(10)</sup>. وابنه السلطان الأشرف خليل فاتح عكا آخر معقل الصليبيين في فلسطين عام 690هـ/1292م ثم السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب أطول فترة زمنية في حكم المماليك بما تقارب ثلاثاً وأربعين سنة<sup>(11)</sup>. هذا ويعتبر المؤرخون عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتوفي في 741هـ/1343م عصر القوة والازدهار<sup>(12)</sup> وخلفه ابنه المنصور أبو بكر<sup>(13)</sup> كما يلاحظ بشكل عام صراع البيوتات المملوكية<sup>(14)</sup> على النفوذ والحكم مما أدى لانقسامهم وتكتلهم ضد السلطان

(1) المقرئزي: الخطط، ج2، ص304

(2) ن.م. ج2، ص305.

(3) د. يوسف غوثية: التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، ص145 وهم سيف الدين سلال وركن الدين بيرس الجاشنكير وحسام الدين الرومي، وعز الدين أيك الخزندار، وسيف الدين عبد الله السلحدار وسيف الدين بكتمر أمير جاندار وجمال الدين أقوش الأفرم، وسيف الدين للحاجب ويذكر: "أن أول رئاسة جماعية شكلت في القاهرة كانت لمدة إحدى وأربعين يوماً حتى وصول الناصر بن قلاوون عام 698هـ/1299م.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص21، ج5، ص460: وهو الذي يتذوق طعام وشراب السلطان خوفاً من دس السم إليه، ثم أصبحت من وظائف أرباب السوف العالية يتسلمها أحد الأمراء المقدمين.

(5) ن.م. ج5، ص462، والخزندار: متولي خزانة السلطان.

(6) ن.م. ج5، ص462، السلحدار: السلاح دار: الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويشرف على السلاح خازنه "مستودع الأسلحة: وهي من وظائف أرباب السيوف الكبار في الدولة

(7) ن.م. ج5، ص461، والمقرئزي: الخطط، ج3، ص360 الأمير جاندار: الذي يستأذنه الناس في الدخول على السلطان أو الأمير أيام المراكب أو الجلوس بدار العدل، ويقدم البريد له إذا قدم مع الدوادار وكتاب السر أو ينفذ حكم الأعدام.

(8) الحاجب: القلقشندي: صبح الأعشى ج5، ص449، 450. يذكر تطور مهنة الحاجب في عصر المماليك حيث أصبح يبلغ السلطان حاجات الرعية وينظر في المظالم بين المتخاصمين فأصبحت من وظائف أرباب السيوف الكبرى.

(9) ن.م. ج5، ص45، والمقرئزي: الخطط، ج3، ص361: الاستادار: متولي مال السلطان أو الأمير وصرفه في البيوت السلطانية كلها وينفق على أسفار السلطان.

(10) Lane Pole, A history of Egypt in the middle Ages, p.281-82.

(11) انظر المقرئزي: السلوك، ج1، ص183 و ج2، ص357.

(12) المقرئزي: الخطط، ج2، ص305، يذكر فضل نائب الشام سيف الدين شنكير عام 712هـ/1312م و740هـ/1340م في تثبيت دعائم الحكم المملوكي والاستقرار. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج10، ص420-435، وابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص552-562. والاسدي: محمد بن خليل الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طلعات، القاهرة 1387هـ/1967م، ص68.

(13) المقرئزي: السلوك، ج2، ص55، وابو المحاسن. م.س، ج1، ص3.

(14) على مبارك باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، القاهرة 1989م، وط2، ص103-104.

الأمر الذي ساعد على طغيان نفوذ الأمراء<sup>(1)</sup> عليه حتى بلغ الأمر أن يحل الأمير القاتل محل السلطان المقتول<sup>(2)</sup> وهكذا يمكن القول بأن مبدأ القوة والغلبة كانت المؤهلات الكافية لاعتلاء العرش.

## ثانياً: التقسيمات الإدارية في بلاد الشام وشرق الأردن:

### مقدمة :

لقد تغيرت خريطة الحكم المملوكي بعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت 658هـ/1260م نتيجة لهذه التغيرات والتطورات السياسية المستجدة والأوضاع الدولية الناتجة عن التواجد الصليبي في المنطقة في الساحل الشامي، والتهديد المغولي المستمر لبلاد الشام، ولأهمية المنطقة السياسية والعسكرية والاقتصادية، فتعاظمت قوة المماليك نتيجة لهذه الظروف المحلية والدولية خاصة بعد طردهم للصليبيين من بلاد الشام بعد تحرير عكا عام 690هـ/1292م على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون 689-693هـ/1290-1292م. ولكن الرياح السياسية جاءت بما لا تشتهي السفن حيث تحولت بلاد الشام إلى مصدر للثورات على السلطة المركزية المملوكية في القاهرة مما أدى لتقسيمها إلى عدة نيابات<sup>(3)</sup> لإضعاف نواب السلطنة في بلاد الشام وربطهم بحكم سلاطين المماليك المركزية في القاهرة والقدرة على مراقبتهم للسيطرة على تحركاتهم العسكرية توقعاً لثوراتهم الانفصالية بما حفز سلاطين المماليك إلى الاهتمام بنيابات بلاد الشام بتنظيمهم خدمات عامة لكسب سكانها من إنشاء مؤسسات اجتماعية وثقافية في بلاد الشام<sup>(4)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك، ج1، ق1، ص99-100، ق2، ص284، 286، 435. وابن تغري بردي: م س، ج8، ص48-49، 173، ج16، ص186، ج11، ص76. ابن خلدون: العبر، ج5.

(2) المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص45-46 وحتى م س. مجلد 2 ص 873.

(3) تشكلت النيابات تدريجياً حسب الظروف السياسية، فشكلت نيابة الكرك بعد استيلاء الظاهر بيبرس عليها من المغيث عمر ونيابة صفد، ونيابة غزة التي تشكلت في مرحلة لاحقة 711هـ/1313م أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونيابة القدس عام 795هـ/1396م. وللمزيد من المعرفة عن النيابات أنظر: القلقشندي: م س، 1987، ج4. وعبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1966م، ص300. و د. غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، 1982.

(4) عن التغيرات التي حدثت في بلاد الشام زمن المماليك صدرت مؤلفات حديثة هامة. غوانمة: نيابة بيت المقدس، طه طراونية، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق بيروت 1982م (سيشار إليه فيما بعد هكذا: (الطراونة: مملكة صفد).

عمود عطا الله: نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986م (سيشار له فيما بعد هكذا: عطا الله: نيابة غزة).

محمد أحمد دهمان: ولاية دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق، ط2، 1981م، سيشار له فيما بعد هكذا: دهمان: ولاية دمشق.

نعمان جبران: مملكة حماة في العدين الأيوبي والمملوكي الأول، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1981، (سيشار له فيما بعد هكذا جبران: مملكة حماة. نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت، 1966، سيشار له فيما بعد هكذا: زيادة: دمشق. وسالم: طرابلس الشام. ومن المراجع الأجنبية الحديثة المترجمة: ايرا لايندوس: مدن اسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987. سيشار له فيما بعد هكذا: لايندوس: مدن اسلامية.

كما رتب السلطان بيبرس الخفر على السواحل وألزمهم بدركها عام 666هـ/1268م بعد خلط الأموال المحصلة من هذه البلاد بغيرها وخصصها لمأكله ومشربه، وأسكن التركمان البلاد الساحلية لحمايتها على شرط أن يقدموا خيلاً وعدة<sup>(1)</sup>.

### الإدارة في بلاد الشام زمن المماليك

لقد تشكلت في بلاد الشام ست نيابات على فترات متباعدة تبعاً للظروف السياسية هي: نيابة دمشق، وطرابلس، وحماة، ونيابة صفد ونيابة الكرك<sup>(2)</sup>، ونيابة غزة<sup>(3)</sup>، ونيابة القدس<sup>(4)</sup> وكان هذا التقسيم ملائماً لطبيعة بلاد الشام الجغرافية بالإضافة لكونها أقساماً إدارية قبل عصر المماليك كما أبرزت الظروف أهمية أقاليم الشام وخاصة أيام الحروب الصليبية مما تطلب جعلها نيابات كنيابة الكرك الواقعة على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز والتي تأسست عام 661هـ/1263م في عهد السلطان بيبرس وكما برزت نيابة صفد مثلها عام 722هـ/1321م<sup>(5)</sup> وزادت أهمية النيابات الشامية بقلاعها ومدنها ومساحاتها الكبيرة مما جعلهم يقسمون كل نيابة إلى أقسام إدارية صغيرة<sup>(6)</sup>.

ونلاحظ مما سبق أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن بيت المقدس لم يصبح نيابة مستقلة يولى نائبها من السلطان في القاهرة إلا بعد عام 796هـ/1393م<sup>(7)</sup> وكان يتبعها ولاية الخليل وولاية نابلس وولاية الرملة<sup>(8)</sup>. وذلك زمن السلطان برقوق.

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ص563.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، طبعة مصوره عن الطبعة الأميرية بالقاهرة، ج4، ص91، 180.

(3) أنشأها الناصر محمد بن قلاوون. (أبو المحاسن: م س، ج9، ص193. بعد أن كانت ضيعة من ضياع الرملة وولى عليها 699هـ/1301م الأمير ركن الدين الجمالي.

(4) مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل، ج2، ص272، وولى عليها الأمير علم الدين سنجر به عبد الله الجالي وأضاف إليه وظيفة "ناظر الحرمين الشريفين" وكان يعين معظم وظائفها نائب دمشق. القلقشندي: م.س، ج4، ص199. وانظر عن نيابة القدس ابن حبيب: درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب المصرية ج1، ورقة 98، ذكر أيضاً أن الأمير تمتاز المؤيدي تولى هذا المنصب عام 777هـ/1375م. بدر الدين حسن بن عماد الدين تولى هذا المنصب عام 782هـ/1382م كما تولاها بدر الدين حسن.

(5) المقرئ: السلوك، ج1، ص747، أبو المحاسن: م س، ج7، ص321.

(6) القلقشندي: م س، ج2، ص6 "سمها النيابات الصغار"

(7) مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل، ج2، ص272، 274، 308، 323، وهذا رد على المؤرخين المستشرقين والباحثين الغربيين أمثال لويس وغيره الذين يقولون بأن القدس لم تلق الأهتمام والعناية في العصر الاسلامي بل كانت مدينة عادية كمدن بلاد الشام. Cohen Lewis Population & Revenue in the towns of Palestine p9. وعن وضع بيت المقدس زمن المماليك الشراكسة. انظر المقرئ: السلوك ج3، ق3، ص83، ج4، ق1، ص81، 88، 109، 188، وأبو المحاسن م.س.: ج14، ص10-32. وابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج2، ص287، ج3، ص44، 348.

(8) الخالدي: المقصد الرفيع المنشأ، ورقة 147، مخطوط.

وربما كان هذا الاهتمام بمدينة القدس من قبل سلاطين المماليك لتقف بقوة وحزم أمام الأطماع الصليبية والمغولية، لذلك عينوا عليها أميراً كبيراً.

وبالنسبة لجيش نيابة القدس فلم تذكر المصادر عدد هذا الجيش وإنما أوردت احصائيات عن جيوش نيابات بلاد الشام في حماة والكرك وصفد<sup>(1)</sup> بينما استنتج الدكتور يوسف غوانمة بالمقارنة بجيوش نيابات كل من الكرك وصفد وحماة أن جيش نيابة بيت المقدس كان حوالي الألف فارس بالإضافة رجال القبائل العربية في جبل القدس وجبل نابلس والخليل<sup>(2)</sup>.

هذا وقد ارتأيت في هذه الدراسة تقديم صورة واضحة عن نواحي الحياة الإدارية في جنوبي بلاد الشام فاخترت بعض المدن الهامة كالقدس وغزة وصفد والكرك كنموذج كامل وعقدت مقارنة بين نيابة غزة وبيت المقدس في فلسطين وعجلون والكرك وكانت الوظائف الإدارية المملوكية مقسومة الى ثلاثة أقسام هي الوظائف العسكرية والديوانية والدينية:

وكانت أهمية المماليك قد ظهرت بعد معركة عين جالوت 658هـ/1260م كدرع واق للعالم الاسلامي وضمت جنوب بلاد الشام لها وسنتناول نيابة بيت المقدس وصفد وغزة لأهميتها العسكرية امام الغزو الصليبي وكدرع واق لبيت المقدس من هجوم صليبي متوقع من عكا. وتشهد الفترة المملوكية في فلسطين عهد الاستقرار والأمن نتيجة للاهتمام بها والخدمات العامة التي اهتم بها المماليك منذ منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وبالنسبة: لنيابة بيت المقدس ونيابة صفد ونيابة غزة فقد اختلف المؤرخون في نيابات فلسطين في العصر المملوكي حيث ذكر لويس وعدد من الباحثين أن فلسطين اشتملت على نيابتين فقط هما نيابة صفد ونيابة غزة<sup>(3)</sup> وذلك لخبث المستشرقين في إظهار عدم اهتمام المسلمين ببيت المقدس في العصور الاسلامية كالمدين الأخرى وهذا تجن على الحقيقة التاريخية. في العصور الاسلامية. ومن نواب القدس الأمير

(1) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، 1894م، ص104، 105.

(2) د. يوسف غوانمة، دراسات، م س، ص231.

(3) Cohen Lewis Population & Revenue in the towns of Palestine in the sixteenth Century, princeton, 1978 p9

كما ذكر الخالدي المقصد الرفيع المنشأ، مخطوط ورقة 147، جامعة القاهرة أن نيابة دمشق كانت مكونة من ست نيابات هي القدس وعجلون وصفد وبعبك ومصيايف. وأن نيابة القدس أصبحت طبلخاناه عام 767هـ/1365م وأضيفت اليها الرملة ونابلس.

كراي المنصوري عام 709هـ/1309م كما ولي الناصر محمد قلاوون الأمير علم الدين  
 سخر الجاولي نيابة غزة ونظر الحرمين الشريفين ونيابة القدس والخليل عام 703هـ/1305م<sup>(1)</sup>  
 كما تولى الأمير فخر المؤيدي هذا المنصب عام 777هـ/1379م<sup>(2)</sup> وكذلك تولى الأمير بدر  
 الدين حسن بن عماد الدين العسكري هذا المنصب عام 782هـ/1380م<sup>(3)</sup>.  
 كما اختلف المؤرخون المسلمون في تاريخ فصل نيابة القدس عن نيابة غزة<sup>(4)</sup> مما يوحي  
 بأن نيابة القدس كانت تابعة لنائب دمشق حتى ربطها الناصر محمد بنيابة غزة ثم فصلها عن  
 غزة سنة 720هـ/1322م عندما تمرد على أوامره نائب غزة سنجر الجاولي فانتزع منه نيابة  
 القدس وسجنه في الاسكندرية.

(1) ابن حبيب: درة الاسلاك في دولة الأتراك، مخطوط، ج1، ورقة 98 أبو المحاسن: المنهل الصافي: مخطوط، ج2، ورقة 92، بحير الدين  
 الحنبلي: م، س، ج2، ص272.  
 (2) ان م، ج2، ص272، أبو المحاسن: م، س، ج15، ص388.  
 (3) الحنبلي: ن م، ص272.  
 (4) يذكر أبو المحاسن: ن، ج9، ص36 بأن الناصر محمد بن قلاوون هو الذي أسس نيابة غزة وعين عليها سنجر بن عبد الله الجاولي  
 (ت745هـ) وابن حبيب: ن م، مخطوط، ج1، ورقة 98.  
 كما يذكر أبو المحاسن أنه أضاف إليها ولاية القدس ونابلس والخليل والرملة واللد وغيرهما أنظر أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد  
 الرواف، مخطوط ج2، ورقة 92. ويؤيده بذلك الحنبلي: ن م، مكتبة المحتسب عمان، ج2، ص272، 1973م. وأن الناصر محمد بن  
 قلاوون أمر سنجر الجاولي بعمل الروك في بلاد الشام: أبو المحاسن: م، س، ج2، ص36. والروك: كلمة قبطية ومعناها: قياس الأرض  
 وتثبيت ذلك في سجلات خاصة لمعرفة درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها. أبو المحاسن: ن م، ج9، حاشية ص42. وكانت  
 القدس قبل ذلك نيابة صغيرة تابعة لدمشق في عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير 709هـ/1311م ونائبها الأمير كراز المنصوري:  
 أبو المحاسن: ن م، ج8، ص258-268 ويظهر أن الناصر محمد بن قلاوون ربط جميع نواب الشام بنيابة دمشق 714هـ/1316م وأنه  
 فصل بيت المقدس عن غزة عقاباً لسنجر الجاولي الذي رفض مراسلة السلطان عن طريق الأمير تنكر بن عبد الله نائب دمشق فاعتقله  
 الناصر سنة 720هـ/1322م في الاسكندرية. أنظر ابن حجر: م، س، ج2، ص267، والقلقشندي، م، س، ج4، ص199، حيث ذكر  
 القلقشندي أن نيابة بيت المقدس استحدثت عام 777هـ/1379م والحق بها نظر القدس والخليل بينما يرى العماد الأصفهاني: الفتح  
 القسي في الفتح القدسي: تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر بأن الذي جعل بيت المقدس نيابة هو الظاهر بروتوق.  
 ويرى الدكتور يوسف غوانة عدم الأخذ برأي القلقشندي استناداً إلى الأحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة 777هـ/1379م  
 لعدم وجود الضرورة إلى ذلك بالنسبة للخطر الصليبي. بينما يرى الحنبلي: الأنس الجليل، ج2، ص317 أن السلطان الأشرف شعبان  
 هو الذي رفع مرتبة نائب القدس إلى طبلخاناه مع بقاء ارتباطها بدمشق لحمايتها من الخطر الصليبي، فزودها بالعتاد. وأمير  
 الطبلخاناه: الذي يكون بخدمته أربعين مملوكاً وتندق على بابه يوماً أحمال طبلخاناه بعد صلاة المغرب.



## ثالثاً: الجهاز الإداري في الدولة المملوكية

أولاً: الوظائف العسكرية "أرباب السيوف" التي اقتصرت على أمراء المماليك العسكريين

وتشمل:

1- نيابة السلطنة: هي أعلى الوظائف بعد السلطان، وتلحق بها كافة الدواوين والوظائف الأخرى، ويحكمها نائب السلطنة أو الكافل<sup>(1)</sup>، ويعين نائبها بمرسوم سلطاني من القاهرة<sup>(2)</sup>. كما أن نائب السلطنة يعتبر ممثلاً للسلطان في عامة الأمور المتعلقة بمملكته "نيابته"<sup>(3)</sup> فكان من واجبات نائب السلطنة تطبيق الأحكام الشرعية ورعاية الأوقاف ومراقبة الموظفين، ومعاملتهم معاملة حسنة، وعمارة البلاد وتفقد عساكر النيابة وحفظ الأمن وحماية الثغور وإقامة العدل، وتعيين فقيه في كل قرية لتعليمهم أمور دينهم<sup>(4)</sup>. بما يشبه وظيفة المحافظ اليوم في شرق الأردن.

وكان النائب يقيم بقصر النيابة<sup>(5)</sup>، وله خاتم خاص ابتدعه الظاهر بيبرس عام 661هـ/1263م في الكرك<sup>(6)</sup>. وكان يساعده في إدارة النيابة استاداراً<sup>(7)</sup> ويخدمه عدد من المماليك بما يقارب الثمانين طواشياً<sup>(8)</sup>. وقد جرت العادة أن يعيد السلطان تعيين النائب سنوياً مع إرسال خلعة يلبسها في احتفال كبير<sup>(9)</sup>. ثم يرسل النائب الهدايا الثمينة للسلطان بالإضافة إلى المال المقرر عليه سنوياً لخزينة السلطان من مكوس نيابته<sup>(10)</sup>

(1) القلقشندي: م.س.، ج4، ص184، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص44، وذكر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبيصار، ص53، قال كان من المنتظر أن يخلف السلطان، ص54. والباشا: الألقاب الإسلامية: ص434.

(2) الحنبلي: م.س.، ج2، ص33، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص65-73.

(3) القلقشندي: م.س.، ج4، ص184، 223، العمري: ن.م.، ص65.

(4) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص21، 22، العمري: ن.م.، ص92-93، القلقشندي: ن.م.، ج4، ص16.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص266.

(6) العيني: م.س.، ج20، ق3، ورقة 493، مخطوط. المقرئ: السلوك، ج1، ص492.

(7) الاستادار: من وظائف أرباب السيوف، وهو الأمير الذي يتولى مصروف البيوت السلطانية كلها ويشرف على شؤون إقطاعه وفلاحيه. انظر القلقشندي: ن.م.، ج5، ص457، السخاوي: الضوء اللامع، م.س.، ج10، ص217، والسبكي: ن.م.، ص39.

(8) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج3، ورقة 261، مخطوط. والسخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص389.

(9) ابن واصل: مفرج الكروب، تاريخ الواصلين، ورقة 40، مخطوط. ابن طولون: مفاكية الخلان، ج1، ص252، 253، 261.

(10) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص132 حيث ذكر أن مكوس نيابة الكرك سنوياً بلغ عشرة آلاف مثقال من الذهب التي تحصل على جسر الحسا.

وبالنسبة لنيابة الكرك فقد كان السلاطين ينعمون على نواب السلطنة، بإقطاعات كبيرة تختلف من نائب لآخر حسب أهميته ومنزلته، فقد منح الظاهر بيبرس نائب الكرك الأمير عز الدين أيد مر الظاهري بلد الخليل إقطاعاً له عام 661هـ/1263م<sup>(1)</sup>. وأما الناصر محمد بن قلاوون فقد زاد في إقطاع نائب الكرك سبع قرى أخرى<sup>(2)</sup>. وكانت تتبعها أربع ولايات هي ولاية الكرك وولاية الشوبك وولاية زُغُر وولاية معان<sup>(3)</sup>. ومن الامتيازات الأخرى التي خص بها سلاطين المماليك نيابة الكرك لاهميتها لهم أنهم كانوا يعينون عليها أميراً كبيراً كان من الملقبين باتابك العسكر<sup>(4)</sup> ويتمتع بالخصائص التالية:

- كان يكتب على الورق الأحمر الشامي كنائب دمشق دون غيره من النواب<sup>(5)</sup>.
- يرسل السلطان مباشرة بينما كان بقية نواب الشام يرسلونه عن طريق نائب دمشق الأمير تنكز<sup>(6)</sup>.
- كثرة إقطاعاته وراثته بخلاف النواب الآخرين<sup>(7)</sup>.
- كانت تصنع باسمه أو ابن نحاسية تحمل اسمه كدليل على الثراء والرقى والكمال<sup>(8)</sup>.
- كما كان يركب مرتين في الأسبوع برفقة الأمراء والحجاب وكبار موظفي النيابة أثناء خروجه من الكرك وعودته بنفس الحفاوة والتبجيل كبقية نواب الشام<sup>(9)</sup>.

(1) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج3، ص242، والمقريزي: السلوك، ج2، ص44.

(2) بيبرس، الدوادار، م س، ج9، وكرقة 303، مخطوط.

(3) القلقشندي: م س، ج4، ص242. وأما ابن فضل الله العمري فقد ذكر ولاية زُغُر ومعان ومؤنة والشوبك، مسالك الأبصار، ص210-215.

(4) أتابك: "أتا" بمعنى أب و"بك" بمعنى أمير أو سيد: فيصبح المعنى الأب الأمير أو الأب السيد، ويطلق عليه مقدم عسكر المملكة أو الأمير الكبير. انظر القلقشندي: م س، ج6، ص25، ج12، ص225، وابن شاهين الظاهري: م س، ص113.

D.Ayalon "Atabak Al - "Asakir". E.I2. vol.1, p732.

(5) القلقشندي: م س، ج6، ص193، ج8، ص54، وابن شاهين: م س، ص132. بينما كان نواب الشام يخاطبون نائب السلطنة في دمشق الأمير تنكز، وكان النائب يقيم في قصر النيابة في المدينة ويحل السلطان في جميع الأمور والتواقيع على المناشير والمراسيم بما يشبه المحافظ اليوم. انظر ابن حجر: م س، ج2، ص266، والقلقشندي: م س، ج4، ص16. والعمري: التعريف، ص65.

(6) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج9، ص38.

(7) أبو المحاسن: م س، ج8، ص179.

(8) د. غوانمة: التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط1، 1982م، عمان ص32.

(9) القلقشندي: م س، ج4، ص179.

وكانت نيابة الكرك تحتل القسم الجنوبي لمنطقة شرقي الأردن، واشتملت نيابتها على أربع ولايات هي الشوبك، ومعان، وزُغر، والبر<sup>(1)</sup> وكان نائب الكرك يعين ولاية لهذه الولايات تابعين له ولا يرسلون غيره<sup>(2)</sup>. بالإضافة إلى مرابطة جنود في الولاية لمساعدة الوالي ايضاً<sup>(3)</sup>. وكان لكل نائب خاتم خاص بإدارته في النيابة منذ سنة 661هـ/1263م زمن الظاهر بيبرس<sup>(4)</sup> ومساعد النائب: الاستادار<sup>(5)</sup> ومماليكه ثمانين طواشياً<sup>(6)</sup> للإشراف على شؤون الإقطاع للنائب في الولاية وعلى الفلاحين ونفقات بيت النائب<sup>(7)</sup>. ومن إقطاعات الكرك زمن السلطان الظاهر بيبرس إقطاع الأمير عز الدين أيدير الظاهري 661هـ/1263م بلد الخليل في فلسطين<sup>(8)</sup> ثم تبع هذا الإقطاع لنائب الكرك زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اذ منحه سبع قرى جديدة<sup>(9)</sup> مما جعله من الاثرياء لحصوله على المال الوفير من هذه الإقطاعات<sup>(10)</sup>. فكانت قصوره تشبه قصور السلاطين في القاهرة<sup>(11)</sup>.

وكان السلطان في القاهرة يجدد نيابته سنوياً بإهدائه خلعة سلطانية يلبسها في احتفال كبير حيث يمر من أمام الأهالي. تأكيداً لنيابته وإظهاراً لثقة السلطان به<sup>(12)</sup>. فيرد النائب الجميل، بالعرفان وذلك بارساله الهدايا القيمة له وكان قبول السلطان لها تعبيراً عن رضائه عن النائب كما كان النائب يقدم مبلغاً من المال الى خزينة السلطنة لكثرة واردات النيابة من المكوس<sup>(13)</sup>.

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 183، القلقشندي، م س، ج 4، ص 156.

(2) القلقشندي: م س، ج 7، ص 180.

(3) الخالدي: م س، ورقة 154، مخطوط. وكان هؤلاء الولا يرسلون من قبل نائب السلطنة في الكرك.

(4) العمري: م س، ج 20، ورقة 261 مخطوط، المقرري: م س، ج 1، ص 492.

(5) السخاوي: الضوء اللامع، ج 10، ص 217.

(6) بيبرس الدوادار: م س، ج 3، ورقة 261، مخطوط.

(7) السبكي: م س، ص 39.

(8) ابن شداد: الاغلاق الخطيرة ج 5، ص 242.

ثم انتزعه منه عندما نقله لنيابة دمشق ومنحه لنائبها الجديد الأمير علاء الدين ايدكين الفخري مما يظهر الأهمية الخاصة لنائب الكرك.

(9) بيبرس الدوادار: ن م، ج 4، ورقة 303 مخطوط.

(10) المقرري: ن م، ج 2، ص 44.

(11) د. يوسف غوانم، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص 32 حيث ذكر وجود طبق من النحاس الاصفر يعود سنة

708هـ في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة نقش عليه اسم نائب الكرك جمال الدين آقوش، كدليل على الثراء الفاحش.

(12) ابن طولون: م س، ج 1، ص 252، 253، 261.

(13) هذا فقد بلغت واردات الكرك من المكوس المحصل من جسر الحسا عشرة آلاف مثقال ذهب: ابن شاهين: م س، ص 132.

ومن الوظائف الإدارية في الكرك زمن الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون بعد مبايعته بالسلطنة في القاهرة 742هـ/1342م حيث بدأ بعملية التطهير بين صفوف الامراء المشاغبيين وعين بدلاً منهم المخلصين له وأمر بالأخباز<sup>(1)</sup> والرواتب<sup>(2)</sup> والإنعام<sup>(3)</sup> والأمريات<sup>(4)</sup> لأعوانه في الكرك وكانت ثقته بهم كبيرة فاتخذ خاصته منهم لحراسته وحمايته وخاصة الجاشنكير يوسف بن النصّال وأبو بكر البازدار<sup>(5)</sup> الكركيان الأصل وأخيراً قرر اتخاذ الكرك حاضرة لملكه لجو القاهرة المشحون بالكراهية والمؤامرات السرية بين الطامعين في الملك فحمل اليها الأموال والذخائر عام 742هـ/1342م ورافقه الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله أحمد<sup>(6)</sup>. وخواصه من الكركيين وكاتب السر وناظر الجيش بعد أن نقل اليها كل الخزائن السلطانية وشعائر السلطنة<sup>(7)</sup> وبدأ بتحصين قلعة الكرك وشحنها بالسلاح والغلال<sup>(8)</sup>.

(1) التويري: نهاية الأرب، ج2، ص209، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص50، ج13، ص153، الأخباز: وتعني الإقطاعات الممنوحة للجنود والامراء مع حق استغلالها وحق التصرف فيها كيفما شاءوا.

(2) الرواتب: ومعناها الجوامك: ومعنى الجوامك: الأجر اليومي، وكانت الجوامك الشهرية تشمل الخبوز والطعام والعليق، وكانوا يمنحون إقطاعات أحياناً بدل الرواتب، القلقشندي: ن، م، ج4، ص41.

(3) الإنعام: ما ينعم به السلطان أو الأمير على خواصه واتباعه في المناسبات كالخلع والخيول والعقارات وكسوة القماش، القلقشندي: ن، م، ج4، ص52-55.

(4) الأمريات: إعطاء رتبة أمير. وكان الأمراء أربع طبقات أعلاها المئين: مقدموا الألواف وبعدها طبقة امراء الطليخاناه ثم امراء العشرات ثم امراء الخمسات، القلقشندي: ن، م، ج4، ص144-150 وابن شاهين: ن، م، ص113-115.

(5) البازدار: حامل طيور الصيد والجوارح على يده وهي وظائف أرباب السيوف: القلقشندي: ن، م، ج5، ص469 وما زالت هذه الوظيفة موجودة في دول الخليج العربي وخاصة دولة الامارات العربية المتحدة.

(6) المقريري: السلوك، ج2، ص610. وأبو المحاسن: ن، م، ج10، ص67.

(7) ابن كثير: ن، م، ج14، ص20، وابيه قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج1، ورقة 27 مخطوط. وهذا ما جعلني أميل الى رأي د. يوسف غوانمة الى انه كان ينوي الاستقرار بالكرك بصفة نهائية واتخاذها دار سلطنة بالرغم من عدم إشارة المؤرخين لذلك وكان شعار السلطنة (القبّة والطير والغاشية والمنجاة)، أما الغاشية: سرج من أديم مخروزم بالذهب تحمل بين يدي السلطان في المواكب، وأما المنجاة: خنجر مقوس شبه السيف يطلق عليه أيضاً "دشن" و"سيخ" أو "سكين". ماير: الملابس المملوكية، ص67. وأبو المحاسن: ن، م، ج10، ص79، ذكر الطائر الذهبي الذي يوضع عليه القبّة وما زالت عادة لباس الخنجر المقوس في اليمن وسلطنة عُمان حتى اليوم.

(8) ابن قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ الاسلام، ج1، لوحة 37 مخطوط، ورقة 38. المقريري: ن، م، ج2، ص620. وأبو المحاسن: ن، م، ج10، ص69.

حيث ذكروا في رده على أمراء المماليك عندما طلبوا منه العودة للقاهرة: "إن الشام ملكي وديار مصر ملكي، والكرك ملكي، وقد أقيمت نائباً وحاجباً ووزيراً يقضوا اشغال الناس وإن أي مكان خطر لي أقيمت فيه... ومن تكلم فيما لا يعنيه قتلته". ولما أيقنوا من قرارة البقاء في الكرك قرر أمراء مصر والقاهرة عزله وتعيين أخيه اسماعيل ولقبوه بالملك الصالح عماد الدين اسماعيل الذي عزل الناصر ولرفض المماليك لسياسته بإدخال العنصر الأيوبي في القيادة المملوكية. د. غوانمة: التاريخ الحضاري، ص245.

ولكن الشؤم لاحقه ولم يهنأ بالإقامة بالكرك إلا ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً<sup>(1)</sup> حيث قتله الأمير منجك اليوسفي الناصري المرسل من قبل أخيه السلطان اسماعيل خنقاً وقطع رأسه في ليلة 4 ربيع أول 745هـ/ 17 يوليو "تموز" 1243م وحمله لآخيه في القاهرة<sup>(2)</sup>.

بالإضافة إلى مجموعة من الوظائف العسكرية الصغرى كנקابة الجيش التي تشرف على العسكر، وנקابة القلعة التي تشرف على حفظ وصيانة القلعة وشد الأوقاف المشرفة على شؤون الأوقاف وأحباسهم وقد تولى أمرها صغار الأمراء<sup>(3)</sup>.

وبالنسبة لجيش الكرك فقد كان لها جيشاً محلياً للدفاع عنها زمن الأيوبيين والمماليك. فشارك الجيش في العهد الأيوبي فيها في فتح آمد<sup>(4)</sup> 629هـ/ 1231م مع قوات الكامل محمد السلطان الأيوبي في مصر وشارك في فتح بيت المقدس 637هـ/ 1238م بقيادة الناصر داود عندما طهرها من الصليبيين الذين كانوا قد تسلموها من الملك الكامل الأيوبي أثناء الحملة الصليبية السادسة. كما حاول المساهمة في استرجاع عرش الأيوبيين في مصر بداية دولة المماليك الأولى ولكنه فشل لتفوق جيش المماليك.

وأما الجيش المملوكي في الكرك فكان جيشاً إقطاعياً كبقية الجيوش في دولة المماليك بمصر والشام، حيث كان السلطان في القاهرة يصدر مراسيم الإقطاعات للأمراء وأجناد الحلقة وحفظت هذه المراسيم لدى ناظر جيش الكرك. أما الأجناد الباقين في الكرك فتصدر مراسيم من أمرائهم<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ بأن مهمة هذا الجيش كانت حربية وانتصارية لحماية الدولة خارجياً من الأعداء وداخلياً بحفظه الاستقرار لتنشيط الإنتاج الزراعي والصناعي والتجاري. وكانت عناصر جيش

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص618، أبو المحاسن، م س، ج10، ص70.

(2) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج8، ص90، وابن كثير: م س، ج14، ص213. المقرئزي: م، ج2، ص662، أبو المحاسن: م، ج10، ص71، 93.

(3) القلقشندي: م س، ج4، ص186-187.

(4) آمد: مدينة محصنة بسورها الحجري الأسود، وبداخلها ينابيع ولها بساتين وزرع كثير (انظر القلقشندي: م س، ج4، ص324).

(5) المقرئزي: الخطوط، ج3، ص350.

الكرك مكونة من المماليك والقبائل العربية<sup>(1)</sup> حول الكرك بالإضافة لأهالي الكرك ومنطقة جبال الشراة ومواب الجبلية<sup>(2)</sup> وبالنسبة لقيادة هذا الجيش فكانت تتكون من ناظر الجيش<sup>(3)</sup> المعين من قبل السلطان للحفاظ على إقطاعات الأمراء والأجناد في النيابة<sup>(4)</sup> بمساعدة كتاب وشهود<sup>(5)</sup> ثم أمراء الطبلخاناه<sup>(6)</sup> وأمراء العشرينات<sup>(7)</sup> وأمراء الخمسات<sup>(8)</sup> وأجناد الحلقة والبحرية<sup>(9)</sup> والغلمان السلطانية.

ويلاحظ وجود ممالك سلطانية في جيش الكرك بخلاف جيوش نيابات الشام الأخرى والتي لا يتوفر فيها هؤلاء المماليك السلطانية لأهميتها الخاصة عند السلاطين فميزوها عن غيرها<sup>(10)</sup>.

أما أعداد الجيش المملوكي في الكرك: فقد تطورت حسب الظروف السياسية والعسكرية زمن سلاطين المماليك وتبعاً للحاجة. فكانت جيوش النيابات الصغيرة في صفد والكرك وحماة صغيرة في بداية عهد المماليك<sup>(11)</sup>.

ومن النشاطات العسكرية التي شارك فيها معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م مع جيش مصر والشام، وساعد الظاهر بيبرس في إرجاع الكرك من المغيث عمر سنة

(1) من فرسان بني عقبة عرب الكرك، وفرسان بني مهدي عرب البلقاء المخصصين لخدمة السلطان بموجب النظام الإنطاقي العسكري المملوكي وكان عددهم حوالي ألف مقاتل: ابن شاهين: م، ص 105.

(2) المقريري: السلوك، ج 1، ص 670. والنويري: نهاية الأرب، ج 24، ورقة 6 مخطوط.

(3) ابن شاهين: ن، م، ص 132، القلقشندي: م، ص 4، ج 4، ص 241، 242، ج 9، ص 258، ج 12، ص 232.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 30، 31، 190.

(5) المقريري: المخطط، ج 3، ص 368.

(6) أمير الطبلخاناه: الذي يخدمته أربعين مملوكاً وتوقد المشاعل أمام منزله بعد صلاة المغرب: ابن شاهين: ن، م، ص 113.

(7) أمراء العشرينات: ومفردها أمير عشرة وهو الذي يخدمته عشرين مملوك: ن، م، ص 113.

(8) أمير الخمسة: الذي يخدمته خمسة مماليك: ن، م، ص.

(9) أجناد الحلقة: أهم فرقة من المماليك زمن الأيوبيين والمماليك حازت على الإقطاعات بعد المماليك السلطانية وفي المرتبة التالية وسلحوها

بسلاح جديد وهو المكاحل "البنادق": القلقشندي: ن، م، ج 4، ص 16، غوانمة، ن، م، ص 46.

(10) القلقشندي: ن.م. ج 5، ص 182.

(11) النويري، نهاية الأرب، ج 28، ورقة 70، مخطوط، حيث ذكر أثناء تمرد جيوش الكرك على الظاهر بيبرس فقر شفق 600 فارس غير

المشاة ثم عفا عنهم واستبدلهم بقوات عسكرية من القاهرة. ويقدر د. يوسف غوانمة أعداد جيش الكرك ما بين 600-1000 فارس

عدا المشاة ومماليك الأمراء المرتبين فيها لعدم وجود نص صريح يتضمن عدد جيش الكرك. غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، ص 44.

661هـ/1263م فكافأهم<sup>(1)</sup>. كما شارك في حرب المغول زمن السلطانين الملك المنصور سيف الدين قلاوون والسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون<sup>(2)</sup>.

وشارك أيضاً في فتح عكا سنة 690هـ/1292م بقيادة المؤرخ القائد الأمير بيبرس الدوادار نائب الكرك<sup>(3)</sup>. ومن السلاطين الذين اهتموا بهذا الجيش بالاضافة إلى الظاهر بيبرس كما ذكرنا سابقاً الملك المنصور قلاوون سنة 685هـ/1288م<sup>(4)</sup> والسلطان الملك الصالح اسماعيل سنة 745هـ/1343م بعد قضائه على ثورة الناصر أحمد في الكرك<sup>(5)</sup>.

#### قائمة نواب الكرك زمن المماليك (مأخوذة من السلوك، ج3، ق1، للمقريزي)

اسم النائب	مدة ولايته	السلطان المعاصر له
الملك السعيد بن الظاهر بيبرس	678هـ/1279م	كان مستقلاً في الكرك
الملك المسعود بن الظاهر بيبرس	678-685هـ/1280-1286م	كان مستقلاً في الكرك
الملك محمد بن قلاوون ونائبه جمال الدين أقوش	708-709هـ/1308-1309م	كان مستقلاً في الكرك
السلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون	742-745هـ/1341-1344م	كان مستقلاً في الكرك
الأمير أحمد بن القشتمري	764هـ/1362م	الاشرف شعبان
الأمير أقتمر عبد الغني	775هـ/1374م	
الأمير طيدير البالسي	775هـ/1374م	الاشرف شعبان

(1) حيث صرف مرتباتهم من أمواله الخاصة لمدة ثلاثة أشهر مقدماً ومنحهم الإقطاعات: المقريزي: السلوك، ج1، ص491 كما زود هذا

الجيش بجماعة من البحرية والظاهرية (ن م، ص492)، والتوري: نهاية الأرب ج2، ورقة 23 مخطوط.

(2) المقريزي: ن م، ج1، ص691.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ورقة 283-285 مخطوط.

(4) المقريزي: ن م، ج1، ص732.

(5) المقريزي: ن م، ج2، ص662، 666، وأبو المحاسن: م س، ج5، ص93.

الاشرف شعبان	777هـ/1376م	الأمير تمرى التمرتاش
كان مستقلاً في الكرك زمن الشرف شعبان <sup>(6)</sup>	778هـ/1377م	الأمير ملكتمر

<sup>(6)</sup> المقرئى: السلوك، جـ3، ق1، ص268.



## النظام الإداري في القسم الشمالي من شرقي الأردن :

لقد قسمه المماليك الى ثلاثة أقسام هي :

أولاً: نيابة عجلون: وكانت تابعة لنيابة دمشق حيث كان نائبها يُعَيَّن من قبل نائب دمشق المملوكي<sup>(1)</sup>، وكذلك قاضيه المعروف بقاضي عجلون<sup>(2)</sup>. ولقد أهتم بها المماليك وطوّروا النظام الإداري فيها<sup>(3)</sup> نظراً لمركزها الاستراتيجي كحلقة وصل بين دولة المماليك في مصر والشام عبر الأغوار الى مدينة اربد فأدرعات "درعا اليوم" الى دمشق كما كان يستريح فيها السلطان أثناء زيارته لدمشق وغيرها ويلقى بها التكريم وتقام له الاحتفالات من مأكولات ومشروبات<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة لجهاز عجلون الإداري فقد تكون من النائب المقيم في قلعتها التي استخدمت أيضاً كمستودع للذخيرة والسلاح والغلال حيث كان يحرسها عدد من الجند زمن السلطان الظاهر بيبرس سنة 659هـ/1261م<sup>(5)</sup>.

ثانياً: ولاية البلقاء: كما كانت تشكل المنطقة الوسطى لشرقي الأردن : وكان وضعها الإداري يتبع الحالة السياسية حيث كانت تتبع أحياناً بنبابة دمشق<sup>(6)</sup> وأحياناً أخرى بنبابة الكرك كما حصل أيام السلطان الملك المسعود بن الظاهر بيبرس<sup>(7)</sup> وأحياناً للسلطنة في القاهرة زمن المنصور قلاوون في القاهرة<sup>(8)</sup>. والذي أهتم بها بعد أن خلّصها من السلطان المسعود بن

(1) القلقشندي: م.س. ج 12، ص 105

(2) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 795، 746، ابن ابيك : كنز الدرر، ج 434، اليونيني: م.س، ج 3، ص 433، 434. والسبكي، م.س، ج 5، ص 23. والقلقشندي: ن م، ج 4، ص 200. والخالدي: ن م، ورقة 148، مخطوط.

(3) انظر: ابن طولون: مفاكهة الخلال: ج 1، ص 40-41، 170 يذكر أن نائبها أصبح يعين من قبل السلطان في القاهرة زمن دولة المماليك اعتباراً من 814هـ/1411م.

(4) المقرئزي: السلوك، ج 4، ص 156

(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج 3، ص 433، 434، والمقرئزي: السلوك، ج 2، ص 795. ابن ابيك: ن م: ج 9، ص 93، والسخاوي: م.س، ج 4، ص 746، الصفدي: م.س: ج 7، ص 66، 67.

(6) العمري، ن م، ص 178.

(7) أثناء ثورته بالكرك وتوسعه نحو البلقاء وضمه الصلت الى امارته في الكرك. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج 9، ورقة 148، مخطوط. وابن بهادر: فتوح النصر، ورقة 312، مخطوط.

(8) النويري: نهاية الأرب، ج 29، ورقة 6، مخطوط، بيبرس الدوادار: ن م، ج 9، ورقة 148، مخطوط.

الظاهر بيبرس 678هـ/1280م وتعيينه للأمير جمال الدين آفش الشريف ولقبه بنائب السلطنة الشريفة "بالصلت والبقاء"<sup>(1)</sup> ثم أعادها كإحدى ولايات نيابة دمشق بعد القضاء على ولدي الظاهر بيبرس في الكرك، وانتقل مركز الولاية من الصلت الى مدينة عمان كمقر للوالي<sup>(2)</sup>. ثم تحول مركزها الى مدينة حسان<sup>(3)</sup>.

وقد أكرم الناصر محمد بن قلاوون أهالي البلقاء لوقوفهم الى جانبه أيام محنته في الكرك. حيث زار حسان سنة 717هـ/1315م عندما أصبح سلطاناً في القاهرة ومكث بها مدة طويلة رتب فيها أموراً، ثم زار القدس والكرك<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة للجهاز الإداري في ولاية البلقاء فقد كان كالتالي :

حيث كان الوالي على رأس الجهاز<sup>(5)</sup>. ثم القضاة كقاضي البلقاء<sup>(6)</sup> وقاضي الصلت<sup>(7)</sup> وقاضي حسان<sup>(8)</sup>.

ثالثاً: منطقة الأغوار الشمالية "من الباقورة شمالاً وحتى أريحا جنوباً" فكانت تابعة لنيابة دمشق لأهمية القبائل فيها<sup>(9)</sup>. بينما ضمت الأغوار الجنوبية جنوب البحر الميت الى نيابة الكرك<sup>(10)</sup> كما كانت مدينة بيسان على الضفة الغربية لنهر الأردن مركزاً لولاية

(1) المقريزي: السلوك: ج 1، ص 665، ابن القرات: م س، ج 7، ث 154. ويعتقد الدكتور غوانمة، التاريخ الحضاري، ص 48، بأن السلطان قلاوون جعلها نيابة وعين نائبها الأمير جاندار وزودها بالعتاد ليقيموا أمام أطماع الملك المسعود بن الظاهر بيبرس.

(2) القلقشندي: م س، ج 12، ص 321.

(3) العمري: م س، ج 22، ورقة 110، 137 مخطوط. حيث كتب والي حسان نائب دمشق بخبره بتحريك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك باتجاه دمشق في سلطنته الثالثة.

(4) أبو الفداء: م س، ج 4، ص 85. الخالدي: م س، ورقة 154، مخطوط منصور بجامعة القاهرة.

(5) كان الوالي أمير طبلخاناه يعاونه عدد من الجنود: القلقشندي: ن م، ج 4، ص 201.

(6) أبو شامة: م س، ص 201.

(7) السبكي: م س، ج 5، ص 132-133.

(8) ن م، ص 133.

(9) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 178.

(10) العمري: م س، ن ص.

الأغوار<sup>(1)</sup>. هذا وقد ذكر النويري وجود وال آخر في الشونة الشمالية "القصور المعيني"<sup>(2)</sup>.

وهكذا نرى أن الممالك قسموا شرقي الأردن الى قسمين رئيسيين هما :

القسم الجنوبي : ومركزها الكرك التي أصبحت إحدى النيابات الست الهامة في بلاد الشام "نيابة السلطنة بالكرك"<sup>(3)</sup> وتتبعها ولاية الشوبك وولاية معان وولاية زعر وولاية البر.

والقسم الشمالي : ويشمل على نيابة عجلون<sup>(4)</sup> ومنطقة الأغوار<sup>(5)</sup> وولاية البلقاء<sup>(6)</sup> وجميعها يتبع نيابة دمشق<sup>(7)</sup>.

(1) ن م، ن ص. والقلقشندي: م س، ج 4، ص 104.

(2) النويري: م س، ج 28، ورقة 50 مخطوط. وكانت معظم أراضي الأغوار من أملاك السلطان الخاصة لوجود قصب السكر حيث عهد لنائب دمشق بالاشراف على صناعة السكر بتعيينه أميراً برتبة استادار "استادار الأغوار" انظر ابن قاضي شهبه: م س، ج 3، ورقة 122، مخطوط.

(3) أبو المحاسن: م س، ج 9، ص 193، والقلقشندي، ن م، ج 4، ص 163 والنيابات الست هي نيابة دمشق، وحلب، وحمّة، وطرابلس، صفد، الكرك ويضيف بعض المؤرخين نيابة سابقة هي نيابة غزة التي انشأها الملك محمد بن قلاوون، أبو المحاسن: ن م، ج 9، ص 193. وتمتد نيابة الكرك الى العقبة جنوباً وإلى نهر الموجب وزيء شمالاً ومن الأزرق شرقاً الى البحر الميت ووادي عربة شبه بني اسائيل سيناء غرباً. والعمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 183.

(4) نيابة عجلون تمتد من نهر الزرقاء جنوباً الى نهر اليرموك "الشريعة القبلية" شمالاً ومن نهر الأردن والأغوار غرباً الى البادية شرقاً، العمرى: مسالك الأبصار، ج 1، ص 82، وتضم كثيراً من المدن والقرى هي: مدينة اربد وبيت راس وحيراض وملكا وأم قيس (جدارا) وايدون، والمفرق، والظليل، والرمثا، وارحابا، وغيرها وتشمل هذه النيابة على منطقة الصويت الممتدة من شرقي جبال عجلون وجرش حتى أم الجمال في بادية الشام، لمعرفة مزيد من المعلومات انظر ابو الفداء: تقويم البلدان، مطبعة المثنى، بغداد، 1850م، ويوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص 38.

(5) قسمها الجغرافيون العرب الى ثلاثة أقسام هي الغور الأعلى وهو غور القصور "الشونة الشمالية حالياً ويسان والأوسط وهما عمتا (أبو عبيدة حالياً) ودامية وارحما، والأسفل وهو غور زغر ويربطها مع فلسطين عدد من الجسور على نهر الأردن.

(6) تمتد ولاية البلقاء من نهر الموجب جنوباً الى وادي الزرقاء شمالاً ومن نهر الأردن والأغوار غرباً الى الأزرق والبادية شرقاً، العمرى: مسالك الأبصار، ج 3، ق 3، ورقة 441 مخطوط.

(7) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 178 والقلقشندي: ن م، ج 4، ص 103، 106. والنويري: ن م، ج 28، ورقة 50، مخطوط.

وبالنسبة لنائب بيت المقدس في العهد الأيوبي وحتى بداية الحكم المملوكي فيتم تعيينه من قبل نائب السلطان في دمشق الذي يعين أميراً من امرائه ويسمه والياً<sup>(1)</sup> ثم اطلق عليه اسم "نائب" عندما تحولت الى نيابة عام 777هـ/1375م.<sup>(2)</sup>

هذا وكانت اختصاصات النائب في نيابة السلطان في حكم المدينة<sup>(3)</sup> ومنذ 777هـ/1375م زادت واجبات نائب القدس بحيث أصبح يقوم بمهام نيابة مدينة الخليل إدارياً، والنظر في الحرمين الشريفين "القدس والخليل" فلقب بناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف، وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام<sup>(4)</sup>. ومنذ هذا التاريخ أصبح نوابها من أمراء الطبلخاناه<sup>(5)</sup>، يعينه السلطان في مصر.

وبالنسبة لولاية صفد في فلسطين: فقد تولى نيابتها زمن الظاهر بيبرس الأمير عز الدين العلاني عام 664هـ/1266م<sup>(6)</sup>. وتولى نيابتها أكثر من مرة الأمير سيف الدين طغاي من سنة 720-736هـ/1318-1336م في عهد الناصر محمد بن قلاوون<sup>(7)</sup> وكان يتبعها إحدى عشرة

(1) بغير الدين الحنبلي: الأنيس الجليل، ج2، ص212، 213 وانظر القلقشندي، م س، ج4، ص119، لأنها كانت ولاية تابعة لدمشق. وعندما أصبحت نيابة أصبح نائب القدس يختار والياً للمدينة فكانت مهمته الاشراف على مدينة القدس وحماية السكان، ومنع المنكرات من حمرة وحشيشة ولا يحق له التحسس على الناس وكبس بيوتهم بمجرد الوشاية، والمحافظة على الأمن: السبكي: معبد النعم، دار الكتاب العربي مصر 1948 ص43. كما يسميه بغير الدين الحنبلي بصاحب الشرطة "حكام الشرطة من النواب" بغير الدين، ن م، ج2، ص604. كما كان مسؤولاً عن سلامة الحجاج الذين يقدمون للمدينة. نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، دمشق، 1966م ص154.

(2) القلقشندي: ن م، ج4، ص197-199، ج12، ص104.

(3) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج3، ص144، حيث وصفه بأنه نائب مختص فيما هو ناء عن الحضرة وأن النائب هو المتصرف المطلق في كل أمر "فكان يتابع ويشرف على كل ما يتعلق بالجيش والمال والبريد والموظفين وحماية الملكة وأهل الذمة وتطبيق الشرع وتولية ولاية الأعمال وصغار النواب على المدن الصغيرة والقلاع ويوظف من يشاء في الوظائف العامة انظر القلقشندي: ن م، ج12، ص229، 232.

(4) بغير الدين ن م. ج1، ص608.

(5) وهي مرتبة عسكرية يخدم صاحبها اربعون مملوكاً. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص113. ويدق على باب أمير الطبلخاناه الطبول كالسلطان وامراء الثقات ولكن بصورة مضغرة وقد تزيد مرتبه أمير الطبلخاناه الى امرة سبعين أو ثمانين مملوكاً المقريري: السلوك. ج1، ص238 هامش رقم 1 وكان يعاقب أهل الجرائم بسوط معتدل طري يضربه متحاشياً الوجه، والمقاتل انظر السبكي: م.س. ص44.

كما كان يفضل أن يكون هذا الوالي من ابناء القدس الذين عاشوا فيها وربما تربوا فيها من أصل مملوكي، لأنه يشترط فيه أن يكون عارفاً بالعرف والعادة. انظر القلقشندي: ن م، ج12، ص330، 331.

(6) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص264، المقريري: ن م، ج1، ص547-548، وابن تغري بردي: م س: ج3، ص139.

(7) المقريري: ن م، ج2، ص183، 321-322، وابن تغري بردي: ن م، ج10، ص244.

ولاية: كولاية بر صفد وولاية الناصرة وولاية طبرية وولاية تبنيو وولاية عتليت وولاية عكا وولاية الشاغور وولاية جنين والشقيف<sup>(1)</sup>. وكان لنائب صفد عند السلاطين ميزة خاصة به للمخاطبة عند تعيينه<sup>(2)</sup> ومن الملاحظات الهامة حول نائبها أيضاً أن بعضهم قد عين للتخلص من معارضته للسلطان كالأمير سيف الدين الأبو بكري عام 722هـ/1322م<sup>3</sup>. والأمير أرغون شاه عام 747هـ/1345م لابعاده عن القاهرة<sup>4</sup>. وكذلك الأمير أحمد الساقى (شاد الشرابخانه) عام 749هـ/1347م<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ لجوء بعض السلاطين للتقليل من شأن الأمراء بتعيينهم نواباً لصفد عند الغضب عليهم كالأمير سيف الدين طغاي الحاصلي الذي غضب عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فعينه نائباً في صفد عام 718هـ/1320م<sup>(6)</sup>. والأمير الحاج ملك نائب السلطنة في مصر الذي غضب عليه السلطان وعينه نائباً لصفد عام 746هـ/1344م<sup>(7)</sup> وقد أنشئ ديوان البذل<sup>(8)</sup> في عهد السلطان الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون (753-755هـ/1351-1353م) وانتشر في مختلف انحاء سلطنة المماليك، ومن شروط نائب صفد أن يكون أميراً من مقدمي الألوف<sup>(9)</sup>. وبالنسبة لراتب نائب صفد فكان من إقطاعه الخاص، وإذا لم يف بحاجته يزداد من الخاص السلطاني كما حدث عام 676هـ/1278م عندما أخذ الأمير علم الدين سنجر الحموي من الخاص السلطاني، وكذلك الأمير طشتمر البدرى الساقى عام 737هـ/1335م<sup>(10)</sup>.

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص240-241، وابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص207-208.

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص70-73. أورد النص "ضاعف الله همة الجنب اللعائى الأمري، الأجل الكبير، العادلي المرباطي...".

(3) المقرئى: ن.م، ج2، ص338.

(4) المقرئى: ن.م، ص720، وابن تغري بردي، ن.م، ج10، ص153.

(5) المقرئى: ن م، ص761. وابن تغري بردي: ن م، ص192.

(6) ابن ايلك الدوادارى: الدر الفاخر، ص293.

(7) المقرئى: ن م، ج2، ص681، 682، 697، 698.

(8) ابن تغري: النجوم، ج11، ص292، وكان من له حاجة يأتي الى صاحب هذا الديوان، ويذل فيما يريد من الوظائف.

(9) القلقشندي: ن م، ج4، ص14. ومقدموا الألوف: مفردا مقدم ألف وهو الأمير الذي يتقدمه مائة فارس ممن دونه من الأمراء ويسمى

"أمير مائة" وهي أعلى الرتب العسكرية المملوكية.

(10) ابن الفرات: م.س، ج7، ص90، المقرئى: ن م، ج2، ص403، ابن تغري: ن م، ج9، ص145-147.

أما نواب غزة فكان منهم زمن الأشرف شعبان وابنه علي :

اسم النائب		اسم السلطان المعاصر له
الأمير أرغون الأزفي	769هـ/1368م	الأشرف شعبان <sup>(1)</sup>
الأمير محمد بك الشيخوني	770هـ/1369م	الأشرف شعبان <sup>(2)</sup>
الأمير شرف الدين موسى الأزكشي	774هـ/1373م	الأشرف شعبان <sup>(3)</sup>

الأمير الحاج آل ملك	775هـ/1374م	الأشرف شعبان <sup>(4)</sup>
الأمير زين الدين مبارك شاه العلي المشطوب - مكث شهراً ثم نقل حاجباً لطرابلس	779هـ/1378م	العادل علي بن الأشرف <sup>(5)</sup>
الأمير مبارك شاه الطازي	780هـ/1379م	العادل علي بن الأشرف <sup>(6)</sup>
الأمير ناصر الدين بن الخبغا العادلي	781هـ/1380م	العادل علي بن الأشرف <sup>(7)</sup>

<sup>(1)</sup> المقرئ: م، س، ص 177.

<sup>(2)</sup> ن م، ص 176.

<sup>(3)</sup> المقرئ: ن م، ج 3، ق 1، ص 202.

<sup>(4)</sup> ن م، ج 3، ص 219.

<sup>(5)</sup> ن م، ج 3، ص 320.

<sup>(6)</sup> ن م، ج 3، ص 327.

<sup>(7)</sup> ن م، ج 3، ص 275.

ومن نواب صفد زمن المماليك

اسم الأمير	اسم السلطان المعاصر له	
الأمير قطلو أقتمر الصلاي أمير جاندار، بدلاً من الأمير عمر بن أرغون	شهر رجب 766هـ/1366م	الأشرف شعبان
الأمير أزدمر - بدلاً من قطلو أقتمر	رمضان 766هـ/1366م	الأشرف شعبان
الأمير عز الدين أزدمر الناصري الخازندار	769هـ/1369م	الأشرف شعبان
الأمير فتاوبقا المنصوري حاجب السلطان الأشرف شعبان - بعد عزل الأمير علمدار المحمدي - ثم نقل في نفس السنة إلى نيابة غزة وعين محله	775هـ/1375م	الأشرف شعبان <sup>(1)</sup>
الأمير أشتمر	775هـ/1375م	الأشرف شعبان <sup>(2)</sup>
الأمير منجك	775هـ/1375م	الأشرف شعبان <sup>(3)</sup>
الأمير منكلي بغا البلدي	775هـ/1375م	الأشرف شعبان <sup>(4)</sup>
الأمير أقتمر عبدالغني	778هـ/1377م	الأشرف شعبان <sup>(5)</sup>
الأمير فيغا الجوهري	788هـ/1377م	الملك العادل علي الأشرف <sup>(6)</sup>

وهكذا لوحظ تبادل النواب بين الكرك وصفد زمن الأشرف شعبان بالإضافة لقصر مدة

الوالي لعدم الثقة بهم وزيادة في الحيلة والحذر حتى لا تسول لهم أنفسهم بالتمرد.

<sup>(1)</sup> المقتري: ج3، ص219.

<sup>(2)</sup> ن م، ص223.

<sup>(3)</sup> ن م، ص224.

<sup>(4)</sup> ن م، ص.

<sup>(5)</sup> ن م، ص268.

<sup>(6)</sup> ن م، ص327.

2- نيابة القلعة: كانت مستقلة عن نيابة السلطنة لتبعين صاحبها من قبل السلطان مباشرة، ولا يخضع لنائب السلطنة<sup>(1)</sup> ويكون صاحبها من مقدمي الألف أو أمراء الطبلخاناه، وأول من أحدث هذه الوظيفة بقلعة الكرك سنة 674هـ/1276م الظاهر بيبرس، وبالنسبة لمهمة نائب القلعة فكانت حفظ القلعة وصيانتها وترميمها وخزن<sup>(2)</sup> الذخيرة الحربية فيها، والحرص على مفاتيحها بحيث لا يسلمها إلا بأمر السلطان لمن يأتي بعده<sup>(3)</sup> كما كان بمثابة جهاز الأمن الذي يراقب أعمال نائب السلطنة<sup>(4)</sup> وجميع الموظفين في النيابة ويقوم على خدمته بعض الجنود<sup>(5)</sup> واستخدم الحمام الزاجل لارسال تقاريره<sup>(6)</sup> وبالنسبة لقلعة القدس الحصينة فكانت بالجانب الغربي من القدس قرب باب الخليل. وكانت عادة المماليك تعيين أميراً للقلاع من قبل السلطان لتفقدتها كما حدث عام 713هـ/1313م عندما تولى هذه المهمة بدمشق "الأمير عبدالله الدواداري المهمندار" والد المؤرخ ابن أيبك والذي قام بجولة تفقدية للقلاع والبقاء وعجلون حيث انزلت يد فرسه في وادي الزرقاء فمات ودفن في أذرعات<sup>(7)</sup>.

(1) القلقشندي: م س، ج 2، ص 184، ج 4، ص 199، ج 12، ص 125.

(2) المقرئزي: السلوك، ج 3، ص 657، أبو المحاسن، م س، ج 11، ص 348. وابن واصل، م س، ورقة 491، مخطوط. حيث عين عليها الأمير شمس الدين السهيلي.

(3) ن.م. ن. ص.، و العمرى: التحريف، ص 148.

(4) علي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، 1944، ص 250، سعيد عاشور، مصر والشام، ص 311.

(5) العمرى: التعريف، ص 149، القلقشندي: م س، ج 4، ص 185، ج 12، ص 326.

(6) العمرى: ن م، ص 46، والقلقشندي: ن.م. ج 11، ص 92.

وبالنسبة لقلعة القدس فقد هدمها الملك المعظم عيسى الأيوبي أثناء الحملة الصليبية الخامسة 616هـ/1218م حتى لا يستفيد منها الفرنجة، فاعاد الفرنجة بناءها بعد الحملة السادسة سنة 626هـ/1229م. أنظر الخنبلي: م س، ج 2، ص 342. وابن واصل: م س، ج 4، ص 22، 24. والمقرئزي: السلوك، ج 1، ص 204. Roger of Wendover: The crusade of Fredrick II. From Sources.

of Medieval History, Edited by Edward Roters, USA. 1971, P. 52.

كما أخرجهم منها الملك الناصر داود الأيوبي سنة 637هـ/1239م وأعادها للحكم الأيوبي. أنظر ابن شداد: الاعلاق الحظيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ج 3، ص 232.

كما حدد في القلعة في زمن المماليك الناصر محمد بن قلاوون سنة 710هـ/1310م، وبنى فيها الجامع الحالي وكان نائبها يعين من قبل نائب القدس وفيها أبراج الحمام والذخائر والأسلحة وتقوم بمهمته البريد. أنظر القلقشندي: ن م، ج 4، ص 199، ج 2، ص 325. والخالدي: م س، ورقة 147، مخطوط. وكان نائب القلعة ذرابة عسكرية ويطلق على من يتولاها لقب وال أيضاً. القلقشندي: ن م، ج 4، ص 199، وكان يدق على بابها الطبول ما بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد، بجزر الدين: م س، ج 2، ص 405، ومن واجبات صاحبها حفظ القلعة، وتفقد أسوارها ورجالها وحمايتها من الأعداء، وتقوى الله، القلقشندي: ن م، ج 4، ص 149.

(7) ابن أيبك، كنز الدرر، ج 9، ص 267، محمد الخنبلي: الأنس الجليل، ج 2، ص 610.



كما عين طبيب لكل قلعة لعلاج نائبيها وجنوده وأهالي المدينة المجاورة وبالنسبة لقلعة الكرك: كان البيمارستان الخاص بها يعالج رجال القلعة والأهالي ومن أطبائها أبو المنصور بن الحكيم موفق الدين بن صقلاب، وشمس الدين الخسر وشاهين وأبو الفضل بن أبي سليمان<sup>(1)</sup> وكذلك كان طبيب قلعة عجلون أبو الفرج بن موفق الدين يعقوب ابن احق ابن القف المتوفي عام 685هـ/1287م<sup>(2)</sup> أما بالنسبة لقلعة صفد فقد كانت نيابتها أيضاً مستقلة عن نيابة السلطنة فيها<sup>(3)</sup> وقد كثرت في نيابة صفد القلاع الحصينة<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة لمعرفة الوقت في القلعة ليلاً فكان يعرف من دق الطبل في القلعة<sup>5</sup> كما اشتملت على الخزائن السلطانية كخزانة قلعة الكرك المملوءة بالذهب<sup>(6)</sup> بجانب خزانة السلاح والذخيرة "الزردخاناه"<sup>(7)</sup>.

وكان بها سجن لكبار المعارضين للسلطان كما كان في قلعة صفد كما كانت قلعة عجلون مقراً لنائب عجلون زمن الظاهر بيبرس عام 659هـ/1261.

### 3. الحجابه<sup>(8)</sup>:

كان من وظائف الحاجب الانصاف بين الأمراء والجند بنفسه أو بالرجوع الى النائب. والفصل في المخاصمات وإقامة العدل، والتحقيق من تنفيذ أوامر السلطنة ويستعرض الجند.

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ص273، 274.  
(2) ابن أبي أصيبعة، ج2، ص123، 126. ويعتقد بعض المؤرخين بأن هذا النظام اتبع في معظم قلاع الأردن. د. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص35.

(3) انظر المقرئزي: السلوك: ج2، ص717، وابن تغري بردي: م س، ج10، ص125، 134، انظر ملحق نواب قلعة صفد، وملحق نواب السلطنة، ملحق نيابة صفد عندما خالف نائب القلعة الأمير فرججي نائب صفد عام 747هـ/1346م.  
(4) مثل قلعة الشقيف والقرين وتبين وهونين والطور المشرفة على طبريا التي بناها العادل أيوب وهدمها". الفلقشندي: م س، ج4، ص155 وقلعة كوكب جنوب بحيرة طبريا فتحها صلاح الدين الأيوبي سنة 584هـ/1188م، وعادت للفرجة زمن الصالح اسماعيل 638هـ/1240م. ولم يكن لها أهمية في العهد المملوكي. ابن الأثير: م س، ج12، ص22-23. وانظر رنسيان: م س، ج2، ص608.

(5) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص185، والخبلي: الأنس الجليل، ج2، ص55. حيث يعرف الثلث الأول من الليل عندما يدق الطبل دقة واحدة. وفي الثلث الثاني ضربتين، وفي الثلث الأخير ثلاث ضربات حتى يؤذن الصبح.

(6) ابن واصل: م س "تاريخ الواصلين"، ورقة 427، مخطوط.

(7) انظر العمري: التعريف، م س، ص149.

(8) الحجابه: حفظ باب الخليفة أو الملك أو الوزير والاستئذان للدخول عليهم وصاحبها: الحاجب، ويشترط فيه الحكمة والذكاء والحزم وأن يكون في منتصف العمر. انظر ابن هلال الصايغ: رسوم دار الخلافة، ص71.

وينوب في غيبة نائب السلطنة<sup>(1)</sup> أو بالنسبة لحجابه نيابة الكرك فكان يحدث تولى حاجبين فيها<sup>(2)</sup>. وكان في القدس أمير حاجب كغيرها من النيابات الأخرى في بلاد الشام<sup>(3)</sup>، كما رجح الحنبلي وجود أربعة حجاب في نيابة صفد مثل غيرها من نيابات الشام<sup>(4)</sup> الأمير صارم الدين الصفدي. من الذين تولوا الحجابة في نيابة صفد أيام الأمير سيف الدين تنكز نائب دمشق (712-741هـ/1312-1340م) والأمير بيبرس الذي تولى حجابه صفد مرتين كانت الأولى زمن الناصر محمد بن قلاوون وكانت الثانية بعد وفاة الناصر محمد حيث استمر بها حتى وفاته عام 743هـ/1341م<sup>(5)</sup>. ومن حجاب صفد ناصر الدين بن محمد البخاري عام 753هـ/1351م<sup>(6)</sup>.

#### 4. الولاية:

وصاحبها الوالي الذي يكون من امراء العشرات<sup>(7)</sup> ويحكم المدينة التابعة للنيابة<sup>(8)</sup> وبالنسبة لوالي مدينة الكرك عام 685هـ/1286م فقد عين السلطان المنصور قلاوون الأمير عز الدين أيك النجمي والياً عليها<sup>(9)</sup> وكان من اختصاصه أيضاً حفظ الأمن والقبض على اللصوص والمفسدين، ومراقبة الخمارين وجلد السكارى بالعصي<sup>(10)</sup>. والمحافظة على أرواح الناس

(1) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 19، ص 185. العمري: مسالك الأبصار ص 117، المقرئزي: الخطط، ج 2، ص 219. والسيوطي: حسن المحاضرة: ج 2، ص 131

(2) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 132، القلقشندي: ن م، ج 4، ص 241-242، أو الخالدي: م س، مخطوط، ورقة 135 فذكر أنه كان للكرك حاجباً واحداً في عهده

(3) الحنبلي: الأنس الجليل، ج 2، ص 281، والخالدي: رجال الحكم والإدارة، ص 74

(4) ابن حجر: م س، ج 4، ص 12.

(5) الصفدي: م س، ج 10، ص 352-353

(6) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 866، زمن نائبها الأمير الطنبغا برناق.

(7) السبكي: م.س. القاهرة، 1948م ص 43، والقلقشندي: م.س. ج 4، ص 18.

(8) ولقب بصاحب الشرطة في عهد ما قبل المماليك، العمري: مسالك الأبصار، ص 119. والمقرئزي: الخطط، ج 3، ص 362 وربما يشبه اليوم المحافظ.

(9) العمري: عقد الجمان، ج 20، ق 4، ورقة 705، مخطوط. ويذكر العمري أنه عين الأمير عز الدين أيك الموصلية نائباً للسلطنة فيها والأمير بدر الدين العلاي على نيابة القلعة. بينما يذكر ابن شداد أن أول من ابتكر هذه الوظيفة هو الملك الصالح نجم الدين أيوب عام

647هـ/1249م: ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج 3، ص 75

(10) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص 626-630.

وأموالهم، لذا كان يساعده بعض رجال الشرطة والحراس، مما يوحي لنا بأن عمل الوالي كان يشبه عمل المحتسب وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبالنسبة لوالي مدينة القدس فكان يعين من قبل نائب بيت المقدس<sup>(1)</sup> وبالنسبة لولاية صفد فقد عيّن علم الدين سنجر الكرجي والياً على مدينة صفد عام 679هـ/1281م من قبل السلطان قلاوون كما ولي الأمير بدر الدين بن درباس ولاية جنين ومرج بن عامر<sup>(2)</sup>.

أما والي البلقاء فكان أمير طبلكاناه، يعاونه بعض الجنود<sup>3</sup> كما أصبحت مدينة عمان مركز ولاية البلقاء عام 757هـ/1356م بمرسوم الأمير صرغتمش نائب السلطنة بالديار المصرية حيث صدر بنقل الولاية والقضاء من حسابن الى عمان<sup>(4)</sup> وبالنسبة لولايات نابلس والرملة والخليل فكانت تابعة لنيابة القدس لأن نائبيها كان يتولى نظر الحرمين في الخليل والقدس. ففي عام 682هـ/1238م كانت اللد والرملة تابعة لنيابة بيت المقدس وواليها الأمير غرس الدين بن شاور<sup>(5)</sup> وكذلك ضمت ولاية نابلس لنيابة بيت المقدس<sup>(6)</sup>.

#### 5- كاشف بيت المقدس:

وهو أحد أمراء الطبلكاناه من المماليك، الذي يعينه نائب القدس، وهو المسؤول عن الإشراف على الأراضي والجسور، كما أطلق عليه أحياناً والي الولاية<sup>(7)</sup>. أما ترجمان القدس: الذي كان يستقبل الحجاج والرحالة الأجانب بيافاً والقدس لاثبات شخصياتهم في سجلات ترسل نسخة منها فيما بعد الى السلطان ويشترط فيه أن يكون مسلماً<sup>(8)</sup>.

(1) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 199.

(2) ابن الفرات: م.س. ج 7، ص 158، المقرئ: ن م، ج 1، ص 732. كما عين الأشرف خليل الأمير علم الدين أيدغدي ولاية صفد 690هـ/1291م وتولى الأمير عثمان بن محمد الدمشقي ولاية بر صفد حتى وفاته 736هـ/1334م ابن حجر: ن م، ج 7، ص 65. والمقرئ: ن م، ج 1، ص 732، وابن تغري: م س، ج 8، ص 9.

(3) القلقشندي: م س، ج 4، ص 201.

(4) المقرئ: السلوك: ج 3، ص 30.

(5) ن.م. ج 1، ق 1، ص 715.

(6) ن.م. ج 4، ق 2، ص 975. فكان نائب بيت المقدس يعين والياً "كاشفاً" في كل من الرملة ونابلس لينوب عنه في حكم الولاية: انظر الحنبلي: الأنس الجليل، ج 2، ص 374، وفي سنة 682هـ/1283م عين السلطان قلاوون الأمير علم الدين سنجر الصالح والياً على الرملة "المقرئ: ن.م. ج 1، ق 3، ص 715.

(7) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 24-25.

(8) أحمد دراج: المماليك والفرنج ص 138.

ويعرف بعض اللغات اللازمة للتفاهم معهم وتأمين اقامتهم في المدينة. وكان يساعده عادة شخص سماه فيلكس فابري "الفاهالو"<sup>(1)</sup>.

#### 6. الصوادرية<sup>(2)</sup>:

وصاحبها الدوادار وهو الذي يبلغ عامة الأمور الموقعة من السلطان ومن النائب الى رسل الولاة وكبار الموظفين ويقدم النصيحة والمشورة لمن يحضر اليه. كما يفتح الرسائل الواردة الى السلطان والنائب ويوقع منه جميع المناشير الصادرة عنهما<sup>(3)</sup>. ولم تكن الدوادارية موجودة في كل النيابات، فقد وجدت في نيابة صفد ولم توجد في نيابة الكرك حيث قام بوظيفة الدوادار المهمندار الذي يستقبل الرسل وأمراء العربان في دار الضيافة لتلبية مطالبهم<sup>(4)</sup> ففي صفد أرسل نائبها الطنبغا برناق الدوادار شهاب الدين أحمد للقبض على شخص بقرية حطين حيث ادعى بأنه السلطان المنصور<sup>(5)</sup> وكذلك وجدت في بيت المقدس<sup>(6)</sup>.

#### 7. الأتابكية

وتعني قيادة الجيش، والأتابك لقب الأمير الكبير أو مقدم عسكر المملكة<sup>(7)</sup>. فبالنسبة للكرك فقد كان نائبها برتبة أتابك العسكر<sup>(8)</sup> المسؤول عن حراسة النائب أثناء خروجه وعودته وتنفيذ

<sup>(1)</sup> Bernard von Brydenbach and His journey to The Holyland 1483- London. 1911; p. xv; Pero Tafur: Travels and Adventures 1435-39, London, 1962pp. 72-73. Palestine pilgrims Text - Society, vol IX, London 1987 (P. 103).

<sup>(2)</sup> الدوادارية: لفظ مكون من كلمتين إحداهما عربية "دوا" والثانية فارسية "دار" ومعناها ممسك أي ممسك الدواة ويطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير.

<sup>(3)</sup> العمري: مسالك الأبحار، ص 118، والمقريري: الخطط، ج 2، ص 222، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 131، والقلقشندي: م م س، ج 4، ص 19.

<sup>(4)</sup> السبكي: م م س، ص 42، د. يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص 35. وذكر السبكي أنه يجب على المهمندار أن يوهم الرسل بقوة المسلمين.

<sup>(5)</sup> ابن الفرات: م م س. ج 9، ق 1، ص 59، المقريري: السلوك: ج 2، ص 866، وابن تغري: م م س، ج 1، ص 276.

<sup>(6)</sup> د. يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص 34.

<sup>(7)</sup> ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص 113، 134. والأتابك كلمتين تركيتين: أتا، بمعنى أب، وبك، بمعنى أمير وكان السلاجقة يطلقون لفظ أتا "أطا" على كبير أمراءهم يولونه الرضاية على سلطان قاصر أو أمير صغير، وغالباً ما يتزوج الأطا أم القاصر فيصبح بمثابة الأب وصار معناها في وقت لاحق أب الأمراء أو مقدمهم وقائد الجيوش ورأس العسكر. القلقشندي: م م س، ج 4، ص 184. مثل الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالح أتابك خليل بن الملك الصالح والذي لقب بالملك المعز فيما بعد. ن م، ج 4، ص 52.

D.Ayalon: Atabak" Al-Asakir E.L.2, vol1, p732.

<sup>(8)</sup> القلقشندي: م م س، ج 12، ص 225، وابن شاهين: ن م، 132.

أوامره وأوامر حاجبه من حيث اعتقال الأمراء أو الجند<sup>(1)</sup> وكذلك كان نائب مملكة صفد بفلسطين برتبة مقدم العسكر (أتابكاً). وذلك من زمن الظاهر بيبرس عام 664هـ/1266م حيث كان الأمير علاء الدين أيد غدي السلاح دار مقدماً لعسكر صفد<sup>(2)</sup>. والأمير جمال الدين أيدغدي عام 688هـ/1289م<sup>(3)</sup>.

#### 8- الأجناد في النيابة: وتتكون من فرقتين عسكريتين:

أ- أجناد الحقل: وهم غير مملوكين لأنهم ليسوا من مشتريات السلطان أو عتقائه وذلك منذ زمن الأيوبيين<sup>(4)</sup>.

ب- ممالك النابت والأمرء: الذين اشتروهم ليكونوا حرسهم الخاص<sup>(5)</sup> وكان هناك قوات مساعدة إحتياطية من العرب والتركمان وقت الحاجة كالتي أرسلها الظاهر بيبرس عام 663هـ/1265م<sup>(6)</sup> للإغارة على عكا وتلك التي خرجت مع الأمير طشتمر العلاني نائب صفد سنة 783هـ/1381م. أما رواتب هذه الأجناد فقد كانت تعتمد على الإقطاعات كبقية العساكر المملوكية.

أما في الكرك فوجدت وظيفة أخرى هي نقيب الجيش<sup>(7)</sup> وكانت وظيفة نقيب الجيش هي إحضار أي من الأمراء أو الجند للنائب أو الحاجب أو والي جيش أو القبض على أحد العسكريين بالاضافة لحراسة النائب<sup>(8)</sup>.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص260

(2) ابن عبد الظاهر: م، س، ن، ص.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الايام، ص374-375.

(4) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص104، وذكر عددهم في صفد بما يقارب الألف موزعين في صفد والقرى التي حولها مثل قرية كفر كنا في ولاية طبريا، وقرية اكسال في ولاية الناصرة.

(5) ن. م. ن. ص.

(6) المقرئ: السلوك، ج3، ص442-443.

(7) ابن شاهين الظاهري: ن، م، ص132.

(8) القلقشندي: م، س، ج4، ص186، والمقرئ: الخطط، ج3، ص362.

## 9- تقديم البريد:

وهي وظيفة تعني بشؤون البريد من مراسلات لابلغ النائب بأحوال نيابته<sup>(1)</sup>. وصاحبها مقدم البريد الذي يعينه نائب السلطنة والمسؤول عن جميع موظفي البريد كما كان بالكرك<sup>(2)</sup>. وكان مقدم البريد يرجع إلى كاتب السر في النيابة لأن إدارة البريد تتبع ديوان الإنشاء<sup>(3)</sup>.

## 10- شبه الدواوين:

وصاحبها شاد الدواوين المسؤول عن جمع الأموال السلطانية من مصادرها المعروفة، ويرافق ناظر النظار أكبر موظفي أرباب الأقاليم<sup>(4)</sup> وكان عثمان بن محمد بن لؤلؤ الدمشقي شاد الدواوين في نيابة صفد عام 736هـ/1334م والأمير بهادر الكركي عام 741هـ/1340م<sup>(5)</sup>.

## 11- خزانة صارية القلعة:<sup>(6)</sup>

وهو المسؤول عن خزانة القلعة العسكرية من حيث حفظ وصيانة الأسلحة في القلعة. هذا وقد تولاها عام 678هـ/1280م الأمير سيف الدين بليان الجوادي<sup>(7)</sup>. ومن الوظائف الهامة الأخرى كان هناك وظيفة : المشارف: الذي يجمع ضريبة المحاصيل ويختمها بالإضافة لمهامه المماثلة لمهام نظر الجهات<sup>(8)</sup>. والخازن: الكاتب الذي يتولى قبض الغلات وخبزنها وإخراجها ويطالب بما لم يحصله لعجزه عنه<sup>(9)</sup>.

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص187.

(2) ن.م. ن.ص.

(3) على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ الممالك البحرية، ص285.

(4) القلقشندي: م س، ج4، ص186.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص65، و ص33، عن حياة بهادر الكركي.

(6) خزنदार: مؤلفة من كلمتين إحداهما عربية "خزنة" والثانية فارسية وهي "دار"، ومعناها "ممسك" أي ممسك الخزانة. انظر القلقشندي: ن

م، ج2، ص187، ج5، ص463.

(7) ابن الفرات: م س، ج7، ص158.

(8) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص302.

(9) ن.م. ص306.

## الجيش المملوكي :

لقد حوى الجيش المملوكي عدة جنسيات مختلفة كانت غالبيتها من المماليك المبتاعين بالإضافة للبدو والتركمان والأكراد والروم<sup>(1)</sup> وبالنسبة للرتب العسكرية فكانت كالتالي:

إمرة مائة فارس ولقب قادتها أمراء المئين وكان من صلاحياتهم أيضاً قيادة ألف فارس في المعركة فلقبوا "مقدمي الألف"، علماً بأن هذه الوظيفة كانت من أعلى الرتب العسكرية حيث كانت مقصورة على كبار موظفي الدولة<sup>(2)</sup>.

ثم إمرة "الطبلخاناه" وهي قيادة ما بين الأربعين والسبعين فارساً وتليها "إمرة العشرة" وهي قيادة ما بين العشرة والعشرين فارساً<sup>(3)</sup>.

وأخيراً "جند الحلقة" الذين كانوا يتناولون مناشيرهم من السلطان مباشرة بعكس "جنود الأمراء" الذين يتسلمون مناشيرهم من أمرائهم<sup>(4)</sup> وكان جنود الحلقة مقسمين إلى فصائل تحوي كل فصيلة أربعين فارساً يتقدمهم أحدهم وقت الحرب<sup>(5)</sup>، ولم يكونوا جنوداً دائمين لأصولهم التي تعود إلى أنباء المماليك وليسوا من المماليك أنفسهم أو فئات اجتماعية أخرى. فشكّلوا قوى احتياطية لوقت الضرورة العسكرية فقط، وقد كان ثلث جيش الناصر محمد بن قلاوون منهم<sup>(6)</sup>.

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبيصار، ص 93.

(2) ن.م. ص 114.

بينما يذكر محمد بن محمد بن خليل الأسدي "التيسير والاعتبار" ص 70-71، أمراء المئين: "النائب والوزير وأتابك الجيش ورأس نوبة الأمراء وأمير السلاح، وأمير المجلس، والدوادار الكبير وأمير أخور كبير وأمير آخور ثاني، وحاجب الحجاب، ورأس نوبة النواب، والخازندار الكبير.

(3) ابن فضل العمري: م.س. ص 60، والأسدي: م.س. ص 70-71، حيث يذكر أسماء الموظفين الذين كانوا يحصلون على هذه الرتبة كالدوادار الثاني، الخازندار الثالث، رأس نوبة ثاني، الحاجب الثاني، شد الشرايخانة، رأس نوبة الجمدارية، استادار الصعبة، مقدم المماليك السلطانية، زمام الدور الشريفة، نائب القلعة المعمورة، متولي مجلس العرب السعيد والزرردكاش.

(4) ن.م. ص.

(5) ن.م. ص 161. والمناشير الديوانية: المقصود بها ممارسة الأعمال الحكومية كالوثيقة الرسمية التي يرد فيها مقدار الاقطاع الذي يختص به الفارس المملوكي. القلقشندي: م.س. ج 13، ص 153، وابن تغري بردي، م.س. ج 8، ص 91، والمقريزي: المواعظ، ج 2، حاشية 2، ص 212.

(6) ابن فضل الله العمري: ن.م. ص 61.

## أما بالنسبة لنفقات الجيش:

فكانت جميع رواتبهم عن طريق إقطاعات الأراضي أو كمرتبات نقدية أو من مصادر أخرى<sup>(1)</sup> وقد حسبوا قيمة الإقطاعات بالدينار الجيشي<sup>(2)</sup> والذي لم يكن متداولاً في السوق كعملة نقدية علاوة على أن قيمته كانت تختلف من إقطاع لآخر، حيث تراوحت قيمته أيام الناصر محمد بن قلاوون (715-772هـ/1314-1313م) ما بين عشرة الى سبعة دراهم<sup>(3)</sup> ثم ارتفعت في أواخر عصره الى ما يقارب الثلاثة عشر درهماً<sup>(4)</sup>.

أما بالنسبة لسلاح الجيش المملوكي: فقد كان بالإضافة الى الأسلحة التقليدية من السيف والرمح والقوس والمجانيق والمدافع<sup>(5)</sup> زمن السلطان الناصر أحمد بن محمد قلاوون في قلعة الكرك ضد المهاجمين كما استخدموا النفط<sup>(6)</sup>. وبالنسبة للأسهم المنطلقة من الأقواس فكانت نصولها من فضة مطعمة بالذهب وقد نقش على بعضها هذان البيتان من الشعر زمن الناصر أحمد:

ومن جودنا نرمي العداة بأسهم  
يدأوي بها المجروح منها جراحه  
من الذهب الأبريز صيغت نصولها  
ويشري بها الأكفان منها قتيلاً<sup>(7)</sup>

(1) ن.م.ن.ص.

(2) ن.م.ن.ص.

(3) ن.م.ن.ص. و

H. Rabie, The Size And Value Of The Iqta In : Studies In The Economic History Of The Middel East, (Ed.M.A. Cook. Oxford 1978) Pp. 132-133; .H. Rabie The Financial System Of Egypt Pp48-49, R.A.S Cooper: .Anote On The Dinar Jayshi In: Jesho 16c 1973)Pp. 317-318

(4) ن.م.ن.ص.

(5) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص10.

(6) وانظر الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص201، ذكر استخدام النفط وانظر العمري مسالك الأبصار، ج16، ق3، ورقة 710 مخطوط وابن بهادر: فتوح النصر: ورقة 608 مخطوط.

وبالنسبة للمدافع: فتسمى مكاحل البارود التي يرمى عنها بالنفط وأنواعها مختلفة فبعضها يرمى عنهم بأسهم عظام تكاد تحرق بالحجر، وبعضها يرمى عنه بندق من حديد من زنة عشرة أرتال مصر الى ما يزيد على مائة رطل، وهي مصنوعة من نحاس ورصاص ويرمى به ببندقية محماة تنطلق لمسافات بعيدة: القلقشندي.م.س. ج2، ص144، 145. وأما بالنسبة لقوارير النفط: فكانت قدور من نحاس ونحوها يجعل فيها النفط ويرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق، القلقشندي، ن.م. ج2، ص145.

(7) صالح بن يحيى: ن.م، ص106.



ومن السفن الحربية الهامة أيام الظاهر بيبرس الشواني<sup>(1)</sup> والحراريق<sup>(2)</sup> والطرائد<sup>(3)</sup> والسلايلر وغيرها<sup>(4)</sup>.

### الإقطاعات والمرتبات

نقد كان راتب الوزير شهرياً 250 دينار جيشيه 2500 درهم لأنه كان على رأس موظفي الدولة المدنيين<sup>(5)</sup> ويأتي بعده راتب القاضي الذي لم يزد على 50 ديناراً جيشيه 500 درهم) وكانت من الإدارة السلطانية المباشرة أما العسكريون فقد تراوحت من زمن لآخر ففي زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان راتب الفارس العادي ما بين 300-900 دينار جيشيه (3000-9000 درهم). ويتلقونها عن طريق الإقطاع لذا كان صاحب الإقطاع يخصم عليهم بعض النفقات الانتاجية والادارية.<sup>(6)</sup>

وبالنسبة لإقطاعات كبار الضباط (الأمرء) فتراوحت ما بين (7000-100.000) دينار جيشيه (70.000-1000.000) درهم في العام<sup>(7)</sup>

وبمقارنة هذه المرتبات مع الأسعار في القاهرة كما أوردها العمري تكون معتدلة ناهيك عن الأسعار المنخفضة للسلع في المدن والأقاليم الأخرى.

وبالنسبة للروك الناصري في عامي 712هـ/1312م و 715هـ/1315م. أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمسح جديد لأراضي الشام ومصر ونفذ الأوامر الأمير سنجر الجاولي<sup>(8)</sup>، حيث أعاد تقسيم الإقطاعات بين أمراء الجيش.

(1) الشواني : جمع شيني: سفن حربية هامة ومركزها في جزيرة الروضة بالنيل. السيوطي: حسن المحاضرة، ج11، ص22، محي الدين ابن عبد الظاهر، م س، ص83.

(2) الحراريق: جمع حراقة: سفن في أوقات السلم، تُرمى من فوقها مواد النفط الملتهبة ويمكنها الإقلاع في البحار والأنهار. محي الدين بن عبد الظاهر، م س، ص83.

(3) الطرائد: جمع طريدة: سفن لحمل الخيل وتحمل الواحدة عادة أربعين فرساً. ن م، ن ص.

(4) السلايلر: شبيهة بالحراقة، ن م، ص83.

(5) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوريتا كرافولسكي ص62. ذكر

(6) ن م، ن ص.

(7) ن م، ن ص.

(8) العمري: م س، ص63. وابن حجر: الدرر اللكائمة، ج2، ص61. وابن كثير: ابدية والنهاية، ج11، ص69.

P. Holt: The Age of the Crusades pp. 116-117.

ومن خلال هذه الإقطاعات تم التعرف على رتب أمراء الجيش ورواتبهم وإقطاعاتهم محسوبة بالدينار الجيشي وقيمتة بالدرهم آنذاك كما مر معنا.

فقد أور المقريزي<sup>(1)</sup> المتوفي عام (845هـ/1442م) قائمة الرواتب في الروك الناصري، كما أورده المؤرخ محمد بن خليل الأسدي<sup>(2)</sup> الذي عاش حوالي العام (855هـ/1450م) نفس القائمة وذكر عدد أفراد الجيش المملوكي بمصر عام 715هـ/1315م بأربعة وعشرين ألف فارس كما كان عدد جيش الشام مماثلاً لذلك، مقسمين رتباً ورواتب<sup>(3)</sup> كما في الملحق رقم ( ) كما لوحظ على إقطاعات الروك الناصري لأراضي الشام عام 712هـ/1312م، وأراضي مصر عام 715هـ/1315م لم يستمر طويلاً بعد وفاته. وذلك في عام 746هـ/1345م عندما صدر منشور سمح منه ببيع أراضي الإقطاعات واستبدالها، مما دفع بعض المجموعات من جند الحلقة لاستغلال هذه الفرصة فباعوا إقطاعاتهم والعمل في حرف أخرى<sup>(4)</sup> مما أسهم في ضعف القوة العسكرية للمماليك، بينما كان هدف الناصر محمد بن قلاوون من هذا الروك الناصري كان تقوية الجيش والحفاظ على الروح العسكرية من حيث النظام والانضباط.

وقد تجنّى بعض المؤرخين الأوروبيين على هذه الحقيقة حقداً وتشويهاً لحضارتنا ونظمنا الإسلامية<sup>(5)</sup> علماً بأن المقريزي والمفضل أبي الفضائل وغيرهما من المؤرخين أشادوا بهذا النظام<sup>(6)</sup>.

(1) العمري: ن م، ن ص. والأسدي: التيسير والاعتبار، المقدمة، ص 5.

(2) العمري: ن م، ن ص. المقريزي: الخطط ج 2، ص 217-219.

(3) للمزيد من المعرفة عن الروك الناصري عصر أنظر دراسة جديدة عن توزيع الإقطاعات لأبالون ينقلها عمدها م.

(4) العمري: م س، ص 67. والمقريزي: الخطط، ج 2، ص 219. وصف نتائج ذلك بهذا القول: "فكثر الدخيل بذلك. واشتدت السوق والأراذل الإقطاعات حتى صار في زماننا أخذاد الحلقة أكثرهم أصحاب الحرف والصناعات. وخربت أراضي إقطاعاتهم" وبالنسبة لكلمة "الروك": أي مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها ليبيت المال والذي كان المصدر الرئيسي للدخل، ومنه تصرف أعطيات الجند ورواتب الولاة وموظفي الدولة وكانت جباية الخراج معرضة للتعديل حسب خصب الأرض وجديدها بالزيادة والنقصان، وكان الخراج مقسماً إلى أربع وعشرين قيراطاً، للسلطان منها أربعة قرايط. النويري: م س، ج 1، ص 345. والمقريزي: السلوك، ج 1، ص 846.

(5) بينما يتجنّى D. Ayalan عندما يقول بأن الروك الناصري كان العلة الحقيقية وراء تفكك أجناد الحلقة.

(6) المقريزي: الخطط، ج 2، ص 206-207. حيث وصف الإيوان الكبير بقلعة الجبل: "وأول ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعي بمضافيه من تقدمه على قدر منازلهم، فيقم الجندي إلى السلطان فيسأله: أنت ابن من، وملوك من - ثم يعطيه مثلاً.

وفي ترجمته للسلطان الناصر كتب يقول "وراك ديار مصر وبلاد الشام، وعرض الجيش بعد حضوره في عام 712هـ/1312م وأقطع ثمانمائة من الجند، ثم قطع في إمرة أخرى ثلاثة وأربعين جندياً عام 741هـ/1340م .... ثم يضيف وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف ممالك أبيه، وممالك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم. المقريزي: ن م، ج 2، ص 306. والمفضل بن أبي الفضائل: النهر السديد، ص 99-100، واختتم قوله "وهو يعي الخطاط الدولة ومشكلات العصر".

نفقات البيوت السلطانية : لقد كانت تصرف على الخزائن، والحوائج خاناه<sup>(1)</sup> والطبلخاناه<sup>(2)</sup>، أو السلاح خاناه<sup>(3)</sup>، والركبخاناه<sup>(4)</sup>، والفرشخاناه<sup>(5)</sup> وكانت تكاليفها جميعاً خمسمائة ألف دينار<sup>(6)</sup> سنوياً. ووظيفة الطشت خاناه والمتعلقة بالملبوسات الملكية والأقمشة والكسوات<sup>(7)</sup>.

(1) الحوائج خاناه: بيت الحوائج، تحت يد الوزير، منها يصرف اللحم للمطبخ السلطاني والدور السلطانية، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية، وسائر الجند وغيرهم من أرباب الرواتب وكذلك توابل الطعام للمطبخ السلطاني، والدور السلطانية، والزيت للوقود، والحبوب وغير، ولها مباشرون منفردون بها يضبطون أسباب أرباب المستحقات ومقادير استحقاقاتهم. القلقشندي: م س، ج4، ص12-13.

(2) الطبلخاناه: بيت الطبل، ويشمل طبول عديدة وأبواق وزمر، وآلات أخرى ويشرف عليها أمير من أمراء القرات يعرف بأمر علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وكذلك في الأسفار والحروب، ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه يساعد رجال مثل الدبندار: ضارب الطبل، ومنقر وهو ضارب البوق، وكوسى وهو ضارب صنوج النحاس ببعضها بعض. القلقشندي: ن م، ن ص، وابن شاهين الظاهر، وزبدة كشف الممالك: ص122-127.

(3) السلاح خاناه أو "الزردخاناه": بيت السلاح، وفيها الدروع الزرد، والسيوف والقسي العربية والنشاب والرمح والقرقلات المتخذ من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك من أنواع السلاح التي تخزن سنوياً في داخل القلعة، بالإضافة لوجود الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديدها ما يتجدد فيها غلمان وفراشون. وأما "السلاح دار" فهو الذي يتحدث عن السلاح دارية من المماليك السلطانية والسلاح خاناه السلطانية ويتناول السلطان آلة الحرب وقت القتال وفي أيام الأعياد وغيرها. ابن تغري بردي: م س، ج7، ص82. والقلقشندي: م س، ج4، ص18.

(4) الركاب خاناه: سروج الخيل، واللحم والكنابش والاصطبلات (المراكب والاجلال والمخالي). القلقشندي: ن م، ج4، ص12.

(5) الفرشخاناه: أنواع الفرش من البسط والخيام ولها مهتار تحت يده جماعة من الغلمان مخصصين للخدمة في السفر ويسمون "الفرأشين" ولهم مهارة نصب الخيام حتى أن أحدهم يستطيع نصب خيمة كبيرة لوحده كما يشدون الأحمال على البغال في المراكب، ويبلغ الحمل خمسة عشر ذراعاً.

(6) محيي الدين بن عبد الظاهر: م س، ص81. والقلقشندي: ن م، ج4، ص11.

(7) ابن شاهين الظاهر: م س، ص122-127.

وأما المقرر على بيت المال : في جامكيات الممالك البحرية فكانت نفقاته ثلاثمائة وثمانون ألف دينار<sup>(1)</sup>.

والمقرر على الديوان وبيت ماله : لنفقات أسر الملوك وأولادهم في السنة فكانت أربعون ألف دينار<sup>(2)</sup> وبالنسبة للمقرر لأرباب الرواتب وجاميكات المستخدمين بالباب والأعمال، وما ينفق على الفقراء مائة وسبعون ألف دينار<sup>(3)</sup> وكان أيضاً من نفقات السلطان الشراب خاناه<sup>(4)</sup>. وعشرون ألف أردب غلة، ما يحتاجه لخاصته ومماليكه في السنة للمخابز وأما عليق خيله فكانت مائة وعشرين ألف أردباً.

ويلبس كل يوم بدلة كاملة ولا يعود للبسها مرة ثانية وأما صدقات شهر رمضان فكانت خمسة آلاف فرد كل ليلة وبالنسبة لصدقة السر في دولته فكانت من أوقافه المخصصة لذلك بما يقارب ستمائة كوة سنوياً وأما نظر البيوت فكان المسؤول عنه الأستاذار دار<sup>(5)</sup>. ونظر الاسطبلات: وهو المسؤول عن اصطبل السلطان وعليق خيوله وأرزاق المستخدمين فيها<sup>(6)</sup>.

(1) محيي الدين بن عبد الظاهر: م س، ص 81.

(2) ن م، ن ص.

(3) ن م، ن ص. هذا بالإضافة لهداياه من القماش والخبز بمقدار ألف قنطار كما يعتق ثلاثين عبداً في رمضان.

(4) الشراب خاناه: أنواع الأشربة المخصصة للسلطان ومشروبه الخاص من السكر والأقسما، هذا بالإضافة لأواني الطعام من الصيني الفاخر والقاشاني واللازوردي وغيره بما يساوي السكرجة الواحدة منه ألف درهم مما هو له. القلقشندي، م س، ج 4، ص 10.

(5) العمري: مسالك الأبحار، ص 121. والمقريري، الخطط، ج 2، ص 227.

(6) العمري: ن م، ص 121. والمقريري: الخطط، ج 2، ص 227. والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 132.

## ثانياً: الوظائف الديوانية "وظائف أرباب الأقاليم":

١- الوزارة: لقد كانت الوزارة أعلى وظائف أرباب الأقاليم في الدولة لكنها لم تكن مقصورة عليهم إذ كان من الممكن أن يليها أمير من الجيش "أرباب السيوف"، ويأتي الوزير بعد السلطان في السلم الوظيفي. إلا أن سلاطين المماليك قدموا رتبة النيابة على الوزارة. ووليها أفراد من أرباب السيوف أو من أرباب الأقاليم<sup>(١)</sup>. وتوزعت اختصاصات الوزير بين ثلاثة موظفين هم ناظر المال<sup>(٢)</sup>، ناظر الخاص<sup>(٢)</sup>، وكاتب السر<sup>(٤)</sup>، الذي كان يوقع في دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة واستقلال<sup>(٥)</sup>. وهكذا نرى انحطاطها وتراجعها أمام وظيفة نيابة السلطنة<sup>(٦)</sup> كما نلاحظ بأن هؤلاء الثلاثة الذين تقاسموا مهمة الوزير لم يكونوا مستقلين تماماً بتصرفاتهم بل كان لابد من الرجوع لموافقة السلطان عليها.

(١) شهاب الدين ابن فضل الله العمري: مسالك الأبحار، ص 114-115.  
(٢) ناظر المال أو شاد الدواوين: وهو المكلف بتحصيل المال وصرف النفقات.. ن.م. ص 119.  
(٣) ناظر الخاص: وهو المكلف بتدبير جميع الأمور وتعيين المباشرين. العمري: ن.م. ص 119-120.  
(٤) كاتب السر: كان يقرأ الرسائل الواردة للسلطان ويجب عليها بعد توقيع السلطان عليها. ذكر المقرئ: "أنه كان يكتبها بخطه أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج وأضاف بأنه كان يجلس تحت الوزير ثم أصبح يجلس فوقه. أنظر الخطط، ج 2، ص 226. وإصدار المراسيم بتوقيع السلطان والتوقيع بدار العدل مما كان يوقع فيه الوزير على حسب ما يرسم له السلطان: المقرئ: الخطط، ج 2، ص 226 الذي وصفه المقرئ بصاحب ديوان الانشاء وناظر ديوان الانشاء، انظر السيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 132.  
(٥) وانظر المقرئ: ن.م.، ج 2، ص 223-224.  
(٦) السيوطي: ن.م.، ج 2، ص 130، ابن شاهين الظاهري، م.س، ص 93، فما بعد، حتى أصبحت سلطات الوزير محصورة ومقيدة بالنسبة للولاية والعزل فاقصرت مهمته على الشؤون المالية العمري: ن.م. ص 119، 120، والسيوطي: ن.م. ص 131.

وقد تطور منصب الوزير المملوكي عبر سلم المملوكية منذ ورث السلطان الظاهر بيبرس منصب الوزارة عن أسلافه الأيوبيين وحتى وفاته عام 676هـ/1278م فخلفه ابنه الملك السعيد بركة الذي ثبت وزير أبيه<sup>(1)</sup> بهاء الدين علي بن عمر بن سليم بن حنا<sup>(2)</sup> تنفيذاً لوصية أبيه عام 676هـ/1278م وجاء تقليده لمنصب الوزارة بمنشور رسمي<sup>(3)</sup> وكانت وفاة هذا الوزير عام 677هـ/1279م<sup>(4)</sup> وفي زمن السلطان المنصور قلاوون (678-689هـ/1279-1290م). عين الأمير علم الدين الشجاعي وزيراً له فكان أول وزير من أرباب السيوف<sup>(5)</sup>، وفي عام 697هـ/1299م عين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فخر الدين عمر بن الخليلي وزيراً له<sup>(6)</sup>.

وفي المرة الثالثة لحكم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عام 709هـ/1310م عين خمسة وزراء متتالين قبل إلغائه لمنصب الوزارة ونياحة السلطنة<sup>(7)</sup> عام 729هـ/1328م وعندما أعيد منصب الوزير بعد وفاته كان قد فقد دوره وصلاحياته التاريخية.

2. **نظر المماليكة للنيابة الله** وصاحبها ناظر المملكة وناظر النظار الملقب بالوزير والذي يشرف على دواوين المملكة المدنية ويعين بمرسوم سلطاني من القاهرة<sup>(8)</sup> وكانت سلطته استشارية تعتمد على قوة شخصيته<sup>(9)</sup>. ووصفه البعض بأنه سلطان مختصر المطلق التصرف في كل الأمور سواء كانت خاصة بالجيش "ديوان الإقطاع" أو المال والمراسلات

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ق2، ص643.

(2) لقد عينه بيبرس عام 659هـ/1261م، المقرئ: ن م، ج1، ق2، ص447.

(3) السيوطي: م س، ج2، ص225، وأورد نص المنشور: (أن القلم المبارك الصاحي البهائي في جميع الممالك ميسوط، وأمر تديرها به منوط، وعناية شفته لها تحوط، وله النظر في أحوالها وأموالها، واليه أمر قوانينها ودواوينها وكتابها وحسابها ومراتبها ووارثتها وتصريفها ومصروفها، واليه التولية والصرف، واليه مقدمة العدل والنعمة والتوكيد والعطف، وهو صاحب الرتبة التي يحلها سواء... فلما كان والدنا الشهيد يخاطبه بالوالد خاطبناه بذلك وخطبناه...)

(4) المقرئ: السلوك، ج1، ق2، ص649.

(5) ابن خلكان: م س، ص90-91. الصفدي: م س، ج15، ص475. وابن الفرات: م س، ج8، ص188.

(6) النويري: م س، ج3، ص337. والمقرئ: ن م، ج1، ق2، ص836.

(7) السيوطي: ن م، ج2، ص220 ذكر آخر وزرائه الأمير علاء الدين مغلاطي الجمالي من أرباب السيوف. السيوطي: ن م، ص223-224. ويذكر العمري: "... وأما الوزارة فإنه أبطلها، واستخدم في أيام هذا السلطان وظيفة يسمى مباشرها نظر الخاص، أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً في ما هو خاص بحال السلطان، يتحدث في مجموع الأمر الخاص بنفسه وفي القيام بأخذ رأيه فيه فيبقى ولسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه" العمري: مسالك الأبصار، ط2، ص115.

(8) القلقشندي: م س، ج4، ص187، ج5، ص463، المقرئ: الخطط، ج3، ص364.

(9) لأنه كان يعين الأمراء بمشاوراة السلطان، العمري: م س، ص116، Ziadeh Urban Life, p. 21. وكانت هذه الوظيفة تسمى الوزارة في العهد الأيوبي وسمي بوزير السلطنة في الكرك ثم سمي بناظر الكرك الذي يعين بمرسوم سلطاني من القاهرة فكان من وزراء الناصر داود الأيوبي الوزير شمس الدين الانصاري: انظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص447.

والبريد وجميع وظائف النيابة ثم اضمحلت اهميتها بعد الناصر محمد بن قلاوون<sup>(1)</sup>. كما لقب بكافل الممالك "السلطان الثاني" وجميع نواب الممالك، ويقود العسكر في ايام المواكب<sup>(2)</sup> ومن الأمراء الذين تولوا هذا المنصب في صفد كريم الدين الصغير عام 723هـ/1322م لمدة سنة<sup>(3)</sup> وذكر القلقشندي ان الوظيفة كانت موجودة في زمنه<sup>(4)</sup> وكان ديوان النظر يمثل الادارة المالية في النيابة باشرافه على المصروفات والإيرادات.

3- **ديوان الإنشاء**: كان صاحبها كاتب السر<sup>(5)</sup> الذي يطلع على جميع المكاتبات والرد عليها بعد توقيعها من نائب السلطنة في المملكة وينوب عنه احياناً كاتب الدست في الرد على الكتب الواردة والصادرة عن النيابة والتي ترد لنائب السلطنة ويعين بمرسوم سلطاني من القاهرة من الأشخاص الموثوق بهم لدى السلطان لأنه كان بمثابة عين على النائب أيضاً<sup>(6)</sup> ويشترط فيه الثقافة والعلم وأن يكون على معرفة تامة بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والحكم والأمثال وسير الأولين بالإضافة إلى الفصاحة والبلاغة<sup>(7)</sup>.

وبالنسبة لكاتب السر في الكرك فكان المسؤول عن الصادر والوارد من مراسلات النيابة أي متولي ديوان الإنشاء كما كان يجلس بدار العدل بالكرك للإطّلاع على تظلمات الشعب<sup>(8)</sup>. وقد تسلم هذا المنصب في نيابة صفد الشيخ شهاب الدين أحمد بن غانم كما باشر الإنشاء بنيابة غزة أيضاً وقد شغل هذه الوظيفة في القدس أكثر من كاتب دست<sup>(9)</sup> وضم ديوان الإنشاء في صفد كتاب الدرج أو الدست أو الموقعين. وكان منهم في صفد المؤرخ صلاح الدين خليل

(1) العمري: م س، ط2، ص115، 117 "ولما كانت النيابة قائمة على هذه الصورة لم يكن السلطان يتصدى بنفسه لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى بل كان يكتفي بالنائب".

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص65-68، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص130-131.

(3) المقرئ: السلوك: ج2، ص24. وابن أبيك: الدر الفخر، ص312-314.

(4) القلقشندي صبح الأعشى، ج4، ص23.

(5) ابن شاهين الظاهري: م س، ص98، الباشا: الألقاب الإسلامية، ص10، 21.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص189، ج9، ص258، والمقرئ: الخطط، ج2، ص226، والعمري: مسالك، ص120.

(7) ابن شاهين الظاهري: ن م، ص98.

(8) القلقشندي: ن م، ج1، ص294، وابن الفرات، م س. ج9، ص321، وابن خلدون: العر، ج5، ص489، 494، والمقرئ: السلوك، ج3، ص666، بينما ذكر القلقشندي أنه كان مجرد كاتب درج يقوم مقام كاتب السر ويكتب الولايات والمكاتبات يصرف الوارد

والصادر: القلقشندي: ن م، ج5، ص465، ج11، ص423.

(9) ابن حبيب: درة الأسلاك، ج2، ورقة 171/م، مخطوط. والكتبي: فوات الوفيات: ج1، ص128، والقلقشندي: ن م، ج5، ص465.

بن أبيك الصفدي متولي كتابه الدرج في ديوان الإنشاء بصفد في أوائل القرن الثامن الهجري<sup>(1)</sup> /  
الرابع عشر الميلادي ونجم الدين الصفدي وزين الدين الصفدي، وبهاء الدين بن غانم حتى سنة  
727هـ/1327م<sup>(2)</sup>.

هذا وقد ارتبط البريد بديوان الإنشاء وكاتب السر زمن الظاهر بيبرس حتى أن الخبر  
أصبح يصل إلى القاهرة من دمشق في أربعة أيام مما مكنه الاطلاع على ما يجري في سلطنته  
بدقة فمكنه ذلك من معالجة كافة الأمور من القاهرة<sup>(3)</sup>.

### وبالنسبة للبريد المملوكي:

فقد استخدم في هذا العصر لأغراض رسمية وشخصية دنيوية، ك شراء المماليك وحمل  
الجواري والأمتعة، مما جعل قاضي القضاة السبكي ينتقد ذلك ويستكره<sup>(4)</sup>.

وقد تم تأسيس نظام البريد منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس لحاجته الماسة لمعرفة أخبار  
الأعداء الذين كانوا يهددون أرض الدولة واستقلالها داخلياً وخارجياً كالمغول شمالاً والصليبيين  
في أجزاء من الشام وسواحلها، بالإضافة لبقايا البيت الأيوبي واهتم الظاهر بيبرس بتطوير  
نظامه سنة 659هـ/1261م<sup>(5)</sup>، إذ أنفق عليه أموالاً كثيرة وجعله تابعاً لديوان الإنشاء في القاهرة  
ليضمن ربط أجزاء الدولة في مصر والشام.

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص176.

(2) الصفدي: م س: ج4، ص76-77، وابن حبيب: م س، ج2، ورقة 156، مخطوط.

(3) ابن عبد الظاهر: م س، ص95، والمقريري: ن م، ج1، ص446.

(4) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص46.

(5) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص187، ويذكر بأنه هو الذي أشار على بيبرس بتطوير البريد والإهتمام به،  
فكلف عمه شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب العمري كاتب الإنشاء بدمشق بذلك.



وقد انقسم البريد في العصر المملوكي إلى قسمين: البريد البري والبريد الجوي.

أ- البريد البري: وقد أقيمت له مراكز محطات على الطرق بمسافات معينة مع تزويدها بالطعام والعلف والمأوى بالإضافة لبعض الخيول لاستخدامها، حيث كان البريدي يُبَدِّل فرسه المنهكة من السفر في المحطة بفرس أخرى، حتى يصل للمكان المقصود. وكان من موظفي البريد البري السوّاق الذي يرافق البريدي في الطريق ويسوّق فرسه والهجّان أو النجّاب الذي يركب الهجن السريعة ويقطع الصحراء وكان هؤلاء يرسلون في مهمات سرية للسلطين مثل الهجان صخر الذي أرسله الناصر محمد من الكرك إلى حلب لايصال رسالة لأميرها قراسنقر<sup>(1)</sup>.

وأما شارات البريدي: فكانت لوحاً من الفضة على صدره منقوشاً عليها<sup>(2)</sup>. وكانت شروط اختيار البريدي تتلخص في وجوب توفر سرعة الفهم والاجابة السريعة، والتأدب في الكلام، كتوماً للسر، أميناً، صامتاً لا يتكلم إلا عند الضرورة صادقاً<sup>(3)</sup>. وقد اختار بعض السلطين اشخاصاً معينين ممن تتوفر فيهم هذه الصفات ولتقتهم بهم أيضاً مثل: البريدي الأفوش عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون المشهور بسرعه<sup>(4)</sup> وكان له بريدي آخر اسمه أوران الذي استخدمه أثناء ثورته في الكرك لايصال كتبه إلى أعوانه في مصر<sup>(5)</sup>.

(1) العيني: عقد الجمان، ج22، ق1، ورقة 99، مخطوط.

(2) نقش على أحد الوجهين: لا اله الا الله محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، ضرب بالقاهرة المحروسة. أما إذا كان البريد من إحدى نيابات الشام نقش عليه وضرب في الكرك أو دمشق وهكذا، (القلقشندي: م.س. ج14، ص372).

ونقش على الوجه الآخر: (عز لمولانا السلطان الملك الفلاني...) القلقشندي: ن.م. ص371. ويوجد في اللوح نقب به قطعة حرير أصفر ذات بنتين يدخلها البريدي في رأسه فيصبح اللوح على صدره وقطعة الحرير الصفراء على ظهره.

(3) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص47.

(4) قطع المسافة من مصر إلى حلب في خمس ليال وكانت مسيرة شهر، ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص45.

(5) العيني: م.س. ج22، ق1، ورقة 111 مخطوط.

كما حرص سلاطين المماليك على تمهيد الطرق لسير الخيول البريدية بين القاهرة ودمشق وكان لا يسمح بركوب خيل البريد لغير البريدي إلا بمرسوم سلطاني<sup>(1)</sup> وكان يقوم على رعاية الخيول سواس.

أما حراسة طرق البريد فقد عهدا إلى القبائل العربية مقابل إقطاعات خاصة زمن الأيوبيين والمماليك. حيث وجدت خمس عشرة محطة بريد في الشام ومصر ابتداء من السعيدية إلى الخروبة بحراسة قبيلتي جذام وتغلبة اللتين كانتا يقدمان لكل مركز عشرة خيول جديدة كل شهر فلقبوا بالشهارة<sup>(2)</sup>، وكانوا يسمونها بخاتم السلطان عند قدومها أما المراكز البريدية السلطانية فامتدت من مركز الزعفة إلى غزة والكرك ودمشق<sup>(3)</sup>.

وكان السلاطين ينفقون على المراكز البريدية من الأوقاف<sup>(4)</sup>. كما روعي في هذه المراكز أن تكون بقرب قرية أو نبع ماء، حيث اختلفت المسافات فأسسوا خانات لمبيت البريديين<sup>(5)</sup> وبجانبه دكان لشراء حاجياته وساقية كالأستراحات السياحية في عصرنا الحديث مما ساهم في توفير الأمن على هذه الطرق بين القاهرة والشام<sup>(6)</sup>.

(1) النويري: نهاية الأرب، ج28، ورقة 50، مخطوط، يذكر أن السلطان بيبرس منع من ركوب هذه الخيول في إحدى المراكز سنة 673هـ/1275. في مركز القصر العيني "الشونة الشمالية اليوم".

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص189. وابن أبيك: كنز الدرر/ ج3، ص114.

(3) أي أن يحملها من اصطبلات السلطان مع كامل تجهيزاتها "الفلقشندي: م س، ج14، ص377. أما أيام الصليبيين في فلسطين فقد كانت طريق البدرية - الغقة - عبر صحراء سيناء والتي يشرف عليها قبيلة العابد فرع من جذام لكونها المنفذ الوحيد ثم الغيت هذه الطريق بعد طرد الصليبيين لأنها أصبحت طريق الحارين من دفع المكوس، ابن أبيك: ن م، ج9، ص115.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج15، ص157.

(5) وقد لاحظ ذلك ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص31 وأكد ذلك المقرئ: الخطط، ج1، ص367. وكانت هذه الخانات لتجار أغنياء يكسبون منها حيث توفرت فيها حاجة المسافرين. العمري: م، ص193، ويذكر د. غوانمة بأنه ما تزال هذه الخانات في الأردن. د. غوانمة: التاريخ السياسي، م س، ص63.

(6) المقرئ: الخطط، ج1، ص367. حيث ذكر بأن المرأة كانت تسافر من القاهرة للشام بمفردها ماشية أو راكبة لا تحمل زاداً ولا ماء. وقد ذكر العمري: ن م، نى ص، بعض الخطوط البريدية بين فلسطين والأردن ودمشق والتي تبدأ من محطة الطيرة، قاقون، جنين، ويتفرع الخط إلى جهتين أحدهما إلى صفد مركز نياة صفد ماراً بينين وحطين والآخر من جنين وزرعين وعين جالوت وبيسان والجمامع وزحر - أريد، وطفس والضمين وغياغب والمورة فدمشق. أما ابن شاهين الظاهري: م س، فقد حذف بنين وصفد والجمامع وزحر وأضاف بدلاً منها: زرعين رأس الماء الظاهر أنها قرى بسيطة لم يهتم بذكرها على طول الخط وعمر الخط من أراضيها فذكر قاقون فحمة وحنين وحطين وزرعين وعين جالوت وبيسان وأريد وطفس ورأس الماء والضمين وغياغب والكورة ودمشق وذكر بأن هناك خطأ مباشراً آخر بين دمشق وصفد ماراً ببرج الفلوس - أريانة.

وأما المراكز البريدية بين القاهرة والكرك: فكانت: السعيدية-الخطارة-قبر الوالي-  
الصالحية آخر مكان معمور في مصر ثم -بئر غزى-القصير-حبوة - الغرابي - قطيا -  
صبيخة نخلة معن - المطيلاب - السودة - الواردة - بئر القاضي - العريش - الزعفة<sup>(1)</sup>-  
رفح- الداروم - غزة - ملاقيس - بيت جبريل - الخليل - جنا - الزوير - غور الصافي الى  
الكرك.

أما المراكز البريدية بين غزة ودمشق فكانت: الجيتين ، عين بيت دارس، مفطري،  
فالعوجاء، فالطيرة، ففاقون(بين العوجاء وجنين ) التي بنى فيها الأمير سنجر الجاولي خاناً  
للسبيل، ففحمة ، فجنين، فزرعين، فعين جالوت، فبيسان، المجامع(جسر المجامع اليوم) ثم الى  
القصير المعيني (الشونة الشمالية) ثم قرية زحر<sup>(2)</sup>، ثم اربد، طفس فالجامع فالصمنين، غباغب،  
الكسوة فدمشق. ومن دمشق تتفرع شبكة مواصلات تربطها مع كل النيابات والمدن الشامية حتى  
البيرة والرحبة على الحدود الشرقية لبلاد الشام<sup>(3)</sup>.

كما كانت المراكز ما بين الكرك ودمشق كالتالي : الربة<sup>(4)</sup>، قاطع الموجب، ذيبان،  
قنيس<sup>(5)</sup>، حسبان، البرج الأبيض (مرج الحمام)، عين البردية، قرية الكتبية، طفس، الجامع،  
الصمنين، غباغب، الكسوة، دمشق<sup>(6)</sup>.

(1) الزعفة: احدى مراكز البريد بين العريش ورفع على حدود مصر من جهة الشام، القلقشندي: ن م، ج 1، ص 378.  
(2) العمري: م س، ص 192، القلقشندي: م س ج 14، ص 380. ذكر بأن الطريق كانت أولاً من بيسان الى الطيبة حيث يقطعون الشريعة  
بمعديات فكان في ذلك خطورة ومشقة خاصة في فصل الشتاء، لذا عملوا على تحويل الطريق من بيسان الى جسر المجامع ثم القصير  
"الشونة الشمالية" فزحر الى اربد. وما تزال هاتين البلديتين تقعان غربي اربد وتبعد زحر عن قرية سوم الشناق التي يسكنها الباحث  
3 كم وهي الآن متصلة بها من حيث العمران والأراضي، أما مدينة اربد فتبعد عن سوم الشناق حوالي 9 كم شرقاً.  
(3) العمري: ن.م. ص 187. والقلقشندي: م.س. ج 44، ص 379.  
(4) الربة : قرية في طرفي الغور الجنوبي وسميت بهذا الاسم نسبة الى إحدى بنات لوط عليه السلام. ياقوت: م س، ج 2، ص 725، وقد  
ذكرها القلقشندي والعمري خطأ باسم "أكربة" وربما يكون هذا خطأ كتابياً.  
(5) قنيس: ربما تكون قرية بقنس من قرى البلقاء. ياقوت: ن م، ج 1، ص 702.  
(6) القلقشندي: ن.م. ج 14، ص 383، العمري: التعريف، ص 124 وأما المراكز ما بين الكرك والشوبك فكانت ثلاثة.

ب- البريد الجوي: كان أول من استخدم الحمام الزاجل لنقل الرسائل الفرس وأخذ عنهم اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، ثم الرومان، ثم المسلمون منذ العصر العباسي زمن المعتصم بالله عام 222هـ/837م، وكان لهم دور كبير في تنظيم نقل البريد بواسطة الحمام الزاجل<sup>(1)</sup>

وخاصة زمن الفاطميين<sup>(2)</sup> وآل زنكي "الدولة النورية".

هذا وقد زاد إهتمام الأيوبيين منذ 608هـ/1211م زمن الملك العادل الذي استخدمه في تتبع حركة الأمير عز الدين أسامة صاحب قلعة عجلون الذي خرج من مصر متخفياً، فأخبر الملك العادل بذلك فأرسل المعظم عيسى للقبض عليه فسجنه في الكرك الى أن مات<sup>(3)</sup>. كما استخدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب في استقصاء أخبار عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك، المعارض له والطامع في حكم مصر الذي أوهمه برغبته في السير الى نابلس بينما كان يخطط لاحتلال دمشق<sup>(4)</sup>، كما خرب الملك الناصر داوود بُرج الحمام في الواردة عند عودته من دمشق الى عجلون ماراً بجيشه في الكرك حتى وصل غزة واستولى على الواردة ليمنع أخبار تحرّكه نحو مصر للاستيلاء عليها<sup>(5)</sup>.

وفي زمن المماليك زاد اهتمامهم باستخدام الحمام الزاجل منذ زمن الملك الظاهر بيبرس بالإضافة للبريد البري وذلك لتتبع أخبار المغول والصليبيين، فأصبحت القاهرة مركزاً رئيساً لشبكة الاتصالات الجوية بين أجزاء مملكته حيث جعلها سلاطين المماليك تحت إشرافهم مباشرة<sup>(6)</sup> وجعلوا لها أبراجاً في قلعة الجبل بالقاهرة حيث قاربت أعداده الألف وتسعمائة طائر<sup>(7)</sup>.

(1) صالح يحيى: تاريخ بيروت، ص35، وابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص117. المقرئ: اتعاظ الخنفاء، ج1، ص203،

وآدم متيز: الحضارة الإسلامية: ج2، ص416.

(2) المقرئ: ن م، ج1، ص275-276.

(3) النويري: نهاية الأرب، ج27، ورقة 17، مخطوط.

(4) أبو الفداء: م س، ج3، ص173 (4 اجزاء)، المطبعة الشاهنامية، القسطنطينية، 1286.

(5) النويري: نهاية الأرب، ج27، ورقة 56 مخطوط.

(6) المقرئ: الخطط، ج3، ص376.

(7) القلقشندي: م س، ج2، ص97.

أما عن طريق استخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل: فقد كانت الرسائل عبارة عن بطاقات صغيرة خفيفة مكتوبة بخط دقيق أيضاً "سموه الغبار"<sup>(1)</sup> بما يشبه البرقية اليوم وتثبت بواسطة خيط رفيع تحت جناح الطائر لحفظها من المطر أو تحت ريش أذناها<sup>(2)</sup> ولضمان وصول الرسالة، استخدمت حمامتان حيث تطير الحمامة الثانية بعد الأولى بساعتين تحسباً للظهور الجارحة في الجو هذا وقد ميّزت حمام السلاطين عن غيرها بعلامات على مناقيرها أو أرجلها<sup>(3)</sup> كالوشم في الخيول.

### مراكز البريد الجوي:

لقد أقيمت للحمام الزاجل أبراج في المراكز المخصصة لذلك حيث يقوم على خدمته موظفون يُلقبون بالبراجين أو الخفراء<sup>(4)</sup> مقابل مرتبات وأعلاف للحمام من قبل السلاطين مع تزويدها بالأقفاص والبغال لنقلها للمراكز المختلفة.

وقد كان البراج يوقع على الرسالة عند وصولها لمركزه، ثم يربطها بحمامة أخرى حتى تصل للمكان المرسل إليه. كما كانوا يعيدون الحمام إلى مراكزه التي خرج منها بأقفاص محملة على البغال<sup>(5)</sup>. أما المركز الرئيس للبريد في القاهرة فقد كان يوجد به حمام من كل نيابة وقلعة لاستخدامها في الطوارئ لإخبار النيابات في نفس اليوم<sup>(6)</sup> ومثلها وضع حمام تحت تصرف والي كل قلعة وكل ولاية في النيابات الأخرى لإخبار السلطان في الأمور الهامة بنفس اليوم<sup>(7)</sup> وكانت أبراج الحمام موزعة بين القاهرة والكرك كما يلي: القاهرة - بلبيس - الصالحية - قطيا - الواردة - غزة - الخليل - الصافية - الكرك.

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للنشر، بيروت 1969، ص 213.

Jacob de Haas: History of Palestine, New York, 1934, P.289

(2) المقريري: الخطط، ج 3، ص 376

(3) ن.م. ن. ص.، سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1962، ص 144.

(4) اليونيني: م س: ج 3، ص 261.

(5) المقريري: الخطط، ج 3، ص 376.

(6) ن م، ج 3، ص 277. والقلقشندي: م س، ج 2، ص 97.

(7) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 96.

أما من غزة لدمشق فكانت كالتالي: غزة - لد - قاقون - جنين - بيسان - اربد - طفس - الصنمين - دمشق.

ومن دمشق الى الكرك كانت تبدأ من الصمين - طفس - أذرعات (درعا اليوم) - البرج الأبيض (مرج الحمام اليوم)<sup>(1)</sup> - الكرك<sup>(2)</sup>.

وكانت هناك شبكة مواصلات جوية في دمشق لتغطي أخبار الحدود الشمالية في حلب والبيرة والقرات والمدن الساحلية كبيروت وطرابلس وصيدا، بالإضافة للمدن الداخلية كعجلون وعمّان وحسبان<sup>(3)</sup>.

وقد استخدم المسلمون نظام الإشارات الضوئية في العصور الوسطى الذي أخذه عن البيزنطيين والمسمى باسم "المناثر" أو "المناور" بواسطة إيقاد النار ليلاً والدخان نهاراً في أبراج مرتفعة على رؤوس الجبال كمحطات إنذار بقدوم العدو وخاصة في الثغور والسواحل وقد أشاد ابن خلدون بنظام الإشارات الضوئية لوصولها في ليلة واحدة من سبته إلى الإسكندرية<sup>(4)</sup>. ويلاحظ عليها أنها كانت متتابعة ويكمل بعضها بعضاً في الاضاءة الليلية، وقد استخدمها الصليبيون في فلسطين وشرقي الأردن حيث استطاعوا الإتصال من الكرك ببيت المقدس في شهر رجب 579هـ/ نوفمبر 1182م أثناء حصار صلاح الدين للكرك لطلب النجدة<sup>(5)</sup>.

ويذكر ابن الجوزي بأن نساء النصارى العرب الخيالة في عكا كن يتتبعن بالإشارات الضوئية عن طريق الشموع المضاءة في بيوتهن المقابلة لجبل الكرمل المشرف على عكا لاخبار المسلمين بتحركات الصليبيين وأعدادهم<sup>(6)</sup> مما دفع الملك المعظم عيسى الى وضع رجال

(1) مرج الحمام: إحدى ضواحي عمان السكنية اليوم.

(2) العمري: ن م، ص 197. والقلقشندي: ن م، ج 14، ص 292-293.

(3) العيني: عقد الجمان، ج 22، ق 1، زرقو 111، مخطوط، ابن ابيك: كنز الدرر، ج 9، ص 259، القلقشندي: م س، ج 14، ص 393.

(4) ابن خلدون: العبر ج 4، مطبعة العامرية، القاهرة، 1284، 7 أجزاء، ص 434. وكانت المناور: عبارة عن محطات إرشاد بريرية إذ

تشعل النيران في قمم الجبال ليلاً وكانت في نيابة صفد ثلاثة مناور أولها في جبل فحمة بجنين ويرى منه المنور والثاني بجبال قاقون ثم المنور الثالث بجبال نابلس ومنها الى غزة ثم الى مصر، انظر صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 35، العمري ن.م. ص 201.

(5) رانسيما: م س، ج 2، ص 712.

(6) سبط ابن الجوزي: أبو المظفر يوسف بن غزا أو غلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج 8، ورقة 426، مخطوط نسخة مصورة

بشيكاغو في امريكا.

متخصصين في ذلك في جبل الكرمل لتلقي هذه الاشارات وإرسالها الى دمشق لأخذ الحذر والخروج للقتال<sup>(1)</sup>.

وذكرت المصادر بأن كل شمعة مضاءة من طاقة البيت كانت تدل على مائة فارس وكانت توضع في الجهة الجغرافية للبلد المقصود بالغزو أي في اتجاه نابلس أو دمشق<sup>(2)</sup>. وقد زاد اهتمام المماليك بهذه المنائر الضوئية لتتبع اخبار المغول والصليبيين، فأقاموها في أقصى الثغور الاسلامية الشرقية كالبيرة والرحبة لتصل الأخبار الى قلعة الجبل بالقاهرة في يوم واحد من الفرات الى القاهرة<sup>(3)</sup>.

وقد امتدت هذه المنائر من الرحبة -كوائل- مناقب- حفير أسد الدين - السخنة - منظره ارك - البويب- منظره تدمر- منظره البيضاء - الحير - جليجل - القرينتين - السعطنة - تينة - العقاب - مئذنة الروس - دمشق (في الجبل المطل على برزة) - المانع - تل قرية الكتبية - الطرة - جبل اربد - قلعة عجلون - جبل طيبة اسم<sup>(4)</sup> - الجبل المنحدر تجاه بيسان - جبال الريف قرب نابلس - جبل جينين - جبل فحمة - شرفة قاقون - جبل مجدل يافا - يازور - غزة ومنها ترسل بواسطة الحمام الزاجل أو البريد البري<sup>(5)</sup>.

وهكذا ساهم كل من البريد البري والجوي في استتباب الأمن وحفظ الاستقرار في جميع أجزاء الدولة، لمعرفة السلطان في القاهرة بما يدور في جميع أرجاء دولته بطرقها السالكة وقوافلها التجارية الآمنة فانصرف الناس إلى الإنتاج مما أدى لانتعاش الحياة الاقتصادية، فظهرت مدارس فنية تخصصية صناعية ومعمارية وازدهرت حركة فكرية كان من نتائجها بلوغ أعظم المؤرخين والفقهاء، فكانت الكرك وبيت المقدس ودمشق وحلب وغيرها مراكز إشعاع حضاري ماثلة للعيان حتى اليوم.

(1) القلقشندي: م س، ج 14، ص 398، العمري: م س، ص 199.

(2) سبط ابن الجوزي: ن م، ج 8، ن ص.

(3) القلقشندي: ن م، ج 14، ص 398، العمري: ن م، ص 200.

(4) ماتزال اربد وعجلون والطرة عامرة في محافظة اربد اليوم شمال شرقي الأردن على الحدود السورية، كما تسمى الطيبة اليوم بطيبة بني علوان، ناحية الوسطية نسبة إلى عشيرة العلوانة.

(5) القلقشندي: م س، ج 14، ص 399. العمري: مسالك الأبصار، ن م، ص 200، 201.

4- **نظر الجيش:** الذي يهتم بشؤون العساكر المحلية واحتياجاتهم وإقطاعاتهم وصار ناظر الجيش المرافق لنقيب الجيش من أرباب السيوف حيث يحتفظ بسجلات الإقطاعات العسكرية وأصحابها ولمن تؤول بعد موتهم والاحتفاظ بالمناشير السلطانية الخاصة بحسابات العساكر المقطعين<sup>(1)</sup> وقد مُسِحت أراضي الشام وقُسمت من جديد عام 712هـ/1312م بما يعرف "بالروك الناصري ببلاد الشام" نسبة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان ناظر هذا الديوان يعين بمرسوم سلطاني من القاهرة<sup>(2)</sup>.

ولكنه كان يسند لبعض القضاة<sup>(3)</sup> أحياناً ولكاتب السر أحياناً أخرى<sup>(4)</sup> وكان يساعده كتاب

وشهود<sup>(5)</sup>.

(1) العمري: ن م ، ص 120. فقد ذكر : "هذا الناظر معه من المستوفين من يحرر كليات المملكة وجزئياتها، فرأسهم هو مستوفي الصعبة. والمقريري: الخطط، ج 2، ص 227، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 132. والقلقشندي: ن م، ج 4، ص 190.

(2) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 234.

(3) القاضي شمس الدين بن الحافظ الحنفي قاضي صفد عام 716هـ/1316م بالإضافة لعمله. أنظر الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 2، ص 19، 64-65، ج 4، ص 265.

(4) ابن حجر : أبناء الغمر، ج 3، ص 274: ذكر أنه أضيف إلى كاتب صفد.

(5) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 31. ابن شاهين الظاهري، ن م، ص 134. ومن الذين تولوا هذه الوظيفة في نيابة صفد: شهاب الدين الواسطي 687هـ/1288م. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج 3، ص 249. يساعده بوظيفة المشد الأمير سيف الدين كرد، والمستوفي والأبجد مستوفيا. "ابن الفرات: م س، ج 8، ص 67-68. تولاهما الأمير سيف الدين يكتمر الحاجب سنة 702هـ/1302م. الصفدي :

ن م، ج 10، ص 19.



5. **الكاشفة: صاحبها الكاشف:** المشرف على عمال الأراضي الزراعية وفنوات الري

والجسور وصيانتها كالمشد والمستوفي حيث يشبه اليوم مدير دائرة الزراعة في النيابة "المحافظة" هذا وقد ذكرها ابن شاهين الظاهري في عصره في صفد وكان أجناد الحلقة في

صفد وممالك الكامل والأمراء 2000.

6. **ناظر ديوان المواريث الحشرية:** الذي كان يهتم بتركات الأموات الذين لا وارث لهم<sup>(1)</sup>

وقد أقر ذلك السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 700هـ/1300م على الأموات من المسلمين واليهود والنصارى السامريين ذكوراً وإناثاً في سائر البلاد الإسلامية وليس لهم وارث، فإذا ظهر ورثة لهم بعد ذلك يأخذون حقوقهم من الإرث ويضاف باقي التركة لبيت المال<sup>(2)</sup>.

7. **ناظر بيت المال:** وهو المشرف على مالية النيابة من واردات ومصروفات ورواتب

موظفين ويشترط فيه العدالة والعلم والتقوى<sup>(3)</sup> وكان يساعده شهود بيت المال وكاتب المال وصرافي بيت المال<sup>(4)</sup> ويُعين جميع هؤلاء الموظفين من قبل نائب السلطنة<sup>(5)</sup>. وكانت موجودة في العصر الأيوبي وعرف صاحبها بناظر الخزانة في الكرك<sup>(6)</sup> كما عرف بناظر الجهات الذي كان يحصل الضرائب التجارية والجمركية برأً وبحراً بالإضافة لمسؤوليته عن الجهاز المالي من واردات ومصروفات<sup>(7)</sup> وعرفت هذه الوظيفة أيضاً في نيابة صفد

(1) القلقشندي: م س، ج 4، ص 33. والمقريري: السلوك، ج 2، ص 770.

(2) القلقشندي: ن م، ج 11، ص 384، 385، المقريري: ن م، ج 2، ص 436. والنويري: م س، ج 31، ص 217.

(3) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 31، ج 5، ص 465، والعمرى: م س، ص 122، والمقريري: الخطط، ج 2، ص 224، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 132.

(4) القلقشندي: ن م، ن ص، المقريري: الخطط، ج 3، ص 364-365 وقد تسلمها في الكرك الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسن علي الشافعي عام 714هـ/1314م "العيني: عقد الجمان، ج 23، ق 1، ورقة 40 مخطوط، وكانت تسمى أحياناً "وكالة بيت المال". القلقشندي: ن م، ج 4، ص 241-242، ويورد الدكتور يوسف غوانمة ذكرها في وثائق المتحف الإسلامي بالقدس: غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص 47. ووجدت في صفد عام 720هـ/1320م تولاهما علي بن الرسام الصفدي (ت 746هـ/1345م). العيني: ن م، ج 20، ق 3، ورقة 50، مخطوط.

(5) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 220.

(6) العمرى: مسالك الأبصار، ص 121، والمقريري: الخطط، ج 2، ص 227، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 132. هذا وقد تولاهما

شرف الدين بن مزهر في عهد الملك المغيث عمر.

(7) ابن قاضي شهبه: تاريخه ج 3، ص 649-650.

والقدس وغزة<sup>(1)</sup> وقد ساعده "العامل" منظم الحسابات و"الصيرفي" الذي يقبض المال ويصرفه بمساعدة الصيارفة وكتاب الدرج أي "الأرشيف"<sup>(2)</sup>.

كما كانت هناك وظائف ديوانية صغيرة لأرباب الأقلام في النيابات يعينهم نائب السلطنة في النيابة مثل "ناظر خزائن السلاح" لحفظه وصيانتته وناظر الاسواق وناظر مراكز البريد وناظر الأحباس المشرف على شؤون المساجد والربط والزوايا والمدارس المحبوس عليها من الاقطاعات<sup>(3)</sup> وكتاب الخراج<sup>(4)</sup> وكتاب خراج الناحية<sup>(5)</sup>.

كما سمي في القدس وكيل بيت المال عندما عين صلاح الدين الأيوبي الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القدسي وكيلاً لبيت مال القدس حيث فوضه ببيع الأملاك الخاصة ببيت مال القدس واشترى به كنيسة صند حنا التي حولها لمدرسة الصلاحية<sup>(6)</sup>.

ثم استمرت هذه الوظيفة في عهد المماليك الذين ساروا على سياسة الأيوبيين ونظمهم الإدارية، وكان تولي هذه الوظيفة يتم عن طريق نائب بيت المقدس حيث اعتبرها القلقشندي - الذي عاصر سلاطين المماليك حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي - من الوظائف المتوسطة<sup>(7)</sup>.

**ونقابة الجيش:** فكان النقيب كأحد الحجاب الصغار الذي يرافق الجند عند عرضهم في المواكب السلطانية ومسؤول عن خزانة السلطان في المواكب والسفر<sup>(8)</sup>.

**ونقابة الأشراف:** وهي وظيفة نفيسة وشريفة مهمة واليها التدقيق في أنساب الأشراف عن ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، والقضاء

(1) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 199.

(2) القلقشندي: م س، ج 5، ص 466.

(3) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 191، ابن شاهين الظاهري: م س، ص 109.

(4) كاتب الخراج: خبير الحساب والمقاسمات بالإضافة لمعرفة المساحة والتقسيط. القلقشندي: ن م، ج 1، ص 143-144.

(5) كاتب خراج الناحية: ووظيفته توزيع الأحواض على المزارعين مقدرة بالفدادين (الفدن) ويسجل ذلك في سجل خاص. ن م، ج 3، ص 454، الباشا: الفنون الإسلامية، ج 2، ص 194.

(6) ابن حجر: انباء الغمر، ج 2، ص 487.

(7) القلقشندي: ن م، ج 12، ص 7، فقال: "فتارة يولى فيها السلطان وتارة يولى فيها النواب، إلا أن تولية السلطان فيها في النيابات الكبار كالشام أكثر..."

(8) العمري: مسالك الأبصار، ص 119، والمقريري: الخطوط، ج 2، ص 223، السيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 31.

بينهم وكانت تسمى نقابة الطالبين. قبل ذلك<sup>(1)</sup> وكان نائب القدس هو الذي يعين نقيب الأشراف في القدس والخليل ورعاية مصالحهم الاقتصادية أيضاً<sup>(2)</sup>.

وناظر كنيسة القيامة: وهي من الوظائف المعروفة في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك، والتي لم تذكر في المصادر العربية<sup>(3)</sup>.

وتؤكد المصادر الأوروبية<sup>(4)</sup> بأنه والحراس كانوا من المسلمين ووظيفة الحراس الخمسة عشر حراسة الحجاج عند دخولهم كنيسة القيامة وعند الخروج منها، وكان نائب بيت المقدس هو الذي يعين الناظر<sup>(5)</sup> لذا كان من المرجح أن يتقن بعض اللغات الأجنبية وربما كان يستعين بالمتترجمين.

### ومن المصطلحات الإدارية المملوكية:

الخشداش: والخجداش، معرب للفظ الفارسي خواجهانش أي الزميل في الخدمة أو الرق أو العتق، وكلما كثرت خشداشية أمير من الأمراء ازدادت مكانته. وأما المماليك السلطانية: فهم أصلاً جند السلطان الذي ينشأون في الطاعة ويتولى السلطان تربيتهم<sup>(6)</sup>.

والجوكندار: وهو الذي يحمل جوكان السلطان اثناء لعبة الكرة. والجوكان هو المحجن الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان أيضاً.

(1) القلقشندي: م س، ج 4، ص 37.

(2) ابن تغري بردي: م س، ج 12، ص 153.

(3) وقد تكون هي التي أشار إليها القلقشندي تحت اسم: "شد متحصل قمامة" وإن متوليها كان من المسلمين للإشراف على المعجزة المسلمين والقسيسين والرهبان من أهل الذمة، القلقشندي: ن م، ج 12، ص 339.

(4) Newett: calala's Pilgrims to Jerusalem in the year 1494, Manchester, 1907, pp. 258-259

وانظر ص 249 ذكر الرحالة كازولا الذي زار بيت المقدس تحت اسم Abrayano والذي اشرف على اعداد الحجاج المسحين وجعل منهم موجب السلطان بعد تدوين اسمائهم وأعمارهم وحسبائهم وأوصاف أجسامهم بالتفصيل من حيث الطول ولون العينين، ولون الشعر وغير ذلك ثم يوقع على هذه المعلومات، وتحفظ نسخة في القدس وترسل الأخرى الى السلطان في القاهرة.

(5) القلقشندي: م س، ج 1، ص 7.

(6) النويري: م س، تحقيق د. الباز العريبي، مراجع. عبد العزيز الأهواني، ج 31، ص 8 (الهامش).

والجوكان : عصا طويلة مدهونة طولها حوالي أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطية معقوفة تزيد عن نصف ذراع<sup>(1)</sup>.

والطواشية: والمفرد: طواشي: ويقصد بها الجندي الفارسي، ويتقاضى راتباً يتفاوت بين 700-1000 دينار ويبلغ في بعض الأحوال 1200 دينار وله غلام يحمل سلاحه في الحرب<sup>(2)</sup>.

وأما الأستاذ: في المصطلح المملوكي: فهو السيد الذي ينتمي اليه المملوك وينتسب اليه وقد يعتبر تاجر الممالك أول أستاذ المملوك الذي يجلبه من خارج الدولة المملوكية وينتقل المملوك من أستاذ الى آخر. غير أن أهم الاساتذة هو الذي يستبقي المملوك في حوزته بالشراء ويظل حتى عتقه ويبقى متصلاً به بعد عتقه بروابط وثيقة ومخلصاً له حتى آخر يوم في حياته<sup>(3)</sup>.

الأستاذ دار : وهو المسؤول عن إقطاع الأمير، ويتحدث مع الدواوين والفلاحين في القرى وعن بيوته<sup>(4)</sup>.

أستاذ دار الصحبة : هو لقب متولي أمر مطبخ السلطان في سكنه وسفره، يشرف على الطعام والشراب، ويمشي أمام السلطان، ويحكم في غلمانه وباب داره، ويقف على السماط، ويشرف على كل نفقات بيت السلطان وكسوة من فيه<sup>(5)</sup>.

إمرة جاتدار : أمير جاتدار: بمعنى حامل السلاح، ووظيفته أن يستأذن للأمرء بالدخول على السلطان، ويدخل أمامهم، ويطوف بالزفة حول السلطان في سفره وهو المستلم للزردخاناه وتحت إمرته الدواوين. وطوائف الركابية والخازندارية وينفذ أمر السلطان بتعزيز أو قتل أحد الأشخاص ولها أميران.

(1) النويري: ن م، ج 31، ص 19، طبعة 1992، القاهرة.

(2) النويري: ن م، ج 31، ص 20. والمقريري: المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 86.

(3) النويري: ن م، ج 31، ص 7، العربي: الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك، ص 180-181.

(4) العمري: مسالك الأبصار، ص 122. المقريري: الخطط، ج 2، ص 224.

(5) العمري: مسالك الأبصار، ص 118. والمقريري: ن م، ج 2، ص 222. والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 131. والقلقشندي: م

س، (ج 4، ص 20-21، ج 5، ص 457)

شاد العماير : المسؤول عن العمائر السلطانية من بناء وتجديد وترميم القصور والمنازل والأسوار وهي إمرة عشرة<sup>(1)</sup>.

البابية : جمع بابا وذكر القلقشندي بأنه لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ممن يتعاطى الغسل والصقل، وهو لفظ رومي معناه الآباء لأنه يعمل في ترفيهه مخدومه من تنظيف أدماته وتحسين هيئته، يكون أشبه بالأب فلقب بذلك<sup>(2)</sup>.

زام دار: تحريف لكلمة زنان دار الفارسية، زنان ومعناه النساء ودار ممسك، فيكون ممسك النساء بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم، غير أن العامة والخاصة قلبوا فيه بميمين فعبروا عنه بالزام دار ظناً بأن الدار على معناها العربي، والزام بمعنى القائد<sup>(3)</sup>.

المهمندار : صاحب هذه الوظيفة يتصدى لتلقي الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم وهو مركب من لفظين فارسيين. مهمن : ومعناه الضيف، ودار : ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك الضيف والمراد المتصدي لأمره<sup>(4)</sup>.

والقراغلامية: سائر الأجناد<sup>(5)</sup>.

وأما الناظر: وهو عادة رئيس ديوان الجيش، ويختص بالنظر في أصول ما يتحصل من الأموال وما يجري صرفه، والفائض منه والمتأخر، وتقدير الخراج والكشوف الجيشية ويفحص ما يقوم به الموظفون من الأعمال والحسابات<sup>(6)</sup>.

والمستوفي: يلي الناظر في الوظيفة، ومن أعماله مطالبة المستخدمين بما يجب عليهم دفعه من الحسابات ويراجع ما يرد عليه من الحساب ويستوفيه وضبط إيرادات الدولة

(1) القلقشندي: م س، ج4، ص22. ناظر الخزانة الكبرى بقلعة الجبل وكانت من الوظائف الجبلية. المقريري: المواعظ، ج2، ص227.

(2) القلقشندي: ن م، ج5، ص470.

(3) القلقشندي: ن م، ج5، ص460-454.

(4) القلقشندي: ن م، ج5، ص459.

(5) النويري: م س، ج31، ص40.

(6) النويري: ن.م. ج31، ص110.

ومصروفاتها ويلقب بـ "قطب الديوان" وكان يتحمل مسؤولية الإهمال في مواعيد  
جباية الأموال والمتحصلات، لذا كان يراقب الموظفين المكلفين بجمع الأموال<sup>(1)</sup>.

### ومن الاصطلاحات اللفظية المملوكية الهامة:

والجواشن: مفردها جوشن وهو الدرع<sup>(2)</sup>.

التراكيش: مفردها تركاش، وهو لفظ فارسي الأصل، ومعناها: الكنانة أو الجعبة التي يوضع  
فيها النشاب<sup>(3)</sup>.

الكلوتات: مفردها كلوته، وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة واستحدث الأيوبيون لبس  
الكلوته بمصر وكانت من الجوخ الأصفر، وإضيف إليها منذ زمن السلطان المنصور  
بن قلاوون الشاشات<sup>(4)</sup>.

تطابق بيطارية: مفردها تطبيقة، صفيحة من الحديد ينعل بها حافر الدابة لوقايتها<sup>(5)</sup>.

الرخت: لفظ فارسي معناه المتاع<sup>(6)</sup>.

الترسيم: الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة بالتحقق على شخص موضع ومنعه من الفرار،  
وهو من العقوبات العسكرية<sup>(7)</sup>.

القبق: لفظ تركي معناه القرعة ووصف المقريري القبق بأنه عبارة عن خشبة عالية، تنصب في  
براح الأرض، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ويقف الرماة بقسيهم، يرمون بالسهم  
جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك، وكان في رأس الخشبة العالية قرعة  
من ذهب أو فضة بمثابة هدف ويكون في القرعة طائر ويتبارى اللاعبون وهم على

(1) النويري: م. س. ج. 8، ص 301-302، ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 301، 302، القلقشندي: م. س. ج. 5، ص 466.

(2) النويري: ن. م. ج. 31، ص 130.

(3) النويري: ن. م. ج. 31، ن. ص.

(4) المقريري: المراعظ والاعتبار، ج. 2، ص 48، القلقشندي: ن. م. ج. 4، ص 5-6. النويري: ن. م. ج. 31، ص 130.

(5) النويري: ن. م. ج. 31، ص 131.

(6) المقريري: السلوك، ج. 1، ص 190.

(7) النويري: ن. م. ج. 31، ص 154.

ظهور الخيل في رمي الهدف بالنشاب فمن أصاب منهم القرعة واطار الحمام، فاز بالسبق وأخذ القرعة مكافأة له<sup>(1)</sup>.

**الحبر:** لفظ فارسي معرب، يقصد به المظلة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في المواكب وهي من رسوم الملك، ومن بقايا الدولة الفاطمية<sup>(2)</sup>.

**المصانعات:** المقصود بها هنا أموال الرشوة والمدارة<sup>(3)</sup>.

**النقارات:** مفردھا نقارة، من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة بمصر منذ أيام الفاطميين، وكانت تُحمل على عشرين بغلاً على كل بغل ثلاث وكانت تُحمل في ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر، وفي الإيذان ببدء القتال<sup>(4)</sup>.

**الجوالي:** مايؤديه أهل الذمة من الجزية وفقاً للأحكام الشرعية، فلا يؤديها النساء والصبيان والرعيان والعبيد والمجانين<sup>(5)</sup>.

ومن العادات الإدارية في عصر المماليك أنه إذا عُيِّن أحد من الأمراء في وظيفة أو نيابة يتوجه إلى المدرسة المنصورية في القاهرة، بحضور القضاة الأربع ويقسم يمين الولاء<sup>(6)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك، ج 1، ص 518، حاشية 6.

(2) القلقشندي: م س، ج 4، ص 7-8. النويري: م س، ج 31، ص 305.

(3) النويري: ن. م، ج 31، ص 307.

(4) النويري: ن. م، ج 31، ص 312. والقلقشندي: ن م، ج 3، ص 475.

(5) ابن مماتي: م س، ص 317-318.

(6) النويري: ن م، ص 348.

### ثالثاً: الوظائف الدينية: وتشمل:

١- **القضاء** : كان قاضي القضاة الرئيس الأعلى للقضاء، يُعَيَّنُ بمرسوم سلطاني من القاهرة، وهو الذي يعين جميع القضاة في ولايات النيابة<sup>(١)</sup> وقد أمر الظاهر بيبرس بأن يحكم أربعة من القضاة في معظم الولايات الشامية والمصرية من قضاة المذاهب السنية الأربعة<sup>(٢)</sup> بشرط وجود اتباع لهذه المذاهب هناك:

وفي عام 689هـ/1290م عين الملك المنصور سيف الدين قلاوون 689هـ/1290م ثامن ملوك الترك في مصر، وخلفه ابنه الأشرف خليل الذي طَهَّرَ عكا وحيفا وصيدا وصور من الصليبيين.

وعَيَّنَ شرف الدين المقدسي بعد وفاة القاضي نجم الدين المقدسي الحنبلي قاضي الحنابلة<sup>(٣)</sup>. وفي عام 690هـ/1292م نقل السلطان الأشرف قلاوون الصالحي قاضي القدس. بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي الى الديار المصرية<sup>(٤)</sup>. وقد قتل السلطان الأشرف خليل على يد الأميرين بدر الدين بيدرا وحسام الدين لاجين<sup>(٥)</sup>. فخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون<sup>(٦)</sup>.

وربما أراد تحقيق العدالة والنزاهة في احتكام أتباع كل مذهب إلى قاض من مذهبهم فيبعدهم عن الطعن في الأحكام الذي يثيره اختلاف المذهب. فالنسبة لنيابة صفد فقد وجد أربعة قضاة أعلاهم قاض الشافعية<sup>(٧)</sup> ويليهِ في المرتبة قاضي الحنفية في المرتبة الثانية<sup>(٨)</sup> ثم قاضي المالكية<sup>(٩)</sup> ثم قاضي الحنابلة<sup>(١٠)</sup>.

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ص 59.

(٢) القلقشندي: م س، ج 9، ص 255.

(٣) النويري: م س، ج 31، ص 171، 177.

(٤) ابن الفرات: م س، ج 8، ص 127. والنويري: ن م، ج 31، ص 220.

(٥) ابن الفرات: ن م، ج 8، ص 167.

(٦) ابن الفرات: ن م، ص 172. والمقريري: السلوك، ج 1، ص 793. والنويري: ن م، ص 267.

(٧) ابن الوردي: تمنية المختصر، ج 2، ص 37، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج 12، ص 18، وابن حجر: الدرر الكامنة ج 3، ص 179-180 وابن تغري بردي: المنهل الصافي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، دار الكتب، ج 1، ص 40. وابن قاضي شهبه: م س، ج 1، ص 222، ومنهم حسام الدين المقدسي الشافعي 707هـ/1307م وشرف الدين النهاوندي 716هـ/1316م. وعلي بن الرسام الصفدي.

(٨) الصفدي: ن م، ج 2، ص 64-65.

(٩) ابن قاضي شهبه: ن م، ج 1، ص 139-184.

(١٠) النعمي: الدارس، ج 2، ص 266.



## أما فيما يتعلق بالقضاء لدى اليهود في القدس:

فقد كان لهم قضاة يحكمون في المنازعات بين طوائف اليهود المختلفة وكان يطلق على كل منهم لقب "الشيخ"<sup>(1)</sup>. كما كان قضائهم منهم حسبما تؤكد وثائق الجنيزا التي كتبها اليهود في مضر وتناولت مختلف نواحي حياتهم<sup>(2)</sup> وبالنسبة لأجور القضاة اليهود فربما أخذوها من الأشخاص الذين يحتكمون اليهم أو من مساعدات الطائفة اليهودية لهم بشكل عام<sup>(3)</sup>.

وهكذا نلاحظ تسامح المسلمين في عصر سلاطين المماليك مع اليهود بحيث سمح لهم بممارسة شعائهم الدينية برئاسة حاخاماتهم، ويشهد بذلك مؤرخي اليهود أنفسهم<sup>(4)</sup>. وكان معظم رؤسائهم الدينيين من الإشكنازيم من شرق أوروبا<sup>(5)</sup>.

وفي أواخر الدولة المملوكية استخدمت الرشوة لتولي منصب القضاء كما حدث مع قاضي القدس ابن سالم حيث دفع مبلغ ألف وخمسة دینار للسلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون عام 746هـ/1345م ومثلها لمن توسط له بذلك<sup>(6)</sup> وبالنسبة للقضاء بين الطوائف المسيحية في القدس زمن المماليك فقد كان بأيدي أبناء هذه الطوائف، فإذا حدث خلاف فيما يتعلق بالأماكن المقدسة المسيحية، يلجأون إلى قاضي القدس المسلم، كما جاء في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس<sup>(7)</sup>، أما خلافت اليهود مع المسلمين فكان الفصل فيه للقضاء المسلمين الذين كانوا يحكمون بالعدل بينهم، وقد شهدت بذلك الوثائق التاريخية الموجودة لدى الرهبان الفرنسيين<sup>(8)</sup>.

(1) السخاوي: الضوء اللامع، ج2، ص215، ج1، ض12-13. وقد أكد ذلك الرحالة اليهودي اسحق بن شيلو الذي زار بيت المقدس عام 735هـ/1334م

(2) Ben-Sason Jewish Society throw the ages, NewYork, 1973, pp. 181-184.

(3) Adler: Opcit, pp. 151-153.

(4) Adiler: Opcit. p. 133

(5) Ibid. p. 146.

(6) المقرئزي: السلوك، ج2، ق3، ص696.

(7) عارف العارف: تاريخ القدس، ص268-269.

(8) د. أحمد دراج: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي بالقاهرة 1961م، ص63.

وكذلك وجد في القدس قاضي شافعي في عهد الممالك البحرية وكان يجمع بين قضاء القدس والرملة ونابلس وجنين وأعمالها وكان منصباً وراثياً<sup>(1)</sup> وجمع بين القضاء والخطابة<sup>(2)</sup>. كما كان زمن الأيوبيين أما بقية المذاهب فاستحدثت في عصر المماليك الشراكسة<sup>(3)</sup>. أما بالنسبة لقضاء شرقي الأردن فقد تولى القضاء في الكرك شافعي في المرتبة الأولى وحنفي في المرتبة الثانية<sup>(4)</sup>. في ولاية البلقاء التابعة لنيابة دمشق التي كانت تضم أحياناً لنيابة دمشق وأحياناً أخرى لنيابة الكرك كما سبق<sup>(5)</sup>. فقد كان هناك قاضياً شافعيّاً لمعاونة والي البلقاء ويتبعه قاضي حسابان<sup>(6)</sup> وقاضي الصلّت<sup>(7)</sup> وقاضي عمّان<sup>(8)</sup> وفي نيابة عجلون كان القاضي الشافعي يتم تعيينه من قاضي القضاة بدمشق وكان هناك مُحَدَّثاً<sup>(9)</sup>. وبالنسبة لمرتبات القضاة فقد صرفت أرزاق للقاضي الشافعي والحنفي فقط في نيابة صفد<sup>(10)</sup> وللشافعي في نيابة القدس من الأوقاف بما يعادل عشرة دراهم فضة كل يوم وبما كان ذلك لعدم انتظام توليتها وقلة اتباع هذين المذهبين<sup>(11)</sup>. لقد ذكر المقرئزي أن راتب القاضي الشهري كان خمسين ديناراً<sup>(12)</sup> بالإضافة للأنظار التي

(1) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل ج2، ص283، ص474-478.

(2) ابن تغري: م س، ج9، ص298.

(3) الحنبلي: ن م، ج2، ص219، 244، 261، ص283.

(4) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص78، وذكر بأنه عهد إلى قاضي الشافعية بالكرك النظر في الأوقاف وقضايا بيت المال الخاصة ومحمد بن داود قاضي صفد عام 716هـ/1316م. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2، ص64-65.

(5) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص15، المقرئزي: السلوك، ص665.

(6) السبكي: طبقات الشافعية، ج5، ص133، ابن حجر: أنباء الغمر، ج1، ص181، 186. وابن حجر: الدرر الكامنة، ج1، ص72، والسخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص202.

(7) السبكي: ن.م. ج5، ص132، 133، السخاوي، ن م، ج5، ص99.

(8) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص154.

(9) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص33، 101، 102، الصفدي: م.س. ج7، ص66، 67. ذكر اسم القاضي محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن أحمد المتوفى (سنة 680هـ/).

(10) ابن قاضي شهبه، م.س.، ج10، ص139-145.

(11) مجير الدين الحنبلي: ن م، ج2، ص562، 588.

(12) المقرئزي: الخطط، ج2، ص223، ابن حجر: أنباء الغمر، ج3، ص95.

يتولاها<sup>(1)</sup> والمناصب التي يتولاها بمرتباتها<sup>(2)</sup> ونفقة السفر والإنعامات الجزيلة المتكررة في المناسبات العديدة وتصرفهم بريع الأوقاف<sup>(3)</sup> والمعاش التقاعدي بعد نهاية خدمتهم.

لذا تمتع القضاة بثروة خيالية نتيجة وفرة الموارد المالية السالفة الذكر وبقدر تقربهم من الأمراء والسلطين. كما استفاد ورثتهم من هذه الوظائف لأنها تورث له

ويستغلها كبار العلماء مقابل الثلث<sup>(4)</sup>. كما كانت هذه الوظائف الثانوية الملحقة بهم وبالأعلى عليهم أيضاً وخاصة المتعلقة بإدارة الأوقاف حيث كانت سلاحاً ذو حدين إذ يفتح مجالاً للسلطان للتخلص من القضاة غير المرغوب فيهم ولاستخدامها وسيلة للضغط على القضاة لتنفيذ مطالبهم<sup>(5)</sup>:

ويلاحظ خضوع القضاء في عصر المماليك البحرية لنفوذ كبار أمراء الدولة في القاهرة ودمشق وذلك عندما عزل سيف الدين تنكز نائب دمشق زمن السلطان محمد بن قلاوون قاضي صفد النهاوندي لغضبه عليه، وولي الشيخ شمس الدين الخصري مكانه<sup>(6)</sup>.

وكان يساعد القاضي موظفين كالكتاب<sup>(7)</sup> والحاجب<sup>(8)</sup> والنقيب<sup>(9)</sup> وأمناء القاضي<sup>(10)</sup> والشهود أي الشهود العدول المختصين في صحة الإجراءات القضائية وليس الشهود الحقيقيين مع

(1) ابن طولون: قضاة دمشق، ص 106، يذكر بأن لقاضي دمشق في الشهر عشرة آلاف درهم فضة معالم قضاء وانظاراً إذا كان نزيها وضعف ذلك إذا كان غير ذلك (أي أنه يقبل الرشوة).

(2) المقريري: السلوك، ج1، ص773.

(3) المقريري: ن م، ورقة 352ب، قضاة دمشق، مخطوط.

(4) جمال جرجي: القضاء في الدولة المملوكية، رسالة ماجستير، عين شمس، القاهرة، 1972، ص83.

(5) المقريري: السلوك، ورقة 302أ. وابن تغري بردي: م س، ج7، ص59.

(6) الصفدي: الوافي، ج4، ص90-91.

(7) السبكي: طبقات الشافعية، ص89، القلقشندي: م س، ج1، ص282. وذكر شروط الكاتب يتمكن من اللغة العربية والعادات العربية، والذكاء وخبرة بالسجلات.

(8) السبكي: ن.م. ص89، والقلقشندي: ن.م.ن.ص. والحاجب الذي يسمح بدخول الناس على القاضي ويشترط به التقوى.

(9) السبكي: ن.م. ص86، ومهمة النقيب: تنبيه القاضي على الشهود أي ذكر اسماءهم.

(10) وهم المسؤولون عن حفظ أموال اليتيم والغائبين وصرف زكاة أموالهم ويشترط فيهم التقوى أيضاً السبكي: ن.م. ص87.

المدعي والمدعي عليه<sup>(1)</sup> ومن الجدير بالملاحظة أنه خصص راتب شهري لكل من هؤلاء الموظفين<sup>(2)</sup> لتبذدهم عن الرشوة وتعينهم على حوائجهم اليومية.

وكانت حاشية القاضي تشمل النائب والشاهدون من الحكم وكاتب الحكم والحاجب والنيقب والرسول والوكيل والجابي.

أما بالنسبة لمهمة القاضي فكانت النظر في المنازعات الشخصية والدعاوي الحقوقية، والأموال التي لا وارث لها وأموال الموارث المتنازع عليها وأموال الأوقاف لتميتها ونفقتها على الأبواب التي حصصت لها بموجب الوجوه الشرعية والإشراف على أموال الأيتام، والمحجور عليهم<sup>(3)</sup>. كما لُقِبَ الموظفون التابعون للقاضي والذين سبق ذكرهم بالمباشرين<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة للإستئناف في القضايا والمظالم التي عجز القضاة عن حكمها<sup>(5)</sup> أو أهملوها وربما بضغط من الأمراء فكان يتم في مدينة الكرك إذ كانت هناك داراً للعدل<sup>(6)</sup> يجلس فيها نائب السلطنة بمساعدة عدد من القضاة يومي الاثنين والخميس للنظر في هذه القضايا كما حدث أيام الناصر محمد بن قلاوون<sup>(7)</sup>.

### دار العدل والمظالم:

وكانت هناك داراً للمظالم يشرف عليها مفتي يعينه نائب السلطنة<sup>(8)</sup> وذلك للنظر في القضايا والمظالم التي لم يحكم فيها القاضي<sup>(9)</sup>، حيث ينظر فيها نائب السلطنة بمساعدة بعض

(1) السبكي: م س. ص 89، القلقشندي: م س، ج 1، ص 282، 283.

(2) القلقشندي: ن م، ج 10، ص 282. ومن الجدير بالذكر أنه خصص راتب شهري لكل من هؤلاء الموظفين ليتفخوا عن الرشوة وتعينهم على قضاء حوائجهم اليومية.

(3) العمري: التعريف، ص 116-123، وعلي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص 354-355.

(4) القلقشندي: ن م، ص 210.

(5) الماوردي: م س، ص 210.

(6) المقرئ: الخطوط/ ج 3، ص 338، وكان السلطان يعين لها موظف للافتاء. القلقشندي: ن م، ج 4، ص 192، ج 9، ص 255.

(7) ابن كثير: م س، ج 14، ص 47. العيني: م س، ج 22، ق 1، ورقة 51، مخطوط.

(8) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 192، ج 9، ص 255.

(9) الماوردي: م س، ص 210.

القضاة في يومي الاثنين والخميس وقد تولى الناصر محمد بن قلاوون النظر في مثل هذه القضايا عند لجوئه للكر ك في سلطنته الثالثة<sup>(1)</sup>.

وبالنسبة لخلع الخلفاء للقضاة: فقد كانت بيضاء للقاضي الشافعي وحمراء للقاضي الحنفي والحنبلي، وخضراء للمالكي<sup>(2)</sup>. وهكذا نلاحظ إكرام السلطان للقضاة في المناسبات والأعياد بهذه الخلع.

كما اشتملت اختصاصات القضاة: جميع أنشطة الحياة الاجتماعية، بالإضافة الى اختصاصات جماعية ينظرها جماعة من القضاة مثل ولاية الخلفاء والولاطين والأوقاف والعقوق والتعبئة العسكرية للتحريرض على القتال ورفع معنويات الجند<sup>(3)</sup>. واختصاصت مشتركة بين المذاهب مثل الزواج والطلاق والسفر والإيجار وصحبة الولاطين.

ويلاحظ من توسع اختصاصات القضاة أنها كانت لصالح الولاطين بواجهة دينية شرعية لجمع أموال العامة والتجار<sup>(4)</sup> ومصادرة الأوقاف وبيعها<sup>(5)</sup> والتلاعب في العملة<sup>(6)</sup> وكان حصر تركة الولاطين ومنح الخزائن يتم بطريقة جماعية أيضاً<sup>(7)</sup>. كما شملت الأحكام الجماعية عقوبة الإعدام في الجرائم الجنائية<sup>(8)</sup> وإمامة الصلاة أيام فيضان النيل<sup>(9)</sup>.

(1) العيني: عقد، ج2، ق1، ورقة 51، مخطوط. وابن كثير: م س، ج14، ص47.

(2) ابن طولون، مغاظة الخلان، ج2، ص12.

(3) أبو المحاسن: م س، ج7، ص96، 390، 407.

(4) ابن اياس: م س، ج3، ص179.

(5) أبو المحاسن: ن م، ج6، ص179.

(6) المقرئزي: السلوك، ورقة 289، 307ب.

(7) أبو المحاسن: ن م، ج6، ص179.

(8) المقرئزي: ن م، ورقة 164ب، مخطوط. ويقول ابن اياس: م س، ج5، ص92، عندما كان السلطان يريد افساد القضايا الجنائية

كالقتل فإنه يحولها إلى قضاة الشرع وإنما المختص بنظرها أصلاً هم الولاة.

(9) ابن اياس: ن م، ج4، ص172.

وبالنسبة لقاضي القضاة: فكان يرأس الهيئة القضائية ويعين القضاة في جميع ولايات النيابة<sup>(1)</sup>، ويعين قاضيين بالكرك شافعي وآخر حنفي<sup>(2)</sup> وكان قاضي الشافعية أعلى رتبة من الحنفية لذا كان يتولى القضايا الخاصة ببيت المال والأوقاف<sup>(3)</sup>.

ولم يذكر القلقشندي إلا القاضي الشافعي ونرجح الرأي الأول نظراً لاتساع النيابة، وانتشار المذهب الحنفي في شرقي الأردن، ولأن السلاطين كانوا لا يعهدون لقضاة الشافعية في قضايا الإعدام لكره الشافعية لها كما مر معنا واعتدال الأحناف بالنسبة لجميع الأحكام وخاصة هدم الأبنية.

أما عن جلوس القاضي في المحكمة: فكان يجلس بجانبه الكاتب المتمكن من اللغة العربية والخبير بالسجلات<sup>(4)</sup> والنقيب الذي كان يُعرفُ القاضي على الشهود والأمناء الموكلين بأموال الأيتام والغائبين والمخولين بصرفها حسب الأوجه الشرعية، وكان القاضي يختارهم من أهل الصلاح والخير<sup>(5)</sup>. وأما الشهود فكانوا موكلين في النظر في صحة الإجراءات القضائية وليسوا شهوداً كما هو مألوف في الدعاوي القضائية ويجب أن تتوفر فيهم الأمانة والصدق والاستقامة ويخضعون لمراقبة القاضي<sup>(6)</sup>.

وقد لوحظ أن قضاة الشافعية لم يصدرُوا حكماً بالإعدام بطريقة منفردة ويرجح هذا لعدم انتداب السلاطين لهم في القضايا الجنائية<sup>(7)</sup> لكره الشافعية للإعدام فكانوا يحولونها لقضاة المالكية<sup>(8)</sup> ويظهر هذا نوعاً من التحايل غير المباشر في الأمور الشرعية. وكان من الإختصاصات التي انفرد بها قضاة الشافعية النظر في أموال الأيتام وتولية النواب في جميع

(1) القلقشندي: م س، ج9. ابن حجر: الدرر، ج5، ص199. والسبكي: م س، ج5، ص251. والولايات هي ولاية الشوبك وولاية معان وولاية زُغُر وولاية البر. الخالدي: المقصد الرفيع المنشأ، ورقة 154، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة.

(2) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص132.

(3) السبكي: م س، ص78.

(4) ن م، ص85. والقلقشندي: ن م، ج10، ص282.

(5) ن م، ص86، 87.

(6) ن م، ص.

(7) المقرئ: السلوك، ورقة 184 ب، 390 ب، 207 أ، 407 أ، 475 أ، 481 أ، مخطوط بدار الكتب المصرية.

(8) أبو المحاسن: م س، ج7، ص42. يذكر أن الشخص الذي كان يتوقع الحكم عليه بالإعدام يلجأ لأحد قضاة الشافعية لحقن دمه، كما حدث في عديد من المرات.

أقاليم مصر من أسوان الى غزة<sup>(1)</sup> والنظر في أموال الأيتام وتعيين الأوصياء وأمناء الحكم  
المشرفين على إدارة التركات والأوقاف ورؤية هلال الشهر العربي<sup>(2)</sup>.

أما قضاة الحنفية فقد مارسوا أحكام الإعدام بتحفظ<sup>(3)</sup> بالإضافة الى اعتدالهم بالنسبة  
لاحكام هدم الأبنية<sup>(4)</sup>. لذا نلاحظ أن السلاطين أوكلوا معظم القضايا لقضاة المالكية لأن أحكامهم  
كانت توافق مزاجهم في قضايا الإعدام والزندقة وهدم الأبنية<sup>(5)</sup>. ولم يتخصص قضاة الحنابلة  
بنوع معين من القضايا فحكموا في جميع القضايا<sup>(6)</sup>.

### مراسيم تولية القاضي:

أ- طريقة اختيار القاضي: تتلخص هذه الطريقة في ثلاثة اساليب وهي دفع الرشوة للسلاطين  
والوساطة والمصاهرة<sup>(7)</sup>.

ب- حفل تنصيب القاضي: يكون بمقابله المرشح للقضاء السلطان بالقلعة بالقاهرة أو نائبه في  
الشام وطرابلس وغيرها فيؤكلُ إليه المنصبُ فتصبح ولايته للقضاء شرعية باعتباره ولي  
الأمر ثم يكتب له أمر التقليد الذي يحمل اسمه ولقبه ووصايا السلطان له وتمنياته له  
بالتوفيق وقد أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى العديد من التقاليد. ثم يخلع عليه  
السلطان وينزل الموكب القضائي برفقة كبار الأمراء والأعيان من القلعة الى المدرسة  
الصالحية<sup>(8)</sup>. ويلحق بهم عدد من الناس للتهنئة عندما يكون القاضي من أصحاب السمعة  
الحسنة.

(1) ابو المحاسن، ج5، ص627.

(2) المقرئ: السلوك، ورقة 181أ، وابن طولون: قضاء دمشق، ص123.

(3) المقرئ: ن م، ورقة 475.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، ورقة 207أ.

(5) المقرئ: ن م، ورقة 184ب، 467، 459ب. وابن حجر: أبناء الغمر، م س، ج1، ص488.

(6) ن م، ورقة 162ب، مخطوط.

(7) الصيرفي: ن م، ورقة 193أ، مخطوط. ابن اياس: م س، ج4، ص477 و ج3، ص168، 170. أبو المحاسن: ن م، ج6، ص288.

(8) المقرئ: الخطط، ج2، ص373، (طبعة بولاق)، وذلك لاعتبارها المدرسة الأولى التي درُ فيها الفقه على المذاهب الأربعة بعد الدولة

الفاطمية، وقد بناها السلطان الملك الكامل عام 641هـ.

كما وكانت تجري محاكمات صوريّة إشعاراً بتسليم القاضي لمهام منصبه<sup>(1)</sup> أما الألقاب فقد تغيرت من المجلس العالي الى الجانب العالي<sup>(2)</sup> وأول من كُتِبَ له هذا اللقب قاضي القضاة عماد الدين أحمد الكركي<sup>(3)</sup> ثم يتلو القاضي المُعَيَّن إحدى الآيات القرآنية ويفسرها أمام الحضور من كبار الموظفين وذلك بعد الانتهاء من قراءة تقليده<sup>(4)</sup>.

### الحسبة:

ومن شروط هذه الوظيفة الدينية أن يكون المحتسب عالماً بأحكام الشريعة خلوقاً بشوش الوجه رقيق القول، ولاتأخذه بالله لومة لائم من تطبيق الأحكام الشرعية بخشونة<sup>(5)</sup> وقد لوحظ انحطاط هذا المنصب لفساد الإدارة المملوكية نظراً للأموال المفروضة على هذا المنصب<sup>(6)</sup>. وكان للمحتسب سلطة تنفيذية كسلطة القاضي في مجال التعزير إذ كان يجلس في مكان يسمى "دكة المحتسب" وكانت داخل المسجد الأقصى، حيث أتخذ وسيلة للتعزير بالضرب بالسوط والدرّة المصنوعة من جلد البقر أو الجمل المخزوز والمقرعة المصنوعة من أغصان الشجر<sup>(7)</sup>.

وكان المحتسب في بداية عصر المماليك يُختارُ بدقة من قبل نائب السلطنة، وبالنسبة للقدس<sup>(8)</sup> فقد كان فيها محتسب واحد نظراً لصغر حجمها<sup>(9)</sup>.

(1) أبو المحاسن: ن م، ج7، ص141.

(2) القلقشندي: م س، ج5، ص484، ج9، ص255.

(3) أبو المحاسن: م س، ج5، ص358.

(4) الصيرفي: م س، ج1، ص98.

(5) ابن فضل الله العمري: التعريف، م س، ص125. وابن الأخوة، م س، ص52. وابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، الهيئة المصرية

للكتاب 1976، ص10-13.

(6) د. علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ص161.

(7) ابن الأخوة: ن م، ص184.

(8) القلقشندي: ن م، ج12، ص60-61.

(9) بحير الدين الحنبلي: م س، ج2، ص487.



## الخطابة:

فقد اقتصت بالخطبة الدينية في المساجد كما كان يفعل الرسول الكريم والخلفاء من بعده، لذا أعتبرت من أشرف الوظائف الدينية ولأهميتها الاجتماعية في الوعظ والإرشاد وتعديل السلوك فكان يُعَيَّن خطيباً للجمعة والأعياد واستمرت خطابة المساجد حتى يومنا هذا بالإضافة للمؤذنين وخدم المساجد الذين كان يتم تعيينهم من قبل نائب السلطنة<sup>(1)</sup> في مدن وقرى شرقي الأردن<sup>(2)</sup> وفلسطين<sup>(3)</sup> وبالنسبة لخطيب المسجد الأقصى فقد كان يجمع بينها وبين القضاء أو التدريس في المدرسة الصلاحية ببيت المقدس، كما جمع أحياناً معها منصب القضاء والإمامة والإفتاء وذلك لشهرته في العلم والصلاح بين الناس وقد اشتهر أبناء عائلتي بني القلقشندي وبني جماعة بالقدس، كما تولوا مشيخة الخانقاه الصلاحية فكان أحدهم يستمر في نصف وظيفة الخطابة بالمسجد الأقصى، ونصف المشيخة بالخانقاه الصلاحية<sup>(4)</sup>.

**نظر البيمارستان:** فهو ما يشبه المستشفى اليوم وكان يشرف عليه ناظر لإدارته ومراقبة الأطباء<sup>(5)</sup> وتدريس الطب في شرقي الأردن<sup>(6)</sup> وفلسطين<sup>(7)</sup>.

أما الإشراف على أوقاف هذا البيمارستان فكانت من مهام القاضي<sup>(8)</sup>.

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص193.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب "تاريخ الواصلين" ورقة 419، مخطوط. والنوري: نهاية الأرب، ج28، ورقة 231، مخطوط. المقرئ: السلوك، ج1، ص491: ذكر هؤلاء: "أنه كان في الكرك خطيب خاص كما ذكر ابن قاضي شبهه خطيب قرية ملكا بشمال الأردن الشيخ علي عبد الرحمن بن أبي الفتح (ت764هـ). ابن قاضي شبهه: الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج2، ورقة 170، مخطوط. والسبكي: م س، ص34.

(3) المقرئ: ن م، ج4، ق1، ص98. ذكر "فكان للمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الابراهيمي في الخليل خطباء يعينون من قبل قاضي القضاة" ... "وفي أواخر أيام الدولة تدخل السلطان في تعيين إمامة المسجد الأقصى والصخرة". المقرئ: ن م، ج4، ق1، ص110.

(4) مجير الدين الحنبلي: م س، ج2، ص479-486.

(5) القلقشندي: م س، ج4، ص38.

(6) القلقشندي: ن م، ج4، ص191. "فكان في الكرك بيمارستانا بناه الناصر محمد بن قلاوون عام 711هـ/1312م، وعين له ناظراً للإشراف عليه". وابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص228.

(7) البيمارستان الصلاحي في القدس الذي بناه صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس عام 588هـ/1192م قرب كنيسة القيامة، وزودوه بالأطباء والأدوية والعقاقير وأوقف للنفقة عليه. العماد الأصفهاني: الفتح القسي: م س، ص612. ومجير الدين الحنبلي: م س، ج1، ص391.

(8) العماد الأصفهاني: ن م، ن ص. ومجير الدين الحنبلي: ن م، ن ص، ج2، ص102.

ويلاحظ إهتمام الأيوبيين والمماليك بالطب وتدريبه<sup>(1)</sup> للعناية الصحية التي أعطوها أولوية هامة للوقاية من الأمراض.

## مناظر الحرمين الشريفين<sup>(2)</sup>

لقد أوجد الأيوبيون والمماليك هذه الوظيفة الخاصة بحرمي القدس والخليل حيث يتولاها أمير كبير برتبة طبخاناه<sup>(3)</sup> وكان تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة مرفق بخلع سلطانية يلبسها عند تعيينه ودخوله القدس حيث يستقبله نائب السلطنة والقاضي وأعيان النيابة ثم يدخل الى المسجد الأقصى ليقرأ مرسوم السلطان بذلك<sup>(4)</sup>.

وكان من مهامه الإشراف على الحرمين في الخليل وبيت المقدس وترميمهما، والإشراف على أوقافهما<sup>(5)</sup> بالإضافة إلى احتفاظه بأموال الأوقاف الزائدة<sup>(6)</sup> ودفع رواتب العاملين فيها، وكذلك الإشراف على موارد المياه التي تمتد الحرمين الشريفين في القدس والخليل، مثل قناة السبيل التي كان الناظر ومعه العمال والصناع والآلات يصلحونها من وقت لآخر<sup>(7)</sup>. وكان نائب القدس يقوم بهذه المهام منذ عام 777هـ/1375م<sup>(8)</sup>.

(1) بنيامين التيطلي: رحلته، ص 134، 135. فقد ذكر عدد الأطباء في أحد هذه البيمارستانات الأيوبية ستين طبيباً، وقسم البيمارستان الى أربعة أقسام، قسم الجراحة وقسم النساء، وقسم لرمد العيون، وقسم للحميات.

(2) الحرمين الشريفين: هما مكة والمدينة من جهة وحرمي القدس والخليل من جهة أخرى. بحير الدين الحنبلي: م س، ج 2، ص 271، حيث ذكر ناظر الحرمين الشريفين القاضي شرف الدين عبد الرحمن عام 697هـ/1297م المعين من قبل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين.

(3) أنظر: الحنبلي: ن م، ج 2، ص 270. ذكرنا ناظر الحرمين في فلسطين الأمير علاء الدين ايدغوي الصالحى زمن الظاهر بيبرس. وانظر: المقرئ: السلوك، ج 3، ص 221، 224: إذ ذكر ناظر الحرمين في القدس والخليل الأمير أحمد بن آل ملك عام 775هـ/1373م، وفي عام 780هـ/1378م، وليها الأمير بوري الأحمدى، المقرئ: ن م، ص 338.

(4) بحير الدين الحنبلي: ن م، ج 2، ص 336.

(5) المقرئ: ن م، ج 4، ق 1، ص 81.

(6) الحنبلي: ن م، ج 2، ص 275.

(7) ابن فضل الله العمري: م س، ص 108-109. والحنبلي: ن م، ج 2، ص 605، 614.

(8) السخاوي: التبر المسبوك، ص 208، 251.

3. **مشيخة المدرسة الصلاحية:** في بيت المقدس نسبة الى صلاح الدين الأيوبي الذي بنى المدرسة الصلاحية ببيت المقدس عام 583هـ/1187م<sup>(1)</sup>.

وقد خصصها لتدريس المذهب الشافعي، ويتم تولية الشيخ المشرف عليها بمرسوم سلطاني من القاهرة<sup>(2)</sup> حيث يأتي هذا الشيخ في المرتبة الثالثة بعد نائب السلطنة وناظر الحرمين وكان يعهد لهذا الشيخ أحياناً بمنصب قاضي القضاة في بيت المقدس<sup>(3)</sup> ويجمع بين مشيخة الصلاحية ونظر الحرمين الشريفين أحياناً أخرى<sup>(4)</sup> وكانت مهمته الإشراف على جماعة المدرسين والمعبدن والطلبة والخدام وغيرهم وتوفير كل ما يلزمهم من مأكل وملبس ورعاية أوقافها وتنميتها. لذا كان لمشيخة الصلاحية أهمية خاصة لدى السلاطين، ويتضح ذلك من الحفاوة الكبيرة عند استقبال الشيخ في القاهرة حيث يصطحبه أمير كبير الى قلعة السلطان في الجبل حيث يجلس عن يمينه<sup>(5)</sup>.

#### 4. **مشيخة الخانقاه الصلاحية:**

وكانت مكاناً للصوفيين والمجاورين ببيت المقدس، حيث أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بعد فتحه القدس عام 585هـ/1189م وما زال بناؤها موجوداً حتى اليوم<sup>(6)</sup>. وقد استمرت هذه الوظيفة في عهد المماليك، حيث عين شيخ الخانقاه بمرسوم سلطاني من القاهرة<sup>(7)</sup> وكان يتناوبها شخصان أحياناً وتقسم مناصفة بين شخصين أحياناً أخرى<sup>(8)</sup>. كما وجدت وظائف مماثلة لمشيخة الخانقاه الصلاحية في بيت المقدس كمشيخة المغاربة ومشيخة

(1) العماد الأصفهانى: م س، ص 145، وما بعدها. الحنبلي: م س، ج 2، ص 41، ويذكر أنه بناها مكان كنيسة حنة وهي والدة مريم العذراء حيث كانت تسكن في مكان هذه الكنيسة داخل أسوار القدس وخارج الحرم في الشمال قرب باب الأسباط.

(2) الحنبلي: ن م، ج 1، ص 41.

(3) ن م، ج 2، ص 283.

(4) المقرئى: السلوك، ج 4، ص 440، 483، كما جمع بعضهم بين مشيخة الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى أو نصف خطابة المسجد الأقصى مثل: محب الدين بن جماعة. الحنبلي: ن م، ج 2، ص 298، وكان البعض يعين محله في نصف المشيخة أحد شيوخ القدس بينما يظل هو في القاهرة. المقرئى: ن م، ج 3، ق 2، ص 858. الحنبلي: م س، ج 2، ص 304.

(5) المقرئى: ن م، ج 4، ق 1، ص 312.

(6) محمد كرد علي: م س، ج 6، ص 154.

(7) الفلقشندي: م س، ج 12، ص 105، 106.

(8) مجير الدين الحنبلي: ن م، ج 2، ص 485-486.

الأمينية والتكزية حيث كان شيخها يعين من قبل نائب السلطنة بدمشق، ثم أصبح تعيينه من نائب القدس عندما أصبحت نيابة. وقد تولى مشيختها أكثر من شخص واحد في وقت واحد كالصلاحية<sup>(1)</sup>. كما كانت هناك وظائف دينية أخرى مألوفة لجميع المسلمين مثل أئمة المساجد والمؤذنين والمكبرين والمؤقت والقارئ كما هي الحال في معظم المساجد الكبيرة في العالم الاسلامي.

---

(1) ن م، ج2، ص579-583.

## السياسة الداخلية

### مقدمة:

لقد اخترت نموذجين للسياسة الداخلية أيام السلطان بيبرس<sup>(1)</sup> المؤسس لدولة المماليك (648-783هـ/1250-1382م بدءاً من شجرة الدر وإيبك وقطرز والسلطان الناصر محمد بن قلاوون المؤسس الثاني والحقيقي لدولة المماليك علماً بأن استقرار دولة المماليك البحرية ثم بعد حكم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وولديه خليل والناصر محمد.

فأما الظاهر بيبرس فأدرك أهمية شرقي الأردن كجزء متمم لمملكته فبنى جسراً جديداً على نهر الأردن تسهيلاً لحركة جيوشه بين عجلون وسوريا<sup>(2)</sup> كما بنى سلسلة من محطات الحمام الزاجل والأبراج لنقل الأخبار بالإشارات بين مصر والعراق مارة بقرى الطرة واربد وعجلون وذلك خلال اثنتي عشرة ساعة<sup>(3)</sup> بالإضافة الى ترميم القلاع المهمة كقلعة الرقبض وقلعة الصلت وقلعة الكرك الى أن توفي عام 675هـ/1277م حيث دب الصراع بعده بين امراء المماليك على السلطة الخاصة الى أن استطاع خليل بن قلاوون أن يوجه الضربة القاضية للصليبيين في فلسطين وسوريا عام 689هـ/1291م بطردهم من طرابلس وعكا.

<sup>(1)</sup> نسب الظاهر بيبرس: ولد في سنة 622هـ/1223م في بلاد القبحاق وبيع بدمشق للامير علاء الدين أيدكن البندقداري وقيل أنه بيع بسيواس. المقرئ: السلوك، ج1، ص574، Enc. Isl. Art, Baibars, I, P 350, 436.

وتوفي يوم الخميس السابع عشر من محرم عام 676هـ/1277م ببقايا سم كان قد قدمه لسم الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن المعظم عيسى بن العادل بن أبي بكر بن أيوب غير أنه لشجاعته واقدامه في المعارك فاراد بيبرس الخلاص منه، وقد بلغ من العمر ما يزيد على خمسين عاماً وحكم حوالي سبع عشرة سنة وشهران واثنين عشر يوماً المقرئ: السلوك، ج1، ص636.

وكان تبعاقي الأصل، طويل القامة، اسمر اللون في عينيه زرقة وبأحدى عينيه لقطة صغيرة صوته جهور، شجاع أحضره تاجر الى حماة وعرضه على صاحبها الملك المنصور محمد فلم يعجبه: انظر ابن واصل: مفرج الكروب، ص404) ثم بيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم رد الى صاحبه لبياض في إحدى عينيه، فاشتره علاء الدين أيدكن البندقداري - مملوك الملك الصالح الأيوبي - فترقى في الخدم وتنقلت به الأحوال الى ملك مصر والشام وكانت الأمراء تخافه حتى أنهم لم يجرؤا من الدخول عليه عند مرضه الا بأذنه وكان شجاعاً مقداماً يتفقد أحوال ممالكه بنفسه، وقد بلغ عدد عساكره اثني عشر ألف ثلثها بمصر وثلثها بدمشق والثلث الآخر في حلب وكان عند قيامه بالغزو يخرج معه أربعة آلاف يسمون بجيش الزحف، فان احتاج استدعى أربعة أخرى، وأن اشتد به الأمر استدعى الأربعة آلاف التالية ومن المدن التي فتحها: قيسارية وارسوف وهدمها؛ وفتح صفد وعمرها، كما فتح طبريا ويافا والشقيف (شقيف ارنون) وملك دمشق وعجلون والصلت والكرك والشوبك. وسائر اقليم مصر والشام حتى وصفه بعض الشعراء الروم.

<sup>(2)</sup> ويوجد على الجسر كتابات تظهر تاريخه 671هـ/1273م، وقد شاهد الباحث ذلك.

<sup>(3)</sup> فردريك بيك، م.س. ص155-156.

ولكن المغول لم يدعوهم ينعموا بالراحة والاستقرار بعد زوال الخطر الصليبي الذي صادف صراع الأمراء المماليك على الحكم بعد مقتل المنقذ خليل بن قلاوون سنة 691هـ/ 1293م وآلت الكرك الى الناصر محمد بن قلاوون الذي ابتداء حكمه للمرة الثالثة عام 719هـ/ 1318م واهتم بإعمار شرقي الأردن حيث أعاد بناء قلعة الشوبك وجدّد بناء حصن العقبة وبني مقاماً على قمة جبل هارون لايزال قائماً حتى الآن<sup>(1)</sup>.

وقد ساعد على الاستقرار سياسة الناصر محمد بن قلاوون الذي كان يصدر مراسيم لاعفاء الناس المتهربين من دفع الضرائب كما أكتسبه شعبية كبيرة ضد منافسيه<sup>(2)</sup> هذا بالإضافة الى اهتمام أوائل المماليك بالشؤون القضائية والدينية والتعليمية كما سيمر معنا وبعد وفاه الناصر محمد عام 750هـ/ 1349م حدث صراع على الحكم بين أبنائه حتى مكث ابنه اسماعيل ثلاث سنوات في الكرك، واستمر الصراع واشتعلت الفتن والثورات حتى عام 783هـ/ 1382م حينما غنم برقوق العرش كأول سلاطين الشراكسة أو البرجية الذين حكموا مصر حوالي 135 عاماً، حيث ظلت الأردن جزءاً من المملكة المصرية، لكنها فقدت أهميتها كحلقة اتصال بين سوريا ومصر بعد خروج الصليبيين من فلسطين.

وقد ترجم سلاطين المماليك سياستهم الدينية الى واقع ملموس لكي يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرتهم اليهم، لذا ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية في مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة النقدية مثل "تصير أمير المؤمنين" و "سلطان الاسلام والمسلمين" و"محي العدل في العالمين" و "ظل الله في أرضه، حامي الحرمين الشريفين والقبليتين، القائم بسنته وفرضه" وأعلى هذه الالقاب الدينية كان "قسيم أمير المؤمنين"<sup>(3)</sup>.

وهذا كله أيضاً للتأكيد على الشرعية التي تمتعوا بها بعد احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/ 1261م من قبل الظاهر بيبرس عندما بايع بحضور العلماء والأعيان والشهود وجميع كبار الدولة وكبار التجار أبا أحمد العباس أحمد ولقبه بالمستنصر الذي قلده فيما

<sup>(1)</sup> توجد لوحة معلقة فوق مدخل قبر هارون على أن سمعان بن الناصر محمد قلاوون بنى هذا المقام عام 739هـ/ 1338م.

<sup>(2)</sup> حيث أعفى الناس في بلاد الشام عام 702هـ/ 1302م من الضرائب الباهظة عليهم. القلقشندي: م.س. ، ج13، ص28-30.

<sup>(3)</sup> القلقشندي: م ن، القاهرة، 1913، المطبعة الأميرية ، ج6، ص108-124. وعبد المنعم ماجد: دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، طبع القاهرة 1970م، ج1، ص29.

بعد البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفار<sup>(1)</sup> ثم أحيائها مرة ثانية عام 661هـ/1263م بعد مقتل الخليفة العباسي الأول في حربه مع التتار في العراق كما مر معنا. ولقب بالحاكم بأمر الله، فقلده أمور البلاد والعباد ولقبه بـ"قسيم المؤمنين"<sup>(2)</sup> لذا اعتبر بيبرس أول من تلقب بهذا اللقب من قبل خليفة. وكانت استفادتهم من إحياء الخلافة العباسية في القاهرة الحماية الروحية حتى الفتح العثماني.

### المراسم الملكية السلطانية:

كان من العادة أن يركب السلطان زمن الأيوبيين والمماليك بمصر بعد وفاء فيضان النيل ثلاث مرات متتالية في كل سبت، حيث ينزل من قصره أول النهار من باب الاصطبل وهو راكب على الهيئة المذكورة في العيد<sup>(3)</sup> بدون حمل الجتر على راسه، وتحمل الغاشية أمامه في أول الطريق وآخره، ويصل إلى الميدان لينزل في قصوره، وينزل الأمراء الذين يرفقته إلى منازلهم على قدر طبقاتهم، ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر برفقة الأمراء، ويستمر في لعب الكرة إلى آذان العصر، ثم يركب على الهيئة التي كان عليها في أول النهار، ويذهب إلى قصره.

أما المقصود بالميدان الأكبر فهو الميدان السلطاني الذي بناه الملك الصالح نجم الدين أيوب في باب اللوق<sup>(4)</sup>.

وعندما استقبل بيبرس الأمير أبا القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستنصر بالله العباسي -الملقب بالزراطيني (لقبه به العامة)<sup>(5)</sup>- مع جماعة من عرب بني مهنا بعد هربه من بغداد أثر مقتل الخليفة المستعصم بالله على يد هولاكو عن طريق دمشق إلى مصر حيث بالغ السلطان في استقباله بصحبة وزيره بهاء الدين بن حنا

<sup>(1)</sup> أبو شامة: الذيل على الروضتين، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، ط2، نشر دار الجليل، بيروت 1974م، ص 230، والمقريزي: السلوك، ج1، ص451، 457.

<sup>(2)</sup> السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن، ص 451، 1327هـ، ج1، ص 87. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، تصحيح بوليس راويس، باريس، 1894، ص89. وأحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص 190.

<sup>(3)</sup> القلقشندي: م س، ج4، ص46، 47.

<sup>(4)</sup> ن م، ج3، ص378.

<sup>(5)</sup> ابن تغري بردي: م س، ج6، ص777، والسلوك ج1، ص448.

وقاضي القضاة وسائر الأمراء وجميع العسكر وجمهور أعيان القاهرة ومصر ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين وأعيان الصوفية والتجار والشيخ عز الدين بن عبد السلام فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد وجلس السلطان متأدياً معه بغير كرسي ولا طراحة ولا مسند وشهد العربان والقضاة بأن الأمير هو ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين<sup>(1)</sup> وبايعوه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والشيخ العز بن عبد السلام وبعد البيعة قلد الإمام المستنصر بالله الظاهر ببيرس البلاد الاسلامية<sup>(2)</sup>.

وكان الظاهر ببيرس قد عزم على إعادة الخليفة لبغداد، فسافر معه لدمشق، ولكن نصحه أحد السلاطين بأنه إذا استقر الأمر له في بغداد نازعك وأخرجك من مصر<sup>(3)</sup> وقد قُتل الخليفة قرب هيت سنة 660هـ/1262م على يد المغول ونجا الأمير أبي العباس أحمد الذي قدم لمصر وتلقب بالحاكم بالله ومعه بعض الأمراء العرب مثل ناصر الدين بن مهنا<sup>(4)</sup>. بعد ان شغل منصب الخلافة مدة ثلاث سنين منذ مقتل المستعصم بالله فكان المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس. وقد لقب بلقب أخيه المستنصر باني المدرسة المستنصرية في بغداد.

### مراسيم تنصيب الخليفة للسلطان ببيرس:

وفي يوم الاثنين رابع شعبان سنة 659هـ/1261م ركب السلطان ببيرس الى خيمة ضربت في البستان الكبير خارج القاهرة، ومعه أهل الدولة، وحملت الخلع بصحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجي، وخادم الخليفة المستنصر بالله، فدخل السلطان الى خيمة أخرى، وفيضت عليه الخلع الخليفية، وخرج بها: وهي عمامة سوداء مذهبة مزركشة، وذراعة<sup>(5)</sup> بنفسجية اللون، وطوق ذهب، وقيد من ذهب عمل في رجليه، وعدة سيوف تقلد منها واحداً، وحملت البقية خلفه، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران وتُرْس، وقُدَمَ له فرس أشهب في عنقه مشدة

(1) المقرئ: السلوك، ج 1، ص 449.

(2) أبو الفداء: م س، ص 147.

(3) المقرئ: ن م، ج 1، ص 462.

(4) المقرئ: ن م، ج 1، ص 467.

(5) الذراعة: جبة مشقوقة من الأمام، مصنوعة من الصوف، والجمع دراريع (محيط المحيط). المقرئ: ن م، ص 452 والذراعة أيضاً صدرية تلبسها البنات.



سوداء<sup>(1)</sup> وعليه كبرش<sup>(2)</sup> أسود وطلب الامراء واحداً بعد واحد وخلع عليهم، وخلع على قاضي القضاة تاج الدين، وعلى صاحب بهاء الدين وعلى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الانشاء، ونصب منبراً، فصعد عليه ابن لقمان بعد ما لبس ثوب حرير أطلس أصفر، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان وهو من إنشائه ونصه بعد البسملة: "الحمد لله الذي اصطفى الاسلام بملابس الشرفاء، وأظهر بهجة دوره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف، وشيدها وهي من علائه حتى انسى ذكر ما سلف، وقبض لنصره ملوكاً اتفق على طاعتهم من اختلف ... أحمدته على نعمته... وأمير المؤمنين يعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع. وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمينية والفراتية. وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حتى أصبحت بالمكان فرداً ولا جعل منها بلداً من البلاد، ولا حصناً من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى، فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملاً." والله يمدك بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمه فإن النعمة تستمر بشكره<sup>(3)</sup>.

#### الولاية في عهد بيبرس:

في سنة 659هـ/1261م جهز حملة بقيادة الأمير بدر الدين ايبك الأيدمري للذهاب الى الشوبك في الأردن وتسلموها من نواب الملك المغيث فتح الدين واستقر في نيابته الأمير سيف الدين بلبان المختصني. وفي سنة 660هـ/1262م وقع الصلح بين السلطان بيبرس وبين الملك المغيث صاحب الكرك<sup>(4)</sup>.

وفي رجب من تلك السنة قدم بغداد جماعة من مماليك الخليفة المستنصر<sup>(5)</sup> الذين تأخروا بالقاهرة بعد مقتله، وعلى مقدمتهم الأمير سيف الدين سلاّر، حيث اكرمهم السلطان وأعطى الأمير سلاّر إمرة خمسين في الشام ونصف مدينة نابلس، ثم نقله الى إمرة طبلخانا بمصر. وفي

(1) الفلقشندي: م س، ج 4، ص 8.

(2) ن م، البردعة: تحت سرج الفرس.

(3) المقرئ: م س: ج 1، ص 457، 459.

(4) المقرئ: ن م، ج 1، ص 468.

(5) أبو الفداء: م س، ص 148.

عام 661هـ/ 1263م حضر الأمير أبو العباس أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد المسترشد بالله العباسي، إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل، وجلس إلى جانب السلطان، وقُرئَ نسبه على الناس بعد ما ثبت على قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ولُقّب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين<sup>(1)</sup> وبايعه الظاهر بيبرس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها، وقد خطب الخليفة بالناس يوم الجمعة وحثهم على جهاد التتار ومدح السلطان بيبرس<sup>(2)</sup> وقد دُعي له على منابر القاهرة وأبلغ الولاية بذلك فكان الخليفة التاسع والثلاثين من خلفاء بني عباس وآخر ملك التتار بركة وكان عدواً لهولاكو.

### البريد:

لقد رتب الظاهر بيبرس البريد في سائر الطرقات بانفاقه أموالاً على ترتيبه حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل في القاهرة إلى دمشق ماراً بالأردن وفلسطين في أربعة أيام ويعود في مثلها. وهكذا أصبحت أخبار الممالك ترد إليه في كل أسبوع مرتين ويتحكم في سائر الممالك من العزل والولاية وهو مقيم بقلعة الجبل<sup>(3)</sup>.

كما استخدم اصطلاح أُمير<sup>(4)</sup>: في المكاتبات السلطانية بمثابة علامة سرية متفق عليها للاطمئنان على صحة ما يتبادل من مراسلات أو مشافهات بين طرفين. وحملوا البريد في القوطة<sup>(5)</sup>.

(1) ن م، نفس الصفحة، المقرئ: السلوك، ج1، ص477. ويلاحظ في كلام أبي الفداء نوع من الغمز على أنه كان قد شكك في نسب الخليفة السابق المستنصر وهذا نصها: "وفي أواخر ذي الحجة من هذه السنة 661هـ جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً، واحضر شخصاً من نسل بني العباس يسمى أحمد بعد أن ثبت نسبه، وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين...." وقد قيل في نسبه أبو العباس أحمد بن الأمير محمد بن الحسين بن أبي بكر بن الحسن بن علي القي بن الحسن بن الراشد بن المسترشد القي نسبة إلى قبة الكوفة "الرجة": ياقوت : معجم البلدان ج4، ص33.

(2) المقرئ: ن م، ج1، ص478-479، "ذكر نص الخطبة".

(3) المقرئ: ن م، ج1، ص446-447، محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص45.

(4) الأماير: جمع إمارة بفتح الهزرة: ومعناها العلامة المكتوبة أو الشفوية التي تتخذها الجهات الرسمية وغيرها بمثابة علامة سرية متفق عليها. المقرئ: السلوك، ج1، ص529.

(5) ن م، ص578. والقوطة: مرادف البقعة وهي قطعة من القماش الحريري الاسكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان.

ومن أهم الدواوين في عهد بيبرس التي تميز بها عن الدواوين السابقة : ديوان المفرد<sup>(1)</sup> والذي يرجع تأسيسه الى أيام الفاطميين، وكانت تخرج منه زمن الدولة المملوكية نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعلقي وكسوة. كما تميز عهده ببعض الموظفين البارزين أمثال قصة دار<sup>(2)</sup>. وجماعة كتاب الدرج<sup>(3)</sup> والدست<sup>(4)</sup> وأمير علم<sup>(5)</sup>. ومن المراسيم الاقطاعية أيضاً المثالات<sup>(6)</sup>. كما سميت ضرائب الغرامات التأديبية في زمنه بالجنايات<sup>(7)</sup>.

(1) القلقشندي: م س، ج 3، ص 357، وابن شاهين: م س، ص 107. والمفردة: نوع من عساكر حلقة السلطان، ويظهر أنهم افردوا بهذا الاسم لتبعيتهم مباشرة لديوان المفرد المذكور: ن م، ج 1، ص 480.

(2) القلقشندي: ن م، ج 13، ص 154. قصة دار: هو الموظف الذي يرفع صاحب الشكوى أو الحاجة شكواه الى السلطان بواسطته، والقصة: هي الطلب أو الالتماس، وقد تكون القصة خاصة بطلب تحديد إقطاع انتهى عقده، أو بارتجاع إقطاع انتقل عن صاحبه لسبب من الأسباب، فتعرض الحالة أولاً على ناظر الجيش، ليكشف عنها قبل عرضها على السلطان.

(3) القلقشندي: ن م، ج 5، ص 464-465. أما كتاب الدرج: فهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كاتب الدست، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقليد والتوقيع والمراسيم والمناشير والامان والأمانات، ونحو ذلك، وسما كتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات في درج الورق، والمراد بالدرج: الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، ويجوز أن يُطلق عليهم كتاب الانشاء، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين وصارت مهمتهم محصورة في خلاص الحقوق، وصغار التوقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب في القطع الصغير. أما كتاب الدست فهم المتصدرون لكتابة المهم من كتابة الدرج كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التوقيع.

(4) القلقشندي: ن م، ج 13، ص 137. الدست: من موظفي ديوان الانشاء، وكذلك كتاب الدست. فكتاب الدست: هم الذين يجلسون مع كاتب السر. يجلس السلطان بدار العدل في المواكب حسب ترتيب منازلهم، بموجب الأقدمية ويقرون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر ويوقعون على القصص كما توقع من كاتب السر. وسما بكتاب الدست إضافة الى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه. وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الانشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم.

(5) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 22، ج 5، ص 456، 463. أمير علم: يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر الاعلام السلطانية والعليلخانا، وكانت العادة أيام الممالك أن يكون المسؤول عنها من طبقة أمير عشرة، وكان هناك وظيفة أخرى اسمها "علم دار" وصاحبها هو الذي يحمل العلم في ركاب السلطان.

(6) القلقشندي: ن م، ج 13، ص 153 وما بعدها. والمثالات: جمع مثال: وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية ائذاناً باعطاء أحد الممالك اقطاعاً من الاقطاعات الخالية، وكان المثال يخرج من ديوان الجيش، ويقدمه ناظر هذا الديوان الى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة، أرسله ناظر ديوان الجيش الى ديوان النظر لتسجيله وحفظه "ويكتب بذلك "مربعة" فيها اسم المعين على الاقطاع، ورتبته وتفصيلات أخرى، ثم ترسل المربعة الى ديوان الانشاء، فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع كأخر أدوار تلك العملية.

(7) المقريري: ن م، ج 1، ص 488.

## علاقة الظاهر بيبرس بالأمير بالله

بعد أن استقر بيبرس في غزة في موسم الصيد في الحادي عشر من ربيع الأول سنة 661هـ/1263م<sup>(1)</sup> قدم عليه جماعة من الأيوبيين وعلى رأسهم أم الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك، فأنعم عليها ومن معها، وطلب منها حضور ابنها إلى السلطان<sup>(2)</sup> وعادت إلى ابنها بالكرك، ومن جملة ما زودها به من صيده خمسة عشر حملاً، وسار معها الأمير شرف الدين الجاكي المهندار، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر<sup>(3)</sup>. وحضر الملك المغيث من الكرك فأظهر الاحتفال به وخدعه، وكتّم أمره عن الناس، فلما وصل بيسان ركب السلطان للقاءه<sup>(4)</sup> في السادس عشر من جمادي الأول سنة 661هـ/1263م واصطحبه إلى الدهليز السلطاني وقبض عليه، واحضر بيبرس الملك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان من دمشق والشهود والأجناد ورسّل الفرنج وأطلعهم على كُتُب الملك المغيث إلى التتار وكتب التتار إليه، وأخرج فتاوي الفقهاء بقتله، وأحضر المراسلين بين المغيث وهولاكو<sup>(5)</sup>. ثم كتّب السلطان لأهل الكرك يَعيدهم ويُحذّرهم وأرسل الأمير بدر الدين بيسرى والأمير عز الدين الأستاذ بالكتب والخلع والأموال، وسجن المغيث في قلعة الجبل بمصر، ثم قتله عام 662هـ/1264م<sup>(6)</sup> وأطلق حواشيه وبعث بحريمه إلى مصر وأطلق لهم الرواتب<sup>(7)</sup>. ونزل في خيمة الأمير شمس الدين سنقر الرومي الذين أخرج موميا وسقاه. كما خلع على أمراء العربان من العابد وجرم وثعلبة في بلاد

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ص481. "حيث نزل في خيمة الأمير شمس الدين سنقر الرومي الذي أخرج موميا وسقاه"، والموميا: لفظة يونانية الأصل-مادة دواء يستعمل شراياً وضماًداً ويستخدم لجر العظام المكسورة وهي مادة تتحدّر من بعض الجبال مع الماء ويفوح رائحة تشبه رائحة الزفت كما تطلق على السائل الأسود داخل حجارة في صنعاء اليمن فتغلى الحجارة والسائل لتقذف ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السيالة. ن م، ن ص.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ص412.

(3) المقرئ: ن م، ج1، ص481.

(4) ابن واصل، ن م، ص412.

(5) ابن واصل، ن م، ص413، ورد في أحوبة الملك المغيث إلى ملك التتار هولاكو يعده فيها باقظاعه من بصرى إلى غزة مقابل عشرين ألف فارس تزي ليفتح بها مصر.

(6) المقرئ: ن م، ج1، ص492، حيث قال لأهل الكرك: "اعلموا أنكم قد أسأتم إلي في الأيام الماضية وقد غفرت لكم ذلك لكونكم ما خاتمتم عليها أصحابكم وقد ازدادت فيكم محبة".

(7) ن م، ج1، ص482-483.

التركمان وضمنهم البلاد والزمهم بالعداد<sup>(1)</sup>، وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه، كما كتب إلى ملك شيراز وأهلها وإلى عرب خفاجه يستحثهم على قتال هولوكو، بعد هزيمة ملك التتار بركة أمامه. كما أحضر الأمير عيبة وغيره من عرب بني مهدي<sup>(2)</sup> وألزمهم ترك البلاد وخفروا إلى أرض الحجاز لحراسة طريق الحج من مصر للحجاز بالإضافة لتحصين الكرك. كما كتب عام 662هـ/1264م إلى أمرائه في الشام المخلصين بتوريث أبنائهم حيث ورث أبناء الأمير شهاب الدين القيمري نائب السلطنة بعد وفاته جميع ما يملك<sup>(3)</sup> فلما تخلص من الملك المغيـث توجه إلى الفرنج الذين لم يحترموا الهدنة فأمر بإحضار البيوت الفرنجية<sup>(4)</sup> فحضر رسل من عندهم إلى السلطان عند وصوله إلى بلاد الشام ومطالبهم ببرد ما أخذوه من البلاد وإعادة أسرى المسلمين<sup>(5)</sup>.

ثم أمر بإخراج الرسل -وكانت العادة عدم إيذاء الرسل- ثم وجه الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة -أجل مواطن عبادتهم- فهدمها، ولم يقاومه أحد، كما وجه الأمير بدر الدين الأيدمرى إلى عكا فاقتحموا أبوابها وعادوا، ثم أغاروا ثانية على مواشي الفرنج وغنموا منها الكثير.

وفي ليلة السبت الرابع من جماد الآخرة سنة 661هـ/1263م خرج السلطان بعساكره من منزله الطور لحصار عكا، فهدم الأبراج التي حولها وحرق الأشجار حتى خفت الرؤيا من الدخان وفتحوا عكا ثم سار إلى الناصرة ودخلها ثم عاد إلى الصفة التي بناها قبالة الطور، كما عين الأمير ناصر الدين القيمري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ورحل السلطان من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة متوجهاً إلى القدس حيث خص المسجد منها بخمسة آلاف

(1) العداد: هنا زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركمانية، وكان التركمان يدفعون للسلطان سنوياً عشرة آلاف من الغنم زكاة أغنامهم. المقرئى: م س، ج1، ص481.

(2) القلقشندي: م س، ج4، ص121-123، 242-243، والمقصود هنا عرب بني عقبة القاطنون حول الكرك وهم أحد فروع بني مهدي.

(3) المقرئى: ن م، ج1، ص509.

(4) المقصود بالبيوت هنا البيوت الصليبية الباقية بالشام مثل بيت الإسماعيليين وبيت الداوية وإمارة يافا وإمارة انطاكية (ابن واصل، م س ص414، والمقرئى: ن م، ص484.

(5) ن م، ج1، ص484-486، ذكر "الحوار الذي دار بين بيبرس ورسـل الفرنجة، وذل الرسل وطلبوا الرحمة وعدم نقض الهدنة السابقة مع المسلمين فقال لهم كان هذا قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء ووصول العساكر إلى هنا".

درهم كما أمر ببناء خان خارج القدس، ونقل إليه من مصر باب القصر المعروف بباب العيد<sup>(1)</sup>. ثم سار للكرك حيث وصلها يوم الخميس ثلاث وعشرين جمادى الآخرة من نفس السنة بعساكره وأحضر السلالم الخشبية من الصلت والحجارين والبنائين والنجارين والصناع من مصر ودمشق، وكتب إلى من في الكرك فخافوا، ثم تبادل الرسل بينه وبين الكرك حيث تم الاتفاق على أن يعطي الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث إمرة مائة فارس، فوافق على ذلك فاستقبله أولاد المغيث وقاضي المدينة والوجهاء ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة، فطمأنهم السلطان بقسمة لهم وإرضائهم، ودخل الكرك في الرابع والعشرين ليلة الجمعة 661هـ/1263م بعد أن أرسل الأمير عز الدين أيمن الاستادار والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا لتسلم القلعة ودعي له صباح الجمعة على الأسوار ونُصبت سناجقه على الأبراج ودخل القلعة ورتب أمر جيش الكرك. وانفق عليهم خاصاً وأنعم على أولاد الملك المغيث بجميع ما كان في القلعة من مال وقماش وآثاث وصلى بها صلاة الجمعة، وبعث إلى العزيز بن المغيث والطواشي بهاء الدين صندل، والامير شهاب الدين صعلوك أتاكبه بالخلع والقماش وكتب بالبشارة إلى مصر والشام بأخذ الكرك وإرسال الغلات إليها. كما رتب الإقطاعات للعربان والأجناد فكتب حوالي ثلاثمائة منشور وسلّمت إلى أصحابها بعد أن أقسموا يمين الولاء أما م السلطان وكنيت لأهل الكرك تواقع بمناصب دينية ودنيوية<sup>(2)</sup>.

ثم أمر باعتقال الأمير سيف الدين الرشيد الذي فوض إليه أمر المملكة بغيابه. واعتقل معه الأمير عز الدين إيبك الدمياطي والأمير شمس الدين أقوش البرلي، ولورود أخيار تفيد بأن سيف الدين نصح المغيث بعدم المجيء إلى القاهرة وأمر أهل الكرك بأن لا يسلموا الكرك لبيبرس<sup>(3)</sup>.

ثم وردته رسل ملك التتار بركة تطلب النجدة لمحاربة هولاءكو حيث أعلنوا إسلام بركة وقومه في الأول من رجب عام 661هـ/1263م وخطب الخليفة الحاكم بأمر الله في الثامن

<sup>(1)</sup> المقرئ: المواظ والاعتبار، ج1، ص435، والقلقشندي: م س، ج3، ص350 وهذا الباب كان أحد أبواب القصر الكبير الفاطمي وقيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيدين للصلاة.

<sup>(2)</sup> المقرئ: ن م، ج1، ص492

<sup>(3)</sup> ابن واصل، م س، ص432.

والعشرين من شعبان بحضور رسل الملك بركة ودعا للسلطان والملك بركة وصلى بالناس. وأكرم بيبرس رسل الملك بركة وأمر بالدعوة له على المنابر في المدينة والقدس ومصر بعد الدعاء له<sup>(1)</sup>.

وفي شهر ذي القعدة سنة 667هـ/1269م مرّ السلطان بيبرس بالكرك في طريقه الى الحج وبرفقته الأمراء والعسكر دون الجهر بذلك<sup>(2)</sup>. وتابع سفره الى الشوبك خفية حتى وصل الى المدينة المنورة في الخامس والعشرين من ذي القعدة وكسى الكعبة<sup>(3)</sup>، وأحسن الى أمير مكة. وبعد ان أكمل مناسك الحج مرّ بالكرك خفية أيضاً، ولم يعلم أحد بوصوله الا عند قبر جعفر الطيار بموتة فدخل الكرك وهو لابس عباءة وبات فيها ليلة واحدة<sup>(4)</sup>. كما صلى عام 668هـ/1270م الجمعة بالكرك وسار لدمشق دون الاعلان عن ذلك ويلاحظ على سياسته هذه التشدد في الحيلة والحذر من أعدائه الطامعين في الملك فكان لا يثق بأحد من أمرائه.

كما نلاحظ تفقّد الولايات بنفسه باستمرار للإطمئنان وكسب الولاء كما كان يقود المعارك بنفسه أيضاً ولا يعلم أحداً بمسيرة الجنود كما حدث في السير إلى صفد مع عسكر الشاميين فاسر كثيراً من الفرنج عام 668هـ/1270م. وعاد لدمشق<sup>(5)</sup>.

وفي سنة 670هـ/1272م وصل الى الكرك سراً في السادس من صفر ونزل بقلعتها، وعين نائباً للكرك علاء الدين أيديكين الفخري، ونقل نائبها السابق عز الدين أيدير الى نيابة الشام<sup>(6)</sup>.

أما علاقة بيبرس مع ملك المغول بركة فقد كانت حسنة على عكس علاقته مع هولاكو. إذ أسلم بركة وطلب النجدة ضد جيوش هولاكو<sup>(7)</sup>. فأكرم رسله وأرسل هدية جلييلة للملك بركة مع

(1) المقرئزي، السلوك، ج1، ص498.

(2) المقرئزي: ن م، ج1، ص580: ذكر أن الأمير جمال الدين ابن الداية كتب الى السلطان: "إني اشتهي التوجه بصحبة السلطان الى الحجاز"، فأمر بقطع لسانه فما تقوه أحد بعد ذلك.

(3) ن م، ص581.

(4) ن م، ص582.

(5) ن م، ص585.

(6) ن م، ص598.

(7) المقرئزي: م س، ج1، ص495.

رسالة في سبعين ورقة بغدادية<sup>(1)</sup>. وأمر الخطباء بالدعوة له على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة بعد الدعاء للسلطان الظاهر بيبرس<sup>(2)</sup>.

ومن سياسته الداخلية المحمودة عام 661هـ/1263م أمره بتطهير الاسكندرية من الخواطي الفرنجيات<sup>(3)</sup> كما أمر سنة 662هـ/1264م بعدم تقليد المرأة للرجل في اللباس "أي ليتشبه بهم". كما أقيمت عليه في هذه السنة جماعات من المغول أسلموا وهتفوا بأجمعهم، وعندما ارتفعت الأسعار في مصر سنة 662هـ/1264م أمر بإبطال التسعيرة. وأمر ببيع خمسمائة أربب كل يوم لضعفاء الناس من الأهراء<sup>(4)</sup> فأمر بإعطاء كل فقير كفايته لمدة ثلاثة شهور ووزع الفقراء على الأغنياء والتجار.

وفي الثاني من محرم عام 662هـ/1264م خرج السلطان من دمشق عائداً الى القاهرة وسار جزءاً من حاشيته الى الكرك ونزل ببركة زيزاء، وسقط عن فرسه خلال الصيد، فتأخر هناك أياماً حتى شفي، فأكثر من الإنعام على جميع عساكره وأمرائه من غلات الكرك وأموالها. كما استدعى أمراء غزة وأحسن اليهم. وأعطى نائب الكرك عز الدين أيدير ألف دينار وخلع عليه، وأرسل الخلع إلى أهل الكرك ثم تابع سفره الى غزة ثم الى القاهرة برفقة الأمير عز الدين الحلبي<sup>(5)</sup>.

(1) ن م، ن ص. الفلقشندي: م س، ص 2، ص 476، وما بعد. حيث يصف الورق البغدادي بأنه أجود أنواع الورق وأكبر سعة وكان مختصراً لكتابة المصاحف، ومكتبة كبار الملوك. ويصف الفلقشندي أنواع الورق المستعمل للكتابة في الدول الإسلامية: الفلقشندي:

ن م، ج 6، ص 190 وما بعد.

(2) المقريري: ن م، ج 1، ص 498.

(3) الخواطي: جمع خاطية، وهي المرأة الداعرة، وتسمى أيضاً مخطية والجمع مخطيات. المقريري: ن م، ج 1، ص 500، 503.

(4) الأهراء السلطانية: الأماكن التي تخزن فيها الغلال والأبواب الخاصة بالسلطان تحفظ احتياطاً للطوارئ

(5) المقريري: ن م، ج 1، ص 555.



## علاقة بيبرس بفلسطين:

في عام 662هـ/1264م أمر بيبرس الأمير ناصر الدين القيمري بالغارة على قيسارية<sup>(1)</sup> وعتليت<sup>(2)</sup>، فسار إليهما ونهبهما وقتل وأسر من الفرنج الموجودين فيها مما جعل الفرنجة يتراجعون في هجومهم عن يافا<sup>(3)</sup>. كما أغار عسكر بيبرس على الفرنجة ببلاد الساحل حتى وصلوا أبواب عكا عام 662هـ/1264م فكافأهم بتوزيع مائتي ألف درهم عليهم<sup>(4)</sup>. وفتح حيفا عام 663هـ/1265م وفر منها الفرنجة بعد قتل وأسر عدد كبير هذا وقد أمر السلطان بيبرس في هذه السنة أيضاً بوقف عدة قرى بأعمال الشام والقدس<sup>(5)</sup> ليصرف ريعها على المتطوعين المشاة المدافعين عن القدس، وأنشأ خاناً وفرنأ وطاحوناً في القدس. وجعلها تحت مسؤولية الأمير جمال الدين محمد بن نهار.

أما في عام 663هـ قام بيبرس بزيارة لمدن فلسطين بهدف الصيد والجهاد وبرفقته أربعة آلاف فارس، فهدم سور قيسارية عندما وصلها إذ باشر الهدم بقطأعته حتى جرحته يده<sup>(6)</sup> وقصفها بالمنجنيق وحرقوا أبوابها واقتحموها فاقتبأ أهلها الفرنجة في قلعتها الخضراء ثم أرسل الأمير شهاب الدين القيمري إلى بيسان، وسير جماعة من التركمان والعربان إلى عكا وأسروا جماعة من الفرنجة<sup>(7)</sup>. كما ملك أمراءه وخواصه البلاد المفتوحة حول قيسارية وأرسوف. ثم ركب من العوجاء وغابة أرسوف وقيسارية للتعرف عليها وعاد إلى الدهليز حيث أعد المنجنقات ورحل قرب عيون الأساور<sup>(8)</sup> من وادي عارة وعرعرة.

(1) قيسارية: بلدة في ساحل فلسطين مقابل طبريا، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص214.

(2) عتليت: حصن بساحل فلسطين بين حيفا وقيسارية، وكان يعرف بالحصن الأحمر في الحوليات الصليبية أي حصن الحاج

casrellum peregrinorum وحصنه فرسان الداوية في أواخر الحروب الصليبية كمركز رئيسي لقواتها في الشام.

Stevenson: Crusaders in Palestine, P. 308. وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص616.

(3) المقريري: ن م، ن ص.

(4) ن م، ن ص.

(5) ن م. ص 527

(6) ن م. ص 525.

(7) ن م. ص 527.

(8) مكان قرب رمون والرملة من أعمال فلسطين. ابن شداد: النوادر. ياقوت: م س، ج4، ص218.

ومن إقطاعاته لأمرائه في فلسطين وخواصه بأن أعطى الأمير جمال الدين إيدغدي العزيزي نصف زيتا، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي نصف طولكرم، والأمير بدر الدين بيليك الخازندار النصف الآخر من طولكرم (والمعروفة اليوم بطولكرم). والأمير شمس الدين الكركي ربع زيتا والأمير سيف الدين فليح البغدادي ربع زيتا الآخر، والأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحي أفراسين بكاملها والأمير علاء الدين البندقداري باقة الشرقية بكاملها والأمير عز الدين أيدمر الحلبي الصالحي نصف قلنسوة والأمير شمس الدين سفر الرومي نصف قلنسوة الآخر، والأمير سيف الدين قلاوون الصالحي نصف طيبة الاسم، والأمير عز الدين إيغان سم الموت النصف الآخر لطيبة الاسم، والأمير جمال الدين أقوش النجيبى نائب السلطنة بالشام أم الفحم بكاملها من قيسارية، والأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي بتان بكاملها، والأمير جمال الدين أوش المحمدي الصالحي نصف بورين، الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي نصف بورين الآخر، والأمير جمال الدين أيدغدي الحاجي الناصري نصف بيزين، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري الصالحي النصف الآخر من بيزين<sup>(1)</sup>، الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث ثلث حلب، والأمير شمس الدين البغدادي ثلث حلب الآخر، والأمير صارم الدين صراغان ثلث حلب، والأمير ناصر الدين القيمري نصف البرج الأحمر، والأمير سيف الدين بلبان الزينبي الصالحي النصف الآخر من البرج الأحمر، والأمير سيف الدين أيتامش السعدي نصف يميا، الأمير شمس الدين أقسنقر السلحدار النصف الآخر من يميا<sup>(2)</sup>. والملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة نصف دنابة، والملك المظفر صاحب سنجار النصف الآخر لدنابة، والأمير بدر الدين محمدي ولد الأمير حسام الدين بركة خان دير الغصون بكاملها، والأمير عز الدين أيبك الأقرم أمير جاندار نصف الشويكة، والأمير سيف الدين كرمون آغا التتري النصف الآخر من شويكة، الأمير بدر الدين الوزيرى نصف طبرس والأمير ركن الدين منكورس الدويداري نصف طبرس الآخر، الأمير علاء الدين أخو الدويدار نصف عرعا، والأمير سيف الدين فقجق البغدادي، نصف عرعا، الأمير سيف الدين قشتمر العجمي

(1) المقريري: السلوك، ج 1، ص 532.

(2) ن م، ص 533.

علاء بكاملها، الأمير سيف الدين كجك البغدادي نصف فرعون، الأمير علم الدين سنجر الأركشي نصف فرعون الآخر، الأمير علم الدين طرطج الاسدي أقتابة بكاملها (سباهيا)، الأمير حسام الدين أيتمش بن أطلس خان سيذا بكاملها، الأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس الصفراء بكاملها، الأمير عز الدين أبيك الحموي الظاهري نصف أرتاح والأمير شمس الدين سنقر الألفي نصف أرتاح الآخر، والأمير علاء الدين طيبرس الظاهري نصف باقة الغربية، الأمير علاء الدين التكري نصف باقة الغربية الآخر، الأمير عز الدين الأتابك الفخري القصير بكاملها الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري أخصاص بكاملها الأمير ركن الدين بيبرس المغربي نصف قفين، الأمير شجاع الدين طغرل الشبلي أمير مهمندار نصف كفرأعي والأمير علاء الدين كندغري الحبشي مقدم الأمراء البحرية نصف كفرأعي<sup>(1)</sup>، الأمير شرف الدين أبي القاسم نصف كستا، الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري نصف كستا الآخر، الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاذار العالية نصف برنيكية، والأمير علم الدين سنجر الحلبي الغزاوي نصف برنيكية الآخر، الأمير علم الدين سنجر نائب أمير جاندار نصف حانوتا من أرسوف، والأمير سيف الدين بيدغان الركني فرديسيا بكاملها من قيسارية، الأمير عز الدين أيديري الظاهري نائب الكرك ثلث حبله أرسوف، والأمير جمال الدين أقوش السلاحدار الرومي ثلث حبله، الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهري ثلث حبله، الأخير الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح جلجوليه، الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي ثلث جلجولية الثاني، الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومي ثلث جلجولية الأخير، والأتابك فارس أقطاي الصالحي عتيل.

وكتب من كتب التملك الشرعي الجامع عدة نسخ، فأعطى لكل أمير نسخة، ونقلت المنجنيقات إلى قلاع الكرك وعجلون<sup>(2)</sup> وبعدها رحل الظاهر بيبرس من أرسوف بعد استكمال هدمها يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رجب 663هـ/1265م إلى غزة ومنها لمصر، وفي عام 664هـ/1266م.

(1) المقرئ: م س، ن ص.

(2) المقرئ: ن م، ج 1، ص 534.

سار السلطان بيبرس في أول شعبان الى غزة وأرسل الأمير أيدغدي العيزي، والأمير قلاوون، في عسكرهما إلى العوجاء بفلسطين، وتقدم السلطان الى مدينة الخليل ثم الى القدس، ومنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل ابراهيم عليه السلام، وكانوا قبل ذلك يدخلون، وسار بعد ذلك الى عين جالوت<sup>(1)</sup>، ثم الى مدينة عكا، بينما سار الأمير ناصر الدين القيمري إلى عتليت، فطلب أهل عكا من الأتابك التحدث في الصلح، واهتم السلطان بأمر صفد فأرسل اليها العساكر بقيادة الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح بالدهليز السلطاني ثم أتبعه بعسكر الأميرين البندقداري والأمير عز الدين أوغان وحاصروها، فيما كان السلطان مُحاصراً لعكا، وسار من عين جالوت الى صفد إحدى معاقل الفرسان الداوية<sup>(2)</sup>، ثم جاءه المدد من عساكر مصر والشام في يوم العيد، حيث تم فتحها في الثامن عشر من شوال بعد أن طلب الفرنج الأمان فأمنهم السلطان على أن يُقَسَّوْا عند خروجهم وتسلم المسلمون صفد وولي قلعته الأمير مجد الدين الطوري، كما ولي الأمير عز الدين العلائي نيابته<sup>(3)</sup>. وقرر نفقة رجال القلعة في الشهر مبلغ ثمانين ألف درهم وامر ببناء جامع في القلعة وجامع بالربض<sup>(4)</sup>. ثم سار من صفد في السابع والعشرين من رجب 664هـ/1266م فأنعم على أمراء دمشق وقضااتها وأرباب المناصب العليا بالتشريف وتأكد من نسب مبارك بن الإمام المستعصم<sup>(5)</sup> ويتضح لنا من هذا عدم حسم نهاية الخلافة العباسية بعد خلافة الحاكم بأمر الله. كما أوقع عقوبات ادارية على أهل غزة عام 666هـ/1268م بأن قطع أنوف الجمالين الذين اعتدوا على الزروع.

وعندما قدمت شكوى إليه على الأمير علم الدين سنجر الحموي أنه عبر بفرسه في زرع، فأنزله عن فرسه واعطاه بما عليه من السرج واللجام لصاحب الزرع<sup>(6)</sup>. ثم رحل الى العوجاء بفلسطين.

(1) المقرئ: م س، ج1، ص545.

(2) ن م، ج1، ص546.

(3) ن م، ص547، حيث أخرج خيالة الفرنج ومن معهم من صفد فضربت أعناقهم على تل قريب من صفد ولم يبق منهم سوى نفرين، أحدهما الرسول (كان فارساً من الداوية) الذي اسلم واقطعه السلطان، والآخر ترك حتى يخبر الفرنج بهذا الفتح وهو من الاستبارة.

(4) ن م، ص548.

(5) ن م، ج1، ص549.

(6) ن م، ج1، ص564.

## سياسة بيبرس في القدس:

لقد اهتم بالقدس لمكانتها الدينية في نفوس المسلمين جميعاً. وباقي الديانات الأخرى من رعايا دولته. فقام باصلاح قبة الصخرة عم 661هـ/1263م وخصص لنفقة المسجد الأقصى خمسة آلاف درهم سنوياً، كما أصلح قبة موسى، وزار القدس عام 668هـ/1270م حيث بنى فيها خاناً كبيراً وجدّد قبة السلسلة وبنى على باب أبي عبيدة الجراح مشهداً وأوقف عليه<sup>(1)</sup> كما أوقف على الخان الذي أسّسه باسم "خان الظاهري" نصف قرية "لفتا" في فلسطين وغيرها من القرى وأضاف للخان فرناً وطاحوناً ومسجداً ومقاماً له، وأمر بتوزيع الخبز على بابيه والاعتناء بالنازلين فيه<sup>(2)</sup>. وأنشأ دار الحديث بجوار التربة الجالفية على طريق باب السلسلة وتم انشاء المدرسة الأباصيرية تجاه الرباط المنصوري بجوار باب الناظر<sup>(3)</sup>. وبالنسبة لمدينة الخليل استرجع عدة ضياع من أوقاف الخليل كانت قد دخلت في اقطاع الأمراء بتعويضهم عنها ووقف على مقام الخليل قرية إزنا<sup>(4)</sup>. كما اهتم المنصور قلاوون بالقدس، إذ تم في عهده إنشاء الرباط المنصوري بباب الناظر "أحد أبواب المسجد الأقصى" وعمر سقفه من جهة القبلة عند جامع الأنبياء<sup>(5)</sup>.

أما حياة الناصر محمد بن قلاوون وسياسته الداخلية : ولد سنة 684هـ/1285م بالقاهرة، وتولي السلطة الأولى وعمره ثماني سنوات وكانت اسميّة، وعُزل في 12محرم 694هـ/3ديسمبر 1296م بتقليد نائبه زين الدين كتبغا المنصوري سلطاناً للمماليك في مصر والشام ثم عزل كتبغا في 10 صفر سنة 696هـ/8ديسمبر 1268م من قبل نائبه حسام الدين لاجين المنصوري الذي تسلم زمام سلطنة المماليك فارسل الناصر محمد الى الكرك حتى يبلغ سن الرشد<sup>(6)</sup>. ثم عزل مرة أخرى<sup>(7)</sup>، واعتزل الحكم للمرة الثالثة لمدة إحدى وثلاثين سنة

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ص491، الكتبي، فوات الوفيات، طبع بولاق- القاهرة، 1283هـ ج1، ص114.

(2) ابن تغري: م س، ج7، ص121، بحير الدين الحنبلي: م س، ج2، ص434.

(3) عارف العارف: م س، دار المعارف 1951، ص87-88.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق فاطمة صديق، أكسفورد، 1956، ص89.

(5) بحير الدين الحنبلي: ن م، ج2، ص434.

(6) المقرئ: ن م، ج1، ص832-833، وابن خلدون: العبر، ج5، ص88. وابن حجر: الدرر، طبعة جيد آباد، ج4، ص144-145.

(7) المقرئ: ن م، ج1، ص794-806، وابن حجر، الدرر، ج4، ص161. والمقرئ: المواعظ والاعتبار، ج3، ص177.

بشخصية جديدة أعطت حكمه طابعاً مميزاً للاستقرار السياسي والاجتماعي مع تمسك أمرائه وقضائه بتعاليم الشريعة الإسلامية حيث كان حريصاً على إنجاز الكثير من الضمانات الاجتماعية كإلغائه الكثير من الضرائب وحرصه على توفير كل أنواع الغلال على مدار السنة بأسعار رخيصة بالإضافة للمشاريع الزراعية في مختلف بلاده مع اهتمامه بنظام الوقف كإديف اجتماعي لتحقيق الاستقرار المعيشي. وكان ذلك بعد مقتل حسام الدين لاجين بمؤامرة من كبار الأمراء لتقريبه مملوكه منكوتم واستدعوا الناصر محمد من الكرك وسلموه الحكم مرة ثانية<sup>(1)</sup> وشكل مجلس رئاسي من ثمانية أفراد<sup>(2)</sup> لإدارة شؤون الدولة حتى يصل الناصر من الكرك الذي اعتبر واجهة لارضاء الخواطر.

وكانت هذه الفترة الثانية من حكمه الاسمي فقط حيث كانت الأمور تُدارُ بين كبار الأمراء كسيف الدين سلام نائبه وبيبرس الجاشنكير استأداره إذ تدخلوا في طعامه وشرابه أيضاً كما أشار المقرئزي<sup>(3)</sup> وعندما قرر عزلهما لاستعادة سلطته اكتشف محاولة انقلاب على نفسه فاعتزل الحكم<sup>(4)</sup> بعد عشرة سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيام حيث تظاهر في الحج ولكنه اتجه للكرك للاستقرار واعتزال الحكم<sup>(5)</sup> وبدأ التنافس بينهما بهدف الإفراد بالحكم<sup>(6)</sup> حيث أخبرهما من الكرك برغبته في ترك السلطنة لهما فوضعهما في موضع حرج بعد انسحابه من الحياة السياسية حيث كانا يتستريان تحت الشرعية فأصبح بيبرس الجاشنكير سلطاناً وسيف الدين سار نائباً له<sup>(7)</sup>.

(1) ابن الفرات : تاريخ الدول والممالك ج 8، ص 143، السلوك، م سن ج 1، ص 806-807، ابن حجر: الدرر ج 3، ص 262، النجوم ج 8، ص 49-50

(2) أبو المحاسن: م س، ج 8، ص 224

(3) المقرئزي: ن م، ج 1، ص 869.

(4) المقرئزي: ن م، ج 1، ص 879. ابن حجر: ن م، ج 1، ص 505، ج 3، ص 263. طبعة حيدر أباد.

(5) المقرئزي: ن م، ج 2، ص 33-36. أبو المحاسن: ن م، ج 8، ص 170-173.

(6) أبو الفداء: م س، ج 4، ص 54-55. المقرئزي: ن م، ج 2، ص 43-45، أبو المحاسن: ن م، ج 8، ص 176-174. وابن حجر: ن م، ج 4، ص 145-146. طبعة حيدر أباد.

(7) أبو المحاسن: ن م، ج 8، ص 230.

ونتساءل هنا لماذا ترك الحكم وعمره خمس وعشرون سنة؟! والحقيقة أنه كان مُجبراً على ذلك لأن سلطته معهما كانت إسمية فأراد التحرر من سيطرتهم بل وإسقاطهما بعد أن يكشف الأمور للعامة وليكسب الوقت لاتخاذ الخطوات المناسبة لاسترجاع حكمه. فحدث ما توقع إذ غادر عدد من الأمراء المماليك القاهرة متوجهين إلى الكرك بعد اشتداد الصراع بين الأميرين لمانصرة الناصر محمد<sup>(1)</sup> وتعاون مع نواب الشام لاستعادة حقه المغتصب فكان ينتظره بالكرك تخطيطاً للفرصة المناسبة<sup>(2)</sup>.

وفعلاً توجه لدمشق في 12 شعبان عام 709هـ/12 يناير 1310م ووصل القاهرة في 16 رمضان عام 709هـ/17 فبراير سنة 1310م فهرب بيبرس الجاشنكير وأرسل للناصر رغبته في نيابة صهيون بالشام<sup>(3)</sup> ولكن الناصر ألقى القبض عليه وقتله خنقاً<sup>(4)</sup> وأعطى نائبه السابق سيف الدين سار<sup>(5)</sup> نيابة الشوبك في بداية عهده الثالث ثم قبض عليه سنة 710هـ/1311م وسجنه حتى مات جوعاً واستولى على ثروته وقبض على عدد من الأمراء المعارضين وسجنهم<sup>(6)</sup> وهكذا بدأ يستخدم سياسة القوة والإنتقام من خصومه ومناقسيه فسجن اثنين وعشرين أميراً من ذوي الرتب العالية<sup>(7)</sup>.

وعين مكانهم من مماليكه المقربين إليه وكان ذكياً لدرجة أنه بدأ يُخطط للتخلص من الأمراء الموالين له خوفاً منهم ومما يدل على شدة حذره وعدم ثقته بمن حوله، إذ ربما تسول لهم أنفسهم التخلص منه إذا سنحت لهم الفرصة المناسبة، فأسرع في التخلص منهم، فقبض أولاً على الأمير اسندمر كرجي نائب حلب وقتله في سجنه وصادر ثروته في ذي القعدة سنة

(1) المقرئ: م س، ج 2، ص 53، 59-60. أبو المحاسن: م س، ج 8، ص 247-250. ابن حجر: م س، ج 1، ص 505.

(2) أبو الفداء: المختصر، ج 4، ص 56. المقرئ: ن م، ج 2، ص 56-59. أبو المحاسن: ن م، ج 8، ص 181، 245، 247، 256-257.

(3) المقرئ: ن م، ج 2، ص 68-72، أبو المحاسن، ن م، ج 8، ص 264-271، ابن حجر، ن م، ج 1، ص 506 (طبعة حيدر آباد).

(4) المقرئ: ن م، ج 2، ص 78-81، أبو المحاسن، ن م، ج 8، ص 272-275، ابن حجر، ن م، ج 1، ص 506-507 (طبعة حيدر آباد).

(5) المقرئ: ن م، ج 2، ص 88، أبو المحاسن، ن م، ج 9، ص 18.

(6) المقرئ: ن م، ج 2، ص 72، 523.

(7) المقرئ: ن م، ج 2، ص 76. أبو المحاسن: ن م، ج 9، ص 15.

721هـ/نوفمبر 1321م<sup>(1)</sup> ثم سجن نائبه في الديار المصرية بكمتر الجوكندار في جمادي الأولى سنة 711هـ/ سبتمبر 1311م في الاسكندرية<sup>(2)</sup>.

وهكذا أصبح متمكناً من نفسه ومن سلطته التي أصبحت فعلية، مستخدماً أساليب الدبلوماسية والضرب دون رحمة في حفظ هيبة سلطنته مقابل اطماع الأمراء الشخصية في السيطرة على الحكم والنفوذ، ولكن الناصر أكد لهم عن عزمه على التمتع بسلطته فاعلن عن جلوسه كل يوم اثنين في دار العدل لسماع شكاوي الناس وإنصافهم<sup>(3)</sup> وذلك ليقوي مركزه بين عامة الناس ومكافأة معنوية لهم على مساندته في محنته السابقة ليدلل على طيب أخلاقه وأصالته الدينية. إذ كان مُصمِّماً على تأسيس حكم فردي أوتوقراطي لا ينافسه فيه أحد والاطاحة بكل رؤوس الإمراء الكبار<sup>(4)</sup> كما يتبين لنا من ملاحظته لنائب حلب شمس الدين قراسنقر المنصوري الذي صادر ثروته البالغة اثنين وثلاثين ألف دينار وعدد من النفائس الذهبية والفضية<sup>(5)</sup> فأصبح الحاكم بأمره.

كما شهدت البلاد ازدهاراً اقتصادياً واجتماعياً في ظل حكمه الفعلي المطلق في الفترة الثالثة من عهده وسط تيارات سياسية متعددة ومتناقضة.

وقد استمر حكمه إحدى وثلاثين سنة وتوفي عن عمر يناهز الستين عاماً في 21 ذي الحجة 741هـ/7 يونيو 1340م<sup>(6)</sup>.

### الجوانب الروحية في شخصية الناصر متمم برقلاوور:

لقد اجمعت مصادر التاريخ المملوكي على أنه كان مُتديناً يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية<sup>(7)</sup>. ويعاقب القضاة الظالمين كما فعل سنة 738هـ/1337م عندما عزل القاضي جلال

(1) المقرئ: ن م، ج2، ص93، 94، أبو المحاسن: ن م، ج9، ص27.

(2) المقرئ: ن م، ج2، ص102، أبو المحاسن: ن م، ج9، ص28، ابن حجر: ن م، ج1، ص485 (طبعة حيدر آباد)

(3) المقرئ: ن م، ج2، ص103، ابن بطوطة، م س، ج1، ص24.

(4) أبو المحاسن: ن م، ج9، ص12-13.

(5) النهج السديد، م س، ج3، ص228.

(6) المقرئ: ن م، ج2، ص72، 523.

(7) المقرئ: المواعظ والاعتبار (طبعة بيروت سنة 1959م)، ج3، ص272. المقرئ: ن م، ج2، ص386-387، 391، 440، 429، 442 حيث قال عنه المقرئ: "لم يعرف عنه قط أنه شتم أحد من خلق الله ولا سفة عليه ولا كلمه بكلمة سيئة" وقال: "كان السلطان حشم النفس يكره الفحش"، "وكان السلطان يمت على السكر" و"كان السلطان لا يرتشي، ويمقت من يرتشي ويعاقبه أشد العقوبة" ابن حجر: م س، ج4، ص120-123.



الدين محمد القزويني لسوء خلق ولده جمال ولهوه وشربه<sup>(1)</sup>. ولم تذكر المصادر المملوكية المختلفة أن أحداً سبقه من السلاطين في عقابه لشاربي الخمرة ومساعدته للمظلوم واحقاقاً للحق<sup>(2)</sup>. كما اهتم بالحرمين الشريفين وإعانة الحجاج بالماء والطعام والجمال<sup>(3)</sup>، كما حرص على أداء فريضة الحج حيث حج ثلاث مرات عام 712هـ/1312م وعام 719هـ/1319م، وعام 732هـ/1332م. كما زار القدس الشريف والخليل مع الإكثار من الصدقات أثناء رحلاته الدينية هذه<sup>(4)</sup>. كما كان يحترم أهل العلم وأصحاب المناصب الشرعية<sup>(5)</sup>.

### وبالنسبة لاهتمامه بقضايا شعبه:

فقد عمل على رفع المظالم عن الناس بإلغاء الضرائب الإجتماعية كما فعل سنة 715هـ/1315م إذ ألغى أربعاً وعشرين ضريبة اجتماعية، رغم أنها كانت من مصادر الخزانة. مثل نصف السمسرة، رسوم الولاية، مقرر السجون، مقرر الحوائص، طرح الفراريج، مقرر الفرسان، رسوم الأفراح، جباية المراكب، ضمانات تجيب، كشف مراكب النوبة، شد الزعماء، حقوق السودان، حقوق القينات، مقرر المشاعلين، متوفر الجراريف، ثمن العبادة، زكاة الرحالة، كوة السواس، قود الخيل، عداد النخيل، مقرر المناشير، قطائع العربان، ضمان الطريق، ضمان الملح، حقوق النحالين<sup>(6)</sup>. فأزاح بذلك عبئاً ثقيلاً عن كاهل الفقراء وهذا دليل على حسن تدبيره وتصرفه وشفقته على الرعية وانصاف المظلومين.

كما كان يتدخل أثناء الازمات الغذائية وارتفاع الأسعار بجلب الغلال من غزة والكرك والشوبك ودمشق إلى القاهرة<sup>(7)</sup>. وحدد سعر القمح، وهكذا تمكن من التغلب على الأزمة

(1) المقرئ: ن م، ج2، ص429-442، وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص173، حيث أكد ابن تغري بردي ما سبق ذكره "وكان في الجرد والكرم والأفضال غاية لا تدرك". أبو المحاسن: ن م، ج9، ص174.

(2) المقرئ: م س، ج1، ص419.

(3) ابن بطوطة: تحفة النظار، ج1، ص22.

(4) النهج السديد، ج2، ص222. وأبو الفداء: م س، ج2، ص73، 88، 89، 110. وابن حجر: م س، ج4، ص264-265. والمقرئ: ن م، ج2، ص119، 195-198، 350-351.

(5) ابن حجر: ن م، ج4، ص264.

(6) ابن حجر: ن م، ج4، ص286، والمقرئ: ن م، ج2، ص150، 151، والمواظ والاعتبار، (طبعة بيروت 1959م)، ج1، ص158، 159، وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص45، 46، 47، 48.

(7) المقرئ: ن م، ج2، ص368، 392، 394، أبو المحاسن: م س، ج9، ص49. Lapidus. Muslim cities. p 51-52.

الاقتصادية وحصل الناس على الخبز فانخفضت الأسعار بعد وصول القمح من بلاد الشام وبلاد الصعيد. كما توضح هذه الصورة نظرته الشاملة المتكاملة لدولته سواء كان ذلك في مصر أو الشام أو الحجاز. حيث اهتم بالإصلاح الزراعي وتعمير الأراضي كما فعل سنة 711هـ/1311م<sup>(1)</sup>، وأنشأ الجسور وشق قنوات للري 714هـ/1314م وسنة 724هـ/1323م والقناطر والسواقي للري فازدهرت البساتين والحقول<sup>(2)</sup>.

وبالنسبة لسياسة الأشرف شعبان: في أواخر أيام دولة المماليك البحرية فقد تمثلت بالأهمية الدينية من قضاء وحج.

#### القضاة:

فبالنسبة للقضاء فقندكان عند السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون عام 778هـ/1376م

أربعة قضاة هم

1. قاضي القضاة الشافعي برهان الدين بن جماعة (من فلسطين)

2. والقاضي الحنفي: جلال الدين جادالله النيسابوري

3. والقاضي المالكي: بدر الدين عبدالوهاب الأحنائي

والقاضي: الحنبلي ناصر الدين نصرالله

بالإضافة الى قاضي العسكر شيخ الالام سراج الدين عمر البلقيني والقاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر والقاضي تقي الدين عبدالرحمن ناظر الجيش. وقد رافقه هؤلاء القضاة الى الحج ماعدا القاضي الحنبلي لمرضه. وقامت عليه ثورة من بعض المماليك السلطانية المرافقين له مطالبين بزيادة أجورهم فرفض وهرب الى القاهرة ثم قتل في ذي القعدة عام 778هـ/1376م على يد المملوك جركس أحد ممالك الأتابكي الجاي اليوسفي ورموه في بئر بعد أربع وعشرين عاماً من العمر ومدة حكمه في الديار المصرية والشامية بلغت أربع

(1) المقرئزي: المواعظ والاعتبار، (طبعة بيروت 1959)، ج1، ص301. وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص217.

(2) المقرئزي: ن م، (طبعة بيروت) ج1، ص301، ج3، ص34-35، والسلوك، ج2، ص137-138، 449-4451. وأبو المحاسن: ن م،

ج9، ص18، ص38، 40، 80-84،

عشر سنة وشهرين وواحداً وعشرين يوماً حيث ولي الملك وله من العمر نحو إحدى عشرة سنة<sup>(1)</sup>.

وقد أخطأ السلطان في عدم سماعه نصيحة مقدم الهجانة محمد بن عيسى، شيخ العايد الذي هرب به من العقبة ليلاً إلى القاهرة حيث عرض عليه أخذه لبلاد الشام والاستجداء بعربانها لتقوى شوكته ويلتحق به مؤيدوه من الأمراء والنواب ويقال أن، الأمير ارغون شاه هو الذي أجبره ومنعه من التوجه إلى الشام ونصبوا مكانه في غيبته إلى الحج ابنه الملك المنصور علي بن الأشرف بن محمد بن قلاوون<sup>(2)</sup> في ذي القعدة 778هـ/1376م وهو الثالث والعشرين من ملوك الترك وعمره سبع سنين وأشهر حيث بايعه أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله الذي سيطر على الحكم في زمنه الأمير برقوق العثماني والأمير بركة الجوباني عام 779هـ/1377م فساعت أحوال الناس في بلاد الشام ومصر لفسادهما وانتشار الرشوة لتوليته الوظائف حتى قال الناس: "برقوق وبركة، ضربا على الدنيا شبكة"<sup>(3)</sup>.

هذا وقد أجرى الأمير برقوق العثماني التنقلات الإدارية التالية للامساك بزمام السلطة عام 780هـ/1378م فعين: الأمير مبارك شاه الطازي نائباً في غزة بدلاً من الأمير أقبغا الجوهري الذي نقل إلى نيابة صفد بدلاً من الأمير صراي تمر المحمدي الذي قبض عليه وسجنه بالكرك<sup>(4)</sup>.

كما عين الأمير كتبغا الحموي نائباً للشام بدلاً من بيدمر الخوارزمي الذي سجنه السلطان في الاسكندرية عندما حضر لمقابلته<sup>(5)</sup>. وكانت مساوئ برقوق بعد الرشوة والبراطيل الاستيلاء على عدة أقطاعات وفرقها على مماليكه مخالفاً بذلك القضاة والفقهاء الذين عارضوا ذلك شرعاً

(1) ابن اياس: م س، ج1، ص181.

(2) ابن ايس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص111.

(3) ن م، ج1، ق2، ص220.

(4) ن م، ص222.

(5) ن م، ص231.

وبداً ظلّمه يتزايد<sup>(1)</sup>. وعين الأمير أقبغا عبد الله نائباً في غزة عام 781هـ/1379م الذي توفي في نفس العام<sup>(2)</sup>. كما عين الأمير أشتقمر نائباً للشام بدلاً من بيدمر عام 782هـ/1380م<sup>(3)</sup>.

وهكذا يلاحظ سيطرة المماليك الأجلاب على الحكم في عهد السلطان علي بن الأشرف شعبان واشاعتهم الظلم والفساد في الديار المصرية<sup>(4)</sup>. وانفق كل واحد من المماليك السلطانية خمسمائة دينار وعددهم نحو ثلاثة آلاف مملوك<sup>(5)</sup>.

كما أنعم السلطان على برقوق العثماني بإمرة طبلخاناه وكان جركسياً من مماليك يلبغا العمري فصار في يوم واحد أمير طبلخاناه وبدأ يصعد في الترقّيات العسكرية. وأنعم على خدشاه بركة الجوباني بإمرة طبلخاناه وكان من جملة المماليك الجمدارية<sup>(6)</sup>، وقاد برقوق في ربيع الآخرة من نفس العام حركة تمرد ضد الأمير أينباك البدري والسلطان بعد توجههما إلى الشام لاختضاع ثورة الأمراء ونواب السلطنة هناك وتم سجن الأمير أينباك في كفر الاسكندرية في ربيع الآخر 779هـ/1377م وأصبح من القائمين على أمور الدولة ثم مقدم ألف ثم أمير خوركبير في مدة شهرين فضحك له الحظ تمهيداً لتأسيس دولة الجراكسة بعد تخطيطه للقضاء على جميع الأمراء الأقوياء.

وتجدر الإشارة إلى وفاة ابن قاضي شهبه عام 782هـ/1379م أحد فقهاء الشافعية بدمشق. ونبوغ ناصر الدين محمد بن قرطاي الكركي الذي تقلب في مناصب عليا في سلطنة المماليك بمصر كنائب السلطان في الاسكندرية ونقيباً للجيش<sup>(7)</sup> عام 783هـ/1381م وفي يوم الأحد الثالث والعشرين من عام 783هـ/1381م توفي السلطان الملك المنصور علي بن الأشرف شعبان ودفن ليلاً بتربة جدته خوندبركة بالتبانة وكانت مدة سلطنته خمس سنين وثلاثة

(1) المقرئزي: م س، ج3، ق1، ص345-346. وابن اياس: ن م، ص326-327.

(2) ابن اياس: ن م، ص252.

(3) المقرئزي: ن م، ج3، ق1، ص389.

(4) ن م، ص192-193.

(5) ن م، ص196.

(6) ابن اياس: م س، ج1، ق2، ص204.

(7) المقرئزي: م س، ج3، ق1، ص410.

أشهر وعشرين يوماً وعمره نحو اثنتي عشرة سنة، حيث لم يكن له من السلطنة سوى الاسم والجلوس على العرش وله نفقة كل يوم<sup>(1)</sup>.

وتسلم الملك بعده أخوه الصالح صلاح الدين أمير حاج حاجي بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن محمد بن قلاوون<sup>(2)</sup> (783-784هـ/1381-1382م) وكان آخر سلاطين المماليك البحرية عندما دخل الخليفة محمد المتوكل على الله<sup>(3)</sup>. وكانت مدة سلطنته سنة وسبعة أشهر وبه زال ملك بني قلاوون الذين امتد حكمهم مائة وثلاث سنين والذين مات أكثرهم اغتيالاً بالسيف.

وقد تحكم بأمور تعيين الولاة وعزلهم برقوق وبركة، أما بالنسبة للوظائف السلطانية أو مجلس الأمير الكبير برقوق فقد كانت بيد برقوق الذي باعها للسفلة والأرذال بالمال مما كان وبالأعلى مصر والشام وأدى لخرابهما<sup>(4)</sup>. ثم بدأ التنافس بين الأمير برقوق والأمير بركة وقرر كل منهما الخلاص من الآخر ليخلو له الجو، ونشبت الحرب بينهما انتصر فيها برقوق وسجن الأمير بركة في الاسكندرية وقُتل هناك<sup>(5)</sup>.

ثم قبض على الأمراء من عصابة الأمير بركة وحاشيته فقامت بعد ذلك دولة الجراكسة وسقطت دولة الاتراك الخفاجة "القبجاقية"<sup>(6)</sup> ونادى في القاهرة بالأمان بعد أن صار غالبية الأمراء جراكسة من أتباع الأتابكي برقوق الذي أحضر والداه من بلاد جركس من ضيعة يقال لها اكسا<sup>(7)</sup> بصحبة الخواجا عثمان إلى القاهرة عام 782هـ/1380م فخرج برقوق لاستقباله مع عامة العسكر وأرباب الدولة والوزراء وكان الخواجا عثمان قد اشتراه من هناك فاعتق والداه وأدخله الاسلام وختنه، ثم تزوج خوند ابنة الأمير طشتمر.

(1) ابن اياس: ن م، ج1، ص284. المقرئ: ن م، ج3، ص412، (رقم الايداع بدار الكتب المصرية 3197 عام 1970م).

(2) ابن اياس: ن م، ج1، ص285، وبعد أن بايعه الخليفة محمد المتوكل والقضاة الأربعة والأتابكي برقوق.

(3) ن م، ص310.

(4) المقرئ: ن م، ج3، ق1، ص324.

(5) ابن اياس: م س. ص 258-261.

(6) ن م، ص262. والمقرئ: ن م، ج3، ق1، ص386.

(7) قال بعض المؤرخين ان قبيلة اكسا كانت من نسل جيلة بن الأيهم الغساني. ابن اياس: ن م، ص312.

كما شرع برقوق في نفس العام في عمارة جسر الشريعة الموجود بطريق الشام قرب قرية أريحا على نهر الأردن، وكان طوله مائة وعشرين ذراعاً وعرضه نحو عشرين ذراعاً إذ أنفق عليه أموالاً طائلة لخدمة المسافرين والتجار<sup>(1)</sup>. وفي شهر ذي الحجة من عام 782هـ أبطل برقوق ضمان الملح من عيتاب ومن الكرك وأبطل ضمان المغاني من حماة والكرك<sup>(2)</sup>.

---

(1) ابن أبياس، م، ص 279 ومدحه الشاعر الشهاب أحمد بن العطار  
أيا ملكاً بني جسراً بعدل به حمل الأنام على الشريعة  
له شرف على الجوزاء سام وفوق الخوت أركان منيعة  
(2) ن.م. ص 280.

## السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية:

### مقدمة:

لقد أثبت المماليك قوة دولتهم في مواجهة المغول وبقايا الصليبيين في الوطن العربي من المحيط الى الخليج مما أكسبها احترام شعوب الدولة الاسلامية والعربية وهابها الأعداء خارج حدودها فعملوا على احترامها ومهادنتها انقاء لبطشها.

كما أكسبهم إحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سقوطها في بغداد لقب زعامة العالم الاسلامي وحماة الخلافة مما جعل القاهرة دائماً ملتقى الأصدقاء والأعداء من حيث تردد السفراء والتجار لعقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة. مما جعلها تخطى بنشاط دبلوماسي واسع النطاق مما جعل ديوان الإنشاء يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم في ذلك الوقت.

### السياسة الخارجية:

اشتملت العلاقات الخارجية لدولة المماليك البحرية بالدبلوماسية الواسعة حيث شملت علاقات ودية مع الدول الاسلامية وعدائية مع المغول والصليبيين. وكانت سياستهم الخارجية نابعة من الأوضاع السياسية الدولية والحرص على مصالحهم معتمدة في سيرها على شخصية الملوك والحكام لأن المفهوم العام للسياسة هو المصلحة والمنفعة الذاتية فلا عداوة ولا صداقة دائمة بين الدول.

وتنوعت هذه العلاقات بين سياسية واقتصادية نتيجة لموقع الدولة الجغرافي الممتاز بين بلاد حوض البحر المتوسط وأوروبا. لهذا شملت علاقاتهم السياسية والعسكرية سلاطين الروم في آسيا الصغرى والبيزنطيين واليمن والحبشة وبلاد النوبة ودول شمالي افريقيا والأندلس وجنوا والبندقية ومملكة صقلية ومملكة الأراغون. وخاصة زمن الظاهر بيبرس وتوسعت زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث شملت افريقيا واليمن<sup>(1)</sup> وتلمسان ومملكة المغرب الأقصى

(1) المقريري: السلوك، ج1، ق3، ص702-703. والقلقشندي: م س، ج6، ص422-426.

زمن آل مرين<sup>(1)</sup>. كما توسعت لتشمل ملك غرناطة أبو عبدالله محمد بن الأحمر<sup>(2)</sup> زمن ابنه الملك الأشرف شعبان بن الملك الناصر.

كما نلاحظ أن الدول غير الإسلامية كانت هي البادئة بطلب إقامة هذه العلاقات الودية مما يدل على قوة دولة المماليك في تلك الفترة وأهمية موقعها الاستراتيجي بين الشرق والغرب كما حدث مع السلطان قلاوون وصاحب سيس التكفور "ليفون ابن قيوم" الذي طلب الهدنة وأقسم بالله والمسيح والصليب والانجيل وكذلك مع أهل جنوة لتأمين حرية التنقل والتجارة البحرية بين البلدين ومع ملك أراغون "أدوفتش" وأخيه ملك صقلية بخصوص حرية التجارة واحترام السيادة وطلاق سراح الأسرى وتبادل اللاجئين والتعاون بينهما<sup>(3)</sup>. والسماح لرعاياها بالدخول الى بيت المقدس<sup>(4)</sup>. وكذلك فعل ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن آل باليولوغ سنة 680هـ/1282م ماداً يده للسلطان بخصوص التجارة فقبل قلاوون هذه المعاهدة<sup>(5)</sup>. وهذا يدل على عظمة قلاوون وأهمية دولته وسياسته الخارجية وخاصة عندما اصدر أمراً بمنح حق الرعاية والحماية لجميع التجار القادمين لدولته لتوفير الأمن لهم مما أكسب دولته شهرة سياسية وتجارية<sup>(6)</sup>.

### علاقة المماليك السياسية مع الدول الإسلامية:

لقد تميزت العلاقة مع دولة سلاجقة الروم المتاخمة للحدود الشمالية لسوريا بعدم الاتزان والثبوت بسبب تصادم المصالح بينهما مما دفعت السلاجقة أحياناً بالتحالف مع المغول ضد المماليك الأمر الذي دفع السلطان الظاهر بيبرس لغزوهم وألحق الهزيمة بهم ولكنه أبقى أسرى السلاجقة وأعدم أسرى الروم<sup>(7)</sup>.

(1) الفلقشندي: م س، ج 7، ص 389-395.

(2) ن م، ن ص.

(3) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشریف الأنام والعصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص 156-162.

(4) ن م، ص 170.

(5) ابن الفرات: م س، ج 7، ص 229-233.

(6) الفلقشندي: ن م، ج 13، ص 340-342.

(7) الفلقشندي: ن م، ج 14، ص 139-165.



وأما بالنسبة للعلاقة بين المماليك ومغول القفجاق<sup>(1)</sup> زمن الظاهر بيبرس وملكهم بركة فقد كانت حسنة على عكس علاقته مع هولأكو، حيث اسلم بركة وطلب النجدة ضد جيوش هولأكو<sup>(2)</sup> فإكرم بيبرس رسله وأهداه هدية ثمينة مرفقة برسالة مكونة من سبعين ورقة بغدادية<sup>(3)</sup>، فكانت الرابطة بين الدولتين روحية قوية ضد خطر مشترك وأمر الخطباء بالدعوة له على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة بعد الدعاء للسلطان بيبرس<sup>(4)</sup>.

كما استمرت العلاقة بين خليفة بركة خان "منكوتر سنة 665هـ/1267م بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس بقيادة أبغا<sup>(5)</sup> أما الناصر محمد بن قلاوون فقد تبادل السفارات والهدايا مع طقاي ملك القفجاق للمشاركة في محاربة غازان إيلخان زعيم مغول فارس<sup>(6)</sup> عام 703هـ/1303م. ووجد العلاقات مرة أخرى مع زعيم القفجاق "أزبك خان" عام 715هـ/1315م في فترة حكمه الثالثة، وذلك بطلبه الزواج من أميرات بيت جنكيز خان<sup>(7)</sup> فأرسل له أزبك خان إحدى أميراتهم عام 719هـ/1319م المسماة "دلبنية" ويقال طولونية إلى الاسكندرية بحراً وتزوجها السلطان الناصر محمد<sup>(8)</sup>.

وهكذا وطد هذا الزواج السياسي العلاقات بين الدولتين واستمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد و"جاني بك" ابن أزبك خان<sup>(9)</sup> عام 748هـ/1347م ثم بدأ الفتور يعتري هذه

<sup>(1)</sup> دولة مغول القفجاق: القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مجتمعاتها وملكها جوجي ابن جنكيز خان والواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا. وانتشر الإسلام بين هذا الفرع من التتار بعد اعتناق رئيسهم بركة خان الإسلام مما وثق العلاقة مع دولة المماليك وزاد عداؤهم مع مغول فارس، وأخذ يستقبل المغول المسلمين الخاضعين لهولأكو والفارين من حكمه إلى الشام. المقرئ: المواقظ والاعتبار، ج2، ص117-118. انظر توماس: أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ص259-260.

<sup>(2)</sup> المقرئ: السلوك، ج1، ص495، وقد حارب بركة هولأكو لاعلاء كلمة الله كما ذكر العيني: عقد الجمان، ج20، مجلد3، ورقة 494 مخطوط.

<sup>(3)</sup> ن.م. ن. ص. القلقشندي، م.س، ج2، ص476. ذكر "فالورق البغدادي: كان أجود أنواع الورق وأكبره سعة وكان مخصصاً لكتابة المصاحف ومكاتب الملوك". القلقشندي: م.س. ج6، ص190.

<sup>(4)</sup> المقرئ: ن.م، ج1، ص498.

<sup>(5)</sup> العيني: م.س، ج20، مجلد3، ورقة 357 "مخطوط".

<sup>(6)</sup> المقرئ: السلوك، ج2، ص7.

<sup>(7)</sup> النويري: نهاية الأرب، ج3، ص30، ورقة 137، "مخطوط". حيث يذكر تردد رجال أزبك خان وتشددهم في المهر وكثرة الشروط بل وتمنعهم مما جعل السلطان الناصر محمد يوحل ذلك مؤقتاً.

<sup>(8)</sup> المقرئ: ن.م، ج2، ص304-305.

<sup>(9)</sup> القلقشندي: ن.م. ج7، ص295-296.

العلاقات بعد هذا التاريخ لزوال خطر أيلخانية مغول فارس ثم ظهور عوامل ضعف وانحلال دولة مغول القفجاق بعد ذلك.

### العلاقة مع دولة هندستان وسلطان دهلي 724-751هـ/1324-1351م:

لقد استطاع محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلي في توطيد علاقته مع المماليك عندما ارسل سفارته محملة بالهدايا الثمينة الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون وطلب منه المساعدة ضد المغول عام 730هـ/1329م وعندما حصل على تقليد من الخليفة العباسي في القاهرة المستكفي بالله العباسي لشرعية ولايته على بلاده وكذلك فعل خليفته فيروزشاه الثالث سنة 751هـ/1349م بالحصول على التفويض العباسي فارسل له الخليفة المعتضد بالله ذلك سنة 756هـ/1354م<sup>(1)</sup>.

### العلاقة بين دولة المماليك والحجاز:

لقد أهتم المماليك بالإشراف على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة لتعلق قلوب المسلمين بها مما دفع السلطان الظاهر بيبرس للتدخل في صراع أمراء الحجاز على الإمارة عام 664هـ/1266م بين الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة والشريف جمار أمير المدينة فاصلح بينهما باقتسام السلطة مناصفة بينهما وتدخل أيضاً عام 666هـ/1268م في صراع الشريف نجم الدين أبي نمي وبين عمه وشريكه في الإمارة الشريف بهاء الدين ادريس فاصلح بينهما وقرر لها مبلغ عشرين ألف درهم سنوياً على أن لا يجمعوا مكوساً من أحد ولا يتعرضوا للتجار أو أي أحد من زوار المسجد الحرام، هذا بالإضافة الى الخطبة باسمه في الحرم وكتابة اسمه على النقود<sup>(2)</sup>. ولتأكيد سلطته أدى فريضة الحج عام 667هـ/1269م وغسل الكعبة بيديه وعين أحد أمرائه شمس الدين مروان نائباً عنه في مكة<sup>(3)</sup> الأمر الذي لم يعجب أمير مكة جمار ومالك اللذين رفضا مقابلته وقرأ من مكة. وبعد وفاة بيبرس لم تستقر العلاقات مع المماليك لاستمرار الصراع بين أمراء الحجاز كما حدث زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي

<sup>(1)</sup> سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص342.

<sup>(2)</sup> المقرئ: السلوك، ج1، ص560، 579.

<sup>(3)</sup> العيني: م س، ج2، مجلد3، ورقة551، مخطوط. والنوري: نهاية الأرب، ج28، ورقة51، 52، مخطوط.

تدخل في الصراع بين الشريف منصور وابن اخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع من عمه إمارة المدينة مما دفع الناصر لنجدة الشريف منصور فارسل بعض الجند لمعاونة منصور الذي استنجد به<sup>(1)</sup>. كما تدخل السلطان الناصر محمد عام 713هـ/1313م خلال فترته الثالثة في الصراع بين امراء مكة وخاصة الأخوين حميضة وأسد الدين رميثة عندما شكى الناس منهما فارسل جيشاً وعزلهما وأحل أخيهما أبي الغيث محلهما في الحكم<sup>(2)</sup>. كما حرص سلطان المماليك على أداء فريضة الحج للاطلاع على أوضاع الناس هناك للمساهمة في حل المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين، ووزع القمح والغلال على الفقراء والمحتاجين لاقرار النظام والأمن<sup>(3)</sup>.

### علاقة المماليك مع اليمن:

لقد ارتبط حكام اليمن من بني رسول بعلاقات ودية مع سلاطين المماليك في مصر والشام فارسلوا لهم السفارات والهدايا مثل التحف والطيور والحيوانات والفيلة وخاصة للسلطان بيبرس عام 666هـ/1268م، 669هـ/1271م، 674هـ/1276م فسر الظاهر بيبرس وأحسن استقبال السفارات وردّ على الهدايا بأحسن منها<sup>(4)</sup>. واستمرت العلاقات الودية بينهما زمن المظفر شمس الدين حاكم اليمن 680هـ/1282م والسلطان قلاوون عندما ارسل له الهدايا من العنبر والعود الصيني وغيره بعد توتر بسيط في العلاقات بينهما فبعث المظفر يطلب الأمان من قلاوون فاعطاه ذلك<sup>(5)</sup>.

(1) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص118.

(2) أبو الفداء: م س، ج4، ص72.

(3) المقرئ: السلوك، ج2، ص197، 238.

(4) المقرئ: ن م، ج1، ص563، 595، 621. هذا ويرجع بعض المؤرخين ذلك الى خشية بني رسول سطوة سلاطين المماليك في مصر ولأن قيام الخلافة العباسية في مصر منح المماليك نوعاً من الولاية على بقية العالم الاسلامي كما ورد سابقاً في تقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله للسلطان للظاهر بيبرس الديار المصرية والشامية والحجازية واليمنية والفراتية. د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص339.

(5) بيبرس الدوادار: م س، ج9، ورقة 123، أورد النص على ألا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا، ما دام ملازماً لشروط مردتنا... محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص130.

كما حرص سلاطين المماليك على إخبار أهل اليمن عن انتصاراتهم على المغول زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 701هـ/1302م<sup>(1)</sup>.

ومن الملاحظ، أن المظفر ملك اليمن كان يستغل انشغال سلاطين المماليك بحرب المغول وغيرهم فيعلن العصيان والانفصال لموقع اليمن البعيد في جنوب الجزيرة العربية وما يشير إلى هذه الحقيقة تمرد ابنه الملك المؤيد هزبر الدين داوود ابن المظفر عام 702هـ/1303م الذي تمرد على سلطة المماليك ناصر وضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر لمصر.

هذا وتعود أسباب تذبذب العلاقات اليمنية المملوكية إلى الأوضاع الداخلية في اليمن أحياناً كالمنازعات بين أمراء اليمن من جهة أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى مما أتاح الفرصة لسلاطين المماليك للتدخل في شؤون اليمن وإرسال النجيدات لبعض الأمراء في صراعه مع الآخرين<sup>(2)</sup>.

### العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ومالي:

لقد كانت هناك صلات ثقافية وتجارية وأخرى تتعلق بشؤون الحج كالتريق إلى الأماكن المقدسة<sup>(3)</sup>. وكذلك مر أحد ملوك ماليو "التكرور منساولي" بمصر في طريقه إلى الحج أيام بيبرس<sup>(4)</sup> وحج أيضاً أمام السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث قدم للسلطان هدايا ذهبية كبيرة فأكرمه وأهداه الخلع والسيوف والخيول والجمال والمؤونة<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ من أسلوب المكاتبات بين ديوان الانشاء في سلطة المماليك وملوك السودان الغربي بأنهم كانوا يخاطبونهم "الجناب الكريم العالي" بينما كانوا يخاطبون ملوك شمال إفريقيا

(1) محمد جمال الدين سرور: م، س، ن ص.

(2) المقريري: السلوك، ج2، ص259-260.

(3) ابن خلدون: العبر، ج5، ص434.

(4) القلقشندي: م، س، ج5، ص293، يذكر أن منسا: تعني السلطان، وولي: تعني علي. وانظر ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج2، ص275.

(5) العمري: مسائل الأبصار، ص943، 954-955.

بلقب المقام العالي<sup>(1)</sup>، مما يدل على أنهم جاؤوا في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد ملوك شمال افريقيا كما أقامت بعض طوائف التكرور في مصر طلباً للعلم على مشايخ الأزهر أمثال ابن جوزي وابن حيّان<sup>(2)</sup> وبني تجار التكار ومدرسة للمالكية بمصر عرفت بمدرسة رشيق.

### العلاقة بين سلطنة المماليك والصول الإسلامية في شمال افريقيا:

لقد ارتبطت هذه الدول بعلاقات ودية مع سلطنة المماليك في مصر انطلاقاً من رابطة الدين الاسلامي ورابطة الحج للأماكن المقدسة ورابطة الخلافة ورابطة الجوار الجغرافي ورابطة خطر الغرب الأوروبي المشترك الذي كان يهدد العالم الاسلامي ولكن تلك الروابط لم تمنع توتر العلاقات أحياناً وخاصة زمن بني حفص حكام تونس ابتداءً من 626هـ/1228م والذين لم يطلبوا تفويضاً بالحكم من الخليفة العباسي في بغداد لدرجة أن بعضهم من مثل أبي عبد الله الأول الحفصي (647-676هـ/1249-1278م) اتخذ لقب الخلافة والإمامة وتلقب بالمستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الامراء الراشدين<sup>(3)</sup>. فعندما أعلن الظاهر بيبرس سنة 658هـ/1260م إحياء الخلافة العباسية في القاهرة أوجد ذلك نوعاً من الكراهية بين سلطنة المماليك وملوك الحفصيين في تونس عندما حاولت سلطنة المماليك التقليل من شأن خلافة الحفصيين<sup>(4)</sup>. كما يلاحظ من المراسلات الصادرة عن ديوان الانشاء ما يشير الى عدم اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين "فلقبوهم بأمير المسلمين" وليس "بأمير المؤمنين" لأنه أقل رتبة ويعني أحد أمراء المسلمين الذين يعملون تحت لواء الخلافة<sup>(5)</sup>.

(1) القلقشندي: م س، ج 8، ص 7.

(2) السخاوي: الضوء الاعم، ج 7، ص 2، وانظر المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 365، والمقرئزي: السلوك، ج 1، ص 649.

(3) القيرواني: المؤنس في أحباب افريقيا وتونس، ص 128. حيث ذكر أن الذي شجعه على هذه الخطوة شريف مكة أبو نعي بن الحسن الذي اعترف بسيادة الحفصيين على مكة وكذلك سفارتان من سلطان بن مرين وملك التكرور في السودان.

(4) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 12، "بأن ملك تونس يُخاطبُ بأمير المؤمنين في بلاده" وكذلك شكك القلقشندي بنسب الحفصيين لقريش، القلقشندي: م س، ج 7، ص 377 وتبعه أبو المحاسن: م س، ج 7، ص 32. حيث قال: "وفيها 652هـ وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على افريقيا وادعى انه خليفة وتلقب بالمستنصر".

(5) د. سعيد عاشور: م س، ص 344.

ولكن الأخطار الخارجية الغربية المتمثلة في نزول الصليبيين في تونس بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا عام 668هـ/1270م بادر بالاستعدادات العسكرية لنجدتها<sup>(1)</sup>. هذا وكانت العلاقات ودية بين الملك الناصر محمد بن قلاوون وصاحب تلمسان غرب الجزائر وذلك من خلال المراسلات الودية بينها<sup>(2)</sup>.

كما سادت العلاقات الحسنة بين الدولة المملوكية والمغربية من آل مرين زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وبودلت الهدايا بينهما<sup>(3)</sup> كما حاولت غرناطة التقرب من السلطان الملك الأشرف شعبان زمن حاكمها أبو عبد الله محمد بن يوسف الأحمر حوالي سنة 767هـ/1365م<sup>(4)</sup>.

ويلاحظ على الروابط التي ربطت المغرب العربي بسلطنة المماليك بأنها علاقات وثيقة لأسباب عديدة كالخطر الأوروبي المشترك وخطر المغول الذي داهم الشرق الإسلامي مما جعل المماليك يحرصون على إرسال البشائر إلى المغرب بعد انتصاراتهم على المغول والصليبيين. بالإضافة إلى أن مصر كانت ملجأ للمعارضة الهاربة من المغرب ومقراً لهجرة المغاربة إلى مصر طلباً للعلم<sup>(5)</sup> والرزق حيث كان معظمهم من الصوفييين الفقراء بالإضافة للعلاقات التجارية بين البلدين<sup>(6)</sup>.

### علاقة دولة المماليك مع الدول غير الإسلامية:

لقد لوحظ من الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك وحكام الدول غير الإسلامية أن هذه الدول هي التي كانت البادئة بطلب ود المماليك البحرية أيام قوتهم ومهابتهم، وثروتهم وموقع بلادهم الاستراتيجي الهام، كالبيزنطيين والأحباش، ودولة سويس الأرمنية شمالي سوريا، ومع

(1) المقرئ: السلوك، ج 1، ص 950.

(2) الفلقشندي: م. س. ج 8، ص 85-87.

(3) ن. م.، ج 7، ص 389-395.

(4) ن. م.، ج 8، ص 107-114.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج 3، ص 327، 361-362، ج 4، ص 327. والسيوطي: حسن المحاضرة، ج 2، ص 86. وابن خلدون:

المقدمة، ص 294.

(6) ابن خلدون، ن. م.، ج 7، ص 451، والمقدمة: ص 294.

حكام جنوا والبندقية وصقلية وغيرها من دويلات ايطاليا، ومع مملكة أراغون. فلقد أظهر ملوك الحبشة تذللهم للظاهر بيبرس<sup>(1)</sup> وكذلك "رمشكد" ملك النوبة الجديد الذي أقسم الولاء للملك الظاهر بيبرس<sup>(2)</sup> ويظهر من هذه الرسائل بأن ملوك الحبشة وبلاد النوبة في شمالها كانوا شبه تابعين لسلطين الممالك الأقوياء.

وكذلك فعل "ليفون ابن قيوم" صاحب سيس عندما شعر بضعفه أيام السلطان قلاوون فطلب الهدنة مع يمين الولاء بالأخلاص<sup>(3)</sup>. كما فعل حكام جنوة مع السلطان قلاوون بطلب الهدنة والسماح بحرية التجارة بين البلدين بعد أن أقسموا بعدم خيانة هذا العهد<sup>(4)</sup>. وأرسل ملك أراغون وأخوه ملك صقلية هدية للسلطان المنصور قلاوون يطلبون عقد هدنة معهم، والسماح بحرية التجارة، وإطلاق سراح الأسرى، وتأمين بلاد الطرفين وتغورهما وأساطيلهما والتعاون بين الطرفين<sup>(5)</sup>. بعد أن أقسم كل منهما بعدم نقضها<sup>(6)</sup>. وكذلك فعل ملك الحبشة مع قلاوون عندما طلب الصلح مع إرساله الهدايا الثمينة طالباً السماح لرهبانه بزيارة بيت المقدس<sup>(7)</sup> وقد توجت هذه العلاقات بالفخر والاعتزاز عندما أراد ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن "آل باليولوغ" التقرب الى السلطان قلاوون بارساله رسالة يقسم فيها بالله والمسيح والإنجيل بالولاء للسلطان عام 680هـ/1282م طالباً حرية التجارة بين البلدين وعدم الإعتداء، والاعفاء من الرسوم وتبادل اللاجئين<sup>(8)</sup> فرد قلاوون بالقبول<sup>(9)</sup>. فبرهن على اهتمامه بالتجارة الخارجية مع الهند والصين بمنحه الحماية والرعاية والأمن للتجار. وتتابع العلاقات الودية مع دول وسط أوروبا النصرانية حتى أن ملك الصرب "فراكس" طلب الأمان له ولأتباعه من السلطان الملك الناصر

(1) ابن الفرات: م.م. ج7، ص24-25.

(2) ن.م. ج7، ص47-48.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص93، 102.

(4) ن.م. ص165-169.

(5) ابن عبد الظاهر: ن.م. ص156-162.

(6) ن.م. ص162-164.

(7) ن.م. ص170.

(8) ابن الفرات: ن.م. ج7، ص229-231.

(9) ن.م. ج7، ص231-232.

محمد بن قلاوون لزيارة بيت المقدس فأمنه على ذلك<sup>(1)</sup> وعندما دب الضعف في جسد الدولة المملوكية بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون نتيجة للصراع الدموي على العرش بين أولاده وهجوم تيمورلنك على بلاد الشام، كل ذلك أدى إلى الاضطراب الأمني في البلاد وركود حركة التجارة حتى جاء عهد المماليك الشراكسة زمن السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق.

## علاقة دولة المماليك مع الصليبيين:

### المماليك والدبلوماسية:

لقد دخل سلاطين المماليك في علاقات دبلوماسية مع الصليبيين أسفرت عن عقد العديد من المعاهدات معهم نتيجة لمشاكلهم الداخلية والخارجية والتي كانت امتدادا لللاوضاع في العهد الأيوبي من حيث طبيعة النظام الإقطاعي الذي قامت على أساسه الدولة والنزاعات الفردية للأمراء ورغبتهم في الاستقلال عن سلطة السلاطين مما أدى إلى تجدد النزاع والفرقة في دولة المماليك، هذا بالإضافة إلى الأخطار الخارجية المتمثلة بالخطر المغولي<sup>(2)</sup>.

لقد راسل السلطان الظاهر بيبرس سنة 666هـ/1268م أوك بن هزي "Hugh"<sup>(3)</sup> صاحب عكا بقصد الصلح فتم الاتفاق على ما يلي: أن تكون حيفا للفرنج مع ثلاث ضياع، وأما عكا وبقية مناطق وبلاد الكرمل فمناصفة بينهما<sup>(4)</sup>. وبلاد صيدا المنخفضة للفرنج والمناطق الجبلية للسلطان بيبرس ومدة الهدنة عشر سنوات مع إطلاق الرهائن والأسرى ثم أرسل بيبرس القاضي محي الدين عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شت إلى صاحب عكا ليوقع على الهدنة حيث أوصاهما بعدم التواضع له فلما دخلا كان الملك جالسا على كرسية فلم يجلسا حتى وضع لهما كرسيين فجلسا قبالة، وتقدم الوزير ليأخذ الكتاب منهما فرفضتا حتى مد الملك يده وأخذه، حيث لم يوافق على بعض الأمور المكتوبة وتركوه ولم يوقع<sup>(5)</sup>. وفي شهر جمادي الآخرة

(1) القلقشندي: م.س. ج 13، ص 327-328.

(2) د. عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص 73، 74.

(3) العيني: عقد الجمان، ص 236. Stevenson: Crusaders in The East, P. 342.

(4) الكرمل: حصن بالجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام، ياقوت: معجم البلدان، ج 4، ص 267.

(5) المقرئزي: السلوك، ج 1، ص 571.



777هـ/1375م قدمت رسل صاحب القسطنطينية على السلطان على بن الأشرف شعبان بالهدايا حيث كان فيها صندوق من العجائب لاحتوائه على ألعاب زمنية مختلفة<sup>(1)</sup>.

أما فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) فقد كان يمثلهم الرهبان والقنصل لدى السلطات المملوكية في فلسطين حتى أوائل القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، ثم توترت العلاقات معهم بسبب غاراتهم المشتركة مع قراصنة القبارصة على الشواطئ الشامية والمصرية في شرقي البحر المتوسط<sup>(2)</sup>. ومما تجدر الإشارة إليه أن أعداد الحجاج قد تأثرت بالظروف السياسية التي تمثلت بعلاقات السلطات الإسلامية بالمغرب الأوروبي.

ومن المعاهدات التي عقدت بين الطرفين لتأمين زيارة الحجاج المسيحيين للقدس معاهدة قلاوون مع فرنج عكا سنة 682هـ/1284<sup>(3)</sup>.

"... وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم على اختلاف اجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويُصَلَّى بالكنيسة الأقساء والرهبان. وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة. وإذا أُلقيت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برأ، ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بنائه، ولا يتعرض للأقساء والرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق..."

وهناك معاهدة بين السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وملك أرجون الفرنجي 692هـ/1293م:

"... وعلى أنه اذا وصل من بلاد الملك "دون حاكم" وبلاد أخويه وصهره. ومعاهده من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك "دون حاكم" وختمه الى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف، يفسح له في الزيارة مسموحاً بالحق، ليقضي زيارته، ويعود

(1) ابن أبياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط2، ج1، ق2، القاهرة 1987/1403، ص158.

(2) دراج، م.س. ص146، هامش رقم 95.

(3) المقرئزي: م.س، ج1، ص944. والقلقشندي: م.س، ج14، ص61-62، 69. والمقرئزي: ن.م، ج1، ص990، ذكر نصاً من معاهدة قلاوون مع أفرع عكا أعلاه وأبن الفرات: م.س، ج7، ص262-270.

الى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة، بحيث أن "دون حاكم" لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء الملك الأشرف في أمر الزيارة شيء<sup>(1)</sup>.

وأما بالنسبة للتحويل من دين لآخر تهرباً من التزامات مادية فقد لجأ الطرفان لمواجهة تلك التصرفات في معاهدتهم كما ورد في معاهدة قلاوون مع افرنج عكا سنة 682هـ/1284م: "... وعلى أنه متى هرب كائناً من كان من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعنية في هذه الهدنة وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر بإرادته، يرد جميع ما يروح معه ويبقى عرياناً وإن كان ما يقصد الدخول في دين النصرانية ولا يتنصر رد إلى أبوابها العالية. بجميع ما يروح معه بعد أن يعطي الأمان وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويقصد الدخول في دين الاسلام، وأسلم بأرادته يُردُّ جميع ما معه ويبقى عرياناً<sup>(2)</sup>. وإن كان ما يقصد الدخول في دين الاسلام ولا يسلم، يُردُّ إلى الحاكم بعكا وهو كفيل المملكة والمقدمون، بجميع ما يروح منه بشفاعة، بعد أن يُعطى الأمان"<sup>(3)</sup>.

### العلاقة بين المماليك والحبشة :

لقد كانت العلاقات السياسية بين الحبشة وسلطنة المماليك نابعة من طبيعة المذهب الكنسي في الحبشة حيث كانت الكنيسة الحبشية تتبع الكنيسة المرقسية بالاسكندرية التي كانت تعين رجال الدين "المطارنة" وترسلهم الى كنيسة الحبشة فيقوم ملك الحبشة بارسال مبلغ ضخم من المال على شكل ضريبة من رعاياه<sup>(4)</sup>. ثم توترت العلاقات بين الدولتين بسبب الحروب الداخلية في الحبشة والتي جعلت ملك الحبشة يتأخر في الرد على رسالة الظاهر بيبرس مما أغضبه فمنع إرسال "مطران" لكنيسة الحبشة" الأمر الذي أجبر ملك الحبشة على إحضار مطران سرياني سوري من بلاد الشام فلم يعجبهم فعاد ملك الحبشة يرجو ويتوسل الى السلطان بيبرس لارسال

(1) الفلقشندي: م س، ج14، ص69.

(2) أنور عبد العليم: الملاحه وعلوم البحار عند العرب، ص210. والمقريري: السلوك، ج1، ص991-993. وانظر: الفلقشندي: ن م، ج14، ص45، ذكر "هدنة بيبرس مع الإمبراطورية عام 669هـ".

(3) المقريري: ن م، ج1، ص944، الفلقشندي: ن م، ج14، ص61-62. وابن الفرات: م س، ج7، ص262-270.

(4) ابن الفرات: م س، ج7، ص24-26. وسعيد عاشور: م س، ص303.

مطران من كنيسة الاسكندرية فكان بيبرس يعتبر ذلك عقاباً لملك الحبشة لتأخره في الرد على سفارته.

ولما جاء السلطان المنصور قلاوون 678هـ/1279م استجاب لرغبة ملك الحبشة فسمح بإرسال المطران المطلوب لكنيسة الحبشة وكانت صيغة المراسلات تتسم بعبارات التملق<sup>(1)</sup> حتى خيل لبعض المؤرخين اعتبار ذلك شبه تبعية لسلطين المماليك<sup>(2)</sup>.

وأما العامل الديني الثاني فكان مرور الحجاج الأحباش المسيحيين بمصر في طريقهم الى القدس لزيارة كنيسة القيامة بل وكان لهم دير كبير في المدينة المقدسة يتشرف على الجالية الحبشية المتواجدة في بيت المقدس إذ كان ملوك الحبشة يرسلون لرهبان الدير الهبات والهدايا فضلاً عن الالتماس من السلاطين المماليك في حسن معاملة أولئك الرهبان كما جاء في رسالة ملك الحبشة "يجبأصيون" الى السلطان المنصور بن قلاوون<sup>(3)</sup>.

ومن الأهمية بمكان أن نشير، الى تنبه الغرب الصليبي والبابوية الحاقدة الى هذه العلاقة ووجود الجالية الحبشية الكبيرة في بيت المقدس في الإستفادة منها في محاربة المسلمين خاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية "في حرب التحرير والتصفية الاسلامية" التي قام بها المماليك فاستجاب ملوك الحبشة لنداءات البابا واعد حملة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب عندما هاجمها ملك قبرص بطرس لوزجنان عام 765هـ/1325م زمن السلطان الأشرف شعبان بن حسن<sup>(4)</sup>.

(1) كقولهم: "... وهذا الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ويهلك الله عدوه..." النويري، نهاية الأرب،

ج28، ورقة 46، مخطوط. ابن الفرات: م س، ج7، ص24-26. سعيد عاشور: م س، ص303.

(2) انظر السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ظ210. والعمرى: التعريف بالمصطلح الشريف: ص48.

(3) محي الدين عبدالظاهر: م س، ص170، 173. وابن اياس: م س، ج5، ص22.

(4) ولزيد من التفاصيل: أنظر أبو المحاسن: م س، ج6، ص637-640، طبعة كاليفورنيا. وسعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج2،

ص1213-1214.

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# الفصل الثالث

## الحياة الاقتصادية

أولاً : نظام الإقطاع

ثانياً : الزراعة

ثالثاً : الصناعة

رابعاً : التجارة

خامساً : النظام المالي والنقود

## أولاً : النظام الإقطاعي

أ- الصليبي.

ب- الأيوبي.

ج- المملوكي.

### مقدمة:

تعد الحياة الاقتصادية أكثر المظاهر تأثراً بالوضع السياسي والاحداث الاجتماعية، فهناك علاقة طردية بين الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في جميع المجتمعات البشرية، حيث كانت الأزمات السياسية في جميع العصور التاريخية سبباً رئيسياً في حدوث الاضطراب الاقتصادي وارتفاع الاسعار بالاضافة للجفاف وتوقف نزول المطر.

فقد أعاق الصليبيون عجلة الحضارة الاسلامية وعملوا على تأخرها وعدم ازدهارها، بينما كانت نعمة على الأوربيين الذين تأثروا بهذه الحضارة الراقية من صناعات : كصناعة الاسلحة والحديد والنسيج والورق والزيت وغيرها، وفنون حربيه، ناهيك عن نهر الثقافة العربية الاسلامية التي شربوا منها حتى الثمالة، فذلت لغتهم كثير من الكلمات العربية، وعلى الجانب الآخر فقد تأثر المسلمون بهم في كثير من عاداتهم في البيوع والتجارة واللباس والطعام، كما نقلوا أصول الهندسه المعمارية في بناء قصورهم وكنائسهم وزخرفتها.

وعندما هلّ العصر الأيوبي باحداثه الهامة والتغيرات الكبيرة في بلاد الشام معاصراً للغزو الصليبي والتنافس السياسي بين الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة على بلاد الشام لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية، أعاد الوحدة الوطنية والقومية بل وحدة الخلافتين في المشرق والمغرب الاسلامي أمام الزحف الصليبي وخاصه بعد معركة حطين الخالدة، كما أعاد التقدم الحضاري في كافة الميادين على الرغم من كثرة الحروب واستمرارها مما جعل تركيز الباحثين ينصب على الاحداث العسكرية والسياسية في هذه الفترة وإهمال الجوانب الحضارية الأخرى عدا إشارات بسيطة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، كما كانت بلاد الشام بعد خضوع اغلبها لصالح الدين الأيوبي تخضع من الناحية الادارية والمالية للدواوين المصرية في الادارة المركزية للسلطنة الأيوبية في مصر أو على الأقل كانت الدواوين بالشام فروعاً للدواوين المركزية في مصر

خاصة بعد خروجه منها عام 573هـ / 1177م بقصد جهاد الصليبيين ولم يرجع لمصر ثانية حيث توفي بدمشق عام 589 هـ / 1193م هذا واستمر خطر الصليبيين أيام المماليك يهدد أمن البلاد واقتصادها لتزييفهم النقود، وشنهم الحروب بالتحالف مع المغول فكان الشعب الفلسطيني يدفع الثمن كمسرح للعمليات العسكرية لقتلهم الرجال واستيلائهم على الابقار والمواشي والأغنام<sup>(1)</sup>. فكانت هذه الحروب نزيفاً لاقتصاديات فلسطين وشرقي الأردن انعكس على حياة السكان في المدن والأرياف، مما دفع القبائل البدوية التي كانت تعيش على هوامش المدن إلى نهبها وسلبها كما حدث في غزة ونابلس لإهمال الدولة لهم أثناء الحروب هذا بالإضافة إلى محاربة الصليبيين وعقد اتفاقية معهم عام 682 هـ / 1284م حيث أصبحوا يسيطرون على كل فلسطين باستثناء مدينة عكا الساحلية كقاعدة صليبية<sup>(2)</sup>.

### **وبالنسبة للعلاقة بين مملكة بيت المقدس وشرقي الأردن زمن الطليبين:**

فقد سيطرت على منطقة شرقي الأردن اقتصادياً حيث امتدتها بالقمح من حقولها الخصيبه، فضلاً عن المورد المالي من الضرائب التي فرضتها على القوافل المارة عبر الأردن من العراق إلى الشام وإلى مصر وبالعكس، كما حولت القوافل التجارية اليمنية إلى ميناء عكا<sup>(3)</sup>. كما سيطرت عليها عسكرياً ببناء القلاع والحصون شرقي الأردن اذ اعتبرتها خط الدفاع الأول عن بيت المقدس ضد المسلمين، كما تحكمت في حركة المواصلات بين اجزاء العالم الاسلامي وخاصة طريق الحجاج لمدة ثلاثة أرباع القرن (من 509 - 84 هـ)<sup>(4)</sup>. ومنعت قيام وحدة عسكرية بين دمشق والقاهرة وبين انحاء الأمة العربية.

(1) أبو شامة: المقدسي: الذيل على الروضتين، ط 2، بيروت 1974، ص 20.

(2) عارف العارف: تاريخ غزة، م س، ص 140.

(3) عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 489.

(4) العمري: مسالك الابصار، ج2، مجلد 3، ورقة 55، ص، مخطوط.

## النظام الإقطاعي في فلسطين زمن الصليبيي :

لقد تمثلت املاك الفرنجة في فلسطين في مملكتهم في بيت المقدس التي قسّموها إلى أربع بارونيات هي: بارونية شرقي الأردن، وبارونية يافا، وبارونية الجليل، وبارونية صيدا. وقد طبقوا على فلسطين نظام الإقطاع الأوروبي، حيث كان الملك أعلى سلطة إقطاعية، يليه أربعة من كبار الأمراء حكام البارونيات ذات الإدارة المستقلة "دويلات المدن" أو ممالك المدن وهؤلاء الأمراء يتبعون الملك ويلبون مطالبه المادية والعسكرية في حرب المسلمين. ثم اسسوا محكمة تشريعية اتحادية عليا، لفض المنازعات بين النبلاء وللمصادقة على القوانين الجديدة في المملكة.

## الإقطاع الصليبي في جنوب بلاد الشام:

كان لابد من الاشارة لهذا النظام الإقطاعي لأنه عاصر إقطاع الأيوبيين في جنوبي بلاد الشام. لقد جلب الصليبيون معهم من اوربا تقاليد المؤسسات الإقطاعية ؛ لذا فإن الافراد الذين منحهم الحاكم الصليبي الارض احتفظوا بها بشرط أن يؤدوا له خدمات معينة، بارسال مسلحين في الوقت والمكان المعنيين بموجب طلب الحاكم<sup>(1)</sup>.

هذا بالإضافة إلى المدن التي التزمت بتجهيز الفرسان وفقاً لثروتها<sup>(2)</sup>. ويلتزم نبلاء المدن والنبلاء الذين يملكون مساكن فيها، بينما تقدم الطبقة البورجوازية الضرائب نقداً<sup>(3)</sup>.

وكان المقطع يؤدي الخدمة طوال العام عند الضرورة العسكرية، بينما كانت خدمة المقطع في غرب اوربا اربعين يوماً.

كما كان السيد الإقطاعي يدعو أتباعه لتأدية الخدمة المقدرة، فاذا زادت عن ذلك دفع لهم نفقات زائدة عن المقررة لهم بينما لم تحدد مدة الخدمة في بيت المقدس لأنها كانت في حالة حرب مستمرة<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> Smaile, Crusading Warfare, p. 88

فكان على كبار المنظرين في مملكة المقدس وهم : كونت يافا وعسقلان، وسيد صور، وأمير الجليل أن يقدم كل واحد منهم مائة فارس للملك بكامل عدتهم، بينما يقدم أمير شرقي الأردن (الكرك ومونريال) ستين فارساً.

<sup>(2)</sup> فكان على بيت المقدس ان تقدم واحداً وستين فارساً ونابلس خمسة وسبعين فارساً وعكا ثمانين فارساً، وصور ثمانية وعشرون فارساً، وبيروت واحد وعشرين فارساً، والداروم فارسين حيث بلغ المجموع ستمائة وستون فارساً.

<sup>(3)</sup> Runciman, A history of the Crusades, II, P. 298

<sup>(4)</sup> Smail op cit. p. 142.



وفي حالة توقف الملك عن دفع أرزاق اتباعه من حائزي الإقطاعات النقدية يحق لهم ان يبيعوا سلاحهم ويُعفي أولادهم من الخدمة العسكرية.

أما صاحب الإقطاع العقاري فكان لا يُعفى من الخدمة المقررة على إقطاعه الا اذا وقع الإقطاع في ايدي المسلمين ولم يسترجع سيده هذا الإقطاع وهنا يستطيع التحلل من يمين الولاء والطاعة وما التزم به من خدمات. اما اذا حاول سيده استرجاع هذه الأراضي وفشل فله التحلل من الخدمات مع بقاءه على الولاء والطاعة<sup>(1)</sup>.

هذا وتتساوى الإقطاعات النقدية مع الإقطاعات العقارية من حيث الولاء والخدمة بينما كان الإقطاع النقدي المبذول من الملك افضل من الإقطاع العقاري المبذول من سيد آخر في الخدمة الشخصية، حيث يعتبر البارونات اتباعاً للملك كما يعتبر أتباع البارونات اتباعاً للملك أيضاً، وعليهم جميعاً تأدية الخدمة الشخصية له. لذا كان الإقطاع النقدي هاماً بالنسبة لمملكة بيت المقدس اكثر من الإقطاع العقاري في الغرب الاوروبي لانهم كانوا يؤدون خدمات عسكرية مستمرة طويلة الامد لمملكة بيت المقدس.

ويتضح لنا عوائد هذا النظام الإقطاعي على الطرفين حيث ان العلاقة هي ميدان القتال لأن مهمة الملك حمايتهم في حين كان الواجب على الأمراء هو الخدمة في جيش الملك<sup>(2)</sup>.

وكان هناك إقطاع من نوع ثالث هو الإقطاع الديني أي إقطاع رجال الدين والكنائس الذين كانوا يقدمون الجنود بما يتناسب مع إقطاعاتهم من الأراضي، فكان على اسقف بيت المقدس تقديم مائتي جندي واسقف اللد مائتي جندي أيضاً.

بينما كان أسقف عكا وصور يقدمان مائة وخمسين جندياً، اما رئيس اساقفة قيسارية ودير جبل الزيتون، ومدينة صور مائة جندي لكل منها أما اسقفية جبل نابلس ثلاثمائة جندي، ودير جبل صهيون مائة وثلاثون جندياً وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد الجنود الملتحقين من قبل الإقطاعات الكنسية بخمسة آلاف وخمس وعشرين جندياً<sup>(3)</sup>.

(1) جمعة الجندي : حياة الفرقة، رسالة ماجستير، ص 204.

(2) Step Honson, Mediaeval Feudalism, pp. 27 - 28.

(3) Smial , Crusading Warfare, p 93.

وكان المصدر الرابع لجنود مملكة بيت المقدس يتمثل في الفرسان الرهبان وخاصة الدأوية والإسبتاريه الذين كانوا في الأصل منظمة طبية علاجيه، ثم تحولت إلى هيئات ذات طابع حربي لحماية الكيان الصليبي في بلاد الشام<sup>(1)</sup>. واعتمدوا في تمويل نشاطهم الحربي على إقطاعاتهم الواسعة في اوربا<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> Smail : Crusading Warfare, p. 95 Runciman , A history of the crusades, 11 mayer : The Crusades. P.128, 16111 p. 312. وللمزيد انظر: ابن الأثير: م.س، ج8، ص 218، جمع الجندي: ن.م، ص 210، Archer. The Crusades, p. 127. 128.

<sup>(2)</sup> ستيفنس : الحروب الصليبية، ص 193. 103. Painter, Middle Ages, p. 211, Smail , Crusading Warfare, p. 103.

وثمة ملاحظة هامة لفتيات الامة العربية يتوجب الاشارة اليها وتتعلق بمدى مشاركة المرأة الفرنجية في الحروب الطاحنة بدافع ديني عقائدي متخفية في زيتها العسكري ولم يكن يكتشف امرها الا بعد اسرها او قتلها<sup>(1)</sup>.

## الإقطاع الأيوبي

### مقدمة

لقد ورث الايوبيون نظامهم الإقطاعي عن الزنكيين<sup>(2)</sup> الذين ورثوه عن السلاجقة والذين نقلوه عن البويهيين مع بعض التعديلات التي قام بها نظام الملك وزير اب ارسلان السلجوقي على مدى ثماني سنوات (457-465هـ) لاصلاح البلاد الواسعة والتي كانت تحتاج لنوع من الاستقلال الذاتي تمنحه السلطة للأمراء هناك كما هو الحال في اتساع حدود الدولة الأيوبية لذا كان هذا القطاع استغلالاً وليس تمليكاً، فكان الجندي يرث أباه في حقه باستغلال الاقطاع فقط بخلاف إقطاع الغرب الأوروبي وقد تضمن هذا الإقطاع معنى الولاية والحكم وانتقل فيما بعد لدولة المماليك<sup>(3)</sup>. كما لوحظ على هذا الإقطاع أنه لمصلحة الدولة العليا وليس لمصلحة الأمراء فقط، فتأثر به صلاح الدين أيام الدولة الزنكية ومن خلاله حكمه لمصر أيام الفاطميين عندما تسلم كافة إقطاعات الضباط الفاطميين ووزعها على امرائه بعد اسقاط هذه الدولة وعزا ذلك لتقوية مذهب السنة في مصر<sup>(4)</sup> وكان يرفض استقلال المقطع بإقطاعاته وتوريثها<sup>(5)</sup>.

(1) انظر ابو شامة : م س، ج2، ص 149 ن ص 162.

قال : " وفي يوم الواقعة طلعت منهن نسوة لمن بالفرسان أسوة وفيهن مع لينهن قسوة وليس لمن سوى السوايغ كسوة، فما عُرفن حتى سلبن و عرين ومنهن عدد سبين واشترين... "

وللمزيد من المعلومات : انظر : ابن شداد : م س : ص 130، 167، 178، وابن الاثير، م س، ج2، ص 334، والاصفهاني : م س، ص 228، 231، و 349، وابن واصل : م س، ص 264.308 Lanepoole , Saladin,

(2) النبداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 122، حيث ذكر العماد الأصفهاني في البرق الشامي طريقته في الإقطاع فقال: "انه إذا أقطع الامير اقطاعاً وعين بعيرته ضياعاً قرر عليه رجالاً ذوي عدد، لا ينقصون في خيل وسلاح وعدد. فإذا نقص مغل الاقطاع عن المبلغ أتم له نقداً من خزانته".

(3) ابراهيم طرخان علي: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، 1388هـ/ 1968م، ص 21-22، ص 49.

(4) ابن شداد م س، ص 41.

(5) حيث رفض عام 579 هـ / 1183م مطلب اخيه العادل في منحه الاستقلال بمدينة حلب فرد عليه : " اظننت ان البلاد تباع او ما علمت ان البلاد لاهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاه للدين وحراس لامواهم ". ذكر ذلك : ابو شامة، ن م، ج2، ص 5.

لذا عمد صلاح الدين في إقطاعاته إلى تكليف احد الأمراء الثقات بادارة المدن والقلاع بكفاءة على ان يرسل عساكره في اوقات الحروب أي ان هذا النظام كان نوعاً من الادارة للاقاليم بالنيابة عن السلطان بهدف المصلحة العامة وتقوية الجهاد في سبيل الله فكان يعزل من يتبع هواه ويخرج عن هذه الخطة<sup>(1)</sup>.

وهكذا كان صلاح الدين يرسل تعليماته لولاته في الاقاليم حول التصرف في ادارة إقطاعاتهم ليحصلوا على ثقة رعاياهم فكانت حرية ولاته المقطعين مقيدة بشروط من اجل الصالح العام والولاء للدولة<sup>(2)</sup>. والتزاما بتعاليم الدين الاسلامي حيث كان مقياس استقامة الوالي ومدى تمسكه بتقوى الله ومدى قدرته ولباقته في مداراة ارباب الدولة والأمراء<sup>(3)</sup>. وكسب ثقة الناس محبتهم وولائهم وطاعتهم للسلطنة بتوزيع الأموال عليهم<sup>(4)</sup>.

وتذكرنا هذه السياسة بسياسة معاوية بن ابي سفيان : في توزيعه الأموال بهدف كسبه ولاء بني هاشم واهل الحرمين وبني أمية أيضا بالاضافة لاستخدام السياسة والإعتذار اذا وجب لأنه كان يرى في استقامة الولاة والمقطعين استقامة الرعية. وكانت مناشيره بخصوص الإقطاعات تبدأ غالباً بذكر البسملة ثم الحمد لله تعالى ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأتي موضع المنشور "التوقيع"<sup>(5)</sup>.

(1) ابن واصل : م.س، ج2، ص 163-164.

حيث اورد نص بعض مناشير الإقطاع لاحد الأمراء في إربل جاء فيه : " ان الله لما مكن لنا في الارض، ووقفنا في اعزاز الحق واطهاره لاداء الفرض، رأينا ان تقدم فرض الجهاد في سبيل الله فوضح سبيله.. فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضة واقتناء هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الضيعة، ومن اخلد إلى الارض واتبع هواه واعرض عن حق دينه باتقائه على باطل دنياه فان تاب ورجع قبلنا، وان اصر على غوايته ازلنا يده وعزلناه".

(2) ابو شامة، م.س، ج2، ص 124، وابن واصل، ن.م، ج2، ص 224.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، 123.

وقد جاء ذلك في وصيته لابنه الملك الظاهر بدمشق عام 588 هـ / 1192م، : " اوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير، وامرك بما امرك الله به، فان سبب نجاحك، واحذر من الدماء والدخول فيها، والتقلد لها، فان الدم ينم، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنتم أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت وما بلغت الامتدانة الناس، ولا تحقد على احد، فان الموت لا يبغي على احد... "

(4) البنداري : م.س، ج1، ص 298.

(5) وقد اورد ابن يحيى نموذجاً لتوقيعات : لجمال الدين حجي بن بحر بإقطاعه جبل بيروت وهو " الحمد لله وبه توثيقي "

بسم الله الرحمن الرحيم

وبإجراء الأمير جمال الدولة على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور لما وصل إلى الخدمة السلطانية... في العشر الآخر من جمادى الأولى ثلاث وثمانين وخمسمائة "

ابن يحيى : تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحريين من بني المغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت 1898م، ص 75-76.

وأما الديوان الذي كان ينظم هذه الإقطاعات بالنسبة لاجناد السلطان واجناد الأمراء فهو ديوان الجيش كما مرّ معنا في فصل الإدارة حيث كان يسجل أسماء المقطعين وإقطاعاتهم وجميع افراد الجيش دون استثناء كما كان من اختصاص هذا الديوان منح إقطاعات للجنود على ان يأخذ الجندي المقطع الجديد لأول مرة دخل إقطاعه من تاريخ تعيينه فقط وليس من أول السنة الهلالية أو الخراجية كما يخصم عليهم مدة غيابهم بدون اذن شرعي<sup>(1)</sup>.

ومما يؤخذ على سياسة صلاح الدين الأيوبي باسناد الوظائف المهمة لابنائهم وأقربائه وخاصة ولاية البلدان وامارة قطعات الجيش مما يشبه الأنظمة الوراثية المحافظة اليوم مما يناقض اهدافه في المساواة والعدالة والتقوى بين الناس<sup>(2)</sup>، ومما أدّى للصراع على الحكم بعد وفاته فكان يعين أبناءه وأخوانه وأقاربه الامر الذي أدى لضعف الدولة وسقوطها.

### وبالنسبة للملكية في العصر الأيوبي:

فقد كانت ملكية الأراضي في العصر العباسي ثلاثة انواع وهي: أراض الصوافي : ويملكها بيت المال، كما يتصرف بها الخليفة بطريقة الهبة أو الاستغلال أو الإقطاع.

وأراضي الخراج : أي الأراضي المفتوحة بالقوة العسكرية، ويدفع مستغلوها الخراج. وأما النوع الثالث فكانت الأراضي الميثة التي تُسْتَصْلَح، وهي ملك لمن يشتغلها كأرض عشيرة فكانت هذه الارض هي البذرة الاولى للإقطاع الذي نما وتوسع بعد تسلط الأعاجم على الخلافة العباسية، فأخذ السلاطين والأمراء يقطعون الأراضي للجيش مقابل شروط معينة. وهكذا وجد نوعان من الإقطاع هما المدني والعسكري

**فالإقطاع المدني:** هو ان يقسم السلطان الأراضي الزراعيه اقساماً يحتفظ لنفسه بنسبه معينة ويمنح البقية لأمرائه، والشخص المقطع يستغلها لنفسه<sup>(3)</sup>، وكان السلطان يمنح اقليماً بكامله مقابل ضريبة محددة او يقطع جزءاً من الارض مقابل العشر أو الخراج<sup>(4)</sup>، أو توزيع قطعة من الأرض كأجر أو معاش<sup>(5)</sup>.

(1) حسنين ربيع: النظم المالية، ص 38-39، 62-63.

(2) وللمعرفة للمزيد من ذلك : انظر : ابن واصل، م.س، ج 2، ص 20، 23، 35، وابن الاثير : الكامل ج 2، ص 97، 98، 99، وابو شامة، م.س، الروضين، ج 2، ص 226-227.

(3) مصطفى الدباغ بلادنا فلسطين - الجليل - بيروت 1972، ج 5، قسم 2، ص 7.

(4) أنور الرفاعي : النظم الاسلامية - دار الفكر 1392 هـ / 1973 م، ص 171-172.

(5) دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثاني، ص 476، مادة إقطاع. الماوردي: ابو الحسن علي بن محمد ت (450 هـ / 1058)، الاحكام السلطانية، طبعة انجربونا 1853، ص 330-343.

واما الإقطاع العسكري: فهو الذي يمنح للأمير أو الجندي حسب رتبته العسكريه وبلائه في الحرب وذلك كمصدر دخل سنوي<sup>(1)</sup>.

وكان السلطان يقطع الأمراء الجنود مقابل الخدمة العسكرية<sup>(2)</sup>، والمحافظة على الامن الداخلي والخارجي للسلطنة، فكان هناك ديوان للجيش تصدر منه أوامر الإقطاع العسكري، وتوسع هذا الإقطاع منذ عهد المعتصم بالله (218-227 هـ / 833 - 842 م)<sup>(3)</sup>.

ثم زمن البويهيين ايام معز الدين البويهى الذي انفرد بالسلطة مدة اربعين يوماً فاقطع قواده وجنده من الاثراك ضياع السلطان وضياع الفارين وغيرها. وكان له الحق في الغائها حسب ارادته<sup>(4)</sup>. ولكن الجند لم يقيدوا بشروط الإقطاع وتصرفوا حسب مصالحهم<sup>(5)</sup>.

واستمر هذا الإقطاع بطابعه البويهى زمن السلاجقة الذين سيطروا على السلطة في بغداد بعد طردهم البويهيين سنة 447 هـ / 1050 م مما ساهم في تخريب البلاد فحاول الوزير نظام الملك زمن السلطان ألب أرسلان 457 - 465 هـ / 1065-1072 م ان يدخل تعديلات فعمم الإقطاع الحربى في جميع ارجاء الدولة السلجوقية<sup>(6)</sup> حيث وزع أراضي الدولة على الجنود مقابل تقديم المقطع له عدداً من الجنود للخدمة في الجيش السلطاني وحرصوا على عدم تركيز الإقطاع في يد واحدة خوفاً من الاستقلال والثورة<sup>(7)</sup> وفي زمن آل زنكي في عهد السلطان نور الدين امر سنة 558 هـ / 1163 م بإبقاء الإقطاع بيد اولاد الجندي المتوفي فأدخل مبدأ الوراثة للإقطاع<sup>(8)</sup> وكانت

(1) الباز العريبي: الماليك، بيروت 1967، ص 171.

(2) طرفان ابراهيم علي: م س - القاهرة - 388 هـ / 1968، ص 94.

(3) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن (ت 346هـ-957م)، التنبيه والإشراف، بيروت 1968، ص 345.

(4) مسكويه: أبو علي احمد بن محمد (ت 421 هـ / 1029م)، تجارب الأمم باعثناء آمد روز القاهرة-أكسفورد 1920-1921، ج2، ص 97، ج3، ص 169.

أبو يوسف: كتاب الخراج، القاهرة 1392هـ / 1972م، ج2، ص 61-62. ابن عساکر: أبو القاسم ثقة الدين

علي بن الحسن (ت 571هـ) تهذيب تاريخ دمشق الكبير هذب ورتبه عبد القادر بدران، دار السيرة، بيروت 1979، ج3، ص 356.

(5) مسكويه: ن.م، ج2، ص 98-99. حيث عرف الإقطاع بقوله: " ان تكون لصاحبه ملكية تامه، وقد تكون وراثيه أيضاً وعلى صاحبها

دفع العشر ويُعطى من الأرض الموات لإحيائها أو من أراضي من توفي صاحبها دون وارت، وكان الهدف من الإقطاع في صدر

الاسلام التعمير والاسكان ويرجع لعهد رسول الله (ص).

(6) انظر: ابراهيم طرخان، ن.م، ص 21-22، والباز العريبي، ن.م، ص 165.

(7) العريبي: ن.م، ص 166. المقريري: الخطط ج 1، ص 153-154.

(8) المقريري: ن.م، ج 3، ص 54، الباز العريبي: ن.م، 1978، ص 166-167.

إقطاعات آل زنكي مقابل خدمات حربية أو أمنية تمنح لاستمالة بعض الأمراء المتنفذين من خارج دولته كما فعل نور الدين عندما استمال ملك الأرمن ضد الفرنجة بمنحه إقطاعات كبيرة لموقعه الاستراتيجي بسيطرته على الطرق المؤدية للشام لمنع الفرنجة من المرور بأراضيه<sup>(1)</sup>.

وكما فعل صلاح الدين الأيوبي أيضاً سنة 585 هـ / 1189م مع صاحب شقيق ارنون الفرنجي<sup>(2)</sup>.

وهكذا قامت الدولة النورية المتفرعة من الدولة السلجوقية على نظام إقطاعي حربي يسمح بالوراثة الإقطاعية أحياناً، وقد تربى في ظل هذا النظام أفراد البيت الأيوبي، حيث استطاع صلاح الدين بعد قضائه على الدولة الفاطمية التي حكمت أكثر من قرنين من الزمان ان يدخل تعديلات في النظام الإقطاعي<sup>(3)</sup>، وخاصة العسكري المرتبط بالجيش عماد دولته واعتمد صلاح الدين الأيوبي في سداد نفقات جيشه<sup>(4)</sup> على نظام الإقطاع العسكري الذي اخذه عن السلاجقة. ووزع إقطاعات الجند الفاطميين على عسكره، وبلغ عدد افراد قواته من الفرسان ستة الاف سنة 570 هـ/1174-1176م عند استيلائه على دمشق<sup>(5)</sup>.

وعندما سار إلى حطين كان عدد افراد جيشه ما يقارب اثني عشر ألفاً من الفرسان المشاه<sup>(6)</sup>. وهكذا سار صلاح الدين على نهج سيده نور الدين زنكي، وقسم أراضيه دولته على ابنائه واهل بيته على اسس إقطاعية<sup>(7)</sup> وسار على خطته اخوه ابو بكر الملك العادل حيث وزعها على ابنائه مما جعل مصر والشام كلها إقطاعات عسكرية<sup>(8)</sup> حيث اصبحت أراضيه مصر كلها إقطاعات للسلطان وامرائه وجنوده، وبالقيااس فان أراضيه الشام اصبحت كلها إقطاعات.

(1) ابو شامة: م س ج 1، ص 8، ص 123-125.

(2) للمزيد من المعرفة انظر ابن شداد: الخطط: النوادر السلطانية، القاهرة 1964.

(3) المقريري: المواعظ والاعتبار ج 1، ص 158.

(4) كان جيشه مكوناً من طائفتين الاسدية نسبة لاسد الدين شيركوه في حملته الثالثة على مصر سنة 564 هـ / 1166م وعددهم حوالي خمسمائة فارس من الاكراد والمماليك، والصلاحية من المماليك الخاصة به بقيادة ابي الهيثم بعد انسحاب التركمان من جيشه وعودتهم لبلاد الشام. انظر: ابن الاثير، م.س، ج 11، ص 227 (دار صادر بيروت 1402 هـ / 1982م) والباقر العربي: الأيوبيون - دار النهضة - بيروت 1386 هـ / 1967م.

(5) ابو شامة: ن م، ج 1، ص 217، ص 248.

(6) هاملتون جب: التاريخ الاسلامي - دمشق - ص 107-108. والعريبي: ن م ص 163.

(7) ابن كثير: م.س، ج 12 - دار الفكر 1978، ج 13، ص 6.

(8) المقريري: الخطط ج 1 ص 179، والسلوك ج 1 ص 11، ص 48، ص 91، ج 2 ص 82.

وفي سنة 582 هـ / 1186م أقطع صلاح الدين ابنه الأفضل علي دمشق<sup>(1)</sup> كما استرد من اخيه العادل ابي بكر حلب مقابل إقطاعه حران وميفارقين<sup>(2)</sup>، وعلى ان يتنازل عن جميع إقطاعاته في الشام ما عدا البلقاء والكرك والشوبك والتي عوضه عنها بالبلاد الشرقية<sup>(3)</sup> والجزيرة واطراف دجلة.

كما أقطع ابن اخته حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين نابلس بعد طرد الصليبيين منها في اعقاب معركة حطين الخالدة سنة 583 هـ / 1187م<sup>(4)</sup> هذا وقد سار على نهجه اخوه الملك العادل وأبناؤه كما أقطع العزيز بن صلاح الدين للأمير فارس الدين ميمون القصري نابلس سنة 591 هـ / 1194م<sup>(5)</sup> وذلك لبلائه في الحرب.

كما وزع ابناء الملك العادل ابي بكر جميع إقطاعاتهم على امرائهم لكسب طاعتهم وولائهم للمحافظة على الامن الداخلي والخارجي للسلطنة. حيث وزع المعظم عيسى البلاد الشامية على مماليكه للصمود أمام الصراعات الداخلية<sup>(6)</sup>.

ويلاحظ من ذلك أنهم كانوا يقطعون جميع العناصر التي تؤيدهم وتعمل على نصرتهم بغض النظر عن جنسيتهم أو أصولهم السكانية.

### إدارة الإقطاع:

لقد تشدد الأيوبيون في نظام الإقطاع بوضعهم شروطا خاصة لحماية الفلاحين من ظلم اسيادهم الإقطاعيين تقرباً إلى الله<sup>(7)</sup>، فشجع هذا النظام الفلاحين على احتفاظهم بأراضيهم<sup>(8)</sup>. وهكذا نرى ازدواجية في الادارة الأيوبية حيث تمثل ذلك بوجود جهاز مركزي كبير في العاصمة وأجهزة إقطاعية محلية صغيرة في الأقاليم في آن واحد وقيام كل من هاتين الإدارتين بشؤون الصرف المالي<sup>(9)</sup>.

(1) المقرئزي : السلوك ج 2، ص 82، وأبو الخاسن، م.س، ج 6، ص 113.

(2) ابراهيم طرخان : م.س، ص 38.

(3) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت - تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي - وكمال سليمان الصليبي ورفاقه، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية - بيروت ص 80 بدون تاريخ.

(4) المقرئزي : السلوك ج 1، ص 152.

(5) طرخان : م.س، ص 43.

(6) طرخان : م.س، ص 44.

(7) انظر رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين : في كتاب الروضتين ج 2، ص 205.

(8) حسنين محمد ربيع - النظم المالية - جامعة القاهرة 1964، ص 34، 80.

(9) ن.م، ص 80.



وكان مركز توزيع الإقطاعات هو ديوان الإقطاع " ديوان الجيش" للجميع<sup>(1)</sup>. وكانت سجلات هذا الديوان التي تثبت فيها اصحاب الإقطاعات وجميع افراد الجيش تُسمى " الجرائد الجيشية"<sup>(2)</sup> حيث السنين القمرية<sup>(3)</sup> كما قام ديوان الجند بالصرف على القلاع الحربية والقوات البرية بينما اختص ديوان الاسطول بالصرف على القوات البحرية.

وهكذا استطاع الأيوبيون ترسيخ النظام الإقطاعي العسكري الذي ورثه المماليك والعثمانيون عنهم فيما بعد.

والذي اصبح من موارد الدولة المالية وذلك باجبار المقطع ان يدفع جزءاً من غلته نقداً بما يعادل 2-3 دراهم عن كل اردب حيث كان متوسط خراج الطرف من 2-3 اردب أي درهماً واحداً عن كل اردب<sup>(4)</sup> الذي يساوي اليوم 198 لثراً<sup>(5)</sup>.

ومن الرسوم المقررة على الفلاحين ايضاً المساهمة في ميزانية الدولة<sup>(6)</sup> رسم الأوقاف 'الأحباس'، رسم الجراريف 'لإصلاح الجسور'، ورسوم الأجران<sup>(7)</sup>، ورسم الحراسة والمراعي والكيالة، والأتبان.

ويحق للمقطع التصرف بايرادات إقطاعه الا اذا نصّ المرسوم على ذلك<sup>(8)</sup>. وكما حدد له عدد الجنود الذي يجب اصطحابهم معه إلى الحرب حسب دخله<sup>(9)</sup>. فاذا أخل بهذه الشروط حرم من إقطاعه<sup>(10)</sup>.

(1) ابن الفرات : ناصر الدين بن محمد بن عبد الرحيم ( ت 807 هـ / 1404م). تاريخ الدول والملوك أو تاريخ ابن الفرات، تحقيق

الدكتور حسن محمد السماع 1386 هـ / 1963م، البصرة، العراق، مجلد 4، ج 1، ص 147.

(2) حسنين محمد ربيع م.س ص 62-63.

(3) التويري : م.س، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - وزارة الثقافة والارشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ج 8 - ص 200-203.

(4) انظر : طرخان : م.س، ص 149، وحسنيين محمد ربيع م.س ص 33.

(5) المقريري : شذور العقود، مطبعة النجف 1967، ص 108.

(6) الباز العريبي : الأيوبيون ص 197.

(7) الاجران : البيادر : وهي الأراضي التي يدرس عليها القمح والحبوب ومازالت حتى اليوم.

(8) الباز العريبي : ن.م، ص 157.

(9) حسنين محمد ربيع، م.س ص 35، الدوري، عبد العزيز: نشأت الإقطاع في المجتمعات الاسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 20 لعام 1970.

(10) المقريري : السلوك ج 1 ص 64-65، العماد الاصفهاني : الفتح القسبي، ص 351-353، حيث اشاروا إلى سحب صلاح الدين إقطاعات الأمراء الهارمين أثناء هزيمتهم أمام عكا عام 573 هـ / 1175م، وهزيمتهم في موقعة الرملة سنة 587 هـ / 1191م.

أما من حيث أساليب التوقيعات الإقطاعية الأيوبية فقد نصت على اتباع العدل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والابتعاد عن الرشوة وحسن إدارته الإقطاعية وعلى المحبة والتفاهم مع ساداتهم<sup>(1)</sup> وعلى حسن الجوار. وأما التوقيعات للأمراء الكبار فكانت تبدأ بـ " الحمد لله " <sup>(2)</sup>. بينما كانت عبارة " أما بعد " البداية لتوقيعات الأمراء الصغار<sup>(3)</sup>.  
وبالنسبة لتوقيعات العناصر الممتازة في الجيش فكانت تبدأ بعبارات المديح : القلم والريح قلمان..... أيها الأمير فلان أيدك الله<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة لآثار النظام الإقطاعي العسكري على الاقتصاد الأيوبي في بلاد الشام فقد لوحظ أنه شجع على ازدهار الاقتصاد لاهتمام الفلاحين بأراضيهم بعد حماية صلاح الدين للفلاحين من ظلم ساداتهم عندما حرم المقطعين من أية حقوق إدارية أو سياسية على عمال الأراضي المقطعة<sup>(5)</sup>.  
وكان القمح المحصول الرئيسي للزراعة الشامية، إلى جانب زراعة الفواكة والقطن والقصب الذي كانت تحتكره الدولة كمورد نقدي ولاهتمامهم بنظام الري واستخدام الاسمدة والآلات المناسبة وخاصة زمن الملك المعظم عيسى بن العادل الأول في الكرك التي أصبحت تضاهي دمشق بكثرة بساتينها وخضرتها وتدفق مياهها وطيب هوائها<sup>(6)</sup>، وكانت الحروب الأهلية تؤثر على الانتاج الزراعي.

أما من حيث آثار الإقطاع على الصناعة والتجارة فلم تكن واضحة حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية لاهتمامهم أهل الشام بتربية دودة القز وكذلك القطنية في المدن الشامية والتي كانت خاضعة لإشراف الدولة عن طريق المحتسب الذي منع الغش والاحتكار كما ازدهرت التجارة بعد توحيد مصر والشام وتأمين الطرق التجارية وخاصة عصر السلطان العادل 597-615هـ/1201-1218م وعصر ابن الكامل: من سنة 615 هـ - 635هـ / 1218-1238م. فكانت ازهى عصور الأيوبيين بعد صلاح الدين<sup>(7)</sup>.

(1) القلقشندي: صبح الاعشى ج 11، ص 33-34، ج 13، ص 144-148.

(2) القلقشندي: صبح الاعشى ج 13، ص 144-148.

(3) ن.م ج 13 ص 148-150.

(4) القلقشندي: ن.م، ج 13، ص 150-152، إبراهيم طرخان : م.س، ص 391 - 392-393.

(5) أحمد صادق سعد : تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، بيروت 1979م، ص 457.

(6) غوانمة : إمارة الكرك الأيوبية - الناشر : بلدية الكرك 1400 هـ / 1980م. ص 181.

(7) حسنين محمد ربيع : م.س ص 19.

وهكذا يلاحظ على الإقطاع الأيوبي أنه كان يمثل جزءاً من ممارسة إداريه أقدم عليها سلاطينهم وملوكهم الذين عينوا فيها الأمراء والولاة والوزراء والقضاة والجند وغيرهم من الموظفين الذين تقاضوا رواتبهم عن طريق توزيع الإقطاع المعادل للراتب النقدي<sup>(1)</sup> شأنه شأن الإقطاع السلجوقي وإقطاع الأراتقة والأتابكة والأتابلة والخوارزميين سابقاً الذي وزع على أمراء الاسرة المالكة وكبار الموظفين كالولاة والشحن وقادة الجيش مع بقاء هذه الإقطاعات في وحدة اقليمية<sup>(2)</sup>، وكان على المقطع له ان يأخذ نصيبه منها وارسال الباقي إلى خزينة الدولة ليتم انفاقها على تعمير البلاد وإيجاد شيء من اللامركزية لضبط امور الدولة، حيث نستطيع تسمية هذا النوع من الإقطاع "بالإقطاع الاداري"<sup>(3)</sup>.

أما الإقطاع الحربي "العسكري" فقد اقترن بما يؤديه المقطع من خدمات حربية وخضع لسيطرة الحكومة المركزية فلم يكن وراثياً ومن النادر ان يكون مدى الحياة، واهتمت الادارة الأيوبية بتسجيل ما يقدمها لمقطع من الفرسان في خدمته<sup>(4)</sup>.

وقد لوحظ على التوزيع الإقطاعي بأنه سار على نموذج السلاجقة والزنكيين وعالج مشكلة الجند المقيمين في المدن والذين يديرون إقطاعاتهم بالوكلاء عنهم، فاصبح الفلاحون والمزارعون تابعين للجند الذين يزودونهم بالمال للانفاق على زراعة الارض<sup>(5)</sup>.

(1) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، مجلد 1، ص 301.

(2) ابراهيم طرخان : النظم الإقطاعية، ص 11-47، والعريبي : الشرق الادنى ص 192.

(3) العريبي: ن.م، ن.ص.

(4) ن.م، ن.ص وابن واصل : مفرج الكروب ج 2، ص 175، حيث ذكر حالة نادرة على ان صلاح الدين الأيوبي اقطع لاولاد لأسد الدين شيركوه حصص وبلادها إلى ان هاجما المغول عام 658هـ / 1260م.

(5) ابراهيم طرخان: ن.م، ص 32.

كما كان على الأمير الأيوبي المقطع أن يكرس ثلثي وارده من الإقطاع لخدمة الفرسان المحاربين وقت المعارك والثلث الباقي لنفقاته الشخصية<sup>(1)</sup>.

كما لوحظ أيضاً على حق المقطع " بالكسر " في استرداد إقطاعه من المقطع " بالفتح " في الحالات التالية :

- إذا ساء " المقطع " بالفتح " معاملة الرعية كما حدث عام 578 هـ 1181م، عندما اشتكى أهل نصيبين من سيرة أبي الهيجاء السمين والي صلاح الدين فعزله<sup>(2)</sup>.

- وعند وفاة المقطع " بالفتح " يعود الإقطاع للسلطان كما حدث عام 574 هـ / 1178م<sup>(3)</sup>.

---

(1) ابن واصل م. س، ج 3، ص 240.

(2) ن. م ج 2، ص 124.

(3) ن. م ج 2، ص 70، بعد وفاة صاحب حمّة شهاب الدين الحارمي.

- وعند خوف " المقطع " بالكسر " على خروج الإقطاع من يده فقد استرجع الملك الظاهر صاحب حلب "قلعة نجم" بعدما أقطعها لآخيه الأفضل خوفاً من أخذ الملك العادل لها<sup>(1)</sup>، فكلما كان يشعر المقطع " بالكسر " بعدم ولاء المقطع "بالفتح" أمر بعزله وضم إقطاعه الى أملاكه كما حدث عام 629هـ / 1289م.

كما يلاحظ استخدام الإقطاع وسيلة للدفاع عن الوطن عندما قرر سلاطين الأيوبيين ابتداء من صلاح الدين الأيوبي ثم المعظم عيسى ثم الكامل محمد ثم الصالح أيوب إقطاع الساحل الشامي لمماليكهم مقابل حماية الساحل الشامي من غارات الصليبيين ومواجهة كياناتهم المجزأة في الشام. وعلى العموم فقد حولوا أراضي الإقطاع إلى أراضي انتفاع أي أن تبقى ملكية الأرض للدولة وللمقطّع " بالفتح " حق الاستغلال فقط<sup>(2)</sup>.

ومن أمثلة الدفاع والمحافظة على الاستقرار إقطاع الملك العادل ابو بكر بن ايوب جبل عوف " جبل عجلون" لعز الدين أسامة، فبنى عليه قلعة الربض الحصينة خوفاً من أهلها الشائرين والمتمردين بعد سحق مشايخ بني عوف فبدأ باكمال البناء، هذا وقد بناها مكان دير لراهب اسمه عجلون فسميت باسمه<sup>(3)</sup> وأما قلعة الصلت فقد بناها الملك المعظم عيسى بن العادل<sup>(4)</sup> للتصدي لثورة قبائل المنطقة المتمردة حول مدينة الصلت في البلقاء.

هذا ويمكننا القول بان الادارة الأيوبية استطاعت استيعاب جميع نظم المنطقة المعمول بها قبلهم أو المعاصرة لهم كما استطاعوا تعديل بعضها بما يلائم ظروفهم السياسية، وتميزت بدقة التنظيم والادارة والابداع في العمل<sup>(5)</sup>.

(1) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ( قسم الجزيرة ) ورقة 264. ابن واصل : ن.م، مجلد2، ورقة 891-893، مخطوط، ذكر مصادر الملك

العزير لقلعة شيزر من صاحبها شهاب الدين يوسف التي كانت من اقطاعاته لأنه لم يستقبله استقبالاً يليق بمقامه.

(2) انظر : زكي المنذري : التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار معروف، مطبعة الاداب في النحف الأشرف 1388هـ / 1968م، ج 1،

ص 189. وللمزيد من المعرفة انظر المخزومي ( ت 585هـ / 1189م ) : المنهاج في صناعة خراج مصر.

(3) العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ص 188، وابن شداد : ن.م، ج 2 ص 82-91، وخليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص 156.

(4) وكان سبب بناؤها ان بني رهمان من قرية كفر يهود اعتدوا على قافلة له وسبوا حواريه فبناها على قمة جبل يُعرف براس الأمير. ابن شداد : ن.م، ج 2 ص 83-85. والظاهري : ن.م ص 156.

(5) ابن الأثير : الكامل ج 12، ص 164.

## الأوقاف الأيوبية :

كانت نوعاً آخر من ملكية الأراضي لأغراض دينية وإنسانية للمساجد والبيمارستانات والمدارس والجسور والقنوات والينابيع والخانات أو فك رقاب الأسرى والعبيد أو للمجاهدين<sup>(1)</sup>. وقد شاركت النساء الخواتين بالأوقاف بالانفاق على المساجد والمدارس والرباطات<sup>(2)</sup>. وقد سمي الديوان الذي يشرف على الوقف ديوان البر (الأحباس)<sup>(3)</sup>.

(1) ابن جبير: م.س، ص 193، وابن بطوطة، م.س، دار التحرير 1386 / 1966م. ويذكر العماد الاصفهاني ما اوقفه صلاح الدين على امام

جامع قبة الصخرة في بيت المقدس داراً وارضاً وبستاناً، العماد الاصفهاني: الفتح القسي ص 141-142.

(2) محمد ياسين الحموري: دمشق في العصر الأيوبي - المطبعة الهاشمية - دمشق - بدون تاريخ، ص 52-53.

(3) كلود كاهن: تاريخ الشعوب الاسلامية من ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية المجلد الاول، ترجمة بدر الدين القاسمي ط 1،

بيروت 1972، ص 179-180.

## الإقطاع المملوكي :

لقد كان الإقطاع العسكري النظام الأساسي لدولة المماليك البحرية حيث أقطع سلاطينهم الفرسان والضباط والجنود إقطاعات تتناسب مع رتبهم. فتكونت بذلك طبقة عسكرية حاكمه هي الفئة المقطعة، بينما يعمل بقية أفراد الشعب في إقطاعاتهم... لتقدم الفائض من الحاصلات للمقطعين.

ويلاحظ على هذه الإقطاعات أنها كانت تمنح من قبل السلاطين لأمراء الجيش مكافأة لهم على نشاطهم العسكري في معاركهم مع المغول والصليبيين كما فعل الظاهر بيبرس عندما وزع واردت قيسارية وأرسوف على الساحل الفلسطيني على الذين ابلوا بلاء حسناً ضد الفرنجة بعد طردهم منها.

وقد تفاوتت الإقطاعات من أمير لأخر حسب أهميته حيث أقطع البعض قرية بكاملها أو أن تكون القرية مناصفة بين أميرين وأحياناً يقطع ثلاثة أو أربعة أمراء قرية واحدة<sup>(1)</sup>. واستمرت الدولة في الاستقرار في عهد قلاوون وابنه خليل والناصر الذي تقرب للناس باعفائهم من الضرائب التي كان يتهربون منها عام 702هـ/ 1300م<sup>(2)</sup> وبناء المساجد في معظم القرى.

كما كان الإقطاع في العرف المملوكي - وفي عرف جميع الدول الإسلامية - امراً شخصياً لا دخل لحقوق الملكية والوراثة فيه، فكان المقطع يحل في الإقطاع محل السلطان ل يتمتع بغلاته وإيراداته، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها، أو بسبب وفاة المقطع إذا كان الإقطاع لمدى الحياة، أو بسبب اخلال المقطع بشروط العقد القائم. وكان هناك إقطاع آخر هو الإقطاع العادي أو إقطاع الاستغلال، وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة<sup>(3)</sup>.

ويلاحظ من هذه الصفة الشخصية للإقطاع الإسلامي بانه مشابه للإقطاع الأوروبي في أوائل القرون الوسطى - أي حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تقريباً حيث كان الإقطاع هناك

(1) المقرري : السلوك ج 1 ص 530-534.

(2) ن.م، ن.ص، والقلقشندي : صبح الاعشى ج 3، ص 28-30، وانظر المقرري ن.م. ج 2، ص 937-941.

(3) القلقشندي، ن.م، ج 13، ص 104-117.

هبة من الملك لأتباعه وليس هناك قواعد وقوانين تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشيئة الملك، ثم تطور بعد هذا التاريخ، فصار هناك عقد محدد بين الملك والمقطّع، وكان الابن يخلف أباه كوارث علماً بأنه لم يكن هذا من شروط العقد الإقطاعي في أوروبا<sup>(1)</sup>.

لذا يمكن القول بأن الإقطاع زمن الممالك في هذه الفترة المعاصرة لهم كان مختلفاً في صميمه عن الإقطاع الأوربي حيث استخدم بعض السلاطين الإقطاع لكسب القلوب والولاء<sup>(2)</sup>.

### الإقطاع المملوكي ومميزاته :

كما تعتبر النظم الإقطاعية المملوكية تنظيمات إدارية وسياسية واقتصادية واجتماعية وحرية ودينية وقد اختلف هذا النظام عما كان في غرب أوروبا من حيث الاهداف والتنظيم فبينما ادت الحروب الصليبية التي قامت على قوة الإقطاعيين إلى اضعاف الإقطاعيين في أوروبا والتمهيد للملكية "Royalism" ساعدت هذه الحروب على تقوية هذا النظام في الاسلام<sup>(3)</sup> وأدت إلى نشوء الامبراطورية المملوكية الإقطاعية التي قامت على التصدي للاخطار المحيطة بالعالم الاسلامي من مغول وبيزنطيين و صليبيين. فقد وزع المماليك على امرائهم واجنادهم بعد هزيمة المغول عام 1260/658م في عين جالوت وبعد انتصارهم على الصليبيين بالشام عام 660هـ/ 1262م أراضي من جنوب الشام وساحل فلسطين كإقطاعات على امرائهم وجنودهم والفرسان<sup>(4)</sup> كما مر معنا سابقاً في فصل الادارة، فكتب الظاهر بيبرس ستاً وخمسين منشوراً من الاقطاع كما وزع أكثر من ثلاثمائة منشور إقطاعي على أصحابها بعد فتح الكرك للعربان والأجناد<sup>(5)</sup>.

(1) المقريري، ن.م، ج 2، ص 509.

(2) كما فعل الظاهر بيبرس بابقاء إقطاع الأمير شجاع الدين والي سرمين ( من اعمال حلب بعد أسر الفرنج له بيد اخوته وغلمانهم استجلاً للقلوب، ياقوت، معجم البلدان، ج 3، ص 903.

وكذلك فعل قبله نور الدين محمود بن زنكي حيث انه " اذا مات الجندي اعطى السلطان إقطاعه لولده، فان كان صغيراً عين من يلي امره حتى يكبر، فكان اجناده يقولون : الإقطاعات من املاكنا يرثها اولادنا الولد من الولد ؛ فنحن نقاتل عليها، المقريري: المواعظ، ج 2، ص 216. وج 1، ص 95-98، القلشندي/ م.س، ج 4، ص 50-51.

(3) لقد اعتبر فقهاء المسلمين البلاد المفتوحة عنوة ولم يسلم أهلها أرض خراجية كارض السواد بالعراق وارض الشام منذ زمن عمر بن الخطاب ويصبح إقطاعها للقاتلين وكل أرض صولح أهلها عليها ولم يسلموا فهي كذلك أرض حراية وتظل بأيدي أصحابها وان اسلموا فهي عشيرة وإقطاعتها في هذه الحالة إقطاع إرفاق أو استقلال. أبو يوسف : الخراج، ص 32، 33، المارودي : الاحكام السلطانية ص 185-187.

(4) المقريري : السلوك ج 1، ص 433، و ج 2 ص 490-491.

(5) أبو الفداء : البداية والنهاية ج 13، ص 238، المقريري م.س، ج 2، ص 462، 417-418. كما كتب بيبرس لاهل الكرك بهذه المناسبة " توابع " بمنصب دينية وديوانية. وانظر : المارودي: م.س، ص 185.



كما منح بيبرس القادة الفاتحين للأرض واعتبرهم مالكين " لرقبة الأرض " والتصرف بها بحرية على غير المتبع في التوزيع الإقطاعي العام القائم على الاستغلال الشخصي " الموقوت " فسمى هذا إقطاع التملك كما حدث بعد فتح قساريه في فلسطين وحفظت الأوزان عند الدوادر<sup>(1)</sup>. أما الأرض البور المستصلحة فكان اسمها " زايد فانون"<sup>(3)</sup> أي الزائدة أو الخارجة عن المساحة الأصلية، واستخدمت كلمة " قانون " لتدل على المساحة<sup>(3)</sup>.

وكان السلطان يقطعها كغيرها من الأرضي كما حدث زمن الناصر محمد بن قلاوون ومن دراستنا للإقطاع المملوكي نستطيع إيجاز الأسباب العامة للتوزيع الإقطاعي كالتالي :

- تولى سلطان جديد السلطة فيوزع الإقطاعات لكسب الولاء لتدعيم عرشه<sup>(4)</sup>.
- أو منح المتخلي عن العرش المعزول إقطاعات لارضائه<sup>(5)</sup>.
- عند حدوث الفتن والثورات المضادة يقوم السلطان بحركة تطهير إداري حيث يلجأ إلى حركة توزيع ومناقلات إقطاعية.
- كما كان السلطان يقوم بعرض الجيش<sup>(6)</sup> في وقت مفاجئ للجميع ليكتشف المخلص من الكسلان والعاجز والمشكوك في ولائه فيبعدهم. كما كان يعرض الجيش عندما يكون بحاجة إلى المال لتمويله وقت الحروب أو عند رغبته في الانتقام من بعض منافسيه لذا حدث في مثل هذه الحالات الاعتداء على الأوقاف رميه بالحل والإقطاع.
- كما وزع الأراضي البور المستصلحة والأراضي المفتوحة عنوة، ومن هذا النوع ما كان تملياً.

(1) سيف الدين الرومي : والدوادر حامل الدواة ويعين فيها أمير عشرة أو أمير مائة : العمري : مسالك الابصار ج 2، ورقة 399، أبو المحاسن : م.س، ج 7 ص 185، والقلقشندي : م.س، ج 13، ص 319.

(3) المقرئزي : السلوك : ج 2 ص 231 حاشية 2.

(3) ابن الجيعان التحفة السنية : ص 24، 27، 174.

(4) كما فعل بيبرس عام 659هـ / 260 عندما قتل قطز : ابن تعري : م.س، ج 7، ص 231..

(5) عندما تنازل السلطان الناصر محمد عام 708 هـ / 1310م لبيبرس الجاشنكير فاقطع الناصر الكرك وإقطاعات مائة فارس وهي أرقى مرتبة في الجيش المملوكي. المقرئزي : السلوك ج 2، ص 470، أبو الفداء : م.س، ج 3، ص 56-57.

وانظر ابن اياس : م.س، ج 1 ص 133، ذكر تولية السلطان شعبان السلطنة عام 764هـ / 1366م حيث فرق الإقطاعات على طائفة من الممالك وجعل منهم أمراء طبلخاناه وأمراء عشرات بالإضافة للخلع وأمير الطبلخاناه، هو أمير اربعين في الجيش المملوكي : أي له الحق بشراء اربعين مملوكا ويعطي إقطاعاً مناسباً لهذا العدد ومن حقه ان يدق على بابه بطليل أما أمير العشرة فليس من حقه ذلك، ابن اياس : بدائع الزهور ج 1، ص 274 وما بعدها.

(6) كما فعل الناصر محمد بن قلاوون عام 741 هـ / 1340م، المقرئزي السلوك ج 2، ص 518، حاشية 3، ج 2، ص 517، حاشية 7.

وأما الأسباب الثانوية لتوزيع الإقطاعات فكانت للاجئين السياسيين الوافدين من الخارج من أصحاب السلطة<sup>(1)</sup> المعزولين والهاربين لتوفير الحياة الملائمة لهم وذلك من باب النخوة والشهامة والكرم.

وكان بعض السلاطين يرد على الهدايا بإقطاعات إذا أعجب بالهدية أو يمنح الإقطاعات مقابل المال بما يشبه بيعها عند حاجته للمال<sup>(2)</sup>. أو يمنح الإقطاعات تبعاً لبعض هواياته الخاصة بتربية الخيول وركوبها<sup>(3)</sup>.

كما خضعت المراعي " الكلاً المباح " للتوزيع الإقطاعي عند المماليك، حيث أصبح الأمير المقطع يشرف على استغلالها لحسابه باعتبارها جزءاً من إقطاعه<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة لإقطاع المعادن فقد أقطعها المماليك وضمونها وفرضوا عليها المكوس فهناك ضمان الأطرون " مكس الأطرون " <sup>(5)</sup> وهو معدن.

و ضمان الملح " مكسر الملح " و ضمان معدن " الشب " <sup>(6)</sup> وكانت قاعدة استغلال هذه المعادن مقابل مبلغ يدفع للسلطان كما كان بعض السلاطين يحتكرونها لمصلحتهم.

(1) كما فعل بيبرس عام 659 هـ / 1261م، عندما أقطع أولاد أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ عند دخول التتار بلادهم، ابو الفداء :م.س، ج2، ص 223.

(2) كما فعل السلطان الكامل شعبان عام 747 هـ / 1349م ن. م، ن ص.

(3) حيث أقطع الناصر محمد بن قلاوون عرب آل فضل وآل منها الإقطاعات بحلب وحماه لامداده بالخيول الممتازة (المقريزي: السلوك، ج2، ص 526-527، ص 528-529 و 842-843).

(4) المقريزي : الخطط، ج 1 ص 173.

بينما تشير ابن إياس بجواز إقطاع الأرض الموات الحالية من الكلاً والعبث اما الأراضي المغطاه بها فلا يجوز لانها من الحمى المنهي عنه في حديث الرسول الكريم : " لا حمى الا لله ورسوله " وقوله صلى الله عليه وسلم "المسلمون شركاء في ثلاثة : الماء والنار والكلاً..." ابن عبد الظاهر :الروض الزاهر : ج 1 ص 249. انظر : الماوردي: م.س، ص 176-178. وابو يوسف : م.س، ص 258-260. وبالنسبة لإقطاع الممالك للأرضي العامرة فكان إقطاع استغلال للأرض وما بها من كلاً فينتفع به بدون بيعه لانها من جملة اموال بيت المال الذي يسمح به السلطان للمقتطع من استغلالها.

ابراهيم طرخان : النظم الإقطاعية في دولة المماليك الاولى والثانية، جامعة القاهرة دكتوراه رقم 180 رقم التصنيف 962/020 ص 20.

(5) "الأطرون " او النظرون : معدن احمر واخضر، ن. م، ن.ص.

(6) الشب حجر مفيد في صنع الاحمر. المقريزي : الخطط، ج 1، ص 176-177.

ولمعرفة المزيد عن ضمان المعادن، انظر: الماوردي:م.س، ص 187-188، والمقريزي: الخطط ج 1، ص 155، 167 وابن ممتي:م.س، ص 328-329، وابن تغري :م.س، ج 2، ص 62، وابن إياس، م.س، ج 2 ص 123 و ج 3 ص 290.

وبالنسبة للقاعدة العامة في التوزيع الإقطاعي فكانت وحدتها " القيراط، اذ قسم اخراج مصر إلى اربع وعشرين قيراطاً<sup>(1)</sup>، كان للسلطان منها اربعة قراريط للرواتب وتكاليف نفقاته، وعشرة قراريط للأمراء، والعشرة الباقية للجناد.

وبالنسبة لنوعية الأرض المقطعة فكانت ثلاثة اقسام من حيث الجوده " الخصوبة، والري ووفرة الانتاج". لذا اختص السلطان نفسه وكبار امرائه باجودها وقد سمى القلقشندي هذا النوع من الأرضي بـ " الأرضي النفيسه"<sup>(2)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك، جـ1، ص 841، حاشية 3.

(2) كما حصل عندما اقطع قطز للأمير بيبرس عام 657 هـ / 1259م، ليرسله لحرب التتار، انظر التفاصيل في : المقرئزي، السلوك جـ1، ص 420، وابن تغري بردى: م.س، جـ7، ص 101.

## ملكية الأراضي في النظام الإقطاعي:

هذا وقد ساد في بلاد الشام نظام الإقطاع في عهد الدولتين الأيوبيه والمملوكية وساهم المماليك في تطويره لصالح الطبقة العسكرية الحاكمة.

وتعود جذور الإقطاع العسكري إلى أيام السلاجقة وآل زنكي، حيث كانت الإقطاعيات للجنود والأمراء بدلاً من الرواتب الشهرية مقابل خدمتهم العسكرية<sup>(1)</sup> وأما الإقطاع المملوكي فلم يكن وراثياً وكان المقصود به ما يتحصل من الأرض من غله أو مال أو مكوس مفروض على إنتاجية إقطاعيات أخرى<sup>(2)</sup>.

فالإقطاع العسكري: كان القاعدة العامة لإدارة أراضي بلاد الشام، أن تصدر أوامره من السلطان مباشرة بعد تكليفه للقاضي والفقهاء والأئمة ووكيل بيت المال بالتحقق من الأرض والضيايع، وبعد رفع الأمر للسلطان يكتب بتوقيعه منح الإقطاع بمثل أو مربعة، بحيث يوقع عليه الوزير والخزندار وديوان الحبس، وتسلم وثائق المنح للدوايرية لتفرقها على أصحابها<sup>(3)</sup>.

هذا فقد قسمت الدولة المملوكية الإقطاع إلى ثلاثة أنواع :

أولاً : إقطاع التملك : وينقسم أيضاً إلى ثلاثة أقسام هي :

موات، وعامر، ومعادن، : ولصاحب الإقطاع حق الملكية التامة مقابل دفعه العشر، وقد تكون الملكية وراثية<sup>(4)</sup>.

ثانياً : إقطاع الاستغلال : وينقسم إلى قسمين إقطاع خراج، وإقطاع عشر واعتبرها السلاطين أرزاق للأجناد.

فإقطاع الخراج : يستغله الأجناد مقابل دفع الخراج.

(1) الأسدي: التيسير والاعتبار، ص 183-184، والمقريري: الخطط، ج 1 ص 176-177.

Ziadeh : Nicola " Urban life in Syria Under the Early Momluks " Greenwood Press, وللمزيد : انظر :

Beirut, 1953 p. 42.

(2) الاسدي : ن.م، ص 72، ابن فضل الله العمري : المسالك والممالك، تحقيق إبن فؤاد ص 49، 40، Ziadeh , op, cit, p.

(3) ابن شداد الاعلاق، ج 3، ص 1242. المقريري: السلوك، ج 1 ق 2، ص 530، ج 3 ق 2، ص 889.

(4) الماوردي : م.س، ص 239، المقريري، الخطط، ج 1 ص 179-180.

وإقطاع العشر : فهي زكاة الاصناف، والاصل فيها عدم جواز إقطاعها<sup>(1)</sup>.  
ثالثاً : إقطاع الأوقاف : وهو قسمان : القسم الخاص بالمعادن تحت سطح الارض والتي لا يمكن الحصول عليها الا بالجهد والعمل الدؤوب.

والقسم الثاني: يتعلق بالشوارع والطرق والاسواق، والرحاب بين العمائر على من تلحق ضرراً بالمارة<sup>(1)</sup>.

وتميز النظام الإقطاعي المملوكي بان تكون إقطاعات الأمراء موزعة في عدة مناطق على انها إقطاعات خدمة وليست املاكاً<sup>(2)</sup> مع عدم السماح للإقطاعي بزيادة نفوذه في المنطقة المقطعة اليه، كما فرض على الأمراء المقيمين في مصر ولهم إقطاعات في بلاد الشام السفر والاقامة فيها كإقطاعات فلسطين وسوريا عام 713هـ / 1313م<sup>(3)</sup>.

أي بعد "الروك الناصري" إذ كانت الإقطاعات بعيدة عن المقاطعة التي يخدم فيها الأمير والفرسان<sup>(4)</sup>.

ومقابل منح الإقطاعات من قبل السلاطين فقد كان للسلطان إعفاؤهم بسبب العجز عن الخدمة او المرض، او لكبر السن. أو عندما يطلب المقطع اعفاءه حيث يعين له مرتباً ثابتاً أو يقطعه إقطاعاً صغيراً يساعده على باقي حياته كما حدث زمن الظاهر بيبرس عام 705هـ/1307م مع الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح الصالح النجمي لكبر سنه ومرضه<sup>(5)</sup>.  
ثم تجري عملية حسابية باسم " تفاوت الإقطاعات بعد انحلال الإقطاع بالعزل أو الموت أو الانتقال.

ويقوم ديوان الجيش بعملية تصفيه حسابية شاملة لنهاية الخدمة<sup>(6)</sup> لمعرفة مبلغ ما استولى عليه المنتفع من الضرائب والحقوق والمقررات حسب السنوات الميلادية وكانوا احياناً يطلبون السماح من السلطان حتى لا يطالب اهلهم وكان السلطان يسامحهم<sup>(7)</sup>.

(1) الفراء : محمد بن حسين الخليلي، الاحكام السلطانية، تصحيح محمد الفيضي، ط2، القاهرة 1966، ص 227-228، والقلقشندي:

صبح الاعشى، ج 13، ص 117.

(1) ابن جماعة: تحرير الاحكام، ص 15-116. والمظفر: احياء الأرضي الموات، دار الكتب، بغداد، 1972، ص 273.

(2) بمولياك : أ. ن، م. س، ص 163.

(3) ابن الصيرفي : نزهة النفوس، ج 1، ص 302.

(4) انظر صالح بن يحيى : تاريخ بيروت لمعرفة المزيد عن هذه الإقطاعات.

(5) ابو الفداء : المختصر، ج 4، ص 52، المقرئزي : السلوك، ج 2، ق 1، ص 19-20. ج 2، ق 3، ص 619، والصفدي : م س،

ج 15، ص 188-189.

(6) المقرئزي : ن م، ج 2، ق 1، ص 19، حاشية 1.

(7) ن م، ج 2، ق 1، ص 19-20.

وفي أحيان أخرى ألزم أبناء الإقطاعي بدفع هذا التفاوت الإقطاعي، كما حصل عام 743هـ/1342م بالزام أولاد الأمير ايدغمش الناصري على دفع تفاوت الإقطاعات مما اضطرهم لبيع الكثير من ممتلكاتهم لدفع ذلك.

هذا وكان الجيش المملوكي يتكون من ثلاث فرق هي :  
أجناد الحلقة<sup>(1)</sup> وفرقة المماليك السلطانية<sup>(2)</sup>، وفرقة أجناد الأمراء<sup>(3)</sup>، وكانت فرقة أجناد الحلقة أكثرها حظاً في حيازة الإقطاع لأنها كانت عماد وقلب الجيش المملوكي في بلاد الشام<sup>(4)</sup>.

---

(1) أجناد الحلقة : لقد كانت جيوش الأيوبيين النظامية مكونة من ثلاث فئات من الغرائب والاجانب وكلها من الارقاء الذين اشتروهم من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى " تركيا" وشواطئ البحر الاسود. اما في زمن الدولة المملوكية : فكانوا محترفي الجندي النظامية من ممالك السلاطين السابقين واولادهم ومرتباتها من ديوان الجيش: التعلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، 1983، ص 615.

(2) المماليك السلطانية : هم ممالك السلاطين السابقين الذين يضمهم السلطان الجديد إلى مملكته وكانوا شأنهم عظيماً. ومقربين من السلطان حيث يؤمر منهم الأمراء بمختلف رتبهم، وكانوا يسجلون في الديوان ويوزع عليهم الإقطاع وكان يرأسهم مقدموا المماليك السلطانية وتزايد عددهم زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وكانوا اصحاب جوامك "راتب" من السلطان. البقلي : م س، ص 33، واصحاب الجوامك: هم اصحاب الرواتب والمخصصات من الارزاق ويقال لهم ايضا بأرباب النقود والمكايل. المقريري : السلوك ج1، ص 13.

(3) أجناد الأمراء : وهم ممالك الأمراء فكانوا تابعين لأسانذتهم في إقطاعاتهم، وللمزيد من المعرفة انظر : طرخان، ابراهيم : مصر في عصر دولة المماليك الجاركة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960.

(4) طرخان : النظم الإقطاعية ص 148، والطراونة : طه ثلجي : مملكة صفد في عهد المماليك 1981، ص 54.

## كيفية إمارة الأمير للإقطاع :

لقد كان الأمير يستغل إقطاعه كما يشاء بمساعدة جنده أول الأمر والمباشرين والدواوين المخصصة لذلك.

ثم تغير الوضع بعد ذلك حيث استغلت الدولة طاعت الأمير وجنده مقابل تقدير مبلغ من المال<sup>(1)</sup> لكل منهم في فترة ما قبل الروك الناصري وما بعده<sup>(2)</sup> وخاصة بالنسبة لإقطاعات الشام التي عادت لتلثي إقطاع أمراء مصر سوى نائب الشام في دمشق<sup>(3)</sup>.

الرتبة	قبل الروك الناصر	بعد الروك الناصري 715 هـ / 1317م
أمير مـ	132.000-52.000	66.000-56.000 دينار جيشي <sup>(4)</sup>
أمير طبلكاناه	20.000-14.000	26.000-15.000 دينار جيشي
أمير عشرة	6000 أول أقل	6500-3500 دينار جيشي
أمير خمسة	2000	
ممالكك سلطانيه	-	1000-660 دينار جيشي
أجناد الحلقة	166	660-200 دينار جيشي

كما كانت الأراضي الخصبة للسلطان والأمراء والأقل خصوبة لجنود الحلقة والقبائل البدوية، وكان معدل الإقطاعات يتراوح ما بين قرية وعشرة قرى<sup>(5)</sup>.

(1) بولياك : النظم الإقطاعية، ص 67-68، ماجد عبد المنعم، " نظم دولة السلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ط2، القاهرة 1979، جـ1، ص 142.

(2) ابن فضل الله العمري : م.س، تحقيق دوروثيا، ج1، ص 94، القلقشندي : م.س، ج4، ص 50، المقرئ : الخطط، ج3، ص 53، الأفضل الرسولي (ت 770 هـ / 1372م) : نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم 351 تاريخ، ورقة 137ب.

(3) القلقشندي : ن.م، ج4، ص 51.

(4) الدينار الجيشي : مسمى للاحقية، فكانت قيمته للأجناد والأتراك والأكرد والتركمان ديناراً ذهبياً، والقبائل والفرسان ومن في وضعهم فدينارهم نصف دينار ذهب وفي الغالب يكون دينار العريان : فمن دينار ذهبي ويساوي في عرف الناس ثلاثة عشر درهماً، القلقشندي : ن.م، ج3، ص 438.

(5) للمزيد من المعرفة انظر النويري : نهاية الأرب، مخطوطة جـ 27.

وبالنسبة لإقطاعات بلاد الشام فقد كان بعضها لاهداف سياسية كإقطاع الملك الناصر الأيوبي صاحب دمشق من المظفر بيبرس (676- 678 هـ / 1277 - 1279م) نصف نابلس وجنين وأعمالها ومائة وعشرين فارساً<sup>(1)</sup> في فلسطين.

وكان الأمير الإقطاعي يفقد إقطاعه اذا تم نقله ويمنح لأمر آخر كما حدث 709 هـ / 1309م زمن المظفر بيبرس بعد وفاة الأمير زين الدين قبجق وكانت الشوبك من إقطاع قبجق فلما نقل إلى نيابة السلطنة بحماة ارتجعت منه الشوبك<sup>(2)</sup>.

وكما حدث مع السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (749-757 هـ / 1347-1356م) حيث نقل الأمير عز الدين أيمن الشمسي إلى دمشق وبعد وصوله ورد مرسوم بنقله إلى فلسطين، فانتقل إلى هناك ثم ورد منشور بإقطاع جمال الدين عبد الله بن الأمير سيف الدين الليثي بصفد ثم نقل إلى دمشق<sup>(3)</sup>.

وهكذا يتضح لنا من أن القاعدة الأساسية للإقطاع المملوكي في بلاد الشام هي عدم توريث الإقطاعات ماعدا بعض التجاوزات لهذه القاعدة بالتوريث لكسب المؤيدين أو لحسن سيرة الأمير الإقطاعي.

ويرأى لنا بأن سبب عدم التوريث هو اعتبارها إقطاعات خدمة وليست املاكاً<sup>(4)</sup>، كما يلاحظ توزيع إقطاعات الأمراء في عدة مناطق حتى لا يؤدي ذلك إلى زيادة نفوذ الإقطاعي في المنطقة المقطعة إليه، فأصبحت الإقطاعات في فلسطين بعد الروك الناصري 713 هـ / 1313م مبعثرة وبعيدة عن المنطقة التي يخدم فيها الأمير والفرسان<sup>(5)</sup> وبالنسبة للتصرف بالإقطاع فقد اصدر الناصر محمد قوانيناً في مصر والشام تمنع بيع أراضي الإقطاع واستبدالها.

ولكن هذه القوانين الغيت بعد وفاته عام 746 هـ / 1345م فباعت مجموعة من جند الحلقة إقطاعاتها وانصرفت لمهن أخرى<sup>(6)</sup> فدخلت إلى الإقطاع عناصر جديدة من اصحاب ارباب الحرف

(1) المقريري : السلوك، ج 1، ق 2، ص 415.

(2) ابو المحاسن : الدليل الشافي، ج 2، ص 533.

(3) الصفدي : م س، ج 10، ص 18.

(4) بولياك : النظم الإقطاعية، ص 163، عبد العزيز الدوري : م س، ص 31، 106.

(5) ن.م، ص 64-65.

(6) ابن فضل الله العمري، م.س، ج 1، ص 94، المقريري : ن م، ج 2، ق 3، ص 860.



مما أدى إلى فساد الإقطاع<sup>(1)</sup>، وظهرت جماعة المهيسيين "المحاميين" كوسطاء بين اصحاب الحرف وأصحاب الإقطاعات مقابل 10% من ثمن الإقطاع المتنازل عنه<sup>(2)</sup>.

عندما تنبه السلاطين لذلك الفساد ابطلوا المقايضات والنزولات في الإقطاعات عام 704هـ/1304م زمن السلطان الصالح اسماعيل<sup>(3)</sup>.

كما لوحظ إقطاع الثقة لعدد من زعماء وشيوخ العشائر مقابل مساهمتهم في حفظ الامن وحماية الطرق وهو معفى من الخدمة العسكرية. كما تم منح بعض القبائل البدوية الأراضي مقابل تقديم الخيل للسلطان في مطلع كل عام حيث يصبحون جنوداً في جيشه وكانت مساحة الارض المقطعة تتناسب مع قوة القبيلة<sup>(4)</sup>.

فاذا خرجت القبائل البدوية عن الطاعة توزع على أمراء عرب لا يزالون في طاعة الدولة كما حدث عام 720 هـ / 1320م بطرد آل عيسى وعام 745 هـ / 1347م بعد عزل سيف بن فضل بن عيسى عن امارة العرب وتوليبتها لأحمد بن مهنا فأعيد إقطاع فياض بن مهنا اليه واسترجع ما بأيدي العرب من الإقطاعات وجعله خاصاً ببيت المال<sup>(5)</sup>.

وكانت هناك إقطاعات خاصة مدنية تمنح لعدد من الطبقات من القضاة في عجلون والكرك، فكانوا يخرجون إلى هذه القرى كل عام لجني المحصول<sup>(6)</sup>.

وإقطاعات الشعراء والمحدثين والمغنين مقابل خدماتهم الخاصة مع منحهم حق الملكية التامة وحق توريثها من بعدهم<sup>(7)</sup>.

(1) البلاطنسي : تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال، تحقيق فتح الله محمد، دار الوفاء، المنصورة 1989، ص 290.

(2) المقريري : ن م، ج 2، ق 3، ص 860.

(3) المقريري : السلوك، ج 2، ق 3، ص 891-892...

(4) بولياك : م.س، ص 38، 61، 62، طرخان : م.س، ص 67، وكانت اقوى القبائل البدوية في بلاد الشام في اواخر العصور الوسطى آل فضل وآل مهنا، كما حدث زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي اكرمهم بإقطاعات واسعة مقابل الخيول كما حدث عام 741 هـ / 1340، والمقريري: ن م، ج 2، ق 2، ص 520-527.

(5) أبو الفداء : م س، ج 4، ص 144، أحمد بن مهنا ولي امرة العرب في عهد الناصر احمد وصرف عنها ثم اعيد اليها اعتقله طقمر نائب الشام 745 هـ / 1344م بدمشق ثم بصفد واطلقه الكامل 746 هـ / 1345. انظر : ابن حجر العسقلاني : م س ج 1، ص 342.

(6) دغوانة : التاريخ الحضاري، ص 106.

(7) الدوري : تاريخ العراق، ص 41.

أما بالنسبة لعمليات الروك التي تمت للأرضي الشامية في العصر المملوكي فكانت عام (696-697هـ/1299-1299م) زمن السلطان حسام الدين لاجين.

وعام (712-713هـ / 1314-1315م) زمن الناصر محمد بن قلاوون حيث عهد بها إلى الأمير سمجر الجاولي نائب غزه<sup>(1)</sup>، وناظر الجيش بالشام ابن هبة الله بن حشيش وأقام الجاولي عند الأمير تنكز نائب الشام<sup>(2)</sup> حتى انتهت عملية الروك<sup>(3)</sup>.

وكان من أهداف عملية الروك أن يقوم السلطان بإعادة توزيع واختبار الإقطاعات لاختيار الأفضل له ولحاشيته<sup>(4)</sup>، فأدى هذا إلى الصراع بين الأمراء بسبب هذه الإقطاعات<sup>(5)</sup> وكانت الجهة المسؤولة عن هذه الإقطاعات ديوان الجيش، وديوان الإقطاع حيث كان المكتب الرئيسي في القاهرة، ويتفرع إلى فرعين:

-ديوان الجيش المصري.

-ديوان الجيش الشامي المخصص للإقطاعات في بلاد الشام ويرأس كل ديوان "المستوفي"<sup>(6)</sup>. وكان للسلطان وحده حق توزيع الإقطاعات على الأمراء أما نائب الشام فله صلاحيات إقطاعات أجناد الحلقة بعد موت الجندي فيستخدم النائب عوضه ويكتب على نحو ترتيب السلطان "مثالا ثم المربعة، وترسل مع البريد ليوافق عليها السلطان"<sup>(7)</sup>.

(1) علم الدين سنجر الجاولي، ولد بآمد واشتره أحد الأمراء المماليك يقال له حاول فنسب إليه، وتدرج في المناصب حتى أصبح استاداراً، وتقلد نيابة الشوبك وحماة وغزه، واستتابه الناصر محمد عام 711 هـ / 1311م لبناء منشآت عمرانية كقصر النيابة، والمدرسة الشافعية والمدرسة والجامع والحمام ثم عهد إليه عام 713 هـ / 1313م بروك البلاد الشامية وتوفي عام 745 هـ / 1344م. ابن حجر العسقلاني : م.س، ج 2، ص 266-268.

(2) ن. م ج 2، ص 55-62.

(3) المقرئزي : الخطط، ص 160-161، والمقرئزي : السلوك، ج 2، ق 1، ص 127. 137. Rabie : "Iqta"

(4) طرخان : النظم الإقطاعية، ص 104. 136. Rabi "Iqta" كما فعل السلطان لاجين وكما فعل في الروك الشامي الناصر محمد 713 هـ / 1315م حيث اختار سنجر الجاولي ومماليكه أفضل الإقطاعات.

(5) ن.م، ص 105. 135. Rabi "Iqta"

(6) بوليبيك : م.س، ص 65.

(7) المثال : ورقه رسميه تصدر من ديوان الجيش بإقطاع أحد من الناس ثم يؤشر عليها السلطان بالموافقة : (الاسدي : التيسير ص 200). المربعة : مراسيم تكتب في ورق شامي وتكتب من ديوان الخاصة بخط مباشره، وتكتب بالإقطاعات في نصف فرجة مكسورة في القطع البلدي وتستهل بالبسلمه إلى ديوان الانشاء، فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعيين على بعض كتاب الانشاء فيكتبها ويكون شاهداً (القلقشندي : صبح الاعشى، ج 4، ص 201).

وكان للإقطاعي حق استخدام القوة المسلحة لجمع الضرائب من أراضيهم وفلاحيه<sup>(8)</sup> بالإضافة إلى إعادة الفلاحين بالقوة إذا غادروا الأرض قبل ثلاث سنوات<sup>(9)</sup>. وهكذا يلاحظ على النظام الإقطاعي العسكري المملوكي بأنه نظام عبودية وتسلب لظلمه للفلاحين إذ حولهم إلى أبقان للأرض، لعدم قدرة الفلاح على امتلاك الأرض الزراعية الخاصة به، وأن حدث وملكها فإنه لا يستطيع حمايتها من كبار الإقطاعيين، حيث كان يعمل كأجير في الأرض عند سيده الإقطاعي.

---

(8) عوض ملكية الأرض، ص 51.

(9) السبكي : م س، ص 74.

## الملكية الخاصة:

كانت الملكية الخاصة في العصر المملوكي تتم عن طريق الوراثة أو الشراء أو إقطاعات التملك من السلطان للأمراء يتصرفون فيها تصرفاً حراً لا علاقة للدولة فيها إلا فيما يتعلق بما تفرضه عليها من ضرائب<sup>(1)</sup>.

كما فعل الظاهر بيبرس عام 663 هـ / 1265م، حيث فتح بلاد قيساريه على ساحل فلسطين وقسمها على الأمراء تملكاً مبدءاً شرعياً<sup>(2)</sup> ليساهموا في استتباب الأمن ورصف الطرق وبناء الجسور وإعادة بناء مدينة صفد وتطور غزة ويافا.

وفي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي انتشر التملك الجماعي في أرض المشاع المزروعة، في جمع أنحاء بلاد الشام، حيث وزعت أراضي القرية على رجال القبيلة حسب ما يملك كل منهم من الحيوانات الزراعية وهو ما كان يعبر عنه بالفدان، أما الذين لا يملكون الحيوانات الزراعية فلا تعطي لهم أرض ويسمون بالفلاحين البطالين<sup>(3)</sup>، وأما أراضي المشاع هذه المسماة بـ " الجدر " فقد لاحظ الباحث في قريته سوم الشناق وما حولها<sup>(4)</sup> بأن أراضي الجدر توزع على الذين يملكون الأراضي.

وبعد استعراض نظام الأوقاف والملكية زمن المماليك نرى أن زراعة أراضي الملكية كانت غير محمية في ظل الإقطاع بأشكاله المختلفة لاستخدامها بيدراً لدرس المحصول الزراعي لأنها لم تكن محمية من المصادرة والإقطاع لتعسف الدولة المركزية وتعديات حكامها وولاتها من عسكريين ومدنيين.

(1) القلقشندي : م س، ج 13، ص 132، طرخان : النظم الإقطاعية، ص 73.

(2) المقرئ : السلوك : ج 2، ق 2، ص 530، المنصوري : التحفة المملوكية، ص 55، النويري : م س، ج 30، ص 275-280،

قيساريه : بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام (ياقوت : معجم البلدان ج 4، ص 421).

(3) د. غوانم : بيت المقدس، ص 76، يقول : "... أن نشأة نظام المشاع كان ضرورة دفاعية مشتركة عن القبيلة أو أهل القرية".

Cohen "Population" p. 69

(4) وقد قامت دائرة الأراضي والمساحة في الأردن عام 1992 بتسجيل أراضي "الجدر المشاع" والدور المقامة عليها حسب مالكيتها كما

حدث لمنزلي في سوم الشناق/محافظة أربد، شمالي الأردن.

## ثانياً: الزراعة في جنوب بلاد الشام في العصر الأيوبي :

### أولاً: الحياة الزراعية في فلسطين والأردن:

لقد اعتمد سكان فلسطين والأردن منذ القدم على مياه الامطار لري محاصيلهم الزراعية وللشرب وقد اكد الرحالة الذين زاروها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين<sup>(1)</sup> ومازالت كذلك حتى اليوم زراعة صليبية في فلسطين.

(1) بنيامين التطيلي، ص 02، الذي قام برحلة الى فلسطين عام (1165 - 1173م) حيث ذكر " ان معظم اهالي القدس يشربون ماء المطر بعد أن يجمعونه في صهاريج معدة لهذا الغرض في البيوت".  
والقزويني: آثار البلاد. وأخبار العباد، بيروت، 1389 هـ/1966م، ص 160 قال " ارض وضياع بيت المقدس كلها جبال شاهقه وليس بقربها ارض طيبة وزروعها على اطراف الجبال.... واراضها كلها حجر... ويشرب اهلها ماء المطر، وليس فيها دار الا وفيها صهريج ومياهها تجتمع من الدروب، ودروبها حجرية ليست كثيرة الدنس، ولكن مياهها رديئة، وفيها ثلاث برك: بركة بني اسرائيل، وبركة سليمان وبركة عياض....".  
أما المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ( طبع ليدن ) مطبعة بريل، 1906، ص 166 وقد زار بيت المقدس في القرن العاشر الميلادي قال: ان الله جمع فيها " فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المستفادة كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز".  
اما ناصر خسرو سفرنامه، ص 20، الذي زار فلسطين في اواخر القرن الحادي عشر فيذكر: " سواد ورساتيق ببيت المقدس جبلية كلها والزراعة واشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بدون ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة....".  
ودانيال الروسي: الذي زار القدس في بداية القرن 12 م ( 1106 - 1107م ) الذي وصفها بقوله "..... ان سكان المدينة والمناشيه كانوا يعتمدون كلية على ماء المطر" كما يذكر ان محصول القمح والشعير في الدرجة الاولى Abbot Daniel, p. 25 وأن غلة ميكال البذور كانت تنتج لصاحبها تسعين او مائة امثال ويعزو ذلك للارادة الالهية ويذكر الاشجار المحيطة بالقدس من الزيتون والتين والحميز والكروم". وبوركهارد: الراهب الدومينيكاني الذي كتب سنة 1283م burchard, p. 99.  
".... ان كل الارض المقدسة كانت لا تزال احسن من كافة الاراضي"، كما ان الخليل يكثر فيها القمح والزيتون والكروم وجميع اصناف الخضروات واغنامها تلحق مرتين في العام، وتخلها يسي خلاياه في صخور جبالها المكسوة بالاشجار المثمرة كالزيتون والخروب والتين والتفاح وليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة. ص 46. وأما ثيوديرتش Theoderich، فقد قسم فلسطين الى ثلاثة اقسام طبيعية وهي الخليل، والسامرة وجبال القدس ووصف جبال القدس بالجبال لانها مكسوة بالزيتون والكروم والتين، كما ذكر بأن أوديتها مملوءة بالحبوب والبساتين وما زالت حتى اليوم.  
كما يذكر براور pravor, Latinkington, p. 358-359. بأن الخبز الابيض من القمح كان يصنع في افران السكان حيث كان المحصول الرئيسي في الشرق الاوسط في ذلك الوقت، وكانت مناطق انتاج الحنطة زمن الصليبيين هي الاراضي الواقعة شرقي نهر الاردن وشمال شرقي بحيرة طبرية، والجولان وشرقي حوران وذكر اكبر مراكز لانتاج القمح في هذه المنطقة من نوى شرقاً إلى أودية الخليل حول تبين غرباً. Ibid, p. 359. وذكر بان اجود انواع القمح كانت تزرع في شيفا بللا المحصورة بين السهل الساحلي والجبال المركزية للضفة الغربية، تبدأ وزراعة القمح من وادي زرعين، ومرتفع قيصرية على الشاطئ، تمتد جنوباً حتى الرملة وعكا وبيت جبرين. Ibid, p. 359.  
وحول عسقلان وغزة وقرب دير البلح، حيث كان سكان هذه المنطقة الجنوبية يصدرون قمحهم الى بيت المقدس، و بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس دمرت معظم الاراضي الزراعية. Ibid, p. 359.

## الزراعة زمن الصليبيين:

عندما استوطن الصليبيون في بيت جبرين وتل الصافي حوالي عام 1140م ثم في عسقلان 1155م استصلحوا الجزء الأكبر من الأراضي المحيطة<sup>(1)</sup>.

وقد زرع الصليبيون الشعير بعد القمح المحصول المفضل لديهم وذلك علفا للحيوانات ولاستخراج البيرة منه في أراضي الخليل وحول قرى الكرمل وسموع وحتى الشمال في اتجاه مدينة بيت لحم<sup>(2)</sup>.

فاصبحت المناطق الممتدة من بيت لحم الى بيت المقدس والرملة مأهولة بالسكان الصليبيين، وأصبح شراء الأراضي صعبا في هذه المنطقة بسبب الاستيطان الصليبي<sup>(3)</sup>. كما تنافس الدومين الملكي وطوائف الفرسان الرهبان والكنائس والأديرة على شراء الاراض لجودة كرومها وقمحها من بيت لحم شمالاً الى البيرة والرملة على الطريق المؤدي الى سبسطية<sup>(4)</sup>.

ومن ملاحظتنا لجبال فلسطين في تلك المناطق يتبين لنا صعوبة الزراعة المدرجة على سفوح الجبال حيث يصعب استخدام الحيوانات وانما اعتمدوا في ذلك على العمل بأيديهم بالمعازق كما نراه اليوم.

وقد زرع الفلاحون الذرة والشوفان والعدس لاستخدام الانسان والحيوان بالإضافة للخضروات، كاللوبيا والفاصوليا، وزرعوا الخيار والفتاء والشمام " القاوون الاصفر " والبطيخ " القاوون الاحمر"<sup>(5)</sup> كما شوهد البصل والثوم والخردل على موائدهم.

كما استعمل الصليبيون التوابل من اعشاب فلسطين الطيبة والعطرية مثل الشومر والميرمية والذاب<sup>(6)</sup>.

وقد شاهد الحجاج المسيحيون في بداية القرن الثاني عشر الميلادي غابات الزيتون قرب الخليل ونابلس والقدس وبيت لحم وعكا حيث كثرت معاصر الزيتون المدارة باليد والحيوانات<sup>(7)</sup>. وما زالت حتى اليوم.

(1) Wiliam of Tyres 11, p. 236

(2) ناصر خسرو، م. س، ص 35، Theoderic, p. 53.

(3) prawer, op. cit, p. 360

(4) Prawen, Latin Kingdon, p. 360, 361

(5) ابن بطوطه: الرحلة، ج 1، ص 42، ذكر ان البطيخ كان يزرع في نابلس وهو طيب وعجيب. Prawer, Ibid, p. 361

(6) نبتة طيبة ذات اوراق مرة "Rutagraveolens" الغمراوي: دراسة بين المنهج التطبيقي لتاريخ الطب العربي، القاهرة، 1979، ص 60، هامش 59.

(7) العليمي: الحنبلي، م. س ج 2، ص 61، 81، و Prawer, p. 361

حيث كان زيتها يصدر إلى البلاد المجاورة قبل الاحتلال الصليبي<sup>(1)</sup>، كما كانت كل المدن الساحلية من عسقلان جنوباً مروراً بيافا وارسوف وقيصرية وعكا محاطة بالزيتون<sup>(2)</sup> ومن المزروعات الأخرى السمسم<sup>(3)</sup>. كما كثرت الكروم التي شجعها الصليبيون من أجل النبيذ لازدياد الطلب عليها في أراضي الجليل حول بحيرة طبرية والناصره وطريق سبسطية وحول نابلس والرملة والقدس بينما حدد المسلمون أيام الفتوحات عدد الزارعين اللازمين لزراعة الكروم لتحريم الاسلام تناول الكحول والإتجار بها<sup>(4)</sup> وبيت لحم والخليل وعسقلان وارسوف يافا وعكا وحيفا<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ إغفال الرحالة لزراعة الزيتون في الخليل، مما يشير التساؤل والدهشة المخالفة للواقع الآن وربما كان ذلك حقيقة في ذلك الوقت أو ان تكون اشارتهم مصادفة.

أما زراعة الفاكهة فكانت التفاح حول بيت المقدس وبيسان والكمثرى والخوخ والكرز والبندق والجوز والبندق في سبسطية واللوز في سواحل يافا. أما زراعة النخيل<sup>(6)</sup> فكثرت في حيفا وقيصرية والرملة وبيت لحم واشهره في اريحا، وفي المدن الساحلية وقد صدر البلح ذو اللون الاصفر للخارج زمن الحكم العربي الفلسطيني<sup>(7)</sup>.

#### زراعة قصب السكر:

وجد الصليبيون هذه الزراعة في وادي الاردن وفي مناطق ساحلية، وكان غير معروف قبل الحروب الصليبية في اوروبا<sup>(8)</sup>.

(1) Ibid. I, p. 361

(2) ناصر خسرو، م.س، ص20، حيث ذكر ان الدخل السنوي من الزيتون في نواحي القدس لبعض كبار المزارعين بلغ خمسين الف من والمان يساوي اليوم اربعة كيلوغرامات، ابن بطوطة: الرحلة جـ 1، (ص 40-41)، وذكر بأن نابلس كانت من أكثر بلاد الشام زيتوناً وتصدر زيتها إلى دمشق ومصر، انظر الادريسي م س، ج5، ص364. وما تزال حتى ايامنا هذه.

(3) Prawer, p. 362.

(4) ن.م، ن.ص.

(5) انظر: الادريسي ج5، ص 364، 372، بنيامين التيطلي، م س، ص95، 96، 53. Theoderick و وقد ذكر المقدسي نوعين من العنب هما الدرويلي والزيني اللذان يصدران للبلاد المجاورة. المقدسي: ص 179.

(6) سورة مريم اية 23 "فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً" وكذلك قوله تعالى "وهزئي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً حنياً" (سورة مريم آية 25).

ويذكر ابن بطوطة بأنه شاهد مكان ولادة عيسى عليه السلام وبه أثر جذع النخلة ابن بطوطة، م.س جـ 1 ص 39.

(7) المقرئ، م. س ص 142، الادريسي، م. س، ج5، ص 356، المقدسي م. س، ص 162، 164، ابن القرنسي، م.س، ص 178، ناصر خسرو: م.س، ص 18.

(8) محمد مصطفى الجندي، حياة الفرنج ونظمهم في الشام، ص 144.

لذا اعتنى به الصليبيون واعفوه من الضريبة لتشجيع زراعته التي انتشرت في القصير "الشونة الشمالية" (1) وقرب البحر الميت (2) وعرفوه باسم "سكر الكرك والشوبك" (3). وقرب بحيرة طبرية ووادي الاردن واريحا ومعظم المدن الساحلية مثل عكا وصور وعسقلان (4) وذلك بطريقة الحقل حيث يدفن في الارض زوجا زوجاً. هذا وقد صدر سكر الكرك والشوبك الى أسواق أوروبا الغربية وفلورنسا وعرف باسم سكر مونتريال (5).

وانتشرت زراعة البرتقال والليمون على الشاطئ قرب قيصرية وفي الداخل حول قلعة مونفورت وقرب بانياس شمالاً (6).

فقد كثرت زراعته على طول نهر الاردن والادوية المسطحة الرطبة وخاصة في اريحا (7) ولقد سماه الصليبيون "تفاح الجنة" (8) وما تزال زراعته هناك حتى عصرنا الحاضر.

كما كان التين من الفاكهة التي اهتم بها الصليبيون ما بين سبسطية او الخليل والرمله ويبنى وقيصرية (9).

والرمان بالرغم من وجوده على النقوش النقدية القديمة الا ان الحجاج المسيحيين لم يشاروا اليه الا نادرا ويكثر في نابلس وجرش وما وراء نهر الاردن (10).

وشجر الجميز الذي اهتم بزراعته الصليبيون لاستخدام اخشابه في البناء والشؤون الحربية وذلك حول الخليل وعسقلان (11). وأشار الحجاج الى شجرة التوت في جبال الضفة الغربية وسبسطية وكان الغذاء الرئيسي لافراد الحملة الصليبية الثالثة عند محاصرتهم عكا (12).

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 147.

(2) النقاش، العلاقات، ص 176 - 177، ود. غوانة: التاريخ الحضاري ص 108.

(3) ابن الاثير: م.س، ص 212.

(4) ابن مماتي، م.س، ص 260.

(5) رنسيما: م.س، ج 3، ص 602.

(6) فايزه حجازي، أهل النمة في بلاد الشام في العصر الأيوبي والملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اربد-الاردن، 1412هـ/1992، ص 101.

(7) ن. م، ص 13.

(8) Burchard, p. 100.

(9) Ibid, p. 102, Anonymous Pilgrims, p. 35

ناصر خسرو، ن. م، ص 19، ( حيث يقول ان تين الرملة يعتبر من احسن اصناف التين الادريسي، م.س ج 5، ص 363، ابن بطوطة م.س ج 1، ص 46.

(10) Prawer, p. 356.

(11) Ibid, p. 356

(12) Ibid. p. 356



ومن المحصولات الزراعية الأخرى السّامان الذي يصنع منه الحصر السامانيه والذي كان يزرع في بيسان<sup>(1)</sup>. والكتان، والزعفران المسمى اليوم بالكركم أو الورس أو العصفر<sup>(2)</sup> المستخدم في الصباغة والدواء والطيب في الأعياد<sup>(3)</sup> والنيله وعروق الصبا<sup>(4)</sup>. أما نبات الخروب فكان ينبت من تلقاء نفسه وكان اليهود يطعمونه للخنازير<sup>(5)</sup>، هذا بالإضافة الى اهتمام الصليبيين بزراعة حجيرات هامة وعطرية كالقرنفل والنجرس والبنفسج والحنه والورد والريحان والاكاسير<sup>(6)</sup> مما حدا بهم ان ينقلوا زراعته الى اوروبا كقصب السكر والمشمش والخوخ والكمثرى والتمر الهندي والبهارات والطيوب أهمها القرفة وهي من اصل هندي أو يماني، وكذلك الذره الشامية والسّمسم. والخروب والدخن والارز والليمون والبطيخ والثوم بدليل اسماء بعض هذه المزروعات في اللغات الفرنجية بنفس لفظه من الاصل العربي<sup>(7)</sup>. المزارعين من سكان فلسطين الاصليين على مدى الاجيال والقرون في السهول والجبال والوديان.

### إدارة الأراضي الزراعية زمن الصليبيين:

كان العرف يسود العلاقات الزراعية بين الناس في فلسطين قبل الاحتلال الصليبي حيث كانوا يتنازلون عن جزء من انتاجهم او جزء من المال الناتج عن بيع المحصول لملتزم الضرائب او لمالك الارض الذي يستأجرون ارضه وكانت الحكومه المركزية تمنح الفرد حق استغلال ارضه مقابل ارسال مبلغ سنوي للخرانه والذي كان يقدم للجنود في كثير من الاحيان وفي خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي اصبح العرف العام الوحيد في الادارة السلجوقيه وهو امتلاك الارض او حكم الاقليم مقابل الخدمات العسكرية.

(1) الادريسي، م.س. ج 5، ص 356.

(2) النويري، م. س، ج 1، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ص 247.

(3) الرخنشري، محمود بن عمر (ت 538 هـ / 1146م): كتاب بالامكنه والمياه والجيال، تحقيق ابراهيم السامرائي، حيث ذكر اسماً آخر للزعفران "الجادي" نسبة الى حادثة إحدى قرى البلقاء في شرقي الاردن المشهورة بزراعته. بغداد، مطبعة السعدون 1968، ص 60.

(4) النقاش، م. س، ص 177.

(5) انجيل لوقا، ص 15، 16، ابن بطوطه، م.س، ج 1، ص 41، يقول عن نابلس: "وبها تصنع خلواء الخروب وتخلب الى دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ منه الخلواء ويخلب ذلك الرُب الى مصر والشام.

(6) النقاش، ن.م، ص 176، Burchard, p. 99.

(7) النقاش، ن.م، ص 176، Ibid, p. 99.

وهكذا نشأت حالة مماثلة للنظام الاقطاعي في فلسطين واصبحت على استعداد لتقبل العادات الاقطاعية وكان التزام الفلاحين بدفعهم مبالغ للصليبيين يمثل التزامهم الرئيسي تجاه السلطة.

كما ترك الصليبيون كعنصر حاكم لأصحاب الارض الاستمرار في استغلالها لصالحهم نظرا لجهلهم بظروف الارض<sup>(1)</sup> فاستمر منح السادة الاقطاعيين الاراضي لاتباعهم<sup>(2)</sup> ولم يغير الصليبيون عرف من سبقهم من الحكام أي انهم احتفظوا بنظام حصلوا بواسطته على الدخل الحكومي من السكان الوطنيين بترك الحرية لهم في إدارة شؤونهم المحلية على الرغم من رفض السكان في بعض الاحيان دفع تلك الضرائب المفروضة عليهم كما حدث في عهد بلدوين الثاني<sup>(3)</sup>.

كما حاولوا فرض سيطرتهم على الفلاحين المسلمين شرقي نهر الاردن وحوارن والبقاع لشهرتها بالقمح<sup>(4)</sup>.

وهكذا يلاحظ في مجال الزراعة اعتماد الفرنجة على المواطنين الفلاحين في زراعة الخضروات والفاكهة والزيتون وكروم العنب وقصب السكر في غور الاردن والكرك والشوبك والساحل الذي نقلوا زراعته الى بلدانهم الاوروبية وكل هذه المنتجات الزراعية صُدرت ايضا الى اوربا الغربية كما صُنِّعوا الزجاج والبسط والسجاد والاقمشة والملابس الحريرية ومنتجات الشرق الهندية والصينية الى دمشق وعكا ويافا وبيت المقدس، وفرضوا الضرائب على القوافل التجارية المارة عبر الكرك مما مكنهم من جني الارباح الطائلة.

كما اغروا الايطاليين بالقدوم الى فلسطين بمنحهم الامتيازات التجارية وخاصة تجار جنوا والبندقية وفلورنسا وبيزا، وملكوهم احياء خاصة بهم في يافا وعكا.

(1) القلقشندي، م.س، ج14، ص 31، 42، 50. قابلتنا جماعة كبيرة من المسلمين يقودون الثيران والحمير وهم في طريقهم لحرث سهل واسع جميل وقد اثاروا الرعب في نفوسنا... ويقمون في المدن والقلاع ويعيشون على العمل تحت إشراف ملك القدس أو رئيس الداوية...".

(2) ابن جبير، م.س، ص 210، وابن عبد الظاهر، م.س، ص 34-42.

(3) Wiliam of Tyre 11, p. 371.

(4) Runciman Ahistory of the crusades, 111, p. 352، حيث قال "لولا مساعدة اقليم شرقي نهر الاردن لما تيسر دائما لمملكة بيت المقدس ان تطعم نفسها، فاذا طلب المحصول كان لا بد من استيراد القمح من سوريا.

## ثانياً: الزراعة في جنوب بلاد الشام في العصر الايوبي :

لقد اهتم الايوبيون بها لتوفير الطعام والكساء لقواتهم العسكرية فاعتنوا بنظام الري لتنشيط الزراعة ونجاحها<sup>(1)</sup> باعتمد على الاراضي الخصبة والمناخ المعتدل الملائم والنشاط البشري، وتوفر ماء المطر ويمكن تقسيمها جغرافيا حسب الخصوبة الى اقاليم زراعية في العصر الايوبي:

اولاً الاراضي الخصبة جنوب بلاد الشام اشتملت على السهول الساحلية. في فلسطين عكا- حيفا- غزة كما امتازت بغزارة امطارها<sup>(2)</sup>. ومياهاها، واشتهرت منذ القدم بالخصب والنماء<sup>(3)</sup>، وكانت تخضع في للصليبيين ذلك الوقت.

ثانياً اقليم الجبال المحاذية للساحل الشمالي الى الجنوب مثل جبال فلسطين وجبال شرقي الاردن كجبال عجلون وجبال السلط والكرك وبهراء والسماق وتشتهر بكثرة اشجارها المثمرة<sup>(4)</sup>.

ثالثاً اقليم الهضاب والسهول الداخلية والتي تقع شرق السلاسل الجبلية كسهول الكرك<sup>(5)</sup> والبلقاء وحوران والسهول المرتفعة في فلسطين وترتبتها خصبة لانها من النوع البازلتي. رابعاً اقليم الغور: والذي يشمل على اراضي بحيرة الحولة وطبرية وبيسان والصلت واريحا وشواطئ البحر الميت وهي امتداد لأغوار سوريا وتعتبر اراضيه وحتى اليوم من اغنى المناطق الزراعية بسبب تجدد تربتها من فيضان نهر الاردن<sup>(6)</sup> ونوعها من التربة اللحية الخصبة ويكثر فيها الازوت " النيتروجين"<sup>(7)</sup>.

خامساً: الاقليم الصحراوي: والذي يقع شرقي السهول والهضاب الداخلية ويعرف ببادية الشام التي تتخللها بعض الواحات، وتثبت فيها بعض النباتات لسقوط الامطار شتاء حيث تصل في معدلها الى 0.150سم تقريباً و يعيش فيها البدو وترتبتها رملية كما تمتد التربة

(1) بروكلمان: م س، بيروت 1948، ص 364.

(2) كرد علي، محمد: م س، 6 أجزاء ط2، 1403 هـ / 1983م، الناشر مكتبة النوري، غوطة دمشق، ط2، مطبعة الشرقي بدمشق، ج4، ص 139، فيما بعد 1371هـ/ 1952م.

(3) المقدسي: ليدن 1906 ص 162-174، الاضطخري: المسالك والممالك، القاهرة 1961م ص 167.

(4) ن.م، ص 156، المقدسي: م.س ص 186-188.

(5) عادل عبد السلام: جغرافية سورية (طبيعية وبشرية) دمشق 1973، ج 1، ص 133-135، 138.

(6) زكريا، احمد وصفي: المفكرة الزراعية، مطبعة الترقى، 1930م.

(7) محمد كردعلي: ن م، ج 4، ص 172.

الرملية ما بين حيفا وغزة. اما تربة الكرك وعجلون والسلط والبلقاء ونابلس فهي  
كلسية<sup>(1)</sup>.

وهكذا تكون معظم اراضي جنوب بلاد الشام صالحة للزراعة عدا البوادي والجبال والتي  
يزيد ارتفاعها عن 1560م<sup>(2)</sup>. هذا وقد ساعد ايضا على ازدهار الزراعة المناخ المعتدل والنشاط  
البشري الذي يشمل ملاك الاراضي والايدي العاملة بالاجرة نقداً كانت ام غلة بالاضافة لتشجيع  
معظم سلاطين الايوبيين للزراعة والصناعة والتجارة لدعم القوة العسكرية<sup>(3)</sup>.

وتميّز النشاط البشري في جنوبي بلاد الشام منذ القدم وحتى اليوم بالجدية وحسن استغلال  
الاراضي باستعماله الاساليب والطرق الناجحة فزُرِعَ القمح والشعير وباقي الحبوب في الحقول  
المروية بمياه المطر بينما غُرست الاشجار المثمرة كالزيتون واللوز والعنب والتين في المناطق  
الجبلية في حين زرعت منطقة الاغوار باشجار الفاكهة المتنوعة.

اما الغابات فكانت ومازالت تغطي رؤوس معظم الجبال وقد اشارت المصادر الجغرافية  
والتاريخية الى هذا النشاط الزراعي<sup>(4)</sup>.

وعن جمع ماء المطر: ذكر ناصر خسرو اثناء مروره بفلسطين عن جمع الناس لمياه  
الامطار من اسطح البيوت في صهاريج لخبزنها للاستعمال اليومي والزراعة عن طريق  
الاقنية<sup>(5)</sup>. وفي الغالب كانت بلاد الشام ومازالت تعتمد في ري معظم مزارعها على مياه  
الامطار، وقليل منها على الري كفلسطين مثلاً التي تعتمد على مياه الامطار عدا نابلس التي  
تعتمد على الري من مياهها الجارية<sup>(6)</sup> ومن المياه الجارية في جنوب بلاد الشام التي نشاهدها  
اليوم نهر اليرموك ونهر الاردن<sup>(7)</sup> ونهر الزرقاء والعوجا وهو اهم انهار فلسطين بالاضافة

(1) محمد كرد علي: ن.م، ج 4، ص 182.

(2) ن.م ج 4، ص 172.

(3) ابن الاثير: الكامل، ج 11، ص 413، يذكر بان صلاح الدين الايوبي كان يصرف بعض الجنود في مواسم الحصاد لحني المحاصيل.

(4) المقرئ: السلوك، ج 1، ص 555، ابن طولون م س، ج 1، تحقيق محمد مصطفى القاهرة 1962، ص 291. الفلقشندي: م.س، ج

12، ص 214، اليوناني: ذيل مرآة الزمان: حيدر اباد 1954، ج 2، ص 409.

(5) ناصر خسرو: م س، ص 47 وما بعدها.

(6) ن.م، ص وما بعدها، والمقدسي، م س، ص 163، ومصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين - دار الطليعة بيروت (1391هـ/1972م).

(7) يعتبر من اهم انهار بلاد الشام بعد بردى في ري المزارع حيث ينبع من سفوح جبل الشيخ ويصب في البحر الميت، ومن روافده اليرموك  
والزرقاء شرقا والجلود غرباً. العمري: مسالك الابصار ج 1، تحقيق احمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1342 هـ /  
1924 م ص 80، والمسعودي التنبيه والاشراف، بيروت 1968، ص 64، والفلقشندي، م.س، ج 4، ص 81.

الأودية كوادي غزة ووادي صرار ووادي الحمام الذي يصب في البحر الميت ووادي الموجب " عرنون" ويصب ايضا في البحر الميت وكذلك وادي الحسا<sup>(1)</sup>.  
كما ساعد على نجاح الزراعة وتقدمها كثرة الينابيع<sup>(2)</sup> والبحيرات العذبة مثل بحيرة طبرية والحوле<sup>(3)</sup>.

### نظام الري في العصر الأيوبي:

أهتم الأيوبيون بصيانة الجسور والاقنية التي استخدمت لايصال المياه للدور والمساجد والقصور والزراعة، ففي المناطق التي يعلو فيها مستوى النهر عن مستوى الارض الزراعية تؤخذ المياه مباشرة لري الاحواض كالاغوار ونابلس، كما اقيمت السدود عندما تكون مياه النهر اخفض من الاراضي الزراعية كما استخدموا الدواليب والنواير التي كانت نادرة في الاردن. وبالنسبة لوحدات القياس الزراعية فقد استخدموا ذراع العمل: وطولها ثلاثة اشبار بشبر رجل معتدل والذراع الزياي والهاشمي وهي اطولها واستخدمت جميعها لقياس الاراضي<sup>(4)</sup>.  
كما استخدموا القصبة ومقدارها ستة اذرع بالهاشمي وكل 400 قصبة مربعة تساوي فداناً وقد استخدمت لقياس الاراضي الزراعية<sup>(5)</sup>.

وأما الفدان فهناك الفدان الرومي: وهو مقدار ما يحرقه زوج ثيران في يوم وليلة واما الفدان العربي: فهو ما يحرقه الفدان في يوم كامل والفدان 400 قصبه مربعه او 24 قيراطاً، وكانت مساحة الفدان في العصور الوسطى 6388 متر مربع<sup>(6)</sup>.

(1) ادهم مصطفى وغسان مراد: الاطلس التطبيقي، ط 1، 1956، ص 69، ويذكر ان نهر الزرقاء ينبع من شمال شرقي عمان ويصب في الشريعة جنوب مصب اليرموك.

(2) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 342-343، وناصر خسرو، م. س ص 33. حيث ذكر بعض الينابيع الفلسطينية في بيسان وعكا والخليل والصلت " السلط اليوم " وابن جبير: م. س، دار التحرير المصرية 1388 هـ / 1968م، ص 224، والشوبك بلدة كثيرة البساتين ينبع من طرف قلعتها عينان تشرفان البلدة. عبدالعزيز سالم: دراسة في تاريخ صيدا، بيروت 1970، ص 12.  
العمري: مسالك الابصار، ص 89، القلقشندي: م. س، ج 4، ص 83-85.

(3) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 262-263.

(4) الفراء، ابو يعلى محمد بن الحسين، الاحكام السلطانية، القاهرة، 1938، ص 158، والقلقشندي: م. س، ج 3، ص 442-443.

(5) الفراء ن. م ص 157، والقلقشندي: ن. م، ج 3، ص 442.

(6) القلقشندي ن. م، ج 3، ص 442.

هذا فقد ذكرت التسمية في اللغة اللاتينية Carruca وفي الفرنسية Charrues أي الكمية من الارض التي يمكن زراعتها بوساطة عجلة محراث في فصل واحد ويساوي 35 هكتاراً. Prawer, the latin king dom, 11, p. 372

## ملكية الأراضي :

لقد تكونت الملكيات الكبيرة في عهد الأمويين نتيجة للشراء ومنح الاقطاعات " الالغاء"  
فظهرت طبقة ملاكين جدد، فملك بعض الامراء قرى بكاملها<sup>(1)</sup>.

فقد كان لعمر بن العاص ضيعة عجلان في بيت جبرين وناحية بئر السبع " وفيها سبع  
آبار " في فلسطين<sup>(2)</sup>.

وتجدر الإشارة الى ان هذه الاراضي الاقطاعية تركها النبلاء الروم في دمشق وحوارن  
وبعض جهات البلقاء مما أدى لاستقرار القبائل في القرى في اواخر العصر الأموي والعصر  
العباسي الاول<sup>(3)</sup>، فكانت هذه القرى على اطراف البادية بين العشائر حيث كانت مشتركة في  
البداية ثم تطورت الى ملكية خاصة لكبار الملاكين من اشراف القبائل حيث كان لهم قصورهم  
وضياعهم، مما أدى لتحول عامة القبائل الى زراع في مجتمعات قروية لهم ملكياتهم الفردية او  
العائلية خاصة بعد توقف الفتوحات الأموية، كما حدث في ثورة فلاحي قبيلتي لخم وجذام  
وعاملة وبلقين بقيادة المبرقع اليماني سنة 227 هـ / 829م في فلسطين والاردن<sup>(4)</sup> مما يشير  
هذا الى تحول ملحوظ في حياة القبائل العربية بعد انتقال السلطة للعباسيين وسياستهم الخراجية  
ومسح اجناد الشام لاعادة النظر في ضرائب الارض في الارياف سنة زمن المأمون<sup>(5)</sup>.

وكان الاقبال على امتلاك الارض قوياً حتى تحولت اراضي الصوافي في اقل من نصف  
قرن إلى اقطاعات وضياع خاصه بالاضافة الى شراء الارض الخراج واستغلال الاراضي  
الخالية.

ويرى البعض ان هذا الاقبال الشديد على شراء الارض مع اساليب الجباية، وبعض  
الظروف العامة ادت الى اسلوب جديد الحماية وهو الالغاء والى تحويل اراضي وقرى الى  
ملكيات كبيرة مما حول الاشراف الى ارسنقراطية ملكية اسهمت في توسيع نطاق الاراضي  
المزروعة الا ان هذه الملكيات الكبيرة قد تجزأت بسبب الوراثة بالاضافة لاتجاه العباسيين في  
تحويل الملكيات الكبيرة الى ملكيات صغيرة، ولمباعدة العباسيين لأراضي الأمويين واحدثوا لها  
ديوان الضياع<sup>(6)</sup> وكانت الصفة الغالبة على الملكيات الزراعية هي المزارعة والمغارسة

(1) البلاذري: م س، ص 249، ياقوت: معجم البلدان، ج3 ص 14، وج4، ص 15، ص 834، الجهشباري: تاريخ الوزراء، ص

26، وابن عساكر: م س، ج2، ص 186.

(2) ياقوت ج3، ص 34، البلاذري: ن.م، ص 138.

(3) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق ج1، ص 594-595، ج7، ص 176-191.

(4) ن.م، ج6، ص 125-126، واليعقوبي، م.س، ج2، ص 460، ط بيروت.

(5) ابن عساكر ج4، ص 107-108.

(6) البلاذري: م س، ص 151، قدامه، ص 241.

والمساقاة حيث ان كبار الملاكين كانوا لا يزرعون اراضيهم، بل يعهدون باستغلالها الى المزارعين. والنسبة لملكية الاراضي في العصر الأيوبي فقد اشارت بعض المصادر الى الملكية في العصر الأيوبي كالمقريزي<sup>(1)</sup> اشارات بسيطة ومعبرة بانها كانت اقطاعية في مصر والشام<sup>(2)</sup>. بالاضافة الى الوقف كما ذكرنا سابقاً.

(1) المقريزي: الخطط، دار التحرير 1967-1968، ج 1، ص 179، حث قال: " واما منذ كانت ايام صلاح الدين يوسف ابن ايوب هذا

فان اراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وامرائه واجناده".

(2) ن.م، ن.ص، وبالمقارنة كانت ملكية اراضي بلاد الشام اقطاعية عسكرية لانها في ظل نظام واحد. ن.م. ن. ص.

## الحاصلات الزراعية:

اشتهرت بلاد الشام منذ القدم بحاصلاتها المتنوعة وجودة اصنافها من الحبوب<sup>(1)</sup> والخضار والفواكه وغيرها<sup>(2)</sup> وخاصة في نابلس والخليل ومعان والاغوار<sup>(3)</sup> وعمّان<sup>(4)</sup>. وبصفة عامة فقد ساعدت زراعة الحبوب في بلاد الشام على ازدهار الحياة الاقتصادية لتنوعها وجودتها<sup>(5)</sup>.

ويأتي بعد الخضار في الاهمية زراعة البقول على امتداد الاغوار من طبرية وحتى البحر الميت<sup>(5)</sup> لسد حاجات الاستهلاك المحلي.

وأما الموز فانتشرت زراعته في المنطقة الممتدة من الشراة الى الحولة وفي منطقة اريحا<sup>(6)</sup> وفي نابلس<sup>(7)</sup> والاغوار<sup>(8)</sup> وعسقلان<sup>(9)</sup> وفي القدس<sup>(10)</sup>.

ويسمى قاتل ابيه لأن شجرته لا تثمر الا مرة واحدة في السنة وتموت ولا يحمل الاصل الواحد الاقنواً واحداً ثم يموت، وتخلّفها الاخرى من اصلها<sup>(11)</sup>.

كما زرعت الكرّمة في نابلس<sup>(12)</sup> والخليل واعنابها تلتح مرتين في العام<sup>(13)</sup>.

ويذكر ابن حوقل ان اهالي مدينة زُغُر قرب البحر الميت وجميع اهل فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم بمادة الحمر المستخرج من البحر الميت لتبقى عناقيده سليمة<sup>(14)</sup>.

(1) في السهول الخصبة والمناخ المعتدل في الكرك والشوبك والبلقاء. المقدسي: احسن التقاسيم، ص 175، والقلقشندي: م.س جـ 12، ص 211. د. يوسف غوانمه، تاريخ شرقي الاردن، ص 55.

(2) القلقشندي: م.س، جـ 4، ص 86-87، 88، 98، 127.

(3) محمد كرد علي: م.س، جـ 4، ص 149.

(4) ياقوت: معجم البلدان، دار صادر بيروت 1404 هـ / 1984م، جـ 5، ص 151، ذكر بان عمان كانت معدن الحبوب.

(5) المقدسي، ن.م، ص 180-181، ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص 105، والقلقشندي، م.س جـ 4، ص 86-87.

(5) النويري: نهاية الارب، ص 78، ابن الشحنة: ابو الفضل محب الدين محمد بن الشحنة (890 هـ / 1485م) الدر المنتخب في

تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي دمشق 1404 هـ / 1984م.

(6) الاضطحري: المسالك والممالك، ط 59، والمقدسي، م.س ص 165-166. وكرد علي: ن.م، جـ 4، ص 148.

(7) الدباغ، م.س جـ 2، ص 594.

(8) د. غوانمه: تاريخ شرقي الاردن، جامعة اليرموك، عمان 1979، ص 56.

(9) كرد علي: ن.م، جـ 4، ص 147.

(10) المقدسي: م.س ص 166، 170، 179.

(11) البديري، نزهة الانام، ص 353.

(12) دباغ: م.س، جـ 2، ص 594.

(13) ن.م ص 58، 1938 م ليدن ط2، ق1 ليدن ص 166-169.

(14) ابن حوقل ابو القاسم محمد: صورة الارض وانظر: امينه بيطار، م.س ص 332.



واما التين فاشتهرت بزراعته البلقاء ونابلس والرملة<sup>(1)</sup>، واكثر جبال فلسطين<sup>(2)</sup> وغزه<sup>(3)</sup> والمنطقة الممتدة بين الخليل والقدس<sup>(4)</sup>.

واما الرمان فاشتهرت زراعته في البلقاء وعكا<sup>(5)</sup> والشوبك ومؤاب والسلط والكرك ومنطقة الكفارات<sup>(6)</sup>. والزيتون الذي انتشرت زراعته في معظم بلاد الشام واكثره في فلسطين<sup>(7)</sup>.

وبالنسبة للخيل فكانت الاغوار الحارة اهم مناطق زراعته<sup>(8)</sup> كما زرع في الرملة وغزة واريحا<sup>(9)</sup> وبيسان<sup>(10)</sup>. وكانت اشجار الجوز تزرع في اودية حسان والكرك<sup>(11)</sup> كما كثرت زراعة الجوز (تين الفراعنة) في عسقلان والرمله وجبال فلسطين<sup>(12)</sup>.

وقد اشتهرت مناطق جنوبي بلاد الشام بزراعة البطيخ حتى اليوم<sup>(13)</sup> واما الحمضيات والليمون والنانج والاترج والبرتقال فقد اشتهرت زراعتها في فلسطين والاردن في الاغوار وعسقلان وعمان ويافا<sup>(14)</sup>.

كما كانت هناك مزروعات نقدية صناعية مثل قصب السكر في الاغوار وطبرية<sup>(15)</sup>. وزرع القطن منذ زمن الحمدانيين في مرج ابن عامر وعكا وطبرية وحيفا ويافا والقدس والخليل وغزة والحولة<sup>(16)</sup> والحلفا في الاغوار<sup>(17)</sup>.

(1) محمد كرد علي: م س، ج 4، ص 148. ذكر بانه افضل انواع التين في العالم: ناصر خسرو م.س ص 55. وصُدِّر للخارج.

(2) ابن حوقل: م س، ص 113 - 118، والمقدسي، م س ص 180.

(3) الاصطخري: المسالك ص 58، والقلقشندي: صبح الاعشى، ج 2، ص 98.

(4) ناصر خسرو، م س ص 32-55، المقدسي م س ص 172-173.

(5) ابن جبير: م.س، رحلة ص 218.

(6) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 245-247، 249.

(7) المقدسي، م س ص 180، وابو الفداء: ن.م، ص 240-241. وناصر خسرو، م.س، ص 53.

(8) حتي: تاريخ سوريا ولبنان فلسطين ص 277.

(9) كرد علي: ن م، ج 4، ص 148.

(10) المقدسي، ن م، ص 162-164.

(11) د. غوانم: تاريخ شرق الاردن ص 56.

(12) الاصطخري: ن م، ص 44، وابن حوقل ن م، ص 159. وابن القلانسي: م س، ص 47.

(13) البدري: نزهة الانام، ص 223، والدمشقي: شيخ الربوة: شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الأنصاري (ت 727هـ/1326م). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. بطرسبرغ 1281 هـ / 1856م، ص 200.

(14) انظر المقدسي، ن م، ص 181، ومحمد كرد علي: ن م، ص 147، 181، ومتر، م.س، ج 2، ص 249-281.

(15) الاصطخري: ن م، ص 64، والمقدسي ن م، ص 183، وابن حوقل ن م، ص 169، ومحمد كرد علي: ن م، ج 4، ص 140.

(16) انظر: المقدسي، ن م، ص 176-180/ محمد كرد علي م س، ج 4، ص 167-168، وأشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في الشرق العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عيلة، مراجعة احمد غسان سبانو - 1985، ص 59.

(17) د. غوانم: تاريخ شرقي الاردن، ص 56.

والنيلة في الاغوار والقرس (القرمز)<sup>(1)</sup> للتلوين باللون الاحمر والسّمسم في فلسطين وعجلون ومرج ابن عامر ويستخرج منه زيت السيزج<sup>(2)</sup>.

والبيلسان لاستخراج دهن البلسم منه ويزرع في الاغوار وعجلون<sup>(3)</sup> والورود في اريحا ويضرب المتل بورودها وازهارها، والنرجس والزعفران (الورس) في البلقاء<sup>(4)</sup> والبنفسج والزئبق والقرنفل والياسمين<sup>(5)</sup>.

كما زرعت الاشجار المثمرة بكثرة لاهتمام السلاطين بها حيث جلب الملك المعظم ابن العادل الاول الاغراس الى الشوبك حتى اصبحت تضاهي دمشق<sup>(6)</sup> فانتشرت زراعة المشمش في مؤاب<sup>(7)</sup> والشوبك<sup>(8)</sup> والكرك<sup>(9)</sup> كما اشتهرت البلقاء<sup>(10)</sup> ومنطقة القدس<sup>(11)</sup>. اما الدراق والكمثرى والسفرجل والخوخ فقد اشتهرت بزراعته منطقة البلقاء<sup>(12)</sup> والساحل وخاصة عكا<sup>(13)</sup>.

#### واما النباتات الطبيعية:

فقد اشتهرت منذ القدم في المناطق الجبلية غير المزروعة في جبال فلسطين وشرقي الاردن وما زالت حتى عصرنا الحاضر.

- (1) المقدسي، م س ص 56، كرد علي م س، ج 4، ص 148.
- (2) د. غوانمه، م س، ص 56.
- (3) محمد كرد علي: م س، ط 2، ص 178.
- (4) المقدسي: ن م، ص 180-181.
- (5) الادريسي: نزهة المشتاق، ص 368، فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص 254.
- (6) حتي: ن.م، ج 1، ص 255، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بغداد، نيويورك 1958.
- (7) المقدسي: ن م، ص 178.
- (8) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 246-247.
- (9) ن م، ن ص.
- (10) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ج 2، ص 594.
- (11) أمينه بيطار: الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق 1980، ص 333.
- (12) الدباغ: ن م ج 2، ص 594.
- (13) البدري الدمشقي، أبو الوفاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ت 887هـ / 1482م)، نزهة الأنعام في محاسن الشام، القاهرة، 1341هـ / 1923م، ص 223-224، وابن جبير، م.س، ص 218.

## وبالنسبة لاستثمار الأراضي:

فقد كانت الارض تستثمر اما مباشرة من قبل مالكيها اذا كانت مساحتها صغيرة او بواسطة عمال ووكلاء ونواب عن صاحب الارض اذا كانت مساحتها كبيرة<sup>(1)</sup>.  
اما املالك الدولة الاقطاعية فكان المقطع هو المسؤول المباشر عن استثمار اقطاعه حيث يشرف بنفسه على جميع العمليات الزراعية<sup>(2)</sup>.  
وقد برع سكان بلاد الشام باساليبهم الزراعية حيث كانوا يريحون الارض سنة من الزراعة واستمر هذا حتى الآن وتعرف بطريقة تبوير الارض<sup>(3)</sup>.  
ومن خبرات الشاميين الزراعية: زراعة الاشجار الطويلة في اطراف البساتين كالصنوبر والسرور كمصدات للرياح<sup>(4)</sup>، وكانت الاشجار في صفوف متباعدة على خط مستقيم بترك مسافات بين كل شجرة واخرى بما يقدر بعشرين ذراعاً<sup>(5)</sup> كما عرف اهل زغر بفلسطين تلقيح كرومهم بالطلع المذكور<sup>(6)</sup>.  
ومن الادوات الزراعية التي استخدموها المحراث الذي تجره الثيران والحمير والخيول والبغال والذي ما زال مستخدماً في بلدان البحر الابيض المتوسط<sup>(7)</sup> والفأس في المناطق الجبلية<sup>(8)</sup> والمسمدة والمذراة والمنجل<sup>(9)</sup> والشواحه والغربال والفورج<sup>(10)</sup>.

(1) كلود كاهن: م س ص 179 - 180، وعبد العزيز الدوري: م س، ص 48-49.

(2) آشور: م.س، ترجمة عبد الهادي عبله، مراجعة احمد غسان سبان.

(3) الماوردي: م.س، ص 167، ابراهيم طرخان: م.س، ص 242، النويري: نهاية الارب، ج 8، ص 256-257.

(4) آشور: ن م، ص 71.

(5) الشيخ عبد الغني النابلسي (ت 1143 هـ / 1730 م): علم الملاحة في علم الفلاحة: بيروت 1979، طبعة برخصة مجلس المعارف الموقر، ص 25.

(6) ابن حوقل، ابو القاسم محمد، صورة الأرض، ط 2، ق 1، ليدن، 1938 م، ص 162.

(7) الدمشقي، الاشارة الى محاسن التجارة، ص 38.

(8) باقرت الحموي: معجم الادباء ج 5، ص 168.

(9) القاسمي: محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، المسمى بدائع العرف في الصناعات والحرف، لاهاي، 1960 م، ج 2، ص 424، تحقيق ظافر القاسمي محمد سعيد.

(10) القاسمي: ن.م، ج 2، ن.ص.

## معوقات الزراعة في العصر الايوبي

تعتبر الكوارث الطبيعية والابوئه والحروب الصليبية والاهلية من المعوقات الزراعية في العصر الايوبي لانه نتج عن الحروب احراق القرى ومصادرة المواشي فقل بذلك الانتاج كما نهب الفرنجه الغلال والدراس كما حدث سنة 614هـ/1216م<sup>(1)</sup>.

كما ساهمت الحروب الاهلية بين افراد البيت الايوبي في ذلك والتي ادت لحصار المدن وقطع الانهار والاشجار كما حدث سنة 590هـ/1194م وسنة 595هـ/1198م وسنة 597هـ/1130م، وسنة 626هـ / 1228م عندما خرج الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين على الملك الناصر داوود بن عيسى المعظم من دمشق على ان يقيم بمدينة الكرك والشوبك ونابلس وما بين البلقاء والغور<sup>(6)</sup>.

## كما اثرت اعمال البدو على النشاط الزراعي:

إذ كانت قبائلهم تسيطر على معظم الطرق الداخلية، ويقوم بعضها بقطع الطريق ونهب القوافل التجارية، وفرض الاتاوات مقابل الحراسة والدلالة<sup>(1)</sup> بالاضافة الى اغارتهم احيانا على الأراضي الزراعية مما يؤدي لخرابها<sup>(2)</sup>. بالاضافة الى الحروب بين البدو والفلاحين<sup>(3)</sup>. ساهمت قلة المطر والزلازل في اعاقه الزراعة واتلافها للمزروعات كما حدث بين عامي 552 هـ - 600 هـ / 1156م - 1202م من توالي الزلازل وسنة 597هـ / 1300م إذ تأثرت بسببها عكا ونابلس<sup>(4)</sup>. وحدث زلزال مدمر ليلة الاثير 26 شعبان 598هـ / 1201م دمرت صنف ونابلس وتبنين التي لم يبق منها الا الجدران والاساسات وسقطت معظم دور عكا ايضا<sup>(5)</sup>.

(1) ابن كثير: م س، ج 13، طبعة جديدة 1398 / 1978م، ص 71.

(6) ابن كثير: ن م، ج 12، ص 8، 9، 11، 12، ص 77، 124. وابن خلدون: العمر، بيروت سنة 1391هـ / 1971م منشورات مؤسسة الاعلى.

(1) ابن العديم كمال الدين: م س، تحقيق سامي الدهان، طبعة المعهد الفرنسي، 1954، ج 1، ص 201.

وابن الاثير: ن م، ( بيروت 1402 هـ / 1982 ) دار صادر ج 1 ص 27.

(2) ابن العديم: ن م، ج 1 ص 257، وابو الفداء: المختصر، المطبعة الشاهنمية القسطنطينية، 1286 هـ / 1863م ج 2، ص 147-148. والمقدسي: م س. لندن 1906م ص 183.

(3) ابن نظيف: التاريخ المنصوري - مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق / 1402هـ / 1982م، ص 24.

(4) ابن الفلانسني: م س، ص 343، ابن العديم: ن م، ج 2، ص 30 وابن الاثير: ن م، ج 11، ص 170، وابن نظيف، م س: ص 25.

(5) ابن ابيك: كنز الدرر ج 7، ص 157، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور حسن محمد الشماع البصرة - العراق، 1386 هـ / 1967 ج 5، ص 16.

وكذلك ادى غزو الجراد لبلاد الشام الى هلاك الزروع والثمار كما حدث عام 619هـ/1222م<sup>(1)</sup>. وزاد على ذلك خطر الفئران سنة 659هـ/1261م<sup>(2)</sup>.

وهكذا ادت هذه العوامل الى المجاعات العامة لكافة بلاد الشام فنتج عنها نقص في الايدي العاملة بسبب الوبئة وكثرة الوفيات فاشتد الغلاء وعمّ والبلاء.

وهكذا نلاحظ ان حياة الفلاحين كانت عموما مستقرة في ظل الحكم الايوبي لبلاد الشام لاهتمام السلطة المركزية بالفلاحين وحمايتهم من سادتهم لذا لم يقيم الفلاحون بثورات ضد السلطة حيث ان المصادر لم تشر الى ثورات الفلاحين.

### الثروة الحيوانية في بلاد الشام:

لقد تضافرت العوامل القاسية على الحيوانات، من تغيرات في البيئة كالجفاف والقحط، الى افراط الصيادين في قتلها، الى ويلات الحروب المتتالية فكان الصيد عند عرب الجاهلية رياضة ومصدر رزق في نفس الوقت كما اشار اليه الشعر الجاهلي كالنابغة الذبياني في معلقته<sup>(3)</sup>.

فقد تحدث الشعراء عن اسراب الحيوانات التي كانوا يطاردونها بواسطة الحصان والكلاب السلوقيه والنبال مثل الحمار الوحشي والثور والغزلان بأنواعها والنعام والطيور وكالقطى والحباري والأرانب واليرابيع.

اما الحيوانات المفترسة في بادية الشام فكانت الذئاب والثعالب والضباع، والاسد الاسيوي والنمر والفهد، والطيور الجارحة كالصقور والعقبان والتماسيح. الا ان غالبية هذه الحيوانات قد انقرض منذ اوائل القرن الخامس عشر الميلادي<sup>(4)</sup>.

(1) ابن كثير: م، ج 13 ص 98. لذا فقد برع العرب في الكرك في مكافحة الجراد عن طريق طائر السممر الذي يأكل الجراد وذلك سنة 619 هـ / 1222 وربما يكون طائر السنونو الان. د. يوسف غوانه: امارة الكرك الايوبيه ص 191.

(2) ابن ابيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق بيراندركه، القاهرة 1402 هـ / 1982م، ج 8، ص 85، وانظر: ابن الأثير: م، ج 11، ص 451.

(3) ابو زيد القرشي: جمهرة اشعار العرب ص 112 و ما بعدها.

(4) ن. م. ن. ص، كرشينا فيليس، الصحراء السورية، ص 15.

## الزراعة المملوكية

### الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي:

#### مقدمة:

لقد طبق نظام الإقطاع الزراعي في العصرين الأيوبي والمملوكي<sup>(1)</sup> كما أسهم أهل الذمة من ملاكين زراعيين وفلاحين في النشاط الزراعي في بلاد الشام ودفعوا ضريبة الخراج على أراضيهم وغلاتهم الزراعية<sup>(2)</sup>، وكانت الدولة تعاقب البدو والفلاحين والعابثين<sup>(3)</sup> وقد حرص بعض السلاطين على إزالة بعض المكوس<sup>(4)</sup> والحوادث<sup>(5)</sup> الظالمة على البساتين والغلة في بلاد الشام أما الزراعة فقد اعتمدت على الأمطار على الرغم من وجود بعض الأنهار، فأقاموا السدود والنواير وأنشأوا القنوات وأستفادوا من أنهارها<sup>(6)</sup>.

(1) الماوردي، م س، ص 188، حتي، م س، ص 104.

(2) القلقشندي، م س، ج 11، ص 32، حيث أشار إلى تأثير أهل الذمة بسياسة الدولة الزراعية من حيث التوقيع الخاص بالإقطاع الأيوبي، والذي يأمر بالمعروف وعدم أخذ الرشوة وحسن الجوار، واتباع العدل بالنسبة لرؤساء أهل الذمة. وذكر النص: "... فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروهم بالتدبير لا تلوى، ومقاصدهم لا يمارحها شك ولا شكوى..." القلقشندي، ن.م، ج 11، ص 38، توقيع صادر برئاسة اليهود، كما ذكر المقدسي مقدار الضرائب التي كانت تفرض على الأردن مائة وسبعون ألف دينار وعلى فلسطين مائتا وتسع وخمسون ألف دينار أما خراج الأردن فكان ثلاثمائة وخمسون ألف ديناراً وخراج فلسطين مئسمائة ألف ديناراً. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 189.

(3) العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج 1، ص 64.

(4) المقرئ: السلوك، ج 1، ف 2، تحقيق من محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1957، ص 650 ذكر اسقاط السلطان، السعيد ابن الظاهر بيمرس 676-678هـ/1278-1280م.

(5) الحوادث: جمع حدث وهي المكوس التي لا تستند إلى سند شرعي، وهي عبارة عن إحداث تجدييدات في الحكومة والإدارة. دوزي، رينهارت، تكلمة المعاجم العربية، ج 3، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، 1981م، ص 94، كما أبطل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (689-699هـ/1290-1300م) عدة حوادث بأرض مصر والشام وسامح ما تأخر من البواقي من مال الخراج.

المقرئ: ن.م، ج 1، ف 3، ص 795 وكما فعل السلطان محمد بن قلاوون سنة 724هـ/1323م حيث ألغى مكس الغلة الظالمة على الفلاحين والتي كانت قيمتها ثلاثة دراهم ونصف من كل غرارة: والغرارة: مكيال دمشقي للحنطة، تساوي 12 كيلاً أو 72 مداً دمشقياً، القلقشندي: ن.م، ج 4، ص 188. وانظر: غوانم، نيابة بيت المقدس، ص 101، وغيره.

(6) التويري: م س، ج 8، ص 255، محمد كرد علي، م س، ج 4، ص 132-133.

والمعروف لدينا أن غور الأردن كان ينتج قصب السكر الذي صدر للبلدان الأخرى أما حُسبان بمنطقة البلقاء فاشتهر واديهما بأشجاره وبساتينه وكثرة مزارعه، بالإضافة الى منطقة عجلون الزراعية المشهورة حتى اليوم والمشهورة بخصوبة تربتها وكثرة أشجارها<sup>(1)</sup> وبصفة عامة فقد اشتهرت بلاد الشام كلها شمالها وجنوبها بإنتاج الزيتون الوفير والعنب ومختلف الفواكه<sup>(2)</sup> والخضروات والحبوب حيث وصلت الى حد الإكتفاء الذاتي وصدرت ما يفيض عن حاجتها الى البلدان الأخرى.<sup>(3)</sup>

كما تمتعت الأردن وجنوبها بشكل خاص بازدهار اقتصادي وعلمي وديمقراطي في العصر المملوكي فكان عدد القرى شمال الأردن وحوران 400 قرية، و300 قرية في البلقاء، و400 قرية في الكرك وانتشر العلم فيها عن طريق المساجد وتعليمهم القراءة والكتابة عن طريق أئمة المساجد.

أما الغلات الزراعية: فكان أهمها قصب السكر في غور الصافي والشوبك وصنعوه وصدروه الى أسواق فلورنسا بايطاليا وبقية الدول الأوروبية الأخرى "سكر مونتريال" أي سكر الشوبك. ومن هنا انتقلت زراعته الى أوروبا عن طريق الحروب الصليبية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وبالنسبة للطرق التجارية بين مصر والشام وبلاد الرافدين فقد لعبت دوراً هاماً في جنوب الأردن، حيث أقيم عليها خدمات للمسافرين كالخانات، واشهر الخانات في العقبة، وعنيزة والحساء، والقطرانة، وضبعة<sup>(4)</sup> ومراكز قبض المكوس كمركز "بويب العقبة والثاني عند جسر الحساء".

فأصبحت الأردن بموقعها المتوسط مركزاً لعبور تجارة الترانزيت للقوافل التجارية وقوافل الخليج. مما دفع الأهالي إلى الأسواق التجارية الموسمية في الزرقاء والرمثا ويزاء، والبتينة من خارج الكرك ومعان والعقبة وجاءت بمردود اقتصادي مرتفع جداً. وفي العصر الأيوبي كانت عمان حاضرة تجارية مزدهرة وعامرة يؤمها التجار من دمشق وبغداد، وقد حضر اليها ياقوت الحموي في تجارة لحساب سيده في بغداد<sup>(5)</sup>.

(1) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص 227-229.

(2) محمد كرد علي: م.س ج4، ص 149-150.

(3) ن.م ج4، ص 131-198.

(4) د. يوسف غوانمة، م.س ص 32.

(5) ياقوت: معجم الأدباء، ج1 ص 18-41.

## الزراعة في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي

لقد قسم المقدسي بلاد الشام الى أربعة أقسام هي<sup>(1)</sup>:

- السهل الساحلي.
- سلسلة الجبال الغربية.
- والأغوار.
- سلسلة الجبال الشرقية.

فبالنسبة للسهل الساحلي: الذي يمتاز بخصب التربة ووفرة المياه مما جعله صالحاً لزراعة الحمضيات والتوت والمشمش وغيرها<sup>(2)</sup>.

وأما سلسلة الجبال الغربية في جنوب بلاد الشام فتشمل جبال الجليل ونابلس والقدس<sup>(3)</sup> وتشتهر هذه المنطقة بكثرة قرأها وحقولها الزراعية الوافرة الغلات لغزارة أمطارها وتلوجها خلال الفترة من تشرين الأول الى أيار<sup>(4)</sup>. وأما الأغوار فتشمل أيلة، وصُغُر<sup>(5)</sup> وأريحا<sup>(6)</sup> وبيسان<sup>(7)</sup> وطبرية<sup>(8)</sup> ممتداً من أيلة الى الحولة.

ويشمل وادي الأردن الذي يخترقه نهر الشريعة الممتد من طبرية حتى البحر الميت حيث تعني كلمة الغور الأرض الهابطة.<sup>(9)</sup>

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 170-171 انظر خريطة حدود الممالك الفلسطينية في العصر المملوكي، سليم عرفات، النقود العربية ص 215، الملاحق.

(2) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين دار الطليعة بيروت، د.ت، ج1، ق1، ص27.

(3) محاسنه: محمد سلامة، الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير جامعة بغداد، 1986، ص 11.

(4) ابن حوقل: أبو القاسم النعمي، (ت 367هـ/977م) "صورة الأرض"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص 153.

(5) صُغُر: رُغُر في اللغة الفصحى وهي مدينة جنوب البحر الميت (البحيرة المنتنة)، ياقوت معجم البلدان، ج3، ح411، وسمي البحر بأسماء منها رُغُر، ولوط والمقلوبة، وسدوم وعاموراء، مياهه لا تزيد ولا تنقص في الشتاء أو الصيف ويطفو على سطحه القار الأسود أو الحمر الذي كان ينقل الى قلعة الكرك ويدخل في النفط يستخدمه الأهلي في حماية كرومهم وأشجارهم من الدود يطليه سيقانها، انظر النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ/1331م) نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ج1، ط25، القلقشندي: صبح، ج4، ص 83. والأصطخري: م س، ص 64، واليعقوبي: البلدان ص 329.

(6) اريحا: مدينة الجبارين في الغور، بينها وبين بيت المقدس يوم، البغدادي، مراصد، ج1، ص 63.

(7) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال: هي لسان الأرض بين حوران وفلسطين وبها عين الفلوس، البغدادي، ن.م، ج1، ص 241.

(8) طبرية: بلدة معروفة مطلة على البحيرة المعروفة بها، من أعمال الأردن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، فيها عيون ملحة حارة بنيت عليها حمامات. البغدادي: ن.م ج2، ص 935.

(9) الاصطخري: ن.م، ص 45، ابن حوقل: ن.م، ص 160 والقلقشندي، م س، ج4، ص 283. وانظر ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 226 حيث ذكر سبب تسميته بالغور لأنه عبارة عن "بقعة بين جبلين سائر مياه الشام تنحدر وتجتمع فيكون نهر زخار".



ويشتهر الغور منذ ذلك الوقت وحتى الآن بالقرى الزراعية والمحاصيل المتنوعة، كالموز، وقصب السكر، والبليلسان، والنيل وغيرها<sup>(1)</sup>. وأما سلسلة الجبال الشرقية في جنوب الشام فهي جبال عجلون وجبال البلقاء<sup>(2)</sup> "جلعاد" وجبال الكرك<sup>(3)</sup> والطفيلة ورم شرق العقبة في منطقة البادية جنوبي الأردن وسميت مرتفعات جنوبي الأردن "بجبال الشراه"<sup>(4)</sup> وقد كستها الغابات الكثيفة<sup>(5)</sup>.

لقد ازدهرت الزراعة في بلاد الشام في فترات معينة في العصر المملوكي، وخاصة جنوب بلاد الشام ذات الأشجار الوفيرة من فواكه وحمضيات وحبوب وورود وتنوع الغلات الزراعية من محاصيل شتوية كالقمح والشعير والشوفان والعدس والمحاصيل الصيفية كالذرة والدخن، والسمسم، والأرز، الكزبرة والمقاثي والقطن<sup>(6)</sup>.

وقد استخدم الفلاحون والمزارعون كثيراً من الطرق الزراعية المستعملة منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر فكان من هذه الأساليب التي مارسها الفلاح الشامي تبوير الأرض (استخدام نظام الحقلين أو المناوبة) منذ العهد الروماني<sup>(7)</sup> كما عرف أنواع التربة وخصائصها<sup>(8)</sup> كما عرف

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 160-162، حمارنه، صالح: "زراعة قصب السكر وصناعاته عند العرب المسلمين" حولية دائرة الآثار الأردنية، 1977-1978 ع 22، ص 12. غوانته: التاريخ الحضاري، ص 56.

(2) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، وقبضتها عمان، ومنها قرى كثيرة، ومزارع واسعة (البغدادي: م.س، ج1، ص 23).

(3) الكرك: قلعة محصنة، تقع على الحدود السورية جهة منطقة البلقاء وسط الجبال، وتقع في منتصف المسافة بين القدس وأيلة على البحر الأحمر (ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص 262) والكرك كلمة آرامية تعني القلعة أو المدينة المحصنة القائمة بأعلى تل، لذا أطلق مؤرخو الحروب الصليبية اللاتينية على كل موقع حصين بأعلى الجبل الكرك، لذا سما الشوبك منزيال أو كرك الشوبك "كرك مونزيال". انظر: رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2/ ص 160، ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، بيروت، دار الطليعة، ط1، أيار سنة 1966م، ج1، ق2، ص 320. ود. غوانته: اشارة الكرك ص 48 والشوبك كلمة آرامية بمعنى "تارك" أو "ساكب" وأطلق عليها اسم "مونزيال" MontRyal أي "جبل الملوك" وحرقت سماعياً من الفرنسية الى Le kark de montveal، بين مصر وبلاد الشام وقد بناها بلديين الأول عام 1115م لازعاج التجار المسلمين.

(4) جبال الشراه: تقع في جنوب البلقاء، وتقع خلفه الرمال التي استقر فيها الفلاحون (سزائج، فلسطين ص 87).

(5) د. غوانته، يوسف: تاريخ شرق الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، القسم الحضاري، جمعية المطابع التعاونية، عمان، 1979، ص 56.

(6) النويري: نهاية الأرب، ج8، ص 257-258، ومحمد الصالح: نتائج الصدمة الاقتصادية والغزو والفرجة بمجلة تاريخ العرب، دار النشر العربية، بيروت 1989، ع 123-124، ص 97.

(7) النويري: ن.م، ج8، ص 255-257. والفرقاء "الأحكام السلطانية" ص 169، وطرخان: النظم الاقطاعية، ص 242، د. غوانته، التاريخ الحضاري: ص 56-57.

(8) ابن حجاج، ابو عمر أحمد (من أعيان القرن 5هـ/11م): المتنوع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار ورفيقه، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 198، ص 156. الأشرف الرسولي: يوسف بن عمر بن علي الغساني (ت 694هـ/1294م): ملح الملاح في معرفة الفلاحة تحقيق عبد الله محمد علي المجاهد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1972، ص 29، 30، 33، وابن بصال، عبد الله محمد بن ابراهيم، عاش في القرن 5هـ/11م: كتاب الفلاحة، تحقيق خوسي ماريه مباس ومحمد عربمان، ومحمد مولاي الحسن، تطوان 1955، ص 44، 46.

السقي والزمن المناسب له<sup>(1)</sup> لتوفر العيون والينابيع والأنهار كعين سلوان المدد لبيت المقدس بواسطة الأفنية<sup>(2)</sup> بالإضافة الى عيون اخرى نقلت مياهها بالأفنية في منطقة الخليل<sup>(3)</sup>.

كما يعتبر الغور من مواطن الينابيع الهامة<sup>(4)</sup>، كما تكثر في منطقة الشوبك وجبال الشراة، ومؤاب ومنطقة عجلون<sup>(5)</sup> هذا بالإضافة الى مياه الآبار والبرك التي تجمع مياهها من المطر بهدف الشرب والأغراض الزراعية كبرك بيت المقدس<sup>(6)</sup> وآبار مدينة عسقلان في فلسطين<sup>(7)</sup> وقد استخدموا ثلاثة طرق للري:-

أولاً: الآلات مثل الناعورة التي تدار بقوة المياه الجارية في النهر حيث يرفع الماء بدلاء مربوطة بدولاب الناعورة<sup>(8)</sup>.

والدالية: التي تعمل على نفس مبدأ الناعورة ولكن تدار بواسطة حصان أو ثور<sup>(9)</sup> والشاذروان في العصر المملوكي: وهي عبارة عن ألواح خشبية تدعمها أعمدة من الخلف لترفع مستوى المياه في النهر لسقي الأراضي المرتفعة<sup>(10)</sup> كما استخدم الفلاحون الشادوف لرفع الماء من البئر<sup>(11)</sup> والدلاء العادية.

وقد اعتمد الفلاحون في جنوب بلاد الشام لتوفير المياه على الينابيع وتشبيد الصهاريج لتجميع ماء المطر لسد حاجاتهم بالإضافة الى الآبار والقنوات<sup>(12)</sup>.

ثانياً: القنوات لري الأراضي الزراعية ذات الانحدار الخفيف كقناة الرملة، وقناة ابراهيم في منطقة الخليل<sup>(13)</sup>.

(1) البدي: أبو البقاء عبد الله بن محمد المصري الدمشقي، (ت 877هـ/482م): نزعة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، مصر، (د.ت) ص 90.

(2) الفلقشندي: م.س، ج2، ص 179، النابلسي: المختار، تحقيق احسان النمر، نابلس 1972، ص 46-47.

(3) غوامه: بيت المقدس، ص 13.

(4) فالخ: الحياة الزراعية، ص 33، 34.

(5) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 213، البغدادي، م.س، ج2، ص 2566، القزويني، م.س، ص 259.

(6) النابلسي "التحفة النابلسية"، ص 38، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 156.

(7) ابو الفداء، تقويم البلدان، ص 239، 295، النويري: نهاية الأرب، ج1، ص 277، وابن طولون "القلائد"، ف1، ص 37.

(8) تقي الدين الراصد، محمد بن أحمد بن يوسف (ت 993هـ/1985م): الطرق السنية في الآلات الروحانية، تحقيق أحمد يوسف 1976، ص 56.

(9) الدوري: تاريخ العراق، ص 51.

(10) دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1990، ص 95.

(11) Watson, Agricultural: p. 108.

(12) البغدادي: راصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي البحايوي بيروت، 1957، ج3، ص 1316. والقزويني: آثار البلاد ص 198.

(13) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 271، 291، فالخ: الحياة الزراعية، ص 26.

ثالثاً: الجسور والقناطر على الأنهار: لانتقال الفلاحين الى حقولهم والتبادل التجاري<sup>(1)</sup> بين القرى والمدن ونقل المياه من النواعير الى قنوات تصل المزارع والمدن. وقد اهتم السلاطين ببناء الجسور والقناطر كالظاهر ببيرس الذي أمر ببناء جسر على الشريعة (نهر الاردن) عام 664هـ/1266م، حيث كلف الأمير جمال الدين بن نهار الصالحي لبنائه من أموال دمشق على أن يكون خمس قناطر<sup>(2)</sup>. وكان الفلاحون يقومون بعملية كرمي الأنهار والقنوات لتنظيف مجراها والأوساخ التي تعيق جريان الماء خلال شهري شباط وآذار<sup>(3)</sup> كما كانت عملية توزيع المياه تتم بالتناوب بالأيام والساعات. وبالنسبة لأهم المحاصيل الزراعية في بلاد الشام في العصر المملوكي:

فقد كان القمح والشعير من أهم المحاصيل الزراعية في جنوبي بلاد الشام التي تعتمد على مياه الأمطار مما تسبب في تذبذب الانتاج وعدم كفايته محلياً واستيراد القمح والشعير من الديار المصرية<sup>(4)</sup>. وكان لانتاج جنوب بلاد الشام من القمح والشعير أهمية كبيرة زمن المماليك الذين خزنوا كميات كبيرة في اهرات خاصة كاحتياط للازمات الغذائية أيام القحط في مصر<sup>(5)</sup> وغيرها كما حدث عام 736هـ/1335م عندما كتب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى نائب غزة والكرك والشوبك وغيرها ليحملوا الغلال الى مصر وكانت مناطق الصلت<sup>(6)</sup> والبلقاء وعمان من أهم مناطق جنوب بلاد الشام خصباً ونماءً وخاصة القمح حتى وصفوا عمان بمعدن الحبوب لجودة حنطتها كما كانت مع الصلت المصدر الرئيسي لتزويد بيت المقدس وبعض المدن الفلسطينية إبان الاحتلال الصليبي لفلسطين.

(1) الزهري: ابو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط القرن 6هـ/13م) كتاب الجغرافية، تحقيق محمد صادق، (د.م، د.ت) ص 89.

(2) ابن عبد الظاهر: م س، ص 246. النويري: نهاية الأرب، ج3، ص121.

(3) العطار الدمشقي: محمد بن حسين (ت 1243هـ/1827م) علم المياه الجارية في مدينة دمشق، تحقيق أحمد غسان سبانو ط، دار قتيبة، دمشق، 1984، ص 178. وأبو الفداء: المختصر، ج4، ص 94.

(4) النويري: ن م، ج8، ص 257-258، ومحمد الصالح، م.س، ص 97.

(5) اليوسفي محمد بن يحيى (ت 759هـ/1358م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، ط1، عالم الكتب بيروت، 1986، ص 300، وانظر غوائمه: التاريخ السياسي، ص 47، حيث جهز السلطان الظاهر ببيرس الطواشي جمال الدين محسن بخمسائة غرارة من الكرك ليفرقها على الضعفاء بسبب القحط والجفاف كما استطاع نائب غزة الأمير أفسنقر أن يجمع من بلاد الشوبك ثلاثة آلاف غرارة شعير عام 742هـ/1341م. البخيت، محمد عدنان: مملكة الكرك في العصر المملوكي، 1976، ص 34.

(6) الصلت: بلدة وقلعة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها وهي تقابل اريحا مشرفاً على الغور وينبع من تحت قلعة الصلت عين كبيرة يدخل ماؤها بلدة الصلت، وللصلت بساتين كثيرة، وحج الرمان مجلوب منها، ابو الفداء تقويم البلدان، ص224.

سبب نزوح السكان عن الساحل الفلسطيني ورفضهم زراعة القمح لتجويد الفرنجة إذ اشترط صلاح الدين الأيوبي على أخيه العادل بعد تحرير القدس إرسال ستة آلاف غرارة من القمح من الصلت والبلقاء إلى القدس<sup>(1)</sup>.

أما محصول الأرز في جنوب بلاد الشام فكان محدوداً في مدينة بيسان في غور الأردن<sup>(2)</sup> ومدينة صفد ومنطقة الحولة التي كانت تزود دمشق بالأرز<sup>(3)</sup>.

وبالنسبة للخضروات: فقد عرفت جنوبي بلاد الشام في العصر المملوكي زراعة أصناف مختلفة من الخضروات كالبصل<sup>(4)</sup> والملفوف، والقريبط، والبانجان والبامية، واللفت والفجل والثوم والرشد والقلقاس والكوسا والسلق<sup>(5)</sup> والبطيخ والشمام حيث اشتهرت نابلس بالبطيخ الأصفر الزائد الحلاوة<sup>(6)</sup> واشتهرت الأغوار في الأردن بالبطيخ المخطط كثير الحلاوة<sup>(7)</sup> وقد كان البطيخ علاجاً لمرض الطاعون في العصر المملوكي<sup>(8)</sup>.

وقد كان لهذا الازدهار الزراعي الأثر الكبير في التوسع نحو الانتاج الصناعي، وخاصة استثمار الفائض من المحصولات الزراعية النقدية التي قامت عليها الصناعات مثل القطن والقنب في الحولة، وبيسان، وأريحا<sup>(9)</sup> وقصب السكر الذي كان يزرع في الأغوار حيث بنوا معاصر السكر<sup>(10)</sup> مما جعل سلاطين الأيوبيين والمماليك يتخذونها إقطاعات خاصة بهم مثل الغور الشمالي الذي كان إقطاعاً للملك الناصر داود وأبنائه من بعده<sup>(11)</sup>.

(1) أبو الفداء: المختصر، ج3، ص85، ابن الوردي: م س، ج2، ص104، وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص185، وغوامه: امارة الكرك، ص168.

(2) عماد الدين خليل: فلسطين في الأدب الجغرافي والعربي، للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام 1980، مطابع الجمعية العلمية للكتاب، عمان، 1983، م2، ص42.

(3) صالح بن يحيى، بن صالح بن الحسين بن أمير العرب (ت بعد سنة 840هـ/1436م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي دار المشرق، بيروت 1967، ج2، ص67.

(4) اشتهرت به مدينة عسقلان في فلسطين حتى اعتبر نباتاً خاصاً بها البصل العسقلاني، حتي: سوريا، ج1، ص325.

(5) ابن البيطار: ضياء الدين عبد الله بن احمد الاندلسي، (ت 664هـ/1268م)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج3، ص65.

(6) ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص86، شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص200.

(7) الغزي: محمد بن احمد العامري رضي الدين (ت 935هـ/1528م)، "جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الملاحة" ميكروفيلم عن مخطوطة محفوظة بدار الكتب السلطانية رقم 134 زراعة، مجموعة أ، د. محمد صالحية ورقة 161.

(8) ابن الصيرفي "نزهة النفوس، ج1 ص170.

(9) المقدسي: م س، ص362، القزويني: م س، ص208، وابن الشحنة: م س، ص264.

(10) أبو دلو: ربي احمد "معاصر السكر في الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير في معهد الآثار، جامعة اليرموك، 1991، تحتوي على معلومات عن المسوحات الأثرية، وحمارنه: "قصب السكر" حولة دائرة الآثار، ع22، ص14-15.

(11) د. غوامه: التاريخ الحضاري، ص107.

والزيتون: الذي اشتهرت به فلسطين منذ عصر اليونان<sup>(1)</sup>. فكانت نابلس أكثر بلاد الشام زيتوناً<sup>(2)</sup> واشتهرت بزراعته كل من بيت المقدس<sup>(3)</sup> وبيت لحم والخليل<sup>(4)</sup> وقرية كفر كنا<sup>(5)</sup>، ويافا، وأرسوف<sup>(6)</sup>، وعسقلان<sup>(7)</sup>، وفي جنوبي الأردن في منطقة البلقاء ووادي موسى والحميمة<sup>(8)</sup> والكرك بالإضافة الى الكفارات وعجلون شمالي الأردن<sup>(9)</sup>.

كما اشتهرت بلاد جنوب الشام بزراعة شجرة العنب أو الكرمة وجمعها كروم، وكان موعد قطف العنب عند النصاري يسمى عيد الصليب في اليوم الثالث عشر أو الرابع عشر من شهر أيلول، وعيد الزبيب في الخامس عشر من محرم أيام الدولة المملوكية<sup>(10)</sup>، ففي فلسطين اشتهرت كل من يافا وأرسوف في الساحل الفلسطيني<sup>(11)</sup> ورفح، ونابلس وبيت المقدس والخليل بزراعته. أما في شرقي الأردن فكانت زراعته في جبال عجلون، والبلقاء، والشراف، ومؤاب، وبيت راس المشهورة بنبيذها الذي تغنى به الشعراء<sup>(12)</sup> وكان معظم الانتاج يحول الى زبيب ودبس وخمور في المناطق الداخلية<sup>(13)</sup>.

واشتهرت زراعة التين في بيت لحم<sup>(14)</sup> والخليل<sup>(15)</sup> وغزة<sup>(16)</sup> وسائر مناطق الاردن بالإضافة الى التين في جبال القدس والخليل<sup>(17)</sup>، وأما الرمان فاشتهرت بزراعته بلدة الصلت<sup>(18)</sup>

- (1) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص 149.
- (2) Russell: Michael "Palestine of the Holly Land" Third edition, 1833, p. 161.
- (3) العلمي الخليلي: الأنس الجليل، ج2، ص75.
- (4) السيوطي: اتحاف الإخصا، ق2، ص196.
- (5) Wikinsson: John "Jerusalem Pilgrims Before the Crusades", 1977, p. 82.
- (6) ابن شداد "الإعلاق الخطيرة، ج2، ق2، ص239.
- (7) Wikinsson "Op. Cit" p. 123.
- (8) بيركهاتر "سورية"، ج2، ص67.
- (9) الادريسي: نزهة المشتاق، ج4، ص364.
- (10) ابن الوردي: زين الدين بن مظفر (ت 749هـ/1348م) خريدة العجائب، تصحيح احمد سعد علي، ط2، القاهرة، 1939، ج390.
- (11) الباكوي: عبد الرشيد صالح، (من أعيان القرن 9هـ/16م) تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، ترجمة ضياء الدين ابن موسى، موسكو 1971، ص64.
- (12) د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص55.
- (13) صفوح: خير، غوطة دمشق، دراسة في الجغرافية الزراعية، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1966، ص489.
- (14) الادريسي: نزهة المشتاق، ج4، ص364.
- (15) د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص105.
- (16) فضل الله: جغرافية لبنان، ص131.
- (17) ابن حوقل: م س، ص159.
- (18) الاصطخري: مسالك، ص58، والمقدسي: أحسن التقاسيم، ص163.
- (19) الفلقشندي: م س، ج4، ص98.
- (20) المقدسي: م س، ص183.
- (21) السبهي زادة: محمد بن علي (ت 997هـ/1588م) أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، ميكروفيلم عن مخطوطة ليدن، المخطوطة بمركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية رقم 559، ورقة 66.

منطقة شمال الأردن وكذلك النخيل في الساحل في حيفا وقيسارية<sup>(1)</sup> وعسقلان<sup>(2)</sup> وإيلة<sup>(3)</sup> وفي الداخل وفي بيسان<sup>(4)</sup> وأريحا والرملة<sup>(5)</sup>، والجفار<sup>(6)</sup>.

وكانت زراعة الحمضيات في الساحل الفلسطيني والأغوار كالأترج والبنارنج والليمون والأسكي دنيا والجريب فروت وزرع الموز في أغوار الأردن وبعض مناطق الساحل الفلسطيني<sup>(7)</sup> وقد عرف في العصر المملوكي الصبر والجلوز<sup>(8)</sup> "البندق"، والخروب والبطم والسماق. والمشمش في اودية الشوبك والطفيلة جنوب شرقي الأردن<sup>(9)</sup>.

كما اهتم سلاطين المماليك بزراعة الرياحين والورود في بلاد الشام التي تغنى بها شعراء المماليك<sup>(10)</sup> وكانت تستخرج منها العطور<sup>(11)</sup> التي صدرت الى بلاد الحجاز والهند والسند والصين وغيرها<sup>(12)</sup> واشتهرت طبرية بالياسمين<sup>(13)</sup> وكان سيد الرياحين الآس الأحمر المجوسي في غور الأردن<sup>(14)</sup>.

هذا بالإضافة الى الاشجار الحرجية والغابات والمراعي التي تنبت في الجبال والبراري والسهول والأودية وضياف الأنهار، دون جهد ومنها: أشجار البلوط، والخروب، والسماق، والصنوبر والعرعر، والهور، والصفصاف، والسنديان، والبطم، وغيرها. واشهر مناطقها جبل الكرمل<sup>(15)</sup> في فلسطين والسهل الساحلي في نياية صفد، والقدس، وجبل النبي يوشع<sup>(16)</sup> وقرية

(1) ناصر خسرو: م س، ص 50.

(2) اسحق المنجم: أكام المرجان، ص 13.

(3) المقرئ: الخطط، ط، ج1، ص 340.

(4) ياقوت "المشرك"، ص 79، والادريسي: م س، ص 536.

(5) Watson: Andrew, "A Medieval Green revolution New Crops and Forming Techniques in the Early Islamic World, The Islamic Middle East 1960, pp. 7, 23.

(6) المقدسي: م س، ص 155-162.

(7) القزويني: آثار البلاد، ص 142، 162.

(8) ابن البيطار: الجامع، ج1، ص 119، 166.

(9) ابن سعيد: "الجغرافيا"، ص 186، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 504.

(10) النويري: م س، ج1، ص 185، القصري "كتاب الورد"، ج2، ص 39.

(11) شيخ الربوة: م س، ص 196.

(12) ابن طولون: تاريخ المزة، ص 35.

(13) ناصر خسرو: م س، ص 49.

(14) ابن العوام "الفلاحة" مخطوطة ورقة 302.

(15) القسطلي، الروضة، ص 117، فالج، الحياة الزراعية، ص 117، كرد علي، م س، 6 أجزاء، ط2، (د.ت) بيروت 1969م، ج4، ص 4.

(16) بيركهات: سوريا الجنوبية، ج2، ص 77.

عسقلان وفي شرقي الأردن انتشرت الغابات في جبال عجلون والبلقاء<sup>(1)</sup> والتي مازالت حتى اليوم. والغور المليء بأشجار السدر حول بحيرة الحولة وطبرية وغور بيسان<sup>(2)</sup> وأشجار الجميز والعرعر في الغور<sup>(3)</sup> وعسقلان والساحل<sup>(4)</sup> هذا بالإضافة الى المراعي الخصبة للسلطين<sup>(5)</sup> كما كثرت المروج "المراعي الواسعة" كمرج ابن عامر في فلسطين<sup>(6)</sup>. وكان من أشهر المراعي في شرقي الاردن مراعي البلقاء التي تنازع عليها قبائل العدوان وبني صخر<sup>(7)</sup>.

ومن الأخطار التي تعرضت لها هذه الغابات والمراعي تقطيعها لغرض التجارة وتأثرها بثورات البدو وحروب المماليك مع الصليبيين والمغول "التتار". كما فعل صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ/1187م بغابات الكرك التي أمر بقطعها وإحراق غلاتها عندما قدم لمحاصرة أرناط أمير الكرك لحرمان الفرنجة من ثمار كرومها وزيتونها<sup>(8)</sup>. وفي زمن المماليك فعل ذلك السلطان الظاهر بيبرس عام 663هـ/1265م عندما فتح مدينة عتليت في فلسطين<sup>(9)</sup>، إلا أن بعض السلطين أعطى فرصة للفلاحين والجنود باستغلال المواسم الزراعية على الرغم من تقطيعهم لأشجارها واتلافهم لمزروعاتها لاهداف عسكرية كما حدث عام 663هـ/1265م عندما سأل الفرنجة نواب السلطان أن يأذنوا لهم في زراعة البلاد وجني غلاتها<sup>(10)</sup>.

وبالنسبة لغارات العربان على المزارع والكروم والمقايي فكانت تسبب أضراراً كبيرة تؤثر على الوضع الاقتصادي والغذائي، مما دفع بعض السلطين لتجهيز حملات لتأديب هؤلاء العربان كما حدث عام 796هـ/1396م حيث قاد نائب الشام حملة عسكرية الى البلاد القبلية

(1) فالخ: الحياة الزراعية، ص 166.

(2) ن. م، ص 116.

(3) الديماطي: معجم الأسماء، ص 36.

(4) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ج2، ص 22.

(5) ابن عبد الظاهر: م س، ص 339 العيني، م س، ج2، ص 40.

(6) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص 416.

(7) بيركهارت: م س، ج2، ص 94، من الامثال الشعبية منها "مثل البلقاء ما بتقلي".

(8) العماد الكاتب الاصفهاني: م س، (د.ت)، ص 59، 60.

(9) المقريري: السلوك، ج1، ق1، ص 513، وكانت تسمى الحصن الساحلي الأحمر للدواوية.

(10) ابن عبد الظاهر: م س، ص 178، النويري: م س، ج3، ص 95.

بسبب الأضرار التي سببها العربان من اعتدائهم على الفلاحين مما جعلهم يهربون وتمكن الناس من جمع غلاتهم<sup>(1)</sup>.

وهكذا كان للحروب الأهلية بين المماليك وغارات البدو ونزاعهم بعد استغلالهم ضعف السلطة المركزية المملوكية أثراً على الحياة العامة من تخريب المدن وقطع الطرق والنهب والسلب ناهيك عن الآفات الطبيعية من جموع الجراد الصحراوي<sup>(2)</sup> والأوبئة التي كانت تهلك الحرث والنسل بالإضافة للجفاف وانحباس المطر.

ويتضح لنا من هذا العرض بأن الزراعة في جنوب بلاد الشام قد ازدهرت بتنوع أشجارها وثمارها وحبوبها بدليل كثرة الانتاج وتنوعه وامتداد البلاد المجاورة به وقت الأزمات الاقتصادية غير أن العوامل الطبيعية والبشرية أثرت على الزراعة في فترات زمنية مختلفة مما تسبب في تدهور انتاج المحاصيل في العصر المملوكي.

انظر الملحق.

### أصناف الأراضي الزراعية:

1 - أرض الخراج: والمقصود بها الأراضي التي تؤخذ منها ضريبة الخراج وتقسم الى ستة أقسام

هي:-

- الأرض المفتوحة صلحاً تكون للمسلمين، ويسكنها أهلها من غير المسلمين بخراج

معلوم يؤدونه فهي ارض فيء.

- الأرض المفتوحة عنوة ويوقفها السلطان على مصالح المسلمين.

(1) ابن صيصري "الدرة المضيئة"، ص 161.

البلاد القبلية، يقصد بها جنوب بلاد الشام وتشمل ولاية البلقاء ونيابة عجلون ومنطقة الأغوار، فكانت تابعة لنيابة دمشق ضمن صفتها القبلية ويقول ابن فضل الله العمري: "وهذه الصفقة أولها من الجهة القبلية ومدينتها حسيان ثم الصلت ثم عجنون، وجبل عوف، ومدينة الباعونة، وعجلون اسم القلعة" ابن فضل الله العمري: التعريف ص 178، وانظر ص 110، والقلقشندي م س، ج 4، ص 103.

(2) المقرئ: السلوك، ج 2، ق 2، ص 622-623، حيث غزا الجراد القدس وغرة الذي أكل الثمار كلها عام 743هـ/1742م. وزحف الجراد عام 1725/726 على البلقاء ووصل الى مصر فكال شعير تلك السنة، المقرئ: ن.م، ج 2، ق 3، ص 702-703 وزحف عام 1368هـ/1770م من مكة للشام وكان أكثره بحوران والأردن حتى أكل الأشجار والأخشاب وأبواب الدور القلقشندي: ن.م، ج 1، ص 457.



- الأرض التي تولى أهلها عنها خوفاً من المسلمين، فتصبح وقفاً للمسلمين، ويدفع خراجها من ينتفع بها مسلماً كان أو ذمياً.
- أرض الموات التي اشتراها الذمي من أراضي العشر فتصبح أرضاً خراجية<sup>(1)</sup>.
- أرض الموات التي أحيها ذمي.
- أرض الموات التي أحيها مسلم، وكانت أقرب إلى الأرض الخراجية منها إلى الأراضي العشرية.

### وكان الخراج نوعان:-

- الأول:** خراج مقاسمة: وهو ضريبة نسبية من محصول الأرض كالخمس والربع، والثلث، فإذا عطل الفلاح الأرض فلا يجب عليه الخراج.
- الثاني:** خراج وظيفة: وهو مبلغ معين من المال يدفع سنوياً عن الأرض الزراعية سواء انتفع بها أم لا<sup>(2)</sup>.
- وبالنسبة لمقدار الضريبة على الأرض الخراجية: فكانت تقدر حسب جودة الأرض أو رداعتها وهي الغلة، قلتها وكثرتها، ونوعية الماء التي تسقى بها، ونوعية زروعها<sup>(3)</sup>. والموظف المسؤول على الأراضي الخراجية كان يسمى مباشر الخراج الذي يلزم رؤساء البلاد بحرثها وزراعتها<sup>(4)</sup>.
- وكانت معظم أراضي الشام إقطاعات استغلال (عشر وخراج) حيث يقطعها السلاطين إلى الأمراء والأجناد مقابل تأديتهم للخراج إلى بيت المال. وقبل الروك الناصري لبلاد الشام ومصر عام 713-715/1313-1315م كان للجوالي ديوان مستقل، ولكن بعد الروك الناصري أصبح جوالي كل بلد تضاف إلى متحصل خراجها<sup>(5)</sup>.

(1) ابن الحمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد، (ت 681هـ/1280م) شرح فتح القديرة، ط3، دار الفكر، بيروت 1977، ج6، ص32، 33، 40، 42.

(2) النويري: م.س، ج8، ص 257.

(3) ابن جماعة "تحرير الأحكام"، ص 103.

(4) النويري: م.س، ج8، ص 257، ذكر أن مصطلحهم في ذلك أن يقول المباشرة أحمر وأخضر فالأحمر يعني الكرب "الحراثة أو بالأخضر: الزرع شتوياً أو صيفاً".

(5) الروك: مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال ويعمل كل ثلاثين سنة وهي مأخوذة من كلمة روك ومعناها قياس الأرض بالحبل، المقريري، السلوك، ج2، ق1، ص 146.

- 2- أرض العشر: وهي الأرض التي تجب عليها الزكاة.
- 3- أرض الموات: وهي الاراضي التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد فكان السلطان يقطعها لمن يحييها، فأصبحت نوعاً من أنواع إقطاعات التملك ووجد في بلاد الشام أراضي موات<sup>(1)</sup>.

وكان من طرق استغلال الأرض في العصر المملوكي عند الفلاح الشامي:-

أولاً: طريقة الاستثمار الشخصي: وهي التي يقوم بها صاحب الأرض بزراعتها مباشرة بمساعدة أفراد عائلته في المساحات الصغيرة على عكس المساحات الكبيرة التي يستأجر لها عمالاً بأجر يومي أو أسبوعي أو موسمي أو بأجور عينية كحصة من المزدود أو الغلة، كما لجأ صاحب الأرض في بعض الأحيان الى تأجير الأراضي سنوياً لقاء مبلغ من المال<sup>(2)</sup> بالإضافة الى طريقة أخرى على اساس المشاركة بين المالك والفلاح لقاء أجر عيني من منتوج الأرض ومن الجدير بالذكر الى أن هذه الطرق مازالت مستخدمة في قرانا الأردنية حتى اليوم.

ثانياً: المزارعة: وهي طريقة استغلال الأرض الزراعية باشتراك المالك والمزارع "الفلاح"، في الاستغلال حيث يكون البذار من المالك، والجهد على الفلاح، فيقسم الناتج بينهما بنسبة تذكر في العقد أو العرف<sup>(3)</sup> كالربع أو الثلث. فالامير (تتكر) اشترط في وقفيته استغلال أرض الضيعة الموقوفة بطريقة المزارعة<sup>(4)</sup>.

ثالثاً: المساقاة: وهي شركة زراعية لاستثمار الشجر من جانب رب الشجر مقابل العمل في سقيه وتعهده بالرعاية الزراعية بواسطة المساقى، فيقسم الثمر بينها بنسبة يتفق عليها الطرفان كالثلث أو النصف<sup>(5)</sup>.

(1) ابن جماعة: تحرير الأحكام، ص 108، وأبو يوسف: الخراج، ص 64.

(2) السبع محمد: أسس الزراعة ونظمها عند العرب، الندوة العالمية الثالثة، لتاريخ العلوم عند العرب بعنوان: "اسهامات في علم الملاحه" 1983، ط 1، مؤسسة الكويت، ص 94.

(3) الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب الشيرازي: القاموس المحيط، ط 3، المطبعة الأميرية، مصر 1300م، ج 3، ص 33، مادة زرع.

هذا وقد اختلف الفقهاء في جواز المزارعة أو النهي عنها، إلا أن الرسول (ص) عمل بها وأصحابه من بعده بمعاملته أهل خيبر شطر ما يخرج منها من زرع أو ثمر: أبو يوسف: الخراج ص 50-51. والسبكي: تقي الدين، (ت 728هـ/1327م)، الفتاوى الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطاء، دار الكتب بيروت، ج 1، ص 401.

(4) العسلي: كامل، وثائق مقدسية تاريخية، ط 1، مطبعة الوثائق، عمان، 1983، ج 1، ص 119.

(5) سابق، سيد، فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت) ج 3، ص 343. والأصل في المساقاة هو معاملة الرسول (ص) ليهود خيبر حيث ساقاهم على النصف من سوادها والنصف من بياضها مقابل تعهدهم بما يلزمهم من أعمال، وسار الشاميون على نهج السنة. السبكي: فتاوى، ج 1، ص 415. أجازها السبكي كطريقة المراجعة أي للمالك ثلاثة أرباع الانتاج وللفلاح ربعاً مقابل تقديم المالك الأرض وبقر الحراثة والبذار "التفاري". وعلى العكس يأخذ المالك الربح أو الخمس والفلاح ثلاثة أرباع المحصول إذا قام الفلاح بالزراعة وقدم البذار وبقر الحراثة مقابل تقديم المالك الأرض فقط. انظر: السبع: أسس الزراعة، ص 95، النويري: نهاية الأرب، ج 7، ص 106، 107. Ziadeh "Urban Life", P. 43

رابعاً المغارسة: وهي عقد بين طرفين هما: صاحب الأرض والمغارس الذي يقوم بغرس الشجر مقابل حصة معلومة من الأرض والشجر كالربع أو الثلث أو النصف حسب الشروط المتفق عليها بينهما في العقد<sup>(1)</sup>.

وتختلف مدة الاتفاق بحسب نوع الشجر فالزيتون يحتاج من 10-12 سنة حتى يثمر والكرمة من 4-6 سنوات، لذا وجب ذكر جنس الغرس ونوعه لاختلاف نوع الأشجار في وقت الثمار<sup>(2)</sup>.

ويحق للفلاح خلال المدة المتفق عليها أن يزرع الأرض البيضاء حتى يكبر الشجر ولصاحب الأرض النصيب الأكبر دائماً في المغارسة كما يجري الآن في بلادنا<sup>(3)</sup>.

خامساً المقاسمة: وهي تقسيم المحصول السنوي بين المالك والمزارع بنسبة متفق عليها<sup>(4)</sup>، وكانت هذه النسبة تختلف باختلاف الأرض المزروعة فأراضي السقي تكون مناصفة بينما في معظم بلاد الشام مثالثة أو مرابعة<sup>(5)</sup> أما المزارع الخالية من السكان تكون مخامسة أو مسادسة، والنواحي المجاورة للبحر عند حدود العدو فالنسبة مسابعة ومثامنة<sup>(6)</sup>.

سادساً: الضمان أو التضمين: وهي اتفاق بين صاحب البستان ورجل آخر بحيث يدفع له مبلغاً معيناً من المال لقاء جني محاصيل الزيتون أو ثمار الفاكهة، فقط دون القيام بأي عمل زراعي آخر<sup>(7)</sup>، وذلك منذ بداية عقد الثمار على الأشجار<sup>(8)</sup> وينتهي هذا العقد مع انتهاء موسم القطاف.

وما زال هذا شائعاً في الأردن وفلسطين منذ العصر الأموي وحتى عصرنا الحاضر، كما يلاحظ سلبيات هذا الأسلوب على طرفي العقد إذ قد تحصل خسارة لصاحب

(1) الأجهوري: علي بن محمد (ت 1067هـ/1656م)، رسالة المغارسة، ميكروفيلم عن مخطوطة مكتب الكونغرس المحفوظة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية-عمان، تحت رقم 464 ورقة 1.

(2) ن.م، ورقة 2.

(3) السبع: أسس الزراعة، ص 96.

(4) المعجم الوسيط، ج2، ص 734، مادة قسم. Ziadeh "Urban Life", P. 43.

(5) النويري: نهاية الأرب، ج9، ص 103.

(6) ن.م، ج9، ص 104، ص 43-44. Ziadeh, Urban Life, p. 43.

(7) السبع: أسس الزراعة، ص 96.

(8) ن.م، ص 97، وانظر العلي "دمشق"، ص 235.

المال بسبب العوامل البيئية والمناخية، وتدهور الاسعار، كما يتضرر صاحب البستان في اشجاره إذا لم تكن الطريقة سليمة وعلمية وخاصة في محصول السنة الثانية.

**سابعاً: تأجير الأرض:** وهو مقابل من المال باتفاق صاحب الأرض والفلاح على تحديد نوعية المحصول في العقد<sup>(1)</sup>. فتأجير الأرض بالنقد كان وما زال شائعاً في بلاد الشام حتى عصرنا الحاضر حتى أنه كان وما زال يوجد تسامح بين الناس بإعارة الأرض للفلاح دون أجره. كما أنه قد يزرع صاحب الأرض أرضه، ويحصدها شخص آخر، وتعرف هذه الطريقة بالمخابرة<sup>(2)</sup> على الزروع، بحيث يأخذ صاحب الأرض محصولاً من ناتج الأرض لا مالاً و عليه تكون المزارعة والمخابرة شيئاً واحداً<sup>(3)</sup>. ويلاحظ تشابه هذه الطريقة بطريقة التسليف النقدي على ثمار الأشجار كالكروم والزيتون بما نستطيع تسميته استثمار الثمر مقابل تقديم المال قبل جني الشجر.

(1) أبو يوسف: الخراج، ط9، 92، وابن تيمية "الفتاوي" ص 152.

(2) النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج1، ق2، ص 87.

(3) فالخ: الحياة الزراعية ص 71.

## الصناعات في جنوب بلاد الشام

كانت الصناعة في العصرين الأيوبي والمملوكي تقوم على الانتاج النباتي والحيواني والمعدني كصناعة الخمر والسكر والنيل والصابون والزيت والبلسم والحصر وطحين الدقيق والفحم النباتي والمنسوجات والبسط والمراكب والنفط والسيوف والأقواس والكنائن والنبال، والخشب المرخلف المنقوش، والصياغة، وصناعة التحف الخزفية والتعدين للحديد والكبريت والنحاس والرخام وغيرها وسنورد بعض المعلومات الموجزة عن هذه الصناعات.

الصناعات القائمة على الانتاج الزراعي:

لقد اعتمدت هذه الصناعات على الانتاج الزراعي والحيواني لتوفر المحصولات الزراعية سابقة الذكر لكثافة الأشجار وخاصة الزيتون في شرقي الأردن وفلسطين، فكان زيت الزيتون - وما زال - أكثر السلع القروية للتصدير الى المدن وإلى خارج البلاد والحجاز والبراري مع العربان. فقد انتعشت صناعة الزيتون لاهتمام سلاطين المماليك به لجودته ونقاوته وقيمتها الغذائية<sup>(1)</sup>.

هذا بالإضافة الى صناعة الصابون النقي "الصابون النابلسي" القائمة على زيت الزيتون والذي كان يصدر الى البلاد الحجازية والمصرية الشامية والرومية<sup>(2)</sup>.

وكان السكان في فلسطين يخزنون الزيت في الآبار والأحواض<sup>(3)</sup> تمهيداً لبيعه، لذا فرض السلاطين ضريبة على تجارة زيت الزيتون في بيت المقدس والرملة والخليل مقدارها خمسة عشر ديناراً ذهبياً على القنطار الواحد مما أدى لخسارة كبيرة للتجارة لزيادة الضريبة عن ثمن البيع البالغ بستة دنائير<sup>(4)</sup>.

كما سمي زيت بلاد الشام "بالزيت الركابي" لحمله على الابل بينما سماه المصريون بالزيت الفلسطيني<sup>(5)</sup>، لذا كثر انتشار المعاصر اليدوية في معظم قرى جنوب بلاد الشام والتي تدار بواسطة الحيوان، بالإضافة الى المعاصر القديمة المسماة بالمعاصر الرومية<sup>(6)</sup>.

(1) د. غوانمة: التاريخ الحضاري، ص 84.

(2) شيخ الربوة: م.س، ص 200، زيادة، رواد المشرق، ص 183.

(3) ناصر خسرو: سفرنامه، ص 153، د. غوانمة، بيت المقدس، ص 77.

(4) غوانمة: بيت المقدس، ص 77، والقنطار مائة كغم حالياً، والقنطار مائة كيلوغرام.

(5) الرازي: القولنج، ص 217، ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص 63.

(6) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، ج1، ص 33، غوانمة: دراسات ص 91.

ومن أكثر المناطق التي اشتهرت بمعصرها "مملكة صفد" في شمال فلسطين فبلغت أربعاً وعشرين معصرة في عكا، وثلاث وعشرة في طبرية وكانت القرية الواحدة تحتوي معصرة واحدة<sup>(1)</sup>.

وقد دلت التنقيبات الأثرية على وجود العديد من المعاصر الرومانية والإسلامية في معظم قرى فلسطين وشرق الأردن.

### صناعة الخمر:

لقد اشتهرت جنوب بلاد الشام بزراعة الأعناب "الكروم" على سفوح جبالها في منطقة شرقي الأردن كجبال عجلون والبلقاء وموآب والشرارة فقامت عليها صناعة النبيذ<sup>(2)</sup> وخاصة في مدينة بيت راس شمالي مدينة أربد شمالي الأردن والتي ذاع صيت خمرها لجودته منذ العصر الجاهلي حيث تغنى به الشاعر حسان بن ثابت على البحر الوافر<sup>(3)</sup>.

وقد انتعشت صناعة الخمر أيام الصليبيين في جنوب بلاد الشام حتى استردها المماليك الذين سمحوا ببقاء بعض الحانات الخاصة في الكرك والشوبك مقابل ضريبة المغاني<sup>(4)</sup>، هذا وقد ساهم في نجاح هذه الصناعة توفر بسايتين الكروم على سفوح جبال فلسطين وعجلون والبلقاء وموآب والشرارة. كما شبهه الرحالة الأوروبيون بنبيذ بورديو المشهور في فرنسا<sup>(5)</sup>.

هذا وقد عارض العلماء والفقهاء صناعتها طيلة العصر الأيوبي والمملوكي لمنافاتها للدين الإسلامي، وبقيت أقطاعات مكوس الخمر موجودة بتأييد من بعض السلاطين والحكام<sup>(6)</sup>.

(1) الطراونه: مملكة صفد، ص 173. ذكر بأن قرية جولس من قرى صفد احتوت على ثلاث معاصر وقرية كفر ياسف التي اشتملت على أربع معاصر وقد استخدمت لعصر العنب أيضاً وما زلنا نشاهد هذه المعاصر في مختلف قرى شرقي الأردن وفلسطين حتى اليوم.

(2) أبو الفلاح، شذرات الذهب، ج7، ص 330، الماوردي، م.س، ص 299، ابن قيم الجوزي، أحكام أهل الذمة، ج2، ص 727.

(3) حسان بن ثابت: ديوانه، تحقيق سيد حنفي حسين ورفيقه، القاهرة، 1974، ص 71-73، يقول:

كأن سبية من بيت راس      يكون مزاجها غسل وماء  
على أنيابها أو طعم غص      من التفاح مقصرة الجناء  
وتشربها فتزكنا ملوكاً      وأسد ما ينهنها اللقاء

ومعنى السبية: الخمر، والساي: الخمار. وذكرها شاعر الخمرة في العصر العباسي أبو نواس:

وتبسم عن أغر كأن فيه      فجاج سلافة من بيت راس

ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، "معجم البلدان" 10 أجزاء، مطبعة دار الصادرة القاهرة، 1907، ج1، ص 776-777.

(4) ابن الفرات: م.س، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، للطبعة الأمريكية- بيروت، 1939-1942، ج9، ص 85.

(5) فولبي: ثلاثة أعوام في مصر والشام، ج1، ترجم البستاني، دار المكشوف، بيروت، 1994، ص 199.

(6) أقطاعات مكوس الخمر: هي ضرائب الخمر لصالح الدولة، ضومط، انطون خليل، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، دار الحداثة، 1980، ص 105.

وفي الحقيقة فقد أنفرد اليهود بصناعتها وبيعها وتداولها<sup>(1)</sup> وشربها المنحرفون من الشعراء المسلمين وغيرهم من المتفذين<sup>(2)</sup> لذا فرض سلاطين الأيوبيين والمماليك بعض القيود على بيع الخمر في معظم الأحيان<sup>(3)</sup> كما سمح به في أواخر العصر الأيوبي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر غازي صاحب دمشق عام 648هـ/1250م وبمشاركتة الشعراء<sup>(4)</sup> كما صدرت في العصر المملوكي مراسيم إراقة الخمر خاصة في بيوت النصاري واليهود عند انتشار الطوآعين في البلاد كما فعل الظاهر بيبرس<sup>(5)</sup> وقد فرض سلاطين المماليك ضريبة على "صناعة الخمرة" سميت "ضمان الخمر" في البلاد الساحلية وطرابلس<sup>(6)</sup> و"ضمان المغاني" في الكرك والشوبك<sup>(7)</sup> حيث سمحوا بتناولها في حانات خاصة مقابل هذه الضريبة.

**صناعة السكر:**

لقد عرف العرب زراعة قصب السكر وصناعة السكر منه قبل الحروب الصليبية حيث نقله الصليبيون إلى أوروبا بعد هذه الحروب إذ كانوا يستخدمون العسل لتحلية بعض أنواع طعامهم منذ القرن 13م<sup>(8)</sup> واستمرت هذه الزراعة زمن الفاطميين والأيوبيين<sup>(9)</sup> والمماليك استناداً إلى كميات السكر المستهلكة في الاحتفالات وشحنات تصديره إلى جنوة والبندقية وبرشلونة ومرسيلية<sup>(10)</sup> فقد كانت تجارة السكر عماد الاقتصاد المملوكي.

(1) Adler, Jewish Travellers P. 180, Gucci, visit to the Holy Places, p. 122.

(2) العمري: م.س، ج1، كرد علي: م.س، ج6، ص 499، متز: م.س، ج2، ص 47.

(3) ابن تيمينة: علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 803هـ/1400)، فتاوى الخمر والمسكرات/تحقيق محمد إبراهيم الحفناوي، طنطا، دار البشير للثقافة 1988م، ص 19، ذكر: بيان صلاح الدين عام 589هـ/1193م فرض قيوداً بينما رفعها ابنه الملك الأفضل (ت 615هـ/1218م) حتى توبته سيط ابن الخوري، مرآة الزمان، ج8، ص 2، ص 595، المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص 118.

والزيارات: الديارات النصرانية، ص 320، كما منعها الملك العادل سيف الدين أيوب (ت 615هـ/1217م) وأغلق الخمارات وبيت الخواطي حتى أعادها ابنه المعظم عيسى (ت 624هـ/1226م) سيط ابن الجوزي، ن.م، ن.ص، و ص 597، وأبو شامة: م.س، ص 89، والذهبي: دول الإسلام، حيدر آباد، مطبعة المعارف العثمانية، 1337هـ/1918م، ج2، ص 88.

(4) ابن خلدون: م.س، تحقيق هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 1985، ج3، ص 297.

(5) ابن أبياس: م.س، ج4، ص 76، وإن حجر العسقلاني، م.س، ج8، ص 140، 149. ابن كثير: م.س، ج13، ص 268، المقريزي، الخطط ج1، ص 106، المقريزي: السلوك، ق1، ص 553، وابن أبياس: ن.م، ج1، ق1، ص 326. وانظر: الذهبي: تاريخ الإسلام (مخطوط)، ج21، ورقة 8. وابن كثير: م.س، ج13، ص 311، 295، والفلقشندي، م.س، ج4، ص 418، 419، زيادة: دمشق في

عصر المماليك، ص 200.

(6) المقريزي: السلوك، ج2، ق2، ص 937-940، وابن كثير: م.س، ج14، ص 50.

(7) غوائمه: التاريخ الحضاري، ص 85.

(8) ن.م، ن.ص، حيث أخذ الامبراطور فردريك الثاني عدداً من صناع السكر الشاميين إلى جزيرة قبرص، د. غوائمه: التاريخ الحضاري، ص 107.

(9) المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص 95، 97، 189.

(10) آشور: م.س، ص 391.

حيث شجعوا زراعته في الأغوار والسواحل الشامية<sup>(1)</sup> وجعلوها أملاكاً سلطانية خاصة<sup>(2)</sup>.

أ- صناعة السكر في عصر الصليبيين: المستخرج من قصب السكر المزروع في منطقة الأغوار الشمالية والجنوبية في شرقي الأردن، حيث وجه الصليبيون عنايتهم الى غور الصافي قرب الكرك فسمي سكر الكرك والشوبك<sup>(3)</sup> ثم نقلوا زراعته الى اوروبا أيام الحملة الصليبية السادسة بقيادة فريدريك الثاني عندما أخذ معه صناعات متخصصة في السكر من بلاد الشام ووضعهم في جزيرة صقلية<sup>(4)</sup>.

ب- في عهد الايوبيين: لقد اهتم الايوبيون بصناعة السكر المستخرج من قصب السكر المزروع في منطقة الأغوار والتي كانت من الاقطاعات الخاصة بالسلطين والأمراء، ففي عهد الملك الناصر داوود كان معظم الغور الشمالي اقطاعات له ولابنائهم<sup>(5)</sup> مثل غور ناعمة نسبة لقرية ناعمة التي كانت من أملاك الملك الظاهر شادي بن الملك الناصر داوود المتوفى سنة 681هـ/1282م والمدفون في بيت المقدس<sup>(6)</sup>.

ج- زمن المماليك: أقام المماليك مصانع للسكر في جميع أنحاء الغور والتي كانت أملاكاً سلطانية خاصة<sup>(7)</sup> وكان السلطين يعينون مشرفين على هذه المصانع وجمع انتاجها<sup>(8)</sup> وعينوا نائباً سموه استادار الأغوار<sup>(9)</sup>.

كما كلفوا نائب دمشق بالاشراف ايضاً على مطابخ السكر في الأغوار والشونة الشمالية "القصير قديماً" حيث أقام في موسم عصر الأقباب مدة شهرين ونصف تقريباً 779هـ/1377م<sup>(10)</sup>.

(1) البغدادي: م.س، ج2، ص 426، المقرئ: السلوك، ج4، ق2، ص 792.

(2) المقرئ: السلوك، ج2، ق3، ص 584-607. "ذكر بأن السلطان طشتمر اتخذ قرية قصير في غور الاردن اقطاعاً له عام 1341/742 وأحاط بما فيه من القنود: جمع قند وهو الدبس "عصير السكر" وكل ما جمد من عصير قصب السكر ثم يتخذ منه السكر، انظر: الانطاكي: تذكرة اولي الألباب والجامع للعجب العجائب، ص 264. وابن البيطار: م.س، ج4، ص 40، والقلقشندي: م.س، ج3، ص 472.

(3) رانسيان: ج3، ص 602، حيث لقب بسكر مونتريال لبياضه ونعومته.

(4) د. يوسف غوانم: التاريخ الحضاري ص 107.

(5) اليونيني: ديل مرآة الزمان، ج4، ص 476.

(6) ابن الفرات: م.س، ج7، ص 256.

(7) المقرئ: السلوك، ج2، ص 584، والقلقشندي: م.س، ج4، ص 190. وأبو المحاسن: م.س، ج10، ص 64.

(8) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ص308، ويذكر الدكتور يوسف غوانم بأنه عُثر مؤخراً على مئات المعاصر للسكر في منطقة الأغوار، والأراني الفخارية التي كانت تستعمل لتحفيف عصير القصب، د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص107.

(9) ابن طولون: م.س، ج1، ص 97، 125، 142، 146.

(10) ابن قاضي شعبة: الإعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج2، ورقة 122، 143 مخطوط في دار الكتب المصرية، رقم 2402، المكتبة التيمورية.



هذا وقد كان له رواج واسع في الأسواق الأوروبية لنقائه وجودته المشهورة حيث ازدهرت به اسواق فلورنسا في ايطاليا ما بين 1310-1340م<sup>(1)</sup> كما ازدهرت تجارته داخلياً واحتكره السلاطين وتحكموا في اسعاره مما اثار تذمر وسخط أهالي دمشق<sup>(2)</sup>.

لذا كان لخصوبة منطقة الأغوار وكثافة زراعة قصب السكر فيها سبباً في إنشاء المعاصر والمطابخ التي يشرف عليها شاد خاص من قبل النائب<sup>(3)</sup>، لذا جعلوا من الأغوار ولاية يحكمها أمير برتبة "استادار" وسمي "باستادار الأغوار"<sup>(4)</sup> وجعلوا مطابخ السكر في الشونة الشمالية "وقرية القصير" وبقية الأغوار تحت اشراف نائب دمشق مباشره الذي كان يشرف بنفسه لمدة تمتد ما بين شهرين الى خمسة شهور على قطع القصب وعصره لأهميته الاقتصادية<sup>(5)</sup>.

وقد دلت الإكتشافات الأثرية في منطقة الأغوار على اكتشاف كثير من معاصر قصب السكر ومطابخ السكر التي استخدمت في تجفيف السكر<sup>(6)</sup>.

لذا فلا عجب من احتكار المماليك لزراعة قصب السكر لما تدر عليهم من أرباح طائلة لتحكمهم بأسعاره ولتصديره الى اوروبا وخاصة لأسواق فلورنسا وبريطانيا<sup>(7)</sup>.

وبالنسبة لطرق عصر السكر في العصر المملوكي فكانت كالآتي:

- بواسطة حجارة الماء.
- بواسطة الأبقار.
- بواسطة السهام<sup>(8)</sup>.

(1) Lopes and Rymond, Medieval Trade in The Mediterranean world, New York, pp. 104-109.

(2) المقرئزي: السلوك، ج4، ص 792. ابن طولون: م.س، ج41-47.

(3) القلقشندي: م.س، ج4، ص188. الشاد: وظيفة من يتولى مطابخ السكر بتوقيع كريم من النائب في دمشق.

(4) ابن طولون: م.س، ج1، ص 97-125، 142، 146. الاستادار: كلمة فارسية من كلمتين: استاد ومعناها الأخذ ودار: ومعناها المسك والمعنى المركب: متولي الأخذ وقبض المال: انظر: السبكي: م.س، ص 26. حاشية 4.

(5) ابن قاضي شهاب: م.س، ج3، ص 180، غوائمه التاريخ الحضاري، ص 82.

(6) ابو دلو: معاصر السكر في غور الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اربد 1991، غير منشورة.

(7) د. غوائمه: التاريخ الحضاري، ص 83، فقد ذكر إشارة الوثائق الى وجود سكر الكرك والشوبك في اسواق مدينة فلورنسا ومدن اخرى في بريطانيا، وفرنسا بين السلع الشرقية الأخرى عام 710-741هـ/1310-1340م.

(8) النويري: م.س، ج8، ص 271، ابو دلو: ن.م، ص 21-34.

وقد بلغت كلفة قنطار السكر في السواحل الشامية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ما بين ثماني عشرة الى عشرين ديناراً. واشتهر سكر الكرك والشوبك باسم سكر 'مونتريال' لبياضه ونعومته<sup>(1)</sup>.

### صناعة الصابون:

تقوم صناعة الصابون على زيت الزيتون منذ قديم الزمان وحتى وقتنا الحاضر، ومما ساعد على قيام صناعة الصابون في العصرين الأيوبي والمملوكي توفر زيت الزيتون ومادة الصودا القلوية المضافة للزيت والمستخرجة من أعشاب "الاشنان" البرية فعرفت باسم عشبة الصابون<sup>(2)</sup>.

هذا بالإضافة الى شهرة منطقة فلسطين وشرقي الاردن بزراعة اشجار الزيتون منذ القدم حتى أصبح الزيتون مورداً اقتصادياً هاماً في العصور الوسطى الاسلامية ومازال حتى اليوم. لذا فقد انتشرت معاصر الزيت في فلسطين والاردن منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر<sup>(3)</sup> ونتيجة لجودة هذا الزيتون راجت تجارته داخلياً في أسواق مصر وخارجياً مع اوروبا ويستخرج سكان فلسطين وشرقي الاردن من نوى الزيتون "الجفت" او الدق الذي يستخدم للتدفئة والطبخ وقد كان له دكاكين خاصة في مدينة عجلون لبيعه<sup>(4)</sup>. كما يصنع من زيت الصابون وحتى الوقت الحاضر وأشهره الصابون النابلسي<sup>(5)</sup> بعد خلطه بمادة الصودا القلوية المستخرجة من رماد شجر الدردار والشممان المنتشر في الشراة، والبلقاء جنوب شرقي الأردن مما ساهم قديماً في ازدهار صناعة الصابون ومازال سكان شرقي الاردن يرسلون الفائض الى نابلس لاستخدامه في صناعة الصابون<sup>(6)</sup> وكانت اشهر المدن الفلسطينية في صناعة الصابون نابلس والقدس والرملة<sup>(7)</sup> ومازال الصابون النابلسي حتى اليوم متفوقاً على الأنواع الأخرى.

- (1) غوانم: التاريخ الحضاري، ص 81.
- (2) رادولف، رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين، ترجمة سليم التكريتي، العراق، 1978، ص 34-35. ونهى محمد حسين مكاحله: الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ص 277 غير منشورة.
- (3) مازالت بعض أنواع الزيتون يسمى بالزيتون الرومي، وخاصة في شمال الأردن وقد دلت الوثائق السلطانية على وجود معصرة رومية زمن دولة المماليك غربي قرية آدر القريبة من الكرك (وثيقة وقف السلطان شعبان رقم 49).
- (4) النويري: م.س، ج 31، ورقة 91. مخطوط
- (5) ابن بطوطة، ج 1، ص 47، الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصنعونه بالحمرة والصفرة، حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق وتحليل دار المعارف 1980، ص 52. وهاملتون جب: المجتمع الاسلامي والغربي، ج 2، ص 144. وبيركهارت: رحلات بيركهارت، ج 2، ص 81، 82، 127.
- (6) د. يوسف غوانم، التاريخ الحضاري 86.
- (7) العلمي الحنبلي: الانس الجليل، ج 2، ص 54، وجودت صادق، أحمد: مدينة الرملة 1986، ص 364.

## صناعة الحصر:

لقد ازدهرت هذه الصناعة في جنوب بلاد الشام لتوفر النباتات اللازمة لصناعة الحصر، فمنها: الحصر السامانية، في مدينة طبرية نسبة الى نبتة السامان التي تنبت في مدينة الخليل فقط<sup>(1)</sup> كما استخدم نبات الحلفا أيضاً في صناعة الحصر المزروع في الشونة الشمالية<sup>(2)</sup> في غور الأردن الشمالي والذي صنع منه السرايح والقفف المستخدمة في نقل الفاكهة والتراب في أعمال البناء<sup>(3)</sup> كما اشتهرت مدينة الكرك بصناعة حصر الكركر او الكريكر او الكركي التي الملونة تُفرش بها المساجد<sup>(4)</sup> والمنازل في بلاد الشام.

## صناعة البسط (الأبسطة):-

لقد اشتهرت الكرك والشوبك بصناعة البسط ذات الرسوم والنقوش الجميلة والمنسوجات الحريرية التي نسبت الى مدينة أعناك شمال الأزرق<sup>(5)</sup> واستخدمها الملوك والسلاطين كهدايا في المناسبات وخاصة سلاطين المماليك كالاشرف شعبان 778هـ/1377م عندما كان في طريقه للحج<sup>(6)</sup>.

ويرجح الدكتور غوانمه تصديرها لأوروبا من القاهرة ودمشق<sup>(7)</sup> ويرى الباحث صحة هذا القول لأهمية طنافس الكرك والشوبك لجودة صناعتها وزخرفتها.

كما امتاز المجتمع الاسلامي بالحرية المهنية والافتقان الجيد في العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث اهتمت الطوائف الدينية المختلفة بالمهن المحببة لها<sup>(8)</sup> وكان من الصناعات الرئيسية:

أ- صناعة البناء: وقد شملت القلاع والحصون وأسوار المدينة والمدارس والمساجد والأضرحة الضخمة<sup>(9)</sup> التي برع فيها النصارى الأرمن<sup>(10)</sup> واليهود وغيرهم.

(1) الادريسي: م س، ج4، ص 356.

(2) القاسمي، محمد سعيد بن قاسم، الصناعات الشامية، جزءان تحقيق ظاهر القاسمي لاهاي، 1960، ج2، ص 361.

(3) غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 86، ويتجاوز ارتفاع نبات الحلفاء الذراع وساقه رخوة وذو زهرة بيضاء.

(4) ابن الأخوة: معالم القرية، ص 339، ط33، وكانت حصر الكرك ذات شهرة واسعة لألوانها وجودة صنعها باستخدام خيوط الكتان لشد بعضها الى بعض، وانظر: د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 111.

(5) ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص 316، محمد كرد علي، م س، ج4، ص 284، 10 اجزاء، القاهرة دار المعارف 1907. وست أجزاء للطبعة الحديثة دمشق 1925.

(6) للمقريزي: السلوك، ج3، ص 530، وكان في استقباله نائب الكرك فأوصاه بصناعة اعداد من البسط لحسابه الخاص ونقلها للقاهرة ولكنه قبل عندما بوشر في صناعة بعضها فأمر السلطان برفق باكمال الصفقة وارسالها للقاهرة ففرش بها دار العدل بقلعة الجبل بالقاهرة.

(7) د. غوانمه: ص 114.

(8) حنّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج2، ص 289، 266، Goitein, Studies in Islamic History, p. 266, 289.

(9) رنسيان، الحروب الصليبية، ج3، ص 635.

(10) كريسي ارنولد، تراث الاسلام في فنون الفرعة والتصوير والعمارة، ترجمة زكي حسن، سورية، دار الكتاب العربي، 1984، ص 157.

ومن مميزات العمارة الأيوبية والمملوكية ارتفاع المآذن المربعة والمتعددة الأضلاع، والواجهات الملونة على الأضرحة الضخمة، كما زينت القباب بالصور<sup>(1)</sup>، ويلاحظ اهتمامهم بالمظاهر الزخرفية باستخدام الرخام والفسيفساء والمنحوتات الجصية والحجرية، والمقرنصات<sup>(2)</sup>، كما برع الحجارون وحتى اليوم في قطع الحجارة والرخام الملون من المحاجر الفلسطينية والأردنية<sup>(3)</sup>.

ومهروا في فن التصوير والزخرفة والنقش على الجدران وخاصة اهل الذمة<sup>(4)</sup> لأن المسلمين كان يتخرجون من التصوير لكرهه وتحريمه عند البعض ومن الجدير بالذكر أن هذه الصناعات مازالت مزدهرة حتى اليوم الحاضر في فلسطين وشرقي الاردن متصلة بجذورها الايوبية والمملوكية.

ويرى الدكتور يوسف غوانمه ان الفنان الأردني قد ورث هذه الأساليب عن فن صناعة الفسيفساء الذي أتقنه أجداده وتعددت أمثله في مأدبا وجرش والذي ورثوه عن البيزنطيين بالاضافة للقصور الأموية وفي مسجد عمان المقام في القرن السادس الهجري<sup>(5)</sup> / الثاني عشر الميلادي.

وقد انعكست آثار الازدهار الاقتصادي والسيولة النقدية على المنشآت العمرانية والمرافق العامة لرفع مستوى المعيشة للسكان. فقد جدد صلاح الدين الأيوبي عمارة الجامع الأبيض بالرملة عام 586هـ/1190م وأما الظاهر بيبرس فقد بنى القبة فوق المحراب والباب المقابل للمحراب وعمّر المنارة القديمة، وقد زالت، وعندما جاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 718هـ/1318م بنى المنارة من جديد حتى أصبحت من العجائب في العلوم والهيئة<sup>(6)</sup>.

وفي عام 615هـ/1217م أنشأ المعظم بن العادل في الكرك مزيداً من العمران والتحصينات فيها حتى أصبحت الكرك مدينة متكاملة ذات اكتفاء ذاتي، بالاضافة للمشاريع الزراعية في قرى الكرك مثل البساتين والحدائق والأشجار بعد ان أجرى خلالها العيون<sup>(7)</sup> كما أنشأ قلعة الصلت في جبال الغور الشرقية على رأس جبل الأمير، وأدخل إليها الماء. من عين مجاروة<sup>(8)</sup>.

(1) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة، أفرام البستاني، تحقيق أكرم العلي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1936، ص 41.

(2) ديماند، م.س، الفنون الإسلامية، ترجمة احمد عيسى، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1982، ص 108-109.

(3) ناصر خسرو، م.س، ص 54-55، غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 123. هذا ويذكر المفيزي بان الحجارون والبنائون والجيش قد استخدموها للمساهمة في بناء الحصون وهدم الأسوار، المفيزي، السلوك، ج1، ق2، ص 559.

(4) حني، م.س، ج2، ص 122.

(5) المقدسي: م.س، ص 175.

(6) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ص 416.

(7) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج2، قسم لبنان والاردن وفلسطين، ص 73.

(8) ن.م، ص 83-84، القلقشندي: م.س، ج4، ص 106.

كما حصن قلعة الشوبك التي تسلمها من والده ونقل الى الشوبك الأشجار حتى ظاهت دمشق بأشجارها وطيب هوائها وتدفق مياهها<sup>(1)</sup> كما ساهم الملك المعظم في توفير الراحة للحجاج والمسافرين ببنائه حمامين قرب مدينة معان جنوبي الاردن احدهما للرجال والآخر للنساء وأقام الخانات والدور ومهد الطريق الوعرة، وغرس الأشجار على جانبيها امتداداً من الشام الى الحجاز مع توفيره صهاريج الماء في الطريق بالإضافة لبناء المساجد والحصون على طرق المسافرين وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة لضمان استمرارها في تقديم الخدمات للحجاج والمسافرين والتجار.

## 2. صناعة الزجاج:

ازدهرت هذه الصناعة في بلاد الشام لتوفر المواد الأولية اللازمة كالبوتاس، ومهارة الصناع الذين كانت غالبيتهم من اليهود<sup>(2)</sup> في مدينة الخليل<sup>(3)</sup> ويهود السامرة في نابلس. وقد كانت الأواني الزجاجية تطلّى بالذهب والمينا<sup>(4)</sup> كالأكواب والزهريات والدلاء<sup>(5)</sup> والمصابيح والمشكاوات<sup>(6)</sup>.

## ج. صناعة الذهب والفضة:

برع صيّاغ الذهب والفضة في صنع الحلي والسيوف والمصاحف المذهبة، والملابس وسروج الخيل، كما رصعوا أدوات الترف والتحف بالاحجار الكريمة<sup>(7)</sup> لارضاء أذواق السلاطين والملوك وحاشيتهم<sup>(8)</sup> وكان للصاغة أسواق خاصة في المدن، حيث كان معظمهم من النصارى واليهود<sup>(9)</sup>.

(1) ن.م، ص 80. وللمزيد من المعرفة: انظر الفصل الرابع من هذه الدراسة.

(2) الادريسي: م.س، ج5، ص 365، القزويني: (ت 689هـ / 1290م)، م.س، ص 183، 184، التطيلي، الرحلة، ص 92.

رنسيان، م.س، ج2، ص 473، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 86.

Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.

Frescobaldi, Visit to the Holly places, p. 68.

رنسيان، ن.م، ج2، ص 472.

(5) آل تقي الدين، محمد أديب، كتاب منتخب التواريخ لدمشق، 3 أجزاء، تقديم كمال الصليبي، بيروت، دار الآفاق الحديثة.

1979م، ج3، ص 1135. والمينا: كلمة فارسية اصلها مينة وتعني جوهر الزجاج، وهي أكاسيد معدنية لطلّي الأواني والأدوات

المعدنية لاطهار الرسوم والنقوش الجمالية ديماند، م.س، ص 238-242.

(6) كرسيني: أ.ه، م.س، ص 57، والمشكاوات: مفردا مشكاة والمشكاة: غطاء مصباح يوضع بداخله سراج زيتي مثبت باسلاك

فضية او نحاسية في حافة الغطاء.

(7) حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 593.

(8) رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص 108.

(9) غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص 123، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص 204.

Goitein, Studies in Islamic History, P. 261.

وكما نلاحظ اليوم في مدن بلاد الشام وقد احتفظت بعض متاحف أوروبا ببعض الأواني المزخرفة والمنقوش عليها أسماء بعض سلاطين الأيوبيين<sup>(1)</sup> والمماليك<sup>(2)</sup>. وبالنسبة لمهنة الصياغة والتكفيت: فقد اقتصت حرفة الصياغة في سبك المجوهرات والحلي وتزيينها وقد وجد عدد من الصاغة في عجلون والكرك أما التكفيت فهي حرفة تطعيم معدن بمعدن أثنى كتطعيم النحاس بالفضة وذلك بحفر الزخارف على سطح الأنية أو الحلية المراد زخرفتها وملاً الجزء المحفور بالفضة أو الذهب أو النحاس الأحمر وغير ذلك وقد قامت هذه الصناعة في مدينة الكرك<sup>(3)</sup> وقد انتقلت هذه الصناعة من إيران الساسانية إلى العالم الإسلامي وخاصة لدمشق والكرك والقاهرة، وكانت هذه الحرفة الجديدة في العالم الإسلامي نتيجة لتحريم الإسلام لأواني الذهب والفضة<sup>(4)</sup>.

### جـ. صناعة الحرير

اعتمدت هذه الصناعة على تربية دودة القز في بلاد الشام<sup>(5)</sup> ومن مراكز صناعته عكا وصور<sup>(6)</sup> وغيرها من مدن الشام حيث استخدم في صناعة الثياب النفيسة<sup>(7)</sup> وقد اشتغل يهود بلاد الشام في صناعة الحرير وخاصة نساءهم<sup>(8)</sup>. وقد شجع السلاطين والملوك بناء مصانع الحرير كمورد مالي في التجارة الخارجية في العصور الوسطى<sup>(9)</sup>.

- (1) ديمان، م.س، ص 154، ذكر وجود طشت نحاسي مكفت (ملبس) بالفضة في بروكسل يملكه دوق آرنبرج (Arenberg).
- (2) ديمان، ن.م، ص 155، ذكر بان بلاد الشام انتجت روائع فنية من التحف المعدنية المطلية بالذهب والفضة ومنقوش عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون.
- (3) لقد استخدم الملك الناصر إجمد بن قلاوون المحاصر بالكرك سنة 743-745 / 1345-1347 كان يرى على المحاصرين نشاب نصولها من فضة مكفوتة بالذهب ونقش عليها بيتان من الشعر:  
من جودنا نرمي العداة بأسهم من الذهب الابرنر صيغت نصولها  
يداوي بها المروح منها جراحه ويشري بها الأكفان منها قتلها  
وبلغ عددها سبع فرادات من النشاب. صالح بن يحيى، ص 105، 107.
- (4) المقرئ: الخطط، ج3، ص 170، وآرنستوكول: الفن الإسلامي، ص 79-81.
- (5) Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.
- (6) رنسيمان، م.س، ج3، ص 603.
- (7) كرسيتي، م.س، ص 61، ذكر اسمها المشهور في أسواق أوروبا. الدمسكي المشتق من (Damascus).
- (8) Adler, Jewish Travellers, p. 135.
- (9) كرسيتي: ن.م، ن.ص.

### ثالثاً: صناعة التحف الخزفية:

دلّت الحفريات الأثرية في شرقي الاردن عن اكتشاف قطع أثرية من العصر الاسلامي فيها تأثيرات صينية وفارسية وسلجوقية، حتى تمكن الفنان الأردني من ابتكار نوع من الخزف الاسلامي<sup>(1)</sup>.

واستمرت هذه الحرفة الفنية في العصرين الأيوبي والمملوكي حيث تشابه الخزف الشامي والمصري، لتشابه المادة الخام المصنوعة منها تلك الأواني، والتشابه في الموضوعات الزخرفية<sup>(2)</sup> وقد اشتهرت الأواني الزخرفية الشامية الأيوبية بزخارفها الزرقاء والسوداء وصدرت الى اسواق اوروبا<sup>(3)</sup>.

أما الخزف المملوكي فقد كان أكثر سمكاً وصلابة وغلب عليه اللون الزيتي الأخضر ويذكر الدكتور يوسف غوانمه مشاهدته لهذا الخزف الزيتي عند زيارته للحفريات الأثرية في مدينة حسبان مما يؤكد وجود هذه الصناعة في مدينة حسبان في العصر المملوكي، مع تأثرها بالاساليب الفنية الشامية والمصرية<sup>(4)</sup>.

وقد انتشرت الأواني الفخارية في عصر الأيوبيين والمماليك كدوارق الماء والجرار الكبيرة لخرن النبيذ وزيت الزيتون وأطباق الطعام المزخرفة بخطوط هندسية وشطرنجية داخل نجوم مسدسة أو مثمانية أو داخل مستطيلات أو مربعات متشابكة الخطوط، ومثلثات متساوية الساقين، أو نجوم مثمانية الرؤوس داخل دوائر متداخلة في بعضها داخل اطار زخرفي جميل تشيع في نفسية الناظر اليها شعوراً بالراحة أحياناً وتثير فيه الانفعال أحياناً أخرى. وقد وجد هذا النوع في حسبان والكرك، وذيبيان وعجلون حيث كانت تفي بحاجة الناس كما وجد هذا النوع في فلسطين وسوريا ومصر، مما يؤكد تمازج الفنون الاسلامية في بلاد الشام ومصر في العصرين الأيوبي والمملوكي<sup>(5)</sup>.

(1) الخزف ذي الرقيق المعدني Lustre Pottery وكان من ابتكار العراقيين زمن الدولة العباسية حيث انتشر من هناك الى جميع انحاء

العالم الاسلامي، زكي محمد حسن: فنون الاسلام، ص 260.

(2) د. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص 119.

(3) زكي محمد حسن: ن.م، ص 321.

(4) د. غوانمه، ن.م، ص 12.

(5) ن.م، ص 121-122.

## رابعاً: التعدين:

لقد قامت في شرقي الأردن صناعات معدنية عسكرية ومدنية لتوفر المعادن كالحديد في منطقة عجلون حيث تصهر في أفران خاصة مجهزة في قلعة عجلون لصهره وتنقيته ويرسل الفائض الى دمشق<sup>(1)</sup> ووجد أيضاً في الأغوار<sup>(2)</sup>.

أما الكبريت: فيكثر وجوده في البحر الميت على طول الجانب الشرقي ولقب بالكبريت الأبيض<sup>(3)</sup> كما توفر وجوده في غور الاردن. والحر: وهو القار أو الاسفلت المستخرج من البحر الميت واستخدم في صناعة اسلحة النفط، وعلاجاً لسيقان الاشجار من الحشرات الزراعية ولحفظ عقاقير الصيادلة من الحشرات<sup>(4)</sup> كما كان النحاس يستخرج من وادي عربة جنوب البحر الميت هذا وقد قطع حجر الرخام ذي الألوان الجميلة من جبال العقبة<sup>(5)</sup>.

كما توجد المغرة بجبال عمان، وبها جبال حمر يسمى ترابها السمكة وهو تراب رخو، وجبال بيض تسمى الحواره: لتبييض السقوف ويطين به السطوح، وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل، وبالأغوار معادن كبريت وغيره. والملح من بحيرة سدوم (البحر الميت)<sup>(6)</sup>.

ومن الصناعات الأخرى صناعة الشمع والعسل<sup>(7)</sup> وأعمال الصباغة والدباغة<sup>(8)</sup> وصناعة السروج والصناديق الخشبية والسكاكين والأمواس والابر والأقفال وعصا الكحل<sup>(9)</sup> والأحذية<sup>(10)</sup>.

(1) الفلقلشندي: م.س، جـ 13، ص 29، ص 30، حيث دل المرسوم الذي أصدره السلطان الناصر بن قلاوون، عام (702هـ/1302م)، حيث ورد فيه الاعفاء من ضرائب الفولاذ.

(2) د. غوانه، م.س، ص 122.

(3) الاصطخري: مسالك الممالك، طبع ليدن 1927، ص 64، والتويري: نهاية الارب، ج 1، ص 251، وناصر خسرو، م.س، ص 17.

(4) الاصطخري: م.ن، ص.

(5) ابن النابلسي: الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية، ورقة 487.

(6) المقدسي، م.س، ص 184.

(7) المقدسي: م.س، ص 184، قال أجود العسل مارعي السعتر (الزعتر) بأيلياء وجبل عامله وأجود المربي ما عمل باريحا. والقاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج 1، ص 110، العارف، الفصل في تاريخ القدس، ج 1، ص 462-465.

(8) رنسيما، م.ن، ج 2، ص 473، سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص 39، غوانه، نيابة بيت المقدس، ص 123.

(9) Goitein, Studies in Islamic History, PP.. 257-258.

(10) Adler, Jewish Travellers, p. 135.



## الصناعات الخشبية:

لقد ازدهرت هذه الصناعات أيضاً لتوفر الأخشاب وكان أهمها صناعة المراكب فكانت مدينة زُغر جنوبى البحر الميت من أشهر المدن في صناعة المراكب البحرية المستخدمة في النقل بين أريحا شمالاً وزُغر جنوباً<sup>(1)</sup> كما كانت أشجار الأرز اللبنانية مصدراً للأخشاب اللازمة لهذه الصناعة في السواحل الشامية<sup>(2)</sup> ويؤيد الباحث رأي الدكتور غوانمه بأن مدينة العقبة كانت مركز صناعة السفن منذ أقدم العصور لأنه ميناء الأردن الوحيد بعد نقل الأخشاب من جبال الشراة وموآب إليها<sup>(3)</sup> وخاصة لاستخدامها في طرد الفرنجة من السواحل الشامية والتصدي لغاراتهم البحرية كما استخدمت في صناعة المجانيق لمحاصرة عكا عام (1290/689)<sup>(4)</sup> واستخدمت الأخشاب أيضاً في تجهيز أسقف البيوت<sup>(5)</sup> وصناعة الفحم النباتي الذي خزن في القلاع في العصور الوسطى لاستعماله وقت الحاجة<sup>(6)</sup>

وقد اشتهر القرويون في عجلون بصناعة الفحم النباتي والمتاجرة به، حيث صدروه الى دمشق في فصل الخريف تمهيداً لفصل الشتاء لاستخدامه في التدفئة والطبخ<sup>(7)</sup>

أما طريقة صناعته المحلية فقد استمرت حتى اليوم اذ نشاهد الفلاحين يقطعون الأشجار بأطوال صغيرة محددة ترص جيداً في كهوف خاصة أو يجمعونه أكواماً مغطاة بالتراب لمنع الهواء من الدخول ليتم تفحيم الخشب، وبعد ذلك تفتح المغارة أو الكوم ليخرج ثاني اكسيد الكربون، ثم ينقل ويبيع في أسواق القرى والمدن.

كما اشتهر أهل فلسطين بصناعة الحفر على الخشب والرخام بالإضافة لبعض قرى شرقى الاردن أيضاً كقرية المزار شمالي الاردن بين اربد وعجلون حيث تخصصت وحتى وقتنا الحاضر في صناعة الأجران الخشبية والمهابيج لدق البن لصناعة القهوة السادة العربية باستخدامهم خشب البطم من جبال عجلون<sup>(8)</sup>

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 183، القلقشندي، م.س، ج4، ص 156.

(2) خرابشة: طرابلس، ص 237، وذلك لانتشار الغابات على سفوح وقمم فلسطين والأردن.

(3) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 115.

(4) ابن كثير: م.س، ج13، ص 335.

(5) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار في ممالك الأمصار، بيروت، 1986، ص 64، كما يذكر ناصر خسرو انه شاهد في مدينة بعلبك كثيراً من صناع السفن التي تسمى في حيفا جودي، ناصر خسرو: م.س، ص 50.

(6) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص 196، د. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 87.

(7) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، ج2، ص 336.

(8) زربا: الحياة الاجتماعية، ص 75، د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 92، هذا وقد شاهد الباحث بام عينه صناعة الأجران الخشبية "والمهابيج" في قرية المزار عام 1958م عندما كان مدرساً في قرية دير يوسف العمري بالقرب منها. بعد القيام بتحفيف خشب البطم وخزنه لعدة أيام، كما كانوا يزينون هذه الأجران بزخارف هندسية جميلة يجفرونها على الخشب لمعرفة المزيد عن هذا الطراز الزخرفي انظر: حسن، زكي عماد، فنون الاسلام مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1984م، ص 284.

## صناعة النيلة:

كانت تستخدم في صناعة النسيج وتلوينه باللون الأزرق، وصُنِدَت النيلة الى أسواق أوروبا<sup>(1)</sup> وكانت تُسْتَخْرَجُ من نبات النيلج أو الوسمة المزروع في أريحا المشهورة بمصانع النيلة<sup>(2)</sup> وزغر ومنطقة غور الصافي<sup>(3)</sup> جنوب البحر الميت وغور الاردن الشمالي<sup>(4)</sup> وازدهرت صناعة النيلة في العهد المملوكي واستمرت الى القرن التاسع عشر الميلادي حيث كانت هذه المادة تنقل الى القدس والخليل وكان سعرها عالياً لجودتها عن نيل مصر بنسبة 20%<sup>(5)</sup> وقد كثر الطلب الاوروبي عليها لأنها تدخل في تلوين النسيج باللون الازرق.

## صناعة طحور الغلال:

لقد انتشرت مطاحن الهواء الحجرية لطحن الحبوب والغلال في جنوبي بلاد الشام في العصور الاسلامية المختلفة، حيث أقيمت حول الأنهار ومجاري المياه كنهر ابراهيم ونهر العوجا وعمان وحسبان، والكرك وعجلون، والأغوار وأريحا والشوبك<sup>(6)</sup>، والتي مازالت آثارها باقية حتى اليوم.

وأما صناعة الخبز فكانت تتم في الفرن أو التتور "الطابون" الذي يدار بحرق القش والحطب وروث الحيوانات<sup>(7)</sup> وما زال هذا الفرن موجوداً في بعض القرى الاردنية حيث شاهدهته عند جدتي.

## صناعة العطور:

لقد ازدهرت صناعة العطور والزهور في بلاد الشام لتوفر الورود والأزهار المتنوعة كالزعفران، والمسك والعنبر المصنوع منها طيب الغالية وصدرت العطور من بلاد الشام لمصر

(1) متر: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي زيد، بيروت 1967، ج2، ص309.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض ص 169.

(3) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص 428، 460.

(4) السباهي: م.س، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 236.

(5) بيركهارت: م.س - سوريا الجنوبية - ج2، ترجمة انور عارف، المطبعة الاردنية، عمان 1966.

(6) القلقشندي: م.س، ج4، ص 106، ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص 719.

(7) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن، 1909م، ص 183.

وشبه الجزيرة العربية الى بلاد الهند والسند والصين<sup>(1)</sup> وقد استعمل ماء الورد النصيبي الدمشقي بشكل واسع في مناحي الحياة المختلفة حتى ان صلاح الدين الايوبي غسل به جدران المسجد الاقصى ومسجد عمر<sup>(2)</sup> بعد تحرير القدس من الصليبيين، كما غسل الظاهر بيبرس الكعبة عند تسلمه الحكم بماء الورد الدمشقي الذي يليه ورد المزة لصناعة العطور<sup>(3)</sup>.

### صناعة الأسلحة :

وقد تركزت هذه الصناعة في قلعة الكرك بوجود عمال متخصصين في صناعة الأسلحة المختلفة في دولة المماليك الأولى منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس سنة 661هـ/1263م حيث أعاد ترتيب السلاح خاناه<sup>(4)</sup>.

وأهم الأسلحة التي صنعوها السيوف والرماح والنشاب والدروع المصنوعة من الزرد المانع والاطبار وصناعة النفط من معدن الكبريت الأبيض ومادة الاسفلت المستخرجة من سواحل البحر الميت الشرقية ويخلطون المادتين لصناعة قوارير النفط المحرقة<sup>(5)</sup> لتقذف بالمنجنيق على الاعداء لإحداث الحرائق وكانت تخزن في قلعة الكرك.

كما اشتهرت مؤته بصناعة السيوف المشرفية طوال العصور الاسلامية<sup>(6)</sup> وقد صنعت هذه السيوف من الحديد المحلي والمستورد من الصين<sup>(7)</sup> كما اقتصت بصناعة كنائن السهام<sup>(8)</sup> الحمراء المذهبة من الجلد أو من الخشب، والتي كانت موضع افتخار عند العرب<sup>(9)</sup> أما السهام أو النبال ذخيرة الأقواس فقد اشتهرت بصناعته قرية عمّا بغور أبي عبيدة حيث نالت شهرة كبيرة عند العرب<sup>(10)</sup> حتى قيل عنها "النبال الغاية"<sup>(11)</sup>.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 187، ابن طولون: تاريخ المزة، ص 34-35.

(2) القلقشندي: ن.م، ن. ص، وابن طولون: ن.م، ن. ص.

(3) القصري "كتاب الورد"، ج1، ص 45، ولمعرفة المزيد عن صناعة العطور انظر: شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 195-198.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، تاريخ الواصلين، ورقة 419، مخطوط.

(5) النويري: نهاية الارب، ج1- ص 251.

(6) ووردت شهرة سيوفها في أشعار الشعراء:

أبي الله للشم الألف كأنهم صوارم يملوها بمؤته صيقل

القرزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 275، ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص 677.

(7) العيني: عقد الجمان، ج2، ق1، ص 6 ورقة 136، "مخطوط". ذكر جلوس الناصر محمد بن قلاوون عند خروجه من الكرك في حساب باتجاه دمشق على كرسي من الحديد الصيني الذي أحضره من الكرك.

(8) د. غواقه، ص 116.

(9) القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص 142، ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ج1، 1965، ص 109.

(10) ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص 722، وابن شداد. م.س، ج3، ص 88.

(11) ياقوت، م.س، ج4، ص 153.

بالإضافة الى شهرتها بصناعة المراكب من أخشاب الأشجار الموجودة على سفوح جبال الشراه حيث كانت المراكب تجوب البحيرة المالحة من زغر جنوباً الى أريحا شمالاً<sup>(1)</sup> أما في عهد الصليبيين فقد تم صنعها في الكرك زمن ارناط الصليبي حيث نقلها على ظهور الجمال الى العقبة لإعادة تركيبها لبناء أسطول للسيطرة على تجار البحر الأحمر وتهاجم الديار المقدسة<sup>(2)</sup>.

### صناعة الأسلحة الخفيفة:

واشتهرت بعض مناطق بلاد الشام في صناعة بعض أنواع الأسلحة الخفيفة التي استخدمها الجيش المملوكي كالنبال والسهم والأقواس الزغرية المفضلة لدى عساكر المماليك<sup>(3)</sup>. لصلاية عودها ونبال قرية النبل الفايقية<sup>(4)</sup>.

### صناعة تجفيف الفواكه

لقد اشتهرت بلاد الشام وما زالت بصناعة تجفيف الوفاكه وتصديرها، وقد عمل أهالي شرقي الأردن بتجفيف الزبيب والقطين "التين المجفف"<sup>(5)</sup>.

أما أهالي فلسطين فقد عملوا أيضاً بتجفيف التين في مدينة الرملة وكان أجود أنواع التين المجفف في العام مما سهل تصديره الى بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها<sup>(6)</sup> والزبيب العيونوي<sup>(7)</sup> فقد أشار النابلسي الى كثير من طرق تجفيف الفواكه في فلسطين كالشمش والأجاص والخوخ والعنب وغيرها<sup>(8)</sup>.

هذا بالإضافة الى صناعات أخرى لا يتسع البحث لذكرها منها صناعة دبس العنب<sup>(9)</sup> وصناعة البلسم في الأغوار وعجلون لنجاح زراعة شجر البليسان المسمى بالبليسان الشامي.

(1) د. غوانمة، م.س ص 114.

(2) القلقشندي: صح الأعشى، ج4، ص 156، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 183.

(3) د. غوانمة: التاريخ الحضاري، ص 91.

(4) المقدسي: م.س، ص 181.

(5) سترانج: فلسطين في العهد الإسلامي، ص 430، الزبيب العيونوي، نسبة إلى قرية بيت عيونوي جنوب القدس.

(6) النابلسي: علم الملاحة، ص 200.

(7) د. غوانمة، ن.م، ص 57.

(8) البدري: نزهة الأنام، ص 235، ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 155، النابلسي: التحفة النابلسية، ص 3.

(9) زيادة: فيلكس فابري: مؤتمر بلاد الشام الثاني ص 196، لمزيد من المعومات عن صناعة البلسم وفوائده الطبية انظر غوانمة،

التاريخ الحضاري، ص 85-86، 256، Russell "Holy Land".

## صناعة البلسم:

وازدهرت صناعة البلسم في العصور الوسطى لأهميته لدى الملوك والسلاطين الذين كانوا يتهادونه مع بعض كما يستعمله المسيحيون في طقوسهم الدينية، كما يستعمل في علاج بعض الامراض مثل حصى الكلى والعين وتطهير الجروح ونهش الحيوانات واستخدم في الاجهاض وفي علاج بعض الامراض الجنسية<sup>(1)</sup>.

ويستخرج البلسم من عصارة شجر البليسان<sup>(2)</sup> الشامي في منطقة عجلون والأغوار، علماً بأن متوسط طول أشجاره 14 قدماً، وهو ذو ساق ناعمة وأوراق قصيره<sup>(3)</sup>.

(1) النوري الكندري (محمد بن قاسم بن محمد) الامام بالأحكام والأمور المقتضية في دمشق والاسكندرية، مخطوط، مصور. مكتبة بلدية الاسكندرية، رقم 4227ب، وتوجد نسخه في مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم 738. زيادة ملكس فابري: م س، ص 196.

(2) تشبه طريقة استخراج المطاط بشق ساق الشجرة وتجميع العصارة السائلة في وعاء ثم يسدون الشقوق خوفاً من موت الشجرة ثم تعرض لأشعة الشمس في اناء واسع لترسب الشوائب في قاع الاناء، أما زيتة فيغلى على النار ليكسب لوناً احمر ورائحة عطره فيسمى عندئذ "دهن البلسم" وهو ارقى انواع البلسم وقد استورده المصريون القدماء لتحنيط موتاهم، د. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 115، وانظر: مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج1، ص 465.

(3) د. غوانمه: ن.م، ص 110. Russel, Holy Land, p. 256.

## الصناعات القائمة على الانتاج الحيواني

أولاً: صناعة المنسوجات الصوفية:

وقد اشتهرت بها كل من مدن غزة، وعسقلان<sup>(1)</sup> وصفد<sup>(2)</sup>، والكرك، وقرية باعون بالقرب من عجلون شمال الأردن<sup>(3)</sup> وكان الصوف يغزل وينسج على أنوال يدوية<sup>(4)</sup> كما ازدهرت صناعة البسط في منطقة الشوبك والكرك التي نالت اهتمام سلاطين المماليك لجودتها كالسلطان الملك الاشرف شعبان عندما سافر الى الحج عام 778هـ/1377م ولقائه بنائب الكرك بمدينة العقبة حيث أوصاه بصناعة كميات كبيرة من البسط ونقلها الى القاهرة. وتم فعلاً نقل بعضها الى القاهرة لفرش ديوان السلطان المعروف بـ "دار العدل بقلعة الجبل بالقاهرة"، على الرغم من مقتل هذا السلطان<sup>(5)</sup>.

كما اشتهرت مدينة أعناك شمال الأزرق جنوبي الأردن أيضاً بالقرب من الحدود السعودية بصناعة البسط المزركشة بالنقوش والرسوم الجميلة بالإضافة للمنسوجات الحريرية المنسوبة اليها<sup>(6)</sup> وهكذا ازدهرت صناعة النسيج والحياسة في شرقي الاردن في العصور الوسطى<sup>(7)</sup>. بالإضافة الى المنسوجات الكتانية القائمة في صفد على زراعة الكتان في جبال الجليل بشمال فلسطين<sup>(8)</sup>.

### صناعة النسيج والبسط:

لقد استخدم نبات الكتان في صناعة النسيج والبسط<sup>(9)</sup> كما اهتموا بنسج القطن والصوف وصبغه وخاصة في مدينة الرملة<sup>(10)</sup> وصفد في فلسطين<sup>(11)</sup> وقد حصلوا على القطن بزراعته في سهول

(1) المقريري: السلوك، ج1، ق3، ص 747-748، وابن الوردي: م س، ص 43.

(2) الطراونه: صفد، ص 172.

(3) د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص 88.

(4) ابن شاهين: م س، ص 19، القزويني: م س، ص 162.

(5) المقريري: ن م، ج3، ق1، ص 284.

(6) ياقوت: م س، ج1، ص 222.

(7) الحائك: الذي ينسج الغزل قماشاً، الشيزري: م س، ص 65.

(8) الطراونه، ن. م، ن. ص.

(9) Geitein, Studies in Islamic History, p. 261.

(10) الغزى: نهر الذهب، ج1، ص 107.

(11) الطراونه: ن م، ن ص.

فلسطين<sup>(1)</sup> كما اشتهرت الكرك والشوبك ببسطها الحريرية والصوفية التي نالت اعجاب  
سلاطين المماليك<sup>(2)</sup> كما صنعت الأقمشة من وبر الجمال في جنوب بلاد الشام<sup>(3)</sup>

### ثانياً: الصناعات الجلدية:

التي اعتمدت على جلود الحيوانات كصناعة الكنائن التي توضع فيها السهام<sup>(4)</sup> في مدينة  
زغر التي اشتهرت بكنائنها الحمراء المذهبة التي كان العرب يتفاخرون بحملها<sup>(5)</sup> هذا بالإضافة  
لصناعة الأحذية ودباغة الجلود.

### ثالثاً: الصناعات الغذائية:

كالجبين والزبدة واللبن التي اعتنى بها فلاحو جنوبي بلاد الشام لغذائهم وتصريف الفائض  
منه الى أسواق المدينة<sup>(6)</sup> لبيعها وبمقايضتها بمواد أخرى كاللباس وغيره.

(1) رنسيان، م.س، ج3، ص 63.

(2) د. غوانم، التاريخ الحضاري، ص 113، كما اشتهرت مدينة الرملة بصناعة السجاد الذي اطلق اسمها عليه واشتهرت صفد  
بصناعة الثياب الصفدية المشهورة.

(3) خرايشه: مملكة طرابلس في العهد المملوكي، ص 241.

(4) ابن سيده: كتاب المخصص، ج2، ص 67، الفلقشندي، م.س، ج2، ص 142.

(5) د. غوانم: ن م، ص 91.

(6) القاسمي: م س، ج1، ص 76، 105.

## التجارة الداخلية

### التجارة زمن الصليبيين

#### مقدمة:

بعد أن استولى الصليبيون على جميع المدن الساحلية على البحر المتوسط بدأوا بحركة تجارية نشطة مع دول الغزاة في جنوب أوروبا، وذلك تلبية لاحتياجات الجنود والفرسان المقيمين والمتنقلين وكذلك التجار مما فتح أسواقاً أوروبية جديدة تستقبل منتجات فلسطين الزراعية والصناعية وبالعكس. كما قاموا بضرب النقود وظهور الحوالات المالية، فأقيمت فروع لشركات الصيارفة في المدن الإسلامية تابعة لجنوة وبيزا في إيطاليا، استخدمت الصكوك المالية من قبل فرسان الداوية<sup>(1)</sup>.

وابتكروا طريقة الأوراق المالية الخاصة بتسجيل ما للعميل من المصارف "Credit Notes" هذا كما أوجدوا وظيفة القنصل كوظيفة تجارية وسياسية فجاء من جنوة أول قنصل في مدينة عكا الساحلية في فلسطين عام 576هـ/1180م ثم أرسل قناصل آخرون لمصر<sup>(2)</sup>. كما ارتفعت الأسعار إلى ستة أضعافها بعد خروج الصليبيين من البلاد لما أصاب اقتصادها من دمار شامل<sup>(3)</sup> بالإضافة إلى إهمال الزراعة، فلم يعد يعينهم تقدم البلاد اقتصادياً فعملوا على تهريب الذهب إلى أوروبا مثل البندقية ومرسيليا وبرشلونة فتدهورت كمية الذهب في الأسواق العربية وخاصة السوق الفلسطينية.

أما لدور الجاليات الإيطالية التجاري من بنادقه وجنوية وبيزاوية فقد اشتركوا في الصفات العامة من حيث ممارسة نشاطهم في أحيائهم الخاصة بالقرب من الموانئ البحرية الشامية بالإضافة لمحاكمهم وكنائسهم ومخازنهم الخاصة والاعفاء من الضرائب وامتيازاتهم الخاصة التي حصلوا عليها من الصليبيين الذين استفادوا بدورهم من هذا النشاط التجاري بجمع الثروة

(1) د. فليب حتى، تاريخ العرب - دار الكشف - بيروت 1951، ج3، ص 791.

(2) د. عبد الرحمن فهمي، م س، ص 83.

(3) البرغوثي: عمر الصالح، تاريخ فلسطين - القدس، مطبعة بيت المقدس 1923، ص 209.



والامدادات العسكرية من طاقة بشرية ومادية، لذا بذلت هذه الجاليات أقصى جهد لها للاحتفاظ باستغلالها الاقتصادي وتلبية احتياجاتها اليومية مستغلة حاجة الصليبيين الماسة لهم وقرب بلادهم من الشام ومصر كما بذلوا أقصى جهدهم في المحافظة على علاقات طيبة مع حكام مصر والشام من الأيوبيين والمماليك خوفاً على مصالحهم التجارية في موانئ المسلمين وهذه السياسة المزدوجة ذات الوجهين مازالت في مصطلحات القاموس السياسي اليوم للدول الكبرى التي تنتهجها في الشرق الأوسط وخاصة في التعامل مع إسرائيل والدول العربية الأخرى للحفاظ على مصالحها وأمنها القومي.

### وبالنسبة للأهمية الاقتصادية للأردن

#### في عصر الدولة الفاطمية والسلجوقية والصليبية:

كان الأردن: يمد مملكة بيت المقدس بالغلل والقمح اللازم لها بالإضافة الى مرور الطريق التجاري وطريق الحجاج عبر شرقي الأردن والقادمة من دمشق أو مملكة بيت المقدس، والتي تنتهي بموانئ فلسطين، كميناء عكا الذي كان يستقبل البضائع العربية الواردة من الجنوب العربي ودمشق وقد وصف ابن جبير نشاط ميناء عكا<sup>(1)</sup> بالإضافة للدخل الوافر الذي تحصل عليه مملكة بيت المقدس من الضرائب المفروضة على هذه البضائع<sup>(2)</sup>. بالإضافة الى سيطرتها على ميناء "إيلة" العقبة على البحر الأحمر المتحكم في حركة التجارة والمواصلات من بلاد الشام والسواحل الحجازية واليمن، ومصر وبلاد المغرب الاسلامي<sup>(3)</sup>، كما كانت خط الدفاع الأول لمملكة بيت المقدس من أي تقدم اسلامي أو لصد غارات القبائل العربية المجاورة لذا تفرغوا لتحصين المنطقة الجنوبية من الأردن، بعد مهادنة بلدوين الاول ملك بيت المقدس لظهير الدين صاحب دمشق سنة 502هـ/1108م واتفقا على تقسيم السواد وجبل عوف (عجلون) أثلاثاً

(1) ابن جبير: الرحلة، ص 276-277.

(2) رانسيما: م س، ج3، ص 601.

(3) ابن خرداذبة: م س، ص 154. نعيم زكي: دائرة المعارف الاسلامية- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص 141، القاهرة، 1973.

بين الاتراك حكام دمشق والافرنج والفلاحين سكان هذه المنطقة الخصبة حتى سنة 583هـ/1187 بعد انتصار المسلمين في حطين<sup>(1)</sup>.

فاندفع بلدوين للشوبك وأعاد بناء قلعتها القديمة الضخمة عام (509هـ/1115)<sup>(2)</sup> التي لا يمكن الوصول إليها الا من طريق واحد<sup>(3)</sup> وجعلها قاعدة عسكرية لمراقبة الطرق بين مصر الشام والحجاز والسيطرة على القوافل التجارية القادمة من اليمن والبحر الأحمر وسماها اللاتين "مونتريال Montroial" تكريماً لذكرى الملك بلدوين بانيها، كما أقاموا عدة حصون منيعة بوادي موسى<sup>(4)</sup> جنوب الأردن مثل هرمز<sup>(5)</sup>، الطفيلة<sup>(6)</sup>، سلع<sup>(7)</sup>، لإكمال السيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية اقتصادياً وعسكرياً.

ثم أكمل بلدوين سلسلة الحصون المنيعة سنة 510هـ/1116م ببناء قلعة "إيلة" على طرف اللسان الشرقي للبحر الأحمر<sup>(8)</sup> وجعلها قاعدة عسكرية للسيطرة على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي<sup>(9)</sup> وللسيطرة على الطرق البرية بين مصر والحجاز، كما بنى قلعة حصينة في جزيرة فرعون Legraye قرب الساحل فأصبحت تجارة البحر الأحمر تحت رحمتهم<sup>(10)</sup>.

(1) ابن القلانسي: م س، ص 164، رانسمان، ن م، ج2، ص 157.

(2) د. ابراهيم العدوي: تاريخ العالم الاسلامي بعصر البناء والانطلاق، ج1، ص 306، القاهرة 1983.

رانسمان م س، ج2، ص 160، عاشور: الحركة الصليبية ج1، ص 327، Stevenson, The Crusaders, p. 65.

(3) الشوبك: تقع بين الطفيلة ومعان على يمين وادي عربة شمال شرقي البتراء تشتهر بكثرة بساتينها وعيونها وكان أغلب سكانها من النصارى. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 247، ياقوت الحموي: م س، ج3، ص 332، يذكر أنها من بناء الفرس سنة 509م، على انقاض حصن قديم للتحكم في الطريق البري بين مصر والشام.

(4) وادي موسى: جنوب القدس بينها وبين الحجاز، تملؤه أشجار الزيتون.

Lestrangle "gey": Palestine under the Muslims, p. 584, Beirut, 1965.

(5) هرمز: قلعة بوادي موسى بين القدس والكرك، ياقوت الحموي: ن م، ج4، ص 968.

(6) طفيل: قلعة بوادي موسى قرب البيت المقدس، ياقوت "معجم البلدان"، ج3، ص 541، وهي الآن مدينة الطفيلة.

(7) سلع: السلوع: شقوق في الجبال وأصلها عبري. بمعنى "الصخر" ويطلق عليها البتراء باليونانية ومعناها: "الصخر" أيضاً، وطلع قلعة

حصينة بوادي موسى قرب القدس، ياقوت الحموي: ن م، ج3، ص 117، Lestrangle, Ibid, p. 528.

(8) رانسمان، ج3، ص 160. Stevenson, Op.Cit, p. 65.

(9) فيليب حتى: م س، ج2، ص 231.

(10) ابن واصل: م س، ج3، ص 294.

كمل الملك فولك ملك بيت المقدس (1113-1144م) تحصين المواقع الدفاعية حول بيت المقدس خوفاً من هجوم المسلمين من جهة المنطقة الواقعة شرقي البحر الميت فبنى قلاعاً من جهة الجنوب والشرق في تل الصافي<sup>(1)</sup> وبينة<sup>(2)</sup>، وبيت جبرين<sup>(3)</sup> ولمحاصرة عسقلان<sup>(4)</sup> أيضاً آخر معقل لمصر في فلسطين، وأعاد تجديد بناء قلعة الكرك وتحصينها<sup>(5)</sup>.

### التجارة الداخلية بين فلسطين والأردن زمن الصليبيين:

لقد سمح جودفري البويوني أول حاكم صليبي لبيت المقدس لشيوخ شرقي الأردن أن يرسلوا فائض محصولاتهم الى مدن الساحل الشامي عبر فلسطين وشجع الايطاليون ذلك في الوقت الذي منعوا فيه التجارة بين الساحل الشامي ومصر، لتبقى هذه المدن معتمدة في تجارتها كلية على المسيحيين فاندمجت فلسطين كلها في وحدة اقتصادية شاملة مع الاردن وصار لها علاقات تجارية عبر البحر الى اوروبا كما حاول بلدوين الأول السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة "وادي عربية" ليقطعوا الاتصال بين مصر والعالم الاسلامي في الشرق وخاصة بعد سيطرتهم على ميناء "ايلة" العقبة، وليهددوا الحجاج المسلمين<sup>(6)</sup> لذا سيطر بلدوين الأول على وادي عربية جنوبي البحر الميت ثم بنى قلعة الشوبك 1115م، للسيطرة على وادي عرب<sup>(7)</sup>. أما بلدوين الثاني 1120م فقد شجع التجارة بمنحه التجار اللاتين والحجاج والزوار اعفاءات تجارية كبيرة من الرسوم الجمركية للبضائع الواردة والصادرة من مملكته<sup>(8)</sup>.

(1) قلعة بجنوب فلسطين في مقاطعة الرملة وسيطر على الطريق بين عسقلان وبيت المقدس، رانسيمان، ج2، ص 36.

(2) بيعة: تبعد عشرة أميال جنوب غرب اللد: رانسيمان ج2، 369.

(3) بيت جبرين حصن يقع على الطريق بين عسقلان والخليل (حبرون) وتحصن به الفرسان الاستبارية، رانسيمان ج2، ص 369.

(4) رانسيمان، ج2، ص 369، Stevenson, Op.Cit, p. 146.

(5) عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 601، Stevenson, Op.Cit, p. 146.

(6) Fink, Latin States, p. 406.

(7) Runcimam, 1, p. 97.

(8) كما فتح في الوقت نفسه جميع المسيحيين الشرقيين من السريان والارثوذكس والأرمن وكذلك المسلمين اعفاءات من دفع الرسوم في حال دخولهم كحجاج الى بيت المقدس. Wiliam of Tyre, 1, p. 537.

ولاحكام السيطرة التامة على طريق التجارة بين مصر والشام بنى فولك 1142م قلعة الكرك في صحراء البتراء<sup>(1)</sup>.

حاولوا الاستيلاء على عدن جنوبي البحر الأحمر لاجلاق البحر الأحمر في وجه تجارة المسلمين وقطع طريق الحج عليهم. لذلك قاد "دي شايون" 1182 حملة بسفنه التي نقلها على ظهر الجمال من شرقي الأردن الى خليج العقبة واستولى على ايلة ثم ابجر الى عيذاب وغيرها من الموانئ شمال شرقي جزيرة دهلك<sup>(2)</sup> فهزت هذه الحادثة العالم الاسلامي. ومع ذلك استمرت التجارة بين المسلمين في دمشق والصليبيين في عكا<sup>(3)</sup>.

وهكذا ظلت مدن الشام الساحلية موانئ للمدن الاسلامية الداخلية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين<sup>(4)</sup>.

وقد سمح الصليبيون للتجار المسلمين بالمرور بالأراضي التي احتلوها بعد وضعهم مراكز جمركية "ديوان" على الجسور ومداخل الأودية وأمام الحصون مثل عكا وكذلك عند حصني مرقب وتبنين ودير البلح وكان بين فلسطين ومصر مركزاً جمركياً في قطيا "أو قطناً"<sup>(5)</sup>.

وكان الديوان عبارة عن خان لنزول القوافل ولنزول التجار والمسافرين وحفظ البضائع<sup>(6)</sup>.

(1) ابن شداد، م.س، ص 66.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص 79. أبو شامة، م.س، ج2، ص 36-37، ابن واصل، م.س، ج2، ص 130.

(3) ابن جبير، م.س، ص 201، 209، يقول "واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين على عكا كذلك". وعلق في مكان آخر "وأهل الحرب مشغولون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب".

(4) ن.م، ص 14، 215.

(5) النقاش، العلاقات، ص 191، ابن بطوطة، م.س، ج1، ص 3، هذا وقد وافق ابن جبير أحد القوافل التجارية وأشار الى حسن معاملة الموظفين الصليبيين للتجار وتحديثهم بالعربية والكتابة بها، ابن جبير، ن.م، ص 211.

(6) ن.م، ص 261.

أما المسافات في الاصطخري<sup>(1)</sup>: فكانت الطريق من الشام الى حدود مصر كالتالي:

### المراحل: من ملطية الى رفح:

من ملطية الى منبج أربعة أيام ومن منبج الى حلب يومان ومن حلب الى حمص خمسة أيام ومن حمص الى دمشق خمسة أيام ومن دمشق الى طبرية أربعة أيام ومن طبرية الى الرملة ثلاثة أيام ومن الرملة الى رفح يومان، فيكون مجموع ذلك خمسا وعشرين مرحلة.

وأما الطريق الآخر من فلسطين الى الشرق: من يافا الى الرملة الى بيت المقدس الى اريحا الى زغر ثم الى جبال الشراة، ثم الى معان ومجموعها ست مراحل.  
والطريق الساحلي: يافا، الرملة، عسقلان، غزة.

أما عدد ايام السفر: من الرملة الى بيت المقدس يوم، وثم الى مسجد ابراهيم الخليل يومان ومن بيت المقدس الى اريحا يوم، ومن بيت المقدس الى البلقاء يومان، ومن الرملة الى قيسارة يوم، ومن الرملة الى نابلس يوم، ومن ريحا الى زغر يومان، ومن زغر الى جبال الشراة يوم، ثم الى آخر الشراة يوم وقصبة الاردن طبرية، ومنها الى صور يوم، ومن طبرية الى عقبة في يوم، ومن طبرية الى عكا يوم.

هذا وذكر المقدسي<sup>(2)</sup> أن المسافة من بيت المقدس الى نهر الاردن مرحلة، ومن نهر الاردن الى عمان مرحلة ومن نابلس الى اريحا مرحلة، ومن اريحا الى عمان مرحلة، ومن صغر (يعني زغر) الى مؤاب مرحلة، ومن عمان الى مؤاب مرحلة، ومن عمان الى الزريقا مرحلة (الزرقاء اليوم) ومن الزريقا الى أذرعات مرحلة (درعا)، ومن أذرعات الى دمشق مرحلتين. ومن يافا الى عسقلان مرحلة، ومن قيسارية: الى كفر سلام أو الى كفر سابا أو الى أرسوف: مرحلة.

(1) الاصطخري: أبو اسحق الفارسي، كتاب الأقاليم، نشر ملر، غوتنبرغ، 1839م، ص 65. وابن حوقل: أبو القاسم محمد، المسالك

والممالك، نشر دي غيون، ليدن، 1872م، ص 170-173.

(2) المقدسي: م.س، ص 190.

بينما ذكر الادريسي<sup>(1)</sup>: من اريحا الى زُغر يومان، ومن زُغر الى آخر جبال الشراة يومان ومن اريحا الى بيت المقدس مرحلة، ومن بيت المقدس الى عمان والبلقاء يومان، ومن الرملة الى يافا نصف يوم، ومن الرملة الى نابلس يوم، ومن صور الى طبرية يومان، ومن صور الى دمشق اربعة أيام ومن دمشق الى بيروت يومان، ثم الى بلبس إحدى وعشرون ميلاً ثم الى القساط مدينة مصر اربعة وعشرون ميلاً.

### المكوس الصليبية:

لقد فرض الصليبيون مكوساً على التجارة المارة بالطريق التجاري الخارجي بين دمشق وعكا بمقدار دينارين وقيراط من الدنانير السورية على الرأس<sup>(2)</sup>.

وهكذا نلاحظ أن النشاط التجاري كان مستمراً بين المسلمين والصليبيين بالرغم من المعارك الحربية المستمرة<sup>(3)</sup> كما ورد في المعاهدات بينهم في عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من (1267-1292) إشارات تتعلق بتأمين التجارة الصليبية بالشام وغيرهم من القادمين من أوروبا<sup>(4)</sup>.

هذا بالإضافة الى النص الخاص بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شيء منهم وهو ما لم تجر به العادة<sup>(5)</sup> كما ورد في هدنة بين الملك والمنصور قلاوون وولديه الملك الأشرف خليل وبين الملكة الجليلة (مدام مرجريت بنت هنري بن الابرنسي)<sup>(6)</sup>.

(1) الادريسي: م.س، ص2، 3، 7، 8، 9، 10.

(2) كان الدينار يساوي 24 قيراط كما فرضوا ضريبة اضافية على التجار المغاربة لاشتراكهم في الجهاد مع نور الدين زنكي ومقدارها دينار صوري على شكل شخص. ابن جبير: م.س، ص 210.

(3) ابن واصل، م.س، ج2، ص 402، وما بعدها.

(4) القلقشندي، م.س، ج14، ص 31، لقد ذكر في هدنة السلطان بيبرس الصالح النجمي وبين مقدمي الاسبتارية في عكا "حصن الأكراد والمرقب" كما ورد في هدنة بين بيبرس وملكة بيروت 1269 إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنجة وأن يكونوا آمنين، ن.م، ج4، ص 37.

(5) القلقشندي، ن.م، ج14، ص6، وهناك معاهدة أخرى بين بيبرس وابنه الملك السعيد والفرسان، الاسبتارية 1271م، تشير الى التجار المصريين والصليبيين بتقسيم المتحصل بينهم مناصفة، القلقشندي، ن.م، ج4، ص 45، وانظر جوزيف نسيم، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الاسكندرية سنة 1983، ص111، 112.

(6) ابن عبد الطاهر: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص 105.

ويلاحظ على هذه المعاهدات بأن نصوصها كانت تتأثر بالموازين السياسية بين الفريقين وقوة كل منهما حيث كان سلاطين المماليك في مصر يملون ارادتهم على الصليبيين في الشام في ذلك الوقت حيث اتخذ المماليك في مصر زمام المبادرة في الوقت الذي التزم به الصليبيون سياسة الدفاع بوجه عام.

### التجارة الداخلية في القرى والمدن في جنوب بلاد الشام:

لقد تبادل أهل القرى والمدن السلع التجارية عن طريق المقايضة كما حدث بين نصارى الكرك والشوبك في جنوبي الأردن، وسكان جزائر الغول في البحر الأحمر<sup>(1)</sup> الذين تبادلوا بالمقايضة مادة الزبيب والزيتون والزيت مقابل السمك المجفف والمملح الذي كانوا يحملونه الى الطور والسويس ثم الى الكرك والشوبك ومن الوسائل الأخرى لتبادل السلع التجارية نشاط الوسيط التجاري والذي يعرف اليوم "بالسمسار" الذي كان يسمى آنذاك "بالحدّار" الذي يطوف القرى لعرض بضاعته التي أحضرها من المدينة، كالخيطان والابر والمحارم والمناديل... وغيرها وكان يأخذ الدراهم أو يقايض بضاعته بمحصول الفلاحين من قمح وبرغل وعدس وكشك<sup>(2)</sup>.

وقد شاهد الباحث عملية المقايضة هذه في الخمسينات والستينات في قرى شمالي الأردن في قرية سوم الشناق والذي مازلت اذكر اسم التاجر عبد المحسن الزيتاوي الذي كان يحمل بضاعته على حمار والذي اصبح اليوم تاجراً كبيراً من تجار الاقمشة في مدينة اربد ومازلت أتعامل معه حتى الساعة.

أما في شمالي الأردن فكانت هناك أسواق اربد التي تقع على الطريق التجاري بين دمشق والقاهرة، حيث كانت تعج بمختلف صنوف البضاعة المختلفة التي يحملها تجار بخارى وسمرقند وبلاد فارس والعراق والشام<sup>(3)</sup> وكان فيها بركة ماء لتزويد الحجاج بالماء، وما زلنا نشاهد آثار

(1) جزائر الغول: تريد على مائة جزيرة وهي خراب الآن، وكان ياي إليها سودان عراه كلامهم ثقيل ولهم مراكب وبيوتهم من قصب.  
(2) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، ج1، ص94، غوائه: التاريخ الحضاري، ص125، هامش 93. ابن سعيد المغربي (ت 673/1275) كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط1، بيروت، 1970، ص130.  
(3) المقريري السلوك، ج2، ص592، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص18، 110، 119.

هذه البركة من الجنوب الى المدينة مع كثرة خاناتها المخصصة لخدمة التجار والمسافرين وفي مدينة الحصن ايضاً.

كما كانت العقبة سوقاً كبيراً عند عبور الحجاج المصريين والمغاربة والسودان وغيرهم<sup>(1)</sup> وقد وصف العمري هذه الأسواق العظيمة التي تشمل الخيول والأغنام والأبل والسلاح والقماش والأفنة<sup>(2)</sup>. وكان المسلمون من سكان الاردن يرافقون ركب الحجاج بينما لا يسمح لنصارى الأردن بذلك وحتى مدينة العل<sup>(3)</sup>.

كما كانت الاردن معبراً لتجار الشرق الاقصى من الصين والهند واليمن والقادمة لدمشق عبر جدة-مكة حيث تنقل الركاب والبضائع التي تصل الى حوالي 80 ألف حبل<sup>(4)</sup> لتصل الى دمشق وتعود محملة ببضائع الشام واوروبا الى مكة وعدن فالهند والصين.

وكانت نيابة الكرك تحصل من التجار الرسوم الجمركية في ديوان جسر الحسا بما يقارب لعشرة آلاف مثقال من الذهب شهرياً.

أما التجار القادمون براً من الحجاز الى مصر فعليهم دفع الرسوم في ديوان بويب العقبة<sup>(5)</sup>. وكانت السلع المستوردة التي تجلبها قوافل تجار التوابل: كالبهار والفلفل، وجوز الطيب، والزنجبيل، والعطور: كالمسك، والعنبر، والقرنفل، والأحجار الكريمة: كاللؤلؤ، والعقيق الأحمر، واليماني، والمرجان، والفيروز، الصمغ العربي، والورق، والحريير الصيني، والنيل والمعادن: كالنحاس، والحديد، والرصاص والقصدير والذهب والعاج.

أما الصادرات التي تحملها القوافل من سلع مختلفة فكانت: اخشاب الصنوبر والخيول العربية والمنسوجات المصرية والدمشقية، والتحف<sup>(6)</sup>.

(1) المقريري: الخطط، ج1، ص 327.

(2) العمري: مسالك الابصار، ج2، ق1، ورقة 168، (مخطوط) و المقريري: الخطط، ج1، ق3، ص 325.

(3) ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص 69، يقول: العلا قرية كبيرة فيها بساين النخيل والمياه ويقم فيها الحجاج أربع أيام وإليها ينتهي تجار نصارى الشام المرافقين للحجاج.

(4) المقريري: السلوك، ج4، ص 681، 768، 965.

(5) المقريري: ن م، ج4، ص 256، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومخطاتها، ص 279.

(6) د. يوسف غوانم: التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في العصر المملوكي ص 89.



## التجارة البحرية للعقبة ميناء الأحمر الوحيد<sup>(1)</sup>:

لقد كان موقع العقبة المميز في البحر الأحمر وما زال المنفذ الوحيد للاردن والمنفذ لبلاد الشام الى الهند والصين وسواحل افريقيا الشرقية وخاصة خلال العصر الايوبي والمملوكي حيث أقيم فيها مركز جمركي لقبض المكوس<sup>(2)</sup> المفروضة على البضائع الواردة اليها ليعاد تصديرها الى أوروبا<sup>(3)</sup>.

بالاضافة الى طريق بحري داخلي عبر البحر الميت الذي كانت تجوبه السفن التجارية من الكرك الى اريحا والقدس وبالعكس مبنئنة من مدينة زغر على الطرف الجنوبي للبحر الميت<sup>(4)</sup> وكانت تحمل السلع والأفراد والغلال أيام المماليك.

## ثالثاً: العلاقات التجارية الخارجية:

لقد تمتعت منطقة شرقي الأردن بعلاقات تجارية وثيقة مع العالم الاسلامي كالقاهرة ودمشق والساحل الفلسطيني وبيت المقدس والحجاز وبغداد<sup>(5)</sup> وذلك نتيجة لموقعها الاستراتيجي الذي يربط بين هذه البلدان. كما كان لشرقي الاردن علاقات تجارية غربية مع أوروبا عبر البحر الأحمر فقد ذكرت المصادر وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون للتجار الأجانب، من بنادقه وبيازنه وجنوبيين وغيرهم، كدار الطعم المشابهة لها في دمشق والوكالة بمصر<sup>(6)</sup> ووجدت في عجلون "القياسر التي تقوم مقام الوكالة لايواء التجار الاجانب وخرن سلعتهم<sup>(7)</sup>". كما أشار

(1) سميت في العصر المملوكي بندر الاردن، د. غوانه، ن.م، ط2، 1982، عمان.

(2) ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي، نسق الأزهار في عجب الامصار، ورقة 87، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 439، جغرافيا.

(3) د. غوانه: ن.م، ص 90.

(4) وللمزيد من المعرفة انظر: القزويني: زكريا بن حمد بن عمود "آثار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت، 1960

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدياء، ج1، ص 41، 91، 92، الذي ذكر بأنه حضر تاجراً لعمان لحساب سيده في بغداد مما يؤكد أهمية مدينة عمان كمركز تجاري هام.

(6) القلقشندي: م س، ج4، ص 187، حيث يقول: "يتولاها شخص يسمى "شاد دار الطعم" كما يذكر المقرئ بأن السلطان الأشرف خليل قرر لنائب دمشق علم الدين سنجر الشجاع عام 690هـ بثلاثة دراهم على دار الطعم بدمشق، المقرئ: السلوك، ج6، ص 768.

(7) د. غوانه: ن.م، ص 91، 92.

الدكتور يوسف الغوانمه الى الوثائق الأوروبية التي اخبرت عن وجود السكر الكركي والإسفلت والبلسم في أسواق فلورنسا ما بين 1310-1340<sup>(1)</sup>، وقال عنها "إنها البصرة الصغرى" لشهرتها التجارية.

كما تؤكد العملات النقدية الذهبية ذات الصور الفرنجية التي منحها الملك الناصر محمد بن قلاوون عند خروجه في سلطنته الثالثة في دمشق لبعض اللاجئين اليه على وجود علاقات تجارية مع أوروبا<sup>(2)</sup>، بالإضافة الى العثور على العملات الإسلامية في كثير من أقطار أوروبا كالسويد، والتي تدل على وصولهم الى تلك البلدان وربما كانت من اجل شراء الفراء والجلود كما سمح المماليك للتجار الأجانب بدخول بلاد الشام حيث وصلوا بيت المقدس وحلب ودمشق وبغداد<sup>(3)</sup>.

مما يؤكد وجود العلاقات التجارية الخارجية. كما يؤكد ذلك اتهام المماليك لتجار الشوبك الذين انتشروا في الطور بعد اضمحلال مركز عيذاب التجاري<sup>(4)</sup> بالتجسس لحساب الفرنجة في غزة فضيقوا عليهم<sup>(5)</sup>.

ومما ساعد على تنشيط حركة التجارة داخلياً وخارجياً توفير الطرق الآمنة نتيجة تعيين حراس لها زمن المماليك منذ عهد الظاهر بيبرس حيث اسندوا حراستها الى بني عقبة من عرب

(1) ن.م: ص 92.

(2) المقريري: ن م، ج4، ق1، ص 305، يقول "بأن هذا النوع من النقود الذهبية لم ينتشر تداوله إلا بعد 790هـ-1388م". الفلقشندي: م س، ج3، ص 437. د. غوانمه، ن م، ص 92.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخللان، ج1، ص 120-121.

Newton, Trade and travellers of the middle ages, London, p. 125. Setton: A history of the crusaders vol.2, p. 594, London, 1962.

(4) الفلقشندي: م.س، ج3، ص 465، يذكر بأن المماليك اهتموا ببناء الطور لاستقبال تجارة الشرق من الهند والصين بعد اهمالهم لمركزي عيذاب والقصير.

(5) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 12 جزء مكتبة القدسي، القاهرة، 1353-1355هـ، ج3، ص 213، حتى هجموا على الاسكندرية، وخصوصاً الشوابكة متهماً اياهم بمآلة الفرنجة، يقول: بأن يلغا المملوكي ضيق عام 767هـ على النصارى.

الكرك، وبني مهدي عرب البلقاء هذا بالإضافة الى إقامة الخانات لراحة المسافرين والتجار مثل خان العقبة وخان الحسا، وخان القطرانة<sup>(1)</sup>.

## النشاط التجاري والمنشآت التجارية المملوكية

### أولاً: التجارة الداخلية:

اهتم سلاطين الأيوبيين والمماليك بتنشيط التجارة بتأسيس الوكالات<sup>(2)</sup> والخانات<sup>(3)</sup> والفنادق<sup>(4)</sup> والقياس<sup>(5)</sup> والأسواق والموانئ. ولقد كثرت هذه المنشآت في جنوبي بلاد الشام لموقعها الاستراتيجي على طريق الحجاج، والقوافل التجارية بين مصر والشام والحجاز وبغداد، مثل خان الأحمر في فلسطين<sup>(6)</sup>. وخان

(1) د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص 94.

(2) الوكالات: مفردتها وكالة، وهي دار تقوم بمهمة الخزن والتسويق في مختلف المدن الشامية والمصرية لخدمة التجارة الخارجية. فوكيل التاجر يقوم بخزن بضاعته وتسويقها دون تواجده ويسمى "صاحب الوكالة" كما سميت في دمشق (دار الطعم، وصاحبها "شاد دار الطعم"، الذي يعينه نائب الولاية لجني المكوس من التجار. القلقشندي، م س، ج4، ص 193.

(3) الخان: كلمة فارسية الأصل وتعني المأوى أو البيت أو القصر وتدل على المخزن أو المستودع، نعيم زكي فهمي، م س، ص 294، هامش 64، سيشار له فيما بعد (فهمي: طرق التجارة).

N, Ellisseff, Encyclopacdia of, Islam Vo. I, IV, p. 1010.

انظر الملحق خريطة خانات فلسطين في العصر المملوكي ص 212، كتاب سليم عرفات، النقود العربية.

(4) الفندق: كلمة لاتينية الأصل (Pandokoion) وتعني تكديس البضاعة، وفي الإيطالية (Fondachi) وتعني: مبنى ضخم من عدة طبقات حيث يشمل على غرف نوم ومخازن للبضاعة. آدم ممتز: م س، ج2، ص 326. فهمي: الطرق التجارية، 288.

S.D. Goitein, Amederranean Society, University of California Press, Berkelay, Losanglos, California, 1967. vol. 1, p. 27.

(5) مفردتها قيسارية: وهي كلمة لاتينية محرفة عن كلمة (Cesarie) أو Caesarea فهمي: طرق التجارة، 295-296، الريحاوي: خانات دمشق، ص 47، وهي من أصل يوناني وتعني البناء الامبراطوري حيث تعتبر من الاملاك التابعة للدولة.

Gaitein Amaditerranean, Vol. 1, p. 193.

وتعتبر من مخلفات العصر البيزنطي، وخصصت للبضائع الأحيية والمخدرات الثمينة التي يعرضها التجار في غير الأيام المخصصة للسوق، لذا كان فيها شرطة، وكات تقوم بمهمة الأسواق.

والقياسريات: أبنية تقوم بمهمة الأسواق، وهي وجدت في بلاد الشام قبل مصر، وهي عبارة عن حوانيت توجر للتجار وتقوم بمهمة نزل وإقامة التجار بالإضافة للبيع والشراء بالجملة والمفرق، حيث تبني مساكن فوق الحوانيت لتأجيرها للتجار والعامه. د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص 83، هامش رقم 19، ونلاحظ هذا البناء في أسواق البلديات في أبو ظبي قرب المساكن الشعبية.

ماسنيون: التنظيمات الحرفية والمدنية الإسلامية، دراسات المستشرقين ترجمها وعلق عليها: ابراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر، عمان، 1985، ص 61.

N, Elisseff, Khan, p. 1013. (6)

يونس بغزة<sup>(1)</sup>. وخانات شرقي الاردن كخان العقبة، وخان الحساء، وخان القطرانة، والتي قدمت خدماتها للحجاج والتجار<sup>(2)</sup>.

وكانت الخانات تجارية وخانات السبيل كخان السبيل الذي بناه السلطان الظاهر بيبرس في القدس<sup>(3)</sup> والعقبة<sup>(4)</sup> وخان الامير طاجار الدوادر للسبيل (ت 742هـ/1341م) في جنين وكان مقرباً من الملك الناصر محمد بن قلاوون<sup>(5)</sup>. وبالنسبة للأسبلة<sup>(6)</sup> فكانت من الأعمال الخيرية التي يقصد بها التقرب الى الله بتقديمها المساعدات الانسانية حيث انتشرت داخل المدن وخارجها على الطرقات منذ زمن السيدة زبيدة زوجة الرشيد (186هـ/788م) في مكة المكرمة<sup>(7)</sup>.

ووجد في القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي عدد من الأسبلة، و 34 بئر لجمع ماء المطر لخدمة رواد المسجد الأقصى<sup>(8)</sup>.

وقد شاهد كل من ابن جبير وابن بطوطة على طريق الشام-مصر ساقية للسبيل بجانب كل خان<sup>(9)</sup>، وكان يشرف عليه المزملائي<sup>(10)</sup>. كما عرفت الاسواق في جنوب بلاد الشام مهنة السقاية للمارة يقوم بها السقاؤون للتكسب<sup>(11)</sup>.

(1) الفلقشندي، م س، ج4، ص 427.

(2) د. غوانم: تاريخ شرقي الأردن، ص 188-202.

(3) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، قسم تاريخ لبنان وفلسطين، 1962، ص 237. وكان يقدم للحجاج والتجار وفقراء القدس ثلاثة أرغفة خبز وقرطاس، ويقوم باصلاح أحذية المسافرين بواسطة الخراز ومعالجة دواب المسافرين بواسطة طبيب بيطري (بيطار) بالإضافة لطاحون وفرن، وأوقف عليه قيراطاً ونصف من قرية الطرة، لواء الرمثا وقد عمل الباحث مدرساً في مدارسها عام 1962، وثلاث وربع قرية المشرفة من بلد بصرى، ونصف قرية كيفا من أعمال القدس: ابن شداد: ن.م، ص 237.

(4) ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي/ تحقيق فهم شلتوت، مطبعة الخانجي القاهرة، ج1، ص 357، (سيشار له فيما بعد، ابن تغري بردي، الدليل الشافي).

(5) د. غوانم: أيلة، العقبة، ص 129.

(6) السبيل: في اللغة الطريق وردت في القرآن الكريم "من استطاع اليه سبيلاً" سورة آل عمران آية 97، وفي دائرة المعارف الاسلامية وردت معنى عين الماء ليشرب منها الناس بقصد وجه الله. ابن منظور، لسان العرب، مادة سبل، ج11، ص 319. وهيكت، سبل، دائرة المعارف الاسلامية، م8، ص 269.

(7) ابن خلكان: م س، ج2، ص 314.

(8) مجير الدين الحنبلي: م س، ج1، ص 23، علي: مدينة القدس، ص 243.

(9) ابن جبير: م س، ص 233، وابن بطوطة: م س، ص 50.

(10) عاشور: المؤسسات الاجتماعية، م3، ص 359، ذكر الأدوات المستخدمة في السبيل.

(11) الزوربا: الحياة الاجتماعية، ص 296.

ونشط سكان الشوبك والكرك في أعمال التجارة الداخلية والخارجية وخاصة بين مصر والشام والحجاز وجنوب الجزيرة العربية لموقعها الجغرافي المتوسط بين هذه البلدان<sup>(1)</sup> وكان من العوامل التي أدت لنشاط التجارة الخارجية طرق المواصلات الآمنة وعقد الهدنة مع الفرنجة.

### وبالنسبة للأسواق:

فقد كانت الأسواق الشامية تحتفل بالمناسبات الدينية زمن المماليك بتزيين الحوانيت بالفوانيس في رمضان<sup>(2)</sup> ليلاً، ويعاقب المحتسب المفطر في رمضان -حتى وإن كان مسافراً أو مريضاً بتعريضه للاستهزاء وسخرية الأطفال<sup>(3)</sup>.

وكانت بلاد الشام تصدر بعض المواد الغذائية لمصر استعداداً لرمضان كالزيت والفسق والجوز والخرنوب والياسمين<sup>(4)</sup>. كما نشطت الأسواق الأسبوعية واليومية في المدن، حيث كانت تستقبل الفائض من إنتاج أهل الريف بحيث تتم المقايضة بسلع أخرى<sup>(5)</sup>.

كما اعتمد المماليك الأسواق المختصة بنوع السلع كاسواق عجلون النموذجية مثل سوق الجلود وسوق القطانين وسوق الخليع<sup>(6)</sup> وسوق اللحامين وسوق الحنطة وسوق الاقباعين<sup>(7)</sup> وسوق الصاغة والبز العتيق، وحوانيت الخبازين، والطباخين والعلافين وحوانيت

(1) ابن واصل، م.س، ج2، ص 185، ذكر: وكان أرنط صاحب الكرك قد هادن السلطان وسأله فأمنت الطريق بين مصر والشام... وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذهاب والرجاء...". وانظر ابن الأثير الكامل، ج10، ص 142، والمقريري، الخطط، ج1، ص 425، ذكر: "... كانت الطرق إلى الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا أن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء...". وأبو الفداء: تقويم البلدان، ص 247، القلقشندي، م.س، ج3، ص 16. د. غوانه، إمارة الكرك الأيوبية، ص 62-67، زيادة نقولاً: الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1962، ص 265، 271، حيث ذكر: "... حمولة القوافل القادمة من الجزيرة العربية إلى سواحل الشام من طيب وعطور وتوابل الهند والصين والحبشة واليمن لتصل إلى دمشق لمستودع كبير لمتنجات الشرق انظر هايد، تاريخ التجارة، ج1، ص 184.

(2) المقريري: الخطط، ج2، ص 96.

(3) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ص 245، القاهرة 1977.

(4) المقريري: م.س، ن.ص.

(5) هاملتون جب: المجتمع الإسلامي والعرب: ج2، ص 69، 143.

(6) المقريري: الخطط، ن.م، ج3، ص 169.

(7) عمامة من الحرير أو النسيج ماير: م.س، ص 90.

الدق<sup>(1)</sup> والقياس<sup>(2)</sup> التي استخدمها الممالك لاستثمار أموالهم وتبيع بالجملة<sup>(3)</sup> حيث ضمت أيضاً ما يشبه المصانع الصغيرة، وكانت عليها حراسة مشددة. كما ساهم تجار أهل الذمة في النشاط التجاري الداخلي في المواسم والأعياد حول معظم الكنائس والديارات<sup>(4)</sup> في بلاد الشام أثناء قدوم حجاج النصارى إلى مدينة القدس<sup>(5)</sup> لوجود كنيسة القيامة فيها، حيث تركزت تجارة المجوهرات الثمينة والثياب الفاخرة<sup>(6)</sup> والملونة والخمور<sup>(7)</sup> والرقيق<sup>(8)</sup> وأعمال الصرافة التي قامت مقام البنوك في الأعمال التجارية<sup>(9)</sup>

ودور سك النقود<sup>(10)</sup> في أيدي تجار النصارى واليهود<sup>(11)</sup>. ومن الجدير بالذكر هنا مساهمة بعض التجار النصارى في مساعدة الفرنج على المسلمين<sup>(12)</sup>. بالإضافة إلى ذلك فإن الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجودة في الشرق الأدنى إلى جانب عملات أوروبا. وكانت العملة الرئيسية في البلاد قبل الغزو الصليبي هي العملة المصرية أي الدينار الذهبي<sup>(13)</sup> والدرهم

(1) الدق: بقايا بذور الزيتون والشمس المتفحمة نتيجة حرقها في الأفران، د. يوسف غوانخ، م.س، ص 83.

(2) القياس: أبنية تشبه الفنادق وتقوم بالإضافة إلى ذلك بمهمة الأسواق. المقريري: ن م، ج3، ص 144، وإبراهيم طرخان: دولة الممالك الحاكمة، ص 368، ومن أمثلتها قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر وقيسارية تنكيز في عجلون وتبعها وكالات مثل دار الطعم "وكالة للتجار الأجانب كالفنادق اليوم". المقريري: ن م، ج3، ص 144، وإبراهيم طرخان، ن.م، ص 368.

(3) ابن طولون: مفاتيح الخلافة، ج1، ص 281-287. د. سعيد عاشور: العصر المملوكي، ص 20.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 147، في جبل الطور المشرف على طيرية ببقعة واسعة محكمة البناء مرتفعة الأرجاء يجتمع في كل عام بحضرتها سوق.

(5) السيد، القدس في العصر المملوكي، ص 208، غوانخ، دراسات، ص 235.

(6) Goitein, Studies in Islamic History, p. 261, 262.

(7) Adler, Jewish Travellers, p. 147.

(8) متر: م.س، ج2، ص 158.

(9) متر: ن.م، ج2، ص 333.

(10) Goitein, Studies in Islamic History, p. 262.

(11) لايندوس، مدن إسلامية، ص 202، ذكر دور الصيارفة في تعيين النسب المتعلقة بالأسعار زمن الممالك هذا وقد أورد المغربي شعراً كدليل على نفوذ اليهود التجاري في العهد المملوكي:

غاية آمالهم وقد ملكوا  
ومنهموا المستشار والملك  
تهودوا فقد تهود الفليسك

يهود هذا الزمان قد بلغوا  
المال فيهم والجاه عندهم  
يا أهل ذا العصر قد نصحت لكم

المغربي: عبد القادر، يهود الشام، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق تشرين ثاني (نوفمبر)، 1929، م، ج9، ص 111، ص 610.

(12) فائز حجازي: م.س، ص 126 "ذكرت... فقد احتال التاجر النصراني العفيف موسى الشوبكي في أيام دولة الملك المنصور قلاوون بترده على عكا صادراً وولداً إلى أن نقل إلى عكا كمية كبيرة من غلال السلطان وغلال بعض الأمراء وكان ذلك إعانه منه إلى الفرنج".

(13) لفظة الدينار مشتق من اللفظ اليوناني اللاتيني Denarius-Aureus وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب. وقد عرف العرب هذه العملة الرومانية وتعاملوا بها قبل الإسلام وبعده. وقد أشار إليها القرآن الكريم في سورة آل عمران (آية 57): "ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقطار يؤده إليك، ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك". هذا ومن المعروف أن الوزن الشرعي للدينار الإسلامي هو 4.25 جرام من الذهب الخالص وكان عياره 23.667 قيراط، لمزيد من التفاصيل عن الدينار والدرهم، انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 232-235.

الفاطمي. وكانت هذه العملات تختلط لا سيما في المدن البحرية بعملات أوروبا وبلاد ما بين النهرين، بل وعملات فارس. وكانت كميات من مثل هذه العملات لم تكن مدخرة، ترد الى دور السك الخاصة بالنقود الفرنجية من خلال الضرائب، بيد أنها ظلت متداولة بعد الغزو<sup>(1)</sup>. ومن درهم تركب الرطل<sup>(2)</sup> والقدرح<sup>(3)</sup> والصاع<sup>(4)</sup> والمد<sup>(5)</sup>.

### وبالنسبة للأوزان فكانت:

- 1- الرطل: لقد اختلفت أوزان الرطل من منطقة الى أخرى مقدراً بالدرهم فكان في الأردن مثلاً يساوي 1200 درهم في عجلون و 900 درهم في الكرك<sup>(6)</sup>، وكذلك في فلسطين، وكان في غزة 720 درهم، وفي لاقنس والخليل ونابلس 800 درهماً وفي عكا أكثر من 1200 درهم<sup>(7)</sup>. فكان أثقلها رطل عكا وأخفها رطل دمشق.
- 2- الأوقية: كان كل رطل يساوي اثنتي عشرة أوقية<sup>(8)</sup>. وما زالت هذه الأبطال في قرى شمالي اربد حتى اليوم.

(1) براور: م.س، ص 224.  
(2) الرطل: بكسر الراء وفتحها من الأوزان التي عاشت في ديار العرب منذ عهد الجاهلية - النقود العربية - الأب استاس ماري الكرمللي. قال في اللسان: الذي يوزن به ويكال - رواه ابن السكيت بكسر الراء قال ابن احرر الجاهلي:  
لها رطل تكيل الزيت فيه وفلاح يسوق بها حمرا، وقال ابن الاعرابي: الرطل يساوي اثنتا عشرة أوقية بأوقاي العرب، والأوقية اربعون درهماً فذلك اربعمائة وثمانون درهماً، وجمعه أرطال، والأوقية: أربعة مثاقيل، والمثقال: درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ثمانية دوايق، والدائق قيراطان، والقراط: طسوجان، والطسوج: حبتان والحية حبة الحنطة "الكلام للسيوطي"، والرطل: تعريب اليوناني Litra ومثله في الرومي وقد اتفق جميع علماء اللغة من الغربيين على هذا الرأي وكذلك فريق المستشرقين. الأب الكرمللي: النقود العربية، ص 38-39.  
(3) القدرح: قال صاحب اللسان: آنية للشرب وجمعها أقدرح، والقدرح باللاتينية cadus وهي من اليونانية xádō5 بمعناه. وكان أصل معناه موضوعاً للسوائل، (الكرمللي، ن.م، ص 39) ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (ت 630هـ/1232م)، لسان العرب، ج9، طبعة مصورة عن بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص 83، فصل من حرف الدال.  
(4) الصاع: مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد يذكر ويؤنث وجمعه أصواع وصيعان، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالماء وضاع النبي (ص) بالمدينة أربعة أمداد بمدهم المعروف عندهم، قال ابن الاثير والمد مختلف فيه فقيل هو رطل وثلاث بالعراقي وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز فيكون الصاع خمسة أرطال على رأيهم وقيل هو رطلان وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق. فيكون الصاع ثمانية أرطال على رأيهم. ابن منظور: م.س، ص 83، فصل الصاد، حرف العين.  
(5) ويقال على المد ما قلناه على الصاع. فالمد ينظر الى اللاتينية Modius أو Modium وهو عند الرومان مكيال للسوائل والجوامد، ثم اطلق عندهم على المكيال وهو ربع صاع وهو قدر مد النبي (ص) والصاع خمسة أرطال والجمع أمداد ومداد ابن منظور: ن.م، فصل الميم حرف الدال. ص 406.  
(6) ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي، (ت 1928/729) معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص 137-138، والشيزري: م.س، ص 15-16.

(7) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 164-165.

(8) المقدسي: ن.م، ص 165.

## وأما المكايل فكانت:

- 1- الكياجة وتساوي صاع ونصف<sup>(1)</sup>.
  - 2- المكوك: ثلاث كياج، أي 4 ساعات ونصف وكان لا يستعمل إلا في كيل السلطان<sup>(2)</sup>.
  - 3- الويبة: مكوكان: أي تسع ساعات وتساوي ست كياج<sup>(3)</sup>.
  - 4- القفير: أربع وبيات أي ست وثلاثون صاعاً<sup>(4)</sup>.
- وقد استخدم أهل الرملة في فلسطين هذه الأوزان والمكايل بينما استخدم أهل القدس المدي: وهو ثلث القفير أي اثني عشر صاعاً<sup>(5)</sup>، والقب: وهو ربع مدي أي ثلاث ساعات<sup>(6)</sup>.
- كما استخدم أهل عمان المدي ويساوي ست كياج أي تسع ساعات والقفيز الذي كان يساوي نصف كيلجة أي 75% من الصاع<sup>(7)</sup>، وكانوا يبيعون به الزبيب والقطين (التين المجفف).
- هذا وقد اختلفت الأوزان في بلاد الشام، حيث كان لكل مدينة وزناً خاصاً بها كالرطل<sup>(8)</sup> العجلوني، والرطل الكركي. وكان الرطل يساوي 12 أوقية<sup>(9)</sup> وأوقية عجلون تساوي 100 درهم وأوقية الكرك تساوي 75 درهماً. وبالنسبة لأوزان الذهب فكانت: المتقال والدرهم والدانق والقيراط<sup>(10)</sup>.
- هذا وما زال الريف الأردني يستعمل الكيل، والمد، والصاع، حتى الوقت الحاضر<sup>(11)</sup>.

(1) ن.م، ص 181، ص 64-65، والقلفشندي، م.س، ج4، ص1، ج8، ص 216.

(2) ن.م، ن.ص.

(3) والكيلجة صاع ونصف، ن.م، ن.ص.

(4) ن.م، ن.ص.

(5) ن.م، ن.ص.

(6) ن.م، ن.ص.

(7) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص 11-12، سترانج: م.س، 197، ص 64-65.

(8) الرطل: اثنتا عشرة أوقية والأوقية من خمسين درهم إلى بضع وأربعين، ورطل قنشرين 8 أوقيات، المقدسي: م.س، ص 165، واستمر استخدام الرطل حتى اليوم واستبدل به الكيلو غرام من عشرين عام بينما لا زال الفلاحون والقرويون يستخدمون، الرطل حتى اليوم. يعود الأصل اللغوي للرطل إلى اللغة البيزنطية Litra والأوقية أيضاً Quggia نتيجة الحكم البيزنطي لهذه البلاد. العدوي: إبراهيم أحمد، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مطبعة لجنة البيان العرب، القاهرة، 1957، ص 123.

(9) الشيزري: م.س، ص 16. بالنسبة للوزن كان الدرهم ستون حبة شعير، والدانق عشر حبات والقيراط ثلاث شعيرات ونصف والدينار أربع وعشرون قيراطاً أي = 84 حبة شعير، المقدسي: ن.م، ن.ص.

(10) كان المتقال يعادل درهماً ودانقان ونصف = 24 قيراطاً، أما القيراط يعادل 3 حبات وأربعة أسباع حبة ويساوي المتقال 85 حبة وخمسة أسباع حبة وزن كل منها خمسة من حبوب الخردل المعتدل والدرهم الإسلامي يعادل ستة دنانق: ابن الاخوة م.س، ص 81-82.

(11) فالمد = 2 صاع، والصاع = 2 ربيعة، والربيعة = 8 مثنية وهي الوحدة الصغرى للمكايل حسب العرض والعادة في الريف الأردني. ويستخدمها أهل شرقي الأردن للحبوب والأشياء اليابسة كالزبيب والقطين (التين المجفف) وقد شاهدها الباحث أثناء استخدام والده لها في الخمسينات وما زالت محفوظة في بيته حتى هذه اليوم.



وفي مجال المقاييس استخدم السكان هنا "الذراع" لقياس القماش وهناك ذراع العمل<sup>(1)</sup> لقياس أراضي المنازل والدور، كما قاسوا الأراضي الزراعية بالفدان الاسلامي<sup>(2)</sup> والفدان الرومي<sup>(3)</sup> وكذلك القصبة التي تساوي 7.5 ذراع حديد<sup>(4)</sup>.  
ويلاحظ أهمية معرفة الأوزان والمقاييس الأخرى لعلاقتها بالنقود وبالنصاب الشرعي ولتقدير الحالات الاقتصادية وتفهم الحوادث التاريخية، وكان هذا من واجب الحسبة "البلدية اليوم" والتي من واجبها مراقبة العيارات في الأوزان لقوله تعالى: "واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" ويقول: "ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون"<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> ذراع العمل: ويساوي ثلاثة اشبار رجل معتدل وهناك ذراع أطول منه تسمى بالهاشمي استخدم زمن الدولة العباسية. وذراع القماش

يساوي ذراع اليد وأربعة أصابع مطبوقه. القلقشندي: م.س، 14 جزء، القاهرة، مطابع كوسني توماس 1963، ج3، ص 442-443.

<sup>(2)</sup> القلقشندي: ن.م، ج3، ص 442، الفدان = 400 قصبة أو 24 قيراطاً والقصبة = 6 اذرع هاشمي، أو 8 أذرع يدوية.

<sup>(3)</sup> القلقشندي: ن.م، ج4، ص 241.

<sup>(4)</sup> وثيقة وقف السلطان الأشرف شعبان رقم 49 بدار الوثائق القومية بالقاهرة ويلاحظ منها أن الكرك كانت تستعمل ذراع الحديد

وطوله بين الذراع الهاشمي وذراع اليد.

<sup>(5)</sup> سورة المطففين، آية 3.

## ثانياً: التجارة الخارجية

### لمحة تجارية:

لقد ساعد موقع بلاد الشام الاستراتيجي وسيطرتها على عدد من أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب والذي ساهم بنجاح تجارة العبور "الترانزيت" مع العلم بأن الشريعة الإسلامية سمحت بممارسة التجارة مع البلدان غير الإسلامية في تصدير واستيراد السلع<sup>(1)</sup>.

وقد قام التبادل التجاري بين المسلمين وأوروبا المسيحية في مرحلة مبكرة من العصر الإسلامي وخاصة مع شرق أوروبا (الدولة البيزنطية) لأن غربها الكاثولوكي ساد النظام الاقتصادي الزراعي القائم على النظام الإقطاعي، وعندما قامت النهضة التجارية في غرب أوروبا امتدت آثارها إلى الشرق الأدنى مع المسلمين للحصول على السلع الشرقية وتصدير ما يحتاجه المسلمون من سلعهم وتمثل بداية ذلك النشاط في مدينة البندقية الإيطالية كأقرب موانئ غرب أوروبا للشرق عبر البحر المتوسط، وتفوقها فيما يتعلق باقتصاديات نظام المدن والتجارة ولحاجة هذه المدن للبحث خارج حدودها عن موارد اقتصادية إضافية يُعتمد عليها بجانب مواردها المحلية التي لا تغطي متطلباتها، ثم ازداد نمو التعامل التجاري بين الشرق والغرب في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد وقامت حركة الاستيراد في إسبانيا وكورسيكا وسردينيا وصقلية، فأخذت أساطيل الغرب تتوافد إلى الموانئ الإسلامية في مصر والشام كسفن البنادقة وجنوة ومرسيليا وذلك قبل الحركة الصليبية.

ولكن مع وصول الصليبيين للشرق ونجاحهم في تأسيس مملكاتهم في بلاد الشام وصل المد الغربي إلى شرقي البحر المتوسط، وانتقلت السيطرة التجارية على البحر الميت من أيدي المسلمين إلى الأساطيل الفرنجية<sup>(2)</sup>.

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ط3، القاهرة، 1982م، ص 188-190. حيث أورد تحريم الشريعة الإسلامية تصدير مواد حربية إلى دار الحرب التي تساعد الأعداء ضد المسلمين وحرمت على التجار الأجانب إحضار وبيع السلع المحرمة كلحم الخنزير والخمور كما فرضت رسوم على بضائع التجار الأجانب عرفت باسم العشور.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 201-202. وقد علق على تحول السيطرة على البحر المتوسط كما عرض لعهد صلاح الدين وجهوده لاسترجاع ثغور الشام من يد الفرنجة: "... تنابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية، فأمدوهم بالعدد والأقوات ولم تقاوم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين منذ زمن طويل، عن ممانعتهم هناك، ولم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه...". انظر مختار العبادي: والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، 1972م، حيث أوردوا المزيد من التفاصيل.

وقد ساهمت الحركة الصليبية في زيادة التعامل التجاري بين المسلمين والفرنجة حيث زادت معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه فأقبلوا عليها بنهم زائد كالتوابل والبهارات المختلفة لاعداد المأكولات كالقرفة والقرنفل وجوز الطيب والزنجبيل وكذلك السلع اللازمة لصناعة العقاقير مثل الأعشاب، وأخشاب البخور والعطور والحريير والأحجار الكريمة والخزف، هذا فضلاً عن السلع المنتجة في البلاد الإسلامية المجاورة للامارات الصليبية في الشرق الأدنى، بالإضافة الى حاجة المسلمين لاستيراد سلع معينة من الغرب كالأخشاب ومعادن الحديد والنحاس وبعض الاسلحة والرقيق الذي أتى به التجار المغربيون.

اقتضت الضرورة التعامل التجاري بينهما مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن باستطاعة أحد الطرفين الانفراد بالتجارة واحتكارها دون الطرف الآخر، حتى ذهب البعض بقوله بوجود نوع من التكامل في التبادل التجاري بينهما<sup>(1)</sup> إلا أن مهمة نقل السلع من سواحل بلاد الشام ومصر الى موانئ الغرب أو بالعكس استأثرت بها الأساطيل الفرنجية.

وأما السلع الشرقية من جنوب شرقي آسيا فكانت تنقل من منشئها في الشرق الأقصى وشرق إفريقيا الى الشرق الأدنى الإسلامي الواقع تحت سيطرة المسلمين الذين ينقلونها براً الى موانئ بلاد الشام على البحر المتوسط أو بحراً عن طريق المحيط الهندي الى اليمن (ميناء عدن) لتواصل مسيرتها الى البحر الأحمر الذي تنقل منه البضائع الى الموانئ المصرية على البحر المتوسط وخاصة الاسكندرية، ولهذا فكر الغربيون في الاستيلاء على البحر الأحمر فارسلوا المزيد من الحملات الصليبية بغرض الاستيلاء عليها والتحكم في هذا الطريق وهذا ما يدفعنا الى الجزم بالقول عن محاولة ارنات "أمير الكرك الفرنجي" للاستيلاء على ميناء أيلة "العقبة" على البحر الأحمر كمؤشر واضح لكسر احتكار المسلمين لطريق البحر الأحمر أكثر منه مجرد محاولة لتهديد الأراضي المقدسة في الحجاز عام 578هـ/1185م، ويفسر هذا حرص المسلمين على منع الصليبيين من الوصول للبحر الأحمر الذي وضع من موقف صلاح الدين الحاسم تجاه هذه المحاولة<sup>(2)</sup>.

وهكذا نرى من الشواهد الحية حرص كل من المسلمين والفرنجة على نجاح التعامل التجاري بينهما<sup>(3)</sup>، بالرغم من العداء السياسي والحروب، والتعصب الديني والعنصري لديهم

(1) د. عمر كمال: م.س ص 99 (هذا رأي الدكتور).

(2) أبو شامة: م.س، ج2، ص 35-37، في أحداث سنة 578هـ/1182م، إذ أمر صلاح الدين نائبه أخيه الملك العادل بإعدام كافة

الأسرى أثناء قيامهم بتلك المغامرة.

(3) رنسيان: م.س، ص 599-600.

وذلك سعياً وراء الأرباح الوفيرة<sup>(1)</sup>، على الرغم من معارضة البابوية وانصارها للتجارة مع المسلمين<sup>(2)</sup> خوفاً من مساعدتهم في بناء قوتهم والتي لم توقف النشاط التجاري مع المسلمين ثم نضيف بعد ذلك شواهد على التعامل التجاري بين المسلمين والفرنجة ومن هذه الشواهد: رسالة السلطان صلاح الدين الأيوبي الى الخليفة العباسي المستعين بالله يوضح فيها أهمية التجارة مع اعدائه من البنادقة والجنوية والبيازنة (بيزا)<sup>(3)</sup>. ورسالة السلطان قلاوون 1276/678م للقاضي جمال الدين بن بصاصة، ناظر ثغر الاسكندرية يوصيه فيها بالحرص على حسن معاملة التجار الواردين اليها<sup>(4)</sup> فعقدوا المعاملات التجارية بينها لتتيح لتجار الطرفين ممارسة نشاطهم التجاري بحرية وأمان وسهولة تنقل<sup>(5)</sup>، كما نصت المعاهدات على الرسوم الجمركية والابقاء عليها دون زيادة<sup>(6)</sup> وتأمين حق التاجر اذا مات في بلد الطرف الآخر<sup>(7)</sup>.

كما نصت المعاهدات على السلع الممنوعة والمحظور التعامل بها أو نقلها الى البلاد الاسلامية وبالعكس والاجراء المتخذ ضدها<sup>(8)</sup> كما وصف المؤرخ وليام الصوري تجارة الترانزيت بين المسلمين والصليبيين<sup>(9)</sup> ووصف النشاط التجاري الرحالة اليهودي بنيامين التيطلي الذي كان له نظره عميقة في الأمور التجارية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد<sup>(10)</sup>.

(1) ابن جبير، م.س، ص 260-261، الذي زار الشرق الأدنى في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد. والذي قال: "واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك، وتجارة النصارى لا يمنع أحد ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم كما يؤدي تجار النصارى بكافة بلاد المسلمين.. فالامن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلباً وحرباً وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفي الحديث عنه". كما ذكر رواية أخرى توضح مدى النشاط التجاري في ص 281.

(2) وغير ما يصور ذلك قول البنادقة: "لنكن بنادقة أولاً ومسيحيين ثانية"، د. عمر كمال، م.س، ص 106.

(3) القلقشندي: م.س. ج 13، ص 8، يقول صلاح الدين: "كل هؤلاء تارة لا تطاق وضرورة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يجهبون سفاراً يتحكمون على الاسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهونة، وما بينهم الآن إلا من يجلب الى بلدنا آلة قتالة... وكلهم قد تقرررت معه المواضعة وانضمت معه المسألة، على ما يزيد ويكروهون ونؤثرون ولا يؤثرون".

(4) ن.م، ج 11، ص 41-42، ص 421-420.

(5) ن.م، ج 14، ص 46، ذكر فيها معاهدة بيبس مع الاستبارة بمدينة لد 661هـ. ومعاهدة بيبس مع الاستبارة.

(6) ن.م، ج 14، ص 41 (من معاهدة بيبس مع ملكة بيروت 667هـ/1269م).

(7) المقريري، السلوك، ج 1، ص 992، (من معاهدة قلاوون مع فرنج عكا 682هـ/1283).

(8) ن.م، ج 1، ص 990.

(9) القلقشندي: ن.م، ج 3، ص 408.

(10) William of Tryre, 11, 336.

ومن أوجه التجارة الخارجية في جنوب بلاد الشام:

ما تمتعت به جماعات الرهبان المحاربيين والتابعين للبابوية مباشرة كالدأوية والاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) بموارد اقتصادية ضخمة عن طريق الهبات المسيحية وتحكمهم في عدد من الحصون والقلاع المشرفة على طرق التجارة بين المدن الكبرى بفرضهم رسوماً على القوافل التجارية، بالإضافة لعمل بعض الرهبان بأعمال الصيرفة المربحة، واتجهوا الى شراء المزيد من الأراضي نتيجة هذه الأرباح الطائلة فأصبحوا يملكون اقطاعات ضخمة وعدداً من أهم القلاع والحصون والمدن<sup>(1)</sup>. مما نتج عن أطماعهم الشخصية والمنافسة على الربح والملكية تحالف بعضهم مع الامارات الاسلامية ضد الأخرى خلال القرن الثالث عشر الميلادي. هذا بالإضافة الى استعانة الصليبيين بالمدن التجارية الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية والبروفنسالية في جنوب فرنسا (أقليم بروفنس) لعدم توفر الأساطيل اللازمة.

وقد ساهم الإيطاليون<sup>(2)</sup> في نجاح هذه التجارة بالإضافة الى موقع فلسطين الاستراتيجي على البحر المتوسط مما جعل الصليبيون يستفيدون من هذا المركز التجاري الممتاز لجمع الثروة فعملوا على اصلاح الموانئ الفلسطينية وبناء مستودعات التخزين الكبرى. كما كان هدف البنادقة أيضاً الربح والكسب بتدعيم وجودهم التجاري على سواحل بلاد الشام واشتركوا مع الصليبيين في احتلال الموانئ الشامية حيث ساهموا بسفنهم في نقل الجنود والعتاد والحجاج من موانئ أوروبا الى موانئ مصر والشام<sup>(3)</sup> وبهذا حصل (البنادقة) على امتيازات تجارية مقابل مساعدتهم الحربية كحقهم في الإقامة بأحياء خاصة بهم في بيت المقدس واشراقهم على الفنادق ومخازن الحبوب والطواحين والحمامات واعفائها من الضرائب والمكوس مع حقهم في استخدام مكابيلهم ومقاييسهم وموازينهم<sup>(4)</sup>

بالإضافة الى حصولهم على مبلغ 300 بيزانت سنوياً ومنحهم محاكم خاصة بهم<sup>(5)</sup> وهكذا كان موقف البنادقة من الحروب الصليبية تحت شعار الربح والخسارة، من حيث عدم اهتمامهم

(1) د. عمر كمال، ص 83.

(2) كأهل جنوة والبنادقة، وأهل بيزا "جماعة البيازنة". انظر: روبرت لوييز، التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب"، ترجمة توفيق اسكندر في كتاب يشمل على خمسة بحوث مزججة باسم "بحوث في التاريخ الاقتصادي" القاهرة 1961م، ص 175-176. حيث يذكر قول جيمس الفيتري "ان أهمية الإيطالية لا تقتصر على دورهم في الحروب وإنما أيضاً في نقل السلع والتاجر والحجاج والمون والأسلحة الى الأراضي المقدسة.

(3) انظر: ارشيبالور لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط، ترجمة احمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق

غريبال، القاهرة، 1960، ص 383. William, The Tyre: vol. 1, p. 554.

(4) فولكر من كاترس، ص 240، 245، 270، William of Tyre, vol.1, pp. 552-560.

(5) William of Tyre: Ibid pp. 552-560

بالباعث الديني الا بالقدر الذي يحقق مصالحهم التجارية فكانوا يقولون: "نحن بنادقته أولاً ومسيحيون بعد ذلك" (1) وقد حصل الجنويون (2) والبيازنة (3) على نفس الامتيازات والحقوق من ملوك الصليبيين أيضاً.

ويلاحظ على الجنويين والبيازنة سياستهم المزدوجة "ذات الوجهين" بالنسبة للأيوبيين في مصر عام 1171م (4).

حيث رأوا أن مصالحهم مساندة الصليبيين ضد المصريين مع الحرص على مصالحهم التجارية في مصر بالابقاء على العلاقات الطيبة مع مصر قدر الامكان (5). وقد صدر الصليبيون الزجاج والأواني الزجاجية المذهبة والمطلية (6) بالمينا من مصانع عكا والخليل ودمشق وطرابلس وانباطكية والتي مازالت تحتفظ بها متاحف أوروبا (7). ويلاحظ صغر الكميات الضئيلة المصدرة من زيت الزيتون (8) الى أوروبا لأن النبيذ والخمرة كان أكثر أهمية بالنسبة للأوروبيين.

أما تجارة الفراء وجلود الحيوانات السيبيرية (9)، فقد كانت تمر عبر سوريا الى أوروبا. وأما البضائع المستوردة من أوروبا للعالم الاسلامي فكانت خيوط النسيج الوارد من شمالي فرنسا وإنجلترا بالإضافة للمعادن (10) والسروج والأسلحة والمعدات مثل الخوذ والسيوف والرقيق (11) كما صدرت أوروبا لحم الخنزير للمستوطنات الصليبية في بلاد الشام (12).

(1) صبحي ليث، سياسة مصر التجارية، ص 126، وجوزيف نسيم يوسف: م.س، ص 80.

(2) ابن القلانسي، م.س، ص 139. William of Tyre, vol. I, p. 353-380 حيث حصلوا على ثلث دخل ميناء عكا أيضاً وبناء كنيسة خاصة بهم.

(3) Jonathan Smith, "Government in Latin Syria", p. 110.

(4) القلقشندي: م.س، ج 5، ص 44، وحسن حبشي: نور الدين ص 147، عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 840-841.

جوزيف نسيم، ن.م، ص 88.

(5) جوزيف نسيم، ن.م، ص 88.

(6) لقد كان اليهود يحتكرون هذه البضاعة بالإضافة لصناعة الأصباغ ودباغة الجلود. Runciman, 111, 353

(7) Conder, Jerusalem, p. 334.

(8) Runciman, 111, p. 353

(9) مثل القندس والسنجاب والقط الوحشي، Conder: Jerusalem, p. 332

(10) كالحاس والرصاص والزئبق والحديد، Mayer, Ibid, p. 176.

(11) Ibid, p. 146

(12) وكان التجار المسلمون يأفون حمل لحم الخنزير المحرم شرعاً كذلك صدرته أوروبا مباشرة للصين. Mayer, Ibid, p. 146

أعتمدت التجارة الخارجية زمن الصليبيين على المنسوجات<sup>(1)</sup> وتوابل وعطور الشرق التي كانت تصل الى الموانئ الشامية براً وبحراً ومنها الى اوروبا عبر البحر المتوسط بما يشبه تجارة اعادة التصدير لسلع الهند والصين وجزر الباهاما المشهورة بتوابلها. وقد رافق المنسوجات الشرقية المصدرة الى الغرب أدوات الزينة والأحجار الكريمة من زمرد زبرجد وياقوت وعاج ومواد الصباغة والأخشاب<sup>(2)</sup>. بالإضافة الى العطور وكافة انواع البخور المستخدم في الطقوس الكنيسية<sup>(3)</sup> والسكر الأردني من المستوطنات الصليبية الأخرى والأدوية الشرقية المستخدمة في الطب العربي<sup>(4)</sup> حتى قيل إن معظم ما استهلكته اوروبا بالقرنين 12، 13م، كان من المستوطنات الصليبية في بلاد الشام<sup>(5)</sup>.

وبالنسبة لصالح الدين الايوبي فقد ربط بين حركة التوسع الصليبية في المنطقة وبين المصالح التجارية<sup>(6)</sup>. كما أدى هذا التنافس والجشع التجاري بين هذه الجاليات الى نزاع مسلح في مدن فلسطين بالساحل الشامي وخاصة مدينة عكا كما حدث عام 1249م من الجنوية والبيازنه ثم امتد من 1256 الى 1276<sup>(7)</sup>. كما استعانت الجاليات الايطالية بالبابوية التي ساعدتهم كثيراً انطلاقاً من تبادل المصالح<sup>(8)</sup>.

ويرى الباحث ازدياد أهمية موانئ جنوبي بلاد الشام في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حيث أصبحت عكا ميناءً لدمشق<sup>(9)</sup>. وأدى ذلك الى قيام الحملة الصليبية الثانية عندما اصدرت بعض البابوات قراراً بمقاطعة مصر اقتصادياً لاختصاصها بعد تأكدهم من

(1) كالاطلس العربي "Atals" من الساتان والتفتاه من فارس والساتان والبطاطين من الشرق الأدنى والبيكرم من بخارى والكامليون: وهو نوع من اللباس يصنع من وبر الجمال وربما كان من المخمل "Lescamelets" أي المنسوجات المخملية من مدن الشام كلها والكوز من غرة والموسلين من الموصل: أنظر Barker, The Crusades, p. 60

والقمش المصنوع من القطن والكتان اللذان يزرعان في سهل فلسطين بينما كانت صور وطرابلس مركزاً للحريز، هذا وقد ميز تلك الملابس ألوانها الزاهية، كما ميزت تلك الالوان الثياب الكنسية والملكية وثياب الأمراء وكبار القوم، انظر: براور، عالم الصليبيين، ص 232-233.

(2) Runciman, III, pp. 354-355. وأما النيلة وحجر الشب

Pirenne, (H.). Economic and Social History of Midival Europ, London, 1937, p. 145.

Runciman, Ibid, Crusades, p. 176.

(4) كالتمر الهندي، وزيت الخروع والنشادر والسنامكه والزعفران والصبغ العربي.

Runciman, A Hisory of the Crusades, vol. III, p, 354.

(5) الادريسي: م س، ج5، ص 266، والنقاش: العلاقات، ص 181، والأفيون وهو المسكن الوحيد في ذلك العصر.

Mayer, The Crusades, p. 176.

(6) أبو شامة، م س، ج1، ص 234، وقد ورد ذلك في رسالة للخليفة العباسي حيث وصفهم بأنهم "نارة يكونوا غزاة ونارة يكونوا اسفارا (أي تجاراً)".

Conder, Jerusalem, p. 365.

(7) د. عمر كمال: م.س، ص 86. Mayer: The Crusades, p. 173

(8) براور: م.س، ص 164.

(9) Runciman, III, pp. 354-355

وصول النجذات العسكرية والامدادات منها الى بلاد الشام والى سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في ايدي اللاتين 602هـ / 1204م الذي أدى لازدياد الحركة التجارية في الموانئ الشامية.

ولم تستطع مصر استرداد مكانتها التجارية في الموانئ الشامية بين الشرق والغرب إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي زمن المماليك، الذين شجعوا التجارة في موانئ الدلتا وحموا تجارة الكارم<sup>(1)</sup> بعد احتكارهم للتجارة الشرقية طوال القرن الرابع عشر حيث كانت السفن الايطالية تنقلها الى اوروبا.

وبالنسبة للرسوم الجمركية الصليبية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي فقد تراوحت ما بين 4.16-11.2% من قيمة البضائع المستوردة للاستهلاك المحلي، وكانت تجبى في ميناء عكا<sup>(2)</sup> وصور على البحر المتوسط اضافة لميناء يافا الصغرى بينما وصلت الى 25% في بعض الأحيان على البضائع المستوردة للاستهلاك المحلي.

أما طريقة تفرغ البضائع فكانت بواسطة السلالم أو ألواح الخشب المحمولة على ظهور الجمالين من الجنسين الاوروبي والاسيوي والدعروفين باسم بولاني لوضعها على الارصفة الضيقة المزدحمة<sup>(3)</sup>. وما زالت هذه الطريقة القديمة تستخدم في قرى بلاد الشام لتحميل الغلال الزراعية في الشاحنات والسيارات.

(1) الكارم: تجارة التوابل والسلع من الهند والشرق الأقصى عبر المحيط الهندي، انظر: ابن جبير، م.س، ص 69-70، ج3، ص520، ص457، القلقشندي: م.س، ج3، ص 457، 520.

(2) Mayer, The Crusades, p. 163, Runciman, III, p. 353  
وابن جبير، ن م، ص 211، حيث قال في وصفه لميناء عكا: "هي قاعدة الانرج بالشام ومحط الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، وشبهها بالقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في كونها يجتمع السفن والرفاق وملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق". كما كانت عكا أيضاً الميناء الطبيعي لاقليم دمشق الذي يتجه اليه تجار اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية. Runciman, Ibid, p. 358.

بنيامين التطلي: م.س، ص 92، حيث يقول: "ليس في بلاد الدنيا ما يماثل هذا الميناء وشاهد عدد السفن عند زيارته لميناء عكا بـ احدى وثمانين سفينة.

(3) براور: عالم الصليبيين، ص 220.



## التجارة الخارجية المملوكية:

ومما ساعد على نجاح موقع جنوب بلاد الشام وفلسطين والاردن الاستراتيجي في وقت الحرب والسلام على مر العصور وخاصة في العصور الوسطى حتى يومنا هذا، لأنها كانت صلة الوصل بين الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية من جهة وبين مصر من جهة أخرى، فقد مثل شمالي الاردن الطريق الرئيسي بين فلسطين وبلاد الرافدين كما هو الحال اليوم كما وصلهما مع مصر من جهة أخرى<sup>(1)</sup> وكانت هذه القوافل التجارية تشكل ما يشبه اليوم تجارة العبور "الترانزيت".

أما جنوبي الأردن فقد كان وما زال يصل شبه الجزيرة العربية بدمشق ومصر حيث ينقسم الى فرعين أحدهما نحو الساحل الشامي والآخر نحو العقبة ف الساحل البحر الأحمر فالسويس<sup>(2)</sup> بالإضافة لطرق الحجاج المسلمين كمنفذ وحيد، والقادمين من بلاد الشام وإيران والعراق علماً بأن قوافل الحج كانت محملة بالبضائع المختلفة والمعادن الثمينة من الأحجار الكريمة واللؤلؤ<sup>(3)</sup>.

لما شجع سلاطين العصر الأيوبي والمملوكي التجارة الخارجية عن طريق عقد الهدنة والاتفاقات التجارية مع المماليك الصليبية والدول الغربية<sup>(4)</sup> وبعد تحرير العالم الاسلامي من الاحتلال الصليبي استمرت حركة التجارة مع العالم الاسلامي في بلاد الشام<sup>(5)</sup> على الرغم من تحريم الكنيسة البابوية الاتجار مع الدولة المملوكية الاسلامية<sup>(6)</sup>.

وقد تعرضت بعض القوافل التجارية المتجهة الى بلاد الروم الى نهب وسلب من قبل التركمان على الحدود الاسلامية البيزنطية<sup>(7)</sup>، كما ساهم تجار الكرك والشوبك في النشاط

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج1، ص 268، الفلقشندي: م.س، ج12، ص 314.

Robert, The Holy Land, vol. 3, pp. 2-3.

(2) ابن طولون: ن.م، ج1، ص 27، 28، 29، 129.

(3) ن.م، ج1، ص 119.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 118، 283، 379، المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص 513.

(5) الفلقشندي: م.س، ج14، ص 75، "ذكر هدنة عقدت بين الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور وحاكم ارغون سنة 692هـ/1294 ادت هذه الاتفاقية الى استمرار التبادل التجاري بين تجار الشام وتجار جنوة والبندقية. وزاد هذا التبادل بعد استقرار النظام المملوكي في الموانئ والمدن الشامية انظر العلمي الحنبلي: الانس الجليل، ج2، ص 52، الطراونه، مملكة صفد ص

176. وهاید: تاريخ التجارة، ج1، ص 140.

(6) آشتور، التاريخ الاقتصادي، ص 387.

(7) البغدادي، مرصد الاطلاع، ج3، ص 456.

التجاري الخارجي في السويس<sup>(1)</sup> والطور<sup>(2)</sup> والمدن الصليبية على سواحل البحر المتوسط مثل مدينة عكا<sup>(3)</sup>، وامتلكوا الوكالات والقياس<sup>(4)</sup>.

وكان مركز تجمعهم في قرية مزيريب على الحدود السورية الاردنية شرق قرية عمراوه الاردنية وقرب اندرعات السورية "درعا اليوم" والواقعة في سهل حوران، فكان يعقد بها الاسواق لاستقبال الحجاج<sup>(5)</sup>، وبعد راحتهم يواصلون السير عبر الرمثا-الزرقاء-زيزياء حيث يستريحون فيها ثلاث ايام ثم يواصلون بعدها الى الجنوب متجهين نحو الكرك وقبل وصولها يستريحون في قرية البثنة كمكان لتجمع الحجاج الشاميين الخبراء بالطريق<sup>(6)</sup> ليقودوهم الى الحسا للتزود بالماء متجهين نحو معان حيث يستريحون فيها ويتزودوا بالطعام والماء عبر الصحراء الشاسعة نحو عقبة صوان وذات حج في طريقهم الى تبوك فالمدينة ثم الى مكة<sup>(7)</sup>.

وهكذا يعتبر موسم الحج موسماً اقتصادياً بالنسبة للاهالي في القرى والمدن التي يمر بها الحجاج حيث تتم مقايضة البضائع فيجنون الأرباح الطائلة<sup>(8)</sup>.

أما بالنسبة للبضائع المنقولة من بلاد الشام فكانت الزبيب والزيت والزيتون<sup>(9)</sup> وجلب التجار من الشرق الى بلاد الشام التوابل المختلفة، كالقرنفل والقرفة والزنجبيل وجوز الهند

(1) السويس: قرب مدينة القلزم وهو أقرب الواصل الى القاهرة والقبطاط، القلقشندي، م.س، ج3، ص 537.

(2) الطور: بين ايلة في العقبة والديار المصرية على ساحل البحر الأحمر، كثير الواصل اليه من اليمن بالبضائع المختلفة، القلقشندي، م.س، ج3، ص 537.

(3) Setton, A History of the Crusades, vol.2, p. 594.  
وعاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ج2، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ط4، 1982م، ص 117، حيث قتل في عكا 689هـ/1290م عدد من التجار المسلمين والنصارى الشرقيين بعد هجوم جديد للصليبيين.

(4) شقير: نعم تاريخ سيناء، ص 514، شافعي، أهل الذمة في مصر، ص 182.

(5) ابن طولون: م.س، ج1، ص 378-379.

(6) المقرئزي: السلوك، ج2، ص 122، وابن الفرات: م.س، ج9، ص 313.

(7) العمري: م.س، ج3، ق1، ورقة 171، "مخطوط". ويذكر ان الملك المعظم عيسى كان أول من سهل طريق الحجاج ومهدا واعتنى بها عبر الاردن عام 622هـ الممتدة من باب الجابية بدمشق الى جبل عرفات بمكة.

(8) للمزيد من المعرفة انظر: العمري: ن.م، ج1، ق1، ورقة 17 "مخطوط". ابن طولون: مفاكهة الخلال، ج1، ص 10. وياتوت الحموي: معجم البلدان ج2، ص 461.

Grant, The Syrian desert, pp. 223-224.

(9) البخيت: مملكة الكرك، ص 28.

والمنسوجات الحريرية الشرقية<sup>(1)</sup> والعاج والاحجار الكريمة، والاعشاب الطبية، والعمود، والجلود المدبوغة والورق والحبر، والسيوف، واللبن<sup>(2)</sup> كما أحضروا من الغرب الأخشاب والمعادن والرقيق والجواري<sup>(3)</sup> بعد مبادلتها بالسلع الشرقية والمحلية من بلسم اريحا وزيت وصابون نابلس والقدس، والخليل ونيلة زُغر<sup>(4)</sup>، وسكر الأغوار الناعم والبلوري، وزجاج وحريز دمشق وبسط انطاكية ومصر<sup>(5)</sup>.

### التجارة في عكا:

لقد كانت عكا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مركزاً تجارياً بين الممالك والفرنجة المحتلين لها حيث ترددت عليها القوافل التجارية من الشام ومصر<sup>(6)</sup>، وجنوا الأرباح الطائلة خاصة باعتبارها المركز الرئيسي لنزول الحجاج والمسيحيين الذاهبين لبيت المقدس، وقد كان بها خاص لتجار ايطاليين من جنوة والبندقية وفلورنسا وبيزا<sup>(7)</sup>.

كما تاجر سكان الكرك والشوبك مع سكان جزائر الغول في البحر الأحمر حيث تبادلوا معهم الزيت والزيتون والزيت مقابل السمك المقدد<sup>(8)</sup>. هذا ولم يفرض الأيوبيون والمماليك القيود على زراعة العنب بل فرضوا بعض القيود على بيع الخمر وتداولها عند النصارى.

(1) حيث احتلت مكانة لدى الأوروبيين كالدسقي "دمشق والبلدان" من بغداد والأطلسي العربي حيث تنافسوا عليها كتنافسهم على التوابل من قبل، انظر الادريسي: ج5، ص 360. براور، يوشع: عالم الصليبيين، ترجمة وتقديم وتعقيب د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن، ط1، دار المعارف 1981، ص 222.

(2) ابن خرداذبة، م س، ص 153، هايد، تاريخ التجارة، ج1، ص 142.

(3) ابن خرداذبة: ن.م، ص 153، هايد، ن.م، ج1، ص 142.

(4) زُغر: قرية بمشارف الشام، وقيل زُغر: اسم بنت لوط عليه السلام التي نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، وهي تقع في طرف البحيرة المنشفة "البحر الميت حالياً" ياقوت الحموي، م س، ج3، ص 143.

(5) د. غوانم نيابة بيت المقدس، ص 92، ودراسات، ص 237، لا بيدوس، مدن اسلامية، ص 45.

(6) يرى الدكتور يوسف غوانم: بقاء عكا في يد الفرنجة وعدم فتح المماليك لها مع قدرتهم على ذلك للاستفادة من حضارة اوربا وتجارتها، ثم يضيف... وعندما شعر قلاوون بعقليته المتفتحة حاجة الغرب الماسة الى التجارة الشرقية المارة عبر الشام ومصر وأن الوقت قد حان فعلاً لأن تتحكم دولته في هذه التجارة، قرر تصفية الوجود الصليبي فيها لتحقيق السيطرة على هذه التجارة مرعياً بذلك العامل الديني والسياسي. ويؤيد الباحث الباحث هذا الرأي التاريخي الواعي في حكمه على مجريات الأحداث في تلك الفترة. د. يوسف غوانم: دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، ص 171.

(7) ن م، ص 186.

(8) فايزة حجازي: ص 98، وتقول: "بأن جزائر الغول "لعلها جزائر تيران" انظر العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 61.

وبالنسبة لتجارة الثلج فكان لها حظ وافر في الصيف فقد نقلوه بحراً من بيروت وصيدا الى دمياط وعبر النيل الى ساحل بولاق ثم ينقل على البغال السلطانية الى الشراب خاناه<sup>(1)</sup> بقلعة الجبل فيخزن في صهريج مخصص له<sup>(2)</sup> وقد بلغ عدد مراكب الثلج زمن الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب في السنة والمزودة بعدد من التلاجين ثم زاد عددهم حتى أصبح أحد عشر مركباً<sup>(3)</sup>.

الرسوم المفروضة على الحجاج النصارى في العصر المملوكي الى القدس:

**أولاً:** رسم الدخول الى الأراضي المقدسة، بالإضافة الى المكس المقرر على بضائع الحاج والذي يدفعه في يافا إذا كان قادماً من البحر وفي غزة إذا كان قادماً من مصر<sup>(4)</sup>.

**ثانياً:** موجب الخفر: ما يدفعه الحجاج النصارى عند وصولهم مدينة الرملة، مقابل حراستهم طيلة زيارتهم للاماكن المقدسة<sup>(5)</sup>.

**ثالثاً:** موجب السلطان: الرسوم المقررة على الحجاج مقابل زيارتهم لكنيسة القيامة<sup>(6)</sup> بمعدل ثلاث مرات في الرحلة، لذا كان الحاج يدفع في المرة الأولى ستة دوكات ذهبية، وفي المرة الثانية أربعة دراهم فضية بنديقية، وفي المرة الثالثة يدفع درهمين فضيين بنديقين، وكان أقصى ما وصلت اليه هذه الرسوم عشر دوكات ذهبية<sup>(7)</sup>.

وبالنسبة للرسوم التي فرضت على الحجاج اليهود الى القدس فكانت كالتالي:

**أولاً:** الحجاج اليهود الذين يأتون عن طريق يافا يدفعون دوكات واحدة وعن طريق غزة عشرة دنائير فضية (10 دراهم فضية اسلامية)<sup>(8)</sup>.

**ثانياً:** رسوم المزارات المقدسة، مثل قبور ابراهيم ويعقوب واسحق في الخليل<sup>(9)</sup>.

(1) خزانة شراب السلطان، الثلاثة اليوم التي تحفظ فيها الأشربة والأطعمة والفواكه والاعطورات والأدوات المنزلية الثمينة النادرة، والأواني الصينية من الزبادي والصحن ويشرف على خزانة الشراب هذه أمير برتبة مقدم أو طبلخاناه، القلقشندي: م.س، ج3، ص 472، ج4، ص 21.

(2) القلقشندي: ن.م، ج14، ص 396، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف.

(3) ن.م، ج14، ص 396، والعمري: التعريف بالمصطلح الشريف.

(4) دراج: وثائق دير صهيون، ص 70.

(5) القلقشندي، م.س، ج13، ص 49.

(6) القلقشندي: ن.م، ج12، ص 333، 334، دراج، م.س، ص 70.

(7) دراج، ن.م، ص 77، 78، 147، والدوكات الذهبية البندقية 22 ودوكات فضية بنديقية والدوكات الفضية البندقية = درهم فضي اسلامي 6 دوكات ذهبية = 132 درهماً فضياً مملوكياً 10 دوكات ذهبية = 220 درهماً فضياً مملوكياً.

(8) Adler, Jewish Travellers, p. 242.

(9) التطيلي، الرحلة، ذكر بان هذه الرسوم عبارة عن أتاوة الى حارس هذه القبور.

ثالثاً: الرسوم لزيارة قرية ميرون في بر صفد ومدينة طبريا وغيرها<sup>(1)</sup>.

كما كان السلطان يأخذ قسماً من النذور التي تهدى للدير<sup>(2)</sup>. وكان ممثل السلطان يحتفظ بمفتاح كنيسة القيامة لتحصيل مبلغ من المال من الحجاج مقابل الدخول إليها<sup>(3)</sup>.

وفي نهاية الحياة الاقتصادية في جنوبي بلاد الشام نود ذكر أهمية الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك وغيره من السلاطين الكبار. ففي مجال الاقطاعات قسم الظاهر بيبرس أراضي فلسطين على هيئة اقطاعات ووزعها على الذين ساعدوه على النصر في عين جالوت<sup>(4)</sup> وساهموا في استتباب الأمن ورصف الطرق وبناء الجسور (جسر خندس) واعادة بناء مدينة صفد، وتطوير غزة ويافا.

كما نظم بيبرس البريد بتأسيس محطات جديدة على الطريق بين فلسطين ومصر حتى قال ابن إياس "بأن الأخبار الشامية كانت ترد إليه في الجمعة مرتين"<sup>(5)</sup>.

وفي أيام الأزمات الاقتصادية ضرب الناصر محمد (693-698هـ/1295-1299م) و(708-741هـ/1309-1341) فلوساً خفيفة الوزن بيعت بالوزن عام 1226/624 لأول مرة في تاريخ المنطقة فكان الرطل منها يساوي درهمي فضة<sup>(6)</sup>.

وتتضح الصورة للوضع الاقتصادي في الثلث الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عندما نرى أراضي قرية بينا الفلسطينية جنوبي الرملة حيث كانت ضمن اقطاعات الأمير المصري المشهور بشتاك الناصري والتي باعها للسلطان المملوكي، محمد بن قلاوون بمليون درهم<sup>(7)</sup>. فكانت هذه الاموال الطائلة المكتنزة لدى الأمراء ضمن الأسباب الرئيسية لتدهور النقود.

(1) الدمشقي: نحة الدهر، ص 118، الطراونة، مملكة صفد، ص 181.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 539، القزويني، آثار البلاد، ص 185.

(3) Frescobaldi, Visiit to the Holy Places, p. 76.

(4) خالد طرية، آل طرية عبر التاريخ، م.س، ص 23.

(5) ابن إياس: المختار في بدائع الزهور ووقائع الأخبار، كتاب الشعب، القاهرة، 1960، ص 89 و 92.

(6) د. عبد الرحمن فهمي - النقود العربية، م.س، ص 105، وانظر عارف العارف: تاريخ غزة، م.س، ص 148، إذ يقول بأن سبب الأزمات الاقتصادية مضاعفة الكساد وعدم السيولة النقدية ما كان يكتزنه الأمراء لأنفسهم مثل الأمير عز الدين الجناحي نائب غزة المتوفي عام 1299/697 حيث ترك وديعة عند أحد التجار الدمشقيين بلغت اثنين وثلاثين ألف دينار وأربعة وثلاثين ديناراً وحلياً قيمتها خمسون ألف دينار.

(7) مانير وآخرون: بعض البيانات الإسلامية الهامة، القدس، 1950، ص 25. وذلك حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأت مظاهر التفكك الإداري والسياسي في الكيان المملوكي.

وهكذا يمكن القول بأن البنية الاقتصادية في فلسطين وشرقي الاردن والتي اعتمدت على الزراعة والصناعة والتجارة تمتعت بقدر جيد من القوة والاكتفاء طيلة القرنين السابع والثامن الهجريين/ المطابقة لنهاية النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي في عصر الظاهر بيبرس وقلالون وبرقوق، وقد عبر عن ذلك الرحالة العرب والمسلمون أمثال الدمشقي 1300/700 والقرويني 1308/708، والعمرى 1347/748 وابن بطوطة 1355/756 وجميعهم امتدح مزروعاتها وصناعاتها على الرغم من معاناة الشعب.

كما كان من عوامل ازدهار التجارة في بلاد الشام لموقعها المتوسط بين قارات العالم فكانت هدفاً لتجار البحرية بجنوا، والبندقية وبيزا أيام الاحتلال الصليبي وشجعهم على ذلك الامتيازات الواسعة التي منحها الصليبيون لهم مقابل مساعدة الصليبيين، لذا أسس تجار اوربا مراكز لهم في المدن الساحلية مثل: عكا، وصيدا وصور وغيرها من الموانئ ليصدروا منها الى اوربا المنسوجات القطنية والحريرية والأواني الزجاجية الشامية، والأخشاب، والعقاقير وتوابل الشرق الأقصى التي تأتي براً عن طريق القوافل عبر الجزيرة العربية والعراق الى دمشق ومنها الى موانئ الشام الساحلية لتحملها الى الغرب<sup>(1)</sup>. واستمرت التجارة بين المسلمين والصليبيين على الرغم من الصراع العسكري بينهما وقد وصف ذلك التبادل التجاري الرحالة ابن جبير عندما زار بلاد الشام<sup>(2)</sup> حتى انه رافق قافلة تجارية الى عكا<sup>(3)</sup>، كما ذكر قدوم الصليبيين الى دمشق عام 1240/638م لشراء السلاح لقتال المسلمين وذلك بعد تحالف الملك الصالح، اسماعيل معهم ضد ابن اخيه الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، مما دفع شيخ الاسلام الشافعي عز الدين بن عبد السلام بالافتاء بعدم جواز بيع السلاح للصليبيين طالما انه يستخدم ضد المسلمين<sup>(4)</sup>.

وهكذا فان البلاد الشامية والمصرية بقيت بسبب موقعها الاستراتيجي التجاري حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وسوقاً للتعامل والتبادل التجاري بين آسيا وافريقيا من ناحية وبلاد البحر المتوسط ودول غرب اوربا من ناحية أخرى.

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 1199-1200.

(2) ابن جبير: م س، ص 271.

(3) ن.م، ص 275.

(4) ن.م، ص 278.

واستمر ذلك الوضع سنين عديدة حتى حركة الكشف الجغرافية في أواخر العصور الوسطى وطلّاع العصر الحديث، حيث انتقل مركز التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسي، وما ترتب عليه من نتائج خطيرة من ضعف حالة المسلمين الاقتصادية وضعفهم السياسي. وقد تطلب هذا النشاط التجاري نشاطاً دبلوماسياً لتنظيم المعاملات التجارية ومعالجة المشاكل عن طريق التمثيل الدبلوماسي بتبادل السفراء والرسل والمراسلات الرسمية، وعقد العديد من المعاهدات والاتفاقات التجارية.

## أهمية دراسة النقود

تعود أهمية دراسة النقود لأية أمة - للتعرف على هذه الأمة وكشف جميع سماتها التاريخية والجغرافية والفنية ومعتقداتها الدينية وحالتها الاقتصادية ووزنها السياسي بين الأمم فالنقود العربية الإسلامية التي حملت كلمتي "ضرب فلسطين" و"ضرب أسماء مدن فلسطين" امتدت من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام 1946م ، لذا لا يمكن حصرها من قبل فرد أو مؤسسة أو دولة لما هو مضمون بين طبقات الأرض منذ زمن الكنعانيين والفينيقيين مروراً بأيام الفرس واليونان والرومان والعهد الإسلامي والعصر الحديث . ولما تعرضت له من التزييف على أيدي الصليبيين ، كما اتفق معظم العلماء على أن أول من استخدم الحروف الهجائية في الكتابة منذ عام 185 ق.م هم الكنعانيون في فلسطين ، حيث نقلها إخوانهم الفينيقيين ما بين 850-750 ق.م إلى الإغريق<sup>(1)</sup> ثم نقلتها عنهم جميع الأمم الأوروبية آنذاك متأثرين بها حتى اليوم ، وبهذه الحروف الفينيقية نقشوا على نقودهم كما كان الفينيقيون السابقين في استخدام المقاييس والعبارات والوزن<sup>(2)</sup> وطريقة العد الحسابي مما كان له الأثر في عمليات التطور التجاري . ونقشوا صورة شجرة النخيل وسنابل القمح<sup>(3)</sup> لذا فليس من المستبعد على مثل هذا الشعب الذي يمتلك هذه المقومات الحضارية الإبداعية ان يكون أول شعب عربي قام بسك النقود بصورتها الراهنة<sup>(4)</sup> فالنقود الحالية كانت وليدة معاناة اقتصادية طويلة وإرادة سلطة سياسية قوية ، شاركتها موهبة فنية قادرة على تنفيذ ما تريد كما كانت النقود وما زالت حلقة وصل اقتصادية بين الناس لسهولة حفظها على اختلاف مهنتهم وحرفهم ، بالإضافة إلى معرفة التاريخ الاقتصادي لأي دولة من خلال نقدها وما تعرضت له من هزات اقتصادية أو فترات ازدهارها كما اهتمت الشريعة الإسلامية بالنقود ، لما لها من أهمية في العقود والذية والصدقات فارتبطت معها بتطبيق

(1) د. أحمد سوسة - حضارة وادي الرافدين - ج 1 ، بغداد 1983 ص 314 - 315 / هاري بارتر : تاريخ الكتابة التاريخية - ترجمة

د. محمد برج - الهيئة العامة القاهرة ، 1984 ص 27

(2) عمر الصالح الرغوثي - تاريخ فلسطين - مطبعة بيت المقدس - القدس ، 1923 ص 12.

(3) د. أحمد سوسة : م س ، ص 479.

(4) وول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران. ج 2 ، م 1 ، ط 1 - القاهرة 1961 ص 306 - 333 ذكر أن النقود إنتشرت في فلسطين منذ عام 650 ق.م وقبل مجيء الفرس بثلاثة قرون.



القواعد الفقهية المرتبطة بالشؤون المالية زيادة ونقصان حسب قيمة النقود وما يتهدها من هزات إقتصادية .

### لمحة تاريخية :

لقد ارتأيت ذكر لمحة عامة عن نشأة النقود حيث كانت الدراهم من ضرب الأعاجم الفرس مختلفة مثقالاً وقيراطاً<sup>(1)</sup> كالبلغية<sup>(2)</sup> وهي دراهم الفرس والدراهم (الجواز)<sup>(3)</sup> ، (الجوارقية)<sup>(4)</sup> وأما الورق<sup>(5)</sup> فهو الدراهم المضروبة وفي القاموس [ الورق الورق ، والورق ] وسميت بالفرنسية Monnaie ويحق لنا أن نتساءل من أين جاءت هذه الكلمة علماً بأن المضروب من الدراهم مأخوذ من الأمم المجاورة كالروم ، من لاتين ويونانيين وكاثوليك . فيقول الكرملي : (( إن الورق ليست سامية الأصل ، فإنها لا ترى بهذا التركيب في اللغات السامية وربما أنها فارسية الأصل أو يونانية منقولة من كلمة BAQOS ومعناها ثقل أو حَمْل ، ومعلوم أن أصل الأوزان والأثقال مأخوذ من ثقلها وهكذا وضعوا المثقال - والراحل - ، والأوقية إلى غيرها<sup>(6)</sup>

(1) ولبلادري كتاب النقود (نسخة الأستاذة) نقلها نعمان الألوسي 1869 ص5 نشرها - دير الآباء الكرملين - شبرا القاهرة 31 تموز

(يوليو) 1939 - رسالة في النقود الإسلامية - المقريري - نسخة الأستاذة - الناشر فارس الشدياق ، مطبعة الجواب 1933 ص3

رسالة في النقود الإسلامية - المقريري نسخة الأستاذة - نسخها شكري الفضلي البغدادي - نشرها الأب أنستاس - ماري الكرملي 31 تموز (يوليو) 1939 م. ص3-7

(2) البلغية نسبة إلى (بغل) وهو اسم يهودي ضرب تلك الدراهم - رسالة المقريري ص3 شاعر شكري الفضلي في مدينة أرمية في فارس.

(3) الجواز مشتقة من جاوز الدراهم : قبلها على ما فيها من الدخل ن. م. ن. ص. تنقص في العشرة ثلاثة فكل سبعة بقيمة عشرة بالجواز. ن م ، ن ص.

(4) الجوارقية : منسوبة إلى جورقان : قرية بنواحي همدان ، ن م، ن ص.

(5) المنجد ص897 حرف الواو باب "ورق" .

ابن منظور - لسان العرب - مجلد12 ص255 : قال ابن الأعرابي أي كثير الورق والمال الجوهري ، ورخل وراق فصل الواو حرف القاف كثير الدراهم ويقال أورق الرجل : كثر ماله ، والجمع أوراق : وقد ورد (في القرآن الكريم) ذكر العملة الورقية ويراد بها النقود الفضية "قال تعالى : "فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم بزرق منه ، الكهف آيه 19.

(6) الكرملي : م س، ص163-164 وقال : " إن الباء قد تنقل من التعريب إلى الواو والهاء في الآخر قد تنقل إلى القاف أو (ج) أو (ق) ، والباحث يتخير رأياً من هذين الرأيين.

وإستمر إستخدام النقود الفارسية والبيزنطية أيام الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين<sup>(1)</sup> حتى عهد عبد الملك بن مروان الذي كان خامس خلفاء بني أمية وأول من ضرب النقود الرسمية عربية وإسلامية وأمر بالتعامل بها . حيث أبطل إستعمال هذه النقود الأجنبية آخذاً برأي محمد بن علي بن الحسين المعروف بمحمد الباقر<sup>(2)</sup>، وقد عرفت دنانير عبد الملك بن مروان بالدنانير الدمشقية ثم أمر الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً وإستمر من بعده ولاية العراق على ذلك<sup>(3)</sup> وكان أجود أنواع النقود الأموية "الهبرية" نسبة لضاربها عمر بن هبيرة، واليوسفية<sup>(4)</sup> نسبة ليوسف بن عمر أو الخالدية نسبة لخالد بن عبد الله البجلي ، وجميعهم من ولاية العراق<sup>(5)</sup> وإستثمرت هذه الأصناف الجيدة زمن الدولة العباسية<sup>(6)</sup> علماً بأن أول من سك نقوداً على أرض فلسطين خالد بن الوليد عام 16هـ/618م في طبرية حيث سكها على الطريقة البيزنطية بترك الصليب والتاج والصولجان وكتب على أحد الوجهين إسمه باليونانية (XAAED) ومعها الأحرف

(1) المزيد من المعرفة أنظر : المقرئزي : كتاب النقود الإسلامية القديمة ، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة 1987 ، ص 99 ، الجهنسياري : كتاب الوزراء والكتاب ، حقيقة مصطفى السقا وآخرون ، ط2 القاهرة 1980 ص 48 /جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، بيروت ، ج 1 ، ص 135 .

(2) وانستانس الكرمللي : م س ، ص 99-100 ، 112 عبد الرحمن فهمي : م س ، ص 27 ، مصطفى العبادي : محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، 1982 ، ص 186-187 .

(3) د. فهمي ، ن م ، ص 92 ويذكر أيضاً رأي ابن الأثير الذي يذكر أنه أخذ برأي خالد بن يزيد بن معاوية .

(4) ن.م.ن.ص ذكر نقشت نقود بني أمية "الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد" وذلك في وسط أحد الوجهين وحولهما "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" وعلى الوجه الآخر بالوسط "لا إله إلا الله ، حده لا شريك له" وحول ذلك "بسم الله ضرب هنا الدرهم في بلد كذا ، سنة كذا .

(5) وما زال الناس في الأردن يضربون بها المثل فيقولون "أصفى من الذهب اليوسفي" وقد تردد إسم الذهب والفضة في القرآن الكريم قال تعالى "إن الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب أليم" سورة التوبة آية 34 .

(6) د. فهمي ، ن.م.ص 93 .

(I Y) Bou ويعتقد المؤرخ الألماني ملران أن هذه الحروف ترمز لكنيسة :أبو سليمان وعلى الوجه الآخر حرف M كدلالة على قيمة الفلوس<sup>(1)</sup> وفوقه صليب وأسفله التاريخ الهجري باليونانية<sup>(2)</sup>.

وفي زمن الدولة الفاطمية ضرب جوهر الصقلي القائد الفاطمي الدينار المغربي وفي أيام الحاكم بأمر الله نزل سعر الدرهم وتزايد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة هجرية حتى أصبح الدينار بأربعة وثلاثين درهماً فاضطربت أمور الناس<sup>(3)</sup> وكان الفاطميون قد أعادوا معظم دور الضرب القديمة الفلسطينية في اللد والرملة وعكا وطبريا وعسقلان عام 367هـ/961م<sup>(4)</sup> ولما سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي في سنة سبع وستين وخمسماية 569هـ/1171م قررت السكة بالقاهرة باسم المرتضى بأمر الله وباسم العادل، نور الدين محمود بن زنكي، صاحب بلاد الشام، فرسم إسم كل منهما في وجهه، وفيها عمت بلوى المصارف بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا من مصر<sup>(5)</sup> ويلاحظ ندرة الذهب في العصر الأيوبي ونستطيع تلخيص اسباب ندرة الذهب هذه في عصر الأيوبيين بما يلي:

- إهمال إستغلال الذهب في وادي العلا بالصحراء الشرقية من قبل الدولة ، بل ترك ذلك للأفراد يجمعونه ويصدرونه خارج البلاد كما يذكر الإدريسي عام 1150 م .

(1) جورجى زيدان : ن م ص 135 وسليم عرفات المبيض : النقود العربية الفلسطينية وسكها المدينة الأجنبية ، الهيئة العامة للكتاب 2989 ص 139.

(2) د. فهمي : م س ، ص 27.

(3) المنسوب للخليفة الفاطمي المعز لدين الله 341هـ-365/936-967م نقش عليه في أحد وجهيه ثلاثة أسطر ، أحدهما دعي الإمام المعز لتوحيد الأحاد الصمد وتحت سطر فيه "ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة" وفي الوجه الآخر "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الذين كله ولو كره المشركون، علي أفضل الوصية وزير خير المرسلين".

- المقرئ كتاب النقود الإسلامية النسخة الفضلية ص 5 وقد حمل الدينار إسم فلسطين عام 359هـ/961م

Gerge.C. Miles Rare Islamic Coins Newyork 1951,P.8 كما ضرب الدينار في الرملة عام 359هـ/961م

G.C. Ibid , P.12, د. فهمي : م س ص 58.

(4) ن.م ص 59.

(5) ن.م ، ص 10، 15. بينما يرى الدكتور عبد الرحمن فهمي أنه لا يمكن التسليم بكل النتائج التي وصل إليها المقرئ سيما وأن خزائن القصور الأيوبية كانت تفيض بالدرهم والدنانير والمصاغ والجوهر يشكل لاغين به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر ولا تشتمل على مثله الممالك ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة ، على حد تعبير المقرئ نفسه في كتابه "شذور العقود في ذكر النقود" وتشير بعض المراجع إلى أن ما خلفه الملك الكامل الأيوبي من الذهب وحده ستة ملايين من الدنانير المصرية.

د. عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ط 1 ، 1964 ، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار العلم - 18 شارع التوفيقية ص 7-71. ابن منظور : لسان العرب فصل العين حرف اللام. مجلد 13 صفحة 514.

- توقف البحث عن الكنوز بين محتويات المقابر الفرعونية لكثرة المشاكل الداخلية الموروثة من العهد الفاطمي وذلك لتثبيت كيانه .

- هبوط الصادرات المصرية من الأقمشة بشكل خاص لبغداد سنوياً بما كانت قيمة 20,000 دينار سنوياً .

- نهب الصليبية لمدينة تنيس المصرية عدة مرات مما أوقف صناعة النسيج هناك في أواخر العهد الفاطمي .

- كثرة النفقات على العمليات الحربية بين المصريين والصليبيين وبين صلاح الدين وبقايا الفاطميين .

- نشاط الصليبية في تهريب الذهب في البندقية ومرسلها وبرشلونة فقلت كميات الذهب في الأسواق العربية بشكل ملحوظ<sup>(1)</sup> وتستطيع إرجاع السبب الرئيسي لندرة الذهب في عصر الأيوبيين إلى إكتناز "Thesaurisation" سلاطين الأيوبيين الدنانير الذهبية دون غيرها وتسرب الذهب من البلاد خلال العمليات الحربية المذكورة في مصر والشام منذ أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي حتى إن مرتبات الجنود الأيوبيين كانت تصرف بالدرهم الفضية رغم أنها مقدرة إسمياً بالذهب بسعر ستة عشر درهماً للدينار الذهبي وكانت ميزانية الدولة الأيوبية عامة مقدرة بالنقود الذهبية من الدنانير بينما كانت المصروفات بالدرهم الفضية . م. ن. ص ، وفي زمن الدولة العباسية ضرب عبد الله بن محمد السفاح الدراهم<sup>(2)</sup> بالأنبار<sup>(3)</sup> وعملها على نقش الدنانير ، وكتب عليها السكة العباسية وقطع منها ، ونقصها حبة ، ثم نقصها حبتين وفي زمن أبو جعفر المنصور نقصها ثلاث حبات ، فصارت تلك الدراهم ثلاثة أرباع قيراط ، لأن القيراط أربع حبات ، فكانت الدراهم كذلك ، ثم الدراهم الهاشمية<sup>(4)</sup> على المثال البصري ثم ضربت الدراهم ببغداد

(1) د. عبد الرحمن فهمي ، م. س. ، ص 72.

(2) المقريري : النسخة الفضلية للنقود ، ص 4، 5.

(3) الأنبار : بلد بالعراق قديم على نشاط الفرات في غربي بغداد أنهما عشرة فراسخ وكانت الفرس تسميها فيروز سابور وهي غير أنبار بلح في فارس .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص 257.

المقريري : النقود الإسلامية الفضلية ، ص 5، 9.

(4) الهاشمية : مدينة بناها السفاح في الكوفة ياقوت الحموي (معجم البلدان مجلد 5 ص 389).

ويقال أن المنصور رفض الدراهم الأموية إلا الهبيزة (عمرو بن هبيرة) واليوسفية (يوسف بن عمر) والخالدية (خالد بن عبد الله البجلي) وما زال الناس يضربون المثل بالذهب اليوسفي الآن في الأردن فيقولون أضفى من الذهب اليوسفي الكرمل ، م. س 193.

والمحمدية <sup>(1)</sup> زمن الرشيد ثم الرباعيات <sup>(2)</sup> زمن المأمون وكتب على النقود إسم القدس لأول مرة بدلا من "إيلياء" واتخذوا مدن عكا وطبرية و الرملة وغزة والقدس مكاناً لسك العملة في فلسطين عام 212هـ/814 <sup>(3)</sup>.

وضربت الدراهم أيام الدول المستقلة عن الدولة العباسية كالطولونيين والفاطميين ففي زمن أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية نسبة إليه <sup>(4)</sup> وشاع إستعمالها في فلسطين في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي وكتبوا إسم الأمير الطولوني بدلا من الخليفة <sup>(5)</sup> ويلاحظ إنقطاع النقود المستقلة بأسماء الخلفاء من سنة 334هـ / 936 م وتطور عيارها خلال المدة المتغلبة التي دامت حتى سنة 547هـ/1151م ففي أيام الخليفة المستنجد بالله عام 555هـ/1159م أصبحت جديدة ومستعملة ونالها النشاط أيام الخليفة الناصر لدين الله وصارت تضرب ببغداد وحدها إلا في حالات إستثنائية في "دقوفا" <sup>(6)</sup> وضربت في عهد الخليفة المستعصم بالله بربل <sup>(7)</sup> وحدث فيها بعض التبدل وشاعت هذه النقود أيام المغول ومن بعدهم <sup>(8)</sup> وبالنسبة لوزن الدينار والدرهم الشائعة أيام المغول فقد ذكر عباس العزاوي أنه كان ببغداد ديناران أحدهما يسمى العوال <sup>(9)</sup> وتساوي إثنا عشرة درهماً والدرهم بقيراط وحتتين والدينار عشرون قيراط كل قيراط ثلاث حبات وكل حبة أربعة فلوس والثاني (الدينار المرسل) وبه أكثر مبيعاتهم ومعاملاتهم ويساوي عشرون درهم (دوقا).

(1) المحمدية : قرية من قرى بين النهرين باقوت، معجم البلدان ص6 مجلد 5. د.فهمي ص51-53.

(2) سميت الرباعيات لأن وزنها كان أربع حبات ، "الكرملي م.س ص48.

(3) مجلة الفجر الأدنى ، سكة فلسطين الإسلامية عدد مارس 1983م ص38.

(4) العزاوي تاريخ النقود العربية، ص17، د.فهمي ، ن،م، ص54-56.

(5) الموسوعة الفلسطينية ج4 ص 494 وانستاس الكرملي النقود الإسلامية وعلم النميات ص64.

Lone Poole Catalogue the Colection of Arabic Coins,cairo, 1984 P.141

ودكر دنانير الطولونيين بالرملة عام 892/290م

(6) مدينة بين أربل وبغداد الحموي -معجم البلدان مجلد2 ص459 حرف الدال

(7) إربل : بين الزابن مدينة من أعمال الموصل شمال العراق يقول بأنه وجد هذا في مخطوط أبيصوفيا إسمه مسالك الأبصار - ج2، ص64.

(8) العزاوي : ن.م ، ص17. ن.م ن ص.

(9) العوال ربما كانت من العول أي زائدة للدلالة على أن وزنها يزيد على ... ن.م ، ن ص.

كما ضرب الأخشيديون نقودهم في اللد والرملة وطبرية وكتبوا عليها إسم الأمير  
الأخشيدي بدلاً من إسم الخليفة العباسي <sup>(1)</sup> وكان للعباسيين فضل السبق في ضرب النقود  
التذكارية التي كانوا ينشرونها على الناس في الأفراح والحفلات والمواسم العامة وضربوا دنانير  
أطلق عليها دنانير الخرافة " للإنعام بها على المغنيين وغيرهم كما أشار المقرئ في كتابة  
"إغاثة الأمة" <sup>(2)</sup>

---

<sup>(1)</sup> S. Lane Pole, catag ue, Ibid , P. 144

<sup>(2)</sup> د. عبد الرحمن فهمي : م س، ص 66-67.

## "مدن السك الفلسطينية أيام الصليبية"

لقد سك الصليبيون الدنانير والدرهم ، ف ضربها البنادقة اللاتين من البنادقة في فلسطين بكتابات عربية سميت بالعملة البيزنطية العربية، Besants Saracenati, Saracenate Byzantin عند رنسيمان وعليها تاريخ هجري على الرغم من أستياء البابا i أنوسنت الرابع من هذه المآثورات الإسلامية<sup>(1)</sup> وقد ضرب بلدوين الثاني في عام (1152-1187م) دنانير ذهبية بمدينة القدس عليها صليب في الوجه وعلى الظهر باللغة اللاتينية<sup>(2)</sup> وقد قام الصليبيون بتزييف النقود العربية إذ قلدوا الدنانير والدرهم الأيوبية والفاطمية المضروبة في دمشق عام 699هـ/1201م وتحمل إسم الخليفة العباسي المستنصر بالله مع أنه قد مات عام 640هـ/1239م كما قلدوا دراهم الصالح إسماعيل المكتوب عليها ضرب دمشق 644هـ/1246م وتحمل القاب المستنصر والمعتقد أنها ضربت بمدينة عكا<sup>(3)</sup> وأصدروا نقوداً زائفة باسم الخليفة الأمر بأحكام الله "495-524هـ/1197-1126م على مدار ثلاث سنوات حيث يوجد بعضها ضمن مجموعة دار الكتب المصرية<sup>(4)</sup>

(1) د. عبد الرحمن فهمي ، م س ، ص 79 لانه كان يوجد عليها نقوش عربية وأيات قرآنية وكتابات تشير إلى الرسالة المحمدية في التاريخ الهجري واستمر التعامل بها حتى القرن السابع الهجري ، والثالث عشر للميلاد.

وأنظر Runciman A history of the Crusades 111/p.363

-Prawer , latin kingdom , P. 385

(2) سليم عرفات م س ص 85.

(3) د. عبد الرحمن فهمي: ن.م، ص 79.

(4) جوزيف نسيم يوسف : دراسات ص 339

ويلاحظ المرء زيفها من خلال عدة ملاحظات أهمها :-

- الحظ الرديء .

- تأريخ بعضها بالتاريخ الميلادي بدون الهجري .

- دس رسة الصليب بين الكتابة .

تدني عيارها بين الذهب والفضة .

كما سك الصليبيون في مدينة عكا دنائير نقشوا عليها بالعربية عبارات مسيحية على هيئة حلقات على النمط الفاطمي <sup>(1)</sup> وضرب أيضاً بمدينة عكا عام 1270/468 دينار آخر <sup>(2)</sup> ويلاحظ أن معظم النقود ضربت بأمر القديس لويس عام 648هـ/1250م <sup>(3)</sup> وذلك لاستمرار حركة التعامل التجاري مع المسلمين وعدم إغلاق الباب في نفس الوقت وما بعدها تقليداً للنقود الأيوبية وقد تميزت في معظمها بعبارة التثليث (الأب والإبن والروح القدس) وشارة المسيحية على الظهر محاطة بعبارة (( الله واحد هو الإيمان واحد والمعمورية واحدة)) وقد ضربت من الذهب والفضة .

(1) جاء على بعضها الوجه : في المركز ، إله واحد

على الهامش : ضرب بعكا عام ألف ومائتين وواحد وخمسين تحسد ربنا المسيح.

أما الظهر : داخل دائرة : تفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به سلامنا وبه قيامتنا وبه تخلصنا . جاء

وقبل هذا الدينار الذي ضرب عام 25 بمدينة عكا كتاب الدكتور العش.

أنظر - د. محمد أبو الفرج المعشى \_ النقود العربية الإسلامية المحفوظة بمتحف قطر الوطني ، وزارة الإعلام - الدوحة-1984 ص22 وقد

جاء مثل هذا الدينار الذي ضرب عام 1250 بمدينة عكا في كتاب المعشى.

(2) الوجه : في المركز: إله واحد ، الهامش : مقسم بواسطة صليب.

أما الظهر : في المراكز صليب والهامش : ضرب بعكا سنة ألف ومائتين وخمس S.Lane poole/ Catalouge Ibid, P 30

(3) جوزيف نسيم : العنوان الصليبي ص329-330.

شيفنسون : الحروب الصليبية ، ص191. 163 Mager The Crasades, p.

د. فهمي.م س ص81.



ويوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة نمادج منها كما ظهرت على الدراهم الفضية بعض المآثورات ضمن مربع<sup>(1)</sup> كما ضربوا نوعاً آخرًا من النقود الذهبية<sup>(2)</sup> ونقش في منتصفها ويحيط بها عبارة Agnus Dei quitollit peccata mud وعلى الظهر sutsirCh incit Christus, Regnat Christus impetat v وبالنسبة لدراهم شرقي الأردن فقد كانت تتعامل بنقود المسيطرين عليها من صليبيين وأيوبيين ومماليك . لذا لم تكن لها دراهم خاصة لأنها لم تكن ذات سيادة مستقلة في ذلك الوقت بل تتبع نظام الحكم في مصر والشام في هذه الفترة فقد استخدمت فيلادلفيا القديمة " عمان " نقوداً رومانية وبيزنطية وعربية وإسلامية لشهرتها كمركز تجاري في تلك الأحقاب الزمنية التي تعاقبت عليها وكان آخرها الذي يحمل إسم عمان سنة 386هـ/970م حيث أشتهرت بغداد بالدنانير العمّانية في العصر البويهى<sup>(3)</sup> أما الكرك في عصر الأيوبيين فقد سكّت دراهم ناصرية باسم الملك الناصر داود<sup>(4)</sup> .

(1) د. عبد الرحيم فهمي ، م.س ، نقد رقم 25 : وأنظر صورها في الملحق

كتب على الوجه: الأب والابن والروح القدس إله واحد.

الخامس : الله المجد إلى أبد الآبدين آمين.

الظهر : صليب ضمن دائرة حولها كتابة مربعة في ثلاثة أسطر

الله واحد هو

الإيمان واحد

المعمودية واحدة

ويلاحظ عليها أنها ضربت بمدينة عكا فيما بعد بين 1251-1255 م وهذه فترة إقامة لويس التاسع في الأراضي المقدسة كما يدل على وجود دار الضرب النقود في عكا ص3 : جوزيف نسيم : العدوان الصليبي ص329.

(2) Prawar Latin Kingdom, P. 387 وقد ذكر قطر هذه النقود حوالي 2 و5 ملم وتتراوح وزنها ما بين 31 و362 و3 جرام وهي مصنوعة من السبائك.

(3) ابن هلال الصائى ، رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني بغداد 1964 ص155. وقد أكد ذلك العثور في تل ياسين على دينار سنة 1973م ضرب في عمان نتيجة التنقيبات الأثرية ويحتفظ به اليوم بالمتحف العراقي ببغداد قسم المسكوكات تحت رقم 15982 ووزنه 4.5غم وقطره 22ملم ومكتوب على الوجه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له القادر بالله ، فخر الدولة وملك الأمم. بسم الله ضرب هذا الدينار بعمان سنة ستة وثمانين وثلاثمائة.

أما الظهر فكتب عليه " محمد رسول الله ، الملك العادل صمصام الدولة وشمس الملّه أبو كاليجار محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهرة على الذين كله ولو كره المشركون.

(4) د. يوسف غوانمة التاريخ الحضاري :ص103 نفس المصدر ص104.

وفي العصر المملوكي إستخدمت شرقي الأردن الدينار والدرهم المملوكي حيث عثر نتيجة الحفريات على هذه الدراهم المملوكية في الكرك وحسبان وكان معظمها مضروب في القاهرة وقليل منها في دمشق<sup>(1)</sup> وبعضها بحيت كتابته هذا وقد أنشأ الملك الناصر أحمد بن قلاوون داراً للسكة في الكرك بعد حصارها لمدة عامين (743-745هـ/1342-1344م)<sup>(2)</sup> هذا ولم تكن قيمة النقود الصليبية ثابتة لعدم الاستقرار السياسي وخاصة بعد معركة حطين حيث ظهر صراع البارونات على الفرس بعد وفاة الملك بلدوين الخامس<sup>(3)</sup> إذ ظهرت عملة السادة الإقطاعيين وهي عبارة عن سبائك من النحاس الخالص وقد جلبت للإقطاعيين أرباحاً كثيرة وأظهرت إستقلالهم السياسي عن ملك بيت المقدس بالرغم من قلة قيمتها وقلة تداولها ويلاحظ أن من نتائج النشاط التجاري بين المدن الإيطالية "البندقية"، جنوة، بيزا" والحجاج المسيحيين من جهة وبين الجيوش الصليبية والمسلمين من جهة أخرى قيام نظام المصارف Credit-notes والأوراق المالية تمشياً مع الظروف المالية الجديدة التي تحتاج إلى سرعة التداول لإنجاز الصفقات التجارية فظهرت معارف الفرسان الداوية للإيداع والتسليف حيث زودوا الصليبيين في بلاد الشام بتسهيلات مصرفية عامة بما يشبه القروض بفوائد مالية<sup>(4)</sup>.

(1) هذه الدراهم موجودة في المتحف الأردني بعمان وبعضها بمتحف الكرك وتحتاج لدراسة علمية. د. يوسف غوانمة: ن م ، ص 104 وقد زار الباحث المتحف وتحققت من ذلك عام 1993م.

(2) الصفدي: م س، ج 8 ، ص 90

ذكر الصفدي بأنه ضرب من الذهب المخلوط بالفضة والنحاس فكان الدينار يساوي خمس دراهم وإبن إياس : بدائع الزهور ج 1 ، ص 182 ويعتقد الدكتور يوسف غوانمة بأن دار السكة في الكرك المملوكية هي نفس الدار التي كانت سك فيها الدراهم الناصرية زمن الأيوبيين ونغن غيل إلى هذا الرأي لتعاقب الفترات الزمنية حيث ورث الممالك ملك الأيوبيين فاستخدموا نفس أجهزة السك في الدار الأيوبية ولعل التنقيبات الأثرية ستثبت صحة الرأي أو نفيه.

(3) Runciman, A history of the crusades , 111, P.364

وعبد الرحمن فهمي : م س ، ص 116-117.

(4) للمزيد من المعرفة أنظر جواتفيل ، القديس لويس ص 175 - 177 ، 187 - 188.

## النقود العربية الأيوبية المتداولة في فلسطين والأردن

590-648/1192-1250م

لقد اكتنز سلاطين الأيوبيين النقود الجيدة تحسباً للظروف الصعبة مع الصليبية وإتقاء لنشر الفتن الداخلية بالإضافة لظروف الحرب المستمرة مما أرهاق مالية الدولة ، حيث كانت الميزانية مقدرة بالنقود الذهبية في حين تسدد مصروفاتها بالدراهم الفضية دون سواها <sup>(1)</sup> بينما ضرب صلاح الدين الأيوبي نقوداً منذ تسلمه الحكم 564/1166 في القاهرة والإسكندرية. أما في دمشق وحلب وحماة فقد ضربها على النمط الفاطمي بحيث نقش على ظهر النقود إسم الخليفة العباسي بالإضافة لإسمه ومكان وزمان الضرب فضرب الدنانير وعليها كتابة بشكل حلقات ثلاث <sup>(2)</sup> بعد إبطال نقود مصر وضرب الدينار ذهباً مصرية في شوال سنة 583هـ/1187م كما ضربت الدراهم الناصرية من فضة خالصة ونحاس مناصفه بالشامي بعد إبطال الدرهم الأسود <sup>(3)</sup> . كما ضرب صلاح الدين الدراهم الفضية الناصرية الرديئة لإرتفاع نسبة النحاس المخلوط <sup>(4)</sup> بها حيث أصبحت قيمتها الإسمية القانونية تتفوق على قيمتها المعدنية. فسمّاها الناس "الزيف" فكان لها المردود الإقتصادي السيئ على الناس

(1) د. عبد الرحمن فهمي ، م س ، ص 69-71

(2) S.Lane Poole , Catalouge Ibid,P302.

كتب على الوجه : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالقاهرة سنة سبعين وخمسمائة (1) لا إله إلا الله وحده لا شريك له

أبو محمد (2) المستصفي بأمر الله أمير المؤمنين (3)

في المركز : الإمام الحسن.

الظهر : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الذين كله (1) ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله (2)

الملك الناصر عال غايته (3) في المركز : يوسف بن أيوب.

(3) المقريري : كتاب النقود الإسلامية النسخة الفضلية ص 5. د. عبد الرحمن فهمي : ن م ، ص 10.

(4) د. عبد الرحمن فهمي. ن م ، ص 73 يقول : " وحتى الدراهم الناصرية التي أمر صلاح الدين بضربها بكثرة كانت رديئة تصل بنسبة النحاس فيها إلى النصف فلقبوا " بالزيف " أي الزائفة مما سبب ضرراً للناس.

وهناك درهم آخر لصلاح الدين الأيوبي يحمل زخارف مميزة داخل نجمة سداسية مزخرفة .<sup>(1)</sup>

أما بالنسبة لفلوس صلاح الدين الأيوبي فقد كتب عليها اسمه فقط <sup>(2)</sup> ولقد عثر في مدينة دير البلح في غزة على قطعة نقدية نحاسية تحمل مآثورات تناقض ما ألغاه من عدم وجود صور للملوك العرب المسلمين ، فيبدو أنها ترجع لعهد صلاح الدين الأيوبي <sup>(3)</sup> . ولا يوجد مكان وتاريخ الضرب كما يبدو لنا أن هذه القطعة النقدية ربما ضربت تذكراً لصلح الرملة بفلسطين بين صلاح الدين والصليبيين . وفي عهد العزيز عماد الدين عثمان ضرب هذا الفلوس عام 589هـ / 1193 م <sup>(4)</sup> وهناك درهم نقشته عباراته داخل نجمة سداسية

(1) أنظر الملحق رقم : ظهر على وجه الدرهم بهيئة مربع في ثلاث سطور : الإمام إلنا صر لدين الله أمير المؤمنين وعلى الهامش وفوق كل ضلع من المربع لا إله إلا الله محمد رسول الله :

والظهر : إسم الملك على هيئة مربع في ثلاث أسطر

الملك إلناصر

صلاح الدين

يوسف بن أيوب

(2) أنظر الملحق سليم عرفات ، م س ، ص 192-193.

الوجه ك داخل دائرة الملك الناصر

الهامش : صلاح الدنيا والذين سلطان المسلمين

الظهر : داخل دائرة يوسف بن أيوب

الهامش : ضرب بدمشق

(3) سليم عرفات : م س ، ص 193

الوجه : وجه صلاح الدين يوسف بن أيوب بلحيته وشاربه وعلى رأسه غطاء أشبه بطاقيّة مرتفعة. وأمامه وجه رجل ربما هو ريتشارد

قلب الأسد وعلى رأسه إكليل من الغاب يدكرنا بأكاليل الملوك الرومانيين واليونان.

ووجهه خليق : أنظر : عليه كتابة بالخط الكوفي الجميل داخل دائرة : الملك الناصر : صلاح الدين... دولة أمير المؤمنين .

أنظر الملحق : المرفق صورة نقود صلاح الدين

(4) سليم عرفات : ن م ، ص 193

الوجه : داخل دائرة عثمان

الظهر : داخل دائرة : سيف الملك العزيز / الملك الناصر أبو .

مزخرفة يرجع للظاهر غازي (582-613 هـ) 1186هـ-1215م<sup>(1)</sup> وضرب الملك العادل سيف الدين أبو بكر الدنانير والدراهم والفلوس عام 596هـ/2000م<sup>(2)</sup> كما ضرب دراهم فضية مزخرفة بأسلوب متميز<sup>(3)</sup> وسك فلوساً ضرب عليها اسمه دون الخليفة داخل دائرة ذات زوايا<sup>(4)</sup> أما الملك الكامل محمد بن العادل الذي تسلم السلطة عام 615/1218 ووحّد الدولة وأبطل الدراهم الناصرية 622/1225م وضرب دراهم فضة تمثل وزنها  $\frac{2}{3}$  وخلط الثلث الآخر نحاساً<sup>(5)</sup> وقد إنتشرت هذه الدراهم والدنانير والفلوس في فلسطين طيلة العصر الأيوبي وحتى مجيئ المماليك . فقد أمر الملك الكامل الناس بتبديل الدراهم الناصرية لدى الضيافة على حساب كل رطل منها بدرهمين ونصف كاملية [ الدرهم الكامل 39, 3 غرام ] أي ما يعادل 18 خروبة [ الخروبة 0.194 أو غم ] وكانت دنانيره تشبه النمط الفاطمي حيث تركزت الكتابة وسط دائرة في المركز محاطة بشهادة التوحيد على الهامش

(1) الوجه : الإمام الهامش : غير واضح الظاهر : الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب

الناصر أحمد الملك العادل أبو بكر

الهامش :... غير واضح ويعتقد أنه ضرب مع بداية القرن السابع الهجري / أنظر : سليم عرفات : م س ص 194.

(2) S. Poole , Ibid, P200

الوجه : داخل دائرة : الإمام أحمد الهامش : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالإسكندرية

أبو العباس لناصر لدين الله أمير المؤمنين. سنة ست وتسعين وخمسمائة

الظاهر : داخل دائرة : عادل الهامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهر على الذين كله

الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب

ولي عهده الملك الكامل محمد ٩٩

(3) P. Coins , Ibid , P266, No 1277.B.M . وأنظر صورة في الملحق

على ظهرها : سيف الملك العادل الهامش : ضرب / دمشق / سنة / ثلث عشر وستماية

أبو بكر بن أيوب الدين

الوجه : الإمام الناصر / أنظر الملحق رقم الظاهر : الملك العادل

الظاهر : الملك العادل

(4) سليم عرفات : م س ، ص 195.

(6) د. عبد الرحمن فهمي : م س ، ص 73.

على الوجه التالي <sup>(1)</sup> . كما ضرب دراهم على غمطين أحدهما كانت المآثورات داخل دائرة تشبه مآثورات الدينار السابق وآخر كان داخل مربع <sup>(2)</sup> أما في نهاية حكمه فقد حدثت أزمات إقتصادية عام 1233/630 نتيجة كثرة الحروب التي أدت إلى انخفاض سعر الدينار من الدراهم الفضية ، وازدادت كمية الفلوس النحاسية <sup>(3)</sup> على حساب كميات الدراهم الدراهم الفضية وأطلق عليها " الدراهم والفلوس " أي فلوس الملك الكامل ولم تعد تسد حاجة التجار ، مما تسبب في دخول العملات الفضية الأجنبية للأسواق العربية كنقود البندقية المضروبة سنة 1203م ونقود فلورنسا مما أدى لإختفاء الفضة وتهريبها إلى أوروبا لصهرها وسكها وعودتها للأسواق العربية <sup>(4)</sup> وهكذا إستمرت النقود الأيوبية حتى سقوط

Fig 23. Lane Poole , Ibid, P 229 <sup>(1)</sup>

- الوجه : داخل دائرة : الإمام  
المنصور أبو جعفر المستنصر  
بإله أمير المؤمنين  
الظاهر : داخل دائرة : الملك الكامل  
أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب  
وأنظر المقرئ : كتاب النقود القديمة النسخة الفضلية ص 20.  
<sup>(2)</sup> سليم عرفات : م س ، ص 197  
الوجه : داخل دائرة : المؤمنين  
الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر  
وهناك درهم للملك ظهرت مآثوراته داخل مربع : سليم عرفات : ن م ، ص  
الوجه : داخل مربع تحيطه نقط : الإمام  
المستنصر بالله أبو جعفر المنصور  
الظاهر : داخل مربع الملك الكامل  
ناصر الدنيا والدين محمد بن أبي بكر  
وكذلك فلوسه داخل مربع.  
<sup>(3)</sup> الفلوس : مفردا فلس بمعنى الدراهم وهي نقود من نحاس ، إن منظور لسان العرب ج 8 الفاء حرف السين.  
أما د. عبد الرحمن فهمي : م س ، ص 11 فيقول "إن كلمة فلس لا تعني بالضرورة عملة نحاسية بالرغم من إستعمالها الشائع منذ فجر الإسلام ، ولفظ الفلس مشتق من اليونانية فقد إشتق العرب تلك السكة من البيزنطيين وكانت تسمى **Follis** ولكن العرب لم يتقيدوا بهذا الوزن فتحجم لسوريا ومصر فضربوا فلوساً عربية في بعلبك.  
<sup>(4)</sup> سليم عرفات : ن م ، ص. ويدكر المقرئ في إغاثة الأمة نصاً يفهم منه أن إبتداء ضرب مصر كان في عهد السلطان الكامل والفلوس هي النقد النحاسي الذي عهدنا ضربه بمصر أيام الكامل الأيوبي بعد أن لم تكن. والواقع أن الفلوس هي النقد النحاسي الذي عهدنا ضربه بمصر قبل الفتح الإسلامي وبعده وقد سبقت الإشارة إلى أنواع كثيرة من الفلوس المصرية في فجر الإسلام ولم تكن توجد بمصر قبل عصر الأيوبيين والصحيح أن الكامل قام بإصلاح النقد المصري كله من ذهب وفضة ونحاس وحدد سعر الدرهم الكامل الفضي بثمانية وأربعين فلساً من النحاس ومنذ عهد الكامل نتابع الملوك في ضربها حتى كثرت الأيدي.  
د. عبد الرحمن فهمي ، ن م ، ص 104-105 نقلاً عن المقرئ.

الأيوبية وقد سميت الدراهم الفضية " النقرة " ومنها الدراهم الفلوس النحاسية والتي كانت كل ستة منها تساوي "النقرة" أي الدراهم الفضة وإستمرت الخلافات بعد ذلك بين الملك الصالح نجم الدين دعمه الصالح إسماعيل حيث حوصرت العديد من مدن فلسطين (صفد ، طبريا مما أثر على إقتصاد البلاد ، ف ضرب بالملك الصالح نقوداً في القاهرة ما بين 637-1240/646م كما ضربت النقود في دمشق في الفترة الواقعة ما بين 644-645هـ وقد ضرب على نقوده في سنة 1249/647 م ولقب مولى أو ناصر دمشق <sup>(1)</sup> " الناصر دمشق" وقد ضرب الناصر "الثاني" يوسف بن محمد دراهم بدمشق جاءت مآثوراتها داخل مربع وتشبه تلك التي ضربها الكامل وموت الملك توران شاه الذي لم يمكث في الحكم أكثر من شهرين سقطت الدولة الأيوبية 648هـ/1250م وتعتبر نقود "توران شاه من أندر العملات الأيوبية لأنه لم يحكم سوى واحد وستين يوماً إنتهى في 648 هـ/1250م وقد ذكرت معظم المراجع التاريخية كلها إسم ترنشاه في كلمتين هما "توران شاه" وسجل على النقود وهي الوثيقة الرسمية " ترنشاه" وسجل معه إسم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد المستعصم بالله كما فعل والده لصالح نجم الدين <sup>(2)</sup> .

الإمام	الملك المعظم
المستعصم بالله أبو أحمد	غيات الدين والدنيا
أمير المؤمنين	ترنشاه بن محمد
د. عبد الرحمن فهمي : م س ، ص 77 .	

<sup>(1)</sup> Lane Poole, Ibid , P. 230 Fig 54

وأنظر الملحق رقم : الوجه : الإمام  
المستعصم بالله أبو أحمد أمير المؤمنين  
الهامش : غير واضح /ضرب بدمشق سنة 651هـ/1253م  
الظاهر : الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد  
M. Broome , Hand Book of islamic coins, P. 123.

<sup>(2)</sup> د. عبد الرحمن فهمي، م س، ص 77.

وفي هذه الفترة إحتفى الذهب والفضة من الأسواق مما شجع الصليبيين على إستيرادها  
لفلسطين وسك نقودهم في القدس وعكا وزادوا على ذلك تقليد وتزييف النقود العربية  
الأيوبية منذ 648هـ/1250م كأسلوب من أساليب المقاومة اليائسة بعد أن وصلوا مرحلة  
الإنهيار العسكري والسياسي فإنعكس ذلك على المواطنين في فلسطين<sup>(1)</sup>

---

(1) أبو شامة المقدسي الدمشقي : م س، ص 211. إذ يذكر إبتلاء الناس بغلاء شديد في عام 658هـ عم جميع السلع الإستهلاكية  
الضرورية من مأكّل وملبس بلغ.

فيه سعر رطل الخبز بدرهمين ، واللحم بخمسة دراهم وكذلك إرتفعت أسعار الثوم والحبّ والعنب ، ويعلّل الأسباب بقوله ما أحدثه  
الفرنج " الصليبيين " من ضرب الدراهم المعروفة " بالياقية " ربّما نسبة لمدينة يافا الساحلية وكانت كثيرة الغش حيث قال " بلغني أنه كان في  
المائة منها خمسة عشر درهماً فضة والباقية نحاس " وإنتشرت هذه الزيوف في البلاد إنتشاراً عظيماً حتى تخلّص الناس منها بالشراء خوفاً من  
بطلانها وبطلت بالفعل في أواخر السنة حيث بيعت كلّ أربعة دراهم بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بمقدار النصف.



## النظام المالي الأيوبي

### مقدمة..

لقد وقفت طويلاً أمام عبارة ابن خلدون الإقتصادية "إن من طبيعة الملك الترف" حيث ربط بين موارد الدولة ومصروفاتها وبين قوتها وسقوطها وأوضح أن كثرة واردات الدولة تؤدي إلى زيادة مصروفاتها وإسرافها والإسراف، يؤدي إلى زيادة الضرائب والجبايات من الشعب <sup>(1)</sup> كما هو ملاحظ في أيامنا هذه كما دفعتني هذه العبارة إلى التساؤل عن واردات الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة عند تأسيسها على يد صلاح الدين الأيوبي.

لذا كان لا بد أن نشير إلى هذه الواردات وأنواعها وطرق جمعها وصرفها مما مكنه من تحرير الشام من أيدي الصليبيين.

### أولاً بالنسبة للواردات :

فقد إعتد على الواردات الشرعية المعروفة في مصر والشام والجزيرة وألغى الضرائب الشرعية والمكروهة وذلك لكسب المحبة والولاء الشعبي لحكمه <sup>(2)</sup> وقد فعل صلاح الدين ذلك للإبتعاد عن سياسة الفاطميين السيئة في فرض الضرائب الباهضة على الحجاج السنيين حتى كرههم الناس وإمتنعوا أحياناً عن الحج وتمنوا الخلاص من ملكهم حيث رأوا في صلاح الدين المنقذ الشرعي لهم من ظلم الفاطميين الشيعة الذي أعفاهم من هذه الضرائب غير الشرعية <sup>(3)</sup>

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت 1971م، ص 140، 235.

(2) أسقط عن أهل مصر عام 567هـ/1169م سائر الضرائب غير الشرعية بما يقدر بمائة ألف دينار سنوياً علماً بأن واردات مصر كانت تشكل المصدر الأول لميزانيته بينما منح البلدان الأخرى استقلالاً ذاتياً مقابل المشاركة في بلاد الشام أو الجزيرة في حروبه مع الصليبيين. ابن كثير، م، ص 12، ص 268. كما ألغى عام 572هـ/1176م ضريبة الحجاج التي كان يأخذها أمير مكة من الحجاج المغاربة على الرؤوس مقابل تعويضة ثمانية آلاف إردب قمح سنوياً ترسل لساحل حدة.

أنظر البنداري : تلخيص البرق الشامي للأصفهاني ج 1 ص 304 /وأبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 3، /سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ق 1 ج 8، ص 338.

(3) هذا وذكر ابن جبير مقدار ضريبة الحجاج المغاربة بسبعة دنانير ونصف (مصرية) على الرأس. ابن جبير : م، ص 568.

أنظر أبو شامة : ن، م، ج 2، ص 4.

وإستمر في سياسته الهادفة لكسب الولاء والطاعة في إرجاء دولته الواسعة فألغى باقي الضرائب غير الشرعية أيضاً عن حجاج وتجار اليمن <sup>(1)</sup> وضرائب سنجار عام 578هـ/1182م <sup>(2)</sup> وألغى عام 579هـ/1183م ضرائب حلب التي فرضها عماد الدين زنكي عليهم بالإضافة لضرائب الرقة <sup>(3)</sup>.

كما ألغى صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ/1187م ضرائب الصليبيين التي كانت مفروضة على البلقاء والسلط والجولان وجبل "عجلون" بحيث كان مقدارها نصف حاصل البلاد <sup>(4)</sup> والحقيقة أنه أبطل هذه الضرائب غير الشرعية التي فرضها الفاطميون الشيعة بالموارد الشرعية السنوية <sup>(5)</sup> فأنشأ ديوان الزكاة في مصر وسمي صاحبه بـ "متولي الزكاة" حيث بلغت عائداتها عام 587هـ/1190م حوالي إحدى عشر ألفاً وثمانمائة وإحدى وستون ديناراً 861، ولكن دولته في هذا العام كانت في ضائقة مالية <sup>(6)</sup> وعُين "ابن حمدان" للإشراف على جبايتها لسد العجز المالي وجمع ما يقارب إثنين وخمسين ألف دينار سنوياً <sup>(7)</sup> وأما الضريبة الشرعية الثانية بعد الزكاة فكانت الخراج <sup>(8)</sup> بعد إدخال تعديلات

(1) ابن جبير، م س، ص 8، 30.

(2) المقرئ، السلوك : ج 1، ص 74.

(3) أبو شامة، م س، ج 2، ص 47 حيث أورد نص المنشور الذي أوضح فيه صلاح الدين الأسباب الداعية لإلغاء هذه الضرائب. وكان من نص المنشور (( إن أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق، ومن ترك الله شيئاً عوضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه ما أقرضه ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا منها على سمن يؤكل وظلم ما أمر الله به أن يقطع وأمر الظالمون أن يوصل، فأوجعنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها وبلغوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسرها ونعتق بلد الرقة من رقها ونثبت الأحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحققها.. ويعفى خير هذه الضرائب من الدواوين ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة ماضية الأحكام مستمرة الأيام... ))

(4) أبو شامة : ن م، ج 2، ص 79.

(5) المقرئ : الخطوط ج 1، ص 108.

(6) ابن شداد، النوادر : ص 148 - 153.

(7) المقرئ، الخطوط ج 1 ص 108. / وقد أعفى من الزكاة بعض المواد الغذائية الضرورية للإستهلاك البشري كالزيتون والخضار والسمسم

والكتان. ابن ممتي : قوانين الدواوين، ص 310 - 316.

(8) ضريبة الخراج : هي الضريبة المفروضة على الأراضي المزروعة حبوباً وفاكهة وعنباً ونخلًا والتي كان يدفعها المزارع لصاحب الأرض الذي يدفعها بدوره لخزانة الدولة بعد خصم مصاريف الأرض. / أنظر حستين ربيع : النظم المالية في مصر ص 41.

على طريقة جمعه وأوقات الجمع لمخالفتها السنة الشمسية رحمة بالفلاحين فحول السنة القبطية إلى السنة العربية عام 567هـ/1171م<sup>(1)</sup>

وبالنسبة للمناطق الأخرى غير المصرية في جنوبي بلاد الشام وغيرها فإن صلاح الدين الأيوبي كان يأخذ منها الخراج حسب مساحة الأرض التي تقاس بالفدان، فكانت الضريبة على القمح والشعير إردين ونصف لكل فدان و أما طريقة جمع الضرائب فكانت بواسطة المنتفعين بالأرض الذين يسلمونها بدورهم لديوان السلطان<sup>(2)</sup>، بينما أبقى ضريبة الفول والحمص التي كانت موجودة مثل قيام الدولة الأيوبية بمقدار (2,5 - 3) أراذب للفدان الواحد هذا بالإضافة إلى الضرائب النقدية الأخرى التي كانت مفروضة على الحاصلات الزراعية الأخرى والتي تراوحت ما بين دينار وخمسة دنانير على الفدان الواحد.

أما بالنسبة للأشجار والكروم فكانت ضريبتها ربع دينار على الفدان في السنة الأولى وثلاثة دنانير في السنة الرابعة. فكان ذلك مساعدة منه للفلاح لأن إنتاج الأشجار في السنوات الأولى أقل منها فيما بعد. بينما كان نوع الخراج الذي يؤخذ على غابات الأشجار يعرف بإسم "مقرر السنط" علماً بأن صلاح الدين الأيوبي أصدر قوانين مشددة الحفاظ على الغابات<sup>(3)</sup> وذلك لأنها كانت تستخدم لصناعة الأدوات الحربية كالسفن والأقواس والنشاب والسيوف وخاصة وأن الحرب كانت مستمرة مع الصليبيين<sup>(4)</sup>. وكذلك منع صلاح الدين التصرف في المعادن كالأخشاب لأهميتها في صناعة المواد الحربية من اسلحة وسفن أيضاً وفرض ضرائب على المعادن الثمينة كالذهب والفضة، كضريبة "دار الضرب" التي أخذها من أصحاب الأموال الذين يملكون الذهب والفضة مقابل سك الذهب فكان مقدارها ثلاثة وثلاثين دينار عن كل ألف دينار، وأما ضريبة الفضة فكانت  $14\frac{1}{2}$  درهماً عن كل ألف درهم<sup>(5)</sup> وبالنسبة للضريبة الشرعية الثالثة فكانت الجزية التي يأخذها

(1) كانت تسابق الشهور العربية الشمسية بجعل خراج السنة سنوياً للسنة السابقة، وإستحقاقه في السنة اللاحقة لذا كانت العادة في مصر أنه إذا مضى ثلاث وثلاثون سنة اعتبر المكلفون بشؤون الخراج السنة الثالثة والثلاثون في السنة الخامسة والثلاثون وإلغاء ما بينهما.

حسنين ربيع : م س، ن ص / ابن جبير : م س، ص 42.

(2) القلقشندي م س، ج 13، ص 73. Elisseeff. Nur Salah Ad- Din, II, P.801.

(3) ابن ماضي : قوانين الدواوين ص 345 - 347. ن م، ن ص.

(4) ن م. ن ص،

(5) ن م. ص 332-333، ربيع، النظم المالية، ص 49.

من النصارى واليهود والتي لا يأخذ منها سوى  $\frac{3}{8}$  "ثلاثة أثمانها" والخمسة أثمان الباقية تنفق على أهل البلد في عوائد الأوقاف<sup>(1)</sup> وكانت هذه الضريبة تفرض على البالغين ويعفى منها الصبيان والنساء والعبيد والشيوخ والرهبان والفقراء والمجانين، وسميت "ضريبة الجوالي" التي راعت أحوال أهل الذمة المالية فكانت  $4\frac{1}{6}$  دينار على كل فرد من أفراد الطبقة العليا ودينارين على كل فرد من أفراد الطبقة الوسطى وديناراً وجزءاً من الديناراً على أفراد الطبقة السفلى وأضاف عليها بالنسبة لجميع الطبقات درهمين ونصف كرسوم لمصروفات الحياة<sup>(2)</sup> بما يشبه اليوم "غلاء المعيشة" ويلاحظ على هذه الضريبة الشرعية عدالتها وإنصافها، فقد كان مقدار ما يدفعونه يعادل رسوم الزكاة عند المسلمين. وأما الموارد الأخرى للخزانه المالية فكانت ضريبة الخمس على التجار الأجانب القادمين من إيطاليا وأوروبا إلى الإسكندرية بنسبة تتراوح ما بين (20-35%) من قيمة بضائعهم<sup>(3)</sup> وذلك من مبدأ المعاملة بالمثل. ويعتقد بأن هذه الضريبة كانت مقابل الضرائب التي فرضتها دول أوربا على التجار المسلمين.

#### ثانياً. مصروفات الدولة الأيوبية :

لقد إتصفت سياسة صلاح الدين الأيوبي في الصرف بالإسراف لأنها كانت قائمة على صرفها للمستحقين وغير المستحقين وعلى جيشه في سبيل الجهاد لكسب مودة الشعب والجيش<sup>(4)</sup> مما دفعه أحياناً للإقتراض من كبار التجار والأمراء حتى تصل إليه الأموال المقررة من أرجاء دولته الواسعة<sup>(5)</sup>.

(1) ابن جبير : م س ص 42.

(2) ابن مماتي : م س، ص 318.

(3) ن.م، ن.ص، ابن جبير ن.م، ن.ص.

(4) ابن شداد : النوادر السلطانية ص 18. الذي أورد قول صلاح الدين "إن قيمة الأموال هذه لا تزيد على قيمة الثياب" وانظر: وول

ديورانت : م س. ج 5. ص 45.

(5) البنداري : سنا الرق الشامي ج 1 ص 123. فقد ذكر بأنه أنفق كل ما في خزائن الفاطميين عام 567هـ/1171م، وانظر

Ahistory of Egypt, p.193. Lane pool. كنا أنفق عام 583هـ/1187م ما جمع من القنس مع ما أرسل له الملك

العادل بما يقارب سبعين ألف دينار في ليلة واحدة لذا أرسل له في اليوم الثاني ثلاثين ألف أخرى. /ابن واصل : م س.

ج 2، ص 242.

لذا لم يهتم صلاح الدين نتيجة هذه السياسة بكنز الأموال بل تجاوز سلبية أخرى وهي عدم محاسبة موظفي ديوان بيت المال <sup>(1)</sup>.

وهكذا يتضح لنا بأنه لم تكن له سياسة مالية منتظمة ولم يهتم بميزانية دولته أو الموازنة بين الواردات والمصروفات لأن معظم نفقاته كانت على الإعداد العسكري من حيث التحصينات العسكرية وبناء السفن والباقي على بناء المساجد والمدارس والخانات واليمارستانات والزوايا هذا بالإضافة إلى مخصصات الفقراء والأيتام.

### ثالثاً- مصروفات السلطان الخاصة :

لقد أشرف على هذه المصروفات الديوان السلطاني الذي كان ينفق الأموال على شراء السلع وما يحتاجه السلطان وعلى خدم السلطان وطعامه وضيافته وإصطبلاته <sup>(2)</sup> بالإضافة إلى مكافأة الشعراء والفقراء ومن سيسأله كرمه <sup>(3)</sup> كما كان أحياناً ينفق من أموال الديوان على الجند لتشجيعهم وترغيبهم في مواصلة الفتوحات وإظهار البطولات في المعارك العسكرية كما فعل عام 575هـ/1179م <sup>(4)</sup>. بينما كان يشرف على مصروفات الجيش ديوان الجيش من حيث المرتبات للجند وما يتبعهم من عربان وصوفية وقضاة. وتسليحهم وتحصين قلاعهم والتعبئة العسكرية وبلغت مصروفات جيشه عام 577 هـ / 1181 ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين ألفاً إضافة إلى مليون دينار أخرى صُرفت على العربان والصوفية والفقهاء والقضاة <sup>(5)</sup> فكانت مصروفاته اليومية تزيد أحياناً على أربعين ألف دينار، كما لوحظ حرية تصرف ولاته في النفقات العسكرية وغيرها لأنه كان قد منحهم استقلالاً ذاتياً في ولاياتهم.

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية : ص 14-16.

(2) ابن مماتي، م س: ص 354..

(3) ابن الأثير، م س ج 12، ص 97، البنداري / م س ج 1، ص 234.

(4) حسنين ربيع، النظم المالية : ص 62-63.

(5) المقرئزي : السلوك، ق 1، ج 1، ص 75 اليونيني م س: ق 1، ج 8، ص 41.

## "النقود المملوكية المتداولة في فلسطين"

648 - 923 هـ / 1250-1520م

لقد كانت الفترة الأولى من حكم المماليك البحرية مملوءة بالأحداث العسكرية والسياسية لتصديهم للصليبيين في عكا وللمغول بمساعدة القبائل الفلسطينية من أبناء مهدي وبني عطية والسوالم في موقعة عين جالوت <sup>(1)</sup> وإستمرار الحرب بعدها سجالاً حتى عام 1322/722 حتى هزموهم في موقعة "عين الصقر" فطهروا البلاد من بقاياهم ، لذلك لم يتمتع سكان المنطقة بالإستقرار السياسي والإقتصادي ، وإستخدم المماليك النقود الأيوبية ، ولم يتخذوا المدن الفلسطينية دوراً لسك النقود وإكتفوا بضربها في دمشق وحلب وحماه والقاهرة والإسكندرية لكثرة الحروب وميل العديد من الأمراء للإكتناز وبيع ممتلكاتهم وإقطاعاتهم ومصادرة الحاصلات الزراعية مثل "الزيت" وبيعها بأسعار خيالية للسكان ، ولكثرة الضرائب المفروضة على الناس لتغطية نفقات الحروب وما تعرضت له البلاد من كوارث طبيعية كالزلازل والقحط والأوبئة وإنتشار الجراد كل هذا كان سبباً في عدم إستقرار النقود العربية لسوء الأحوال هذه . وفي سنة 650هـ / 1252م أي في بداية العصر المملوكي سول لبعض الأمراء والسلاطين المماليك حب الفائدة فضمن ضرب الفلوس وجعل كل فلس يزن مثقالاً ، والدرهم يقدر بأربعة وعشرين فلساً ولم تكن الفلوس حتى ذلك التاريخ يشتري بها شيء من الأمور الجليلة وإنما هي لنفقات البيوت والأغراض وما يحتاج إليه من الخضر والبقول وغيرها إلى أن كانت سلطة "العادل كتبغا" فضربت فلوس خفيفة الوزن 695هـ / 1297م وتقرر لأول مرة أن توزن الفلوس عند التعامل بها ، وأن يكون زنة الفلس درهما واحداً وحدد الرطل من هذه الفلوس بدرهمين فضة "وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزناً لا عدداً" <sup>(2)</sup> فترتب على ذلك إغلاق الباعة لحوانيتهم فلجأ والي القاهرة إلى إستعمال العنف معهم بضربهم بالمقارع والتشهير بهم.

(1) خالد محمد طرية - آل طرية عبر التاريخ - مطبعة دار الأينام الإسلامية - القدس 1979 ص 11-12.

أنظر المقدسي : م س ، ط 2 ، بيروت ، 1974 ، ص 207.

(2) د. عبد الرحمن فهمي ، م س ، ص 105-106.

وكانت الملكة "شجرة الدر" أول ملوك المماليك ضرباً للنقود التي نقشت عليها لقبها مع إسم الخليفة العباسي المستعصم بالله <sup>(1)</sup> كما حاول بعض الأمراء عام 1252/650 ضرب فلوس جعلوا وزنها مثقالاً وكل أربعة وعشرين فلساً تعادل درهماً وذلك لتلبية الاحتياجات المنزلية البسيطة من فواكه وخضروات <sup>(2)</sup> ثم ضرب " المعز أيك" النقود عام 652هـ/1254 باسم الملك الصالح <sup>(3)</sup> ولم يسجل أيك على النقود إسم الطفل الأيوبي "خليل" ابن شجرة الدر من الملك الصالح الأيوبي والذي جاء به إرضاء للأيوبيين في سوريا والكرك بل سجل إسمه مصحوباً باسم سيده الملك الصالح نجم الدين أيوب تعبيراً عن وفائه وليوحي للناس بأنه يحكم البلاد باسمه ولا يفصل بين الإسمين الإشارة على شكل رقم 7 <sup>(4)</sup> وربما كان ذلك للدلالة على أحد الرنوك التركمانية للمعز أيك <sup>(5)</sup> وتولى بعده المنصور نور الدين علي بن أيك البالغ من العمر إحدى عشرة سنة والذي سكَّ نقوداً عام 1257/655 ، كتب عليها إسم الخليفة العباسي المستعصم بالله وهي تشبه نمط النقود الأيوبية من حيث المأثورات داخل مربع ضمن دائرة . وقد تميزت نقود أيك بإضافة رقم (7) كرمز فوق إسم أيك. <sup>(6)</sup> وفي عام 1259/657 نقش سيف الدين قطز إسمه ولقبه على نقوده الذهبية والفضية بعد أن قبض على نور الدين وبعد إنتصاره على المغول ، وكان وزن الدينار المملوكي 25 و4 غم

(1) د. عبد الرحمن فهمي - النقود العربية - م س ، ص 85-86.

الوجه : في المركز : المؤمنين

المستعصمية الصالحية

ملكة المسلمين والدة

الملك المنصور أمير

الظهر : في المركز : الإمام

المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله

أمير المؤمنين

ويقول سليم عرفات: أنه لا يوجد من دنانيرها سوى دينار واحد بالمتحف البريطاني :

سليم عرفات : النقود العربية الفلسطينية ص 203 الهامش.

(2) S. Lane Poole , A history of Egypt , Ibid , P. 255 Giy 56

(3) S. Lane Poole , Ibid 256 , Fig 57.

(4) الملك الصالح /نجم الدين أيوب (7) أيك.

(5) د. فهمي : م س ، ص 87.

(6) M. Bloome , Hand Book of islamic coins , Ibid , P. 124 Fig 188

هذا ولم تستقر النقود في بداية عصر المماليك لعدم إستقرار الحالة السياسية في الشرق العربي بعد اجتياح المغول للخلافة العباسية في بغداد وتخريبهم مراكز الحضارة في الشرق .  
وفي عام 1260/658 ضرب بيبرس نقوده المتميزة شعاره الجديد "رنك" وهو الأسد والذي شوهد على بعض الأبنية أو المنشآت التي أقامها ولقبه "قسيم أمير المؤمنين" بعد نقله مقر الخلافة من بغداد للقاهرة 659هـ/1261م ليقوي مركزه السياسي والذيني بمشاركة الخليفة العباسي له ، ولجابهة التحديات الأيوبية في الشام فكانت الكتابة تتشبه ما كتبه شجرة الدر كالتالي (1) كما ضرب بيبرس دراهم بمدينة "حماء" دراهم فضية لم يظهر عليها تاريخ الضرب كما كان عليها إسم الخليفة المستنصر وظهر على ظهرها رنك الأسد (2) كما ضرب دراهم فضية بمدينة دمشق ظهرت على مآثورات داخل دائرة (1) ويبدو أن إشارة

(1). S. Lane Poole A history of Egypt Ibid P.263, Fig 58

الهامش ضرب ... سكندرية سنة وتسع وخمسون وستماية

الهامش : غير واضح

الوجه : في المركز : لا إله إلا الله

محمد رسول الله

أرسله بالهدى

الظهر : في المراكز : السلطان

الملك الظاهر

ركن الدنيا والدين بيبرس.

(2) M. Bloome , Hand Book of islamic coins , Ibid, P. 124 Fig 188



( ) فوق إسم (محمد رسول) على وجه الدرهم هي بمثابة "رنك" أو إشارة لضارب النقود أو بمثابة "دمغة" وذلك لتكرار رسمها منذ أيام أيك<sup>(2)</sup> كما ضرب ببيرس فلوساً نحاسية كتب عليها داخل دائرة<sup>(3)</sup> وكانت النقود المملوكية من الذهب والفضة والنحاس وقد كان الذهب في عهد المماليك البحرية قاعدة للنقد تقدر على أساسه وحدات النقود الأخرى، وقد خضع لتغيرات متعددة من حيث المعيار والوزن والحجم وتحديد سعره في ضوء العرض والطلب وبناء على رغبة السلطان في الكسب والإثراء عن طريق ضرب النقود الذهبية لحسابه الخاص<sup>(4)</sup> وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع الميلادي ظل ضرب النقود أساساً بالذهب والفضة واحتفظت النقود الفضية بنسبة ثابتة من معدن الفضة النقي أي 983,1 غم وتراوح صرف الدينار الذهب بعشرة دراهم<sup>(5)</sup> وبالنسبة لندرة الذهب المتداول في مصر فقد بدأ في عهد السلطان قلاوون 31 أكتوبر سنة 1284م عندما قرر مجلس شيوخ البندقية ضرب عملة ذهبية خاصة أطلق عليها في أوروبا لفظ دو كات Ducat بينما عرفت في الشرق باسم

(1) سليم عرفات : م س ، م س ، ص 206

الهامش....ستمائة

الوجه : ضرب دمشق

لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين

الظاهر : أمير المؤمنين

الملكركن . الدنيا والدين...

الملك الظاهر قسيم عرفات "الأسد"

(2) سليم عرفات المبيض : م س ، ص 206 (باب الرنوك) الإسلامية في غزة / أما عن عبد الرحمن فهمي : م س فقد أورد صورة لبعض

الدراهم الظاهرية ص 95.

الإمام المنتصر

أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر أمير المؤمنين الصالح

السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ببيرس قسيم أمير المؤمنين (رنك السبع)

وبعد مقتل أبي القاسم نقش إسم الخليفة الحاكم بأمر الله.

(3) سليم عرفات : ن م ، ص 207

الوجه : كتابة غير واضحة

الظاهر : السلطان "صورة أسد يعدو لليسار"

الملك الظاهر.

(4) د. فهمي : م س ، ص 92 ويضيف "بأنه ليس من المحتم أن يلتزم لفظ "درهم" وزناً محدداً شرعياً لنقد الفضة أو النحاس ، ولكنه يستعمل

ليشير إلى وحدة نقدية مختلفة القيمة كما كان الحال في النقود الرسمية التي أطلق عليها "درهم معاملة.

(5) ن م ، ن ص.

"بندقي" أو (أفرنتي) وقد وصفها مؤرخو مصر المملوكية باسم المشخصة<sup>(1)</sup> وفي عصر المنصور سيف الدين قلاوون عام 677-682هـ/1279-1284م عملة ذهبية أطلقوا عليها دويكات Ducat<sup>(2)</sup> وسماها أهل فلسطين والشام "بندقي" أو أفرنتي" وسماها المؤرخون العرب "المشخصة" لوجود صورة شخص من القديسين عليها . وما زال بعض الفلسطينيين يطلقون نفس التسمية على مثل هذه النقود . وضربت فلورنسا بإيطاليا نقوداً ذهبية سميت "أفلودي" ثابتة الوزن 3,45 جرام<sup>(3)</sup> مما زاد من ثباتها وتداولها في فلسطين والشام ومصر في الوقت الذي كانت فيه الدينار المملوكية بدون عيار أو وزن ثابت أو حتى قطر أو سمك معين لذا تسربت كميات كثيرة من الذهب من أسواق الشرق العربي إلى إيطاليا لتزويد دور السك فيها وقد ضرب قلاوون الدينار التي كتب على وجهها اسم السلطان ومكان وتاريخ الضرب بالخط والنسخ ، بينما نقش على الظهر : "لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الذين كله" وضرب دراهم جاء عليها داخل دائرة سجلت معظم مساحته بالخط النسخ<sup>(4)</sup> ولعل من أهم عوامل إنتشار دوكات البنادقة في مصر والشام والحجاز واليمن هو دقة سك هذا النوع من النقود الذهبية من حيث إستدارة القطعة تماماً ووزنها الثابت (3,45 جرام) وعيارها البندقي المرتفع بينما يقابل ذلك دنانير "مملوكية" معاصرة ليس لها عيار وأوزان ثابت أو سك أو قطر محدود ) لذلك كان من السهل على التجار عند التعامل إستلام الدوكات بالعدد بدلاً من الدنانير المملوكية التي كان يضطر المتعاملون بها إلى وزنها وإضافة قطع ذهبية أخرى لإستكمال

(1) ن. م ، ص 95.

(2) د. عبد الرحمن فهمي : م س ، ص 95.

(3) ن م ، ن ص.

(4) سليم عرفات : م س ، ص 207

أنظر الملحق :

الوجه سيف

لا إله إلا الله محمد رسول الله

أرسله بالهدى ودين الحق...

الظهر : السلطان الملك

المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

الوفاء عند الدفع . وقد أزعج هذا الهجوم النقدي للدويكات الذهبية على الدنانير المملوكية السلطان فرج بن برقوق في أوائل عهد المماليك البرجية مما جعله يجري سنة 803هـ ضرب دنانير بوزن مثقال تماماً (4,25 غم) كي يلافي الإلتجاء إلى الوزن عند الدفع وأشرف على هذا النوع من النقود وزيرة يلبغا السالي فسمى الواحد من هذه الدنانير "بالسالي" رغم أنه جعل في وسط كل دينار دائرة نقش فيها إسم "فرج" غير أن هذه العملة الجديدة تطرق إليها الفساد فيما بعد كما ذكر القلقشندي . وكما ضرب قلاوون نصف درهم ظهرت عليه نفس الشارة ويحتمل أن يكون هذا النصف درهم قد ضرب بين سنتي 678هـ-688هـ/ 1280-1290م<sup>(1)</sup> كما ضرب الأشرف خليل 689-693/1291-695م دنانير عليها مآثورات بالخط على هيئة سطور داخل دائرة<sup>(2)</sup> أما الناصر محمد "693-698هـ/1295-1300م" (708-1308/741م فقد ضرب دنانير ودرهم وفلوساً بدمشق والقاهرة تحمل مآثورات شبيهه في نمطها وخطها بنقود الأشرف خليل عام 1295/694 كله<sup>(3)</sup>

(1) M. Broome , hand Book, Ibid, P. 285 Fig No 191

الوجه : ضرب القاهرة  
الظاهر : السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين...

(2) Lane , Poole, Catalouge, Ibid P. 25 No 1509

الوجه : ضرب القاهرة  
الظاهر : السلطان الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل قسيم أمير المؤمنين بن الملك المنصور.

(3) Lane, Poole , Ahistory of Egypt, Ibid P. 290 Fig 62

الوجه : لا إله إلا الله  
الظاهر : السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين كنيغا قسيم أمير المؤمنين أرسله بالهدى ودين الحق محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق

وضرب الناصر محمد ديناراً آخر بالقاهرة 1348/740<sup>(1)</sup> واستمر ضرب النقود المملوكية في أيام السلطان حسن بن قلاوون [748-752] 1348-1350م. إنضرب فلوساً أسماها "الجدد" زنة كل فلس (25,4 غم) والتي أخذت في التناقص حتى تلاشت ، وقد بقيت هذه الفلوس حتى عصر القلقشندي تصنع من النحاس الأحمر<sup>(2)</sup>. وتميزت دنانير السلطان حسن بخط النسخ البديع داخل خطوط متموجة شبه دائرية<sup>(3)</sup> وقد أراد بذلك إصلاح الحالة الاقتصادية بعد غلاء الأسعار وثورة العامة ، واستمر ضرب دينار السلطان حسن حتى عام 750هـ/1352م وعندما تولى الظاهر بركات<sup>(4)</sup> 784-801هـ/1382-1499م ضرب الدنانير في حلب والدرهم الظاهرية والفلوس<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> Lane , Poole , A history of Egypt , Ibid

P, 317, Fig No 73 أنظر الملحق رقم :

الوجه : وما النصر إلا من عند الله	الظاهر : ضرب القاهرة
لا إله إلا الله محمد رسول الله	السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين بن
أرسله بالهدى ودين الحق	الملك المنصور قلاوون

<sup>(2)</sup> د. فهمي ، م س ص 106.

<sup>(3)</sup> أنظر الملحق : سليم عرفات : م س ، ص 209.

الوجه : الله	الظاهر : ضرب القاهرة
وما النصر إلا من عند الله	السلطان الملك الظاهر
لا إله إلا الله محمد رسول الله	ناصر الدنيا والدين حسن بن
أرسله بالهدى ودين الحق	الملك المنصور بن قلاوون سنة.....

<sup>(4)</sup> Lane Poole Catalogue , Ibid , P P. 263 - 264

## "النظام المالي في العصر المملوكي"

### الضرائب الزراعية

وقد إنقسمت إلى قسمين : الضرائب العادية وهي الضرائب الموروثة من العهد الأيوبي كالخراج والعشر والضرائب المبتدعة الجديدة: كضريبة الطرح والرمي، والتجاريد العسكرية، والخطب، والشعير ولم تكن الضرائب الزراعية بنوعها وليدة العصر فحسب، بل كانت إمتداداً للعصور السابقة<sup>(1)</sup>.

وكان للماليك جهاز ضرائبي دقيق ومنظم، بحيث يستحيل على الفلاح التهرب منه أو التحايل عليه، فكان المختص بالضرائب الزراعية يسمى مباشر الخراج، وإقامته في دمشق، ويلزم رؤساء البلاد بتغليق أراضيها بالزراعة والكراء<sup>(2)</sup>.

وكان للخراج ديوان خاص به "ديوان الخراج" يجمع الرباع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتزقين، ويقوم متولي ديوان الخراج بالإجابة على الكتب الواردة من ديوان الإنشاء ثم يعرضها على السلطان ليأخذ موافقته بالتوقيع على المكاتبه به أو بغيره<sup>(3)</sup> وبالنسبة إلى موعد إستحقاق الجباية لخراج الأرض فهو أن تمضي مدة سنة ما بين إستحقاق وآخر، فإذا كان الخراج على أساس "مساحة الأرض فيحسب بالنسبة الهلالية، أما إذا كان على أساس "مساحة الزرع" فيحسب بالنسبة الشمسية وهو النظام المتبع في بلاد الشام<sup>(4)</sup>، بعد مراقبة الزرع من قبل وكلاء مباشرو الخراج بدمشق وبعد حصده ونقله للييادر، ثم دراسته وتذريته وتنظيفه للخزن حيث يحضر والي العمل مباشرة ليحصل ما يخص ديوان الخراج<sup>(5)</sup>.

(1) د. صالحية : محمد عيسى، الطرح والرمي في العصر المملوكي، تحت الطبع، نسخة الباحث ص9.

(2) النويري : م س، ج 8، ص 257.

(3) القلقشندي : م س، ج 2، ص 492، ج 6 ص 213.

(4) السامرائي : حسام الدين، "مجالات الضرائب على الأرض والإنتاج الزراعي، مجلة الحضارة الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، ج 2، ص 124.

(5) د. غوانة : بيت المقدس، ص 102.

وكانت وحدة قياس الأرض بالأفدنه المعروفة لدى شيوخ القرية وفلاحيهها ومسجلة في ديوان الأمير المقطع<sup>(1)</sup>

وبالنسبة لإستخراج الضريبة فكانت سنوية سواء زادت الغلة أو نقصت<sup>(2)</sup> على أساس المقاسمة بالمناصفة والمثالثة والمربعة في أراضي السقي ببلاد الشام، ويؤخذ الخمس والسدس في المزارع والنواحي الخالية من السكان والتي يزرعها المستكرون بالأجرة، ويأخذ السبع والثمان في الأراضي الساحلية على حدود العدو<sup>(3)</sup>

أما الأرض المفصولة أو المضمنة<sup>(4)</sup> في الضياع الإقطاعية في بلاد الشام المملوكية فكان عليها دفع الضريبة المقررة أو المقطوعة التي تحصل عند نضج المحصول زادت الغلة أو نقصت دون مقاسمة أو توكيل.

وكان هذا النمط معروفاً في سواحل بلاد الشام أيام الفرنجة واستمر بعد تحريرها<sup>(5)</sup> كميناء عكا في مملكة صفد حيث كان يضمه بخمسين ألف درهم سنوياً<sup>(6)</sup>

ويتضح لنا مما سبق أن الضرائب التي كان يدفعها الفلاحون على نوعين :

الأولى - ضرائب الفصل " الثابتة سنوياً على الغلال بعد الحصاد بالنسبة لأراضي الساحل السوري الفلسطيني.

والنوع الثاني : وهو الضمان" على القرى الواقعة في السهول الداخلية وأكثر مزارعها من الأشجار المثمرة<sup>(7)</sup> كأشجار الزيتون والخروب والسماق والجوز والكروم والبساتين

(1) القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص454 : ديوان الأمير المقطع : هو ديوان اصحاب الإقطاع وله مباشرون بمسحون أرض البلد ويكتبون أسماء المزارعين ويكتب أصل ذلك في أوراق يضمونها بمبلغ من المال يؤدونه عنها في كل سنة وذلك بأوراق تسمى تاريخ القبائل، ثم تجمع أسماء المزارعين بأوراق المسجل تاريخ "الأسماء" وما إشتملت عليه مساحته وفي الغالب يزيد عن أوراق المسجل ويجمع ذلك وينظم به أوراق تسمى " بالمكلفة" ويكتب عليها الشهود، وحاكم العمل وتحمل للديوان المقطع نسخاً.

(2) التويري : ن م، ج8، ص259.

(3) ن م، ن ص.

(4) التويري : نهاية الأرب، ج8، ص161، الفصل : هذا اللفظ " المفصولة " كلمة مشتقة من الفرنسية Vassal ومعناها التابع الذي أعطاه سيده إقطاعاً نظير واجبات يؤديها، وحرفت في الشام "الفصل" حسب النطق العربي واشتق منها لفظ مفصولة ن.م ص261.

(5) ن.م، ن ص، طرخان : النظم الإقطاعية، ص241.

(6) الطراونه : صفد، ص180 ،

(7) بوليك : الإقطاع في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف أكرم ط1، بيروت 1948م، ص72.

والمقائي على أساس عدد الأشجار عند نضج الثمار ويسمى إخراج العين<sup>(1)</sup>  
أما بالنسبة للسكّر فتؤخذ ضربته بعد عصر القصب وجفافه وكان نائب بيت  
المقدس يجي من فلاحى القرى والضياح في نيابته أربعة آلاف دينار سنوياً<sup>(2)</sup> مما اعتبرها  
الناس مغارم ثقيلة أثقلت كاهلهم، وبالنسبة للفارق الزمنى بين السنة القمرية المعتمد عليها في  
إستخراج الخراج، والسنة الشمسية المعتمد عليها في ضبط الزروع والثمار ومواعيد  
الإستحقاق، كان الموكلين بأمور الخراج يقدمون السنة الهلالية سنة كلما نقصت ثلاث  
وثلاثين سنة فيها<sup>(3)</sup> كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتحويل سنة 1312/712م  
الخراجية إلى سنة 1313/713 م<sup>(4)</sup> وبقي نظام جباية الأرض كما كان من قبل أيام لأيوبيين مع  
تغير يلائم طابع الدولة الحربى حيث إستغلت الدولة الأرض من الفلاحين دون وسيط  
كالضمان والمتقبلين فزاد عدد موظفي الخراج<sup>(5)</sup> مع إعتداد السنة الشمسية<sup>(6)</sup>. وبالنسبة  
لضريبة العُشر فهي زكاة المسلم عن ثماره ومحاصيله<sup>(7)</sup> ويقدر العشر الموظف المسؤول  
وخبرة أهل المصلحة ويعاد التقدير عند البيدر " الجرن " لمنع تلاعب الأمير المملوكي  
الإقطاعي بمحصوله، وتستوفي مرة واحدة في السنة وكانت تتراوح بين العشر والنصف  
فكانت النصف في الأراضي المروية ويكتفي بالربع أو الثلث، أما الأراضي القرية من البدو  
أو قرصان البحر فيؤخذ السبع أو الثمن وذلك لتعرضها للنهب والسلب.

(1) النويري : م.س، ج 8، ص 260 ، 261 ، Cohen, Population P. 54.

(2) المقرئى : السلوك، ج 4، ق 2، ص 584.

(3) القلقشندي: صبح الاعشى، ج 2، ص 54، المقرئى : السلوك : ج 1، ص 273.

(4) ابن إياس: م س، ج 1، ق 1، ص 444.

(5) المقرئى : الخطط، ج 1، ص 143-144.

(6) ن م، ج 2، ق 1، ص 39، كالماسح (القياسين) القياسى ومعهم الشهود العدول الذين يشهدوا القياسات ومعهم " قاضى العمل " الذى

يعمل حكماً يرضيهم، والكتاب الدين يحصون الأراضي المزروعة على أوراق تسمى "الفتداق" وتجمع في أوراق تسمى "المكفلة"

والشاد: الذى يشرف على جباية الخراج والجنود المرافقين للحاجي، والكيالين والشيالين.

والنواة : الدين يحملون الغلال إلى القاهرة والكشاف ويرأس هؤلاء جميعاً كاشف الكشاف وهم يشرفون على أحوال الأراضي

والجسور ماخذ : دولة المماليك ، ج 1، ص 71-72.

(7) النويري : ن م، ج 8، ص 258-259.

## أما الضرائب المبتدعة خلال العصر المملوكي: فكانت المستمرة والمؤقتة

بهدف الحصول على الأموال بطرق غير مشروعة ومن أهمها :-  
ضريبة المشاهرة أو الهلالية: لأنها كانت تُحصل في بداية كل شهر على المراعي، ومزارع  
قصب السكر، ومصائد الأسماك والأفران والرحى والطواحين التي تديرها الأبقار والعقارات  
"الأملاك المسقفة" <sup>(1)</sup> وتحصل من إقطاع الأمراء لصالحهم <sup>(2)</sup> وقد عرفت عند المماليك باسم  
"الموجب" <sup>(3)</sup> والحقوق السلطانية ورسوم الولاية، و المعاملات الديوانية " مما يدل على أنها  
كانت تفرض على كل شيء في أنحاء البلاد كلها <sup>(4)</sup> حتى وصفت بأنها شملت كل شيء  
حتى الهواء <sup>(5)</sup> ومن أمثلة هذه الضريبة في جنوب بلاد الشام ضريبة الأسماك على مصائد  
الأسماك في بحيرة طبريا شهرياً يحددها الجابي، <sup>(6)</sup> ومنها ضريبة أقصاب السكر في مملكة صفد  
المملوكية <sup>(7)</sup> ومنها ضريبة المراعي: في أراضي الدولة المخصصة لرعي المواشي والأغنام  
والماعز وكان الموظف المختص لجمعها شهرياً يسمى "عداد الغنم" الذي يستعين بعدد من  
الشهود والكتابة لعد الأغنام حيث تحصل عن كل رأس مقابل رعي مواشيتهم في مراعي  
الدولة <sup>(8)</sup> وكان لبلاد الشام موظف خاص لجباية هذه الضريبة يسمى "شاد الأغنام" <sup>(9)</sup>

(1) النويري: م. س، ج 8، ص 228، 271، أبو المحاسن م. س، ج 9، ص 49 / وابن كثير: م. س، ج 8، ص 228 Ibid Cohen  
Pouplation. Ibid P.646

(2) ابن إياس: م. س، ج 1، ق 1، ص 536، القلقشندي: م. س، ج 3، ص 467. المقرئ: السلوك، ج 1، ق 1، ص 166.

(3) ابن إياس: م. س، ج 3، ص 15.

(4) المقرئ: ن. م، ج 1، ق 2، ص 384.

(5) ماجد عبد النعم: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج 1، ط 2 مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1979. ص 73.

(6) النويري: ن. م، ج 8، ص 262-263، العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط 1، "الشركة المتحدة للطباعة،  
سوريا، 1982 م.

(7) قانون نامه آل عثمان، ترجمة خليل ساحوري، مجلة الأبحاث، الجامعة الأردنية 1986، م 13، ج 3، ص 164 / فقد أشار المسح العثماني  
إلى وجود هذه الضريبة على هذه المرافق، حيث أشارت إلى مجموع ما يحصل منها أيضاً.

(8) النويري: ن. م، ج 8، ص 262، الطراوته مملكة صفد، ص 183.

(9) أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج 2، ص 251. هذا فقد أشارت نتائج المسح العثماني وجود هذه الضريبة أيام  
المماليك حيث أثير إليها برسم حق المراعي وأحياناً "يرسم الربع" إذ توحد شاه واحدة من كل ثلاثمائة رأس، وذلك مقابل إستخدام  
قطعانهم لمراعي الدولة. قانون نامه: ن. م ص 154.

البخيت، محمد عدنان "ناحية بني كنانة شمال الأردن في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، منشورات الجامعة الأردنية  
عمان 1984 م ص 11.



وضريبة صدقات المواشي : أي زكاة المواشي والتي كانت تعرف "بالعداد" <sup>(1)</sup> وقد وجدت في جنوب بلاد الشام كمملكة صفد <sup>(2)</sup> إذ وجدت وظيفة "عداد الأغنام والمواشي" فقد كانت واجبات الأمراء العرب تجاه الدولة المملوكية مساعدة موظفي الدولة في جميع زكاة المواشي من العرب <sup>(3)</sup>

وضريبة القدوم والمباشرة : التي تجبى من الناس للوالي الجديد القادم إلى بلاد الشام وضريبة المباشرة عندما يياشر عمله <sup>(4)</sup>

#### ضريبة الضيافة ورسم الأعياد والخميس <sup>(5)</sup>

وهي سخرة إقطاعية يدفعها الفلاح شهرياً لصاحب الإقطاع "كالضيافة والهدايا" من منتجات الريف كالغلال والبرسيم والخراف والدجاج والكعك والكشك وغيرها وذلك عندما ينزل صاحب الإقطاع مع أتباعه في إحدى قرى إقطاعاته وكانت تسمى ببلاد الشام

(1) العداد : زكاة مفروضة للسلطان على مواشي وأغنام القبائل العربية والتركمانية منذ أيام الأيوبيين. ويذكر النويري : أنها كانت من أموال الهلالي بالشام ويعرف المشرف عليها باسم "المسند" ويساعده شهود وكتاب لعد الأغنام وأخذ ضريبة معينه عن كل رأس بحسب ضريبة المنطقة وعاداتها :

النويري : م س، ج 8، ص 262. وأنظر القلقشندي، م س، ج 2، ص 130.

والمقريري : السلوك، ج 1، ق 2، ص 481.

(2) الطراونه : م س، ص 184، خراشة : سليمان عبد الله "ملكة طرابلس في العهد المملوكي" رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان 1989 م (غير منشورة)

(3) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت 807/ 1405) تاريخ ابن الفرات ج 7، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية - بيروت، 1938 م، ص 179، والحيارى، مصطفى : الإمارة الطائفة في بلاد الشام ط 1، وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1977، ص 93.

Ziadeh : Nicola, Urban life in syria under the Early Manluk's Greenwood's press, Beirut, 1953.P.34.

(4) ابن الصيرفي، الخطيب الجوهري على بن داوود، (ت 1494/900) "نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ؟ تحقيق حسن حبشي، ج 1، مصر 1970-1971، ص 211.

(5) النويري : ن م، ج 8، ص 162، طرخان "النظم الإقطاعية"، ص 80، 250.

د. عوانة : بيت المقدس، ص 102

Rabi : Hassane " The size and value of the Igta in Egypt 564-741 AH /1169 - 1341 AD 'from studied in the Economic History of the Middle East London, 1970, P.137.

"رسم الأعياد والخميس"<sup>(1)</sup> وقد أبطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذه الضريبة وادخلت ضمن عبء الإقطاع عندما قام بالروك، ولكن هذا الإجراء لم يعف الفلاحين من أعبائها<sup>(2)</sup> ولأنه كان سيستعان بها عندما يعجز الديوان عن الوفاء بنفقة الممالك السلطانية مما أرهاق الفلاحين<sup>(3)</sup>.

### ضريبة زكاة الدولة أو رسم الطواحين :

وهي التي كانت تفرض على مستخدمي الدوايب (عجلات الري وصناعة السكر) ويمكن تسميتها بالضريبة الصناعية<sup>(4)</sup> ومن أمثلة ذلك ما فرضه لؤلؤ الرومي المغربي الطواشي عام 732هـ/1331 في مصر وبلاد الشام وغزة والقدس وغيرها ولم تكن ثابتة إذ كانت تلغى من قبل السلاطين كما فعل السلطان قلاوون عام 1280/678 لأنها ألحقت الظلم برعيته<sup>(5)</sup>.

### ضريبة الزواج أو رسم العروس "دراهم النكاح"

وكانت ضريبة شخصية على الفلاح العريس من أهل الخراج ديناراً واحداً على الزوجة البكر ونصف دينار على الزوجة الثيب<sup>(6)</sup> وعند تحديد نكاح مطلقة. المسمى "برسم النكاح"<sup>(7)</sup>.

(1) النويري : م س، ج 8 ص 162، طرخان ي: م س، ص 250، 80 : د. غوانة : بيت المقدس ص 102

Rabi, Hassaein" The-Size and value of the Igta in Egypt, Ibid, p. 173

(2) المقريري: السلوك، ج 4، ق 2، ص 798. طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي القاهرة - 1968 م ص 250، 81

(3) قانون نامه ص 187

(4) المقريري : ن م، ج 1، ق 3، ص 664 هامش 1، الصباغ : ليلي : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1969، ص 54. المقريري: ن م، ج 2، ق 6، ص 347-348.

(5) ن. م ج 1، ق 3، ص 664.

(6) السامرائي، م س، 145.

(7) الصباغ، ليلي، ن م، ص 55، والبيخيت: م س، ص 13.

### ضريبة مال الزراعة :

ضريبة فلاحه شخصية سنوية يدفعها الفلاح المسلم والذمي حسب مساحة أرضه ونوعها وحسب حالته الاجتماعية فعلى المسلم المتزوج إثني عشر أقة وعلى الأعزب ست أقة وعلى المتزوج أو الأعزب من أهل الدمة خمس وعشرون أقة<sup>(1)</sup>، وكانت في العصر المملوكي وإستمرت في العصر العثماني.

### ضريبة المسققات :

التي كان يدفعها الفلاح على منزله الخاص به لصاحب الأرض حتى يحق له التصرف فيه<sup>(2)</sup>، وكان بعض السلاطين يلغونها للتقرب من شعبهم كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي ألغى ما كان يؤخذ من بيع ملكاً له بنسبة 1 : 1000 أي عن كل ألف درهماً<sup>(3)</sup> وتوجد هذه الضريبة في الأردن في العصر الحاضر.

### ضريبة فتوح البيدر وعادة الدورة<sup>(4)</sup>

كانت تجبي من فلاحي القرى عند رجد المحصول وفتح البيدر.

(1) الأقة : أصغر وحدة نقد مسكوكة من الفضة لدى الدولة العثمانية سكت في عهد أورخان بن عثمان : البيخيت : بني كنانة، ص9، هامش 11.

(2) الصباغ : المجتمع السوري، ص55.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص486.

(4) ورد ذكرها في دفاتر التحرير العثمانية على أنها من رسوم الدولة المملوكية أنظر " البيخيت " : بني كنانة، ص11، 13-14 نقلاً عن دفاتر التحرير العثمانية رقم 263 وقد ذكر " وجاء في قانون نامة ما نصه " وقد صدر الفرمان برفع ما كان يجبي من الولاية المذكورة من البدع السيئة كمعادة الدورة، والحماية، والمباشرة، وفتوح البيدر، ورسم الحصاد، والعادة الرجادية، إذا سمحت العواطف السلطانية برفعها جميعاً " .

### ضريبة الطرح والرمي<sup>(5)</sup>

لقد طبقها سلاطين المماليك في بلاد الشام، وإستخدم الأمراء والحكام المحليون والموظفون الطرح لزيادة ثرواتهم الخاصة حيث أصبح الطرح فيما بعد ظاهرة إقتصادية عامة مفروضة على المجتمع، إذ سيطر هؤلاء جميعاً على الأسواق الموسمية المحلية بما فيها من بضائع مستوردة كالأمير طرناي نائب دمشق الذي أمر أكابر دمشق عام 688هـ/1289 بدفع غلة سنة من أملاك الدولة<sup>(1)</sup> وحصل بيبس كذلك على غلة سنة من كافة أنحاء الدولة<sup>(2)</sup> وكانت الدولة تضطر أحياناً تحت ضغط الشعب وثورته إلى إلغاء طرح القمح الغداء الرئيسي، كما حدث عام 799هـ/1396 عندما إرتفعت الأسعار لكثرة طرح، ابن النشو للغلال والأصناف فقتلته العامة لاحتكارة الغلال<sup>(3)</sup> وإعفاء السلاطين للفلاحين من العديد من الرمايات التي كانت تثقل كاهلهم كما فعل المظفر حاجي عام 747هـ/1346 حيث أعفى النواحي من المغارم ورماية الشعير والبرسيم<sup>(4)</sup> وكان قصب السكر من الحاصل التي احتكر سلاطين المماليك وأمرؤهم زراعته، وأنشأوا المعامل الخاصة بهم لتكريرة واستخراج السكر لطرحه على الناس بواسطة السماسرة مما أدى لارتفاع أسعاره في بلاد الشام وكذلك كما كان الزيت والصابون من الأصناف التي خضعت للطرح المملوكي في جبال نابلس والقدس<sup>(4)</sup>

(1) المقرئزي : السلوك، ج3، ق3، ص1005، ابن طولون تاريخ المرة ص47-48. وابن شاذي الكندي، عيون التواريخ، ج2، ص29.

(2) المقرئزي : ن.م، ج1 ق2، ص481، ابن طولون : مفاكهة الخلان، ج1، ص41-42.

(3) أبو المحاسن : م.س، ج15، ص150.

(4) المقرئزي : ن.م، ج3، ق2، ص984 وللمزيد من المعلومات أنظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص280، والعلمي الحنبلي : الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد ت928هـ/1522 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2 دار الجليل، بيروت 1973، ص365 -

(5) الطرح : بمعناها اللغوي : الرمي بالشئ لعدم الحاجة إليه، ولكن إختلف فهمه من قطر لآخر : المعجم الوسيط، ج2، ص553.

### ومن الضرائب الظالمة التي كانت تفرض بيز الخبز والأثر :

ضريبة العوارض : وهي التي كان يأخذها السلطان سنوياً من البيوت في بلاد الشام ويعتقد أن الظاهر بيبرس هو الذي أحدثها حيث كان من أكثر السلاطين مصادرة لأموال الرعية لصرفها في حملاته الحربية، حيث كان يضطر لجبي جبايتين في السنة وفي وقت واحد مما عرف " بالعوارض " من السنة الجديدة والسنة القديمة <sup>(1)</sup>

وكما فرض السلطان قلاوون عام 689 هـ/ 1290 ضريبة عارضه على ضياع المروج وغوطة دمشق تقدر ما بين الفين الى خمسمائة درهم على كل رجل وذلك لمواجهة الفرنجة في عكا الذين تعرضوا لجيش المسلمين بقيادة الأمير سنقر المساح عندما نزل اللجون <sup>(2)</sup> فكان الناس في هذه الأحوال يدفعونها عن رضى للدفاع عن بلادهم كما حدث عام 700 هـ/ 1300 عندما وردت الأخبار عن عودة المغول إلى الشام ففرض على أغنياء مصر والشام ثلث أموالهم لدعم الجيش على الرغم من جباية الدولة في تلك السنة من الأموال الكثيرة التي تسبب في خراب الغوطة إذ أخذوا من أموال كل قرية ثلث ضمانها وأورد شعر الأكرمي في ضريبة العوارض في العصر المملوكي بقوله <sup>(3)</sup>:

لحا الله أيام العوارض إنها هموم ولرواها تشيب العوارض  
يضيق لها صدري فإني لشاعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض

### ضريبة الجرائم الغليظة "الجنايات"

وهي من ضرائب سلاطين المماليك المبتدعة على الفلاحين كما حدث عام 688/1289 عندما فرض الظاهر بيبرس على الفلاحين من سكان الساحل ضريبة سماها "جنايات" بحجة التعويض عن ديات من قتل وليس له وارث أو عما نهبوه من مال جهل مالكة كعقوبة على بلاد نابلس وبلاد الساحل ليكسر شوكة أهل الفساد والعبث الذين عاثوا فساداً في تلك المنطقة وتعاونهم مع الفرنجة هناك بنقل الأخبار لهم <sup>(4)</sup>

(1) كرد محمد علي: غوطة دمشق، ط2، مطبعة الرقي، دمشق، 1952 ص 135 - 136.

(2) المقرئ: السلوك، ج1، ق3، ص754.

(3) المقرئ: ن م، ج1 ق3، ص907.

(4) المقرئ: ن م، ج4، ق1، ص33.

## ضريبة مكس الأقوات :

وهي الضريبة المفروضة على مبيعات الأقوات. بما يعادل ثلاثة دراهم ونصف على الغرارة، ولم تكن ثابتة بل كانت تزيد وتنقص تبعاً للغلاء والجفاف أو الخصب، كما حدث عام 724 هـ/1323 في بلاد الشام إذ كان الغلاء شديداً في بلاد الشام فأسقط السلطان مكس الأقوات، كما أسقطت هذه الضريبة أيضاً عام 742 هـ/1341<sup>(1)</sup>.

## ضريبة رسم المقايضات والنزولات في الإقطاعات :

وهي الرسوم المستوفاه عند صدور منشور الإقطاع لليون الجيش فكانوا يأخذون عشرين درهماً في كل منشور مما أثقل كاهل الفلاحين، فأمر السلطان الملك الصالح صالح بن محمد قلاوون عام 654 هـ/1256 بإلغاء المقايضات والنزولات في الإقطاعات<sup>(2)</sup>.

## ضريبة مستغلات العربان :

وهي الضريبة المستحقة على غلات البادية من أرض وعقار وسوق، وحنوت، وطاحون<sup>(3)</sup>.

وضريبة غلة الساحل : ومقدارها ثلاثة دراهم من ثمن الغرارة<sup>(4)</sup> فألغاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون 724 هـ/1323م لنقلها على الفلاحين لأنهم كانوا يدفعون ضريبة على القمح والخضار والقلقاس والجن في كل من بيت المقدس وغزة<sup>(5)</sup>، الغفارة أو الخاوة وهي التي يدفعها الفلاح للأشجار والأقوياء مقابل عدم الإعتداء على محاصيله<sup>(6)</sup>.

(1) أبو الفداء : المختصر ، ج4، ص92، أبو الفلاح : شذرات الذهب، ج6 ن ص62.

(2) الملك الصالح : حكم ما بين 752-755 / 1351-1354

المقريزي : السلوك، ج2، ق3، ص890-891.

(3) دهمان، محمد أحمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق 1990، ص138.

(4) الغرارة : مكيال الخنطة في دمشق ومقدارها 12 كيلاً أو 72 مدأً دمشقياً وعن العمري : إن الغرارة تساوي نصف غرارة من غرائر دمشق أي حوالي 5، 397 لراً في أواخر العصور الوسطى ( هنس فالتر : المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية عمان 1970 ص 64.

(5) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص51.

(6) دهمان ن م، ص115.

## ضريبة التصقيع والتقويم :

وهي التي يدفعها الفلاح من أجرة على ممتلكاته شهرياً وسنوياً، بأن تُقَوِّم الدار ويدفع عن كل دينار درهماً عند أخذ أجرة شهرين عن الأملاك<sup>(1)</sup> وسادت أنحاء بلاد الشام كلها<sup>(2)</sup>.

## ضريبة القمح :

ومقدارها خمسة دراهم عن كل إردب<sup>(3)</sup> وقد ألغاه السلطان الأشرف خليل لكسب ولاء الخاصة والعامة له<sup>(4)</sup>. وجباية حب الرمان المفضل عند السلاطين والمفروض على الأهالي كما حدث عام 700 هـ/1300م حيث بلغ المتأخر منه على أهالي بلاد الشام ألفاً وستمائة رطل<sup>(5)</sup>.

أما الضرائب المكروهة والمحرم بعضها شرعاً عند المماليك فكانت مقرر السجون<sup>(6)</sup> ورسوم الولاية<sup>(7)</sup>، ونصف السمسة<sup>(8)</sup>، ومكس الساحل<sup>(9)</sup>، ومقرر طرح الفراريج<sup>(10)</sup>، وضمان المغاني والأفراح<sup>(11)</sup> وضمان البغايا "بيوت الدعارة" المحرمة شرعاً<sup>(12)</sup> وقد قاسى الناس من

(1) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر. ص27.

(2) أبو الفداء : تقويم البلدان، ص249.

(3) الإردب : مكيال سبعة أربع وعشرون صاعاً لمعرفة المزيد من المعلومات عن ذلك انظر: المقرئزي : النفود الإسلامية تحقيق محمد علي بحر العلوم، بغداد، 1967..

(4) ابن إياس : م س، ج1، ق2، ص366 - 367.

(5) الباشا: القنون الإسلامية، ج2، ص825.

(6) وهو ما يدفعه السجين لمسؤول السجن عند دخوله السجن بمقدار ستة دراهم ولو أفرج عنه بعد ساعة من سجنه وقد كثر من يرغب بضمانه لكثرة ما يحصل منه : المقرئزي : الخطط ج1، ص143-144.

والسلوك ج2، ص151 - 152 وأبو المحاسن : النجوم ج9، ص46

(7) رسوم الولاية وهو مبلغ يجمعه الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الدعارة وقد ألغاه بعض السلاطين الأتقياء : ابن إياس، ن.م ج3، ص197. المقرئزي : الخطط ج1، ص143، السلوك : ج2، ص151، وأبو المحاسن : ن.م، ج9، ص46.

(8) أحدثه والي القاهرة زمن السلطان الناصر إذ كان يأخذ درهماً "دلالة" عن كل مائة درهم من حاصل البيع في الأسواق بحيث يرسل درهماً منها للسلطان ويبقى له درهم، أبو المحاسن، ن.م، ج9، ص45-46.

(9) مكس ساحل الغلة : مبلغ مقرر على ما يباع من الغلال بنسبة درهمين للسلطان عن كل إردب في مكان جمع الغلة "خص الكيالة" الذي يجلس فيه الموظفون والجنود للحصول. المقرئزي : الخطط، ج1، ص143، وأبو المحاسن، ن.م، ج9، ص42-45، والمقرئزي : السلوك، ج2، ص150.

(10) الضريبة التي تفرض على بيع الفراح في الأسواق : ابن إياس : ن.م، ج1، ص216.

(11) مبلغ يفرض على النساء اللاتي يقمن بالغناء في بيوت الناس وقت الأفراح في الأعراس والختان / ابن إياس : ن.م ج1، ص230.

(12) وهو حقوق القينات: أي المبالغ التي المجموعة من خانات القاهرة الخاصة بالدعارة من الجوارى والعبيد / المقرئزي، خطط

ج1 -، ص142 - 144.

هذه الضرائب فكانت بلاءً شديداً لظلمها وعدم شرعيتها مما حط ببعض السلاطين إلى الغائها عندما زاد تدمير الناس كالظاهر بيبرس والناصر محمد قلاوون.

### موقف الفلاحين الشاميين من الضرائب في العصر المملوكي :

لقد عانى الفلاح الشامي كثيراً في العصر المملوكي لكثرة الضرائب التي أثقلت كاهله، فعبر البعض عن استيائهم بالفرار من أراضيهم الزراعية، أو بالتعبير عن سخطهم بالتدمير العلني أو التمرد ورفضهم الدفع وأحياناً يصل التدمير إلى الحاق الأذى بموظفي طرح الضرائب برجمهم بالحجارة أو حتى قتلهم وذلك بعد فشل العلماء في إقناع السلاطين لتخفيف الأذى الإقتصادي الاستغلالي غير الشرعي الذي ساد الثيابات المختلفة في الدولة المملوكية، وأدى لكساد الزراعة وترك الفلاحين لأراضيهم.<sup>(1)</sup>

كما تفاقمت معاناة الناس نتيجة لإرتفاع الأسعار، مما كان يدفع بعض السلاطين لإلغاء بعض الضرائب الزراعية كما حدث عام 696هـ/1268م عند أمر السلطان لاجين بمساحة أهل النواحي بما عليهم من بواقي الخراج المتكررة وذلك عندما بلغ ثمن إردب القمح من 40-50 درهماً، وإردب الشعير 30 درهماً<sup>(2)</sup>، وكما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 714هـ/1314م عندما أمر بإلغاء البواقي في البلاد الشامية فتضرع الناس بالدعاء<sup>(3)</sup> بعد إعفائهم أيضاً من السخرة وإلغاء ضريبة الأควاب<sup>(4)</sup> وألغى كذلك ضريبة مكوس ساحل الغلة بالشام عام 724هـ/1323<sup>(5)</sup> وكما أسقط السلطان السعيد عام 677هـ/1278م ما فرضه والده على بساتين أهل دمشق<sup>(6)</sup> وإبطال الأمير سيف الدين أقطاي

(1) المقريري : السلوك، ج4، ق2، ص584.

(2) المقريري : ن.م، ج1، ق1، ص830. وأبو المحاسن : م.س، ج8، ص11.

(3) ابن حبيب، الحسن بن عمر ت (1377/779 : تذكرة النبي في أيام المنصور وبنه ج2، تحقيق محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1976-1982، ج2، ص58 / المقريري : ن.م، ج2، ق1، ص136-137.

(4) المقريري : ن.م، ج3، ص759.

(5) كان مقدار مكوس ساحل الغلة بالشام ثلاثة دراهم عن كل غرارة وكان هذا المكس كل متحصل الديوان وعليه إقطاعات الأمراء والأخبار ومقداه 401،600 درهماً سنوياً وعليه 400 مُقَطَّع لكل منهم من 3000-10000 درهم ولكل أمير من 10000-40000.

ابن كثير، م.س، ج3، ص296 / أبو الفداء : المختصر، ج4، ص92 / وابن طولون : رسائل تاريخية ص20.

(6) ابن كثير : ن.م، ج1، ص296.



نائب حلب عام 745هـ/1344 ضريبة الرمي عن الفلاحين ورخص الأسعار ومنع الخمر والفجور<sup>(1)</sup> وما قام به الأشرف خليل عام 689هـ/1290 عندما أبطل عدة حوادث في بلاد الشام وسامح بالمتأخر من البواقي<sup>(2)</sup>. وبالنسبة لدور العلماء والفقهاء من هذه الضرائب الظالمة بإعتبارهم ممثلين للطبقات الاجتماعية فكانوا يكتبون بذلك للسلطان أو يقابلونه لنقل شكوى الناس لإقناعه بإبطال المظالم أو التخفيف منها. كما فعل الشيخ محي الدين النووي عندما قابل الظاهر بيبرس لفرضه ضرائب كثيرة على أهل دمشق لمواجهة الأعداء، وكلمه بكلام خشن بينما رد عليه السلطان بلطف ووعد بإبطال هذه الضرائب بعد النصر على العدو. ولكنه أخلف الوعد بعد النصر وفرض مائتي ألف درهم على مدينة دمشق وعلى ضواحيها ثلاثمائة ألف درهم وعلى البلاد القبلية "جنوب بلاد الشام" تكملة ألف ومات السلطان عند إكمال جباية نصف المال<sup>(3)</sup> وكما فعل الشيخ أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي ت 762هـ/1361م من قرية حيراص في شمال الأردن حيث أبطل عدة مكوس ومظالم وكان جريئاً في مخاطبته للسلطين وكان يخاطب بعض الحرافيش<sup>(4)</sup>

وهكذا نلاحظ أن الدولة المملوكية لم تلَبَّ رغبات الرعية ومطالب الفقهاء باستمرار إلا في بعض الأحيان واثناء الظروف الحرجة عند خراب الديار وإهمال المزروعات لفرار الفلاحين من أراضيهم كي يعودوا إليها لعدم إمكانية الاستغناء عن خدماتهم. كما يلاحظ معاناة الفلاح الشامي من ظلم الممالك واضطراره للتهرب من دفع الضرائب الكثيرة عن أرضه بوقفها على الأماكن المقدسة في بيت المقدس<sup>(5)</sup> التي كانت معفاة من الضرائب<sup>(6)</sup>. أو تركها دون زراعة والفرار إلى المدن حيث سكنوا في أحياء فقيرة وشكلوا طبقة فقيرة إمتهنت السرقة وقطع الطرق فسموا بالزعر أو الحرافيش أو الاوباش أو بهروبه إلى الصحراء أو إلى الكهوف القريبة من الماء.

(1) أبو الفداء : ن.م، ج4، ص144.

(2) المقرئ : السلوك ج1 ق3، ص759. وحوادث : جمع حدث وهي المكوس التي لا تستند إلى قانون شرعي/ المقرئ، ن م، ن ص

حاشية 1.

(3) النويري : م.س، ج3، ص362-363.

(4) أبو المحاسن : م.س، ج11، ص12، د. غوانمة : التاريخ الحضاري، ص128.

(5) ابن إياس : م.س، ج1، ق2، ص366-367.

(6) Cohen "population" P. 16

فكان لذلك كله انعكاس سلبي على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية مما أدى للتراجع و التأخر في مناحي الحياة العامة و أدى لثورة العامة إذ تكونت قناعات شعبية بانه لابد من اسقاط هذا النظام المملوكي الجائر. بمغارمه الظالمة التي أثقلت كاهل الشعب، فكان ذلك من أسباب ضعف و سقوط الممالك لعدم وضعهم الحلول الاقتصادية الناجحة ولجؤهم الى الإجراءات المؤقتة برفع بعض الضرائب ثم إعادتها بأسعار باهضة على الفلاحين الذين يشكلون غالبية سكان المجتمع الشامي، الذي تميز بشكل عام بالنظام الإقطاعي الظالم الذي جعل من الفلاحين طبقة فقيرة مسحوقة لكثرة الضرائب ولوجودها داخل النظام الإقطاعي العسكري الدكتاتوري الظالم الذي حول معنى الإقطاع في بلاد الشام إلى معنى "رق الأرض" والفلاح الشامي عبداً قنأ لا تابعاً<sup>(1)</sup> لسيده الإقطاعي الذي حرمه من حقوقه وجلده بالسوط وسجنه أو أمر بقتله<sup>(2)</sup> إذا غادر الأرض قبل ثلاث سنوات وبذلك فقد الفلاح الشامي إستقلاليتة وحرية. فصنفهم المقريري في المرتبة الرابعة من فئات المجتمع<sup>(3)</sup> بالإضافة إلى فقد كرامته وشرفه وعرضه لإعتداء عساكر الممالك على نسائهم<sup>(4)</sup> فبلغ من سوء حالهم إزدراء نظرة المجتمع لهم مما جعلهم مضرباً للأمثال فقليل " ما انت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام "<sup>(5)</sup> كما كان الممالك يكرهون وصول رجل من الأرياف إلى بعض الوظائف بقولهم " أما كان في ممالك السلطان من يعتمد عليه إلا هذا الفلاح<sup>(6)</sup>

(1) المقريري : الخطط، ج1، ص175.

(2) بولياك : م س، ترجمة عاطف أكرم بيروت 1948 ص174.

(3) المقريري : إغاة الأمة ص75.

(4) السبكي : معيد النعم ، ص33، ص250 وابن كثير : م.س ج14، م7، ص256.

ولايبديوس: مدن إسلامية في العصر المملوكي، ترجمة علي ماضي، بيروت، 1987، ص250.

(5) انظر ابن كثير : ن.م، ج13، ص248-249.

(6) مكاحلة، نهى محمد حسين : م س، ص245.

وجيران، نعمان محمود : مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول، رسالة ماجستير الجامعة الأردنية، عمان 1981 ( غير منشورة )  
ص195. ذكر عن المعز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، الشافعي المذهب، خروجه من الشام لإنكاره على الصالح إسماعيل تسليمة صفد والشقف إلى الفرنجة فسار إلى الملك الصالح أيوب في مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وتوفي 660هـ/1262م ودفن بسفح المقطم.

جامعة تونس الأولى  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

التاريخ الحضاري لجنوب بلاد الشام "فلسطين والأردن" في  
عصر الأيوبيين ودولة المماليك الأولى "البحرية"  
[من سنة 567 هـ / 784 هـ / 1171 - 1382 هـ]

رسالة دكتوراه الدولة في  
- التاريخ الحضاري الإسلامي -  
- العصور الوسطى -

إعداد الباحث  
أحمد نهار عيسى شناق

إشراف الأستاذة / الدكتورة

منيرة شابوكلو

أستاذة تاريخ العصور الوسطى في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

[جامعة تونس الأولى]

28 جويلية - 1997 تونس

# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# الفصل الرابع

## الحياة الاجتماعية

- أولاً : الأصول السكانية
- ثانياً : الطبقات الاجتماعية
- ثالثاً : الملابس
- رابعاً : العادات والتقاليد

## أولاً : فضائل الشام والإصول السكانية:

### فضائل بلاد الشام في القرآن الكريم:

قال تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير"<sup>(1)</sup>.

وقوله تعالى في قصة إبراهيم: "وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين"<sup>(2)</sup>. ومن المعروف بأن الله نجى إبراهيم ولوطاً بذهابهما من أرض الجزيرة والعراق إلى أرض الشام.

وقوله تعالى: "ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين"<sup>(3)</sup>. وكانت الريح تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

وقوله تعالى في قصة سبأ: "وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين"<sup>(4)</sup>. وهو ما كان بين اليمن من مساكن سبأ، وبين قرى الشام من العمارة القديمة كما ذكره العلماء. وفيها الطور الذي كلم الله عليه موسى<sup>(5)</sup> والذي أقسم الله به في سورة الطور<sup>(6)</sup> "والنتين والزيتون وطور سنين"<sup>(7)</sup>. وهكذا نستخلص من هذه الآيات الكريمة فضائل الشام حيث ذكر الله أرض الشام في هجرة إبراهيم إليها ومسرى الرسول الكريم، ومملكة سليمان بها ومسير ملكة سبأ إليها ووصفها بأنها الأرض المباركة والتيها المحشر والميعاد.

وبالنسبة لفضائل بلاد الشام في الأحاديث النبوية الشريفة فقد روى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلى الله

(1) سورة الاسراء، آية 1.

(2) سورة الأنبياء، آية 70-71.

(3) سورة الأنبياء، آية 81.

(4) سورة سبأ، آية 18.

(5) إشارة لقوله تعالى: "وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً" سورة مريم، آية 52.

(6) سورة الطور، آية 1.

(7) سورة التين، الآيتان 1-2.

عليه وسلم يقول: يا طوبى للشام يا طوبى للشام يا طوبى للشام" قالوا يا رسول الله وبم ذلك قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام<sup>(1)</sup>.

ورى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشام أرض المحشر والمنشر"<sup>(2)</sup>. وعن معاوية بن قره عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"<sup>(3)</sup>.

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ستخرج نار في آخر الزمان من حضرموت تحشر الناس، قلنا فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالشام"<sup>(4)</sup>.

### الأصول السكانية :

لقد أدت حالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لجنوبي بلاد الشام خلال العهود التاريخية، الى فراغ سكاني وهجرات متعكسة بحثاً عن الأمن والسلام والرزق أو الاستيطان الأجنبي وكان الكنعانيون أول من نزل فلسطين في جنوبي بلاد الشام حوالي 3000 ق.م. وخاصة منطقة الخليل، ثم شهدت موجة أمورية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد جاءت من بلاد الرافدين<sup>(5)</sup>.

وتوالت الهجرات الأجنبية فقبل الميلاد بحوالي ألف عام هاجر الفلسطينيون من جزيرة كريت وسكنوا فلسطين، وفي العصر البابلي حدثت هجرة معاكسة حيث أفرغ نبوخذ نصر الثاني

<sup>(1)</sup> استخرجه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني من كتاب الحفاظ أبي الحسن الربيعي (ت444هـ) وقام بطبعه المجمع العلمي بدمشق عام 1370هـ/1950م وأخرجه الترمذي (ج2)، ص331 طبع بولاق وقال: حديث حسن وزاد في بعض النسخ صحيح، وأحمد في المسند، ج5، ص184.

<sup>(2)</sup> أخرجه الإمام أحمد، ص257، وابن ماجه، ج1، ص429، 430 من أحاديث ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال: "أرض المحشر والمنشر".

<sup>(3)</sup> مسند الطيالسي، ص145، رقم 107، وقال الترمذي "حديث حسن صحيح" ج2، ص30. وأخرجه أحمد، ج3، ص436، ج5، ص35.

<sup>(4)</sup> حديث صحيح، أخرجه أحمد، ج2، ص8، 53، 69، 99، 119. ورواه ابن عساكر، ج1، ص75، 76، 77.

<sup>(5)</sup> مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج5، ق2، ص284.

فلسطين من اليهود بسبيهم الى بابل حتى أرجعهم قورش الفارسي ثم أهلكهم وقضى عليهم تيطس الروماني سنة 70م. وبقيت تحت حكم الرومان حتى الفتوحات الاسلامية الى حدوث الهجرة الصليبية الشرسة التي أحدثت خللاً في المجتمع العربي .

وبالنسبة لأصول القبائل العربية في بلاد الشام فقد أرجع المؤرخون أصول القبائل العربية في بلاد الشام إلى اليمن وخاصة في أطراف الشام وباديتها والمناطق المجاورة لها حيث انتشرت على شكل هلال يمتد من جنوب بلاد الشام الى الشمال الغربي والشمال وذلك منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي<sup>(1)</sup>، فقد استقرت قبائل قضاة في جهة البلقاء وجنوبي شرقي الأردن. ولخم وجدام في جنوبي الأردن وفلسطين، وغسان في منطقة دمشق وحوران و قبيلة كلب في تدمر والجنوب الشرقي من بلاد الشام<sup>(2)</sup>، أما قبيلة تغلب فاستقرت في الجزيرة الفراتية<sup>(3)</sup> وربيعه الى الشمال الشرقي منها<sup>(4)</sup>. واستمرت هجرة القبائل اليمنية من حميد وهمدان ومذحج والأزد وطيء الى بلاد الشام أيام الفتح الاسلامي بعد معركة اليرموك، ولحقت بها قبائل قيسية من البوادي<sup>(5)</sup>، مما ساهم في ارسال قوات لفتح مصر والجزيرة وتجدر الإشارة الى قيس وأكثرهم بنو مرة في الجولان. وكانت مركز التجمع الأول للمقاتلين في الجابية من حوران على أطراف بادية الشام الجنوبية ويذكر البلاذري أن بعض القبائل اليمنية كتنوخ وطيء في الشام قد اسلمت بعد الفتح<sup>(6)</sup> وطالبوا بالعتاء كالجند الفاتحين<sup>(7)</sup> بينما بقي البعض على دينه كقبيلة سليم<sup>(8)</sup>. كما حتمت الظروف العسكرية ومناطق توطين القبائل اتخاذ الأجناد (مراكز رئيسية للمقاتلة)، ثم تطورت الأجناد الى مراكز إدارية وجغرافية مع

(1) الدوري: العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام: ص25 "مقالة للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام في عمان المنعقد في 28 ربيع أول - 3 ربيع الثاني 1394هـ/ 20 نيسان 1974م يذكر الدكتور الدوري: انهم عمروا الى بلاد الشام من جنوب غرب وشمال غرب بادية الشام.

(2) ابن عساکر: تهذيب ابن عساکر، ج1، ص175، البلاذري فتوح البلدان ص145، ابن العديم: م س، ج1، ص26-30.

(3) بين نهر الفرات وفرعه الخابور: البلاذري: فتوح البلدان، ص182.

(4) ن.م. ص245.

(5) البلاذري: فتوح البلدان ، ص150-151. أ.د. عبد الكريم غرايبة ورفاقه: المؤتمر الدولي لبلاد الشام، ص25،

(6) ن م، ص131، 138.

(7) ابن عساکر: ن م، ج1، ص175.

(8) د. الدوري: ن م، ص26.



ملاحظة سيطرة مجموعة قبلية في بعض الأجناد<sup>(1)</sup> مع وضع حاميات في المدن الساحلية وتوطئتها أيام الخلفيتين عمر وعثمان بمنح الأراضي لهذه الحاميات<sup>(2)</sup>. حتى جاء العهد الأموي إذ استقر توزيع القبائل وبالنسبة لجنوبي بلاد الشام فقد استقرت فيه قبائل قضاة (كلب) وهمدان وغسان ومذحج، وخثعم والتي شكلت جند الأردن حيث كانت قضاة هي الغالبية في الأردن والبلقاء<sup>(3)</sup>. كما استقرت في فلسطين قبائل لخم وجذام وكنانة وقيس وعاملة وكندة وبلقين وبعض من قبيلة كلب<sup>(4)</sup>. وبالنسبة لقبائل شرقي الأردن، فقد برزت أمة عربية في قلب الصحراء بعد عام 628م بعد انتصار هرقل الرومي على الفرس في معركة نينوى 627م، وفي عام 106م تقرب الرومان إلى بدو الصحراء عن طريق المعاهدات والمال وذلك بعد ضعف وتمزق مملكة الأنباط<sup>(5)</sup>.

وكانت تنوخ (من قضاة) أول القبائل العربية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية غرباً حوالي عام 230م ونزلت على تخوم الرومان هرباً من الفرس الذين كانوا يضطهدون البدو فكانت أول قبيلة عربية تحالف الرومان<sup>(6)</sup>.

ثم نزلت مراعي مؤاب والبلقاء الخصبة واعترف الرومان بسيادة التتوخييين حتى ظهور الغساسنة في سوريا وشرقي الأردن في أوائل القرن الرابع الميلادي<sup>(7)</sup> : عندما تحالف الرومان معهم بعد تحالف الفرس من قبائل المناذرة العربية. إذ استمر الطرفان من هؤلاء الأعراب في

(1) اليعقوبي: البلدان، ج2، ص175، وبالنسبة للأجناد قال محمد بن جابر سميت كل ناحية بمجد لأنهم كانوا يقبضون اعطياتهم فيه، وحدثت جنداً: أي جمعت جمعاً. الحموي: م س، ج1، ص136. نشر ويستفيلد في 6 مجلدات، ليزرغ، 1866-1873م، وأجناد الشام خمسة منها جند فلسطين وجند الأردن.

(2) البلاذري: م س، ج4، ص127، 131، 134.

(3) البلاذري: م س، ج4، ص128. اليعقوبي: ن م، ص327، حيث ذكر أن الغالبية على طرية قوم من الأشعرين.

(4) البلاذري: ن م، ج5، ص137 ن 138، اليعقوبي: البلدان، ص329 حيث يشير إلى استقرار جذام في كورة تحت جبرين ورفح ص328، وضمنت إليها لحم انظر ياقوت: م س، ج2، ص796.

(5) كلونيل فردريك: ج بيك، تاريخ شرقي الأردن وقبائله، ترجمة بهاء الدين دوقان، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان 1934، ج1، ص59.

(6) ن م، ص60، وذكر من ملوك العرب: النعمان بن عمرو، وعمرو بن النعمان والحواري بن عمرو.

(7) ن م، ص60 - 61، يذكر: "أن الغساسنة هم إحدى القبائل اليمنية التي هاجرت بعد انهيار سد مأرب، ونزلت على ماء في تهامة يسمى غسان فعرفوا "بالغساسنة" في أواخر القرن الثاني للميلاد وهذا يوافق رأي هوكارت Hogarth: History of Arabia.

حروبهم الطويلة واستمر الروم في تحالفهم مع الغساسنة حتى عهد هرقل الذي أسس المملكة الغسانية عام 629م. وتوج جبلة بن الأيهم ملكاً عليهم<sup>(1)</sup>.

وبالنسبة لشرقي الأردن: فقد أصبحت في أواخر العصر الروماني وقبيل الفتح الإسلامي حلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب لكثرة الطرق التجارية المهمة التي تمر بها<sup>(2)</sup> وفي العهد الإسلامي شارك الرسول الكريم أيام طفولته أبو طالب في رحلات إلى بلاد الشام ، وبعد هجرته إلى المدينة اتصل بتجار البلقاء الذين كانوا يبيعون دقيقها وزيتها في الحجاز<sup>(3)</sup>.

وبدأ الرسول الكريم بجمع المعلومات العسكرية عن قوة الروم تمهيداً لنشر الدعوة الإسلامية في بلاد الشام بعد توجيهه سرايا عسكرية إلى جنوب سوريا ووادي السرحان، توجه الرسول الكريم غزوة إلى الجوف أو دومة الجندل عام 625م وذلك لتأديب بدو هذه المنطقة لكثرة اعتداءاتهم على القوافل التجارية بين المدينة المنورة وسوريا وغنموا منهم كما أتبعها بحملة أخرى على قبائل بني كلب في الحجر في عام 5 نوفمبر 626م بقيادة عبد الرحمن بن عوف ودخل بعضهم في الإسلام وجمع من الباقي الجزية<sup>(4)</sup>.

وفي عام 627هـ/627م استشهد فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على عمان على يد الرومان بعد أن قتله الرومان لاعتناقه الإسلام وحدث أول اصطدام فعلي بين الإسلام والروم في غزوة مؤتة عام 8هـ/629م بعد مقتل حامل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن عمير على يد شرحبيل ابن عمرو الغساني سيد مؤتة بجوار الكرك<sup>(5)</sup>.

وبقي الرسول يفتح أعين المسلمين ويستنفرهم لغزو الشام بارساله السرايا إلى التخوم الرومانية شمال شبه الجزيرة العربية، حتى توجه بغزوة تبوك التي قادها بنفسه في أواخر شهر

(1) فردريك بك، ن م، ص 56.

(2) ن م، ص 66.

(3) محمد كرد علي: خطط الشام. ج 2، ص 90، وفردريك بك، ن م، ص 84.

(4) ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج 3، ص 338، ابن قتيبة: المعارف، ص 182، Muir: The Life of Mohammed, P.299.

(5) ابن هشام: ن م، ج 3، ص 203-208.

أيلول عام 9هـ/630م<sup>(1)</sup> وأوصى بتسيير جيش اسامة بن زيد لمقاتلة الروم في أبل الزيت من مشارف الشام عام 11هـ/632م<sup>(2)</sup>.

وتجدر الإشارة هنا الى أن هجرة القبائل العربية الى الشام والجزيرة كانت استيطانية حيث اعطيت القبائل المهاجرة الأراضي للزراعة والرعي كما اعطيت القبائل العربية القديمة اراضي جديدة لاعتبارات اقتصادية واستراتيجية<sup>(3)</sup>. زمن الراشدين والأمويين<sup>(4)</sup>.

ويلاحظ أن بلاد الشام لم تشهد التوتر بين السلطة والقبائل على الأرض ونتائجها وذلك لنجاح سياسة الأمويين في توزيع القبائل على خمسة أجناد مع منحها الأراضي من الصوافي وغيرها. حتى أن قصور الأمويين الصحراوية كانت مراكز للاستثمار الزراعي على الحد الشرقي من بادية الشام لتوفير منشآت الري حولها، كما تعود أهميتها لقربها من مراكز أجناد دمشق مثل (تدمر، حوران، البلقاء) والأردن (الغور بجوار طبريا)<sup>(5)</sup>. وهكذا يلاحظ أن العرب هاجروا إلى سوريا قبل الاسلام، وأن تغلغلهم كان من طريقي البادية الجنوبية باتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي باتجاه حاضرتي حلب وقنسرين. ولكن انتشارهم بالفتوح شمل بلاد الشام كلها. وكان مجيئ القبائل توسعاً استيطانياً منذ الفترة الأولى ولم يكن مجرد غزوات بدوية فلم يضرروا بالقرى والمزارع بل أن العرب اكتفوا بالتقدم الى المدن ولم يتعرضوا لجماعات القرى كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة<sup>(6)</sup>. وذكر بعض الجغرافيين العرب مثل

(1) ابن هشام: م. س. ج. 4، السلسلة الأولى ص 1693. ونزلت آيات كريمة لدعوة المسلمين لغزو الروم في سورة التوبة قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأتم الى الأرض..." وقال تعالى: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا..." البلاذري: ن. م، ط ابريل 1866، ص 60 و دكتور: اسرائيل ولفنسون تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص 178-182. وانظر ابن عساکر: م. س، ص 112، واليعقوبي: م. س، ص 69، وفرض 300 دينار جزية على يوحنا رؤية أمير العقبة وكتب الرسول الكريم عهداً بقي حتى عهد عمر بن عبد العزيز 99-100هـ/717-720م، ويروي سكان تلك الجهات أن يهود الجرباء وقعنا وأذرح نرحوا الى الجبال المحيطة بالبراء بعد هذه المعاهدة، واعتنقوا الدين الإسلامي وعرفوا "بالبدول" كما يزعم أهل وادي موسى أنهم أسلموا على قمة جبل "البيرة" بجوار البراء فردريك بيك، ن. م، ص 91 وصالح أهل على مائة دينار وأهل الجرباء وقعنا على ربع ثمارهم.

(2) يحتمل أن تكون أبل الزيت هي قرية القويلية اليوم من أعمال منطقة عجلون.

(3) البلاذري: الانساب، ص 152، ويشير البلاذري في ص 18 الى أن هذه الأراضي كانت خالية في أماكن نائية أو استراتيجية أو أن أهلها جلو عنها بعد الفتح، أو من الأراضي الموات، كما يسمي البلاذري هذا التقسيم بالاقطاع الاستيطاني للقبائل استخدمت منذ أيام الراشدين انظر ص 177، 178. حيث شجعت الهجرة الى الامصار في الفترة الاسلامية الأولى للوفاء بمتطلبات التعبئة من أجل الجهاد، وسجل كل مهاجر في ديوان الجند لأخذ العطاء والرزق. أما الفلاحين فقد تركت لهم الأرض لزراعتها بالمزارعة أو بنسبة من الحاصل.

(4) البلاذري، فتوح، ص 150، ابن عساکر، تهذيب، ج 3، ص 340، اليعقوبي: ن. م، ج 2، ص 34.

(5) البلاذري: ن. م، ص 207.

(6) أبو يوسف: الخراج، ص 23.

اليقوي بأن سكان عكا وبيسان والرملة ونابلس أخلاط من العرب والعجم<sup>(1)</sup>. كما يشير بعضهم الى وجود السامرة في الرملة وقيسارية ونابلس<sup>(2)</sup>. وأما المقدسي فهو الوحيد الذي يذكر وجود اليهود في القدس<sup>(3)</sup>. كما أشار الى انتشار التشيع في بعض المدن الشامية مثل طبريا ونابلس وبيت المقدس وعمّان<sup>(4)</sup>.

ونرجح ذلك الى وجود الدول الشيعية مثل الدولة البويهية والحمدانية والفاطمية التي خضعت لها بلاد الشام.

هذا وقد أوصى الرسول الكريم قبيل وفاته بتسيير جيش أسامة بن زيد لمقاتلة الروم في أبل الزيت<sup>(5)</sup> من مشارف الشام عام 11هـ/632م وبعد الفتوحات الإسلامية التي بدأت زمن ابي بكر الصديق في ربيع عام 13هـ/634م<sup>(6)</sup>، رحّبت القبائل العربية في بلاد الشام بالحكم العربي العادل الذي انقذها من ظلم الحكم الروماني الفاسد، بعد أن أصبح أبو عبيدة عاملاً على سوريا الكبرى زمن الخلفاء الراشدين.

وفي زمن الأمويين أصبحت الأردن مركز استجمام وراحة للخلفاء الأمويين لقربها من البادية واستقرار الامن فيها، فشيّدوا فيها القصور والأبنية الفخمة خاصة في الجزء الشرقي منها كقصر الخزانة والعمرى وقصر الحلابات. وحصن الموقر بالبقاء على مسافة ساعتين من عمّان، وحمّام الصرخ. وقصر طوبة وقصر باير حيث يتجلى فيهما الفن العربي بوضوح كما أنشأ الأمويون محلات لضرب السكة في شرقي الأردن.

(1) اليقوي: م س، ص 307، 328، 329.

(2) اليقوي: ن م، ص 328، 329، الاصطخري: م س، ص 44، وابن حوقل، م س، ص 159. والمقدسي: م س، ص 179، حيث يشير الى أن السامرة كانوا موجودين من جند فلسطين الى طبريا.

(3) المقدسي: ن م، ص 167، 183.

(4) ن.م. ص 179: فهو يقول عن أهل الشام أن "مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة وأهل طبريا ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعية".

(5) فردريك بك: م س، ص 93، حاشية 29: "يحتمل أن تكون أبل الزيت هي قرية القويلبة اليوم من أعمال منطقة عجلون في الأردن، هذا ولم يتفق المؤرخون على المكان الذي وصل إليه جيش أسامة بن زيد.

(6) الطبري: م س، ص 2076، 2106. وابن عساكر: م س، ص 169. والخضري: محاضرات في تريخ الأمم الإسلامية، ج1، ص 287، وعبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدين، ص 72.

ومن الحميمة "بين العقبة ومعان" في شرقي الاردن بدأت الدعوة العباسية على يد أبي هاشم بن علي بن أبي طالب في أواخر القرن الأول الهجري حتى سقطت الدولة الأموية عام 132هـ/749م وقامت الدولة العباسية التي نقلت عاصمتها للعراق، مما أثر في الأحوال العامة لشرقي الأردن بعد إهمال قصورها وقلاعها وتغيير طريق الحج المار فيها حتى أواخر الدولة العباسية عندما سيطر الأتراك على الخلفاء مما مهد لقيام الدولة الفاطمية في الغرب عام 358هـ/969م وبسطوا نفوذهم على مصر وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن. وبعد ضعف الفاطميين والعباسيين عام 410هـ/1021م شبت الثورات في شرقي الأردن وفلسطين وسوريا لمدة سبع سنوات حتى هجوم الأتراك السلاجقة على دمشق والقدس عام 419هـ/1076م والاستيلاء على سوريا وفلسطين مما مهد لنجاح الصليبيين في غاراتهم الأولى إذ استولوا على القدس عام 491هـ/1099م تحت زعامة جودفري ثم زحفوا شرقاً على الأردن 499هـ/1107م وشرعوا في تشييد القلاع والحصون خاصة بعد أن أدركوا أهمية القسم الجنوبي من شرقي الأردن لهم لحماية مملكة بيت المقدس من الغارات الشرقية والتحكم في خط المواصلات الرئيس بن مصر وسوريا والحجاز<sup>(1)</sup>.

### وورث في الأعلام النفيسة(2):

أن عمر قسم الشام الى أربعة أجناد متفرقة في أيدي 'عماله وهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن أبي العاص، فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنسرين وكانت من ارض الجزيرة فصارت أجناد الشام أربعة: جند فلسطين، وهي الرملة وجند الأردن وهي طبرية وجند دمشق وجند قنسرين. كما ذكر الأصول السكانية بقوله.

<sup>(1)</sup> Gibbon: The Declime and fall of the Roman Empire, p.58 Stephenson: The Crusaders in the East 1907, P.44. 62. ذكر القلاع الهامة مثل : قلعة الحابس في علعال شمالاً وقلعة الشوبك والكرك جنوباً وأكمل الصليبيون سيطرتهم

على جنوب شرقي الأردن عام 546هـ/1152م.

<sup>(2)</sup> الأعلام النفيسة : تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رسته، م7، ط ليدن، مطبعة بريل، 1891، ص107.

"لجند دمشق من الكور الغوطة وأهلها غسان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة وحوران ومدينتها بصرى، وأهلها قوم من قيس من بني مرة خلا السويداء، فإن بها قوماً من كلب، والبثنية ومدينتها أذرعاع<sup>(1)</sup>. وأهلها قوم من يمن ومن قيس وكورة الظاهر<sup>(2)</sup> ومدينتها عمان وكورة الغور ومدينتها أريحا، وهاتان المدينتان تجمعهما أرض البلقاء وأهلها قوم من قيس وبها جماعة من قريش، وجبال ومدينتها غرندل وأهلها قوم من غسان ومن بلقين وغيرهم ومآب وزغر وأهلها أخلاط من الناس وبها القرية المعروفة بمؤتة التي قتل فيها جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة والشرارة ومدينتها أذرح وأهلها موالى بن هاشم وبها الحميمة منازل علي بن عبد الله العباسي بن عبد المطلب وولده والجولان ومدينتها بانياس وأهلها قوم من قيس أكثرهم بنو مرة وبها نفر من أهل اليمن وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة ولبنان صيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن وبعلبك وأهلها قوم من الفرس واليمن. ولجند دمشق الكور على الساحل كورة عرفة ومدينة طرابلس وأهلها من الفرس نقلهم معاوية اليها وجبيل وصيدا وببيروت وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم معاوية وكل كورة دمشق فتحها أبو عبيدة سنة 14هـ.

وبالإضافة للأصول العربية فهناك أخلاط عرقية من جنسيات مختلفة كالتركمان : الذين هاجروا من المنطقة الواقعة ما بين بحر آرال وبحر الخزر بعد معركة ملاذكرد عام 464هـ/1071م. وقد دخلوا في خدمة العباسيين زمن المعتصم بالله (218-227هـ/930-938م) وأصبح لهم دور سياسي في بلاد الشام امتد حتى عصر المماليك بعد أن انتشروا في جميع أنحاء الشام بين غزة وديار بكر وكانت قبيلة دلغار البحرية من أهم قبائلهم<sup>(3)</sup> وفي عصر دولة المماليك البحرية شكلوا جزءاً هاماً في الجيش المملوكي إذ بلغ عدد فرسانهم مائة وثمانية آلاف فارس<sup>(4)</sup> وساهموا في هزيمة المغول والصليبيين.

(1) أذرعاع هي مدينة درعا اليوم على الحدود الجنوبية لسوريا والمتاخمة للأردن وفيها مركز الجمرك والجوازات حيث تعتبر نقطة العبور البري من الأردن لسوريا.

(2) الظاهر: ظاهر البلقاء، ابن رسته ابي علي أحمد بن عمر. الأعلام النفيسة : مجلد 7، طبع لندن، مطبعة بريل 1891، ص336.

(3) ابراهيم خورشيد: دائرة المعارف الاسلامية، م 9، ط الشعب، ص277.

(4) خليل بن شاهين الظاهري: م س، ص105.

ومن الأخطاط العرقية الأخرى الأكراد الذين ينتسبون الى اقليم كردستان شمالي العراق وظهروا أيام الدولة النورية "زمن نور الدين زنكي في الشام عام (522-569هـ/1128-1173م) وزادت أهميتهم في الجيش في عصر الأيوبيين شمال حلب وساحل لبنان واستمرت أهميتهم العسكرية أيام المماليك البحرية وقد استعرب قليل منهم<sup>(1)</sup> وكانت طموحاتهم وحتى اليوم تأسيس كيان كردي مستقل كما يلاحظ من صراعمهم العسكري مع تركيا والعراق وايران. وهكذا نرى أن سكان بلاد الشام يتكونون من عرب الجنوب خاصة اليمن ونسل عدنان من الشمال ومن أفراد القبائل العربية التي هاجرت لشام طلباً للرزق هذا بالإضافة للعصبيات العنصرية من أكراد وتركمان وأرمن وشركس.

أما الأصول السكانية للماليك فكانوا ينتمون الى جنسيات ومواطن مختلفة ولا رابطة بينهم إلا رابطة الرق والعبودية<sup>(2)</sup> إذ جلبهم تجار الرقيق من منطقة الأتراك والروم والمغول والصقالبة والإسبان والأكراد والجراسية والألمان من بلاد بعيدة ومختلفة كبلاد التركستان وما وراء النهر وفارس وشبه جزيرة القرم والقفجاق وآسيا الصغرى وغيرها<sup>(3)</sup>.

وذكر فيليب حتى غلبة العنصريين القوقازي والقفجاق "الترك" أو المغول عليهم<sup>(4)</sup> وابتسم الحظ لهذا الخليط الغريب بمستقبل زاهر زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي جلبهم لمصر والشام وجعلهم حرسه وأمرأه عسكريه وتسلمن منهم فيما بعد أيك التركماني وقطرز وبيبرس وقلالون<sup>(5)</sup>.

أما بالنسبة للأقلية اليهودية في جنوبي بلاد الشام فقد ثبت من مخطوطات البحر الميت لمحفظة في الكهف في منطقة قمران وعين الفشخة<sup>(6)</sup> منذ 11 قرناً والتي عثر عليها سنة

(1) ابن اياس: م س، ج6، ص487. ومحمد كرد علي: م س، ج9، ص61.

(2) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص12.

(3) المقرئ: السلوك، ج1، ص2، ص368، 416، 436. الظاهري: م س: ج9، ص140. د. سعيد عاشور: ن م، ص12. ود. العبادي: قيام دولة المماليك، ص216.

(4) فيليب حتى: م س، ج2، ص871، 874، 878.

(5) بدر الدين العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص202. وكان عز الدين أيك التركماني قد أصبح سلطاناً منذ تنازل شجرة الدر عن العرش له أواخر ربيع الأول 648هـ/1250م الى أن قتلته ليلة الأربعاء 24 ربيع الأول 655هـ/1257م.

(6) قمران وعين الفشخة: حيث تقع قمران جنوب مصب وادي عربة على بعد 38 كم من القدس و20 كم عن أريحا وعين الفشخة: تقع شمال البحر الميت وهي من مواقع عرب ابن عبيد. أنظر الدباغ: بلادنا فلسطين، ج8، ص4، 815.

1947م<sup>(1)</sup> أن فرقة من اليهود كانت تقيم في هذه المنطقة وتميزت بطقوس خاصة عن فرقتين يهوديتين كبيرتين. الفريسيين والصدوقيين اللتين حمل السيد المسيح عليهما في دعوته لتحريفهما التوراة وابتداعهما تعاليم وأحكام فاسدة ترجع في أصولها لشريعة حمورابي في بلاد ما بين النهرين لإنكارهم البعث والنشور واعتقادهم بأن عقاب المذنبين يحصل في حياتهم وأن المرض ناشئ عن تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين وهم لا يقبلون بالتوراه إلا الأسفار الخمسة، وقد نبت من الصدوقيين بعد تسعة قرون فرقة القرائين في بغداد، والذين لا يقبلون شريعة التلمود وملتزمون بقدسية السبت<sup>(2)</sup>.

ولعل هذا يشير الى الأصول التاريخية لليهود في بلاد الرافدين قبل هجرتهم الى فلسطين الكنعانية مما يدحض ادعاءاتهم التاريخية في فلسطين. إذ أنهم لم يتركوا آثاراً حضارية فقد كانوا بدائيين متقلبين وهذا ما يستدل من دراسة مجتمع قمران من خلال آثارهم الكتابية التي خلفوها<sup>(3)</sup> والتي تأثرت بثقافة جيرانها في مصر وسوريا وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى بالرغم أنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً منفصلاً عن جيرانهم في العادات والتقاليد التي طالما تخلّوا عنها عندما كانت تتضارب مع مصالحهم، كما تأثروا بعقائد البراهمة والمجوس والبوذيين وخاصة طائفة الاسينيين<sup>(4)</sup> وقد أكدت مخطوطات البحر الميت في قمران أخيراً أنها مملوءة بإشارات فنيقية وآرامية مما جعل علماء اليهود يشككون فيها باسم السامية المزعومة لفصل العرب عن المجموع الثقافي المصري والكنعاني، والبابلي، لإعطاء مكانة خاصة للغة العبرية في حين أنها ليست إلا فرعاً متأخراً من اللغة العربية، وكل ذلك من أجل إثبات توارتي لعملية الاستيطان الحالية في فلسطين. فهذه التوراة الحالية ترجمت لجميع اللغات الرسمية في العالم التي جرت

(1) حسين عمر حمادة: مخطوطات البحر الميت في كهوف قمران وعين النشعة، ط1، سنة 1982م دار المنار للنشر - عمان - الأردن، ص10.

(2) عجاج نويهض: بروتوكولات حكماء صهيون، مجلد 2، ج3، ص4-135. ولدويرانت م س، ج3، م3، القسم 11، ترجمة محمد بدران - جامعة الدول العربية، ط3، 1973 القاهرة.

(3) لانكستر هاردنج: آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، المطبعة الوطنية، عمان، ط2 1971، ص229، وميلر بروز: مخطوطات البحر الميت، ترجمة محمود العابدي، المطابع التعاونية، عمان 1967، ص55-56.

(4) يورانت: قصة الحضارة، م3، ج3، ص175، 215، 183. حسين عمر حمادة: م س، ص48-52. وعلي عبد الواحد وافي: بحوث الاسلام والاجتماع، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1978، ص269-272.



علينا المآسي والأخطار المتمثلة بالخطر الصهيوني الذي يهدد وجودنا كله في بلاد الشام والفرات والنيل كما يزعمون بحدود اسرائيل الكبرى وقد ورد هذا في اصحاحات سفر يشوع الأربع والعشرين<sup>(1)</sup>.

لقد اثبت حاخامات اليهود في تعليماتهم المقدسة أن اليهودية جنسية تبحث عن أرض الميعاد وليست ديانة تستطيع التعايش مع بقية الأديان في وطن واحد. وهي حكر على شعب بعينه يكون أفضل الشعوب حتى لو سرق أو زنى أو أشرك بالله. ويدعون بأنهم ورثة الأنبياء وشعب الله المختار، الذين وعدهم الله بوراثة الأرض وإقامة دولة تمتد من النيل الى الفرات، بالإضافة الى ما تأثر به بعض مؤرخي المسلمين بفكر المستشرقين كالدكتور حسن صبري الخولي في نسبة اليهود الى النبي ابراهيم عليه السلام<sup>(2)</sup>. وأن ابراهيم واسحاق ويعقوب كانوا

<sup>(1)</sup> حسين عمر حمادة: مخطوطات البحر الميت، ص137، أورد نصاً من الاصحاح الثالث عشر من سفر يشوع، العدد 1-10 "وشاخ يشوع تقدم في الأيام فقال الرب أنت شخت تقدمت في الأيام وقد بقيت أرضي كثيرة للاحتلاك، هذه هي الأرض الباقية كل دائرة وكل الجشوريين من الشيجور الذي هو أمام مصر الى تخم عقرون. شمالاً تحسب للكتعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزي والاشدودي والاشقلوني والحبشي والعزومي والعوين من التيمن كل الكتعانيين ومغارة التي للصيد وتبين الى افيق الى تخم الأموريين. وأرض الجليلين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون "جبل الشيخ" حتى مدخل حماة جميع سكان الجبل من لبنان الى مسرفوتاييم وجميع مدن سيحون "بين النهرين بالعراق". وللمزيد من المعرفة عن حضارة اليهود المزعومة ومخططاتهم أنظر :

- بيرروسي : مدينة ايزيس - التاريخ الحقيقي للعرب - منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق 1980م، ص21-31.
- الكتاب المقدس : أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، مترجم عن اللغة اليونانية، المطبعة الأميركانية، بيروت 1909م.
- وليم ف. اولبرايت : آثار فلسطين، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1964.
- الكتاب المقدس : أي كتب العهد القديم والجديد - مترجم عن اللغات العبرانية والكلدانية واليونانية، إصدار جمعية التوراة الأمريكية، وجمعية التوراة البريطانية والأجنبية، القاهرة 1938م.
- د. أحمد سوسة : اللغة العبرية وصلتها باليهودية - مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد نيسان 197.
- أسد رستم : مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، مطابع مجلة المسرة، 1959.
- عباس محمود العقاد حياة المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث، كتاب الهلال 82، 1958م.
- لا نكسر هاردنج : آثار الأردن، المطبعة الوطنية، عمان 1971م.
- محمود نعنعة : المشكلة اليهودية وهل تحملها اسرائيل؟، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975م.
- محمود العبادي : قدسنا، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة 1972م، ص245-246.
- مخطوطات البحر الميت، منشورات دار الطليعة، بيروت 1974م.
- وليام هـ. براونلي وآخرون : فك رموز المخطوطات الجلدية الكاربابية، مديرية الآثار العامة.
- <sup>(2)</sup> د. جمال عبد الهادي مسعود وزميله د. وفاء محمد رفعت جمعة. أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ط4، المنصورة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ص20-23. وهما استاذان مساعدان بقسم التاريخ الاسلامي كلية الشريعة والدراسات الاسلامية في جامعة ام القرى سابقاً

يهوداً. وأن اليهود الحاليين هم ورثتهم لأنهم من أصلهم... وأن الله قد وعد ذرية ابراهيم اليهود وراثته أرض فلسطين.

فانتشار هذا الفكر في المدارس والجامعات أدى الى انصياع بعض الجماهير العربية لمخطط الأعداء... لأن كتاب التاريخ أفهموها بأن الحق قد رجع الى أصحابه. لذا يجب على المؤرخ المسلم إعادة ثقة الأمة الإسلامية في وجودها وحققها في الاستقلال بأرضها وكرامتها وكيانها وذلك بالتنبيه الى خطورة ما تتعرض له الأمة على أيدي كتاب التاريخ وتصحيح هذه الأخطاء متبعاً المنهجية العلمية بما يجده في القرآن الكريم الذي يفضح هذا التزييف. الذي أحدثه كتاب التوراة المزيفة والتاريخ في سير الأنبياء والرسل. والحقيقة أن جميع الأنبياء والرسل دعوا الى الاسلام، واليهود لا يرثون الانبياء والرسل والمسلمين. فابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وداود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام دينهم جميعاً الاسلام، ولم يكونوا هوداً أو نصارى والدليل قوله تعالى: "ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الإله واحداً ونحن له مسلمون"<sup>(1)</sup>. وقال تعالى: "ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"<sup>(2)</sup>.

وقال تعالى: "وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين"<sup>(3)</sup>. وقال تعالى: "قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلقو عليّ وأتوني مسلمين"<sup>(4)</sup>.

(1) سورة البقرة، آية 130-133.

(2) سورة آل عمران آية 68

(3) سورة يونس، آية 84

(4) سورة النمل: آية 29-31.

وهكذا نرى حسم القرآن الكريم لقضية الدين والوراثة، فأنبياء الله المذكورون كانوا مسلمين وأن الذين لهم الحق في وراثتهم هم المسلمون الذين اتبعوا ملة ابراهيم ونبي الله محمد صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا بهم واسلموا لله رب العالمين.

قال تعالى: "إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا" "ولا ينال عهدي الظالمين"<sup>(1)</sup>. وقال تعالى: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يريثها عبادي الصالحون"<sup>(2)</sup>.

لذا نرى بأن القرآن الكريم خاطب اليهود بأنهم ليسوا اتباعاً لابراهيم لأنه نبي مسلم ويقول لهم ايضاً ودليل انحرافكم هو أنكم لم تؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالتالي فلا حق لكم في وراثة هؤلاء الأنبياء والمسلمين، ولا حق لكم في شبر واحد من أرض الاسلام لأن، الكافر لا يرث مسلماً. كما اثبت القرآن الكريم بأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله تعالى، قال تعالى: "وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قولوا آمنوا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"<sup>(3)</sup>.

لذا يجب على المؤرخين المسلمين الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية عند التأريخ للأمة الاسلامية وعدم الاعتماد على المصادر غير الموثوقة ومنها التوراة والانجيل والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية وبعض المراجع الحديثة المتأثرة بالمستشرقين الذين قسّموا التاريخ الى قديم ووسيط وحديث والتي وقعت في حرمة الاعتداء على ذات الله ورسله،

(1) سورة الأنبياء، آية 105

(2) سورة البقرة آية 135-136. وانظر أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي: الجامع لاحكام القرآن، بيروت دار الفكر 1966، ج1، ص132.

(3) من هذه المراجع: دائرة المعارف الاسلامية التي ألفها المستشرقون وقصة الحضارة لديورانت، ترجمة محمد بدران وزكي نجيب محمود، إدارة التأليف والنشر، جامعة الدول العربية، ج2، م1، ص331-334. زعم فيها: "أن لليهود حق في فلسطين بحجة أنها ميراثهم عن أبيهم ابراهيم وكذلك سليمان اليهودي باني الهيكل تحت الحرم الشريف في المسجد الأقصى فلا عجب ان من محالولانهم اليوم حفر الاتفاق تحت المسجد الأقصى بحثاً عن هيكل سليمان المزعوم تحدياً للشاعر المسلمين وزعم فيها أنه هاجروا مع نبيهم ابراهيم من أرض العراق الى فلسطين التي وعدهم الله إياها".

وزعمت أن الأنبياء والمسلمين كانوا يدينون باليهودية وأن لهم حق وراثة النبي الكريم إبراهيم وسليمان عليهما السلام... فكان هذا لخدمة الصهيونية.

ونخلص إلى القول بأن نسيان الأمة الإسلامية للحقيقة التي بينها الله رب العالمين لنا في كتابه وهي: "أن الإسلام هو دين الله في الأرض وفي السماء وأن اليهودية والنصرانية ليسا دينين سماويين" وقد ورد ذلك في تفاسير القرآن الكريم فعندما تقرأ على سبيل المثال لا الحصر تفسير الإمام الحافظ ابن كثير لقوله تعالى: "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون"<sup>(1)</sup>. أي ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله، لأنهم أرادوا بزعمهم إلباس الباطل ثوب الدين ووراثة الأنبياء، وزيفوا تاريخ البشرية لخدمة مصالحهم بحق زعموه في فلسطين فالموعودين ليحتلوا في الأرض المقدسة وغيرها من أرض الله، علماً بأن المبشرين بوراثة الأرض المقدسة هم المسلمون من ذرية إبراهيم بدليل نص الآيتين الكريمتين:

قال تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين"<sup>(2)</sup> فيكون قد حجب الإمامة "أي الرئاسة" عن الظالمين الفاسقين والكفرة من ذرية إبراهيم عليه السلام كما حسم الله الأمر بقوله تعالى: "إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"<sup>(3)</sup>.

ولو سلمنا بأن اليهود من ذرية إبراهيم عليه السلام فلن يستحقوا وراثته لعدم اتباعهم دين الإسلام ويأتي الحديث الشريف المروي عن رسول الله الكريم ليؤكد هذه الحقيقة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغردق فإنه من شجر اليهود"<sup>(4)</sup>.

(1) سورة البقرة: آية 42، وانظر الإمام الحافظ اسماعيل ابن كثير: تفسير القرآن العظيم دار الفكر، بيروت، ج 1، ص 84.

(2) سورة البقرة: 124.

(3) سورة آل عمران: آية 68.

(4) صحيح الجامع الصغير وزيادته: أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم. حديث رقم 7304.

وفيما يتعلق بنسبة التوراة المحرفة بأن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً فهذه شبهة قديمة وقد رد الله عليها في كتابه الكريم بقوله: "يا أهل الكتاب لم تُحاجّون في إبراهيم وما أنزلت من التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا يعقلون، ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"<sup>(1)</sup>.

هذا ولقد ألف اليهود كتاباً سموه التوراة والتي لا علاقة لها بالتوراة التي أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً"<sup>(2)</sup>. وشهد بذلك شاهد من أهلها ألا وهو موسكاني<sup>(3)</sup> في كتابه الحضارات السامية القديمة، وديورانت في كتابه قصة الحضارة<sup>(4)</sup>.

ولقد أدرك اليهود، إن هناك قطاعاً كبيراً من بني البشر، لن يقرأ التوراة المحرفة ولن يقتنع بها .. ولذلك لجأوا الى كتب التاريخ يُزيّفون ويشوهون بتاريخ الأنبياء والرسل ودين الله ومن له حق وراثة الأرض لكي يربوا في المدارس والجامعات أجيالاً تعتق ذلك التاريخ المزيف حتى اذا ما وصلوا الى موقع المسؤولية في قيادة الأمة سلموا لليهود باغتصابهم فلسطين.

وقيام دولتهم من "النيل الى الفرات" وعاصمتها بيت المقدس "أورشليم" وزعموا أنهم جادون في البحث عن هيكل سليمان اليهودي أسفل المسجد الأقصى الذي بناه آدم عيه السلام وجدده داود وسليمان وإبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام والذي اليه تشد الرحال وارض الاسراء والمعراج والأرض المباركة حولها ارض فلسطين التي جعلها الله ميراثاً للأمة الاسلامية تُقيم

(1) آل عمران، آية 65-78، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج1، ص375.

(2) صحيح البخاري:

(3) موسكاني : الحضارات السامية القديمة، ص139.

(4) ديورانت: م، س، م1، ج2، ص367، قال: "كيف كتبت هذه الاسفار ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال برئ لاخبر منه، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ويجب أن نفرغ منه هنا بفقرة واحدة نركه بعدها من غير جواب" فذلك يعني أن هذه التوراة مشكوك في نسبها الى نبي الله موسى عليه السلام.

حكم الله عليها بعد تحريرها، قال تعالى: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"<sup>(1)</sup>.

وفي القرآن الكريم شواهد عظيمة على عداوتهم للمسلمين الى يوم القيامة منها قوله تعالى: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا"<sup>(2)</sup>. وقوله تعالى: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ماللك من الله من ولي ولا نصير"<sup>(3)</sup>.

وقوله تعالى: "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا"<sup>(4)</sup>.. وقوله تعالى: "لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون"<sup>(5)</sup>.

(1) سورة الأنبياء، أية 105

(2) سورة المائدة: أية 82

(3) سورة البقرة: أية 120

(4) سورة البقرة: أية 217

(5) سورة التوبة : أية 8.

## ثانياً : الطبقات الاجتماعية

لقد غرق العالم الإسلامي - وخاصة العربي - في أواخر أيام الدولة العباسية في صعوبات التفتيش عن صيغ جديدة لتكوين اجتماعي يؤمن استقلالية الذات العربية من جهة وانتمائها الخلاق لركب الحضارة الإنسانية من جهة ثانية، فكانت أزمة تشمل مختلف أنواع العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والروحية نتيجة التمازج الحضاري للشعوب الإسلامية المتعددة الجنسيات من أتراك و فرس و عرب و مماليك و صليبيين و مغول... لذا كانت بلاد الشام وخاصة أطرافها الجنوبية بحاجة لهمة قوية وجرأة متحدية للغزو الثقافي والفكري والتأثير الحضاري للصليبيين والمغول الخطير على الوجود والتراث، للوقوف أمام هذا المد الأوروبي والمد المغولي المتضخم باستمرار عن طريق الاحتلال والتدمير ونهب التراث والكتب العلمية لنقلها للقارة الأوروبية وحتى لا نكون تحت وصاية غيرنا، وللمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية في العصر الحاضر ولنعتبر من دراسة تلك الأحداث المتشابهة لما تمر به الأمة العربية والإسلامية اليوم.

وبالنسبة للطبقات الاجتماعية فقد قسمها العلماء بالنسبة للظواهر الاجتماعية<sup>(1)</sup>. فقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تصنيف طوائف المجتمع، فمنهم من لا يرى غير طبقتين<sup>(2)</sup>، ومنهم من صنف المجتمع في سبع طوائف<sup>(3)</sup>، أو ثلاث طوائف<sup>(4)</sup>.

(1) يذكر علماء الاجتماع على أن المقصود بها نواحي النشاط الإنساني من الدين والعمل والأسرة والتعليم، وما فيها من أعياد ومآتم وأفراح وأتراح وشتى الأمراض الاجتماعية وعللها.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 188 ذكر: أن الملك سلطان ورعية "فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان". وانظر عاشور: دراسات في الحياة الاجتماعية، ص 10، ذكر رأي المؤرخ لين بول الذي أشار إلى طبقتين كبيرتين هما: "طبقة الممالك وهي أقلية عسكرية ممتازة وثانيهما طبقة تمثل سائر فئات الشعب، وعليها واجبات العمل والفلاحة ودفع الضرائب الباهضة، وهي محرومة من كل نفوذ وبعيدة عن الحكم".

(3) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص 72: الأولى: أهل الدولة من الممالك، والثانية أهل اليسار من التجار، والثالثة متوسط الحال من السوق والباعة، والرابعة أهل الفلح، والخامسة الفقهاء وطلاب العلم، والسادسة أرباب الصنائع وأصحاب المهنة والسابعة ذوو الحاجة والمسكنة.

(4) كما قسمها معاصر المقرئزي (بيلوتي الكريني Pilote do crete) إلى ثلاث طبقات طائفة الممالك، وطائفة الشعب، وطائفة الأعراب: وانظر عاشور: دراسات في الحياة الاجتماعية، ص 10.

ونرى خدمة للبحث تبني تصنيف المقريري مع الإضافة إليه طائفة الأعراب وأرباب  
الملل والنحل من الطوائف الأخرى، وأهل الذمة من اليهود والنصارى.

**الطبقات الاجتماعية في فلسطين زمن الفرنجة:**

لقد انقسم المجتمع أيام الفرنجة الى ست طبقات هي:

- الطبقة الارستقراطية الأوروبية الحاكمة من النبلاء والفرسان.
  - طبقة المحاربين الفرنجة: وهم من المحاربين المشاه الذين استقروا في فلسطين وتزوجوا من  
المسيحيين الفلسطينيين والأردنيين، فنشأ عن هذا الزواج موكدة من آباء غربيين وأمهات  
شرقيات أرمن أو سريان.
  - ثم طبقة المسيحيين الشرقيين من أرمن وسريان وقبط ويعاقبه وموارنة وهم الطبقة الدنيا،  
أصحاب الحرف البسيطة، وكانوا محرومين من المشاركة في الحكم.
  - وطبقة التجار الايطاليين في المدن الهامة في حيفا ويافا وعكا وقيسارية حيث كانت طبقة  
بورجوازية لهم فنادقهم وأحيائهم الفنية.
  - ثم المسلمون سكان البلاد الأصليين في المدن، حيث هاجر قسم كبير من سكان فلسطين الى  
شرقي الأردن ودمشق حقدماً على الصليبيين مما عطل الزراعة في ساحل فلسطين.
  - طبقة الأتقان والعييد يباعون ويشتررون من قبل الإقطاعيين الفرنجة<sup>(1)</sup>. ومنهم الأقليات اليهودية.
- العلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية بين الصليبيين والمسلمين:**
- بعد أن فرض الصليبيون سيادتهم على السكان الأصليين، كانت العلاقات القائمة وثيقة  
الصلة بوضعهم العسكري حيث استمروا لمدة مائة وثلاثة وتسعين عاماً (1098-1291) سادها  
الحرب والسلام.

(1) د. يوسف غوانم، دراسات، ص 186-187.



فبدأت العلاقات بالمذابح الوحشية في بيت المقدس بحب الانتقام<sup>(1)</sup>. كما كان الصليبيون يعتقدون عند قدومهم للأراضي المقدسة أنهم أرفع منزلة من أهلها وأن المسلمين وثنيون يعبدون محمداً وصنمه<sup>(2)</sup>.

كما كان عليهم أن يجدوا أسلوباً للتعايش مع السكان الأصليين في الأراضي المحتلة لقلّة أعدادهم التي أدخروها للعمليات الحربية، ولضرورة استخدام الفلاحين العرب في الأعمال الزراعية لتأمين مورد الرزق لهم، لذا ترك لهم الفرنج إدارة ذاتية مع تمتعهم بعبادتهم الخاصة، وكان هؤلاء الفلاحين يدفعون ضرائب للفرنجة: كضريبة الرؤوس وضريبة ثمار الأشجار<sup>(3)</sup>. وكان سكان القرى والضياح كلهم من المسلمين، لذا كانوا يخفون الأسير ويرسلونه للبلاد الإسلامية<sup>(4)</sup> كما كان لهم قاضي في جبله يحكم بينهم<sup>(5)</sup>.

وقد أدى اختلاط الصليبيين بالمسلمين إلى تأثيرهم بالمسلمين في بعض الأمور السطحية وليس العكس، لأنهم كانوا في مستوى حضاري وفكري ومادي أقل بكثير مما كان عليه المسلمون في الشام. فاكتمست هذه الأقلية الصليبية المتخلفة حضارياً من صفات وعادات المجتمع الإسلامي الأرقى حضارياً. كما تزوج بعض الفرنج من المسيحيات السوريات أو الأرمنيات والبيزنطيات كما تزوج بعض السوريين بالفرنجيات<sup>(6)</sup>.

فنشأ جيل جديد سمي بولان Poulains، كما بقيت عائلات فرنجية بعد طردهم من بلاد المسلمين كالمار ونين في لبنان وعائلة الصليبي وفرنجة ودويهي وبروديل وصوابا وطربين ودريان<sup>(7)</sup>.

(1) أسامة ابن منقذ: م س، ص 13، وما بعدها، ص 274. قاسم عبيد قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، بيروت 1985، ص 271-272. Wiliam of Tyre, 1, p.37. حيث قال: "إن الغزاة أصابهم الاشتزاز لما اقترفته أيديهم".

(2) Hitti, The Arabs, p. 243.

(3) ابن جبير: م س، ص 211، ويقول وفيما عدا ذلك: "فإن مساكنهم بأيديهم وجميع أحوافهم متروكة لهم".

(4) ابن منقذ: ن.م، ص 82.

(5) ابن شداد: م.س، ص 89.

(6) عاشور: المجتمع الإسلامي. ص 239، وابن منقذ: ن م، ص 130.

(7) حتى: تاريخ لبنان، ص 290.

ومن العادات الإسلامية التي مارسها الصليبيون استخدام الصبيان كخدم للحريم<sup>(1)</sup>. كما اتخذوا الطراز العربي في بناء بيوتهم وقصورهم ذات الأفنية الفسيحة التي تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها بحيرة صناعية يتدفق منها الماء عالياً بواسطة النوافير لتخفيف الحرارة<sup>(2)</sup>. بالإضافة لزخرفة جدرانها وسقوفها بالرخام والفسيفساء والذهب<sup>(3)</sup>.

كما تأثروا بالروح الشرقية المشهورة بحب الترف في الأثاث من سجاد وطناش من المصنوعات الدمشقية والأوعية النحاسية المنمقة والآنية الزجاجية والخزفية. واستخدموا الشموع المطيبة للضاءة<sup>(4)</sup>.

وعملوا بالزراعة والتجارة منذ أقدم العصور، مما مكنه من الاستقرار الذي ساهم في ابداعه الحضاري، وخير شاهد على ذلك الآثار الباقية حتى اليوم في البتراء وجرش وعمان ومادبا وبيت رأس وأم قيس والكرك والشوبك والقطرانة والحسا وعجلون.

### الحياة الاجتماعية:

لقد كانت منازل السكان في المدن تتكون في معظمها من طابقين بما يشبه الفيلات الريفية اليوم وفرشوها بالسجاد والبسط، كما استعملوا الأثاث الفاخر والنحاس وكراسي الحديد<sup>(5)</sup>. ونقشوا اسماءهم على الأواني النحاسية مثل أدوات الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك. كما يوجد في المتحف الإسلامي بالقاهرة وهكذا عاش الأثرياء حياة البذخ والترف كما انتشرت الحمامات العامة في عجلون وعمان والكرك وحسبان بالإضافة الى وسائل التسلية في أوقات الفراغ كالغناء والصيد ولعبة الكرة البولو.

فطبقة الخاصة من أمراء المماليك وسلاطينهم عشقوا الغناء والموسيقى في مجالس الأنس من اللهو والطرب في منازلهم، وكانت الكرك والشوبك مكانتهم. للترويح عن النفس لكثرة ما

(1) حبشي (حسن) نور الدين والصليبيون، حركة الافاقة والتجمع الاسلامي في القرن السادس الهجري، القاهرة، 1984، ص148.

(2) Hitti, The Arabs, pp, 43-44.

(3) النقاش: م س، ص 146.

(4) النقاش: ن م، ص147. Conder, Jerusalem, p. 182.

(5) العيني: عقد الجمان، 22، ق1، ورقة 136 مخطوط

فيها من الحانات والمغاني، كما استخدم الناس والمُغَنِّيَّات مقابل مبلغ حصين لإحياء حفلات الزواج والختان كما هو اليوم، لذا فرضت الدولة ضريبة على المغنين والمغنيات سميت بضريبة المغاني في الكرك والشوبك، حتى اغاها السلطان الظاهر برقوق سنة 782 هـ/380م<sup>(1)</sup>.

هذا وقد ذاع صيت المغنية الكركية في القاهرة، فهام بها السلطان المظفر حاجي بالإضافة الى شهرة المغنية سلمى أيضاً كما شغف سلاطين المماليك وأمرؤهم مثل السلطان الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون والناصر أحمد بن قلاوون والأمير تكرر نائب دمشق الذي كان يهوى الصيد في الأزرق والبلقاء<sup>(2)</sup> ومارسوها في براري شرقي الأردن في فصل الربيع مستخدمين الصقور وكلاب الصيد لصيد الطيور والحيوانات، فكانوا يخرجون برفقة خبراء الصيد<sup>(3)</sup> ومنهم صيادي الغزلان. كما في الأزرق والأغوار والزرقاء وجبال عجلون والشرارة. ويلاحظ أن كثرة الحيوانات البرية في ربوع شرقي الأردن كالأرانب البرية والخنازير والغزلان والثعالب والذئاب وحمر الوحش والأسود والفهود هذا بالإضافة الى قطعان الخيول والإبل والأغنام في المراعي الواسعة والتي يرببها أهالي وعربان الأردن<sup>(4)</sup>. وقد تناولوا الأطعمة الشرقية من مربى وسمك ولحوم الغزلان والضأن والبتلو، وأنواع الفواكه: كالبرتقال والعنب والليمون والموز كما تأثروا بلباس المسلمين ولغتهم حتى أن بعض المؤرخين وصفهم بأنهم نسوا لغتهم الأصلية وبلدانهم الأولى وأنهم قد تحولوا الى شرقيين في عاداتهم وتقاليدهم نمط حياتهم<sup>(5)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص 405، ابن الصيرفي: نزعة النفوس والأبدان، ج1، ص 211.

(2) أبو المحاسن: م س، ج10، ص209.

(3) العمري: م س، ج2، ق1، ورقة 109 مخطوط.

(4) المقرئزي: السلوك، ج2، ص725.

(5) Fulcher of chartres, p. 271.

براور: عالم الصليبيين، ص147. وقد وضع ذلك في ملابس السيدات الصليبيات اللاتي عاشرن المسلمين وخاصة من الصقلييات حيث ارتدين ملابس طويلة بمرجحة الأذيال وقمصين مرسلين إلى القدمين: ابن جبير: م س، ص231. واستعملن المجوهرات الدمشقية والقاهرة والمساحيق والحضاب والمرايا الزجاجية والفراء وأقمشة وبر الجميل، حتى: تحفة الشرق والغرب، القاهرة 1926 (الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني، ص146). واستخدم بعضهن الخمار على وجوههن وعدم الخروج إلا للضرورة القصوى للكنائس والحمامات. أنظر: سعيد عاشور: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص240.

كما قلدوا الشرقيين في أعيادهم وحفلات لهوهم من مجالس الطرب والشرب<sup>(1)</sup>. كما اهتموا بتنظيم أوقات فراغهم بلعب الشطرنج والزررد في المنزل أو الحمام أو حتى الحانات. فاشتهروا بلعب القمار والسكر<sup>(2)</sup>.

فكانوا يذهبون الى المرافق العامة في عكا وصور حيث يرقص الرجال مع السيدات على أنغام الموسيقى<sup>(3)</sup>، كما كان الصيد الرياضة المفضلة عند فرسان السلاطين، مستعينين بالطلاب والشباك والصقور والبراة لصيد الأرناب والحجل والغزلان والثعالب والذئاب والضباغ والماعز البري<sup>(4)</sup>. وكانوا يحتفلون بالأعياد بكنسية القيامة<sup>(5)</sup>. كما احتفظوا بكثير من عاداتهم الدينية كتقديس الإيقونات<sup>(6)</sup>.

### وبالنسبة للحياة الاجتماعية "للقبائل":

فقد ارتبط البدوي في جنوب بلاد الشام بقبيلته برابطة الدم والمصلحة فكان ولاؤه لها قبل الولاية للدولة لتمسكه بالعادات والتقاليد مما أدى للصراع القبلي والمنازعات بالإضافة للأصول السكانية لبلاد الشام التي ترجع للأصول العمورية والآرامية والكنعانية وغيرها من القبائل التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية واستمرت الهجرة زمن الفتوحات الإسلامية بعناصرها العدنانية والقحطانية مما أدى لظهور عصبية عرقية.

وبعد طرد الصليبيين والمغول وتحرير بلاد الشام توحدت مصر والشام من جديد حيث أدى ذلك لاستقرار أهل الحضر فعملوا بالزراعة والصناعة والتجارة كما عمل البدو بحراسة الطرق والدفاع عن الحدود زمن الحرب.

(1) النقاش: م س، ط 1، القاهرة 1974، ص 148.

(2) برور عالم الصليبيين، ص 153.

(3) Cander, Jerusalem, p. 183.

(4) ستيفنس: الحروب الصليبية، ص 194.

(5) ابن واصل. م س، ج 2، ص 231-232.

(6) ابن منقذ: م س، ص 99.

وقد انتشرت العشائر العربية في جنوب بلاد الشام ولكل منها افخاذ وبطون، فكان فيها عصبية عنصرية كالأكراذ والتركمان والأرمن وغيرهم من الأجناس الأخرى التي تسبب الصليبيون في مجيئها كالفرنجة الأوروبيين.

وفي العصر المملوكي كان مركز القبائل العربية في دمشق حتى أنها سميت بمفردها الشام واستمرت التسمية حتى اليوم لوجود أقوى القبائل العربية مثل آل فضل من ربيعة وترجع أصولهم الى طيء وهم من عرب الجنوب<sup>(1)</sup>. وكانت زعامة آل فضل في عهد الايوبيين حين نزل العادل أبو بكر بن أيوب بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة<sup>(2)</sup> أمير آل فضل في جموع كثيرة<sup>(3)</sup>.

ثم ولي بعده حسام الدين مانع بن فضل وتوفي سنة 630هـ/1232م وولي بعده ابنه مهنا<sup>(4)</sup> وفي عصر المماليك شارك آل فضل ورئيسهم عيسى بن مهنا بن مانع في معركة عين جالوت فكافأه السلطان قطز بإقطاعه مدينة سلمية من أعمال حماة<sup>(5)</sup>. ومن عرب بلاد الشام بنو خالد ومنهم الصيالة والزمول والشقرة وآل ملحم<sup>(6)</sup>. ولا زالت هذه القبائل في جنوب بلاد الشام حتى اليوم وخاصة في شرقي الأردن وفي عهد الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1278م) عزل الأمير زامل بن علي وعين مكانه الأمير عيسى بن مهنا زعيماً لجميع العرب بالشام<sup>(7)</sup>. وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون (689-693هـ/1290-1293م) ولي اماره آل فضل الأمير محمد بن أبي بكر من آل علي بعد عزل عيسى مهنا عنها<sup>(8)</sup>. ومن القبائل المؤثرة في الأحداث السياسية زمن العصرين الأيوبي والمملوكي في جنوب الشام بنو كلاب والذين ترجع أهميتهم السياسية والعسكرية في الدفاع عن الثغور الاسلامية منذ زمن الحمدانيين منذ

(1) ابن خلدون العر، مجلد5، ص939، 940.

(2) القلقشندي: نهاية الأرب، ج4، ص101.

(3) ن. م. ج4، ص206، ابن خلدون: العر، مجلد5، ص937.

(4) القلقشندي: ن. م. ن. ص. ابن خلدون ن. م. مجلد5، ص940-942.

(5) القلقشندي: ن. م. ج4، ص172.

(6) ن. م. ص244، عمر كحالة: معجم قبائل العرب، ج1، ص325.

(7) المقريري: السلوك، ج1، ص2، 46، ابن خلدون: ن. م. ج5، ص991.

(8) القلقشندي: ن. م. ص107.

القرن الرابع الهجري/ العاشر عشر الميلادي، وزمن الأخشيدين حيث كونوا دولة بني مرداس العربية شمال حلب 415هـ/1042م زمن الفاطميين فكثرت عددهم في شمال الشام<sup>(1)</sup>. وأقل نجمهم بعد ظهور نفوذ الأتراك السلاجقة حتى بزغ من جديد في بلاد الشام في العصر الأيوبي لتعاونهم ضد الصليبيين حيث قدموا لهم الخدمات كإمداد ملوك الأيوبيين بالجمال لحمل الغلال لمناطق الثغور الشامية خاصة زمن الكامل الأيوبي، وقاموا بدور الطلائع العسكرية زمن الملك الأشرف موسى الأيوبي<sup>(2)</sup> وارتفع نجمهم في العلواء زمن الناصر محمد بن قلاوون حيث مال اليهم ولبس زيهم وأمن الزعماء المعارضين لنواب الشام<sup>(3)</sup> وعين سليمان بن مهنا من آل ربيعة أميراً عليهم وهم أيضاً من عرب جنوب الشام<sup>(4)</sup>. وهكذا أصبحوا تحت إمرة الأمراء من آل ربيعة.

أما عن الحالة الاجتماعية زمن الأيوبيين، فقد اختل التوازن الاجتماعي نتيجة انشقاق الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين وتقسيمهم مملكته الممتدة من مصر الى الشام والموصل واليمن والحجاز، وتبع ذلك اضطراب الأمن الذي نتج عنه اختلال القيم الأخلاقية لكثرة الدسائس في البلاط الملكي وقصور الأمراء وامتدت هذه الدسائس لطبقات الشعب مما أدى لضعف عصبية أسرة صلاح الدين واختلال نظامها الأمر الذي دفعها للاستعانة ببعض العناصر الأجنبية كالشركس والأتراك والصقالبة والروم ممن دخلوا في الاسلام، وأخذوا يتحينون الفرص لاستعادة أمجادهم السابقة عن طريق الاحتياال والدس وإيقاع الفتنة بين رجال الأسرة الحاكمة أو بين الشعب وطبقاته فكان لهم الأثر القوي في الحياة الاجتماعية حين أصبح الملوك والأمراء الأيوبيين العوبة في أيديهم، كما أضحى الشعب مدفوعاً للاقتباس من أحوالهم وأخلاقهم إذ تأثر هؤلاء الممالئك بأخلاق الشعب وعاداته، فأحبوا هذه البلاد فدافعوا عنها من الغزاة، فأصبحوا حماة بلاد الشام ومصر من المغول وشرور الصليبيين الذين أرادوا فرض انظمتهم وقوانينهم وأحوالهم الاجتماعية على البلاد.

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 148، 150.

(2) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 233.

(3) ن. م. ج 4، ص 215.

(4) ن م، ج 1، ص 340، ابن خلدون م س مجلد 6، ص 18.

وبالنسبة لأفراد الشعب، فأغلب الظن أنهم كانوا مَسْؤُوقِينَ كَالْقِطْعَانِ يَعْمَلُونَ عَلَى تَقْلِيدِ  
أَمْرَائِهِمْ مِنَ الْأَيُّوبِيِّينَ وَالْمَمَالِيكِ، لِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا فِي نَظَرِهِمُ الْقُدُورَةُ الصَّالِحَةُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ  
فَسَادِهِمْ وَسُوءِ أَخْلَاقِهِمْ، إِلَّا مِنْ رَحِمِ رَبِّكَ.

كَمَا احْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمَمَالِيكِ الْبَحْرِيَّةُ أَهْمِيَّةً خَاصَّةً فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ لِأَنَّ نِظَامَهَا قَامَ عَلَى  
فَلَسَفَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ الْقُوَّةِ وَلَيْسَ الْعَدْلِ، وَتَرْجِعُ شَهْرَتَهَا لِلدَّورِ الْبَارِزِ الَّذِي لَعِبْتَهُ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ  
الْهَجْرِيِّ/الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ فِي قِيَادَةِ الْجِهَادِ الْإِسْلَامِيِّ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ وَالْمَغُولِ بَعْدَ نِهَائِهِ  
الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ كَمَا عَاشُوا دَرَجَةَ الْقِمَّةِ فِي السَّلَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ مِنْ حَيَاةِ الْبَذْخِ وَاسْتِخْدَامِهِمُ الرِّقِيقَ  
الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ مِنَ الْمَمَالِيكِ. وَالْعَبِيدُ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَجْنَاسِ مِمَّا تَرْتَبُ عَلَيْهِ انْتِشَارُ تَقَالِيدِهِمْ  
وَعَادَاتِهِمْ فِي الْبِلَادِ الَّتِي حَكَمُوهَا.

وَقَدْ كَانَ لِلْمَمَالِيكِ تَقَالِيدٌ وَأَحْكَامٌ وَشَارَاتٌ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عَنْ غَيْرِهِمْ، وَكَانُوا عِدَّةَ طَبَقَاتٍ،  
وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ شَارَاتٌ خَاصَّةٌ بِهَا مِثْلُ صُورِ الْأَسَدِ وَالْفَهْدِ وَالنَّمْرِ وَالصَّقْرِ وَالطَّاوُوسِ وَطَبَقَةٍ أُخْرَى  
شَارَاتُهَا صُورُ الزَّهْرِ كَالزَّنْبَقِ وَالْأَقْحَوَانِ وَالْيَاسَمِينِ وَالْقَرْنَفَلِ، وَطَبَقَةٌ ثَالِثَةٌ شَارَاتُهَا صُورُ  
بَعْضِ الْأَدْوَاتِ الْحَرْبِيَّةِ كَالسِّيُوفِ وَالسِّنَاقِ وَالْكُؤُوسِ وَالْمَغَافِرِ، وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ لِبَاسٌ مَلُونٌ خَاصٌ  
بِهَا، وَقَدْ سَاهَمَ مُعْظَمُ أَمْرَاءِ الْأَيُّوبِيِّينَ وَالْمَمَالِيكِ فِي الرِّقِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ لِسَعْيِهِمْ  
إِلَى مَجَارَاةِ الْخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ وَالْعَبَّاسِيِّينَ الَّذِينَ وَرَثُوا أَرْضَهُمْ وَمُلْكَهُمْ وَحَضَارَتَهُمْ أَيْضًا.

وَمِنْ الْمَلَاظَظِ أَنَّ التَّرَفَ قَدْ أَزْدَادَ أَيَّامَ الْمَمَالِيكِ لَغْنَى بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَتَمَرَّكَزَ أَسْوَاقُ  
التَّجَارَةِ مِنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَتَفَنُّنِهِمْ فِي الْبَذْخِ وَالتَّرَفِ وَالشِّرَاءِ مِثْلَ تَرْصِيعِ  
الْمَمَالِيكِ لِأَنِيَّةِ شِرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ بِالذَّهَبِ وَالْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ مَجَالِسِ شِرَابِهِمْ وَلَهْوِهِمْ  
أَنِيَّةً وَتَمَاثِيلَ وَدُمَى مِنَ الذَّهَبِ الْمَرْصُوعِ بِالْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ، وَاللُّؤْلُؤِ، كَمَا رَصَّعُوا عَصَائِبَ شُعُورِ  
نِسَائِهِمْ وَثِيَابَهُنَّ بِالْجَوَاهِرِ وَاللَّالِيءِ، كَمَا لَبَسُوا الثِّيَابَ الْمَزْخَرَفَةَ وَتَمَنَّقُوا بِالشَّالِ الْهِنْدِيِّ،  
وَتَسَرَّبَلُوا بِالْحَرِيرِ، وَكَانَتْ فُرُشُهُمْ مِنَ الْخَزِّ وَالْدِيْبَاجِ وَالْمَخْمَلِ، وَاسْتَعْدَمُوا آلَاتَ الشُّطْرَنْجِ

والنرد المصنوعة من الذهب والفضة والأبنوس والعاج، كما وجد في خزائن بعضهم من أصناف الثياب والحلى والرياش والأثاث ما يقدر بملايين الدنانير<sup>(1)</sup>.

ومن وسائل التسلية التي أولع بها سلاطين وأمراء المماليك، لعبة الكرة البولو في ميادين خاصة بها، حيث كان لها نظاماً خاصاً، وأوقات معينة لممارستها من ألعاب الفروسية باستخدام خيول أصيلة لذلك. كما سمي الموظف المشرف عليها بالجوكدار حامل عصا البولو (الجوكان)<sup>(2)</sup>.

وقد مهر بها السلطان الظاهر بيبرس سنة 678هـ/1279م وكانت سبب وفاته بعد إصابته أثر سقوطه عن فرسه في الميدان الخاص بها في الكرك<sup>(3)</sup>، مما حدا بالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون توسيع هذا الميدان وتسهيله وتنظيمه أما احتفالات المماليك فكانت حافلة بالولائم والأسمطة الفاخرة والمواكب نتيجة لحياة الثراء والبذخ والترف التي عاشوها كالسماط الذي أقامه الملك الناصر داوود سنة 629هـ/1231م<sup>(4)</sup>، في شرقي الكرك، تكريماً لقدم عمه الملك الكامل سلطان مصر<sup>(5)</sup>، كما عمل الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك سماطاً فاخراً احتفاءً بقدوم الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك.

وبالنسبة للمساكن فقد كان المنزل مكون من طابقين إلى ثلاثة طوابق غالباً مع وجود منازل ذي خمسة طوابق أحياناً. وكانت سقوفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة في أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة للاستمتاع بها عند مغيب الشمس كما كانت جدرانها السمكية تحفظ الدفيء في الشتاء. عندما تصل الحرارة إلى درجة التجمد. وكانت سقوف المنازل عالية الارتفاع<sup>(6)</sup>.

(1) حتى : تاريخ العرب. ص 178.

(2) الجوكان : عصا مدهونة، طولها أربعة أذرع، رأسها مخروطية الشكل بطول نصف ذراع، يضرب بها اللاعب الكرة من على ظهر فرسه. يوسف غوانمة : التاريخ الحضاري للأردن، ص 98.

(3) المقريري: السلوك، ج1، ص 669.

(4) ابن حجر: م س، ج2، ص 267.

(5) ابن واصل : م س، تاريخ الواصلين، ورقة رقم 378، مخطوط حيث نصب خيمة كبيرة جدرانها مطرزة بالنقوش والصور الجميلة وذبح أعداداً كبيرة من الجمال والبقر والغنم والخيول، وكانت العادة أن يسمح للناس بهذا السماع كمظهر من مظاهر التسلية التي تضحك السلطان وهم يشاهدون هجوم الناس على السماع بعد تناول السلطان طعامه.

(6) براور : عالم الصليبيين، ص 143-144.



وكانت الولائم تقام في الأعراس<sup>(1)</sup>. أما بالنسبة للمواكب المملوكية فقد كان لها نظام خاص حيث يخرج نائب المدينة في موكب فخم خارج المدينة مرتين في الاسبوع محاطاً بالأمراء والأجناد ومع عزف الطبلخاناه، فيخرج الناس للمشاهدة والاستمتاع بمشاهدة الموكب الحافل، كما كان هذا الموكب يتكرر عندما يخلع السلطان خلعة على النائب.

كما أقيمت احتفالات بمناسبة خروج ركب الحجاج الكركي وعند عودتهم. واتصفت هذه الولائم بالبذخ عندما يرافق ركب الحجاج أحد السلاطين حيث يخرج الناس الى مؤتة لاستقباله ويرافق ذلك إقامة الزينات وترفع الأعلام على أسوار المدينة والقلعة، ويستقبله الناس بالدعاء والتهنئة والغناء وقرع الدفوف، كما ترمي المجانيق أمامه كما حدث عند استقبال السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته من الحج 713هـ/1313م<sup>(2)</sup>. وما زال هذا التقليد السياسي موجوداً في مصر والشام وجميع الدول الأخرى عند استقبال أحد رؤساء الدول الأخرى إذ تطلق المدفعية احدى وعشرين طلقة.

### استخدام الثلج لتبريد المياه:

لقد استعمل المسلمون الثلج المنقول من جبال الشام لجيوشهم منذ زمن الأمويين والعباسيين الذين استعملوه في قصورهم وفي مواسم الحج وسار على هذا النهج الحمدانيون والفاطميون حتى أن الثلج كان جزءاً من رواتبهم المخصصة لهم<sup>(3)</sup>.

كما استعمله الأيوبيون أثناء معاركهم مع الصليبيين<sup>(4)</sup>. وكان الثلج في الشام لا ينقطع صيفاً ولا شتاءً لتوفره على جبل الشيخ المحاذي لدمشق، وكان يباع بأسعار رخصية كما حدث سنة 762هـ/1361م، حيث بيع القنطار بعشرة دراهم<sup>(5)</sup>. فاستخدم على نطاق واسع في العصر

(1) ابن كثير: م س ، ج4 ، ص47.

(2) العمري: عقد الجمال، ج23، ق1، ورقة 3 مخطوط.

(3) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، م س ، ج12 جزء، دار حياض بيروت، 1966م، ج5، ص57. وأبو المحاسن : يوسف بن تغري بردى: م

س، ج16 جزء، القاهرة 1932 - 1972م، ج4، ص126.

(4) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص252: حيث ذكر تقديم صلاح الدين الماء الثلج لأسراه ما عدا أرناط أمير الكرك.

(5) ابن قاضي شبهه الاعلام بتاريخ أهل الإسلام، ج2، ورقة 159، مخطوط بدار الكتاب المصرية رقم 2402 المكتبة النجومية.

المملوكي إكمالاً لرفاهيتهم<sup>(1)</sup> في القصور وأيام الحج كما حدث عام 721هـ/1321م عندما حجت الأميرة الأدر الشريفة خوندطغاي إذ كانت أول من سقى الحجاج ماء متلجا في عصر المماليك<sup>(2)</sup>. كما استعمله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الحجاز عام 732هـ/1322م<sup>(3)</sup> وكان من عادات المماليك تقديمه أيضاً للعلماء تكريماً لهم.

لذا فقد نتج عن هذا البذخ والترف الزائد أمراض اجتماعية كشراب المسكرات كالخمرة والحشيش وفعل الموبقات والتفنن في المنكرات، حتى اضطر الملك بيبرس 665هـ/1267م أن يصدر مراسيم يمنع تدخين الحشيش وإراقة الخمر وإغلاق بيوت المنكرات ومنع الحانات والخواطي (المحلات العمومية) بمصر والشام حتى قال بعض الشعراء:

ليس لإبليس عندنا أرب      غير بلاد الأمير مأداه  
حرفته الخمر والحشيش معاً      حرمتا ماءه ومرعاه

وكانت إجراءاته شديدة حيث أمر بنهب الحانات المعدة للبقاء وسلب أهلها وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بذلك توثيقاً قرئ على المنابر في المساجد<sup>(4)</sup>.

كما أمر بيبرس عماله في كافة المقاطعات بتنظيم الحسبة والتشديد على أهل الغش والدجالين (الدجاجلة) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراقبة الأسعار وتحديد الأرباح بالإنصاف والعدل بين المشتري والبائع، ونتيجة لهذه الأوضاع الاجتماعية، أكثر أهل الوعظ والإرشاد من تأليف الكتب والرسائل لدعوة الناس للخير والابتعاد عن الشر، أمثال عبد الرحمن بن نصر الشيزري 589هـ/1191م صاحب كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) تعرض فيه لمسائل المحتالين وأنواع غشهم<sup>(5)</sup>.

(1) القلقشندي : م س، ج4، ص395.

(2) ابن أبيك : كنز الدرر، ج9، ص305.

(3) أبو المحاسن: ن م، ج9، ص106. يذكر أنه سقاه مخلوطاً بالسم لأحمد بن يكتمو أحد أعدائه.

(4) جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، ج1، ص320.

(5) ما يزال هذا الكتاب مخطوطاً.

ومنهم أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي مؤلف كتاب (الإشارة الى محاسن التجارة) بين فيه تدليس المدلسين وأنواع حيلهم ومنهم الامام الكبير تقي الدين ابن تيمية الحراني الدمشقي المتوفي (728هـ/1330م)<sup>(1)</sup>.

## الطبقات الاجتماعية زمن الأيوبيين والمماليك

### أولاً: الطبقة الحاكمة:

لقد حكمت ثلاث دول خلال هذين القرنين، وكان توالي الحكم مصدر قوة لا ضعف كما ظهر ذلك خلال الأحداث الكبرى فأما الزنكيون الأتراك فقد اعتمدوا على أبناء جلدتهم<sup>(2)</sup>، ناهيك عن أنهم صنّعة السلاجقة الأتراك، ثم جاء بعدهم الأيوبيون الأكراد الذين ينتسبون للعرق الآري ولغة الأكراد فارسية مشوبة بألفاظ عربية وعراقية قديمة، وفي كل قرية من قراهم "مُلاً"، وهو عندهم العالم الخبير بلغتهم<sup>(3)</sup>، وكان الأيوبيون أحراراً يعتمدون في دعم ملكهم على أبناء جلدتهم وعلى غيرهم من المماليك بخلاف الزنكيين لأرقاء الموالي للسلاجقة الأتراك. وأما المماليك فكانوا ينتمون الى الأتراك والجركس والروم والأرمن وغيرهم<sup>(4)</sup>.

وكان الملوك ينالون ثقافة خاصة منذ صغرهم من حيث تعليمهم القرآن الحديث، وآداب الشريعة، ثم يربون تربية عسكرية خاصة داخل القلعة التي يخرجون خارجها<sup>(5)</sup> وكانت المؤهلات الشخصية هي التي ترقى بصاحبها في سلم الوظائف من قن رقيق حتى الأمير، وقد سار المماليك على سياسة الأيوبيين في الإكثار من جلب المماليك بهدف تكوين الجيوش والحرس السلطاني الخاص. والمتعة الشخصية والخدمة السلطانية، وخدمة الأمراء وركزوا على

(1) تاريخ العرب، ج1، ص 179.

(2) ابن واصل، م، س، ج1، ص 183.

(3) عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر دمشق، 1409هـ/1989م، ج11، ص70.

(4) فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك (مانجز بردي) الذي قتله المغول بقيادة جنكيز خان، والسلطان قلاوون قفجاعي تركي من قبيلة (برج أوغلي) ببلاد الفتحاق، والسلطان كتيغا من أصل مغولي، جاء الى مصر أسيراً بعد موقعة حمص سنة 658هـ/1260م والسلطان لاحقين أصله من البلاد الواقعة على ضفاف البلطيق.

وكان السلطان يشتري عدداً كثيراً من الأرقاء ويسلمهم الى الطواشي المشرق على طبقة جنسهم ليؤهلهم لخدمة الامراء والسلاطين :

المقرزي : المخطوط : ج2 ، ص218.

(5) ابن تغري بردي، المنهل الصافي - مخطوط - ورقة 6، 67، وذكر أن السلطان الأشرف برسباي هو أول من سمح لأبناء الملوك والسلاطين بالنزول الى القاهرة.

صغار السن من الترك والخطا والقفجاق<sup>(1)</sup>. وهكذا تكونت حكومة عسكرية مملوكية<sup>(2)</sup>. وكونوا طبقة ارسنقراطية في المجتمع وجمعوا بأيديهم السلطة الكاملة بعد تأسيس القوات العسكرية الضاربة الموالية لهم بأقسامهم من ممالك سلطانية، وممالك الأمراء، وأجناد الحلقة، حيث انقسمت الخدمة بالجيش الى نظامية وغير نظامية<sup>(3)</sup>. أما غير النظاميين فكانوا من العربان وعلامة المصريين عند إعلان الحرب بإعلان التعبئة العامة عند التهديد الخارجي<sup>(4)</sup>. أما أبناء الممالك والأمراء وأولاد الناس فلم يلتحقوا بالجيش، بل مارسوا الأعمال الإدارية والكتابية<sup>(5)</sup>. أما نيابة السلطنة أو الأتابكية، فقد اقتصر على أمراء الممالك دون غيرهم من الطوائف الاجتماعية الأخرى، والذين كانوا يقتلون السلطان أو يخلعونه ليحلوا محله اذا سنحت لهم الظروف، وقد انغمسوا فيما بعد بالملذات والمفاسد والفتن والاعتداء على طوائف الشعب الأخرى، ففقدوا كثيراً من صفاتهم الحربية والخلقية.

## ثانياً: طبقة رجال الدين

هم أهل العمامة الذين تفقهوا في أمور الدين وأحكامه، فكسبوا حب واحترام الطبقة الحاكمة في معظم الأحيان، وقد انقسمت هذه الطبقة الى فئتين:

الأولى : الوظائف العامة التابعة للحكام كأمانة السر وكتابة التوقيع وتولي ديوان الإنشاء، والإشراف على الدواوين السلطانية الأخرى.

والأخرى : عكفت على العبادة وشغلت وظائف التدريس والقضاء والخطابة، غير أن كثيرين منهم عزفوا عن تولى القضاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، "قاض في الجنة

(1) المقريري: الخطط، ج2، ص214، ج3، ص348 والسلوك ج2، ص3، ص747، وابن الوردي تمة المختصر، ج2، ص347، وابن حجر: م س، ج2، ص430، العبادي قيام دولة المماليك ص216. والعيني : م س، حوادث سنة 688. تصحيح سالم الكرنوكي الألماني، ط، بيروت، طبعة القاهرة، 1967/1387.

(2) حتى: تاريخ العرب، ج2، ص869.

(3) كان الجيش النظامي من المماليك المستوردين للسلطان والأمراء وجند الحرب. المقريري: السلوك، ج4، ق1، ص462 وذكر "وقد اشتمل جند الحلقة على بعض العربان من غير المماليك".

(4) عبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك، ج1، ص153.

(5) د. أحمد شلي: الموسوعة التاريخية، ط3، القاهرة 1977، ج5، ص241.

وقاضيان في النار<sup>(1)</sup> وكان معظم رجال الدين يقولون كلمة الحق أمام الملوك والسلطين دون خوف في خطبهم ودروسهم مثل عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء<sup>(2)</sup>، ومجد الدين اسماعيل الواسطي<sup>(3)</sup>.

### ثالثاً: طبقات الشعب:

تتكون من الفلاحين والتجار والصناع وسائر العوام. وكانوا يعاملون معادلة واحدة بنظرة ازدراء من الطبقة الحاكمة<sup>(4)</sup>. وكان الفلاحون يشكلون السواد الأعظم من الشعب، ويؤرثون مع الإقطاع، كأقنان ملحقين بالأرض زمن الدولتين الزنكية والأيوبية. فأدى نظام الفلاحة هذا الى خراب القرى وهروب أبنائها الى المدن، وبعضهم تحوّل الى لصوص<sup>(5)</sup>، وقطاع طرق<sup>(6)</sup>، وصعاليك<sup>(7)</sup>.

### دور الفلاحين في الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي:

لم يكن الفلاحون بمعزل عن الحياة السياسية الصاخبة في دولة المماليك الأولى بالرغم من انصرافهم للأعمال الزراعية. فقد شاركوا بالثورات والفتن، التي أدت الى خراب كثير من القرى الزراعية وأتلفت المحاصيل الزراعية، كما شاركوا في الحروب ضد الصليبيين وضد المغول<sup>(8)</sup>.

(1) أبو شامة: م س، ج1، ص8، وابن واصل: م س، ج1، ص269، وذكر السيوطي رفض ابن دقيق العيد القضاء في عهد كتبغا ولم يقبل ذلك الا مكرهاً. السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص10.

(2) ابن حجر: رفع الإصر، مخطوط، ورقة 168.

(3) ابن الوردي: م س، ج2، ص225. الذي خاطب بيبرس في إحدى خطبه: "بأنك لن تدعي أيها السلطان، ولكن تدعي باسمك، وكل منهم يسأل عن نفسه إلا أنت، فإنك تسأل عن رعايك، فاجعل كثيرهم أباً وأوسطهم أخاً، وصغيرهم ولداً".

(4) ابن شاكر، فوات الوفيات، ج1، ص367، حيث ذكر المثل الشائع في هذا العصر على ألسنة الناس وهو: "ما أنت إلا من العوام، ولو كنت بن عبد السلام".

(5) أسامة بن منقذ: م س، ص44.

(6) كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام العدو يسرقون منهم الرجال، ن م، ص79، 153، 220. وابن شداد، النوادر السلطانية، ص145.

(7) أسامة بن منقذ: ن م، ص147، 183، أورد قول رجل صعولك: "أنا رجل صعولك مالي شيء، ولا لي من يدور بي سوى والذتي عجوز ضعيفة".

(8) الأسيدي: محمد بن محمد بن خليل من أعيان القرن 9هـ/15م، التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، ط1، دار الفكر العربي، 1968م، ص19، وغوامه: لتاريخ الحضاري، م س، ص108.

وبالنسبة للقرية في بلاد الشام فكانت وحدة سياسية في حكمها لنفسها، واكتفائها الذاتي، حيث كان لها شيخ أو أكثر لحفظ النظام فيها، والمسؤول المباشر أمام الدولة والمملوك الإقطاعي الذي يملك أراضي القرية حيث يجمع الضرائب ويسلمها إلى الأمير المقطع أو إلى الأستادار المعين من قبل الدولة<sup>(1)</sup> بالإضافة إلى مسؤوليته في فض المنازعات داخل القرية<sup>(2)</sup>.

وكان من سمات القرويين العامة البساطة والتدين والتوكل<sup>(3)</sup> وما تزال هذه الظاهرة تسود مجتمع الفلاحين في القرية بشكل عام في وقتنا الحاضر. أما أرباب الصناعات والمهن الحرة فكانوا أحسن حالاً من الفلاحين، حيث كانت لهم نقابات خاصة، برئاسة شيخهم الذي يدافع عن مصالحهم أمام أطماع الطبقة الحاكمة<sup>(4)</sup>. أما طبقة التجار: فكانت أحسن حالاً من سائر الفئات<sup>(5)</sup> فقد قرب السلاطين هذه الفئة الغنية لتمدهم بالمال حين الحاجة للجهاد<sup>(6)</sup>.

كما عمد بعض السلاطين لمصادرة الأموال وقت المحن<sup>(7)</sup> ولكن غالبيتهم كانت تدفع الضرائب كسائر أبناء الشعب، وأعفى بعض السلاطين الناس من الضرائب كما اكتفى نور الدين وصلاح الدين من بعده بالخراج والجزية، ورفعوا عن الناس المكوس والمغارم.

**رابعاً: الأعراب:**

الذين سكنوا بادية الشام، بحثاً عن المراعي، ولم تكن حياتهم مستقرة، وكانوا مصدر خطر يهدد الحواضر عند مواسم الجفاف وانعدام الكلاً فيقطعون الطرقات ويسفكون الدماء<sup>(8)</sup> وكان من أشهر القبائل العربية، الغساسنة وقضاعة وتتوخ وأسد وآل مرة وآل عقبة<sup>(9)</sup>.

(1) السبكي: معيد النعم، ص 26، غوائمه: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص 89.

(2) المجتمع العربي السوري، ص 62.

(3) عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام 1974م، الدار المتحدة عمان، 1974، ص 231.

(4) أسامة بن منقذ: م س، ص 179.

(5) ن م: ص 14، كان يسميهم اسامة "الرجاسية" "هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا حضر القتال".

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 102، وابن واصل: م س، ج2، ص 214، كما حدث مع صلاح الدين عندما طلب صلاح الدين مساعدة الخليفة ليدراً هجوماً الفرنجة ويكون الخليفة كفيلاً على ذلك.

(7) ابن الوردي: م س ج2، ص 249، كما حدث في الشام ومصر سنة 700هـ حيث صودرت ثلث أموالهم لصدد جحافل التتار.

(8) السبكي: ن م، ص 54.

(9) أنظر السبكي، ن م، ص 55، وبأن كثيراً منهم لا يتزوج بعقد شرعي، "ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ولا يمتعون الزنى".

## خامساً: أهل الذمة:

هم أهل الكتاب المعاهدون، من نصارى ويهود بفئاتهم الدينية، وقد عاشوا مع المسلمين في قلاعهم وحصونهم وعليهم تأدية الجزية مقابل توفير الحماية لهم<sup>(1)</sup> لكنهم في بعض الأحيان كانوا يفضلون التجمع في أحياء خاصة، و قرى خاصة، لكونهم أقلية بين المسلمين<sup>(2)</sup>. وقد عامل الزنكيون أهل الذمة خير معاملة<sup>(3)</sup>. وسار على نهجهم الأيوبيون حيث أدخل صلاح الدين الأيوبي الكثير منهم في خدمته وكذلك فعل خلفاؤه من بعده.

وهكذا تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية الكاملة من صلوات وطقوس في أعيادهم الخاصة<sup>(4)</sup>. ولكن الحال تغير عليهم في عصر المماليك حيث لقي المعاهدون تضييقاً في المعاملة واللباس<sup>(5)</sup> كما منعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن قرع النواقيس زمن السلطان الناصر محمد<sup>(6)</sup>، وأمر بعض السلاطين المتعصبين كالظاهر بهدم كنسية الناصرة<sup>(7)</sup>.

لذا فقد احدثت هذه المعاملة رد فعل لديهم فقابلوا ذلك بالكيد للمسلمين، فأحرقوا بعض الأماكن المقدسة للمسلمين، واختطفوا بعض المسلمين مما أغضب السلطان الظاهر بيبرس فأخذ صبيانهم ممالك، وبعث بهم الى مصر ليروا هناك، فصار منهم أمراء وأجنادا<sup>(8)</sup> كما ابتهجوا بدخول هولاكو المغولي بلاد الشام سنة 658هـ/1260م<sup>(9)</sup>.

(1) ابن واصل : م س، ج2، ص284، ذكر نور الدين زنكي "وكان يرسم نفقته في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية.

(2) ابن خبير : م س، ص194: ذكر قرية زارها تعرف بتل عقاب النصارى للمعاهدين الذميين في القرن السادس الهجري.

(3) أسامة بن منقذ : م س، ص158، قال : " ولم يعرف عنهم سوء المعاملة للذميين عدا القائد التركي صلاح الدين الباغستاني الذي كان يظلم الناس جميعاً مسلمين وغيرهم.

(4) ابن واصل : م س، ص231 232، ذكر عبيد سبت النور النصراني أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى، حيث كان للمسلمين ديوان خاص على باب كنيسة القيامة في القدس يجي من كل زائر نصراني القطيعة المقررة.

(5) الصفدي : أعيان العصر، ورقة 6 و 235. وابن اياس : م س، ج1، ص143. والسيوطي : حسن المحاضرة، ج2، ص179. وذلك زمن المنصور قلاوون عام 689هـ حيث أمر بتصغير عمائمهم فلا يتجاوز 7-10 أذرع وأن تكون عمائم النصارى زرقاً وعمائم اليهود صفراً وعمائم السامريين حمراً.

(6) ن م، ن ص.

(7) ابن الوردي : م س، ج2، ص216.

(8) ن م، ص216.

(9) ن م، ج2، ص203، حيث ذكر ترحيب النصارى بالمغول ودق النواقيس وإدخال الخمر إلى المسجد الجامع بعكس اليهود الذين لم يؤذوا المسلمين خلال هذه الحقبة.

كما فضل بعضهم الدخول في الاسلام زمن المماليك للعودة إلى مناصبهم في الدواوين، وللتخلص من القيود المفروضة عليهم كالطبيب اليهودي الكحال عبد السيد بن المهذب<sup>(1)</sup>. ومهما يكن من أمر هذه الحوادث العارضة، فقد أحسن المسلمون معاملتهم ودافعوا عنهم تطبيقاً لوصية النبي الكريم عليه الصلاة والسلام<sup>(2)</sup>.

### الأعياد الدينية:

يحتفل المسلمون حتى الآن بأعياد الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف والهجرة والإسراء والمعراج. وقد بذل السلاطين الأموال الكثيرة لأحيائها، مع عطفهم على الفقراء والمساكين بهذه المناسبات بمد الأسمطة لهم وتوزيع الحلوى والدراهم عليهم، كما شارك المسلمون الطوائف الأخرى في أعيادهم<sup>(3)</sup>.

(1) الصفدي: أعيان العصر، ورقة 2، 263، مخطوط.

(2) ابن البيطار: حياة شيخ الاسلام ابن تيمية ص 191، ذكر فيها رسالة ابن تيمية الى سرجواز ملك قبرص والتي أشار فيها الى مخاطبته قائد التار غازان ونائبه قطلوشاه في إطلاق سراح المسلمين واليهود والنصارى، وبين له رحمة المسلمين لما في أيديهم من السي كما أوصى النبي عليه الصلاة والسلام.

(3) أسامة بن منقذ: م س 125 ذكر أن قومه كانوا يتزلون للفرج على النصارى في عيد الفصح، كما احتفلت الطائفة النصرانية العلوية بعيد النوروز المأخوذ عن الفرس.



## الطبقات الاجتماعية في العصر المملوكي :

### أولاً: الطبقة العليا وتشمل: أرباب السيوف لهم :

أ- السلاطين وإمارة السلاح: والدوادارية، وإمارة جاندار والإستادارية، والمهمندارية، ونقابة الجيوش، والولاية<sup>(1)</sup>.

ب- ثم يليهم في السلم الاجتماعي فئة كبار موظفي الدولة المدينة "أرباب الأقاليم". الوزارة، وكتابة السر، ونظر الجيش، ونظر الأموال، ونظر الخزانة ونظر البيوت، ونظر بيت المال، ونظر الاصطبلات<sup>(2)</sup>.

### ثانياً: الطبقة الوسطى:

أ- كانت مكونة من العلماء وعلى رأسهم القضاة والخطباء، والمحتسب، ووكيل بيت المال<sup>(3)</sup>.

ب- ثم طبقة التجار.

### ثالثاً: الطبقة الدنيا وهي الطبقة العامة:

وبالنسبة لأهمية هذه الوظائف فقد سميت الفئات الثلاثة الأولى من أرباب السيوف وأرباب الأقاليم والعلماء بأهل الدولة<sup>(4)</sup> حيث كانوا يعيشون على الإقطاعات التي كانت تقدم لهم أو بدلات مالياً في صورة مرتبات شهرية مقابل خدماتهم.

وقد تغير هذا التقسيم للسلم الاجتماعي في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بسبب الانهيار الاقتصادي والإداري<sup>(5)</sup> الذي أحدث شرخاً عميقاً في المجتمع، فانتسعت الهوة، والفوارق الطبقيّة في المجتمع.

(1) العمري مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، ص 49.

(2) ن.م، ص 49، 50.

(3) ن.م، ص 50 والقلشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 14-34. والمقريزي: الخطط، ج2، ص 221-228، والسيوطي: حسن المحاضرة،

ج1، ص 130-134. D. Ayalon; Studies on the Mamluks of Egypt, pp.57-70.

(4) المقريزي: الخطط ج2، ص 227.

(5) العمري: ن.م، ص 50.

ومن الذين تأثروا بالتراجع الاقتصادي صغار الضباط "جند الحلقة" من أصحاب الإقطاعات الصغيرة حيث باعوا إقطاعاتهم وتحولوا إلى تجار ومهنيين<sup>(1)</sup> لقلة الانتاج والأرباح. وكذلك فئة العلماء والفقهاء الذين كانوا يشكلون الدرجة الثانية في السلم الاجتماعي فقد تراجعت إلى الدرجة الخامسة، أما التجار فتحسنت أوضاعهم واحتلوا الدرجة الثانية في السلم الاجتماعي بعد كبار رجال الدولة من أمراء المماليك<sup>(2)</sup>. وهكذا نلاحظ أن العمري قسم الشرائح الاجتماعية إلى خمس فئات أما المقريري فقد قسمها في عهده إلى سبع شرائح.

### أخلاق العصر:

لقد اتصف الزنكيون بعدم التهاون في أمر المنكرات، وشدة الغيرة على النساء، وتحريم الخمرة وخاصة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين<sup>(3)</sup>. أما صلاح الدين فقد اعرض عن أسباب اللهو والمجون<sup>(4)</sup>. أما بالنسبة للناس فقد كان بعضهم يجهز باللهو والمجون في عهد ملك ويستسرون بل يمنعون في عهد آخر، هذا بالإضافة إلى تعاطي فقراء الصوفية في بلاد الشام الحشيش مما أغضب الظاهر بيبرس من هذا الانحلال الخلقي، فأمر بإغلاق الحانات وهزم المواخير وحرق الحشيش، وإهراق الخمر<sup>(5)</sup>.

(1) كانوا من أبناء المماليك المتابعين ومن فئات اجتماعية أخرى وكانوا يشكلون ثلث عدد الفرسان أيام الناصر محمد بن قلاوون.

العمري: م س، ص 51.

(2) ن.م، ص 72-75.

(3) ابن واصل: م س، ج 1، ص 105، 264.

(4) ابن شداد، م س، ص 25، وابن واصل: م س، ج 1، ص 168. والذهبي: سير النبلاء (مخطوط مصورة) ج 3، ورقة 63: هذا وقد اعترف قاضيه ابن شداد بشربة للخمرة قبل توليه الوزارة والمسؤولية ولكنه تاب عن ذلك بعد تسلمه السلطة.

(5) ابن إياس: م س، ج 1، ص 105 يذكر بأن الظاهر بيبرس صلب ابن الكازروني وهو سكران وعلق الجرة والقدح في عنقه لتعزيره أمام الناس.

ولكن المدمنين على الحشيش والخمرة لم تمنعهم هذه الاجراءات الشديدة، وفضل الناس الحشيش على الخمرة، لرخض أثمانه، وتغنى الشعراء به، ونسبوه الى مكتشفه شيخ الصوفية حيدر.

وربما سهل اقبالهم عليه عدم ورود نص صريح في تحريمه، حتى ان بعض القضاة أفتى بجواز أكل الحشيش<sup>(1)</sup>.

كما انتشرت الزندقة بسبب الاحتكاك بين الدين والفلسفات الأخرى، مما أدى لظهور جيل من الحكماء فاسدي العقائد، لتهاونهم بالأديان السماوية وساهم في انتشار الزندقة، تهاون بعض السلاطين انطلاقاً من حرية الرأي والاعتقاد، وقد تأثرت الفرق الاسلامية السنية والشيوعية بالزندقة وانبرى بعض العلماء ايام صلاح الدين الأيوبي لمجابهة الزندقة، خوفاً من فتنة الناس في الوقت الذي تجابه به الأمة الأخطار الصليبية الخارجية فأفتوا بقتل الزنادقة<sup>(2)</sup>.

وهكذا نرى انتشار الإباحية نتيجة لشرب الحشيش والخمرة والزندقة، على الرغم من تشدد رجال الدين ومحاولة السلاطين القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بفرض عقوبة الموت، مما جعل الإباحيين يتخذون من الصوفية سترأ لهم<sup>(3)</sup>.

(1) ابن حجر: رفع الأصر (مخطوط) ورقة 279. ذكر اسم القاضي جمال الدين الحلبي.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 80، وابن تغري بردي: م س، ج 6، ص 114 ذكر اسم الفيلسوف السهروردي وأمر صلاح الدين بقتله أخذاً بفتوى الفقهاء مخافة أن يدعي النبوة بعد قوله: إن الله قادر على أن يعث نبياً خلافاً للسنة بأن سيدنا محمداً هو آخر الأنبياء والمرسلين.

(3) ابن الجوزي: تليس ابليس ص 363.

## الأمراض الاجتماعية في الطبقة الأرستقراطية المملوكية

لقد كان هم هذه الطبقة جمع المال والاسراف والبذخ في حياة الرفاهية التي عاشها السلاطين والأمراء وخاصة في أواخر أيامهم<sup>(1)</sup> وتقرب الأمراء من السلاطين بالهدايا لكسب رضاهم للاستمرار في نيابتهم مدة أطول<sup>(2)</sup> مما يدفعنا الى التساؤل من أين لك هذا؟ هل هو من ماله الخاص أم من مال الشعب؟ ولماذا قدمه للسلطان والأمراء؟ هل كان بدافع الحب والتقرب؟ أم أنه نوع من الرشوة للسلطان لضمان استمراره الوظيفي هناك لذا كان من الطبيعي أن يقلد السلاطين وكبار الأمراء<sup>(3)</sup> صغارهم وبعض كتاب الدولة الذين استخدموا دواة الحبر الذهبية والفضية المحلاة بالذهب وأكثروا من شراء المماليك والغلمان في الخدمة<sup>(4)</sup> لتحصيل الضرائب بالعنف والقسوة مما دفع الناس الى الشكوى للسلاطين من جور هؤلاء الولاة<sup>(5)</sup>.

أما زوجات السلاطين والأمراء فكان من بنات الملوك أو الرقيق المملوكي من بني جنسهم وكان جل همهم السعي وراء ملذاتهم مما أدى لعدم الاستقرار العائلي حيث كان السلطان يطلق زوجاته دفعة واحدة لاشباع غريزته من محظية جميلة<sup>(6)</sup> وأما الأمراء وحاشية السلاطين فقد استحلوا حرمة البيوت في غياب السلطان لاغتصاب النساء حتى وصلت الجراة ببعضهم الى

(1) السلطان الناصر حسن: الذي اشترى قرية بأكملها من بيت المال وضيق على الرعية لجمع الأموال للعمائر الكبيرة. وكذلك السلطان المظفر حاجي: الذي ظهر اسرافه في الانفاق على محظياته وجواريه وفي عرس ابنه محمد انظر: السلوك، ج 1، ق 1، ص 249. وابن حجر: م س، ج 2، ص 4. وزغلول سلام: الأدب، ج 1، ص 26.

(2) قدم الأمير منجك نائب الشام عام 774هـ/1373م هدايا ثمينة للسلطان اشتملت على اسدين وضبع وايل، وثمانية واربعين كلباً سلوقياً واربعين فرساً وخمسين بقجة قماش وخمسة جمال بسنامين وقماشها من حرير واربع واربعين هجيناً وثلاثة قباقيب نسائية من ذهب مرصعة بالجواهر قيمتها مائة وخمسون ألف درهم وغيرها من ملابس النساء الحريرية واشربة ومخللات وفواكه. المقرئزي: السلوك، ج 3، ق 2، ص 254. كما أحضر الأمير بيدمر نائب الشام عام 770هـ/ هدية عظيمة اشتملت على مائة وخمسون فرساً: السلوك، ج 3، ق 2، ص 252-256.

(3) كالأمير شيخو: شذرات الذهب/ ج 6، ص 184، والأمير بلبغا الذي كان دخله اليومي ألف دينار. ابن حجر: م س، ج 4، ص 483. والامير سلال المتوفي سنة 710هـ/1310م. وابن الكبي: م س، ج 1، ص 372. تاريخ ابن الفرات، م س، ج 11، ص 39. غ

(4) السبكي: معيد النعم، م س، 42.

(5) ابن الفرات: م س، ج 1، ص 39، والتبر المسبوك، ص 426. Lane Poole, Social Life in Egypt, pp54-70.

(6) كما حصل عام 777هـ/1376م حيث طلق السلطان نساء الثلاث وهن خوند ابنة عم السلطان حسن، وابنة الأمير تنكريغا. وابنة الأمير طغاي عمر النظامي. المقرئزي: السلوك، ج 3، ق 2، ص 259، ج 2، ق 3، ص 689، وابن تغري م س، ج 10، ص 122. ومن الأمثلة: الأمير قرطاي الطازي زمن السلطان علي بن شعبان سنة 778هـ انظر محمد وجدي فريد: دائرة معارف القرن العشرين، ج 9، ص 109-110.

اغتناب النساء في الطرقات وخطفهن من الحمامات والأسواق وخاصة أيام الفتن والثورات<sup>(1)</sup>. وخاصة المماليك الأجلاب الذين غلب على سلوكهم الإجرام واشباع شهواتهم بالبحث عن اللذة<sup>(2)</sup>. وهكذا عمت الفاحشة بين كبار الحكام والفقهاء أيضاً<sup>(3)</sup>. وأبناء القضاة والفقهاء<sup>(4)</sup>. وبالرغم من هذا الفساد الخلقي لهذه الطبقة الارستقراطية فاننا لا نعدم وجود بعض السلاطين الذين حاربوا هذا الفساد الاجتماعي<sup>(5)</sup> بعد تأثرهم بوعظ رجال الدين<sup>(6)</sup> فأمرؤا بمنع الحانات والخواطي والفواحش<sup>(7)</sup>.

ومما يؤكد معرفة السلطان بمصادر هذه الأموال الخبيثة من ضرائب المغاني لإرضاء بعض المعارضين لهذه السياسة من كبار الأمراء حيث أعطى امير الكرك المعارض لسياسته هذه جمال الدين أقوش الأشرف<sup>(8)</sup> نيابة طرابلس بعد موت أميرها قرطاي<sup>(9)</sup> وخلع عليه وبعث له بألف دينار، مما يشبه اليوم نظام غسيل أموال المخدرات في بعض دول العالم.

(1) كما حدث في الفتنة بين السلطان الناصر محمد والأمير الأتابك حيث استغل المماليك هذه الفتنة واغتصبوا النساء في الحمامات، زغلول سلام، الأدب، م س، ج 1، ص 44.

(2) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 389-390 مما دفعه لوصف الطبقة الارستقراطية المملوكية بقوله "ليس بهم الا من هو أرزنى من قرد، وألص من فأرة وأفسد من ذئب، عيد عاشور، المجتمع العربي، ص 27.

(3) زمن السلطان الأشرف علاء الدين كجك ابن الناصر محمد بن قلاوون عام 742هـ حيث ضبط متلبساً بجريمة الزنا فهاجمه الناس وشتفوا لحينه ونهبوا بيته. هذا بالإضافة الى ميل بعض القضاة للجواري الزكيات كالقاضي ابراهيم أحمد بن هلال بن بدر القاضي برهان الدين الزرعي (688-741هـ) الفقيه بالمدرسة الصالحية بعد سجن ابن تيمية. أنظر ابن حجر: م س، ج 1، ص 15-16.

(4) أمثال جمال الدين عبد الله بن قاضي القضاة جلال الدين عام 732هـ، المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 2، ص 368.

(5) الظاهر بيبرس، السلوك، ج 1، ق 2، ص 540، 554، وجمال سرور، دولة الظاهر بيبرس في مصر، ص 154، والناصر محمد بن قلاوون. المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 2، ص 455.

(6) تأثر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنصيحة ابن تيمية ضد العرافين والزناة وعاقبهم: عبد الرحمن الشراقوي: ابن تيمية: الفقيه المعذب، ص 152-153.

(7) الظاهر بيبرس. المقرئزي: الخطط، ج 1، ص 197، الذي سجن الشيخ العدوي عام 671هـ لفساده الأخلاقي والأشرف شعبان حسن عام 775هـ الذي ألغى ضمان المغاني وأعلن ذلك على منابر المساجد رغم ما يدره ذلك من أموال كثيرة. السلوك، ج 1، ق 2، ص 189، 578، ج 3، ق 1، ص 217، والخطط، ج 1، ص 198.

والمنصور قلاوون. ابن تغري: م س، ج 7، ص 327-328، والناصر بن قلاوون، وبعض الأمراء كالأمير أرغون العلاني. المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 3، ص 704، وابن تغري: ن م، ج 10، ص 130.

(8) ابن حجر: ن م، ج 1، ص 423-424.

(9) ن م. ج 3، ص 332. والمقرئزي: السلوك، ج 2، ص 371، أبو المحاسن، ن م، ج 9، ص 108-109.

كما استغل بعض الأمراء تطبيق السياسة الإسلامية كالأمير ايدكين الأزركشي والي القاهرة سنة 734هـ/1336م والذي عين من قبل النشو<sup>(1)</sup>. حيث كان هذا الأمير يتكرر في الليل ليسمع الغناء ويشم رائحة الخمرة فيقبض عليهم، فقد قبض على بعض التجار الفلسطينيين جهاركي من قيسارية بتهمة انهماكه في اللهو فافتدى نفسه بتسعين ألف درهم كدين له على الخزانة السلطانية إذ أجبر على التنازل عنها خطياً. وكما سلب الناس ثيابهم وتركهم عراة عندما فاجأهم في حديقة عامة يتفرجون على بعض الألعاب 734هـ/1334م وهذا اعتداء صريح على حرمان الناس الخاصة، وعندما أخبر قوهون السلطان الناصر محمد غضب عليه بدل أن يشكره وقال له "أنتم كلما وليت واحداً ينفعني أردتم إخراجي، ولو أنه من جهنم لشكرتم منه كل وقت" واسمعه ما يكرهه ثم أضاف اليه ولاية مصر كرشوة لاسكاته ولم يجمع الولايتين قبله<sup>(2)</sup>.

وهكذا انتشر الانحلال الخلقي بين كبار رجال الدولة وساهموا في تمكينه بالمجتمع بالسماح بالبغياء المأجور<sup>(3)</sup>. لما يدر عليهم من رسومه مبالغ كثيرة لصالح هذه الطبقة المترفة الفاسدة ونساؤها اللائي لم يسلمن من الطمع فيهن وكثرت في انحرافهن الأقاويل<sup>(4)</sup> حيث كان بعض السلاطين يهتك أعراض نساء الأمراء ويرقص معهن علناً في مناسباته<sup>(5)</sup> حتى أن بعض الأمراء وأعيان الدولة لم يتخرجوا من الذهاب الى أماكن دعارة النساء والغلمان في جزيرة حلمية ببولاق وجزيرة الطمية<sup>(6)</sup> في النيل وبركة الرطلي، والخليج الناصري. ففي عام

(1) ابن حجر: م س، ج 1، ص 457.

(2) المقرئ: السلوك، ج 2، ص 372، وأبو المحاسن، م س، ج 9، ص 116، 132، 133، 134-135.

(3) بلا عقد شرعي بين الرجل والمرأة: المقرئ: ن م، ج 2، ق 1، ص 150، ق 2، ص 492 والخطوط، ج 1، ص 198. وللمزيد من المعرفة انظر المقرئ: الخطوط، ج 2، ص 44، مخطوط وابن اياس: بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 486، وأبو المحاسن: ن م، ج 9، ص 47، حيث ذكر أهمية ديوان البغاء باعتماد الدولة عليه. وابن قاضي شهبه: الأعلام، ج 5، ص 235. وسعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص 174، 175، 176 وعبد الرحمن الشرقاوي: ابن تيمية، الفقيه المعذب، ص 105-106. سعيد عاشور المجتمع المصري، ص 227. وليم موير: تاريخ سلاطين المماليك في مصر، ص 9. بينما ألغى السلطان الناصر محمد حقوق الغواني والعاهرات وضمانة المغاني: السلوك، ج 2، ق 1، ص 150، وكذلك السلطان الأشرف شعبان وابن قاضي شهبه: الأعلام، ج 5، ص 235. بينما ألغى السلطان الناصر محمد 710هـ حقوق الغواني والعاهرات وضمانة المغاني. المقرئ: السلوك، ج 2، ق 1، ص 150، والسلطان الأشرف شعبان 778هـ/1346م، المقرئ: ن م، ج 2، ق 2، ص 492.

(4) ابن اياس: م س، ج 1، ق 1، ص 486.

(5) المقرئ: ن م، ج 2، ق 2، ص 326 زغلول سلام، الأدب م س، ج 1، ص 52. وليم موير: تاريخ سلاطين المماليك في مصر، ص 155 حيث ذكر مثلاً على السلطان الفاجر المظفر حاجي، ق 1، ص 22.

(6) المقرئ: ن م، ج 2، ق 3، ص 455.

738هـ/1337م اشتكى الناس للسلطان عن ارتكاب المنكرات علانية من قبل الأمير ملكتمر الحجازي، حيث عبر النيل مع مماليكه وبرفقتهم أرباب الملاهي يظاهرون بالفاحشة باختطاف النساء من الشوارع، فاحضره السلطان ووبخه وهدده بالقتل، ونفى من مماليكه ستاً وثلاثين شخصاً الى بلاد الشام كما اتبعهم باربعين مملوكاً بتهمة شرب الخمر<sup>(1)</sup>. كما كان من عادة هذه الطبقة الارستقراطية اصطحاب السلاطين والأمراء للنساء الجميلات في رحلاتهم وألعابهم خارج القلعة ومشاركتهن في ركوب الخيل واللعب الذي يؤدي للفاحشة<sup>(2)</sup>. فكان ذلك بما يشبه الدعوة المعلنة للفسوق.

لذلك نرى بأن فساد السلطان كان سلاحاً قوياً لمعارضيه والطامعين في حكمه لعزله عن الحكم<sup>(3)</sup>.

ومن صور الفساد الأخلاقي جلب بعض طوائف التتار الأوبراتية وإسكانهم بالحسينية لجمالهم وشذوذهم<sup>(4)</sup> الذي تمثل أيضاً في عشق الجواري ذات البشرة السوداء<sup>(5)</sup>. فكان هذا الفساد عاملاً هاماً في الهائم عن تدبير ملكهم وضعفه وسقوطهم سجناء أو مقتولين كعقوبة إلهية على هذه الأفعال المشينة.

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص455، وابن حجر: م س، ج5، ص127-128.

(2) انظر المقرئزي: الخطط، ج2، ص348-349، وابن حجر: ن م، ج1، ص477-478. واشهر مثال على ذلك السلطان اسماعيل بن الناصر حسن الذي وافق مائتي امرأة، المقرئزي: ن م، ج2، ق3، ص317، 740، 678. وابن تغري بردي: م س، ج10، ص121، 141. والسبكي: معبد النعم ومبيد النقم، ص72.

(3) كما حدث بين الأمير بلبغا البختيارى نائب السلطان الكامل شعبان عام 747هـ/1346، المقرئزي: ن م، ج2، ق3، ص707-709. وابن تغري بردي: ن م، ج9، ص17، 32-33. جمال سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص55. وعلى ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ الممالك البحرية، ص98.

(4) كالسلطان العادل كتبغا المنصوري: 694-696هـ/1294-1296م نظير سعداوي، صور ومعالم من عصر المماليك ص36-39.

(5) كالسلطان الصالح اسماعيل (743-746هـ/1342-1245م)، المقرئزي: ن م، ج2، ق3، ص678. وابن اياس: م س، ج1، ق1، ص505، وابن تغري: ن م، ج10، ص96، 150. ذكر اسم المغنية السوداء "اتفاق". يتخفى في الذهاب الى أماكن اللهو والدعارة الذي أدمن لخلعه من قبل الأمير قوهون، المقرئزي: ن م، ج2، ق3، ص567 وعصر السلطان الاشرف شعبان ايضاً، المقرئزي: ن م، ج2، ق2، ص70، ابن حجر: م س، ج1، ص46. والسلطان المنصور حاجي الذي خلع 764هـ/1366م نتيجة لخلاعته ابن تغري: ن م، ج11، ص7، وسعيد عاشور، المجتمع المصري، ص66.

ومن الأمراض الأخرى في هذه الطبقة الارستقراطية المنحلة الشذوذ الجنسي "الواط" الذي تفشى بين سلاطينهم وأمرائهم<sup>(1)</sup>. حيث عشقوا الصبية الغلمان والمردان<sup>(2)</sup> وسقاة الشراب حتى أن بعضهم خلع نفسه<sup>(3)</sup> لأن هؤلاء كانوا مقربين من الأمراء والسلاطين لخدمة مجالسهم.

(1) للمزيد من التفاصيل انظر المقريري: الخطط، ج3، ص169، وابن اياس م س، ج1، ص104، وابن تغري: م س، ج9، ص48، ابن

حجر: م س، ج1، ص210 أنباء العمر، ج2، ص109، 300. والسبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص72.

(2) كمائلة النشو: ناظر الدولة: زمن الناصر محمد بن قلاوون بأكملها. المقريري: السلوك، ج2، ق2، ص387. وفوزي أمين: المجتمع

المصري عهد سلاطين المماليك، ص362-369، أورد شعراً ليدر الدين البشتكي:

أقول لثافت حديدية مهلاً      أترضى اللاتطين مدى الدهر

فدع تنف العوارض عنك كيما      تنال بلحيسة مثل الحريم

والمردان: مفرداً أمرد الذي ينتف شعر وجهه أو لا يوجد به أصلاً أنظر فوزي أمين: المجتمع العربي، ص362.

(3) السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري، (694-696هـ/1294-1296م انظر: المقريري: الخطط، ج3، ص34، وسعيد عاشور:

المجتمع المصري، ص229.



وقد اشار الشعراء في العصر المملوكي الى تفشي هذه الظاهرة<sup>(1)</sup> حيث لم يتحرج السلاطين من رغبتهم في الشذوذ الجنسي مع الغلمان والمردان من الصبية فاتخذوا منهم الخدم والمقربين ووصل بعضهم الى منزلة عالية وحظوة بالغة لدى السلطان<sup>(2)</sup> فكان الجمال والنعومة وسيلة للوصول الى السلطان والإمارة بعد أن اشتروهم بالآلاف الدراهم لحسنهم وجمالهم<sup>(3)</sup>. كما كان من الطبيعي أن يتفشى هذا الشذوذ بين أبناء السلاطين الذين كان يشفقون على ابنائهم ويحاولون إبعادهم عنه<sup>(4)</sup> ومن أشهر الوظائف التي عين بها هؤلاء الصبية المعشوقين لجمالهم والذين لم تتجاوز أعمارهم العشرين -وظيفة الحاجب، والجميدار والخاصكي والدويدار<sup>(5)</sup>.

(1) قال الشاعر سيف الدين المشد في تلك الظاهرة:

بطل التناسل في الوري	من غير شك وافترء
فإذا الرجال مع الرجال	كما النساء مع النساء
مما يدل على الغناء به	وحسبك من غناء

فوزي أمين: المجتمع المصري، ص 362 حتى اتخذت طريقة الشذوذ وسيلة لتكسب في بعض فئات الشعب فوزي أمين: ن م، ص 359.  
(2) كان السلطان أبي بكر بن الناصر محمد بن قلاوون 741-742هـ/1343-1344م محظياً من الشباب يسمى عطعط، المقريري: السلوك، ج 2، ق 3، ص 567، 635 و ج 3، ص 523، وابن حجر: م س ج 1، ص 223-224. وكذلك السلطان صالح بن محمد بن قلاوون 752-755هـ/1351-1254م الذي احب مملوكه طاز واخيه حنتر فقوض طاز في نظر أمور الدولة. المقريري: السلوك، ج 2، ق 3، ص 920. كما ذكر المقريري أن السلطان أبي بكر بن الناصر محمد كان يعيش أميرين من الخاصكية بليغا البيحايوي وملكتهم الحجازي الذي كان يناومه علاوة على جماعة من الخاصكية. المقريري: ن م، ج 2، ق 3، ص 567. وملكتهم هذا كان يملكه السلطان المظفر حاجي (747-748هـ/1346-1347م). ابن حجر: ن م، ج 3، ص 358، ج 5، ص 127-128.  
(3) كالمملوك طغتمر العمري مملوك الناصر محمد بن قلاوون (709-741هـ/1311-1342م) في سلطنته الثالثة. ابن حجر: ن م، ج 2، ص 223. وصرغتمش الناصري: اشتراه الناصر محمد بمائة ألف درهم. المقريري: ن م، ج 2، ق 3، والمملوك قوصون الذي بدأ سابقاً بالبلاط السلطاني ثم ترقى أميراً. ن م، ن ص.

(4) كالأمير أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون الذي أرسله أبوه الى الكرك لتعلم الفروسية فانحرف مع الصبية ومارس الفاحشة معهم، فاستدعاه أبوه الى مصر فاحضر معه الصبي شبيب الذي يعشقه المقريري: ن م، ج 2، ق 2، ص 467 ثم اعاده للكرك بعد اقتناعه بعدم صلاحيته للسلطنة فزاد رقيقاً وفجوراً ولكن أصبح سلطاناً فيما بعد 742هـ/1341م ابن حجر: ن م، ج 1، ص 295، ووليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص 92، 94.

(5) المقريري: ن م، ج 2، ق 3، ص 365-366 ابن حجر: ن م، ج 1، ص 410 كالأمير سيف الدين الحاجب سنة 736 هـ أحد مماليك الناصر بن محمد.

ومن صور الانحلال الخلقي بين أفراد الطبقة الارستقراطية شرب الخمرة والمخدرات كالحشيشة<sup>(1)</sup> لأن الدولة سمحت بصناعتها وتجارتها مقابل تحصيل الرسوم العالية لتمويل الخزانة السلطانية<sup>(2)</sup>. كما سمحت الدولة بتعاطي المخدرات كالحشيش والأفيون<sup>(3)</sup> وأباحت زراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه مقابل الضرائب العائدة للخزانة السلطانية<sup>(4)</sup> بالإضافة لتعاطيه في القصور والمناسبات الاجتماعية المختلفة على شرف السلاطين<sup>(5)</sup> حيث أصبحت الخمر من مراسم الاحتفال<sup>(6)</sup> حتى تعدوا على حرمة رمضان بشرب الخمر فيها<sup>(7)</sup>.

وكان من نتيجة هذا الشذوذ بين رجال الطبقة الارستقراطية انحراف نسايتهم نحو السحاق لوفرة الجواني في حريم السلطان وحريم الأمراء وجواريهم.

- (1) يقول ك: ابن الأختوة: معالم القرية في أحكام الحسية، ص117— أنهم ورثوا هذا الداء من العصر الأيوبي الذي ورثه من العصر الفاطمي. انظر المقرئزي: الخطط، ج1، ص50. وابن حجر: م س، ج1، ص509، ومن أمثلة ذلك ترخيص الناصر محمد بن قلاوون بإدارة حمارة ابن جرادة الخمار حيث كان عائدها اليومي ألف درهم: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص896
- (2) المقرئزي: ن م، ج2، ق2، ص400، ج1، ق3، ص896، ج2، ق2، ص694. وابن حجر: ن م، ج1، ص509.
- (3) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص230. تشريف الأيام والعصور، ج2، ص282.
- (4) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين/ ورقة 118، مخطوط وابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج6، ص2. والمقرئزي: ن م، ج2، ق1، ص230 وسعيد عاشور: المجتمع المصري، ص229. وعبد المنعم ماجد: نظم سلاطين الماليك، ج1، ص116، 117.
- (5) المقرئزي: ن م، ج2، ق1، ص230، ج3، ق1، ص304-306. وأبو الفداء: م س، ج3، ص197، ذكر شغف الظاهر بيبرس بالخمرة: تشريف الأيام والعصور، ج2، ص265، وكذلك الأشرف خليل بن قلاوون كان يدعو لمجلسها. ابن اياس: م س، ج1، ص376.
- (6) ابن قري بردي: م س، ج5، ص655. والمقرئزي: ن م، ج3، ق1، ص305. وابن دقماق: ن م، ص149. والذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص6-7. وجمال سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص55-56.
- (7) كالسلطان الأشرف خليل بن قلاوون: المقرئزي: ن م، ج1، ق3، ص792. والسلطان أبو بكر بن محمد بن قلاوون: لم يكن يغفل عن كأس الخمر ابن حجر: م س، ج1، ص462-463. والسلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد: المقرئزي: ن م، ج2، ق3، ص71. والسلطان المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون: وابنه محمد بن ظاهر، علي إبراهيم حسن دراسات في تاريخ الماليك البحرية ص102-104.

وقال بعض المؤرخين بوجود علاقة بين الإدمان ومدة حكم السلاطين بنسبة عكسية<sup>(1)</sup>.  
هذا كما عاقب بعض السلاطين أمراءه بالعزل والنفي لشربهم الخمرة<sup>(2)</sup> وكان بعض الأمراء قد  
استهلك من الخمر في يوم واحد ما يعادل خمسين رطلاً<sup>(3)</sup>. لذا كان من الطبيعي أن يدمن  
على شرب الخمور بقية الموظفين الرسميين والمحظيين لدى السلاطين كالحاجب<sup>(4)</sup>  
والأتابك<sup>(5)</sup> والدوادار<sup>(6)</sup> والجمدار<sup>(7)</sup> وأمير أخور<sup>(8)</sup> وأمراء الألو<sup>(9)</sup>. لذا لم يسلم الفقهاء والقضاة

(1) كالظاهر ببيرس الذي عرف عنها وقام بإبطاها طيلة حكمه ابن الوردي: م س، ج 2، ص 225، د. أحمد شلي الموسوعة، م س، ج 5، ص 209

والسلطان قلاوون حكم عشر سنوات لمقاومته شرب الخمرة شلي: ن م، ص 211. والناصر محمد بن قلاوون في فترته الثالثة حكم حوالي  
اثنين وثلاثين سنة حيث أمر بمكافحة المخدرات والخمور: المقرئزي، ن م، ج 2، ص 455 والخطط ج 2، ص 417، ثم كانت وفاته  
طبيعية: د. أحمد شلي: ن م، ص 212-213. وأما السلاطين المدمنين فقد قصرت مدة حكمهم كالمملك السعيد بركة ابن الظاهر  
بيرس فخلع من حكمه بعد سنتين: ابن أبياس: م س، ج 1، ق 1، ص 290 وابن تغري بردي: م س، ج 1، ق 1، ص 341 والسلطان أبو  
بكر بن محمد بن قلاوون المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 3، ص 566-567. وابن حجر: م س، ج 1، ص 462-463، وابن تغري: ن م،  
ج 10، ص 12 وابن العماد: شذرات الذهب، ج 6، ص 136 والسلطان أحمد بن الناصر محمد، المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 2، ص  
683، 710، 713. وابن حجر: ن م، ج 1، ص 296 والسلطان الكامل شعبان: المقرئزي: ن م، ج 2، ق 3، ص 683، 710، 713،  
وأبو المحاسن: م س، ج 10، ص 140 والسلطان حاجي/ المقرئزي: ن م، ج 2، ق 3، ص 707. والسلطان محمد بن المظفر حاجي ابن  
محمد بن قلاوون حيث خلعه الأتابك بلبغا عام 764هـ/1363م لإدمانه: ابن أبياس: م س، ج 1، ق 1، ص 592. وعلي إبراهيم حسن:  
دراسات في تاريخ الممالك البحرية: والسلطان أبو بكر بن محمد بن قلاوون (741-741هـ/1340-1341م). المقرئزي: السلوك،  
ج 2، ق 3، ص 566-567. وأبو المحاسن، ن م، ج 10، ص 12. وابن حجر: ن م، ج 1، ص 462. والسلطان صالح بن محمد بن  
قلاوون (752-755هـ/1351-1354م) الذي خلعه الأمير شيخون وحجسه والسلطان حسن بن محمد بن قلاوون الذي حجسه الأمير  
بلبغا وقتله لإدمانه الخمرة. ابن أبياس: م س، ج 1، ق 1، ص 597. ومحمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، ص 45.

(2) السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (708-709هـ/1308-1309م) عزل نائب السلطنة الأمير صدر الدين بن الوكيل لشربه الخمرة  
انظر ابن حجر: ن م، ج 3، ص 117 كما عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون (709-741هـ) الأمير أقبغا الحسني عام 716هـ ونفاه  
إلى دمشق. المقرئزي: السلوك، ج 1، ق 2، ص 176 وعزل عام 710هـ الأمير صدر الدين محمد بن عمر المرحل أحد أعيان دمشق  
لشربه الخمرة، ن م، ج 2، ق 1، ص 88

(3) هو الأمير سيف الدين مكرم الحجازي الناصري المولود والمتوفى في بغداد (654-741هـ) وهو أحد كبار أمراء الناصر محمد الذي  
زوجه ابنته، ابن تغري: م س، ج 10، ص 184 المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 2، ص 365-366

(4) كالأمير الماس الحاجب على عهد السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة. المقرئزي: ن م، ج 2، ق 2، ص 365-366.

(5) الأمير قرطاي الطاز زمن السلطان علي بن شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون، المقرئزي: ن م، ج 3، ق 1، ص 305 وابن تغري: ن  
م، ج 11، ص 153

(6) كالأمير بغا الديدار الناصري (737هـ/1336م) زمن السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة. ابن حجر: م س، ج 1، ص 366.

(7) والأمير بيبرس الركن عام 740هـ. المقرئزي: ن م، ج 2، ق 2، ص 487-488.

(8) الأمير أبيك زمن السلطان علي بن شعبان. المقرئزي: ن م، ج 3، ق 3، ص 305.

(9) الأمير مغلطي. المقرئزي: ن م، ج 2، ق 1، ص 54. وابن تغري: ن م، ج 11، ص 155.

وابناءهم من تعاطي المخدرات وشرب الخمر<sup>(1)</sup> كما تجدر الاشارة إلى أن بعضهم سعى الى  
إصلاح الأنهيّار الأخلاقي مع فقهاء عصره لنبيذ المنكرات كالسلطان الظاهر بيبرس والناصر  
محمد بن قلاوون كما مر معنا.

---

(1) ابن حجر العسقلاني: ابناء العزم، ج3، ص302، والمقريزي: ن م، ج2، ق3، ص591، وسعيد عاشور: المجتمع المصري، ص230  
وعلي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ الممالك البحرية، ص293.

## الطبقة العامة وعلاقتها بالطبقة الأرستقراطية الحاكمة:

يقصد بالطبقة العامة جمهور الناس من عامة الشعب سواء أكانوا من العاملين أم العاطلين عن العمل وتسمى أحياناً "بالعوام" وهم يشكلون فئة كبيرة من جمهور الشعب الشامي من السكان الأصليين الذين سلبهم سلاطين المماليك وامراؤهم من السلطة السياسية على الرغم من أنهم أصحاب الحق الشرعي في سيادة مجتمعهم.

ويصف المؤرخ بوليّاك Poliak العامة بأنهم من الفلاحين والبدو والعبيد والحرفيين وصغار التجار الذين عانوا من الفوارق الطبقيّة التي نتجت عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، مما أدى لتمردهم المستمر ضد السلطات<sup>(1)</sup>.

### أحوال الطبقة العامة:

لقد ارتأيت دراسة أحوال الطبقة العامة في عصر المماليك ببعض من التفصيل لأهمية دورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولأن المؤرخين أشاروا إليها باختصار فحاولت كشف بعض ما تيسر لي في المصادر والمخطوطات لعلّي أسدّ ثغرةً في هذا البحث. فبالنسبة لدورهم السياسي فقد كان موقفهم سلبياً حيث أيدوا من عمل لصالحهم، كما شاركوا في الثورة ضد الأقوياء الطامعين على حساب طبقتهم الفقيرة، وساهموا أيضاً في صد بعض الاعتداءات الخارجية، وإفشال المؤامرات الداخلية ضد السultan وذلك أملاً في توفير الاستقرار الاجتماعي في البلاد وخاصة عندما قاوموا غلاء الأسعار والاحتكار والغش أملاً في تخفيف معاناتهم الاقتصادية بكسبهم بعض المعونات المادية والمعنوية. بعد أن تعرضوا للظلم والقهر الاجتماعي المتمثل في أعمال السخرة والرشوة والمصادرة بالإضافة للأوبئة والمجاعات التي تسببت في الأزمات الغذائية مما دفعهم للمشاركة في الثورات العامة كما سيمر معنا.

(1) دكتور حياة ناصر الحجي، ص 16 نقلت عن (بولياك مؤرخ فرنسي اسم كتابه امراطورية المماليك).

وبالنسبة لموقف العامة من الاضطرابات السياسية: فقد وضح عندما تعرضت دمشق لخطر المغول بقيادة غازات الذي دخل دمشق 699هـ/1299م فدب الفزع في قلوب الناس الذين فروا من المدينة فتوجه البعض الى مصر<sup>(1)</sup>. وحدث نهب وقتل ودمار وغلت الأسعار. ومن جانب آخر ذكر المقرئزي: "وذهب لأهل مصر مال كثير في حركة غازان، إلا أنهم لسعة أحوالهم لم يبالوا بذلك"<sup>(2)</sup>.

فأسرع السلطان الناصر في التجهيز للمسيرة الى الشام من مال وسلاح وعسكر ويلاحظ هنا تكاتف المجتمع المصري والشامي تحت الحكم المملوكي في وقت الأزمات لإزالة آثار العدوان والعمل من أجل سلامة الدولة.

وقد تكرر هذا التلاحم الاجتماعي الاقتصادي 700هـ/1300م عندما وردت الأنباء بقدم المغول نحو بلاد الشام فاشتد الطلب لجمع المال، للاستعدادات العسكرية، فتضرر الناس وأظهر العامة شمانتهم وسخريتهم لأجناد المماليك لهزيمتهم السابقة أمام التتار فأمر السلطان بعقوبة أي عامي يتعرض للجند أثناء جباية الأموال للتأهب للحرب<sup>(3)</sup>.

وبحجة درء خطر المغول تعرض سكان مصر والشام لأضرار كثيرة نتيجة دفع مبالغ باهضة لدعم الجيش المملوكي حيث استنزفوا أموال الناس من الأملاك والأوقاف والدور والإسطبلات والبساتين والأراضي الزراعية في دمشق وضواحيها، كما أخذوا الأموال من الفقراء والأغنياء والتجار والفلاحين فعانوا الكثير من الآلام وقد استخدم المماليك التركمان والأكراد كمرتزقة في جيشهم مقابل رواتب معينة، ولكنهم هربوا أمام هجوم جيش غازان المغولي على الشام. وكانوا لا يحبذون تجنيد أهالي مصر والشام خوفاً من وصولهم للقوة العسكرية الأمر الذي قد يؤدي للتخلص من المماليك.

بينما كان يُطلب منهم الاستعداد دائماً للدفاع عن أنفسهم ضد المغول حيث أمروا بتعليق سلاحهم في الحوانيت، وملازمة الرمي بالنشاب، كما رأينا صورة صادقة من المشاركة الشعبية

(1) ابن حجر: م س، ج3، ص292-294، وابن تغري: م س، ج4، ص122، ابن اياس: م س، ج1، ص140-141.

(2) المقرئزي: السلوك، ج1، ص889، وابن اياس: ن.م، ج1، ص141، وابن تغري: ن.م، ج8، ص127.

(3) المقرئزي: ن.م، ج1، ص906-907. وابن حجر: ن.م، ج2، ص273-274. وابن تغري: ن.م، ج8، ص124، 128-129.

في الدفاع غير الرسمي عن الاسكندرية وطرابلس ضد الصليبيين عندما ضحوا بأنفسهم في سبيل الدفاع عنها. خوفاً من وقوعهم تحت وطأة الحكم الأجنبي

وكانت الأسعار ترتفع أيام الأزمات والغزو الخارجي نتيجة حرص الناس على تخزين كميات كبيرة من الطعام، فتبع كثرة الطلب ارتفاع الأسعار بل واختفاء الغذاء من الأسواق كما سعى التجار لجني الأرباح الطائلة، وعادت الأسعار الى طبيعتها بعد زوال الأخطار الخارجية.

وقد التفت العامة في مصر والشام حول السلطان في دفع المغول وهزيمتهم في موقعة مرج راهط في الثاني من رمضان سنة 702هـ/30 نيسان - ابريل 1303م<sup>(1)</sup>.

ويلاحظ هنا أنه لا فرق بين العامة في مصر أو في الشام من حيث الالتفاف حول السلطان ومساندته بالدعاء له والتبرع بأموالهم بل والتضحية بأنفسهم في سبيل هزيمة المغول. ونستطيع أن نشبه هذا بدور المقاومة الشعبية في مساندة الجيوش النظامية ف عصرنا الحالي.

وعندما خرج نائب الشام عن طاعة السلطان الكامل شعبان انضم اليه نواب الشام وانقسم الأمراء في مصر الى قسمين : مؤيد ومعارض للسلطان الكامل شعبان لسوء سيرته وشغفه باللهو وشرب الخمر وانتهى الأمر بقتله يوم الأربعاء الثالث من جمادي الآخرة سنة 747هـ/أيلول سبتمبر 1446م بزعامه الأمير يلغا اليحياوي نائب الشام، فحكم سنة وثمانية وخمسين يوماً<sup>(2)</sup> وكان ظالماً متعسفاً في التسلط على ممتلكات الناس، جائراً في فرض الضرائب والموكس<sup>(3)</sup>.

ويلاحظان قتل السلطان الكامل كان حلقة من حلقات الصراع بين كبار الأمراء إذ أن قتله كان انذاراً موجهاً للأمير نائب السلطان وزوج أم السلطان.

وهناك مثال آخر على التكامل الاقتصادي بين بلاد الشام ومصر كما حدث سنة 736هـ/1335 عندما ارتفعت اسعار الغلال حيث ارتفع سعر إردب القمح من خمسة عشر

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ص930-939. وابن حجر: م، س، ج4، ص145. وابن اياس: م، س، ج1، ص143-144. وابن تغري: م، س، ج8، ص157-166م. والعمرى: المسالك، ورقة 36، 37 خطوط.

(2) المقرئ: ن، م، ج2، ص713. وابن اياس: ن، م، ج1، ص184-186. وابن تغري: ن، م، ج15، ص140.

(3) المقرئ: ن، م، ج2، ص713. وابن اياس: ن، م، ج1، ص184-186. وابن تغري: ن، م، ج1، ص140-141.

درهماً إلى ثلاثين وأربعين درهماً، فامتنع الأمراء وغيرهم عن البيع طمعاً في الربح الفاحش، فتدخل السلطان خوفاً من حدوث أزمة اقتصادية فأمر والي القاهرة علاء الدين المرواني<sup>(1)</sup> بجلد الطحّانين والخبّازين بالمقارع لتعذر شراء الخبز في القاهرة أما السلطان فكانت أجراءاته حمل الغلال من غزة والكرك والشوبك وبلاد دمشق إلى القاهرة وأمر بتحديد سعر إردب القمح بثلاثين درهماً ولكن الأمراء امتنعوا عن البيع حتى انتشر السماسرة بدفع ستمين أو سبعين درهماً خفية، فتفاقمّت الأمور بالنهب ونودي بالقاهرة: "من كان عنده غلّة ولا يبيعها نُهِبَتْ" وفعلاً نُهِبَت السوق والحرافيش بأمر والي القاهرة<sup>(2)</sup> وعين مراقب في كل مخبز كما وصل مصر من الشام أربعة الاف غرارة قمح فأخرج أرباب الغلال القمح خوفاً من كسادها.

وبالنسبة للسلطان الناصر محمد فقد تمتع بشعبية كبيرة بين صفوف العامة أثناء حكمه طيلة اثنين وثلاثين عاماً وحين اعتزاله الحكم في الكرك، مما مكنه من تأسيس دولة قوية مستقرة سياسياً واجتماعياً كما كان العامة يُعَبِّرون عن أحاسيسهم بالأغاني الشعبية عند انخفاض مياه النيل ومن الأسباب الاقتصادية التي كانت تسبب قلق العامة تزييف النقد والفلوس حيث تُغلق الأسواق وترتفع الأسعار ويخزنُ الأمراء القمح في شُؤنهم وعدم بيعه للخبّازين<sup>(3)</sup> حتى يصبح تدخل السلطان ضرورياً.

لذا لجأ السلطان الناصر محمد إلى سك فلوس جديدة مُعْتَمَدةً حكومياً بالوزن لاستقرار السوق المالي لضمان استتباب الوضع الإقتصادي والأمان الاجتماعي وخاصة العامة. كما حدث سنة 720هـ/1320م<sup>(4)</sup> إذ أبطل السلطان فلوس دمشق المسماة قراطيس، والقرطاس ستة فلوس والدرهم الفضة أربعة وعشرون قرطاساً، وضربَ بدلاً منهاً فلوساً زنة كل منها درهم وصار الدرهم بثمانية وأربعين فلساً مثل معاملة مصر بهدف توحيد النقد لإعادة الثقة المالية بالأسواق

(1) ابن حجر، الدرر، ج3، ص110.

(2) ابن حجر: ن.م، ج5، ص257-258. والمقريزي: السلوك، ج2، ص394-396. وابن ياس: م.س، ج1، ص169

(3) د. حياة حجي: م.س، ص192.

(4) ابن حجر: ن.م، ج3، ص15-18.



وزيادة النشاط التجاري. بعد وصول الغلال والنداء بارتفاع نسبة مياه النيل نزل سعر الخبز من ستة أرطال للدرهم الى ثمانية أرطال للدرهم<sup>(1)</sup>.

وهكذا استطاع الناصر محمد محاصرة الأزمة الاقتصادية المفتعلة بسبب جشع الأمراء والتجار أيام الأزمات الاقتصادية وذلك بإحضار القمح من مدن الشام وتحديد سعر القمح، والتهديد بالعقاب الشديد بتسليط العامة لنهب من يُخْبِئ الغلال ويرفض بيعه كما عين ضياء الدين يوسف بن محمد محتسباً لمصر لإجبار الأمراء على بيع القمح المخزون بالسعر الرسمي فأخرج القمح بالقوة من الشون ووزعها على الطحّانين بالإضافة لوصول القمح من الشام والصعيد.

ومن الأمثلة الأخرى على معاناة الناس في عهد الناصر محمد ما حدث سنة 740هـ/1339م اذ رفع سعر صرف الدينار بخمسة وعشرين درهماً بعد أن كان بعشرين درهماً وذلك لسداد الدين الذي كان على السلطان للتجار<sup>(2)</sup>.

فنلاحظ هنا عادة السلاطين في الاستدانة من كبار التجار لتوفير حاجاته وكان يتم ذلك بواسطة ناظر الخاص القائم بالشؤون المالية في الخزانة السلطانية كما تدل هذه الظاهرة على تزايد مصاريف بلاط السلطان لإسرافه في البذل والمتعة، إذ أن دَخَلَ الخزينة كان لا يكفيه لمصاريفه الزائدة، فلما عجز السلطان عن سداد ديون التجار، اقترح عليه جمال الكفاة ناظر الخاص برفع سعر الدينار لتقليل قيمة المبالغ المدفوعة وسداد جزء من الديون فقط وإهمال القسم الآخر، وبذلك لا يكلف الناصر محمد بسداد جميع الدراهم التي استدانها.

ونعبر هذا تلاعباً من السلطان من أجل منافع خاصة له على حساب أموال الناس وحقوقهم الواجبة على السلطان. فعم الضرر البائع والمشتري لنقص القيمة الشرائية للدينار والدرهم وارتفاع سعر الذهب مما سبب تضخماً اقتصادياً أضر بالجميع ما عدا الأمراء الذين كانوا يعيشون في بذخ وترف فاحش.

(1) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص، 1956، ص 39. والمقرئزي: السلوك، ج2، ص 394-396.  
Lapidus, Ira Marvin, Muslim Cities in the Later Middle Ages, Harvard Univ. Press  
Cambridge Massachuyetts, 1967, p. 51.

(2) ابن حجر: الدرر، ج1، ص 82. وابن تغري: م س، ج9، ص 131. والمقرئزي: ن م، ج2، ص 488.

ولم تقتصر ظاهرة الغلاء على إقليم مصر فقط، وإنما شمل ذلك الأقاليم المملوكية وجيرانها من الدول الأخرى إذ كان ارتفاع الأسعار في مصر يؤدي إلى ارتفاع الأسعار في الأقاليم الشامية، بالإضافة إلى ارتفاع الأسعار بعد غزو الجراد القادم من شبه الجزيرة العربية للمحاصيل الشامية، وبعد القضاء على الجراد تتحسن الأسعار كما حدث سنة 1342/743م عندما غزا الجراد حلب ودمشق والقدس وغزة ثم هلك عند دخوله الرمال حتى ملأ الطرقات فتحسنت الأسعار ببلاد الشام<sup>(1)</sup>.

أما الظواهر غير العادية في السنوات الأخيرة من عهد الناصر محمد ما ذكره المقرئ في سنة 738هـ/1337م عندما انخفضت أسعار الغلال، فكسدت، حتى اغضب ذلك كبار الأمراء مثل رزق الله أخو النشو كاتب الأمير ملكتمر الحجازي وولي الدولة صهره وهو كاتب المجدي، فباعا القمح زيادة درهمين للأردب بعسف وظلم عندما اجبروا الناس على شرائه زيادة عن سعر السوق<sup>(2)</sup>.

هذه الحادثة تظهر اطماع وجشع أمراء المماليك في تحقيق الربح الوفير على حساب أقوات العامة فكان ذلك نوعاً من الظلم الاجتماعي. كما لوحظ أن انخفاض الأسعار أدى لضعف عملية البيع والشراء فتعرضت التجارة للكساد. لذا كانت حاجة العامة إلى سلطان قوي الشخصية يمنع تمادي أمثال هؤلاء الأمراء لتوفير العدل والمساواة بين الرعية.

### ظاهرة الغلاء وأسبابها:

كانت سنوات القحط والأزمات الاقتصادية أسباباً رئيسية لزيادة الأسعار وتفتت ظاهرة الغلاء كما ذكر المقرئ في عام 709هـ/1309م وذلك عندما توقفت زيادة النيل "فارتفع سعر القمح حتى بيع الأردب بخمسين درهماً وأردب الشعير والفول بعشرين درهماً"<sup>(3)</sup>.

(1) المقرئ: السلوك، ج2، ص622-623.

(2) ابن حجر: م س: ج2، ص200-201، ج5، ص127-128.

(3) المقرئ: السلوك، ج1، ص914-915. وابن حجر: ن م، ج2، ص276.

ويضيف أبو المحاسن قائلاً: 'وخاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، وتشاءم الناس بسلطنة الملك المظفر بيبرس وأخذت دولة الملك بيبرس في اضطراب وذلك أنه أكثر من توهمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون'(1).

كما تهجم العوام على الأمير سلار الذي لقبوه "دقيق" لوجود شعيرات في حنكه لأنه كان أجرداً وسماه السلطان الناصر محمد بن قلاوون "الأعرج" لوجود بعض العرج في قدمه، ولقبوا بيبرس الجاشنكير بـ"ركين" لأن لقبه كان ركن الدين، فأمر السلطان الناصر بجلد نحو ثلاثمائة من العوام فنفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام(2).

فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من حوادث تتضمن دلالات كثيرة تدل على أن توقف زيادة النيل كان يؤدي الى ارتفاع الأسعار والأزمات الاقتصادية فيلجأ الأمراء إلى عدم بيع المخزون من القمح في بيوتهم في أثناء حكم السلطان الضعيف ثم يبيعونه بأسعار خيالية سعياً وراء الربح الفاحش(3).

وكان العامة يخرجون برفقة أئمة المساجد لصلاة الاستسقاء للدعاء بنزول الغيث، مع اعتبار ارتفاع الأسعار عند اعتلاء أحد الأمراء كرسي السلطنة نذير شؤم وبالعكس فينالهم عقاب السلطان مما يدل على شجاعتهم في التعبير عما يجيش في صدورهم. وكما حدث سنة 694هـ/1294م في عهد السلطان العادل كتبغا في دمشق(4) ومصر من جفاف وهبوط نسبة الماء في النيل فمات الناس بالآلوف يومياً(5) فاتخذ السلطان قراراً بتوزيع الفقراء على الأغنياء والأمراء للصرف عليهم(6) لتخفيف المعاناة عن أبناء هذه الطبقة الفقيرة خدمة للمصلحة العامة للدولة وكان للأزمات الاقتصادية في مصر انعكاساً مباشراً على بلاد الشام والحجاز، حيث

(1) أبو المحاسن، م س، ج8، ص243-244.

(2) أبو المحاسن: ن.م، ج8، ص245، المقريري: السلوك، ج2، ص56-59، أبو الفداء، المختصر، ج4، ص56.

(3) ابن حجر: م س، ج2، ص36-40.

(4) ابن حجر: ن م، ج3، ص348-350.

(5) المقريري: الخطط، ج2، ص239، والسلوك، ج1، ص808-809. وأبو المحاسن: ن م، ج8، ص59.

(6) المقريري: السلوك، ج1، ص815. وأبو المحاسن: ن م، ج8، ص57. وابن أبياس: م س، ج1، ص133-134.

"بيعت غرارة القمح في مكة بالف ومائتي درهم"<sup>(1)</sup> وكان القصاصون في مصر قد باعوا لحوم الكلاب والميتة واضطر الناس لأكلها من أجل البقاء ومقاومة الجوع<sup>(2)</sup>.

ومن الظواهر الاجتماعية التي تسببت في ارتفاع اسعار المواد الغذائية كاللحوم والبقول والغلال هجرة سكان الريف الى المدن، وانتشار قطاع الطرق بين الريف والمدن، بالاضافة الى صراع القبائل البدوية وجماعات العربان في أقاليم بلاد الشام ويؤكد ذلك ما ذكره المقرئزي في حدوث شعبان 748هـ/تشرين الثاني نوفمبر 1347م من ارتفاع سعر القمح واللحم والمواد الغذائية لهجرة أهل الريف وقطاع الطرق بأرض مصر وبلاد القدس ونابلس وفئة العشير بعضهم مع بعض<sup>(3)</sup>.

كما يشير المقرئزي الى إحدى ثورات العامة سنة 740هـ/1341م عندما رجمت العامة ابن الأطروش المحتسب لضربه خبازاً خفّض سعر الخبز إذ باع كل ثمانية أرطال بدرهم بينما السعر المحدد من قبل الدولة كل سبعة أرطال بدرهم<sup>(4)</sup>. فرجّم العامة للمحتسب وإهانته بُعداً تعبيراً عن سوء الحالة الاقتصادية لهؤلاء الناس نتيجة البطالة وسوء ظروفهم الاجتماعية المهنية وكساد التجارة والأزمات الاقتصادية الناتجة عن الأزمات السياسية والتي تؤدي للتوتر الاجتماعي إذ كان مطلبهم الوحيد الحصول على الغذاء اليومي بسعر رخيص مقابل حياة البذخ والترف لدى أمراء المماليك مع احتكارهم لقطاعات الزراعة والتحكم بأسعار القمح والذرة وجميع الحبوب، بالاضافة لعدم فيضان النيل المسبب لارتفاع الأسعار فعانى الفلاح من قلة المحصول مع الالتزام بدفع الضرائب والمكوس.

ومن الأسباب الأخرى لارتفاع الأسعار والغلاء الكوارث الطبيعية التي أثرت على الكثافة السكانية أيضاً في جنوب بلاد الشام زمن الأيوبيين والمماليك ما ذكره بنيامين التيطلي اليهودي

(1) المقرئزي: السلوك، ج1، ص909. وأبو المحاسن، م، س، ج8، ص57.

(2) ن، م، ن ص.

(3) المقرئزي: ن، م، ج2، ص622-623، وأبو المحاسن: ن، م، ج10، ص195.

(4) المقرئزي: ن، م، ج2، ص758.

الاسباني حدوث زلزال في سوريا ما بين عام 555-568هـ/1157-1170م. وقتل من أهل فلسطين حوالي عشرين ألفاً أثناء زيارته لفلسطين<sup>(1)</sup>.

وتعرضت عكا عام 659هـ/1260م الى زلزال هدم سبع جزر من البحر ودفن أهلها أحياء<sup>(2)</sup> كما دمر زلزال عنيف اللد والكرك<sup>(3)</sup> عام 692هـ/1292م وألحق بهما مع العديد من مدن بلاد الشام الأضرار<sup>(4)</sup> الكبيرة.

هذا بالإضافة للجفاف وانحباس المطر الذي أدى لموت أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية ونزوح الناس عن أوطانهم كما حدث عام 689/1290 عندما أجذبت الشام من الغور إلى عريش مصر فخلت الفان وثمانمائة قرية من القبائل<sup>(5)</sup> وأما السيول فكانت تقتلع الأشجار والطواحين وتجرف المزارع كما حدث عام 692/1292 لمدن غزة والكرك وغيرها عندما هدمها سيل كبير<sup>(6)</sup> ولم تقتصر بلاد الشام في العصر المملوكي على الزلازل والجفاف والجراد والسيول والغلاء بل أصابها وباء الطاعون منذ أواسط القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي الذي أدى لهلاك السكان كما حدث عام 748هـ/1347م. إذ تعرضت بلاد الشام "للفناء العظيم" عندما أباد أهل القدس و نابلس، وعكا، وصفد، والغور، والكرك، وعرب البوادي وسكان الجبال، فلم تتج من بلدة جنين سوى عجوز فرّت منها.

أما مدينتي اللد والرملة فهلكوا جميعاً وفقدت غزة اثنين وعشرين ألفاً<sup>(7)</sup>. وقد استمرت الأمراض الخبيثة في عموم بلاد الشام وخصوصاً دمشق وحلب وغزة وهلك خلق كثير. وفي

(1) زيارة نقولا، رواد الشرق العربي، ص86.

(2) ابن الوردي، "تتممة المختصر"، ج2، ص306.

(3) المقرئزي: السلوك، ج3، ص783، أبو المحاسن: م س، ج8، ص36.

(4) أبو الفداء: م س، ج4، ص50.

(5) المقرئزي: ن م، ج3، ق2، ص609.

(6) انظر الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص132، 134، النويري: نهاية الأرب، ج3، ص176، وابن طولون، رسائل تاريخية، ص26، وابن

قاضي شهبة: تاريخه، ج2، ص156، 157.

(7) المقرئزي: الخطوط، ج1، ص409-413، 450-451، 183-184، 201-207، والسلوك، ج2، ق3، ص774. حيث سماه الأوربيون الموت الأسود (Black Death). وفي المصادر العربية "الفناء العظيم". غوامه: "الطاعون والجفاف" ع13، 14،

ص74.

فالطاعون: مرض وبائي ينتقل عن طريق الفئران والجردان ويصيب الغدد اللمفاوية في الفخذ وتحت الأبط والأذن ومنها تنتقل الميكروبات للدم فينتفخ لمدة ثلاثة أيام، وتكون الأورام بحجم حبة العدس، فإذا تقيحت نجا المريض وان بقت صلبة هلك في اليوم الخامس وأحياناً يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء.

عام 774هـ/1473 استمر الطاعون في بلاد الشام ستة أشهر هلك خلالها أعداداً كبيرة<sup>(1)</sup> و كان البرد الشديد والعواصف والتلوج سبباً في هلاك البشر والحيوانات والنباتات<sup>(2)</sup>.

وهكذا يمكننا القول أن سبب قلة الكثافة السكانية في بلاد الشام وبالأخص جنوبها في العصر المملوكي ناتج عن عوامل بشرية وطبيعية خارجة عن إرادة وقوة الانسان بالإضافة الى حروب الفرنجة وغزوات المغول التي أهلكت البشر ودمرت المدن وأهلكت المحاصيل فأدى هذا التدني في الكثافة السكانية الى سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية. مما يقودنا الى القول: بأن ذلك أدى الى تراجع حضاري في بلاد الشام في العصر المملوكي.

### مشاركة الطبقة العامة في الثورات على حكم المماليك:

لقد كان بديهياً انضمام العاطلين عن العمل للثورات وكان تأييد الطبقة العامة للسلطان الجديد يتوقف على حالتهم الاقتصادية وشخصية السلطان فيتشائمون منه اذا ارتفعت الأسعار كما حدث عندما تولى العادل كتبغا<sup>(3)</sup> السلطنة<sup>(4)</sup> وانتشار الوباء وكثرة الموت<sup>(5)</sup> فاعتبروه طالع نحس<sup>(6)</sup>، وكانت هذه العوامل من أسباب الاطاحة بحكمه<sup>(7)</sup>.

وهذا يدل على عدم الاستقرار السياسي لسلطنة المماليك كما كان انخفاض الأسعار، وعموم الرخاء، وقلة الأمراض تفاؤلاً بالخير<sup>(8)</sup>، وذلك عندما تولى المنصور لاجين السلطنة<sup>(9)</sup>.

(1) ابن قاضي شهبه: م س ج3، ص468. وابن الوردی: م س، ج2، ص442. والمقريزي: السلوك، ج3، ص81-83.

(2) ن م، ج3، ص613، ج3. والمقريزي: السلوك، ج3، ص81-83. وابن الوردی: م س، ج2، ص442.

(3) ابن حجر: م س، القاهرة، 1966، ج3، ص262 فما بعد. وابن اياس: م س، القاهرة، 1893-1896، ج1، ص133 وابن تغري بردي: م س: ج8، ص7، 8، 42-43، 44، 45، 49-50، 55-57، 63-67.

(4) ابن تغري: ن م، ج8، ص55، 56، والمقريزي: ن م، ج1، ص806، ابن اياس: م س، ج1، ص133.

(5) وابن تغري: ن م، ج8، ص57، 71، المقريزي: ن م، ج1، ص807، ابن اياس: ن م، ج1، ص133.

(6) ابن تغري: ن م، ج8، ص57، المقريزي: ن م، ج1، ص807، ابن اياس: ن م، ج، ص133-134.

(7) المقريزي: ن م، ج1، ص809، 810، المقريزي: الخطط، ج2، ص239، ابن اياس: ن م، ج1، ص133-143، ابن تغري: ن م، ج8، ص57، 68.

(8) ابن اياس: ن م، ج1، ص36، المقريزي: السلوك، ج1، ص820.

(9) المقريزي: ن م، ج1، ص828، 829-830، 831، 832، 833-837، 848-849، 856-857. وابن اياس: ن م، ج1، ص136-

هذا وقد تمتع الشعب بالخير والرزق طيلة مدة حكمه لمدة سنتين وشهرين<sup>(1)</sup>.

كما اكتسب الناصر محمد بن قلاوون شعبية كبيرة بين مختلف طبقات المجتمع<sup>(2)</sup> وهذا ما لاحظناه عندما بعث اليه الأمراء في الكرك أن يحضر لتولي الحكم إذ هياً له "نائب الكرك ما يليق به، وسار به الى القاهرة، فخرج الأمراء والعساكر وجميع الناس الى لقائه في القاهرة يوم السبت الموافق رابع جماد الأولى 698هـ/1300م<sup>(3)</sup>.

وهذا يظهر بوضوح محبة الرعية بوجه عام للناصر محمد بل ولأسرة قلاوون جميعها لأنه كما يبدو كانوا رمزاً للاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي والطمأنينة الفكرية هذا على الرغم من حالة الضيق التي كان يعاني منها الناصر محمد من الأمير سيف الدين سار<sup>(4)</sup> وبيبرس الجاشنكير<sup>(5)</sup> لسلبهما سلطته السياسية والمالية<sup>(6)</sup> فقرر الخلاص منهما بالاستعانة بالأمير بكتمر الجوكندار الذي انضم للأميرين السابقين اللذين طوقا القلعة بعسكريهما مما دفع بالسلطان الناصر محمد الى اعتزال الحكم<sup>(7)</sup>.

ولكن العامة زحفوا نحو القلعة غضباً لما حدث لسلطانهم مطالبين بعودته للحكم فتم لهم ذلك<sup>(8)</sup>، فعين الأمير الجوكندار نائباً لصفد<sup>(9)</sup>.

وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية الدور الذي لعبته العامة في المشاركة بطبيعة الوضع السياسي في دولة المماليك للمرة الأولى حيث كانت العامة ترغب في تقوية مكانة الناصر محمد المحبوب لديهم ضد كبار الأمراء المماليك الأوليغاركية اصحاب السلطة الفعلية في الدولة

(1) الصفدي، نزهة المالك والملوك، القاهرة ورقة 39، 42، مخطوط، ابن تغري: م.س، ج8، ص85. والمقريزي: السلوك، ج1، ص825، المخطوط، ج2، ص239. وابن حجر: م.س، ج4، ص144.

(2) ابن حجر: ن.م، ج5، ص261-265. د. حياة حجي: م.س، ص18.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ص872، والمخطوط، ج2، ص239، ابن اياس، م.س، ج1، ص139، ابن تغري: ن.م، ج8، ص115-116. الظاهر: خليل بن شاهين مخطوط، تحقيق بول ريفر باريس 1894، ورقة 203.

(4) ابن حجر: الدرر، ج2، ص179-182، وابن تغري: ن.م، ج8، ص100، 105، 130، 160، 167، 170، 173، 175، 180، 235، 240، 248، 250، 257، 270.

(5) ابن حجر: ن.م، ج1، ص502-507.

(6) المقريزي: ن.م، ج1، ص879، وابن تغري: ن.م، ج8، ص170، ابن حجر: ن.م، ج1، ص505، ج3، ص263.

(7) المقريزي: ن.م، ج2، ص33-36، ابن تغري: ن.م، ج8، ص170-173.

(8) المقريزي: السلوك، ج2، ص35-36، ابن تغري: ن.م، ج8، ص171-174.

(9) المقريزي: ن.م، ج2، ص34، ابن تغري: ن.م، ج8، ص171-174.

والذين رضخوا لرغبات العامة بعد فشلهم في تهدئة ثورة العامة وإعادة الوضع الى حالته الطبيعية العادية باستخدام القوة.

وقد تأكد هذا التأييد والشعور بالمحبة الزائدة له سنة 709هـ/1309م "عندما شاع بين الناس سَيْرُ الملك الناصر من الكرك، فثارت العوام وضاحوا: "تصره الله" وركب الأجناد الى النائب فاستدعى من بقي من الأمراء والقضاة، ونادى: "معاشر اهل الشام مالكم سلطان إلا الملك المظفر"، فصرخ الناس بأسرهم: لا لا! مالنا سلطان إلا الملك الناصر"<sup>(1)</sup>.

وعندما ترك الناصر محمد الكرك متجهاً الى دمشق ماراً بالكسوة استقبل استقبالاً حافلاً من قبل الأمراء والأجناد وكافة العامة الذين توافدوا لاستقباله.

فكان هذا أروع صورة شجاعة للتعبير الشعبي في سلطنة المماليك رغم تهديد الأمراء بالعقاب مثل سلالر وبيبرس فاستقبلوه بحفاوة بالغة عندما عاد للقاهرة لتولي مقاليد الحكم، فخرج الأمير بيبرس منها نحو الصعيد تحت ضغط العامة ورموه بالحجارة<sup>(2)</sup>. تعبيراً عن كراهيتهم له على الرغم من نثره المال والذهب عليهم الذي كانوا بحاجة إليه لفقرهم، وكان ذلك سبباً في تقوية سلطنة الناصر محمد حتى أنه تمكن من عزل الخليفة العباسي وتولية آخر بدلاً منه<sup>(3)</sup>.

وهكذا استمر الناصر محمد في حكمه يتمتع بذلك التقدير الشعبي الكبير حيث كان الناس يتسابقون لرؤيته متمنين ذلك يوماً<sup>(4)</sup> لحبهم الكبير له ورؤيتهم لحكمه باستمرار الاستقرار السياسي والاجتماعي.

فكانوا يرسلون له رسائل سرية مجهولة الاسم لإخباره بما يعرفونه أو يسمعون عن المؤامرات التي كانت تحاك ضده في الخفاء للإطاحة به وكان الناصر محمد يصدق ذلك لمصلحته الخاصة كما اشتكى بعض العامة في هذه الرسائل من تقريبه لأهل الذمة واستخدامهم في الدواوين وتطاولهم على العامة.

<sup>(1)</sup> المقرئزي: السلوك، ج2، ص67، 70-71، ابن تغري: م.س، ج8، ص244، 270-271، ابن حجر: م.س، ج1، ص506، ابن اياس: م.س، ج1، ص151-152.

<sup>(2)</sup> المقرئزي: ن.م، ج2، ص71، ابن اياس: ن.م، ج1، ص153، وابن تغري: ن.م، ج8، ص271.

<sup>(3)</sup> Arnold Thomas W. The Caliphate, London, 1965. pp, 99-100.

<sup>(4)</sup> المقرئزي: ن.م، ج2، ص83، ابن اياس: ن.م، ج1، ص135، ابن تغري: ن.م، ج8، ص271.



وبعد وفاة الناصر محمد سنة 741هـ/1340م تولى الحكم من بعده ولده أبو بكر<sup>(1)</sup> باسم السلطان المنصور الذي خلع سنة 742هـ/1334<sup>(2)</sup> وتولى بعده الأشرف علاء الدين كجك<sup>(3)</sup> وعمره خمس سنوات وخلع بعد ستة أشهر<sup>(4)</sup>، وشهد عهده نفي أولاد الناصر محمد إلى قوص في الصعيد<sup>(5)</sup> والذين أعيدها للقاهرة بعد تولية أحمد بن الناصر<sup>(6)</sup> الذي اشترط على أمراء المماليك عودة إخوته من المنفى<sup>(7)</sup>، وهرعت العامة لاستقبالهم بحفاوة.

وهكذا نلاحظ أن أولاد محمد الناصر كانوا يحظون بشعبية كبيرة عند العامة فانتصروا لهم وعرضوا أنفسهم للخطر في سبيل مساندتهم والدفاع عنهم علماً بأن أحمد بن الناصر كان موجوداً في الكرك (الأردن) ليبشروا بقدومه للقاهرة فركب الهجن بصحبة عرب الصحراء الأردنية وخرج العامة للقاء السلطان<sup>(8)</sup> ابتهاجاً بقدومه كرمز للرخاء الاقتصادي الذي ينشدونه.

ولكن حلم العامة لم يكتمل حيث انتهى حكم الناصر أحمد في محرم سنة 743هـ/1342 حزيران / يونيو بتولي أخيه الصالح اسماعيل<sup>(9)</sup> سلطنة المماليك<sup>(10)</sup>، واستمرت سلطته ثلاث سنوات حتى سنة 746هـ/1345م وخلفه في الحكم الكامل<sup>11</sup> شعبان بن الناصر محمد حتى قتل في السجن سنة 747هـ/1346م وتولى بعده المظفر حاجي سادس أولاد الناصر محمد الذين تسلموا حكم المماليك<sup>(12)</sup>، والذي حكم سنة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً بعد قتله في رمضان 748هـ/1347م<sup>(13)</sup>. ونصب أمراء المماليك

(1) ابن حجر: م. س، ج1، ص494-496.

(2) ابن اياس: م. س، ج1، ص176-177.

(3) ن. م، ج3، ص351-352.

(4) ن. م، ج1، ص177-179.

(5) ن. م، ج1، ص177.

(6) ن. م، ج1، ص314-316.

(7) ابن تغري: م. س، ج15، ص21، 50، 55.

(8) ابن حجر، ن. م، ج5، ص257-258، ج2، ص203.

(9) ابن حجر: ن. م، ج2، ص289.

(10) ابن تغري: ن. م، ج10، ص78، ص289.

(11) ابن حجر: ن. م، ج2، ص289.

(12) ن. م، ج2، ص83-85.

(13) ابن اياس ن. م، ج1، ص186-189. وابن تغري بردي: ن. م، ج10، ص145، 172-174.

بعده الناصر حسن<sup>(1)</sup> عام 748هـ/1347م فحكم ثلاث سنوات وتسعة أشهر لعزله بواسطة بعض الأمراء المماليك الأوليجاركية سنة 752هـ/1251م<sup>(2)</sup> وتولى بعده السلطان صلاح الدين صالح بن الناصر محمد سنة 752هـ/1351م والذي أحبه الشعب مثل والده وذلك لعدله ومساواته كوالده السلطان الناصر محمد.

وهكذا نرى بأن أولاد الناصر محمد كسبوا حب الشعب وتأييده<sup>(3)</sup> وأنهم لم يستقروا في الحكم مدة طويلة لتسلط أمراء المماليك الذي تحكموا بهم وكادوا يسلبوهم هذه السلطة لولا محبة العامة لهم التي أدت لاستمراريتهم في الحكم<sup>(4)</sup> لمدة تزيد على القرن (678-883هـ/1380-1484م) لأن أفراد هذه الأسرة كانوا رمزاً للأمان والطمأنينة والاستقرار مما أجبر أمراء المماليك الأوليجاركية على الحرص ببقاء أبناء هذه الأسرة في سدة الحكم على الرغم من أن حكام النصف الأخير من هذه الفترة، كانوا أطفالاً لا سلطة لهم، في حين تمتع كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية بسلطات واسعة، حيث كان سلاطين أسرة قلاوون مجرد واجهة رسمية لاقناع الشعب باستمرار وجود هذه الأسرة على كرسي الحكم، ولكن ذلك التغيير المستمر لهؤلاء الأطفال وتنازع كبار الأمراء على السلطة، سببت القلق وعدم الاستقرار في المجتمع فقاموا بثورات من أجل هؤلاء وتجلي ذلك عام 775هـ/1374م حزيران- يونيه ضد الأمير الجاي اليوسفي مدبر أمور الدولة عندما حاول أخذ السلطة من السلطان الأشرف شعبان والذي أدى لغرقه في النيل<sup>(5)</sup>، فكان هذه تأكيداً لقوة الرابطة بين السلطان والأشرف ورعاياه من العامة الذين ضحوا بحياتهم في سبيل حمايته، فشكّلوا جيشاً غير رسمي والذي كان دائماً على أهبة الاستعداد لمساندة أسرة قلاوون.

(1) ابن حجر: م س، ج2، ص124-126، وابن تغري، م س، ج10، ص173، 174 - 187. وابن اياس: م س، ج1، ص190

(2) ابن اياس: ن م، ج1، ص194، ابن تغري، ن م، ج15، ص230-233.

(3) ابن اياس: ن م، ن ص، ابن تغري: ن م، ج5، ص254.

(4) المقرئزي: السوك، ج2، ص876، ابن اياس: ن م، ج1، ص197.

(5) المقرئزي: ن م، ج3، ص214، 215، ابن اياس، ن م، ج1، ص228، ابن تغري: النجوم، ج11، ص60-62.

واستطاع السلطان الأشرف استغلال حب الشعب له بالقضاء على ممالك الأوليجاركية<sup>(1)</sup>.

بمساعدة العامة.

كما نلاحظ أن معظم أبناء اسرة قلاوون كانوا يقيمون في الكرك عندما يستدعيهم أمراء الممالك مما يدل على أنهم كانوا يفضلون البقاء بعيداً عن صراع الممالك الأوليجاركية وأن العامة كانوا يشكلون وفداً للكرك لاحضار السلطان كالناصر أحمد. وأضقى الأمير ايدغمش طابع الرسمية على هذا الوفد<sup>(2)</sup>. وبعد قراءة روايات المقريري عن العامة<sup>(3)</sup> وعلاقتهم بالسلطان نرى بان العامة كانوا على اطلاع بما يدور في البلاط السلطاني، إذ كانوا يظهرون مشاعرهم تأييداً للسلطان ضد أمرائه من الممالك، فكانت شجاعتهم العفوية من أهم ملامح فعاليتهم في المجتمع حيث تحالف معهم سلاطين الممالك للإطاحة بفئة من الأمراء أصحاب السلطة المطلقة كما ذكر المقريري في مناصرة العامة للسلطان الناصر محمد وأسرته والتفافهم حولهم<sup>(4)</sup>. مما عرضهم للعقاب الشديد من قبل الأمراء الأوليجاركية. كما كانت الكرك منفي الأمراء المغضوب عليهم كالأمير قطلوبغا الفخري وطشتمر حمص اللذان سُجنا بقلعة الكرك بعد اهانة العامة للفخري عام 742هـ/1341م. كما نهب أهل الكرك حريم قطلوبغا الفخري وبالغو في الفحش والاساءة لهم<sup>(5)</sup>. و لوحظ تكاتف العامة وعسكر السلطة في رد العدوان الأجنبي الصليبي على الاسكندرية<sup>(6)</sup>.

كما لوحظ في الدولة المملوكية ظهور أحزاب جديدة ذات قدرة سياسية وعسكرية كطائفة الأجلاب التي بدأت تمارس كثيراً من الصلاحيات في شؤون السلطنة ودواوين الأمراء حتى بلغ بهم الأمر تهديد الأمراء والتفكير بالانقلاب عليهم، وقد تأمر الأمير استنصر الناصري ضد السلطان الأشرف شعبان لوقوفه ضد مطالبهم وأطماعهم الشخصية. فهزمهم الأشرف شعبان لوقوف العامة معه.

وهذا يظهر أيضاً التدرج في السلك الوظيفي المملوكي في البلاط السلطاني.

(1) المقريري: السلوك ج3، ص215، وابن تغري: م س، ج11، ص61-62.

(2) المقريري: ن م، ج2، ص595، وابن تغري بردي، ن م، ج10، ص52.

(3) ابن اياس: م س، ج1، ص178، ابن تغري: ن م، ج5، ص24-28.

(4) المقريري: ن م، ج2، ص575، 576، 577، ابن اياس: ن م، ج1، ص178. ابن تغري: ن م، ج10، ص24-29.

(5) المقريري: ن م، ج2، ص160، ابن تغري: ن م، ج1، ص68، ابن اياس، ن م، ص180، ابن حجر: م س، ج1، ص421-422.

(6) المقريري: ن م، ج3، ص104. وابن تغري: ن م، ج1، ص262. وابن اياس: ن م، ط1، ص195.

وكما حدث سنة 782هـ/1380م عندما وقعت الفتنة بين الأمير برقوق والأمير بركه<sup>(1)</sup> في عهد السلطان علاء الدين علي بن الأشرف شعبان بن الناصر محمد بقتال فئتين من العامة. وهكذا استطاع بعض الأمراء استغلال بساطة العامة وتفانيهم في الاخلاص من أجل تحقيق أغراضهم الخاصة وطموحاتهم الشخصية والسياسية بدون أجر على أن هؤلاء لم يكن يتذكرون العامة إلا وقت الأزمات والمحن وكأن شؤونهم وقضاياهم ليست جزءاً من مسؤوليات حكومة سلطنة المماليك مُستغلين نقاط الضعف عند العامة وهي الرغبة في السلب والنهب حيث يسمحون لهم بذلك أثناء الأزمات فهذا التهاون من بعض الأمراء كان لأجل استتباب الأمن والاستقرار في المجتمع المملوكي بالرغم من معاناة الكبار والصغار من عبث العامة في أملاكهم وكأن السلطة الرسمية تبيح ذلك في سبيل تحقيق منافعهم الشخصية، فلا بأس اذن من تسليط العامة. كما كَوّن بعض كبار الأمراء فرقاً عسكرية كبيرة خاصة بهم لحمايتهم وقت المحن ومهاجمة أعدائهم عند الضرورة أثناء الصراعات الشخصية الحزبية بين أصحاب السلطة من كبار أمراء المماليك الأوليغاركية مما سهل استباحة الدماء وسرقة البيوت وهدم دور الأمراء والتطاول على نساء الأمراء مثيري الفتن ومديري المؤامرات لذا كان هؤلاء الأمراء يحرصون على تأمين نسائهم عند من يتقون بهم من الأتباع وقت الأزمات وهذا الشيء لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال مهما كانت اسبابه.

كما برزت ظاهرة الحروب الإقطاعية في عهد أحفاد الناصر محمد بسبب الصراع على السيادة والسلطة بين الأمراء خاصة في ظل حكم سلطان صغير السن مسلوب الإرادة، ليس له من الحكم إلا الاسم، لذا حرص الأمير المنتصر على مكافأة العامة بعد النصر بتلبية مطالبهم في تعيين من يريدون من الولاة لمدينة القاهرة ووظيفة المحتسب وقد أظهر العامة استيائهم تجاه المواقف غير المسؤولة واللائقة في مواقف أجهزة الدولة الإدارية ومرافقها التعليمية والتوجيهية كما حدث في ذي القعدة سنة 778هـ/ آذار مارس 1377م عندما رفضوا وسخروا من تعيين

(1) المقرئ: السوك، ج3، ص381-283. وابن اياس : م س، ج1، ص245-248. وابن تغري: م س، ج1، ص174-178.

جمال الدين محمود القصيري العجمي الذي كان من من فقراء العجم يجلس لبيع الثمر وكان بدون منزل يأوى اليه<sup>(1)</sup>.

كما أن ما ذكر لا يعني أن العامة لعبوا على الدوام دور المشارك في كل ما يقع من حوادث وفتن ومؤامرات، فكان موقفهم أحياناً المشاهدة والتفرج كما حدث سنة 693هـ/1295م مع بداية سلطنة الناصر محمد عندما عاقب علناً بالقتل وتقطيع الأيدي لمدبري الفتنة والمؤامرة من كبار الأمراء التسعة أمام الناس<sup>(2)</sup>. هذا بالإضافة الى عدم معرفة عامة الشعب في مصر والشام أحياناً بما يجري من حوادث سياسية إذ كانوا يفاجئون بها ولا يملكون سوى تقبلها كما حدث عام 696هـ/1298م عندما خلع العادل كتبغا عن كرسي السلطنة<sup>(3)</sup> وتولية المنصور لاجين مقاليد الحكم.

وقد وقف العامة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون ضد الأمير تنكر الحسامي نائب الشام فدأبوا على مناصرة السلطان وتأييده المطلق ضد المؤامرات والفتن هتافاً وصياحاً والسعي إلى حمايته بحمل السلاح فاعتبر السلطان الناصر محمد محظوظاً في التمتع بهذه الشعبية الواسعة بين طوائف العامة، فاستفاد من هذه الركيزة البشرية في سبيل تحقيق الكثير من المكاسب في حقل السياسة والحكم، مما جعل الأمراء الأوليغاركيه ينكرون بأولاده انتقاماً من سياسته بعد وفاته عام 741هـ/1340م حيث بدأوا بخلع السلطان المنصور أبي بكر بن الناصر محمد ونفيه مع جميع أخوته الى قوص في الصعيد.

فكانت هذه الواقعة بداية تسلط كبار الأمراء الأوليغاركيه مما أدى لتفاقم حدة النزاع بين الأمراء في سبيل الاستئثار بالسلطة، حيث اقتصر دور أولاد الناصر محمد كواجهة شرعية للحكم دون معرفتهم بشؤون الدولة الداخلية والخارجية، بعد أن كانت كلمة والدهم الناصر محمد العليا في الدولة إذ لم يجرؤ أحد من الأمراء على مناقشته في أي قضية فكان السلطان في هذه الحقبة يقوم بوظائف البروتوكول الرسمي من استقبالات رسمية يومياً في البلاط السلطاني لأنه

(1) ابن حجر: م س، ج5، ص105-106. والمقريري: السلوك، ج3، ص292.

(2) المقريري: ن م، ص795-796. وابن اياس: م س، ج1، ص127. وابن تغري: م س، ج8، ص19.

(3) المقريري: ن م، ج1، ص528. وابن اياس: ن م، ج1، ص135. وابن تغري: ن م، ج8، ص65-66.

لا يملك من السلطة سوى لقب سلطان فيظل هكذا محجوراً عليه حتى يعزل أو يقتل أو يموت فجأة. فيؤلى طفل غيره من أبناء أسرة قلاوون.

وبالنسبة لموقف العامة هنا كان الشعور بالألم والحزن حين يكونوا عاجزين عن الوقوف في وجه هؤلاء الأمراء المتسلطين، حيث كان سلاحهم الحجارة مقابل جيش مسلح وربما يرحج السبب الى عدم وجود شخصية قوية يمكن الركود اليها والالتفاف حولها عندما يكون السلاطين أطفالاً لا حول لهم ولا قوة.

### وبالنسبة لدور بدو الشام في الاضطرابات العامة:

فقد وقعت بينهم حروب كثيرة عام 750هـ/1348م، في سائر انحاء سلطنة المماليك، فكثرت فسادهم ببلاد القدس ونابلس<sup>(1)</sup>، وفسدت الطرق على المسافرين مما أدى لفساد أحوال الناس<sup>(2)</sup>. فأرسل السلطان العساكر لمقاتلة العربان ولكنها هُزمت ونهبوا العسكر مما زاد في قوة العشائر البدوية فاتجهوا نحو غور الأردن واحتلوا القصير المعيني ونهبوه وذبحوا الأطفال، وقطعوا الطرق بين الشام ومصر واتجهوا نحو القدس والخليل فهرب الناس من المدن، واتجهوا نحو اللد والرملة ونهبوها. فولى السلطان سيف الدين دلتجي نيابة غزة وعُهد اليه بإخماد ثورة العربان في جنوب بلاد الشام<sup>(3)</sup>، ولقيهم بالقرب من اللد، واستخدم الحيلة معهم، بمراسلة مشايخهم بالقدوم فحضر أكثر من المائتين فألقى القبض عليهم وعاد الى غزة وقد تفرق جمعهم<sup>(4)</sup>.

ومن هذا يتضح لنا خطورة التهديد الكبير لثورات البدو للاستقرار السياسي في سلطنة المماليك من تعريض التجار والحجاج لاعتداءات قطاع الطرق بين مصر والشام المعبر الرئيسي لحجاج البيت الحرام والقدس، فحرصت الحكومة على تعيين كبار الأمراء في مناطق

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص804

(2) ن.م، ن ص.

(3) ابن حجر، الدرر، ج2، ص192.

(4) المقرئزي: ن م، ج2، ص804-805.

الحدود كغزة وحلب للدفاع عنها، فكانت أغلب الحملات العسكرية ضد هؤلاء البدو تنتهي بتأديبهم وكانت العامة تبتهج لانتصار الجيش على البدو باقامة الاحتفالات.

كما يتضح لنا من تمرد الأتابك (الأمير يلغا ضد السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر عام 768هـ/1366م<sup>(1)</sup> وتعيين أخوه سلطاناً<sup>(2)</sup> خطورة منصب الأتابكية حيث تمتع الأتابك بسلطات مطلقة في الدولة والبلاط السلطاني فكان الحاكم الفعلي لسلطنة المماليك خلال هذا العهد عندما يكون السلطان صورة فقط مما أثار الاضطراب والفوضى في البلاد<sup>(3)</sup>، وكان الناس متفرجين على القتال بين اليلغاوية وعسكر السلطنة ثم انضمت العامة لجانب الأشرف شعبان وهزمت خصومه ونهبت منازلهم واسطبلاتهم فصدرت الأوامر السلطانية بمنع ذلك. وعندما حاول الأشرف الامساك بزمام السلطة تكتل الأمراء ضده وأطاحوا بحكمه عام 778هـ/1377م وولوا ابنه الملك العادل علي وعينوا نائبه الأمير أقتمر الحنبلي<sup>(4)</sup>. ولكن السلطان الأشرف شعبان تمكن من الهرب مما أوقع الخلاف بين أمراء المماليك بين مؤيد ومعارض، والقي القبض عليه وأعدم.

وهكذا نلاحظ مدى ارتباط الاستقرار السياسي وازدهار النشاط الاقتصادي، فحين يقع الاضطراب السياسي تضعف حركة التجارة وترتفع الأسعار وتخففي الأقوات من الأسواق، فيجتمع عامة الناس تحت أسوار القلعة مطالبين الحكام باصلاح الوضع الاقتصادي.

وكان التوتر في كلا المجالين السياسي والاقتصادي يحدث بليلة بين الناس فيتركز اهتمام الناس على متابعة التطورات السياسية أو التقلبات الاقتصادية لرغبتهم في الاستقرار الاجتماعي. ومن الملاحظات الاقتصادية تشدد السلطات في وقت الأزمات والمحن في جمع الضرائب من جميع الرعية دون تمييز بين الطبقات لدعم الجهاز العسكري كما يُظهرُ هذا النظام إهمال دولة المماليك في بعض الأحيان للاستعدادات العسكرية وتأمين جهاز حربي مُهيَّء دائماً للقيام بواجب الدفاع عن الدولة كما اجتهدت الدولة وقت الأزمات في توزيع المال على الزُّعُر وحملة

(1) ابن حجر: م س، ج5، ص213-215.

(2) ن.م، ج1، ص447.

(3) المقرئ: السوك، ج3، ص130-135. وابن اياس: م س، ج1، ص217-219. وابن تغري: م س، ج11، ص35-40.

(4) المقرئ: ن م، ج3، ص277-278. وابن اياس: ن م، ج1، ص232. وابن تغري: ن م، ج11، ص73.

السلاح من العامة ليقاثلوا بجانب السلطان وحزبه من المماليك السلطانية وبعض كبار الأمراء، فكان ذلك بمثابة طلب رسمي الى العامة كافة وكل من يقدر على حمل السلاح، لمساندة السلطان والحرب لجانبه مما يبين حاجته الى هذه المساندة الشعبية والتأييد العام، وكان لهذه السياسة انعكاسات خطيرة على الناس لسوء استخدام هؤلاء الزعر للسلاح للسلب والنهب فأرعبوا الناس مستغلين انشغال الدولة بمواجهة الاضرابات العسكرية. مما يؤكد فقد السيطرة على هذه الطوائف من حرافيش العامة في أوقات المحن والأزمات.

وعندما فاض النيل عام 776هـ/1375م عمّ النفع مع بقاء ارتفاع الأسعار مما يوضح طمع التجار وجشعهم في جني الأرباح الكثيرة ولّبت الحكومة طلب الشعب بعزل محتسب القاهرة وتعيين آخر محله كما ذكر المقرئ في حوادث عام 776هـ/1375م.

كما نتج عن نقص الغذاء انتشار الأوبئة والأمراض كما حدث عام 776هـ/1375م إذ ازداد عدد الموتى من الفقراء والمساكين جوعاً فيقول المقرئ كنت اسمع: الصغير يصرخ بأعلى صوته: "لله لبابة قدر شحمة أذني، أشمها وخذوها، فلا يزال كذلك حتى يموت"<sup>(1)</sup>.

وكانت ردة فعل السلطان على هذه الظاهرة بإظهار عطفه الانساني إذ يأمر بتوزيعهم على الأمراء المماليك والأغنياء والتجار، ليطعم كل منهم عدداً من الفقراء حتى نهاية الأزمة كما أمر السلطان بمنع الشحادة التي انتشرت بين طوائف الحرافيش والأوباش والبطالين في طرقات المدن، وإلزام الأغنياء بإطعام الشحاذين كما يذكر المقرئ في شهري رجب وشعبان 776هـ/1375م كانون الثاني يناير شباط - فبراير<sup>(2)</sup> كما كان يأمر بطلب ارسال الغلات الفائضة من الأقاليم الأخرى في الشام لتخفيف المحن<sup>(3)</sup>.

وقد اعتبر البعض عدم نزول المطر عقاباً من الله للناس على خطاياهم مما أدى لازدحام المساجد بالمصلين والمبتهلين تضرعاً وإعلاناً للتوبة وهذا يبين أثر الوازع الديني لدى عامة الناس بالإقبال على التصوف.

(1) المقرئ: السلوك، ج3، ص233-234. وأبو المحاسن: م س، ج11، ص66.

(2) المقرئ: ن م، ج3، ص235-237. وابن حجر: م س، ج5، ص130-131. وأبو المحاسن: ن م، ج11، ص66.

(3) المقرئ: ن م، ج2، ص395، كما حدث عام 782هـ/1380م. وأبو المحاسن: ن م، ج11، ص266.



وكان السلطان يلجأ أحياناً لعزل المحتسب تلبية لطلب العامة كالعجمي عدة مرات لقوة شخصيته. كما حدث سنة 783هـ/1381م<sup>(1)</sup>.

كما كان من صور عطف السلاطين على العامة توزيع الصدقات عليهم طمعاً في الأجر والثواب وشفاء مريض عزيز عليهم أو شفاء السلطان نفسه أو احتفالاً ببناء قصرة كما ذكر المقرئ في حوادث عام 746هـ/1345م<sup>(2)</sup> وحوادث عام 717هـ/1317م<sup>(3)</sup>. وحوادث عام 723هـ/1323م<sup>(4)</sup> وحوادث عام 747هـ/1346م<sup>(5)</sup>، كما كانوا يوزعون الأموال والصدقات والزكاة في مواسم الحج على فقراء البيت الحرام وإلغاء الضرائب والمكوس في تلك البلاد والخلع على حكامها وتوزيع الإقطاعات الواسعة الخصبة في مصر والشام لكسب الولاء السياسي لهم كما ذكر المقرئ في حجة السلطان الناصر محمد عام 719هـ/1319م<sup>(6)</sup>.

وبالنسبة لوسائل الترفيه عند العامة فاقتصر على مشاهدة الاستعراضات العسكرية الرسمية بالإضافة لمشاركتهم في المناسبات الدينية كالأعياد مثلاً حيث كان الميدان الكبير هو مقر الاحتفالات إذ يصطف العامة على جانبي الشوارع الرئيسية أثناء مرور الأمراء من القلعة، إلى المدرسة المنصورية<sup>(7)</sup> وكان هذا الميدان بالنسبة للعامة المنبر الحر الذي يتيح لهم المطالبة بحرياتهم والتخلص من بعض الأوضاع الشاذة التي يعيشونها الأمر الذي كان يعرضهم لسخط الأمراء وعقابهم الشديد بعد ذلك.

(1) المقرئ: ن م، ج3، ص457. وابن اياس: ن م، ج1، ص254. وابن تغري: ن م، ج10، ص94.

(2) المقرئ: السلوك، ج2، ص676-677. وابن اياس: م س، ج1، ص182. وأبو المحاسن: م س، ج15، ص94.

(3) المقرئ: ن م، ج2، ص171. وابن حجر: م س، ص406.

(4) المقرئ: ن م، ج2، ص61، 93، 103، 165، 243-244، 211-241. وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص76.

(5) المقرئ: ن م، ج2، ص702، والخطط، ج2، ص165. وأبو المحاسن: ن م، ج10، ص127. وابن حجر: ن م، ج1، ص375.

(6) المقرئ: ن م، ج2. وابن تغري: ن م، ص702، الخطط، ج2، ص165، ابوب المحاسن: ن م، ج15، ص127، وابن حجر: الدرر،

ج1، ص375.

(7) المقرئ: ن م، ج1، ص928. وأبو المحاسن: ن م، ج8، ص154-156.

## الظلم الاجتماعي بالنسبة لسكان القرية أيام المماليك:

لقد تمثل هذا في معاناة فلاحي بلاد الشام من تعسف أمراء الإقطاع والأجناد<sup>(1)</sup> حيث كان يلزم بالبقاء في الأرض مدة ثلاث سنوات متتالية، وإن ترك يُعَادُ قهراً إلى الأرض ليفلحها<sup>(2)</sup>، وسبب هذا الظلم الاجتماعي هجرة أعداد كبيرة من الفلاحين إلى المدن الكبيرة، فلم يجدوا العمل المناسب، وشكلوا طبقة فقيرة لُقِّبَتْ باسم الحرافيش والأوباش كالخدم، ورجال الاسطبلات، وعمال المطابخ، واللصوص، والمجرمين<sup>(3)</sup>. وكان من موظفي القرية خطيب وفقه معين من نائب السلطنة ليُعلم أبناءهم القرآن والكتابة<sup>(4)</sup> بالإضافة إلى حارس القرية<sup>(5)</sup> والطوفين حراس البساتين والمساكن الواقعة خارج القرية<sup>(6)</sup>.

ومن صور الاضطهاد الاجتماعي في عصر المماليك لأهل الذمة من العامة منعهم من ممارسة ألعابهم المعتادة في أعيادهم الدينية كعيد النوروز كما حدث سنة 782هـ/1380م<sup>(7)</sup>، كما ساءت أحوال العامة في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي إذ زاد تعسف الطبقة الحاكمة بحرمانهم مثلاً من ركوب الخيل العربية الأصيلة، ومنعهم من تحميل أمتعتهم على ظهور الأكاديش كما أشار لذلك المقرئ في حوادث سنة 791هـ/1389م.

ويلاحظ معاناة العامة من الجوع والألم والعري لحساب المتعة السلطانية ومتطلبات رفايته حيث كان يتم اقتطاع جزء كبير من أرزاق الناس لتوفير الحاجات اللازمة لسفر السلطان إلى الحج وكان يشمل ذلك مصر وبلاد الشام من الفرات إلى غزة، حيث أمر الأمير

(1) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، ص 26، 52.

(2) وقد أُرْمِ دِيوان الجيش في عصر المماليك الفلاحين بذلك: انظر: السبكي: ن م، ص 54 حيث كان اقتطاع الأمير يزأوح ما بين قرية إلى عشر قرى موزعة في مناطق مختلفة المملوك السلطاني: فتزأوح اقتطاعه بين قرية ونصف قرية واقطاع جندي الحلقة: جزءاً من زمام قرية وأصبح الاقطاع لأسباب أمنية منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حيث أعطي الآن أجزاء أو حصصاً من قرى مختلفة ومتباعدة. انظر: مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، 1920م، ج 1، ص 139-144.

Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London, 1939, p. 19.

(3) Lapidus, op. cit, p. 196.

(4) السبكي: ن م، ص 22.

(5) السبكي: ن م، ص 145.

(6) السبكي: ن م، ص 146.

(7) المقرئ: السلوك، ج 3، ص 673، والخطط، ج 1، ص 269. والقلقشندي: م س، ج 2، ص 419.

طقتمر الصلاحي بأن لا يصرف لأحد في بلاد الشام من الفرات الى غزة رواتبهم وأرزاقهم، وأن يحصل منهم ومن الأوقاف ألف ألف درهم لتسهيل سفر السلطان للحجاز من جمال ومال، مما أدى الى وقف رواتب الفقراء مما أثار حقد العامة وكثر دعاؤهم على من قطع أرزاقهم<sup>(1)</sup>. فاختلت موازين الأوضاع الاجتماعية مما أدى لظهور عوامل التوتر والفوضى فزاد الوضع سوءاً بضياح حقوق الكثيرين كما حدث سنة 747هـ/1346م عندما عم الإعتداء على النساء وفساد الجواري وكثرة الفتن فقال "خلوا كل واحد يعمل ما يريد"<sup>(2)</sup>.

فزادت الفوارق الاجتماعية والفساد الاقتصادي من سيطرة الأمراء الأوليغاركية كما مر معنا على زمام السلطة وتحكموا في رقاب الشعب المسحوق سياسياً سعيّاً وراء تحقيق المنافع الخاصة على أكتاف السلاطين ضعيفي الشخصية مما أدى الى الانحلال الاجتماعي، حيث كثر الفساد عامة في بلاد الشام ومصر من قطع الطريق، والنفاق، وولاية الوزير منجك جميع أعمال المملكة المالية، وانفراده وأخيه الأمير ببيغاروس النائب بتدبير الحكم<sup>(3)</sup> كما لاحظنا من دراسة تاريخ الممالك صوراً أخرى للظلم الاجتماعي الوظيفي كوضع الرجل غير المناسب في المناصب الحساسة كالجهلاء للإشراف على وظائف الأوقاف مما أتاح العبث والفساد فعطل هذا الحقل من أداء خدماته الإنسانية على أكمل وجه للصالح العام<sup>(4)</sup> لتلاعبهم بالحسابات وتعطيل المساعدات الصغيرة لسد رمق العيش كما حدث سنة 752هـ/1351م<sup>(5)</sup> وذلك عندما تم تعيين ابن الأطروش الجاهل على الأوقاف وعزله نستغرب إعادة تعيين هذا الجاهل مرة أخرى محتسباً للقاهرة مما عرضه لسخرية العامة<sup>(6)</sup> وتفسيرنا لهذا هو بيع الوظائف الإدارية الرئيسية

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص697، وابن حجر: م س، ج2، ص325، وابن اياس: م س، ج1، ص184، وأبو المحاسن، م س، ج10، ص124.

(2) المقرئزي: ن.م، ج2، ص703، ابن اياس: ن.م، ج1، ص184، وأبو المحاسن: ن.م، ج10، ص128-130.

(3) المقرئزي: ن.م، ج2، ص772، وابن اياس: ن.م، ج1، ص222.

(4) Lapidus, op.cit., p.4.

(5) المقرئزي: ن.م، ج2، ص835-836، وابن اياس: ن.م، ج1، ص184، ابن حجر: ن.م، ج2، ص44.

(6) المقرئزي: ن.م، ج2، ص836، 876، و ج3، ص58، 59. والخبط، ج2، ص98-99. وابن حجر: ن.م، ج3، ص328. وص

361. وابن اياس: ن.م، ج1، ص209.

لمن يدفع أكثر بغض النظر عن كفاءته وصفاته الشخصية فأدى ذلك لظهور الإهمال تارة والفساد تارة أخرى، وأدى أيضاً لتخلخل الجهاز الإداري لعدم توفر الكفاءات المناسبة.

وكان من صور الظلم الاجتماعي أيام حكم المماليك أيضاً عدم الاستماع لشكوى الفقراء للوزراء وطردهم وتمزيق طلباتهم<sup>(1)</sup>. كما كان محرماً على العامة التحدث في الشؤون السياسية في مصر والشام أو اعتلاء أي سلطة سياسية، أو إدارية بحجج واهية وهي حرص الحكام على الاستقرار الاجتماعي ونشر السلام والأمن بحجة أن العامة يطلقون الشائعات الكاذبة حول طبيعة الوضع الداخلي كقرب نشوب حرب، أو احتمال حدوث فتنة فيقومون بقتلهم. علماً بأن هذه اسباب واهية لا يتقبلها العقل أو المنطق، كما حدث سنة 778هـ/1376م عندما قتل الأمير حسين بن الكواراني والي القاهرة جماعة لإرهاب العامة عندما أشاعوا عن الحرب<sup>(2)</sup>، كما كانوا يتعرضون لهجوم فجائي من رجال السلطة نتيجة لغضب الحكام وينالون الوان العذاب حتى الموت كما حدث سنة 780هـ/1378م من الأمير برقوق<sup>(3)</sup>.

ومن صور الظلم الاجتماعي الأخرى السخرة إذ عانى العامة في مختلف فترات العصر المملوكي من أعمال السخرة، بدون أجر في أعمال البناء والاصلاحات عن طريق القوة والإجبار من قبل ولاة الأمراء وذلك أيام الاستقرار السياسي في أواخر حكم الناصر محمد بن قلاوون حين عم الخير والرخاء ونشطت الأعمال العمرانية والبناء كما حدث عام 713هـ/1313م<sup>(4)</sup>، وعام 716هـ/1316م<sup>(5)</sup> وعام 723هـ/1323م<sup>(6)</sup>، وعام

(1) المقرئ: السلوك، ج3، ص148.

(2) المقرئ: ن.م، ج3، ص307، والخط، ج2، ص188، وابن اياس، ن.م، ج1، ص164. وابن حجر، ن.م، ج2، ص152.

(3) المقرئ: ن.م، ج3، ص347، وابن اياس: ن.م، ج1، ص244-245، وأبو المحاسن، م.س، ج11، ص165-166.

(4) المقرئ: ن.م، ج2، ص131، 137-138، وابن اياس: ن.م، ج1، ص164، 165، 168، 175. وأبو المحاسن: ن.م، ج9،

ص39-40، 192. وابن حجر: ن.م، ج1، ص416-417، 454، 455، 458، ج2، ص22-23، 29، 76-77.

(5) المقرئ: ن.م، ج2، ص165، وأبو المحاسن، ن.م، ج4، ص82، 124-128.

(6) المقرئ: الخط، ج2، ص166-167، 130، 131.

738هـ/1337م<sup>(1)</sup>، وعام 740هـ/1339م<sup>(2)</sup>، وكانت أعمال السخرة تتم بدون أجر أو مقابل

دراهم قليلة للفقراء، أو بالاستعانة بما يملكه الفلاحون من أبقار وأدوات البناء والزراعة.

وقد خدمت أعمال السخرة التعسفية بعض المصالح العامة لحماية الأراضي من فيضان النيل وزيادة كمية الانتاج الزراعي وبناء السدود والجسور وبناء الزرائب لحفظ الماشية فازدهرت الزراعة على اشلاء فقراء العامة بعيداً عن العدالة والمساواة كما تعتبر السخرة مظهر اجتماعياً سيئ السمعة للمماليك.

إن هذا الاسلوب مرفوض أخلاقياً على الرغم من العديد من الانجازات العظيمة في العصر المملوكي التي تمت بواسطة السخرة كتشييد العمائر الكبيرة والسدود والقناطر والجسور الضرورية كالمرافق المائية لأجل الري والإنشاءات الزراعية، بالإضافة الى بناء المدارس والمساجد والخوانق كمنشآت خيرية خاصة في عهد الناصر محمد، ويظهر أن بعض الولاة تمادوا في تطبيق الأوامر السلطانية الى درجة نشرت الرعب بين الناس بدلاً من مشاعر الاستقرار الاجتماعي والطمأنينة النفسية<sup>(3)</sup>. ومن أمثلة السخرة في الكرك في عام 745هـ/1344م قرر نائب الكرك الأمير ملكتمر السرجواني إعادة بناء ما تهدم من قلعة الكرك وخاصة برجها، فأحضر معه من القاهرة مائة من ممالك قوصون<sup>(4)</sup> وبتشاك<sup>(5)</sup> الذي أسكنهم الناصر محمد في قلعة القاهرة وأخرج منهم مئتان الى دمشق وحمص وحماة وطرابلس وحلب وصنف في فلسطين، وعائلاتهم تتوح وتبكي عليهم وسخروا لهم خيول الطواحين<sup>(6)</sup>.

ومما يلاحظ من قراءة الأحداث التي أوردها المقرئزي سنة 729هـ/1328م من صور التسلط والتعسف المملوكي ضد العامة عندما وصلت معاملتهم كالذميين مما يدل على انحدار

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص433-434، 447، 450-451. وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص120-127، ج2، ص7، ج3، ص277. وابن حجر: ن م، ج1، ص437، 418-419، ج5، ص129.

(2) المقرئزي: السلوك، ج2، ص472، والخطط، ج2، ص383-386. وابن حجر: ن م، ج2، ص10-12، ج3، ص342-344، ج5، ص129. وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص114، 191-192، 143-144، ج10، ص93.

(3) المقرئزي: ن م، ج2، ص300-301. وابن اياس: ن م، ج1، ص165. وابن حجر: ن م، ج3، ص328-329.

(4) ابن حجر: ن م، ج3، ص342-344.

(5) ن م، ج2، ص10-12.

(6) المقرئزي: ن م، ج2، ص666، ابو المحاسن، ن م، ج15، ص93.

طبقة العامة الى منزلة طبقة أهل الذمة الدنيا<sup>(1)</sup>، مما يعني مساواة العامة بالذميين الذين يتمتعون بقدر قليل من الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتمتع بها الطبقة الارستقراطية المملوكية.

ومن صور السخرة الأخرى إجبار صغار التجار على المشاركة في افراح المناسبات المملوكية حيث يجبرون على تزيين بعض مناطق القاهرة على حسابهم، وشراء الشموع والقناديل كما حدث في احتفال تأمير أحمد بن الناصر محمد<sup>(2)</sup>. بالإضافة إلى إجبار التجار شراء البضاعة بسعر مرتفع لصالح الخزانة السلطانية كما يذكر المقرئزي سنة 733هـ/ 1332م<sup>(3)</sup>.

وقد لوحظ من صور الظلم الاجتماعي الهامة المصادرات فقد كان العامة عرضة للمصادرة في أي وقت وخاصة عندما يصل بعض الشخصيات الى مناصب السلطة فيبدأ بالمصادرة سعياً وراء المنفعة المادية على حساب هذه الطبقة الضعيفة، التي يستخدمها في أعمال السخرة، ولا ينتهي هذا الظلم والتعسف إلا بعزل هذه الشخصية أو سجنه أو موته فترتاح العامة وتظهر فرحها علناً في الشوارع تنقيساً عما يكبتونه من حقد على الظلمة، كما حدث عندما قتل الشجاعى سنة 693هـ/ 1295م مطاف العامة برأسه مرفوعاً على رمح في شوارع القاهرة والناس يضربون الرأس بالنعال ويصقون عليه ويقولون "هذه رأس الملعون الشجاعى"<sup>(4)</sup>.

وكان يتم قطع أرزاق المرتزقة من أصحاب الرواتب<sup>(5)</sup>. كما كانوا يجبرون التجار على شراء القماش بضعف ثمنه كما فعل النشو مع تاجر بقرساريه جهاركس عام 736هـ/ 1335م فاشتكى هذا التاجر على يد سيف الدين ياغي نائب صفد فعز له النشو عن إمرة صفد واستدعى

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص373 حيث ذكر: "رسم للحاجب ان يتقدم بالألبان يباع مملوك تركي لكاتب ولا عامي ومن وجد عنده مملوك فليبيعه، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً طول به السلطان، فباع الناس ممالكهم، وأخفوا بعضهم"، وانظر ابو المحاسن، ن م، ج9، ص92.

(2) المقرئزي: ن م، ج2، ص335، وابن حجر: ن م، ج1، ص314-316.

(3) المقرئزي: ن م، ج2، ص361، وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص111-114، 115، 118، 131، 132-133، 323-324.

(4) المقرئزي: ن م، ج1، ص802، ابن اياس: ن م، ج1، ص131-132. أبو المحاسن، ن م، ج8، ص46.

(5) المقرئزي: ن م، ج2، ص165-166. وأبو المحاسن: ن م، ج9، ص53-54.

السلطان النشو ولكنه كان ذكياً في الإجابة فاتهم هذ التاجر بتهريبه من دفع دين لخزينة السلطان بقيمة ثلاثين ألف دينار وهذا المبلغ من إرث جاريه تزوجها التاجر من جواري الشهيد الملك الأشرف خليل، فأمر السلطان تحصيل مبلغ خمسين ألف درهم وعاقبه بقيساريه حتى أخذ منه هذا المبلغ<sup>(1)</sup>.

وعندما تأكد السلطان من صحة الشكاوي المجهولة ضد النشو [شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله "المعروف بالنشو"]، أمر بعزله وتعيين جمال ابراهيم كاتب الأمير بشتاك كناظر للخلاص بدلاً من النشو<sup>(2)</sup> وأمر بسجنه هو وأقاربه ومؤيدوه<sup>(3)</sup>.

ومات نتيجة هذه العقوبة القاسية ثاني ربيع الآخر 740هـ/ العاشر من تشرين الأول أكتوبر 1342، وحقره السلطان بعد موته بدفنه في مدافن اليهود بكفن بسيطة بقيمة أربع دراهم، كما أمر بحراسة قبره لمدة أسبوع خوفاً من نبش العامة لقبره وربما حرقه.

وهكذا فرح الناس بموت هذا الظالم الذي نكد عيشهم، فاحتفلوا لمدة سبعة أيام بتزيين القاهرة ومصر، كما شارك الشعراء بأشعارهم بهجائه وهو الكمال جعفر الأدفوي<sup>(4)</sup>.

إنّ يوم الاثنين يوم سعيد فيه لا شك للبرية عيد

أخذ الله فيه فرعون جهراً وغدا النيل في رباه يزيد

ومن صور الاضطهاد الاجتماعي الأخرى لنظار البلاط المملوكي ما فعله ناظر الدولة موفق الدين الذي منع صرف مرتبات العاملين في الجها الوظيفي عام 742هـ/1341م، فتصدى له قاضي القضاة وحسام الدين فوشوا به للسلطان ليعاقبه<sup>(5)</sup>.

فيلاحظ تأثيرهم على السلطان لقربهم منه مما يعرض بعض الناس للظلم والاضطهاد.

(1) المقرري: السلوك، ج2، ص390-391، وأبو المحاسن: ن.م، ج9، ص116، وابن حجر: م.س، ج2، ص12-13، 314.

(2) المقرري: ن.م، ج2، ص480-481، والخطط، ج2، ص227-228. وابن حجر: ن.م، ج1، ص82. وأبو المحاسن، ن.م، ج9، ص137-138.

(3) ابن حجر: ن.م، ج5، ص127-128.

(4) ن.م، ج2، ص72-73.

(5) المقرري: ن.م، ج2، ص566، والقلقشندي، م.س، ج4، ص29، وصف القلقشندي هذا المنصب: "أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه، ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تبعاً له، وإن كان الوزير صاحب سيف، وكان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات وما يتعلق بها والوزير مقتصر على النظر والتفتيش".

هذا ومن صور المصادرة التي حدثت بالكرك سنة 740هـ/1339م على يد أبي بكر بن السلطان، فاستدعاه لأنه كان يقتل كل من يتمنع عليه ويصادر أمواله فمات جماعة من الناس تحت العقوبة فاحضر هدية للسلطان بقيمة مائتي ألف درهم حيث أخذها من الناس على سبيل القرض<sup>(1)</sup> ليكسب رضا السلطان والنجاة من عقوبته.

وقد لوحظ على السلطان الناصر محمد تخفيفه المعاناة على الشعب بإبطال الضمانات والمكوس والضرائب سنة 714هـ/1314م عندما أمر "بمسامحة أهل الشام بالبواقي وإبطال المقرر على السجون، وإعفاء الفلاحين من السخر، وإبطال مقرر الأقصاب، ومقرر ضمان القواسين، ورسوم الشد، والولاية فأبطل ذلك كله من جميع ممالك البلاد الشامية بأسرها"<sup>(2)</sup>. وكان يستجيب لطلب العامة بعزل نائب الأقليم لتعسفه وظلمه لرعية كالأمير كراي نائب دمشق عام 711هـ/1311م وسجنه بالكرك<sup>(3)</sup>، وهذا يظهر رحمته بالرعية عندما كانوا يضربون لتحصيل الضرائب الباهضة والمكوس الكبيرة بالقسوة والشدة، وكان الفقهاء والقضاة يقفون دوماً في صف المدافعين عن هؤلاء المضطهدين<sup>(4)</sup>.

ومن صور العطف السلطاني على العامة اهتمام أمراء المماليك بمساعدتهم في أوقات المحن والأزمات مثل منكوتر 698هـ/1300م الذي تبرع لله تعالى بواردات اقطاعات الجندي التابعة لديوان النيابة بمبلغ مائة ألف درهم كما ذكر المقرئزي فكرهه بقية الأمراء وايقنوا أنهم لا يستطيعون عزله إلا بقتل السلطان فتم لهم ذلك<sup>(5)</sup>. كما وجد بينهم من حارب عادة السخرة في البناء والإصلاحات دون رحمة أو شفقة كما فعل سنة 729هـ/1328م الفخر ناظر الجيش<sup>(6)</sup>.

بالإضافة إلى اهتمام بعض أمراء المماليك في بناء المدارس والمساجد والخوانق ودور تدريس القرآن للأيتام، ومغاسل السبيل للموتى الذين لا أهل لهم لغسلهم وتكفينهم كما حدث سنة

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص492، ابن أبياس: م س، ج1، ص176. وابن تغري بردي: ن م، ص110-111.

(2) المقرئزي: ن م، ج2، ص136-137. وابن أبياس: ن م، ج1، ص159.

(3) المقرئزي: ن م، ج2، ص104. وابن أبياس: ن م، ج1، ص157. وابن حجر: ن م، ج3، ص352-353، ج4، ص29، ج1، ص374.

(4) د. حياة حجي: م س، ص236.

(5) المقرئزي: ن م، ج1، ص858، ابن أبياس: ن م، ج1، ص138.

(6) المقرئزي: ن م، ج2، ص302، ابن أبياس: ن م، ص165، أبو المحاسن: ن م، ج9، ص90-91.



713هـ/1313م عندما أمر الأمير علم الدين سنجر الجاولي بشق عين ماء وقناة الى الخليل في فلسطين واطاف ابنية إلى مساجد ابراهيم الخليل عليه السلام وخصص لها أوقافاً للنفقة عليها<sup>(1)</sup>. كما اهتم البعض الآخر كالأمير تنكز الحسامي بالقضاء على المنكرات من خمره وخمارات وحانات في دمشق وأعمالها سنة 737هـ/1336م في سبيل الصالح العام<sup>(2)</sup>. كما برع كبار أمراء المماليك في التقرب الى الناس ببناء الخوانق والمساجد والمدارس كنوع من الصدقات كما فعل نائب دمشق سنة 707هـ/1307م<sup>(3)</sup> ونائب الكرك الأمير جمال الدين آقوش سنة 730هـ/1330م<sup>(4)</sup> حيث جمع القضاة والفقهاء لعمل منبر بالمدرسة الصالحية بين القصرين في القاهرة لإقامة الجمعة بها فافتوه بذلك فعين لها خطيباً براتب شهري قدره خمسين درهماً، وستة مؤذنين براتب عشرة دراهم لكل منهم، وقارئ للقرآن يوم الجمعة وخصص وقتاً لذلك وتصدق في هذا الشهر بنحو ثلاثة آلاف إردب من الغلال، وكذلك ما حدث عام 736هـ/1335م<sup>(5)</sup> بهدف الخير عندما بنى السلطان المنصور قلاوون البيمارستان المنصوري لتوفير الرعاية الصحية والخدمات الطبية للجميع.

كما سعى بعض الأمراء مثل الأمير الحاج آل ملك سنة 744هـ/1343م لإبطال الضمانات التي شملت جميع أنشطة الحياة اليومية، والتي كانت نوعاً من الظلم الاجتماعي بسبب صفتها الرسمية من قبل الحكومة<sup>(6)</sup>. وسعى البعض الآخر من رجال السلطة الى تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية وفرائضها الأساسية، بترك التجارة وقت الصلاة" كما حدث عام 744هـ/1343م من قبل الأمير الحاج آل ملك نائب السلطان<sup>(7)</sup> وعاش البعض الآخر حياة البساطة والتقشف والزهد اقتداءً بالمسلمين الأوائل كالأمير طننغا الناصري عام

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص131، ابن حجر: م س، ج2، ص266-268.

(2) المقرئزي: ن.م، ج2، ص510-511، ابن حجر، ن.م، ج2، ص55-56، وأبو المحاسن، م س، ج9، ص152، وابن اياس: ن.م، ج1، ص171-172.

(3) المقرئزي: ن.م، ج2، ص36، الخطط، ج2، ص416-417. أبو المحاسن: ن.م، ج8، ص174-175.

(4) المقرئزي: ن.م، ج2، ص317، والخطط، ج2، ص374-375. وابن حجر: ن.م، ج1، ص451-452.

(5) المقرئزي: ن.م، ج2، ص390، والخطط، ج2، ص238، 406-408، 425. وابن حجر: م س، ج2، ص342، 344.

(6) ابن حجر: ن.م، ج3، ص341.

(7) المقرئزي: ن.م، ج2، ص651، ابن اياس: ن.م، ج1، ص181، 182، أبو المحاسن، ن.م، ج10، ص88-89.

744هـ/1343م<sup>(1)</sup> والأمير تغري برمش لأمير سلاح الذي لبس لباس الفقراء، وفرق عنه مماليكه وحاشيته وجلس بجناح قوصون خارج باب زويلة وجمع عليه طائفة من العامة<sup>(2)</sup> عام 783هـ/1381م كما باع بعضهم كالوزير منجك عام 749هـ/1348م إقطاعات للعامة<sup>(3)</sup>، ويرى البعض بأن سعيه هذا كان وراء المنفعة الشخصية لكسب ربح مادي<sup>(4)</sup>.

ومن الصور الانسانية الأخرى مساعدة الأقاليم الأخرى التي يحصل فيها الجفاف والأزمات الاقتصادية من قبل كبار أمراء المماليك كما حدث عام 766هـ/1365م من غلاء للأسعار بمكة<sup>(5)</sup>، وبلاد الشام عام 682هـ/1284م زمن السلطان المنصور قلاوون<sup>(6)</sup>، كما تعهد رجال الدين الميسورين بتربية اليتامى وأبناء الفقراء من العامة فلقبوا "مربي الفقراء"<sup>(7)</sup>. وشجعت الدولة هذه الروح الخيرية بتخصيص جزء من الصدقات أو الرواتب الشهرية لمساعدة هؤلاء المربين بشكل منتظم لاستمرار هذه الخدمة الاجتماعية.

ومن مظاهر رفع الظلم عن العامة جلوس السلطان الناصر محمد كل يوم اثنين في دار العدل برفقة القضاة للنظر في مظالم الناس واستمر حتى وفاته<sup>(8)</sup>. وذلك للتخفيف من معاناة العامة من ظلم المماليك وعزمه على اضعاف المركز القومي للكبار أمراء المماليك، وربما للتأكيد على حرصه على ارساء العدل والمساواة في سلطته<sup>(9)</sup>.

(1) ابن حجر: ن م، ج2، ص331-332، المقرئ: ن.م، ج2، ص651.

(2) المقرئ: السوك، ج3، ص457، أبو المحاسن، ن.م، ج11، ص210.

(3) المقرئ: ن.م، ج2، ص759، ابن حجر: م س، ج5، ص130-131، ج2، ص44-45، ابن ابياس: ن.م، ج1، ص190، أبو المحاسن، ن.م، ج15، ص189، 190، 192.

(4) د. حياة حجي: م.س، ص249.

(5) المقرئ: ن م، ج3، ص93.

(6) ن.م، ج1، ص717-718.

(7) ن.م، ج3، ص148.

(8) المقرئ: الخطط، ج2، ص206.

(9) المقرئ: ن م، ج2، ص490، 103.

ويؤيد هذا الرأي عدد من المؤرخين المعاصرين. وكان رأي السلطان هو الغالب والناقد  
فلا يستطيع القضاء إلا الطاعة لأنه كان صاحب الكلمة العليا في الدولة فكانوا عاجزين عن عمل  
الحق والصواب اذا عارض ذلك رأي السلطان<sup>(1)</sup>.

---

(1) د. حياة حجي: م س، ص 23. وأبو المحاسن: م س، ج 9، ص 145. وابن حجر: م س، ج 5، ص 212-213.

## ثالثاً : الحياة الاجتماعية لأهل الذمة في بلاد الشام

### أولاً : طوائف أهل الذمة في جنوب بلاد الشام

نقد شمل هذا المصطلح النصارى واليهود والمجوس وغيرهم كالتالي:

أولاً : النصارى : انقسموا الى طائفتين رئيسيتين هما: اليعاقبة<sup>(1)</sup> والملكانيون<sup>(2)</sup>.

ثانياً : اليهود: انقسموا الى ثلاث طوائف رئيسية وهي: الربانيون<sup>(3)</sup> والقرآؤون<sup>(4)</sup> والسامرة<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> اليعاقبة: القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح أي أن المسيح هو الله بشكل انسان، فهو جوهر من جوهرين، ومشية من مشيتين، وعرفوا بالمونوفيزيس Monophysite. انظر المقريري: الخطط، ج3، ص528 القلقشندي: م س، ج3، ص281، حتي: تاريخ سوريا وفلسطين، ج2، ص137، النقاش، زكي: أضواء توضيحية على تاريخ المارونية، لبنان، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر، 1970م ص21 (وسيشار اليه فيما بعد هكذا، النقاش: آراء توضيحية على تاريخ المارونية.

وسامهم خصوصهم بهذا الاسم نسبة الى يعقوب الذي اختلفت الروايات في أصله فقيل هو: ديسقورس ثامن بطاركة كنيسة الاسكندرية، وقيل هو تلميذه وقيل هو تلميذ بطرك انطاكية الذي كان يدعو لمذهب ديسقورس كما لقب بالراذعي لارتدائه خلق البراذع انظر المقريري: ن م، ج3، ص529، القلقشندي: ن م، ج13، ص281. وقيل هو برادبوس مطران الرها المتوفى سنة 578م انظر حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص110. وشكلت طائفة اليعاقبة الغالبة في بلاد الشام الذين اشتهروا بالنشاط العلمي في العصور الاسلامية انظر فيليب حتي: ن م، ج2، ص138-139.

<sup>(2)</sup> الملكانيون: القائلون بأن للمسيح طبيعتين وجوهين ومشيتين اتحدت في قوام إلهي واحد أي أن المسيح هو الله وإنسان في آن واحد. وسما بهذا الاسم نسبة الى ملك السريانية ومعناها الملك مرقبان البيزنطي (450-457م) مؤسس هذه الطائفة. انظر حتي، ن م، ج2، ص142، النقاش: ن م، ط2، ص21. وكان أغلبهم من الروم والفرنجية ومن الالهم. انظر المقريري: ن م، ج3، ص529، القلقشندي: ن م، ج13، ص279، عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ص55، كما تمتعت بحماية كنيسة الدولة البيزنطية والسلطة الحاكمة الا أن انتشارها لم يتعد شمالي بلاد الشام وفلسطين ومصر، انظر حتي، ن م، ص142-142. الموسوعة العربية الميسرة، اشراف محمد شفيق غريال، م2، بيروت، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر. 1981م، ص742، وسيشار لها فيما بعد هذا الموسوعة العربية الميسرة.

<sup>(3)</sup> الربانيون: نسبة لكلمة ربانيم العبرية وتعني الحبر أو الفقيه، وعربت الى رباني، لاتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقهاءهم في التلمود والمشنا، وأخذوا بتأويل نصوص التوراة فابتعدوا عن النصوص الالهية للتوراة والتلمود: (كلمة عبرانية تعني التعليم، مشتقة من التلمذة والتلمود هو السنة في الشريعة اليهودية أي التوراة الشفوية التي هي عبارة عن مجموعة قوانين وأحكام ووصايا سياسية وحقوق مدنية ودينية مع شرحها) انظر الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص572.

أما المشنا: فهي إحدى قسمين للتلمود: وتعني مجموعة القوانين اليهودية والسياسية والدينية والحقوقية والقسم الثاني هو: الجمارا: وهي مجموعة الشروح لتفسير المشنا انظر الموسوعة الفلسطينية: ن م، ج1، ص572.

وقد سيطر هؤلاء على حياة اليهود حيث تكالبوا على الحياة الدنيا فانذرهم المسيح بالويلات: انظر نعيصة، يوسف، يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة، 1988م، ص10. ورد ذكرهم في القرآن الكريم: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء" سورة المائدة، آية 44. وكانوا الغالبة في العدد ومنهم معظم أغنياء اليهود وكبار الموظفين والإداريين، انظر نعيصة: ن م، ص10، ولا يعتقدون بالقدر السابق كالفقيرة عند المسلمين انظر الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم أحمد (ت548هـ/1153م) الملل والنحل، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 1985، ص95.

<sup>(4)</sup> وأما القرآؤون: سما بنو مقرا ومعنى مقر الدعوة، أي أصحاب الدعوة، المؤمنين الذين يحكمون نصوص التوراة ولم يتقبلوا بنصوص التلمود أو تأويل التوراة، ويعتقدون بالقدر كالأشعرية عند المسلمين. القلقشندي: ن م، ج13، ص261.

وقد اتفق الربانيون والقرآؤون على نبوة جميع الأنبياء من بعد موسى عليه السلام وقيمتهم في الصلاة هي صخرة بيت المقدس، وأن الله كلم موسى من على طور سيناء. اسم الجبل يقرب أيلة عند رأس بحر القلزم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص48. ويتشدد القرآؤون بحزمة السبت، ويختلفون مع الربانيين في بعض المسائل الشرعية كالفقاص، انظر القلقشندي: ن م، ج13، ص261. وزاد عدد القرائين عن الربانيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. انظر التظلي: الرحلة، ص191، ملحق رقم 1.

<sup>(5)</sup> السامرة: نسبة الى سكهم في سمرون (شمرن) مدينة نابلس: المقريري: السلوك، ج3، ص508 وهم اتباع السامري الذي ذكره القرآن الكريم: "وأصلهم السامري" سورة طه: آية 85 ودعاهم لعبادة العجل القلقشندي: ن م، ج13، ص270. وأنهم جاءوا من الشرق الى فلسطين وتهودوا فهم ليسوا من بني اسرائيل: المقريري: ن م، ج3، ص508 وينقسمون الى فريقين دوستانية: الذين يقولون بأن العقاب والشواب في الدنيا، والكوستانية المقرون بالآخرة الشهرستاني ن م، ص98 وقيمتهم في الصلاة طور نابلس لاعتقادهم بأنه الجبل الذي كلم الله عليه موسى الشهرستاني: ن م، ص98. والقلقشندي: ن م، ج13، ص271. ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة لذا فإنهم لا يغسلون موتاهم ولا يجمعونهم وإنما يستأجرون كذلك بعضاً من المسلمين لأن السامري لا يظهر الا اذا رش نفسه بعد عزلة سبعة أيام بدماء بقرة صغيرة مقررة الصفات، وضارتهم للصلاة قرية من وضوء المسلمين انظر المقريري: ن م، ج13، ص509، ويعودون لأصول غير عربية سكنت مدينة صفد في فلسطين، نعيصة ن م، ص9، والسامرة كانت الطائفة اليهودية الوحيدة الموجودة في صفد قبل الهجرة اليهودية من اسبانيا والبرتغال سنة 898هـ/1500م انظر الضراونة: مملكة صفد، ص141

هذا وقد تجمع اليهود والنصارى في مدن الشام في حارات خاصة بهم كأقليات دينية سعياً وراء الطمأنينة<sup>(1)</sup> كما قسمت حارات أهل الذمة بحسب مذاهبهم وطوائفهم<sup>(2)</sup> وكانت الحارة تقسم الى أزقة ودخلات ضيقة غير نافذة ولها باب يغلق ولها باب يغلق عند الحاجة وعليه حراس من أبنائها، وذلك زيادة في الأمن، وكان لكل حارة شيخ يعد بمثابة صلة الوصل مع السلطات الحاكمة<sup>(3)</sup>.

### العلاقات الاجتماعية بين الصليبيين واليهود:

لقد كان اليهود في القدس بعد استيلاء الصليبيين عليها من الأقليات الطائفية فقد وصف الحاخام اليهودي المؤرخ بنيامين التطيلي رحلته في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الجمعة 27 رجب 583هـ/ 2 أكتوبر 1187م حيث سمح لليهود بالعودة إليها وعفى عنهم مما جعل المؤرخين يقدرّون هذا الموقف المتسامح له<sup>(4)</sup> على عكس وحشية الصليبيين عندما دخلوها مع المسلمين واليهود<sup>(5)</sup>.

ولما شعر اليهود بسماحة المسلمين المتمثلة بأخلاق هذا القائد العظيم وعدم تعصبه الديني أخذوا في العودة من مخابئهم الى أرض فلسطين والقدس ابتداء من عام 588هـ/ 1192م وكتب الشاعر الأديب اليهودي يهودا الحريزي الذي زار القدس بعد ربع قرن من عودتها للمسلمين حوالي 615هـ/ 1217م يقول: "ولكن لماذا لم يسمح لليهود بالبقاء في فلسطين حين كانت في قبضة الصليبيين المسيحيين.... قيل أن السبب في ذلك أننا المتسببون في قتل إلههم وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياء إذا تمكنوا منا، لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوّده بالحكمة والشجاعة فصار بجيشه من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه المدن في يده

(1) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة أفرام البستاني، تحقيق أكرم العلي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1936. ص36.

(2) ن م، ص81

(3) ن م، ص12.

(4) عارف العارف: تاريخ القدس والقاهرة، 1951م، ص78، 79.

(5) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص29، P.466, Ibid III, Runiciman.

وعندئذ أرسل السلطان منادياً في أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة ابراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التي لجؤا إليها<sup>(1)</sup>.

### وبالنسبة لمعاملة الصليبيين لليهود والنصارى الشرقيين:

لقد أشرنا سابقاً الى مذبحة المسلمين في بيت المقدس في الثاني والعشرين من شعبان عام 492هـ/15 يوليو 1099م بعد طرد حاميتها من الجند الفاطمي والتي راح ضحيتها سبعين ألفاً من المسلمين<sup>(2)</sup> شيوخاً وأطفالاً ونساءً ولم يستثنوا من الطوائف الأخرى من سكان بيت المقدس كاليهود والنصارى الأرثوذكس "نصارى الشرق" فحاصروا اليهود في معبدهم الكبير واحرقوا المعبد مع من فيه، فلقى جميع اليهود والذين احتموا فيه مصرعهم<sup>(3)</sup> وكانت هذه المذبحة اليهودية استمراراً لمذابح الصليبيين لهم في القرى والمدن الأوروبية اثناء زحفهم لبيت المقدس<sup>(4)</sup>.

وقد وجد بعض الكتاب من النصارى واليهود الحاقدين على المسلمين، إذ تأمروا على صلاح الدين الأيوبي خلال الأعوام: 564هـ، 568هـ، 569هـ/1168م، 1173م، 1173م وذلك باتصالهم بالصليبيين عن طريق جواسيسهم في القاهرة وكاتبهم للاطاحة بحكومة صلاح الدين الذي عاقبهم بالصلب والأعدام<sup>(5)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى سخاء وتسامح صلاح الدين الأيوبي مع اليهود بعد تخليص القدس من أيدي الصليبيين بعد معركة حطين واعادتها للسيادة العربية فكان من كرم

(1) القوصي: صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية المصرية، مجلد 24، 1977، ص 41.

(2) المقرئ: انفاظ الحنفا، ج 3، ص 23، وابن الأثير: الكامل، ج 19، ص 105. وابن العري: م س، ص 342. وحسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى: القاهرة 1970م، ص 81، 82، وعاشور الحركة الصليبية ج 1، ص 241، ملر: مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين، ج 1، القاهرة، 1971م، ص 486، ونسيان، م س، ج 1، ص 404.

(3) ملر: م س، ص 487، ونسيان، م س، ج 1، ص 405، حسن حبشي، م س، ص 77، ويذكر ابن القلانسي: م س، ص 37، أن الصليبيين جمعوا اليهود في الكنيسة واحرقوها عليهم وابو المحاسن: م س، ج 5، ص 150.

(4) عاشور: م س، ج 1، ص 141-143.

(5) أبو شامة، م س، ج 1، ص 178، 220، 221، وابن واصل: م س، ج 2، ص 479 علماً بأن معظم أقباط مصر كان احساسهم ضد الصليبيين، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 168.

أخلاقه السماح لهم بالعودة لمن فر منهم إلى المدينة والاستقرار بها<sup>(1)</sup>، كما سمح لتدفق الهجرة اليهودية من غرب أوروبا استجابة لخطر طبيبه الخاص موسى بن ميمون رئيس الطائفة اليهودية في مصر<sup>(2)</sup>.

وأشار الرحالة والشاعر اليهودي الاندلسي يهودا الحريزي الذي زار القدس عام 613-614هـ/1216-1217م إلى هجرة اليهود الكبيرة إلى الأراضي المقدسة<sup>(3)</sup> لحسن معاملة صلاح الدين لهم وتشجيعهم على الإقامة فيها.

ونحن نرى خطأ هذه السياسة لما تركته من عواقب سياسية وخيمة على أمتنا العربية والإسلامية من تشجيع للهجرة اليهودية الاستيطانية في فلسطين والتي تبنتها الصهيونية العالمية إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

أما عن موقف الصليبيين "اللاتين" من النصارى الشرقيين خاصة الأقباط الأرثوذكس فقد وضعوا جميع الأماكن المسيحية المقدسة تحت إشراف بطريركهم اللاتيني الجديد "أرنولف" لإقامة شعائرهم الدينية وفق مذهب كنيسة روما<sup>(4)</sup>. كما اضطهروا المسيحيين اليونانيين القاطنين في القدس من اتباع بيزنطة باعتبارهم منشقين عن كنيسة روما<sup>(5)</sup>، وذلك بطرد القسوس الذين كانوا يقيمون الصلاة والشعائر الشرقية في كنيسة القيامة<sup>(6)</sup>، وعذب أرنولف رجال الدين والقسوس الأرثوذكس ببيت المقدس في ظل سيطرة اللاتين. لذا لم يستطع رجال الدين الأرثوذكس تعيين لأنفسهم أساقفة أو بطريركاً في ظل هذا العداء المذهبي اللاتيني<sup>(7)</sup>. كما أسأوا إلى رعاية الكنائس ودور العبادة التابعة للكنيسة القبطية، ومنعوا أقباط مصر من الحج إلى

(1) رنسيما: ن م، ج2، ص775.

(2) د. الخربوطلي: العرب واليهود في العصر الإسلامي، ص71. والاسلام وأهل الذمة ص219.

(3) Setton: op, Cit vol. 1, p621.

(4) حسن حبشي: م س، ص94. ورنسيما: م س، ج1، ص415.

(5) ملر: م س، ص488.

(6) عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص252.

(7) رنسيما: ن م، ج1، ص515، 516.

بيت المقدس لاتهمهم بالكفر والإلحاد<sup>(1)</sup>، وهذا كله بسبب الخلاف المذهبي بين الطوائف المسيحية.

وشتان ما بين معاملة صلاح الدين الأيوبي عند دخوله القدس عام 583هـ/ 1187م للنصارى وبين معاملة الصليبيين لهم وحتى تسامحه مع الصليبيين أنفسهم عندما سمح لهم بمغادرة بيت المقدس بعد دفع الفدية المتفق<sup>(2)</sup> عليها وسامح العاجزين من دفعها<sup>(3)</sup>. كما أعطى الأمان ووفر الأمن لنساء وملوك وأمراء الفرنجة المترهّبات، ولمن معهن من الجواري والعبيد وأرسل من يحرسهن مع أموالهن<sup>(4)</sup> كما سمح للبطريرك اللاتيني واتباعه من رجال الكنيسة بالمغادرة مع أموالهم من لذهب والفضة<sup>(5)</sup>. كما سمح للنصارى بالتعبد في كنيسة القيامة بعد ثلاثة أيام لتوفير الأمن والاستقرار<sup>(6)</sup>.

أما نصارى القدس الأصليين والذين ليسوا من الفرنجة فقد طلبوا من صلاح الدين السماح لهم في الإقامة بمساكنهم التي كانوا هجروها مقابل الجزية<sup>(7)</sup>. فوافق صلاح الدين على ذلك مع

(1) ولیم سلیمان: الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية، القاهرة، 1968م، ص15. كما يذكر ولیم سلیمان: "أن السبب في كراهية الصليبيين لأقباط في مصر إنما يرجع الى أنهم أعرضوا تماماً عن النظر إلى الغزاة الصليبيين على أنهم مسيحيون تربطهم بهم عقيدة واحدة، وكان حزن الأقباط كحزن المسلمين عندما اقتحم الصليبيون المدينة المقدسة ولیم سلیمان: ن.م. ن.ص. لذلك غضب الصليبيون عليهم لعدم مساعدتهم لهم وعدم تعاطفهم أثناء اجتياح الغزو بل وقف أقباط مصر بجانب السلطات المسلمة الحاكمة حيث عبر بطريرك الكنيسة القبطية في مصر "ميخائيل الرابع" عن فرحه بسلامة العودة للأفضل شاهنشاه وابن بدر الجمالي بعد قتاله الصليبيين في عمقلان عام 492هـ/ 1099م. د. سلام شافعي محمد: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي: والأيوبي، القاهرة، ص288..

(2) وبالنسبة للفدية فقد وافق صلاح الدين على طلب الصليبيين بالصلح والأمان والخروج وأموالهم عدا الخيل الحربية والسلاح الى مدينة صور، ودفع الرجل منهم فدية بمقدار عشرة دنانير والطفل من الذكور والاناث دنانير وخمسة دنانير للمرأة مدة أربعين يوماً للنجاة من العبودية. ابن الأثير: الكامل، ج11، ص208.

(3) عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص822، 823.

(4) ابن واصل: م.س، ج2، ص216.

(5) العماد الكاتب: م.س، ص135. وبمجر الدين الحبلي: م.س، ج1، ص330. إذ يقدر الأموال التي أخذها البطريرك بمائتي ألف دينار ولم يأخذ منه سوى العشرة دنانير. ابن واصل: م.س، ج2، ص216، كما أطلق سبعمائة أسير هبة لهذا البطريرك. رنسيما: م.س، ج2، ص752، 753. وعاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص822.

(6) ابن واصل: م.س، ج2، ص231، والعماد الكاتب: م.س، ص145، والمقريزي: السلوك: ج1، ق1، ص97، ورنسيما: م.س، ج2، ص752، 756. لين بول: ن.م، ص185 وعارف العارف: ن.م، ص79.

(7) العماد الكاتب: ن.م، ص136.



اعفاء عدد كبير من فقرائهم<sup>(1)</sup>. علماً بأن أغنياءهم قد اشتروا من الفرنجة المغادرين أملاكهم وامتعتهم بأثمان رخيصة جداً<sup>(2)</sup>.

كما سمح لهم بمباشرة طقوسهم بحرية تامة<sup>(3)</sup>. وهكذا نرى استفادة الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها من خروج الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس فاستعادوا هيمنتهم على الأماكن المسيحية المقدسة.

وكان الامبراطور البيزنطي "اسحق الثاني انجليوس" قد ارسل سفارة الى صلاح الدين لتنهئته بانتصاره على الصليبيين وطلب منه اعادة جميع الكنائس والأماكن المقدسة الى الكنيسة الارثوذكسية<sup>(4)</sup> فاجابه لطلبه<sup>(5)</sup> وأدى ذلك لتحول الكنائس اللاتينية الى الشعائر اليونانية فتحسنت علاقة صلاح الدين بالبيزنطيين.

لقد ساهم التسامح الديني بمتانة العلاقات الاجتماعية بين السكان على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم<sup>(6)</sup>. فأدى ذلك الى تعاون مستمر بينهم ومشاركة في كثير من الأعمال والمهن<sup>(7)</sup>. بالإضافة الى المشاركة في الأفراح والأحزان<sup>(8)</sup> والمشاركة في المواسم والأعياد وتبادل الهدايا من السمك والعدس والبيض<sup>(9)</sup>.

(1) رنسيان: ن م، ج 2، ص 752.

(2) ابن الأثير: ن م، ج 11، ص 209.

(3) المقرئ: ن م، ج 1، ق 1، ص 97.

(4) Setton: A history of the Crusades, vol. 1 > p 620.

(5) رنسيان: ن م، ج 2، ص 756.

(6) عاشور: الحياة الاجتماعية، ص 6، لايدوس، مدن اسلامية، ص 147.

(7) Goitein, Studies in Islamic History, PP. 151, 302.

(8) كرد علي: خطط الشام، ج 6، ص 299، المجتمع الاسلامي في بلاد اشام، ص 209.

(9) ابن الحجاج: ابو عبد الله محمد العبدري الفاسي، (ت 737هـ/1336م) المدخل الى الشرع الشريف، ج 2، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 2، 1972، ص 50، المقرئ: الخطط، ج 1، ص 498، ومتر: الحضارة الاسلامية، ج 2، ص 285. ذكروا مشاركة المسلمين للنصارى في اعيادهم مثل خميس العهد، وعيد الفصح "العيد الكبير عند النصارى" وعيد الصليب في الرابع عشر من ايلول ذكرى إظهار خشية الصليب على يد هيلانة أم قسطنطين ابن الحجاج، ن م، ج 2، ص 50 والمقرئ: ن م، ج 1، ص 499، كرد علي، ن م، ج 6، ص 279، وعيد الثوروز (أول يوم في السنة عند السريان اليعاقبة الذي يصادف أول يوم من كانون الثاني وسمي المقدس بالشام بالقلندس. الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 458. وعيد ميلاد المسيح، ابن الحجاج، ن م، ج 2، ص 61. اليوم الذي عمد فيه المسيح بنهر الأردن وشاركهم بعض المسلمين في غمس أولادهم في الماء رغم شدة البرد لاسبابهم المناعة ضد المرض طوال حياتهم، ابن الحجاج، ن م، ص 61، المقرئ: ن م، ج 1، ص 497.

كما شارك أهل الذمة المسلمين في عيدي الفطر والأضحى يصنعهم الكعك ويبيع للمسلمين، ابن الحجاج، ن م، ج 1، ص 281. ففي سنة 624هـ/1226م تصادف عيد الفطر وعيد النصارى وعيد اليهود فتبادل الجميع التهاني والاحتفالات.

كما سمح صلاح الدين لأقباط مصر الأرثوذكس بزيارة القدس بعد حرمان دام ثمانية وثمانين عاماً هي فترة حكم الصليبيين لبيت المقدس لاعتبارهم كفرة وملحدين هراقة كما ذكرنا سابقاً وأعفى حاجهم من الضرائب باعتبارهم من رعايا دولته في مصر<sup>(1)</sup>. وغمرهم بكرمه بإعادة كنائسهم وأملاكهم التي كان الصيبيون قد سلبوها منهم<sup>(2)</sup>. بل زاد في عطائه بمنحهم المكا ن الذي أصبح معروفاً باسم: "دير السلطان" نسبة إليه<sup>(3)</sup>.

وقد أعفى الحجاج من نصارى الحشبة من جميع الرسوم<sup>(4)</sup>. وشمل برعايته دير الرهبان الأحباش في بيت المقدس<sup>(5)</sup>. كما استمر في السماح لأفراد الجيش الصليبي بزيارة القدس بالرغم من مطالبة ريتشارد قلب الأسد بمنعهم إلا بإيراز موافقة موقعة منه بل أمن حراستهم في طريق عودتهم الى يافا<sup>(6)</sup>. فرفض صلاح الدين هذا الطلب.

وربما كان ذلك لأسباب نفسية دينية لينزع الحقد من نفوسهم بعد حجهم للاماكن المقدسة فيرجعون الى بلادهم ويأمن المسلمون شرهم ولأسباب سياسية حتى لا يجعل للملك ريتشارد أي سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس وليثير جنوده ضده فيعودون لبلادهم.

### ثالثاً: الحالة الاجتماعية لأهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي

#### والمملوكي :

لقد نعم أهل الذمة بالتسامح الديني وحسن الجوار في جميع العصور الإسلامية<sup>(7)</sup> وخاصة زمن الأيوبيين والمماليك من حيث الحج والزيارة للأماكن المقدسة<sup>(8)</sup>، وما تقلده اليهود

(1) شحادة حوري: ونقولا حوري: خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الأرثوذكسية، ص 78-80.

(2) جرجس فيلوناس: املاك القبط في القدس الشريف، ج 1، ص 16.

(3) ن.م. ج 1، ص 9، 15

(4) عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحشبة في العصور الوسطى: المجلة التاريخية، مجلد 14، السنة 1968، ص 22.

(5) ن.م. ن. ص.

(6) ابن واصل، م س، ج 2، ص 406

(7) ابن شداد: الاعلاق من الحظيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج 2، ق 3، تحقيق سامي الدهان، دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية،

1962م مقدمة ص 25، هذا وقد شجع الاسلام على التعامل مع أهل الذمة حتى لا يشعروا بعزلتهم في المجتمع الاسلامي قال تعالى:

"وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم" سورة المائدة، آية 5. وانظر ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج 1، تحقيق

صبيح الصالح، دمشق، جامعة دمشق، 1961، ص 244-245.

(8) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر، 1964، ص 132

والنصارى لأرقى المناصب الإدارية<sup>(1)</sup> والمالية وامتلاكهم الثروات نتيجة إنعام السلاطين والملوك على أطبائهم<sup>(2)</sup> كما كانوا من أرباب الحرف والصنائع<sup>(3)</sup>. يدل على التسامح الديني معهم عكس ما كتبه المستشرقون عن قصد عن الاضطهاد الذي تعرضوا له أوقات الحروب والاضطرابات وخصوصاً زمن الحملات الصليبية والغزو المغولي دون الإشارة الى الأسباب التي أدت لتلك المضايقات نتيجة لجرائم الصليبية في بلاد الشام والتي أثارت مشاعر الكراهية في نفوس المسلمين ضد النصارى<sup>(4)</sup>. لذا نرى أن أحوال الطوائف الدينية كانت تتأثر بالسياسة الخارجية للدولة ونتيجة لتدخل قوى خارجية لصالحهم كبيزنطة والحبشة والدول الصليبية<sup>(5)</sup>. وشتان ما بين وضعهم أيام الحكم الإسلامي ووضع الفلسطينيين من المسلمين والنصارى تحت حكم اليهود اليوم. وتهمنا الإشارة هنا الى وضع أهل الذمة زمن الأيوبيين والمماليك حيث تمتعوا بكامل حقوقهم الدينية<sup>(6)</sup> والمدنية كما مارسوا بحرية نشاطهم الزراعي والصناعي والتجاري

(1) المقرئ: السلوك: لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 3، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب 1970م ص 512

(2) ابن العربي: مختصر تاريخ الدول، بيروت، دار المسيرة 1970، ص 242، 243، 253.

(3) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العربي، بإشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1946م، المقدمة.

(4) رنسيان: الحروب الصليبية، ج 1، ص 461، 307، 350، 415.

(5) المقرئ: السلوك، ج 3، ق 1، ص 106.

(6) كان للنصارى في بلاد الشام بطركان أحدهما لطائفة الملكية والآخر لليعاقبة، وكان مسؤولاً عن تصرفات أبناء طائفته أمام السلطان والتي كانت تختاره دون تدخل السلطان إلا ما ندر. زيادة، نقولاً: دمشق في عصر المماليك، بيروت، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1966، ص 164 وبالنسبة لليهود فكان يرأسهم أحد الربانيين -أكبر طوائف اليهود الثلاثة: الربانيون، القراؤون، السامرة- ولقب بالناغد يشرف على جميع شؤونهم الدينية والقضائية. العمري، شهاب الدين أحمد فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، 1312هـ/1894م ص 144، ذكر أنه كان للسامرة رئيس خاص بهم. وبالنسبة لمرسوم التعيين لبطرك النصارى ورئيس اليهود، فكان يعين غالباً عن نائب السلطان وأحياناً من السلطان كموظفين رسميين موجهين بنصائح ووصايا ملزمة لهم بالنسبة لابناء طائفتهم. انظر القلقشندي: م س، ج 12، ص 5، نسخة توقيع اليعاقبة، ج 11، ص 381 (نسخة توقيع رئاسة اليهود) ص 387، (نسخة توقيع بطرك الملكية) وكان البطرك ورئيس اليهود هما الوسيطان بين أبناء طوائفهم وبين الدولة. القلقشندي: ن م، ج 11، ص 387 الذي ذكر دعاءهم للدولة في صلواتهم وذكر القلقشندي: الألقاب التي كانت تطلق على رؤساء الطوائف كمظهر من مظاهرها احترام الدولة لهم: القلقشندي: ن م، ج 12، ص 289 ذكر ألقاب رئيس اليهود "الرئيس" الأوحدا لأجل الأعز" والقاب بطرك النصارى: البطرك المحتشم، المبجل، مجلس القسيس، الجليل، الروحاني... "كما تسامح الأيوبيون والمماليك في السماح لهم بتعمير وتجديد كنائسهم متجاوزين بذلك العهد العمري" بعدم بناء كنائس جديدة وعدم تجديد ما هدم منها: أرنولد: الدعوة الى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1970. ص 99. وانظر ابن واصل: ن م، ج 2، ص 407، والعماد الاصفهاني: م س، ص 145، وأبو شامة م س، ج 2، ص 114. د. غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص 37، 166 وذلك بالنسبة لسياسة صلاح الدين تجاه الكنائس بعد فتحه بيت المقدس 583هـ/1187م وكذلك بالنسبة لخلفاء صلاح الدين كالمملك العظيم عيسى. انظر المقرئ: السلوك، ج 1، ق 1، ص 204، رنسيان، م س، ج 3، ص 280 ترون اس: أهل الذمة في الإسلام: ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ط 2، 1967م، ص 159. وكذلك بالنسبة لأماكن العبادة اليهودية التي انتعشت في العصر الايوبي من اعادة ترميم، انظر خان: ظفر الاسلام: تاريخ فلسطين القديم، بيروت، دار النفائس، 677هـ/1279م، ص 176، 187، رنسيان: ن م، ج 3، ص 141. وبالنسبة لسياسة سلاطين المماليك البحرية إزاء الكنائس والأديرة وخاصة زمن الظاهر بيبرس 709هـ/1309م والسلطان الناصر محمد بن قلاوون 710هـ/1310م انظر دراج، أحمد، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968م، ص 44، 48، بالنسبة للوثائق المنشورة في فهرس كستانلي، المعارف عارف: المسيحية في القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، 1951م ص 73.

والتعليمي في بلاد الشام كشريحة من شرائح المجتمع العربي الاسلامي، حيث تقلدوا المناصب الرفيعة وكان منهم الاطباء الخصوصيون للسلطين والحكام، فمنحهم الاقطاعات والمكافآت المالية.

وهكذا نرى ونؤكد نتيجة اطلاعنا على هذه المراسيم والوثائق بأن الطوائف النصرانية واليهودية تمتعت بالحرية الدينية أيام الأيوبيين والمماليك.

وأما بالنسبة للالتزامات المالية المترتبة على أهل الذمة فقد شملت الجزية "الجوالي"<sup>(1)</sup> والضرائب فأما الجزية في العصرين الأيوبي والمملوكي فقد كانت تُجبي من قبل ناظر يعينه السلطان ويساعده موظفون مثل شاد وعامل وشهود،<sup>(2)</sup> وكانت تدفع في بداية شهر محرم من كل سنة هجرية<sup>(3)</sup>، فكان يؤخذ منها مبلغ معين لبيت المال والباقي مساهمة في رواتب القضاة وأهل العلم<sup>(4)</sup> وأحياناً تُرصدُ لبعض الأعمال العمرانية كما فعل السلطان المنصور قلاوون عام 682هـ/1284م بالنسبة لجزية أهل الذمة بالقدس والخليل وبيت لحم وبيت جالا<sup>(5)</sup>، وأما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد وزع الجوالي عام 715هـ/1317م على اقطاعات غيرهم في كل بلدة<sup>(6)</sup>.

(1) الجوالي: جمع حالية وتطلق على أهل الذمة، لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا عن أوطانهم: البقلي، محمد: التعريفات بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1983م ص94.

(2) القلقشندي: م س، ج3، ص53، ج12، ص306. وبالنسبة لمقدار الجزية زمن الأيوبيين فقد كانت تنحصر في ثلاث مستويات: المستوى الأول أربعة دنائير وسدس الدينار على كل فرد في السنة، والمستوى الثاني ديناران وقيطان والمستوى الثالث دينار وربع الدينار وحبشان من الدينار. فالترهانس: المكايل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية 1970، ص10، وانظر القلقشندي، ن م، ج4، ص187: ذكر بان الدرهم كان يساوي 64 فلساً وكل أربعة فلسوس منها تساوي حبة. ويضاف درهمان وربع الدرهم على كل فرد للشاد والمبشرين وأما الحبة فهي وزن حبة الشعير العربية وهي في الغالب وزن عمله لا وزن بضاعة بحسب البلد الذي يستعملها.

(3) القلقشندي: مآثر الأنافة، ج3، ص117، والمقريزي: الخطط، ج1، ص199، حيث ذكر أن مجموع الجزية عام 587هـ/1189م مائة وثلاثين ألف درهم. انظر النويري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ص241 حيث ذكر بأنها كانت تجمع في العصر المملوكي سلفاً وتعجيلاً في بداية السنة أو قبل شهر أو شهرين.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص530، السخاوي، محمد بن عبد الرحمن محمد: التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية، ص249.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، 1941م، ط2، 1970م، ص712.

(6) المقريزي: ن م، ج2، ق1، ص169، والخطط، ج1، ص165 وانظر النويري: نهاية الأرب، ج8، ص241.

وبالنسبة للضرائب الإضافية فكانت تجبى منهم مكوس يعرف برسم نفقة الأجناد<sup>(1)</sup> كما فرض الظاهر بيبرس عام 661هـ/1263م ديناراً على كل شخص في القدس برسم نفقة الأجناد والألتزام بخسائر الحريق<sup>(2)</sup> كما استفاد الملاك والفلاحون من أهل الذمة من الاعفاءات المالية وهكذا نرى بأن المتاعب المالية التي واجهها أهل الذمة في بلاد الشام كانت نتيجة لبعض الاضطرابات التي يسببونها أو لتعسف الولاة والسلاطين لحاجتهم للمال أو حاجة الدولة للأموال نتيجة الظروف الاقتصادية في حالة الحروب الخارجية لتجهيز الجيوش.

كما كانت الكنائس والأديرة تملك الأراضي الزراعية والبساتين حولها<sup>(3)</sup>، وكانت هناك عدة قرى ونواح غالبية سكانها من النصارى أو اليهود كبلدة الشوبك<sup>(4)</sup> والكرك<sup>(5)</sup>. وقرية بيت ماما التي تتبع مدينة نابلس وأهلها سامرة<sup>(6)</sup>. وبيت جالا في فلسطين وأهلها نصارى ويزرعون الكرمة<sup>(7)</sup> وقرية شرافات قرب بيت المقدس وجميع سكانها نصارى ويعصرون العنب للبيع. والمنطقة الممتدة بين سبسطية والقدس حيث كان معظم سكانها من اليهود<sup>(8)</sup>. ومدينة نابلس مركز تجمع السامرة.

وقد كانت معاملة الصليبيين لليهود قاسية وحاقدة حيث حرقوا معبدهم في القدس على من فيه فمات عدد كبير منهم حريقاً<sup>(9)</sup>، وأسروا من فبر منهم وباعوهم في أسواق النخاسة بسعر دينار لكل ثلاثين يهودياً تحقيراً لهم حيث كان هذا الثمن البخس أقل من ثمن الحيوانات، كما

(1) المقرئ: السلوك، ج1، ق3، ص664، والخط، ج1، ص106، كما حرص سلاطين المماليك على إزالة مثل هذه المكوس والمظالم كما حدث عام 677هـ/1279م عندما اسقطها السلطان السعيد ابن الظاهر بيبرس عام 693هـ/1295م كما فعله الأشرف خليل بن قلاوون وما فعله السلطان محمد بن قلاوون عام (689-693هـ/1291-1295م).

(2) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1376م) البداية والنهاية في التاريخ، ج14، تحقيق أحمد أبو ملحمة وآخرون، بيروت دار الكتب العلمية ط4، 1988، ص187، 189.

(3) العمري: مسالك الأبيصار، ج1، باب 6، ص336، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص520.

(4) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلم، قرب الكرك، بوادي موسى ياقوت الحموي: ن م، ج3، ص370.

(5) الكرك: اسم لقلعة حصينة جداً في أطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلمز وبيت المقدس تحيط بها الأودية ما عدا جهة الرض، ياقوت الحموي: ن م، ج4، ص453.

(6) ياقوت الحموي: ن م، ج1، ص255.

(7) العلمي: الحنبلي، الأئمة الجليل، م س، ج2، ص147.

(8) Mandevill, The book, P. 183.

(9) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص137.

حرموا على من بقي منهم دخول بيت المقدس والمعيشة في مدن فلسطين بعكس الأمان الذي منحهم اليه صلاح الدين. وقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبي في كل مدن فلسطين فشملمهم القتل والأسر في يافا والجليل وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية<sup>(1)</sup> فهرب معظمهم حتى كادت مدن فلسطين تخلو منهم.

كما ذكر الرحالة اليهودي التطيلي أنه رأى مدناً في فلسطين خالية من اليهود أو تكاد... فذكر أنه لم ير سوى يهودياً واحداً في يافا، وثلاثة في بيت جبرين<sup>(2)</sup>. وفي بيت المقدس أربعة يهود وفي عكا مائتي يهودي وفي قيسارية مائتين من الربانيين وثلاثمائة في الرملة ومائتي رباني في عسقلان وأحد عشر في بيت لحم وفي نابلس ألف عائلة من السامريين<sup>(3)</sup>، ومنهم مائتان في قيسارية.

وعندما خرج ابن جبير من دمشق 580هـ/1184م رأى السلطان صلاح الدين يهاجم حصن الكرك ويهزم الفرنجة ويأسر عدداً كبيراً منهم وبينهم عدد من السامريين<sup>(4)</sup>. وقد كان معظمهم يعمل في مهنة الصناعة وخاصة صناعة الزجاج حيث عاشت جالية صغيرة من السامرة في نابلس. وقد ظلت القدس محرمة عليهم حتى فتحها صلاح الدين.

(1) Ben - Gurion, (D): The Jews in their land, London, 1966, p214.

(2) Benjamin, pp. 65,79,80.

(3) انظر آدم متر: ج 1، ص 49.

(4) ابن جبير: م س، ص 209، Benjamin, Ibid, PP. 65-80.

## رابعاً: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة في جنوب بلاد

### الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي :

لقد تبين لنا تأثير هذه العلاقات الدينية في عادات وتقاليد المجتمع الشامي<sup>(1)</sup> وفي الحياة الاقتصادية<sup>(2)</sup> والحياة السياسية في بعض المناسبات ذات الطابع السياسي كالخروج لاستقبال السلطان وتأييده عند قدومه الى المدينة<sup>(3)</sup> كما تجلّت المشاعر الإنسانية في أعلى درجاتها أيام حدوث المجاعات والأوبئة واحتباس المطر<sup>(4)</sup> فكان له أكبر الأثر في حسن الجوار والوفاق بينهم<sup>(5)</sup>.

غير أن تشدد بعض القضاة والفقهاء تجاه أهل الملة أدى الى توتر العلاقات الاجتماعية بينهم كما حدث أيام الظاهر بيبرس سنة 669هـ/ 1271م إذ أحرق كنيسة لليهود في دمشق بعد افتاء الشيخ العدوي المهراني<sup>(6)</sup>. وتشددهم في مسألة بناء الكنائس ومعابد جديدة كما حدث في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 721هـ/ 1321م. حيث هدم كنيس لليهود في

<sup>(1)</sup> ابن الحاج: م س، ج 1، ص 272، 273، أشار الى أن بعض النساء المسلمات قد تآزرنا كي يقمن بشراء مأكّل السمك يوم السبت، وكذلك عدم دخولهن الحمام وغسيل الثياب أو شراء الصابون يوم السبت وتأثر بعضهم بعادات النصارى أيضاً من حيث عدم الذهاب للعمل ليلة الأحد ونهاره. وكذلك كان أهل الشام يتزهدون يوم السبت في أماكن تجمع اليهود ويوم الأحد أماكن تجمع النصارى. المدني: مدينة حلب في العصر المملوكي، ص 195، وذكر تردد المسلمين والنصارى على حارات اليهود ومخلاتهم التجارية للشراء لشهرة اليهود في التجارة والحرف اليدوية.

<sup>(2)</sup> العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث وتراجم سنين 648-664هـ/ 1250-1266م البيهقي: مملكة الكرك، ص 27، حيث خرج أهل الكرك ومعظمهم من النصارى لاستقبال السلطان الظاهر بيبرس سنة 661هـ وحلفهم بالانجيل ولكن هذه العلاقات توترت وتعكر صفوفها أيام الأحداث السياسية نتيجة لتصرفات فردية وكردة فعل على مذابح الافرنج عند دخولهم البلاد الاسلامية ووقوف بعضهم بجانب هؤلاء فاستاء المسلمون منهم. أنظر ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 95. رنسيان: م س، ج 1، ص 307، 316، 350، 415. قاسم: أثر الحروب الصليبية في العالم الاسلامي، م 3، ص 162 وردة فعل النصارى على فتح الظاهر بيبرس قيسارية وارسوف في الساحل الفلسطيني، كما تنزه المسلمون في بساين الأديرة النصرانية. العمري: مسالك الأبصار، ص 340، 344. ومتر: م س، ص 407. وعمر باشا: الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، بيروت، دار الفكر 1989، ص 261 وتنزه بعض نواب القدس وأعيانها في جبل صهيون حيث كان يستقبلهم هناك رهبان دير الفرنسيسكان بالحفاوة والترحيب وكرم الضيافة. زيادة نقولا: رواد الشرق العربي، ص 200.

<sup>(4)</sup> ابن بطوطة: الرحلة، ص 95-96. حيث شاهد عام 749هـ/ 1348م مواكب السكان من مسلمين ويهود ونصارى رافعين كتبهم الدينية متضرعين الى الله أيام الطاعون الأعظم.

<sup>(5)</sup> زيادة، نقولا: رواد المشرق العربي، ص 189، حيث ذكر رواية المهاجر اليهودي الى القدس عام 735هـ/ 1334م حيث وصف برسائلته الى والده في اسبانيا حالة اليهود ومعيشتهم الممتازة في القدس. د. محمد صالحية: اليهود في القدس، ص 22.

<sup>(6)</sup> ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج 2، ق 1، ص 274، الذهبي: تاريخ الاسلام: مخطوط، ج 2، ورقة 9أ، أبو الحسن، م س، ج 7، ص 162.

دمشق<sup>(1)</sup>. كما كان المسلمون يُكرّمون أهل الذمة الذين يعلنون اسلامهم في حفل يوم الجمعة اثناء تأدية صلاة الجمعة كما حدث سنة 701هـ/ 1301م عندما أسلم الطبيب اليهودي اسحق بن يحيى الاسرائيلي وأولاده<sup>(2)</sup>.

وبالنسبة للعلاقات بين أهل الذمة لم تكن ودية نتيجة للعداوة الدينية التقليدية بينهم من جهة والمنافسة بين الفريقين في التقرب لأصحاب السلطة من جهة أخرى<sup>(3)</sup>. ولم يمنع هذا من نجدة اليهود للنصارى زمن الشدة، حيث أعاروهم الغنائم الصفراء منعاً لوثوب العامة عليهم في الطرقات<sup>(4)</sup>.

### القيود الاجتماعية على أهل الذمة زمن الأيوبيين والمماليك:

لقد فرض على أهل الذمة لبس الغيار<sup>(5)</sup>. فأُلزِمَ اليهود باللون الأصفر والسامرة باللون الأحمر والنصارى باللون الأزرق رجالاً ونساءً اللواتي فرضَ عليهن ايضاً ارتداء الحزام "الزّنار" فوق الإزار بشكل بارز وملوّن حسب الطائفة الدينية، بالإضافة لخفّين أحدهما أبيض والآخر أسود، وتعليق خاتم في أعناقهن عند دخولهن الحمام العام وذلك<sup>(6)</sup> لتمييزهن عن النساء المسلمات، أما الرجال ففرض عليهم صلبان من نحاس أو رصاص أو حديد عند دخول الحمام فقط وعدم السماح لهم بأظهارها في أسواق وطرق المسلمين، كما سمح لهم بالضرب على النواقيس ضرباً خفيفاً والقراءة بصوت منخفض على موتاهم. وركوب الحمير أو البغال فقط، ومنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح والتقلد بالسيف<sup>(7)</sup>.

(1) ابن الوردي: تمة المختصر، ج2، ص401، وابن الشحنة: الدر المختب، ص72.

(2) الذهبي: ذيل العبر: ج4، ص3، ابن كثير: م: س: ج4، ص21.

(3) تروتون: ن، م، ص102.

(4) المقريري: السلوك، ج2، ق1، ص227: تروتون: ن، م، ص78.

(5) الغيار: نوع من الملابس تميز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى: ابن حبيب: تذكرة النبيه/ ج1، ص233، هامش رقم1.

(6) الشيزري: نهاية الرتبة، ص106، ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، ص100، ماير، الملابس المملوكية، ص120.

(7) الشيزري: ن. م.، ص106، 107. ابن قيم الجوزية، م، س، ص102، 104..271. Stillman, the Jews of Arab lands.



وفي العمران لم يسمح لهم برفع بنيانهم على بنيان المسلمين، وعدم الجلوس في الصدارة بين المسلمين، وعدم مزاحمتهم للمسلمين في الطرق، ومنعوا من بيع الخمرة والخنزير<sup>(1)</sup>. وعدم شراء الجواري والعبيد المسلمين لأهل الذمة<sup>(2)</sup>.

وقد اشرف على تنفيذ هذه القيود والتعليمات المحتسب، وبموجب تعليمات الحكام لرؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة أثناء تعيينهم<sup>(3)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القيود لم تكن ملزمة بشكل دائم على أهل الذمة، بل خضع تطبيقها للظروف العامة ومزاج السلاطين، كما حدث زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي<sup>(4)</sup>. والملك العزيز بدمشق<sup>(5)</sup>، والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(6)</sup>، والسلطان قلاوون<sup>(7)</sup>، والناصر محمد بن قلاوون<sup>(8)</sup> وأولاده وأحفاده<sup>(9)</sup>.

(1) الشيزري: ن. م.، ص، 107.

(2) الشيزري: ن. م.، ص 84، ابن قيم الجوزية، ن م، ص 114

(3) الشيزري: ن. م.، ص 106، 107. القلقشندي: م س، ج 11، ص 385 ذكر وصية رئيس اليهود.

(4) فقد شدد في فرض القيود الاجتماعية حينما تأمروا على حكمه بالاتصال بالإنرج والاسماعيلية في الشام، انظر ابو شامة، م س، ج 1، ص 220، 241، 242، شافعي: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والايوبي، المقريري: السلوك، ج 1، ق 1، ص 77، حوادث

سنة 577هـ. حتى انه لم يستحي كاتب ولا طبيب حتى طيبه النصراني اسعد بن مطران، الذي كان يتصرف بلباسه وسلوكه كالثوراء (ابن ابي أصيبعة، م س، ص 651، 652. وانظر الشيزري: المنهج الملوك في سياسة الملوك، ص 21، 51.

(5) المقريري: ن م: ج 1، ق 1، ص 135، حيث الزمهم بلبس الغيار

(6) ابن الواسطي، الرد على أهل الذمة ص 403

(7) المقريري: الخطط، ج 3، ص 545. ذكر في حوادث عام 682هـ إخبار النصارى على ركب الحمير بزنانير في أوساطهم وعدم الكلام مع

المسلم أثناء ركوبه أو لبس الثوب المعقول. حسن، علي ابراهيم، تاريخ الممالك البحرية، ج 3، 1967، ص 448، ماير، الملابس المملوكية،

ص 117. ترتون : أهل الذمة ص 135،

(8) القلقشندي: ن م: ج 12، ص 277، ذكر حسن معاملة أهل الذمة بتعليماته الى ابنه الأمير أحمد عندما عينه في نيابة الكرك "وأهل الذمة

فأوهم الى كنف العدل والواسع، وأجههم أن تمتد الى أنفسهم يد حان والى أموالهم يد طامع، وأقم عليهم بأساً يحمل بهم اذا اعتدوا ...."

وأدم لهم مهابة تسد من فساد الذرائع بينما شدد عليهم سنة 700هـ بلبس الغيار متأثراً برأي الوزير المغربي الزائر وكتب بذلك الى جميع

الأعمال فاسلم منهم عدد كبير، أنظر القلقشندي: ن م، ج 13، ص 377، أبو المحاسن: م س، ج 8، ص 134. ولكنه استثنى أهل الشوبك

والكرك من تلك القيود لأن غالبية سكانها من النصارى الذين كانوا يضيعون العمائم البيضاء على رؤوسهم انظر ابن كثير: م س، ج 14،

ص 16. والمقريري: السلوك، ج 1، ص 512، البخيت مملكة الكرك، ص 27، ماير: م س، ص 121. ويرى الدكتور غوانمة بأن استثناء أهل

الشوبك والكرك من هذه القيود لأنهما كانتا مركزاً لنفوذه القوي وملاًذاً له وقت الشدائد. د. غوانمة: دراسات، م س، ص 27، وانشاريخ

السياسي لشرقي الأردن: ص 144، 153، والتاريخ الحضاري: ص 42.

(9) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص 85، العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، ج 2، ص 90-95 وثيقة رقم 335 تاريخ 20 ذي

القعدة 795هـ/ 27 غوز 1392.

ونتيجة لمضايقتهم في فرض القيود عليهم أيام معظم السلاطين للتخلص من نفمة العامة عليهم حين سمح لهم بالخروج على هذه القيود وللمحافظة على وظائفهم فقد أسلم منهم عدد كبير زمن السلطان الصالح صلاح الدين عام 755هـ/1354م<sup>(1)</sup>. الذي تشدد في القيود المفروضة عليهم بل زاد عليها<sup>(2)</sup>.

وهكذا يتضح لنا من أن القيود الاجتماعية المفروضة على أهل الذمة استمرت طيلة العصر الأيوبي والمملوكي نتيجة غيرة السلاطين الدينية تدعيماً لحكمهم انطلاقاً من شعار الجهد الذي أطلقه السلاطين. أو بسبب سخط العامة على الذميين نتيجة الشعور المعادي الذي خلفته الحروب الصليبية<sup>(3)</sup>. لما ارتكبه الصليبيون من مذابح وما خلفوا من ويلات للمسلمين أو عن طريق استفزاز شعور المسلمين وخاصة الفقهاء والقضاة ورجال العلم بلبسهم الثياب الفاخرة، واستخدامهم الجواري المسلمات وركوبهم الخيل مما يدفع السلاطين لإصدار مراسيم القيود المتشددة لأخمد ثورة العامة، واستغل هذا بعض السلاطين لتحصيل الأموال منهم لخزينة الدولة أيام الأزمات المالية مقابل التخلص من تلك القيود<sup>(4)</sup>.

وفي الختام نستطيع القول بأن التسامح مع الذميين كان سائداً في معظم العصور الإسلامية خاصة العصور الوسطى المتميزة بتغلب الروح الدينية في العالمين الإسلامي والأوروبي على السواء<sup>(5)</sup>. حيث تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية باستثناء أوقات الشدة والاضطرابات كما يلاحظ أن تجديد هذه المراسيم المتشددة يعتبر دليلاً على أنها لم تكن موضع التنفيذ دائماً ناهيك عن تمتعهم بحرية التعليم أيضاً.

(1) الذهبي: ذيل العبر، ج4، ص162، ابن كثير: م. س. ج14، ص262، القلقشندي: م. س. ج13، ص378، ومآثر الأناقة، ج2، ص157، 158. المقرئ: السلوك، ج2، ق3، ص922، والخطط، ج2، ص500. حيث يعلق على إسلامهم بقوله: "مكراً منهم وخديعة حتى يستخدموا في المباشرات وينكبوا المسلمات فم لهم مرادهم، واختلطت بذلك الانساب....". حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. ج2، ص261.

(2) حدد قيمة الحمار الذي يركبه الذمي دون المائة درهم، ومنعت نسائهم من دخول الحمامات مع المسلمات وتغير لون الحق بحيث يكون أحدهما أبيض والآخر أسود على عكس ما كان قبل عهده حيث كان أحدهما أحمر والآخر أسود وأُزِم النساء اليهوديات بالرداء الأصفر والنصرانيات بالرداء الأزرق بعد أن كن يضعن اشارت ملونة فوق ملايسهن لتمييزهن عن المسلمات انظر ابن كثير: م. س. ج14، ص262. ابن دقماق، م. س. ج2، ص204. القلقشندي: ن. م. ج13، ص383.

(3) اليوسفي: نزعة الناظر: ص84، قاسم، أهل الذمة في مصر، ص183، حتى: مختصر تاريخ لبنان، ص148.

(4) قاسم: ن. م. ص184، حسن: تاريخ الممالك البحرية، ص448.

(5) Lewis, Benard, The Jews of Islam, London, Routledgeand, Kegan Pual 1981, p. 62.

## أعياد أهل الذمة:

كان أهل الذمة يحتفلون بأعيادهم الدينية، في أديرتهم وكنائسهم<sup>(1)</sup> على نطاق حاراتهم كما احتفلوا بها أحياناً قرب مزاراتهم المقدسة<sup>(2)</sup>، وقرب الأنهار<sup>(3)</sup>، وكانت أعياد كل طائفة تختلف عن الأخرى من حيث طرق الاحتفال والموعد المحدد لديها بموجب تقويم الطائفة الخاص بها لذا تعددت الأعياد لتصل الى أربعة عشر عيداً عند النصارى<sup>(4)</sup>، منها سبعة أعياد كبيرة وسبعة صغيرة كالتالي: فالأعياد الكبيرة هي عيد البشارة، في الخامس والعشرين من شهر آذار<sup>(5)</sup>. وعيد الزيتون<sup>(6)</sup> وعيد الفصح<sup>(7)</sup>. والعيد الرابع "خميس الأربعين"<sup>(8)</sup> والعيد الخامس هو عيد الخميس<sup>(9)</sup>، والعيد السادس هو عيد الميلاد<sup>(10)</sup>.

(1) نعيسه: مجتمع مدينة دمشق، ج2، ص680.

(2) ابن الشحنة: الدرر المنتخب، ص95.

(3) الدمشقي: نخبة الدهر، ص280.

(4) القلقشندي: م س، ج2، بيروت، 1987م، ص454.

(5) الدمشقي، ن م، ص280، المقريري: الخطط، ج2، ص495، وسمي بهذا الاسم نسبة الى بشارة غبريال بواسطة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بمولد المسيح.

(6) عيد الزيتون: ويعرف بعيد الشعانين المأخوذ من الكلمة السريانية "سعانين" ومعناها سعف النخيل ومعناها باللغة العبرية التسييح، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور (الحمار) في القدس وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والناس حوله يسبحون ويرفعون سعف النخيل في سابع أحد من صومهم انظر الدمشقي: ن م، ص280، القلقشندي: ن م، ج2، ص495. والمقريري: الخطط، ج1، ص445، قاسم أهل الذمة في مصر، ص120.

(7) عيد الفصح: وهو العيد الكبير عن النصارى بعد صومهم الأكبر، ويزعمون إقامة المسيح في هذا اليوم بعد صلبه لمدة أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعوده للسماء. انظر القلقشندي: ن م، ج2، ص454. المقريري: الخطط، ج1، ص495 وفيه يجتمع النصارى بالقدس حول المذبح الخاص بهم ويقرؤون الانجيل وبرتل المصلون: "المسيح قام من بين الأموات" وتقرع الأجراس بعد منتصف الليل وتبقى الاحتفالات حتى ساعة متأخرة من الليل. السيد: م س، ص267.

(8) عيد خميس الأربعين: يعتقدون بأن المسيح تسلق فيه الى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه من الموت ورجع تلاميذه لبيت المقدس بعدما وعدهم بظهور أمرهم. الدمشقي: نخبة الدهر، ص280، القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص455، المقريري: الخطط، ج1، ص495، 496. وسمي عند الشاميين "السلافا" وعيد الصعود.

(9) عيد الخميس: يسمى عيد العنصرة وعيد القيامة بعد خمسين يوماً من القيام ويعتقدون بحلول روح القدس في تلاميذ المسيح وتوزعت عليهم جميع اللغات لدعوة الناس لدين المسيح انظر الدمشقي: ن م، ص28، القلقشندي: ن م، ج2، ص455. المقريري: ن م، ج1، ص496.

(10) عيد الميلاد: وهو يوم مولد المسيح في بيت لحم الموافق يوم الاثنين عشية الأحد الذي يصادف الخامس والعشرين من شهر كانون أول (ديسمبر كل عام انظر: المسعودي: مروج الذهب) ج2، ص338، وفيه يحج النصارى الى كعبتهم في بيت لحم كما يحجون الى كنيسة القيامة في عيد الفصح أو القيامة وفيه أيضاً يوقدون النار ويلعبون بالجوز اقتداءً ب يوسف النجار الذي أوقد نار لمريم العذراء عليها السلام وأطعمها بعض الجوز بعد ولادتها المسيح، انظر متز: الحضارة الاسلامية، ج2، ص285، سيرة القدس في العصر المملوكي، ص267.

وأما أعيادهم الصغيرة فكانت "عيد الختان"<sup>(1)</sup> وعيد الأربعين<sup>(2)</sup>، وخميس العهد<sup>(3)</sup>، وسبت النور<sup>(4)</sup> وحد الحدود<sup>(5)</sup>، وعيد التجلي<sup>(6)</sup>، وعيد الصليب<sup>(7)</sup>. هذا بالإضافة الى الأعياد غير الشرعية مثل عيد النيروز<sup>(8)</sup>.

- (1) عيد الختان: في ذكرى ختان المسيح عليه السلام الذي يصادف الحادي والثلاثين من أيار "مايو" عند الأقباط ويسمى الميلادة الصغيرة. البمشقي: م س، ص 281. وانظر القلقشندي: م س، ج 2، ص 455، المقريري: الخطط، ص 498.
- (2) عيد الأربعين: ويسمى عيد الهيكل، الذي يصادف الثاني من شباط "فبراير"، ويزعمون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح وامه عليهما السلام بالهيكل بعد أربعين يوماً من ميلاده المباركه. انظر الدمشقي: ن م، ص 281، القلقشندي: ن م، ج 2، ص 455، 456، المقريري: ن م، ج 1، ص 498.
- (3) خميس العهد: ويسمى خميس العرس: عند أهل الشام "خميس الأرز" و "خميس البيض" وهو قبل الفصح بثلاثة أيام ويغسل فيه البطريرك أرجل الحاضرين تقليداً للمسيح عندما غسل أرجل تلاميذه ليعلمهم التواضع ويتهادون فيه العرس والبيض والسمك، انظر الدمشقي: ن م، ص 281، القلقشندي: ن م، ج 2، ص 456. والمقريري: ن م، ج 1، ص 498، متر، الحضارة الاسلامية ج 2، ص 285.
- (4) سبت النور أو عيد كنيسة القيامة لظهور النور في هذا اليوم على قبر المسيح من السماء فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة وهو قبل الفصح بيوم في القدس انظر ابن واصل: م س، ج 2، ص 231. الدمشقي: ن م، ص 281. القلقشندي: ن م، ج 2، ص 456، المقريري: ن م، ج 1، ص 498، لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي: ص 182.
- (5) حد الحدود أو "أحد الأحود"، الذي يصادف بعد ثمانية أيام من عيد الفصح ويجددون فيه الاتهم وأثاث منازلهم انظر الدمشقي: ن م، ص 281م القلقشندي: ن م، ج 2، ص 457، المقريري: ن م، ج 1، ص 499.
- (6) عيد التجلي: الذي يصادف السابع من آب ويزعمون بتجلي المسيح لتلاميذه وبعد صعوده إلى السماء في هذا اليوم، انظر الدمشقي: ن م، ص 281، القلقشندي: ن م، ج 2، ص 457، المقريري: الخطط، ج 1، ص 499.
- (7) عيد الصليب ويصادف في السابع من ايلول احتفالاً باليوم الذي وجدت فيه هيلانة أم قسطنطين خشبة الصليب وغطتها بالذهب. الدمشقي: ن م، ص 281. والقلقشندي: ن م، ج 2، ص 45. والمقريري: ن م، ج 1، ص 499. قاسم: م س، ص 122.
- (8) عيد النيروز: يحتفل به الأقباط المقيمين أول يوم من سنتهم كما يسميه أهل الشام "نيروز". الدمشقي: ن م، ص 280. والقلقشندي: ن م، ج 2، ص 458، يقول القلقشندي: إن كلمة "نيروز" فارسية معربة: معناها اليوم الجديد واستعاره الأقباط من الفرس وعند أهل الشام أول كانون الثاني، والمقريري: ن م، ج 1، ص 501.

وبالنسبة لليهود فكانت لهم خمسة أعياد شرعية وعيدان مُحَدَّثان. أما الأعياد الشرعية فهي: عيد رأس السنة<sup>(1)</sup> وعيد صوماريا<sup>(2)</sup> وعيد المظلة<sup>(3)</sup> وعيد الفطير<sup>(4)</sup> وعيد الاسابيع<sup>(5)</sup>، والأعياد المحدثّة مثل عيد الفوز<sup>(6)</sup> وعيد الحنكة<sup>(7)</sup>. وأما عيد السامرة فكان عيد الفصح<sup>(8)</sup>.

<sup>(1)</sup> عيد رأس السنة: عيد رأس هيشا بالعبرية ومعناه عيد رأس الشهر ويقابل عيد الأضحى عند المسلمين في ذكرى محاولة سيدنا ابراهيم لذبح ابنه اسماعيل وفداء الله له بذبح عظيم انظر القلقشندي: ن م، ج 2، ص 463 ويصادف في الحادي والعشرين من ايلول ويعتبرونه عيد حرية وعقّ لخلاصهم من فرعون فيسمونه عيد البشارة انظر المقرئزي: الخطط، ج 3، ص 500، نعيمة: يهود دمشق، ومجتمع مدينة دمشق، ج 2، ص 682.

<sup>(2)</sup> عيد صوماريا: "الكبور" أو "الغفران" أو "الكفارة" وهو عندهم الصوم الكبير المفروض عليهم في هذا اليوم لمدة خمس وعشرون ساعة. انظر القلقشندي: ن م، ج 2، ص 464، المقرئزي: الخطط، ج 3، ص 500، نعيمة: يهود دمشق، ص 38.

<sup>(3)</sup> عيد المظلة: لجلوسهم سبعة أيام تحت ظلال جريد النخل وأغصان الزيتون في منازلهم تذكراً منهم لظلالهم بالغمام ويصادف في الخامس من تشرين الأول. القلقشندي: ن م، ج 2، ص 464. المقرئزي: الخطط، ج 3، ص 500. نعيمة: ن م، ص 38، ويعتبر عيد الاعتكاف عند الربابين.

<sup>(4)</sup> عيد الفطير: وسمي عيد الفصح، وذكره المقرئزي: باسم "الفاسح" ويصادف في اليوم الأول من نيسان ابريل) خامس عشر من شهر نيسان اليهودي. ويأكلون فيه الفطير في ذكرى تخليصهم من فرعون بعد خروجهم من التيه وغرقه في البحر الأحمر، انظر القلقشندي: ن م، ج 2، ص 464، المقرئزي: ن م، ج 3، ص 500، نعيمة: يهود دمشق، ص 38.

<sup>(5)</sup> عيد الاسابيع: أو "عيد العنصرة"، أو "عيد الخطاب"، وبالعبرية "عيد عشترا" ومعناها الاجتماع بعد عيد الفطر بسبعة أيام يزعمون بأن اليوم الذي خاطب الله فيه موسى عيه السلام على جبل طور سيناء بالأوامر والنواهي ويصادف في الثالث من ايار "مايو" انظر البيروني: الآثار الباقية ص 281، القلقشندي: ن م، ج 2، ص 465. المقرئزي: م، س. ج 3، ص 500. نعيمة: ن م، ص 38.

<sup>(6)</sup> عيد الفوز: "لبوريم بالعبرية" ومعناها الفوز ويصادف في اليوم الثالث عشر من آذار لمدة يومين يحتفلون فيه باللهو والخلاعة انظر القلقشندي، ن م، ج 2، ص 465-466، المقرئزي: ن م، ج 3، ص 501، 502، نعيمة: يهود دمشق، ص 38.

<sup>(7)</sup> عيد الحنكة: ومدته ثمانية أيام يوقدون فيه ثمانية سرج. البيروني: ن م، ص 278، القلقشندي: ن م، ج 2، ص 466. والمقرئزي: ن م، ج 3، ص 511.

<sup>(8)</sup> عيد الفصح: أو الفصح ويصادف في الرابع عشر من الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج في مدينة نابلس على جبل جرزيم. انظر: محمد كرد علي: خطط الشام ج 6، ص 217، نعيمة: ن م، ص 39.

وكان يوم السبت. وما زال يوماً مقدساً عند اليهود كعطلة نهاية الأسبوع وحرمة منع الطوائف اليهودية العمل فيه الذي كان عقوبته القتل<sup>(1)</sup>. وكانت القدس قبلتهم ومكان تعبدتهم<sup>(2)</sup>. وبالنسبة للموظائف الادارية التي تسلمها أهل الذمة: فقد اعتمد الأيوبيون على أهل الذمة في الوظائف الكبرى في الدولة<sup>(3)</sup>. كما احتل أهل الذمة مكانة مرموقة في الجهاز الاداري أيام المماليك في البلاد الشامية<sup>(4)</sup>. فكان كاتب الخزانة<sup>(5)</sup> عبد الله بن صنيعة القبطي في أيام السلطان صلاح الدين لاجين (696-698هـ/1298-1299م) وكان عبد الله بن تاج الرئاسة بن الغنام صاحب أمين الدين أمين الملك القبطي وزير مصر والشام زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون. كما تولى سنة 733هـ/1332م نظر الشام ونظر الخواص<sup>(6)</sup> ونظر الأوقاف في آن واحد، وتوفي سنة 740هـ/1339م بعد سجنه ومصادرة أمواله<sup>(7)</sup>. ويلاحظ مراقبة ومحاسبة كبار الموظفين لسوء تصرفهم.

(1) المقرئري: الخطط: ج 3، ص 53، ويقضون هذا اليوم في العبادة والجلوس على شرفات منازلهم ولا يخرجون الى المعبد أو المدرسة وحتى طعامهم يكون معد في اليوم السابق للكون من اللحم والفواكه والمشروبات المسكرة وقراءة التوراة فائزة حجازي: أهل الذمة في بلاد الشام في العصور الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة اليرموك 1402هـ/1992م، ص 190.

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 142-143، 145.

(3) المقرئري: السلوك: ج 1، ق 1، ص 47-48.

(4) أبو المحاسن: م س: ج 14، ص 275.

(5) كاتب الخزانة: وظيفة كبيرة إذ كانت مستودع أموال المملكة حتى انشئت خزانة الخاص فانتقل ما كان يحمل الى الخزانة الكبرى ويصرف منها الى هذه الخزانة عدا الخلع والأقمشة والتشاريق والطرز، انظر القلقشندي: م س، ج 11، ص 334. وقد أسلم في سنة 701هـ/1303م وتوفي سنة 734هـ/1334م. وخدم عند الأمير سيف الدين تنكر نائب الشام حتى جمع ثروة عظيمة ثم صودرت ونكبت لمشاركته في غش الذهب. انظر ابن حجر العسقلاني: م س، ج 2، ص 367-368. واليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص 117.

(6) انظر الخواص، أو الخاص وهي وظيفة خاصة بحال السلطان ورتبة صاحبها بدرجة وزير أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون. القلقشندي: م س، ج 11، ص 310-311.

(7) اليوسفي: نزهة الناظر، ص 116. المقرئري: الخطط، ج 2، ق 2، ص 358.

## حوادث اجتماعية ضد أهل الذمة من النصارى واليهود:

لقد كان أهل الذمة يعيشون حياتهم الخاصة بما فيها من ترف زائد في الملبس والمأكل والحياة الكريمة مما جعل السلاطين يحققون عليهم حسداً وخاصة عندما كانوا يخرجون على خيولهم المسوقة والبغال الرائعة بالحلي الفاخرة<sup>(1)</sup>، فصدرت مراسيم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 700هـ/1300م الى باقي الأقاليم للحد من تظاهروهم بهذا أمام الناس كمنافسين للسلطان في أبهة العيش، فقام العامة من الفقراء والحاquدين أصلاً على الأغنياء باستغلال المراسيم السلطانية ضدهم حملها الأمير سيف الدين قشتمر الحاجب برفقة الشريف شهاب الدين المنشئ<sup>(2)</sup>، بهدم كنائس اليهود والنصارى في القاهرة بتصورهم أن هذه المراسيم تبيح لهم النيل من أهل الذمة بمساعدة فتوى الشيخ الفقيه نجم الدين أحمد بن محمد الرفعة كما فعل أهل الاسكندرية أيضاً بهدم كنيسة للنصارى بالإضافة لدورهم الفاخرة والمجاورة لدورهم البسيطة، كما حطموا مساطب حوانيتهم لتصبح أهبط من حوانيت المسلمين<sup>(3)</sup>، بينما رفض القضاة هذه الأعمال بحجة حرية الأديان ولا توجد سابعة لها بالاسلام كما أجبر النصارى على لبس العمامة الزرقاء لتمييزهم عن المسلمين وعندما يخالفون ذلك كانت الأوامر السلطانية تبيح نهب أموالهم وحریمهم وتحريم عملهم في الأملاك السلطانية اضافة الى اعتداء العامة عليهم بالأكف والنعال<sup>(4)</sup>.

وهكذا نرى أن نتيجة هذه الاجراءات هو إثارة عوامل الحقد والجسد والكراهية بين طبقة العامة من المسلمين وأهل الذمة ولولا تدخل السلطة للمحافظة على الاستقرار الاجتماعي ولمنع اعتداءات العامة عليهم. كما حدث سنة 714هـ/1314م برواية المقرئ بمعاقبة علي بن السباق الذي خرج يوم الجمعة في ذي الحجة سنة 714هـ/1314م وهو يضرب بسيفه كل من وجده من اليهود والنصارى وذلك بقتله<sup>(5)</sup>. ورغم ذلك فهذه حادثة فردية لا يمكن التعميم بها على

(1) المقرئ: السلوك: ج 1، ص 909. وابن اياس: م س، ج 1، ص 143. وأبو المحاسن: م س، ج 8، ص 133.

(2) ابن حجر: م س، ج 3، ص 333-334.

(3) المقرئ: ن م: ج 1، ص 912. وأبو المحاسن: ن م، ج 8، ص 134-135.

(4) المقرئ: ن م: ج 1، ص 914-915. وابن حجر: م س، ج 2، ص 276. وأبو المحاسن: ن م، ج 8، ص 134-135.

(5) المقرئ: ن م، ج 2، ص 139-140.

جميع عامة المسلمين كما تدخلت السلطة بعزل قاضي مصر شمس الدين الحريري لقسوته على أهل الذمة عام 717هـ/1317م<sup>(1)</sup>.

كما قام العامة بدمشق بهدم كنيسة لليهود سنة 721هـ/1221م<sup>(2)</sup>. وهدموا كنيسةين بالزهري وبستان السكري<sup>(3)</sup>، واستمرت الدعوات في اقليم مصر بهدم الكنائس<sup>(4)</sup>. هذا الى جانب المشاجرات اليومية في الاسواق العامة بين المسلمين وأهل الذمة كما حدث سنة 727هـ/1326م في الاسكندرية حيث اقتتلوا بالسلاح فسار اليهم ركن الدين الكركي متولّي ثغر الاسكندرية، وحاول حماية الفرنجة ولكن العامة قاتلوه وهزموه فاخبر السلطان بذلك فغضب وأرسل النجيدات لتوفير الأمن والسلامة<sup>(5)</sup>. وقد انتقلت اخبار هذه الحوادث الى اقاليم بلاد الشام وبغداد، وتأثر بها أهل الذمة هناك<sup>(6)</sup> كما شمل التجار الفرنجة الغرباء في الاسواق المملوكية.

وبالنسبة لموقف السلطات الحاكمة فقد ضربت بيد من حديد كل من تسول له نفسه بإثارة النعرة الطائفية وتغذيتها من المسلمين والذميّين أيضاً وذلك لتوفير الاستقرار الاجتماعي للجميع كما حدث من عقاب السلطة للعامة سنة 742هـ/1341م<sup>(7)</sup>.

كما طبق المماليك المرسوم العمري<sup>(8)</sup> الخاص بوضع أهل الذمة في المجتمعات الاسلامية عند تأزم الأحوال عندما كان النصارى يتباهون في التعالي على المسلمين في اظهار الترف

(1) المقريري، السلوك، ج2، ص173.

(2) ن م، ج2، ص215.

(3) ن م، ج2، ص616، والخطط: ج2، ص512-513، ص303-304. وأبو المحاسن: م س، ج8، ص133-135.

(4) المقريري: السلوك، ج2، ص216-218، ص228، والخطط: ج2، ص325، 512-517. وابن حجر: م س، ج3، ص15-18. وأبو

المحاسن: ن م، ج9، ص72-62.

(5) المقريري: ن م، ج2، ص284-286. وابن حجر: ن م، ج1، ص435-434، ج2، ص42-43، ج5، ص124.

(6) المقريري: ن م، ج2، ص390.

(7) المقريري: ن م، ج2، ص599. وابن اياس: م س، ج1، ص178-179. وأبو المحاسن: ن م، ج10، ص56.

(8) في خلافة عمر بن الخطاب حيث ورد فيها ما يلي: "الا يحدثوا في البلاد الاسلامية وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة ولا يجددوا منها ما عرّب، ولا ينعوا من كنائسهم التي عاهدوا عليها أن ينزل بها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعموه له ولا يكتبوا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا ينعوهم من الاسلام



والإبهة في عيشهم من لباس وطعام وسكن فاخر بقصد التفاخر والترفع لا يذاء مشاعر المسلمين  
كما حدث سنة 755هـ/1354م<sup>(1)</sup>.

وقد كتب عهد بين المسلمين وأهل الذمة في زمن الناصر محمد في رجب سبعمائة هجرية  
وعندما انتهى كاتب السر علي بن فضل الله من قراءته على بطريك النصارى ورهائنة  
اليهود أجابوا بالسمع والطاعة وكان نصه:

"حيث أمر النصارى بلبس العمام الزرق واليهود العمام الصفرة والسامرة العمام الحمر  
وتميز نساء أهل الذمة زمن المماليك بشد الزنار فوق الإزار وفي عنقها خاتم رصاص يدخل  
معها الحمام ومنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح، ويسمح لهم بركوب الخيل الحمر بالأكف<sup>(2)</sup>  
عرضاً من غير زينة ولا يرفعون اصواتهم على أصوات المسلمين وعدم علو بنيانهم على بناء  
المسلمين، وعدم اظهار شعائرهم وضرب النواقيس<sup>(3)</sup>. ولا ينصرون مسلماً ولا يهودياً ومنعهم  
من شراء الرقيق المسلم. كما يجب عليهم تمييز أنفسهم عند دخولهم الحمامات العامة بتعليق  
جرس في رقابهم وعدم النقش على خواتمهم بالعربية، وعدم تعليم أولادهم القرآن أو استخدام  
المسلم في الأعمال الشاقة، وكان الزاني منهم بمسلة يقتل".

وتم ذلك بحضور بطريك النصارى ورئيس اليهود الذي تعهد كل منهما بعدم مخالفة ذلك  
وعُمم هذا الأمر على امراء الشام ما عدا الأمير جمال الدين أقش الأشرقي نائب السلطنة في  
الكرك الذي اعتذر عن تطبيق هذه التعليمات لأن معظم سكان الكرك نصارى وبها قليل من  
المسلمين وطبق ذلك على الشوبك أيضاً<sup>(4)</sup>. ولما مُنعوا من الخدمة بالديار المصرية أسلم جماعة  
منهم للحفاظ على مناصبهم ظاهرياً ولكنهم استمروا على ما كانوا عليه قبل اسلامهم<sup>(5)</sup>.

وعندما قرئ المرسوم في الجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص هاج المسلمون بعد  
صلاة الجمعة وامسكهم من الطرقات واكروههم على الاسلام وضربوهم حتى يلفظ بالشهادتين

(1) الخطط: ج2، ص273-277، القلقشندي: ن م، ج13، ص378-387.

(2) الخطط: ج2، ص273-277، القلقشندي: ن م، ج13، ص378-387.

(3) ن م، ن ص.

(4) المقرئ: السلوك: ج2، ص960-961.

(5) ن م، ن ص.

وحرقوا بعضهم. فصدرت الأوامر السلطانية بعدم التعرض لهم<sup>(1)</sup> بعدما حل بهم من البلاء الشديد كما غضب نصارى الوجه القبلي في مصر نتيجة مكرهم واطماعهم ومخالفتهم للعهد فأعاد فرض الجزية مضاعفة عليهم سنة 721هـ وألزمهم تغيير زيهم بأن يلبسوا عمام وحباب زرقاً وشد الزنار على أوساطهم كما أمر بعدم استخدام أي منهم في وظائف الدولة، وجعل عقوبة المخالف الإعدام<sup>(2)</sup>. كما سار ابنه الملك الصالح (صلاح بن الناصر بن قلاوون) الذي أعاد التأكيد والتمييز في اللباس وتشدد في تطبيق العهد المنسوب إلى عمر بن الخطاب عام 755هـ ويرى بعض المؤرخين أن دولة المماليك لم تستغني عن خدمات أهل الذمة وبقي المرسوم السابق حبراً على ورق.

كما أصدر السلطان الأشرف شعبان سنة 764هـ/1363م مرسوماً بتقليد بطريك النصارى اليعاقبة، لبسط الحماية على الطائفة المسيحية<sup>(3)</sup>.

وكان الملك المنصور قلاوون قد أصدر مرسوماً عام 684هـ/1286م بإسناد رئاسة اليهود إلى الطبيب ابن المذهب<sup>(4)</sup> كما منعوا من الخدم بعد إسلامهم وهدم المسلمون كنائسهم المستجدة ونهبوها<sup>(5)</sup>.

وقد أسلم عدد كبير من نصارى مصر حتى أنه أسلم في مدينة قليوب في يوم واحد حوالي أربعمائة وخمسون شخصاً وتزوج هؤلاء من مسلمات الأرياف وصار أولادهم من العلماء والقضاة<sup>(6)</sup>.

(1) الخطط: ج2، ص246-264.

(2) انظر القلقشندي: م. س. ج13، ص378-387.

(3) ن. م. ج11، ص397-400.

(4) ابن الفرات: م. س. ج8، ص18-19.

(5) المقرئ: الخطط، ج2، ص14، 36، 146-147.

(6) المقرئ: السلوك، ج2، ص921-927.

## رابعاً : الملابس

### مقدمة:

ومن حيث اللباس نود الإشارة الى أنّ الناس في صدر الاسلام لبسوا ما وصل اليهم من اللباس الساذج حتى أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي إذ بدؤوا يتفنّنون في التأنق والتبرّج وخاصة النساء والغلمان، وقد قلدهم الفاطميون والأندلسيون بذلك ثم الأيوبيون والمماليك الذين أكثروا من الألوان ولبسوا على رؤوسهم أنواعاً غريبة من الطواقي والكلوتات، والكالاهان، والدنبيكات، والأقباع كما كانوا يطيلون شعورهم في أكياس من الحرير الأحمر أو الأصفر خلف ظهورهم، ويشدون على أوساطهم بنوداً من صنع بعلبك، وفوق قماشهم إيزيم جلد وفيه نحاس وفي ذلك الإيزيم ملعقة كبيرة من الخشب وسكين كبيرة، واستعلموا مناديل من الخام بمقدار فوطة كبيرة لمسح ايديهم. واستمرت العادة على هذه الحالة حتى جاء السلطان الذي أمر بمنع هذه الثياب المضحكة والشنيعه<sup>(1)</sup>. وقد ذكر عبد الرحمن بن نصر الشيرازي في كتابه نهاية الرتبة في طلب الحسبة<sup>(2)</sup> فصلاً مطولاً في الحسبة على الخياطين. يلاحظ منه غلبة الشر على أحوال الناس الاجتماعية أمام الأزمات الاقتصادية إذ تميزت بالغش والدناءة فكثّر المصلحون والداعون إلى الخير.

(1) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، ج1، ص329.

(2) حقي: تاريخ العرب، ج7، ص182-183. قال فيه: "يؤمرون بمجودة التفصيل وحسن فتح الجيب وسعة التخاريس واعتدال الكمين، والأطراف، واستواء الذيل والأجود أن تكون الخياطة درزاً لا شلاً والأبرة دقيقة، والخيط قصير، لأنه اذا طال اتسخ، ومما ذكره من طريق حيل الخياطين في ذلك الوقت قوله: فمنهم من اذا خاط ثوباً حريراً أو نحوه كفه وحشاه رملاً وأتراباً ويسرق بقدره من الثوب اذا كان موزوناً عليه ومما يذكره في الكلام على الرفائين أن يخلفهم صاحب الحسبة على أن يلا يرفوا لأحد من الخياطين والقصارين ثوباً مخرقاً لا بحضور صاحبه، ولا ينقل المطرز أو الرقام رقم ثوب الى ثوب آخر.

## أزياء السكار في شرقي الأردن زمن الصليبيير والأيوبيير:

كان لباس أهل الريف الذرّاعة<sup>(1)</sup> "الجبة أو الفرجية"<sup>(2)</sup> فكان من مميزات لباسهم أنه كان واسع الأكمام مفتوحاً من الأمام<sup>(3)</sup>، أما لباس الرأس فكان العمائم البيضاء عند المسلمين والنصارى وامتاز بعضها بلثامين<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة لملابس الصيف فكانت خفيفة تميل للون الأبيض من القطن، بعكس ملابس الشتاء الثقيلة من الصوف والفرو، إذ امتازت مدينة عجلون في شمالي الأردن بوجود سوق للفرائين كما هو الحال حتى اليوم إذ نشاهد الفرائين في مدينة إربد. ومن مظاهر الافتخار باللباس في المناسبات الاجتماعية كان التمنطق بالسيف العربي ذي الحدين<sup>(5)</sup>.

أما الأحذية فكانت من القباقيب الخشبية<sup>(6)</sup> داخل المنزل، وخاصة للحمام من أجل الوضوء والغتسال وقد استمرت هذه العادة حتى اليوم، كما لبسوا الزربول والخف الجلديين المكشوفين من أعلى عند البدو<sup>(7)</sup> الذين مازالوا يستخدمونها حتى اليوم.

وكانت النساء تضع الخمار على وجوههن حتى قلدهن بذلك النساء الصليبيات اللاتي أعجبن بالخمار فكن لا يخرجن إلا للضرورة القصوى للحمامات أو الكنائس<sup>(8)</sup>.

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 183.

(2) ماير: الملابس المملوكية، ص 30.

(3) أي الكاملين المفرجة التي تلبس فوق الثياب كالجبة مع ضيق عند الكم مفرجة الذيل من الخلف، ماير: ن.م. ص 25.

(4) ابن قاضي شهبه: الإعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج 1، ورقة 26، مخطوط. والمقريري: السلوك: ج 2، ص 209، ج 4، ص 160.

(5) ماير: ن.م. ص 79.

(6) السخاوي: م س، ج 1، ص 157.

(7) ابن قاضي شهبه: ن.م. ج 1، ورقة 67، مخطوط وماير: ن.م. ص 34، حاشية رقم 2.

(8) سعيد عاشور، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص 240. وهي مقالة من كتاب تاريخ بلاد الشام ما بين القرن السادس الى القرن

السابع عشر وهو ثبت كامل لأعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، المتعقد في الجامعة الأردنية من 28 ربيع الأول - 2 ربيع الثاني

من عام 1344هـ - 20 / 25 نيسان 1974م. Runciman, Ibid, 11, p.317.

وبالنسبة للملابس الخارجية للفلاحين : لقد اختلفت في بلاد الشام من منطقة لأخرى، إلا أنها كانت متشابهة على الأغلب<sup>(1)</sup>. ففي قرى فلسطين المنتشرة حول القدس ونابلس مثلاً كان كساء الجسم ثوباً طويلاً من الرأس الى أخمص القدمين، أبيض اللون ولم يلبسوا شيئاً تحته<sup>(2)</sup>.

أما العباءة "المدففة" فقد لبسها بعض الفقراء ومتوسطي الحال في القرى بينما لبس الأغنياء العباءة "المقشبة" المصنوعة من الشال في المناسبات العامة خارج بلدتهم<sup>(3)</sup>. والكمر أي الزنار: الذي استخدمه جميع فلاحى القرى<sup>(4)</sup>. والدرعية أو المدرعة أو الدراعة المصنوعة من الصوف بما يشبه الثوب القصير فقد ارتداها الفلاحون والكتاب. والجبّة<sup>(5)</sup> والقفطان والقنّاز<sup>(6)</sup>، بينما لبست النساء الریط أو الملحفة أو الإزار أو الحبرة وهو عبارة عن ثوب رقيق تلفة المرأة حول نفسها فوق جميع الثياب<sup>(7)</sup> والذي مازال مستعملاً عند بعض نساء الفلاحين في قرى فلسطين في وقتنا الحاضر.

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 166-167. قال: "ولأهل الشام تجمل بلبسون الأردية كل عالم وجاهل، ولا يتخففون في الصيف، إنما هي نعال الطاق، ....، وضع اليزازين بالرملة حمر مصوبة بسروج ولا يركب به الخيل الا أمير أو رئيس ولا يتدع الا أهل القرى والكتبة ولباس الفريقين برستاق وإيليا ونابلس كساء واحد حسب بلا سراويل".

(2) القاسمي: محمد سعيد ت (1317هـ/1900م)، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظاهر القاسمي، باريس، 1928، ج2، ص302.

(3) القاسمي: ن م، ن ص. والكمر: ما يشد به الوسط كالزنار اليوم.

(4) سزايح: فلسطين، ص39.

(5) الجبة: رداء مفتوح فوق الرداء الأول القفطان: الذي يشبه الثوب وكانت جبة الأغنياء قصيرة ومزركشة. أحمد رمضان، م.س. ص214.

(6) القنّاز: وهو فارسي الاصل، يعرف باسم الشعباز وهو من الملابس الخارجية التي كان فلاحو بلاد الشام يتباهون بلباسها ومازالوا حتى اليوم، إذ يطلق عليه العامة في قرى شمال الأردن "المزنوك". أحمد رمضان، ن م، ن ص.

(7) دوزي: معجم اللباس، مجلة اللسان، ص37، 38.

وبالنسبة للأحذية فقد كانت "الزربول"<sup>(1)</sup> والنعال والمداس<sup>(2)</sup> للرجال أما النساء فاستخدمن "البابوج العادي"<sup>(3)</sup>، والقبقاب<sup>(4)</sup>.

وأما لباس الرأس: فكان الكوفية والعقال المرعز والطاقيّة تحتهما<sup>(5)</sup> أما لباس المرأة الريفية على الرأس فكان الخمار<sup>(6)</sup> والعصابة<sup>(7)</sup>.

أما الملابس الداخلية: فكانت عند الرجال القمصان الطويلة المرسلة الأردان الواسعة، والتبّان<sup>(8)</sup> والسرّاويل، والإزار<sup>(9)</sup>. وعند النساء القرويات "الأتب" وهو ثوب تشقه المرأة وتضعه في عنقها من غير كمين ولا جيب<sup>(10)</sup> وقيل الأتب ما قصر من الثياب حتى نصف الساق وغير مخيط الجانبين وتسميه نساء الفلاحين في شمال الأردن "الشلحة" في وقتنا الحاضر.

(1) الزربول: نعل: أي مداس كبير يصنع في سوق الزرابلية" لفلاحين لمئاته حيث يبقى في رجل الفلاح سنين عديدة، وكلما ثقب أسفله أضاف إليه جلدًا غليظًا. القاسمي: ن م، ج 1، ص 165.

(2) النعال والمداس: كل ما يلبس في القدم دون تمييز: ابن سيدة م. س. ج 4، ص 114. فقد استعمل سكان السهول النعال الخفيفة بينما استعمل سكان الجبال الحذاء الطويل المعروف بالجزمة كما استعملوا أحذية بسيطة كانت تسمى "بالتاسومة" فالخ: الحياة الزراعية، ص 152.

(3) البابوج: حذاء مصنوع من الجلد المعكوف الرأسى وقصير جدًا: القاسمي: ن م، ج 1، ص 75.

(4) القبقاب: قطعة خشبية ذات كعب فوقها قطعة من الجلد للمنزل غالبًا، فالخ: م س، ص 152.

(5) دوزي: معجم اللباس، مجلة اللسان، ص 48، والقاسمي: م. س. ج 2، ص 316. ماير: م س، ترجمة صالح الشبيبي: القاهرة، د. ت. ص 90.

(6) الخمار: غطاء الوجه وقد وصفه البعض بأنه الجلبان الذي يغطي الرأس والبدن. ابن سيدة: أبو الحسن الأندلسي، ت 458 هـ/ 1010 م كتاب المختص، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت.) ج 4، ص 2، وأحمد رمضان، م. س. ص 215.

(7) العصابة: كل ما يعصب به الرأس ابن منظور، م. س. ج 1، ص 602، ماير: ن م، ص 126.

(8) التبّان: متن لباس البدن الداخلي، وهو عبارة عن سروال صغير يستر العورة ويسميه الفلاحون هذه الأيام في بلادنا "بالكلسون" ويناسب عمل الفلاحين والملاحين. ابن منظور: لسان العرب، ج 13، ص 72، ماير: الملابس المملوكية، ص 124. وقد أشار الجاحظ إلّا أن العرب كانوا يترفعون عن لبس الجربان والتبّان. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ت 255 هـ/ 858 م. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط 3، مؤسسة الخانجي، القاهرة، د. ت. ج 2، ص 97. بينما ذكر أحمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، 1977، ص 212 "أن طبقات العامة كانت لا تجد غضاضة في لبسه وهذا الاختلاف في الرأي نابع من الفارق الزمني بينهما الذي يقارب سبعمائة عام إذ اعتاد عليه الناس فيما بعد وما زالوا يلبسونه حتى اليوم.

(9) أحمد رمضان: ن م، ص 213.

(10) ابن سيدة، ن م، ج 4، ص 86.

## الملابس المملوكية:

لقد لبس امراء العرب قبل الناصر محمد بن قلاوون الطراوير الحمر تحت العمام الشامية المصنوعة من القطن، كما كانت خلعهم مسمطاً أو كنجياً<sup>(1)</sup> أما اشراف العرب من آل الرسول فكانت عمامهم مميزة بخط أخضر تمييزاً لهم عن غيرهم وتعظيماً لقدرهم كما لبسوا العباءة والعقال والكوفية<sup>(2)</sup>. كما لبست النساء الكوفية على رؤوسهن مربوطة عند الرقبة<sup>(3)</sup>، وتغطي وجهها بمنديل وجسمها بازار عند الخروج وخف في رجلها<sup>(4)</sup> حيث كان أهل الشام يلبسون صيفاً نعال الطاق<sup>(5)</sup>.

وقد اهتم بعض السلاطين بتقديم هدايا ثمينة لنساء العرب كالناصر محمد بن قلاوون<sup>(6)</sup> من ذهب وفضة وأحجار كريمة ولبس الزي العربي لبني كلاب لحبه وميله لهم<sup>(7)</sup> وكانت هناك طوائف أخرى مثل التركمان وغيرهم تشتغل نساؤهم بغزل الصوف ونسج السجاد لاعتمادهم على تربية الماشية في معيشتهم. أما ملابس العرب فكانت مطرزة بالحرير الأطلس والخلع البابلي.

وفي العصر المملوكي لم يكن للناس حرية ارتداء ما يرغبون حيث كان للسلطان حق التدخل في تحديد الزي وقصر ارتداء أنواع معينة على جماعة معينة من الناس<sup>(8)</sup>. فكان رجال الدولة وامراؤها وقضاتها يرتدون السراويل وشاركهم النساء ذلك<sup>(9)</sup> وكانت نساء بعض مدن الشام كمدينة نابلس مثلاً يلبسن كساء واحداً بلا سراويل<sup>(10)</sup>، وكان الأمير

(1) المسمط: قماش حرير أصفر وأحمر مزركش بنقوش. والكنجي: قماش منسوج من القطن، وحرير: المقريري: السلوك، ج 1، ص 3، ص 847، ج 2.

(2) ابن اياس م.س. ق 1، ص 528.

(3) ابن تغري بردي: م.س، ج 8، ص 142.

(4) ن.م. ج 7، ص 331.

(5) المقديسي: م.س. ص 183.

(6) المقريري: السلوك، ج 2، ق 2، ص 529.

(7) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 215.

(8) سعد الخادم: الأزياء الشعبية، القاهرة، 1961، ص 18.

(9) المقريري: السلوك، ج 1، ص 172.

(10) المقدسي: أحسن التقاسيم، ليدن، 1906، ص 187.

العربي يلبس تشريعاً أطلسياً أسوة بنائب السلطان<sup>(1)</sup>، كما لبس العرب الخلع البابلي السكندري<sup>(2)</sup>، والمطرز بالذهب<sup>(3)</sup> هذا ولبست النساء الشاميات في عهد السلطان حسن بن قلاوون الطرحة والفرجيات التي بلغ ثمن الواحدة منها عشر آلاف دينار<sup>(4)</sup> وكانت حليهن خلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهبية المرصعة والأزر الحريرية بينما كان لباسهن قبل محمد بن قلاوون ثوب قطني وبرقع مصوغ وسوار حديدي في يدها<sup>(5)</sup>.

وأما الملابس المملوكية الخاصة بالسلطين فكانت: شعار السلطنة: الذي يقصد به أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان السلطان يظهر بها في الموكب والحفلات مثل موكب السلطة وموكب لكسر الخليج عند وفاء النيل.

وموكب صلاة العيدين ونحوها. ومن هذه الملابس والأدوات: زمن الدولتين الأيونية والمملوكية<sup>(6)</sup> الغاشية وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تُحْمَلُ بين يدي السلطان عند الركوب في الموكب حيث يحملها أحد الركاب دافعاً إياها على يديه يميناً وشمالاً.

ومنها المظلة: وتسمى "الخبر" وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، في أعلاها طائر من فضة مطليّة بالذهب تُحْمَلُ على رأسه في العيدين، وهي من بقايا الفاطميين<sup>(7)</sup>.

ومنها الرقبة: وهي رقبة من أطلس مزركشة بالذهب بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها وتجعل على رقبة الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس الى نهاية عرفه.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص205.

(2) ماجد: الحضارة الإسلامية، ص113، 114.

(3) القلقشندي: ن م، ج4، ص40، ذكر المطرز لا يلبسه الا من كان له اقطاع في الحلقة.

(4) ن م، ج4، ص4، سعيد عاشور: العصر المملوكي، ص416، 438.

(5) ابن تغري بردي: ن م، ج9، ص174. المغربي: السلوك، ق2، ص529، والبرقع: هو قطعة قماش أسود ويلبس على الوجه وفيه ثلاثة نقوب للعينين والأنف وما زال مستخدماً عند معظم نساء الخليج العربي وخاصة في دولة الإمارات العربية المتحدة.

(6) القلقشندي: ن م، ج2، ص127، ج4، ص7-8.

(7) ن م، ج4، ص7-8.



**ومنها الجفنة:** وهي اثنتان من أو شافية اصطبله قريبان في السن، عليهما قباءان اصفران من حرير بطراز مزركش، وعلى رأسها قبعتان من زركش وتحتها فرسان أشهبان بربقتين كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان ويركبان<sup>(1)</sup> أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير، وتسمى اللعب بالأكرة.

**ومنها الأعلام:** وهي عدة رايات منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة. وراية أخرى في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر تسمى السناجق ويلاحظ أنه كان لكل موكب ترتيب معين<sup>(2)</sup>. وكانت العادة إذا ولي المملكة من اولاد السلطان فإنه عند ولايته يحضر الأمراء الى داره بالقلعة<sup>(3)</sup> وتظهر عليه الخلعة الخليفة السوداء ومن تحتها فرجية خضراء.

وعمامة سوداء مدورة ويقلد بالسيف العربي المذهب، ويركب فرس النوبة ويسير الأمراء بين يديه والغاشية أمامه، والجاويشية تصيح وتعزف الشبابة السلطانية بالنفخ، الى أن يعبر باب النحاس الى درج الأيوان المعروف بدار العدل فينزل عن الفرس ويجلس على التخت<sup>(4)</sup>، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدمون إليه ويقبلون يده على قدر رتبهم ثم يؤدي ذلك مقدمو الحلقة، فإذا فرغوا حضر القضاة والخليفة فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء، ويشهد عليه ذلك، ثم ينصرف ومعه القضاة فيجدد السباط للأمراء، فإذا انتهوا من الأكل يدخل السلطان المقصورة وينصرف الأمراء<sup>(5)</sup>.

**أما الطراحة:** وجمعها طراريج فهي مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس<sup>(6)</sup>.

(1) الأكرة: يراد بها اللعبة المعروفة الآن باسم polo المقيزي: ج 1، ص 444.

(2) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 44-49.

(3) المقيزي: المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 209.

(4) تحت الملك: وهو منبر من رخام بصدر ايوان السلطان الذي يجلس على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند الى الحائط، ويجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل عليه وفي سائر الأيام يجلس على كرسي من خشب مغطى بالحرير بقدر ارتقاء رجليه، وفي داخل مقصورة يجلس على كرسي صغير من حديد يحمل معه الى حيث يجلس. القلقشندي: م س، ج 4، ص 6-7.

(5) المقيزي: المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 204، ورد هذا الوصف في تولية أحد أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

(6) ابن واصل م. س. ص 371.

والقوطة: مرادف للبقجة وهي قطعة قماش من الحرير الإسكندري تحمل فيها الأوراق

الرسمية مرتبة الى حضرة السلطان<sup>(1)</sup>.

### الخلع المملوكية:

لقد كانت قسمين الخلع الخليفة والخلع السلطانية وقد سميت هذه الخلع بالتشريف<sup>(2)</sup>.

### الخلع الخليفة:

وبالنسبة للخلع الخليفة فقد كانت رمزية يقدمها الخليفة العباسي في القاهرة للسلطان المملوكي الجديد. وتتكون من فرجية حرير بنفسجي بطراز ذهبي ودائرها من رأس كمها وعاتقيها وذيلها تركيبة ذهب وتحتانية من حرير أزرق وكان يُلبسُ السلطان عمامة عربية من حرير أسود على قبع حرير أسود وارخي لها عذبة حرير مزركش ويجلس على تخت الملك ومد السماط بالايوان فأكل من حضر كالعادة ثم يقوم السلطان ويخلع على الأمراء<sup>(3)</sup>. وأما الخلع السلطانية فكانت ثلاثة أنواع: لأرباب السيوف<sup>(4)</sup>، والأقلام والعلماء<sup>(5)</sup>.

وبالنسبة لكبار الأمراء فإنه يمنح زيادة سيفاً مٌطلى بالذهب وفرساً مُسرَّجاً بلجام ذهبي وقد مُنح صاحب حماة ونائب الشام فرسان وزاد نائب الشام وأما خلع صغار الأمراء فكانت تُصنَعُ بدار الطراز في الاسكندرية والقاهرة ودمشق وهي مكونة من قماش جوخ مزركش بالذهب وعليها السنجاب والقندس<sup>(6)</sup>.

وأما خلعة الخطباء فكانت مدورة مكونة من شاش أسود وطرحة سوداء 'كشعار العباسيين' وكان على المنبر علمان اسودان مكتوبان بالأبيض او الذهبي وأما المُبلِّغ والمُؤذِّن فكان لباسه

(1) المقرئ: السلوك، ج 1، ص 578.

(2) القلقشندي: ن م، ج 4، ص 52.

(3) ن م، ن ص. وسميت هذه الخلع الخليفة بالتشريف أيضاً. المقرئ: السلوك، ج 3، ق 1، ص 287.

(4) العمري: م.س. ص 130 والمقرئ: الخطط، ج 2، ص 227، 228.

(5) وأما خلع أرباب الأقلام فكانت بالنسبة للقضاة والعلماء فكانت من الصوف بغير طراز لهم الطرحة وكان أرقاه اللون الأبيض وتحت الأخضر.

(6) ن م. ن ص. والقلقشندي: ن م، ج 4، ص 53، وقال "وهذه الأصاغر أمراء المئين ومن لحق بهم وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندا والولاة ومن يجري مجراهم".

أسود كالخطيب عدا الطَّرْحَة ويده سيف يسلمه للخطيب. ومن الخلع السلطانية الأخرى فكانت أن يُعَدَّ له كل عيد خلعة ليخص بها بعض كبار أمراء المثنين.

كما وُزِعَتِ الخلع في مناسبات أخرى عندما كان السلطان يلعب بالكرة إذ يوزعها على الجوكاندار والولاة والصيادين الذين يقدمون له صيدهم من الغزلان والنعام، وكذلك للبزداوية وحملة الجوارح "صقور الصيد" وهذه العادة مازالت متبعة لدى الشيوخ حكام في دولة الإمارات العربية المتحدة. التي شاهدها الباحث هناك بل حملها على يده كما يوزعها على غلمانه المرافقين له في الصيد<sup>(1)</sup>.

كما وهب الخلع للتجار الذين يحضرون له الجواري والرقائق الأبيض واللحوم والتوابل والحلوى والأعلاف والخيول<sup>(2)</sup>.

#### أما المناسبات التي يتم فيها الانعام بالتشريف فأهمها:

أ- عند تولية أمير وصاحب منصب كان يُلبَسُ تشريفاً يناسب الوظيفة التي عين فيها رتبته.

ب- في عيد الفطر يُخلع على جميع أرباب الوظائف من الأمراء وأرباب الأقاليم كالاستادار والدوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم كل منهم بما يناسبه.

ج- في كل عيد يعد السلطان خلعة على أنها لملبوسه من خلع اكابر المثنين ولا يلبسها ولكن يختص بها احد اكابر المثنين يخلعها عليه.

د- في احتفالات الميادين يخلع على اكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمر أو كبير يلبس فيه خلعة من المفرج الذهب.

هـ- في دوران المحمل في شوال يخلع على أرباب الوظائف بالمخمل كالقاضي والناظر والمحتسب والشاهد والمقدمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشرها ومن في معناهم<sup>(3)</sup>.

(1) العمري: ن م، ص 134-135.

(2) العمري: ن م، ص 136، والمقريري: ن م، ص 228.

(3) القلقشندي: م س، ج 4، ص 53-54.

## الزي المملوكي للطبقة الأرستقراطية:

لقد كان زيهم الأقبية التتيرية والتكلاوات فوقها<sup>(1)</sup>. ثم القباء الاسلامي فوق ذلك حيث يشد عليه السيف والمنطقة. وأما الأمراء والمقدمون وأعيان الجند فكانوا يلبسون فوق الأقبية التتيرية والتكلاوات أقبية قصيرة الأكمام وأقصر من القباء التحتاني.

وبالنسبة للباس الرأس فكانوا يلبسون كلوتات صغيرة معظمها من الصوف الملطي الأحمر وفوقها عمام صغار<sup>(2)</sup> كما لبسوا الخف المؤشّى بالمهاميز<sup>(3)</sup> وكان من مظاهر الترف عمل المُدِيل في الحياصة<sup>(4)</sup> على الصولق<sup>(5)</sup> من الجانب الأيمن. وأما الوزراء والكتاب فقد امتاز زينهم بلبس الفرجيات المُفَرَّجة من الصوف ومن المجرات<sup>(6)</sup> صناعة الاسكندرية والنصافي

(1) التكلاوات: أنواع من الأردية. العمري: م، ص، 99.

(2) الكلوتة: لباس الرأس، المقريري: الخطط، ج2، ص98-94. وقد كان السكان والأمراء وسائر العسكر يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء بغير عمامة فوقها إلى أن أدخل المنصور قلاوون لبس العمام من الشاش وتطورت العمام زمن الناصر محمد بن قلاوون حتى سميت بالعمام الناصرية. انظر القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي: ضوء الصبح المسفر، طبعة مصر 1324هـ/1906م ص39-40. وماير: الملابس المملوكية، ص51-52. والكلوتة: غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة، وتجمع كلوتات وكلوات وتسمى أيضاً كلفة وكلفتاه وكلقته ويقابلها بالفرنسية calotte واللفظ اللاتيني "calautica" ويقول البعض من اللفظ اللاتين calve أي غطاء أعلى الرأس، كما يقول فريق ثالث أنه مغرب من اللفظ الفارسي كلوتة وقد استمر سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة. بمصر. المقريري: ج1، ص439. فكان الأيوبيون يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمام وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، كما استخدمها أمراؤهم وجنودهم ومماليكهم ن، م، ن. ص. واستمر هذا اللباس إلى اواسط دولة المماليك البحرية، فلما ولي السلطان المنصور قلاوون السلطنة أضاف لبس الشاش على الكلوتة.

وفي عهد ابنه الاشرف خليل أمر الأمراء بلبس الكلوتات المزركشة بين مماليكهم وترك الكلوتات الجوخ الصفر لمن دونهم على أنها ظلت تلبس فوق ذوائب الشعر المرخاة على ما كان عليه الأمر أولاً. إلى أن غير السلطان قلاوون ذلك بحلق الرأس فحلق الأمراء رؤوسهم ثم حلت الكلوتات اليلغاوية المنسوبة للأمير يلبغا الخاصكي العمري محل العمام الناصرية، القلقشندي: ن، م، ج4، ص5-6. والمقريري: الخطط، ج2، ص98. واستمر ذلك حتى عهد السلطان برقوق (سلاطين دولة الجراكسة) حيث أحدث برقوق الكلوتات الجركسية الأكبر من اليلغاوية. ومن أغطية الرأس الشربوش والطاقتة حيث كان الشربوش يلبس مع الخلع السلطانية. ن، م، ج2، ص99، ويسمى في بلاد الشام اليوم الطربوش: التريوش كما يلاحظ أن رجال الدين في مصر وبلاد الشام مازالوا يلبسون الطربوش الملفوف بقطعة شاش أبيض والشربوش بشكل مثلث على هيئة تاج يلبسه أحد السلاطين لامرائها تكريماً له، المقريري: السلوك، ج1، ص49. ويلاحظ بأن كبار السن من التجار والأغنياء في هذه الأيام مازالوا يلبسونها في بلاد الشام.

(3) المهاميز: مفردا مهماز وهو عبارة حديدية في مؤخرة الخف. ابن منظور: لسان العرب، 20 جزء، نشر المطبعة الأميرية، بولاق،

1300-1307هـ، ج7، ص293. والمقريري: ن، م، ج2، ص97-98.

(4) الحياصة: المنطقة: وكانت جواص الأجناد في البداية اربعمائة درهم فضة ثم عمل المنصور قلاوون حواص الأمراء الكبار وثلاثمائة

دينار وفي زمن الناصر محمد اتخذوها من الذهب المرصع بالجوهر وكان في القاهرة سوق لبيعها. المقريري: ن، م، ن، ص.

(5) الصولق: كيس للمؤن من الجلد الأسود. المقريري: ن، م، ن، ص. وماير: الملابس المملوكية، ص50-51.

(6) المجرات: نوع من البرود وتستخدمها النساء اليوم وقت السفر، العمري: م، ص، 113.

والبياض كما يزيد أكابرهم الباذهجات<sup>(1)</sup> في الأكمام ولبس البغالط<sup>(2)</sup> تحت فراجهم وربما لبسوا الجبابب المفرجة من ورائها. وكان الطبيب يلبس جبة واسعة عنابية وبقياراً على رأسه<sup>(3)</sup> وأما التجار واخلط العامة فقد اختلفت أحوالهم في الملابس والزري فالفقراء وإن جمعهم الفقر وضمهم لباس التصوف فأنه يظهر تباين حالتهم في الملابس<sup>(4)</sup>. بخلاف زي الكتاب ذوي العمامة الصغيرة والجبة ضيقة الكم بدون عذبة<sup>(5)</sup>.

وأما الملابس الداخلية فكانت من القبع والدلق طويل الأكمام مفتوحاً فوق كتفيه مغطياً لقدميه (من اللون الأبيض) ثم تنوعت الألوان ولبسوا الجوخ في الشتاء<sup>(6)</sup> وأما قاضي القضاة فرسمه الطرحة التي تستر عمامته وتُسَدُّ على ظهره<sup>(7)</sup> كما لبسوا في أرجلهم الخف من الأديم الأسود أو الأحمر كما لبسوا النعال والبقاقيب في كثير من الأحيان<sup>(8)</sup> وقد استخدموا في تنقلاتهم البغال فقط والمكسوة بالقماش الفاخر لتمييزهم عن غيرهم من الموظفين والتي لم تكن تصرف الا لأصدقاء السلاطين<sup>(9)</sup>. بالإضافة للخلع التي يخلعها عليهم السلاطين في المناسبات المختلفة كعيد الاضحى والفطر وولاية السلطان فكانت هناك خلعة القضاء وخلعة الرضا وخلعة الاستمرار وخلعة السفر وكلها من الصوف الأبيض والأخضر<sup>(10)</sup> واختلفت قيمتها حسب الأحوال المادية للدولة<sup>(11)</sup>.

ويلاحظ أن هذا التمييز في معاملة القضاة من حيث ترتيب الجلوس في مجالس السلطان وتفاوت شكل الخلع المهداة من السلطان كان يثير الحسد والحقد في نفوس القضاة فيرفض البعض تسلم الخلعة أو يقابل السلطان. أما حياصات العامة فكانت معظمها من الفضة وأما

(1) الباذهجات: هي الفتحة في كم الجبة العمري: ن.م. ن. ص.

(2) البغالط: القباء المعروف بالسلاوي: المقرزي: المخطوط، ج2، ص90

(3) بقراراً لباس الرأس الخاص بالنبيلاء والقضاة، مصنوع من قماش اسكندراني صلاح العبيدي: الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني دار الرشيد، بغداد، 1980، ص236.

(4) العمري: م.س. ص114.

(5) المقرزي: السلوك، مخطوط، ورقة 363 والطليسان: وشاح يغطي به العمامة وهو يشبه الطرحة: العمري: مسالك الأبصار، ص112. وانظر النويري: م.س، ج30، ص21. والقلقشندي: م.س، ج4، ص41.

(6) المقرزي: السلوك، ورقة 196، والمخطوط، ج2، ص297

(7) العمري: ن.م، ص112.

(8) القلقشندي: ن.م. ج4، ص41 وابن اياس: م.س، ج5، ص16.

(9) المقرزي: السلوك، ج1، ص851 السخاوي: م.س، ص249

(10) المقرزي: ن.م، ورقة 94، ج322، 407، مخطوط. والنويري: م.س، ج30، ص514.

(11) ابن اياس: ن.م، ج4، ص104. والنويري: ن.م، ج29، ص247.

حياسات الذهب المرصعة بالجواهر فكانت في خلع السلطان لأكابر المثين. وكان معظمهم يلبس المطرز، وبالنسبة للباس المطرز ومهماز الذهب فهو مقتصر على الكبار من إقطاع الحلقة، ولا شيء ذلك للجامكية.

وعلى العموم فقد كانت ملابسهم جميلة ومتنوعة من الكمخا<sup>(1)</sup> والخطائي<sup>(2)</sup> والكنجي<sup>(3)</sup> والمخل والأصواف<sup>(4)</sup> والاسكندراني والنفافي<sup>(5)</sup>.

### ومن الملابس المملوكية الأخرى الشائعة فكانت:

الطاقية: كانت أولاً للصبيان والبنات، ثم لبسها كبار رجال الدولة من الامراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم في الدولة الجركسية. وكان نزع الطاقية في البداية أثناء المشي في الشوارع عاراً وعبياً حتى عهد الجراكسة<sup>(6)</sup>.

ولباس الفتوة: لقد نسبت الفتوة إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقد رغب السلطان الظاهر بيبرس في لباس الفتوة فألبسه الخليفة المستنصر ذلك، فاصبح بيبرس رئيس الفتوة بعد موت الخليفة<sup>(7)</sup>.

والتشاهير: الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان.

والمراوات: قطع معدنية يزين بها سرج الحصان حيث تخاط بقماش السرج<sup>(8)</sup>.

والأطلس الخطائي: نوع من الحرير، وأصل صناعته في بلاد الخطاي شمال الصين وكان في زمن ياقوت من مصنوعات تبريز<sup>(9)</sup>.

والبرددار: هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه<sup>(10)</sup>.

والطرحات: جمع طرحة وهي من مميزات لباس قضاة القضاة في عصر المماليك<sup>(11)</sup> تستر عمامته وتنسدل على ظهره.

(1) العمري: م، ص 100. Mayer, Costume, P59.

(2) العمري: ن. م. ن. ص. Dozy: Supplement: 11p488.

(3) الكنجي: القطني عند العجم. Dozy: Ibid, p377.

(4) العمري: ن، م، ن ص. Dozy Ibid, 11, P.66.

(5) العمري: ن، م، ن ص، والمقريري: الخطط، ج 2، ص 223. Dozy, Ibid, 11, P.680.

(6) المقريري: المواعظ والاعتبار ج 2، ص 99.

(7) المقريري: السلوك، ج 1، ص 459، 467، 498.

(8) ن، م، ص 518.

(9) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 812.

(10) القلقشندي: م. س. ج 5، ص 468، وما بعدها أصل اللفظ فردادار... وهو مركب من لفظتين فارسيتين أحدهما فردا ومعناها الستارة

والثاني دار ومعناه ممسك والمراد بمسك الستارة وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة ثم نقل إلى الديوان

(11) وصفها القلقشندي: "ويتميز قاضي القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره. القلقشندي: ن. م. ج 4،

ص 142.

## رابعاً: العادات والتقاليد:

### طبقة الفلاحين من أهل القرية الشامية:

كان مجتمع القرية بسيطاً، يتكون من قبيلة واحدة، وأحياناً أكثر من ذلك وعاش المسلمون والمسيحيون مع بعضهم البعض في القرية حيث كانت نسبة المسلمين أكبر من نسبة المسيحيين بما يقارب 70-80% للمسلمين عدا مناطق خاصة بالمسيحيين في وادي موسى والكرك والشوبك<sup>(1)</sup>.

وكان يحكمها شيخ أو أكثر يكون مسؤولاً أمام السلط الحاكمة والمالك الإقطاعي حيث يجمع الضرائب من الفلاحين ويقدمها للأمير المقتطع أو أستاذاره<sup>(2)</sup>.

لذا فإن الشيخ كان والحالة هذه فمثلاً للسلطة الرسمية في مجتمع القرية وكان الشيخ يستقبل ضيوفه في "المضافة"<sup>(3)</sup> وحتى اليوم. وبالنسبة للمرأة فكانت تقوم بأعمال المنزل وتربية أبنائها بالإضافة إلى الأعمال الإضافية كنسيج الملابس، وصناعة الجبن، ومساعدة زوجها في الزراعة لذا اعتبرت المرأة الأردنية والفلسطينية عنصراً منتجاً في العصور الوسطى في مجتمع القرية الزراعي، كما خزنوا غلاتهم في الكهوف "المغائر" المحيطة بالقرية بالإضافة لاستخدامها في إيواء حيواناتهم وقد شاهد الباحث هذه العادة في قريته في الأربعينيات من هذا العصر.

وبالنسبة لمواردهم المائية فاعتمدوا على الينابيع القريبة منهم وفي حالة عدم توفرها بنوا خزانات "صهاريج" لجمع ماء المطر وما زالت هذه الطريقة في بعض القرى حتى اليوم ونقلوا ماء الشرب بواسطة الجرار أو القرب المصنوعة من جلود الحيوانات كما نشاهدنا اليوم إذ يعتمد الفلاحون حتى اليوم على مياه الآبار العادية<sup>(4)</sup>. وعندما نضرب الماء من آبار يافا عام

(1) أبو الفداء: تقويم البلدان، مطبعة المتنبي، بغداد، 1950م، ص 247.

(2) السبكي: تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النعم، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، 1948، ص 26.

(3) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem London, 1972, PP.367.

(4) المقدسي م.س، ص 184-185 الذي وصف المياه العادية والمعدنية الباردة والحارة.

672هـ/1274م أمر السلطان بيبرس والي الرملة بنقل ماء قرية عابورة وصبه في آبار يافا فأزال الأوساخ منها<sup>(1)</sup>.

### طعام الفلاحين في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي:

لقد اعتمد الفلاحون في غذائهم اليومي على محصولاتهم من الشعير أو القمح الممزوج بالشعير، وحساء العدس، أو العدس والبرغل مناصفة "المجدرة"، وهي الأكلة المفضلة<sup>(2)</sup>، التي تطبخ كطبخ الأرز المففل اليوم، إلا أنها لا تصبغ بالزعفران<sup>(3)</sup> وتطبخ إما بالزيت أو السمن وأفضلها ما يطبخ بزيت الزيتون النقي كما هو في وقتنا الحاضر.

وكان الزيتون غذاءً رئيسياً من حيث الزيت أو الرصع أو التشطيب<sup>(4)</sup> وهي الطرق التي ما زالت مستخدمة حتى وقتنا الحاضر.

ومن الأكلات الشعبية في العصر المملوكي في قرى الأردن المنسف الذي يقدم في المناسبات العامة للضيافة والأعراس وغيرها حيث قدمه أهل حوران تكريماً للناصر محمد بن قلاوون عند توجهه من الكرك إلى دمشق ماراً بحوران، وكانوا يحملونها على رؤوسهم، وبعد تناول الطعام يحسسون القهوة العربية المصنوعة من البن المطحون بواسطة الأجران الخشبية<sup>(5)</sup> كما استخدمت القهوة منذ أيام الأمويين<sup>(6)</sup>.

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص613. ذكر بأنه كتب للسلطان وقيل له: "إن هذه الآبار إناث تحيض وآبار الجبل ذكور ومنها آبار قرية عابورة في فلسطين.

(2) الصباغ: المجتمع، ص58، 161، مخلص، عدي يوسف "المقدس البشاري" حياته ومنهجه"، ط1، 1973، ص214.

(3) البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد من أعيان القرن 7هـ/13م، "كتاب الطبخ"، نشره فخري البارودي، ط1، دار الكتاب الجديد، 1964، ص29. والصباغ: ن م، ص61.

(4) قطوس، ابن سكور ابن لوقا الرومي، (عاش في القرن السادس الميلادي) الفلاحة اليونانية، ترجمة سرجس الرومي، القاهرة، 1293، 1876، ص105. فالخ: م.س، ص148.

(5) المنسف: يتكون من اللحم المطبوخ، واللبن الرائب وتحت رقائق الخبز في صينية نحاسية واسعة تسمى اليوم "الصدر"، وفوق رقائق الخبز الأرز أو البرغل وفوقها جميعاً قطع اللحم الكبيرة ثم يصب عليه السمن البلدي واللبن الذي طبخ به اللحم. العيني: عقد الجمال، ج22، ق1، ورقة 115، مخطوط. د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص125، والتاريخ السياسي، ص174، هامش 133. وما زالت الأكلة الرسمية الشعبية التي تقدمها في قرانا لإكرام الضيوف وفي الأعراس والختان حتى اليوم.

(6) ماحد، م.س، ص135.



ومن الأكلات المشهورة عند الفلاحين أيضاً 'المبحتره' أو المفروكة أيام عصر الزيتون وتسمى اليوم في قرى شمال الأردن "اللزاقيات" حيث يصب الزيت المعصور حديثاً على الخبز الساخن ويفرك باليد لتوزيعه ثم يرش السكر عليه حسب الذوق<sup>(1)</sup>.

ومن المواد الغذائية التي يخزنها الفلاح لفصل الشتاء -مادة الكشك المصنوع من البرغل واللبن<sup>(2)</sup> والذي ما زال يستخدم في قرى شمال الأردن حتى اليوم والسمن والدهون والحبوب ولحم القديد والمرببات والفاكهة المجففة كالتين والزبيب<sup>(3)</sup>. بالإضافة الى الحلويات الشتوية لمدهم بالطاقة الحرارية اللازمة: مثل الزلابية المصنوعة من العجين والمقلية بزيت الزيتون الجديد<sup>(4)</sup>، وحلواء الخروب أو "الكباد" في نابلس وذلك بطبخ الخروب وعصره ليخرج منه الرب الذي كان يصدر الى مصر والشام<sup>(5)</sup>، والناطف: المعتمدة في صناعتها على قصب السكر<sup>(6)</sup>.

والأرز بالحليب المعروف في قرى شمال الأردن بالبحته اليوم، بالإضافة للديس والتين المجفف 'القطين'. وكان طعام غالبية الفقراء الفول النابت المغلي بالزيت، والترمس المملح<sup>(7)</sup>. وبالنسبة للحوم فكان الفلاح لا يأكله إلا في المناسبات العامة كحفلات الزواج وعشاء الأموات ونزول الضيوف وفي المناسبات الدينية كالأعياد<sup>(8)</sup>. وقد لاحظ الباحث هذا في طفولته أيام الأربعينات والخمسينات.

(1) البغدادي: م.س، ص 81.

(2) شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت1326/727م) "الدر المنلقط في فلا حتى الروم والنبط"، ميكروفيلم عن مخطوطه. مخطوطة بدار الكتب القومية، القاهرة، رقم زراعة 6484، ورقة 38 والقاسمي، م.س، ج2، ص388، والخوارزمي: م.س، ص 155.

(3) البدرى: نزهة الأنام، ص272-273، واللحم القديد، اللحم المملح المجفف في الشمس.

(4) المقدسي: أحسن التقاسم، ص 167، سترانج، فلسطين، ص40، تخلص المقدسي البشاري. ص214

(5) ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص 80.

(6) المقدسي: ن، م، ص167.

(7) المقدسي: ن، م، ص 167، والقاسمي، م.س، ج2، ص 344، سترانج، م.س، ص40.

(8) الصباغ: م.س، ص 61، فسالخ: م.س، ص 49.

## أصوات طعام الفلاحير في المطابخ:

كانت قليلة جداً لفقرهم ولطريقة الطبخ المتبعة عندهم بطبخ جميع طعامهم سوية في قدر واحد، وأشهرها القدور والصحون والأواني الفخارية، كما هو شائع اليوم في قرى شمال الأردن.

وهكذا يلاحظ مما تقدم بساطة غذاء غالبية الفلاحين في العصر المملوكي فلم يكن غريباً أن لا تتعدى مأكولاته القمح والشعير والبصل والجبن لسوء حالته الاجتماعية بسبب العمل والسخرة والضرائب التي يدفعونها عن يدهم صاغرون.

وقد استخدم العرب في تحضير طعامهم بعض الآلات كحجر الرحى لطحن الدقيق، والغرايبيل لغربلة الحبوب، وصاجات الحديد للخبز<sup>(1)</sup>.

وقد اختص طبّاخون بالعدس والفلّ المقلّي بالزيت وبياع مع الزيتون<sup>(2)</sup>، واشتهر العرب بحسن الضيافة والكرم بتقديم المناسف العربية ومراعاة الجار في المناسبات<sup>(3)</sup> حيث كان البدو يسكنون خيام الشعر المخصص نصفها للنساء والتي مازالت حتى اليوم في صحاري جنوب بلاد الشام<sup>(4)</sup>. وكان من أصناف الطعام في شرقي الأردن: البرغل<sup>(5)</sup>، والكشك<sup>(6)</sup>، والجميد<sup>(7)</sup>، والسماق<sup>(8)</sup>، ودبس العنب "المربى"، والزلايية<sup>(9)</sup>، والخبز<sup>(10)</sup>. وما زالت هذه الأطعمة تشكل الأكلات الشعبية في الأرياف الأردنية حتى اليوم.

(1) نعوم شقير، تاريخ سيناء، ج3، ص381، القاهرة، 1916.

(2) المقدسي: م.س، ص18.

(3) ابن خلدون: المقدمة، الباب الثاني، الفصلين 4، 5، نعوم شقير، ن م، ص36.

(4) نعوم شقير: ن م، ص36.

(5) قمح مسلوق ويخفف في الشمس يستخدم في جميع أوقات السنة.

(6) والكشك: مزيج من البرغل واللبن والملح، ويخفف في الشمس لاستخدامه في الشتاء وقد شاهدت والدتي فهي تصنع البرغل والكشك بيديها. وكان الأغنياء يطحنون اللحم والسمن.

(7) والجميد: لبن يخفف بالشمس مخلوطاً بكمية كبيرة من الملح يخزن لاستخدامه في جميع أوقات السنة وخاصة المناسف، وما زلنا نستخدمه حتى اليوم.

(8) أما السماق: فهو ثمرة لشجرة برية تنمو في جبال الأردن حمراء صغيرة بحجم حبة العدس، تقشر وتطحن وترش على الطعام كالتوابل لطعمها الحامض وهو شائع الاستعمال حتى اليوم.

(9) الزلايية: عجينة مقلية بالزيت: ما زلنا نستعمله وخاصة في الشتاء وفي موسم عصر الزيتون.

(10) خبز القمح المخبوز في الطواوين المقدسي: أحسن التقاسم، ص183، أو الخبز في التنور الذي يحمى بالحطب أو الزبلة "الجلة" وفي داخله أو على جوانبه حصى. ولا زال الطبايون مستخدمين في الريف الأردني.

وكانوا يحمصون القهوة ويدقونها في المهابيش الخشبية والتي ما زالت موجودة في منازلنا الريفية حتى اليوم.

واستعمل الأردنيون المكسرات: من الجوز واللوز والذي تكثر اشجاره وحتى اليوم في جبال عجلون والكرك وجبال مؤاب وأودية حسيبان<sup>(1)</sup>.

وكانت الفاكهة المحببة لسلطين الممالك حَب الرمان الذي يكثر نمو أشجاره في أودية شمالي الأردن (الكفارات) وعجلون والسلط (الصلت) والكرك والشوبك والتي ما زالت مشتهرة به حتى اليوم لذا فرض الممالك جباية ضريبة الرمان من الأهالي سنة 702هـ/1302م حيث بلغ المتأخر منها على الأهالي في بلاد الشام الفأ وستمائه رطل<sup>(2)</sup> ومن الأطعمة المستخدمة على نطاق ضيق الأسماك التي يصيدونها من خليج العقبة على البحر الأحمر المصدر الوحيد للأسماك في ذلك الوقت<sup>(3)</sup> إذ كان السمك يوزع على المدن الأردنية.

ويقول الدكتور يوسف غوانمه بأنه وجدت في حفريات حسيبان سنة 1973 عظام لبعض هذه الأسماك<sup>(4)</sup>.

### عادات وتقاليد فلاحي جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي:

إن أهم ما يميز مجتمع القرية في جنوب بلاد الشام الى يومنا هذا مضافة شيخ القبيلة التي يستقبل فيها الضيوف والزوار<sup>(5)</sup>، بالإضافة الى اجتماعات أهل القرية، والقرى المجاورة، كما كانت ملتقى أبناء العشيرة لقضاء السهرات الممتعة وخاصة في فصل الشتاء لتعطل الأعمال الزراعية واليدوية وأعمال البناء، كما هو الحال هذه الأيام.

أما بالنسبة للعادات والتقاليد في القرى، فقد كانت متقاربة على الرغم من اختلافها في بعض القرى حسب قربها أو بعدها عن المدينة وحسب أصول السكان، حيث تأصلت العادات

(1) ابن قاضي شهبه: م س، ج1، ورقة 9 مخطوط. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 178.

(2) القلقشندي: م س، ج13، ص 308.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 178.

(4) د. غوانمه: التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص 154، ط2، 1982.

(5) د. غوانمه: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص 88-89، السباع، م.س، ص 62.

والتقاليد البدوية<sup>(1)</sup> عند السكان ذوي الأصول العربية لا سيما أهل حوران شمالي الأردن وجنوبي سوريا.

### حفلات الزواج في العصر المملوكي:

لقد درجت العادة على أن يخطب العريس عروسه من والدها بواسطة كبار السن "الجاهة" وأن يدفع المهر لوالدها<sup>(2)</sup> قبل عقد القران ثم يتم العقد ويزف العريس لعروسه بحفل بهيج. ويقدم أهل القرية النقود "الألطاف" وهو مبلغ من المال إلى العروسين أو إلى والديهما<sup>(3)</sup>، ثم تُزف العروس إلى منزل زوجها بالأغاني والأهازيج ويرشقها الناس بالعُصَل<sup>(4)</sup> أثناء مرورها أمام منازلهم، تيمناً وابتهاجاً ومشاركة جميع الفلاحين لابن هذا الفلاح في فرحه أهله بالإضافة لرشقهم العروس والعريس بالحلوى أمام منازلهم لابتعاد عيون الحساد كما نشاهد اليوم، وبالنسبة لمكان العقد فكان المسجد لإشهار الزواج بموجب الشريعة الإسلامية حيث يعلن بواسطة المئذنة اسم العريس واسم والد العروس<sup>(5)</sup>.

أما مراسيم عقد الزواج فكانت أن ينتقل الناس لبيت العروس بعد عقد القران في المسجد، حيث تقام حفلة يوزع فيها المرطبات والحلوى أو المشروبات الساخنة، ويحيي الحفلة المطربون. ثم ينقل جهاز العروس بعد ثلاثة أيام من عقد القران إلى بيت الزوج في حفل بهيج<sup>(6)</sup>. كما كان يسبق ليلة الزفاف ليلة "التعاليل" يشارك فيها الرجالون والمطربون والموسيقيون وشباب القرية ونساؤها اللاتي يشاركن في ليلة "الحناء" لصبغ يدي العروس ورجليها ومعصميهما بالحناء أما العريس فيحنون يديه<sup>(7)</sup>. كما هو الحال في وقتنا الحاضر.

(1) ابن بطوطة، م.س، ص 224.

(2) النابلسي: الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض عبد الحميد، ط1، دار المعرفة، دمشق،

1989، ص 239

(3) أحمد رمضان: م.س، ص 209.

(4) العنصل: نوع من أبصال الزهور ويعرف ببصل الفار، أحمد رمضان، ن.م، ن.ص.

(5) أحمد رمضان، ن.م، ص 251.

(6) أحمد رمضان، ن.م، ص 250.

(7) أحمد رمضان: م.س، ص 251.

كما شارك أهل القرية الفلاح في عزائه بموت أحد أقاربه كنوع من المشاركة الوجدانية والمحبة والوفاء، إذ يشاركون في تشييع الجثمان إلى المسجد ليصلى عليه، ثم إلى مثواه الأخير، وكان العزاء يتم في المسجد لمدة ثلاثة أيام حيث يجلس أهل الميت ويتوافد عليهم أهل القرية والقرى المجاورة للعزاء، حيث يكررون كلمات التوحيد، ويتلو بعض المقرئين آيات بينة من الذكر الحكيم<sup>(1)</sup>. بينما يتم العزاء اليوم في مضافة العشيرة أو في ساحة عامة أمام منزل الميت بعد نصب الخيام لاستقبال المعزين.

كما يجتمع أهل القرية على قبر الميت في صباح اليوم الثالث على البسط الممدودة عند القبر، ويوضع ماء الورد، وتنتثر الزهور، ويقرأ الحاضرون أجزاء الربعات من القرآن الكريم، ثم يذكرون الله بعد ذلك، وتوزع النقود على الفقراء، ثم يقدم الناس العزاء لأهل الميت، وتتكرر هذه التقاليد في اليوم السابع ويوم الأربعاء<sup>(2)</sup>. وقد تلاشت هذه العادة في قرى شمالي الأردن اليوم لعدم توافقها مع السنة النبوية الشريفة ومن العادات الاجتماعية التعاونية أيضاً:

**عادة معونة الحصاد:** في موسم الحصاد، حيث يجتمع أهل القرية كل يوم عند شخص لمساعدته في حصاد محصوله، ويحق لنا الاعتزاز بهذه العادة الحميدة التي ما زالت منتشرة في وقتنا الحاضر كدليل على التعاون والتكافل الاجتماعي بين الفلاحين.

**وعادة الاحتفال بولادة الطفل:** فعندما كانت القابلة تساعد المرأة الحامل في عملية الولادة إذ تبدأ بتحسس المولود في حال نزوله مباشرة، لمعرفة جنسه، والناس خارج الغرفة ينتظرون معرفة جنس المولود من صوت القابلة التي كانت تُصلي على النبي بأعلى صوتها ليسمعها الجميع إن كان ولداً، وإن كانت بنتاً ترضت على فاطمة الزهراء<sup>(3)</sup>، وبعدها يطلب والد الطفل من أحد المتدربين على الأذان في أذن الطفل، ثم يطلق عليه اسماً<sup>(3)</sup>. وبالنسبة لأم الطفل تقدم إليها

(1) كرد علي: خطط الشام، جـ 6، ص 285.

(2) أحمد رمضان: م.س، ص 210.

(3) ن م، ص 253.

الحلوى المرصعة بالجوز ليدر لبنها، ويقدم لها الشراب لمدة اسبوع من ماء الحمام المنقوع فيه البنفسج كما يرسل لها الأقارب والأصدقاء أنواعاً من الطعام تشمل على الزلابية<sup>(1)</sup>.

وفي اليوم السابع من ولادة الطفل يدعو أهله لحفلة عشاء راقصه يحيها عدد من المطربين للرجال والقيان للنساء، وجرت العادة أن يحضر المدعوون الهدايا النقدية والعينية للأم وللطفل<sup>(2)</sup>. كما اعتادوا على ختان أولادهم في اليوم السابع أيضاً يحفل بهيج وطعام لذيق تتخلله أنواع الحلوى الطازجة. ثم يزين الولد بالحلي ويحمله "العريف"<sup>(3)</sup> بحضنه على دابة تطوف بهما في الشوارع يتقدمها كبير مشايخ الصوفية راكباً على دابة مزركشة بطيلسان أحمر ملوحاً بعصا معقوفة "معوجة" يشير بها إلى جماعته في الموكب أمامه وهم يحملون الأعلام ويضربون الدفوف والطبول<sup>(4)</sup> أثناء طوافهم في شوارع القرية، وبعدها يعودون لمنزل الغلام فتتلى قصة المولد النبوي الشريف وبعدها يتم ختان الطفل<sup>(5)</sup>، هذا وتجدر الملاحظة هنا أن الدولة المملوكية كانت تفرض الضرائب على المغنين والمغنيات المعروفة بضريبة المغاني حتى ألغاه السلطان برقوق عام 1390/1791 في كل من الكرك والشوبك<sup>(6)</sup>. مما لا يدع الشك في ظلم الرعية حيث كانت لا تترك مناسبة صغيرة أو كبيرة لتحصل نقوداً من الشعب المسحوق والمغلوب على أمره بدفعة هذه المغارم غير الشرعية.

### الاحتفال بدخول الطفل المدرسة اللهم الكتاب الله وختم القرآن:

كان الناس يرسلون أبناءهم بعد بلوغهم سن الخامسة الى الكتاب في المسجد أو الى الشيخة "المعلمة" اذا كانت بنتاً، وبعد ختمه القرآن الكريم تقام له حفلة كبيرة في منزله يحضرها جماعة المطربين والدورائش والمنشدون تسمى 'تشييده' ثم يطاف بالغلام ورفاقه في بعض شوارع القرية وهم ينشدون الأزجال والمدائح النبوية، وخلفهم رجل ينثر الشعير على الرؤوس دفعاً للحسد<sup>(7)</sup>، وبعدها يعود الموكب الى منزل الغلام حيث يتناولون الطعام ويملأون جيوب

(1) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، ص 97. والزلابية نوع من الحلوى القروية الذي تصنعه المرأة من العجين المقلّي بالزيت ثم يرش عليه السكر أو محلوله "القطر".

(2) أحمد رمضان، ن م، ج253.

(3) العزولي ابن عبد الله البهائي (ت1412/815)، مطالع البدر في منازل السرور، ط1. مطبعة ادارة الوطن، القاهرة. عنه 1299هـ، ص107.

(4) أحمد رمضان، م.س، ص252.

(5) ن م، ن ص.

(6) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج1، ص 211، غوائمه: التاريخ الحضاري، ص 121.

(7) الغزي، م.س، ج1، ص 98.

الأولاد نقوداً وزينياً وفستقاً وقطيناً<sup>(1)</sup>. وما زال الباحث يذكر ذلك اليوم الذي ختم به المصحف في قريته سوم الشناق على يد الشيخ "يحيى اليمني" الملقب بـ "اليهيوه" البارع في تدريب الديكة بالقفز على العصا عام 1948م.

وهكذا يمكننا القول أن كثيراً من عادات وتقاليد فلاحي جنوبي بلاد الشام في العصر المملوكي لم تختلف كثيراً عما هي عليه الآن، إلا في بعض ترتيباتها الجزئية، لمواكبة العصر الذي يعيشون فيه. كما رأينا وما زلنا نشاهد بأن المرأة الريفية في جنوب بلاد الشام تشارك زوجها في الأعمال الزراعية كجني المحصول، وإعداد الطعام من خبز وجبن وزبد وصناعة ملابس من غزل الصوف ونسجه وهكذا تكون شريكة في تحمل أعباء الحياة حلوها ومرها مما يثبت أصالتها الريفية والبدوية.

### تأثير المسيحية بعادات المسلمين.

لقد كان من الطبيعي أن يتأثر المسيحيون بعادات المسلمين في الأكل والشرب واللباس وتقاليدهم في حياتهم اليومية نتيجة المزج الاجتماعي للطرفين في بوتقة الحياة في فلسطين وشرقي الأردن حتى أنه أسلم عدد من المسيحيين<sup>(2)</sup> لتأثيرهم النفسي من معاملة صلاح الدين الحسنة لهم وبطولاته والتي أحدثت تأثيراً سحرياً في نفوسهم<sup>(3)</sup> بالإضافة لتأثيرهم بالأدب العربية حيث تعلم بعض امرائهم اللغة العربية، وتقفوا بالثقافة الاسلامية، وناقشوا الأمور الدينية الاسلامية<sup>(4)</sup> بعكس المسلمين الذين لم يحاولوا تعلم لغة أعدائهم الفرنجة<sup>(5)</sup>، وربما كان ذلك نابعاً من كره المسلمين للصليبيين فأحجم المسلمون عن الكتابة بلغتهم<sup>(6)</sup> بل شجعهم ذلك على النيل

(1) أحمد رمضان، م.س، ص 252

(2) سيرتوماس: وأرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدي، واسماعيل النمراري، القاهرة،

1957، ص 109-110.

(3) ن.م، ص 110. وبالمقابل ذكر ابن جبر اضطراب بعض المسلمين الأسرى اعتناق الديانة النصرانية للنجاة من الموت تحت ذريعة شرعية "الضرورات تبيح المحظورات". ابن جبر، رحلة ابن جبر، ص 215، وابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 359.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 282-283.

(5) حتى اسمه ابن منقذ الذي كان أكثرهم معاشره للصليبيين لم يكن يحسن غير العربية، ابن منقذ، م.س، ص 66.

(6) ن.م، ص 118، ص 128، 135.

منهم بالقلم بتتبع مثالبهم للنيل منهم لأعمالهم التخريبية من قتل وسلب ونهب فوصفوههم بالكافرين أحياناً وبالشياطين أحياناً أخرى.

فكان هذا شيئاً طبيعياً يعكس المشاعر التي خلفها العدوان الصليبي في وجدان الناس في العالم الإسلامي على الرغم من إيمانهم بالمسيح عليه السلام كنبي مرسل.

وهذا يُرَجِّحُ موقفهم السياسي وليس الموقف الديني حيث سجلوا عليهم الغدر والخيانة والإجرام والتهجير وعدم احترام المواثيق والعهود<sup>(1)</sup> كما حدث عام 552هـ/1156م عند نقضهم هدنة مع نور الدين محمود<sup>(2)</sup>.

ومن العادات الرياضية العربية التي بقيت متأصلة في نفوسهم في عصر الأيوبيين والمماليك اهتمام الناس بتربية الخيول والبغال كعدة للقتال والأسفار والقوافل التجارية فاتقنوا فنون البيطرة لمداواة الخيول واهتموا بإقامة أسواق الخيل وحلقات السباق وخاصة زمن الظاهر بيبرس المهتم بالفروسية ورعاية الخيول والجياد العربية. كما اتقنوا رمي النبال في الميادين العامة فكانت هناك حلقات خاصة للسباق والمران وكانوا يبنون الى جانب هذه الميادين (مصاطب) يجلسون عليها لمشاهدة اللاعبين<sup>(3)</sup> ويرجع اهتمام المماليك بالفروسية لأنها أوصلتهم للملك فاهتموا بتمرين المماليك على ركوب الخيل، ورمي النبال، وأعمال الفروسية والحروب. ومن العادات الصحية ذهاب الناس للحمامات العامة للاستحمام فقد انتشرت عادة الاستحمام في حمامات عامة لتوفرها في مدن بيت المقدس وعمان والكرك وعجلون وحسبان وغيرها من المدن<sup>(4)</sup>.

(1) العماد الأصفهانى: الفتح العشي، ص 51

(2) ابن القلانسي: م.س، ص 24.

(3) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، ج1، ص325، ذكر فيه "حب السلطان بيبرس لركوب الجياد ورمي النبال فأنشأ ميدان سماه ميدان القبق... وميداناً للسباق، وكان شاغلاً بقعة من الأرض تمتد بين النقرة التي ينزل إليها من قنعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الأحمر، وبني فيه مضطبة سنة 666هـ للاحتفال برمي الشباب والتمرين على الحركات العسكرية، وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي الشباب ونحو ذلك، فكان ينزل كل يوم الى هذه المضطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء، وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي، والنضال والرهان، فما بقي أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله، وما برح من بعده أولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الألعاب الحربية".

(4) غوثية: التاريخ الحضاري، ص120.



وقد استعمل فلاحو بلاد الشام، مادة الأشنان في الاغتسال لازالة الأوساخ. وإضفاء النعومة على البشرة والشعر<sup>(1)</sup>. وارتأيت توضيح أهمية الحمامات ودورها لعدم توفرها في الأردن وفلسطين في العصر الحاضر إلا ما ندر بعكس استمرارها وتواجدها في المغرب العربي حتى اليوم راجياً من الله أن يقيض لهذه الأمة من يعيد ويحي تراثها الاسلامي بتأسيس الحمامات العامة للجميع التي بها عام 1964-1965م عندما تطوعت كمدرس للمشاركة في عملية التعريب بعد الاستقلال العظيم الذي حققه شعب الجزائر العربي عام 1962م بعد اتفاقية ايفيان.

## الحمامات<sup>(2)</sup>

### تمهيد

لقد عرف العرب المسلمون الحمامات منذ القرن الأول الهجري، وكان حمام عياض بن غنم<sup>(3)</sup> في القدس<sup>(4)</sup>، أقدم حمام بُني في الإسلام. ثم انتشرت الحمامات في المدن الاسلامية التي أسسها المسلمون وزاد عددها في بلاد الشام في العصر الأموي<sup>(5)</sup>، وزاد الاهتمام بها في أواخر العصر العباسي عندما تعرضت بلاد الشام للغزو الصليبي والمغولي، وكثرت الكتب التي ترغب

(1) الاشنان: نبات ينمو في البراري الشامية في بادية الشام وهي كالصابون حيث تستخدم هذه المادة لغسل الملابس ايضاً مساحيق التنظيف في وقتنا الحاضر. ابن الأخوة: م س، ص 172، 173، 175. والقاسمي: م س، ج 2، ص 216. وفالح: الحياة الزراعية، ص 153.

(2) الحمامات: مفردتها: حمام من حمى أي سخن، ومعناها الحرق المسخن، وهو حمام البخار الساخن، هيوار: الحمام، دائرة المعارف الاسلامية، ج 8، ص 68. سيشار له فيما بعد هكذا: هيوار، الحمام.

(3) أمير الشام في عهد عمر بن الخطاب توفي عام 20هـ/640م في الشام، ابن الأثير: أسد الغابة، م 4، ص 261.

(4) مجمر الدين الحنبلي: م س، ج 1، ص 261.

(5) لمعرفة المزيد عن الحمامات الأموية. انظر د. غوانه: عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان، 1979، ص 193، وعبد القادر الربحاوي: العمارة العربية الاسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1979، ص 61. ومحمد سليمان الروسان: تطور الحمام في بلاد الشام في العصر الاسلامي المبكر في ضوء المصادر التاريخية والمستجدات من الاكتشافات الأثرية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1989، ص 90.

بسكنى بلاد الشام لصفاتها الدينية<sup>(1)</sup>، وللصمود أمام الغزو الأجنبي وعدم تفريغها من سكانها ليحل محلهم المستوطنون الأجانب.

وقد ارتبط بناء الحمام بالناحية الدينية لأهمية النظافة والتطهر في حياة المسلم كما ارتبط أيضاً بالناحية الصحية وخاصة الحمامات المعدنية للاستشفاء من الأمراض<sup>(2)</sup>.  
بالإضافة للمتعة في بعض قصور الحكام والأثرياء.

ويعود بناء الحمامات العامة في المدن الإسلامية بسبب التكلفة العالية في إنشاء حمام بيتي، وعدم توفر المياه في المنازل، فبني الحمام العام في وسط المدينة حيث السوق وسهولة الوصول إليها<sup>(3)</sup>، وحاجة بعض المؤسسات الأخرى لها كالمساجد والقلاع والمدارس والخانات والبيمارستانات<sup>(4)</sup>.

ويصعب إحصاء الحمامات في بلاد الشام أيام الأيوبيين والمماليك لكثرتها في المدن والقرى ولإغفال المصادر لذكر جميع الحمامات في المدن والقرى إلا من خلال الترجمة لشخص. فقد كان عددها في مدينة القدس في القرن الثامن الهجري ثلاثة عشر حماماً لأنها كانت تعاني من قلة الماء، وعندما حفر الأمير تتكز قناة ماء من عين العروب إليها بنى فيها حمامين<sup>(5)</sup> ووجد في العصر المملوكي عدد من الحمامات في كل من عمان وعجلون والكرك وحسبان<sup>(6)</sup>.

(1) للمزيد من المعرفة انظر: ابن عبد السلام (أبو محمد عبد السلام): ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام: تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي المياديني، المكتبة العالمية، بغداد.

(2) ابن بطوطة: الرحلة، ص 58، ذكر أثناء زيارته لمدينة طبرية وبها الحمامات العجيبة، "بها بيتان أحدهما للرجال، والثاني للنساء وماؤها شديد الحرارة". وبنيامين التطلّي: رحلة بنيامين، ترجمة عزار حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، 1945. ذكر بأنها كانت تسمى "الحمة" وهو الاسم الشائع في عصرنا الحاضر. ص 111. الأدريسي (أبو عبد الله محمد)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، معهد الدراسات الشرقية، نابولي روما، 1965-1977، ج 4، ص 364.

(3) هيوار: الحمام، ص 68.

(4) ابن شداد: الإغلاقات الخطيرة، قسم دمشق، ص 40، 120، 122، 124، وابن كثير: البداية والنهاية، م 7، ج 13، ص 360 و ج 14، ص 232. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 157.

(5) ابن تغري بردي: م.س، ج 5، ص 154 الإمام: مدينة القدس، ص 183، كامل العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، عمان، 1982، ص 164. ذكر البرك والآبار الملحقة بالحمامات.

(6) د. غوانم: تاريخ شرق الأردن، القسم الحضاري، ص 186-187.

وهكذا كانت المدن التي لا يمر بها نهر تتزود من القنوات أو الآبار الخاصة بالحمّامات كالقدس وغيرها. كما عرفت بلاد الشام نوعين من الحمّامات العامة (حمّامات السوق) والحمّامات الخاصة في بيوت الأثرياء.

أما الحمّامات العامة فكانت قسمين للرجال والنساء في الحمام الواحد اذ يعمل على فترتين الأولى للنساء من الظهر الى غروب الشمس وباقي اليوم للرجال<sup>(1)</sup>.

وقد اهتم الأيوبيون والمماليك بالحمّامات من حيث تنظيمها وترتيبها وترخيمها وتبليط ارضيتها وترتيبها بالزخارف<sup>(2)</sup>.

ومن حيث الهندسة المعمارية فقد انقسم الحمام في بلاد الشام الى أربعة أقسام هي: القسم الأول البرّاني (المسلخ أو المشلح) كما في حمام وادي الكرك<sup>(3)</sup> وهذا القسم يتكون من قبة معقودة بالطوب والأجر بها نوافذ مغلقة بالزجاج لتوفير الإضاءة اللازمة<sup>(4)</sup> ويستند على أربع قناطر من الحجارة وفي وسطه بركة ماء باردة وهو عبارة عن قاعة استقبال مفروشة ببساط ملونة.

وتوجد سدة عند المدخل يجلس عليها أمر (معلم) الحمام لاستقبال الداخلين وتوديع الخارجين بالمباركة بحمامهم حيث يتقاضى منهم الأجرة. وفوق هذه السدة أماكن لوضع مناشف الحمام<sup>(5)</sup>.

أما القسم الثاني من الحمام فهو الوسطاني المكون من قسمين: وسطين: برّاني وجوّاني فالقسم البرّاني: مشلح للمسنين في فصل الشتاء، فيه مقاعد ويغسل من بركة مخصصة لذلك

(1) العلي: دمشق، ص 121.

(2) ابن بسام (محمد بن أحمد بن علي): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة دار المعارف، بغداد، 1968، ص 67-70.

(3) د. غوانم: التاريخ الحضاري، ص 243-244 أورد في الملحق (6) وقية السلطان الأشرف شعبان على البستان أو الحمام

برادي الكرك.

(4) كمال: الحمّامات الدمشقية، ص 217.

(5) كمال: ن م، ص 221.

الغرض<sup>(1)</sup>. أما الجواني (أو الصالة الدافئة) المحتوى على عدة مقصورات فهو مخصص لفصل الصيف كما في حمام وادي الكرك<sup>(2)</sup>.

والقسم الثالث من الحمام هو الجواني الحار: المكون من صالة طويلة مجهزة بمقصورة واحدة، وتنتهي الصالة من الجهتين بنصف دائرة، يجلس فيها المستحمون، لفترة طويلة للتعرق بواسطة الحرارة المنبعثة من فتحة مقابل مدخلها يرسلها الحراق كما تضاء هذه الصالة من خلال فتحات زجاجية بالقباب تسمى "قمریات" للتخلص من الزيت المحروق ولمعرفة الوقت من خلال حركة الضوء بهذه القمریات<sup>(3)</sup>.

ومن الملاحظ ان كلمة جواني وبراني ما زالتا كلمتين شائعتي الإستعمال في اللهجة العامية في جنوبي بلاد الشام في وقتنا الحاضر حيث يقصد بالجواني: الداخل والبراني الخارج والقسم الأخير، و"هو" "القميم" وهو القسم الخارجي من الحمام المحتوي على ثلاثة أجزاء هي "الخرانة" لتخزين الماء و "الموقد" و "مسكن التعميم"، وله مدخل خاص به<sup>(4)</sup>، ويسخن الماء بواسطة حلتان نحاسيتان كبيرة وصغيرة، توضع الكبيرة على الموقد مباشرة حتى يسخن الماء لدرجة الغليان ليصل الى الحلة الصغيرة بواسطة أنبوب صغير للحفاظ على درجة حرارة واحدة للحلتين، ثم يسكب الماء على كامل سطح المكان حتى 40سم فيحصل على احتياطي ماء حار الى جانب سطح كبير للتبخير لتوفر التجار بالسرعة والغزارة اللازمة<sup>(5)</sup>.

وكان الوقود المستخدم من روث الحيوانات والحطب والقش المفروم<sup>(6)</sup>، الذي يوضع تحت الموقد إذ يسقط الرماد والجمر الصغير من الثقوب الصغيرة في ارضية الموقد فيستفاد منه في طلاء سطح البناء<sup>(7)</sup>.

(1) ايكوشار ولوكور: (ميشيل وكلور): حمامات دمشق، تعريب ممدوح الأركلي، ربيه الكواكي، دمشق، 1985، ج1، ص28.

(2) د. غوانه: التاريخ الحضاري: ص 243-244، (ملحق 6).

(3) ايكوشار، ولوكور: حمامات دمشق، ط1، ص28.

(4) كيمال: م س، ص227.

(5) ايكوشار، ولوكور: ن م، ج1، ص29-30.

(6) ن م، ج1، ص31.

(7) كيمال: ن م، ص229.

وبالنسبة لسكن القميم (وأسرته المسؤول عن الوقود الذي يغذي الحمام)<sup>(1)</sup>.

وأما المشرفون على الحمام فكانوا من جنس المستحمين رجالاً أو نساء كما يلي:

- المعلم أو الأمر: المشرف على جميع أمور الحمام من مراقبة جميع العاملين به وتوفير احتياجاته<sup>(2)</sup>.

- الناطور أو الحمامي: وهو نائب المعلم أثناء غيابه، وهو المسؤول عن نظافة الحمام واستقبال رواد الحمام والمحافظة على ملابسهم، وتوفير المآزر بالأجرة وتسمى في حمام النساء الناطورة<sup>(3)</sup>.

- والبلان: الذي يقوم بالتدليك والفرك والمعك للرواد. وله مساعدون منهم "تبع" المكلف بتنف الشعر. ويسمى في حمام النساء البلانة<sup>(4)</sup>.

وهناك مستخدمون آخرون كالزبال الذي ينقل الوقود من روث ونشارة خشب وحطب<sup>(5)</sup>.

وهناك مراحل يمر بها المستحم بالحمام من خلع ملابسه على المصطبة في المشلح ثم يلفه الناطور بفوطتين الأمامية على خاصرته والظهرية على كتفيه<sup>(6)</sup>، كما يلبس أحذية خشبية وقاية من حرارة الأرضية المرتفعة<sup>(7)</sup>، ثم يجلس بالبراني ليتأقلم في الجو المشبع بالبخار، وبعدها ينتقل إلى حجرة نتف الشعر بالوسطاني، ثم ينتقل إلى الجواني تحته ثقب البخار لمدة تتراوح ما بين 10-30 دقيقة حتى يعرق بغزارة، وينتقل بعدها إلى مقصورة التدليك بجانب جرن الماء الساخن ليصب عليه المذلك الماء الساخن بوعاء نحاسي صغير ثم يتمدد على أرضية الحمام

(1) العيني: م س، ج1، ص226، وابن كثير: م س، م7، ج13، ص137، ص229. ذكر في حوادث عام 657 هـ أن الشيخ يوسف القميني عرف بهذا الاسم لأنه سكن قمين حمام نور الدين زنكي.

(2) ابن طولون، مفاهيم الخلال، ج2، ص36، كمال: ن م، ص235-244، إيكوشار، ولو كسور: ن م، ص244.

(3) الشيرزي: نهاية الرتبة، م س، ص156، كمال: ن م، ص244. وسعد زغلول الكواكبي: الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب، عاديات حلب، الكتاب الأول: 1975، ص179، ذكر أن مآزر: مفردتها منزر، قطعة من القماش المننون بخطوط حمراء وصفراء وزرقاء وغيرها، جمعها، ميازر.

(4) إيكوشار، ولو كسور: ن م، ج1، ص45.

(5) ن م، ن ص.

(6) ن م، ج1، ص46.

(7) هيوار: الحمام، ص68.

ليدلكه بققاز شعر لتحرريك جميع مفاصل الجسم وفي النهاية يعود إلى المشلح لينشف جسمه ويرتدي ملابسه<sup>(1)</sup>.

وبالنسبة لملكية الحمام فقد تكون خاصة لأحد الأشخاص لاستثماره<sup>(2)</sup>، أو وفقاً على جهة معينة كمدرسة أو بيمارستان أو مسجد<sup>(3)</sup>، من قبل السلاطين والأمراء وبعض الأغنياء كحمام الأشرف شعبان في الكرك<sup>(4)</sup> وحمامي الأمير تتكز في القدس<sup>(5)</sup>.

وكانت الحمامات وسيلة للثراء لما تدره من دخل مرتفع حيث تراوحت أجرة المستحم بين نصف درهم وأربعة دراهم<sup>(6)</sup> بالنسبة للحمام العادي في العصر المملوكي أما حمامات النساء والأعراس والمناسبات الأخرى فكان لها أسعار خاصة وكانت الدولة تفرض ضريبة على دخل الحمامات المختلفة<sup>(7)</sup>.

ومما يميز حمامات بلاد الشام أن روادها كانوا من مختلف طبقات المجتمع من سلاطين وأمراء وعلماء وعامة رجالاً ونساء<sup>(8)</sup> وأهل الذمة الذي أجبروا على وضع أجراس أو خواتم في أعناقهم أو حبلاً في أوساط رجالهم، وجرساً في أوساط نسائهم لتمييزهم عن المسلمين<sup>(9)</sup>. ونظراً لأهمية الحمام المحافظة على العادات والتقاليد والأعراض والصحة العامة فقد وضع تحت مراقبة المحتسب مباشرة<sup>(10)</sup>. كما نشير الى بعض المظاهر الاجتماعية كمناسبات الأفراح: إذ كان كل من العريس والعروس يدخل الحمام كل على حده في مظهر احتفالي بهيج

(1) ايكوشار، ولوكور: ن م، ج 1، ص 46-47.

(2) ن.م، ج 1، ط 5.

(3) العملي: من آثارنا، ص 171.

(4) د. غوانم: تاريخ شرق الأردن القسم الحضاري، ص 243-244.

(5) ابن تغري بردي: م س، ج 9، ص 154-158.

(6) ابن كثير، م س، ج 7، ص 14، ص 102.

(7) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، م 4، ج 6، ص 47.

(8) المقريزي: السلوك، ج 4، ق 1، ص 162، ابن طولون: م س، ق 2، ص 32.

(9) ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، م 5، ق 4، ص 895. وابن طولون: ن م، ق 1، ص 87.

(10) الشيرازي: م س، م س، ص 87-88، ابن الأخرى: معالم القريضة، ص 155-156. والسبكي: معبد النعم، ص 135.

والزوربا: الحياة الاجتماعية، ص 275.

للاستحمام ومنتف الشعر، ثم يزفهم الأصدقاء والأقرباء بالأغاني والأهازيج الشعبية الى بيت العريس بما يعرف بالزفة<sup>(1)</sup>.

هذا وتجدر الإشارة الى أن الزفة للعريس ما زالت تقليداً حتى اليوم في الأرياف والقرى الأردنية في جنوب بلاد الشام كما أن اختيار العروس كان يتم في الحمام، حيث يرسل العريس الخاطبة للتعرف على الفتاة عن قرب لظهور النساء عاريات على بعضهن داخل الحمام<sup>(2)</sup>. ويحتفل كذلك في الحمام بشفاء المريض<sup>(3)</sup>. بالإضافة الى أن الحمام يعتبر المكان الممتع للنساء للقاء صديقاتهن وتناقل الحديث<sup>(4)</sup> كما كن يصطحبن أولادهن بشكل جماعي ويحملن المأكولات المختلفة كالمجدرة والكشك والخبيزة<sup>(5)</sup> والملابس الفاخرة للمباهاة والتفاخر<sup>(6)</sup>. مما دفع بعض العلماء لعدم السماح لنسائهم بارتياح الحمامات لكثرة المفاصد في هذا العصر<sup>(7)</sup>.

ومن الأمثال الشعبية التي ارتبطت بالحمام والتي ما زالت منتشرة حتى اليوم هي :

- ضاعت الطاسة أو طاسة ضايعة (طاسة الحمام) ويضرب هذا المثل عندما تفقد الوسيلة التي نحتاج اليها بسبب الفوضى)

وما زال هذا المثل شائعاً بين الناس في جنوب بلاد الشام.

- (العروس من على جرن الحمام): يضرب هذا المثل في وجوب انتهاز الفرص المناسبة.

- (نزل في مغطس حمامي) ويضرب هذا المثل عندما يتوسط احد في أمر صعب.

- (طعمي القيم وملوك الحمام) ويعني أدفع شيء بسيط واحصل على شيء كثير.

(1) ابن كثير: ن م، 7، جـ 14، ص 164، وايكوشار ولوكور: م س، جـ 1، ص 50.

(2) عفيف بهنسي: دمشق، المكتبة العمومية، 1981، ص 101.

(3) المقرئزي: السلوك، جـ 4، ق 2، ص 586. بهنسي: ن م، ن ص.

(4) عاشور: المؤسسات الاجتماعية، ص 364.

(5) ايكوشار، ولوكور: م س، جـ 1، ص 50.

(6) الزوربا (فريال): الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الأردنية، 1980، ص 275.

(7) ن م، ن ص.

ومن العادات والتقاليد الأخرى عند رؤية شعاع عظيم شبه الأصابع في الجو النجم الذئب قبيل الفجر في أواخر رمضان يفرع الناس، ويعتبرونها من علامات قرب اجتياح التتار لبلاد المسلمين مرة أخرى<sup>(1)</sup>.

وفي عام 664هـ/1266م أمر السلطان بيبرس بإزالة الخمر ومنع الحانات "أماكن العبث والاستهتار والخواطيء" بجميع أقطار مملكته بمصر والشام. فطهرت البلاد<sup>(2)</sup>.

وقد قال قاضي الاسكندرية شعراً بذلك

ليس لا يلبس عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه

حرّمته الخمر - والحشيش معاً حرّمته ماءه ومرعاه

وفي عام 666هـ/1268م أمر بإزالة المنكرات من قرية اللد قرب القدس<sup>(3)</sup>. وفي عام

667هـ/1269م أمر السلطان بيبرس بإزالة الخمر وابطال الفساد والخواطيء بجميع بلاد الشام

ومصر وأمر بتطهير البلاد من المنكر، فنهبت الخانات والأموال من أهل الفساد<sup>(4)</sup>.

ومن العادات الأخرى وضع قطعة قماش من الكتان أو شعر الماعز حول الخيمة أو على

بابها لتمييزها من سائر الخيم وجمعها شقاق وأشقاق<sup>(5)</sup>.

(1) ابن واصل: م س، ص 427.

(2) المقريزي: السلوك، ج 1، ص 553-554.

(3) المقريزي: م س، ج 1، ص 565.

(4) ن م، ص 578.

(5) ن م، ص 580.



# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# الفصل الخامس

## الحياة الفكرية

أولاً : المذاهب الدينية

ثانياً : الحياة الأدبية

ثالثاً : الحياة العلمية

## الحياة الدينية

لقد شهدت بلاد الشام في هذه الحقبة الزمنية مظاهر دينية متباينة الاتجاهات تمثلت في المذاهب السنية الأربعة، والمذاهب الشعية المتعددة، ومذاهب التصوف وظهور المصلحين الدينيين الذين يمثلون الثمرة التي أبدعها هذا العصر وكان المسلمون السنة يشكلون غالبية السكان.

### أولاً: المذاهب السنية:

لقد حكم السلاجقة بلاد الشام في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري متمثلين بسلطة الخلافة العباسية<sup>(1)</sup> ولكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على جنوب بلاد الشام حيث تخلوا عن بيت المقدس للفاطميين سنة 489هـ/1096م ثم احتله الصليبيون سنة 492هـ/1092م<sup>(2)</sup> وفتكوا بالأئمة والعلماء والزهاد.

وقد تميز الوضع الديني في هذه الفترة في الصراع بين السنة والشيعة<sup>(3)</sup> وتغير الوضع زمن الزنكيين الذين طهروا معظم البلاد المحتلة من الفرنجة، وأحيوا المذاهب السنية مركزين على المذهب الحنفي إذ جعلوه المذهب الرسمي للدولة<sup>(4)</sup>. عدا سلطاناً واحداً هو نور الدين أرسلان شاه الذي اتخذ المذهب الشافعي<sup>(5)</sup>. وقد فضلوا وجود قاضي قضاة واحد في بلاد الشام هو كمال الدين الشهرزوري الذي اسندت اليه بالاضافة الى ذلك أمور الدين والوزارة، وعُلّق عليه تنفيذ الاحكام ويمثله نواب في باقي البلاد<sup>(6)</sup>.

أما في العصر الأيوبي فقد ساد المذهب الشافعي، فكان ملوك الايوبيين جميعاً شافعية عدا الملك المعظم عيسى فكان حنفياً<sup>(7)</sup> فأصبح المذهب الشافعي مذهب الدولة الرسمي بعد القضاء

(1) ابن واصل: م س، ج1، ص70، ذكر الدعاء والخطبة للخليفة العباسي الذي "حصل له خلافة الله في أرضه".

(2) ابن الوردي: م س، ج2، ص11.

(3) ابن جبر: م س، 229.

(4) ابن واصل: ن.م، ج1، ص74، 75.

(5) ابن الوردي: ن.م، ج2، ص130، 131.

(6) ن.م، ن.ص.

(7) ن.م، ج2، ص144.

على المذهب الفاطمي<sup>(1)</sup>. أما في بلاد الشام فقد بقي المذهب الحنفي برئاسة قاضي القضاء كمال الدين الشهرزوري اكراماً له لمنزلته عند مولاه نور الدين زنكي لمساعدته للعودة لبلاد الشام وحكمها بعد أن ضعف امر الملك الصالح، وبعد وفاته احتار صلاح الدين الايوبي الذي كان يطمح لتوحيد مذاهب الدولة في اقليميه مصر والشام<sup>(2)</sup> وعين شرف الدين على قضاء الشام حتى سنة 572هـ/1179م، وكان نائبه محي الدين محمد بن الزكي ثم عين ابنه محي الدين ابي حامد نائباً عن ابيه شرف الدين الذي أصيب بالعمى وبقي حتى 587هـ/1191م. حيث اعاد صلاح الدين الخطبة للعباسيين<sup>(3)</sup> وعندما جاء المماليك حاولوا احياء الخلافة العباسية في القاهرة مرتين عام 659هـ/1261م<sup>(4)</sup> وبعد عام بايع أحد أحفاد خلفاء العباسيين احمد الملقب بالحاكم بأمر الله امير المؤمنين<sup>(5)</sup> ليستمدوا منها سلطتهم. ولكنهم اعتمدوا المذاهب الاربعة لزيادة نفوذ قضاة الشافعية ووقوفهم امام رغباتهم واغراضهم<sup>(6)</sup>.

وبالنسبة للطوائف الدينية في منطقة شرقي الاردن فقد كان المسلمون السنة يشكلون غالبية السكان<sup>(7)</sup>، واكثرهم على مذهب الامام الشافعي وقليل منهم على المذهبين الحنفي<sup>(8)</sup> والحنبلي<sup>(9)</sup>، وما زالوا حتى اليوم. وكذلك كان وضع الطوائف الدينية في فلسطين ايضاً<sup>(10)</sup>.

<sup>(1)</sup> ابن تغري بردي: م.س، ج2، ص265، ذكر لباس القاضي الشافعي: كالطرحة في المواكب الرسمية والدينية، والموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان.

<sup>(2)</sup> ابن واصل: م.س، ج2، ص50.

<sup>(3)</sup> ن.م: ج2، ص51 ويذكر ان صلاح الدين اقام المنبر النوري في المسجد الأقصى حيث اعاد الخطبة للخلافة العباسية في بغداد بعد انقطاعها احدى وتسعين سنة. وانظر: ابن شداد النوادر السلطانية ص115، 116.

<sup>(4)</sup> ابن الوردي: م.س، ج2، ص213 حيث بايع السلطان الظاهر بيبرس والناس ابي القاسم احمد بن الظاهر بالله محمد بن الناصر عم الخليفة المستعصم بالله اخر والخلفاء في بغداد ولقب بالمستعصر بالله.

<sup>(5)</sup> السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص65.

<sup>(6)</sup> انظر المقرئ: السلوك، ج1، ص538، 539، والسيوطي حسن المحاضرة ج2، ص99، 100. وابن تغري بردي: ن.م، ج7، ص121، 122، 218.

<sup>(7)</sup> انظر الملحق عن اعداد السكان موزعين بمداول حسب الطوائف الدينية.

<sup>(8)</sup> لقد بنى الامير صرغتمس مدرسة لتدريس المذهب الحنفي في عمان لنشر المذهب السني المقدسي: احسن التقاسيم، ص179. ويذكر الدكتور غوثية: " ان بعض المصادر - ذكرت ان اكثر عمان شيعه" د. غوثية: التاريخ الحضارة لشرقي الاردن في العصر المملوكي: ص141.

<sup>(9)</sup> لقد وجد بعض الحنابلة في مدينة حيراص شمالي الاردن بمحافظة اربد اليوم د. غوثية: ن.م، ص.

<sup>(10)</sup> المقدسي: ن.م ص199. ذكر مذاهب فلسطين: " وكانوا اهل جماعه وسنه واهل طبريه، ونصف نابلس، وقدس واكثر عمان شيعه ، ولا مكان للمعتزلة الا خفيه ، ومعظم الفقهاء شافعيين ومنهم القضاة ، ومنهم الحنفيين".

وأما في بلاد الشام فقد ولى الظاهر بيبرس القاضي شمس الدين بن خلكان سنة 659هـ/1261م الشافعي. ثم أمر بثلاثة نواب له من المذاهب الحنفي والمالكي والحنبلي<sup>(1)</sup> وكان للحنابلة دور نشيط في بلاد الشام مثل أحمد بن تيمية (ت 728هـ/1329م)<sup>(2)</sup>. وهكذا قضى الظاهر بيبرس على كل الطوائف الدينية الأخرى فأمر سنة 665هـ/1967م بعدم تولية أي قاضٍ أو خطيب أو امام من غير المذاهب الأربعة<sup>(3)</sup>.

وقد انتشرت المذاهب الأربعة عن طريق المدارس وكان القاضي الشافعي في مقدمة قضاة الأئمة الأربعة ويليه الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي<sup>(4)</sup>.

### ثانياً: طوائف الشيعة<sup>(5)</sup>

لقد ظهرت الشيعة في بعض بلاد الشام كغيرها من العالم الاسلام، منذ عهود الاسلام الاولى، وقد حاول السلاجقة القضاء عليهم وشجع حكم الفاطميين لبلاد الشام التشيع عندما عين الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره ولي عهده على بلاد الشام<sup>(6)</sup> فانتشرت الطوائف الشيعية مما أقلق الرحالة ابن جبير عندما زارها عام 580هـ/1184م<sup>(7)</sup>.

<sup>(1)</sup> النعمي: م س، ج2، ص11، وابن الوردي، تنمة المختصر، ج2، ص217.

<sup>(2)</sup> محمد ابو زهرة: ابن تيمية حياته وعصره، ابن شاکر الكتي، فوات الوفيات، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964، ج1، ص137.

<sup>(3)</sup> المقرئزي: الخطط، ج2، ص100، وابو شامة: ذيل الروضتين، ص235، ص236.

<sup>(4)</sup> والسيوطي: حسن المحاضر، ج4، ص166، الصفدي، أعيان العصر (مخطوط) ورقة 82 و83 ومحمد ابو زهرة، ن م، ص137، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص92، وماجد م.س، ص88، وعبد الوهاب الشعراوي، الطبقات الكبرى، ص17.

<sup>(5)</sup> الشيعة: هم الذين شايعوا علياً على وجه الخصوص، وقالوا بامامته وخلافته نصاً ووصية، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عن أولاده إلا لظلم أو تقيّة من عنده، غير أنهم اختلفوا في تعدية الامامة بعد وفاة زين العابدين بن علي بن الحسين لاختلاف ولديه زيد ومحمد الباقر، انظر احمد شناق: صحوة الخلافة العباسية، رسالة ماجستير سنة 1989م، فصل 5.

<sup>(6)</sup> انظر كرد علي: خطط الشام، ج6، ص252، 258، ابن جبير، م س، ص229، حيث بدأت في قرية أسعار عند جبل الشيخ زمن علي بن أبي طالب، وقرية زاوية: قرب دمشق، وتدمر وسليمة قرب حماة، وقد انتشرت الطوائف الشيعية في بلاد الشام بشكل اقلق الرحالة ابن جبير حينما زارها 580هـ/1184م، وكان من أهمها الاسماعيلية والنصيرية والدرزية لما كان لها من عظيم الأثر في الحياة السياسية والدينية والفكرية.

<sup>(7)</sup> ابن جبير، ن م، حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964م، ص137.

### ثالثاً: فروق الصوفية "المتصوفة".

لقد ازدهر التصوف في هذين القرنين، وخرج عن حدود الدين حتى شمل بعض السلاطين والعلماء<sup>(1)</sup>. وقد استمد التصوف عناصره الأولى من الاسلام حيث اقتصروا في زهدهم على العبادة والتفكير في آلاء الله، وكتبهم لشهواتهم ورغباتهم، ورضاهم من العيش البسيط حتى جاء الفاطميون وحاولوا طبع التصوف بطابعهم فأدخلوا فيه كثيراً من عقائدهم واتجاهاتهم<sup>(2)</sup> أما صلاح الدين الأيوبي فقد حاول بدوره نشر التصوف السني لطغيان مذاهب الطوائف الشيعية والفاطمية في بلاد الشام، حيث كان يحضر مجالسهم ويستمع لأقوالهم وأناشيدهم على سيرة نور الدين زنكي<sup>(3)</sup>. وتطور من شكله البسيط الى أسلوب خاص في الحياة الدينية له أماكن وطرقه، ثم استمر المماليك في الاهتمام بهم ونشر مبادئهم والاعتراف بهم كطائفة دينية مستقلة، فكان شيخ كل طريقة يعين بمرسوم من السلطان ويخلع عليه، وينزل من القلعة في حفل كبير تحيط به أعداد كبيرة من فقراء طائفته<sup>(4)</sup>، كما قربوا شيوخهم من مجالسهم أمثال شيخ الرفاعية صالح الأحمدى الرفاعي المتوفى سنة 707هـ/1307م في دمشق<sup>(5)</sup> والذي مازال أتباعه في جنوب بلاد الشام الذي ناظر ابن تيميه أمام السلطان.

ولن يطول بنا الوقت للوقوف عند التصوف السني الذي لم يخرج عن الاسلام وإنما نشير الى الطوائف المتطرفة في سلوكها وعقائدها وآرائها لأنها أخذت كثيراً من عقائد النصرانية وغيرها من الغنوصية المعرفية والبوذية كاستعمال السبح في ساعات الخلوة والدعاء<sup>(6)</sup> والتي مازالت منتشرة بيننا حتى اليوم.

(1) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص 119، لقد اعجب بهم وقال: "حيّاهم وبيّاهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم". وابن واصل: مفرج الكرب، ج1، ص 262-263، ذكر تأثر نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بهم بينائهما بيتاً منعزلاً من خشب للصلاة والتهجد في أعوام الزلازل. وبنى لهم نور الدين زنكي الربط والخوانق في جميع البلاد، وقربهم من مجالسه لحبه لهم. انظر: ابن جبير ص333، 234، ويقول وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 473.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية ص 77، (قاضي صلاح الدين).

(4) ابن اياس: م س، ص 87.

(5) ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط)، ج2، ورقة 212-213، ويذكر على أنهم نشروا الاسلام بين التار الغزاة وخاصة على يد الطائفة الأحمدية مثل ابن هولكو (لا نوكدار) وزيارة قطلوشاه لشيخ الرفاعية صالح الأحمدى.

(6) نيكلسون: الصوفية في الاسلام، ص 22.

وقد أدى هذا التطرف إلى ظهور جماعات المجاذيب أو الدراويش أو الحرافيش الذين اشتهروا بأفعالهم الغريبة وأزيائهم العجيبة وأقوالهم الكافرة. والذين اشتهر منهم عبد الله الفاقوله الحلبي الدمشقي المتوفى سنة 700هـ/1300م<sup>(1)</sup>. وقد كفر جماعة من العلماء برئاسة القاضي جمال المالكي كبيرهم الباجريقي هذه الفرق المتطرفة، وحكموا بإراقه دمه، ففر إلى مصر، وانقطع في الأزهر الشريف<sup>(2)</sup> كما انقسمت المتصوفة إلى طوائف كثيرة لكل منها شعارها المميز وطريقتها الخاصة فالرفاعية شعارها اللون الاسود، والأحمدية اللون الأحمر.

ومن أشهر الطوائف المتصوفة التي كان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا العصر القلندرية<sup>3</sup> والعدوية<sup>4</sup>. وعلى ضوء هذا نرجح العوامل التي أدت لنشر مبادئ التصوف بسرعة بين مختلف طوائف الشعب نتيجة للأخطار الخارجية الكبرى التي أحاقّت ببلاد الشام، كاحتلال الصليبيين للأماكن المقدسة والشعور الإسلامية وساحله الخصب وتدمير المغول

(1) الصفيدي: أعيان العصر (مخطوط)، ج6، ورقة 260، حيث ذكر تركهم للصلاة والفرائض الدينية وأقوالاً شاذة كافرة، كالشيخ علي الحرير الدمشقي، انظر ابن الوردي: م س، ج2، ص 178.

(2) الصفيدي: ن م، ورقة 25-26. كما اعتقدوا أن شيوخهم يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء كالشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ عدي، والشيخ أحمد بن الرفاعي وحياة بن قيس الحراني، انظر: ابن الوردي: م س، ج2، ص 65، 95، كما أفسدوا حياة الناس بإدخال الحشيش في حياتهم فهم أول من اكتشفوه واستعملوه حتى أصبح يحق داء العصر الذي جلبه الشيخ حيدر من خراسان المتوفى سنة 608هـ وانتقل هذا من فارس إلى العراق سنة 628هـ عن طريق ملوك البحرين ثم إلى الشام فمصر، وغدا موضوعاً شعرياً طرّقه المتصوفة في غزلهم الروحي وفضلوه على الخمر.

(3) القلندرية: نسبة إلى مؤسسها قلندر يوسف من عرب الأندلس في دمشق سنة 610هـ وتطرفت على يد شيخها جمال الدين محمد بن يونس الساوحي، الذ خلق وجهه ورأسه، كالدركزيني ومحمد البلخي: الذي اعتقد به الظاهر بيرس ورتب له معاشاً ن س، ص210، ص 211. كما ظهرت الطائفة الحيدرية سنة 655هـ المشابهة للقلندرية في معظم سلوكها، حيث كان لبسها الفراجي والطرانير، ويحلقون لحاهم ويتركوا شواربهم على خلاف السنة، ن م، ص218. وقد انتشرت القلندرية في بلاد الشام ومصر وسميت نفسها الملامتية وقد طرحوا الأدب الاجتماعية فأدخلوا الحشيشة، وتهاونوا في الصلاة والصوم والزكاة، ولم يتقشفوا وإنما قنعوا لطيب قلوبهم مع الله تعالى، انظر المقريري: الخطط ج3، ص 301، 302، 310، وابن الجوزي: تليس ابليس ص 363، وابن كثير: م س، ج11، ص 574.

(4) نسبة إلى مؤسسها عدي بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحلم الاموي القريني المولود في قرية (بيت الغار) من أعمال بعلبك ببلاد الشام سنة 468هـ، وأثنى عليه ابن تيمه بالخير والصلاح ومات بدون زواج، فخلفه أخوه في طريقته صخر بن مسافر وتفرق أولاده في بلاد الشام شمالها وجنوبها ومنهم شمس الدين الحسين بن عدي الذي تحول من مذهب السنة إلى مذهب جديد خرج عن الإسلام باعتقادهم بيزيد بن معاوية وتعظيمهم الشيطان لأنه في نظرهم أول الموحدين. إذ لم يسجد لآدم من دون الله وسحوا باليزيدية، ولم يعتقدوا بموت الشيخ حسن وقد أصبح عز الدين بن زيد الدين أميراً بدمشق ثم صفد في فلسطين الذي خطط للفتنة على المماليك فاعتقل ومات. وهكذا تحولت لجماعة سياسية لإعادة الخلافة الأموية لأحد أحفاد مروان بن الحكم، انظر: ابن حجر: م س، ج1، ص 412، المقريري: الخطط، ج4، ص 305، 306.

للحضارة بالإضافة للكوارث الطبيعية والأوبئة وما تخللها من غلاء ومجاعات. مما دفع المستضعفين من فقراء ومعوزين الى اتخاذ التصوف سبيلاً ليخفف عنهم مشقة الحياة، وتطورت مذاهبهم حتى أثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية كما ذكرنا.

وهكذا نلاحظ استخدام سلاطين الأيوبيين التصوف كوسيل أساسية بجانب المدارس السنة لمحاربة الدعوة الاسماعيلية في مصر وعملوا على إحياء الخلافة العباسية السنية في العراق لمواجهة الخطر الصليبي تحت شعار الوحدة الاسلامية كما مر معنا وذلك لكثرة الفرق الاسلامية شيعاً وأحزاباً.

وقد ازدهرت الحركة الصوفية في شرقي الأردن، ونشطت الدراسات الصوفية حتى ذاعت شهوة علمائهم ومريديهم فدعوا للقاهرة لتسليم مشيخة الصوفية هناك<sup>(1)</sup>.

وبعد خضوع فلسطين وشرقي الاردن للخلافة الفاطمية اصطبغ التصوف بمقاصد الشعية وتعاليمهم وكثر الدراويش، وساد اعتقادات باطلة في زعامات التشيع والتصوف من الشيوخ والأولياء وسكان الأضرحة والقباب وخاصة في فترات الحروب الصليبية العنيفة وما تبعها من أوبئة فكان تأثير هذه المحن على عقول الناس شديداً مما افقد الشعب صوابه وهيات عقليته للأباطيل وتلمس أسباب الركود الى الاستسلام وشاعت الاساطير والخرافات والأوهام عن الأولياء باسم الدين وزعم الكرامات والبركات والمعجزات الخارقة والشفاعات من الرقص على نغمات الدفوف والمزامير والغناء المشبوه للوصول الى الذات الإلهية ورؤيتها حسب زعمهم لاتباعهم، والتي مازال الباحث يشاهدها عند اقربائه من صوفية شرقي الأردن فتصدى علماء أهل السنة في مصر والشام لهذه الأباطيل مما زاد في تيار العداء الصوفي لأهل السنة ولم يفلحوا لأن تيار التصوف اتفق مع سياسة المماليك في اتخاذ الدين سياجاً ظاهرياً لحكمهم للشعب لتقليل نظرتهم نحوهم لعبيد غرباء فاصيب المجتمع المملوكي وخاصة طبقة الاستقرابية

(1) محمد بن علي بن جعفر العجلوني الملقب بـ"العلاي" استدعي لمصر وتسلم مشيخة سعيد السعداء الصوفية في القاهرة، والى "مختصر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي" واختصر "الشفاء" وقرض السيرة النبوية لابن ناهض، السخاوي: م س، ج 8، ص 178، ومنهم محمد بن سلامة التوزي الكركي اشتهر في "الأصول والمعقول والتصوف: المقريري: السوك، ج 3، ص 913، ومحمد بن هلال الباعوني الذي اخذ عن السخاوي والعلاي والبوصيري: السخاوي، م س، ج 10، ص 25.



بمرض المعتقدات الباطلة في الأولياء والمشايخ الذي ورثوه عن الأيوبيين<sup>(1)</sup> والذي ساعدت البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على انتشاره<sup>(2)</sup> بالإضافة للعامل الأصلي غير المباشر المتمثل في الجهل الذي أدى للانحراف الفكري بينما تعتبر العوامل الأخرى ثانوية.

وقد أفلح الشيوخ في السيطرة على عقولهم وإيهامهم بقدرتهم على الكشف عن الغيب والإتيان بالخوارق<sup>(3)</sup> فركن إليهم الحكام التماساً للرضا والنفع.

وهكذا توثقت علاقة السلاطين والأمراء<sup>(4)</sup> بمريديهم من الشيوخ للتبرك بهم<sup>(5)</sup> فأثر ذلك في سياسة الحكام ظاهرياً حيث اتفقت مع أساليب الصوفية في الزهد بالحياة ليفرضوا على رجال الدين من المشايخ والفقهاء والفقراء الحرمان والقناعة في الفقر وليصرفوا نظرهم عن حياة النعيم والبدخ والترف التي يستمتع بها الحكام والأمراء<sup>(6)</sup> وتمادوا في سياسة التستر هذه حتى إن بعض السلاطين اختار القضاة من الزاهدين الذين يفضلون الفقر على الغنى مما دفعت هذه السياسة بعض الشيوخ لاسلوب النفاق بادعاء الصوفية والولاية للتقرب من السلاطين طمعاً في المناصب<sup>(7)</sup>. لذا استطاع السلاطين توجيههم للدعاء للسلاطين وآل بيته. وكشف الكرب عنهم مقابل الأجور والرواتب العينية<sup>(8)</sup> هذا بالإضافة الى سيطرة المعتقدات الصوفية على تفكير السلاطين وعقولهم حتى انهم أصبحوا يخافون من كراماتهم<sup>(9)</sup> بل ويتسابقون للحصول على

(1) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، ج1، دار المعارف بمصر، 1968، ص 197، فقد ذكر أثر الأحداث التي ألمت بالعالم الاسلامي من هزائم عسكرية وظلم وكوارث طبيعية منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والذي أدى للأحساس باليأس والتذمر والضيق فلجأوا للزهد أملاً في الوصول لدار الخلود في الآخرة بعد أن خسروا دنياهم فهربوا بوجدانهم للعالم الآخر لتسكين واقعهم المر والغييب عن الوعي للعالم الآخر مما مهد لنشوء الصوفية في هذه الظروف المناسبة التي نفذت الى القلوب وانتشرت مع وسيلة الغياب عن الوعي بالخشيش بين الفقراء، ن.م، ص 197، 198. وسعيد عاشور: المجتمع المصري، ص 36، ومحمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك وتناحه الأدبي، ج3، ص 147.

(2) سعيد عاشور: م.س، ص 235، محمد فهمي عبد اللطيف، السيد البدوي، دولة الدراويش في مصر، ص 112.

(3) محمد زغلول سلام: م.س، ج1، ص 193.

(4) ن.م، ص 170، وعبد الرحمن الشرفاوي، ابن تيمية الفقيه المعذب، ص 127.

(5) زغلول سلام: ن.م، ص 127، 130، 182.

(6) محمد فهمي عبد اللطيف: م.س، ص 154، وزغلول سلام، م.س، ص 193، 201.

(7) محمد فهمي: ن.م، ص 194.

(8) المقرئزي: السلوك، ج1، ص 475، ق3، ص 849.

(9) ابن تغري بردي: م.س، ج7، ص 162، 176، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 299، وابن شاکر الكتي، م.س، ج1، ص 299، محمد زغلول سلام، م.س، ج1، ص 22، ص 193. وعبد الرحمن الشرفاوي، م.س، ص 127، "وكان الظاهر بيبرس يزور السيد البدوي ويقدهه وتبرك به، انظر: محمد فهمي عبد اللطيف، م.س، ص 50. وكان السلطان حسام الدين لاجين (696-698هـ/1298-1300م) يعتقد في كرامات قاضي \*\* تقي الدين بن دقيق العيد علي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص 297، وكذلك اعتقد بالشيخ تقي الدين رجب العجمي المنجي صاحب زاوية تحت قلعة الجبل، السلوك: ج2، ق1، ص 141، وكان حرمة خاصة عند الحكام، وكذلك كان للشيخ جلال الدين ابراهيم بن محمد القلاعتس (ت 722هـ) ن.م، ج2، ص 238. وانظر للمزيد: ابن حجر: م.س، ج2، ص 66، وابن تغري بردي، ن.م، ج11، ص 13، وقد روي أن الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1277م) رأى في منامه أن الامام الشافعي يهدده بقوله: "لأعزلنك وذريتك الى يوم القيامة، وكان الظاهر بيبرس جَعَلَ الأئمة أربعة، ففرق كلمة المسلمين. وانظر علي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص 297.

خرقة جلس عليها الشيخ واستعملها<sup>(1)</sup> بل وقسم بعض الأمراء هذه الخرقة ليحتفظ كل منهم بنصيب منها لجلب البركة<sup>(2)</sup>. وكان من ازدياد اهتمام سلاطين المماليك بمذهب التصوف أن يعينوا شيوخاً لهم كما فعل المنصور قلاوون عام 684هـ/1286م. كما زاد اعتقادهم في قدرتهم على شفاء المرضى<sup>(3)</sup>. حتى أن بعض السلاطين منع شيوخ السنة، معارضة أفكار الصوفية من ذوي الكرامات<sup>(4)</sup> لأن السلطان أصبح من مريدي الشيخ الصوفي<sup>(5)</sup>، فانتشرت زواياهم ورباطاتهم والخانقاوات المخصصة لهم وأماكن العبادة لايواء فقرائهم والنفقة عليهم<sup>(6)</sup> هذا بالإضافة الى اعتقاد نساء السلاطين والأمراء وكبار الدولة في الاولياء حتى قصورهم بالهدايا والنذور<sup>(7)</sup>.

وهكذا نرى ان سيادة هذا الاعتقاد ناجم عن قصور الفكر والجهل وضعف العقيدة الدينية عند المماليك حتى ان بعض المماليك شطح بادعائه النبوة فقتل<sup>(8)</sup> مما سبب اضطراباً سياسياً لتتبنى شيوخ الصوفية بعزل سلطان ومجيء غيره بالإضافة لنتائج المعارك<sup>(9)</sup>. وبالإضافة للصوفية فقد كان هناك مذهب الشيعة والدروز كما شهد العصر الأيوبي التحول من المذهب الرافضي الشيعي<sup>(10)</sup> الى المذهب السني فبالسبب للشيعة فلا يتسع المجال هنا للحديث عنها وانما

(1) المقرئ: ن م، ج1، ق3، ص 849، ابن تغري: م.س، ج11، ص 322.

(2) المقرئ: ن م، ج1، ق3، ص 894. وابن الفرات: م.س، ج3، ص 29-30.

(3) فقد ذهب السلار المنصور قلاوون (676-689هـ/1279-1290م) مع جمع من الفقهاء إلى الشيخ الصوفي محمد المرجاني عندما مرض ابنه الصالح (ت 687هـ) المقرئ: السلوك، ج1، ق3، ص 744. فوزع عليهم المنصور خمسة آلاف درهم مقابل دعاءهم، ولكنه عاتبهم بعد وفاة ابنه المريض فأجابوه: "بأنهم طلبوه، ووهبهم الله إياه ألا يدخله النار، ويدخله الجنة، فسكت السلطان". المقرئ: ن.م، ص 645، زغلول، م.س، ج1، ص 194. كما اعتقد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه شفي من مرضه ببركاتهم فوزع الاموال على الفقراء والصوفية. انظر: عبد الرحمن الشرقاوي، ابن تيمية الفقيه المعذب، ص 182، وكذلك فعل الظاهر بيبرس عندما مرض: المقرئ: السوك، ن م، ج1، ق2، ص 538.

(4) عبد الرحمن الشرقاوي، ن.م، ص 159-127.

(5) ابن حجر، م س، ج1، ص 449، ج2، ص 66، ج5، ص 165. قال: "أو هكذا كانوا معهم لتعلق الأفتدة بهم". وانظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج5، ص 347.

(6) محمد زغلول سلام، م س، ج1، ص 193.

(7) انظر ابن حجر: م.س، ج2، ص 313، ومحمد فهمي عبد اللطيف، السيد بدوي، ص 85.

(8) ابن تغري بردي: م.س، ج9، ص 250، ذكر اسمه، وهو سيف الدين قبغا مملوك ركن الدين بيبرس التاجي، المتوفى 720هـ.

(9) ابن حبيب (ت 779هـ/1377م)، م.س، ج2، ص 104.

(10) بالنسب للشيعة انظر: احمد شناق، صحوة الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة 1989م، ص. وكانت الشيعة حوالي ثلاث وسبعين فرقة كان أهمها شيعة الامامة.

يهيمن منها الإشارة الموجزة الى أهم فرقها التي أثرت في الأحداث السياسية كالشيعة الإمامية<sup>(1)</sup> والاسماعيلية والنزارية والدروز في جنوب بلاد الشام وذلك لعلاقتهم بالصليبيين هذا وقد انتشر مذهب الشعية في جبال لبنان وجنوبي فلسطين كصفد وغيرها.

فبالنسبة للدروز<sup>(2)</sup> فقد انتشروا ما بين ولاية صفد شرقاً وولاية عكا غرباً حيث كانوا يشكلون غالبية السكان<sup>(3)</sup> وهم فرقة من الشيعة الدروز، الذين انتشروا في حوران جنوب دمشق وجبال لبنان.

وبالنسبة للدروز في زمن المماليك فقد نزحوا من منطقة كسروان في لبنان عندما هاجمها المماليك عام 699هـ/1300م وعام 705هـ/1305م حيث أجلتهم عساكر المماليك واسكنوا مكانهم عناصر كردية وتركمانية<sup>(4)</sup>. وقد حاول بعض سلاطين المماليك ارجاعهم الى مذاهب السنة عندما حاول الاشرف خليل بن قلاوون أن يفرضها عليهم بالقوة، وبنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 717هـ/1319م في كل قرية من قراهم ليرجعهم الى مذاهب السنة ولكنهم استمروا على معتقداتهم<sup>(5)</sup>.

أما بالنسبة للأسماعيلية النزارية "العندانية" في بلاد الشام في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فقد حاربهم صلاح الدين الأيوبي وكذلك السلطان الظاهر بيبرس

(1) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 211. "... والشعية الإمامية هم الذين يعتقدون بأن الإمام يجب أن يكون من بيت النبي، وعليه فالاختيار محصور في ذرية علي وفاطمة، ويذهبون أن علياً قد نُصّب إماماً بنص أعلن عند غدريخهم، والإمامة وراثية في ذريته، وينحصر الاختيار فيمن يبايع منهم بالإمامة، وهناك فرق أخرجت ذرية الحسن من الاختيار لتزوجه من إحدى بنات يزدجرد الثالث، آخر ملوك الساسانيين، وقالت بحق ذرية الحسين وحده في الإمامة، ويرون أنه يجب على الإمام أن يعرف خلفه وأن يعينه.

(2) والدرزية: حركة مذهبية ظهرت في زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (386هـ/960م) على يد حمزة بن علي بن أحمد، ومحمد بن اسماعيل درزي، ويعتقد بأنهما من أصل فارسي، وبالنسبة لاعتقادهم فقد ارتدوا عن الاسلام باعتقادهم أن الحاكم بأمر الله كان آخر من تجسد فيه الله، وينكرون وفاته، وأنه لم يتوف بل استر ليظهر يوماً ما، وكان انتشار هذا المذهب في بلاد الشام على يد محمد بن اسماعيل درزي عام 413هـ/1020م حيث قدم اليها وقام بنشر مذهبه الجديد. دائرة المعارف الاسلامية، الدروز، ج9، ص 214-219.

(3) شيخ الربوة: ن.م، ن ص.

(4) الدوادار: زبدة الفكرة، ورقة 147، مخطوط. والمفريزي: السلوك، ج1، ص 902-903.

(5) حقي: م.س، ص 259. Zideh, Urban life, p. 46.

هذا وقد وصف شيخ الربوة بعض معتقداتهم المخالفة لأهل السنة فقال: "... وهم قوم دهرية حلولية يكذبون الرسول، وينكرون الشرائع، ويعتقدون التناسخ، وأن لا بعث ولا نشور، ... ويعتقدون أن الحاكم بأمر الله ظهر مظهر الاله، ويشربون الخمر، وينكحون الحرام ولا يفتسلون من جنابة، ويزرعون الحشيشة المسكرة في قرية الزابود" انظر شيخ الربوة: م.س، ص 211.

Lewis "An Arabic Account", p. 485. Zideh, Urban life, p. 46.

المملوكي وسيطر عليهم المماليك أكثر من الأيوبيين<sup>(1)</sup> فاخضعوهم للسلطة المركزية بمصر حيث فرضوا عليهم جزية مائة ألف درهم لحمايتهم وأصبحت حصونهم العذارية في الثغر ومصيف والكهف والقدموس تخدم نيابات الشام مما جعلنا نطلق عليهم تسمية شيعة مصر المملوكية<sup>(2)</sup>.

والخلاصة أن المذاهب السنية هي التي انتشرت في بلاد الشام لجانب أقلية من الشيعة وخاصة فرقة الاسماعيلية الشامية أو الاسماعيلية النزارية<sup>(3)</sup> هذا بالإضافة لمذاهب أهل الذمة التي ورد ذكرها في السابق<sup>(4)</sup>. وتجدر الإشارة هنا إلى علاقتهم مع الصليبيين حيث تحالفوا معهم في بعض الأحيان ضد المسلمين وقتلوا بعض أمرائهم أحياناً أخرى<sup>(5)</sup>.

وقد برز من قياداتهم في بلاد الشام راشد الدين سنان لأكثر من ثلاثين عاماً (561-591هـ/1166-1193م) حيث نافس القيادة الرئيسية في قلعة ألموت في بلاد فارس وأوجد مذهباً في الشام عرف بالسنانية خلال عصر الحروب الصليبية<sup>(6)</sup> وقد لاحظ ذلك بنيامين التطيلي بنفسه أثناء زيارته لجنوبي بلاد الشام.

ويلاحظ أنهم لعبوا دوراً بالغ الخطورة في إضعاف الجبهة الإسلامية ضد الغزو الصليبي كالمصراع التيار الشيعي حيث شكلوا فرق اغتيالات متطرفة إرهابية بتصفية المعارضين لها جسدياً ولإرهاب الآخرين بالقوة المسلحة، فيكونوا قد قدموا خدمة كبيرة في تبديد طاقات المسلمين في مجال الصراع المذهبي.

(1) وقد استعان بهم الملك الناصر الأيوبي (648-659هـ/1250-1260م) لاغتيال أعدائه مقابل المال، فقد كان يحصل على الفدائي منهم يحصل على دية مقدماً فالدية له وإن أصيب فلولده، حيث كانوا يحملون سكاكين مسمومة: ابن بطوطة، م.س، ص 56.

(2) ن.م، ن.ص، القلقشندي، م.س، ج4، ص 179، ج13، ص 245، وابن خلدون، م.س، بيروت 1968، ص 209.

(3) القلقشندي، م.س، ج13، ص 226، وجوزيف نسيم، م.س، اسكندرية، 1971، ج13، ص 226، كما تناول ذكرهم الرحالة: بنيامين التطيلي الذي تناول صراعهم مع الصليبيين وأمير طرابلس حيث كانوا يقتلون الملوك والأمراء إذا لزم الأمر ذلك. د. محمد مؤنس احمد عوض: الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس ما بين (1099-1187م) مكتبة المدبولي، ميدان طلعت حرب-القاهرة، 1992، ص 163. كما ذكر ابن جبير: م.س، ص 229 "... انهم يطيعون شيخهم طاعة كاملة وإذا أمر أحدهم أن يتردى من شاهقة الجبل لفعل".

(4) فبالنسبة لليهود: فكانوا القرائين الربانين والسامرة وبالنسبة للمسيحيين فكانوا الارثوذكس، والكاثوليك والبروستانت.

(5) فقد اغتالوا راينوند الثاني أمير طرابلس Raumont II of Tripolis عام 1152. برناردلويس، م.س، ص 126، اسامة زكي: الصليبيون واسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن 6 هـ/ 12م)، ط، الاسكندرية، 1980، ص 220. وعاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 1306، كما اغتالوا كونراد المنتفري (Conrad Montferrat) عام 1129 ابن قدامة، م.س، ص 208، العماد

الأصفهاني: م.س، ص 589. ابن الأثير: م.س، ج12، ص 27، Jacques de vitry, History of Jerusalem, pp. 116-117.

(6) شيخ الرتبة: م.س، ص 208، ذكر أن أتباعه اعتقدوا في غيبته في حصن الكهف ورجعته كالشيعة الاثني عشرية الذين اعتقدوا بغيبته الامام محمد بن الحسن العسكري بعد ان اختفى في سر من رأى (سامراء) وابن العديم: سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس ص 260، 261، سبط ابن الجوزي، م.س، ص 419. وابن تغري بردي، م.س، ج6، ص 117.

## المؤسسات الدينية الثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي

### أولاً: المساجد في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي

لقد كثر عدد المساجد في العصر المملوكي لتتنافس بعض السلاطين والأمراء في ذلك لكسب الثقة والتأييد الشعبي باعتباره دار العبادة للمسلمين وقد أقيمت المساجد في وسط المدن الإسلامية لاعتبارات وظيفية لتسهيل وصول السكان إليها فكانت جميع الشوارع والأروقة تنتهي عند المسجد كما يصعب علينا حصرها لكثرتها، لذا سنذكر بعض أسماء المساجد الهامة في المدن والقرى حيث كانت موزعة على الأسواق والأحياء والمدارس والخوانق والقلاع والترب ومن أهمها في مدينة غزة: جامع الشمعة، وجامع الشيخ عبد الله الأيبيكي - وهو من مماليك عز الدين أيبك ومدفون بجانبه - وهناك الجامع الكبير أكبر جوامعها حيث تدل نقوشه على الزيادات التي أضيفت لهذا الجامع<sup>(1)</sup>. ومسجد الزاوية الاحمدية نسبة الى احمد البدوي (ت 675/1277م) مؤسس الطريقة البدوية في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومسجد الطقزدمري عام 1365/767<sup>(2)</sup>. كما عقدت بعض المجالس في المساجد لمناقشة بعض الأمور بحضور القضاة والحاجب وغيرهم<sup>(3)</sup>.

ومن المناسبات الاجتماعية التي كانت تقام فيه مناسبة الافراح والأحزان سواء كان ذلك لعقد الزواج أو تقديم العزاء<sup>(4)</sup> بالإضافة لكونه ملجأ للناس في حالات الكوارث والملمات كبيت من بيوت الله يضيء على قلوب الناس الطمأنينة والراحة النفسية باللجوء الى الله تعالى.

أما دور المسجد الثقافي في بلاد الشام في العصر المملوكي فكان نشر الثقافة والعلم في المجتمع الإسلامي في بداية العصر المملوكي كما أدى الى زيادة عدد المدارس واستقلالها عن

(1) عطا الله: نياحة غزة، ص 228.

(2) الطقزدمري: شهاب الدين ازفير بن الطقزدمري نائب دمشق حتى سنة 1346/747م. عطا الله: ن م، ص 237.

(3) ابن طولون (شمس الدين محمد)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) تحقيق محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962، ق1، ص 8.

(4) ابن شاکر (محمد): عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داوود، دار الرشيد للنشر، 1980م، ج2، ص 350. سبشار له فيما بعد هكذا: ابن شاکر: عيون التواريخ وابن طولون: مفاكهة الخلان. ق1، ص 147.

المسجد لتراجع دور المسجد الثقافي لاقتصاره على العلوم الدينية واللغوية والكلامية حتى انحصر بعضها في تدريس بعض المذاهب<sup>(1)</sup> كالمسجد الأقصى الذي اشتهر بمجالاته العلمية<sup>(2)</sup>.

ومن جوامع صفد المملوكية، الجامع الظاهري أو الجامع الأحمر، نسبة الى بانيه الظاهر بيبرس عام 664هـ/1266م، عند فتحها حيث أصبح دار العلم الأولى فيها<sup>(3)</sup> كما أنشأ أيضاً جامعاً في قلعتها في نفس العام، ومنها جامع الأمير نجم الدين فيروز قبل عام 727هـ/1326م هذا بالإضافة الى عدد كبير من المساجد في قرى صفد<sup>(4)</sup> وفي شرقي الأردن وُجد عدة مساجد في مدينة عجلون يعود قسم منها للعصر الأيوبي وزاد عددها في العصر المملوكي<sup>(5)</sup>.

ومن المعروف أن هناك نوعين من المساجد، النوع الأول المسجد الجامع لاقامة خطبة وصلاة الجمعة، بينما كان النوع الثاني المسجد الذي يقتصر عمله على أداء الصلوات.

هذا وقد اعتمدت المساجد في نفقاتها على أوقاف السلاطين والأمراء والموسرين من أهل الخير، لأن الدولة لم تكن مسؤولة مباشرة عن بناء المساجد ولكنها كانت تصدر مراسيم تعيين الأئمة والخطباء فيها لربطهم بالولاية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

وكان مقدار الوقف يتفاوت من مسجد لآخر حسب عدد العاملين به والخدمة الاجتماعية والثقافية التي يقدمها، فكان من أوقاف جامع غزة للسلطان فايتباي دكاكين العنصرية، فرن خبز، قرية سامرية، وقرية صميل في الخليل<sup>(6)</sup> ومن الموظفين الذين قاموا بخدمة المساجد، ناظر

(1) عبد الله الوشيلي، المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الخلق العلمية، مؤسسة الرسالة، مكتبة الجيل الجديد، بيروت، 1988، ص 75.

(2) السخاوي: شمس الدين محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1م، ج2، ص 157-158، د. كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع الثقافية، عمان 1981، ص 35-36، سيشار له: العسلي، معاهد العلم.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض 1976، ص 26، الطراونه، مملكة صفد، ص 259.

(4) الطراونه: م س، ص 260-261.

(5) د. يوسف غوانته: المساجد الإسلامية القديمة في منطقة عجلون منشورات مركز الدراسات الاردنية، جامعة اليرموك، 1986، ص 48.

(6) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين: تحقيق محمد ابشري، محمد داوود التميمي، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية. استانبول 1982، ص 14.

المسجد<sup>(1)</sup> والامام<sup>(2)</sup> والخطيب<sup>(3)</sup> والمؤذن<sup>(4)</sup> وقِيم المسجد<sup>(5)</sup>، وما زالت هذه الوظائف قائمة حتى اليوم.

ومن مساجد جنوب الشام الكبرى المسجد الأقصى بالقدس الذي لعب دوراً هاماً في التاريخ الاسلامي وأعاد بناءه الوليد بن عبد الملك الأموي فيما حول الصليبيون قبة الصخرة الى كنيسة والمسجد الى سكن لملوكهم لمدة تسعين عاماً<sup>(6)</sup> حتى استرده صلاح الدين الأيوبي بعد موقعة حطين 583هـ/1187م فعاد ليتبوأ مكانته في نواحي الحياة المختلفة بعد ترتيب أموره من حيث الاوقاف والامام والخطيب والمؤذن والمصاحف وربعات منصوبه على كراسي<sup>(7)</sup>.

ومن الملاحظ أن مدينة بيت المقدس كانت من الوسائل التي استخدمها الأيوبيون في صراعاتهم على السلطة مما كان له أثر كبير على سير عمل المسجد الأقصى في أداء رسالته الدينية والفكرية بينما عاد هذا الدور الرائد في العصر المملوكي للنهضة العلمية في القدس وبلاد الشام والعالم الاسلامي.

<sup>(1)</sup> ناظر المسجد: المسؤول عن شؤونه الادارية والمالية وما يحتاج اليه من تصليح وترميم، ص 14، فقد كانت هذه الوظيفة مربوطة بنائب المدينة كالمسجد الأقصى ثم أصبحت بيد قاضي القضاة الشافعي، القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص 198، رشاد الامام: القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976، ص 104، سيشار فيما بعد هكذا: الامام القدس.

<sup>(2)</sup> الامام: الذي يؤم بالمصلين في أوقات الصلاة وكانت توليته من قبل السلطان أو من الواقف أو الناظر أو قاضي القضاة عندما تتوفر فيه الشروط اللازمة من حفظ القرآن وعلمه بأحكام الصلاة. القلقشندي: ن م، ج11، ص 223، حسن الباشا: الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، 1965، ج1، ص 108، سيشار له فيما بعد هكذا: الباشا: الفنون، الاسلامية وأبن الأجرة (محمد بن محمد القرشي): معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوي، مطبعة دار الفنون، كمبرج، 1937، ص137، وسيشار له فيما بعد هكذا: ابن الأجرة: معالم القرية، ورشاد الامام.

<sup>(3)</sup> بحير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، م1، ج2، ص 191، الباشا: ن م، ج1، ص 480-485.

<sup>(4)</sup> المؤذن: الذي يدعو للصلاة ويتميز بحسن الصوت وجودة الأداء. والحنبلي: ن م، ج1، ص2، ج2، ص192. الباشا: ن م، ج2، ص 1163-1164. د.غوانه: نيابة بيت المقدس، ص 42.

<sup>(5)</sup> قِيم المسجد: خادمه المسؤول عن نظافته وإشغال قنابله ليلاً وإغلاق أبوابه عقب الصلاة. ابن الاخوة: ن م، ص172، الباشا: ن م، ج1، ص 446.

<sup>(6)</sup> احمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، ص 27، سيشار له فيما بعد هكذا: بدوي: الحياة العقلية.

<sup>(7)</sup> ابن ابيك (ابو بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع العز، ج7 والدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، ص 90. سيشار له فيما بعد هكذا: ابن ابيك: الدر المطلوب، وبقي نظام المسجد الأقصى ساري المفعول حتى بعد تسليم السلطان الكامل الأيوبي (615-635هـ/1217/1237م) مدينة القدس للصليبيين حيث كان ذلك ضمن الشروط معهم. ابن ابيك: ن م، ص 292 وكذلك بعد تسليمها للصليبيين زمن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق عام 641/1243 لكسب مساندتهم ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر.

ويتكون المسجد الأقصى من عدة أقسام، فالجامع الذي في صدر المسجد عند القبلة تقام به صلاة وخطبة الجمعة وهو المشهور بالمسجد والاقصى الذي يتكون من بناء كبير به قبة مرتفعة تحتها المنبر والمحراب ويمتد من جهة القبلة الى الشمال<sup>(1)</sup> ومن جهة الغرب يوجد بصلح المسجد جامع المغاربة لاقامة صلاة المالكية<sup>(2)</sup> أما قبة الصخرة المشرفة فتقع في وسط المسجد على الصحن الكبير تعلوها قبة<sup>(3)</sup> ومن القباب المشهورة قبة السلسلة شرقي الصخرة، وقبة المعراج عن يمين الصخرة التي يقصدها الناس للزيارة، وقبة سليمان، وقبة موسى<sup>(4)</sup> ومن زواياه المشهورة: الزاوية البسطامية اسفل الصخرة في غربها نسبة الى الفقراء البسطامية الذين كانوا يجتمعون فيها للذكر واغلقت في أواخر العصر المملوكي والزاوية الصمادية شمال البسطامية أغلقها المماليك أيضاً في أواخر عصرهم<sup>(5)</sup>. وله أربع مآذن مضاءة: - الأولى من جهة القبلة على مقدمته والثانية على الباب الغربي للمسجد - وهي المئذنة الرئيسية - من بناء الأمير تنكز نائب الشام، والثالثة من جهة الشمال خلف المسجد المسماة مئذنة الغوانمه لقربها من باب الغوانمه، بناها القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن صاحب الوزير فخر الدين الخليلي، والمئذنة الرابعة شمال المسجد بين باب الاسباط وباب حطة بناها قطوبغا ناظر الحرمين<sup>(6)</sup>.

وللمسجد عشرة أبواب مشهورة هي: بابان في الشرف وباب بقربيهما من جهة القبلة، وأربعة أبواب في الجهة الشمالية هي باب الأسباط في مؤخرة المسجد وباب حطة وباب الدوادارية وثلاثة أبواب في الجهة الغربية هي باب السلسلة والمغاربة والقطانين<sup>(7)</sup>. واعتمد المسجد على آبار المطر في تزويده بالماء اللازم حيث بلغ عددها أربعة وثلاثون بئراً بلغ عدد فوهاتھا الى نيف وأربعين فوهة لكفاية رواد المسجد<sup>(8)</sup>.

(1) ابن بطوطه: م س، ص 58، بحير الدين الحنبلي: م س، م 1، ج 2، ص 11.

(2) ابن جبير: م س، ص 239، بحير الدين: ن م، م 1، ج 2، ص 15، لانه يقع بجانب حارة المغاربة.

(3) بحير الدين الحنبلي، ن م، ج 2، ص 16.

(4) ابن جبير: م س، ص 238، وبحير الدين الحنبلي، ن م، ج 2، ص 16-17، 21، 19.

(5) بحير الدين الحنبلي، ن م، ج 2، ص 23.

(6) ن م، م 1، ج 2، ص 27-31.

(7) ن م، ج 2، ص 33.

(8) ن م، ن ص.



وكان مصدر الاضاءة فيه ليلاً القناديل التي بلغ عددها سبعمائة وخمسون قنديلاً، بالاضافة الى خمسمائة واربعين قنديلاً في قبة الصخرة وحولها، ويزداد عددها في المناسبات الدينية الشهيرة كليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان، وليلة المولد النبوي الشريف، والنصف من شعبان حتى يبلغ عددها عشرين ألف قنديل<sup>(1)</sup>.

وقد اشار مجير الدين الحنبلي الى طريقة الصلاة فيه وحوله حسب مذاهب الائمة الدائمين فيه: فكان أولهم إمام المالكية: الذي يؤم المصلين في الجامع الواقع غربي المسجد من جهة القبلة ثم يصلي من بعده امام الحنابلة بالرواق الغربي خلف منارة باب السلسلة من جهة الشمال بالاضافة الى بعض الائمة المؤقتين لصلاة التراويح في شهر رمضان<sup>(2)</sup>. هذا بالاضافة للمدرسة والمعبد والخدام والمؤذنين والقراء فهم كثيرون جداً<sup>(3)</sup>.

(1) مجير الدين الحنبلي، ن م، 1، ج2، ص 33.

(2) ن.م، ن.ص.

(3) ن.م، ن.ص.

## دور المساجد الاجتماعية والثقافية في الحياة العامة

يحتل المسجد في قلوب المسلمين مكانة وشرفاً عظيمين بصفته بيت الله وارتباطه بتعاليم الاسلام وتطبيقاته من حيث كونه داراً للعبادة، لتوجيه الناس ايمانياً ومادياً ومركزاً للنشاط الديني والاجتماعي فهو مركز لاجتماع أهل البلد<sup>(1)</sup> يومياً في المناسبات الدينية، بالاضافة لايوائه الفقراء المحتاجين حيث كانوا يستفيدون من ريع الوقف المخصص للمسجد<sup>(2)</sup> حيث وجد في جامع الخليل (الحرم الابراهيمي) وقف برسم الواردين عليه شمس ضيافة الخليل<sup>(3)</sup>.

وبقي المسجد كذلك حتى جاء الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260/1278م) فمنع الفقراء من الايواء إليه حيث أمر باغلاق المساجد في أوقات الصلاة، فأنكر عليه بعض الفقهاء ذلك<sup>(4)</sup>. هذا وقد أدى المسجد وظيفة سياسية أخرى كمكان لإعلان مراسيم السلطان<sup>(5)</sup>، واجتماع كبار العلماء<sup>(6)</sup>.

(1) ابن جبير: م س، ص 100.

(2) سالم: طرابلس الشام، ص 475، نص وقفية جامع طينال في طرابلس.

(3) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي

للدراستات العربية، دمشق 1462م، ص 241.

(4) ابن عبد الظاهر: م س، ص 263-264.

(5) المقرئزي: السلوك، ج 1، ق 4، ص 895. غوائه: المساجد الاسلامية، ص 60-61.

(6) مجير الدين الحنبلي: م س، ج 1، ص 2، ص 300.

## المؤسسات الصوفية في بلاد الشام

### " الخوانق، الربط، الزوايا "

#### تمهيد :

لقد ظل إهتمام الصوفية<sup>(1)</sup> منذ القرن الثاني للهجرة وحتى القرن السادس والسابع الهجريين بأمور الذين زاهدين في الدنيا مع وجود بعض الانحرافات في سلوكهم<sup>(2)</sup> وجاءت الظروف الملائمة لإنتشار الحركة الصوفية في العالم الإسلامي نتيجة للظروف السياسية والغزو الأجنبي المغولي وبقايا الصليبيين في أطراف بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجري علاوة على سوء الأوضاع الإجتماعية من فقر ومرض ووباء مع الأحساس بضياغ العنصر العربي، كل هذا أدى لردة فعل معاكسة نتيجة للإحباط واليأس من مواجهة هذا الواقع المؤلم حيث لجأوا إلى دينهم وتركوا أمور الدنيا كوسيلة للهرب من الحقيقة وعجزهم عن التصدي للأحداث وإنهيارهم النفسي<sup>(3)</sup> وتوالي إنتشار التصوف لأسباب دينية زمن الزنكيين والأيوبيين<sup>(4)</sup> وذلك لتشجيع التصوف للقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام.. وتقوية روح الجهاد لمواجهة الخطر الصليبي حيث شجع صلاح الدين الأيوبي الصوفية بانشائه الخوانق والربط والزوايا.

وسار المماليك على نهج أسيادهم الأيوبيين من حيث إهتمامهم بالصوفية ومؤسساتها فزادت الخوانق والربط والزوايا بفضل السلاطين والأمراء والأغنياء الذين أغدقوا عليها من أموال وأوقاف محبوسة لصالحها كالظاهر بيبرس<sup>(5)</sup> الذي بنى له زاوية بالقدس وغيرها من مدن

<sup>(1)</sup> لقد اختلفت آراء الباحثين والمؤرخين في تفسير كلمة صوفي. وكان أقربها إلى الصحة ما أشار إليه السهردوري وابن خلدون بأن كلمة صوفي مشتقة من الصوف لباسهم الدائم بخلاف ملابس الناس الفاخرة.

السهردوري ( عبد القادر بن عباله: عوارض المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، 1966، ص59، ابن خلدون: المقدمة، ص467

<sup>(2)</sup> الأدفوي (كمال الدين أبو الفضل، جعفر بن ثعلب المصري ق 1347/748 المؤني بمعرفة التصوف والصوفي حقه وقدم له وعلق عليه: محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت، 1988، ص5، سبشار له فيما بعد: الأدفوي: المرفى.

<sup>(3)</sup> الأدفوي: ن م، ص5، والسيكي: معيد النعيم، ص119، 67.

<sup>(4)</sup> ابن قاضي شهبة: الكواكب: الدرية، ص38، عمر موسى باشا: م، ص102.

<sup>(5)</sup> الأدفوي: ن م، ص6 وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب تحقيق لجنة أحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت 3م، ص351-352 سبشار له فيما بعد: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب.

الشام. وأصبحت زمن المماليك ملأداً لكل طالب راحة لتوفر الطعام والشراب واللباس فازداد عدد المنتسبين إلى الصوفية وأصبحوا نموذجاً للتطفل والفضول<sup>(1)</sup> مما أدى لتصدي الفقهاء والعلماء لبعض أفكارهم كإبن تيمية الذي هاجمهم بشدة<sup>(2)</sup> وحاربوا قولهم بالحلول والإتحاد والتناسخ واعتبروا كفره مهديري الدماء مما دفع علماء الصوفية لتكوين فرقاً وأحزاباً لها مبادئها وأصولها وأشياخها وأبناؤها فتكونت الفرق الصوفية في بلاد الشام<sup>(3)</sup> كالفرقة القادرية<sup>(4)</sup> والرفاعية<sup>(5)</sup> والوفائية<sup>(6)</sup> والقلندرية<sup>(7)</sup> والنبوية<sup>(8)</sup>.

أما الفرق المتجولة فكانت اليونسية<sup>(9)</sup> والأحمدية والحيدرية وبعض الفقراء البسطامية في القدس في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي<sup>(10)</sup>.

(1) ابن شاكر: عيون التواريخ، ج 21، ص 145.

(2) ابن الوردي: م س، ج 1، ص 289.

(3) ابن شاكر: فوات الوفيات، ج 2، ص 445، ورمضان: مجتمع بلاد الشام، ص 155.

(4) أسسها عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ/1166 في بغداد وانتقلت إلى بلاد الشام عن طريق محمد البطائحي .

J. Spencer , Trimny hame, the Sufi orders in Islam, oxford , Carendan press, 1971, P.14. Ziadeh, Urban life , P162

(5) ابتدأت في جنوب العراق في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وكان لها زاوية في القدس باسم الزاوية الرفاعية

I.spencer :Ibid, p.14, ziadeh, Ibid,p.162.

(6) إنتشرت في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي وكان لها زاوية في القدس .Ibid, p.163.

(7) أصلها فارسي ولها زاوية في القدس، وكان أول ظهورها في دمشق عام 1213/610 م..Ibid, p.163.

(8) أصلها من الشام 193 .Ibid: p.

(9) نسبة إلى مؤسسها يونس الشيباني: العسلي:وللمزيد من المعرفة انظر: العسلي: معاهد العلم.

(10) Ziadeh , Urban life , P 163

## الخوانق<sup>(1)</sup> والربط<sup>(2)</sup> والزوايا<sup>(3)</sup> في جنوب بلاد الشام

لقد كثرت الخوانق والربط والزوايا في مدن جنوب بلاد الشام الرئيسية في العصر المملوكي إلى الدرجة التي لا نستطيع إحصاءها كمظهر من مظاهر التصوف، فكان في مدينة القدس 19 زاوية وخانقأتان و8 ربط<sup>(4)</sup> وفي مدينة الخليل كان هناك 23 زاوية و3 ربط<sup>(5)</sup>. وكان يدير الخانقاه الصلاحية في القدس شيخ الخانقاه الذي يعينه السلطان كمدير<sup>(6)</sup> وعليه تربية المريدين بالصلاة والتلاوة والذكر<sup>(7)</sup> وناظر الخانقاه الذي يدير شؤونها وإحتياجاتها من اللوازم<sup>(8)</sup> وناظر الوقف وخادم الخانقاه<sup>(9)</sup> ومؤذن<sup>(10)</sup> وخازن الكتب<sup>(11)</sup> وبواب<sup>(12)</sup>. أما الزاوية فكان عدد العاملين بها أقل من الخانقاه، وأعلى الوظائف شيخ الزاوية الذي يعين من قبل نائب السلطنة في دمشق كشيخ الزاوية الأمينية في القدس وبالنسبة لموقع كثير منها كانت في البراري كان على الشيخ تهيئة الطعام للواردين ويعتبر شيخها المعلم والمدرس فيها<sup>(13)</sup> هذا بالإضافة إلى الإمام للصلاة وخادم وقيم وواعظ وأمين مكتبة<sup>(14)</sup>.

- (1) خوانق: مفردهما: خانقاه، وتلفظ خانكاه، كلمة فارسية الأصل بمعنى مائدة طعام الملك، وتعني بيت أيضاً وتعني محلاً للتعبد والزهد والبعد عن الناس حيث يشبه الذير عند النصارى. دهمان: معجم الألفاظ، ص 66.
- (2) ربط: مفردهما ربط، والرباط من المراقبة: أي ملازمة نهر العدو: أي أن يربط كل واحد من الفريقين خيلة، ثم صار لزوم الثغر رباطاً في صدر الإسلام ثم تحولت من مفهومها العسكري إلى معنى صوفي كالزاوية والخانقاه.
- أنظر ابن منظور: لسان العرب، مادة ربط.
- (3) الزاوية: زاوية البيت ركنه، أطلقت في بداية الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم على المسجد الصغير أو على المصلى ثم إرتبطت بالصوفية كمردف لكلمتي خانقاه، وربط: ابن منظور: ن، مادة زوي.
- وبروفتسال: الزاوية، دائرة المعارف الإسلامية، ص 331.
- (4) مجمر الذين الحبلي: م س، ج 1، ص 34-36، 37-43، 79، 89، 341، 350.
- (5) ن. م، ج 1، ص 78-80.
- (6) مجمر الذين الحبلي: ن م، ج 1، ص 47، الإمام، مدينة القدس، ص 106.
- (7) السبكي: معيد النعم، ص 124.
- (8) ابن شاذكر: عيون التواريخ، ج 2، ص 181.
- (9) السبكي: ن م، ص 126، البابا: م س، ج 1، ص 443.
- (10) ابن حجر العسقلاني: م س، ج 4، ص 54.
- (11) ن م، ج 3، ص 171.
- (12) ابن طولون: القلائد الجوهريّة، ق 1، ص 152.
- (13) السبكي: ن م، ص 126، البابا، ن م، ج 2، ص 635.
- (14) ن م، ج 1، ص 109.

أما الربط فقد وجد بها أيضاً شيخً وناظر ومدرسين وأمين مكتبة وخادم للرباط<sup>(1)</sup> وكان القائمون على الخوانق والربط والزوايا يحددون أياماً لتلاوة القرآن والأذكار وبعض الدروس إسبوعياً<sup>(2)</sup> ومن الآداب فيها طاعة المريد للشيخ طاعة عمياء<sup>(3)</sup> لأنه هو الذي يعلمهم آداب الكلام والطعام وآداب الصحبة ويرسم لهم برنامج الحياة اليومية<sup>(4)</sup>.

هذا وكان مصدر تمويلها من ريع الأوقاف<sup>(5)</sup> المختلفة من زراعة وحوانيت وخانات إلى جانب الأموال التي تقدمها الدولة لها ومرتبات لشيخوخها<sup>(6)</sup> كزاوية الشيخ خضر بغزه<sup>(7)</sup> مما جعل طبقة العامة يقبلون على إرتيادها بكثرة ويؤمنون بأفكارهم بالزهد بالدنيا وعدم التفكير بأمور الحياة اليومية فأثرت فيهم إيجابياً أو سلبياً سواء كانوا سلاطين أو أمراء أو عامة الناس. لإعتقادهم ببركة الصوفية للدعاء لهم وإعتقادهم بقدرتهم على الإتيان بالخوارق<sup>(8)</sup> فترددوا على مؤسساتهم فأجزلوا لهم العطاء والهبات ودعوتهم لإقامة الليالي الراقصة<sup>(9)</sup> والتبذير في الإنفاق عليها مما أضر سلبياً على المجتمع الشامي باضعاف الحالة الإقتصادية بالرغم من إعتنائها بالفقراء والغرباء<sup>(10)</sup> وإيواء كبار السن والعجزة من الجنسين<sup>(11)</sup> كوقف الشيخ برهان الدين إبراهيم المقدسي على ربط القدس للأرامل<sup>(12)</sup> ومن أهم الزوايا التي بناها الظاهر بيبرس في جنوب الشام زاوية الشيخ خضر بالخليل وأخرى بغزة<sup>(13)</sup>. وكان في نابلس زاوية للشيخ أبو

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، م7، ج13، ص345، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج4، ص155.

(2) النعمي: الدارس، ج2، ص202، وابن طولون، القلائد الجوهريّة، ق1 ص289.

(3) الشعراني: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، حققه وقدم له، طه عبد الباقي سرور السيد محمد عبد الشافي، المكتبة العلمية،

القاهرة 1962، م1، ج1، ص183 سيشار له فيما بعد: الشعراني: الأنوار القدسية.

(4) عادل الألوسي: مدخل لدراسة الربط الإسلامية، مجلة المورد، م2، عدد 2، 1973، ص27، سيشار له فيما بعد: الألوسي: مدخل.

(5) الأدفوي: م س، ص33-81.

(6) النعمي: م س، ج2، ص202، وابن طولون، ن م، ق1، ص293.

(7) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص352.

(8) سلام، الأدب في العصر المملوكي، ط1، ص193، وابن طولون القلائد الجوهريّة، ق1، ص295.

(9) اليونيني، دليل مرآة الزمان، ج2، ص301، الأدفوي: م س، ص9، وصف ليلة صوفية في تثبيت الأمير حسام الدين لاجين عام

659هـ/1265م.

(10) ابن جبير، م س، ص218.

(11) ابن شاكر: عيون التواريخ، ج21، ص26-27.

(12) مقابلة: م س، ص103 وانظر: أبو شامة: الذيل، ص229، عاشور، المؤسسات الإجتماعية ص367.

(13) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص350-352.

عبدالله محمد النابلسي كماوى لكل من يأتي لنابلس<sup>(1)</sup> أما في القدس فكان من شروط الخانقاه الدوادارية ومن شروط وقفها أن تكون على ثلاثين نفراً من الصوفية من العرب والعجم ومنهم عشرين نفراً أعزب وعشرة متزوجين.

ومن آثارهم السلبيية على المجتمع نشر الخرافات والإعتقاد بالخوارق والكرامات<sup>(2)</sup> وإشاعتهم عادات جديدة وأساليب مختلفة في الغناء واللباس والشراب كالرقص والضرب على الدفوف<sup>(3)</sup> وأشاعوا شرب الحشيش<sup>(4)</sup> التي تغنوا بها وسموها حشيشة العداة ومدامة جيد- القلندرية حتى وصفها شعراؤهم<sup>(5)</sup> هذا ولا حرج من إظهار دور مؤسساتها الثقافي في مجتمع بلاد الشام في نشر الثقافة الدينية واللغة العربية<sup>(6)</sup> لإختصاص بعض الخوانق بتدريس المذاهب الأربعة<sup>(7)</sup> ونشر المذهب السني على حساب المذهب الشيعي الفاطمي، بالإضافة فعتناء بعضها بتأديب الأطفال وتعليمهم<sup>(8)</sup> والإعتناء بالأيتام<sup>(9)</sup> وتعليم الفقراء وتحفيظهم القرآن للناس<sup>(10)</sup> وهكذا كان بعض الخوانق والربط والزوايا تجمع بين المدرسة والخانقاه كالمدرسة السامرية التي كانت تجمع بين دار الحديث و خانقاه<sup>(11)</sup>.

(1) ابن صرصري (محمد بن محمد) كتاب الدرة المضيق في الدولة الظاهرية، تحقيق ونشر وليم برينير، 1963، ج 1، ص 188 وسيشار له، صرصري: الدرة المضيق.

(2) الأدفوي: م س، ص 18-19، كاعتقادهم باللحاق بالملائكة والطيران في الهواء والمشي على الماء إذا جاهدوا في العبادة، وكل من يكذبهم يتعرض للإيذاء.

(3) ن م ص 21.

(4) ن م ص 17، يذكر أن الشيخ حيدر الصوفي المتوفي سنة 1221/618 هو أول من إستخدمها ونصح أتباعه ومريديه بإستعمالها ثم إنتقلت الحشيشة إلى الشام وبغداد ومصر عن طريق جماعة الحيدرية بعد عام 1257/655 وبعض الروايات ترجع ذلك إلى بيرزطن الهندي الذي أحضرها من الهند ثم إلى بلاد فارس ثم إلى الشام ومصر بواسطة جماعة القلندرية الأدفوي: ن م، ص 17.

(5) الأدفوي: ن م، ص 17-18 وصفها شاعرهم محمد بن علي بن الأعمى فقال:

دع الخمر وإشرب من مدامة حيدر معنيرة خضرأ مثل الزيرجد

يعاطيكأ ظي من التوك أعْيُـد بميس على غصن من ألبان أمرد

(6) يبطار: التعليم في الشام، ص 61.

(7) أحمد: مجتمع بلاد الشام، ص 153.

(8) السخاوي: الضوء اللامع، م 4، ج 7، ص 24.

(9) ابن طولون: القلائد الجوهريية، ق 1، ص 278.

(10) ابن قاضي شبيهة طبقات الشافعية، ج 3، ص 54، وابن كثير: م س، م 7، ص 14-15.

(11) النعيمي: م س، ج 2، وابن كثير: ن م، م 7، ج 3، وابن طولون: ن م، ق 1، ص 285.

## المؤسسات الوقفية:

لقد رأيت الإشارة إلى هذه المؤسسات الوقفية في فترة الدراسة المقصودة في هذا البحث لاضائية الموضوع وتحليلته.

فالموقف هو : لغة "الحبس" ويقصد به تلك الأراضي والمنشآت العقارية يخصصها المسلمون تبرعاً للإتفاق على الأعمال الدينية كالمساجد والمدارس والزوايا والخانات الخيرية مثل : البيمارستانات ومكاتب الأيتام والسبل والخانات وأحياناً الحصون ذات النفع العام أو للإتفاق على الفقراء والمساكين أو المجاهدين. فيما يستخدمونها المسيحيون للإتفاق على الكنائس والأديرة<sup>(1)</sup> والأوقاف نوعان :

-خاصة يوقفها الأغنياء والأمراء والأتقياء.

-رسمية يوقفها الخلفاء والسلاطين للإتفاق على بعض المنشآت الدينية والاجتماعية العامة لنيل الأجر والثواب<sup>(2)</sup>. أما في العصر المملوكي فكان هناك ثلاثة أنواع من الموقف :

1- وقف الأحباس : ويشمل أوقاف المساجد والزوايا والأربطة والخانقوات.

2- الموقف الذري : الذي يشرف عليه أبناء الواقف ومن يأتي بعدهم.

3- الموقف الحكمي : أو الخبري المخصص للإتفاق على الأماكن المقدسة والحرمين الشريفين مكة والمدينة والحرمين الشريفين في القدس والخليل<sup>(3)</sup> وقد عم إنتشاره في بلاد الشام ومصر. وكان الفقهاء يلزمون بذكر الحدود الأربعة للعقار الموقوف كما رأيناه في وثيقة إدر في الكرك<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> السبكي، م س ص 9 / الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط المؤسسة العربية، بيروت، ج 3 ص 212 فصل الوار، باب الفاء. ومحمد عبد الكيبي: أحكام الوقف ج 1، ص 34، مطبعة الارشاد، بغداد، 1955، ص 634. عاشور: سعيد عبد الفتاح:

الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة (د:ت) ص 377.2

<sup>(2)</sup> الإمام: رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية تونس 1976، ص 141، وأكثر من ها سلاطين الأيوبيين والمماليك حيث شملت العديد من القرى والضياح: السبكي: ن م ص 26، 29، 31-34. Cohean Population , P.42  
ومن الأوقاف الرسمية ما أوقفه الظاهر بيبرس على خان السبيل في بيت المقدس حيث أوقف عليه أوقافاً في قرية لفتنا في فلسطين وقبراً  
ونصف في قرية الطرة شمالي الأردن وثلاث ورابع قرية المشرفة التابعة لبصرى الشام حيث كان يوزع انطعام مجاناً  
لمسافرين.

<sup>(3)</sup> المقريري: المواعظ، ج 2 ص 295 والقلقشندي، م س، ج 11، ص 252. Lapidus Muslim cities , P.74

<sup>(4)</sup> د. غوتم: التاريخ الحضاري ص 102 ومحمد الكيبي ن م، ج 1، ص 354، 355، P 18 Hurani , The Islamic City ,



وكانت الأوقاف تدار بواسطة "ديوان خاص"<sup>(1)</sup> بإشراف القاضي فبالنسبة للمباني التابعة للأوقاف فكان يشرف عليها موظفون كالمتمولّي وناظر الوقف وجابي الوقف وكاتب الوقف "شاد الوقف"<sup>(2)</sup> ومن الأوقاف الزراعية التي أوقفت على المؤسسات العامة في بلاد الشام كالمدارس والمساجد وخاصة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، والأربطة والزوايا والبيمارستانات، قرى زراعية بكاملها كما فعل الظاهر بيبرس بعد إسترجاعه القدس عام 662هـ/1264م إيد بني فرناً وطاحوناً ووقف عليها 3 قراريط بالطرة<sup>(3)</sup> ونصف قرية من أعمال القدس وربيع قرية المشارفة<sup>(4)</sup> كما أوقف عام 696هـ/1296م نصف قرية لفتا وغيرها من القرى بأعمال دمشق على الخان الذي بناه في القدس<sup>(5)</sup> وكانت هناك أوقاف الأسبلة الملحقة بالمساجد وغيرها للحصول على ماء الشرب كما أوقف الأمير علم الدين سنجر الجاولي عام 713هـ/1313م أوقافاً على عين ماء مدينة الخليل فبنوا عمائر بمسجد إبراهيم الخليل<sup>(6)</sup>.

#### ومن أوقاف المدارس في جنوب بلاد الشام :

أوقف الملك الأشرف خليل عام 690هـ/1291م على المدرسة الأشرفية قرية الحمراء ومن ساحل صور طبرية وقرية شعر<sup>(7)</sup> أوقف الأمير الفارسي البكيّ ابن الأمير قطلوملك نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبليّة<sup>(8)</sup> ونائب غزة عام 755/1354 على المدرسة المنسوبة إليه (المدرسة الفارسية) حصّة من قرية طولكرم في فلسطين<sup>(9)</sup> وكان هناك أوقاف السلاطين على

(1) ديوان الأوقاف: يرجع إنشاؤه إلى زمن المعز الله الفاطمي 363هـ/965م: الفلقشندي، م س ج 15 ص 452-453.

(2) ابن طولون: قضاة دمشق ص 123: المقرئزي: المواعظ والإعتبار ج 2 ص 245.

(3) الطرة قرية في شمال الأردن قرب مدينة إربد، كانت مركز البريد في دولة المماليك وما زالت باقية حتى الآن وكانت تابعة لعمل

"أذرعات" درعا اليوم. الفلقشندي: م س، ج 14، ص 399.

(4) المقرئزي: السلوك ج 1 ق 2 ص 237، ابن شداد الأعلام الحظيرة ج 2، ق 2 ص 237.

(5) العلمي الحنبلي: م س، ج 2، ص 87.

(6) المقرئزي: السلوك ج 2، ق 1 ص 131، حجي: الناصر محمد ص 52.

(7) المقرئزي: ن م، ج 1، ق 3 ص 769.

الحمراء: حصن من نواحي بيت المقدس [ ياقوت: ن م، ج 2 ص 300 ]

الشعر: قرية على مياه نهر العاصي يتفرع منها طريقان تجاريان إلى من حلب، وإنطاكية ابن الجيعان: القول المستطرف، ص 60.

(8) العلمي، الحنبلي: ن م، ج 2، ص 39.

(9) طولكرم: إسمها طوركرم: أي جبل الكرم، لغنى أرضها وخيراتها وعرفت بهذا الإسم حتى القرن 18م فحرفت إلى طولكرم

( الموسوعة الفلسطينية، ط، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق 1984، م 3 ص 125 ).

أضرحة الصحابة والأولياء والصالحين إذ زاد الظاهر ببيرس في أوقاف مسجد جعفر الطيار في مؤته جنوب الكرك للإنفاق على الزائرين<sup>(1)</sup> وأوقف أيضاً على مقام الصحابي الجليل أبي عبيدة عامر بن الجراح بالقرب من قرية عمّا بغور الأردن والذي ما زال يحمل إسمه حتى اليوم بعد أن أمر نائب عجلون ببناء قبة على قبره<sup>(2)</sup>.

ويُرجح زيادة الأوقاف في العصر المملوكي خاصة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ كان الأمراء يوقفون بعض ممتلكاتهم خوفاً من مصادرتها من قبل السلطان<sup>(3)</sup> بالإضافة لرغبة بعض السلاطين التقرب من الشعب ليتخذ حكمهم طابع الشرعية لتحقيق تطلعاتهم السياسية، لشعورهم بالغربة لوصولهم للسلطة. إلا أنهم أساءوا إلى الأوقاف، فأخذ بعضهم أموال الأوقاف، كما صادر بعض السلاطين أموال من يشاؤون ليصلوا بها من يشاؤون، واشتروا ممتلكات مدخرة للأوقاف، كما عمد بعض القضاة إلى التحايل بإخراج الوقف عما وضع له، وسرق بعض العلماء عائدات الوقف وسيروها في غير سبيلها<sup>(4)</sup>.

وعمد بعض السلاطين إلى إسترجاع ما أقطع من الأوقاف للأمراء مقابل تعويضهم بدلاً منها كما فعل الظاهر ببيرس سنة 659 هـ/1260م حيث إسترجع عدة أوقاف من ضياع الخليل وعوض الأمراء عنها، وأوقف على مسجد إبراهيم الخليل قرية أذنا<sup>(5)</sup>. وهكذا أدى حلّ الإقطاع وبيعته خلال العصر المملوكي إلى عدم الإعتناء بأراضي الأوقاف الزراعية، وتركها بدون زراعة.

(1) ابن كثير: م س، ج 13، ص 276.

(2) ن م، ن ص، عمّا: مدينة في منتصف غور الأردن، بها قرية أبو عبيدة بن الجراح تبعد عن عمان وطبرية 12 مرحلة [ ياقوت: معجم البلدان ج 3، ص 712.

(3) حجي: الناصر محمد، ص 50، طرخان: النظم الإقطاعية ص 69-70.

(4) الحصري: محمد أديب تقي الذين منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة، دمشق، 1934. ج 3 ص 985، لايدوس مدن إسلامية ص 133.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ن ص 95، المقرئ: السلوك: ج 1، ق 2 ص 445. التويري: نهاية الأرب، ج 3 ص 23 وقد وصف

الشعراء إسترجاع الأوقاف في شعرهم: طرخوا علينا الملك طرخ مصادِر  
وإذا يد السلطان طالت وأعتدت  
ثم إستزده بلا أنعمان  
فبدُ الإله على يد السلطان

أبو الفداء: المختصر، ج 4 ص 144، ابن الوردي: تنمة المختصر، الجزء الرابع ص 485.

وهكذا أدى حلُّ الإقطاع وبيعه خلال العصر المملوكي الى عدم الاعتناء بأراضي الآفات الزراعية وتركها بدون زراعة.

وقد أوضح الفقهاء أن الوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته ويستمر بقاؤها بعد مماته للصرف على وجه البر والخير<sup>(1)</sup> كإعانة الفقراء وبناء المساجد والمدارس بهدف تحقيق الخير للجميع. وقد أوجده المسلمون منذ أيام الإسلام الأولى إذ شمل الدور والدكاكين والحمامات العامة والقصور والأراضي الزراعية والأفران وغيرها<sup>(2)</sup> ويرجع إنشاء ديوان الأوقاف لأيام الفاطميين حيث تولى قاضي القضاة أمر الأوقاف<sup>(3)</sup> وخاصة زمن المعز لدين الله الفاطمي سنة 363هـ/974م<sup>(4)</sup>.

وهكذا يعود الفضل للدولة الفاطمية في جميع المتحصلات المالية من الأوقاف وتنظيم صرفها تحت إشراف إداري من قبل ديوان الأقباس على المساجد والمراكز الدينية والتعليمية تحت إشراف القضاة.

وفي زمن الدولة الأيوبية أنصب إهتمامهم على صرف مال الأوقاف في إنشاء المدارس كما فعل صلاح الدين الأيوبي في بناء المدرسة الناصرية الشافعية وأوقف عليها حي الصاغة وإحدى العشري<sup>(5)</sup> والمدرسة المنتمية للمالكية وأوقف عليها قيسارية وقريتين بالفيوم<sup>(6)</sup> والمدرسة السيوفية للحنفية وأوقف عليها إثنين وثلاثين حانوتاً<sup>(7)</sup>.

وذلك بهدف نشر المذهب السني لتدعيم حكمه سياسياً وإقتصادياً وإجتماعياً. كما نشط خلفاؤه في حكم في مجال الوقف<sup>(8)</sup> وقد تفانى المماليك في سبيل إزدهار الوقف لتحقيق مصالح سياسية وأقتصادية وإجتماعية أيضاً لإبراز شرعية حكمهم في مصر والشام.

(1) فتح الباري: ج 5، ص 246 لم يرد في القرآن الكريم ولا في الأحاديث الشريفة كلمة وقف.

(2) المقريري الواعظ والإعتبار، ج 2 ص 135-136.

(3) القلقشندي: م س، ج 15 ص 452-453، المقريري: ن م ج 2، ص 295.

(4) المقريري: ن م، ج 2، ص 295.

(5) ن م، ج 2 ص 363، 364.

(6) ن م، ج 2 ص 364.

(7) ن م، ج 2 ص 365، 366.

(8) المقريري: السلوك، ج 1 ص 63، وابن تغري: م س، ج 6 ص 79.

ويظهر هذا في مساندتهم للخلافة العباسية لكسب الصبغة الشرعية مع إهتمامهم بمصادرة أموال كبار الأمراء لزيادة ثرواتهم وتوطيد حكمهم وخاصة زمن حكم الناصر محمد<sup>(1)</sup> وقد أكثر الناصر محمد من الشهود على كتاب الوقف وإختارهم من كبار فقهاء الدولة وعلمائها للحرص على بقاء الوقف وإستمراره<sup>(2)</sup> وللتقرب من الشعب والحرص على تطبيق الشريعة بإظهار النشاط الديني المتمثل في بناء المساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا والمدارس والكتب<sup>(3)</sup> بالإضافة للأسيلة للحصول على ماء الشرب وفي مجال الرعاية الصحية بإنشاء البيمارستان كما حدث سنة 689هـ/1290م زمن السلطان المنصور قلاوون الألفي الذي بنى البيمارستان المنصوري وأوقف عليه من الأملاك ما يقارب مليون درهم وزوده بالأطباء والعقاقير<sup>(4)</sup> وكانت الأوقاف في عصر المماليك ثلاثة أنواع:

**فالنوع الأول سمي: بالأحباس: أوقاف الساجد والجوامع والاربطة والزوايا والخانقاوات.**

**والنوع الثاني: الأوقاف الخيرية أو الحكمية: وتشمل أوقاف الحرمين وأعمال البر فقط.**

**والنوع الثالث: يجمع بين الوقف الأهلي "الأحباس" والوقف الخيري.**

وقد عمل سلاطين المماليك بالمحافظة على الأوقاف لتؤدي الغرض الذي أنشئت من أجله ن كما عملوا على رد الأوقاف التي حرم من منفعتها مستحقوها دون وجه حق كما حدث حين رد السلطان حسام الدين لاجين سنة (696-698هـ 1296-1298 م). قرية ضمير من عمل دمشق وكانت وقف الملك الزاهر على أولاده<sup>(5)</sup> ورد وقف قراقوش على الفقراء وكان قد قطع منذ سنين<sup>(6)</sup> وقد أشرف على الأوقاف في العصر المملوكي عدة موظفين حيث أشرف على

<sup>(1)</sup> المقرئزي: السلوك: ج 2 ص 97-99، 92، 108، 110، 481، 483، 507-508. والمواظظ والاعتبار، ج 2، ص 89.

وإبن تغري: ن م ج 9 ص 17-20، 31-32، 135-137، 152.

وإبن حجر: م س، ج 1 ص 484، 487، 526 وإبن العري: م س، ج 5 ص 64.

وإبن كثير: م س، ج 14 ص 63.

<sup>(2)</sup> المقرئزي: المواظظ والاعتبار، ج 2 ص 84.

<sup>(3)</sup> سعيد عاشور: المجتمع المصري ص 143، 159-175.

<sup>(4)</sup> المقرئزي: المواظظ والاعتبار، ج 2 ص 406-407.

<sup>(5)</sup> المقرئزي: السلوك، ج 1 ص 864.

<sup>(6)</sup> المقرئزي: ن م، ج 1 ص 865.

النوع الأول الأحباس الدوادر وناظر الأحباس<sup>(1)</sup>. وعدد من المباشرين والكتاب ويتولى صاحب ديوان الأحداث توزيع الصدقات من ريع الأراضي

الموقوفة على المؤسسات الدينية<sup>(2)</sup> وأشرف قاضي قضاة الشافعية ( ناظر الأوقاف ) وله نائبان على النوع الثاني من الأوقاف الحكومية وتشمل الرياع الموقوفة على الحرمين والأسرى<sup>(3)</sup> كما أشرف على النوع الثالث : الأوقاف الأهلية<sup>(4)</sup> ناظر خاص من أولاد الواقف أو من ولاية السلطان أو القاضي ويضم هذا الوقف الأوقاف الأهلية الخيرية المختلفة من أراضي وعقارات ودور، وكان ريعها الزائد يستغل في بناء المدارس والجوامع والأضرحة والخانقاوات<sup>(5)</sup> وكان هناك نوع آخر من الأوقاف الأهلية<sup>(6)</sup> إذ كان البعض يعمل على وقف ممتلكاته على نفسه ليضمن حصوله على مورد ثابت طوال حياته ويحافظ على ممتلكاته من المصادرة، وبعد وفاته توزع هذه العقارات الموقوفة حسب الشروط الموضوعة في وصية الوقف والتي تشمل عدداً من مصارف البر كالصرف على المساجد وتزويد المساجين بالطعام، ومساعدة الفقراء، معونة لقراءة القرآن الكريم، وتحرير عدد من العبيد وغير ذلك وقد تمسك العلماء بالدقة والأمانة في تنفيذ وصية الواقف<sup>(7)</sup> ويذكر النويري أنه يحق للناظر على الوقف أن يؤجر هذا العقار لمن يريد لمدة سنة أو أقل ويستغل أجره في الترميم والإصلاح والمبلغ الزائد يصرفه على المسجد والفقراء ولمستحقي الوقف، فان تعذر وجود الراشد الكفء حوّل حق

(1) ناظر الأحباس: وظيفة عالية المقدار يشرف صاحبها على رزق المساجد والجوامع والأربطة والمدارس والزوايا على سبيل البر والصدقة. القلقشندي: م س، ج 4 ص 37-38 وهكذا يعتبر دديوان الأحباس من الدواوين الهامة في عصر المماليك ويختص صاحبه بالإشراف على المؤسسات الدينية من جوامع ومساجد وأربطة وزوايا، القلقشندي، ن م، ج 11، ص 256-257.

إبن حجر: م س ج 3، ص 164-165، 448، ج 4 ص 305-306، ص 143.

(2) المقريري: المواعظ والاعتبار، ج 2 ص 295.

(3) ن م، ن ص، السلوك، ج 1 ص 864.

(4) النويري، م س، ج 9 ص 156-157 ص 158 إبن خلدون م س ص 460.

(5) المقريري: المواعظ، ج 2 ص 296، القلقشندي: ن م، ج 11 ص 269.

(6) محمد بن أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (ط 1 القاهرة 1980) ص 116-119.

(7) إبن حجر الدرر: ج 3، ص 116-117. كما حدث سنة 719هـ/1319 م بالصالحية.

النظر إلى حاكم المسلمين<sup>(1)</sup> وعندما تنتهي السلالة يكون ريع الوقف للمساجد أو ما يراه الناظر<sup>(2)</sup> والمساكين أينما كانوا سواء كانوا في مصر أو في الشام<sup>(3)</sup>.

كما كان يحق لناظر الوقف أن يعين من ينوب عنه للنظر في الأوقاف وأن معالجة المشاكل المتعلقة بالأوقاف كانت منوطة بنائب السلطان في الولايات الصغيرة، ثم تعتمد ويوقع عليها السلطان<sup>(4)</sup> وبالنسبة لأوقاف السلاطين فقد كان المحتسب (ناظر الحسبة) يتولى مهمة النظر فيها وحتى في الأوقاف الخيرية يكون النظر فيها لأولاد الواقف وذريته<sup>(5)</sup> ومن الصفات الواجب توفرها في ناظر الأوقاف الأخلاق الحسنة والعلم والمركز الرفيع، السمعة الطيبة، والمعرفة الواسعة، يتمتع باحترام العلماء والفقهاء<sup>(6)</sup> وكان يساعد ناظر الأوقاف وظيفة "شاد الأوقاف" الذي يلاحظ موظفي الأوقاف أثناء تأديتهم لواجبهم كي لا يخطئوا في الحسابات أو يخونوا الأمانة ويعين هذا من قبل السلطان كما حدث سنة 713هـ/1313م عندما عين الناصر محمد ابن الوزير بهذه الوظيفة<sup>(7)</sup> وكان هناك وظيفة ثالثة خاصة بالأوقاف هي وظيفة الإستيفاء<sup>(8)</sup> أو مستوفي الأوقاف الذي يتسلم أموال الوقف سواء كان المؤجر أو المستثمر ليتمكن من صرف هذه الأموال في مصارف البر المختلفة. كما كان لكل فئة من فئات المداهب الإسلامية الأربعة مباشر خاص يباشر أوقافها<sup>(9)</sup>.

وقد ازدهر الوقف أيام الناصر محمد تقريباً إلى الله والشعب. والرغبة في المحافظة على الثروة لأبناء الأسرة كمصدر ثابت للرزق الأهلي وسعى البعض وراء الشهرة والمنصب. ومن مظاهر الإزدهار يذكر المقرئ لتسعة وثمانين جامعاً، وثلاث و سبعين مدرسة وثلاثة وثلاثين

(1) النويري: م س، ج 9 ص 158.

(2) النويري: م س، ج 9، ص 157، الناظر: تعني في الأصل من نظر الأموال وينفذ تصرفاته وهو مأخوذ من النظر الذي هو رأي المعين، لأنه يمر نظره في أمور ما ينظر فيه، وأما من النظر الذي هو بمعنى الفكر، لأنه يفكر فيه المصلحة من ذلك، القلقشندي، م س، ج 5، ص 465.

(3) القلقشندي، م س، ج 12، ص 280.

(4) ن م، ص 61-62.

(5) المقرئ: المواعظ والاعتبار: ج 2، ص 298.

(6) ابن حجر: م س، ج 1، ص 267-306، ج 4، ص 109، ج 5، ص 188.

(7) المقرئ: السلوك، ج 2، ص 126، القلقشندي: ن م، ج 11، ص 48 "يقول أنه من وظائف شاد الأوقاف الإشراف على مصاريف ريع الوقف والعمل على صرفها حسب شروط الوقف مستعيناً بموظفين مختصين مع وجود كامل لحسابات من سبقه.

(8) ابن حجر، ن م، ج 1، ص 451.

(9) ن م، ج 2، ص 275، ج 3، ص 230-231.

مسجداً وخمساً وعشرين زاوية وإثنين وعشرين خانقاه وإثني عشر رباطاً وخمس بيمارستانات<sup>(1)</sup> هذا وقد بلغت الرزق الاحباسية في عهد الناصر محمد سنة 740هـ/1339م على الجوامع والمساجد والزوايا وغير ذلك مائة وثلاثين ألف فدان معفاة من الضرائب<sup>(2)</sup> ويلاحظ أن الدوافع السياسية وراء إقبال سلاطين المماليك على الوقف التقرب إلى الشعب كمظهر ديني لأنها الرابطة الدينية الوحيدة التي كانت الرابطة بين الشعب والحكام الغرباء عن هذا الشعب في الجنس واللغة إضافة لإغتنابهم السلطة من الأيوبيين وللمحافظة على إستقرار الحياة العامة لفترة تزيد على قرنين ونصف القرن.

فكانت العوامل الإقتصادية والثروة الضخمة وراء ازدهار الأوقاف في مصر والشام وأما العوامل الشخصية وراء ازدهار الأوقاف وهو دأب السلاطين على مصادرة أسلافهم في الحكم، ومن ثم لم يجد المماليك أمامهم إلا نظام الوقف لضمان ريع شرعي ثابت للصرف على أولاده<sup>(3)</sup> كما كان بيت المال مصدراً لكثير من الأوقاف أثناء الحكم المملوكي<sup>(4)</sup> بحجة أنه يحق لهم إستخدام مال الأمة في بيت المال لمساعدته من أجل خدمة الأمة كانشاء الجوامع والمساجد والخانقوات والبيمارستانات وغير ذلك ويتم القرار باسم السلطان أو بأمر منه لأحد الأمراء المماليك الذين أقبلوا على إقامة المؤسسات الوقفية لأسباب شخصية أو دينية أو للشهرة والعبث<sup>(5)</sup> ولوحظ إشتراك الفقهاء والقضاة في وقف كثير من الأراضي والعقار<sup>(6)</sup> فكان من نتيجة هذا النشاط الوقفي الزائد سلسلة طويلة من المساجد والمدارس والزوايا والأربطة والبيمارستانات كما يعتبر صفحة بيضاء في سجل المماليك كما أباح السلاطين لأنفسهم إصدار حجج شرعية

(1) المقرئزي: المواعظ والإعتبار، ج 2، ص 244-331، 362-405، 408-408، 413-414، 427-430، 433-436. وانظر ابن خلدون، المقدمة ص 400.

(2) المقرئزي ن م، ج 2 ص 295 و السلوك، ج 2 ص 473-474.

(3) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 81-82، وابن تغري، م س، ج 9 ص 17-18.

(4) المقرئزي، ن م، ج 2 ص 82.

(5) المقرئزي: المواعظ والإعتبار: ج 2 ص 309، 311، 312، 325، وابن تغري، م س، ج 9 ص 190-191.

(6) ابن حجر: م س ج 1 ص 23، ج 3 ص 298، ج 4 ص 113، 114.

ابن العماد الحنبل: م س، ج 6 ص 54، 152-143.

وتخصيص أجزاء من وقف السلاطين لخدمة رهبان أهل الذمة<sup>(1)</sup> وكان المرسوم السلطاني موقع  
كما يلي :-

الناصرى	مغلطاي بالشرقية
الملكى	المراسيم الشريفة شرفها الله
لتمثيل الملوك	وعظماها بالسمع والطاعة.

هذه الوثيقة كانت سنة 710هـ/1310م لمصلحة رهبان دير القديسة كاترين في جبل  
سيناء زمن الناصر محمد بن قلاوون، بحجة أن هؤلاء الرهبان يقدمون مساعدة للحجاج  
المسلمين أثناء مرورهم بالجبل في طريقهم إلى مكة، كما كانوا يساعدون الزوار لجبل سيناء  
وتوضح هذه الوثيقة علاقة الناصر بأهل الذمة بتقديم خدمة لهم عن طريق الوقف فاستفاد  
الرهبان في إمتلاك الأراضي الزراعية بصفة دائمة والتمتع بكافة حقوقها.  
وبالنسبة للخاتقات:

فيعود الفضل في إنشائها للسلطان صلاح الدين الأيوبي لممارسة التصوف سنة  
569هـ/1174م وأوقف عليهم البساتين والقرى<sup>(2)</sup> كما شرط أنه من مات من الصوفية وترك  
عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً  
بجوارهم ووفر لهم الرعاية الصحية حيث يوجد معهم دائماً طبيب وكحال جرائحي فكانت أول  
خاتقاه بمصر باسم "دويرة الصوفية"<sup>(3)</sup> ثم زاد عددها في العصر المملوكي وإرتبطت أسماؤها  
بأسماء كبار الشخصيات من السلاطين والأمراء وارتقت تنظيماً زمنهم<sup>(4)</sup> وخاصة خاتقاه  
سرياقوس التي أنشأها الاصر محمد سنة 723هـ/1322م<sup>(5)</sup>

(1) د. حياة الحجي السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ص78. حيث تذكر أنه عثر على ذلك في وثائق سانت  
كاترين يسيناء رقم 33.

(2) القلقشندي: م س ج 11 ص 370-372، المقرئى المواعظ والإعتبار ج 2 ص 415

(3) ن م - ج 2 ص 415

(4) المقرئى: السلوك ج 2 ص 261-263-539، ابن اياس، م س، ج 1 ص 163-175.

وابن تغري: بردى: م س ج 9 ص 79-84، وابن كثير: م س، ص 118.

(5) المقرئى: ن م - ج 2 ص 251.



## وبالنسبة للأربطة والزوايا :

فالرباط : هو بيت الصوفية ومنزلهم يسكنه عدد من الفقراء الصوفية ويتم الصرف عليهم من ريع أوقافه<sup>(1)</sup> وقد إقتصرت بعض الأربطة على خدمة النساء وإيوائهن، مثل رباط البغدادية الذي أنشأته تذكارياني خانون ابنه السلطان الظاهر بيبرس في القاهرة سنة 684هـ/1285م للنساء الخيرات، وفيه شيخة تعظ النساء وتفقهن بالإضافة إلى أنه ملجأ للمطلقات والمهجورات حتى يتزوجن أو يرجعن لأزواجهن<sup>(2)</sup> وإتسعت وظيفتها كمراكز للتصوف وملاجئ للمحتاجين لتؤدي وظيفة المسجد كرباط الست كليلة الذي أنشأه الأمير علاء الدين الراباه سنة 694هـ/1295م والذي جعله مسجداً ورباطاً وفيه مؤدناً<sup>(3)</sup> وقد بنى عدد من الواقفين في أربطتهم مدفناً يدفن فيه صاحب الرباط تبركاً وطلباً للرحمة<sup>(4)</sup>.

## أما الزوايا :

فقد إرتبطت بأسماء شخصيات دينية معروفة بالفضيلة والفقہ والحديث ولهم أتباع ومريدون ومعارف، ويتمتعون بحظوة لدى السلاطين<sup>(5)</sup> فشكّلوا مدرسة أخلاقية ذا سمة دينية متميزة عن غيرها ومرتبطة برباط معين ينفق عليها، كما ويتوارث الأبناء الزوايا عن آبائهم<sup>(6)</sup> ويدفن أصحاب الزوايا في زواياهم<sup>(7)</sup> وتم وقف بعض الزوايا على فئة محتاجة من الناس مثل زاوية الخدام التي جعلها صاحبها وقفاً على الخدام الحبش الأجناد<sup>(8)</sup> لذا تعتبر الزاوية مدرسة ومركز للتصوف وملجأ للمتضررين فقدّمت خدمة إجتماعية جليلة، خاصة زمن الناصر محمد

(1) المقريري: السلوك: م س - ج 2 ص 427.

(2) ن م ص 427 - 428.

(3) ن م، ص 428.

(4) ن م ص 428 - 430.

(5) ن م، ج 2، ص 430 - 431.

(6) ن م ج 2 ص 430، 431.

(7) ن م، ج 2 ص 432.

(8) ن م ج 2 ص 430، 43، 432.

حيث كان "جميع الأمراء يتنافسون في أفعال الخير وبناء المساجد والزوايا" كما ذكر ابن حجر<sup>(1)</sup>.

وهكذا نستنتج من هذه الدراسة أهمية الوقف في الحياة الاجتماعية والإقتصادية والعلمية والسياسية أيضاً كما حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون حيث نستطيع إعتبار الوقف جسراً مؤدياً للإزدهار الحضاري نتيجة لشخصية الناصر محمد القوية وشعبيته التي ساعدت على إنتهاج هذه السياسة الأوتوقراطية فتوفر الأمن الإجتماعي والإستقرار السياسي، بالإضافة لوجود عدد من العلماء والفقهاء والقضاة والباحثين عن العلم والمعرفة في عهده حيث هيا ذلك أرضاً خصبة للنفوق الحضاري بتعاونه معهم على إنشاء المؤسسات الدينية والتعليمية بمساعدة نظام الوقف كركيزة إقتصادية لهذا البناء الثقافي ويرجع الوقف لأيام الفاطميين إلا أن المماليك نظموه بدقة.

### المؤسسات الدينية لأهل الضفة في جنوب بلاد الشام:

كان سكان جنوب بلاد الشام خليط من الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية بعد الفتح الإسلامي لأنها كانت مهبط اليهودية والمسيحية فكان في القدس 20 كنيسة وديراً<sup>(2)</sup> يأتي إليهما المسيحيون من جميع أنحاء العالم ويقدها الجميع. وبالنسبة لليهود فلم يكن لهم أكثر من معبد أو معبدتين في القدس<sup>(3)</sup> هذا وقد إنتشرت الأديرة في صحاري ورؤوس جبال جنوب بلاد الشام لبعدها عن صخب المدن<sup>(4)</sup>.

وأما الإقليات المسيحية في جنوب بلاد الشام فكانوا من بقايا الصليبيين كالروم والأرثوذكس والروم الكاثوليك والبروتستانت فكانوا موزعين في أنحاء لبنان وفلسطين وشرقي الأردن<sup>(5)</sup>.

(1) ابن حجر، م س، ج 1 ص 23.

(2) مجير الدين الحنبلي، م س، ج 1، ص 51.

(3) علي: القدس، ص 104 وكانوا ثلاثة فرق: الربايون والقراؤون والسامرة ولكل منهم تورا خاصة بهم، فقد انفرد الربايون بشرح موضوعة لفرائض التورا ويؤولون الصفات الربانية أما القراؤون فيلتزمون بطواهر نصوص التوراه ولا يزيدون عليها بينما ينكر القراؤون والربايون تورا السامرة وينكرون أصلهم اليهودي وكان من رؤسائهم في العصر المملوكي: شموئيل الطيب الذي قلده المنصور بن قلاوون عام 684هـ/1285م رئاسة سائر الطوائف اليهودية بمصر والشام؛ المقريري: السلوك، ج 1، ق 3، ص 727.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 495.

(5) نعم شقير: تاريخ سيناء، ج 4 القاهرة، 1916، ص 675.

## الكنائس والمعابد والمزارات النصارى واليهود.

لقد تعددت كنائس النصارى ودياراتهم ومزاراتهم في جنوب بلاد الشام نتيجة لإرتباطها بنشأة السيد المسيح وتلامذته الأوائل في فلسطين وكان أهمها كنيسة القيامة في القدس التي ينسب بناؤها الأصلي إلى أيام الملكة هيلانه أم قسطنطين<sup>(1)</sup> ويمتاز بناء هذه الكنيسة بالإتساع إلى ثمانية آلاف شخص لأداء الصلاة ومقروشة بالبسط الرومية الحريرية، تزينها النقوش المرمرية، وزينت جدرانها الداخلية بصور المسيح الذهبية وسط القديسين وهو راكب حماراً في معظم جهاتها الداخلية بالإضافة لصور الأنبياء الزيتية المغطاه بصفائح رقيقة شفافة لحمايتها من الغبار لسيدنا إبراهيم وإسماعيل، إسحق ويعقوب وأبنائه، بالإضافة لصورتى الجنة والنار<sup>(2)</sup> وإعتبرها الإدريسي من عجائب الدنيا<sup>(3)</sup>.

<sup>(1)</sup> ويرجع تاريخ بنائها إلى هذه الملكة عند إكتشاف المغارة الموجودة داخل البستان وفيها الصليب وقر المسيح وكان شكلها مستطيلاً أما كنيسة الجلجلة فقد بنيت فوق ضخرة الجلجلة التي إنشقت وخرج منها آدم وعليها صلب المسيح عليه السلام .

أنظر : الهروي : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ص 39 .

وعندما إسترد صلاح الدين بيت المقدس في 27 رجب 83 هـ/أول ( أكتوبر ) 1187 أمر بنزع الصليب وتحطيم برج الأجراس الذي رفعة الصليبيون فوق الزاوية الجنوبية الغربية سنة 492 هـ/1099 م .

أنظر : لي سترايج ، م س ، ص 183 كما جعل صلاح الدين كنيسة صندحة (أم مريم العذراء ) مسجداً ورباطاً لعلماء الصوفية ، أنظر : العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامي ، ج 1 ص 315 والفتح القسي، ص 137-143 أبو شامة ، م س، ج 2 ص 114 وابن الوردي ، م س، ج 2، ص 148-159 .

وقد سلعت مفاتيح كنيسة القيامة إلى عائلي نسيبة وجودة مند عهد صلاح الدين وحتى اليوم .

أنظر : السيد، القدس في العصر المملوكي ، ص 257، العارف ، م س ، ص 236 ، زيادة ، فيليكس قابري في فلسطين . ص 198 .

ويقال أنه بنى في هذا الموضع ثلاث كنائس هي : كنيسة القيامة ( كنيسة القبر المقدس ) وكنيسة الجلجلة (الجلجثة) وكنيسة الشهادة (كنيسة إكتشاف الصليب)، وحول هذه الكنائس أروقة جميلة وأعمدة مرمرية وباحات واسعة ويعود تاريخها لعام 335 م العارف ، م س ص 217 . القلقشندي : م س ، ج 2 ص 457 ، المقرئزي : الحطط ، ج 1 ص 499 ، العارف المسيحية في القدس ، ص 216

<sup>(2)</sup> ناصر خسرو ، م س ، ص 76 ، القرزبي آثار البلاد، ص 163 والعمرى، م س، ج 1، باب 6 ص 138 وياقوت الحوي، معجم البلدان، ص 396 وإن المسيح قامت قيامته منها .

<sup>(3)</sup> الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 5، ص 358 وأنظر الهروي: ن م، ص 48، وابن شداد، الأعلام الخطيرة ج 2، ق 2 ص 198-199.

أما قبر المسيح فمحلّى بصفائح الفضة والذهب ونفائس الحلي<sup>(1)</sup> هذا بالإضافة إلى كنيسة صهيون<sup>(2)</sup> وكنيسة مار يعقوب "دير الأرمن"<sup>(3)</sup> وكنيسة المصلبية<sup>(4)</sup> ومن مزاراتهم المقدسة جبل الزيتون (طورزيتا)<sup>(5)</sup> في بيت المقدس وكنيسة مهد المسيح في بيت لحم<sup>(6)</sup> ومدينة الناصرة<sup>(7)</sup> ومنها إشتق اسم نصارى<sup>(8)</sup> وكنيسة يوحنا المعمدان المقامة على نهر الأردن في مكان تعميد السيد المسيح<sup>(9)</sup>.

وبالإضافة للكنائس كانت هناك ديارات كثيرة يزورها النصارى لقدسيّتها مثل دير فيق بالقرب من بحيرة طبريا<sup>(10)</sup> ودير الفاخور على نهر الأردن في مكان تعميد المسيح<sup>(11)</sup> ودير

(1) العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ج1، ص316.

(2) كنيسة صهيون: الخاصة برهبان الإفرنج في المكان الذي تناول فيه المسيح عشاؤه الأخير مع حوار بية.

إبن شداد، الأعلام الخطيرة، ج2، ص288.

(3) كنيسة مار يعقوب: ويزعمون أن فيها بئراً يغتسل منه السيد المسيح، إبن شداد، ن م، ج2، ص287.

(4) كنيسة المصلبية: المختصة بطائفة الكرج. بحير الدين الحنبلي، م س، ج2، ص51.

(5) طورزيتا: في الشمال الشرقي من القدس، وهو المكان الذي صعد عليه السيد المسيح وتوجد آثار أقدامه، إبن النابلسي الحقيقة والمجاز، ص340. ويوجد بداخله كنيسة مريم "الجسمانية" التي بنتها الملكة هيلانة: أنظر إبن بطوطة، م س، ص55. وتقع هذه الكنيسة في وادي جهنم غرب القدس الذي ينزل إليه في ستة وثلاثين درجة، وكان اسمه وادي القدرين أو وادي يهو شافاط، أنظر العارف: المفصل في تاريخ القدس ج1، ص493.

إبن شداد أعلام الخطيرة: ج2، ص288. ولي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي ص186.

(6) وفيها آثار النخلة التي أكلت منها مريم، إبن شداد، م ك، ج2، ص288، القرزيني آثار البلاد، ص159.

frescobaldi, visit to the Holy places . pp 69-70

(7) مدينة الناصرة: المقدسة: لأنها مكان ولادة السيدة مريم العذراء، وهنا بشرها جبريل بقدم السيد المسيح وقد بنى النصارى كنيسة بهذا المكان، وهي التي هدمها السلطان الظاهر بيبرس سنة 661 هـ/1263 م.

أنظر المقريري، السلوك ج1، ق2، ص78/487 P. Frescobaldi, Op, cit

بينما يزعم بعض النصارى بأنها مكان مولد المسيح ويعتقد أهل بيت المقدس بولادته في بيت لحم ثم إنتقلت به إلى هذه القرية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص251.

أما نص الإنجيل فيذكر ولادته في بيت لحم ثم نقله إلى مصر بواسطة يوسف زوج مريم، فرأى في المنام أمراً بارجاعه إلى بلاد بني اسرائيل فعاد وسكن الناصرة، إنجيل متى، أصحاح 2، عدد 22 أمر.

(8) الهروي، م س، ص22 / ياقوت، م س ج5، ص25، إبن شداد، ن م، ج2، ق2، ص284.

(9) بحير الدين الحنبلي، م س، ج1، ص160 ويذكر: أبين يوحنا المعمدان: هو يحيى بن زكريا بن سليمان بن داود، ولقب يوحنا المعمدان لأنه عمد المسيح.

<sup>10</sup> دير فيق: يزعم النصارى أن المسيح كان يجتمع بالحواريين ويزعمون أنه أول دير للنصرانية وفيه حجر يأخذ منه الزوار قطعاً صغيرة يجلسون المسيح عليه تروكاً.

أنظر: ياقوت الحموي، م س ج2، ص525، 526، العمري، مسالك الأبصار، ج1، باب 6، ص336.

(11) إبن شداد، م س، ج2، ق2، ص281.

الطور بين (طبرية واللجون) المشرف على الغور<sup>(1)</sup> وكانت الأديرة تبنى من الحجر والبلكس باتقان ومثانه<sup>(2)</sup> وإمتاز بناء الكنائس بكثرة العجائب<sup>(3)</sup> من أعمده مرمرية ونقوش<sup>(4)</sup> ورسوم وصور ومجوهرات نفيسة للأنبياء والجنة والنار<sup>(5)</sup> ومحاريب<sup>(6)</sup> وحجارة مقدسة<sup>(7)</sup> وقبور<sup>(8)</sup> ومفروشة بالبسط والستائر الحريرية<sup>(9)</sup> وكثرة الأبواب والإتساع الداخلي<sup>(10)</sup> والدرج المؤدي إلى الأسفل<sup>(11)</sup> والأروقة الجميلة والباحات الواسعة والقناديل والقباب والصلبان<sup>(12)</sup> وبعض المذابح<sup>(13)</sup> ومنازل الضيافة للرجال والنساء، والأبار، وأسيرة المرضى<sup>(14)</sup>.

و إشتهرت فلسطين بكثرة المزارات المقدسة اليهودية أيضاً كقبور الأنبياء ورجال الدين كشعيب ويهوذا وسليمان وروبييل وابنة شعيب زوجة موسى في طبريا<sup>(15)</sup> وقبور حيفا وكهوفها مثل كهف النبي الياس<sup>(16)</sup> وقبر راحيل زوجة يعقوب<sup>(17)</sup> وقبور يعقوب وإبراهيم وإسحق وزوجاتهم داخل الكهف بنى عليه المسلمون مسجداً في الخليل<sup>(18)</sup> وحائطاً فيه نافذه ينظر اليهود منها إلى القبور ويلقون فيها النقود والبهارات<sup>(19)</sup> ومقابر جبل صهيون في بيت المقدس والتي

(1) دير الطور: يعرف بدير التجلي لأن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه ورأوه بعد رفعه وفيه نبع ماء .

أنظر ياقوت الحموي، م س، ج 2، ص 52، العمري مسالك الأبصار، ج 1 باب 6، ص 337 .

(2) العمري، ن م، ج 1، باب 6، ص 335 .

(3) الفروي، م س، ص 28، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 2، ق 2، ص 198-199 .

(4) الفروي، م ن، ص 20، وابن شداد، ن م، ج 2 ق 2، ص 288 . Maundeville, The Book, P.136

(5) العماد الأصفهاني، منا البرق الشامى، ج 1، ص 316، ناصر خسرو، سفرنامه، ص 76 .

(6) ابن شداد، ن م، ج 2، ق 2، ص 198-199 .

(7) ياقوت الحموي، ن م، ج 4، ص 199 .

(8) Frescobaldi, Ibid, P. 77.

(9) العماد الأصفهاني، ن م، ج 1 ص 316 .

(10) ناصر خسرو، م س، ص 74، 76 .

(11) الأدرسي، نزهة المشتاق، ج 5، ص 359 .

(12) العارف، م س، ص 217 .

(13) Moundrell, The Journery , P. 441

(14) Wilkinson, Jerualen Pilgrims P. 84

(15) ابن جبير، م س، ص 282، ابن شداد، م س، ج 1، ق 2، ص 280 .

(16) التطيلي، الرحلة، ص 93 .

(17) ن م، ص 104

(18) الفروي، م س، ص 30، ياقوت الحموي، م س، ج 2، ص 387، ابن شداد: م س ج 2، ق 2، ص 289، 239 .

(19) Adler, Tewish Travellers . P. 185,98.

تضم قبر الملك داود والملك سليمان وغيرهم<sup>(1)</sup> وحائط المبكى في القدس<sup>(2)</sup> ومن المزارات المشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى عين البقر قرب عكا لأعتقادهم أن البقر الذي ظهر لآدم خرج ليستخدمه في حرث الأرض<sup>(3)</sup>.

### مصادر المسيحيين :

فكان الأطفال يتعلمون في مدارس تابعة لكنائسهم، اللغة العربية ومبادئ الديانة المسيحية بالإضافة للتاريخ المقدس وعلم اللاهوت والحساب<sup>(4)</sup> أما اليهود فكانوا يعلمون أطفالهم في المنازل أو في مدرسة تابعة لكنيستهم مبادئ القراءة والكتابة والصلوات التي يقومون بها يوم السبت والمناسبات الدينية ثم يرسلون الولد بعد ذلك إلى أحد أكاديميات اليهود ليتلقى الشرائع والقوانين والتاريخ المقدس<sup>(5)</sup> على يد مدرس أو حبر حتى يصبح مؤهلاً للمشاركة في المناسبات الدينية. وكان اليهود وما زالوا يجمعون الأموال ليهود القدس للإنفاق عليها<sup>(6)</sup> وهكذا كانت المعابد مراكزاً لأداء طقوس عبادتهم بحرية ومركز لتعليم أبنائهم.

(1) Maundeville, The Book , P174

(2) حائط المبكى: هو جدار من حجارة كبيرة، بطول 156 قدماً وارتفاع 56 قدماً وهو الجدار الغربي لسور القدس القديم يبكي عنده اليهود ( طلباً للمغفرة والرحمة ) يزعم بعضهم أنه جزء من حائط سليمان بينما يزعم آخرون أنه جزء من سور داوود. العارف، المفصل في تاريخ القدس ج2، ص544، السيد القدس في العصر المملوكي، ص259 وهذا إعتقاد خاطئ لأن معبد سليمان دمره القائد الروماني تيطس الروماني سنة 70 م ودمر بهزة أرضية بعد أن أعاد اليهود بناؤه، كما هدمه هادريان سنة 135م وقضى على اليهود ثم أعاد بناء القدس وسماها إيليا وبنى معبداً على أنقاض المعبد القديم ويذكر العارف أن هذا الكان يسمى بالبراق الشريف حيث ربط عنده جبريل عليه السلام براق النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وما زال قسماً من الحرم القدسي الشريف، العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج1، ص400-401 .

(3) ياقوت الحموي، ن م، ج4، ص176، ابن شداد ن م، ج2، ق2، ص284 .

(4) علي : القدس ص160، 166. قاسم: أهل الذمة ص141-142.

(5) قاسم: ن م، ص142-143، علي: القدس، ص160.

(6) علي السيد: ن م، 167 وقاسم: ن م. ص142-143.

## الحياة الأدبية

تتبعه...

أن من الحقائق المسلم بها أن الكشف عن التراث الأدبي والعلمي يساهم في الكشف عن تاريخ الأمة الحضاري، وتنشيط معارف الأمة وتنويعها ليساهم في مسار الأمة الحضاري في العصر الحاضر. ونحن الآن في أمس الحاجة إليه وأجيالنا القادمة ليخلق فينا حوافز جديدة، والواقع أننا لا نستطيع فهم تراث أمتنا دون النظر إليه كنتاج تاريخي وإجتماعي من خلال منظور ثقافي متكامل لأن التراث من منجزات الماضي بعد أن استطاع المستشرقون التعقيم على هذا التراث ووصفه بميراث التخلف فحذروا من التعامل معه بعد أن غزوا العقول العربية غزواً فكرياً ونالوا من تراثنا وديننا وحضارتنا بعد إستعمار بلادنا العربية.

ومن البديهيات المسلم بها أن الإنسان لا يستطيع أن يتحلل من تاريخه وماضيه وحاضره وماضي وحاضر والذي لا ماضي ولا حاضر له.

كما أن ارتباط جنوبي بلاد الشام بدمشق والقدس والفسطاط والقاهرة كان لاعتبارات دينية وعلمية وسياسية، وكان على علماء هذه البلاد أن يرحلوا إلى تلك الديار ليعرفوا على علمائها ويأخذوا عنهم أو يعرضوا عليهم إنتاجهم، فأسهم هؤلاء العلماء في تنشيط العلوم الدينية<sup>(1)</sup> والأدب والشعر والتاريخ والطب والكيمياء والسياسة<sup>(2)</sup>.

هذا وقد شهدت هذه المنطقة إحساراً ثقافياً في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بسبب الظروف التي تعرضت لها الدولة العباسية وأضعفت الخلافة العباسية بعد قيام الدويلات الانفصالية كالطولونية والأخشيدية والحمدانية وثورة القرامطة فكانت فترة ركود ثقافي<sup>(3)</sup> حيث تبع ذلك فترة إستقرار نسبي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. عندما وصل

(1) مثل أحمد بن مروان بن عثمان النابلسي المقدسي (733 - 805 هـ/1332-1407م) كان له مذهب في التوجه والتصوف وأتباع

و تصانيف العلمي والخبلي م س، ج2، ص165 ابن العماد الخبلي م س، ج7، ص44 وابن حجر: أبناء العمر ج2، ص240.

(2) أمثال إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني (715-803 هـ/1315-1405م) كان من الذين تكلموا مع تيمورلنك في الصلح السخاوي،

م س، ج1، ص167-168، العماد الخبلي: ن م ج7، ص22، وأحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسي (612-700 هـ/1212-

1300م) ابن شاکر: الروايات بالوفيات: ج7، ص33-34 الصفدي أعيان العصر، ص82، ابن العماد الخبلي: ن م، ج5، ص465.

(3) د. هاني صبحي العماد، معجم النابهين في جنوبي بلاد الشام بفلسطين والأردن، ص11، ج1، عمان المملكة الأردنية الهاشمية دار الكرم، 1985م، ص12-13.

الفاطميون للحكم، فتجدد النشاط الثقافي، وتعددت العلوم الدينية ونشطت القدس في الحياة الثقافية حيث توافد طلاب العلم إليها للإقامة في المسجد الأقصى الذي أصبح مركز الإشعاع الفكري في المنطقة، وغيره من المدارس ثم حدثت نكسة ثقافية بعد إحتلال الصليبيين لبيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي وسقوط الكرك والشوبك والعقبة بأيديهم أيضاً، مما دفع علماء هذه البلاد للهجرة إلى دمشق وبغداد والقاهرة، ثم عاد النشاط الثقافي بعد زوال الإحتلال الصليبي الغاشم وتأسيس الناصر داوود بن المعظم عيسى المكتبات في الكرك والذي كان يحب العلم والعلماء. ويقال أنه أول من أنشأ مكتبة في الكرك<sup>(1)</sup> ثم نشطت الحركة الثقافية بعد ذلك حيث إمتلأت بالمكتبات التي إمتلكها بعض العلماء كإبراهيم بن جماعة الكناني<sup>(2)</sup> وهناك من كان يرتزق من بيع الكتب كأحمد بن عبدالله المقدسي<sup>(3)</sup> وأحمد بن عبد الله بن مالك العجلوني<sup>(4)</sup>.

وبالنسبة للأدب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين الموافق للقرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين فقد تأثر بالأحداث الكبرى كسقوط بيت المقدس، وسيطرة الفرنجة على الطراز الأخضر<sup>(5)</sup> وإستيلاء المغول على العراق والعاصمة العباسية وتهديد الفرنجة باحتلال مصر، وقيام دول متتابعة في بلاد الشام ومصر وغيرها ثم توحدت هذه البلاد، فتحرر بيت المقدس وطرد الصليبيون والتتار لذا كان من الطبيعي أن يكون الأدب مرآة لهذه الأحداث الكبرى من مصائب والكوارث وصور واقعية لذا يصعب على الباحث دراسة الأدب في قطر معين وذلك لقيام وحدة سياسية شاملة تصدت للخطر الخارجي كالزنكيين<sup>(6)</sup> والأيوبيين<sup>(7)</sup>

(1) د. هاني صبيحي العمدة، م. س، ص 13.

(2) إبراهيم بن جماعة الكناني 725-790 هـ/1324-1388 م درس في المدرسة الصلاحية، كان رئيس العلماء في زمانه. ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج 1، ص 39-40، ابن العماد: م. س، ج 6، ص 311-312 بحير الدين الخنبلي، م. س، ج 2، ص 107-108.

النعمي: م. س ج 1، ص 40، 63-1335، ج 2، ص 156-225، وأبو بكر بن أحمد بن عبد الدايم النابلسي (650-718 هـ/1252-1312 م) ابن حجر: ن. م، ج 1، ص 48، ابن العماد الخنبلي: ن. م، ج 6، ص 48 النعمي، ن. م، ج 1، ص 53، 60، 97، 124، 733، ج 2، ص 88، 42.

(3) أحمد بن عبدالله المقدسي (673-723 هـ/1275-1322 م) ابن حجر، ن. م، هـ، 193، ابن العماد الخنبلي ن. م.

(4) أحمد بن عبدالله بن مالك العجلوني (705-780 هـ/1305-1378 م، ابن حجر ن. م، ج 1، ص 196، ج 6، ص 265-266.

(5) أبو شامة: م. س، ج 2، ص 104 ذكر أبو شامة أن الطراز الأخضر هو بلاد الساحل من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت وجبل وغير ذلك.

(6) أسرة تركية حكمت بلاد الشام من سنة 489-577 هـ وإشهر ملوكهم قسيم الدولة أقي سنقر، وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود، والصالح إسماعيل. ن. م، ن. ص.

(7) وأصلهم من الكراد والروادية من فخذ الهندية من أشرف الأكراد وأقدم سكان العراق إبن واصل. م. س، ج 1، ص 3-6، وأبو شامة: ن. م، ج 1، ص 128، 210، وإبن الأثير: م. س، ج 11، ص 129 وجدهم شادي حكموا من 578-648 هـ.



والمماليك<sup>(1)</sup> البحرية كما أن الأدباء نشأوا في قطر، وتابعوا علومهم في بلد آخر، فكان هناك رحلات أدبية طلباً للعلم والشهرة في عصر مملوء بالأحداث الكبيرة، ناهيك عن مساعده سلاطين وأمراء هذا العصر لهم من بذل وعطاء.

وهكذا لم يكن الأدب العربي مطبوعاً بالطابع القطري أو الإقليمي لعدة عوامل منها اللغة والدين والتاريخ والثقافة الإسلامية المشتركة التي كانت تجمع شمل العناصر المتبانية في إطار واحد من الثقافة المتشابهة والتوجيه الديني الخاص، وكتب الأدب شاهدة على هذه الوحدة الثقافية.

وتحقق الحلم العربي بقيام دولة عربية كبرى شملت الشام ومصر واليمن والحجاز وغيرها، زمن صلاح الدين الأيوبي، الذي حرر بيت المقدس، ولكن المسلمين أصيبوا بنكسة الانفصال بعد وفاته نتيجة لنزاع أولاده وإخوته على السلطة فطمع الفرنجة بهم مرة ثانية بالعودة إلى بلاد الشام، وغرب نجم هذه الدولة التي أتمت رسالة سابقها الدولة الزنكية في تحرير البلاد وتوحيدها على يد الناصر صلاح الدين، ولكن خلفاؤه تفرقوا منذ هبت ريحهم وخلفهم مواليهم من المماليك فأنقذوا البلاد وعلى رأسهم شجرة الدر أول ملكة في مصر والشام في التاريخ الإسلامي<sup>(2)</sup> وسيف الدين قطز على الرغم من تنازعهم حيث حفظوا البلاد من شر الطامعين القادمين من الشرق والغرب<sup>(3)</sup>.

وهكذا شهدت الحياة السياسية في هذا العصر تتابع ثلاث دول خلال قرنين من الأزمان، استطاعت خلالهما من تأدية واجبها في الصراع مع الفرنجة والتتار على الرغم من كل الاختلافات الداخلية، والنزاع على الملك والسلطان هذا ونلاحظ بأن سياسة الأيوبيين<sup>(4)</sup> في شرقي الأردن ورعايتهم للثقافة الأدبية والعلمية أدت لظهور العديد من الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء حيث كان للناصر داوود الفضل في رقي الثقافة في الأردن وخاصة في الكرك مما ساهم في ازدهار الحياة الثقافية في العصر المملوكي في مجال الأدب والعلم ولكن يصعب علينا

(1) حكموا من 648 - 783 هـ، ن. م، ن. ص.

(2) ابن إياس: م. س، ج 1، ص 88، وابن تغري بردي، م. س، ج 6، ص 372، وابن كثير: م. س، ج 13، ص 199.

(3) المقرئ: السلوك: ج 1، ص 480، وابن كثير: ن. م، ج 13، ص 220، 221، 224.

(4) حيث هزم هولاكو شر هزيمة سنة 651 هـ في معركة عين جالوت ولكن أعتيل للأسف عنى يد بيبرس أحد قواد لعدم توليته نيابة حلب (4) ابن واصل: م. س، ج 4، ص 330.

في المجال الثقافي فصل الأردن عن دمشق والقاهرة<sup>(1)</sup> لأنها كانت دولة واحدة، وكان على طلاب العلم الرحلة إلى بيت المقدس الذي إستقطب فحول الأدباء والفقهاء.

ويلاحظ كثير من نقاد الأدب العربي، أن رجال الفكر كانوا يأنفون من الصراع السياسي أو لايغنيهم فيلجأون إلى القصور مهما تغير حكامها، فكان هؤلاء الحكام يستفيدون من تجربتهم وخبرتهم وينافسون غيرهم من الأمراء والملوك، أما الأدباء فكانوا يستغلون هذه الحياة الهادئة فيكتبون ويؤلفون وينتجون ولذا تنقل الكتاب والأدباء والعلماء في معظم البلاد العربية والإسلامية، وبذلك وحدوا نماذج الأدب تقريباً وبما أن البلاد العربية والإسلامية كانت تسهم في الإنتاج العلمي والثقافي والأدبي متأثرة بعواصم البلاد الإسلامية الأخرى فقد توحد الأسلوب الأدبي وشاع إتباع أسلوب موحد للبحث العلمي أو أسلوب الكتابة الأدبية فظهرت مكانة أئمة المذاهب، كما ظهر مقلدون وأتباع، وبذلك كانت الأمة في مراكز الثقافة بالبلاد الإسلامية حيث كان هؤلاء يتوجهون دائماً إلى هذه المراكز العلمية ليخطوا بالتشجيع المادي والأدبي.

وبالنسبة للدراسات التاريخية فقد إهتمت بعروبة المكان وإسلاميته حيث عنيت بالتراجم والسير التي تأثرت بعلوم الفلسفة والجغرافية والفلك، وأرخ الفقهاء والمحدثون.

وفي مجال الترجمة عن اللغات القديمة فقد نشطت لتشجيع الخلفاء والوزراء في مجال الأدب والتاريخ والدين امثال أحمد شاعر الرومي<sup>(2)</sup> ويلاحظ بأن شهرة جنوب بلاد الشام قد جاءت من كونها ممتدة في أعماق التراث العربي الإسلامي الذي شكل سداً منيعاً أمام الهجمات الثقافية الأجنبية من لاتينية ورومية وغيرها بعد إستعمار هذه المنطقة، كما أن إختيار المادة التاريخية الحضارية منها يمنحنا الثروة والعزة والتفاخر الأنساني لنستطيع مواجهة الظواهر الثقافية السلبية الخطيرة بين أجيال الحاضر والتعامل مع الواقع بوضوح وعمق وصدق لاستشراق المستقبل للوصول إلى الأمن الثقافي بمواجهة الثقافات الوافدة الخطيرة التي تحاول زعزعة لغتنا وشخصيتنا العربية الإسلامية وعاء التراث الحضاري والفكري.

(1) مثل: آل الحسيني: نسبة إلى حسان القرية من عمان العاصمة وآل الباعوني من قرية باعون قرب عجلون وكانت لهم قبة داخل المسجد الأموي تسمى قبة الباعونية يجلس فيها علماءهم وفقهاؤهم لتدريس الطلاب.

المراي: خليل بن علي بن محمد بن مراد، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر 4 أجزاء المطبعة الأميرية بولاق 1291-1301م ص112.  
(2) أحمد شاعر الرومي (توفي بعد سنة 800هـ / 1402م الذي قدم من بلاد الروم ووعظ ببيت المقدس بالزكي والعربي والعجمي: العلمي الحنبلي، م س، ج2، ص169-170.

## علوم اللغة العربية

لقد كانت علوم اللغة العربية ضرورة ملحة لدراسة القرآن الكريم الذي أنزل على النبي العربي بلسان عربي مبين.

وشملت هذه العلوم : التأليف في اللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض.

### اللغة ومعاجمها :

لقد ساهم ياقوت الحموي في إثراء هذا النوع من اللغة في تضيفته المشهور "معجم البلدان" الذي رتبته على الحروف الأبجدية عام 621هـ/1221م<sup>(1)</sup> وله كتاب آخر باسم "المشترك وضعاً والمختلف صقلاً".

ومن علماء اللغة أيضاً : ابن مالك إمام اللغة العربية في هذا العصر<sup>(2)</sup> وقد صنف في اللغة كتاب "المنثل في اللغة" الخاص بالألفاظ ومعانيها<sup>(3)</sup> هذا بالإضافة إلى أرجوزته المؤلفة من ثلاثة آلاف بيت "إكمال الأعلام بمنثل الكلام"<sup>(4)</sup> وكتاب "الإعتقاد في الظاء والصاد".

ومن مشاهير اللغة أيضاً في هذا العصر : حجة الدين بن ظفر الصقيلي اللغوي النحوي<sup>(5)</sup> صاحب كتب "ملح اللغة" و"الإستباط اللغوي" و"الإشتراك اللغوي"<sup>(6)</sup>

### النحو والصرف

لقد إهتم علماء الشام بالأبحاث النحوية لتأثرهم بمبادئ المنطق ودراساته. ومن علماء القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي : أبو عبدالله الطليطي في قلعة شيزر ومؤدب أمراء بني منقذ<sup>(7)</sup> وأبو نزار حسن بن نزار المتوفي عام 568هـ/1172م ملك النحاه<sup>(8)</sup>.

(1) ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص15.

(2) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج4، ورقة 190 (مخطوط) وابن شاذان الكنتي: فوات الوفيات ج2، ص214.

(3) ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص222.

(4) ابن تغري: ن م، ج3، ورقة 191.

(5) السيوطي: بغية الوعاظ، ج2، ص59.

(6) ياقوت: معجم الأدباء، ج7، ص102.

(7) وصفه تلميذه أسامة بن منقذ في كتابة: الإعتبار - ص208، 209 "بانه سيويه زمانه في النحو"

(8) ابن الوردي: م س، ج2، ص82.

أما في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي فقد برز النحوي الكبير : جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجبائي الأندلسي المولد<sup>(1)</sup> في عهد الظاهر بيبرس الذي تخرج من مدرسته أعلام النحاه في بلاد الشام كابن العطار، وأبو الحسن اليونيني<sup>(2)</sup> وقاضي القضاء بدر الدين بن جماعة وغيرهم<sup>(3)</sup> بالإضافة إلى مصنفاته المشهورة<sup>(4)</sup> وكان تلميذاً للنحوي الحلبي ابن الصائغ المتوفي عام 643هـ/1245م صاحب تصانيف النحو الشهيرة وأهمها "شرح المفصل" للزمخشري، وشرح "تصريف الملوكي لا بن جني"<sup>(5)</sup> ومنهم الشيخ بن علي السخاوي المتوفي 643/1245م<sup>(6)</sup> والملك المؤيد أبو الفداء الذي صنف كتاب "الكناش" كموسوعة كبرى في قواعد النحو والصرف واللغة والمنطق<sup>(7)</sup> وأبو شامة المقدسي صاحب كتاب "المقدمة" في علم النحو و"نظم مفصل الزمخشري"<sup>(8)</sup>.

ومن علوم اللغة العربية، العلوم التاريخية والاجتماعية التي إهتمت بالتطورات السياسية المعاصرة والأحداث الحربية التي تهددها فاشتهر، مؤرخو هذه الفترة بالرواية الموثوقة وكان أهمهم : "بهاء الدين يوسف بن شداد" مؤرخ حياة صلاح الدين الأيوبي<sup>(9)</sup> من كبار القضاة للعسكر وبيت المقدس وناظر أوقافه ومرافقه في غزواته وأبو شامة المقدسي "مدرس التاريخ في الجامع الأموي بدمشق" وصاحب كتاب "الروضتين"<sup>(10)</sup> كما إشتهر بالتاريخ العام عز الدين علي بن الأثير في تصنيفه "الكامل في التاريخ" وابن العبري في كتابه "تاريخ مختصر الدول" وابن أبي طيئ<sup>(11)</sup> ت 630هـ/1232م. صاحب: "تاريخ طبقات العلماء" وسبط ابن الجوزي،

(1) ابن جبير: م س، ص 235. وابن شاذلي: م س، ج 2، ص 284. وابن تغري بردي: م س، ج 3، ص 191.

(2) ابن حجر: م س، ج 4، ص 382. وابن كثير: م س، ج 14، ص 126.

(3) ابن تغري: م س، ن ص. وابن الوردي: م س، ج 2، ص 222.

(4) من كتبه الشهيرة في النحو: "تسهيل العوائد" ابن خلدون، المقدمة، ص 547 وأرجوزته "الطائفة الشافية" في ثلاث آلاف بيت ثم إختصرها في ألف بيت وسماها: "الخلاصة الألفية" ابن تغري: م س، ج 7، ص 191. وابن الوردي: م س، ج 2، ص 222 "ولامية الأفعال" و"عمدة الالفاظ" و"عمدة الحافظ".

(5) ابن الوردي، ن م، ن م، ص 176.

(6) ن م، ن ص، ذكر أنه رآه بدمشق والناس يتزاحمون عليه في الجامع للقراءة وهو يرد على الجميع ومن مصنفاته "المفضل في شرح المفصل"، "سفر السعادة وسفر الإفاضة".

(7) د. عمر موسى باشا: م س، ص 155.

(8) ن م، ن ص.

(9) ابن شداد: النوادر السلطانية ص 71، وابن خلكان: م س، ج 2، ص 354، والنسبكي: م س، ج 5، ص 115. وجمهر الدين الحنبلي، م س، ج 2، ص 464، 447.

(10) أبو شامة: م س، ج 1، ص 5.

ت654هـ/1256م صاحب : "مرآة الزمان" <sup>(1)</sup> والملك المؤيد أبو الفداء صاحب : "حماة  
ت1234/632م وكتابه الشهير : "المختصر في إخبار البشر" وقاضي قضاة حلب <sup>(2)</sup> شهاب  
الدين إبراهيم بن أبي الدم (ت 642هـ/1244م) وقد صنف للملك المظفر "التاريخ الكبير  
المظفري" في تاريخ الملة الإسلامية. كما برز في التأليف التاريخي فريق تخصصوا في التاريخ  
الخاص ممن عاصروا ضعف الخلافة العباسية والدول المنفصلة عنها في بلاد الشام التي  
تحدثوا عنها كالأزرقي الفارقي، أحمد المتوفي عام 660هـ/1262م، في كتابه "تاريخ الفارقي" <sup>(3)</sup>  
وكمال الدين بن العديم صاحب كتاب "تاريخ حلب".

وإبن الأثير المؤرخ السابق، والعماد الكاتب المتوفي عام 597هـ/1201م، صاحب  
المسجوعتين "الفتح القسي في الفتح القدسي" الذي أرخ لحروب صلاح الدين الأيوبي منذ دخوله  
دمشق وحتى وفاته <sup>(4)</sup>.

وقد استخدمه نور الدين في ديوان "الإنشاء" <sup>(5)</sup> وكان لصلاح الدين بمثابة وكيل وزارة  
وبهاء الدين بن شداد المتوفي عام 632هـ/1234م صاحب كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن  
اليوسفية" والذي تحدث فيه عن حروب صلاح الدين مع الصليبيين وأبو شامة المقدسي المشهور  
بـ "الروضتين" والذيل على الروضتين "عن تاريخ دمشق، وجمال الدين بن واصل <sup>(6)</sup> قاضي  
حماة المتوفي عام 697هـ/1269م سفير الظاهر بيبرس إلى ملك الصقليتين وإمبراطور  
الإمبراطورية الرومانية المقدسة "منفرد بن فردريك" وبالنسبة لعلم التراجم والطبقات فقد صنفوا

<sup>(1)</sup> إبن تغري بردي: المنهل الصافي، ق3، ورقة 462، مخطوط.

<sup>(2)</sup> وقال في كتابه "مرآة الزمان" ج8، ص472: (...ولما فارقت دمشق بسبب ما جرى في حديث القدس، طلعت إلى الكرك، وأقيمت عند  
الملك الناصر وكنت أتردد إلى القدس ونابلس).

<sup>(3)</sup> أبى الأزرقي الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض، 1959م القاهرة. ويضم تاريخ مدينتي آمد وميافارقين.

<sup>(4)</sup> أبو شامة: م س، ج1، ص144، ج2، ص244، السبكي: م س، ج4، ص97، النعمي، م س، ج1، ص408.

<sup>(5)</sup> إبن تغري بردي: المنهل: ق2 ورقة 587 مخطوط.

<sup>(6)</sup> صاحب كتاب: مفرج الكروب في إخبار بني أيوب، والذي أرخ لسقوط الدولة الأيوبية قاهرة الصليبية، كما صنف في التاريخ العام في  
كتابه "التاريخ الكبير" الذي أرخ فيه للعالم الإسلامي منذ عهد الرسول الكريم إلى عصر الملك الصالح في مصر.

هذا وقد ذكر في كتابه "مفرج الكروب: ج4، ص335 " فوجدنا منه إحساساً كبيراً وتفصيلاً زائداً وشاهدنا ملكاً ذا فضل باهر وعلم  
زاهر".

في تراجم أعيان المدن والأقطار كابن عساكر المتوفي عام 571هـ/1175م<sup>(1)</sup> صاحب كتاب "تاريخ دمشق" وفيه تراجم لعلماء دمشق مرتباً على الحروف الأبجدية وابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب المتوفي عام 668هـ/1270م. صاحب كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" وابن الفقطي المتوفي عام 646هـ صاحب كتاب "أخبار الحكماء وابن أبي طي المتوفي عام 630هـ/1232م.

وابن خلكان المتوفي عام 681هـ/1283م صاحب كتاب "وفيات الأعيان" وهو مجموعة لتراجم الأعيان في العلم والأدب والسياسة والقضاء مرتباً على الحروف الأبجدية وهذا يؤكد الإتجاه الشعبي في التأليف عند مؤرخي هذا العصر لأنه لم يذكر تراجم الصحابة والتابعين ونلاحظ استخدام الأسلوب المُسجَع في هذه الكتب التاريخية التي إمتازت بطول الأخبار، والأسلوب الشعبي في الحلقات المسجدية للمؤرخين الذين كانوا يعرضون للناس الأحداث المعاصرة والماضية، لذا تخصص البحث التاريخي في هذه الفترة في ثلاثة مجالات هي التاريخ العام والتاريخ الخاص، والتراجم والطبقات.

### وبالنسبة لعلم التاريخ في العصر المملوكي :

فقد كان للقدس دور بارز في إزدهار الحركة العلمية في القدس أيام المماليك والدين مثلوا المدرسة الشامية في التاريخ والتي تميزت بتسجيل أهم الأحداث المحلية والسياسية بوجه خاص إلى جانب إهتماماتها بالعلماء ورجال الدين من ذوي المذاهب المتنوعة<sup>(2)</sup> ذلك لأن معظم مؤرخي هذه الفترة كانوا علماء الدين<sup>(3)</sup> كما قسم بعض المؤرخين المحدثين مؤرخي بيت المقدس في العصر المملوكي إلى قسمين رئيسيين : عالم الدين والمؤرخ ورجل الإدارة المؤرخ من أرباب الأملاح، أما عالم الدين المؤرخ فقد جمع بين دراسة العلوم الدينية المختلفة وبين علم

(1) المؤرخ الدمشقي والحافظ والمحدث بالديار الشامية: ابن خلكان: م: ص: 1، ج: 1، ص: 325. وابن كثير، م: ص: 12، ج: 12، ص: 294، والسبكي: م: ص: 4، ج: 4، ص: 273. وابن الوردي: م: ص: 2، ج: 87، وسبط ابن الجوزي: م: ص: 8، ج: 336.

(2) أحمد عبد الرزاق أحمد: دراسات في المصادر المملوكية - القاهرة 1974م ص: 174.

(3) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين، نشر دار المعارف 1982 لأنه كان من الطبيعي أن تفرض عليهم حلفتهم الثقافية الإهتمام بهذه النواحي. ص: 109 وتلك الأمور. ن: م، ص: 111.

التاريخ<sup>(1)</sup> لجانِب توليهم الكثير من المناصب الدينية المختلفة مثل التدريس والقضاء والإفتاء وكان هذا النمط يشكل أغلبية مؤرخي بيت المقدس أمثال أبو شامة المتوفي عام 665هـ/1267م<sup>(2)</sup> وإبن فضل الله العمري المتوفي عام 749هـ/1348 م المؤرخ الإداري لأنه رتب مراحل العلم في الدواوين والإنتشار زمن الناصر محمد بن قلاوون<sup>(3)</sup>.  
وصلاح الدين الصفدي المتوفي عام 764هـ/1363م والذي يعتبر من الأعلام المشهورين في بلاد الشام إذا كان مؤرخاً واديباً ورساماً<sup>(4)</sup>.

(1) قاسم عبده، م س، ص 175 يقول د. علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي ج1، القاهرة 1986، ص140 يقول: لم يكن هؤلاء الإداريين يكتبون تاريخاً بالمعنى المفهوم للكلمة، تكون كتاباتهم عبارة عن نسخ وتجميع معلومات من المصادر التي يعتمدون عليها دون مساهمة أصيلة من جانبهم ولكنهم حين يكتبون يقصد آخر غير تدوين التاريخ.

(2) أحمد عبد الرزاق: م س، ص174، 180. ومن أهم مؤلفاته "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" والذي يعتبر من أهم المصادر في الحروب الصليبية وخاصة قيام الدولة الأيوبية.

(3) المقدسي الأصل الدمشقي المولد والمنشأ مات في السجن بعد غضب السلطان عليه: ن م، ص142 وكتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" من 14 جزءاً ويعطي إنطباعاً أنه من كتب الجغرافية ويعتبر كتابه موسوعة ودائرة معارف جغرافية ودينية وتاريخية. أحمد عبد الرزاق: ن م، ص48، وقاسم عبده، ن م، ص142 وكتابه الثاني: التعريف بالمصطلح الشريف "والذي شمل معلومات قيمة عن تاريخ دولة سلاطين المماليك، ن م، ص143-144. ومن مؤرخيه محمد بن رافع بن هجرس السلامي العميدي، أبو المعالي تقي الدين (704-774هـ/1304-1372 م مؤرخ فقيه من حفاظ الحديث، حوراني الأصل، ابن حجر: الدرر ج3، ص439، العماد الحنبلي: م س، ج6 ص234.

(4) الدباغ: فلسطينيات، ج6، ص118.

## أدب الحروب الصليبية

لقد تميز أدب هذه الفترة بجهاد المسلمين ضد الغزو الصليبي الغاشم بالإضافة للبعد الاجتماعي لحياة الناس في هذه الفترة فكان إنعكاساً لهذه الأحداث أحياناً وذاتي الإتجاه فردي النزعة كالممدح والهجاء والرثاء والوصف والغزل أحياناً أخرى ، وهكذا إرتبط الأدب في هذه الفترة بالفكر الإسلامي والبيئة الزمانية والمكانية والسياسية فترك الأثر الكبير في نفوس الناس خاصة فيما يتعلق بحفزهم على الجهاد كالشاعر الأبيوردي<sup>(1)</sup> والقيسراني<sup>(2)</sup>.

(1) هو محمد بن أحمد القرشي المتوفي في اصفهان عام 557هـ/1161م ومن قصيدته التي انشدها القاضي الهروي في بغداد في بداية الهجوم الصليبي وكان قاضياً بدمشق وتوفي عام 519هـ/1121م . السبكي : م . س ، ج 7 ، ص 22 .

إيها بسني الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرا بالناسم
وكيف تنام العين ملئ جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم	ظهورا المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأتسم	تجرون ديل الخفض فعل المسالم

تفسير المفردات:

الناسم : جمع منسم وهو خف البعير

المذاكي : جمع مذكية وهي الفرس بعد فروجه سنة أو سنتان

وقشاعم : جمع قشعم وهو النسر المسن

الخفض : الغنى

د. عبد الرحمن الساريسي : نصوص من أدب الحروب الصليبية ، ط 1 ، دار المنارة للنشر السعودية - جدة - 1985 م وفيها يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع إخوانهم المسلمين في بلاد الشام ص 24 .

(2) والشاعر ابن القيصراني الذي عاصر عماد الدين زنكي بعد تحريره لإمارة الرها عام 539هـ/1141م . ومن شعره بهذه المناسبة :

أما أن يُزَهَقَ الباطل	وأن ينجر العدة الماطل
فإن يك فتح الرها لجة	فساحلها القدس والساحل

أبو شامة المقدسي : م س ، ط 1287هـ/ج 1 ، ص 44 واللغة : معظم الماء .

كما هنا نور الدين زنكي بعد انتصاره على صاحب أنطاكية " البرنس " عام 544هـ/1148م بقوله :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذئ لحب	بوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وأذن لموجك في تطهير ساحله	فإنما أنت بحر لجه لب

أبو شامة : ن ، م ، ج 1 ص 59 - 60 ، اللجب : إرتفاع أصوات الأبطال وإختلاطها .



والعماد الأصفهاني<sup>(1)</sup> وعلي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي<sup>(2)</sup> لتحرير القدس وباقي الأراضي المحتلة.

وهكذا يلاحظ بأنه كان أدباً رائداً وهادفاً للجهاد ومصوراً لردود العملية على الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية بإبراز دور المسلمين المشرف في الصمود والتصدي للعدوان الإسطيطاني طيلة قرنين من الزمان بدون كلل أو ملل مما حفز الأدباء والشعراء والخطباء على معاشة هذه الفترة معبرين عن هموم وآمال وتطلعات أمتهم العربية والإسلامية فلم يهنا الشعراء بنصر قبل فتح القدس إلا وطالبوا بفتحها وأغروا به الحكام والسلاطين مستغلين الشعور الديني لمكانة القدس والدعوة للجهاد والشعور الاجتماعي لما لحق بالمسلمين من الدل والهوان .

(1) أرسل قصيده إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره على الصليبيين في مصر منها :

فتحت مصر وأرجوا أن تصير بها ميسراً فتح بيت المقدس عن كذب

كما وجه قصيدة أخرى لصلاح الدين بعد توحيد مصر والشام يستصرخه لتحرير القدس قائلاً

أغزى الفرنج ، فهذا وقت غزوهم وأحطم جموعهم بالذابل الخطم

وطهر القدس من رجس الصليب ونسب على البغاة وثوب الجدل

فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم

أبو شامة : م س ، ج 1 ص 1755 ، والذابل : هو الرمح الدقيق ، والأجلد : الصقر ، المشتبه اللحم .

(2) وجه قصيده لنور الدين زنكي بعد توحيد مصر والشام بين يديه :

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب

وطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والإشراك والصلب

عساك تظفر في الدنيا بحسن نبا وفي القيامة تلقى حسن منقلب

أبو شامة : ن م ، ج 1 ، ص 37 ، 38 .

وبالنسبة للدراسات النحوية<sup>(1)</sup> فقد شهدت تقدماً وإزدهاراً في شرقي الأردن زمن الأيوبيين لرعاية الملك المعظم عيسى صاحب دمشق (ت 624هـ/1226م)<sup>(2)</sup> وإبنه الملك الناصر داوود (ت 656هـ/1258م)<sup>(3)</sup> الذي إستقر في الكرك وأسس إمارتها فأصبحت قبلة الأدباء والعلماء الذين أحاطهم بحسن الرعاية وبحضور مجالسهم وتقريبهم إليه أمثال النحوي الأديب إبراهيم بن علي بن إسحق ابن علي الأموي القريني وإبن بصاقه القاضي أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري<sup>(4)</sup> وغيرهم. وذلك لشغفه بالأدب والشعر وتشجيعه للأدباء والشعراء وإغداقه عليهم بالمال والجوائز كما فعل مع الشاعر راجح الحلبي بأن: وهبه أربعين ألف درهم على قصيدته التي مدحه فيها عندما زار مدينة نابلس في فلسطين<sup>(5)</sup> ومن الأدباء الذين جمعوا بين الأدب والنحو والشعر والخط والتاريخ موفق الدين يعقوب بن إسحق بن القف النصراني الكركي<sup>(6)</sup> وعمل كاتباً في الديوان إذ كان صديقاً للطبيب ابن أبي أصيبعة .

ثم جاء العصر المملوكي في الكرك - جنوب الأردن المتميز بالنهضة الثقافية والعلمية لعطاء علمائه وإبتكاراتهم في مجال العلوم الدينية والعقلية والأدبية نتيجة إنتشار المدارس ، فأما الكرك

(1) أمثال النحوي : إبراهيم بن موسى بن بلال بن عمران الكركي : عالم القراءات السبع واللغة العربية بالإضافة لتعمقه في الفقه وكان من مؤلفاته النحوية : شرح ألفية ابن مالك " وإعراب المفصل من الحجرات إلى آخر القرآن " "نثر الألفية النحوية " ورقة الليب إلى علم الأعراب : السخاوي : م س ، ج 1 ، ص 175 .

(2) كان محباً للأدب حتى أنه اعطى كل من يحفظ المفصل للزخشري مائة دينار وخلعه : المقريري ، السلوك ، ج 1 ، ص 258 .

(3) ابن شاكر الكتي : فوات الوفيات ، ج 1 ، ص 419 ، المشهور بالقصيدة الناصرية : اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج 1 ، ص 133-134 ومنها :

وتبكي على تلك الطلول سحائبه	تقهقه في تلك الربوع رعوده
على كاهل الجوزاء تعلقو مراتبه	ألا يا أمير المؤمنين ومن غدت
إذا صار منه أهله وأقاربه	ومن جده عم النبي وخدمه
	وأورد من شعره في صفحة 149 :

ودمعي على خديك منه شهيد	طرفي وقلبي قاتل وشهيد
عن ناظري البعد والتشبه	من لي بطيفك بعدما منع الكرى

(4) اليونيني: م، ج 1، ص 128، 132، وإبن كثير م. س، ج 13، ص 184 وإبن الفرات : م س ، ج 7 ، ص 59 .

فانجذب عن وجهه داجي غياهبه	زار الحبيب وذيل الليل منسدل
يداه من لين مرخي جلابيه	فقال لي صاحبي والضوء قد رفعت
أما ترى البدر في عقاربته	فقلت يا عادلاً من نور طلعت

اليونيني : ن م ، ج 1 ، ص 144 .

(6) ابن أبي أصيبعة : م س ، ج 2 ص 173 ، واليونيني : ن م ، ج 4 ، ص 312 .

طلاب العلم للأخذ عن شيوخها وفقهائها<sup>(1)</sup> وخاصة منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حيث إزدهرت العلوم العقلية كالفلسفة والطب<sup>(2)</sup> .

## الأدب في العصر المملوكي

لقد إتفق الباحثون على ربط الحياة الأدبية بالحياة السياسية والاجتماعية فقسموا عصور الأدب العربي حسب العصور الإسلامية كعصر صدر الإسلام الذي ينتهي بعام 40هـ وعصر بني أمية وينتهي بعام 132 هـ والعصر العباسي الذي ينتهي بعام 656 هـ والعصر المملوكي الذي يبدأ بعام 656هـ/1258م وينتهي عام 923 هـ /1516م.

واعتبر العصر المملوكي من عصور ضعف الأدب العربي بعد تعرض العالم الإسلامي لموجة الغزو المغولي التتري على يد هولاكو فلم يزدهر الشعر لعدم تشجيع سلاطين المماليك للشعر العربي مما دفعهم للإنصراف إلى حرف يتكسبون بها بالإضافة لصراعهم على السلطة الذي نتج عنه فرض الضرائب الباهضة التي أرهقت الشعب .

ولهذا نظم الشعراء في هذا العصر في أغراض الشعر التقليدية متأثرين بالظروف التي شاعت في ذلك العصر ، كما نظموا في المدائح النبوية والشعر الصوفي وشعر الفكاهة ، وشعراء في المدائح النبوية كالבוصيري صاحب البردة<sup>(3)</sup> وهكذا أتصف الشعر بالأغراض السطحية وشيوع بعض الألفاظ العامية وإستخدام كثير من مصطلحات العلوم في الشعر، أما الأدب فقد إزدهر في العصر المملوكي لرفعهم من شأن ديوان الإنشاء ومحافظةهم على اللغة

(1) السبكي : طبقات الشافعية ، ج 6 ، ص 106 . والنعمي : م س ، ج 1 ، ص 67 . د. غوانه : التاريخ الحضاري : م س ، ج 2 ، ص 158 .

(2) أمثال : ابن القف الكركي الذي درّس الطب في الكرك ودمشق وألف فيه . والطبيب علم الدين توما بن إبراهيم الشوبكي طبيب الناصر محمد بن قلاوون والذي ألف كتاب : "إختصار مسائل حنين" ابن حجر : م س ، ج 2 ، ص 63 .

وعالم الكيمياء يوسف بن سليمان الكركي الذي حول النحاس إلى ذهب بوضع قليل من الأكسير على النحاس فيصير ذهباً وعلى الرصاص فيصير فضة وبعد فشل تجاري أعدمه السلطان الناصر محمد بن قلاوون : النويري ، م س ، ج 31 ، ورقة 105 ، 106 . مخطوط . وابن حجر : م س ، ج 5 ، ص 231 .

(3) ومن تك في رسول الله نصرته  
هو الحبيب الذي تُرجى شفاعته  
محمد سيد الكونين والثقلين  
إن تلقه الأسد في آجامها تحم  
لكل هول من الأهوال مُقتحم  
والفريقين من عرب ومن عجم

العربية كلغة رسمية للدولة ، بالإضافة لميلهم للعلم والعلماء وشعورهم بأنهم حماة الإسلام الذين عليهم المحافظة على تراثه بعد فضائع التتار في بغداد.

وكان من مظاهر القوة في أدب العصر المملوكي: ازدهار التأليف في جميع المباحث الأدبية واللغوية والدينية والإنسانية مثل :

-معجم لسان العرب : لابن منظور ، ومعجم القاموس المحيط للفيروز أباي في اللغة.

- وألفية ابن مالك (شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك في النحو).

- وتفسير "ابن كثير" في العلوم الدينية .

- والموسوعات الشاملة لشتى الأنواع من الثقافة العربية الإسلامية مثل " نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري و "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" للعمري و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي لذا تميز الأدب في تنظيم الأفكار وإستقصاء المعاني والتعبير عنها بكل دقة والسهولة والوضوح في الألفاظ والإبتعاد عن المجاز والصور البيانية الغريبة وظهر بجانب هذا الرسائل الديوانية ، والأدبية ، والإخوانية ، والمقامات ، الكتب والمجموعات الأدبية التي إتسمت بعدم التسلسل والربط بين الأفكار وفتور العاطفة والمبالغة في الزخرف والإغراق في البديع والإطالة والتكرار وشيوع الأخطاء اللغوية كوصف النويري لغوطة دمشق(685-754هـ/1287-1353م)<sup>(1)</sup> .

**وبالنسبة لأدب التراجم<sup>(2)</sup> :**

فقد ازدهر هذا النوع من الأدب نتيجة لظروف المواجهة الطويلة بين المغول والمماليك إضافة لمواجهة الصليبيين مما ولد إحساساً عميقاً بأهمية فعالية الأبطال في التاريخ فشمل هذا الأدب رجالا الحرب والدولة والسلاطين أيضاً بالإضافة لتراجم العلماء ، وقد قاد هذا الإتجاه،

<sup>(1)</sup> هي شرك العقول ، وقيد الخواطر ، وعقال النفوس ، ونزعة النواظر ، خلخلت آلامها أسواق أشجارها ، وحاست المياه خلال ديارها، وصافحت أيدي التسيم أكف غدرانها ، ومثله في بواطنها ، مؤانس أغصانها ، أي تمايل أغصانها.

<sup>(2)</sup> أنظر تراجم السلاطين في العصر المملوكي الأول "الممالك البحرية"

Holt: The Virtuous Royal Biographies, in : Nottingham Medieval Studies 24, 1980, PP. 27-35.P.M.

Holt : Three Biographies of Al- Zahir Bay Bars. in medieval historical Writing in the Christianand, Islamic World, London, 1982, PP. 19-29.

ابن فضل الله العمري (700-749 هـ/1300-1348م) في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، في عهد الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم ما بين (694-741 هـ/1293-1340م) مع انقطاعين قصيرين في عهد الناصر محمد بن قلاوون حيث أضاف قسماً للتراجم وآخر للأحداث التاريخية<sup>(1)</sup> والجغرافيا السياسية، لذا توسعت الأنواع الأدبية الموروثة بإضافة موضوعات متعددة في التأليف فسميت بكتب "الموسوعات" أو "دوائر المعارف" وتبعه الفلقسندي في موسوعة "صبح الأعشى" في صناعة الإنشاء والتي كان موضوعها الرئيسي "الكتابة الديوانية" لذا فعمد المؤلفون في مجال "أدب الكاتب" إلى جمع موضوعات متعددة والتي منها أدب كاتب ديوان الإنشاء كما أكد الفقيه الفلسطيني السياسي المملوكي بدر الدين ابن جماعة (ت 733 هـ/1332م) على الجهاد والغزو كل عام بعكس الماوردي (ت 450 هـ/1058م) في "الأحكام السلطانية" الذي بقي في العموميات في باب الجهاد نلاحظ بأن العامل النفسي بالنسبة لأصل الممالك والسياسي بالنسبة للصراع العسكري مع الغزاة كانا سبباً في ازدهار أدب التراجم والدراسات التاريخية في دولة المماليك البحرية بعد إنتصارهم على المغول ليثبتوا قوة المسلمين ووجودهم لإعادة الثقة بالنفس كما فعل ابن جماعة (ت 733 هـ/1332م) في كتابه "تحرير الأحكام" بعد عصر الناصر محمد بن قلاوون، فظهر نوع ثقافي جديد تمثل في سلسلة من المؤلفات كان هدفها كشف الفساد في الدولة ومناشدة للسلطين وكبار الأمراء لمحاربة الفساد الإداري وإعادة الإستقرار، مثل كتاب تاج الدين السبكي (ت 771 هـ/1369) المسمى "معيد النعم ومبيد النقم" وكتب المقرئزي (ت 845 هـ/1442م) و"إغاثة الأمة بكشف الغمة" ومحمد بن محمد بن خليل الأسدي

(ت 855 هـ/1450م) في كتابه التيسير والإعتبار والتحرير والإختيار "لذا خرج هذا الأدب السياسي على الأدب التقليدي بمعالجته لمشاكل الدولة المعاصرة وكشف الفساد فظهر هذا الإنتاج الثقافي بعد وفاة الناصر محمد النكسة الإدارية بعد العصر الذهبي حيث تردت الأحوال العامة.

(1) سمي عصره "بالعصر الذهبي" الأسدي : التيسير ، ص 68 ، المقرئزي : الخطوط ، ج 2 ، ص 305 .

## شعراء عجلون في شرقي الأردن

لقد عاش في قلعة عجلون<sup>(1)</sup> بعض الشعراء منهم الشاعر الأديب محمود بن طي العجلوني<sup>(2)</sup> المتوفي 734هـ/1333م ما أن قارب السبعين من عمره ويحيى بن خضير السلمي البصري المتوفي عام 711هـ/1311م ومحمد بن سليمان ، وظافر المارداني وسعد الدين بن المبارك العجلوني<sup>(3)</sup>. أما محمود بن طي العجلوني ، فقد إمتاز شعره الوصفي والمؤثر في النفس.

مميزات الشعر العجلوني في القرن السابع والثامن الهجريين /الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

لقد إمتاز شعر هذه الفترة بالمدح والوصف بشكل عام بالإضافة إلى موضوعات جزئية كشعر الهجاء والثناء والألغاز . وكان الممدوح في المدح واحد ، والموصوف في الوصف متعدد ومن أمثلة المدح الشعر الذي قيل في مدح كمال الدين أبو حفص عمر بن شرف الدين محمد حاكم أذرعات عام 708هـ/1308م للشاعر محمود طي العجلوني الملقب بالحافي<sup>(4)</sup>.

(1) تقع على قمة جبل عوف غرب عجلون حيث تبعد عنها ثلاثة كيلو مترات ، ويحيط بها خندق دائري شق في الصخر الصلد بعمق 5-10 أمتار وعرضه ما بين 15-20 م حيث كان يُملأ بالماء ليمنع تقدم العدو نحو القلعة ، وكان بابها في الجهة الشمالية الشرقية مزود بجسر خشبي متحرك على سلاسل حديدية وكان يرفع في الليل وقت الحرب.

د. غوانمة : التاريخ الحضاري ، ص 270-272 وقد شاهدها الباحث بنفسه ، بناها عز الدين أسامه زمن العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب للإحتماء بها من بني عوف الأشداء . ابن شداد الأعلام الخطيرة ، ص 87-88 .

وانظر : أبو الفداء ، تقويم البلدان : ص 244 وتسمى أيضاً قلعة الرض . Qalat ERabad.

(2) ابن حجر: م س ، ج 5 ، ص 94 . د. قاسم المومن ، وفخري كمال: شعراء عاشوا في قلعة عجلون في القرن السابع والثامن الهجريين ، ج 1 ، دائرة السياحة والآثار ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان الأردن ، 1985م ص 10-11 حيث كان يرتزق من شهادة القسم في خاص السلطان داوود نظماً له:

بالناظر الفتان الوسنان ذي الدعج وما نجد الذي نهوى من الفرج

قم يا نديم ، فما في الوقت من حرج أنظر إلى حسن زهر الروضة البهج

عمر فروخ : اسمع ترغم هنا الطائر المزج ، تاريخ الأدب العربي ، ج 5 ، ص 75 . حيث أورد اسمه "محمد" .

ن م ، ص 11 . وأورد من شعره : لما بدا على عينية من رمد

حسبته الدر فوق الحجر تسيره غيم وقد كحل الشمس بالشفق

(3) ن م ، ن ص . وانظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 12 ، ص 105 .

(4) د. قاسم المومن ، ورفيقه ، ن م ، ص 17-18 .

ومحمد يونس بن علي العجلوني الشافعي (ت 674-749هـ/1275-1348م) سمع منه ابن قاضي شهبه بعض شعره (1) وكان محدثاً أيضاً.

ومن أمثلة المدح: (2)

كمال الدين أكمل من رأينا      وأكمل في الجميل وفي الجمال  
إمام العصر أعلى الناس قدراً      وأسبقهم إلى رتب المعالي  
وأحسن من قسى خلقاً وخلقاً      بصدق من شاهده مقالي  
كما مدحه الشاعر يحيى بن خضير بن سليمان بن بدر السلمي النصراوي (3) بقصيده بدأها بالغزل:

وأسمرك القطا قدأ وخطوه      فلا غرو أن أصبحت في حبه سمره  
على أنه كالغصن ليناً إذا اثتى      ولم أر غصناً قبله مطلعاً ثمره  
إلى أن قال :

لأمرك بالمعروف عرّف وإنما      بذكرك في الآفاق قد سارت السيره  
وحلمك حلمٌ دونه خف يدبُّ      وعلمك علمٌ دونه ظلت الفكره

كما مدحه الشاعر محمد بن سليمان عام 715هـ/1317م بمجلس الحكم بأذرعاع (4):

إذا نظم الفصيح مديح نادٍ      فبالغزل الرقيق النظم بادٍ  
وأحسن من صفات الحسن حسني      وتعرّض بسعدي أو سعادٍ  
وسيدنا كمال الدين أولى      وأعلى مُنتمي ، وأجلُّ نادٍ  
إمام أئمة ، ومُشير ملكٍ      وكاشف غمةٍ وغياث صا (5)

(1) ابن قاضي شهبه، الاعلام بتاريخ أهل الإسلام، ج2، ورقة 109 "مخطوط".

(2) د. قاسم المومني: م س، ص 17-18.

(3) د. قاسم المومني: ن م، ص 46-47.

(4) أذرعاع مدينة كورة "البثنية"، فلما فتح المسلمون بصرى صالحهم صاحب أذرعاع على ما صرح عليه أهل بصرى، وعسى أن تكون أرض البثنية حراجاً، وقد دخلها يزيد بن أبي سفيان، ويقول ابن شداد "أنها ولايات مضافات إذ ليس فيها مدينة معتبرة" الأعلام الخطيرة، ص 66. انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ج 1، ص 185. حيث ذكر أن حوران والبثنية وستافان عظيمتان من جنود دمشق، وتتصل أعمالها بحدود تمرين عند اللقاء وعمان، وأما حوران: فهي من جند دمشق وفيها بصرى وكورة البثنية ومدينتها أذرعاع وكورة الغور ومدينتها أريحا، عز الدين محمد بن علي (ابن شداد) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1382هـ/1962م، ص 55-65.

(5) د. قاسم المومني: ن م، ص 56-57.

إلى أن يقول :

رفعت العلم ، ثم فتحت باباً إلى الحسنى بكسر ذوي العناد  
ولست براغب في نظم شعري ولا متطلع للأرتقاد

كما مدحه الشاعر ابن ظافر المارداني بقصيدة مطلعها :

بقاء الصبر بعدهم مُحال وقد زُفْتُ لنبيهم رجال  
وكيف لك التجلُّد عن جمال على أخشابها<sup>(1)</sup> رُفِعَ الجمال  
تسيرُ بكل مياسٍ رطيبٍ رشيق القد، زينتهُ إعتدال  
كمال الدين دمت لكل راجٍ لنجم عَلاك بالسعد أُنقال  
ما دام لك الزمان بغير مَين<sup>(2)</sup> حليف بنجاح قصدك لا يزال

وأما شعر الوصف : فقد تضمن موضوعات وصفها الشعراء في عصور الشعر العربي من قبل كالربيع والأزهار ، والليل والجواري والشيب وكان هذا الوصف تقليداً للعصور السابقة<sup>(3)</sup> ومن امثلة ذلك :-

رأيتَه عائماً في الماء منغمساً من حُبّه كل ما في الكون إنساني  
كأنه شمسٌ في عينٍ وقد غربت قلت انظري في دموعي عوم إنساني  
كما تميز الشعر الوصفي بمجموعة من الإحساسات البصرية والدوقية واللمسية والشمسية كصورة للإدراك الإنساني : مثل هذا القول<sup>(4)</sup> :-

(1) أخشاب : جمع خشب ، يعني الرجل ، د. قاسم المومني ، م س ، ص 60-61 ،

(2) مَين : الكذب والإنحراف ، د. قاسم المومني ، ن م ، ص .

(3) بكري شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي العثماني ، دار الأزمان الجديد بيروت ، ط 2 ، 1979/1399 ، ص 153 . وصالح

محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف بمصر 1971م ج 2 ص 1055 ، 121 ، 132 .

(4) د. قاسم المومني ورفيقه : ن م ، ص 23 . كما أورد صوراً غزلية وصفية إدراكية :

قالت وقد هجرت ، وعزّ وصالها لا مائل من قدي الذي عانقته  
لما التقينا وبك إلا مثلما قد دقت من ثغري الذي قبلته  
مُتٌ حسرةً ، وأقضم يديك ندامة وأندب على هذا الذي دقته  
فأحببتها ما حيلتي ؟ هذا جزاء من يطلق البازي ويجري تحته



قد ، وخذ ، ونهّد دون ملئ يد      قضيب بان ، وتفتح ، ورمّان  
عرق ، وريق ، وأنفاس ، مبسمه      مسك ، وخمر ، وزهر وقحوان  
محاسن قد حواها حسن منظرها      كأنما حسنّها للعين إنسان

وشملت الموضوعات مليحاً يبيع ورداً أو خبزاً أو مليحاً يرمي بالنشاب ومليح منجم مليح  
ومعين.

هذا وقد ذكر بروكلمان هذه الأشعار لشعراء عاشوا في قلعة عجلون شمال شرقي  
الأردن في القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين<sup>(1)</sup> ويلاحظ  
على شعر هذا العصر بأنه تقليد للماضي وخاصة ببدأ قصائد المدح بالغزل كالقصيدة الجاهلية .

## أعلام الشعراء

كان الشعر منذ قديم الزمان ديوان العرب وأسلوبهم لتصوير شتى مناحي الحياة القبلية  
والاجتماعية والسياسية. وسنتحدث بإيجاز عن أعلام الشعراء في هذا العصر عن شعراء جنوبي  
بلاد الشام في فلسطين والأردن، مثال ابن القيسراني (478 - 548 هـ/1085-1152م)  
المولود في عكا في ظل الحكم الفاطمي<sup>(2)</sup> وعاصر عماد الدين<sup>(3)</sup> زمن الصحوة الإسلامية ونور  
الدين<sup>(4)</sup> حيث صور الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير وخاصة الحروب بين المسلمين  
والفرنجة شأنه في ذلك كأي مؤرخ تحدث في كتب التاريخ المعاصر عنها فكان شعره سجل

(1) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ، دار المعارف مصر 1975م ص 47-133  
الجزء الذي حققه د. قاسم المومني ورفيقه .

(2) أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن نصر بن صفر .... خالد بن الوليد المخزومي . ثم إنتقل إلى قيسارية بعد أن أخذها الفرنجة فنشأ  
فيها ونسب إليها وهاجر إلى حلب ودمشق .

ابن خلكان : م س ، ج 2 ، ص 16-17 ، ابن تغري بردي : م س ، ج 5 ، ص 322 .  
العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج 1 ، ص 96 ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص 322 .  
ابن الوردي : تنمة المختصر ج 1 ، ص 54 ، أبو شامة : م س ، ج 1 ، ص 91 ، والزركلي : م س ، ج 2 ، ص 347 .  
(3) مدح وزير عماد الدين زنكي ، جمال الدين الذي صلبه خلال فتوح عماد الدين في بلاد الشام .

وإذا الوفود إلى الملوك تبادرت      فعلى جمال الدين وفد من حمادي  
يا حبذا هم فيها إليك أصراني      وعزيمة تقفو رياضة قائد  
العماد الكاتب : م س ، ج 1 ، ص 103 ، 104-106 .

(4) ومدح نور الدين في شعره أيضاً : دعاء أدعى من غرة النهي والأمر  
العماد الكاتب : م س ، ج 1 ، ص 257-259 ، وابن واصل : م س ، ج 1 ، ص 124 ، 125 .

فإستطاع تصوير سياسة نور الدين لتوحيد كلمة المسلمين ضد الصليبيين بقوله :  
إذا ما دمشق ملكتك عنانها      تيقن من في إيليا أنه الذبح

صادق وتاريخ ناطق بالإضافة إلى الشعراء السياسيين الذين رافقوا قادة المسلمين أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي، للشاعر ابن قسيم الحموي<sup>(1)</sup> (500 - 542 هـ - 1105 / 1146 م) وأسامة بن منقذ فارس الشام (488 - 584 هـ / 1095 - 1188 م) وغيرهم<sup>(2)</sup>.

### خصائص الشعر في هذه العصور

لقد اتخذ معظم شعراء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي الطباق والجناس والاستعارة مذهباً لهم في شعرهم ، وتطور هذا الإتجاه لدى الشعراء المتأخرين ، فأصبح هذا بسمه عامة للأدب ، وتميز بظهور مدرسة خاصة للفنون الشعرية المستخدمة<sup>(3)</sup> والمقتبسة من الأدب المغربي والأندلسي كالموشحات والأزجال ومن بغداد وفارس كالدوبيت والموالي<sup>(4)</sup> كما أن المدائح الذاتية والنبوية كانت من أبرز أغراض الشعر في هذا العصر، حيث إتجه معظم الشعراء لمدح السلاطين والأمراء وغيرهم ليكسبوا رزقهم، وتطور المديح النبوي منذ أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي<sup>(5)</sup> لإضطراب الحياة السياسية بسبب النزاع بين السلاطين والأمراء وتدهور الأحوال الاقتصادية وسوء الأحوال الاجتماعية، حيث كان هذا العصر عصر الحروب الصليبية والمغولية مما دفع الناس للتشفع بالرسول الكريم ليفرج عنهم الكروب والمصائب فشجعوا التصوف وإهتموا بالحج<sup>(6)</sup>.

### الملاحم الشعرية

- (1) مدح عماد الدين زنكي  
بعمرك أيها الملك العظيم  
العماد الكاتب: ن م، ج 1، ص 471، 472.
- (2) مدح نور الدين زنكي :  
فقولوا لنور الدين ، الأجل وحده ولا حكمت فيه الليالي الغواشم.  
ديوان أسامة بن منقذ ، ص 223.
- (3) العماد الكاتب: م س، ج 1، ص 88، 123.
- (4) ابن تغري بردي : المهمل الصافي (مخطوط) ورقة 3، 413. والدوبيت هي : الرباعيات.
- (5) عمر موسى باشا : م س، ص 446.
- (6) اليونيني : م س، ورقة 130، وابن إياس: م س، ج 1، ص 99، وابن الوردي، م س، ج 2، ص 194، 195، وديوان ابن الساعاتي ج 1، ص 48، 49. حيث ذكر قصيدة لابن الساعاتي في مدح الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام :
- |                              |                                       |
|------------------------------|---------------------------------------|
| وكيف أحمل في دنيا وأخرى      | ومنطقي ورسول الله مأمول               |
| هو البشير النذير العدل شاهدة | وللشهادة تجريح وتعديل                 |
| لولا لم تك شمس ولا قمر       | ولا الفرات ودجلاها ولا النيل.... الخ. |
- ونعتوا بعض الخلفاء وأشرف الشيعة ببعض النعوت النبوية لصلتهم بالرسول الكريم ، كمثال ابن الساعاتي في مدح الخليفة :
- |                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| لقد خلف المبعوث خليفة     | فبول لمأثرضى الإله فعول  |
| تدول له الأيام وهي عزيزة  | وتصغر حيث الخطب وهو جليل |
| له شرف البيت العتيق وزمزم | وما سامه حاد إليه عحول   |
- ديوان ابن الساعاتي : ج 1، ص 52، 53.

لقد تميز شعر هذا العصر قيد الدراسة بالملاحم الشعرية الزنكية والأيوبية والمملوكية التي تحدثت عن الملاحم الخالدة في الحروب الصليبية والتترية، حيث أشاد الشعراء بالأبطال من قادة وملوك وسلاطين وأمراء مما كان لهم من الفضل التاريخي في تسجيل تاريخ الأحداث الكبرى بوصفهم الملاحم الخالدة مما تجعلنا نعيش تلك الأحداث<sup>(1)</sup> وهكذا نرى أثر الحروب الصليبية في الأدب ، لاستمرار الأدباء في تحريض وإستثارة عزائم الملوك على جهاد الفرنجة، وبث دعوة الجهاد والكفاح بين الناس لتحرير الثغور والقدس المحتلة. وعندما توالى الفتح والانتصارات الكبيرة على الغزاة الصليبيين والمغول تميزت قصائدهم بصدق العاطفة وحرارتها، حيث لقبوا بها الملوك والسلاطين والأمراء لتتشيد على مسامعهم لتشجيعهم على المضي في طريق الجهاد<sup>(2)</sup> .

(1) أبو شامة : م س، ج 1 ص 34، 35 ذكر قصيدة لابن القيسراني في مدح عماد الدين زنكي :

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك      من خيلة النصر ، لا بل جندة القدس  
فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة      فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفروا  
وديوان ابن الساعاتي : ج 2، ص 407 فيه قصيدة لابن الساعاتي في مدح صلاح الدين عند دخوله بيت المقدس نذكر منها :  
جئت عزماتك الفتح الميسنا      فقد قرئت عيون المؤمنين  
وهان بك الصليب ، وكان قدماً      يعلو على العوالي أن يهونا  
أنظر: أبو شامة: م س، ج 1، ص 59، 60 ذكر تحريض ابن القيسراني لنور الدين زنكي لفتح المسجد الأقصى بقوله:  
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى الجب      يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب  
وأذن لموجك في تطهر ساحله      فانما أنت بحر لجة لجب

وانظر المصدر السابق : ج 1، ص 175 ذكر فيها تهنئة العماد الكاتب لنور الدين بعد توحيد مصر والشام بعد إسقاط الدولة الفاطمية .

لله ذرك نور الدين من ملك      عدل لحفظ أمور الدين ملتزم  
كانت ولاية مصر قبل عزتها      بكشف دولتها لحماً على وضم  
وطهر القدس من رجس الصليب وثب      على البغاة وثوب الأحجل القطم  
فملك مصر وملك الشام قد نظما      في عقد عز من الإسلام منتظم  
كما مدح العماد الكاتب صلاح الدين الأيوبي :

نهضوا إلى القدس يشقوا الغليل      بفتح كفتوح وماذا عسير  
سل الله تسهيل صعب الخطوب      فهو على كل شئ قدير  
ن م : ج 1، ص 247 ومدحه سنة 572 هـ ، ص 269 قسّر وفتح القدس واسفك به دماء متى بجرها نطف.

(2) أبو شامة : م س، ج 1، ص 56 ذكر ابن القيسراني وهو ينشد أمام نور الدين :

جرت بالنصر أعلام العوالي      وليس سوى النجيع لها مداد  
طالت أروس الأعلاج خصاً      فنادى السيف قد وقع  
وإذ عنت الممالك وإستحالت      مليحة لدعوتك العباد الحصاد

وكان أشهر هذه الملاحم ملحمة خطين الخالدة<sup>(1)</sup>، التي تبارى الشعراء في التحدث عنها والتغني بها، والإشارة والإشادة ببطلها صلاح الدين الأيوبي، ونكتفي بذكر وصف العماد الكاتب لها في قصيدته السينية عام 583هـ/1187م.

كما سَمَّى البعض الآخر قصائده القدسيات، ونكتفي فيها بقدسية الشاعر الفلسطيني رشيد الدين النابلسي<sup>(2)</sup>.

وهكذا نستخلص إلى القول بأن شعر هذا العصر أسهم في الجهاد الإسلامي، حيث أن بعض الشعراء كان يصحب الجيوش الغازية، وبعضهم الآخر كان يحارب بصدق وإخلاص مما يدل على ظهور الوعي بين مختلف الطبقات الاجتماعية نتيجة لجهود رجال الدين لتشجيع الناس على طرد المحتلين.

وأما بالنسبة لملاحم سلاطين المماليك فقد صور الشعراء جهادهم في تطهير ما تبقى من الثغور الساحلية من الفرنجة<sup>(3)</sup>.

(1) أبو شامة : م س، ج 2، ص 83، أورد القصيدة وفيها القول :

يا يومَ خطينَ ، والأبطال عابسة	وبالعجاجة وجه الشمس قد عيسا
رأيتُ فيها عظيم الكفر محتقراً	معفراً خذهُ والأنفُ قد نعسا
يا ظهر سيفٍ برى رأس البرنس فقد	أصاب أعظم من بالشرك قد نجا
من سيفه في دماء القوم منغمسٌ	من كل من لم يزل في الكفر منقسماً
أنفاهم مثلهم والأسرُ فانتكسوا	وبيت كفرهم من خبتهم كنساً

(2) ابن شاعر : فوات الوفيات ج 1، ص 255، رشيد الدين، أبو محمد عبد الرحمن بن بدر النابلسي المتوفى سنة 619 هـ، وهو أحد

الشعراء المجيدين في مدح بني أيوب نذكر من القصيدة :

هذا الذي كانت الآمال تنتظرُ	فليوفى الله أقوامَ بما نذرُوا
يمثل ذا الفتح ، لا والله ما حكيت	في سالف الدهر أخباراً ولا سيرُ

ومنها

سَلَّتهم دولة الدنيا وعيشتها	حتى لقد ضحرت من وفدهم شُعر
هذا الذي سَلَبَ الإفرنج دولتهم	وملكهم يا ملوك الأرض فاعتبرُوا

(3) ملحمة الشاعر الشهاب محمود، أنظر : ابن تغري بردي : م س، ج 7، ص 323-324.

في مدحه للسُلطان قلاوون حين خرج من مصر وأفتتح طرابلس والشام نذكر منها :	
علمنا لمن أولاك نعمته الشكر	لأنك للإسلام يا سيفه نحرُ
نهضت إلى عليا طرابلس التي	أفأأل عينها أن خندقها البحرُ

وتدميرهم المغول التتار القادمين من الشرق بعد أن قوضوا معالم الحضارة الإسلامية في الشرق<sup>(1)</sup>.

وهكذا نرى بأن شعراء هذه العصور المتتابعة قد أدوا واجبه القومي بكل حماس وإندفاع بدافع ديني لأداء مهمة الجهاد المقدس ، كما كانوا صنوت الحق بتصويرهم الأحداث الكبرى على حقيقتها معبرين عن مشاعرهم نظرياً وعملياً باشتراكهم في الجهاد المقدس لإسترداد أراضيهم السليبية، وحق علينا أن نسجل للشعر فضله كسجل تاريخي شامل للملاحم الإسلامية والأحداث الكبرى، ضد الفرنجة التتار.

وعلى الجانب الآخر من الحياة كان هناك أنواع الشعر الأخرى من النسب والغزل ونعت الخمرة جرياً على سنة الشعراء سواء شربوها أم لم يشربوها ، ووصف الحبيب التركي والكردي والفارسي والفرنجي والمغولي<sup>(2)</sup> كما اقتبس الشعراء بعض معاني الحرب، وإستخدامها في الغزل<sup>(3)</sup>.

(1) ابن تغري بردي : م، ج 7، ص 90-91 حيث أورد ملحمة الشاعر الأنصاري في مدح الملك المنصور الثاني ملك حماة الذي فر بجريته

إلى مصر وطلب نجدة السلطان قطز في معركة عين جالوت فقال :

بعين جالوت خضت بحر وغي      يخال فلکاً بالأسد مشحوناً  
أوسعت فيه التتار ضرب طلى      هذا وطعناً يخال طاعوناً

وعاد بعدها الملك المنصور إلى ملكه في حماة بعد هرب خسرو شاه عامل هولاكو على حماة

كما تحدث الشاعر الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري المتوفي سنة 677هـ/1278م عن بطولة الظاهر بيبرس في حربه مع التتار نورد من

قصيدته :

الملك الظاهر سلطاناً      نغذيه بالأموال والأهل  
إفتحهم الماء ليطفى به      حرارة القلب من المغول

ن م : ج 7 ، ص 282 .

(2) أنظر العماد الكاتب : الخريدة ، ج 1 . ص 44 ، 478 ، ديوان ابن الساعاتي ، ج 2 ، ص 49 . ذكر بأن الشاعر ابن القيسراني قصر

قصائده الثغريات عن الفريحيات كما تغزل ابن منير الطرابلسي بالعنصر التتاري .

(3) كما فعل الشاعر الشرف الأنصاري :

ملا منك في الهوى بُغري ويشجي      فهل من عاذل لي منك يُنجي  
أما من مسلم ينهك عنني      فإني منك في أسر الفرنج  
حيث شقيق الخد بالمحقة الكحلا      ونفقت رمع الغدر بالطعنة النجلا  
وأوترت قوسي حاجبتي ففوقعت      من النظر السامي إلى مقلتي نبلا

وتطرف بعضهم فتشيب بالعنصر الهندي، بالإضافة إلى الغزل المذكر في الشعر<sup>(1)</sup> وغزل المجون والخمريات والحشيش لإنتشاره على نطاق واسع في سائر الطبقات جرياً على سنة ملوكهم وأمرائهم ولنشاط أهل الذمة من اليهود والنصارى في رواج الخمر وإقامة الحانات. وهكذا نرى نمطاً من الحياة الإجتماعية في هذا العصر يصوره شعر المجون والخمرة ، ويوضح هذا الشعر أيضاً إنتشار الغناء والطرب بشكل واسع.

كما عبرت الشتويات الشعرية الإخوانية الوجدانية عن الفرنج في أيام الشتاء الطويله في بلاد الشام حيث كانت للتسلية بين الشعراء وهي صورة من الشعور الإنساني النبيل النابع من أعماق النفس بغير سعي وراء مغنم<sup>(2)</sup>، أما أغراض الشعر المختلفة التي تناولها شعراء هذا العصر فيكفي أن نشير إلى أهمها كالأحاجي والألغاز والهجاء والرتاء<sup>(3)</sup>.

(1) أنظر : ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوط) ، ج 2 ورقة 438 .

العماد الكاتب : الخريدة ، ج 1 ، ص 80 ، ص 145 ذكر فيها تغزل ابن القيسراني بـ غلام يهودي صيرفي و غلام قد إلتنحى فقال.

في نبي الأسباط ظي مالك رِق الأسود

صيرفي في غرامسي في صُرف ونقود

أنا في الدين حنفي وفي الحب يهودي

ديوان ابن الساعاتي : ج 2 ، ص 168 ، 265 ، العماد الكاتب : الخريدة، ج 1، ص 476-477 . وقد سلاطين الشام الخلفاء الشاميين

عرقلة آراء الكلي صاحب الفلسفة الجديدة بأن الحياة قصيرة المدى فيجب أن لا يضيعها الإنسان سدى فقال :

ندمتي قم فقد صفت العُقارُ وقد غنى على الأيك المزارُ

إلى كم ذا التواني في الأماني أفق ما العمرُ إلا مستعارُ

ومن مؤسسي المدينة الحميرية الشامية ابن قيم وابن الساعاتي والتلغوي .

(2) أبو شامة : م س، ج 1 ، ص 149-150 ذكر منها مثلاً بين العماد الكاتب وشرف الدين بن أبي سعد فقال:

أيا شرفَ الدين إن الشتا بكافاته كفُ آفاته

وكفك من كرم كامنها لقد كفلتُ لسي بكافاته

فأجابه شرف الدين :

إذا ما الشتاء وأمطاره عن الخير حابسه رادعة

فكافاته الستُ أعطيتها وحوشيتُ من كافة السابعة

وشوقي إلى قربه زائدٌ ومعذرتي إن حفا واسعة

(3) أنظر اليونيني : ديل مرآة الزمان (مخطوط) ورقة 132 ، ديوان ابن الساعاتي ، ج 1 ص 21

أما الفنون الشعرية المستخدمة فكانت الموشحات الشرقية كالرباعي والموالي<sup>(1)</sup> والموشحات الغربية المغربية والأزهار الشعبية التي إنتشرت في بلاد الشام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي كالقاضي إبن سناء الملك والذي ساهم بنقلها إلى مصر ومحي الدين بن عربي إلى بلاد الشام حيث كانت مطبوعة بطابع صوفي، لإنتشار الصوفية في بلاد الشام بشكلها الواسع<sup>(2)</sup>.

ويمكننا القول أن الموشحات الصوفية أدت خدمة للفقراء الذين يلحنونها وينشدونها في حلقاتهم الخاصة لتوصلهم بالعالم العلوي بعد تجردهم من أوراق العالم الدنيوي وذلك لتتحد أرواحهم بالذات الإلهية، وذلك بالغناء فيها.

(1) الرباعيات أو الدوبيات الفارسية : ومعناه إثنان أي مؤلف من بين إثنين سماه العرب الرباعي لكونه مؤلف من أربعة مصاريع ، وسموا الواحد منها (رباعية) د. عمر موسى م س، ص 640 .

والموالي جاء من وسط العراق وانتقل إلى بلاد الشام على يد الحكيم إبن السويدي نسبة إلى السويداء ، أنظر إبن تغري بردي : المنهل الصافي ( مخطوط ) ، ج 1 ، ورقة 32 ، 33 ، والنجوم، ج 8 ، ص 28 .

ومن قوله :

البدر والسعد ، ذا شهبك وذا نجمك      والقدرُ والحسنُ : ذا ربحك ، وذا سهمك  
والبغضُ والحبُّ ذا قسمي ، وذا قسمك      والمسكُ والحسنُ : ذا خالك وذا عمك

(2) ديوان إبن عربي ، ص 213 ، 392 ، 393 .

ومن أمثلة موشحاته : اطو إلى المهيمن الطرقا      عساك يوماً نحوها ترقى

عزيزة الإنسان قد دلتْ

عساكر الأحوال قد حلتْ

أهله الأسرار قد حلتْ

ألقى الهوى بالقلب ما ألقى      فلا تسئل عن كنه ما ألقى

## الحياة العلمية في فلسطين وشرق الأردن

### مقدمة

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ نَزِّنِي عِلْمًا﴾<sup>(1)</sup>

لقد عرف الكنعانيون العرب الكتابة الأبجدية منذ القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد على ألواح خزفية "وجدت في تل العمارنة" بمصر وكتبوا من اليمين إلى اليسار. ولما فتح المسلمون جنوب بلاد الشام باشرؤا بتعليم الناس تلاوة القرآن الكريم وتفسيره والحديث الشريف وما يتعلق بهما من علوم هناك.

وكانت البعثة التعليمية الأولى بأمر عمر بن الخطاب تلبية لطلب معاوية بن أبي سفيان برئاسة معاذ بن جبل<sup>(2)</sup> وعضوية كل من عبادة بن الصامت<sup>(3)</sup> وعبد الرحمن بن غنم الأشعري<sup>(4)</sup> وأبو الدرداء "حكيم الأمة"<sup>(5)</sup>.

وقد تخرج على يد هذه البعثة جمع كبير من التابعين مثل رجاء بن حيوة البيسانى الفلسطينى، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي وعبد الرحمن الأوزاعي الحنفي إمام أهل الشام، وقد استعمل المسلمون في فلسطين أوراق البردي بعد فتح مصر فزرعوا نبات البردي على ضفاف بحيرة الحولة، واستعمله الوليد بن عبد الملك لأغراضه الخاصة لصنع الأدرج التي بلغ طولها خمسة عشرة متراً، ثم أخذ العرب الورق الصيني من القش النباتي ونقله العرب عن طريق الأندلس، وعرف الورق أيام العباسين بالكاغد وهو نوع من الورق المصنوع في طبريا، وعرف مخترعه بالوراقين "اي مايشبه المطابع اليوم" ومن أشهر الوراقين: ياقوت الحموي، ومن أنواع الخطوط التي عرفوها كالخط الكوفي الذي أخذوه من الخبرة والذي كتبت به المصاحف وزينت به المساجد وحلي النقود، كما أخذوا عن الأنباط خط النسخ، ووصف ابن

(1) سورة طه الآية رقم 114

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج7 ص387، وابن حجر: الإصابة، ج3 ص422، 426.

(3) ابن سعد: ن م، ج7، ص، وابن حجر: ن م، ج2، ص268، 426.

(4) ابن سعد: ن م ج7، ص441، وابن حجر: ن م، ج2، ص417، والزركلي: الاعلام مج4، ص95.

(5) ابن سعد: ن م، ج7، ص391-392، وابن حجر: ن م، ج4، ص61.



جبير في رحلته التي امتدت (578-581هـ/1182-1185) الكتاتيب في بلاد الشام<sup>(1)</sup>، والتي استمرت حتى القرن الخامس الهجري/الهادي عشر الميلادي وذلك ببناء المدرسة النظامية في بغداد على يد وزير السلطان السلجوقي مكشاة " نظام الملك " ثم انتشرت المدارس بعد ذلك في العالم الإسلامي<sup>(2)</sup> وسار الفاطميون على هذا المنهج بينائهم الكثير من المعاهد التي كان أشهرها الأزهر الشريف واستمرت زمن الزنكيين حيث أنشأ عماد الدين وابنه نور الدين محمود دولته (511-569هـ/1117-1173م) على أنقاض السلاجقة، بينما أبدع الأيوبيون في فلسطين بعد استردادها من الإفرنج فأنشأ صلاح الدين وخلفاؤه من الأيوبيين المدارس الشهيرة في القدس والخليل وغزة وغيرها مثل المدرسة الصلاحية التي استمرت حتى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فقد أصبحت بلاد الشام منذ عصر الحمدانيين وحتى عصر المماليك منطقة علمية خصبة جذابة للعلماء المسلمين كالشيخ محي الدين بن عربي، كما كان هناك ازدهار فكري لتشجيع المماليك للعلم وبناء المدارس.

وكانت المدارس تلحق عادة بالمساجد وبعضها كان مستقلاص عن المسجد مثل دار القرآن الصابونية نسبة لعلم الدين الصابوني، والمدرسة العمرية في القدس التي أنشأها الشيخ محمد بن المقدسي المتوفي سنة 607هـ/1209م واحتوت على 115 مجلد مخصصة لتدريس القرآن وعلوم الدين<sup>(3)</sup>.

---

(1) ابن جبير: م س، ص 245، ولأيتام من الصبيان محضرة كبيرة "كتاب كبير" بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم يتبع مايقوم وينفق به على الصبيان مايقوم به ويكسوه، وهذا أيضا من أغرب ما يحدث من مفاخر هذه البلاد.

(2) ابن جبير: م س، ص 205، ذكر وجود 30 مدرسة في بغداد وكان من أشهر مدرسيها الغزالي والشيرازي.

(3) صلاح المنجد: مجلة اللغة العربية بدمشق رقم 48، أبريل 1973.

## التيارات الفكرية والعقلية في جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي

### والمملوكي

#### ازدهار النهضة العلمية:

لقد ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى، لقدوم نوابغ الفكر وأعلام الدين واساطين العلم في ظل الحضارة الإسلامية والثقافة العربية، حتى أواخر القرن الخامس الهجري، حيث خيم عليها ركود مؤقت بسبب الغزو الصليبي والمغولي إلى أن بزغت أشعة النهضة العلمية في عصر الزنكيين، إذ عمم نور الدين زنكي المدارس في بلاد الشام شمالها في حلب ووسطها في دمشق وجنوبها في القدس وحواضرها<sup>(1)</sup> ويمكننا إرجاع عوامل بعث النهضة الفكرية إلى عوامل خارجية وداخلية، فبالنسبة للعوامل الخارجية فقد تمثلت في نكبة الحضارة الإسلامية في بغداد على يد التتار عام (656هـ/1258م) والتي تمثلت بحرق أمهات الكتب العلمية والأدبية، وقتل العلماء والفقهاء والأعيان<sup>(2)</sup>، فكانت حرباً ثقافية هدفها محو الثقافة العربية وتدمير وجه الحضارة العربية من فوق الأرض بعد إغراق مكتبة بغداد في نهري دجلة والفرات ليس بهدف العبور فوقها ولكن بهدف محو محتوياتها من علوم وثقافة راسخة ذلك أن المخطوط يمحى بسهولة بالماء، مما دفع العلماء الناجين من المجزرة الهجرة نحو الشام ومصر فاسهموا في النهضة العلمية المقبلة، كما دفعت كوارث الأندلس وضعفها وانقسامهم وحروبها مع النصاري إلى هجرة علمائها إلى الشام ومصر أيضاً لتوافر الملاذ الآمن<sup>(3)</sup>.

أما العوامل الداخلية فترجع إلى تشجيع الطبقة الحاكمة من الملوك والأمراء والسلطين زمن الزنكيين أيام نور الدين زنكي<sup>(4)</sup> والأيوبيين زمن صلاح الدين الأيوبي<sup>(5)</sup> لتكريمهم العلماء

(1) ابن جبير: م س ص 234، 235.

(2) ابن تغري بردى: م س ج 7 ص 51 روى بأن المغول بنوا بالكتب جسراً من الماء والطين عوضاً عن الأجر بأمر هولاكو زيادة على ما حرقوه من كتب نفيسة.

(3) ابن جبير ن م ص 222 ذكر رؤيته قاضي قضاة دمشق بن خلكان والمرادي من أهل اشبيلية أيضاً المدارس في المسجد الجامع بدمشق.

(4) ابن واصل: ج 1 ص 283، 284.

واستقدامهم من البلدان الشاسعة والنفقة عليهم<sup>(1)</sup> حتى بلغت زمن صلاح الدين الأيوبي ثلاثة آلاف دينار<sup>(2)</sup> بالإضافة إلى أن بعض السلاطين كان من كبار العلماء كالمنصور الأول صاحب حماة<sup>(3)</sup>، كما استمر سلاطين المماليك في تشجيعهم العلم والعلماء بعطفهم على رجال الدين والمبالغة في الإكثار من المدارس ودور العلم وشجعوا العلماء على تدوين المخطوطات والشروح والمجلدات وهكذا نرى الازدهار العلمي في بلاد الشام عامة في هذا العصر في وقت كان الجهل يخيم على العالم الغربي كله أصحاب الحضارات الزائفة المنحلة.

وبالنسبة للحركة العلمية في شرقي الأردن في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فقد تراجعت وقل نشاطها بسبب احتلال الصليبيين للمنطقة الواقعة بين البحر الأحمر والبحر الميت كالشوبك عام 509هـ/ 1115م والعقبة (آيلة عام 510هـ/ 1116م والكرك عام 537هـ/ 1142م فقطع الصليبيون بذلك أي صلة بين مصر والشام والعراق. كما اضطر علماء فلسطين والقدس خاصة بالهجرة إلى القاهرة أو دمشق واستمر ركود الحركة العلمية حتى عام 583هـ/ 1187م بعد تحرير القدس لاهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلم والعلماء وحلقات التدريس وبناء المدارس السنية لتعصبهم إلى مذهب السنة ومحاربتهم مذهب الشيعة ومقاومتهم للصليبية الحاقدة الأمر الذي دفع الأيوبيين لتشجيع الدراسات الدينية واللغوية والعقلية كالمعظم عيسى<sup>(4)</sup> وابنه الملك الناصر داوود المحب للعلم والعلماء والذي أدى جهده لازدهار الحركة العلمية في الكرك واشتهر بمجالسته للعلماء ومناقشتهم<sup>(5)</sup> مما شجع العلماء والأدباء للإقبال عليه في الكرك<sup>(6)</sup>

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية ص 25.

(1) ابن واصل: م س، ج 1 ص 136.

(2) كرد علي: م س، ج 4، ص 39 (هذا ما ابلغه القاضي الفاضل لصلاح الدين يخبره عن ميزانية ارباب العمائم في الدولة بما فيها من اقطاعات ورواتب).

(3) أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج 3 ص 124، 125.

(4) الذي شجع الدراسات الفلسفية والطبية واستمر ابنه الناصر داوود في نقلها إلى الكرك ابن قطلوبغا، زين الدين قاسم: تاج التراجم في طبقات الحنفية، مطبعة العاني بغداد 1962 واليونيني: م س ج 1 ص 128، 132 وابن كثير: م س ج 3 ص 184، وابن الفرات م س ج 7 ص 59.

(5) اليونيني: ن م ج 1 ص 128، 137، وابن شساكر الكتبي م س ج 1 ص 419، وابن أبي اصيبعة م س ج 2 ص 173، 250.

وانشأ أول خزانة للكتب في الكرك<sup>(1)</sup> مما أدى إلى اعتبار الكرك من المراكز العلمية في الشام. كما شهد شرقي الأردن وفلسطين نهضة علمية بفضل تشجيع السلاطين لكسب التأييد الشعبي المتمثل بأراء العلماء التابعين والمقربين لهم وربما كان ذلك لشعورهم القومي بأنهم غرباء عن هذه البلاد فأكثرُوا من المدارس لكسب رضا سكان هذه البلاد.

كما ساهم في هذه النهضة هجرة العلماء من بغداد بعد تدمير المغول لها واستقرارهم في مدن مصر وبلاد الشام وخاصة القدس، وهجرة العلماء من المغرب العربي والأندلس بعد طردهم من الأندلس والذي غاصر الهجوم الصليبي على المشرق عام 1492م سقوط غرناطة، فكان في بيت المقدس حارة المغاربة المهاجرين من العلماء والفقهاء ورجال العلم<sup>(2)</sup>.

لذا أصبحت القدس مركزاً علمياً يؤمه طلبة العلم من أنحاء العالمين العربي والإسلامي وبالنسبة للمدارس في العهد المملوكي فكانت شبيهة بالمهاجد العلمية العليا والجامعات في عصرنا اليوم حيث تكونت هيئة التدريس من المدرس والمعيد<sup>(3)</sup> والمنتهي<sup>(4)</sup>.

كما أصبحت الكرك في العهد الأيوبي قبلة العلماء لتشجيع أميرها الناصر داوود، واستمر هذا الازدهار العلمي في العصر المملوكي حيث تفوق أبناء هذه البلاد في مختلف ميادين العلم كالطب والكيمياء والتاريخ والفقه، والقضاء وانتشر في الشام ومصر.

كما برزت أسراً علمية مثل الأسرة الحسبانية والأسرة الباعونية بالإضافة لعدد من العلماء نسبوا إلى قراهم ومدنهم أمثال الكركي والشوبكي والايلى والصلتي والمعاني، مما دفع أبناءه للمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية، فلقد غرس الأيوبيون البذور الأولى للحركة العلمية في الأردن التي أُنعت في العصر المملوكي حيث انتشرت المدارس في جميع أرجاء البلاد وبرز العلماء في شتى العلوم والفنون.

(6) ن م ج 1 ص 145.

(1) ابن ابي اصبيحة، م س، ن م.

(2) ابن جبير: م س ص 257، وانظر سعيد عاشور: المجتمع العربي في عصر المماليك ص 150.

(3) المدرس: فيكون من العلماء المشهورين فهو أعلى عضو في هيئة التدريس، السبكي م س ص 151-152.

المعيد: مهمته إعادة شرح الدرس وتوضيح الغامض على الطلاب ويقوم بتكرار الشرح والتوسع فيه.

(4) المنتهي: فمهمته مناقشة الطلاب لمعرفة مدى تحصيلهم العلمي من الدرس، السبكي: ن م ص 155.

## تطور التعليم في جنوب بلاد الشام

لقد كانت مراكز التعليم الكتاب<sup>(1)</sup> والمسجد للتعليم العام والقصور والبيوت للتعليم الخاص وهذه سمة العصر في العصر الإسلامي الأول.

وكان معلم الصبية خادماً المسجد أو مساعده، وكانت الكتب المدرسية القرآن الكريم وكتابين آخرين في اللغة العربية والحساب كما كان يتم تعليمه الصلاة والأخلاق الحميدة وطاعة الوالدين<sup>(2)</sup>، وبالنسبة لتعليم الطب في عهد المماليك فكان الاهتمام به اكبر من حيث المراقبة والمتابعة لطالب الطب لارتباط المهنة بحياة الناس<sup>(3)</sup>.

أما مدة الدراسة في الكتاب فكانت حتى يتم الصبي ختم القرآن أكثر من مرة بهدف حفظ بعضهم القرآن عن ظهر قلب فيلقبون بحفاظ القرآن ليكسبوا مكانة مرموقة في مجتمعهم.

(1) هذا اللفظ مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة، والكتاب وجمعه كتائب ومكاتب عبارة عن مدرسة صغيرة لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم وقد عرفه العرب قبل الإسلام وأحياء عمر بن الخطاب ثم الأمويين فالعباسيين، انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ج5 ص13 وأبو فرج الاصفهاني: الاغانى ج18 ص2، ج21 ص196، ج5 ص155، وابن خلكان: م س ج2 ص325، وياقوت الحموي: معجم البلدان ج5 ص426، والدباغ: فلسطينيات ج3 ص20، ج6 ص471، وزاد بعض المعلمين على المنهج تعليم اللغة والنحو والتجويد والحساب وكان الطلاب يجلسون في حلقات على الحصر المفروشة ويقرأون القرآن بصوت عال. كما كان شيخ الكتاب يدرس لكل طالب على حدة ثم ينقله إلى الدرس الجديد بعد استيعاب التلميذ وكان يساعده الطلاب المتفرقون في تلاوة القرآن الكريم وبالنسبة لعمر الطالب فقد تراوح ما بين الخامسة والسابعة وقد درس الباحث في الكتاب في قريته (سوم الشناق) عام 1945-1948 وختم القرآن وأتقن التلاوة والقراءة والحساب وبعض القصائد الشعرية.

(2) لقوله ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وقال ﷺ (خير من مشى على وجه الأرض المعلمون الذين كلما خلق الدين جدوده)، وكان عقاب الصبي خفيفاً بضربه بعضاً على يديه واسفل الرجلين أو الحبس في حجرة الصف بعد انصراف الطلاب ومنع استخدام الصبيان في خدمة حوائج المعلم الخاصة انظر ابن الاخوة: (ت730هـ/1329م) م س، ص170-172 وكان محتسباً سوري المولد وحتّى : م س: الترجمة العربية، بيروت ص421-422.

(3) النويري: ت732هـ م س ج6 ص311، اورد نصاً عن طبيعة تعليم الطب آنذاك: "فأما من يراعي عمله في الوفور والتقصير في الطب والتعليم، لأن الطب إقدام على النفوس يفضي التقصير فيه إلى تلف أو سقم. وللمعلمين من الطرائف التي ينشأ الصغار عليها ما يكون نقلهم عنه بعد الكبر عسيراً فيفرون منهم من توفر علمه وحسنت طريقته، ويمنع من قصر وأساء من التصدي لما تفسد به النفوس وتخيب به الآداب....

أما علاقة المعلم بطلابه فكانت حسنة، ومنع بيع المصاحف كما رفض بعض المعلمين أخذ الاجور عن تعليم القرآن حسنة لله وهم قلة وقد الصبيان المعلم بوضع القلم على آذانهم<sup>(1)</sup>، أما المسئول عن مراقبة التعليم والكتاب والثواب والعقاب فكان المحتسب في عهد الفاطميين<sup>(2)</sup> والمرحلة الثانية من التعليم فكانت بالانتقال إلى المسجد إذا أراد، كما يحق لكل رجل يقرأ القرآن ويعرف الكتابة والأحاديث الشريفة أن يلتحق بالمسجد أيضا بإحدى الحلقات العلمية للفقهاء أو الحديث أو النحو أو الإنشاء أو الشعر.

وترجع أهمية المسجد إلى عصر الرسول (ﷺ) أول من اتخذ المسجد مدرسة لتعليم المسلمين أمور دينهم وسار على سنته من بعده أصحابه من السلف الصالح كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وغيرهم واستمر ذلك في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين<sup>(3)</sup> كما وضعوا في كل مسجد خزانة للمطالعة والدرس اشتملت على القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف ومجلدات دينية ولغوية أخرى.

وبالنسبة إلى التعليم في القصور أو البيوت فقد اهتم به الخلفاء والسلاطين والأمراء لتربية أولادهم باختيارهم أشهر المربين خبرة وعلماً وخلقاً، أما بالنسبة لتعليم المرأة فكانت تعترضه بعض الصعوبات الكبيرة في الترحال وخشونة العيش فكانت البنات الصغيرات يلتحقن بالكتاب مع إخوانهن أو يتعلمن في منازلهن عن طريق العلماء من عائلاتهم أو معلم موثوق به لحث

(1) ابن عبد ربه، م س ج 4 ص 161 (ذكر حديثاً شريفاً: ضع القلم على أذنك فإنه اذكر للملمي وأقضى للحاجة)

(2) الدينوري: عيون الاخبار ج 2 ص 131.

(3) ابن جبير م س ص 244-245 أشار في رحلته لبلاد الشام التي استمرت من سنة 578هـ-581هـ/1282م-1285م إلى التدريس في المساجد بعد زيارته للجامع الأموي بدمشق فأورد: " وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيه الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم... ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المسند إليها للمذاكرة والتدريس، أبصرنا بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادى، وعند السبقي القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن. وللصبيان أيضاً على قرائتهم جارية معلومة، فأهل الجدة من آبائهم يجيرون ابنائهم على أخذها وسائرهم يأخذها، وهذا من المفخر الإسلامية.

الإسلام على العلم<sup>(1)</sup> وكان من نساء الصحابة اللاتي نزلن الشام مع أزواجهن أو آبائهن كزوجة الصحابي أبي الدرداء وغيرها كالمحدثة رابعة العدوية فيما بعد، ومن الفلستينيات المحدثات والفتيات اللاتي تعلمن في بيوتهن على أيدي آبائهن أو أقاربهن أو العلماء المشهود لهم بالكفاءة والخلق مثل:-

عائشة بنت عيسى بن أحمد المقدسي التي تعود في نسبها إلى فقهاء وعلماء جماعين توفيت عام 697هـ/1299م<sup>(2)</sup>، وزينت بنت أحمد المقدسي وأمنة بنت أحمد المقدسي<sup>(3)</sup> وصفيّة بنت مسعود المقدسي وخديجة بنت أحمد المقدسي، وآسيا أخت ضياء المقدسي<sup>(4)</sup> وزينت عبد الله المقدسي وجميعهن من محدثات القرن السابع الهجري<sup>(5)</sup>.

ومن محدثات القرن الثامن الهجري (رقية بنت أحمد آل قدامة وأختها رابعة، وفاطمة بنت عبد الرحمن آل قدامة وأختها زينت ومريم بنت عبد الرحمن النابلسية "قضاء"<sup>(6)</sup>)، وفي عهد المماليك اشتهرت أسماء بنت خليل العلاني 725-795هـ/1324-1392م. أخت الشيخ العلاني وزوجة العلامة إسماعيل القلقشندي، أجازت بالفتوى لحفيدها الشيخ القلقشندي<sup>(7)</sup> وأسماء بنت محمد المقدسية المتوفية عام 723هـ/1323م وكانت محدثة<sup>(8)</sup>.

### وبالنسبة إلى المصادر النظامية:

فقد تأسست منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على يد الوزير السلجوقي "نظام الملك" زمن السلطان ملكشاه في بغداد عام 457هـ/1065م على شاطئ دجلة

---

(1) قال رسول الله ﷺ (من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأوسع عليها من نعم الله التي وسع عليه كانت سترًا من النار) متفق عليه رواه البخاري.

(2) كحالة : أعلام النساء ج1 ص17.

(3) كحالة: ن م ج3 ص184.

(4) المتوفية عام 640هـ العماد الحنبلي: م س ج5 ص207 وكحالة: م س ج1 ص6.

(5) الدباغ: فلسطينيات ج6 ص60.

(6) ن م، ن ص.

(7) ابن حجر : م س ج1 ص360، ومجير الدين الحنبلي: م س ج2 ص162 وكحالة ن م ج1 ص54.

(8) ابن حجر ن م ج1 ص361 وكحالة ن م ج1 ص64.

كأول مدرسة مجانية<sup>(1)</sup> وسميت باسم " نظامية بغداد " ثم انتشرت المدارس في مدن العراق وخراسان وغيرها ولم يرد ذكر في النصوص التاريخية لتأسيس مدارس سلجوقية في فلسطين والأردن وربما كن ذلك لقصر مدة حكمهم لها.

وأما الفاطميون<sup>(2)</sup> فقد قلّدوا نظام الملك لبناء المدارس فبنوا الجامع الأزهر كجامعة علمية كبرى لتخريج دعاة المذهب الشيعي، وقد قصده طلاب العلم من فلسطين والأردن ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم، واستمر بناء المدارس في عهد الزنكيين<sup>(3)</sup> أيام نور الدين زنكي والأيوبيين كالمدرسة الصلاحية في القدس<sup>(4)</sup>، كما ساهمت الأميرات الخواتين بناء المدارس ودور الحديث أمثال ست الشام الخاتون أخت صلاح الدين الأيوبي وغيرها<sup>(5)</sup> بالإضافة إلى مساهمة التجار والعلماء في بناء المدارس.

(1) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ط1 ص255 سنة 1968.

(2) النعمي: م س ج1 ص11 يذكر إنشاء قاضي طرابلس الفاطمي الحسن بن عمار مدرسة جامعة على غرار دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة عام 400هـ، وأنشأ رشأ بن نظيف بن ماشا الله أبا الحسن الدمشقي مدرسة لتعليم القرآن الكريم عام 444هـ وأسماها المدرسة الرشائية.

(3) كالمدرسة العمرية الشيعية التي بناها الشيخ عمر بن قدامة الجماعي المولود في جماعين من أعمال نابلس عام 550هـ/1154م في دمشق بعد هجرته مع أبيه وأهله اثر استيلاء الفرنجة على فلسطين.

انظر النعمي: م س ج2 ص104، 105. ذكر ترميم نائب الشام سيف الدين بكتمر لها المتوفي عام 724هـ وبني مدرسته في مدينة السلط الأردنية، انظر ابن واصل: م س ج1 ص281 والنعمي: م س ج1 ص178، 401، 648 وابن جبير: م س ص333 كرد على: م س، المطبعة الكاثوليكية، 1949م، ج6، ص99، 100 كما بنى ابو عمر الجماعيني (جامع الجبل) المشهور بجامع الحنابلة بسفح جبل قاسيون بدمشق. كرد علي: م س ج6 ص36، والنعمي: م س ج1 ص48.

وقد نسب حي الصالحية في دمشق إلى بني قدامه عندما نزلوا في مسجد أبي صالح خارج الباب الشرقي لدمشق لمدة سنتين فنسبوا إلى المسجد وسميت البقعة الصالحية نسبة إليهم وأصبحت اليوم من أحياء دمشق الكبرى. كرد علي: م س ج6 ص74 وابن قاضي شهبة (بدر الدين) الكواكب الدرية في السيرة النبوية/ تحقيق محمود زيدان دار الكتاب الجديدة بيروت/ ص35.

(4) كان صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من بعده راعين للنهضة العلمية لكثرة دور العلم والمساجد. انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق ج16 ص292، 294. وابن جبير: م س ص222 والنعمي: م س ج1 ص19، 49، 110، 152، 216، 340، 359، 368، 459، 473، 585.

(5) ابن جبير م س ص225 والنعمي م س ج1 ص277، 302، 303، 503، 507.



## المدارس والتعليم في العصر الأيوبي والملوكي

لقد اهتم صلاح الدين بالتعليم والمدارس لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة ومحاربة اهل البدع والزيغ فدفعه ذلك لإنشاء المساجد ومراكز العبادة والعلم لمحو الآثار الثقافية الفاطمية التي اتخذت العلم أسلوباً لنشر مبادئها الشيعية وركز على اعتماد المذهب الشافعي<sup>(1)</sup>، كما نقل صلاح الدين الأيوبي طراز المدارس السلجوقية في سوريا إلى مصر<sup>(2)</sup>، وقلده ولاته المقربون اليه بل وتسابقوا في بناء المدارس وحبس الأوقاف عليها<sup>(3)</sup> مع الاهتمام بالطلبة الغرباء من حيث السكن والنفقة والعلاج والاستحمام بالحمامات التابعة للمدارس<sup>(4)</sup>، كما أهتم صلاح الدين بتوفير التعليم للأيتام والمساكين لإتاحة فرص العيش أمامهم فخصص لهم الأموال والأوقاف الكثيرة والمدرسين الخصوصيين<sup>(5)</sup> بالإضافة لاهتمامه في بناء المساجد، والخوانق<sup>(6)</sup> والخانات لإيواء المسافرين، هذا وعلى الرغم من اهتمام صلاح الدين بالعلماء والفقهاء كثيراً فلم يقبل منهم من

(1) ابن الأثير: م س، ج 11، ص 440، المقرئزي: السلوك ج 1، ص 63، والمواعظ والإعتبار ج 2، ص 400، وابن تغري بردي، م س، ج 6، ص 56 ربيع، النظم المالية، ص 77، والعبادي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة 1970، ص 105-106، 303، 312، 313، نعمت إسماعيل عالم، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية القاهرة 1974، ص 136.

(2) فكان ذلك: الشكل المستطيل يتوسطه فناء كبير مربع مع وجود إيوان كبير في كل جانب من جوانبه الأربعة، علام نعمت: م س، ص 136-137.

(3) بدوي: الحياة العقلية: ص 63-64.

(4) ن م، ص 48، وابن جبير، م س، ص 42، الذي شاهد ذلك بأمر عينيه فوصف ذلك.

(5) ن م، ص 245.

(6) جمع خانقاه، وهي الأماكن المعدة للمتصوفة، وتحتوي على وسائل الراحة ليتفرغ المتصوف للعبادة فقط وقد بناها صلاح الدين محبة للصوفية، حمزة بن عبدالمطلب: الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والملوكي القاهرة 1968، ص 104، وللمزيد من المعرفة انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج 1، ص 2، 619، 193، وأبوشامة م س ج 1، ص 191، والمقرئزي: الخطط، ج 1، ص 187، وابن إياس، م س: ج 1، ص 71، وقد اورد ابن كثير: م س ج 12، ص 193 شعر لأحد الصوفيين عام 571هـ/1175م الواغظ ابو الفتوح عبدالسلام يوسف التتوخي الذي زاره صلاح ليقتبس من أنواره منها:

يامالكاً مهجتي يامنهي أملي يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر

خلقتني من تراب أنت خالقك حتى إذا صرت تمثال من الصور

إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري

تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتتها وإن تغب عني عشت بسالاً

وكان يحترم فقهاء الصوفية حتى الفقراء منهم في ملبسه ومأكله فلا يلبس إلا الكتان والصوف، وابن كثير، ن م ،

ج 2، ص 97، وابن الأثير: م س ج 12، ص 295.

يفسد عقائد الناس بالسحر والشعوذة وغيرها النافية للتعاليم الشرعية<sup>(1)</sup>، وبالنسبة للهيكل الوظيفي للمدارس المملوكية في بلاد الشام فكانت ثلاثة أقسام:

### أولاً :- الوظائف الإدارية:-

وتشمل ناظر المدرسة وهو المدير العام لها، الذي كان يعين من قبل واقف المدرسة وله نائب يعينه هو أو الواقف<sup>(2)</sup> كما ويشتمل جابي الوقف الذي يحصل ريع الوقف ويصرفه بأمر الناظر<sup>(3)</sup> وكاتب الغيبة الذي يقوم بتسجيل أسماء من يتخلف عن الحضور من المدرسين والطلاب والشاهد: الذي يراقب الناظر في مصروفات الناظر المالية حيث يضع توقعه كشاهد على الصكوك والعقود، خوفاً من التلاعب والسرقة من أموال وقف المدارس<sup>(4)</sup> والمشارف وهو المسئول عن أمور النظافة والخدمة في المدرسة<sup>(5)</sup> وأما الصدر فمهمته جلب أهل الطلب والعلم إلى المدرسة.

### ثانياً: الوظائف العملية:-

وتشمل الإمام الذي يؤم بالمصلين في المدرسة<sup>(6)</sup>:-

الخطيب: الذي يقوم بأداء خطبة الجمعة في المدرسة.

المؤذن: في أوقات الصلاة وذو صوت حسن وعليه التكبير في الصلوات والترانيم<sup>(7)</sup>.

القيّم: وهو المسئول عن خدمة المدرسة وتدبير شؤونها<sup>(8)</sup>.

---

(1) حيث امر بقتل الفيلسوف الشهاب السهروردي مدرس العلوم، الأوائل والسحر والسيما والناطق، ابن

تغري: م س، ج 6، ص 114-115، بدوي: م س، 291.

(2) بدوين م، ص 75، وسيشار له فيما بعد هكذا (بدوي، الحياة، الحياة العقلية، النعيمي: م س، ج 1، ص 302).

(3) السبكي: معبد النعم، ص 110، كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الوسطى، المطبعة التعاونية، دمشق

1973 ص 100-101 وسيشار له فيما بعد: كحالة: دراسات اجتماعية.

(4) ناصر: عمائر السلطان قايتباي، ص 76.

(5) ن م، ص 258.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى ج 11، ص 302.

(7) النعيمي: الدارس، ج 1، ص 302.

(8) دهمان: ولاية دمشق، ص 138.

البوب: المسئول عن باب المدرسة ومراقبة الداخل والخارج<sup>(1)</sup>.

الفراش: ومهمته كنس المدرسة وتنظيفها وفرشها<sup>(2)</sup>.

الوقاد: لإضاءة المصابيح وإطفائها وتنظيفها<sup>(3)</sup>.

السقا: لجلب الماء إلى المدرسة<sup>(4)</sup>.

خازن المكتبة: للمحافظة على المكتبة وتنظيم إعارتها<sup>(5)</sup>.

### ثالثاً: الوظائف العلمية:

وتشمل المدرسون على اختلاف تخصصاتهم حيث كان السلطان يتدخل عند وقوع خلاف

بين العلماء على التدريس بإصداره مرسوماً سنوياً بتعيين بعض العلماء المقربين إليه<sup>(6)</sup>.

والمعيد: وهو الذي يعيد الدروس على الطلبة بعد انتهاء المدرس من إلقائه ومغادرته،

ويكون عادة من الطلاب المتفوقين في المدرسة الذي يعين من قبل الناظر<sup>(7)</sup>.

### وسائل وطرق التدريس في المدارس المملوكية في بلاد الشام:-

كانت الوسائل ومازالت العامل المساعد لتحصيل الطالب الدراسي إذ أشار ابن خلدون في

باب {وجه الصواب في تعليم العلوم} إلى ذلكمن حيث البدء بتوضيح الاسهل ثم الشرح بصورة

مجملة يختمها بشرح مفصل<sup>(8)</sup> وهذا مشابهة للنظريات التربوية الحديثة في عصرنا هذا.

(1) الحسيني: المدرسة الأسعدية، ص33، ج4، ص590.

(2) ن م، ص591.

(3) ن م، ص590.

(4) ناصر: عمائر السلطان قايتباي، ص77.

(5) السبكي: معبد النعم، ص111، امينة بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة دمشق، 1981-

1982، ص117، سيشار له فيما بعد هكذا: بيطار، تاريخ العصر الأيوبي.

(6) اليونيني: (قطب الدين أبي الفتح) ذيل مرآة الزمان، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد: الهند

1954 ج4، ص142.

(7) علي سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي

1981، ص310.

(8) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة، دار إحياء التراث العربي ط4، ص5533، سيشار له فيما بعد

هكذا: ابن خلدون: المقدمة. ونستشهد بنصه كمؤرخ معاصر لأساليب التدريس في المدارس المملوكية في

بلاد الشام " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين، إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً، وقليلًا قليلًا،

يلقي عله أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال،

ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول مايرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكه

في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها إلى أن ينتهي إلى

آخر الفن فتجود ملكته.

ومن الأساليب التربوية المتبعة في العصر المملوكي في بلاد الشام طريقة الحلقات الدراسية التي كان يفتتحها المدرس بآيات من الذكر الحكيم<sup>(1)</sup>. وأسلوب الإلقاء وخاصة في تدريس القرآن والحديث والفقه<sup>(2)</sup>.

وكان آخر هذه الأساليب الإملاء لبعض الكتب المطلوب حفظها وفهمها<sup>(3)</sup> ومن آداب السلوك لتربوي، أن يأمر المدرس الطلبة بإعادة شرح الدرس بعده، وأن يبقى في الصف حتى خروج آخر طالب عند الانصراف ليتسنى للطلاب الاستفسار عن بعض المعلومات الدراسية وحتى لا يزاحمة الطلاب الخروج من الباب<sup>(4)</sup> كما أعطيت للمدرس صلاحيات منح الإجازة العلمية في علم من العلوم بعد امتحانه مثل إجازة السماع<sup>(5)</sup> والإجازات العامة للسماح بالتدريس<sup>(6)</sup>. وعراضة الكتب أي حفظها وفهمها مثال ذلك ما عرضه ابن طولون على شيخ الشافعية، تقي الدين ابن قاضي عجلون شرقي الأردن<sup>(7)</sup>.

هذا وقد ألزم المدرس على التدريس في مدرسة واحدة، حتى يتفرغ لعمله بإخلاص وإتقان وإبعاده عن الإرهاق وتشتت الذهن، حيث منح الإجازة المرضية، وطلب منه الالتزام باحترام النظام والوقت والتسامح في معاملة الطلاب كأبناء له، وبالنسبة لتوفير الأجواء التربوية للطلبة فقد حرص المماليك على توفير كافة المستلزمات للعملية التربوية من حيث توفير السكن والغذاء والملابس والمكتبات المشتملة على أمهات الكتب ليعود إليها الدارسون في سهولة ويسر كمكتبة

---

(1) ابن جماعة (بدر الدين أبي اسحاق إبراهيم): تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، 1354هـ، المقدمة (سيشار له: ابن جماعة تذكرة السامع).

(2) ابن طولون (محمد الصالح الدمشقي) القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق 1980.

(3) عاشور (سعيد عبد الفتاح) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية ص 153.

(4) ابن جماعة: ن م ص 45-54.

(5) ابن بطوطة: م س ص 103.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، ج 14، ص 367.

(7) ابن طولون: الفلك المشحون في أخبار محمد بن طولون، مكتبة القدس، دمشق 1348هـ ص 19. ذكر إجازة القاضي لأبن طولون "عرض على الولد المبارك اللبيب الأديب عرضاً حسناً محرراً متقناً دل ذلك على حفظه لجميع الكتب المذكورة أعانة الله على درايته، كما وفقه لروايتها".

المدرسة العمرية في دمشق<sup>(1)</sup> أما بالنسبة للعطل المدرسية، فقد اختلفت من مدرسة إلى أخرى حيث تراوحت بين ثلاثة وخمسة أيام في الأسبوع<sup>(2)</sup> وامتدت العطلة السنوية إلى ثلاثة أشهر وعشرين يوماً في رجب وشعبان ورمضان وعشرين يوماً من شوال<sup>(3)</sup> بالإضافة إلى أيام الأعياد والمواسم وأيام التشريق<sup>(4)</sup>.

### المواهب العلمية:

لقد غلبت عليها الصبغة الدينية زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك وذلك لغلبة الصفة الدينية لهذه العصور النابعة من الرغبة في القضاء على المذهب الشيعي في مصر وبلاد الشام. بالإضافة إلى جانب بعض العلوم الأخرى في مدارس بلاد الشام كالعلوم الشرعية وعلوم اللغة والعلوم الرياضية إلى جانب علم التاريخ والمنطق والكلام والفلك<sup>(5)</sup> وبالنسبة للخدمة الاجتماعية التي كانت تقدمها المدارس المملوكية هي التعليم المجاني وخدمة اليتامى بالتكفل في معيشتهم ورعايتهم<sup>(6)</sup> وبعضها يتناول الناس فيها طعام الإقطار في شهر رمضان وتوزيع الأضاحي والملابس وأنواع الطعام في عيد الأضحى المبارك<sup>(7)</sup> كما أقيمت الاحتفالات لمختلف المناسبات في الأفراح والأحزان<sup>(8)</sup> بالإضافة إلى أنها كانت ملجأ للناس أثناء الاضطرابات الداخلية ف مدن

(1) ابن كنان (محمد بن عيسى) المروج السندسية الفسيحة في تلخيص الصالحية، تحقيق محمد احمد دهمان دمشق 1947، ص 166 سيشار له فيما بعد هكذا: ابن كنان: المروج السندسية.

(2) ابن طولون: القلائد الجهرية، ق 1 ص 259، وابن البيطار، تاريخ العصر الأيوبي ص 209.

(3) يوسف غوانمة: تاريخ شرقي الأردن (القسم الحضاري) وزارة الثقافة والشباب عمان 1979، ص 135 وابن طولون، مفاهمة الخلان، ق 1 ص 308.

(4) أيام التشريق: هي الأيام الثلاثة الأخيرة في الحج ابتداء من الحادي عشر من ذو الحجة، مقابلة: المؤسسات الاجتماعية ص 56.

(5) الشيزري: نهاية الرتبة، ص 103 وعدنان محمد محمود ظاهر: التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامية في العصر الأيوبي... رسالة ماجستير الجامعة الأردنية ص 110-112. سيشار له فيما بعد هكذا: ظاهر: التعليم.

(6) الحسيني: المدرسة الاسعدية/م 33 ج 4 ص 592-893.

(7) ابن طولون: القلائد الجهرية/ق 1، ص 270-271، النعيمي: م س، ج 2، ص 100، 112.

(8) ابو شامة: م س، ص 112، 149، ابن كثير: م س، م 7، م 13، 350 وذكر النعيمي أنها كانت اماكن والصلاة عليهم وإقامة العزاء بها ف حالة وفاة أحد مدرسيها، النعيمي: ن م، ج 1، ص 206، ابن طولون، مفاهمة الخلان، ق 1، ص 17.

بلاد الشام<sup>(1)</sup> وأصبحت فيما بعد مركزا للتدريب على السلاح والدفاع المدني إذا تعرضت البلاد لخطر الغزو كما حدث عام 699هـ/1299م عندما أمر نائب دمشق الأمير جمال الدين اقوش بإلزام أهلها بتعليق الأسلحة في الحوانيت وعمل إمامات<sup>(2)</sup> في المدارس المساجد في جميع أنحاء بلاد الشام كلها.

### وبالنسبة لدور الثقافي للمدارس:-

فقد استطاع الزنكيون والأيوبيون المماليك نشر المذهب السني على حساب المذهب الشيعي مما أدى إلى انتشار علوم الفقه على المذاهب السنية الأربعة كما ساهمت المدارس في زيادة عدد المدرسين والمتعلمين والمكتبات الموقوفة على المدارس<sup>(3)</sup> وانتشار الكتب بين الناس حتى استفادت الطبقات الدنيا من التعليم المجاني في العصر المملوكي الذين اعتبروه من أعمال البر والخير<sup>(4)</sup> بالإضافة إلى أعداد الموظفين الأكفاء للدولة<sup>(5)</sup> ويرى لابيديوس<sup>(6)</sup> أن انتشار الثقافة بين العامة أوجد رابطة قوية بين العلماء والعامة وقوى المشاعر الدينية في نفوس العامة مما أدى لتضامنهم مع مشايخهم في كثير من الأحيان الأمر الذي وفر الحماية للعلماء المعارضين لسياسة الدولة من بطش السلاطين والأمراء حفاظا على الأمن والاستقرار من ثورات العامة، ونلاحظ أن السلاطين الأمراء ف بلاد الشام وبعض الأغنياء من التجار والعلماء هم الذين انشأوا المدارس وأوقفوا عليها أموالا تضمن استمرارها في أداء رسالتها الثقافية والاجتماعية كمدارس المسجد الأقصى مثلا وخلت المدارس في العصر المملوكي لنظام مالي وإداري دقيق وخصصت الرواتب والأجور للمدرسين وكل العاملين بالمدارس المملوكية ويتكفل مؤسس المدرسة بإغاثة الطلبة والنفقة لهم، وصرفوا عليها من عوائد الوقف المتمثل في عدد من القرى والضائع

(1) ابن طولون: مفاكهة ن م الخلان، ق1، ص340.

(2) الامامات: مفدها امامة وهي منصة على الأسطح لاستخدامها في إطلاق السهام، ابن حبيب: تذكرة البنية، ج1، ص224، هامش1.

(3) ابن كثير: م س، مجلد13، ص317.

(4) طرخان: النظم الاقطاعية، ص245.

(5) الباشا: الدراسات في الحضارة ص101.

(6) لابيديوس: مدن إسلامية ص190-191.

والحمامات والفنادق والحوانيت والأراضي فكانت هذه المصادر المملوكية للصرف والإنفاق على هذه المدارس<sup>(1)</sup>.

### ومر المدارس في المسجب الأقصى في العصر الأيوبي والمملوكي:-

مدرسة الفقهاء الشافعية<sup>(2)</sup>، المدرسة النحوية<sup>(3)</sup> والمدرسة الناصرية<sup>(4)</sup> والمدرسة المعظمية<sup>(5)</sup> والمدرسة الأمينية<sup>(6)</sup> وغير هامن المدارس والزوايا<sup>(7)</sup> واستمر الاهتمام بها في العصر المملوكي انطلاقاً من الاهتمام بالنهضة العلمية والتركيز على نشر المذهب السني بمذاهبه الأربعة في مصر والشام للصمود أمام المذهب الشيعي الذي ينشره الفاطميون في مصر والشام، والتصدي للخطر الصليبي بإذكاء روح الجهاد في نفوس أبناء الجيل الجديد، ولتعزيز موقف بعض السلاطين والأمراء لكسب ثقة الناس ومحبتهم، بالإضافة إلى تخريج موظفين

(1) المقرئزي: المواعظ ج2، ص463-401، وابن حجر: الدرر ج4، ص50، وابن تعزي: المنهل، ج1، ص394. والذهبي: الشذرات: ج6 ص142-143، انظر الملحق: حيث تعطينا وصفاً دقيقاً لتنظيم المدرسة المالي والإداري في العصر المملوكي للمدرسة الاشرفية بالقدس، أوردها جلال سعد ناصر: عمائر السلطان قابتاي في بيت المقدس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ص79-77.

(2) عند باب الاسباط وأوقف عليه وفوضها بالنظر في أوقافها إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية انظر العماد الكاتب: الفتح القسي في الفتح المقدسي، تحقيق محمد صبح القاهرة 1965م. ص14، ص611-612.

(3) المدرسة النحوية: بناها الملك المعظم عيسى 604هـ/1207م بطرف صحن الصخرة من جهة القبلة/ مجير الدين الحنبلي: م س، م1، ج2، ص34، عبد الجليل حسن عبد المهدي: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوك، أوردها في الحركة الفكرية، مكتبة الأقصى، عمان ج1، ص351، سيشار له فيما بعد هكذا: عبد المهدي: المدارس.

(4) الناصرية نسبة إلى الشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالن: بناها المعظم عيسى لجعلها زاوية للقرآن واندثرت في أواخر العصر المملوكي، مجير الدين الحنبلي، م س، م1، ج2، ص321 عبد المهدي: ن م، ج1 ص356 العارف المفصل، ج1 ص240.

(5) وتسمى الحنفية التي بناها المعظم عيسى الأيوبي: وأوقفها على فقهاء الحنفية: مقابل باب الانبياء، المعروف بالدوادية، المعارف، ن م، ج1، ص240، ومجير الدين الحنبلي: ن م ص259، 286.

(6) بناها صاحب أمين الدين عبد الله عام 5730/1329م ( غوانمة، بيت المقدس ص156.

(7) مجير الدين الحنبلي: م س، م1، ج2 ص27، كالمدرسة البدرية: بناها محمد الهكاري أحد أمراء المعظم عيسى الأيوبي عام 610هـ/1212م وأوقفها على فقهاء الشافعية في حي الواد ن م ص289.

لمختلف الوظائف الإدارية والسياسية والدينية وخصصوا لذلك مصادر مالية أساسية للنفقة عليها<sup>(1)</sup> وبلغ عدد المدارس في القدس في العصر المملوكي حوالي 41 مدرسة أنشأ المماليك منها 37 مدرسة<sup>(2)</sup>، كما بلغ عدد المدارس في مدينة غزة 4 مجارس أنشأ المماليك منها 3 مدارس<sup>(3)</sup> ومدرستان في صفد وبالنسبة إلى شرقي الأردن فقد أنشأ فيها المماليك خمس مدارس في كل من عجلون، والكرك، والسلط، وعمان، وحسبان.

وقد تشابهت المدارس في مناطق بلاد الشام في إطارها العام في العصر المملوكي سواء كانت في دمشق أو بيت المقدس أو في القاهرة، وبالنسبة لأنواع المدارس في جنوب بلاد الشام فكانت متعددة من حيث تدريس القرآن الكريم وأصول القراءات والتفسير والحديث الشريف<sup>(4)</sup> وتدرس المذاهب الأربعة، فقد شجع نور الدين محمود زنكي إنشاء المدارس علي المذهب الحنفي<sup>(5)</sup> بينما شجع الأيوبيون مدارس مذهبهم الشافعي، أما المماليك فلم يستثنوا مذهباً من المذاهب بل اعترفوا بها جميعاً حيث عين الظاهر بيبرس قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة في القاهرة والشام<sup>(6)</sup> وكانت الأولوية لقاض قضاة الشافعية في جميع القضايا من حيث اللباس وبيت المال وغيره<sup>(7)</sup> وبالنسبة لدور المدارس السنية في العصر الأيوبي بمدرسيها العلماء والفقهاء والقضاة الشافعيين، فقد لعبت دوراً مهماً في إعداد جماهير المسلمين للجهاد ضد

---

(1) المقرئزي المواعظ، ج 2 ص 363، 364، 366، 368، 382، 387، 388، 392، 394، 397، 398، 400. وابن حجر: م س، ج 4 ص 50، وابن تعزي: المنهل ج 1 ص 392-393، الذهبي: ن م، ج 6 ص 142-143.

(2) مجير الدين الحنبلي: م س م 1 ج 2 ص 33-48.

(3) عطا الله: نيابة غزة ص 245-246.

(4) عمر كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الوسطى، المطبعة التعاونية، دمشق 1973 م ص 100، سيشار له فيما بعد هكذا: النعيمي: المدارس.

(5) زيادة: دمشق ص 119.

(6) النعيمي (عبد القادر بن محمد): المدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقى: دمشق 1948، ج 1 ص 430، سيشار له فيما بعد هكذا: النعيمي: المدارس.

(7) السبكي: معبد النعم، ص 78.



الصابيين حتى أننا نجد بعض النساء المتبرعات ببناء بعضها<sup>(1)</sup>، وقد تنوعت المدارس في بلاد الشام حسب المذاهب الفقهية الأربعة فكانت هناك المدارس الشافعية<sup>(2)</sup> والحنفية<sup>(3)</sup> والمالكية<sup>(4)</sup> والحنبلية (الحنابلة)<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ الباحث بأن سياسة الزنكيين والأيوبيين قد اتجهت نحو الاهتمام بإنشاء المدارس في مدن بلاد الشام كما لم يكن المماليك أقل حماساً من أسلافهم هؤلاء في تحقيق الهدف الذي من أجله شيدت المدارس وهو إحياء المذهب السني والمحافظة عليه.

وهكذا نلاحظ بأن تاريخ إنشاء المدارس في مصر والشام يعود للسلطان صلاح الدين الأيوبي وزادها المماليك حيث نعتبر العصر المملوكي هو العصر الذهبي لانتشار التعليم نتيجة الإقبال على إنشاء المدارس من قبل السلاطين والأمراء والأغنياء والعلماء المفكرين لخدمة الدين الإسلامي مع التعمق في الدراسات العقدانية والاجتماعية.

#### وأما مدارس القدس في العصر المملوكي فكانت:-

المدرسة الجاولية : عام 713هـ/1313م التي بناها علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس والخليل ونابلس واللد والرملة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الجهة الشمالية الغربية للمسجد الأقصى قرب منارة الغوانمة<sup>(6)</sup>.

المدرسة الكريمة<sup>(7)</sup>: شمالي الحرم عند باب خطة شرقاً عام 718هـ/1318م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

(1) ست الشام اخت صلاح الدين الأيوبي أقامت مدرسة بظاهر دمشق وتنسب إليها، ابن شداد: الأعلاق الخطرة ج2، ص294.

(2) ابن شداد: ن م ج2 ص255-259، النعمي، م س ج1 ص120-172.

(3) ابن شداد: ن م ص199-228، النعمي، ن م ج1 ص473 فما بعدها.

(4) ابن شداد: ن م ج2 ص253-254، النعمي، ن م ج2 ص21-28.

(5) ابن شداد: ن م ج2، ص255-259، النعمي، ن م ص29-238.

(6) ابن فضل الله العمري م س ص159، وابن حبيب درة الأملك ج1 ورقة98 مخطوطة.

(7) ابن فضل الله العمري: ن م، ج1، ص157، وابن بطوطة: م س، دار التراث، بيروت 1968م ص55 الذي ذكر بأنه زارها عام 725هـ/1324م وعدها خانقاه ومجبر الدين الحنبلي م س ج2 ص39، وعارف العارف: المفصل في تاريخ القدس ج1 ص244 وقد بناها كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله ناظر الخاصة السلطانية.

المدرسة الملكية: نسبة لبانيها الحاج ملك الجوكندار عام 741هـ/1341م في عهد السلطان  
الناصر محمد بن قلاوون شمال شرقي الحرم الشريف<sup>(1)</sup> ويسكنها الآن آل  
الخطيب<sup>(2)</sup>.

الخاتقاه الفخرية: بجوار جامع المغاربة نسبة لمؤسسها القاضي محمد بن فضل الله الملقب بفخر  
الدين<sup>(3)</sup> المصري ويسكنها اليوم آل أبي المسعود وتضم مسجداً للصلاة  
وأماكن لإقامة الأذكار وتهجد المتصوفين.

وفي عهد إسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة 745هـ/1343 أنشئت الزاوية المهمازية  
نسبة للشيخ كمال الدين المهمازي. أوقف إسماعيل على ريعها قرية بيت لقيا من أعمال القدس  
الشريف.

#### منشآت حسن بن محمد بن قلاوون (755-762هـ/1354-1361م).

المدرسة الفارسية: في شمال الحرم نسبة لواقفها الأمير فارس الدين البكر بن الأمير قطلو نائب  
السلطنة بالأعمال الساحلية والجباية وغزة. أوقف عليها سنة  
755هـ/1354 حصة من قرية طولكرم<sup>(4)</sup> هي اليوم دار سكنها.

المدرسة الأرغونية: بباب الحديد في الجهة الغربية من الحرم<sup>(5)</sup>، بناها الأمير أرغون الكامل  
نائب الشام سنة 758هـ/1357م ودفن فيها، يقيم فيها اليوم آل العفيف  
وبجانبها قبر الحسين بن علي قائد الثورة العربية ضد العثمانيين سنة  
1916م.

(1) مجير الدين الحنبلي: ن م ج 2 ص 38، وابن فضل الله العمري ن م ج 1 ص 159.

(2) عارف العارف: ن م ص 246.

(3) مجير الدين: ن م ص 281.

(4) ن م ص 286، عارف العارف: ن م، مطبعة المعارف، القدس 1961م ج 1 ص 247.

(5) المنهاجي السيوطي: اتحاف الأخصا ورقة 46، مخطوط ومحمد كرد علي م س ص 121، وعارف العارف  
م س ص 248.

المدرسة الخاتونية: باب الحديد غربي الحرم: أوقفها أوغل خاتون بن محمد سيف البغدادية سنة 755هـ/1354 وأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان سنة

782هـ/1380م<sup>(1)</sup> وفيها قبر الخاتون القازانية البغدادية.

المدرسة التثتمرية: بباب الناظر: أوقفها الأمير تشتمر السيفي سنة 759هـ/1358م<sup>(2)</sup>.

دار القرآن السلامية: أوقفها سراج الدين عمر السلامي سنة 761هـ/1360م<sup>(3)</sup>.

المدرسة الحسنية: بباب الأسباط: أوقفها شاهين الحسيني الطواشي.

المدرسة الاسعدية: بالقرب من المدرسة الجاولية شمالي الجرم أوقفها التاجر مجد الدين

عبدالغني الاسعدي سنة 760هـ/1358م<sup>(4)</sup> نسبة إلى بلدة "سعد" التركية

جنوب بحيرة دان شرق الأناضول<sup>(5)</sup>.

المدارس في عهد المنصور صلاح الدين بن سيف حاجي بن الناصر محمد سنة 762-

764هـ/1361-1363م:

-المدرسة الكازية: قرب باب السلسلة من الشمال نسبة للامير كاز<sup>(6)</sup>.

-المدرسة المنجكية: بباب الناظر: أوقفها الأمير منجك نائب الشام<sup>(7)</sup>.

-المدرسة المحدثية: عند قبو باب الغوانمة: سنة 762هـ أوقفها المحدث عز الدين أبو محمد

عبدالعزيز العجمي الأردبيك<sup>(8)</sup>.

---

(1) مجبر الدين الحنبلي: م س ص 282 دفن فيها الزعيم الهندي مولانا محمد علي سنة 1930 وموسى كاظم الحسيني سنة 1933 ونجله الشهيد عبد القادر الحسيني سنة 1940، الدباغ م س ص 275، عارف العارف ن م ص 255.

(2) الحنبلي: ن م ص 287؛

(3) ن م ص 288.

(4) ن م 38 ذكر بأن واقفها الخواجة مجد الدين عبد الغني بن يوسف الاسعدي عام 770هـ/1368م.

(5) عارف العارف، ن م ص 248.

(6) الحنبلي: ن م ص 288.

(7) ن م ص 283.

(8) الحنبلي: م س ص 286.

-المدرسة الباوردية: بباب الناظر قرب المدرسة القشتمرية، أوقفها الست الحاجة سفري خاتون

المعروف والدها بالباوردي سنة 768هـ/1367م<sup>(1)</sup> وهي اليوم دار سكن.

-المدرسة الحنبلية: بباب الحديد، أوقفها الأمير بيدمر نائب الشام سنة 768هـ/1367م<sup>(2)</sup>

ويسكنها اليوم آل القطب<sup>(3)</sup>.

-المدرسة اللؤلؤية: أوقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان<sup>(4)</sup> عام

759هـ/1358م وهي الآن مسكونة<sup>(5)</sup> وكانت خارج الحرم في الجهة

الغربية.

ومن الأبنية التي أقيمت في زمن الأشرف شعبان:-

المنارة: عند باب الأسباط سنة 769هـ/1367م كما جددت الأبواب الخشبية للمسجد الأقصى

والقناطر في صحن الضخرة<sup>(6)</sup>.

ومن الأبنية في عهد السلطان المنصور علي بن شعبان سنة 778-783هـ/1376-1381:-

مدرسة البلدية: شمال باب السكينة قرب باب السلطة، ودفن فيها بانيها الأمير الاحمدي نائب

حلب سنة 782هـ/1380م<sup>(7)</sup>، ولقد حول الملك الناصر حسن قلعة الخليل

الرومية إلى مدرسة مجير الدين الحنبلي سنة 416هـ/1021م.

المدارس في مدينة السلط في العهد المملوكي:-

1-المدرسة السيفية: التي بناها سيف الدين بكتمر الحسامي عام 724هـ/1323م أيام الناصر

محمد بن قلاوون لتدريس المذهب الشافعي<sup>(8)</sup> ومن أساتذتها شهاب الدين بن

(1) مجير الدين الحنبلي، م س، 287.

(2) ن م ص 287.

(3) مجير الدين الحنبلي م س ج 2 ص 44 والمقريري: السلوك ج 3 ص 1 و 224 و عارف العارف م س ص 250.

(4) مجير الدين الحنبلي ن م ص 289.

(5) عارف العارف ن م ص 250.

(6) مجير الدين الحنبلي ن م ص 321.

(7) ن م ص 282.

(8) النويري: نهاية الأرب ج 31، لوحة 91، 92 (مخطوطة) وأبو المحاسن: م س، ج 9 ص 278، 279.

سليمان بن داوود الكوراني الشافعي (784هـ/1382م)، وكان فيها خزانة كبيرة للكتب<sup>(1)</sup>.

كما كان من علماء السلط شمس الدين بن محمد بن ابراهيم راضي المتوفى سنة 784هـ/1382م وكان مدرساً بالمدرسة الشامية وقاضياً في قوص بمصر<sup>(2)</sup>.

وقاضي القضاة بدر الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الهادي الصلتي الشافعي المتوفى عام 786هـ/1384م وتولى قضاء الصلت والقدس والخليل ونابلس وحمص، ومن مؤلفاته "ميدان الفرسان" في ثلاث مجلدات<sup>(3)</sup>.

وعبد المنعم بن احمد بن أبي بكر الصلتي (712-788هـ/1312-1386م) اشتهر بعلم الحديث وقد حدث في بيت المقدس<sup>(4)</sup>.

وبدر الدين محمد بن البرهان الصلتي (706-786هـ/1306-1384) تولى القضاء في نابلس، ثم بعلبك ثم نائباً لقاضي القضاة في دمشق ثم تولى قضاء طرابلس، وكان خطيباً ومدرساً في المدرسة الزنكية والمشخة الاسدية بدمشق كما حدث في نابلس ودمشق وبعلبك وطرابلس وكان يقرض الشعر<sup>(5)</sup>.

ومحمد بن عباس بن محمد بن حسين بن عباس الصلتي (745-807هـ/1344-1405م)، وكان فقيهاً ولي قضاء القدس وغزة معاً، وقضاة الشافعية في دمشق<sup>(6)</sup>.  
والشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن شمس الدين الصلتي الشافعي (776-852هـ/1378-1451م)، كان فقيهاً وعالماً تولى نيابة الحكم في القدس<sup>(7)</sup>.

(1) النعمي: م س ج 1 ص 275، ج 2 ص 104.

(2) ابن حجر العسقلاني: أبناء الغمر بأبناء العمر ج 1 ص 268.

(3) مجير الدين الحنبلي: م س ج 2 ص 270.

(4) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ج 3 ص 29، 30.

(5) ن م ج 1 ص 167، 168.

(6) السخاوي: م س ج 7 ص 277.

(7) مجير الدين: م س ج 2 ص 522.

وقد أسس الفلسطينيون المدارس في دمشق والقاهرة بعد هجرتهم هرباً من الصليبية<sup>(1)</sup> كما ظهر من أهل فلسطين مدرسون كبار ومشايخ لبعض المدارس العالية في القاهرة ودمشق: - ففي القاهرة برز منهم : شيخ الاسلام أحمد بن محمد المشهور بالهائم، كان مدرسا للرياضيات، توفي بالقدس عام 715هـ/1315م وفي دمشق ابوشامة المقدسي، عبد الرحمن إسماعيل، الذي أسس

---

(1) 1- مدرسة الشيخ نصر بن إبراهيم الفقيه النابلسي شمال غرب الجامع الأموي بدمشق: وقد أوقف عليها صلاح الدين الأيوبي عام 572هـ قرية حزم من أعمال حوران، وتعرف أيضا باسم المدرسة الغزالية، النعيمي: م س ج 1 ص 493 ومابعدھا. وابن كثير، ت (774هـ) م س ج 13 ص 353، وكرد علي: م س ج 6 ص 87.

2- دار الحديث الفاضلة في دمشق: بجوار قبر صلاح الدين في الكلاسة، وسميت نسبة إلى مؤسسها القاضي الفاضل المولود في عسقلان قرب غزة (529-596) والذي انتهت اليه صناعة الإنشاء، انظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ج 4 ص 324، والنويري: نهاية الإرب في فنون الأدب ج 8 ص 1 وكان صاحب سر صلاح الدين الأيوبي، وكتب في الإنشاء ما لم يكتبه أحد، وقد درس فيها المؤرخان الذهبي وابن كثير من رجال القرن الثامن الهجري.

دار الحديث والإقراء في دمشق<sup>(1)</sup> وحسن بن علي الطبراني المدرس بمدرسة أبي عمر بدمشق في القرن السادس الهجري<sup>(2)</sup>.

(1)- المدرسة العمرية الشيعية في دمشق: أسسها عام 550هـ/154م الشيخ عمر بن قدامة الجماعيني الحنبلي " ولد بجماعين من أعمال نابلس عام 528هـ/1133م) وسميت نسبة إليه ثم هاجر إلى دمشق بعد استيلاء الفرنجة على فلسطين، وقد اعتنى بهم نور الدين زنكي، وقد شارك مع اخوته في فتح بيت المقدس: المقرئ: الخطط ج6ص99-100 والنعمي: ن م ج2ص104-105 وكانت مختصة بتدريس المذهب الحنفي وابن بطوطة(704-779هـ/1304-1377م): الرحلة ص101.

(2) -دار الحديث لأشرفية بسفح جبل قاسيون: بناها الفلسطيني الجماعيني عبدالله بن عبدالغني الحنبلي: النعمي ن م ج1ص48، المقرئ: الخطط ج6ص73.

-المدرسة الضائية: بسفح جبل قاسيون بناها الفقيه المقدسي محمد بن عبدالواحد السعدي الخبلي "ضياء الدين" ت 643هـ/1245م) وكانت أكبر المدارس بدمشق والصالحية، بناها عام 621هـ/1223 وأوقف عليها كثيراً من كتبه، النعمي ن م ج2ص15، ومن مؤلفات هذا الفقيه المقدسي: - سير المقدسية في عدة مجلدات. -الأحاديث المختارة (90 جزء) -فضائل القرآن -فضائل الشام.

-مناقب أصحاب الحديث. -النهى عن سب الصحابة.

فكان علامة عصره: كرد علي، خطط الشام ج6ص99.

-المدرسة العمادية المقدسية عند كهف جبرائيل بسفح جبل قاسيون: أنشأها أحمد بن عماد الدين المقدسي المتوفي عام 688هـ: كرد علي: ن م ج6ص141.

أما المدارس التي أسسها الفلسطينيون في القاهرة فكانت:

-مدرسة بن الأرسوفي العسقلاني(ت593هـ) التي بناها عام 570هـ/1174م بحي البزازين بالقاهرة، انظر المقرئ: الخطط ج4ص144، وبطرس البستاني: دائرة المعارف، بيروت 1876م ج1ص373. ارسوف: مدينة محصنة في جند فلسطين وهي من المدن الكنعانية العربية القديمة: الدباغ، بلادنا فلسطين ج4ق2ص348.

-المدرسة الفاضلية: بناها القاضي الفاضل بدرب" ملوخيا" بالقاهرة عام 580هـ/1184م وحوت مكتبها حوالي أربعمئة ألف مجلد، وكان من مدرسيها للقرآن الشيخ الشاطبي صاحب حرز الأمان، انظر علي مبارك: الخطط التوفيقية ج1القاهرة 1969م، ج2ص238، وقد بنى هذا الفلسطيني السوق المسقوفة في القاهرة والمسماة القيسارية، والبستان الكبير مع جامع وحمام بجانبه: الدباغ، فلسطينيات ج3ص194، 195، 196.

-المدرسة المجدية الخيلية: في القاهرة بمصر العتيقة " أسسها الشيخ أبو المجد أبو محمد عبد العزيز بن الحسين الخيلي الداري عام 663هـ/1265م وهي مدرسة شافعية، لها مدرسين ومعيدون وعدة موظفين وأوقاف. انظر المقرئ: الخطط، ج4ص250. مصر عام 1326 وسلطين المماليك ج3ص51.

-المدرسة القيسرانية في القاهرة: بناها القاضي شمس الدين محمد إبراهيم المعروف بابن القيسران عام 575هـ/1179م ويصل نسبة إلى أسرة خالد بن الوليد، وقد رحلت أسرته عن قيسارية إلى حلب ودمشق والقاهرة، ومن قبيلته برز وزراء وشعراء وإداريون. أبو المحاسن: م س ج15ص252، المقرئ: الخطط ج4ص240، وعلي مبارك: ن م القاهرة 1305 ج6ص14.

5-المدرسة المسروورية: أسسها مسرور الصفدي في القاهرة وهي الآن زاوية صغيرة، انظر المقرئ: الخطط: القاهرة 1326 ج4ص216، وعلي مبارك، ن م ج6ص15 وتابع الكثيرون من مجبي الخير والإحسان في بناء المدارس أثناء الحروب الصليبية وبعدها.

لذا نستطيع القول أنه كان لعلماء وفقهاء فلسطين اثر كبير في رفع المستوى العلمي بدمشق والقاهرة بواسطة مدارسهم وعلمائهم وفقهائهم، امثال ابن حجر العسقلاني وابو شامة المقدسي<sup>(1)</sup> وهكذا ساهمت الشخصية الفلسطينية من مشاهير علمائها في صياغة وتشكيل حضارتها على مر الأزمان، فكان من الضروري الحفاظ على الإرث الثقافي لفلسطين التي كانت ومازالت هدفاً للطامعين السياسيين وغزاة الحضارة من الصهاينة مما دفعني إلى ذكر اعلام الحضارة الفلسطينية المتفرقة أخبارهم في ثنايا كتب التراجم والأعلام.

وأما النظام المتبع في المدارس: فقد كان لكل مدرسة مدرسيها ومعيديها وإمامها ومؤذنها وخادمها وطلابها الذين يدعون " بالمتفقهة"<sup>(2)</sup> وكان عددهم محدوداً في معظم الأحيان بحسب شروط الواقف، كما ينقسمون إلى أقسام بحسب قدمهم في الدراسة والاختصاص، فمنهم الفقيه المنتهي صاحب البحث والمناظرة على من دونه بما يعادل طالب الدكتوراه الآن<sup>(3)</sup>.

وهكذا نرى ان كثير من دور العلم لا يقل عن الجامعات المعروفة في عصرنا من حيث نظام الدراسة وهيئة التدريس والإجازات العلمية التي تمنحها منذ تدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيهاً منتهياً مختصاً بعلم من العلوم التي يؤثرها، فينال إجازته العلمية ويشهد المدرس له بإتمام الدراسة المقررة وأنه أصبح أهلاً للتدريس والفتوى فيمنحه الإجازة العلمية فيذكر فيها أسم الطالب وشيخه المجيز له ومذهبه وتاريخ الإجازة، كشهادات الجامعة الآن وتميز

(1) علي مبارك: الخطط التوفيقية، القاهرة 1970 ج3 ص123، المقريري: الخطط، القاهرة سنة 1326 هـ ج4 ص216.

(2) السبكي.. معيد النعم ومبيد النقم ص105 قارن بين المدرس والمعيد فقال: "وحق عليه ان يحسن القاء الدروس وتفهيمه للحاضرين، ثم ان كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم مالا يناسبهم من المشكلات، بل يدرسه ويأخذهم بالأهون، إلى ان ينتهوا إلى درجة التحقيق".  
اما المعيد: المعيد عله قدر زائد من سماع الدرس، من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو والفقيه سواء.

(3) ابن جبير م س ص222، وقد وصف لنا طريقة تعليم الصبيان المبتدئين في الجامع الأموي: "وفي هذا الجامع مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة القرآن دائماً ومثله إثر صلاة العصر لقراءة ماتسمي بالكوثرية يقرؤون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة ويحضر هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم، يعيش فيه اكثر من خمسمائة إنسان.. وعند فراغ المجتمع السبكي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلي أمامه صبي يلقيه القرآن، وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة، وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد الشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأسعار وغيرها تربيتها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات.



هذا العصر بنوع من الاجازات العلمية المسماة بـ"الإجازة بعرفة الكتب"<sup>(1)</sup>، وبعد ان أسهنا في هذا العرض المتواضع لدور العلم يبقى حرياً علينا ان نشير إلى النواحي الثقافية العامة في العصر الذي نؤرخ له، من حيث نشاط الحركة الثقافية والنضج الفكري، وكثرة التأليف والتصنيف بحيث يضيق بنا البحث لو حاولنا الإلمام بكل الاتجاهات العامة، لذا سنحاول في هذه الدراسة الإلمام بشتى أنواع الثقافة العامة بذكر أبرز ما ألف في علوم الدين واللغة العربية والعلوم الاجتماعية والتاريخية والعلوم العقلية والعلمية.

وكان من أبرز النواحي العلمية: ظهور التخصص في التأليف عند الكتاب نتيجة لنضج تفكيرهم وتعمقهم في الأبحاث، مما جعل السيوطي يركز على تصنيف العلماء كل بحسب علومه، حيث ذكر فقهاء المذاهب الأربعة، وذكر المحدثين ونقاد الحديث، وأئمة القراءات وأئمة اللغة والنحو والصرف، وأشهر المؤرخين والناهبين من الأدباء والشعراء.

### علوم الدين

لقد نشطت حركة إحياء علوم الدين في الأصول والفروع، لتشجيع السلاطين والأمراء للعلماء والفقهاء، فبرز منهم إمام العصر ابن تيمية وتلاميذه من دعاة الإصلاح، مما كان لهم الأثر الكبير في حركة التأليف التي شملت علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقهاء.

**أولاً: القرآن الكريم :-**

لقد تميز هذا العصر بعدم تقليد المفسرين السابقين تبعاً للمذاهب الدينية والمفسرين<sup>(2)</sup> كما اهتموا بإحياء القراءات السبع للقرآن الكريم<sup>(3)</sup>.

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ج4 ص326-327: وصفها " بحفظ الطالب لكتاب في الفقه أو الحديث أو الأدب أو النحو أو التاريخ، ثم يعرضه على مدرسه فيختبره فيه فإذا أحسن الإجابة ولم يخطئ فيه كتب له الإجازة في ذلك، وقال فيها: " عرض على فلان أو عرض على وكتبه فلان" هذا وتوثقت فيه الإجازة على شهرة الأستاذ المجيز.

(2) كرد علي: م س ج4 ص41 وابن الوردي: م س ج2 ص87 ذكر عز الدين عبدالسلام صاحب تصنيف (التفسير والمجاز في القرآن) ومحمد بن ظفر (المتوفي عام 565هـ) الذي صنف تفسير (ينبوع الحياة) وابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة 83، 461 ذكر سبط بن الجوزي (المتوفي سنة 654هـ) الذي صنف معادن الأبريز في تسعة وعشرين مجلداً) انظر الصابوني: تاريخ خماة ص139 ذكر تقي الدين أحمد بن تيمية المتوفي سنة 728هـ الذي اعتمد في التفسير على حفظه، وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الذي قال عنه السبكي في طبقاته: (حاكم الإقليمين مصر وشاما، وناظم عقد الفخار الذي لايسامى) وسمى كتاب تفسيره (كشف المعاني).

(3) انظر السيوطي: حسن المحاضرة ج1 ص212 وابن تغري بردي: ن م (مخطوطة) ورقة 190،3، وابن تغري: النجوم الزاهرة ج7 ص244 والصفدي : اعيان العصر ق2، ورقة 25464 مخطوطة، وابن الوردي: م س. أشاروا إلى تاريخ القراءات للقرآن الكريم وتطورها حتى جاء القرن السادس الهجري عندما ظهر في الاندلس القاسم بن الشاطبي المقرئ الضريير (المتوفي سنة 590هـ) ونظم في القراءات ورسم المصحف قصيدتين: هما (حرز الاماني) والرائية) وقد حضر إلى مصر للدراسة واصبح رئيس الإقراء فيها، ثم تناول علماء الشام ومصر في القصيدتين الشاطبيتين بالتقليد والشرح، منهم شهاب الدين أبو شامة المقدسي (المتوفي سنة 655هـ) وغيرهم.

وقد برز من علماء الأردن في القراءات الذين درسوا في مدارس القاهرة وكانت لهم مصنفات أمثال علي بن يوسف بن حريز بن فضل البلقاوي<sup>(1)</sup>، وإبراهيم بن موسى بن بلال الكركي<sup>(2)</sup>، وعبد الرحمن بن محمد بن مجد الكركي<sup>(3)</sup>، وعبد الحمن بن أبي بكر بن أبي العباس الكركي<sup>(4)</sup>، وعلي بن يوسف بن حريز اللخمي "الشطنوفى" الشافعي البلقاوي ت713هـ إمام القراء والنحويين<sup>(5)</sup>.

## ثانياً: التصييف الشريف:-

لقد زاد اهتمام نور الدين وصلاح الدين بعلم الحديث لسماعهم له<sup>(6)</sup> فأنشأ نور الدين دوراً للحديث في بلاد الشام ومصر، وكذلك كان صلاح الدين الأيوبي يسمع ويتلو الحديث بنفسه طيلة حياته الحافلة بالجهاد<sup>(7)</sup>. وهكذا أكثر المحدثون في هذا العصر، حتى أننا نستطيع اعتباره، عصر الحديث النبوي الذهبي في بلاد الشام وغيرها اعتباراً من القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي<sup>(8)</sup>، كما تميز هذا العصر بكثرة النساء المحدثات<sup>(9)</sup>.

(1) ابن حجر، م س ج3 ص216 وصفه بإمام الشعراء والنحويين من كتبه "البهجة" في ثلاث مجلدات ودرس في الجامع الطولوني بالقاهرة.

(2) السخاوي، م س ج1 ص175، وصفه بعالم القراءات السبع والفقه واللغة العربية ومن مصنفاته "الإسعاف إلى معرفة القطع والاستئناف"، "تكت على الشاطبية" عمدة المحصل التمام في مذاهب السبعة الأعلام "درة المجيد في أحكام القرآن والتجويد" وكان مدرساً للقراءات في المدرسة الظاهرة بالقاهرة.

(3) ن م، ج4 ص124، وصفه السخاوي بالشيخ الصالح المقرئ المتقن المجود الحافظ، عمل رئيساً في الجامع الطولوني بالقاهرة.

(4) ابن حجر، الدرر، ج2 ص434، جلس للقراءات في الكرك وقصده طلاب دمشق وغيرهم.

(5) تصدر القراءة بالجامع الأزهر، جمع مناقب الشيخ عبد القادر الجبلي في كتابه "البهجة" في ثلاث مجلدات، انظر ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ج1 ص585، وابن حجر ن م ج3 ص216.

(6) أبو شامة: م س، ج1، ص12،6: حيث ذكر عن نور الدين بأنه حدث وروى وأجازته العلماء وذلك على الرغم من انشغاله بالحروب، ابن واصل: م س ج1 ص181،182، وأبو شامة: ن م ج1 ص11، يذكر اهتمامه برواية أحاديث الجهاد والاستعداد للحرب.

(7) ابن شداد: النواد السلطانية ص18،8، وابن واصل ن م ج2 ص112 وذكر قاضيه ابن شداد في ص10 أنه ليلة فتح صفد سنة 585هـ روى صلاح الدين له الحديث المشهور: "عينان لاتمسهما النار، عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله" فدمعت عيناه وبكى من خشية الله.

(8) أبو شامة: ن م ج1 ص10، وابن خلكان: م س ج2 ص235: أشار إلى محدث الشام ومؤرخها: الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة 571هـ) الذي كان من أعيان الشافعية، وشيخ أئمة الحديث زمن نور الدين وصلاح الدين، وانظر: ابن خلكان: ن م ج1 ص235، 312، 313، وابن الوردي: م س ج2 ص176، 175، 78، حيث ورد ذكر المحدث تقي الدين عثمان بن الصلاح الابن الذي كان زمن عماد الدين ودرس في المدرسة الناصرية بالقدس ثم بني له الملك الأشرف دار الحديث الأشرفية بدمشق ودرس فيها وكان من مصنفاته "مناسك الحج" و"اشكالات".

(9) الصفدي: أعيان العصر، ق1، ورقة 3، 227، ورقة 98، 79 مخطوط، ذكر أشهر أسماء المحدثات، يهنا ذكر اسم عائشة بنت عيسى الموفق القدسي (المتوفاه سنة 697هـ)، ومنهن أيضاً بنات السلاطين مثل خاتون بنت يونس بن محمد العادل (المتوفاه سنة 697هـ).

كما تميزت الكرك بعلم الحديث بعد إقامة عدد كبير من علماء الحديث فيها أمثال أحمد بن كمال الدين بن العطار<sup>(1)</sup>. وعبد الرحمن بن أبي بكر بن مالك الكركي<sup>(2)</sup> ودانيال بن منكلي الكركي ت 696هـ/ 1992<sup>(3)</sup> وعلاء الدين علي بن بلبان أبو القاسم الكركي 648هـ/ 1286 وتلميذه دانيال<sup>(4)</sup>.

كما وضع علماء الحديث مصنفات أمثال إسماعيل بن خليفة بن عبد العال الحسباني (ت 778هـ 1376) الذي صنف "شرح المنهاج في عشرة مجلدات"<sup>(5)</sup> وأخذ علماء الحديث في الأردن عن كثير من رواة الحديث المشهورين<sup>(6)</sup>، وعبد المنعم بن أحمد بن محمد الصلتي (ت 712هـ)<sup>(7)</sup>.

### ثالثاً: الفقه الإسلامي:-

لقد اسهم علماء هذا العصر بنصيب وافر من التأليف الديني في فقه المذاهب الأربعة من حيث دراسة مختلف الأمور التي عرفت م قبل، وقاسوا عليها أموراً كثيرة كما شرحوا الأصول والمتون القديمة وفروعها وعلّقوا على المسائل الشرعية وفقاً للمذهب والظروف الطارئة، وقد كان للجامعات الدينية الأثر الكبير في هذا الفن من التأليف حيث كان أسلوب البحث فيها على ثلاث درجات: أولها بحث واسع، وثانيهما بحث متوسط وثالثهما بحث موجز<sup>(8)</sup>.

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 8 ص 167.

(2) ابن الحزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد: غاية النهاية في طبقات القراء، مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1932م، ج 1، ص 366.

(3) ن م ج 1 ص 278، وابن حجر م س ج 2 ص 268، وابن طولون م س ق 11 ص 43، 44.

(4) اليونيني: م س ج 4 ص 269، وابن العماد الحنبلي م س ج 5 ص 388، 435.

(5) ابن حجر: ن م ج 1 ص 391، ذكر احتراق هذا الكتاب عند غزوة تيمور لنك لدمشق.

(6) كالذهبي، وابن رافع، وسنجر الجاولي، والسخاوي، وغيرهم.. السخاوي: الضوء اللامع ج 1 ص 237.

(7) تعلم في القدس ودمشق وحدث عنه أبو حامد بن ظهيرة والبرهان الحلبي وتوفي عام 788هـ، انظر ابن حجر ن م ج 2 ص 82، وابن قاضي شبيبة: م س ج 2 ورقة 15 (مخطوط)، وابن العماد الحنبلي: ن م ج 7 ص 15.

(8) ابن الوردي: م س ج 2 ص 284، 289، وابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة 1 والنجوم الزاهرة ج 6 ص 79، والسبكي: طبقات الشافعية ج 4 ص 54، 283، وكرد علي: م س ج 4 ص 54. ولانستطيع الإحاطة بأسماء جميع الفقهاء وأبحاثهم لأن هذا ليس مجال بحثنا. وإنما نذكر أشهر العلماء الفقهاء: أمثال عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء الذي كان في صراع دائم مع السلاطين والأمراء في مصر والشام والذي كان من مؤلفاته: "قواعد الإسلام" والقواعد الصغرى والأمانى والفتاوى الموصلية، وكذلك تقي الدين أحمد بن تيمية الحنبلي المصلح القائد الذي سجن نتيجة لمجاهاة جمود علماء الدين ومجادلتهم مثل: تكفير من يحلف بالطلاق ومسألة شد الرحال إلى قبور الانبياء والصالحين وكان عددا تصانيفه في الفقه خمس مائة مجلد حيث كان يذكر أقوال المذاهب الأربعة في كل مسألة وكان يخالفها ويحتج لها بالكتاب والسنة ونذكر من أشهر مصنفاته: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، (والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، (والفتاوى الموصلية)، وغيرها كثير.

وقد برز من علماء الفقه في شرقي الأردن في العصر المملوكي محمد بن عبد الله الهكاري الصلتي<sup>(1)</sup>، وإبراهيم بن محمد بن زياد العجلوني<sup>(2)</sup>، ومحمد بن أحمد بن موسى العجلوني<sup>(3)</sup>، وعبد الله بن خليل بن زياد الرمثاوي<sup>(4)</sup>، ومحمد بن إبراهيم بن راضي الصلتي الشافعي ت (784هـ/1382م)، أخذ العلم عن فقهاء دمشق ودرس بالمدرسة الشامية، رحل لمصر عام 770هـ وتولى قضاء<sup>(5)</sup> قوص وإسماعيل بن أبي بكر بن شجاع الصلتي ت (794هـ/1392م)<sup>(6)</sup>. ومحمد بن عباس بن محمد الصلتي<sup>(7)</sup> ت (807هـ)، وعبد الرحمن بن سعادة الحسباني<sup>(8)</sup>، وإسماعيل بن خليفة الحسباني ت (778هـ)<sup>(9)</sup>، وحجي بن موسى بن أحمد الحسباني ت (782هـ/1800م)<sup>(10)</sup>، وداوود بن سعيد بن فريد الحسباني ت (800هـ)<sup>(11)</sup>.

(1) الذي وضع عدة مصنفات فقهية أهمها مختصر لكتاب "ميدان الفرسان" في 3 مجلدات مجير الدين الحنبلي م س ج 2 ص 470 وابن قاضي شعبة تاريخه/ج 3 ص 48، وابن عماد الحنبلي م س ج 6 ص 293، وقد تولى قضاء نابلس والقدس والخليل.

(2) من مصنفاته "شرح على المزاج" ودرس في المدرسة الركنية في دمشق، السخاوي، م س ج 1 ص 157.

(3) من مصنفاته: "التلويح إلى معرفة الجامع الصحيح" في خمسة مجلدات وكتاب "الأحكام في أحكام المختار" ونكت التنبيه في خمسة مجلدات السخاوي ن م ج 7 ص 111.

(4) من مصنفاته: "منار سبل الهدى وعقيدة أهل التقى" و"الذكر المطلق" السخاوي ن م ج 5 ص 18.

(5) ابن حجر، أنباء الغمر، ج 1 ص 68، وابن قاضي شعبة: م س، ورقة 280 (مخطوط) بدار الكتب المصرية تاريخه/تحقيق عدنان درويش دمشق 1977 ص 155.

(6) ابن قاضي شعبة: ن م ج 3 ورقة 83 (مخطوط).

(7) المقرئ: السلوك ج 2 ص 168، السخاوي، ن م ج 7 ص 277 وابن طولون معنا في دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الشرقي، دمشق، 1956م، ص 128.

(8) السخاوي: م س ج 6 ص 180.

(9) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، 3 أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية ج 3 ورقة 42.

(10) ابن قاضي شعبة: ن م ج 3 ورقة 43، 44، أبو المحاسن، م س ج 1 ص 268 وابن عماد الحنبلي م س ج 6 ص 274.

(11) ابن قاضي شعبة: ن م ج 3 ص 675.

## علوم اللغة العربية

لقد زاد اهتمام علماء هذا العصر باللغة العربية لدراسة علوم القرآن الكريم، كما نشط التأليف في اللغة<sup>(1)</sup> والصرف والبلاغة والعروض.

### علوم النحو والصرف:-

لقد ازدهر علم النحو والصرف في بلاد الشام في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي لأهميتها في علوم القرآن والحديث واللغة<sup>(2)</sup> وفي بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي<sup>(3)</sup> توضحت معالم المذهب الشامي على يدي النحوي الكبير/جمال الدين الطائي في عهد الظاهر بيبرس والذي أشير إليه بأنه كان أمة وحده في علوم اللغة العربية<sup>(4)</sup>، مما ساهم في تخرج جماعة من أعلام النحاة في بلاد الشام من مدرسته<sup>(5)</sup>، وشهدت إمارة الكرك الأردنية

(1) ظهرت المعاجم اللغوية: مثل معجم البلدان: لياقوت الحموي الذي انتهى من مسودته سنة 621هـ وشرع في تبليغه سنة 625هـ وقدمه للوزير القاضي جمال الدين علي الشيباني والذي رتبته على الحروف الأبجدية. كما ظهرت تصانيف لغوية مثل كتاب {المثلث في اللغة} و{إكمال الإعلام بمثلث الكلام} و{والنظم الأوجز بمايهمز} و {الاعتقاد في الفاء والضاد} وكلها لابن مالك إمام اللغة العربية في عصره، انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ورقة 3، 190، 191 مخطوط وابن شاکر: فوات الوفيات ج2 ص214، وابن الوردی: س ج2 ص222.

(2) ابن الوردی: ن م ج2 ص82، من أشهر علماء النحو والصرف: ابو نزار حسن بن نزار المتوفي سنة 568هـ.

(3) تشجيع الملك الناصر داوود للنحو والأدب في الكرك إذ نظم اللغوي جمال الدين ابو عمر بن الحاجب، مقدمته الكافية في النحو وقدمها للناصر داوود، ابن واصل م س، ج4، ص330، واستقر عنده في الكرك وسبط ابن الجوزي م س، ج8، ص472.

(4) ابن جبیر: م س ص235، وابن شاکر: م س ج2 ص284 وابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة 3، 190، 191، مخطوط وأشاروا إليه بأنه صاحب مدرسة نحوية جديدة مجدداً لا مقيداً ومستشهداً بالقرآن الكريم والحديث وشعر العرب، توفي سنة 672هـ.

(5) ابن الوردی: ن م ج2 ص222، من تلاميذه ابنه بدر الدين محمد، وابن العطار والشيخ أبو الحسن اليونيني وغيرهم، وكان من أشهر تصانيفه {تسهيل الفوائد} الذي يحتوي على قواعد نحوية مفيدة وأرجوزته الكبرى {الكافية الشامية} وأرجوزته الصغرى {الخلاصة الألفية} والذي جمع فيها قواعد اللغة العربية بكاملها، انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج3، ورقة 191 مخطوط، وابن خلدون: المقدمة ص547، وابن الوردی: ن م ج2 ص222.

ومنهم أيضاً: علم الدين بن علي السخاوي المتوفي سنة 643هـ الذي ألف {المفصل في الشرح المفصل} و {سفر العادة وسفير الإفادة}، وقد ذكر ابن الوردی أنه رآه بدمشق، ابن الوردی: ن م ج2 ص176، ومنهم الملك المؤيد أبو الفداء صاحب كتاب {الكناس} موسوعة كبرى في قواعد النحو والصرف والمنطق، الصابوني: تاريخ حماة ص126، وأبو شامة المقدسي الذي وضع {المقدمة في النحو}.

انتعاش الحركة العلمية في العصر المملوكي بعد أن أصبحت إحدى المراكز الثقافية الهامة في بلاد الشام.

### البلاغة والعروض:-

لقد استقل هذا العلم في هذا العصر فظهر علماء البلاغة ن أمثال بد الدين بن مالك (المتوفى سنة 686هـ/1287م) صاحب كتاب (المصباح) في البلاغة، وجمال الدين القزويني (المتوفى سنة 739هـ/1338م) صاحب كتاب (الإيضاح) ونظم الشعراء البديعيات<sup>(1)</sup>، كما درس علماء العربية علم العروض وصنفوه<sup>(2)</sup>.

### العلوم التاريخية والاجتماعية

لقد كان للتطورات السياسية، والأحداث الحربية المتتابة أثرها الفعال في تنشيط العلوم التاريخية والاجتماعية، فأبدع المؤرخون في الروايات المؤتقة التي شهدها الرواي نفسه، أو رواها عن طريق رجال صدق وعدل، إن لم يتمكن من رؤية الحادثة بنفسه، كالمؤرخ المشهور بهاء الدين يوسف بن شداد<sup>(3)</sup> مؤرخ حياة صلاح الدين الأيوبي، وأبو شامة المقدسي (ت665هـ/1267م) مدرس التاريخ في الجامع الأموي بدمشق<sup>(4)</sup>.

ذلك هو أسلوب البحث التاريخي إذ أصبح علم التاريخ أحد العلوم الرئيسية التي لابد لكل متقف من الإطلاع عليها لعلاقته بالدراسات الإسلامية وثقافة العصر العامة حينما أصبح الناس يستمعون في الحقات المعقودة داخل المساجد إلى أحداث الماضي البعيد والقريب والأحداث المعاصرة. وقد تفرع البحث التاريخي في ثلاثة مجالات هي التاريخ العام<sup>(5)</sup>.

(1) البديعيات: قصائد نبوية، بحرها البسيط ورويها الميم الذي اختاروه اقتداءً بالبوصيري في برده المشهورة د/ عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص156.

(2) ن م ص157: أمثال بن مالك في كتابه (العروض) وهبة الله البارزي، وجمال الدين بن واصل.

(3) ان شداد النوادر السلطانية ص71.

(4) أبو شامة: الروضتين ج1 ص5: حاول أبو شامة تبسيط بعض الكتب التاريخية الطويلة المسجعة، حيث حذف منها بعض الأسجاع لكي يفهم الكلام الخاص العام وكان مؤرخاً ومحدثاً ونحوياً وفقياً.

(5) تميز مؤرخو هذا العصر بتاريخ الأحداث بحسب توالي السنين كالطبري (ت310هـ)، أمثال بن الأثير في تصنيفه "الكامل في التاريخ" وابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول)، وسبط بن الجوزي (ت654هـ) صاحب مرآة الزمان، وصاحب حماة: الملك المنصور في كتابه: "المضمار في التاريخ" وصاحبها الملك المؤيد أبو الفداء صاحب "المختصر في أخبار البشر"، وقاضي قضائتها شهاب الدين بن أبي الدم (ت سنة 642هـ) والذي صنف للملك المظفر " التاريخ الكبير المظفر " في تاريخ الملة الإسلامية ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة 462،3.

والتاريخ الخاص<sup>(1)</sup> والتراجم والطبقات<sup>(2)</sup>.

أما بالنسبة لعلم الجغرافية والفلك:-

لقد كثرت في هذا العصر المصنفات في تقويم البلدان والأقاليم<sup>(3)</sup>.

(1) لقد تميز مؤرخوه بالتحدث عن تاريخ دولة عاصرها أو أدرك بعض أيامها أو شهد زوالها، ومنهم من تحدث عن تاريخ مدينة أو إمارة أو نيابة أمثال: أحمد بن الأزرق الفارقي (م سنة 660هـ) في كتابه (تاريخ الفارقي) ويضم تاريخ فارقين، وكمال الدين بن العديم: "تاريخ حلب" وابن الأثير: "الدولة الأتابكية الزنكية" تعرض فيه كثير من أخبار صلاح الدين. والعماد الكاتب (ت 597هـ) الذي ألف كتابين مسجوعين: أحدهما: الفتح القسي في الفتح القدسي عن حروب صلاح الدين من سنة ثلاث وثمانين وخمسة مائة، والثاني "البرق الشامي" منذ دخوله دمشق: وأبو شامة: الروضتين ج 1 ص 4، 5 وبهاء الدين يوسف بن شداد (ت 632هـ): صنف سيرتمولاه صلاح الدين الأيوبي في كتابه: "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" كما صنف أبو شامة المقدسي: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الذي اعتمد فيه على من سبقه من المؤرخين كالحافظ أبي القاسم علي وابن الأثير وابن شداد والعماد الكاتب ووضع ذيلًا لتاريخ دمشق واختصره مرتين، انظر أنظر أبو شامة: ن م ج 1 ص 4-5، وابن تغري البردي: المنهل الصافي ورقة 2 و 587 مخطوط، وقاضي حماة جمال الدين ابن واصل (ت 697هـ) حيث عاصر الظاهر بيبرس وسقوط الدولة الأيوبية وصنف كتابه المشهور (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)، انظر ابن تغري م س ورقة 2-3، 158، 578 مخطوط، وصنف "التاريخ الكبير" منذ عهد الرسول (الى السنة التي توفي فيها الصالح نجم الدين أيوب).

(2) لقد اهتم هذا النوع بتراجم العلماء والأدباء ورجال السياسة والقضاء أمثال: أبو القاسم علي بن عساكر (ت 571هـ) صاحب كتاب "تاريخ دمشق" صنفه حسب الحروف الأبجدية وابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب (ت 668هـ) في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء وابن الفظي (ت 681هـ) في كتابه تاريخ الحكماء وابن خلكان (ت 681هـ) في كتابه "وفيات الأعيان" مرتبًا على الحروف الأبجدية. وقد بذل أقصى جهوده لتحقيق وفاه من يترجم له. والمؤرخ صلاح الدين الصفدي (ت 764هـ) الذي كان مؤرخ وأديبًا وشاعرًا.

(3) أمثال: أبو الفداء ملك حماة: صاحب كتاب "تقويم البلدان" وهو كتاب جغرافية عامة من حيث وصف الأرض وماعليها، وصنف الأقاليم وذكر خطوط الطول والعرض. وياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان" الذي تحدث فيه عن صفة الأرض والجبال والبحار والأقاليم السبعة، والبروج الإثني عشرية ممارب الجغرافيا بالفلك. وظهر من الفلكيين أبو الفضل بن ياسين الحلبي (ت 604هـ) كما بنى الملك الأيوبي المظفر تقي الدين محمود في حماة أبراجا فلكية وطواحين مائية مازالت حتى اليوم، ورسم خارطة كبيرة على كرة خشبية عين عليها جمع الكواكب المرصودة وذلك بواسطة المهندس الرياضي علم الدين قيصر (المتوفي 642هـ) ومساعدة ابن واصل المار ذكره. انظر: ابن الوردي: م س ج 2 ص 174، ومنهم عبد الله الفلسطيني المتوفي سنة 620هـ. ومن علماء الفلك والرياضيات المهندس مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم الحارثي، انظر: ابن أبي أصيبعة، م س ص 669-670.

## وأما العلوم العقلية

قعد كثير من العلماء عن الاشتغال بالفلسفة التي تبحث فيما وراء الطبيعة فلم تزدهر زمن صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري لمعارضة السلاطين لها نتيجة مقاومة رجال الدين وإفتائهم بقتل الفلاسفة باعتبارهم زنادقة منحلين، لذا اختفوا عن العوام خشية على حياتهم<sup>(1)</sup>، ولكنها نشطت أحيانا عندما لقيت التشجيع من السلطان الأيوبي الناصر داود لميله لها وعطفه على الفلاسفة<sup>(2)</sup> تقليدا لأبيه المعظم عيسى الذي صنف في العروض إذ ألف: شرح الجامع الكبير "و" السهم المصيب في الرد على الخطيب"<sup>(3)</sup>، كما أهتم البعض بالمنطق والجدل في عصر المماليك لحاجتهم إليها في المناقشات الدينية والمناظرات العلمية وفي البراهيم والقواعد النحوية لحاجة طالب المعرفة إليها.

لذا امتد النشاط العلمي في شرقي الأردن خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وخاصة بعد تأسيس الملك الناصر داوود لأمانة الكرك عام 626هـ/ 1228م لمشاركته في النشاط العلمي ومجالسه العلماء والفقهاء ومناظرته لهم<sup>(4)</sup>. وهكذا أصبحت الكرك إحدى المراكز العلمية في الشام واختصت بالدراسات الفلسفية والعقلية والطبية<sup>(5)</sup>.

(1) كرد علي: م س ج 4 ص 40، 47 وكان صلاح الدين يكرهها، أحمد بدوي، م س، ص 28.

(2) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ورقة 2، 3، 158، 34، مخطوط، حيث ذكر ظهور الفيلسوف: الحسن بن نجا الأربلي الرافضي (ت 660هـ) والذي جهر بترك الصلاة، وتفضيل علي بن ابي طالب على أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان، ابن وأصل الذي درس المنطق في حلقة، وصنف (هداية الألباب في المنطق)، و(الأبواب في المنطق) التي صنفها عن إمبراطور الصقليتين عندما أرسله الطاهر بيبس سفيراً هناك.

(3) إن قطلوبغا زين الدين قاسم: تاج التراجم في طبقات الحنفية، مطبعة العاني م بغداد، 1962 ص 49، 110، وقد جعل لمن يحفظ "الجامع" مائتي دينار ولمن يحفظ "العضد" مائة دينار ولمن يحفظ: "الإيضاح" ثلاثون ديناراً.

(4) اليونيني: م س، ج 1 ص 128، 137، وذكر في ص 145: أنه أجاز الشاعر شرف الدين الحلبي أربعين ألف درهم على قصيدة مدحه فيها، وعلى أخرى مدحه فيها وهو في نابلس بألف درهم وانظر ابن كثير م س ج 13 ص 124-148. والنعمي: م س ج 1 ص 993.

(5) لقد اهتم بهذه العلوم الملك المعظم عيسى وابنه الناصر داوود الذي نقلها إلى الكرك بعد أن منعها الملك الأشرف في دمشق وخاصة العالم الحكيم عبد الحميد بن يونس الخسر وشاهي مؤسس الدراسات الطبية في الكرك، وابن ابي اصيبعة م س ج 2 ص 174، واستمع إلى قراءة كتاب "عيون الحكمة" لابن سينا، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج 8 ص 527، والسبكي، طبقات الشافعية ج 5 ص 60، ابن كثير م س ج 13 ص 185.



## العلوم العملية

لقد لقي رواجاً كبيراً لحاجة المجتمع إليها بما لها من علاقة بحياة الإنسان، كالب أو بأساليب الحرب كالهندسة في القرن السادس والسابع الهجريين، فظهرت مدارس طبية بجانب البيمارستانات العامة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي<sup>(1)</sup> ومدارس هندسية<sup>(2)</sup> ومن علماء الرياضيات والإسطرلاب/ إبراهيم بن أبيك الصفدي (ت742هـ/1340م)<sup>(3)</sup>، وابن مظفر بن مزهر النابلسي (ت703هـ/1303م)<sup>(4)</sup>، كان كاتباً بديوان دمشق وخبيراً بصناعة الحساب، كما اشتهر العالم الكركي يوسف بن سليمان بالكيمياء أيام الناصر محمد بن قلاوون<sup>(5)</sup>.

(1) أمثال الطبيب: ابن النقاش (ت 545هـ) وتلميذه أبا زكريا يحيى البياسي من أطباء صلاح الدين، كما ظهر في القرن السابع نجم الدين بن يحيى اللبودي (ت 621هـ) صاحب المدرسة الطبية ودار الهندسة واتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب، انظر: ابن أبي أصيبعة: م س ج 2 ص 185 ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري (ت 624هـ)، وابن الطيار (ت 646هـ) اتصل بالملك الكامل وابنه الملك الصالح، وابن أبي أصيبعة (ت 661هـ) صاحب كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ويعقوب الحكيم (ت 685هـ) من نصارى الكرك صاحب كتاب "الشافى في الطب" في أربع مجلدات وكتابه "العمدة في صناعة الجراح" شمل على علم الجراحة" انظر ابن تغري م س ورقة 427، 3 مخطوط، كما اشتهروا في علم العقاقير، انظر: ابن واصل: م س ج 2 ص 316.

(2) ومنهم اللبودي وإبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرية بدمشق ولا يزال اسمه منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل، وأبو الفضل الحارثي (ت 599هـ) الذي أصلح الساعة بجامع دمشق وهندس أبواب البيارستان النوري، د/ عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام، عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص 170 ومنهم المهندس أبو بكر المقدسي: (سعيد بن عبدالله (ت 532هـ) ومحمد الصفدي زمن المماليك، انظر: الجامعة العربية، منشورات الجامعة العربية، القاهرة 1958 ص 96 وقد سمي المهندس المعماري في عصر المماليك بلقب "المعلم" وكبير المهندسين "معلم المعلمين" ومنهم المهندس الفلكي محمد بن نصر المخزومي المولود في عكا.

(3) ابن الكتيبي: الوافي بالوفيات ج 5 ص 133.

(4) ابن حجر: م س ج 1 ص 318 وابن الكتيبي ن م ج 8 ص 182.

(5) النويري: م س ج 13 ورقة 105، 106 (محفوظ)، وابن حجر ن م ج 5 ص 231.

## الإنتاج العلمي في جنوب بلاد الشام زمن الأيوبيين

فقد ورث الأيوبيون خلال ثمانين عاما من الحكم ما بين (567-648هـ/1171-1250م) تراث الخلافة الفاطمية في مصر، وأضافوا إليه تراث الخلافة العباسية في بغداد، فأخرجوا مزيجا حضاريا ناضجا في بلاد الشام ومصر والعراق. وكان سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر إحياءً للدعوة السنية، وتقريبا لأوجه الخلافات الكلامية والسياسية بين الفرق الإسلامية وحربا على الفرق الشيعية المتمثلة في الدعوة الفاطمية بمصر والنزارية بإيران وقية الفرق في اليمن والشام، ومما يلفت النظر التطور العلمي والإنتاج الفكري في بلاد الشام في الوقت الذي شهدته بلاد الشام من صراع وحوادث سياسية متشابكة، كما مر معنا.

كما تجدر الإشارة إلى عدم إمكانية تتبع الحركة العلمية في بلاد الشام بفصل شماله عن جنوبه وذلك لما شهدته بلاد الشام من مئات المدارس في الشمال والجنوب والغرب والشرق، وتتبع هذا التطور يحتاج إلى مجلدات كثيرة لذا اقتصرنا البحث على ذكر أهم السمات العامة للحركة العلمية والتاريخ لها ولأهم مظاهرها زمن الأيوبيين الذين كان لملوكهم الدور الأكبر في ازدهار الجانب الحضاري ولأسيما الحياة العلمية لتشجيعهم العلماء وطلاب العلم، وتأسيسهم المدارس والمكتبات وأوقفوا لها أوقافا وميزانية خاصة.

فبدأها الملك الأفضل بن صلاح الدين حاكم دمشق الذي ذاق حلاوة العلم في صباه مما دفعه لاحترام العلماء وتقريبهم<sup>(1)</sup> وتأسيسه مدرسة الأفضلية بالقدس المختصة بتدريسها المذهب المالكي وأوقف عليها حتى استمرت طوال العصريين الأيوبي والمملوكي<sup>(2)</sup> والمعظم عيسى بن العادل ملك دمشق "عالم بني أيوب بلا مدافعه"<sup>(3)</sup> الذي أسهم في ازدهار الحياة العلمية عن طريق إنشاء المدارس، نذكر منها في القدس مدرسة الحنفية عند باب المسجد الأقصى، ومدرسة أخرى على باب آخر صحن الصخرة من جهة القبلة وهي المدرسة النحوية والعظمية لتدريس

(1) ابن واصل م س، ج3 ص37-38، دائرة المعارف الإسلامية ج1 ص433.

(2) مجير الدين الحنبلي: م س ج2 ص46، محمد كرد علي: م س خطط الشام ج6 ص122، وعبد الجليل

حسن: المدارس في بيت المقدس في العصريين الأيوبي والمملوكي ج1 ص336-339.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج6 ص268.

علوم العربية وأوقف عليها<sup>(1)</sup> ثم الناصر داوود بن المعظم عيسى صاحب الكرك العالم الذي كان شفوياً بالمناظرات العلمية في مجلسه بالكرك عام 62هـ/1232م، وكان يناقش فيه علماء الشافعية لأنه ينتمي إلى المذهب الحنفي كوالده<sup>(2)</sup> كما كان شاعراً<sup>(3)</sup>.

ولن يسعنا البحث لدور جميع ملوك بني أيوب وجميع العلماء بل اقتصر ذكر بعض العلماء في جنوب الشام موضوع البحث الذين كان لهم دور بارز في تطور الحياة العلمية وازدهارها.

ومن أشهرهم: القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد الموصلية والذي أسند إليه صلاح الدين الأيوبي قضاء بيت المقدس وظل ملازماً له حتى وفاته عام 589هـ/1193م<sup>(4)</sup> كما استمر دوره العلمي في عهد أبناء صلاح الدين الأفضل والظاهر.

أما أشهر العلماء الذين برزوا في ميدان العلوم الشرعية ابن قدامه المقدسي الملقب بموفق الدين المولود بجماعيل سنة 541هـ/1146م<sup>(5)</sup> والذي تعمق في علوم الفقه حتى بلغ درجة الاجتهاد في زمنه<sup>(6)</sup>، وذكر أبو شامة أنه درس على يديه مسند الإمام الشافعي<sup>(7)</sup> وألف عدداً كثيراً من الكتب واستمر نهر العلم دافقاً زمن المماليك بزيادة عدد المدارس منذ عصر الظاهر بيبرس، إذ تميز عصر المماليك بظهور مدارس الطب في بلاد الشام لأول مرة إذ أكثر السلاطين من بناء البيمارستانات كمشافي عامة.

(1) مجير الدين العليمي: م س، ج 1 ص 403، العمري: مسالك الابصار ج 1 ص 403، العمري: ن م، ج 1، ص 359، عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس ج 1 ص 351.

(2) ابن الفرات: م س، ج 6 ورقة 202 مخطوط، ابن واصل: م س، ج 5 ص 14.

(3) يعتبره ابن واصل في المرتبة الثانية بعد الملك الأمجد في ترتيبه لشعراء بني أيوب، ابن واصل مفرج الكروب ج 5 ص 285-286 ولقراءة نماذج من أشعاره ارجع إلى ابن واصل: ن م ج 5 ص 102-106، 318، 321، 355، 357، 364-368.

(4) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج 7 ص 87-88، السيكي: طبقات الشافعية ج 8 ص 360، وابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" وهو المعروف بسيرة صلاح الدين: "مقدمة المحقق ص 3-4.

(5) جماعيل : قرية على جبل نابلس بفلسطين "جماعين اليوم".

(6) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 5 ص 88.

(7) أبو شامة ذيل الروضتين ورقة 139-140 (مخطوط).

## المكتبات

بالنسبة للمكتبات في العصر الأيوبي فقد حمل صلاح الدين الأيوبي إلى قبة الصخرة وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات توّصع بين أيدي الزائرين على كراسي مرفوعة<sup>(1)</sup> وسار على نهجه أبناء البيت الأيوبي كالمعظم عيسى الذي أنشأ الزاوية الناصرية المملوّة بالكتب النفيسة<sup>(2)</sup> في العصر الأيوبي فكانت مكتبة القاضي الفاضل في القلعة عام 626هـ/1228م وضمت ثمانية وستون ألف مجلد وقد أعنتي بها أيضاً ابنه الأشرف أحمد<sup>(3)</sup>.

وقد لعبت المكتبات دوراً هاماً في الحياة العلمية في العصر المملوكي مما ساعد على نشر الثقافة وزيادة فرص التعليم آنذاك وخاصة مكتبة المسجد الأقصى أهم مكتبات بيت المقدس والتي زوّدها أيضاً بنفائس الكتب<sup>(4)</sup> بالإضافة لهدايا ملوك المغرب العربي من الكتب<sup>(5)</sup> وقد شمل هذا الاهتمام جميع مكتبات مدارس بيت المقدس في ذلك العصر ومكتبات الزوايا في القدس<sup>(6)</sup>، هذا بالإضافة إلى انتشار أسواق الكتب وتجارتها وذلك لرغبة السلاطين في العلم وأهله بالإضافة لارتباطها بسياسة الممالك في الحكم، ونتيجة للثراء الاقتصادي الذي مكن الدولة من اقتناء الكتب الثمينة والنادرة وأوقفوها على الزوايا والمساجد والمدارس لينتفع بها العلماء وطلابهم<sup>(7)</sup> في دراستهم وأبحاثهم<sup>(8)</sup> وقد أشرف على خزانة الكتب "خازن الكتب" أو شاهد خزانة الكتب

(1) العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص 66، والسيوطي: إنخاف الأخصا بفضائل المسج الأقصى ورقة 94 (مخطوط بدار الكتب المصرية) حيث أحضر نسخ القرآن الكريم من مكتبة دمشق ولا تزال حتى الآن، العابدي: قدسنا، ص 79 حتى أصبحت أهم الخزائن ببلاد الشام.

(2) مجبر الدين الحنبلي: م س ج 2 ص 386، كرد علي، م س ج 2 ص 119.

(3) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت 1972 ص 119.

(4) مجبر الدين الحنبلي: م س ج 2 ص 380، 386، 443-445.

(5) كرد علي: ن م، ج 6 ص 200، وعبد الحميد زايد: القدس الخالدة ص 262، والعبدي: ن م ص 123.

(6) كرد علي: ن م ج 6 ص 192.

(7) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة ص 1-35.

(8) فقد كان عمل المدرس الترغيب في تحصيل العلم والاعتماد على الكتب ن م ص 37 بالإضافة لتدريب الطلاب على البحث بأنفسهم.

: السبكي، م س ص 105، وعبد اللطيف إبراهيم ن م ص 36-37.

ويشترط فيه الأمانة ويقوم على تبويبها<sup>(1)</sup>، وتجليدها وترميمها وحفظها<sup>(2)</sup>، وكانت طريقة استعارة الكتب نوعين:-

1- الاستعارة الداخلية:- لطلبة العلم والمدرسين والمنازلين بالمؤسسة نفسها.

2- الاستعارة الخارجية:- وهي مرهونة بعدة شروط<sup>(3)</sup>.

وقد وجدت مكتبات خاصة لبعض العلماء الذين كونوها في منازلهم لفائدة الغير<sup>(4)</sup> حيث ملأوها بالكتب النفيسة بوساطة النسخ بخط جيد<sup>(5)</sup> مع حرصهم على اتقانها بخطوط مؤلفيها أنفسهم بطريقة الشراء<sup>(6)</sup>، ومن هذه المكتبات الخاصة في القدس، دار الكتب الفخرية وقفها القاضي/ فخر الدين أبو عبد الله بن فضل الله (ت732هـ/1331م) وكان فيها حوالي عشرة آلاف<sup>(7)</sup> اقتسمها أفراد أسرة أبي السعود أصحاب الزاوية الفخرية بعد وفاته، وبالنسبة لمكتبات أهل الذمة فكانت في الأديرة والكنائس كمراكز تعليمية<sup>(8)</sup>، كما أسست بعض الأسر الغنية المكتبات الخاصة بها لاسيما رجال الدين الذين تنافسوا في نسخ تلك المخطوطات واقتنائها وصيانتها<sup>(9)</sup>.

(1) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية ص255-256.

(2) اليونيني: الذيل على مرآة الزمان، ج1 ص145، ذكر بأن الناصر داوود أنشأ أول خزانة للكتب في الكرك التي اشتملت على الكتب النفيسة ولكنها اختفت بعد وفاته.

(3) السبكي: م س، ن ص ذكر: " والظنة بها على من ليس بأهلها وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته، وهو شرط صحيح معتبر، فليس للخازن أن يُعبر إلا برهن".

(4) مؤلف مجهول: رحلة إلى فلسطين والقدس، ظهر ورقة 65 "مخطوطة بدار الكتب المصرية".

(5) الزركلي: الأعلام ج1 ص46.

(6) ابن حجر، أنباء الغمر، ج1 ص335، ص343-344.

(7) فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخانقين، جزءان، طبعة بيروت سنة 1947م، ج1 ص294.

(8) يذكر بعض الحجاج المسيحيين لبית المقدس أثناء زيارتهم لبית المقدس زمن المماليك وعود مكتبة كبيرة في كنيسة القديسة مريم د. علي السيد م س ص170-171، وكذلك وجود مكتبة في كنيسة القبر المقدس للروم الأرثوذكس وبها عدد كبير من المخطوطات باللغة السريانية واليونانية والعربية، فيليب دي طرازي م ج2 ص475.

(9) ويرجع كثرة المكتبات لتوفر مصانع الورق في المدن القريبة من فلسطين مما ساعد على انتشار الكتب وتجارتها، م ج2 ص476-477.

## ومر المكتبات الهامة في فلسطين القديمة كانت:-

### أ- مكتبة دير الكرمل في حيفا:

التي تأسست في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي<sup>(1)</sup> ويرجع الفضل إلى رؤساء الطوائف المسيحية لاسيما الرهبان في حرصهم على اقتناء الكتب ونسخ المخطوطات كاليعاقبة لوضعها تحت أيدي الدارسين<sup>(2)</sup>.

### ب- مكتبات القدس مثل:-

1- مكتبة الرهبان الفرنسيين: التي تعبر من أغنى مكتبات العالم بوثائق الأرض

المقدسة حيث حوت ألفين وستمائة وأربع وأربعين وثيقة يعود أقدمها إلى زمن الملك

الأشرف شعبان بن حسين (764-778هـ/1363-1376م)<sup>(3)</sup>.

2- مكتبة القبر المقدس: أنشأها الروم الأرثوذكس سنة 451م، نحو حوالي ثلاثة آلاف

مخطوط، وعشرة آلاف كتاب مطبوع، وما يزيد عن مائة كتاب يوناني مجزأة<sup>(4)</sup>.

3- مكتبة دير مار يعقوب للأرمن: غنية بالمصورات والرقوق الخاصة بالوثائق الأرمنية

المقدسية، وفيها وثائق إسلامية أصدرها السلاطين للجالية الأرمنية في القدس.

4- مكتبة مار مرقص للسريان: غنية بالمخطوطات والرقوق<sup>(5)</sup>.

### ج- مكتبات اليهود ومنها(6):-

#### 1- مكتبة يافا

2- مكتبة الطبيب عمران الإسرائيلي (ت 637هـ/1239م) الخاصة.

وهكذا نلاحظ اهتمام سلاطين المماليك بهذه الشؤون ليظهروا دليلا على مدى اهتمامهم

بشؤون الشعب مثلما أصدر الملك المنصور قلاوون عددا من المراسيم القضائية والتعليمية،

(1) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة بيروت 1972م ص119.

(2) دي طرازي، م س، ج2، دت، ص413.

(3) دي طرازي، م س، ص475-477.

(4) ن م ج2 ص475، العسلي وثائق مقدسية تاريخية ج6 ص59.

(5) دي طرازي م س ج2 ص170. والعسلي، ن م، ج1، ص65، 69.

(6) ابن أبي أصيبعة، م س ص696، 697، دي طرازي ن م ج2 ص653.

كمرسومه في العفو عن القاضي والمؤرخ شمس الدين بن خلكان المؤرخ الشهير وتعيينه قاضياً<sup>(1)</sup> ثم تعيينه مدرسا في المدرسة الأمينية بدمشق عام (681هـ/1283م)<sup>(2)</sup> والملاحظ انه أسنخ عليه ألقابا طنانة مثل: الجنا ب العالي المولوي القضائي الإمامي الأوحدي الأفضلي الأرشدي، وعين رئيسا للطب 684هـ/1286م وبنى البيمار ستانات وعين الأطباء الأكفاء فيها<sup>(3)</sup>، كما أصدر المراسيم لتعيين الأطباء للتدريس في بيمار ستانه<sup>(4)</sup>.

وقد سار ابنه السلطان الناصر بن قلاوون على سياسة والده في تشجيع العلم والعلماء والصوفية والأطباء حيث عين شهاب الدين حكيم رئيساً للطب عام 709هـ/1309م في مصر وبلاد الشام<sup>(5)</sup>، كما عين الشيخ علاء الدين للشيخوخ في بلاد الشام<sup>(6)</sup> بالنسبة للصوفية، ويبدو أن مشيخة الشيخوخ في بلاد الشام كانت تابعة لشيخ شيوخ مصر الذي يعين بمرسوم ملكي<sup>(7)</sup>.

---

(1) أنظر ابن عبد الظاهر: محيي الدين : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1969م.

(2) اليوناني: م س ج 4 ص 142-144.

(3) ن م، ج 8 ص 22-25 هذا وقد قسم مرسومه الأطباء إلى ثلاثة أقسام: الطبائعية، والجراحون، والكحالون.

(4) القلقشندي : م س ج 11 ص 253-256 وطلب الطبيب مهذب الدين تقسيم طلابه إلى خمسة أقسام هم: طبائعية، وكحالون، وجراحون ومجبرون ومحضرو أدوية.

(5) القلقشندي م س ج 11 ص 380-383.

(6) ن م، ج 12 ص 411-412.

(7) ن م، ج 11، ص 372-375.

## الطب في جنوب بلاد الشام

لقد بدأ العرب المسلمون يعملون في مجال الطب منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نتيجة لتوسع حركة الترجمة التي شجعها العباسيون، فدرسوا نباتات وأعشاب كثيرة للاستفادة منها في تحضير العقاقير الجيدة والمفيدة، وصدرت بلاد الشام قسماً منها كالنعناع والراوند<sup>(1)</sup> من شرقي الأردن، ومرهم جودي من فلسطين، وترياق القدس المصنع من الحباب المسحوق<sup>(2)</sup>، كما اشتهرت القدس بالزعر لذا قيل بأن أحسن أنوا العسل هو عسل بيت المقدس وخاصة في جبل عامله<sup>(3)</sup>.

واشتهرت منطقة شرقي الأردن بزراعة الزعفران (الورس)، وخاصة في مدينة جادية<sup>(4)</sup>، والذي صدوره إلى أوروبا لاستخدامه كدواء وفي الصباغة، كما اشتهرت الأغوار بزهرة البابونج على شاطئ نهر الأردن والشرية<sup>(5)</sup>، ومن النباتات البرية في فلسطين وشرقي الأردن، الحماض واللوف والخردل<sup>(6)</sup> والتي ما زالت حتى اليوم.

---

(1) نبات الراوند: عبارة عن عروق خشبية مستديرة في غلط الأصابع، ويسمى الراوند الشامي أو راوند الدواب لأن البياطرة كانوا يسقونه للدواب إذا احترت أكبادها.

ابن الجزار - "الاعتماد" ص41، وابن الأخوا "معالم القرية" ص94، واستخدم الراوند الصيني الذي يشبه القلقاس في علاج الكلى والمغص والكبد.

(2) المقدسي "أحسن التقاسيم" ص180-181، الزبود: محمد أحمد، النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع الهجري، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام 1990 ص1-40. الترياق: دواء لمعالجة حالات التسمم.

(3) سترانج، فلسطين ص37.

(4) جادية: قرية من عمل البلقاء من ارض الشام، ياقوت: معجم البلدان ج2، ص192.

(5) القاياني، الشيخ محمد عبد الجوار (1320هـ/1902م) "نفحة البشام في رحلة الشام" دار الرائد العربي، بيروت 1980، ص112، والشرية: هو نهر الأردن، حيث أطلق الصليبيون هذه التسمية على الجزء الواقع جنوب بحيرة طبرية حتى مصبه في البحر الميت وما زالت هذه التسمية تطلق عليه حتى الوقت الحاضر، د. غوانمه: إمارة الكرك، ص81.

(6) الخردل: نبته يبلغ ارتفاعها حوالي متر تزهر في شهري حزيران وتموز أزهاراً عنقودية، بذورها حمراء تتحول إلى اللون الأسود، وهذه البذور تستخدم لآلام العضلة، والاحتقانات وغيرها، (وديع جبر، معجم النباتات الطبية، مطبعة دار الجبل، بيروت، 1987، ص159). وعمل الباحث بتجارته أيام طفولته في الأربعينات من هذا القرن.



كما نبت في جبالها الكرمل<sup>(1)</sup>، الشيخ<sup>(2)</sup> والقيصوم، بالإضافة إلى الورود، والرياحين التي كانت لها فوائد طبية كبيرة كشقائق النعمان والآس والقرنفل<sup>(3)</sup>.

وهكذا نرى بأن هناك محاصيل حقلية زرعت لغرض الحصول على العقاقير الطبية منها، سواء كانت الأزهار أم الأجزاء الخضرية للنباتات أو الثمار أو البذور كالكقنب والسوس والبابونج والحلبة والنعناع والزعرتر وسُمِّي استخراج الأدوية من النباتات بعلم الاتراباذين<sup>(4)</sup>، كما استخدم دهن البيلسان لعلاج الفالج وارتخاء الأعصاب وسائر الأمراض كما خلطوا به ماء المعمودية عند النصارى الذي لا يصح التنصر إلا بالغمس في ماء المعمودية<sup>(5)</sup>.

### ومر الأعشاب الطبية:

- القرصعنة<sup>(6)</sup> والصنم السليماني، والسببب أنفع دواء للاستسقاء ينبت قرب القاهرة.
- ومن الأدوية أيضاً الأفيون عصارة الخشخاش الأسود المصري والجوز المائل بدمياط.
- والمرياقلون ذات الألف ورقة النافعة ضد السموم القاتلة والتي تنبت بجبال الأردن وفلسطين وغيرها من الحشائش<sup>(7)</sup> الكثيرة كالبابونج والميرامية والزعرتر والجعدة والديندلة واللوف والحرمل والتي ما زلنا نشاهدها في ربوع بلادنا حتى اليوم.

---

(1) الحرمل: الأبيض والأحمر ويسمى بالفارسية اسفند، الأشرق الرسولي، المعتمد ص 95.

(2) الشيخ: نبات أجوف العود، ورقه كورق السرو، يستخدم للدغ العقارب وقتل الديدان وغيرها من السموم (القزويني "آثار البلاد" ص 325. وشاهد الباحث جدته تعالج به لدغ العقارب في الخمسينات من هذا القرن.

(3) عن فوائد الورود: انظر: "البدرى" نزهة الأنام" ص 118، والنويري: نهاية الأرب، ج 1، ص 178-186، وأبو القاسم الغساني "حديقة الأزهار" ص 99، ابن اياس: بدائع الزهور: "ج 4 ص 102-172. كما وصفوا فوائدها "بأن شمه تسكن حرارة الصفراء"، وماء الورد يبرد من المعدة، وينفع من الغثيان والخفقان والصداع الحار. وبذوره يعالج بها لثة الفم واقماعة تمنع الإسهال ونزيف الدم، وأما دهنه فيستخدم في الجراحات وما زال استخدامه حتى أيامنا هذه.

(4) للمزيد من المعرفة انظر ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

(5) العمري: م س، ص 129.

(6) القرصعنة: نبات بري في جنوب بلاد الشام ويكثر في فصل الربيع ويأكله الفلاحون مطبوخاً أو مع السلطات وقد اكل منه الباحث في بلدته سوم الشناق غربي مدينة اربد.

(7) العمري: ن م، ن م.

- كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الأطباء الأدوية المفردة والمركبة حتى إن بعضهم صنع الأدوية وعمل المراهم والمعاجين والأقراص وغيرها<sup>(1)</sup>، ومن أشهرهم ابن البيطار، الأندلسي الذي درس علم الصيدلة بدمشق أيام السلطان الكامل<sup>(2)</sup>.

### البيمارستانات<sup>(3)</sup> في بلاد الشام:

كان أول بيمارستان أنشئ في الإسلام في بلاد الشام عام 88 هجري / 640 ميلادي في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 - 96 هـ / 705 - 715 م)<sup>(4)</sup> وكان ثاني بيمارستان في بلاد الشام البيمارستان الدقاقي<sup>(5)</sup> وكانت البداية الحقيقية لبناء البيمارستانات في بلاد الشام في عهد نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي مما زاد عددها في بلاد الشام حتى وجد في كل مدينة من مدن الشام الرئيسية بيمارستانا كما بنى صلاح الدين الأيوبي بيمارستانا في القدس (583 هـ / 1187 م) بعد ترتيبه لمدينة القدس<sup>(6)</sup> كما أمر بتحويل دار الأسقف في عكا عام

(1) ابن أبي أصيبعة: م س، ص 601-628.

(2) ابن شاذان الكندي: عيون التواريخ ج 15، لوحة 16، مخطوط ابن أبي أصيبعة م س، ص 601، ابن شاذان الكندي: فوات الوفيات ج 2، ص 159-160.

(3) بيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية الأصل مركبة من كلمتين (بیمار) وتعني المريض أو العليل أو المصاب و(ستان) تعني دار أو مكان وترجمتها الحرفية دار المرضى ودرجة على الأسنان مارستان لسهولة لفظها وأصبحت تدل الآن على المستشفى أو المشفى للمجانين. (أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار التراث العربي، بيروت ط 2 1981، ص 4، سيشار له فيما بعد هكذا: عيسى بك: تاريخ البيمارستانات.

(4) المقرئزي: الخطط، ج 4، ص 385، حيث قال "أول من بنى بيمارستانا في الإسلام ودار للمرضى الوليد بن عبد الملك".

(5) أو العتق أو الصغير ويذكر أحمد عيسى أن هذه الأسماء له بينما يرى محمد أحمد دهمان أنه ينسب لنور الدين زنكي لتجديده بناءه وحبسه أوقافاً عليه: محمد أحمد دهمان على هامش تاريخ البيمارستانات في الإسلام تحقيقات واستدراكات، مجلة المجمع العربي، دمشق، 1143 هـ، م 18 ج 1 ص 62-72.

(6) ابن شداد: (بهاء يوسف، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) تحقيق جمال الشبال، المؤسسة العامة للتأليف 1964 ص 239 وابن العماد: م س ص 251 ذكر: وجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتارية بقرب القيامة بيمارستانا للمرضى ووقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القاضي بهاء الدين يوسف الموصلي المولد وكان من أطباء مستشفى غظيماً في بيت المقدس يعقوب بن صقلاب المقدسي ورشيد الدين الصوري. كما رأى ناصر خسرو مستشفى غظيماً في بيت المقدس عام 483 هـ / 1047 م، والذي كان يصرف عليه من الأوقاف الطائلة لتوفير الدواء والأطباء انظر ناصر خسرو: ص 55-75 كما وجد مستشفى الإفرنج في القدس بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان في عهد أموري الول (1163-1174 م)، مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ج 9 ق 2 ص 228.

583هـ/1187م إلى بیمارستانات للضعفاء<sup>(1)</sup> ومن أمثلة ازدهار الطب في بلاد الشام زمن الأيوبيين، أن الطبيب المعاصر ابن أبي أصيبعة ترجم لأكثر من خمسين طبيبياً شامياً زمن الحروب الصليبية<sup>(2)</sup> حتى أن بعضهم حصل على منصب الوزارة لدى بعض ملوك بني أيوب كما كان بدمشق مدرستان لتعليم الطب بالإضافة للبیمارستان النوري (نور الدين زنكي) الذي هياؤه للتدريب العملي للأطباء وزوده بمكتبة أصبحت مركزاً للبحث الطبي للطلبة.

ومن أشهر الأطباء يعقوب بن صقلاب المقدسي الذي عمل في مستشفى صلاح الدين الأيوبي بالقدس، وكان الملك المعظم عيسى يعتمد عليه في الأمور الطبية، كما استمر في عهد ابنه الملك الناصر داوود الذي أكرمه وأحسن إليه وتوفي في عام 625هـ/1228م بدمشق<sup>(3)</sup>. والطبيب سديد الدين أبو منصور ابن يعقوب ابن صقلاب: خدم الملك الناصر داوود ابن الملك المعظم عيسى في الكرك<sup>(4)</sup>.

والطبيب: رشيد الدين الصوري: (573-639هـ/ 1177-1243م) المولود في صور من أعمال جند الأردن (الشام الثانية) خدم في مستشفى صلاح الدين بالقدس، وخدم الملك العادل وولده من بعده المعظم عيسى فيما عينه الملك الناصر داوود رئيساً للطب<sup>(5)</sup>. والطبيب الكركي النصراني: أبو الفرج ابن القف (630-685هـ/ 1232-1287م) وقد أخذ عن ابن أبي أصيبعة في الطب<sup>(6)</sup>.

---

(1) الأصفهاني العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي 1960 ص 182، كما جعل الكنيسة المجاورة الإسطبارية قرب كنيسة القيامة بیمارستان للمرضى عام 588هـ/1192م.

(2) ابن أبي أصيبعة م س، ص 603-677. وابن العبري: م س، تصحيح وفهرست الأب اليسوعي أنطوان، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان ص 443، ذكر وفاة الطبيب بن صقلاب الطبيب النصراني الملكي المقدسي عام ست وعشرون وستمائه، وقال كان مولده بالقدس الشريق وبه قرأ شيئاً من الحكمة وأقام يعقوب هذا بالقدس على حالته في مباشرة بیمارستان الى أن ملكه الملك المعظم ابن الملك العادل بن أيوب فاخصر به وكان حسن المعالجة بالتجربة بیمارستانیة، ثم نقله الملك الأعظم الى دمشق ليكون طبيباً له وتحسنت أحواله وكثر ماله.

(3) ابن أبي أصيبعة، م س، ص 698، الدباغ: بلادنا فلسطين ج 9، ق 2 ص 513-514.

(4) ابن أبي أصيبعة، ن م، ص 699.

(5) ن م، ن ص.

(6) ن م، ص 767 وما بعدها.

والطبيب الإمام فخر الدين المارديني المقدسي الأصل (512-594هـ/ 1118-1198م) عمل في حلب<sup>(1)</sup>.

والطبيب أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي البركات الشغري الصفدي المتوفى عام (738هـ/1336م)، خدم في مستشفى قلاوون بالقاهرة المجهز بمختبر كيماوي<sup>(2)</sup>.

والطبيب محمد بن أحمد بن سعيد أبو عبد التميمي المقدسي: زمن الفاطيين ألف للوزير الفاطمي يعقوب بن كليس حيث ألف له كتاباً اسماء "مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرر من ضرر الوباء"<sup>(3)</sup>.

والطبيب أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فاته المقدسي النصراني: زمن صلاح الدين الأيوبي، وأوصى أخاه الملك العادل بالاعتناء بأبنائه الأربعة الذين أصبحوا أطباء في خدمة الأيوبيين، وكان طبيب الملك العادل وولده المعظم عيسى في الكرك<sup>(4)</sup>.

والطبيب رشيد الدين أبو حليقة حفيد داود بن أبي سليمان، خدم الملك الكامل وولده الصالح نجم الدين أيوب ثم الظاهر بيبرس<sup>(5)</sup>.

والطبيب رشيد الدين أبو سعيد المقدسي النصراني، خدم الملك الكامل الأيوبي وولده نجم الدين أيوب<sup>(6)</sup>. والطبيب النابلسي زين الدين: أيوب نعمة المتوفى عام (730هـ/1328)<sup>(7)</sup> والطبيب إسماعيل ابن إبراهيم المقدسي المتوفى عام (732هـ/1330م)<sup>(8)</sup>. وأحمد بن يوسف بن هلال الصفدي (ت 737هـ/1335م) انتقل إلى مصر وخدم في محلة أطباء السلطان والبيمارستان المنصوري<sup>(9)</sup>. وأما راتب الطبيب الشهري فقد ذكره القلقشندي بوجه عام خمسة

(1) ابن أبي أصيبعة، ص 767.

(2) ابن حجر، م س ج 2 ص 362 والدباغ: فلسطينيات ج 3، ص 58.

(3) ابن أبي أصيبعة، ن م، ص 546، 548.

(4) ن م، ص 589-590.

(5) ن م، م س، ص 590-597.

(6) ن م، ص 599.

(7) ن م، ن ص.

(8) ن م، ن ص، وابن حجر، م س، ج 1، ص 363.

(9) ابن حجر ن م، ج 1، ص 341، وابن الكتيبي، م س، ج 8، ص 295.

عشر ديناراً بينما كان راتب الطبيب المتفرغ للسلطان خمسون ديناراً شهرياً، أما باقي أطباء القصر فكان راتبهم الشهري عشرة دنانير<sup>(1)</sup>، ومن سلاطين المماليك الذين اهتموا بالطب الملك المنصور قلاوون باختياره الأطباء الأكفاء عام (684هـ/1286م)، وبنى البيمارستانات، وقسم الأطباء الى ثلاثة أقسام: الطبائعيون والجراحون والكالحون، وأسند مهمة التدريس في بيمارستان القاهرة الى مهذب الدين وأوقف عليه الأوقاف العظيمة، وطلب منه أن يقسم طلابه الى خمسة أقسام: طبائعية وجراحين وكحالين ومجبرين ومحضري أدوية<sup>(2)</sup>، وسار ابنه الناصر محمد بن قلاوون على سياسته في تشجيع العلم والعلماء والصوفية والأطباء اذ عمل على تنظيم مهنة الطب بتعيينه شهاب الدين حكيم رئيساً للطب عام (709هـ/1309م) في مصر وبلاد الشام<sup>(3)</sup>.

واستمرت هذه البيمارستانات في تقديم خدماتها طوال العصر المملوكي بعد ترميمها وإجراء بعض التجديد عليها، حيث زاد اعتناء سلاطين وأمراء المماليك في بناء البيمارستانات لكسب ثقة العامة وتخليداً لذكراهم، هذا الى جانب الاهتمام بالناحية الصحية لكثرة انتشار الأوبئة الخبيثة التي كانت تقضي على الآلاف من الناس كالطاعون وغيره.

وكان أول بيمارستان انشيء في بلاد الشام في العصر المملوكي في مدينة الخليل بفلسطين عام (680هـ/1282م) وأوقفه الملك المنصور قلاوون عام (678-689هـ/1279-1291م)<sup>(4)</sup>.

كما أنشأ الأمير سنجر الجاولي بيمارستانين الأول في الكرك وعرف بالناصرى<sup>(5)</sup> عندما كان نائباً عليها زمن السلطان الناصر محمد قلاوون (709-741هـ/1309-1339م)، والآخر

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص521، وكانت قيمة الدينار خمسة عشر فرنكاً ذهبياً. انظر: علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج4، ص46، ومن المعلوم أن قوة الدينار الشرائية كانت أكبر منها الآن.

(2) القلقشندي، ن م، ج11، ص253-256.

(3) الدواداري: عبد الله بن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر تحقيق رويمر، القاهرة 1960، ص130-142.

(4) مجير الدين الحنبلي: م س، م1، ص79.

(5) الأمير سنجر الجاولي: المولود عام 653هـ/1255م والمتوفى عام 745/1344، خدم كلاً من الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون، تولى نيابة الشوبك حيث ارسله الملك الناصر محمد لعمل الروك في الشام. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج2، ص266-268.

في غزة حيث أوقف عليه<sup>(1)</sup>. كما أنشأ الأمير تنكز<sup>(2)</sup> بيمارستاناً في صفد<sup>(3)</sup> وأنشأ القاضي فخر الدين بن فضل الله القبطي<sup>(4)</sup> ناظر الجيوش بالديار المصرية بيمارستاناً في الرملة وآخر في نابلس<sup>(5)</sup>.

### وبالنسبة للتنظيم الإداري للبيمارستانات في العصر المملوكي :

#### فقد كان نظاماً دقيقاً ومحكماً ويشتمل على:

- ناظر البيمارستان: وهو المدير العام لهذه المؤسسة وكانت منوطة بنائب السلطة واصبحت فيما بعد تناط بقاضي القضاة الشافعي في دمشق، حيث كان للناظر نواب أكفاء يعينهم بنفسه<sup>(6)</sup>.

- ناظر الوقف<sup>(7)</sup> ورئيس الأطباء العام ورؤساء الأقسام الطبية كقسم الكحالة "العيون" وقسم الجراحة وكذلك الصيدلي والخزانة والجباية وأمين المكتبة وخازن المستودع والفراشين والطهارة ومعمار البناء الذي يرمم الأقسام المتلفة والقديمة.

- والمشارف المسئول عن الخدمة والنظافة<sup>(8)</sup>.

---

(1) الصفدي: (صلاح الدين خليل بن ابيك): الوافي بالوفيات، تحقيق بيرند رافله دار النشر فرانز ستايز، فيسبادن 1979م، ج15، ص483. بناء علم الدين سنجر عام 652هـ/1255م وهو أحد أمراء الظاهر بيبرس عندما ولي نيابتها وبنى بيمارستاناً ببيسان في الغور شمال القدس وكلمة سنجر تركية الأصل ومعناها طائر: المقريري: السلوك، ج2، ق3، ص673، وابن تغري، م س، ج10، ص110.

(2) الأمير تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري، كان من مماليك المنصور حسام الدين لاشين واصبح بعد مقتله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون الذي ولاه نيابه الشام ثم قتله عام 741هـ/1340م بغير الإسكندرية: ابن تغري بردي: ن م، ج4، ص327.

(3) ابن كثير، م س، ج7، ص9/327.

(4) المولود عام 659هـ/1260م والمتوفى عام 732هـ/1331م، كان نصرانياً واسلم في خدمة الناصر محمد: ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص255.

(5) ن م، ن ص، وابن تغري بردي: ن م، ج9، ص296.

(6) السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص160-161 والقلقشندي: صبح الأعشى ج4، ص192-196، والغزي (نجم الدين): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الأمريكية، بيروت، ج2، ص136. وابن طولون: القلائد الجوهريّة، ج1، ص23.

(7) السعيد: ن م، ص166.

(8) ن م، ن س، القلقشندي: ن م، ج4، ص200، والسخاوي، م س، ج1، ص73، وابن طولون: ن م، ق1، ص22.

كما كان مقسماً في العصر المملوكي الى جناحين الأول للرجال والثاني للنساء<sup>(1)</sup> وفي كل جناح عدة قاعات اشبه بالعيادات المختلفة حسب الأمراض وامتازت باحتوائها على جناح خاص بالجائنين والمجنوبين وذلك لحفظ سلامة المرضى حيث يتم حجز الحالات الهستيرية (الأمراض العصبية والنفسية) في غرف معزولة<sup>(2)</sup> تطل على حدائق الورود والرياحين، وتجلب لهم آلات الطرب والموسيقى والمغنيين كوسيلة لعلاجهم<sup>(3)</sup> النفسي بالإضافة لقراءة القرآن للمرضى المصابين بالأرق أو الذين لا يستطيعون النوم من الألم<sup>(4)</sup> وهكذا نلاحظ الرقي الحضاري الإسلامي في بلاد الشام الذي فاق أوروبا في العصور الوسطى حيث كان ينظر لهؤلاء المجانين بأن لعنة السماء قد حلت بهم فتقيد أيديهم وأرجلهم في غياهب السجون، ويخضعون للضرب والتعذيب<sup>(5)</sup> بعيداً عن روح الإنسانية التي عومل بها أمثالهم في العالم الإسلامي.

كما ألحقت بالبيمارستان صيدلية تشتمل على الأدوية الضرورية واللوازم الطبية تتكون من أدراج بعض جدرانها لوضع الأدوية<sup>(6)</sup> من معاجين وأنواع الأشربة والعطريات بينما حفظ البعض الآخر في زبادي وجرار وغيرها<sup>(7)</sup>.

وكانت هذه الصيدلية مختبراً لتحضير أنواع الأدوية الضرورية للبيمارستانات فضلاً عن كونها مستودعاً لحفظ الأدوية لذا كان بها أكثر من موظف لتحضير الأدوية وصرفها يومي الاثنين والخميس للمرضى الذين لا تدع حالاتهم المكوث في المستشفى<sup>(8)</sup>، ومن المحتمل ارجاع

(1) ابن أبي أصيبعة، م س، 1965، ص 732، وابن طولون، ن م، ق 1، ص 347.

(2) أنور دويدري: البيمارستانات في حلب، جامعة حلب، الكتاب الأول، 1975، ص 137، ص 137، سيشار له فيما بعد هكذا: دويدري: البيمارستانات.

(3) زيعرب هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق ببيضون، وكمال دسوقي، مراجعة فاروق عيسى الخوري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 6، عام 1981، ص 254-255.

(4) السخاوي: م س، 3، ج 4، ص 248.

(5) هونكة: م س، ص 254-255.

(6) دويدري: م س، ص 137، والصيدلية كانت الشرابخانة "خزانة الشراب" وهي مؤلفة من لفظين: شراب وخانة بمعنى البيت: القلقشندى، صبح الأعشى، ج 4، ص 521.

(7) أحمد عيسى بك: م س، ط 2، عام 1981، ص 20-21.

(8) ابن طولون: القلائد الجوهريّة، ق 1، ص 347، هامش 1.

سبب ذلك لطول الوقت الذي يحتاجه الصيدلي لإعداد الدواء او لصعوبة الحصول على أعشاب الأدوية او لندرتها.

ومن الأقسام الأخرى للبيمارستان ما يشبه اليوم العيادات الخارجية المشتملة على قاعة انتظار المراجعين، وحجرات المعاينة بالإضافة لقاعات مزودة بشبابيك مجهزة بقبضان حديدية معدة لزوار البيمارستان حتى لا يختلطوا بالمرضى للوقاية من العدوى<sup>(1)</sup>.

ومن الملاحظ أنها جاءت نتيجة لخبرات طبية عند المسلمين في العصور الوسطى حيث ما زالت هذه التقسيمات معروفة في العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا مما يدل على وصول علم الطب عند المسلمين الى أرقى المستويات، بالإضافة الى تخصيص حجرات لاستراحة الأطباء واحتوائها على بعض الأدوية التي يحتاجونها مما يساهم في الإستشارات الطبية للأطباء المناوبين للحالات المستعصية وروجوعهم أيضاً الى قاعة المكتبة الطبية للاستشارة بالمراجع العلمية<sup>(2)</sup>، كما احتوت البيمارستانات المملوكية على مطابخ لإعداد الطعام المناسب للمرضى، فقد كان الطبيب الشامي ابن النفيس لا يقدم على معالجة المرضى<sup>(3)</sup> إلا بعد التأكد من غذائهم<sup>(4)</sup>.

واشتملت البيمارستانات على مستودعات مختلفة تحوي كل مستلزماتها<sup>(5)</sup> ودورات مياه، ومسجد أحياناً<sup>(6)</sup>.

وهكذا نستطيع القول بأن المستشفيات الحديثة هي نسخة ثانية للبيمارستانات المملوكية من حيث الدقة والتنظيم والأقسام المختلفة المكملة لبعضها لتشكل البيمارستان المتكامل وبه نظام

---

(1) دويدري: م س، ص 142.

(2) ابن ابي اصيبعة، م س، ص 628، فيليب حتى: م س، ج 2، ص 282.

(3) ابن طولون: ن م، ق 1، ص 347.

(4) علي القيم: ابن النفيس: دار المعرفة، 1988م، ص 20، أورد معلومات عن ابن النفيس علاء الدين ابن أبي الحزم المولود عام 607هـ/209م، وكان من أشهر أطباء عصره إذ تتلمذ على يد مذهب الدين الداخوري في البيمارستان النوري بدمشق.

(5) دويدري: م س، ص 143.

(6) ابن كنان: المروج السندسية، ص 85.



المعالجة بفتح ملف للمريض فوق رأسه ومتابعته<sup>(1)</sup>، وبالنسبة لنفقات البيمارستان فقد اعتمدت في تمويلها على الأوقاف لذا لم تتقاض أجوراً مقابل خدماتها<sup>(2)</sup> كأوقاف بيمارستان الناصر محمد بن قلاوون في غزة 8 قرى و 4 مزارع و 34 دكان من القيسارية في غزة ومصبغة ناتجها 2000 درهم سنوياً<sup>(3)</sup>، مما يوحى برقي النظام المملوكي الذي وفر مجانية العلاج إلى الدرجة التي لم تصلها الدول الحضارية في العصر الحاضر التي تتبع نظام التأمين الصحي في مقابل الرسوم أو الاشتراكات السنوية أو اقتطاع نسبة معينة من رواتب الموظفين أو العاملين، بل فاقتها في معاملة المرضى بعد خروجهم من المستشفى بكسوة المريض وإعطائه بعض النقود لراحته من العمل حتى لا يؤثر على وضعه الصحي<sup>(4)</sup>، هذا وقد تخرج الأطباء من مدارس الطب في دمشق كالمدرسة الداخورية<sup>(5)</sup>، واللبودية<sup>(6)</sup>، والدنيسرية<sup>(7)</sup>، بالإضافة إلى البيمارستانات التي كانت بمثابة كليات لتدريس الطب<sup>(8)</sup>.

(1) حتي، ن م، ص 281، ذكر احتجاج المؤرخ الكبير ابن الاثير الذي احتج على مجانية العلاج لانه ميسور الحال عند خروجه من البيمارستان النوري.

(2) ابن الأخوة: م س، ص 167.

(3) المقابلة: المؤسسات الاجتماعية، ص 74 وانظر الملحق رقم .... الذي يبين مرتبات القاشمين على البيمارستان المملوكي.

(4) سامي حداد: المارستانات العربية، مجلة المقتطف 1937م، م 9، ج 1، ص 14، ذكر بأن الأطباء كانوا يستقبلون المرضى في غرف المعينات الخارجية في أيام محدودة من الأسبوع فيصرفون له الدواء من الصيدلية اذا كانت حالته ضعيفة أو يوصون بإدخاله المستشفى فتتزع ثيابه، ويلبس الملابس الخاصة بالبيمارستان ويوضع في سرير خاص في القسم المختص بمرضه ويسجل اسمه في سجل البيمارستان ويمر عليه الأطباء يومياً ومعهم المشافرين والقوام والمرضين. انظر ابن أبي أصيبعة م س، ص 628، وكانت علامة شفاء المريض مقدرة على أكل فروج من الدجاج ورغيف خبز، انظر سعيد عاشور: المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م، م 3، ص 302.

(5) أنشأها طبيب العيون في البيمارستان النوري: مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالداخور في دمشق بالصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي عام 621هـ/1224م زمن الملك العادل بن أيوب (596-625هـ/1199-1227م) الذي ولاه رئاسة الطب في مصر والشام وأوقف عليها بستاناً وعدد من الضياع للصرف عليها، وكان منهم ابن النفيس وشرف الدين محمد بن الرحبي شيخ الأطباء وغيرهم، انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، دمشق ص 265، النعيمي م س، ج 2، ص 127 وابن العماد الحنبلي، م س، م 3، ج 5، ص 127-128، وانظر: بيبرس الدوادار (ركن الدين): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، صورة عن مخطوطة جامعة بيل تحت رقم 758 على شريط رقم 78 ج 1، ورقة 17، ودكتور محمد عيسى صالحية، بحوث ومقالات في الحضارة العربية والإسلامية، دار التقدم العربي، بيروت، مؤسسة دار الكتب، الكويت 1988 ص 351 سيشار له فيما بعد: صالحية بحوث ومقالات.

(6) أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي عام 664هـ/1266م خارج دمشق الذي خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب وأصبح ناظراً للدواوين في دمشق في عهد السلطان الظاهر بيبرس، وأوقف عليها ثلث املاكه وهي تحت وصاية قاضي القضاة عز الدين بن الصائغ، انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، م س، ص 265، 266، العيني، م س، ج 2، ص 374.

(7) أنشأها الطبيب عماد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الربيعي الدنيسري الذي عمل في البيمارستانات النوري بدمشق، له عدة مؤلفات في الطب منها "المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة وكان قد أوقف بيته مدرسة للأطباء: ابن حبيب: تذكرة النبيه ج 1، ص 112.

(8) ابن أبي أصيبعة: م س، ص 628.

ويعتقد أن معظم الأباء في جنوب الشام قد تخرجوا منها بعد دراستهم النظرية والتطبيقية، حيث كانت على شبه كبير من كليات الطب في وقتنا الحاضر مما يدل بوضوح لا لبس فيه على تقدم علم الطب في العصر المملوكي وارتقاء شأنه لتقديرهم للأطباء وخضوع هذه المهنة لمراقبة الدولة المباشرة وإلزام الأطباء بأخلاقيات المهنة.

حيث كان لا يسمح للطبيب بمزاولة المهنة إلا بعد نجاحه في الامتحان المخصص لذلك<sup>(1)</sup>، بواسطة المحتسب وأداء القسم الطبي وأن لا يفشي سراً من أسرار المرضى والبيوت التي يدخلها والمحافظة على المحارم<sup>(2)</sup>.

---

(1) ابن أبي أصيبعة: م س، ص 257-274، كان برنامج امتحان الأطباء على مرحلتين حيث يمتحن الطبيب بكتاب حنين بن إسحاق المتوفى عام 264هـ/867م المعروف (بمحنة الطبيب) فإذا اجتاز هذا الامتحان يؤخذ عليه عهد أبوقراط بن أقليدس اليوناني (ابو الطب)، حيث يقسمون والقسم الطبي بأن لا يعطوا المريض دواءً مضراً ولا يركبوا له سماً ولا يصفوا له التمايم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الذي يقطع النسل، ثم يتأكد المحتسب من أدوات الطبيب اللازمة (ابن أبي أصيبعة، ن م، ص 45، الشيزري: م س، ص 98-99، وابن الأخوة: م س، ص 167-168، أما أطباء العيون "الكحالين" فكان يمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحاق (العشر مقالات في العين)، ابن الأخوة: ن م، ص 155. أما أطباء العظام "المجبرون" فكان المحتسب يمتحنهم بالمقالة السادسة من كتاب (الكناس في الطب) لبولص الأجاتيطي: ابن الأخوة ن م، ص 151، 169. أما الجراحون: فقد امتحنهم المحتسب بكتاب جالينوس وكتاب الزهراوي "التصريف لمن عجز عن التأليف" الشيزري: ن م، ص 101-102، وابن الأخوة: ن م، ص 169، وكان المحتسب يراقب الصيادلة بشكل دقيق ويعاقبهم، الشيزري، ن م، ص 42-47.

(2) ابن أبي أصيبعة: ن م، ص 768.

## ومن المكتب الطبية المؤلفات في العهده المملوكي:

- الشافي في الطب.
  - مقالة في حفظ الصحة.
  - العهدة في صناعة الجراح.
  - شرح الكليات في كتب القانون لموفق الدين يعقوب السامري.
  - الأحكام النبوية في الصناعة الطبية لعلاء الدين الكحال الصفدي<sup>(1)</sup>.
- كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الأطباء الأدوية المفردة والمركبة حتى أن بعضهم صنع الأدوية وعمل المزاهم والمعاجين والأقراص وغيرها<sup>(2)</sup>، ومن أشهرهم ابن البيطار الأندلسي الذي درس علم الصيدلة بدمشق<sup>(3)</sup> أيام السلطان الكامل.

---

(1) ابن أبي أصيبعة، ن م، ص 755-768.

(2) ن م، ص 601-628.

(3) ابن شاکر الکتبی: عیون التواریخ جزء 15، لوحة 16 مخطوطة، ابن أبي أصيبعة، ن م، ص 601، وابن شاکر الکتبی: فوات الوفیات، ج 2، ص 159-160.

## الفن المعماري في جنوب بلاد الشام

أولاً: القرية في جنوب بلاد الشام:

"الأردن وفلسطين في العصرين الأيوبي والمملوكي".

لقد بنيت القرية على مكان مرتفع مثل التلال لتشرف على إحدى الطرق أو بجانب نبع ماء، ولقد روعي في بناء القرية العوامل الاقتصادية والصحية والأمنية معاً من حيث ارتفاع المكان على رؤوس التلال لمراقبة الطرق، أو بجانب نبع الماء لتأمين مياه الشرب وذلك في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

ولوحظ ارتفاع الكثافة السكانية فيها<sup>(1)</sup>، واستمرت هذه الكثافة المرتفعة في العصر المملوكي لأهميتها الاقتصادية<sup>(2)</sup>، هذا وأثر في الكثافة السكانية الغزو الصليبي الذي أدى لهجرة السكان من قراهم، بالإضافة الى المنازعات والحروب الداخلية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي، وجاء عبث الخوارزميين والتتار في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي سبباً آخر في خراب المدن والقرى مما أدى لنقص عددها<sup>(3)</sup>، ناهيك عن الأمراض الفتاكة والزلازل وغزوات القبائل العربية<sup>(4)</sup>.

(1) Ben venisti M. The crusaders in the Holy Land P. 27.

(2) ابن قاضي شهبة، الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، ج2، لوحة 143 مخطوط.

(3) Ben venisti, OP, CIT. P. 215.

بلغ عدد القرى في فلسطين ما بين 700-800 قرية في العصر المملوكي أما عدد قرى شرقي الأردن: فبلغ في الكرك أربعمئة قرية في البلقاء و1000 قرية في حوران "يدخل في إقليم حوران أجزاء كبيرة من شمال الأردن"، انظر: ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، باريس 1894، ص46-47.

(4) المقرئزي: السلوك، ج2، ص774، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، القاهرة 1932م، ج10، ص197-198.

## تخطيط بناء القرية<sup>(1)</sup>:

لقد قسمت إلى أربعة أقسام هي قسمان للزراعة، وقسم لرعي الدواب والاستراحة، وقسم لغرس الأشجار والكروم، حيث يتبع كل سكن منها مرافق عامة مثل المتبن الخاص، وموضع دواب الضيوف، ومخزن الحبوب، والمطبخ بالإضافة إلى بناء المسجد الأساسي فيها، مع ملاحظة تقارب البيوت التي تفصل بينها جدران عالية مع بوابة رئيسية مؤدية إلى فناء الدار<sup>(2)</sup> وبالنسبة لمساكن القرية فقد بنيت من الحجر أو الطين أو الخشب أو الجص والتراب<sup>(3)</sup> حيث يتوفر أحدهما في البيئة كمنازل فلسطين وحواران في شمال الأردن التي بنيت من الحجر ومنازل غور الأردن التي بنيت من القصب<sup>(4)</sup> أو الطوب "الأجر" خاصة في القباب القائمة فوق الأواوين الواسعة حيث وجدت بعض الدور في وادي الكرك المؤلفة من طابقين وهي تشبه نظام الفيلا في الوقت الحاضر<sup>(5)</sup>، كما استخدم القرويون مادة الحُور الجيرية لطلاء واجهات منازلهم، ومن الجدير بالملاحظة أنها ما زالت مستخدمة حتى اليوم من قبل الفلاحين<sup>(6)</sup>.

أما مكونات الدار: فكانت مؤلفة من أواوين مفقودة متقاطعة في بعض أبنية فلسطين<sup>(7)</sup> ومقامة على قناطر حجرية ما بين قطرتين إلى أربع قناطر.

## خصائص ومميزات البيت القروي في جنوب بلاد الشام:

لقد كان البيت العربي مكون من طابقين للصيف والشتاء، فقد كان الطابق السفلي للصيف لرتوبيته واعتدال درجة حرارته، والعلوي لفصل الشتاء لكونه معرضاً للشمس فيصبح دافئاً، وكانت ذو شرفات خشبية متجهة للداخل والخارج، مستورة بالأخصاص الخشبية لتحجب سكان

(1) شيخ الربوة: الدرر الملتقط، مخطوطة بدار الكتب المصرية، القاهرة ورقة 36.

(2) د. غوانمه: دراسات 87.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 4، ص 374.

(4) ابن قدامة، م س، ج 5، ص 538.

(5) د. غوانمه: دراسات ص 88، كما أشار: ولابد أن يكون الحائط منيعاً يمنع ما وراءه ويكون مما جرت عادتهم بالحجارة وحدها كأهل حوران وفلسطين أو بالطين كالغفائر لأهل دمشق أو بالخشب أو بالقصب كأهل الغور.

(6) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 107.

(7) ن م، ن ص.

المنزل عن المارين في الشارع<sup>(1)</sup>، وكانت معظم المنازل خالية من النوافذ وإن وجدت تكون ضيقة وعالية خوفاً من السرقات، ولعدم تمكين الرجال من مشاهدة النساء داخل المنزل، وتوجد غرفة تُسمى "بيت المونة" المسمى اليوم "بالكوار" الطينية أو الخشبية التي تستخدم لحفظ المونة للغذاء السنوي والبذار للزراعة السنوية<sup>(2)</sup>.

وبالنسبة لمأوى الحيوانات فقد استخدم سكان قُرى الأردن وفلسطين الكهوف والمقابر خارج القرية، كما استخدموها لخزن التبن، وبعض الغلات، واستخدم الفقراء منهم بعضها للسكنى<sup>(3)</sup>، هذا كما انتشرت البيوت الترابية "المصنوعة من الطابوق الطيني أو من الطين وحجر الحور لقلة التكاليف وسهولة البناء وملئته للصيف والشتاء"<sup>(4)</sup>، كما استخدم الفلاح الشامي في جنوب بلاد الشام مزيجاً من التبن الأبيض الناتج من "القمح" والأحمر الناتج من "العدس" مع قليل من الطين لطلي السطوح العلوية قبل فصل الشتاء لمنع الدلف "الواكف"<sup>(5)</sup> في معظم مساكن الفقراء بعكس الأغنياء الذين كانوا وما زالوا يبنون بيوتهم من الحجارة<sup>(6)</sup>.

---

(1) صفوح: غوطة دمشق، ص 387-388. وما زال بعضها صامداً حتى اليوم في قُرى شمال الأردن وبعض أحياء مدينة أريد.

(2) صفوح: م س، ص 293.

الكوار: شكل مستطيل مصنوع من الطين الممزوج بالتبن، طولها متران وعرضها متر ومقطعها متر، ويوضع الحب فيها من فتحة علوية، بينما يؤخذ من فتحة ضيقة في أسفله وقد شاهد الباحث جدته عام 1955 وهي تصنع الكواره في قريته سوم الشناق شمال أريد، وقد أخذ الباحث منها حب القمح لشراء الحلوى من دكان القرية لقلة النقود بما يشبه نظام المقايضة في التجارة "أي مبادلة السلع"، كما شاهد استخدام الجرار الفخارية لخزن زيت الزيتون وتبريد الماء.

(3) د. غوانمه: دراسات ص 92، وقد شاهد الباحث بأم عينه هذه الكهوف وما زالت حتى اليوم في منزل والده القديم.

(4) صفوح خير: م س، دمشق ص 292 وما زال هذا النوع في منزلنا القديم منذ عام 1925م.

(5) القاسمي: م س، ج 1، ص 66.

(6) عارف العارف "المفصل في تاريخ القدس"، ج 1، ص 212، زياد نقولا: م س، ج 1، ص 196. هذا وقد ساهم الباحث في طفولته بمساعدة والدته وجدته في طلي السطح بالطين والتبن وكانت تهب نساء الجيران للمساعدة كنوع من التعاون والإخاء.

وهكذا يمكننا القول بأن البيوت الريفية في جنوب بلاد الشام انقسمت الى ثلاثة أقسام  
ليستطيع الفلاح التكيف مع بيئته الطبيعية<sup>(1)</sup> كوقايته من الحر والبرد ومخزناً للمحصول  
الزراعي وتأمين حاجياته بالرغم من كونه فناً للأرض وعبدًا للإقطاعي وهي:

- البيوت الحجرية ذات السقف المكون من معقود من قناطر الحجارة عند الأغنياء.
- والبيوت الطينية ذات السقف المكون من الخشب أو القصب أو قبة مخروطية من اللبن نفسه.
- البيوت الحجرية أو الطينية ذات الطابقين.

وقد استنتجنا من وثيقة وقف قرية ادر<sup>(2)</sup> للسلطان الأشرف شعبان عام 777هـ/1275م  
الموجودة في دار الوثائق القومية بالقاهرة، مساحة قرية ادر من عمل الكرك وحدودها الأربع  
بالإضافة لعدد بيوت القرية وصهاريجها ومساجدها ومغاريها والقطع الوقوف عليه.

وكانت بيوت القرية متقاربة يفصل بينها جدران عالية للحماية، فيها البوابة الرئيسية  
المؤدية الى ساحة الدار، بالإضافة الى ممرات ضيقة متعرجة، وبالنسبة لارتفاع البناء، فقد  
تكونت بعض الدور من طابقين بشكل عقود متقاطعة من الطين والحجر في معظم الأبنية  
بفلسطين<sup>(3)</sup>، انتشر نظام القناطر الحجرية والقباب القائمة فوق الأواوين<sup>(4)</sup> وبالنسبة لمساحة  
القرية فقد اختلفت من قرية الى أخرى فيما كانت مساحة القرية في الكرك 2500 دونم، كانت  
مساحتها في عكا 11700 دونم، وفي الخليل الأعلى شمال فلسطين بلغت المساحة ما بين  
10.000 و 26.000 دونم بينما كانت في نابلس 1600 دونم، وفي القدس 24000 دونم<sup>(5)</sup>،  
ومن منشآت القرية المسجد في وسطها والبرج الحصين للدفاع عنها ومعصرة الزيتون وطاحون

(1) لمعرفة المزيد عن طريقة بناء بيوت الفلاحين انظر: صفوح: م س، دمشق، ص 288-292، ص 294-295، وفالح: الحياة الزراعية، ص 139-144.

(2) رقم الوثيقة: 49، رقم المحفظة: 8، نوع الوثيقة: خاصة، موضوع التصرف: حجة وقف، المتصرف:  
السلطان الملك الأشرف شعبان، تاريخ الوثيقة: 3 جمادى الأولى 777هـ، مكان الوثيقة: دار الوثائق القومية  
في القاهرة.

(3) وقف البستان والحمام بوادي الكرك للسلطان الأشرف شعبان رقم 49 بدار الوثائق القومية في القاهرة  
"مخطوطة".

(4) وثيقة وقف البستان والحمام الكرك. Ben venisti OP. CIT. P. 366

(5) Ben venisti, OP, CIT. P. 214-217.

الدقيق، وقد أطلق السلطان على بعض هذه المنشآت اسم الرومي إشارة إلى قدمها زمن الرومان مثل حائط رومي، معصرة رومية، زيتون رومي ... الخ، وكان في بعض القرى المسيحية معصرة للنبيذ<sup>(1)</sup> وفيها الكتاب والمدرسة.

### ثانياً: إنجازات صلاح الدين الأيوبي العمرانية في القدس:

لقد اعتنى بمحراب داود داخل حصن وبنى له جداراً ورتب له إماماً ومؤذنين وخداماً، وكان الوالي يقيم في هذا الحصن الذي بُني فوق منزل داود وابنه سليمان عليهما السلام<sup>(2)</sup>. كما أمر صلاح الدين بعمارة جميع المساجد والمشاهد والزوايا الخشبية بجوار قبلة المسجد الأقصى خلف المنبر سنة 587هـ/1191م<sup>(3)</sup>، كما بنى المدرسة الميمونية عند باب الساهرة<sup>(4)</sup>، وأنشأ المستشفى (البيمارستان)<sup>(5)</sup>، كما رمم سور المدينة المقدسة وحفر خندق حوله<sup>(6)</sup>، وتوفي في دمشق بعد إصابته بالحمى عام 589هـ/1193م وكان كريماً قوياً الشخصية<sup>(7)</sup>.

### منجزات الملك الأفضل علي بن صلاح الدين في بيت المقدس:

بناء المدرسة الأفضلية<sup>(8)</sup>، كما أوقف الأراضي التي تحيط بموضع البراق الشريف على طائفة المغاربة الذين نسب إليهم حي المغاربة، كما بنى المسجد العمري جنوب ساحة كنيسة القيامة.

(1) مجير الدين الحنبلي: م س، 1968م، ج2، ص147، وما زالت آثار هذه القناطر الحجر والقالب فوق الأواوين موجودة في قرية الباحث سوم الشناق.

Ben venisti, OP. CIT. P. 220.

(2) الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص145.

(3) مجير الدين الحنبلي: ن م، ص28 ويقيم فيها الآن بعض خدم المسجد ويستعمل كمستودع لحفظ القناديل وتنظيفها: عارف العارف: م س، ص236.

(4) وهي الآن كنسية رومية، ن م، ن ص.

(5) عارف العارف: ن م، ص178-179 في الحي المعروف الآن بالدباغة وكان قبل ذلك سوق البازار.

(6) الدباغ، م س، ص209.

(7) رنسيان تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص147-149.

(8) مجير الدين الحنبلي، م س، ص288-289، عرفت قديماً بالقبة في حارة المغاربة وقفها على فقهاء المالكية.



وبنى الأمير عز الدين الزنجيلي "قبة المعراج" إحياءً لذكرى عروج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سنة 597هـ/1200م غربي الصخرة المشرفة<sup>(1)</sup>، كما أتم بناء الزاوية الجراحية شمال القدس وأوقف عليها وتنسب لواقفها حسام الدين الجراحي أحد أمراء الملك صلاح الدين الأيوبي المتوفى<sup>(2)</sup> سنة 598هـ/1201م، كما عملت السقاية والمطهرة سنة 599هـ/1202م في الحرم الشريف زمن العادل ومات العادل سنة 516هـ/1218م ودفن بقلعة دمشق<sup>(3)</sup>، ومن منشآت الحرم الشريف في العهد الأيوبي تجديد المعظم عيسى بن عادل الأيوبي لعمارة القناطر في الحرم الشريف التي تقع على درج الصخرة القبلى عند قبة الطومار، كما ركب أبواباً خشبية للمسجد الأقصى مكتوب عليها اسمه، وبني قلعة الطور على جبل الطور المشرف على طبرية عام 608هـ/1121-1212م لتهديد مركز الصليبيين في عكا ويافا وباقي مدن ساحل فلسطين<sup>(4)</sup>، وبني سبيل شعلان في شمال الحرم الشريف عام 613هـ/1215م<sup>(5)</sup>، وبني عز الدين عمر يغمور "البرج" وسط القلعة بباب الخليل عام 616هـ/1218م<sup>(6)</sup>، وتوفي المعظم عيسى عام 624هـ/1226م بدمشق ودفن بقلعتها وخلفه ابنه الملك الناصر داوود وعمره إحدى وعشرون سنة<sup>(7)</sup> مما أطمع عمه الكامل بالاستيلاء على أملاكه بما فيها القدس لانشغاله باللهو<sup>(8)</sup>.

(1) ومن حسن المصادفة أن الباحث أرخ لهذه الحادثة في يوم الإسراء والمعراج 27 رجب 1414هـ/1993/1/20م الموافق يوم الأربعاء.

(2) مجير الدين الحنبلي، م س، ص 290.

(3) انظر المقرئزي: السلوك ج 1، ص 193-194. ورنسيان، م س، ج 3، ص 273.

(4) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 8، ص 545، وأبو شامة: ذيل الروضتين، ص 70، وابن الفرات: م س، ج 5، ق 1، ص 107.

(5) عارف العارف: م س، ص 289.

(6) ن م ص 185، يوجد نقش على جدرانه ينص على أن البرج بنى بأمر من الملك العظيم عيسى.

(7) المقرئزي: السلوك ج 1 ص 224.

(8) ن م ص 227.

## ما ذكره الرحالة عن عمائر بيت المقدس في القرنين

السابع والثامن الهجريين بين الرابع عشر الميلادي الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

1- ذكر ابو الفداء المتوفى سنة 732هـ/1331م في مؤلفه تقويم البلدان<sup>(1)</sup>:

ذكر بأن باني بيت المقدس سليمان بن داوود وخرّبه بختنصر ثم بناه بعض ملوك الفرس وخرّبه طيطس "تيطس" الروماني وبني ورُم حتى جاء قسطنطين الذي تنصر وأمه هيلانه التي أمرت ببناء كنيسة القيامة على قبر عيسى المزعوم، وخرّبت البناء الذي كان على الهيكل "الصخرة" وألقت عليها زباله البلد عناداً لليهود وبقي الوضع على ذلك حتى فتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب الذي بحث عن موضع الصخرة "الهيكل" وبني عليها مسجداً، وبقي الوضع حتى بني عبد الملك بن مروان قبة الصخرة الحالية.

وأما الرحالة ابن بطوطة المتوفى سنة 779هـ/1377م:

قال "سافرت من الخليل إلى القدس وفي الطريق مررت بقريّة حلحول (فيها قبر يونس عليه السلام) ثم مررت ببیت لحم وبه أثر جزع النخلة وعليه عمارة كبيرة "كنيسة المهد" ثم وصل بيت المقدس الذي هدم سورها صلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر وأخبر بأن الذي آمن الماء لها الأمير تنكز نائب الشام<sup>(2)</sup>، كما ذكر وادي جهنم شرقي القدس وفيه تل يقال أنه مصعد عيسى إلى السماء، وعليه قبر رابعة العدوية وليست رابعة العدوية المشهورة، وفي بطن وادي جهنم قبر مريم في "الكنيسة سانتا مريم" اليوم وهناك كنسية أخرى يجتمع اليها النصاري لاعتقادهم بأن قبر عيسى عليه السلام موجود بها للتبرك به<sup>(3)</sup> وهي كنيسة القيامة اليوم.

ثم ذكر بها بعض فضلاء القدس وعلمائها: القاضي شمس الدين محمد المقرئ والخطيب الصالح: الفاضل عماد الدين النابلسي والمحدث المفتي شهاب الدين الطبري وشيخ الخانقاه أبو عبد الله الغرناطي نزيل القدس<sup>(4)</sup>، وكانت زيارته لبيت المقدس سنة 749هـ/1348م ووجد فيها

(1) ابو الفداء: تقويم البلدان ص211.

(2) ابن بطوطة، م س، ص57.

(3) ن م ص59.

(4) ن م، ن ص.

الوباء ولقي خطيب بيت المقدس عز الدين بن جماعة ابن عز الدين قاضي القضاة بمصر، وكان راتبه على الخطابة ألف درهم في الشهر<sup>(1)</sup>، كما ذكر الإدريسي سنة 548هـ/1154م كنيسة صهيون في آخر مدينة القدس من جهة القبلة<sup>(2)</sup>.

أبواب بيت المقدس<sup>(3)</sup>: عشرة أبواب وهي:

- 1- من الجهة القبلية: باب حارة المغاربة وباب صهيون.
- 2- من جهة الغرب: باب سري صغير ملاصقاً لدير الأرمن، وباب المحراب المسمّى الآن بباب الخليل، وباب لد (باب داوود الغربي) عند محراب داوود ويعرف بباب الرحمة<sup>(4)</sup>.
- 3- من جهة الشمال: باب دير السر وباب العمود وباب الداعية الذي يصل باب الساهرة وحارة بني زيد.

4- من جهة الشرق: باب الأسباط.

### المنشآت المعمارية لدولة المماليك البحرية التركية للأولاد في بيت المقدس:

لقد اهتم المماليك كالأيوبيين بالعلم فكان عهدهم استمراراً حضارياً لعصر الأيوبيين من حيث إنشاء المدارس وإقامة المساجد والأربطة والزوايا والتكايا للحجاج القادمين الى القدس بالإضافة لبناء السبل والصهاريج والأروقة، فقد أرسل الظاهر بيبرس عام 659هـ/1261م الآلات والصناع المعماريين لعمارة قبة الصخرة في القدس التي كانت آيلة للسقوط، كما جدد قبة

(1) ن م ص 65.

(2) الدباغ: بلدانية فلسطين العربية ص 255، وذكر الإدريسي "وفيها العلبة التي أكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ، وفيها المائدة باقية الى الآن، ولها ميعاد في يوم الخميس".

(3) الدباغ، ن م، ص 311.

(4) وهو الذي ذكره الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن عيسى بن مريم سيقتل عنده الدجال، ن م، ن ص، هذا وقد زارها الباحث في شهر مايو 1967م، وتعرف على هذه الأبواب في رحلة مدرسية.

السلسلة وزخرفتها<sup>(1)</sup>، وأوقف على الحرم الإبراهيمي في الخليل<sup>(2)</sup> قرية "أذنا" بفلسطين وأرسل لإعادة إعمار الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة<sup>(3)</sup>.

#### 1- منشآت الملك المنصور سيف الدين قلاوون (678-689هـ/1279-1290م):

1- الرباط المنصوري سنة 1283/681 بباب الناظر، وأوقفه على الفقراء وزوار بيت المقدس<sup>(4)</sup>.

2- عمر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة<sup>(5)</sup>.

3- المسجد القلندري نسبة الى قلندر يوسف الفرقة الصوفية القلندرية، بناه سنة 1282هـ/680م<sup>(6)</sup>.

#### 2- منشآت السلطان كتبغا المنصوري (664-696هـ) (1266-1298م):

جدد فصوص الصخرة، وجدد عمارة السور الشرقي المطل على مقبرة باب الرحمة سنة 1267هـ/695م، وبنى المدرسة الدوادارية بباب شرف الأنبياء المعروفة بدار الصالحين وكانت مدرسة وخائفاه أوقف عليها قرى [بيت نبالا وحجلة من أعمال اريحا وخربة طبرس في أراضي كفر راعي من أعمال جنين وأبنية أخرى وبساتين وحوانيت في القدس ونابلس وبيسان على يد المهندس علي بن سلامه]<sup>(7)</sup>.

(1) المقرئزي: السلوك، ج 1، ص 445.

(2) ياقوت: معجم البلدان، ج 2، ص 468.

الخليل: مدينة فلسطينية فيها قبر سيدنا إبراهيم الخليل واسمها الأصلي "حبرون" وتقع بالقرب من القدس جنوباً.

(3) ابن عبد الظاهر، م س، ص 89: وهو أول من أرسل كسوة الى الحرمين الشريفين باعتباره خادماً لهما. انظر: دائرة المعارف الإسلامية مجلد 8، ص 489، وأبو المحاسن: م س، ج 7، ص 121.

(4) عرف ذلك من البلاطة المثبتة فوق بابه، ويقال أنه الباب الذي ربط به جبريل عليه السلام البراق ليلة الإسراء، مجير الدين الحنبلي، م س، ص 278.

(5) ن م ص 318.

(6) عارف العارف: م س، ج 1، ص 200.

(7) مجير الدين الحنبلي: م س، ص 284، 319، عارف العارف: م س، ص 242، 243.

### 3- منشآت السلطان الملك الناصر حسام الدين لاشين (696-698هـ / 1298-1300م):

جدد عمارة محراب داوود بالسور القبلي عند مهد عيسى بالحرم، وعمر منارة الغوانمه بالمسجد<sup>(1)</sup>.

### 4- منشآت السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون:

أ- في عهد سلطنته الأولى (693-694هـ / 1295-1296م):

بناء "رباط كرد" سنة 693هـ/1295م بباب الحديد بجوار السور<sup>(2)</sup> ويسكنه اليوم جماعة آل الشهابي<sup>(3)</sup>.

ب- في عهد سلطنته الثانية (698-708هـ/1289-1308م):

1- المدرسة الوجيحية: عند باب الغوانمه وهي اليوم دار سكن<sup>(4)</sup>.

2- المدرسة السلامية: بباب شرف الأنبياء ويسكنها اليوم جماعة من آل جار الله<sup>(5)</sup>.

3- زاوية المصمودي: بأعلى حارة المغاربة، أنشأها الشيخ عمر بن عبد الله المصمودي من ماله الخاص ووقفها للفقراء سنة 703هـ/1303م.

ومن العلاقات السياسية في عهد السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون:

إرسال ملك الكرج وصاحب القسطنطينية رسلاً للملك ناصر الدين محمد

يرجونه في إعادة كنيسة المصلبة للنصارى فأعادها اليهم<sup>(6)</sup>.

ج- في عهد سلطنته الثالثة (709-741هـ/1309-1340م):

1- بنى جامع القلعة سنة 710هـ/1310م ورسم القلعة بتجديدها وتحصينها<sup>(7)</sup>، كما

زار القدس برفقة خمسين أميراً منهم تتكز نائب الشام سنة 717هـ/1317م<sup>(8)</sup>.

(1) مجير الدين الحنبلي: ن م. ص 230-450.

(2) ن م: ن م، ص 282.

(3) عارف العارف، م س، ص 241.

(4) نسبة إلى لحارة بني غانم، مجير الدين الحنبلي، ن م، ص 286.

(5) ن م، ن ص، و عارف العارف، ن م، ص 243.

(6) بلاد الكرج: هي جورجيان الآن وعاصمتها تفليس، مجير الدين الحنبلي، م س، ص 292.

(7) عارف العارف، ن م، ص 202.

(8) أبو المحاسن، م س، ج 9، ص 55.

- 2- بُنيت زاوية الشيخ الإمام أبي قَدّين شعيب بن الحسين الأندلسي<sup>(1)</sup>.
- 3- أنشأ تنكز نائب الشام قناة السبيل في القدس مع حوض كبير ومجاري للماء في الجبل حتى دخل الماء للقدس سنة 728هـ/1327م، كما أنشأ حماماً وخانقاه<sup>(2)</sup>.
- 4- بنى في أيامه السور القبلي عند محراب داوود عليه السلام وزين صحن المسجد الأقصى ومسجد سيدنا الخليل عليه السلام بإشارة تنكز، وفتح بالمسجد الأقصى شباكاً عن يمين المحراب وشماله سنة 731هـ/1330م، وجدد تذهيب القبتين في المسجد الأقصى سنة 728هـ/1327 وقبة الصخرة المشرفة سنة 718هـ/1318م، وما زال هذا التذهيب في غاية الحسن والجمال حتى اليوم، وعمر القناطر على الدرجتين الشمالييتين لصحن الصخرة، كما عمّر باب القطنين<sup>(3)</sup>.

- 5- ومن المدارس التي أنشئت في عهد سلطنة محمد بن قلاوون الثالثة:
- 1- المدرسة الجاولية: شمالي الحرم الى الغرب، بُنيت فوق "برج أنطونيا" الروماني وهي الآن مدرسة، أوقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة<sup>(4)</sup>.
- 2- المدرسة الكريمة: بباب حطة سنة 718هـ<sup>(5)</sup>.
- 3- المدرسة التنكزية: بخط باب السلسلة<sup>(6)</sup>، أوقفها نائب الشام الأمير تنكز الناصري سنة 729هـ/1228، درس فيها أساتذة قديرون منهم الشيخ أحمد الشهابي بن

(1) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص 602-605.

(2) المقرئزي: السلوك، ج 2، ق 1، ص 302، ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج 1، ص 175.

مجير الدين الحنبلي، م س، ص 111، ص 281.

(3) عارف العارف، م س، ص 203-204، ومكتوب عليه ان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جدد عمارته عام 734هـ، مجير الدين الحنبلي، ن م، ص 278، ويقع هذا السوق في الغرب من الحرم ويسمونه خان تنكز.

(4) مجير الدين الحنبلي، م س، ص 203-204.

(5) ن م، ص 284.

(6) ن م، ص 281.

محمد تنكز والشيخ المحدث أحمد بن هلال مؤلف كتاب "مثير الغرام بفضائل  
أهل القدس والشام"<sup>(1)</sup>.

4- المدرسة الأمينية: بباب شرف الأنبياء شمالي الحرم أوقفها صاحب أمين الدين  
عبد الله سنة 730هـ/1329م<sup>(2)</sup>.

### القلع والحصون الصليبية:

لقد شهدت البلاد العربية والإسلامية في العصر العباسي الأخير في القرنين السادس  
والسابع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين أحداثاً دامية تمثلت في الحروب الصليبية  
والغزو المغولي استمرت طيلة قرن من الزمان على نحو متقطع حتى توقفت تماماً بسقوط  
القسطنطينية عاصمة بيزنطة على يد السلطان محمد الفاتح سنة 1453م.

وما زالت البلاد العربية والإسلامية تعاني من نتائجها وآثارها بينما استفادت أوروبا منها  
حضارياً بعد نقلها علوم وفنون الحرب والتحصين عند المسلمين، وعندما زرت بعض هذه  
القلع في الكرك والشوبك وعجلون كباحث ومؤرخ أيقنت ضرورتها من حيث التحصين والبناء  
ومهارة ودقة الفن المعماري وقد تمثلت بسلسلة من الحصون العسكرية المتكاملة المترابطة فيما  
بينها للمحافظة على استمرارية الوجود في بلادنا إلى أن قيض الله لنا قيادة حكيمة مؤمنة بالله  
استطاعت إفشال مخططات الفرنجة في استمرارية دولهم وطردهم من بلاد الشام.

وبقيت هذه الحصون والقلع بعدهم شاهداً أبدياً على ذلك بطول خمسمائة ميل تقريباً  
ابتداءً من ساحل البحر الأحمر وحتى ضفاف الفرات شرقاً، وكان أقصى عرض لها يبلغ ستين  
ميلانً اذ امتدت القلاع على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط داخل أراضي جنوبي بلاد  
الشام المتاخمة لهذه السواحل كامتداد لقلع قبرص والأكروبول الأتيني في جبال اليونان  
وسواحل آسيا الصغرى للتصدي للسلاجقة الأتراك والأتراك العثمانيين.

<sup>(1)</sup> ان م، ص 245.

<sup>(2)</sup> ان م، ص 245-246.

## قلاع وحصون الصليبيين في سوريا وفلسطين والأردن:

لقد أظهر بلدوين الأول تسامحاً مع المسلمين واليهود من رعاياه بالسماح لهم بعدد قليل من المساجد والمعابد والقلاع<sup>(1)</sup>، وسُمح لهم بالحلف على القرآن والتوراة وأجاز الزواج المختلط بين الفرنجة والمسلمين<sup>(2)</sup>، حتى توفي عام 1118م أثناء مهاجمته لمصر عند بحيرة المنزلة ونصب بعده ابن عمه بلدوين الثاني أمير الرها من (1118-1131م) الذي اعتمد في حكمه على طائفتي الفرسان الاسبتارية والداوية<sup>(3)</sup>، وأوصى لإبنته وزوجها "فولك أوف انجلو" الذي حكم من (1131-1143م) واشتهر هذا بتشييد القلاع الضخمة في مختلف أنحاء مملكته<sup>(4)</sup>، كما شيد الإقطاعيون قلاعاً في الأراضي التي استولوا عليها من الأمراء العرب مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة المرقب (Margat) في أراضي سوريا<sup>(5)</sup>.

ودراسة ظاهرة القلاع للمؤرخ الحضاري مهمة جداً من حيث ارتباطها السياسي ووضعها الاستراتيجي والظروف التاريخية التي أحاطت ببنائها بالإضافة لقنها المعماري المميز الذي يشير إلى الأرض العربي كموطن لحضارات قديمة اضاف عليها الغزاة الجدد عدداً من القلاع لحماية ممتلكاتهم ومراقبة خصومهم أصحاب الأرض الأصليين، كما لوحظ عليها كقواعد هجومية انطلقت منها جيوش الفرنجة تجاه المدن الساحلية بالإضافة لموقعها الاستراتيجي الهام

(1) رنسيان، م س، ج 2، ص 162-164.

لقد شيد قلعتين هما قلعة صفد عام 1102م، وقلعة تبين (Leteron) لحماية حدود ممكنة الشمالية من جهة دمشق، انظر: فولفانغ مولر - القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلال، مراجعة سعد الطيان، ط2، دار الفكر، دمشق 1404هـ/ 1984م، م ص 15.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 543، أبو المحاسن، م س، ج 5، ص 71.

حيث بلغت مملكته أوج مجدها فامتدت من العقبة إلى بيروت عدا صور التي بقيت مع المسلمين حتى عام 1124م، وعسقلان التي بقيت مع المسلمين حتى عام 1153م، ووصلت حدود دولته إلى وادي الأردن شرقاً.

(3) عاشور، ن م، ج 1، ص 55.

(4) لقد عُرف سابقاً باسم كونت انجو (Cont Angou) وبنى قلعة صغيرة في بيت جبرين (Bethegibelin) وقلعة بيننا (Ibelin) وإعادة بناء قلعة كوكب بلفورا (Belvoir) وتسمى اليوم كوكب الهوى، وأمر أحد إقطاعية بايان لوبو تيه (Payen Botei) ببناء قلعة الكرك (Al- Kerak) عام 1142م، في شرقي الأردن لصد الغارات المصرية المستعمرة المنطلقة من عسقلان. مولر، م س، ص 16، وأبو الفداء تقويم البلدان ص 242.

(5) مولر، ن م، ص 17-18.



لقربها من طرق القوافل الرئيسية بين مصر والشام كقلاع الكرك والشوبك والعقبة ومعان والقويرة، ومن حيث فنها المعماري فقد لاحظت عند زيارتها بأن أسوارها وإبراجها كانت مبنية من الحجارة المتينة، أما قلاع فلسطين الجبلية الساحلية فقد كانت تشبه قلاع شمالي فرنسا وجنوب إنجلترا طبقاً للتقاليد النورماندية<sup>(1)</sup>.

ومنذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي بدأ المسلمون في بناء قلاع حصينة مقابل قلاعهم كقواعد هجومية مثل قلعة "عجلون" مقابل قلعة كوكب الهوى (Belvoir) سنة 1184م، مما أفقد التحصينات الصليبية دورها الهجومي وتحولت للطابع الدفاعي كقلعة كوكب الهوى وصفد والشوبك والتي اضطرت إلى التسليم في شتاء 1188م نتيجة للحصار المفروض عليها بسبب الجوع ونقص المدافعين وعدم وصول النجدة بعد هزيمتهم في حطين واستيلاء المسلمين على مملكة القدس والأراضي الأخرى<sup>(2)</sup>.

وبالنسبة لسياسات المماليك نحو القلاع والمدن الإفرنجية المتحصنة بعد رحيلهم عام 1291م، إذ خربت بعض القلاع والمدن التي هجرها سكانها، وذلك لحرمان الفرنجة من قواعد احتياطية يمكن استخدامها مستقبلاً إذا ما عادوا الكرة من قبرص، فتداعت بسبب هجرة السكان والإهمال.

وأما معظم المعاقل الكبيرة فقد شغلها المماليك قبل سقوط عكا وأعادوا بناءها ووسعوا فيها كقلعة المرقب والحصن في سوريا مثلاً وبقيت مقرأ للحكومات المحلية، أو قواعد عسكرية متقدمة حتى نهاية سلطة المماليك في سوريا وفلسطين.

(1) مولر، ن م، ص 17، الدباغ، م س، ص 176-177.

(2) مولر، ن م ص 74، وبالنسبة لأهمية قلعة عجلون الهجومية انظر:

Bibliography, Enc, 1<sup>st</sup>, D. Soudel, 1960, P. 214.

C.N. Johns, Medieval, Ajlun, in Quarterly of the Department of the Antiquities in Palestine, 1, 1931, p.21-33.

وبالنسبة لقلعة عجلون فقد خربها المغول عام 1260م ورممها الظاهر بيبرس.

ومن القلاع الهامة في جنوب بلاد الشام التي أولاها المماليك اهتمامهم قلعة الصلت<sup>(1)</sup>، وقلعة عجلون<sup>(2)</sup> اللتين هدم المغول سوريهما وعملا على تخريبهما فأمر الظاهر بيبرس بإعادة بناء ما تهدم منها، ونظفت الخنادق المحيطة بهما، وملاهما بالأجناد والعتاد<sup>(3)</sup>. وأما من حيث صفات القلاع الفرنجية المعمارية في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد عمل الصليبيون على زيادة مناعتها بزيادة عدد كوات الرمي فيها وإقامة طبقات من الشرفات الدفاعية المترابكة فوق بعضها تخترقها فتحات للرمي (Phole)، وبناء شرفات بارزة ذات كوى، ثم حولوا الأبراج المستطيلة الى أشكال نصف دائرية متأثرة بالبناء الأرمني بحيث يمكن الرمي منها على طول الجدران المجاورة<sup>(4)</sup>، وذلك منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، ولم يبق من هاتين القلعتين اليوم إلا الآثار بعد أن دمرها ابراهيم باشا العثماني بالديناميت عام 1848م.

كما اهتم العسكريون بتحصين بوابات الدخول بحيث يمكن رميها جانبياً من الشرفات المحمية جيداً مع تقوية جدران البوابة والحواجز المختلفة [الشعريات الحديدية والجسر المتحرك والأبواب وغيرها]<sup>(5)</sup>.

واستخدموا الأسوار المزدوجة حول المدن والقلاع مع وجود مسافات مكشوفة وزيادة عدد الأبراج والخنادق كقلعة الحصن والمرقب<sup>(6)</sup>. وبصفة عامة فقد كانت القلاع الفرنجية مقراً للسلطة الحاكمة بالإضافة الى وظيفتها الرئيسية الاستراتيجية للسيطرة على البلاد الجديدة التي احتلوها، وكانت على وجه العموم متكيفة مع الأرض الجبلية ومقسمة الى قلعة علوية وقلعة سفلية والقلب محمي ببرج محصن مع فناء مكشوف صغير في الداخل مثل القلاع الأوروبية الغربية القديمة.

(1) الصلت: بلدة وقلعة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها وهي تقابل أريحا وتشرف على الغور من مكان مرتفع، وقد بنى قلعتها الملك المعظم عيسى، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص245.

(2) عجلون قلعة حصينة بناها على جبل عوف أسامة بن منقذ أحد أمراء صلاح الدين عام 580هـ/1184م، وكان مكانها راهب اسمه عجلون سميت باسمه. القلشندي، صبح الأعشى، ج5، ص394، وانظر، د. يوسف غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، ص81.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص93.

(4) مولر: م، س، ص29.

(5) ن، م، ن، ص.

(6) مولر، م، س، ص36، إذ يعلق مولر على هذه التحصينات الجديدة.. " لا يوجد مثلها في اليونان ولا في فرنسا او إيطاليا التي اقتبست من طراز العمارة الحربية المتقنة المتمثلة في الأبنية الصليبية في كل من سوريا وفلسطين".

# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# ملخص الرسالة وخاتمتها

## ملخص الفصل الأول وخاتمة

## ويستنتج الباحث من مادة الدراسة في الفصل الأول ما يلي :

أولاً: لقد كانت نتيجة الصراع بين القوى الإسلامية المختلفة في بلاد الشام كالسلاجقة والفاطميين والقبائل العربية التي أسست إمارات مستقلة بالإضافة لخطر الباطنية وتعاونهم مع الصليبيين ضعفت الخلافة العباسية وعجزها عن مواجهة الهجمة الصليبية والمغولية مما أدى لسقوطها.

كما يشهد التاريخ على أن الفوضى وسوء الأحوال وانتشار الأخطار والمخاوف كثيراً ما ينتهي بظهور أحد المصلحين الذي يضع حداً لتلك الفوضى والأخطار، ويوفر الأمن والاستقرار بعد كثرة المعاناة من القلق، وخير مثال على ذلك ظهور صلاح الدين الأيوبي عام 565هـ/1169م كبطل منقذ للأمة الإسلامية فكان عصره عصر وحدة عربية كبرى شملت الشام ومصر وغيرها من الأقاليم. هذه الوحدة التي قامت على أسس قوية عقائدية مؤمنة بدينها وأرضها وتراثها وأهدافها، مما دفع أبناءها على الاستشهاد في سبيل الحق واثقة بنصر الله وصدق الله العظيم بقوله: (إن تتصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم). ولم تجد الصليبيين والمغول كثرتهم وسلاحهم أمام العزيمة والثبات وقوة الإيمان "القوة الموحدة للمسلمين"، لأن الجيوش الجرارة المدججة بالسلاح والعتاد لم تكن دائماً هي عوامل الانتصار ولكن انقسام الأمة الإسلامية شيعاً وأحزاباً ساعد على انتصار جيوش الصليبيين والتتار وأذاقوهم الذل والهوان والويلات بعد اجتياحهم للعواصم والمدن الإسلامية واحدة تلو الأخر، وصدق رسولنا الكريم بقوله: "إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني".

كما لا نستطيع تحميل الخلافة العباسية كثيراً في مواجهة هذا الغزو فهي لم تكن من القوة أو السلطة بحيث تؤثر كثيراً في مجريات الأمور خارج العراق لسيطرة المتغلبين وولاة الأطراف عليها بتأسيسهم دويلات عنصرية استقلالية أنانية في الشرق والغرب حتى سقطت على أيدي المغول وأحياها الأيوبيون والمماليك في

مصر مرة أخرى، فانحطّ منصب الخلافة ورضي الخلفاء بدورهم نفسياً بمحاولة رفع معنوياتهم أيام الأيوبيين والمماليك وذلك باصدارهم العهود الرنانة التي تؤكد حق الخليفة في تقليد السلاطين مناصبهم لتصبح شرعية كما حدث لصالح الدين عندما أسقط الدولة الفاطمية عام 567هـ/1171م وضمها للخلافة العباسية في بغداد ليكسب رضا وتأييد السلطة الشرعية في بغداد، ولاحظنا اضطراب صلاح الدين في أواخر أيامه قطع صلاته بالخلافة العباسية بعد يأسه من مساعدتها أو قيامها بدورها الإيجابي في توحيد المسلمين أو ربما كان ذلك لعدم حاجته اليها بعد تحقيق انتصاراته وإعادة الحق المغتصب في استرداد القدس وعكا وطبرية والناصرية وقيسارية.

وانتكتست وحدة المسلمين بعد وفاته عام 589هـ/1193م لصراع أبنائه وأخوته على الحكم مما أعاد دور الخلافة العباسية في بغداد للتدخل عندما أيدت العادل (أخو صلاح الدين) أيام الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي شرّفه بلباس الفتوة عام 599هـ/1202م، فاعترفت الخلافة بنفوذه على الشام ومصر، ثم قامت بمهمة التوفيق بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي حتى انتهى حكمهم بمقتل توران شاه بن الصالح أيوب عام 648هـ/1250م على أيدي مماليكه، فانقسمت الجبهة الإسلامية مرة أخرى بثورة الأمراء الأيوبيين ضد المماليك الذين انتزعوا السيادة من أيديهم.

وعندما آلت السلطة ليد امرأة "شجرة الدر" أرملة الصالح أيوب تدخلت الخلافة العباسية حيث استنكر الخليفة العباسي المستعصم بالله ذلك، وعرض عليهم ارسال "رجل يتولى الحكم إن كانت الرجال قد عذمت عندكم" مما دفعهم الى إقامة مُدبّر العسكر الأتابك عز الدين أيبك ملكاً على البلاد، فبدأ بذلك عصر دولة المماليك البحرية التي تسلمت زمام المبادرة في الجهاد ضد الغزاة الصليبيين والتتار بعد سقوط الخلافة العباسية على أيديهم.

فكان قيام دولة المماليك الأولى ضرورة حتمية لمواجهة هذه الأخطار، كما كانت معركة عين جالوت بداية النهاية للدولة الأيوبية بعد عجز الأمراء والسلاطين

الأيوبيين في الدفاع عن البلاد العربية أمام الهجمة المغولية الوحشية المدمرة وكانت أيضاً بداية لقيام دولة المماليك.

ولكن نسب المماليك الوضع أمام معاصريهم من السكان الأصليين في مصر والشام سبب لهم إحراجاً كبيراً دفعهم الى اتخاذ سياسة ذات شقين هما:  
- الجانب العسكري: إذ اهتموا بالجيش للظهور دائماً بمظهر القوة، والذي كان له الفضل في ردّ المغول وتطهير البلاد الشامية من بواقي الصليبيين.

- والجانب الديني: إتخذوا الدين ستاراً وسنداً شرعياً لكسب ولاء الشعب لشعورهم بالغربة، فأحيوا الخلافة العباسية بمصر لسد شعور النقص في نفوسهم، ولتكون سنداً شرعياً لهم ضد عداء الأيوبيين لهم علماً بأنه لم يكن للخليفة العباسي في القاهرة سوى الاسم، حيث كان يقتصر عمله على مبايعة السلطان لإضفاء الشرعية على حكمه، ومباركة من يحصل على السلطة بالسيف. كما جعلوا من مدينة القدس رمزاً لوحدة المسلمين وعنصراً فعالاً في الحياة الاسلامية بجوانبها المختلفة، وكان فضلهم من النواحي الحضارية اسهامهم في المحافظة على التراث العربي الاسلامي.

وهكذا كان عنصر المماليك بمثابة رحلة جديدة متميزة في تاريخ الشام ومصر سياسياً وإدارياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً.

وإن دل هذا فإنما يدل على فترات من الاستقرار والأمن والهدوء الذي أدى الى الثراء والازدهار الحضاري. كما تجدر الملاحظة بأن الدور السياسي والحضاري الكبير لمنطقة جنوب شرق الأردن قد بدأ في العصر الأيوبي وازدهر في العصر المملوكي.

إنها لعبرة لعل في تأملها درساً يفيدنا في مرحلة حاسمة من مراحل أمتنا الاسلامية المعاصرة نتيجة لتكالب أعداء الاسلام والمسلمين عليها لتقتنا بأمتنا



العربية والإسلامية عبر العصور التاريخية عندما أثبتت دائماً أنها قادرة على الصمود والاتحاد أمام كل خطر يهدد كيانها وبقائها بعد أن مرت في تاريخها الطويل بفترات من الانحلال والتخلف والتدهور مثلما أصابنا اليوم.

فلنبعد اليأس عن أنفسنا، ونبتعد عن التشكيك في قدراتنا ونتوحد على روابط إسلامية متينة وعقيدة راسخة لنستطيع النهوض والجهاد ضد أعدائنا المتربصين بنا لاسترداد قبلة المسلمين الأولى والتي كانت وما زالت من عوامل وحدة المسلمين لاستردادها بعون الله وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثانياً: وبالنسبة لعروبة المنطقة وأصولها السكانية وأهميتها الحضارية:

فقد أدت حالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لجنوبي بلاد الشام خلال العهود التاريخية الى فراغ سكاني وهجرات متعكسة بحثاً عن الأمن والسلام والرزق أو الاستيطان الأجنبي.

فكان الكنعانيون أول من نزل فلسطين حوالي 3000 ق.م وخاصة منطقة الخليل المتنازع عليها اليوم بين العرب واليهود، ثم شهدت موجة أمورية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (1200 ق.م) جاءت من بلاد الرافدين. وتوالت الهجرات الأجنبية، ففي حوالي الألف عام قبل الميلاد (1000 ق.م)، هاجر الفلسطينيون من جزيرة كريت وسكنوا فلسطين. وفي العصر البابلي حدثت هجرة معاكسة، حيث أفرغ بنوخ نصر الثاني الكلداني فلسطين من اليهود بسببهم الى بابل حتى أرجعهم قورش الفارسي ثم قضى عليهم تيطس الروماني عام 70م وبقيت جنوب بلاد الشام تحت حكم الرومان حتى الفتوحات الإسلامية الى حدوث الهجمة الصليبية الشرسة التي أحدثت خللاً في المجتمع العربي.

ويرجع المؤرخون أصول القبائل العربية في بلاد الشام الى اليمن وخاصة في أطراف الشام وباديتها والمناطق المجاورة لها حيث انتشرت على شكل هلال يمتد من جنوبي بلاد الشام الى الشمال الغربي منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد (1000 ق.م) حتى القرن الثالث الميلادي، فاستقرت قبائل فضاغة في جهة البلقاء وجنوبي شرقي

الأردن، ولخم وجذام في جنوبي الأردن وفلسطين، وغسان في منطقة دمشق وحوران وقبيلة كلب في تدمر والجنوب الشرقي من بلاد الشام، أما قبيلة تغلب فاستقرت في الجزيرة الفراتية، وربيعة الى الشمال الشرقي منها.

واستمرت هجرة القبائل اليمينية من معين وحمير وهمذان ومذحج والأزدوطي الى بلاد الشام أيام الفتح الاسلامي بعد معركة اليرموك ولحقت بها قبائل قيسية من البوادي مما ساهم في إرسال قوات لفتح مصر والجزيرة حيث ذكر البلاذري أن مركز التجمع الأول للمقاتلين في الجابية من حوران على أطراف بادية الشام الجنوبية، كما حتمت الظروف العسكرية ومناطق توطين القبائل الى اتخاذ الأجناد مراكز رئيسية للمقاتلين، وتطورت الأجناد الى مراكز إدارية وجغرافية مع ملاحظة سيطرت مجموعة قبلية في بعض الأجناد.

وتجدر الإشارة هنا الى أن هجرة القبائل العربية الى الشام كانت استيطانية حيث أعطيت القبائل المهاجرة الأراضي للزراعة والرعي، كما أعطيت القبائل القديمة أراضي جديدة لاعتبارات اقتصادية واستراتيجية زمن الخلفاء الراشدين والأمويين.

ويلاحظ أن بلاد الشام لم تشهد التوتر بين السلطة والقبائل على الأراضي ونتاجها لنجاح سياسة الأمويين في توزيع القبائل على خمسة أجناد مع منحها الأراضي من الصوافي وغيرها، حتى أن قصور الأمويين الصحراوية [قصر الحارنة والحلابات والعمرى وباير وغيرها] كانت مراكز للاستثمار الزراعي على الحد الشرقي من بادية الشام في شرقي الأردن لتوفير منشآت الري حولها، كما تعود أهميتها لقربها من مراكز أجناد ودمشق [حوران، البلقاء، تدمر] والأردن [الغور وطبرية].

وبالنسبة لأهمية شرقي الأردن في أواخر العصر الروماني وقبيل الفتح الإسلامي فقد كان حلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب لكثرة الطرق التجارية المهمة التي تمر بها، وفي العهد الإسلامي شارك الرسول الكريم أيام طفولته عمه أبو طالب في رحلات إلى بلاد الشام مروراً بشرقي الأردن واستمر اتصاله بتجار البلقاء الذين كانوا يبيعون الزيت والدقيق في الحجاز.

وتمهيداً لنشر الدعوة الإسلامية فيها وجّه سرايا عسكرية إلى جنوبي الأردن ووادي السرحان عام 5/هـ/626م لوادي الجوف (في دومة الجندل) لتأديب بندو هذه المنطقة لكثرة اعتدائهم على القوافل التجارية من المدينة المنورة وسوريا ثم غزوة مؤتة عام 8/هـ/629م، وبقي الرسول الكريم يفتح أعين المسلمين ويستتفرهم لغزو الشام بارسال السرايا إلى التخوم الرومانية شمال جنوبي الأردن حتى توجهها بغزوة تبوك التي قادها بنفسه عام 9/هـ/630م وأوصى بتسيير جيش أسامة بن زيد لمقاتلة الروم في آبل الزيت من مشارف شرقي الأردن [قرية القويلبه اليوم من أعمال منطقة عجلون] عام 11/هـ/632م.

وبعد الفتوحات الإسلامية رحّبت القبائل العربية في بلاد الشام بالحكم العربي العادل الذي أنقذها من ظلم الحكم الروماني الفاسد. وأصبح جند الأردن "كور الأردن" زمن الخلفاء الراشدين يشمل إربد وأذرعات "درعا اليوم" وبيسان وعكا وصور وعاصمته طبريا أما جند فلسطين فكان يمتد من رفح إلى اللجون ومن يافا إلى عمّان وزغُر على شاطئ البحر الميت وجبال الشراة.

وفي زمن الأمويين أصبحت الأردن مركز استجمام وراحة للخلفاء الأمويين لقربها من البادية ودمشق العاصمة فشيّدوا فيها القصور مما يدل على استقرار الأمن فيها.

ومن الحميمة (بين العقبة ومعان)، في شرقي الأردن بدأت الدعوة العباسية التي نقلت عاصمتها لبغداد عام 132/هـ/749م مما أثر في الأحوال العامة لشرقي الأردن بعد إهمال قصورها وقلاعها وتغيير طرق الحاج المار فيها، وبعد سيطرة الدولة الفاطمية 358/هـ/969م بسطوا نفوذهم على فلسطين وشرقي الأردن، وعندما ضعف العباسيون والفاطميون عام 410/هـ/1021م شبت الثورات في شرقي الأردن وفلسطين وسوريا لمدة سبع سنوات حتى استولى الأتراك على فلسطين وسوريا وشرقي الأردن عام 491/هـ/1099م. مما مهد النجاح للصليبيين في غاراتهم الأولى واستولوا على القدس عام 491/هـ/1099م ثم زحفوا شرقاً على الأردن عام 499/هـ/1107م وشرعوا

في تشييد القلاع والحصون خاصة بعد أن أدركوا أهمية القسم الجنوبي من شرقي الأردن لحماية مملكة بيت المقدس والتحكم في الطرق الرئيسية بين مصر وسوريا والحجاز.

وبالنسبة للاستيطان اليهودي في فلسطين فيرى الباحث أن حاخاماتهم كتبوا تعليماتهم المقدسة في التوراة المعاصرة المزيفة وأثبتوا أن اليهود جنسية تبحث عن أرض الميعاد وليست ديانة نستطيع التعايش مع بقية الأديان في وطن واحد وهي حكرٌ على شعب بعينه يكون أفضل الشعوب حتى لو سرق أو زنى أو أشرك بالله.

ويدعون بأنهم ورثة الأنبياء وشعب الله المختار الذين وعدهم الله وراثته الأرض وإقامة دولتهم، من النيل إلى الفرات بالإضافة إلى ما تأثر به بعض المؤرخين المسلمين بفكر المستشرقين في نسبة اليهود إلى النبي إبراهيم عليه السلام وإن إبراهيم واسحق ويعقوب كان يهودياً وأن اليهود الحاليين هم ورثتهم لأنهم من أصلهم وأن الله قد وعد ذرية إبراهيم وراثته الأرض وفلسطين، فيصبح لذريته من العرب واليهود الحق في فلسطين وخير مثال على ذلك الدكتور حسن صبري الخولي، مستشار الرئيس جمال عبد الناصر للأسف عندما أثبت في رسالة دكتوراه بأن لليهود الحق في فلسطين في ص 33 بعنوان سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين يقول فيها "يقرر الصهيونيون أن فلسطين هي الأرض التي وعدهم الله بها تأسيساً على ما جاء في التوراة...، وأن الله قد وعد إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده أن يعطيه فلسطين لإنشاء دولة فيها" حيث استشهد بفسر التكوين من ص 3-5 لتسلك ... أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات الكبير] ويضيف ونحن نسلّم بما جاء في التوراة على أساس أنه كتاب مقدس من عند الله ولكننا لا نستطيع مجازاة اليهود في تفسيرهم التعسفي لأن الوعد الإلهي ليس موجهاً إلى اليهود وحدهم وإنما هو وعد لإبراهيم وذريته اسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط يتساوى في ذلك الحق اسحاق جد اليهود واسماعيل جد العرب وعلى ذلك فالحق في فلسطين ليس مقصوراً على اليهود وإنما هو لذرية إبراهيم على الإطلاق...".

وساهم المستشرقون الصهاينة في نشر هذا الفكر في المدارس والجامعات مما أدى الى انصياح بعض الجماهير العربية وتسليمهم بمخطط الأعداء ... لأن كتاب التاريخ أفهمهم بأن الحق رجع أو الى أصحابه، وبهذا هُزم المسلمون فكرياً ولم يجدوا من ينبهم ويوقظهم من غفلتهم... فيجب على المؤرخ الاسلامي إعادة ثقة الأمة الاسلامية في وجودها وحققها في الاستقلال بأرضها وكرامتها وكيانها، وذلك بالتنبيه الى خطورة ما تتعرض له الأمة على ايدي كتاب التاريخ، ويجب عليه تصحيح هذه الأخطاء متبعاً المنهجية العلمية الصحيحة بما يجده في القرآن الكريم الذي يفضح هذا التزوير في كتاب التوراة المزيفة والتاريخ "الاسرائيليات، في سير الأنبياء والرسل. فأصبح من الواجب عليّ كباحث ومؤرخ اسلامي أن أوضح الحقيقة الدينية القائلة بأن جميع الأنبياء والرسل دعوا الى الاسلام، واليهود لا يرثون الأنبياء والرسل المسلمين. فابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وداود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام ... دينهم جميعاً الاسلام، ولم يكونوا هوداً أو نصارى والدليل قوله تعالى: (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمتُ لربِّ العالمين. ووصى بها ابراهيمُ بنيه ويعقوب يا بني إنَّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون)<sup>(1)</sup>. وقال تعالى: (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إنَّ أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين)<sup>(2)</sup>.

(1) البقرة آية 130-133.

(2) آل عمران، 68.

وقال تعالى: (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم

مسلمين)<sup>(1)</sup>.

وقال تعالى: (قالت يا أيها الملا إني ألقى إلى كتاب كريم، إنه من سليمان وأنه بسم الله

الرحمن الرحيم، ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين)<sup>(2)</sup>.

وهكذا حسم القرآن الكريم قضية الدين والوراثة. فأنبياء الله المذكورين كانوا مسلمين وأن الذين لهم الحق في وراثتهم هم المسلمون الذي اتبعوا ملة إبراهيم ونبي الله محمد (ص) الذين آمنوا منهم وأسلموا لله رب العالمين.

قال تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا). (ولا ينال عهدي

الظالمين)<sup>(3)</sup>.

وقال تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي

الصالحون)<sup>(4)</sup>.

لذا نرى بأن القرآن خاطب اليهود بأنهم ليسوا أتباعاً لإبراهيم لأنه نبي مسلم ويقول لهم أيضاً ودليل انحرافكم هو أنكم لم تؤمنوا بمحمد (ص)، وبالتالي فلا حق لكم في وراثة هؤلاء الأنبياء المسلمين، ولا حق لكم في شبر واحد من أرض الاسلام، لأن الكافر لا يرث مسلماً.

كما أثبت القرآن بأن اليهودية والنصرانية بدعه وليست من الله تعالى، قال تعالى:

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بله ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من

المشركين، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق

(1) يونس آية 84.

(2) النمل آية 29-31.

(3) البقرة آية 124.

(4) الأنبياء آية 105.

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون<sup>(1)</sup>.

لذا يجب على المؤرخين المسلمين الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية عند التأريخ للأمة الإسلامية وعدم الاعتماد على المصادر غير الموثوقة ومنها التوراة والإنجيل والتلموذ والتفاسير والشروح النصرانية. وبعض المراجع الحديثة المتأثرة بالمستشرقين الذين قسموا التاريخ الى قديم ووسيط وحديث والتي وقعت في حرمة الاعتداء على ذات الله ورسله، وزعمت أن الأنبياء المسلمين كانوا يدينون باليهودية وأن لهم حق وراثته النبي الكريم إبراهيم وسليمان عليها السلام ... فكان هذا لخدمة الصهيونية.

ونخلص الى القول بأن نسيان الأمة الإسلامية للحقيقة التي بينها الله رب العالمين لنا في كتابه وهي: "أن الاسلام هو دين الله في الأرض وفي السماء وأن اليهودية والنصرانية ليسا دينين سماويين". وقد ورد ذلك في تفاسير القرآن الكريم فعندما تقرأ على سبيل المثال لا الحصر تفسير الإمام الحافظ ابن كثير لقوله تعالى: (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)<sup>(2)</sup>.

أي ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام، وأنتم تعلمون، إن دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة، وليست من الله، لأنهم ارادوا بزعمهم الباطل لباس ثوب الدين ووراثته الأنبياء، وزيفوا تاريخ البشرية لخدمة مصالحهم بحق زعمهم لأنفسهم في فلسطين فالموعودون بالتمكين في الأرض المقدسة وغيرها من أرض الله والمبشرون بوراثته الأرض المقدسة وغيرهم هم المسلمون من ذرية ابراهيم بدليل نص الآيتين الكريمتين، قال تعالى: (واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك

(1) البقرة آية 135-136، وانظر أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الفكر، ج1، ص132، 1966.

(2) سورة البقرة آية 42 وانظر الإمام الحافظ اسماعيل ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ج1، ص84.

للناس إماماً قال ومن ذريتي، قال لا ينال عهدي الظالمين<sup>(1)</sup>، فيكون الله قد حجب الإمامة "أي الرئاسة" عن الظالمين الفاسقين والكفرة من ذرية إبراهيم عليه السلام كما حسم الله الأمر بقوله: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين)<sup>(2)</sup>.

ويأتي الحديث الشريف المروي عن رسول الله الكريم ليؤكد هذه الحقيقة:  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فأقتله إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود)<sup>(3)</sup>.

وفيما يتعلق بنسبة التوراة الم إلى إبراهيم عليه السلام والزعم بأنه كان يهودياً فهذه شبهة قديمة وقد ردَّ الله عليها في كتابه الكريم بقوله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون إبراهيم وما أنزلت من التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أتاكم حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين)<sup>(4)</sup>.

وَأَلَّفَ الْيَهُودَ كِتَاباً سَمَوْهُ التَّوْرَةَ وَالتِّي لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالتَّوْرَةِ الَّتِي أَنْزَلْتُ عَلَى سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَلِيلِ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَلُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً"<sup>(5)</sup>.

(1) البقرة 124.

(2) آل عمران 65-68 وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 375.

(3) صحيح الجامع الصغير وزيارته، حديث (3074-3078) أخرجه الشيخان واللفظ المسلم.

(4)

(5) صحيح البخاري..



وشهد بذلك شاهد من أهلها الا وهو موسكاتي في كتابه الحضارات السامية القديمة  
ص 139 وديوانت في كتابه قصة الحضارة<sup>(1)</sup>.

ولقد أدرك اليهود، أن هناك قطاعاً كبيراً من بني البشر، لن يقرأ التوراة  
المحرقة... ولن يقتنع بها... ولذلك لجأوا الى كتب التاريخ يزيفون ويشوهون بتاريخ  
الأنبياء والرسل ودين الله ومن له حق وراثته الأرض... لكي يربوا في المدارس  
والجامعات أجيالاً تعتنق ذلك التاريخ المزيف... حتى اذا ما وصلوا الى موقع  
المسؤولية في قيادة الأمة سلموا لليهود باغتصابهم فلسطين وقيام دولتهم من (النيل الى  
الفرات) وعاصمتها بيت المقدس "أورشليم" وزعموا أنهم جادون في البحث عن هيكل  
سليمان اليهودي اسفل المسجد الأقصى الذي بناه آدم عليه السلام بعد المسجد الحرام  
بأربعين سنة<sup>(2)</sup>، وجدده سليمان وابراهيم واسحاق ويعقوب وداود عليهم السلام والذي  
اليه تشتد الرجال والأرض المباركة حوله بعد المسجد الحرام. ارض فلسطين التي  
جعلها الله ميراثاً للأمة الاسلامية، تقيم حكم الله عليها بعد تحريرها قال تعالى: (ولقد

كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)<sup>(3)</sup>.

(1) ديوانت، قصة الحضارة، م 1، ج 2، ص 367، قال : "كيف كُتبت هذه الاسفار؟ ومتى كُتبت؟ وأين كُتبت،

ذلك سؤال لاضير فيه، ولكنه سؤال كُتب فيه خمسون ألف، مجلد، ويجب أن نفرغ منه هنا بفقرة واحدة

تركة بعدها من غير جواب، فذلك يعني أن هذه التوراة مشكوك في نسبها للنبي موسى عليه السلام.

(2) د. جمال عبد الهادي وزوجته: أخطاء يجب ان تصحح في التاريخ ص 35.

(3) سورة الأنبياء آية 105.

وفي القرآن الكريم شواهد عظيمة على عداوتهم للمسلمين الى يوم القيامة منها:

قوله تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (1).

وقوله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو

الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير) (2). وقوله

تعالى: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (3).

وقوله تعالى: (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) (4).

ومن هنا يبرز المفتاح الصحيح لاسترجاع الحق المغتصب في فلسطين، إنه

العقيدة الاسلامية التي تكشف زيف اليهود من براءة ابراهيم وسليمان منهم.

كما أن ادعاءات اليهود بتراثهم الحضاري العميق هو زيف باطل لأنهم عاشوا

قديماً على هامش أقدم المراكز الحضارية في وادي الرافدين ووادي النيل وحضارة

شبه الجزيرة العربية. فالتوراة الحالية مقتبسة من حضارات أخرى بينما قلبت

الصهيونية الحديثة الأمور بتوظيف التوراة المعاصرة في علاقة اليهود مع الآخرين

للوصول الى أهدافها السياسية، ونجحت في ترسيخ هذه الأوهام السياسية والحقوق

التاريخية لها بفلسطين "ارض الميعاد" في عقول الملايين من مختلف القارات عامة

والشعب اليهودي خاصة.

فأطماع الصهيونية ليست لها حد ترتضيه حتى لو تنازلنا لهم عن الأراضي التي

احتلوها علماً بأن التنازل عن ذرة تراب واحدة من تراب فلسطين خيانة وعار في

(1) المائدة، آية 82.

(2) البقرة، آية 120.

(3) البقرة، آية 217.

(4)

جبين الأمة العربية والاسلامية، كما يشكلون خطراً على الإنسانية جمعاء بسبب عقائدهم العرقية العنصرية اللانسانية.

ثالثاً: اما بالنسبة لدور القبائل العربية في الأردن وفلسطين أثناء الحروب الصليبية والمغولية: نلاحظ ارتباط البدوي في جنوب بلاد الشام بقبيلته برابطة الدم والمصلحة، فكان ولاؤه لقبيلته قبل الولاية للدولة لتمسكه بالعادات والتقاليد مما ادى للصراع القبلي والمنازعات هذا بالإضافة للأصول السكانية لبلاد الشام عبر التاريخ والذي أظهر عصبية عرقية عنصرية كالأكراد والأتراك والتركمان والأرمن وقد ساهمت هذه القبائل أثناء الحروب الصليبية بحراسة القوافل والطرق التجارية وأداء لها بالإضافة الى مساهمتهم الكبرى في نصرة الجيش الصلاحي والدفاع عن الحدود "الثغور الاسلامية" كبنى كلاب الذي تعاونوا مع الأيوبيين ضد الصليبيين حيث قدموا لهم الخدمات كإمدادهم ملوك الأيوبيين بالجمال لحمل الغلال لمناطق الثغور الشامية خاصة زمن الكامل الأيوبي وقاموا بدور الطلائع العسكرية الاستكشافية زمن الأشرف موسى الأيوبي بجمع أخبار العدو من الصليبيين والتتار لمعرفة تحركاتهم وتتبعها وعلى نجمهم زمن الناصر محمد بن قلاوون حيث مال اليهم ولبس زيهم وأمن زعماءهم المعارضين لنواب الشام، وعين سليمان بن مهنا من آل ربيعة أميراً عليهم وهم أيضاً من عرب جنوب الشام. وهكذا أصبحوا تحت إمرة الأمراء من آل ربيعة. كما برز آل فضل من ربيعة بزعامة عيسى بن محمد ثم مانع من بن فضل وابنه من بعده مهنا بن نافع، فقد شارك زعيمهم بقيادة عربية في معركة عين جالوت، وترجع اصولهم الى طيء وهم من عرب الجنوب. فكافة السلطان قطز بإقطاعه مدينة سلمية من أعمال حماة ومن القبائل المؤثرة أيضاً في الأحداث السياسية في العصرين الأيوبي والمملوكي بنو خالد ومنهم الصيالة والزمول والشقرة وآل ملحم وآل جراح ولا زالت هذه القبائل في جنوب بلاد الشام حتى اليوم وخاصة في شرق الأردن.

كما شارك جيش الكرك في عهد الناصر داود الأيوبي في حرب أعدائه من المعارضين والفرنجة في عكا وحقق انتصارات باهرة لاستعمالهم سلاح المدافع لأول

مرة في بلاد الشام وذلك أثناء ثورة الناصر أحمد بن قلاوون عام 743هـ/1342م التي  
نعتبرها ثورة وطنية وقومية ضد المماليك بزعامته عندما اعتبر نفسه مواطناً كركياً  
وعمل على جعلها عاصمة ومقراً مركزياً لمملكته.  
واستمرت هذه المنطقة كمركزاً هاماً للثورات الشعبية والتحريرية أيام دولة المماليك  
الثانية "الجراكسة".

## ملخص الفصل الثاني وخاتمة

## النظام الإداري

لقد أوضحت هذه الدراسة الحضارية، أن الدولة الأيوبية ورثت نظم الحكم وفلسفته عن الدولة السلجوقية الأم شأنها في ذلك شأن الدولة الزنكية الذي قام على فلسفة خاصة من القوة وليس العدل بل الوراثة، هذه النظرة الوراثة كانت تعتبر الدولة إرث يقسم بين أبناء السلطان بعد موته، مما أدى لتمزق الدولة وضعفها، بالإضافة إلى الآثار السيئة للإقطاع الحربي الأيوبي على الأوضاع السياسية، إذ كان هم الأمراء المقطعون هو الاستقلال عن ملوك بني أيوب، وتأكيد سيطرتهم على قطاعاتهم وكان ولاؤهم بمقدار ما يمنحون من إقطاعات كالمرتزقة الذي يقاتلون مع من يدفع أكثر، مما ساهم في زيارة الاضطرابات والتفكك إلى مملكات المدن الصغيرة حتى وصلت إلى حد استحالت معه محاولات الإصلاح بين الأخوة، فزاد النزاع العسكري بينهم مما عاد بعواقب سيئة على البلاد. وكان أكبرها خطراً ووقعاً في نفوس المسلمين الاستعانة بقوى خارجية إسلامية وغير إسلامية، كالخوارزمية التي استعان بها المعظم ابن العادل والصليبية التي استعان بها الملك الكامل وخاصة زمن الامبراطور فردريك الثاني الذي سلمه مقابل ذلك بيت المقدس في وقت كان يتحتم فيه عليهم توحيد قواهم البشرية الإسلامية وحشد طاقتهم المادية لمواجهة العدوان الصليبي المستمر على بلاد الشام ومصر، والاستعداد للخطر المغولي الذي بدأ يظهر للعيان هذه الأمور أدت إلى القضاء على الكثير من القيم والمفاهيم لدى المسلمين، وخيم بانعكاساته السيئة على الحياة الاقتصادية لصغار المزارعين والتجار الذين دفعوا الثمن مضاعفاً دون مبرر، كما هدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية للمسلمين والتي كان يمكن ادخالها لجهاد الصليبيين والمغول فيما بعد:

وهناك حقيقة واضحة للعيان وهي استفادة الأيوبيين من شراء المماليك وتجنيدهم إلا أن المماليك هم الذين قضوا على الدولة الأيوبية كما قال المثل "وعلى نفسها جنت براقش" ولاحظنا أن الدولة الأيوبية في الشام ومصر أخذت تعاني ظواهر الضعف والسقوط منذ عام 635هـ/1237، كما ضعف تيار الجهاد بعد موت صلاح الدين الأيوبي، واقتصرت موقف المسلمين على الدفاع وشن المفارقات الغارات كما لاحظنا اخطاء عسكرية تغتزز بهدم أسوار

وقلاع المدن الاسلامية خوفاً من وقوعاً بأيدي الافرنج كما فعل المعظم عيسى بن العادل بهدم أسوار وتحصينات بيت المقدس قبل الحملة الصليبية الخامسة والذي أدى فشلها إلى هذا الخطأ الواضح وخاصة عندما عجز الكامل عن الدفاع عنها فسلمها للامبراطور فريريك الثاني.

### وبالنسبة لسياسة صلاح الدين الداخلية:

فقد أوعز صلاح الدين إلى مستشارين وقضاة وكتابه أمثال عماد الدين الاصفهاني وبهاء الدين بن شداد، والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الفلسطيني ليرسلوا رسائل وكتب إلى الخلفاء العباسيين والأمراء واصحاب الشأن وشيوخ القبائل العربية كتعبئة فكرية للشعب العربي المسلم لمواجهة الغزو الصليبي

وكان من أهم العوامل التي أدت إلى بعث حركة الجهاد ضد الصليبيين تلك السياسة التي انتهجوها في خلال غزوهم لبلاد الشام وهي سياسة ارتبطت برغبتهم الجامعة في الانتقام من المسلمين بصورة تنطوي على جانب كبير من الوحشية والعنف البالغين حيث عملوا على ذبح كل من صادفهم.

وبشكل عام كان سلاطين الأيوبيين وبقية ملوك الأطراف يحرصون على مظاهر التبعية للخلافة العباسية.

كما استخدموا التصوف كوسيلة أساسية بجانب المدارس لمحاربة الدعوة الاسماعيلية بمصر، كما عملوا على إحياء الخلافة العباسية بالطرق بعد أن ترددت نداءات صلاح الدين والخلافة العباسية في أرجاء العالم الاسلامي لوحدة المسلمين كما استمر شعار الوحدة الاسلامية حول الخلافة العباسية مرفوعاً طوال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لعدم تقبل المسلمين لفكرة قيام خلافة أخرى خاصة بعد أن أوكلت القيادة السياسية في بغداد إلى الأيوبيين قيادة حركة الجهاد الاسلامي منذ الربع الأخير للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث تسلموا مسؤولية الجهاد وبكل جدارة بعد ورائتهم لممتلكات الفاطميين بجنوب الشام والحجاز ولايمن وممتلكات آل زنكي في الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام، كما امتد نفوذهم إلى أرمينية 'خلائط وميفارقين' مما جعلهم جيراناً للدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى 'تركيا اليوم' والدولة الخوارزمية بآيران. كما لوحظ بأن جميع فتوحات الساحل الشامي بقيادة

صلاح الدين الأيوبي قد تمت باسم الخلافة العباسية بالاضافة إلى استشارة الخليفة العباسي وتبشيريه في كل نصر يحققه وتفاصيل غزواته.

وسار المماليك على النمط الأيوبي في الحكم بعد زوال ملك الأيوبيين واستيلائهم على دفة الحكم، ولكنهم زادوا في شُعب الإدارة كما كان السلطان رأس النظام، فإذا كان طفلاً تولى الأمر عنه القيم " المسمى" بكا او وصياً ويحق له التصرف في امور المملكة ويليهِ كبير الأمراء " قائد الجيش، والملقب ب(أتابك العسكر) ويليهِ "مقدموا الألوفا".

كما يلاحظ على النظام المملوكي انهم لم يستطيعوا تأصيل الشرعية في نفوس امراء وضباط الجيش المملوكي وذلك بعد قتل بيبرس لقطز، والجلوس معه كما لم يتركوا إلا المناصب الدينية والقضائية والتجارية والأدبية لأفراد الشعب مما أدى إلى ضعفهم في النهاية، وبالنسبة لعلاقتهم في الخلافة العباسية كان لابد من تأصيل فكرة شرعية الخلافة العباسية على الرغم من خلع السلاطين لبعض الخلفاء، أمثال الناصر محمد بن قلاوون الذي خلع الخليفة الواثق ونصب مكانه الحاكم بأمر الله ولم يتقبل الناس هذا الوضع الجديد باستيلاء العبيد المماليك على السلطة من أسيادهم بغير وجه حق.

كما رفضت الإمارات الأيوبية في بلاد الشام الاعتراف بسلطة المماليك الجديدة لاسقاطهم السلطة الأيوبية في مصر وانقسام المماليك وفرار بعضهم إلى الشام كالظاهر بيبرس وقلاوون، وغيرهم من المماليك لبلاد الشام وتحريضهم للأيوبيين في بلاد الشام على غزو مصر، فكانت فرصة سانحة لضرب سلطة المماليك واضعافها في مصر أراد الأيوبيون استغلالها بعد انقسام المماليك على انفسهم بقيادة الناصر يوسف بن ايوب، حيث سيطر على سوريا وحتى عجلون في شرقي الاردن وتوجهوا لقتال المماليك في مصر عند العباسية فقتبه عز الدين أيك الذي تولى الحكم بعد شجرة الدر من الناصر يوسف الأيوبي، صاحب دمشق (648-249هـ/1250-1251م) فخرج إلى بلدة العباسية وعسكر فيها لمدة ثلاث سنوات تحسباً لهجوم عسكري من بلاد الشام حتى انتهت الخلافة العباسية حالة الطوارئ هذه بوساطتها بن المماليك والأيوبيين وعقد صلح بين الطرفين.



## احياء الخلافة العباسية في القاهرة

لقد شعر سلاطين المماليك بضرورة احياء الخلافة العباسية لإضفاء الشرعية على حكمهم الذي اعتصبوه من سادتهم الأيوبيين، حيث حاولوا في البداية التحايل على الأيوبيين باشتراك بعضهم في الحكم بالإضافة إلى اغتصاب السلطة من بعضهم عندما اغتصب الظاهر بيبرس منصب السلطنة من قطز قاهر المغول في عين جالوت. ولمواجهة الثورات ضده.

فاسرع الظاهر بيبرس لاستدعاء الأمير العباسي أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي من دمشق الى القاهرة وبإيعامه امام الشهود والفقهاء ولقبه المستنصر بالله . فقام الخليفة بعد ذلك بتقليد الظاهر بيبرس وهكذا أخذ التفويض بالحكم من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الاسلامي وهي الخلافة. وضرب النقود باسم السلطان الخليفة بالإضافة للدعاء له قبل السلطان مما جعله يتضابق فيما بعد من ذلك ففكر في الخلاص منه بعد أن كسب الرأي العام في العالم الاسلامي. فأعلن بأنه يرغب في إعادة الخليفة لبغداد فصحبه إلى دمشق ثم تركه يتجه عبر الصحراء برفقة جماعة من الأعراب والترك نحو بغداد. مما أدى لمقتله على يد المغول. ونصب مكانه الأمير العباسي ابو العباس احمد وبإيعامه بالخلافة سنة 662هـ/1264م. ولقبه الحاكم بأمر الله وهنا حرص على الحد من نفوذه.

واستمر الوضع طوال العصر المملوكي على هذه الحالة بان يفوض الخليفة الأمور العامة للسلطان ويدعى له قبل السلطان على المنابر. وكان يكفي بالتردد على ابواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالاعیاد.

ويعتبر السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك لأن الفترة الطويلة نسبياً والتي قضاها في الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية والتي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدراً من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها بعد أن قیض الله له النصر على اعدائه من المغول والفرنجة والأرمن. فملك دمشق وبعلبك وعجلون والصلت والشوبك والكرک وصرخد وتدمر وعندها حتى شملت دولة مصر وسوريا وكثير من الاناضول وارمينيا والنوبة وبرقة وبعض بلاد العرب وكان أول ما فعله مبايعة الخليفة العباسي احمد بن الامام الظاهر وكتب السلطان بيبرس إلى البلاد ليأخذ البيعة له ومما يجدر الإشارة إليه أنه استحدث

نظماً ادارية جديدة مما يجعلنا نجرم القول بأن دولة المماليك اتخذت في عهده طابعها المميز الاداري الذي سارت عليه حين اوائل القرن السادس عشر الميلادي وكان كغيره من المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة الا انه غلبت عليه غريزة الابوة فتحدى طبيعة المماليك ونظامهم وورث العرش لابنه البكر سعيد بركة، حيث أخذ البيعة له من كبار الأمراء بعد أن أقسموا بعين الطاعة للملك السعيد بركة عام 660هـ/1262م كما اوصى ابنه ضرورة الحيطة والحذر من كبار الامراء عند موته

وقد تحققت نبوته بحيث ظلوا ينظرون لابنه السلطان بركة بعين الصبي وسببوا له المتاعب في مصر والشام حت أجبرو كبار أمراء المماليك على خلع نفسه عام 678هـ/1280م، مقابل اقطاعه الكرك وأعمالها وإقطاع أخيه خضر الشوبك.

وبعد موت الملك السعيد في الكرك عام 678هـ/1280م. ودفنه في مؤتة بالقرب من مقبرة جعفر الطيار حيث نقل فيما بعد إلى دمشق ودفن بمقبرة والده الظاهر بيبرس.

وقيل ان السلطان المنصور قلاوون هو الذي امر بدس السم له التخلص منه كمنافس على السلطة واعتبر المؤسس الثاني في دولة المماليك في مصر والشام واستمر الحكم في عائلته حوالي مائة عام وسلم الملك بعده اخوه نجم الدين خضر ولقبوه بالملك المسعود. والذي قام بثورة ضد الملك المنصور قلاوون في مصر وحدثت مجابهة بينهما حتى اصحبت الاردن مقسمة بين ثلاث قوى هي:

القسم الشمالي منها: تحت سلطة سنقر الأشقر الثائر بدمشق والقسم الأوسط (البقاء ومؤاب والشراف بيد الملك المسعود) والشوبك بيد المنصور بن قلاوون.

من الجدير بالذكر بالملاحظة : ان السلطان قلاوون عيّن المؤرخ بيبرس الدوادار في نيابة الكرك بعد نقل نائبها عز الدين ايبك الرملي نيابة قلقة صفد وجعل بامرته مائة فارس ومن الثابت ان المماليك لم يؤمنوا قط بمبدأ الوراثة في الملك، فالأمراء جميعاً سواء، والملك للأقوى والأكثر حرصاً على سلامة الملك والأوفر ذكاءً.

فقد حاول المماليك اظهار بعض الوفاء لسلطانهم الراحل فعينوا ابنه سلطاناً، ولكن الغيوم لم تلبث ان تنقشع بعد زوال صدمة الموت، فيدرك كبار الامراء أن ذلك الوضع غير طبيعي،

وأنهم لا يقلون أهمية في الملك عن السلطان الراحل مما أدى لتنافس كبار الأمراء عقب موت السلطان فقبلوا تولية ابنه حسماً للنزاع بانتظار انكشاف الأمور وظهور الرجل القوي، فلم يحدث خلال القرنين ونصف القرن من حكم المماليك ان ظلت السلطة في بيت واحدة مدة طويلة باستثناء بيت قلاوون الذي كسر القاعدة فقد بقيت السلطنة في هذا البيت مدة طالت على القرن من [من 677-784هـ/1279-1382م]

هذا وقد فشل النظام الملكي الوراثي عند المماليك بتساوي كبار امرائهم في الاصل والتربية، وتقارب قوتهم العسكرية وذلك على الرغم من محاولة بعض السلاطين توريث أبنائهم كما ذكرنا كالسلطان الظاهر بيبرس عام 662هـ/1264م والناصر محمد بن قلاوون حيث ورث ولده ابي بكر المنصور قبل وفاته واستطاع ستة من أبنائه الذكور الاثني عشر الوصول للسلطنة لفترة قصيرة.

وكان لفشل المبدأ الوراثي في النظام المملوكي آثاره الايجابية من حيث عدم وصول اطفال أو فتيان للسلطة في الغالب. كما أنه لم تكن هناك حقوق ملكية وراثية تفرض تولية أبناء السلطان بعض الأقاليم مما ساهم على وحدة أراضي الدولة وعدم انقسامها إلى دويلات بعد موت السلطان كما حدث للسلاجقة.

فكان يشرف على تربية الأمراء الصغار أتاك من الأمراء الكبار والذي سرعان ما يتزعم السلطة من الأمير الصغير رسمياً وينشئ دويلة خاصة به مما ساهم في ظهور دويلات الأتايكة الكثيرة في أجزاء من الشام والجزيرة العربية وإيران وهو الطريق الذي اوصل الأيوبيين للسلطة بطريقة شرعية بعد موت نور الدين محمود بن زنكي عام 569هـ/1173م عندما ترك بعدد الصبي الصالح اسماعيل وارثاً.

كما ان نظام انتخاب السلطان من ضمن كبار الأمراء المماليك دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار ذلك كعودة لمبدأ الشورى في الاسلام ولكن الحقيقة باقتصار الانتخاب على كبار الامراء جعلنا نجزم القول بانه تقاسم للأدوار والمصالح الشخصية حيث يكون السلطان الجديد قوياً بقوة الفريق الذي انتخبه أو بقوة شخصيته فوق الأنصار والفرقاء.

كما ان كان هذا النوع من الانتخاب كحل وسط لإحداث توازن لأطماع الأمراء الكبار وهذا الشكل يجعل الخليفة ضعيفاً منذ البداية لصراع المجموعات حوله والتي كانت تؤدي بعزله وتولية آخر مكانه مما أضعف النظام كله كما كان لهذا النظام الانتخابي لرأس السلطة بعض الإيجابيات من حيث المحافظة على وحدة الدولة لسيطرة السلطان المنتخب شرعياً على اجزاء دولته في مصر والشام والحجاز سياسياً واقتصادياً وجغرافياً حيث كان يعين النواب في الأقاليم والمدن والأعمال وقضاة المذاهب الأربعة وصاحب ديوان الإنشاء بشكل مباشر في مصر والشام.

لهذا كانت سلطة الدولة محسوسة في الأقاليم البعيدة ايضاً على عكس مدن الشام أيام الأيوبيين التي تحولت إلى دويلات مستقلة تقريباً نتيجة لتسلط امراء السلطة الأيوبية من أولاد وأحفاد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل بحق الوراثة للملك كما مر معنا.

كما تمتعت اسرة قلاوون بأهمية خاصة في تاريخ المماليك حيث احتفظت بمنصب السلطنة في ذريته المنصور سيف الدين قلاوون لمدة زادت عن القرن من 678-784هـ/ 1280-1382م والمقر بمصر عصر ازدهار الدولة المملوكية حضارياً وعسكرياً واستقرارها امنياً.

ويرجع الفضل للسلطان المنصور قلاوون في إرساء هيئته وهيبة اسرته في النفوس فاعتبر المؤسس الثاني للدولة المملوكية كما تمتعت اسرة قلاوون وخاصة الناصر محمد وأولاده بحب الناس وإخلاصهم حباً في الاستقرار والأمن وفر لهم السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد مما جعلهم يتمسكون بعد وفاة الناصر عام 741هـ/ 1340م بأولاده واحفاده حتى 784هـ/ 1382م لمدة اربعين سنة.

وبعد هذا العرض فقد تكونت لدينا فكرة من دراسة تاريخ المماليك بعد موت السلطان الناصر محمد حيث سيطر كبار امراء المماليك صغر سن السلاطين حيث طغت شخصياتهم على السلاطين الصغار أمثال الأمير قوصون ويلبغا البجاوي وأقسنقر اللاري وآرغون العلاني وشيخو وصرغتمش وقشتمر المنصوري وبرقوق الذي كان من المماليك البرجية (الجراسة) مما

زاد في نفوذ تلك الطائفة وأدى إلى تمكنهم من انتزاع الحكم عام 784هـ/1382م وقيام دولة المماليك البرجية.

### أثر نواب الشام في أحوال دولة المماليك

لقد شكل نواب الشام قوة يخشاها السلاطين في مصر فلجأوا إلى تقصير فترة حكمهم وخاصة في أوائل حكم كل سلطان

كما كان السلطان الجديد يسرع بخبر سلطته إلى نواب الشام ليكسب تأييدهم وشارك أمراء الشام مع بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء المماليك والموالين لهم.

هذا بالإضافة إلى المساعدات القيمة التي قدموها لسلطان مصر في أوقات الحرج وحرب الصليبيين والمغول، لأن وحدة مصر وسوريا عبر التاريخ، كانت ومازالت محتومة لمواجهة الأخطار الخارجية ضد العروبة والإسلام في الشرق الأوسط.

ولوحظ على نظام الحكم في النيابات الشامية بأنه كان صورة مصغرة لسلطنة المماليك في مصر حتى أطلق القلقشندي عليها اسم (المماليك الشامية) وقال: "كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاهية للمملكة المستقلة" حيث شُبّه نائب كل ولاية شامية بسلطان مستقل مع تبعيته لسلطان مصر، فكان له حاشيته ومماليكه وأتباعه حتى أطلق عليه اسم (ملك الأمراء) لخدمة كبار الأمراء له لقيامه مقام السلطان في السلطنة وكان لنواب الشام بيوت خدمة مشابهة لبيوت الخدمة السلطانية كالشراب خاناه والفراش خاناه والزررد خاناه، والطبلخاناه وغيرها

كما كان يتبعهم موظفون مشابهيين لوظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة، وأمير مجلس وأمير اخور وأمير جاندرها وغيرها كما كان لكل نائب في النيابات الشامية وزيراً كوزير السلطان في مصر ولكن بفارق بسيط بانه لم يطلق عليه اسم وزير إلا إذا كان قد مارس الوزارة في مصر وإلا فانه كان يلقب (ناظر النظار) وكان في كل نيابة شامية أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة كحال القضاء في مصر منذ زمن الظاهر بيبرس هذا بالإضافة إلى وظائف أرباب السيوف وأرباب القلم والوظائف الدينية المشابهة لمثيلاتها في مصر وبالنسبة لدواوين النيابات الشامية فكان أهمها ديوان الانشاء وديوان النظر وديوان الجيش.

وكانت نيابة دمشق أهم النيابات الشامية الأخرى بالنسبة للسلطان لذا حرص سلاطين المماليك على مراقبة خفية لنوابهم في الشام عامة ودمشق خاصة عن طريق صاحب ديوان الإنشاء ونائب القلعة الموجودة في الأقليم حيث أولكه بحرب النائب إذا فكر بالخروج على السلطان لأنه كان يتبعه اجناد القلعة التابعين له.

كما حرص السلطان على التدخل في شؤونهم لاشعارهم بوجوده مما يشير إلى أن نواب الشام لم يكونوا مطلقي التصرف في كل شيء لانهم معينين من قبل السلطان ويحق لهم التعيين في وظائف ارباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها بينما كان التعيين في الوظائف العليا كالطباخانة من حق السلطان، وكذلك بالنسبة لوظائف ارباب الأقلام فكان النواب لا يعينون الا صغار الموظفين ككتاب الدرج بنما يُعَيَّن الوزير وكاتب السر ونظر المال ونظر الجيش من قبل السلطان ومثلها في الوظائف الدينية حيث يعين السلطان قاضي القضاة بنما يختص النائب بتعين خطباء الجوامع الصغيرة. وهكذا سمح هذا النظام الإداري المملوكي لسيادة السلطان المملوكي على مصر والشام ومختلف أرجاء الدولة المملوكية.

### وفي أيام المماليك كانت الدولة مقسمة إلى تسعة ممالك:

**وأولها:** المملكة المصرية وحاضرتها القاهرة: وهي مقر الخليفة والسلطان وكبار رجال المماليك والديوان الشريف الذي منه كافة التعيينات، وتسيير الجيوش، وتنظيم الغزوات والفتوح.

**وثانيها:** المملكة الشامية: وبها كامل الديار الشامية (نائب السلطان) وتحت يده آلاف المماليك سواء كانوا ملكه الخاص أو ملك الدولة، وعلى رأس هؤلاء المماليك (أمير كبير) ومملوك يسمى (صاحب الحجاب) وتقسم هذه المملكة إلى عدة مراكز في كل مركز وإلى ينصبه الكافل.

**وثالثها:** المملكة الكركية: وتشمل بلاد الكرك وقلعتها وماحولها ويتولاها أتابك العسكر.

**ورابعها:** المملكة الحلبية. **وخامسها:** المملكة الطرابلسية، **وسادسها:** المملكة الحمادية.

**وسابعها:** المملكة السكندرية، **وثامنها:** المملكة الصفدية، **وتاسعها:** المملكة الغزاوية. وكافلها مقدم العساكر.

واما الضرائب، فكانت تختلف باختلاف السلطان ظالماً أو رحيماً. وهكذا نرى ان الحكومة تدخلت في كل فروع التجارة ومراقبة الاسواق ما ادى لهجرة الناس.

وكانت القيادة الجماعية مكونة من ثمانية امراء لتحمل اعباء السلطة باتباع من الشورى بينهم. وكانوا من حاشية السلطان في القاهرة المكونة من الجاشنكير، والخزندار، والسلحدار، وامير جاندارا، والحاجب، والاستادار، وكاتب الانشاء والدوادار.

ومن سلاطينهم الكبار سياسياً وعسكرياً السلطان المنصور قلاوون لصراعه مع الصليبيين والمغول، وابنه السلطان الاشرف خليل فاتح عكا اخر معاقل الصليبيين في فلسطين عام 690هـ/1292م. ثم السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب اطول فترة زمنية في حكم المماليك بما يقارب ثلاث واربعون سنة ويعتبر المؤرخون عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتوفي 741هـ/1340م. عصلا الثورة والازدهار وخلفه ابنه المنصور ابو بكر كما يلاحظ بشكل عام صراع البيوتات المملوكية على النفوذ والحكم مما أدى لانقسامهم وتكتلهم ضد السلطان الامر الذي ساعد على طغيان نفوذ الامراء عليه حتى بلغ الامر ان يحل الامير القاتل محل السلطان المقتول.

وهكذا يمكن القول بان مبدأ القوة والغلبة كانت المؤهلات الكافية لاعتلاء العرش.

وقد اسس المماليك دولتهم في مصر والشام والحجاز واليمن محاولين اجبار الخلافة العباسية وذلك بعد تصديهم للمغول وبقايا الصليبيين الامر الذي مكنهم من حماية الحضارة الانسانية منهم بجيوشهم النظامية في ذلك الوقت ومع ذلك فقد رافق حكمهم بعض المظاهر السلبية من ارباب وظلم واحتكار مما نتج عنه سوء الاحوال الاجتماعية وكان سلوكهم السلبي نابع من شعورهم بمركب النقص الناجم عن عبوديتهم واغضابهم للحكم وشعورهم بالغربة عن أهل الوطن حماة للاسلام محبيه للخلافة العباسية ليضيفوا على انفسهم نوعاً من الشرعية والمهابة.

كما لاحظنا من تقارير المقريري في خططه سبباً اخر لشدتهم وصرامتهم في الحكم هو تربيتهم العسكرية القاسية والتي كانت بداية الانحراف الخلقي حتى كانوا ممنوعين من مغادرة القلعة، ثم السماح لهم بالنزول منها نهائياً والعودة ليلاً زمن السلطان الاشرف خليل 689-

693هـ. هذا وقد اكتملت الصورة السلبية من الانحرافات الخلقية حيث بلغت الاوج بولاية السلطان برقوق 784-801هـ. ولقد اخترت مثلاً لهذه السلبيات التي شددت انتباهي حالة القضاء في العصر المملوكي.

وبالنسبة للقضاء المملوكي فلم يكن مستقلاً حيث حكمته الصراعات السياسية والشخصية والنفعية، واستبداد السلاطين وإصدارهم الاوامر للقضاء بما يراعي مصالحهم مما جعل بعض القضاة الاحناف يتصدون لهم فقد واجه القضاء صعوبات بالغة أمام الله وامام الناس بل وفي ضمايرهم مما حدا ببعض المؤرخين توجيه الاتهامات لبعض القضاة لتمايلهم للوصول الى المنصب ولانتقالهم من مذهب لآخر لارضاء السلطان لان القضاء كان مصدراً هاماً لتمويل الخزائن السلطانية بمصادرة القضاء للاملاك لحساب السلاطين باسم الشرع وبيع المنصب القضائي.

لذا كره الناس القضاة وازدروهم لسوء سمعتهم وظلمهم في الاحكام وبعدهم عن النزاهة، وخضوعهم لأهواء الأمراء الذين لا يختلفون في سلوكهم شيئاً عن القضاة حيث كانوا في حالة ضياع وصراع، هذا بالإضافة إلى الصراع بين القضاة والأمراء المؤيدين للسلاطين.

ومن مساوئ القضاة والمعاملة التي عوملوا بها مما جعلني اتساءل هل كانت هذه المساوئ كالتملق والوشاية والدس نابعة من أعماقهم؟ أم أن الظروف هي التي أجبرتهم على هذا الطريق؟.

وبعد التدقيق والتحميمص بعد اطلاعي على مخطوطة نزهة البيطار في قضاء الامصار لسراج الدين عمر بن الملقن تحقيق الاستاذ حسين حبشي عام 1972 لوحظ ان تصرف القضاة هذا كان نابعاً من الحالة العامة للدولة من صراعات سياسية وشخصية ونفعية ونتيجة استبداد السلاطين باصدار الاوامر الى القضاء وتدخلهم في الاحكام لصالحهم مما جعل بعض القضاة يتصدون لهم.

لذا واجه القضاة صعوبات بالغة امام الله والناس بل وفي ضمايرهم عندما حول السلاطين القضاء ستراً لاعمالهم السيئة بالشرعية، لذا عانى القضاء من صعوبات جمة طوال العصر المملوكي من تدخل في شؤونه ومن سوء الاختيار والتنوعية وعدم الكفاءة.



وكان الدافع للسلطين لهذه التصرفات هو رغبتهم في توريث ابنائهم العرش رغماً عن كبار الامراء المعارضين. لهذا فاحتاجوا للسند الشرعي من القضاة والفقهاء الذين استفادوا من ذلك بالثراء وجمع الاموال بأي وسيلة كانت كالرشوة واخذ اموال الاوقاف وأموال الايتام، كما كان القضاة مصدرأ هاماً لتمويل الخزائن السلطانية بالمال ببيعهم المنصب القضائي او مصادرة القضاء للاملاك لحساب السلطين تحت اسم الشرع، هذا بالاضافة الى الصراع بين القضاء والامراء المؤيدين للسلطين كما سمح في العصر المملوكي الاول (648-784هـ) السماح للحاجب بممارسة بعض الاختصاصات.

## ملخص الفصل الثالث وخاتمة

لقد طبق نظام الإقطاع الزراعي في العصرين الأيوبي والمملوكي كما أسهم أهل الذمة من ملاكين زراعيين وفلاحين في النشاط الزراعي في بلاد الشام ودفعوا ضريبة الخراج على أراضيهم وغلاتهم الزراعة، وكانت الدولة تعاقب البدو والفلاحين والعابثين.

وقد حرص بعض السلاطين على إزالة بعض المكوس والضرائب الظالمة التي لا تستند إلى سند شرعي على البساتين والغلة في بلاد الشام كصلاح الدين الأيوبي الذي عمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بضمان حقوق المقتعين والمقطعين بأن أعاد توزيع الإقطاعات وحدد الإيجارات والرسوم والجبايات مع مراعات الظروف الاقتصادية المستجدة من جفاف وقحط ووباء وحروب وبلغ الازدهار الاقتصادي أوجّه لتوفيره للأمن والاستقرار وعلاقاته الجيدة من مركزه وبدمشق مع الجمهوريات الإيطالية مما عاد بالنفع العام والرخاء على الشعوب الشامية كما قامت الدولة الأيوبية بجباية الزكاة وخصصت لها ديوان خاص لتصرف في أوجه الجهاد الشرعية كالأسطول وغيره.

واعتمدت الزراعة على الأمطار على الرغم من وجود بعض الانهار فاقاموا السدود والنواعير وأنشأوا القنوات واستفادوا من أنهارها وكان غور الاردن ينتج قصب السكر لتصديره للخارج بالإضافة للارز في بيسان والجلولة لتزويد دمشق وبصفة عامة فقد اشتهرت بلاد الشام كلها شمالها وجنوبها بانتاج الزيتون الوفير والعنب ومختلف الفواكه والخضروات والحبوب حيث وصلت إلى حد الاكتفاء الذاتي وصدرت ما يفيز عن حاجتها إلى البلدان الأخرى.

واصبحت الاردن بموقعها المتوسط مركزاً لعبور تجارة الترانزيت للقوافل التجارية مما دفع الأهالي إلى الاسواق التجارية الموسمية في الزرقاء والرمثا ويزاء والتتية قرب الكرك ومعان والعقبة وجاءت بمردود اقتصادي مرتفع جداً، كما كانت عمان حاضرة تجارية مزدهرة في العصر الأيوبي بين بغداد ودمشق والقاهرة.

وقد كان لهذا الازدهار الزراعي الأثر الكبير في التوسيع نحو الانتاج الصناعي وخاصة استثمار الفائض من المحصولات الزراعية النقدية التي قامت عليها الصناعات مثل قصب السكر والقطن والعنب والقنب والزيتون، مما جعل سلاطين المماليك يحتكرونها بجعلهم الأغوار

إقطاعات خاصة بهم كالناصر داوود وأبنائه هذا بالإضافة للحمضيات والصبار والبندق والخروب والسماق وسائر الفواكه والورود والرياحين بالإضافة للثروة الطبيعية من الأشجار الحرجية والغابات والمراعي وكانت غارات العربان على المزارع والكروم والمقايي تسبب أضراراً كبيرة تؤثر على الوضع الاقتصادي والغذائي مما دفع بعض السلاطين لتأديبهم بشن غارات عسكرية عليهم.

وهكذا كان للحروب الأهلية بين المماليك أثراً على الحياة العامة من تخريب المدن وقطع الطرق والنهب والسلب ناهيك عن الآفات الطبيعية من جموع الجراد الصحراوي والأوبئة التي كانت تهلك الحرث والنسل بالإضافة للجفاف وانحباس المطر.

كما طبقوا نظام الخراج بنوعية "خراج المقاسمة كالخمس والربع والثلث وخراج الوظيفة الذي يدفع سنوياً" على الأراضي الخراجية بحسب جودة الأرض ونوعية الماء التي تسقى بها تحت إشراف مباشر الخراج.

وكانت معظم أراضي الشام إقطاعات استغلال [عشر وخراج] حيث يقطعها السلاطين إلى الأمراء والاجناد مقابل تأديتهم للخراج إلى بيت المال.

وقبل الروك الناصري لبلاد الشام ومصر عام 713-715هـ/1313-1315م، كان للجوالي ديوان بينما أصبح جوالي كل بلد تضاف إلى متحصل خراجها بعد الروك الناصري. وكانت أصناف الاراض الزراعية ثلاثة هي أرض الخراج، وأرض العشرة "الزكاة" وأرض الموات "التي لامالك لها" فيقطعها السلطان لمن يُحِبُّها، فتصبح نوعاً من إقطاعات التملك.

### ومن طرق استغلال الأرض في العصر المملوكي عند الفلاح الشامي:

- طريقة الاستثمار الشخصي للمساحات الصغيرة بالعمل بنفسه أو تأجيرها مقابل مبلغ من المال أو المشاركة بين المالك والفلاح لقاء أجر عيني من منتوج الأرض.
- المزارعة باشتراك المالك "بالبذار" والفلاح "بالجهد".
- المساقاة: مشاركة بين رب الشجرة والفلاح لتعهده بالسقي والحراثة مقابل نسبة متفق عليها.

- المغارسة "عقد بين الطرفين لغرس الشجر مقابل حصة معلومة".
- المقاسمة: بين المالك والمزارع بنسبة متفق عليها حسب نوع الري للأرض.
- التضمين: وهي دفع مبلغ من المال لقاء جني محاصيل الزيتون أو ثمار الفاكهة دون القيام بأي عمل زراعي آخر وما زالت هذه الطرق شائعة منذ العصر الأموي وحتى عصرنا الحالي.
- تأجير الأرض مقابل مبلغ من المال بالاتفاق بينهما على تحديد نوعية المحصول في العقد وربما يشترط عليه أن يأخذ صاحب الأرض محصولاً من ناتجها لا مალأ.
- وعرفت هذه الطريقة 'بالمزارعة أو المخابرة' ويلاحظ تشابه هذه الطريقة بطريقة التسليف النقدية على ثمار الأشجار كالكروم والزيتون بما نستطيع تسميته استثمار التمر مقابل تقديم المال قبل جني الشجر.
- وبالنسبة للصناعات في جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي فكانت تقوم على الإنتاج النباتي والحيواني والمعدني لتوفر المواد الخام لها كصناعة الزيت والسكر والصابون والنيل والبلسم والحصر وطحين الدقيق والمنسوجات القومية والجلود والبسط والفحم النباتي والخمور وصناعة السلاح كالنفط والمراكب والسيوف والأقواس والكنائن والنبال والخشب المزخرف المنقوش، وصناعة التحف الخزفية والتعدين للحديد والكبريت والنحاس والرخام وصياغة الذهب والفضة وغيرها، وسبك المجوهرات والحلي وتزيينها والتكفيت" تطعيم معدن بمعدن أثنى، في عجلون والكرك وصناعة الحرير القائمة على تربية دودة القز في عكا وصور وقد انعكست آثار الازدهار الاقتصادية والسيولة النقدية على المنشآت العمرانية والمرافق العامة ورفع مستوى المعيشة للسكان كما مر معنا.
- وبالنسبة للتجارة فقد تنوعت حسب الدول الحاكمة كالصليبيين الذي نشطوا التجارة مع جنوب أوروبا تلبية لاحتياجات الجنود والفرسان والسكان ففتحوا أسواقاً أوروبية جديدة تستقبل منتجات فلسطين الزراعية والصناعية وبالعكس وضربوا النقود، واستخدموا الحوالات المالية فأقيمت فروع لشركات الصيارفة في المدن الإسلامية تابعة لجنوة وبيزا في إيطاليا كما استخدمت الصكوك المالية من قبل فرسان الداوية.

وابتكروا طريقة الأوراق المالية الخاصة بتسجيل ما للعميل من المصارف CreditNots، كما أوجدوا وظيفة القنصل كوظيفة تجارية وسياسية فكان أول قنصل لجنوة في عكا عام 576هـ/1160م. ونلاحظ ارتفاع الاسعار ست مرات بعد خروج الصليبيين من البلاد للدمار الشامل الذي أصابها بالإضافة إلى إهمال الزراعة لأنه لم يعد يعنيههم تقدم البلاد اقتصادياً، فعملوا على تهريب العملات الصعبة كالذهب إلى أسواق أوروبا في البندقية ومرسيليا وبرشلونة فتدهورت كمية الذهب في الأسواق العربية وخاصة السوق الفلسطينية.

وهكذا نلاحظ الدور التجاري للجاليات الإيطالية في الصفقات العامة في الموانئ البحرية الشامية.

وبالنسبة للأهمية الاقتصادية لشرقي الأردن فكان يُمدُّ مملكة بيت المقدس بالغلال والقمح أيام الصليبيين، كما كان طريقاً للتجار والحجاج بين دمشق وموانئ فلسطين وكانت خطاً دفاعياً لمملكة بيت المقدس الصليبية ضد أي تقدم إسلامي أو غارات القبائل العربية المجاورة، فعملوا على تحصين جنوبي شرق الأردن بالقلاع والحصون في الشوبك والكرك والطيفة وطلع وإيلة "العقبة" وجزيرة فرعون قرب ساحل البحر الأحمر.

ومن الأمور الجديرة بالذكر سماح الصليبيين للتجار المسلمين بالمرور بالأراضي التي احتلوها بعد وضعهم مراكز جمركية "ديوان" على الجسور ومداخل الأودية وأمام الحصون. وكان الديوان بمثابة خان لنزول القوافل والتجار والمسافرين وحفظ البضائع، وكانت ضربيتهم بمقدار دينارين وقيراط من الدنانير السورية على الرأس وتأثرت هذه الضريبة بضعف الصليبية وقوة المسلمين كما حدث زمن الملك المنصور قلاوون وولده الملك الأشرف خليل وبين الملكة "مدام مرجريت بنت هنري بن الإبرنسي".

وبالنسبة للتجارة الداخلية فقد تبادل أهل القرى والمدن السلع التجارية عن طريق المقايضة ولوحظ نشاط التجارة بين فلسطين وشرقي الأردن بعد إنشاء الظاهر بيبرس لجسر دامية فوق نهر الأردن بالغور، والذي أوقف له لأصلحه ليكون معبراً تجارياً بين فلسطين وشرقي الأردن كما أشتهرت أربد في شمالي الأردن بأسواقها التجارية بين دمشق والقاهرة مع كثرة خاناتها وكانت العقبة سوقاً جنوبياً للأردن لعبور الحجاج المصريين والمغاربة والسودان وغيرهم،

وكانوا يدفعون الرسوم الجمركية في ديوان "بويب العقبة" وكانت السلع المستوردة: "التوابل والطور والصمغ العربي، والورق، والحريير الصيني والنبيل، والمعادن.

أما الصادرات فكانت أخشاب الصنوبر والخيول العربية والمنسوجات المصرية والدمقشية والتحف وكان ذلك نتيجة نتجة تمتع منطقة شرقي الأردن بعلاقات تجارية وثيقة مع العالم الاسلامي في القاهرة ودمشق وبيت المقدس والساحل الفلسطيني وبغداد والحجاز، بالإضافة لعلاقاته التجارية مع أوروبا عبر البحر الأحمر ووفر وسائل الراحة للمسافرين والتجار والحجاج "كدار الطعم" و"القياسر" في عجلون شمالي شرق الأردن، لايواء التجار الاجانب بتعيين حراس لها من بني عقبة "عرب الكرك" و "بني مهدي" عرب البلقاء وتوفير الخانات مثل "خان العقبة" و"خان الحسا" و "خان القطرانة".

فأدى اهتمام سلاطين الايوبيين والمماليك بتنشيط التجارة لتأسيس هذه الوكالات والخانات والفنادق والقياسر والأسواق والموانئ. وزاد المماليك بالاسواق المختصة بنوع السلع كأسواق عجلون مثل سوق الجلود والقطنانين واللحامين والحنطة والصاغة، وحوانيت الخبازين والطباخين ومحلات بيع الجملة "القياسر" التي استخدمها المماليك لاستثمار أموالهم بما يشبه اليوم تخطيط المدن الحديثة.

أما الأوزان فقد اختلفت من منطقة إلى أخرى مقدرة بالدرهم كالرطل والأوقية، وكان أثقلها رطل عكا وأخفها رطل دمشق وكان هناك الرطل العجلوني والكركي وبالنسبة للمكايل فكانت المد والصاع وملحقاتها من الربعية والتمنية في الريف الأردني والفلسطيني والكباجية والمكوك والوية والقفيز زمن المماليك.

وفي مجال المقاييس استخدم السكان 'الذراع' لقياس القماش و "ذراع العمل" لقياس المنازل والدور و"الفدان" للاراضي الزراعية والقصبة التي تساوي 7.5 ذراع حديد.

كما لاحظنا أهمية معرفة الأوزان والمقاييس الأخرى لعلاقتها بالنقود وبالنصاب الشرعي لتقدير الحالات الاقتصادية وتفهم الحوادث التاريخية، وكان هذا من واجب الحسبة "البلدية اليوم" وغرفة التجارة والصناعة' لأنها كانت تراقب العيارات في الأوزان.

وكان من ايجابياً الإقتصاد المملوكي بناء الجسور الحور وإصلاحها وشق القنوات الزراعية وبناء السدود والقناطر والسواقي في مختلف الأقاليم والنواحي وعملوا على توفير المال اللازم للمشاريع "الإنمائية الزراعية" كالدول الحديثة اليوم كما حدث زمن الناصر محمد بن قلاوون عام 711هـ/1311م. من أجل تحقيق هدف خدمة الأراضي الزراعية في ظل نظام الإقطاع المملوكي وذلك عن طريق تبرعات السلاطين والأمراء والتجار من أموالهم الخاصة أو بإلزام كل المستفيدين من المشروع بدفع رسوم رمزية أو بفرض ضرائب على سكان الأقاليم، أو من بيت المال العام.

ومن النتائج التي توصلنا اليها ارتباط الوضع الإقتصادي بطبيعة النظام السياسي القائم، فالأزمات الساسية كانت تسبب أزمات اقتصادية في الاسواق والحوانيت كما مر معنا. وكانت عامة الشعب 'الطبقة العامة' أكثر تأثراً بالأزمات الاقتصادية وخاصة ارتفاع الأسعار كما يحدث اليوم في الدول الحديثة وارتبطت الحالة الاقتصادية في جميع الأقاليم المملوكي ببعضها خاصة في إقليم الشام ومصر حيث يمتد الغلاء من الشام لمصر وبالعكس، فعندما تحدث مجاعة في مصر يبادر اقليم الشام بمده بالغللات اللازمة من القمح والذرة والفول للتخفيف حدة الأزمة، وهذا يؤدي إلى دوام الانشطة التجارية والفعاليات الاقتصادية بين إقليمي مصر والشام مما يؤكد النظرية القائلة بضرورة التكامل الإقتصادية العربية بالوحدة الشاملة والسوق المشتركة الضرورية لنمو الاقتصاد العربي اليوم وعلاج مشكلاته وعلى العموم فقد لوحظ بأن ظاهرة غلاء الأسعار في المجتمع المملوكي كانت الأكثر تكراراً لاسباب سياسية كالصراع على الحكم، واقتصادية 'فيضانات النيل' واجتماعية 'الظلم الاجتماعي وقطاع الطرق وصراع القبائل البدوية وعسكرية 'الحروب الداخلية والخارجية' .

فأبرزت بعض المظاهر الاقتصادية في مجتمع الممالك تأثيرات اجتماعية على مستوى الحاكم 'الطبقة الارستقراطية من الممالك' والمحكوم من العامة العاملين والعاطين عن العمل بما نستطيع تسميتها بسلبيات الاقتصاد المملوكي بصور عديدة من الظالم الاجتماعي كاحتكار بعض ولاية الأقاليم المملوكية شراء جميع المحاصيل الزراعية في الاقاليم بسعر منخفض مستخدمين صلاحياتهم وسلطاتهم لبيعه بسعر مرتفع لصالحهم، ومنهج الضمان "بدفع الضامن مبلغاً معيناً



من المال مقدماً مقابل ضرائب معينة مفروضة في أحد الأقاليم فيحصل زيادة لجيبه مما يزيد من معاناة الناس الذي سار عليه المماليك بهدف جمع الضرائب والمكوس، ويجوز لنا أن نتعجب من ظاهرة تأييد الوزراء للضامن أو الكفيل المتعهد بجميع الضريبة بطرق ملتوية جشعة إذ المفروض وقوف الوزراء مع الشعب لحمايته والسهر على راحته فأصبح من المتعذر على هؤلاء المضطهدين الشكوى للمسؤولين الرسميين لعدم وجود من يستمع إليهم فضاعت نداءات الاستغاثة التي كانوا يرجون الخير.

بالإضافة لشيوع الرشوة والفساد، وبيع الوظائف في فترات الحكم المملوكي مما أبعد الرجل المناسب عن المكان المناسب في السلطة، وبقيت طوائف العامة الفقيرة محرومة حقوق المواطنة، كما شاعت ظاهرة تزييف النقد كزيادة نسبة الرصاص والنحاس في الفضة وطرحها في الأسواق على أنها فضة خالصة كما حدث عام 749هـ/1938م، حيث توقفت الحياة بالقاهرة بسبب هذا الغش ولوحظ أيضاً في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي اعتداء الأمراء الأجلاب على ممتلكات الناس بل ونسائهم وأموالهم كما حدث عام 768هـ/1967م، فتصدى لهم كبار الأمراء وقبضوا على زعيمهم الأمير تغري برقس وغيره من امرائهم ونفوه من أرض مصر.

وبالنسبة للنقود وأثرها في النشاط التجاري الدولي بين أوروبا والشرق العربي فقد أدت إلى ازدهار النشاط التجاري نتيجة لتداول نفوذ الحجاج الصليبيين والجيوش الصليبية حيث تطلبت الظروف المالية الجديدة تداولاً أسرع للعملة النقدية فابتكروا طريقة الأوراق المالية الخاصة برصيد حساب العميل في المصارف وتأسست البيوت المالية في جنوة وبيزا وانتشرت فروعها وأعمالها شرقي البحر المتوسط كما تأسست في جزيرة رودس وقبرص مصارف للأيدياع والتسليف للعسكريين الصليبيين كما استعملوا الصكوك " الشيكات الحالية":

واستمر الأيوبيون في استخدام نقود الصليبية المسكوكة من الذهب والفضة كالدينار والدراهم التي ضربها اللاتين البنادقة في فلسطين بكتابات عربية أطلق عليها العملة البيزنطية العربية "Byzantini Saracenati" وكانت هذه العملة المتداولة في البلاد الإسلامية تحمل نقوشاً عربية مقرونة بتاريخ هجري على الرغم من استياء البابا إينوست الرابع.

وكانت دنانير بلدوين الثاني بمدينة القدس ذهبية على وجهها صليب وقلعة على ظهرها بكتابات لاتينية تحمل اسم القدس. وزيفوا النقود العربية الدنانير والدراهم الأيوبية والفاطمية المضروبة بدمشق بتاريخ 641هـ/1243م باسم الخليفة العباسي المستنصر بالله.

وبالنسبة للنقود الأيوبية زمن صلاح الدين فكانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية المضروبة في كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وحماة مقلداً النمط الفاطمي حيث نقش على ظهرها اسم الخليفة العباسي مضافاً إلى اسمه ومكان وزمان الضرب وعلى الوجه الثاني محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" أما دراهمه الفضية فقد عرفت برداعتها لارتفاع نسبة النحاس المخلوط بها مع الفضة. أما فلوس صلاح الدين فلم يظهر عليها اسم الخليفة بل ذكر اسم الملك الأيوبي فقط وكانت كل ستة فلوس تساوي درهماً فضياً " النقرة " وعمل الصليبيون على تقليد وتزييف النقود العربية الأيوبية بعد موت الملك توران شاه الذي انتهت الدولة الأيوبية بموته عام 648هـ/1250م. كأسلوب من أساليب المقاومة الياضية خاصة وقد وصلوا إلى مرحلة الإنهيار العسكري والسياسي وقد أحدثت هذه الدراهم المزيفة 'اليافية' عام 658هـ/1260م مجاعة وغلاء شديد، وبيعت الدراهم المغشوشة بمقدار النصف.

أما نقود المماليك فقد كانت الدنانير والدراهم والفلوس ومثلت دراهم الفضة القاعدة النقدية في الغالب في بداية دولتهم وكانت شجرة الدر أول ملوك المماليك ضرباً للنقود نقش على ظهرها لقبها مصحوباً باسم الخليفة العباسي المستعصم بالله.

كما تميزت نقود عز الدين أيبك بعدها برمز 7 فوق اسمه بينما نقش المظفر قطز على نقوده الذهبية والفضية اسمه ولقبه عام 657هـ/1259م أما بيبرس فنقش على نقوده شعاره الجديد "رنك الأسد" ولقبه الجديد قسيم أمير المؤمنين. بينما شوه على وجه دنانير قلاوون: اسم السلطان ومكان وتاريخ الضرب بالخط النسخ وعلى الظهر: "لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقلده سلاطين آل قلاوون من بعده.

وبالنسبة للفلوس فقد ضرب الناصر محمد 697هـ/1297م فلوساً خفيفة الوزن، كان

الرطل منها يساوي درهمي فضة.

ويمكننا الاستنتاج من ذلك أن من أسباب الأزمات الاقتصادية ماكان يكثره الأمراء لأنفسهم ليضاعف من الكساد وعدم السيولة النقدية بما يسمى اليوم بالتضخم فتضطر الدولة لتخفيض عملتها نتيجة لانفتاح الاقتصاد على الغرب وتحكم صندوق النقد الدولي باقتصادنا كما حدث في أواخر الدولة المملوكية عندما سحب الغرب الذهب من الأسواق بأسعار مغرية من الأسواق العربية وإعادة سكها (دوكات) وفلورين لإغراق الأسواق التجارية بنقودهم. واستمر هذا الغزو الإقتصادي الأيوبي لبلاد الشام ومصر حتى نهض السلطان فرج بن برقوق (801-815هـ) لمجابهته عام 803هـ/ 1400م وذلك بتحسين السكة العربية الاسلامية بضربه دنانير ذهبية "السالمية" أو دينار فرج السالمي.

وقد لوحظ على السياسة الاقتصادية للمماليك بنزعتهم إلى السيطرة الاقتصادية بتوجيه الاقتصاد لصالحهم وزيادة ثرواتهم كما لاحظنا توزيع الارض إقطاعات عسكرية لاستغلالها لإعالة أسرهم.

ولكن بذخهم واسرافهم أدخل بالميزان التجاري مما دفعهم لاحتكار التجارة ورفع الاسعار وفرض الضرائب والأتاوات التي عانى الشعب منها كثيراً فزادت الفوارق الطبقيه بين الاسرة الحاكمة " الطبقة الارستقراطية" وعامة الشعب.

ولوحظ ازدياد الترف أيام المماليك لغنى بلاد الشام ومصر وتركز اسواق التجارة بين الشرق والغرب، فكان ذلك سبباً لتغنيهم في البذخ والترف والشراء مثل ترصيع المماليك لآنية شرابهم وطعامهم بالذهب والحجارة الكريمة واستخدموا في مجالس شرابهم ولهوهم آنية وتمائيل ودُمى من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة واللؤلؤ كما رصعوا عصائب شعور نسائهم وثيابهم بالجواهر واللآلئ كما لبسوا الثياب المزخرفة وتسربلوا بالحريز وكانت في خزائن بعضهم بملايين الدنانير مما أثر على الميزانية العامة للدولة وضعف اقتصادها.

وهكذا نلاحظ عدم غياب قوى أجدادنا العرب عن الساحة بكيانهم الإقتصادي المتين المتجاوب مع كل اقتصاديات العالم كما نأمل من خلال دراسة النقود إنكاء روح الإنتماء ورؤية ملامحنا الأصلية ذات الجذور المديدة.

وتعزيز الوعي الأثاري عند كل فرد لكي يقدر كل قطعة خلفها لنا الأجداد من مسكوكاتهم وأدواتهم ليكون سنداً قومياً ونزائلاً علمياً، حتى إذا وصلنا بهذا الوعي درجة الإعتقاد باستحالة التفريط أو المساس بها نكون قد نجحنا في تربية جيل قادر على العطاء بالوراثة الحضارية خاصة ونحن نعيش في خضم تيارات ومؤسسات وكيانات اجتماعية وسياسية تحاول جاهدة طمس ملامحنا التاريخية.

## ملخص الفصل الرابع وخاتمته

لقد غرق العالم الاسلامي وخاصة العرب في أواخر أيام الدولة العباسية في صعوبات التفتيش عن صنع جديدة لتكوين اجتماعي يؤمن استقلالية الذات العربية من جهة وانتمائها الخلاق لركب الحضارة الانسانية من جهة ثانية، فكانت أزمة تشمل مختلف انواع العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والروحية نتيجة التمازج الحضاري للشعوب الاسلامية المتعددة الجنسيات من أتراك وفرس وعرب ومماليك وصلبيين ومغول.... فكانت بلاد الشام وخاصة اطرافها الجنوبية بحاجة لهمة قوية وجرأة متحدية للغزو الثقافي والفكري والتأثير الحضاري للصليبية والمغول الخطير على الوجود والتراث، للوقوف أمام هذا المد الأوروبي والمد الهمجى المغولي المتصمم باستمرار عن طريق الاحتلال والتدمير ونهب التراث والكتب العلمية لنقلها للقارة الأوروبية وحتى لا نكون تحت وصاية غيرنا، وللمشاركة في بناء الحضارة الانسانية في العصر الحاضر ولنعتبر من دراسة تلك الاحداث المشابهة لما تمر به الأمة العربية والاسلامية اليوم. وبالنسبة للحياة الاجتماعية في نهاية الخلافة العباسية والعصرين الأيوبي والمملوكي انتقل المجتمع من مجتمع زراعي إلى مجتمع إقطاعي أعجمي ذي خصائص تجارية وصناعية بارزة أثرت على التركيب الاجتماعي وكانت سبباً في موجة عارمة من التدمير والاضطراب الاجتماعي خاصة في العصر المملوكي.

كما أدى التطور الثقافي وانتعاش الآراء المختلفة القديمة والحديثة وتصادمها إلى ظهور حركات فلسفية منحرفة عن الدين الاسلامي وربما كانت هذه الحركات الهرطقية الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التدمير في مجتمع ديني في العصور الوسطى.

وبالنسبة للمجتمع الاردني والفلسطيني في ظل النظام الاسلامي فقد كان سعيداً لوجود للفوارق الطبقية والنظرات الاستعلائية والحسد والاحقاد مما يشير الى النسيج المتماسك للمجتمع والمترابط بوشائج من أنبل الأحاسيس الإنسانية والقيم الإيمانية والتعاطف الاجتماعي. وبالنسبة للقبائل العربية التي شكلت مجتمع جنوب بلاد الشام كانت تتمسك بتقاليد الأصالة والشرق وتحرص على التراحم والتعاطف والوفاء الذي نشبهه ما يكون بالضممان الاجتماعي الذي عرفته الانظمة الحديثة، حيث كان شيخ القبيلة أو كبير العائلة يتفقد

المعوزين، ويأخذ بيد المحتاجين وخاصة عند موسم الحصاد "والمنايح" حيث ينالوا نصيبهم من الزروع والثمار والشيء كمنوجة ينتفع بلبنها وصوفها، بالإضافة إلى وجود الدواوين والمضافات وبيوت الشعر التي كانت مفتوحة للقريب والبعيد مما أشاع بين الناس ذلك الاحساس النبيل بوحدتهم وتآلفهم، بعيداً عن الاستغلال والطمع المادي.

وهكذا نرى مجتمع جنوب بلاد الشام في ظل هذه القيم النبيلة حيث عاش الناس في بيوتهم المتواضعة، وفي مجتمعهم الزراعي والرعوي أكثر سعادة واعمق طمأنينة مما ساعدهم على بناء وطنهم الحبيب حتى جاء الغزو الصليبي والمغولي وفرضهم للمذابح والإبادة والهجرة من منازلهم هؤلاء الغزاة الذين لهم إلا القتل وتجميع الأموال فمزقوا النسيج الوطني للمجتمع وسيطروا على كل موقع اقتصادي وسياسي، فاضطر الطيبون من رموز القبائل الاردنية لبيع مآلديهم من عقار وغيره لمواجهة الظروف الجديدة والانفاق على استثمارية فتح دواوينهم ومضافاتهم لاستقبال الناس وإكرامهم سيراً على سنة الآباء والأجداد أصحاب المروءات المشهورة والنخوة العربية الأصيلة، وكادت هذه الصفحة المشرقة من سفر الآباء والجدود والكرم ان تنطوي في هذا المجتمع أمام هذه الهجمة الشرسة.

وزاد من هذه الكارثة الاجتماعية سيطرة الاتراك السلاجقة والاكرد والمماليك على مقاليد الحكم والتحكم في شؤون المجتمع فصارا أمرهم مطاعاً وقولهم مسموعاً، وصار الناس يميلون إليهم ويتقربون منهم مما أحدث شرخاً في الحياة الاجتماعية بعد ان استحوذوا على كل مصدر رزق ومجال استثمار مما حول أبناء العرب الى عبيد أرقاء في المزرعة التي كانت وطناً أبيعاً حراً ذا سيادة مستقلة فانتقلوا الى عصر جديد لا عهد لهم به من قبل وأصبحت المادة والجاه هي المقاييس الاجتماعية كما قال الشاعر:

إلى من عنده مال

رأيت الناس قد مالوا

فعنه الناس قد مالوا

ومن لا عنده مال

وأصبح مجتمع جنوب بلاد الشام بوجه عام في العصرين الأيوبي والمملوكي مجتمعاً طبقياً طغت على وجه الفوارق الاجتماعية منذ زمن الصليبيين حيث انقسم المجتمع أيام الفرنجة إلى ثلاثة طبقات العليا والوسطى والدنيا .

وقد شملت الطبقة العليا الاسر الحاكمة من النبلاء والفرسان والمحاربين الفرنجة. والطبقة الوسطى وهم أصحاب الحرف البسيطة والتجار الإيطاليين والمسلمون سكان البلاد الأصليين والعبيد وأما الطبقة الدنيا فكانت من الأقنان والعبيد يباعون ويشترون من قبل الإقطاعيين الفرنجة ومنهم الأقليات اليهودية.

### اخلاق العصر:

لقد اتصف الزنكيون بعدم التهاون في أمر المنكرات، وشدة الغيرة على النساء، وتحريم الخمرة وخاصة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين. أما صلاح الدين فقد اعرض عن أسباب اللهو والمجون فعندما اسقط الدولة الفاطمية وجد في قصورهم عدد كبير من الجواري بما يقدر بـ "2000" نسخة من الغلمان والجواري حيث باعهم خلال عشر سنين.

أما بالنسبة للناس فقد كان بعضهم يجهر باللهو والمجون في عهد ملك ويستترون في عهد آخر، هذا بالإضافة إلى تعاطي فقراء الصوفية في بلاد الشام الحشيش مما أغضب الظاهر بيبرس من هذا الانحلال الخلقي، فأمر بإغلاق الحانات وهدم المواخير وحرق الحشيش وأهراق الخمر.

ولكن المدمنين على الحشيش والخمرة لم تمنعهم هذه الاجراءات الشديدة، وفضل الناس الحشيش على الخمرة، لرخص أثمانه، وتغنى الشعراء به، ونسبوه مكتشفه شيخ الصوفية حيدر.

وربما سهل اقبالهم عليه عدم ورود نص صريح عن تحريمه، حتى أن بعض القضاة أفتى بجواز أكل الحشيش.



كما انتشرت الزندقة بسبب الاحتكاك بين الدين والفلسفة الأخرى، مما أدى لظهور جيل من الحكماء فاسدي العقائد، لتهاونهم بالاديان السماوية. ومساهم في انتشار الزندقة، لتهاون بعض السلاطين، انطلاقاً من حرية الرأي والاعتقاد، وقد تأثرت الفرق الاسلامية السنية والشيعية بالزندقة وانبرى بعض العلماء ايام صلاح الدين الأيوبي لمجابهة الزندقة، خوفاً من فتنة الناس في الوقت الذي تجابه به الأمة الاخطار الصليبية الخارجية فأفتوا بقتل الزنادقة. وهكذا نرى انشار الاباحية نتيجة لشرب الحشيش والخمر والزندقة على الرغم من تشدد رجال الدين ومحاولة السلاطين القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بفرض عقوبة الموت، مما جعل الاباحيون يتخذون من الصوفية ستراً لهم.

### الأمياف الميينية:

يحتفل المسلمون حتى الآن باعياد الفطر والاضحى والمولد النبوي الشريف والهجرة والإسراء والمعراج وقد بذل السلاطين الأموال الكبيرة لاحتفاءها مع عطفهم على الفقراء والمساكين بهذه المناسبات بمد الأسطمة لهم وتوزيع الحلوى والدراهم عليهم، كما شارك المسلمون الطوائف الأخرى في أعيادهم.

أما عن الحالة الاجتماعية زمن الأيوبيين فقد اختل التوازن الاجتماعي نتيجة انشقاق الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين وتقسيمهم مملكته الممتدة من مصر الى الشام والموصل واليمن والحجاز، وتبع ذلك اضطراب الامن الذي نتج عنه اختلال القيم الأخلاقية لكثرة الدسائس في البلاط الملكي وقصور الأمراء وامتدت هذه الدسائس لطبقات الشعب مما أدى لضعف عصبية أسرة صلاح الدين واختلال نظامها مما دفعها للاستعانة ببعض العناصر الأجنبية كالشركس والأتراك والصقالبة والروم ممن دخلوا في الاسلام فأخذوا يتحينون الفرص لاستعادة أمجادهم السابقة عن طريق الإحتيال والدس وإبقاء الفتنة بين رجال الأسرة الحاكمة أو بين الشعب وطبقاته. فكان لهم الأثر القوي في الحياة الاجتماعية حين أصبح الملوك والأمراء الأيوبيون ألوبة في أيديهم، كما أضحى الشعب مدافعاً عنه من الغزاة، فكانوا حماة بلاد الشام ومصر فطرده والمغول وشرذو الصليبيين الذين فرضوا أنظمتهم وقوانينهم وأحوالهم الاجتماعية على البلاد وبالنسبة لأفراد الشعب، فأغلب الظن أنهم كانوا مسوقين

كالقطعان يعملون على تقليد أمرائهم من الأيوبيين والمماليك، لانهم أصبحوا في نظرهم القدوة الصالحة على الرغم من فسادهم وسوء أخلاقهم، إلا من رحم ربك.

وقد كان للماليك تقاليد وأحكام وشارات يتميزون بها عن غيرهم، وكانوا عدة طبقات، لكل طبقة شارات خاصة بها مثل صور الأسد والفهد والنمر والصقر والطاووس وطبقة أخرى شاراتها صور الزهور كالزنبق والاقحوان واليسمين والقرنفل، وطبقة شاراتها صور بعض الأدوات الحربية كالسيوف والسناجق والفؤوس والخناجر ولكل طبقة لباس ملون خاص بها، وقد ساهم معظم امراء الأيوبيين والمماليك في الرقي الاجتماعي بين طبقات الشعب لسعيهم الى مجارة الخلفاء الفاطميين والعباسية الذين ورثوا أرضهم وملكهم وحضارتهم أيضاً ومن الملاحظ أن الترف قد ازداد أيام المماليك لغنى بلاد الشام ومصر وتمركز أسواق التجارة من الشرق والغرب فكان ذلك سبباً لتغنىهم في البذخ والترف والشراء.

وبعد نقد وضع لنا من هذه الدراسة المستفيضة أن المماليك البحرية كانوا مزيجاً من جنسيات متعددة ربطت بينهم العبودية "رفيقاً أبيضاً" باعهم التجار في سوق النحاسة الى ملوك الأيوبيين ثم إلى سلاطين المماليك من بني جلدتهم في مصر، حيث قامت فلسفة حكمهم على القوة العسكرية والدين باسم الخلافة العباسية الاسمية وعدم توريث العرش لانه من حق الجميع وسادت فترة حكمهم الصراعات السياسية والعسكرية الدموية للوصول الى الحكم، كما ولد اعتمادهم على أهل الذمة في أجهزة الدولة استياءً شعبياً أدى للثورة ضد هؤلاء العبيد الغرباء فقمعوها بالعنف ليفرضوا هيبتهم الداخلية وسيطرتهم الإقتصادية بتوجيه الإقتصاد لصالحهم وزيادة ثرواتهم وطمغت الفوارق الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية الحاكمة وعامة الشعب وفي ظل تلك الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية، طمغت على سطح الأحداث الأمراض الاجتماعية بين أفراد الطبقة الأرستقراطية كالإدمان على المخدرات "كالحشيش والافيون وادمان الخمرة" والزنا والشذوذ الجنسي علاوة على الرشوة والاعتقادات الباطلة في السحر والتنجيم والاعتقاد بمساعدة الأولياء والمشايخ، والتطير والتشاؤم.

هذه الامراض الاجتماعية انتقلت إليهم ممن سبقهم ولكن الجديد وضع تنظيمات لادارتها وتحصيل الضرائب عليها مما اسهم في انتشار الرذيلة والانحلال الخلقي تحت

إشراف الدولة وحمائتها. حيث شجعوا صناعة الخمر وتجارة الحشيش وتعاطيه مما أذهبت هيبته وباؤا بغضب من الله ورسوله والمسلمين أيضاً فعاقب الله سلاطينهم بقصر مدة حكمهم ممن كانوا من المدنيين والمحليين أخلاقياً والشاذين إذ لاحظنا العلاقة العكسية بين شدة الإدمان ومدة الحكم كما مر معنا ونتج عن تفشي الرشوة بين السلاطين والأمراء وموظفي الدولة واجهزتها عدم وجود الموظفين الأكتفاء وأهملوا مبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب فكان همهم من يدفع أكثر لتولي هذه المناصب فعمت المحنة الأخلاقية ببيع الوظائف والولايات والإقطاعات فانتفخت جيوبهم.

لذا نخلص إلى القول بأن رفعهم شعار الخلافة العباسية والاحتفاء وراء سياج الدين الظاهري باظهارهم الاهتمام بالعلماء والفقهاء والقضاة والأوقاف والمذاهب الاسلامية كان تخطيطاً ذكياً لكسب الشرعية والطاعة والولاء حيث لاحظنا زيف عقيدتهم بالاعتقاد في الاولياء والمشايخ والصالحين من الاحياء والأموات والسحر والتنجيم والتبشير بعلم الغيب فناصروهم للتصدي لأفكار فقهاء السنة ببدعهم، كما أشرف المحتسب على شؤون المنجمين الذين قربتهم السلاطين لمجالسهم واستشارتهم في أمور المستقبل، هذا بالإضافة إلى الرقي والتمايم والأجرار التي يقوم بها المشعوذ من طقوس الدجل وضرب الرمل، وكان من مظاهر انحراف معتقداتهم التمسح بالأضرحة والقبور، فاستطاع تيار الفساد الخلقي هذا إلى جر بعض العلماء والفقهاء. وقد تصدى فقهاء أهل السنة لهذه الأوضاع الفاسدة والمعتقدات الباطلة فنصحوا السلاطين وطالبوا بمنع المنكر والغاء تنظيمات حمايته تمشياً مع الشريعة الاسلامية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فعمل بهذه النصائح قلة منهم كالظاهر بيبرس والناصر محمد قلاوون الذين عفوا عنها وتابوا باصدار مراسيم يمنع تدخين الحشيش وإراقة الخمر وإغلاق بيوت المنكرات فكانت اجراءات بيبرس شديدة حتى أمر بنهبها.

والحقيقة نقول بأن المجتمعات تمرض كالأفراد ببعدها عن كتاب الله وسنة رسوله العلاج الشافي لجميع هذه الأمراض الاجتماعية لان الحضارة الاسلامية توازن بين مطالب الفرد الروحية والجسمية وتعالج جميع القضايا لأخلاقية، وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ويصلح به خلقاً كثيراً انطلاقاً من توجيه الرسول الكريم: " كلكم راع وكلكم مسؤول

عن رعيته" ففي ظل المناخ الاجتماعي يكون الخروج عن الدين والأخلاق أمراً طبيعياً كما نشاهد اليوم في مجتمعاتنا الإسلامية التي تأثرت بالحضارة الوضعية الغربية وابتعدت عن نعمة الحضارة السماوية التي خصها الله بها التوفيق الهداية الشعوب الإسلامية وتمسكها بدينها للوصول الى كمال البناء النفسي والخلقي والله الموفق وبه المستعان.

كما أمر ببيرس عماله في كافة المقاطعات بتنظيم الحسبة والتشديد على أهل الغش والدجالين والأمر بالمروءة والنهي عن المنكر، ومراقبة الأسعار وتحديد الأرباح بالإنصاف والعدل بين المشتري والبائع.

ونتيجة لهذه الأوضاع الاجتماعية أكثر أهل الوعظ والارشاد بتأليف الكتب والرسائل لدعوة الناس للخير والابتعاد عن الشر، أمثال عبد الرحمن بن نصر الشيرازي 589هـ صاحب كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) تعرض فيه لمسائل المحتالين وأنواع غشهم ومنهم ابو الفضل جعفر بن علي الدمشقي مؤلف كتاب (الإشارة الى محاسن التجارة) بين فيه تدليس المدلسين ومنهم الامام الكبير تقي الدين ابن تيمية الحراني الدمشقي المتوفي (728هـ/1330م).

كما لوحظ تفاوت شدة الامراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر والشام وإن اتسمت محصلتها بانتشارها فلم تكن تلبث أمور الفساد أن تعود إلى سيرتها الأولى بزوال سبب ابطالها من تغيير السلطان أو الأمر القائم بها وبمجرد أن تنقشع الغمة، حيث كانت الكوارث تفسر على أساس من الدين والأخلاق وأن مرجعها غضب الله من انتشار الفسق.

ولوحظ ايضاً أن عملية المكافحة اقتصررت غالباً على أمراض الفساد الخلقي دون المعتقدات الباطلة نظراً لأن الأخيرة أمراض نفسية ارتبطت بنفوسهم ولم تكن بحاجة لاعتراف الدولة أو قيامها في إلغائها إلا ما كان أحياناً من عقاب السحرة والمنجمين لما نسب إليهم من الإضرار بالحريم السلطاني وإفساد حريم الناس بالاضافة إلى أن اساليب الدولة في معالجة الأمراض يبدو أنها انسحب عليها روح العصر من البساطة والارتجالية.

أما بالنسبة للطبقة العامة فقد تعرضت للظلم والاضطهاد الجماعي هذا وقد ارتبط وضعهم الاجتماعي بالأحوال الاقتصادية المضطربة حيث كانوا أكثر الفئات المتضررة من الغلاء وارتفاع الأسعار وإغلاق الأسواق الذي كان يسبب لهم المعاناة والعسر والضيق إذا اشتغل بعضهم بالأعمال الحقة والحرف المتواضعة فكان معظمهم في حالة فقر مدقع كما عانوا من مصادرة ممتلكاتهم، وإجبارهم في أعمال البناء والتعمير والاعتداء على نساءهم على أيدي كبار الإداريين في الدولة، وحرمانهم من وسائل اللهو البرئ في الأعياد والمناسبات الدينية.

وهكذا نرى حرمان العامة من الرعاية الاجتماعية وفقدانهم الأمن والاستقرار نتيجة لإهمال شؤونهم وعدم احترامهم كبشر حيث كانوا ميداناً خصباً للظلم والتعسف الأمر الذي ولد عندهم الإحساس والشعور بالظلم والمرارة الأمر الذي دفعهم للثورة والتمرد على السلطة الظالمة والتي كانت تتاجر بارزاق الناس وفرض الضرائب بالإضافة لفرض الأسعار، ناهيك عن بيع الوظائف الإدارية لمن يدفع أكثر، فكانت النتيجة عدم تحقيق العدالة الاجتماعية الضرورية والتي جاء بها ديننا الحنيف لأجل كرامة الفرد وطمأنينة النفسية وتوفير الحياة الكريمة لأفراد المجتمع عن الاجتماعي والسياسي في ظل حكم المماليك، وبالمقابل فقد شكلوا خطراً في كثير من الأحيان على أصحاب السلطة من كبار الأمراء والولاة والمحتسبين وجامعي الضرائب كردة فعل على ظلمهم واضطهادهم لهم بتوزيع النقود والثياب والطعام عليهم بالإضافة الى تعاطف القضاة وعلماء الدين معهم. لموازرتهم في رفع الظلم عنهم حيث أظهرت بعض الحوادث خشية كبار الأمراء المماليك الأوليغاركية من تجمعات العامة بما يشبه اليوم "التكتلات الحزبية المعارضة" فعملوا على تهدئة خواطرهم واستتكار أفعال الولاة بهم وعزلهم كما حدث عام 735هـ/1334م، عندما عزل الناصر محمد النشو ناظر الخاص الذي عانت منه مختلف الطبقات الاجتماعية. وكان ملجؤهم الوحيد في موسم الكوارث الطبيعية والسياسية والاقتصادية المساجد للتضرع إلى الله أن يرأف بحالهم ويرفع عنهم البلاء كما حدث عام 702هـ/1302م.

كما تكون وسيلة لإعلام السلطان بما يحدث في المجتمع لمساعدتهم، هذا بالإضافة إلى الإيمان القوي الذي يمثل الركيزة الأساسية للتقرب من الله أثناء الأزمات سعياً وراء الراحة النفسية، حتى تقوم الدولة بإصلاح الأوضاع العامة، فكانوا يكثر من ذكر الله واستغفاره. وكانت النتيجة المتوقعة لتفشي الأمراض الاجتماعية المذكورة بين الطبقة الاسقراطية الحاكمة الانحلال الخلقي في الطبقة الحاكمة، التي تتربع على قمة الهرم الاجتماعي، التعجيل في سقوط دولة المماليك البحرية، إضافة للعوامل الأخرى من السيطرة والتسلط والظلم والجشع والبدخ والترف ونظرة الشعب لغربة الحكام وأصولهم الوضعية وعزلتهم عن الشعب وثورة الأمراء وتمردهم بمشاركة العامة والعربان والتركمان والتي انتهت بتسليم برقوق العثماني زمام السلطة وبزوخ نجمة وإسقاط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك الجراكسة.

والنسبة لمعاملة الصليبيين لأهل الذمة فقد استبعدوهم من الخدمة في الدواوين الحكومية لنشاط الحركة الصليبية التبشيرية آنذاك، خاصة بعد تجنيدهم لكبار كتاب النصاري في أواخر العصر الفاطمي للتجسس لحسابهم.

هذا بالإضافة الى نظرة الحركة الصليبية في الاندلس للمسلمين واليهود كأعداء مما دفع يهود الأندلس للهجرة إلى مصر في العصر الأيوبي وكان من أشهرهم طبيب صلاح الدين الأيوبي "موسى بن ميمون" الذي أعاد صياغة الفكر اليهودي متأثراً بالعقيدة الإسلامية. أما معاملة صلاح الدين الأيوبي لهم فقد عاملهم معاملة حسنة وعملوا في دواوينه وكان طبيبة منهم وعاشوا في أمن واستقرار كما كانت معاملة المماليك لأهل الذمة حسنة منذ زمن الملك المنصور قلاوون وابنه الناصر إذ أصدر قلاوون عام 684هـ/1286م مرسوماً بتعيين ابن المذهب رئيساً للطائفة اليهودية.

مما يشير إلى اهتمامه بجميع رعاياه ولحفظ الأمن والاستقرار، مع الأخذ بالاعتبار عدم تساهلهم مع أهل الذمة عند خروجهم على القوانين والمواثيق والعهود كما حدث زمن ابنه الناصر عام 721هـ/1321م. إذ فرض على نصاري الوجه القبلي بمصر "صعيد مصر" وألزمهم بتغيير لباسهم الى لبس العمام والجباب الزرقاء والزناد المشدود في وسطهم، ومنع توظيفهم، وجعل عقوبة الإعدام لمن يخالف هذه الأوامر.

## ملخص الفصل الخامس وخاتمته

لقد اتضح لنا من خلال دراسة الحياة الاجتماعية من حيث طبقات المجتمع بما فيها الطبقة الحاكمة من السلاطين والأخرى، حيث لاحظنا وجود مذاهب دينية متعددة مضارعة كالتصوف والزندقة والاباحية، والتي كان لها الأثر الهام في الحياة الاجتماعية.

كما بحثنا في الحياة الفكرية لهذه الدول المتابعة الثلاث التي تداولت فوجدنا الكثير من المدارس ودور العلم، مما أدى لازدهار الثقافة وكثرة العلماء، والكتب المؤلفة والمصنفة في مختلف النواحي الدينية والفكرية ومما تجدر الإشارة إليه أن الحياة الفكرية لم تكن منفصلة عن سائر الأقاليم العربية الأخرى، محقة الوحدة الفكرية بين الشام ومصر من حيث تبادل العلماء والأدباء وتنقلهم فخلفوا ثروة أدبية تراثية في الشعر والأدب بفروعه المتعددة منذ الاحتلال الصليبي الذي رافقه نمو الشعر الحماسي ذي المسحة الدينية ثم ترعرع وازدهر في العصرين الأيوبي والمملوكي بالإضافة لفروع اللغة الأخرى وخاصة كتابة الإنشاء التي وصلت إلى أرقى درجاتها في العصر المملوكي بظهور الموسوعات الأدبية للأصفهاني والقلقشندي والنويري وابن منظور.

كما نؤكد على أن جماعة الباطنية من أصحاب المذاهب المختلفة كانوا باستمرار ضد المسلمين وبهذا تتفق أهدافهم مع الصليبيين واليهود وخصوم الاسلام، كما كانوا من أبرز العناصر في المنعطف الخطير والآخر الذي مرت به الخلافة العباسية الذي يعتبر بداية النهاية حيث تأمر الوزير الباطني ابن العليغي وسلم العاصمة لهولاكو 656هـ/1258م، والذي قضى على الخلافة العباسية التي دامت حوالي الخمسة قرون كما قضى على الباطنية وبذلك انتهى دور الباطنية الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الشرق الإسلامي.

ويكتفي الاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ عن هؤلاء حيث روى الإمام زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين (عم جعفر الصادق) إذ روي عنه في كتاب "الجوار العين" لنشوان الخميري، ص 185، قال: «إنه سيكون قوم يدعون حنّا، لهم نبرّ يُعرفون به، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون».



وقد شهدت جنوبي بلاد الشام انحساراً للحركة العلمية منذ القرن الرابع الهجري بسبب الظروف السياسية الانفصالية كالحمدانية والاخشيديّة والفاطمية وبروز حركات ثورية كالقرامطية، وعاد النشاط الثقافي نسبياً الى هذه البلاد خلال القرن الخامس الهجري إلى أن أحتل الصليبيون القدس في أواخر القرن الخامس الهجري الذي أوقف نشاطه الفكري حتى حرره المسلمون عام 583هـ على يد صلاح الدين الأيوبي.

كما أثر الصراع السياسي بين بغداد والقاهرة على الحركة العلمية الثقافية، ومهد الطريق أمام الحملات الصليبية دون عناء فاحتلت القدس والساحل والشوبك والعقبة والكرك وغيرها من البلاد، الأمر الذي دفع علماء هذه البلاد للهجرة الى عواصم الاسلام الأخرى كالقاهرة ودمشق وبغداد فافادتهم علماء وعادت شعلة الثقافة بعد زوال الاحتلال الصليبي والصراع المذهبي وقد لاحظنا خلال هذه الفترة ان فلسطين لم تشهد انحساراً ثقافياً من ذلك النوع الذي أصاب الأردن، إلا بعد الإنحسار الثقافي الذي امتد أكثر من مائتي سنة في الاردن إلى ان تأسست إمارة الكرك في جنوبي الاردن على يد الناصر داود بن المعظم عيسى. الذي كان يحب العلم والعلماء ويحترمهم ويشجعهم، ويجالسهم ويغدق عليهم، لانه كان عالماً ومصنفاً وأحاط به الفقهاء والأدباء والمؤرخين ويقال أنه أول من أنشأ خزانة كتب بالكرك بنفسه، كما أدت سياسة الملوك والسلطين الأيوبيين والمماليك إلى الاشتغال بالعلم والأدب والواقع أن الدراسات التاريخية في هذه المنطقة قد تأثرت بعلوم الجغرافيا والفلك والفلسفة وكتب في التاريخ فقهاء ومحدثون بالإضافة للفلاسفة فارتقت العلوم في الأردن ونشطت بذور الحياة العقلية كالدراسات الفلسفية لأول مرة على يديه.

وقد تعرضت الأمة العربية الاسلامية في بغداد والشام ومصر عبر تاريخها لحروب ثقافية لمحو الارض حيث أغرقوا مكتبة بغداد في نهري دجلة والفرات، ليس بهدف العبور فوقها ولكن بهدف محو محتوياتها من علوم وثقافة راسخة ومنح هويتها الاسلامية، ذلك لأن المخطوط يحى بسهولة بالماء لانه مكتوب بأحبار مائية فتقهقرت الحضارة باتجاه بلاد الشام ومصر لمدة قرنين ونصف طيلة حكم المماليك (648-922هـ/1250-1517م).

وكان من حسن حظ المسلمين في هذه الحقبة وجود سلطة المماليك القوية في مصر التي صدت الهجوم المغولي في عين جالوت الخالدة، وشعرت مصر ان الأمة في خطر فشجعت العلماء على تدوين المخطوطات والشروح والمجلدات منذ القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي حيث قدم معظم العلماء العرب للاستقرار في مصر.

فقد ظهر عدد كبير من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين والعلماء واللغويين وغيرهم ومؤلفات حفظ التراث كصبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، بالإضافة للمخطوطات الموسوعية مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والوافي بالوفيات للصفدي، وزبدة الفكرة ليبرس المنصوري، وعقد الجمان للعنين... الخ ، كما وجد علماء موسوعيون أثروا حقول المعرفة الانسانية كالسيوطي وظهر كذلك الكتاب الديوانيون أمثال : محي الدين بن عبد الظاهر كاتب بيبرس وقلاوون وغيرهم من السلاطين وامتاز أسلوبهم بالبلاغة والفصاحة واستخدام المحسنات البديعية والسجع.

كما اشتهر هذا العصر بمؤرخين الذين عاصروا الأحداث فأورثونا وثائق اساسية لدراسة التاريخ المملوكي كابن الفرات الذي أرخ حتى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. لذا يعتبر سلاطين المماليك المنقذون للحضارة الاسلامية من دمار المغول والمساهمة في ازدهارها ببلاد الشام ومصر، حيث أنهم قلعوا الجذور الصليبية والمغول من بلاد الشام واحيوا الخلافة العباسية في القاهرة، وأقاموا علاقات اقتصادية وسياسية وتجارية مع الدول المجاورة. ومما يؤسف له استغلال بعض الباحثين والكتاب والمؤرخين سماحة الاسلام في حرية الفكر والرأي والبحث العلمي فتناولوا عليه بفهمهم الخاطئ فأخذوا يفسرون الآيات القرآنية تفسيراً خاطئاً بما يوافق مع أهوائهم، وتحقيرهم للسنة النبوية ومطالبتهم للاعتماد على القرآن الكريم وحده. " قاتلهم الله ألى يؤفكون" وكان ذلك لتأثرهم بما كتبه أساتذتهم من المستشرقين فأخذوا التوحيد وراثه وليس دراسة فأصبحوا بالفعل في دينهم وحياتهم.

ونرد عليهم بأن حضارتنا إسلامية وبدون الإسلام سنتحول إلى شعوب ممسوخة لا هوية لها وسنذوب مع الآخرين، لذا يجب أن نتوقف الصراعات الفكرية المفتعلة للمحافظة على هويتنا العربية والإسلامية حتى لا تنتش الأجيال القادمة في أحضان أيدلوجيات فكرية وثقافية تجاهل قيم

وأخلاقيات الدين كما يحدث الآن في الغرب ولكن أصالتنا الإسلامية هي اليت تهين لنا أفضل مناخ نفسي وعقلي يمكن ان تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوجية راسخة يقوم عليها مجتمع اسلامي وهاذ المناخ هو الذي ترعرت في ظلاله حضارتنا العربية والإسلامية التي مزجت بين الدين والدنيا، وجمعت بين العلم والإيمان ووصلت الابداع المادي بالسمو الروحي والخلقي، كما نُحذّر من الفصل بين الدين والعلم لأن هذا الفصل يورث العالم الفوضى والتعصب والانحراف في الأفكار والمعتقدات في حين ان الاسلام طالب باستثمار العلم من اكتشاف اسرار الكون وتسخيرها لخدمة الانسان.

فالمطلوب منا الآن هو ربط علوم العصر بقيم الايمان والدين والأخلاق حتى لا تتحول المنجزات العلمية إلى معاول هدم ودمار والحل الأمثل لمواصلة هذا التراث الحضاري العظيم لأمتنا هو الاهتمام بالثقافة الإسلامية في مناهج التعليم في المدارس والجامعات لحمايتهم من الفكر الدخيل والمتطرف عن منهج الإسلام وهذا هو مطلب الجماهير المسلمة في كل مكان. ولا يتوفر ذلك إلا من خلال ديمقراطية الحكم وتطعيم الأجيال القادمة ضد عملية الهزيمة الثقافية لنبدأ بعدها عملية البعث الجديد للحضارة العربية الإسلامية والخروج من حالة الانحسار الفكري.

لذا أصبح من الضروري العودة لقراءة التاريخ ونبشه دون إصدار الأحكام المطلقة وإعادة كتابته من جديد، باسقاط الحاضر على الماضي، ودراسة الماضي بمعطيات الحاضر "أي صهر التاريخ بالحاضر ومتطلبات المستقبل لتستعيد الأمة العربية دورها في صنع الحضارة الانسانية وتحافظ على أصالتها العربية الإسلامية بعيداً عن التزمت والإنكفاء.

فالخطوة الأولى في طريق التطوير هي الرجوع إلى الثقافة الإسلامية الشاملة لنشرها في أرجاء الوطن العربي والتي تستند الى أساس متين هو العقيدة الإسلامية والإيمان بنصر الله.

وأني لأتذكر قول الشاعر:

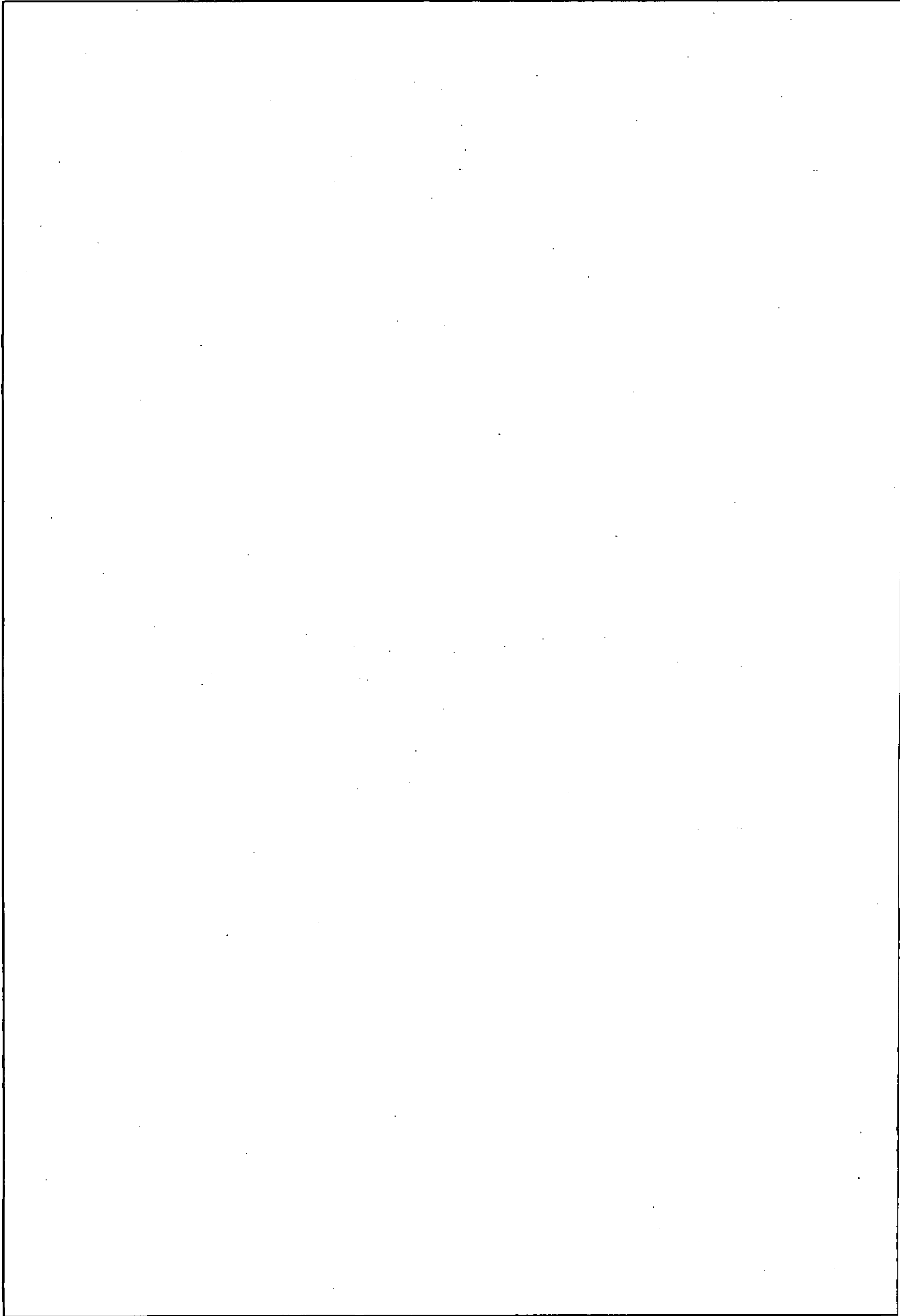
كلا ولا ترقى المعارج أمة	ترجو سيادتها بجهل مطبق
الدين والدنيا إذا اجتما معاً	هتفا بخيارات المدائق أغدقي

وفي ختام الحياة العلمية وبعد زيارتي لقريّة أم قيس الأثرية يوم الثلاثاء الموافق 18 آب 1997م ردّدت قول الشاعر الأردني محمد سمحان في صرخته الشعرية التاريخية التراثية في المهرجانين التاريخيين المنعقدين في (14/5/1992 و 7/6/1996م) بعنوان "صرخة أم قيس" في شمالي اربد والتي اشتهرت بمواردها الاقتصادية ومعاصرها في العصر المملوكي حيث قال:

وقفت في رباها أوقظُ الحُقباً	لأستعيد من الأمجاد ما عذبا
يا أمّ قيسِ هل الأيام راجعة	أم السيوف بأيدينا غدت خشبا
أيّام كانت أثينا فيك ماثلة	وكنّت تحكين فيها الفكر والأدبا
ومجد روما الذي دانّت له أمم	وأنت تهدينها الفرسان والقضبا
فجاء "خالد" لليرموك يطلّقه	من الأسار وفرّ العليج مضطربا
وعين جالوت مازالت تحدثنا	عن التتار ومملوكٍ بهم ذهبنا
يا أمّ قيسِ ترى هل أنت عالمة	بما يُدبّرُ أم وهج النضال خبا
يا أمّ قيسِ وللدنيا عجائبها	لكنّ ما نحنُ فيه جاوز العجبا
وقد ختمها بالبيتين التاليين:	
وحكمةُ الله أسمى من مداركنا	فقد تكونين أمر الله إن حزبا
بُركتِ يا جارة اليرموكِ يا حلماً	في خاطر المجد والتاريخ ما غربا

- جريدة الراي الأردنية، الاربعاء: 1996/7/3، ص34.

بعنوان "صرخة في أم قيس" . "جارة اليرموك".



# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

# المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

ثانياً: الوثائق.

ثالثاً: المخطوطات.

رابعاً: المصادر الأساسية المطبوعة.

خامساً: كتب الرحالة والجغرافين.

سادساً: كتب الأدب.

سابعاً: المراجع العربية الحديثة.

ثامناً: الدوريات (الجرائد والمجلات).

تاسعاً: المراجع الفارسية المترجمة.

عاشراً: المراجع الأجنبية المعربة بالترجمة.

الحادي عشر: المراجع الأجنبية.



أولاً :

**القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة**

ثانياً:

## الوثائق

- 1- وثيقة وقف غنيم بن سالم بن الياس الملكي الشوبكي، من وثائق دير سانت كاترين رقم 1965، درسها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم، مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، مايو 1963.
- 2- وثيقة حجة وقف السلطان الملك الأشرف شعبان، محفظة 8، رقم 49 بدار الوثائق القومية، القاهرة.
- 3- مرسوم بعض الملوك الصلاحية في الزام أهل الذمة بالشروط الشرعية التي حددها أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة 755هـ/ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، رقم 4314 تاريخ.

ثالثاً :

## المخطوطات

- 1- ابن الدوادر، الأمير ركن الدين ببيرس (ت 825هـ / 1422م).  
"زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"، الجزء التاسع. مخطوط مصور بجامعة القاهرة تحت رقم 024048. مأخوذة من جامعة بيل على شريط رقم 78.
- 2- ابن الفرات، ناصر الدين الحنفي (ت 807هـ / 1405م)  
"تاريخ الدول والملوك"، ج 5، 6، 7، 8، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 63.95 رقم الميكروفلم 41186.
- 3- ابن الكتبي، محمد بن شاکر بن محمد، (ت 764هـ / 1362م)  
"عيون التواريخ" 5 مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 949 تاريخ
- 4- ابن النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني.  
"الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز"، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية، رقم 359ب.
- 5- ابن اياس، ابو البركات، محمد بن أحمد بن اياس الحنفي المصري (ت 930هـ / 1523م)  
- "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، 5 أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 2113.
- "نسق الأزهار في عجيب الأقطار" مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 439 جغرافيا.
- 6- ابن ايبك، ابو بكر عبدالله من ايبك الدوادراي (ت 732هـ).  
"كنز الدرر وجامع الغرر"، 9 أجزاء في 27 مجلد، بدون ترقيم، مخطوط، مصورة عن نسخة بالاسكندرية، دار الكتب المصرية، بولاق، تحت رقم 2578، رقم الميكروفلم، 362288.
- 7- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد (ت 809هـ / 1406م).  
"الجواهر الثمين في سيرة الملوك والسلطين"، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 1522 تاريخ.
- 8- ابن سباهي، محمد بن سباهي،  
"أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك"، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1، جغرافيا.
- 9- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد (ت 749هـ / 1348م)  
"مسالك الابصار في ممالك الأمصار"، 20 جزء في 22 مجلد مخطوط بدار الكتب المصرية القاهرة، تحت رقم 594 معارف عامة، ونسخة مصورة بمكتبة الاسكندرية العامة، تحت رقم 3702، ب. لم تذكر سنة تحريره.

10- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي  
الدمشقي (ت779هـ/1377م).

- "إعلام بتاريخ أهل الإسلام"، جزءان، مخطوط بدار الكتب المصرية، بولاق، تحت رقم  
392.

- ونسخة أخرى رقم 2402 تاريخ تيمور.

11- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م)  
"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تاريخ الواصلين"، مخطوط بدار الكتب المصرية،  
بولاق، رقم 5319 تاريخ.

12- أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن ثغري بردى، (ت874هـ/1470م)  
"المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" 3 أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية،  
رقم 2355 تاريخ.

13- اسامة بن منقذ (ت 584هـ/1188م)  
"الباب الأدب" مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 8918 أدب.

14- البدرى، أبو بكر بن عبدالله :  
"تزهرة الأنام في محاسن الشام". مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 1642،  
ميكرو فيلم 10878.

15- البصروي، محمد:  
"تاريخ دمشق وغيرها من أرض الشام" مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت  
رقم 2546 رقم الميكرو فيلم 14575.

16- البلوي المغربي، خالد بن عيسى بن أحمد.  
"رحلته المسماه" تابج المفرق في تحلية علماء المشرق". مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم  
400 جغرافيا.

17- الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الدين عبدالله العمري:  
"كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا". مخطوط في مكتبة جامعة القاهرة،  
رقم 24045 تاريخ .

18- الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي طالب المعروف بشيخ الربوة (ت 727هـ/1326م)  
"الدر الملتقط" مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة.

- 19- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1354م)  
 - "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والاعلام من الهجرة الى سنة 700هـ أو تاريخ  
 الذهبي". مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 42 تاريخ ونسخة أخرى رقم 396 تاريخ.  
 - "سير اعلام النبلاء"، 13 جزء، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 12195 خ.
- 20- العسقلاني، شهاب الدين بن حجر (ت 852هـ).  
 "أنباء الغمر بأبناء العمر". مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 2476،  
 ميكروفيلم 35985.
- 21- العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت 855هـ/1451م)  
 "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" 25 جزءاً في 69 مجلداً. مخطوط بدار الكتب  
 المصرية، القاهرة، تحت رقم 1584 تاريخ.
- 22- الغزي، محمد بن أحمد العامري رضي الدين (ت 935هـ/1528م).  
 "جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الملاحة" إلى ميكروفيلم عن مخطوطة، محفوظة  
 بدار الكتب السلطانية، في استانبول، رقم 134 زراعة، مجموعة أ، صورها الاستاذ  
 الدكتور محمد صالحية- جامعة اليرموك- اربد- الأردن.
- 23- المدني، ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري (ت 1083هـ).  
 "تحفة الأدباء وسلوك الغرباء"، مخطوط من مكتبة المتحف العراقي، نسخة دار الكتب  
 المصرية تحت رقم 545، جغرافيا 278 ورقة، 23 سطراً، فهرس دار الكتب المصرية، 6:15،  
 ميكروفيلم 178 ملم × 128م.
- وقد حققها فيما بعد رجاء محمود السامرائي، ج 1، وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة كتب  
 التراث (12).
- 24- المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 854هـ/1441م).  
 "خطط مصر"، مخطوط بدار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية تحت رقم 57، جغرافية البلدان.
- 25- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 734هـ/1333م)  
 "نهاية الأرب في فنون الأرب". مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 2572، رقم  
 الميكروفيلم 35881 والأجزاء من 27-31 تحت رقم 549 معارف عامة.
- 26- وقف السبتان والحمام بوادي الكرك للسلطان الاشرف شعبان.  
 رقم 94، مخطوط بدار الوثائق القومية القاهرة.

رابعاً:

المصادر الأساسية العربية  
الطبوعة

- 1- ابن ابي أصيبعة، احمد بن القاسم الخزرجي، (ت668هـ/1321م)  
"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" تحقيق نزار رضا، طبعة دار الفكر، بيروت، 1965م،  
1969. عدة طبعات.
- 2- ابن الأثير: عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الجزري  
(ت630هـ/1233م)  
"الكامل في التاريخ"، 12 جزء، عدة طبعات اشترت اليها ج8،9،10،11،12، خاصة طبعة  
دار صادر، بيروت 1966م.
- 3- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت 729هـ/1328م)  
"معالم القرية في أحكام الحسبة"، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، الهيئة  
العامة للكتاب، القاهرة، 1976.
- 4- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الاندلسي (ت 664هـ/1268م)  
"الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" ج3.
- 5- ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد (ت597هـ/1201م)  
"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، 5 أجزاء، ط1، مطبعة دار المعارف، العثمانية  
بعاصمة حيدر أباد، الركن، 359هـ/1946م. والاجزاء الأربعة الأولى مفقودة.
- 6- ابن الحجاج، ابو عبد الله محمد العبدري الفاسي (ت737هـ/1336م)  
"المدخل الى الشرع الشريف"، ج2، بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1972م.
- 7- ابن السباعي، تاج الدين ابو طالب علي بن أنجب (ت674هـ/1276م).  
- "مختصر أخبار الخلفاء"، القاهرة، ط1، 1309هـ.  
- "الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير"، تحقيق الدكتور مصطفى جواد،  
المطبعة السريانية، بغداد، 1934م.
- 8- ابن الشحنة، ابو الفضل محب الدين محمد (ت 890هـ/1485م).  
"الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب" تقديم عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي،  
دمشق، 1404هـ/1948م.
- 9- ابن الصيرفي، علي بن داوود (ت400هـ/1494م)  
"نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان"، 3 اجزاء، تحقيق حسن حسني، مطبعة دار  
الكتب، القاهرة، 1970-1974م.



- 10- ابن العبري: غريغو ريوس، ابو الفرج بن أهرون الطبيب، (ت685هـ/1286م).  
"تاريخ مختصر الدول" تحقيق انطون صالحاني، بيروت1890م.
- 11- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد أبي جرادة(ت660هـ/1262م)  
"زبدة الحلب في تاريخ حلب"، دمشق، 1958-1968م، 3أجزاء، تحقيق سامي الدهان،  
دمشق، المعهد الفرنسي.
- 12- ابن العماد الحنبلي، ابو العلاج عبد الحي بن علي بن محمد (ت 1089هـ/1678م)  
- "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" 8أجزاء، القاهرة، 1350هـ.  
- "كتاب الفتوة"، تحقيق مصطفى جواد واخرون، بغداد، 1956م.
- 13- ابن الفرات، ناصر الدين بن محمد (807هـ/1405م).  
تاريخ ابن الفرات "تاريخ الدول والملوك"، تحقيق أسد رستم، وقسطنطين زريف  
ونجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، 1942م، الاجزاء7،8،9، أرخ حتى عهد  
السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. عدة طبعات.
- 14- ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد الصابوني (ت 723هـ/1382م)  
- "تلخيص مجمع الاداب في معجم الألقاب" ج4، ق1،2،3، تحقيق الدكتور مصطفى جواد،  
المطبعة الهاشمية، دمشق، 1962-1967م.  
- "الحوادث الجامعة والتجارب النافعة".
- 15- ابن القفطي، جمال الدين ابو الحسن بن علي (ت 646هـ/1248م).  
- "انباه الرواة على أنباء النحاة"، دار الكتب المصرية 1950.  
- "أخبار العلماء باخبار الحكماء" لبيبرغ، 1903م، "عدة طبعات".
- 16- ابن القلانسي، ابو يعلى حمزة بن أسد (ت 555هـ/1160م)  
"ذيل تاريخ دمشق"، بيروت، 1918، مطبعة الآباء اليسوعيين، تحقيق امدروز، واعيد  
طبعه بالافست، المثني، بغداد، ط1، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار حسان للطباعة  
والنشر، دمشق، 1983، عدة طبعات.
- 17- ابن القيم، شمس الدين محمود بن أبي بكر (ت 751هـ/1350م)  
"احكام أهل الذمة" دمشق، 1961.
- 18- ابن النديم، محمد بن اسحق(ت385هـ/993م):  
"الفهرست"، القاهرة، 1348هـ (عدة طبعات).
- 19- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت 749هـ/1348م)  
"تاريخ ابن الوردي" (تتمة المختصر في أخبار البشر) جزآن، ط2، النجف، 1969م.

20- ابن اياس، ابو البركات محمد بن أحمد الحنبلي، المصري، (ت 930هـ/1523م).  
"بدائع الزهور في وقائع الدهور" 5 اجزاء، تحقيق محمد مصطفى، بولاق، الهيئة  
المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1311هـ/1960-1963م، 1404هـ/1984م "عدة  
طباعات".

21- ابن ابيك الدواداري: ابو بكر عبد الله بن عبد الله بن ابيك (ت 732هـ/1331م)  
"كنز الدرر، وجامع الغرر" والدرر الفاخرة في سيرة الملك الناصر"، تحقيق رويمر،  
طبع الخانكين القاهرة 1960-1972م، وخاصة الاجزاء 6، 7، 8، 9.

22- ابن بسام،

"تهاية الرتبة في طلب الحسبة" الهيئة المصرية للكتاب، 1976م.

23- ابن بصال، عبد الله محمد بن ابراهيم (عاش في القرن 5هـ/11م)  
"كتاب الفلاحة" تحقيق خوسيه ماريه مياس ومحمد عريمان، ومحمد مولاي الحسن،  
المغرب، تطوان، 1955م.

24- ابن بهاء الدين ت (632هـ/1234م)

- "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة،  
1964م.

25- ابن تيمية، علاء الدين ابو الحسن احمد بن علي بن محمد (ت 803هـ/1400م)  
- "فتاوي الخمر والمسكرات"، تحقيق محمد ابراهيم الحفناوي. طنطا، دار البشير  
للثقافة، 1988م. و ط 1980.

- "مناقب الشام وأهله"، ط 1، بيروت، 1306هـ/1960م.

26- ابن ثغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف، (ت 874هـ/1470م).  
- "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، 6 اجزاء، القاهرة 1932-1972م. عدة طباعات.  
- "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي"، ج 1، تحقيق احمد يوسف نجاتي، مطبعة دار  
الكتب، القاهرة، 1965م.

27- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت 779هـ، 1377م)

"تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه" ج 2، تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور، القاهرة،  
1976-1982م.

28- ابن حجاج، أبو عمر أحمد (من أعيان القرن 5هـ/ 11م)

"المقتع في الفلاحة" تحقيق صلاح جرار ورفيقه، منشورات مجمع اللغة العربية  
الاردني، عمان، 1980م.

- 29- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت 852هـ).  
 - "الإصابة في تمييز الصحابة" المطبعة الشرقية، 1907م.  
 - "أنباء الغمر بأبناء العمر"، 3 أجزاء، تحقيق حسن حبشي، دار التحرير للطباعة، القاهرة، 1969م.  
 - "الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة" طبعة حيدر اباد، 135هـ. عدة طبعات.  
 30- ابن حزم (ت 456هـ/1062م)  
 "جمهرة أنساب العرب" تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1962.  
 31- ابن خرداذبة، ابو القاسم عبد الله بن عبدالله (ت 300هـ/906م).  
 "المسالك والممالك" ينشر دي غو، طبعة ليدن، 1967م.  
 32- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر (ت 808هـ/140م)  
 تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر" 7 أجزاء، ط بيروت، دار الفكر، 1399هـ/1979م. وطبعة دار الطباعة العامرية، القاهرة، 1284هـ.  
 - "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، القاهرة، (د.ت.).  
 33- ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن ابي بكر (ت 681هـ/1283م).  
 "وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان"، 6 أجزاء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948. ومطبعة دار العادة 1949م.  
 34- ابن رجب، ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب (ت 795هـ/1393م).  
 "الذيل على طبقات الحنابلة"، مطبعة السنة المحمدية.  
 35- ابن شاکر الكتبي، محمد بن شاکر بن أحمد، (ت 764هـ/1363م).  
 "قوات الوفيات"، جزءان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط السعادة، القاهرة، 1951م.  
 36- ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهر، (ت 837هـ/1468م)  
 "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، صحيحة بولس راوييس، باريس 1894.  
 37- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت 684هـ/1286م)  
 "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، حققه يحيى عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978، عدة طبعات.  
 38- ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بالطقطقي (ت 709هـ/1309م)  
 "الفخري في الأدب السلطانية" ألفه عام 701هـ، ط2، القاهرة، 1930م. وط، دار صادر، بيروت، للطباعة والنشر، بيروت، 1966م.

- 39- ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد.
- "القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية"، تحقيق محمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980م.
- "مفاكهة الخلان في حوادث الزمان" تاريخ مصر والشام، تحقيق صلاح المنجد، جزآن، القاهرة، 1964م.
- "قضاة دمشق"، التغر البسام في ذكرى من ولي قضاء الشام، تحقيق المنجد، مطبعة الترقى، دمشق، 1956م.
- 40- ابن عبد السلام، احمد:
- "ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام"، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي الميادينى، المكتبة العالمية، بغداد، د.ت.
- 41- ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين.
- "تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"، تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م.
- "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م.
- "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" تحقيق فاطمة صديق، اكسفورد، 1956م.
- "الدمشقي"، شمس الدين محمد بن أبي طالب، شيخ الربوة الانصاري (ت727هـ/1326م)
- "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" بطر سبيرغ، 1866م).
- 42- ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسين (ت 571هـ/1175م)
- تهذيب "تاريخ دمشق" 5 اجزاء، تهذيب وترتيب عبد القادر بدران، دمشق، 1331، طبعة دار السيرة بيروت، 1979، "عدة طبعات".
- 43- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين (ت749هـ/1348م)
- "التعريف بالمصطلح الشريف"، مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312هـ. وطبعة بيروت 1988 تحقيق أحمد حسن.
- "مسالك الابصار في ممالك الامصار" تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب، القاهرة، 1924م.
- 44- ابن قاضي شهبه : تقي الدين أحمد بن محمد الاسدي الدمشقي (779هـ/1377م)
- "الكواكب النورية في السيرة النبوية" تحقيق محمود زيدان، دار الكتب الجديدة، بيروت.

- 45- ابن قطلوبغا، زين الدين قاسم:  
"تاج التراجم في طبقات الحنفية" مطبعة العاني، بغداد، 1962م.
- 46- ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م)  
"البداية والنهاية"، 4 أجزاء، القاهرة، 1932م. "عدة طبعات".
- 47- ابن مفااتي، أسعد بن المهذب بن أبي مليح (ت606هـ/1209م)  
كتاب "قوانين الدواوين" تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر 1943م.
- 48- ابن منقذ، اسامة، (589هـ/1193م)  
أو "سيرة أسامة" نشر Derenbourg وأعاد نشره فيلب حتى 1930م.
- 49- ابن هلال الصابي، ابو الحسن بن هلال بن المحسن (ت448هـ/1046م).  
- "رسوم دار الخلافة"، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد.  
- "تحفة الامراء في تاريخ الوزراء"، القاهرة، 1958م.
- 50- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم  
"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1972م.
- 51- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م).  
"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، وطبعة المطبعة الوهبية، القاهرة، 1285هـ.
- 52- ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت732هـ/1331م):  
- "المختصر في أخبار البشر"، مجلدان، 4 اجزاء، دار المعرفة للطباعة والنشر بدون تاريخ، لبنان. "عدة طبعات".  
- "تقويم البلدان"، مطبعة المتنبى، بغداد، 1850م.
- 53- ابو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (ت665هـ/1267م).  
- "الذيل على الروضتين": تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، نشره السيد عزت العطار، القاهرة، 1947. "عدة طبعات".  
- "كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية"، جزءان، القاهرة، 287هـ/1974م. "عدة طبعات".
- 54- الادفوي، كمال الدين ابو الفضل جعفر المصري (ت784هـ/1382م)  
"الموفي بمعرفة التصوف والصوفي" حققه د. محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت 1988م.

- 55- الاربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو (ت 717هـ/1317م).  
 " خلاصة الذهب المسبوك" صححه مكي السيد جاسم، مكتبة المتنبي، بغداد، 1964.
- 56- الاشرف الرسولي، يوسف بن عمر بن علي الغساني (ت694هـ/1294م)  
 "ملح الملاحة في معرفة الفلاحة" تحقيق عبد الله محمد علي المجاهد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1972م.
- 5- الاصفهاني، عماد الدين (ت 597هـ/1101م)  
 - "الفتح القسي في الفتح القدسي"، تحقيق محمد محمود صبح، مطبعة الموسوعات القاهرة، 1321هـ.  
 - كتاب "البرق الشامي" الذي اختصره الفتح النداري في "سنة البرق الشامي" حققته الدكتورة:  
 فتحية النبراوي - القاهرة، وطبعة ليدن 1888.  
 - "تاريخ دولة آل سلحوق"، اختصار البنداري، بيروت،
- 58- الاندلسي، ابي محمد علي أحمد بن سعيد بن حزم (ت 456هـ)  
 "جمهرة أنساب العرب" دار الكتب العامة، بيروت، لبنان.
- 59- الاوسي الانصاري، عمر بن ابراهيم (أوائل القرن التاسع/ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي).  
 "تفريج الكروب في تدبير الحروب"، حققه وترجمه إلى الانجليزية الدكتور جورج سكانلون، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 1961م.
- 60- البدري، ابو البقاء عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ت788هـ/1385م)  
 "ترهة الأنام في محاسن الشام" المطبعة السلفية، القاهرة، 1341هـ/1923م.
- 61- البغدادي السويدي:  
 "مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، 3 أجزاء، نشرة ليدن 1864م.
- 62- البكري، ابو عبدالله بن عبد العزيز:  
 "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع"، 4 أجزاء، تحقيق مصطفى السقالي، القاهرة، 1945-1951.
- 63- البلاذري، ابو العباس احمد بن يحيى:  
 - " أنساب الأشراف" طبعة بيت المقدس.  
 - "كتاب النقود"، نسخة الاستانة، نقلها نعمان الألوسي، 1869م، نشرها دير الاباء الكرمليين، شبرا القاهرة، 31 تموز (جويلية) 1939م.  
 - كتاب "فتوح البلدان"، نشره، دي جويه، بريل، 1866م.  
 - " أنساب الأشراف"، القدس، 1970م.

- 64- الدواداري، عبد الله أبيك (ت 732هـ).
- "كنز الدرر وجامع الغرر" تحقيق رويمر، القاهرة، 1960م.
- 65- الذهبي، أبو سالم محمد بن طلحة القرشي (ت 652هـ)  
"العقد الفريد للملك السعيد نائر الماوردي"
- 66- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 784هـ/1382م)  
- "دول الإسلام"، جزءان، تحقيق فهد شلتوت، حيدر أباد 1337هـ/1918م. وطبعة  
الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
- "العبر في خبر من غير" تحقيق صلاح المنجد، الكويت 1960م.
- "تاريخ الإسلام"، "طبقات مشاهير الاعلام"، مطبعة دار السعادة، مصر، 1368هـ.
- كتاب "المعين في طبقات المحدثين"، تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم، عمان.
- 67- الراصدي، تقي الدين محمد بن أحمد يوسف (ت 993هـ/1585م):  
"الطرق السنية في الآلات الروحانية" تحقيق أحمد يوسف، 1976م.
- 68- سبط ابن الجوزي، أبو المظفر بن غزا أوغلي:  
"مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، ج8، نسخة مصورة.
- 69- السبكي، تقي الدين بن عبد الوهاب (ت 771هـ/1269م).  
- "معيد النعم ومبيد النقم"، تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شبلي، محمد أبو العيون،  
دار الكتاب العربي، القاهرة، 1949م.
- "طبقات الشافعية الكبرى"، 6 اجزاء، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1324هـ.
- 70- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن.  
- "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" 12 جزء، مكتبة القدسي.  
- "التبر المسبوك في ذيل السلوك" مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- 78- السيوطي، أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين المنهاجي (ت 880هـ/1484م)  
"تحاف الاخصاص بفضائل المسجد الأقصى"، القاهرة، تحقيق احمد رمضان 1948.
- 79- السيوطي، الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ).  
- "تاريخ الخلفاء" تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة اوفست، بغداد.  
- "طبقة الحفاظ"، تحقيق علي محمد عمر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1967م، 1972.
- 80- السيوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت 723هـ/1322م)  
"الحوادث الجامعة"، تحقيق مصطفى جواد، بغداد 1932م.

81- الشعراني:

"الأشوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية"، حققه وقدم له طه عبد الباقي سرور  
والسيد محمد عبد الشافي، المكتبة العلمية، القاهرة، ج12، 1962م.

82- الشهدوري، عبد القادر عبالة، دار الفرقان (ت 1404هـ/1984م).

"عوارض المعارف" دار الكتاب العربي، بيروت، 1966.

83- الشيرازي، عبد الرحمن بن نصر (ت 589هـ/1193م)

"المنهج المسلوك في سياسة الملوك".

84- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله :

"تهاية الرتبة في طلب الحسبة" تحقيق السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف  
والنشر، القاهرة، 1964.

85- الصفدي، صلاح الدين بن أبيك:

"الوافي بالوفيات" 8 اجزاء تحقيق هلموت رينز، دار صادر، بيروت، 1962-  
1971م.

86- الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ/1923م)

"تاريخ الطبري"، دائرة المعارف، القاهرة، 1970 و1939. وتاريخ الامم والملوك

87- العزولي، ابن عبد الله البهائي (815هـ/1412م).

"مطالع البدور في منازل السرور" ط1، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، 1299،  
ص252.

88- العليمي الحنبيل، مجير الدين القاضي ابو الفرج عبد الرحمن بن أحمد

(ت 928هـ/1522م)

"الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل" جزءان، طبعة مكتبة المحتسب، عمان 1973م،

وطبعة القاهرة، المطبعة الوهبة، القاهرة 1283، ومطبعة دار الجيل، ج2،

بيروت، 1973م.

89- الفراء، ابو يعلى محمد بن الحسن الخيلي:

"الاحكام السلطانية" تصحيح محمد الفيضي، القاهرة، 1966، وطبعة مطبعة مصطفى

البابي الحلبي واولاده بمصر 1956 هـ/1938م.

90- الفقطي، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف:

"أخبار العلماء بأخبار الحكماء" مطبعة السعادة، القاهرة، 1326هـ.

91- القاسمي، محمد سعيد (ت 1317هـ/1900م).

"قاموس الصناعات الشامية" تحقيق: ظاهر القاسمي، باريس 1928م.



- 92- القاضي الفاضل (ت 596هـ-1200م)  
 "رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل"، اختارها موفق الدين ابن الديباجي،  
 ت615هـ، حققها الدكتور محمود نعش.
- 93- القلقشندي: (ت 821هـ/1488م).  
 - "صبح الاعشى في صناعة الانشا" 4 اجزاء، مصابح كوستي توماس، القاهرة،  
 1963م.
- "ماثر الاتفاقية في معالم الخلافة"، ق1، م. 3 اجزاء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج،  
 الكويت، 1964م.
- "تهاية الارب في معرفة أنساب العرب"، مطبعة الرياض، بغداد.
- 94- الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب (450هـ)  
 "كتاب الأحكام السلطانية" مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1909م. وطبعة انجر بوتا  
 1833م.
- 95- المرادي، خليل بن علي بن محمد بن مراد:  
 "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" 4 اجزاء، المطبعة الاميرية، بولاق، 1291-1301هـ.
- 96- مسكويه، ابو علي احمد بن محمد الخازن (ت 421هـ/1030م)  
 "تجارب الامم وتعاقب الهمم" ج5، 6، القاهرة، 1914م.
- 97- المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت 845هـ/1441م)  
 - "السلوك لمعرفة دول الملوك" 4 اجزاء، تحقيق دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد 98-  
 مصطفى زيادة، القاهرة، 1973-1974. "عدة طبعات"
- "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بالخطط المقرئزية 4 اجزاء، القاهرة،  
 بولاق 1270هـ.
- "اتعاظ الحنفا في ذكر الائمة الفاطميين الخلفاء" 3 اجزاء تحقيق محمد علي، القاهرة،  
 1948.
- "النقود الإسلامية"، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 1298م.
- "اغاثة الأمة بكشف الغمة"، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ط2، 1957.
- "شذور العقود في ذكر النقود" تحقيق محمد صادق، آل بحر، المطبعة الحيدرية، النجف،  
 العراق، 1356هـ.
- "رسالة في النقود الإسلامية" نسخة الاستانة، نسخها شكري الفضلي، البغدادي ونشرها الاب  
 أنستاس ماري الكرمل/ جويلية/ 1939، ونسخة نشرها فارس الشدياق، مطبعة الجوانب،  
 1933م.
- "البيان والاعراب في تاريخ العروبة في وادي النيل" تحقيق وتاليف عبد المجيد عابدين،  
 القاهرة، 1961.

- 99- النابلسي، الشيخ عبد الغني (ت 1143هـ/1730م)  
- "علم الملاحة في علم الفلاحة"، بيروت، 1979م.  
- "لمع القواتين المضيفة" كتب عن الوظائف الديوانية (د.ت)  
100- النعيمي، عبد القادر محمد بن عمر  
"الدارس في تاريخ المدارس" جزءان ، تحقيق جعفر الحسيني. مطبعة الترقى، دمشق، 1948م.  
101- الهروي:  
"كتاب الارشاد الى معرفة الزيارات"، دمشق، 1953م.  
102- الياضي، عبدالله بن سعيد اليمني المكي (ت 768هـ/1367م)  
"مراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان" 4 اجزاء، منشورات  
الاعلمي للمطبوعات، بيروت، 1390هـ/1979م. وطبعة حيدر آباد، 1237هـ. وطبعة 1970م.  
103- اليوسفي، محمد بن يحيى (ت 759هـ/1358م)  
"تزهة الناظر في سيرة الملك الناصر" تحقيق أحمد حطيط، ط1.  
104- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد:  
"ذيل مراة الزمان"، 4 اجزاء، مطبعة دار المعارف القديمة، حيدر آباد، الهند 1954-1961م.

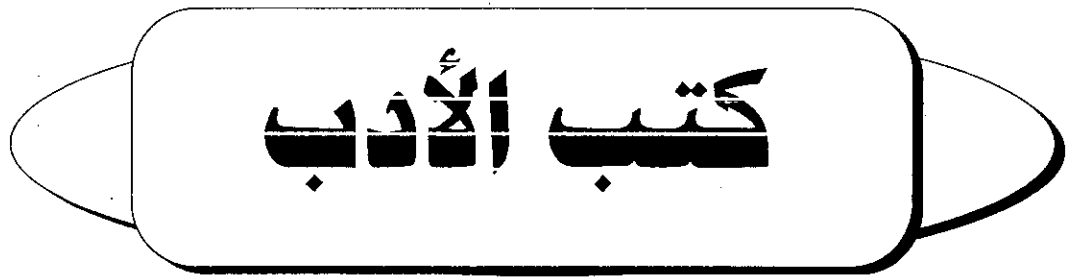
خامساً:

**مصادر الرحالة والجغرافيين**

- 1- ابن الوردي، زين الدين مظفر، (ت 749هـ / 1348م).  
"فريدة العجائب وفريدة الغرائب" تصحيح أحمد سعيد علي، ط2، القاهرة 1939م.
- 2- ابن بطوطة، ابو عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت 779هـ / 1377م).  
- رحلة ابن بطوطة السمماة: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" جزآن، ط القاهرة، 1964م. وطبعة دار باريس 1808م، وطبعة بيروت 1968م، وطبعة دار صادر، بيروت للطباعة والنشر، 1384هـ / 1964م، ليدن، مطبعة بريل 1866.
- 3- ابن جبير، ابو الحسن محمد ابن أحمد، (ت 614هـ / 1217م):  
"الرحلة"، تحقيق د. حسين نصار، طبعة دار الهلال، بيروت، 1981، "عدة طبعات".
- 4- ابن حوقل، ابو القاسم محمد النعيمي (ت 367هـ / 1977م).  
- "المسالك والممالك"، نشر دي غويه، ليدن، 1872م.  
- "صورة الأرض"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- 5- ابن سعيد المغربي (ت 673هـ / 1275م)  
"كتاب الجغرافيا"، تحقيق اسماعيل العربي، ط1، بيروت، 1970م.
- 6- ابن يحيى، صالح:  
"تاريخ بيروت وأخبار السلف من ذرية بختر بن علي أمير العرب"، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وأخري، بيروت، 1969م.
- 7- الادريسي، ابو عبدالله محمد بن محمد  
"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" القسم الخاص بفلسطين وسوريا .
- 8- الاصطخري، ابو اسحق الفارسي إبراهيم بن محمد (ت 321هـ / 933م).  
- "المسالك والممالك"، ليدن، 1967م.  
- "كتاب الأقليم"، نتشر مكر، غوتميرغ، 1938م.
- 9- الباكوي، عبد الرشيد صالح (من أعيان القرن 9هـ / 15م).  
"تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار" ترجمة ضياء الدين ابن موسى، موسكو، 1971م.
- 10- البغدادي، محمد بن حسن محمد (من أعيان القرن 7هـ / 13م).  
- "مراسد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق علي البجاوي، بيروت 1957م.  
- "كتاب الطبخ" نشره البارودي، ط1، دار الكتاب الجديد، 1964م.

- 11- بنيامين بن بوكه التطيلي الأندلسي،  
 "رحلة بنيامين" 561-569هـ/1165-1173م.  
 ترجمها عن الأصل العبري عزاز حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، 1945م.
- 12- الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله بن الدومي الحموي البغدادي،  
 (ت 626هـ/1228م)  
 - "معجم البلدان"، 5 أجزاء - طبعة دار صادر بيروت، وطبعة دار العادة، القاهرة، 1907م.  
 - طبعة ليزج 1868م.  
 - طبعة الأوفس، طهران، 1965، "عدة طبعات".  
 - المشترك وضعاً والمفترق صقلاً، طبع جوتجن، ألمانيا، 1846م.
- 13- الخيار المدني، إبراهيم بن عبد الرحمن (ت 1083هـ)  
 "رحلة الخياري" المسماة: تحفة الأدباء وسلوة الغرباء.  
 تحقيق رجاء محمود السامرائي، وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة كتب التراث (12).
- 14- السباهي زادة، محمد بن علي (ت 997هـ/1588م).  
 "أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك" ميكروفيلم عن مخطوطة لندن بمركز  
 الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم 559 وقرّة 23، 66.
- 15- عوض، محمد مؤنس أحمد:  
 "الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس"، ما بين 1099-1178م، مكتبة  
 المدبولي، ميدان طلعت حرب- القاهرة، 1922م.
- 16- القزويني: زكريا محمد بن محمد (ت 682هـ/1284م)  
 "آثار البلاد وأخبار العباد" طبعة، بيروت، 1389هـ/1966م وطبعة 1960، 1969م.
- 17- المسعودي، أبو الحسن علي (ت 346هـ/947م)  
 "مروج الذهب ومعادن الجواهر"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية،  
 دار السعادة، 1948م، ط3 القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1958م.
- 18- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد الشافعي (ت 1387هـ/1967م).  
 "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، جزء أن، ط2، بغداد.  
 وطبعة ليدن ثانية 1909 "عدة طبعات"
- 19- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 282هـ/895م).  
 "كتاب البلدان"، طبعة دي خويه، ليدن، 1892م

سادساً:



- 1- الابشيهي، الشيخ شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت850هـ/1446م)  
'السمتظرف في كل من مستظرف' ط2، جزءان، القاهرة، 1279هـ.
- 2- ابن جماعة، بدر الدين ابن اسحاق ابراهيم:  
"تذكرة العالم والمتعلم"، دار الكتب العلمية1354هـ.
- 3- ابن منظور، جمال الدين محمد كرم (711هـ/1311م)  
"لسان العرب" دار صادر، بيروت، 1955م، وطبعة مصورة عن بولاق، دار الكتب المصرية، ج9.
- 4- الاصفهاني، عماد الدين الكاتب، ابو عبدالله محمد بن محمد: (597هـ/1220م)  
"خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الشامي"، ج3، تحقيق الدكتور شكري فيصل، طبعة  
المطبعة الهاشمية، دمشق، 1959م.
- 5- الانباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت577هـ/1181م)  
"تزهة الالباء في طبقات الادباء"، ط2، تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي، بغداد، 1970م.
- 6- باشا، د. عزم موسى.  
"الادب في بلاد الشام" عصر الزنكيين والايوبيين والمماليك. ط2، دمشق، 1972، وطبعة  
1409هـ/1989م.
- 7- بروكلمان، كارل، (ت1336هـ/1956م)  
"تاريخ الادب العربي" ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص2، دار المعارف، مصر 1968م.
- 8- بكري، شيخ أمين،  
"مطالعات في الشعر المملوكي العثماني"، بيروت ط2، 1399هـ/1979م.
- 9- بلاستير، ديجيس،  
"تاريخ الادب العربي"، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني، دمشق، 1973م.
- 10- حسين، الدكتور محمد كامل،  
'دراسات في الشعر في عصر الايوبيين'، ط، دار الفكر العربي، مصر.
- 11- حمزة، د. عبد اللطيف. (ت1391هـ/1971م)  
"تصوص من ادب الحروب الصليبية" مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1949م.
- 12- خليف، د. يوسف:  
"تاريخ الشعر في العصر العباسي"، القاهرة، 1911م.
- 13- الرافعي، مصطفى صادق: (ت1356هـ/1937م)  
"تاريخ اداب العرب، ط4، بيروت، 1974م.

- 14- الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ/1443م)  
- 'اساس البلاغة' كتاب الشعب، القاهرة 1960م.  
- 'الكشاف' ط، بولاق، 1381هـ.
- 15- الساريسي، د. عمر عبد الرحمن،  
"تصوص من ادب الحروب الصليبية" جدة، ط1، 1985م.
- 16- سلام، محمد زغلول:  
- 'الادب في العصر الأيوبي'، ج1، دار المعارف بمصر، 1967م.  
- 'الادب في العصر المملوكي'، ج2، دار المعارف بمصر، 1971م.
- 17- شوقي، ضيف:  
"تاريخ الادب العربي"، عصر الامارات، ج5، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1963م.
- 18- فروخ، د. عمر:  
"تاريخ الادب العربي"، عصر الامارات.  
19- القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي (ت821هـ/1418م)  
"صبح الاعشا في صناعة الانشا" 4 اجزاء، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1913م. (عدة طبعات).
- 20- الكردي، محمد علي الصويركي:  
"الاردن في اشعار العرب"، عمان، 1988م.
- 21- محمود، محمد عبد العزيز:  
"تطور الخط العربي في مصر في عصر الايوبين والمماليك"، جامعة الاسكندرية، 1974م، الرمز 962، 392 صفحة.
- 22- المومني، د. قاسم ورفيقه:  
"شعراء عاشوا في قلعة عجلون في القرنين السابع والثامن الهجري" عمان، 1984م.
- 23- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م)  
"تهاية الارب في فنون الادب" 21 جزءاً، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1923-1976م. عدة طبعات.
- 24- الهاشمي، أحمد:  
"جواهر الادب"، مؤسسة المعارف، بيروت.
- 25- الهباهبه، طه علي:  
"الشوبك في التاريخ والوجدان الشعبي"، عمان، 1984م.
- 26- ياقوت، الحموي شهاب الدين (ت626هـ/1228م)  
س' معجم الادباء '، 20 جزءاً، القاهرة، 1907-1927م، وطبعة القاهرة، 1936-1938م. 'عدة طبعات'.



سابعاً:

## المراجع العربية الحديثة

- 1- أبو عليه، الدكتور عبد الفتاح ورفيقاه:  
- "النظم الإسلامية"، جامعة البصرة، 1980م.  
- "تاريخ مدينة القدس"، الرياض، 1986م.
- 2- أحمد أمين :  
- "ظهر الإسلام"، ط4، القاهرة، 1966م.  
- "ضحى الإسلام"، ط1، القاهرة، 1933م.  
- "فجر الإسلام" ط1، القاهرة، 1965م.
- 3- أحمد دراج :  
- "المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي" دار الفكر العربي بالقاهرة، 1961م.  
- "وثائق دير صهيون بالقدس الشريف"، القاهرة، مكتبة الانجلوا مصرية، 1968م.
- 4- ابن الجزري، شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد:  
"غاية النهاية في طبقات القرار"، ج1، مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1932م.
- 5- ابن يحيى، صالح:  
"تاريخ بيروت واخبار الامراء الباحثين من بني المغرب"، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت، 1898.
- 6- ابو دلو، ربي احمد:  
"معاصر السكر في غور الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين" رسالة ماجستير في معهد الآثار، جامعة اليرموك، الاردن، اربد 1991م، غير منشورة.
- 7- ابو زهرة، محمد احمد:  
"المذاهب الإسلامية"، القاهرة، مكتبة الادب.
- 8- احسان النمر:  
"تاريخ جبل نابلس والبلقان"، ج1، نابلس، 1961م.
- 9- احسان عباس:  
"تاريخ دولة الانباط" عمان، 1987م.
- 10- احمد صادق سعد:  
"تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي"، بيروت، 1979.
- 11- احمد عبد الرزاق احمد:  
"دراسات في المصادر المملوكية"، القاهرة، 1974م.

- 12- احمد عيس بك:  
"تاريخ اليمارساتات في الاسلام"، دار التراث العربي، بيروت، ط2، 1981.
- 13- اسد رستم:  
"الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب"، بيروت، 1969م.
- 14- الاسطل، علي رضوان احمد :  
"دراسة في تاريخ العلوم عند العرب".وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، مطبعة العالي المركزية، 1989م.
- 15- اسكندر، ميخائيل:  
"القدس عبر التاريخ " طبعة القاهرة، 1972م.
- 16- اسماعيل، نعمت:  
"فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية"، القاهرة، .
- 17- الباشا، حسن:  
" الانقلاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والاثار" مكتبة النهضة المصري، 1975م.
- 18- باشا، علي مبارك: (ت 1311هـ/ 1893م).  
"الخطط التوفيقية الجديدة"، ج20، مطبعة بولاق، 1309.
- 19- البخيت، محمد عدنان:  
- " مملكة الكرك في العصر المملوكي"، 1976.  
- "تاحية بني كنانة شمال الاردن في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي".  
منشورات الجامعة الاردنية ، عمان، 1984م.
- 20- بدوي، أحمد:  
- "مأمون بني أيوب -المعظم عيسى" مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1953م.  
- "الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام" دار نهضة مصر، القاهرة، 1953.
- 21- البرغوثي، عمر الصالح:  
- "تاريخ فلسطين" مطبعة بيت المقدس، القدس 1923م.  
- "تاريخ فلسطين، مطبعة بيت المقدس"، بيروت، بدون تاريخ.
- 22- البستاني، بطرس:  
"دائرة المعارف"، بيروت، 1876م. ج1.

- 23- بيطار، أمينة:  
- "تاريخ العصر الايوبي"، دار الطباعة الحديثة، دمشق، 1981-1982م.  
- "الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام" منشورات وزارة التعاون والارشاد القومي، دمشق، 1980م.
- 24- بيك، فردريك:  
"تاريخ شرق الاردن وقبلها، القدس، 1934م.
- 25- بيومي، علي احمد:  
"قيام الدولة الأيوبية في مصر"، رسالة ماجستير (مدارس، وجيوش) غير منشورة، القاهرة 1946م.
- 26- توفيق، الدكتور عمر كمال:  
"مملكة بيت المقدس الصليبية"، الاسكندرية، 1958م.  
"دراسة تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي"، الاسكندرية، مؤسسة شبك 1958، الجامعة للطباعة والنشر
- 27- الثعلبي،  
"التعريف بمصطلحات صبح الأعشى"، القاهرة، 1983م.
- 28- الثعلبي، محمد:  
"التعريفات بمصطلحات صبح الاعشى" القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1983م.
- 29- جبران ، نعمان محمود:  
"مملكة حماة في العهدين الايوبي والمملوكي الاول" رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية، عمان، 1981م، غير منشورة، ص195.
- 30- جرجي، جمال:  
"القضاء في الدولة المملوكية" رسالة ماجستير، عين الشمس، القاهرة، 1972م.
- 31- الجندي، جمعة الجندي،  
"حياة الفرنج ونظمهم في الشام"، رسالة دكتوراه، عين شمس، 1985م.  
الجنزوري، علية عبد السميع:  
"الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية"، مكتبة الانجلوا أمريكية، 1965.
- 32- جودت صادق، احمد:  
"مدينة الرملة"، 1986م.

- 33- حبشي، الدكتور حسن:  
- "اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م.  
- "الحروب الصليبية الأولى" 1970م.  
34- حجازي، فايزة:  
"أهل الذمة في بلاد الشام في العصر الايوبي والمملوكي"، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اربد، الاردن، 1412هـ/1992م.  
35- حجي، الدكتورة حياة ناصر:  
- "احوال العامة في عصر المماليك"، مكتبة الفلاح، الكويت، ط، 1403هـ/1983م.  
- "السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده"، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـ/1983م.  
36- حسن احمد محمود:  
"العالم الاسلامي في العصر العباسي"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966.  
37- حسن، زكي محمد:  
"فنون الاسلام"، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1948م.  
38- حسن، علي ابراهيم:  
"تاريخ دولة المماليك البحرية".  
39- حسن، علي ابراهيم:  
"تاريخ المماليك البحرية"، مطبعة الشبكي، القاهرة، 1948م.  
40- حسين، محمد كامل:  
"طائفة الاسماعلية، (تاريخها، نظمها، عقائدها)"، القاهرة، الفكر العربي.  
41- الحسيني، محمد باقر:  
- "تطور النقود الاسلامية"، دار الجاحظ، بغداد 1960م،  
- "العملة الاسلامية في العهد الاتابكي"، دار الجاحظ، بغداد، 1966م.  
42- الحصري، محمد اديب تقي الدين:  
"منتخبات التواريخ لدمشق"، المطبعة الحديثة، دمشق، 1934.  
43- حمادة، محمد ماهر:  
"الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة (247-656هـ/861-1258م)".

- 44- حمارنه، صالح:  
"زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين" حولية دائرة الآثار الاردنية،  
1977-1978م.
- 45- حمزة بن عبد المطلب:  
"الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي والمملوكي"، القاهرة، 1966م.
- 46- حمزة، عبد اللطيف:  
"الحركة الفكرية في صمر في العصرين الايوبي والمملوكي الأول" دار الفكر العربي،  
القاهرة 1947م.
- 47- الحموي، محمد ياسين:  
"دمشق في العصر الايوبي"، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1946م.
- 48- الحويري: الدكتور محمود:  
"الاضواء الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين"،  
ط1، القاهرة، 1979م.
- 49- الحيارى، مصطفى:  
"الامارة الطائفة في بلاد الشام"، ط1، وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1977م.
- 50- الخربوطلي، علي حسن:  
"البحر المتوسط بحيرة اسلامية"، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، 1963.
- 51- الخصري بك، محمد:  
- "محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية، الدولة العباسية"، المكتبة التجارية الكبرى  
بمصر.
- "تاريخ الامم الاسلامية"، جزءان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1953م.
- 52- خليل، عماد الدين:  
- "عماد الدين زنكي"، بيروت دار القلم.
- "تور الدين محمود (الرجل والتجربة)"، دمشق، بيروت.
- 53- الخولي، امين:  
"الجندية والسطح" مطبعة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة، 1960م.
- 54- دائرة المعارف الاسلامية:  
"الترجمة الاسلامية للمستشرق كليمان هيوار".

- 55- الدباغ، مصطفى وراد:  
- "القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين"، بيروت، 1986م.  
- "الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين"، بيروت، 1986م.  
- "بلادنا فلسطين"، ج1، دار الطبيعة، بيروت، 1965م.  
- فلسطينيات من هنا وهناك، بيروت، 1986م.  
56- الدسوقي، عمر:  
"الفتوة عند العرب"، القاهرة، (د.ت).  
57- دهمان، محمد أحمد:  
"معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي"، ط1، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1990م.  
58- الدوري، عبد العزيز:  
"دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، بغداد، 1945م.  
59- الدوري، عبد العزيز:  
- "تشاكل الاقطاع في المجتمعات الإسلامية"، مجلة المجتمع العلمي العراقي،  
م20، 1970.  
- "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي" بيروت، 1980م.  
60- ربيع، محمد حسنين:  
"النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين"، مطبعة جامعة القاهرة، 1964م.  
61- الرحاوي، عبد القادر:  
"العمارة العربية الإسلامية، خصائصها واثارها في سوريا" منشورات وزارة الثقافة  
والارشاد القومي، دمشق 1979.  
62- رستم، اسد:  
"الروم وصلاتهم بالعرب"، بيروت، 1965م.  
63- الرفاعي، انور:  
"النظم الإسلامية"، دار الفكر، 1392هـ/1973م.  
64- الروسان، محمد سليمان:  
"تطور الحمام في بلاد الشام في العصر الإسلامي المبكر في ضوء المصادر التاريخية  
والمستجدات والاكتشافات الاثرية"، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك.

- 65- زايد، عبد الحميد:  
"القدس الخالدة" ط القاهرة.
- 66- الزركلي، خير الدين:  
"الاعلام"، ط2، القاهرة، 8 مجلدات.
- 67- زكار، الدكتور سهيل:  
- "مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية"، دمشق، 1973م.  
- "حطين مسيرة التحزير من دمشق الى القدس"، دمشق 1984م.  
- "تاريخ العرب والاسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد"، دار الفكر، بيروت.
- 68- زكي، اسامة:  
"الصليبيون واسما عيلية الشام في عصر الحروب الصليبية القرن 6هـ/12م"، طبعة الاسكندرية، 1980م.
- 69- زكي، محمد أمين:  
"تاريخ الكرد وكردستان" ترجمة محمد علي عويس.
- 70- الزوربا، فريال:  
"الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي"، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، 1980م.
- 71- زيادة، محمد مصطفى:  
- "المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي"، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1949م.  
- "نهاية السلاطين المماليك في مصر"، القاهرة، 1948م.
- 72- زيادة، نقولا:  
"دمشق في عصر المماليك"، بيروت، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر 1966م.
- 73- زيان، حامد زيان غانم زيان:  
- "الصراع السياسي والعسكري بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية"، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1403هـ/1983م.  
- "العلاقات الحضارية بين مصر والشام وبين صقلية، 490-659هـ/1096-1261م".  
- "العلاقات السياسية بين نورمان صقلية وصليبي الشام، 490-584هـ/1096-1118م".



- 74- زيدان، جورجى:  
"تاريخ التمدن الاسلامي"، منشورات دار مكتبة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة، 1960.
- 75- الزيود، محمد احمد:  
"النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع الهجري، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الاسلام، 1990".
- 76- سالم، السيد عبد العزيز:  
- "التاريخ والمؤرخين العرب"، الاسكندرية، 1967م.  
- "تاريخ الدولة العربية"، دار النهضة العربية، بيروت، 1971م.  
- "طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي"، دار المعارف، الاسكندرية، 1967م.
- 77- السبع، محمد،  
اسس الزراعة ونظمها عند العرب، الندوة العالمية الثالثة، لتاريخ العلوم عند العرب، بعنوان "اسهامات في علم الملاحة" مؤسسة الكويت، ط1، 1983م.
- 78- سرور، الدكتور محمد جمال الدين:  
- "تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق" القاهرة، 1969.  
- "النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق"، ط3.  
- "دولة الظاهر بيبرس"، دار الفكر العربي، 1964.
- 79- سرور، محمد جمال الدين:  
- "دولة بني قلاوون في مصر" مطبعة الاعتماد، القاهرة 1947.  
- "دولة الظاهر بيبرس في مصر" القاهرة، 1960.
- 80- سعداوي، نظر حسان:  
- "نظام البريد في الدولة الاسلامية"، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1953م.  
- "صور ونظام من عصر المماليك"، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1966م.
- 81- سليمان، ولیم سليمان:  
"الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية"، القاهرة، 1968.
- 82- شافعي، الدكتور سلام محمد:  
"اهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي والايوبي"، القاهرة.
- 83- شاکر، محمود شاکر:  
"التاريخ الاسلامي، الدولة العباسية"، ج2، بيروت.

- 84- الشامي، حسن محمود:  
"العملة وتاريخها" الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980.
- 85- شقير، نعم:  
"تاريخ سيناء"، مطبعة المعارف، القاهرة، 1916م.
- 86- شلبي، ابو زيد احمد :  
"تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي"، مكتبة وهبة، القاهرة.
- 87- شلبي، احمد:  
"موسوعة النظم والحضارة الاسلامية، النهضة المصرية"، القاهرة، 1962م.
- 88- شناق، أحمد:  
"صحوة الخلافة العباسية"، القاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة 1989م.
- 89- الشبال، جمال الدين:  
"تاريخ مصر الاسلامية" جزءان، الاسكندرية، 1967م.
- 90- الشبيبي، الدكتور كامل:  
"الفكر الشيعي والنزعات الصوفية"، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، 1966م.
- 91- صالحيه، الدكتور محمد عيسى:  
"بحوث ومقالات في الحضارة العربية والاسلامية"، دار التقدم العربي، بيروت، مؤسسة  
دار الكتب، الكويت 1988.
- 92- الصباغ، ليلي:  
"المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني"، منشورات وزارة الثقافة، دمشق  
1969.
- 93- صبحي صالح:  
"النظم الاسلامي"، بيروت، دار العلم للملايين.
- 94- صفوح، خير:  
"غوبة دمشق" دراسة في الجغرافية الزراعية، منشورات وزارة الثقافة والسياحة  
والارشاد القومي، دمشق، 1966م.
- 95- ضومط، انطون خليل:  
"الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري"، دار الحداثة، بيروت،  
1994م.

- 96- طرخان، ابراهيم علي :  
- "النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى"، دار الكاتب العربي، القاهرة 1968م.  
- "الاقطاع زمن السلاجقة والايوبيين"، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.  
- "النظم الاقطاعية في الشرق المتوسط" دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.  
- مصر في عصر دولة المماليك الجراكشة.
- 97- ظاهر، عدنان محمد محمود:  
"التعليم في مدارس بيت المقدس الاسلامية في العصر الايوبي" رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية.  
98- عادل عبد السلام:  
"جغرافية سورية (طبيعية وبشرية)"، دمشق، 1973م.  
99- العارف، عارف :  
- "تاريخ القدس" دار المعارف، القاهرة، 1951م.  
- "تاريخ غزة"، القدس، 1943م.  
100- عاشور، سعيد عبد الفتاح:  
- "الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى"، جزءان، القاهرة، 1963م.  
- "تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى"، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.  
- "الظاهر بيبرس" مطبعة مصر، القاهرة، 1963م.  
- "مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك"، دار النهضة، بيروت، 1972.  
- "بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى"، كلية الاداب، القاهرة، 1977، وفيه المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، 1965.  
- "العصر المماليكي في مصر والشام"، القاهرة، 1976.  
- "المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك"، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1962، وطبعة، 1962.

- 101- عاشور، فايد محمد:  
"جهاد المسلمين في الحروب الصليبية" الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت،  
1401هـ/1981م.
- 102- العبادي، احمد مختار:  
"قيام دولة المماليك في مصر والشام"، بيروت، 1972م، وطبعة 1969م.
- 103- عبد الرحمن زكي،  
"السلاح في الاسلام"، دار المعرفة، القاهرة، 1951م.
- 104- عبد الرحمن، عبد الجليل حسن عبد المهدي:  
"المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي"، مكتبة الاقصى،  
عمان، الأردن.
- 105- عبد السلام، محمد:  
"الحضارة العربية طابعها ومقوماتها"، دار النهضة العربية، بيروت.
- 106- عبد السلام، موسى:  
"قرية الدوايمة"، دار الجيل للنشر، عمان، 1985م.
- 107- عبد اللطيف، محمد فهمي:  
"السيد البدوي، دولة الدراويش في مصر".
- 108- عبد الملك بطرس ورفاقه،  
"قاموس الكتاب المقدس"، ج1، ج2، بيروت. 1964-1967م.
- 109- العبيدي، صلاح حسين:  
"الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي"، دار الرشيد، بغداد، 1980م.
- 110- عثمان، فتحي:  
"الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري" نشر الدار  
القومية، القاهرة ، 1966م.
- 111- العدوي، ابراهيم احمد:  
- "تاريخ العالم الاسلامي بعصر البناء والانطلاق"، ج1، القاهرة، 1983م.  
- "الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية"، مطبعة لجنة البيان العربي، 1951م.
- 112- العريني، السيد الباز:  
"الاقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك والأيوبيين"، دار النهضة، القاهرة،  
1956م.

- 113- العزاوي، عباس:  
"تاريخ النقود العراقية"، مطبعة شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1377هـ/1458م.
- 114- العسلي، كامل:  
"من آثارنا في بيت المقدس"، عمان 1982.
- 115- عطا، زبيدة محمد:  
- "الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين".  
- "بيرس، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" ج4، تحقيق زبيدة محمد عطا، رسالة  
دكتوراه، عين شمس.  
116- العقاد، عباس محمود:  
"الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين" المكتبة الثقافية، الهيئة العامة  
للكتاب، 1985.
- 117- علي، عبد الحفيظ:  
"المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث  
والسادس الهجريين/ التاسع والثاني عشر الميلاديين"، النهضة العربية للطباعة  
والنشر، ج2، ط، القاهرة، 1982م.
- 118- علي، محمد كرد:  
- "خطط الشام"، أجزاء، المطبعة المدنية، دمشق، 1925م.  
- "الاسلام والحضارة العربية"، جزءان، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة،  
1950-1951م.  
- "غوبة دمشق"، ط2، مطبعة الترقى، دمشق، 1952م.  
- "الادارة الاسلامية في عز العرب"، القاهرة 1934م.
- 119- العمدة، الدكتور هاني صبحي:  
"معجم الناهين في جنوب بلاد الشام" فلسطين، الاردن، ج1، عمان، 1985م.
- 120- عمر، الدكتور فاروق:  
- "الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة"، دولة الامارات.  
- "العين"، 1983.  
- "الخلافة العباسية في عصور الفوضى" بيروت، 1979.  
- "النظم الاسلامية- دار الخليج للطباعة والثقافة والنشر، ط1، الشارقة، دولة  
الامارات، 1983.

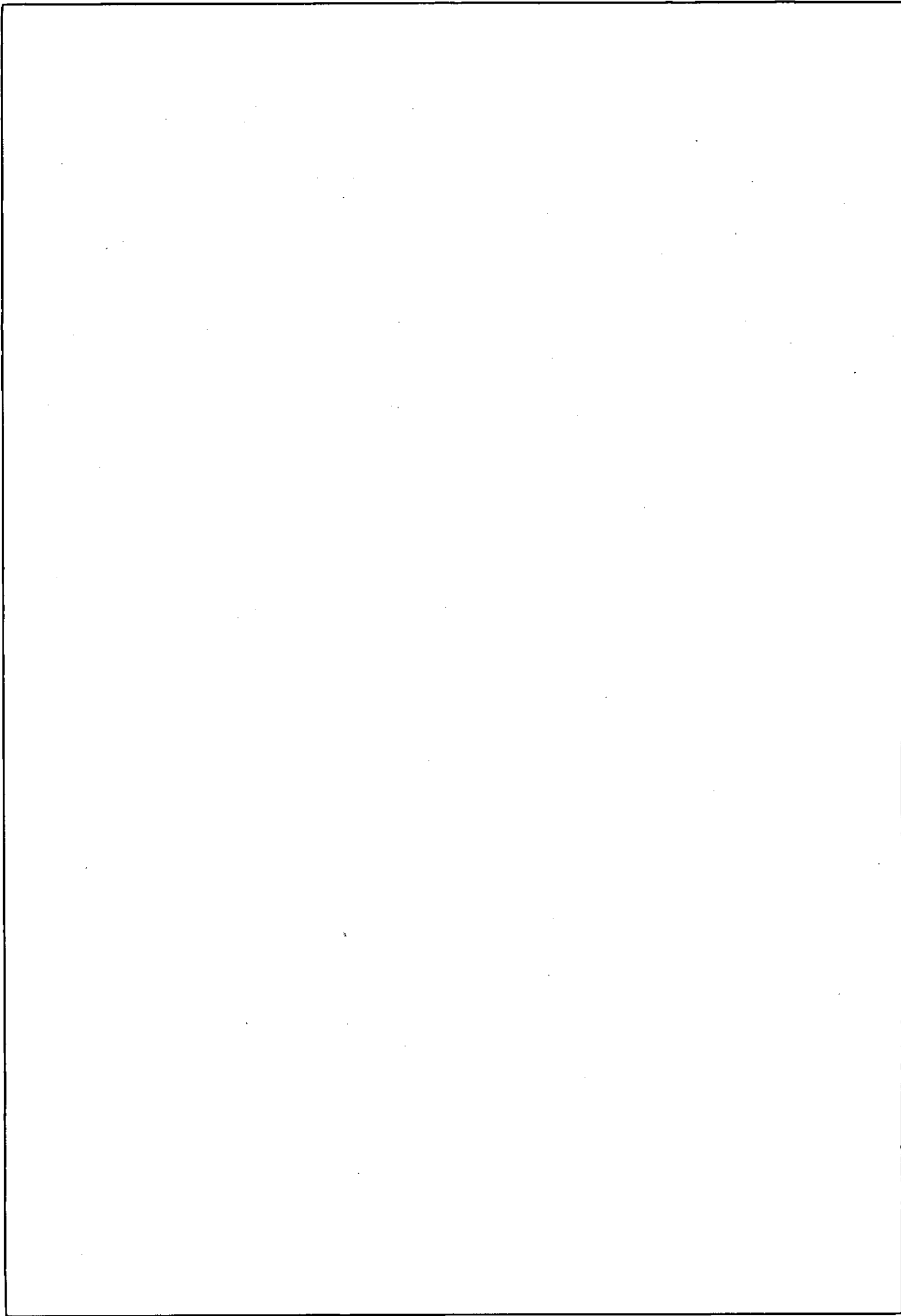
- 121- عنان، عبدالله:  
"مؤرخوا مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري"، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1388هـ/1969م.
- 122- عوض، محمد مؤنس أحمد:  
"التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين"، القاهرة، 1948.
- 123- عيسى، احمد:  
"تاريخ البيمارستانات في الاسلام" دمشق، 1357هـ.
- 124- غالب، مصطفى:  
"الحركات الباطنية في الاسلام"، بيروت، دار الكتاب العربي.
- 125- الغامدي، علي محمد:  
"بلاد الشام قبيل الغزو المغولي" (586-657هـ/1193-1259م) مكة، 1988.
- 126- غربال محمد شفيق:  
"الموسوعة العربية الميسرة" القاهرة، 1965.
- 127- الغزي، نجم الدين الداري:  
"الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة"، تحقق جبران سليمان جبور، المطبعة الأمريكية، بيروت، 1975م.
- 128- غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، جمعية عمال المطابع الاردنية، عمان، 1981م.
- 129- الغمراوي:  
"دراسة بين المنهج التطبيقي لتاريخ الطب العربي" القاهرة 1979.
- 130- غوانمة، الدكتور يوسف حسن درويش : "الاستاذ المشارك بدائرة":  
- "العلوم الانسانية والاجتماعية" - بجامعة اليرموك، دار الفكر والنشر والتوزيع، عمان، 1983.
- "التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي"، ط2، عمان، 1982م.
- "تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى"، القسم الحضارية.
- "تاريخ مدينة عمان وحضارتها" منشورات دار اللواء، عمان، 1979م، للصحافة والنشر، عمان، 1979.
- "تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي"، دار الحياة، الزرقاء، 1982، 1986م.
- "امارة الكرك الأيوبية" جمعية عمال المطابع الأردنية، الناشر: بلدية الكرك، عمان 1400هـ/1980م.

- 131- فكري، احمد:  
"بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية" اسكندرية، 1983م.
- 132- فهمي، عبد الرحمن:  
- "فجر السكة العربية"، القاهرة، 1965م.  
- "مجموعة النقود العربية وعلم النميات" فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1957م.  
- "النقود العربية ماضيها وحاضرها"، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دار العلم، 18 شارع التوقيفية 1964م.
- 133- فهمي، نعيم زكي:  
"طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973م.
- 134- قاسم عبده قاسم:  
"الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين" نشر دار المعارف، 1982.
- 135- القايناني، الشيخ محمد عبد الجواد (ت 1320هـ/1902م)  
"تفحة البشام في رحلة الشام"، دار الرائد العربي، بيروت 1980م.
- 136- القزاز، محمد صالح:  
"الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير من 512-656هـ"
- 137- القطب، سمير عبد الرزاق:  
"أنساب العرب"، بيروت.
- 138- القطب، سمير عبد الرزاق:  
"انساب العرب" منشورات دار البيان، بيروت.
- 139- القطب، سمير عبد الرزاق:  
"أنساب العرب"، منشورات دار البيان، بيروت.
- 140- القيم، علي:  
"ابن النفيس"، دار المعرفة 1988م.
- 141- كحالة، عمر رضا:  
- "دراسات اجتماعية في العصور الوسطى"، المطبعة التعاونية، دمشق، 1973.  
- "معجم قبائل العرب" المطبعة الهاشمية، دمشق، 1949.  
- "معجم المؤلفين"، مطبعة الترقى، دمشق، 1957.  
- "اعلام النساء" دمشق، 1959م، وطبعة 1940م.  
- "نشأة المدارس المستقلة في الاسلام"، مطبعة الأزهر، بغداد، 1966م.

- 142- كحالة، محمد رضا:  
"دراسات اجتماعية في العصور الوسطى"، المطبعة التعاونية، دمشق، 1973م.
- 143- الكرمل، الأب أنستاس:  
"النقود العربية والإسلامية وعلم النميات" المطبعة الاميرية، القاهرة، 1939، ومكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987.
- 144- الكواكبي، سعد زغلول:  
"الحمامات في حلب عبر التاريخ والادب"، الكتاب الاول، حلب، دمشق، المكتبة العمومية، 1981م.
- 145- كيال، منير:  
"الحمامات الدمشقية وتقاليدها"، دمشق 1964.
- 146- مؤنس، الدكتور حسين ورفقاء:  
"الوطن العربي وحضارته في العصور القديمة والوسطى" للصف الثالث الثانوي، القسم الادبي، الكويت، ط4، 1977، 1978. وزارة التربية والتعليم.
- 147- ماجد، الدكتور عبد المنعم:  
- "نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر"، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1973.
- "تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى"، مطابع سجل العرب، ج1، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1979 وطبعة 63، القاهرة، 1973.
- "الناصر صلاح الدين الايوبي"، القاهرة، 1958م.
- 148- ماهر، سعاد:  
"عقود الزواج على المنتوجات الاثرية"، القاهرة، 1960.
- 149- المبيض، سليم عرفات:  
- "غزة وقطاعها، دراسة في خلود المكان وحضارة السكان الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.
- "النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الاجنبية." من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام 1946م. والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.
- 150- محاسنة، محمد سلامة:  
"الاحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الايوبي"، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1986.



- 151- محسن، محمد حسين:  
"الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين"، مؤسسة الرسالة.
- 152- محمد باقر الحسيني:  
"العملة الاسلامية في العهد الاتاكي"، دار الجاحظ، بغداد، 1969.
- 153- محمد فهمي عبد اللطيف السيد البدوي:  
"دولة الدروايش في مصر".
- 154- محمود العابد:  
"البتراء" عمان، نابلس، 1956.
- 155- محمود وصفي محمد:  
"دراسات في الفنون والعمارة الاسلامية" دار الثقافة، القاهرة، 1980م.
- 156- مرحبا، الدكتور محمد عبد الرحمن:  
" المرجع في تاريخ العلوم عند العرب" بيروت، درا العودة، منشورات دار الفيحاء، 1978.
- 157- معروف ناجي:  
"نشأة المدارس المستقلة في الاسلام"، مطبعة الأزهر، بغداد، 1966.
- 158- المعستي، الدكتور محمد ابو الفرج:  
" النقود العربية الاسلامية المحفوظة بمتحف قطر الوطني"، وزارة الاعلام، الدوحة، 1984م.
- 159- مكاحلة، نهى محمد حسين:  
"الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي"، رسالة ماجستير غير منشورة، اربد ، جامعة اليرموك، 1991م.
- 160- المناوي، الدكتور محمود حمدي:  
"الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي"، دار المعارف بمصر.
- 161- المنذري، زكي:  
"التكملة لوفيات النقلة" تحقيق بشار معروف، مطبعة الادب في النجف الاشرف، 1388هـ/1986م.
- 162- المهائتي، رفيق:  
"الاسطول الاسلامي منذ الفجر الاسلامي وحتى اواخر عهد المماليك" بيروت، 1942.



- 176- الوشيلي، عبدالله :  
"المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلف العلمي"، مؤسسة الرسالة،  
مكتبة الجيل الجديد، بيروت. 1988.
- 177- وصفي، زكريا احمد :  
"المفكرة الزراعية"، مطبعة الترقى، 1930م.
- 178- ولفنستون، اسرائيل:  
"تاريخ اليهود في بلاد العرب"، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1927.
- 179- يوسف جوزيف نسيم:  
"الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي"، ص1966، القاهرة.

ثامناً:

**الدوريات " الجرائد والمجلات "**

- 1- احمد سويسة:  
"اللغة العبرية وصلتها باليهودية"، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، نيسان، 1970.
- 2- جريدة الخليج اليومية:  
"التوراة المعاصرة وهم وخدعة"، وحقائق جرمية في الديانة اليهودية، للمؤلف نواف حردان، والدكتور قصي الحسين، للناسر: دار الحداثة، بيروت، 1996، العدد، 6376، الجمعة 20 جمادى الآخرة، 1417هـ/نوفمبر، 1996م. من مكتبة الخليج.
- 3- جريدة الخليج:  
نشرت كتاب روجيه جارودي: المفكر الفرنسي اليهودي الأصل "الصهيونية" الشارقة، دولة الامارات العربية المتحدة، 2 ذي الحجة، 1419هـ/8 مايو 1996م.
- 4- حمارنة:  
"قصب السكر"، حولية دائرة الآثار، م22، ص14-15.
- 5- حولية دار الآثار الاردنية، المجلدان السادس والسابع، عمان وفلسطين، الهيئة العربية العليا، العدد 90 لعام 1992، والعدد 102 لعام 1969م.
- 6- الرأي الاردنية:  
"عروبة القدس" حديث للسيد حازم نسيبة، مندوب الاردن الدائم لدى الامم المتحدة، عدد يوم السبت الموافق، الاردن، عمان 1997/8/2م.
- 7- زكي، عبد الرحمن:  
"العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبية"، المجلة التاريخية المصرية، عدد7، 1958م.
- 8- سامي حداد  
"المارستانات العربية"، مجلة المقتطف، 1937، م9، ج1، ص14.
- 9- صلاح المنجد:  
"مجلة اللغة العربية بدمشق"، رقم 48، ابريل.
- 10- العارف، عارف:  
"الاماكن المقدسة الاسلامية"، مقالة بمجلة الهروب الحديث، 1962، عمان، الاردن.

- 11- عاشور:  
"بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى"، المجلة التاريخية، م14، 1968، ص22.
- 12- عبد العزيز سالم  
"الصلات التاريخية بين مصر والشام في العصر الاسلامي"، مجلة العلوم، بيروت، مارس 1962.
- 13- عبد الكريم، احمد عزت:  
"التقسيم الاداري لسورية"، مجلة كلية اداب جامعة القاهرة، عدد مايو 190م.
- 14- العدوي، ابراهيم أحمد:  
"الحمام الزاجل في العصور الوسطى، بحث في المجلة التاريخية المصرية"، م2، عدد1، مايو 1949.
- 15- العريني، السيد الباز :  
- "الفارس المملوكي"، بحث في المجلة التاريخية المصرية، م5، 1956م.  
- "الحسبة والمحتسبون في مصر"، بحث في المجلة التاريخية المصرية، م3، عدد2، اكتوبر 1950م.
- 16- عماد الدين خليل :  
مقال: "فلسطين في الادب الجغرافي والعربي". المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، 1980، المنفذ في عمان، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1983م.
- 17- قانون نامة ال عمران، ترجمة خليل ساحوري، مجلة الابحاث، الجامعة الاردنية، 1986، م13، ع3، ص164م.
- 18- القوصي:  
"صلاح الدين واليهود"، المجلة التاريخية المصرية، م24، 1977، ص41.
- 19- مجلة الرسالة الاسلامية:  
"اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية"، بقلم: جمال الدين الألوسي، بغداد، 1968، ع1، ص91،
- 20- مجلة الرسالة:  
"استيلاء المغول على بغداد لنصير الدين الطوسي"، بقلم: علوان عباس الصالح، القاهرة، 1934م، ص855-857.

- 21- المجلة العسكرية:  
"ادوار الحروب الصليبية ومداهما الزمني" بقلم: المقدم الركن: سالم احمد زينو، بغداد،  
ص4، 1965.
- 22- مجلة الفجر الاردنية،  
"سكة فلسطين الاسلامية"، عدد مارس، 1983، ص38، السامرائي، حشام الدين،  
مجالات الضرائب على الأرض والانتاج الزراعي، مجلة الحضارة الاسلامية، مجلة  
الحضارة الاسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية، مؤسسة ال البيت  
ج2، ص124.
- 23- مجلة المشرق:  
"احتلال الملوك الايوبيين في رشوة النساء الفرنجيات للتجسس على الصليبيين"، بقلم  
حبيب زيات (ت1373هـ/1954م)، الخزانة الشرقية، بيروت، 1938م.
- 24- مجلة مركز الدراسات الفلسطينية:  
- "العلاقة الحضارية والسياسية بين العرب واليهود"، الدكتور الخربوطي.  
- "اراء ابن خلدون في اليهود"، 1973م.  
- "لمحة تاريخية عن أحوال اليهود في العصر العباسي"، للدكتور فاروق عمر،  
1973.
- 25- محمد الصالح:  
"نتائج الصدقة الاقتصادية لغزو الفرنجة"، مجلة تاريخ العرب، بيروت، 1989،  
ص123-124م.
- 26- "مدخل لدراسة الربط الاسلامية"، مجلة المورد، م2، عدد2، 1973م.
- 27- المغربي، عبد القادر:  
"يهود الشام"، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، تشرين ثاني " نوفمبر)  
م9، ج11، ص610، 1929.

تاسعاً:

## المراجع الفارسية المترجمة



- 1- الدهلوي، شاه عبد العزيز غلام حكيم، ت1293هـ/1819م.  
"مختصر التحفة الاثنى عشرية، اختصار الالوسي 1301هـ"، طبعة الأوفست، استانبول، تركيا 1399هـ/1979م، ونقله من الفارسية إلى العربية الشيخ الحافظ الاسلمي 1227هـ، المطبعة الاسلامية، القاهرة، 1373هـ.
- 2- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت، ق، 7هـ)  
"راحة الصدور واية السرور في تاريخ الدولة السجوقية"، الفه بالفارسية، الترجمة العربية، القاهرة، 1960م.
- 3- رشيد الدين، فضل الهمداني (ت 718هـ/1317م)  
"جامع التواريخ" م2، فارس معزم، القاهرة، 1960، نقله إلى العربية مجموعة من الاساتذة اذ الفه، أيام السلطان غازان خان (694-703هـ) وهو عن سيرة هولاء واعياله.
- 4- علوي، ناصر خسرو (ت 481هـ/1088م)  
"سفر نامه"، باريس، 1881م، نقله عن الفارسية إلى العربية يحيى الخشاب، 1946، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1954م.
- 5- يحيى بن عبد المطلب القزويني:  
"لب التواريخ" تاريخ عام، مكتبة ولي الدين أفندي.

عاشراً:

**المراجع الأجنبية الأوروبية  
المعرّبة بالترجمة**

- 1- "دراسات في حضارة الاسلام" ترجمة احسان عباس ومحمد نجم، ومحمود زايد، بيروت، 1964م.
- 2- 1، هـ، م جونز :  
"مدن بلاد الشام"، ترجمة دكتور احسان عباس، عمان 1987م.
- 3- ارنولد توماس :  
- "الخلافة"، دار اليقظة، دمشق، تعريب عبد الهادي، ابو زيدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، "عدة طباعات".  
- "تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة"، ترجمة زكي حسن، سوريا 1984م.
- "الدعوة الى الاسلام" ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، القاهرة، 1970م وطبعة 1957م.
- 4- اس، نرتون  
"اهل الذمة في الاسلام"، ترجمة حسن حبشي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1949م.
- 5- الانجر، وليم :  
"موسوعة تاريخ العالم"، ترجمة د. مصطفى زيادة، القاهرة.
- 6- ايكوشار ولوكو (ميشيل وكورا) :  
"حمامات دمشق"، تعريب محمود الاركلي ونبية الكواكبي، دمشق.
- 7- بارتولد :  
"تاريخ الحضارة الاسلامية" ط4، نقله إلى العربية حمزة طاهر ، القاهرة، دار المعارف، 1966م.
- 8- بالور، لويس :  
"القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط" ترجمة احمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، القاهرة، 1960م.
- 9- براور :  
"عالم الصليبي" ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم، ود. محمد خليفة حسن ط1، دار المعارف 1981م.
- 10- بروتز، هـ :  
"التاريخ الثقافي للحروب الصليبية"، برلين، 1883م.

- 11- بروكلمان، كارل:
- "تاريخ الشعوب الاسلامية" ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1977، 4 اجزاء.
- 21- بهائم، سوبر:
- "صلاح الدين الايوبي" ترجمة صبحي، القاهرة د.ت.
- 22- بولياك:
- "الاقطاع في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان" ترجمة عاطف أكرم، ط1، بيروت، 1984م.
- 23- بيركهارت:
- "سوريا الجنوبية" ج2، ترجمة أنور عارف، المطبعة الاردنية، عمان.
- 24- بيك، الفتانت كولونيل فردريك:
- "تاريخ شرق الاردن وقبائله"، ترجمة بهاء الدين طوقان، الدار العربية للنشر والتوزيع، الاردن، عمان، 1934م.
- 25- "تاريخ فلسطين في العصور الوسطى"، ترجمة حداد، بغداد، 1973م.
- 26- جب هلتون وهارولد:
- "المجتمع الاسلامي - الغرب" جزءان، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- 27- جورج كيرك:
- "موجز تاريخ الشرق الاوسط منذ ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر" ترجمة عمر الاسكندري، القاهرة، 1957م.
- 28- جونز، سي:
- "تاريخ فلسطين في عهد الصليبيين، ط3.
- 29- جيرلاند، ي:
- "تاريخ الفرنجة في الأراضي المقدسة" همبورغ، 1965م.
- 30- حتي، فيليب:
- "تاريخ العرب (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين)" جزءان، ج1، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رزق، القدس، 1946-1952م، 1961م. عدة طبعات.

- 31- الخوارج والشيعة: ترجمة عن الالمانية عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م.
- 32- دوزي، رينهارت:  
"المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" ترجمة د. أكرم فاضل، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، 1971م.
- 33- دوزي، رينهارت:  
"تكملة المعاجم العربية"، ج3، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، 1981م.
- 34- دي شامب، ب:  
"قصور الصليبيين في الأراضي المقدسة" مجلد1، باريس، 1939م.
- 35- ديمانند، م س:  
"الفنون الاسلامية" ترجمة أحمد محمد عيسى، دار المعارف، القاهرة، 1953م.
- 36- ديورانت، ول:  
"قصة الحضارة" الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والنشر القاهرة، 1950م. عدة طبعات 1952.
- 38- ر، سي، سميل:  
"فن الحروب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر"، ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلال، دمشق، 1985م.
- 39- رادولوف:  
"رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين"، ترجمة سليم التكريتي، العراق، 1978م.
- 40- رانيسمان، ستيسفن:  
"تاريخ الحروب الصليبية" 3 مجلدات، لندين، 1951-1954م، ترجمة د. الباز العريني، بيروت، 1968م.
- 41- روبرت لوبيز:  
"التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب" ترجمة: توفيق اسكندر، في كتاب يشمل على خمس بحوث مترجمة باسم بحوث في التاريخ الاقتصادي، القاهرة، 1961م.
- 42- روهر يخت :  
" تاج مملكة القدس (1100-1291)", سبوك 1899م.

- 43- ريسلر، جاك، س:  
"الحضارة العربية"، ترجمة غنيم عبدون ومراجعة أحمد الرهوات، الدار المصرية  
للتأليف والترجمة.
- 44- زامبارو، ادوارفون:  
"معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي" ارجه الدكتور زكي محمد  
حسن، وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول 1952م.
- 45- سبولر، ب:  
"تاريخ الاقطار الاسلامية" الاخلافة، نشوء الدولة الاسلامية وسقوطها.
- 46- ستانلي لين بول:  
"الدولة الاسلامية" نقله من التركية الى العربية محمد صبحي فررزات، اشراف علي  
ترجمته وعلق عليه محمد احمد دهمان، دمشق.
- 47- علي، سيد أمير:  
"مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي" تعريب رياض رافت، 1938م.
- 48- فالتز، هانس:  
"المكانيل والموازين الاسلامية وما يعادلها في النظام المنزي" ترجمة كامل العكسي،  
عمان، منشورات الجامعة الاردنية، 1970م.
- 49- فلهلم، رودلف:  
"صلة القرآن باليهودية والمسيحية" بيروت، 1974م.
- 50- فلهوزن، يوليوس:  
" تاريخ الدولة العربية"، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، وحسين مؤنس، لجنة  
التأليف والنشر، القاهرة، 1968م.
- 51- فولني:  
"ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام" ج1، ترجمة ادورد البستاني، دار المكشوف، بيروت،  
1949م.
- 52- كاهن كلود:  
"تاريخ العرب والشعوب الاسلامية"، ج1، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة  
للطباعة والنشر، بيروت، 1972.

- 53- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفتش:  
"تاريخ الادب الجغرافي العربي"، ج1، ترجمة صلاح الجين هاشم مراجعة ايغور  
بلياييف، القاهرة، لجنة التأليف والنشر.
- 54- كونل، أرنست:  
"الفن الاسلامي" ترجمة، أحمد موسى، مطبعة أطلس، القاهرة، 1961م.
- 55- ل.ا، ماير:  
"الملابس المملوكية" ترجمة صالح الشيتي، جنيف مراجعة وتقديم الدكتور عبد الرحمن  
فهيمي، نثر، 1952م. والهيئة المصرية العامة للكتاب 1972م.
- 56- لامنس هنري:  
"الشام تحت حكم الفرنجة الصليبيين"، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد.
- 57- لانكستر هاردنج:  
"اثار الأردن"، ترجمة سليمان موسى، عمان، 1971، وطبعة 1965م.
- 58- لويس، برنارد:  
"العرب في التاريخ" دار العلم للملايين، بيروت، 1995م.
- 59- لي، سترانج:  
- "فلسطين في العهد الاسلامي"، ترجمة محمود عمايرة، عمان، 1970.  
- "بلدان الخلافة الاسلامية"، ترجمة بشر فرانسيس و كوركيس عواد، مطبوعات  
المجمع العالمي العراقي، بغداد، 1954م، وطبعة بيروت 1985م.
- 60- ماسنيون:  
"التنظيمات الحرفية والمدنية في الاسلام" دراسات المستشرقين ترجمها وعلق  
عليها: "ابراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر، عمان 1985م.
- 61- ماكديول، ديفيد وليام:  
"مجموعة النقود صيانتها، تنظيفها، عرضها" ترجمة نبيل زين الدين الهيئة العامة  
للكتاب، القاهرة، 1978م.
- 62- ماير:  
"الملابس المملوكية" ترجمة صالح الشيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،  
القاهرة، 1972.

63- متز، آدم:

"تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، جزءان، ط القاهرة،

1377هـ/1957م،

64- موير، وليم:

"تاريخ دولة المماليك في مصر"، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن مطبعة المعارف،

القاهرة، 1924م.

65- ميللر، بروز:

- "مخطوطات البحر الميت"، ترجمة محمود العابدي، المطابع التعاونية، عمان 1967م.

- "مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين"، ج1، القاهرة، 1974م.

66- هاري بارتز:

"تاريخ الكتابة التاريخية"، ترجمة د. محمد برج، الهيئة العامة، القاهرة 1984م.

67- هونكة، زيغريد:

"شمس العرب تسطع على الغرب" أثر الحضارة العربية في أوروبا، الترجمة العربية،

بيروت، 1964م.



الحادي عشر:

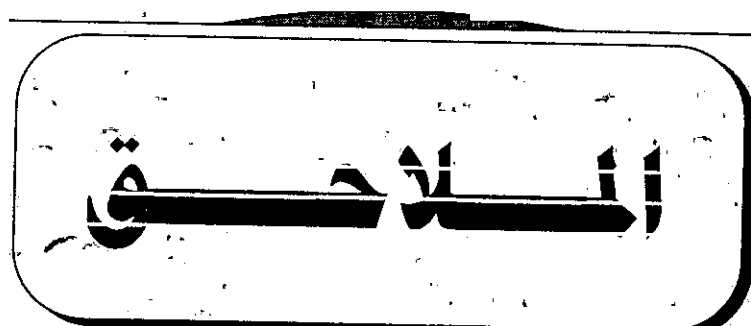
## المراجع الأجنبية

- 1- A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.
- 2- Aldo R. Travel of Markopolo, 2 vlos London, 1931.
- 3- Archer. (T.A.): the Crusades, the Story of Latin Kingdom, London. 1962.
- 4- Arnold Sir Thomas, The Caliphate, Oxford, 1942.
- 5- Ben - Sason, Jewish Society Throw the Ages, 1937, PP. 181-184.
- 6- City Coine of Palestine, vol 2, Jerusalem, 1977.
- 7- Conder, (J. L.) The Kingdom of Jerusalem, 1099 to 1291, London, 1897.
- 8- Condercc Ann: The Survey of Eastern Palestine, London, 1889.
- 9- Conhen & Leweis, Population and Revenue in the Towns of Palestine, U.S.A. 1978.
- 10- Fatimid Coins, New York, 1951.
- 11- Frescobaldi, Gucci, and Sigoli, Visit to the Holly Places of Egypt, Palistine and Syrian 1384.
- 12- George. C. Miles, Rane Islamic Coins, New York, 1950.
- 13- Hittphilip, K. History of The Arabs from the Earlies times to the present, 1985, 1964.
- 14- Holf, The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades, England, 1977.
- 15-J. Spencer, Trimny hame, The Sufi orders in Islam, Oxford, Carendan Press, 1971.
- 16- Jacob Dehaas: History of Palestine, New York, P. 289.
- 17- Keer, A. G. C. The Crusades, London, 1966.
- 18- Lan - Poole, History of Egypt in the Middle ages, London, 1901.
- 19- Lane Poole: - Catalonge of the Collection of Arabic Coins.

- 20- Laoidus, I. M. "Muslim Cittes in Later Middle Ages" Mussacha  
settes, 1967.
- 21- Lapidus, Muslem Cities in the Later Middle Ages, 1967.
- 22- Le Strange (Gey): Palestine under the Moslems, Beirut, 1965.
- 23- Lewis B., The Arabs in History, London, 1985, 1964.
- 24-Lopes & Raymond: Medival Trade in the Mediterranean World, New  
York, 1955.
- 25-Lopez & Rymond: The Commercial Revolution of the Middle Ages,  
U.S.A. 1976.
- 26-M. A. Mayer, History of the City of Gaza, Ams Press, New York,  
1966.
- 27-M. Broome, Hand book of Islamic Coins, Seaby's London, 1985.
- 28-M. Rosenberger: - City Coine of Palestine, vol I, Jeerusalem, 1972.
- 29-Mann (Jacob): The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid  
Caliphs, 2 vols. Oxford, 1920.
- 30-MarcoPolo: The Travels of Marcopolo, New. York.
- 31-Maundrelle, Henry, The Journy of Henry Maundrell from Aleppo to  
Jerusalem, A. D, 1697. in Thomas wright (ed) Early Travels in  
Palestine, London, 1848, PP. 383-506.
- 32-Medival Trade in the Mediterranean world New York, 1955.
- 33-Muir (W):
- 34-Muller (W): Casttes of the Crusaders, London, 1966.
- 35-Mury: Hand book for Travelles in Syria and Palestine, London, 1868.
- 36-Nelson (Gluec): The Other Side of the Jordan, Combridge, 1970.
- 37-Painter, S. A History of the Middle Ages, London, 1966.
- 38-Poliak (A. N.): Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon,  
1250-1900, London, 1939.

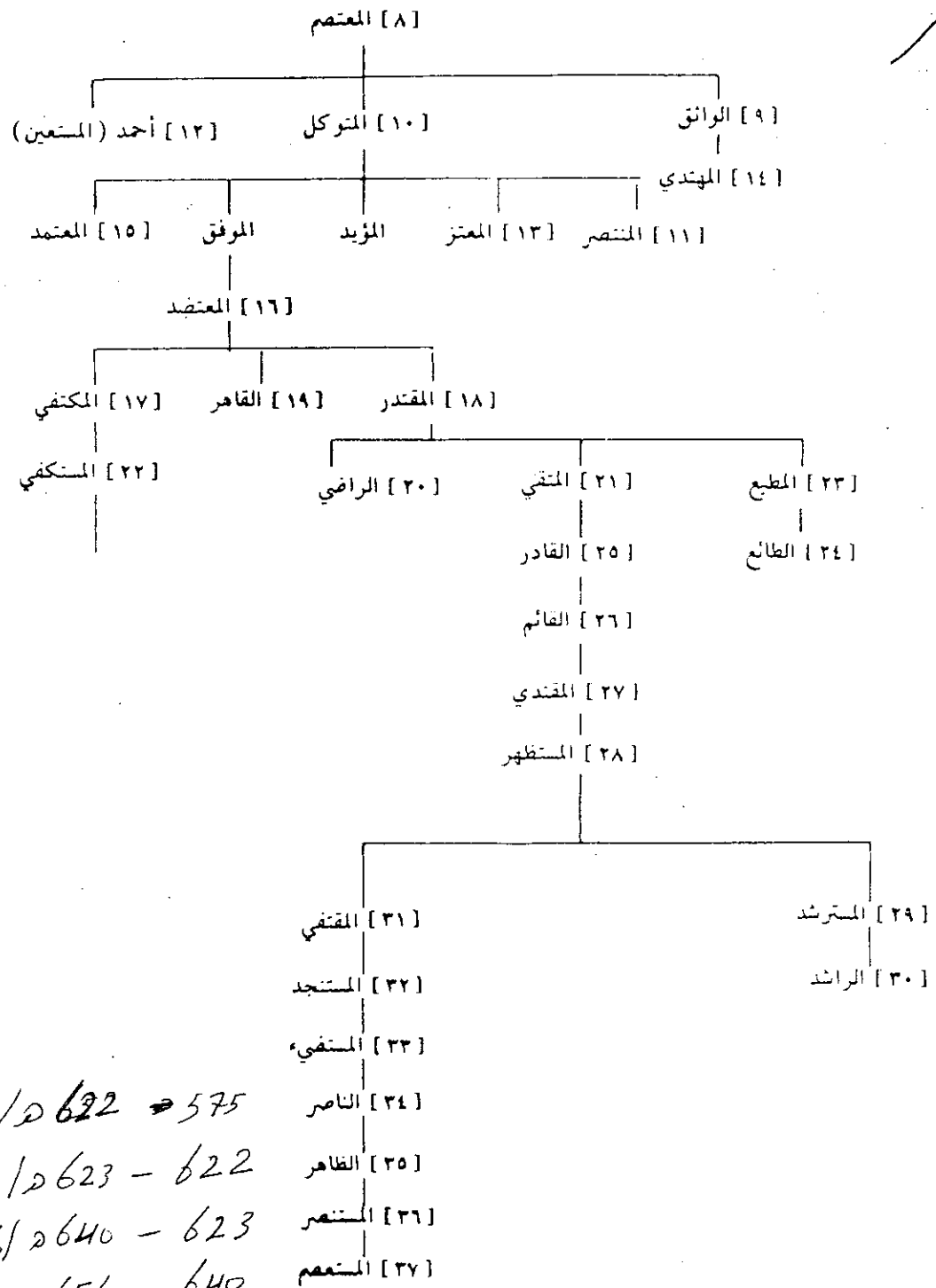
- 39-Runciman. S. A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, 1984-1985, 1962.
- 40- Russell: Michael "Palestine of the Holy Land, Third Edition, 1833, P161.
- 42-Saunders, J. J.: A History of Medieval Islam, London, 1965.
- 43-Sauvaget: "Introduction of the History of Muslim East, California, 1965.
- 44-Setton. K. M. A History of the Crusades, vol one, The University of Wisconsin, Press, London, 1969.
- 45-Smith CG. A.: The Historical Geography of the Holy Land, London, 1896.
- 46-Stevenson, W. The Crusaders in The East, Lebanon, Beirut 1968 & Cambridge 1907.
- 47-The Caliphate, its rise, Decline and Fall, London, 1924. and Beirut. 1963.
- 48-The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 vols, (Oxford 1922).
- 49-Tritton, A. S: "Muslim Education in the Middle Ages, London, 1957.
- 50-Watson: Andrew, "Amedieval Green Revolution New Crops and Forming Techniques in the Early Islamic world, The Islamic Middle East, 1960, PP.7, 23.
- 51-Wikinson John, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, 1977, P. 82.
- 52-Wiliam of Tyre, A History of Deads done beyond the Sea U.S.A. 1943 (Translated by Babcoh and Krey, U.S.A, 1967).
- 53-Ziadeh CN. Urban Life in Syria, Beirut, 1953.

# مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك



٨٩١

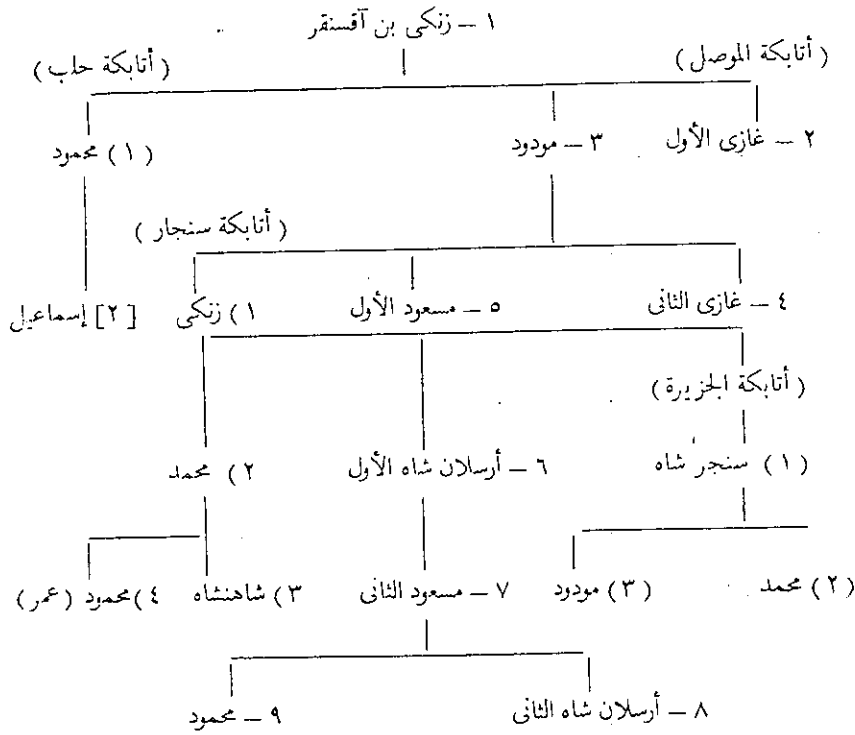
## ملاحق الحكم



224 - 1180/د 622 - 575  
 226 - 1225/د 623 - 622  
 242 - 1226/د 640 - 623  
 258 - 1242/د 656 - 640

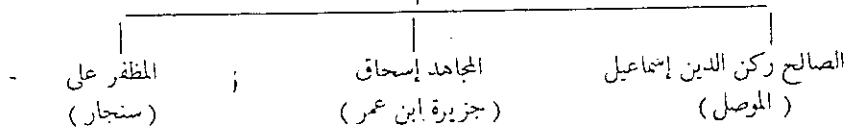


## بنو زنكى



## بدر الدين لؤلؤ

(الوزير ناصر الدين محمود أتابك الموصل)



(١) يذكر لين بول عدا من ذكرنا من أبناء لؤلؤ ابنتين آخرتين هما السعيد الذى حكم فى حلب وسيف الدين (فى الجزيرة) ، وربما ذكر سيف الدين أيضاً باسم أبى الفرج .

## بنو زنكى

١١٧ - أتابكة الموصل

١١٢٧ - ١٢٣٣ م

٥٢١ - ٦٣١ هـ

١١٢٧	عماد الدين زنكى (استولى أيضاً على حلب)	٥٢١
١١٤٦	سيف الدين غازى الأول	٥٤١
١١٤٩	قطب الدين مودود	٥٤٤
١١٧٠	سيف الدين غازى الثانى	٥٦٥
١١٨٠	عز الدين مسعود الأول	٥٧٦
١١٩٣	نور الدين أرسلان شاه الأول	٥٨٩
١٢١١	عز الدين مسعود الثانى	٦٠٧
١٢١٨	نور الدين أرسلان شاه الثانى	٦١٥
١٢٣٣ - ٢١٩	ناصر الدين محمود	٦٣١ - ٦١٦

## ٥٨ - المماليك الترك في مصر

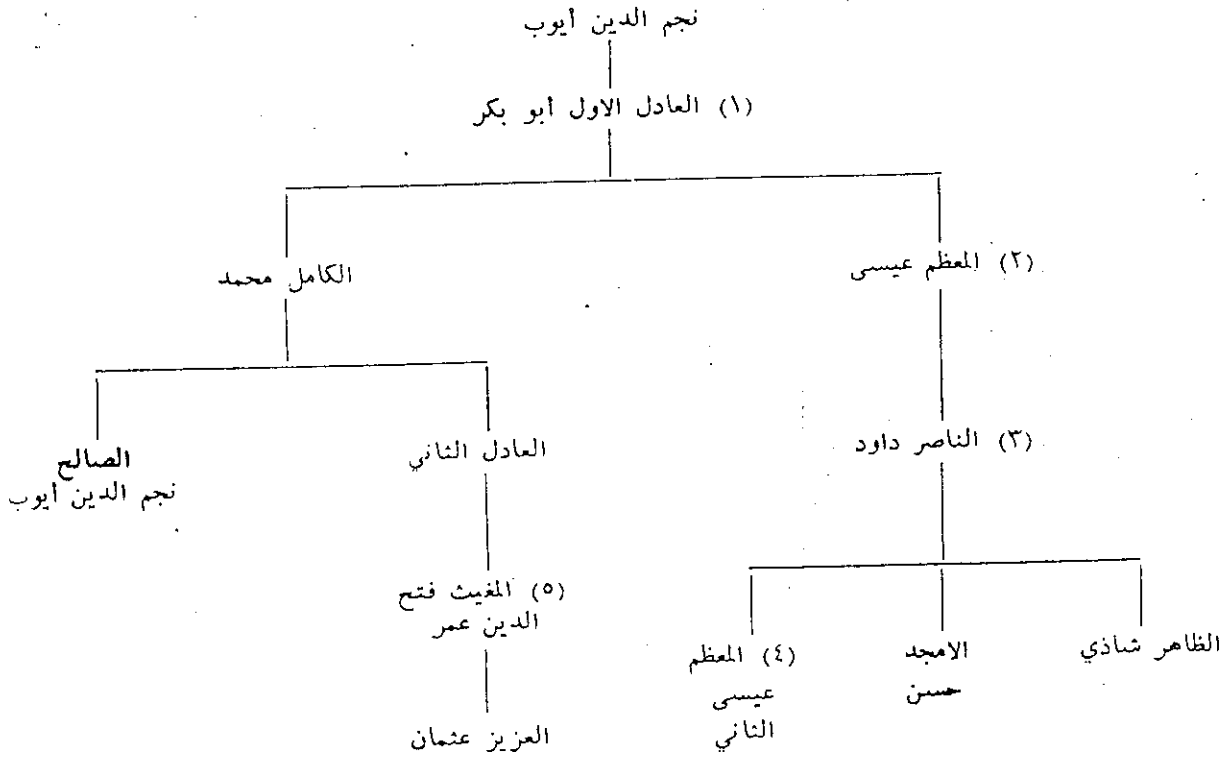
١٢٥٠ - ١٣٩٠ م

٦٤٨ - ٥٧٩٢

١٢٥٠	المعز عز الدين أيك التركماني	٦٤٨
١٢٥٧	المنصور نور الدين علي	٦٥٥
١٢٥٩	المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧
١٢٦٠	الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقداري	٦٥٨
١٢٧٧	السعيد ناصر الدين بركة قان	٦٧٦
١٢٧٩	العادل بدر الدين سلامش	٦٧٨
١٢٧٩	المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨
١٢٩٠	الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩
١٢٩٣	الناصر ناصر الدين محمد	٦٩٣
١٢٩٤	العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤
١٢٩٧ م	المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦
١٢٩٩	الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثانية)	٦٩٨
١٣٠٩	المظفر ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير	٧٠٨
١٣١٠	الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثالثة)	٧٠٩
١٣٤١	المنصور سيف الدين أبو بكر	٧٤١
١٣٤١	الأشرف علاء الدين كجك	٧٤٢
١٣٤٢	الناصر شهاب الدين أحمد	٧٤٢
١٣٤٢	الناصر عماد الدين إسماعيل	٧٤٣
١٣٤٥	الكمال سيف الدين شعبان الأول	٧٤٦
١٣٤٦	المظفر سيف الدين حاجي الأول	٧٤٧
١٣٤٧	الناصر ناصر الدين حسن	٧٤٨
١٣٥١	الصالح صلاح الدين صالح	٧٥٢
١٣٥٤	الناصر ناصر الدين حسن (مرة ثانية)	٧٥٥
١٣٦١	المنصور صلاح الدين محمد	٧٦٢
١٣٦٣	الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني	٥٧٦٤
١٣٧٧	المنصور علاء الدين علي	٧٧٨
١٣٨١	الصالح صلاح الدين حاجي الثاني	٧٨٣
١٣٨٢	برقوق (من المماليك الجراكسة)	٧٨٤
١٣٨٩ - ١٣٩٠	المنصور ناصر الدين حاجي الثاني (مرة ثانية)	٧٩١ - ٧٩٢

[ثم كان حكم المماليك الجراكسة]

٢ - جدول بنسب ملوك اماره الكرك من البيت الايوبي :

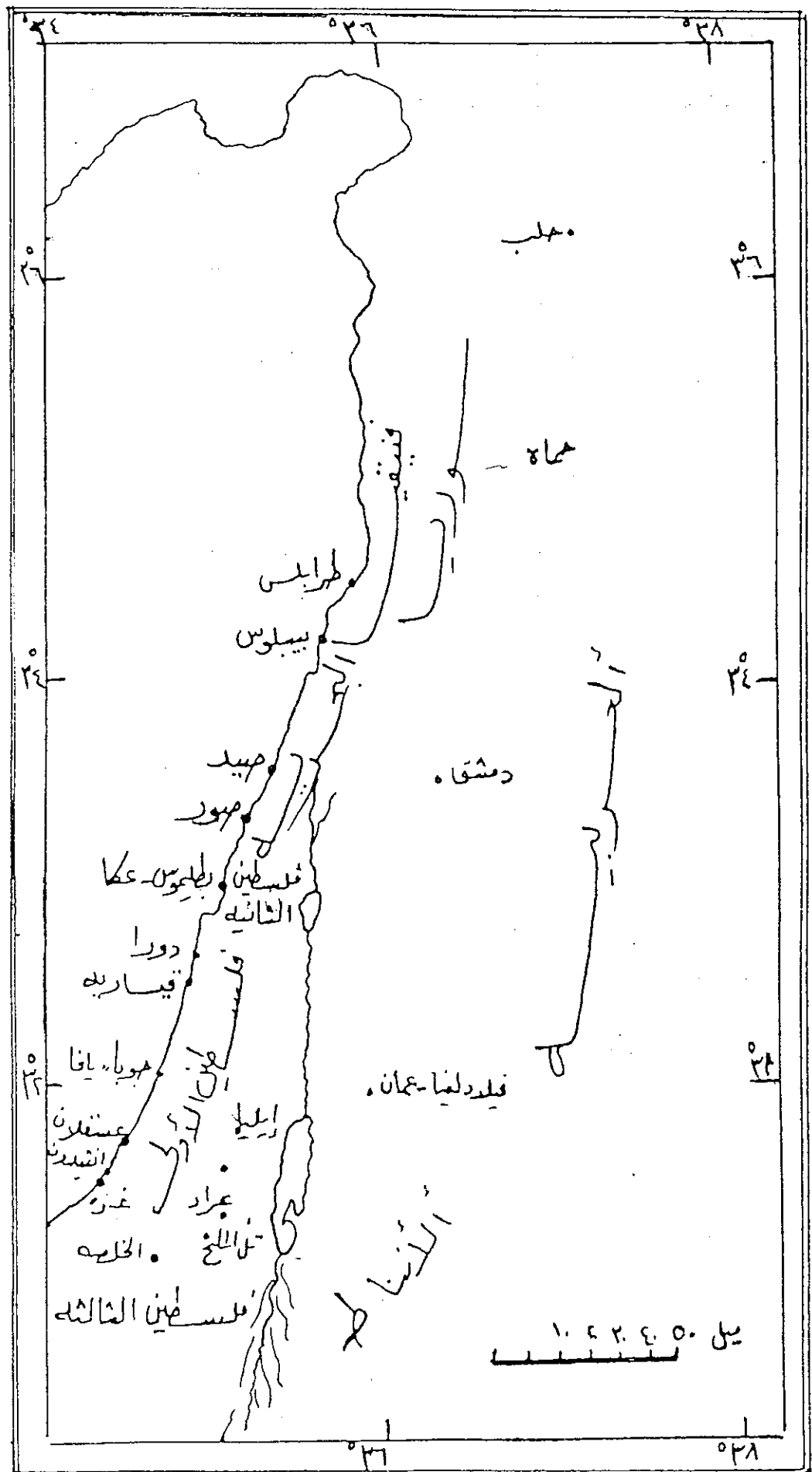


١ - جدول باسماء ملوك اماره الكرك في العصر الايوبي :

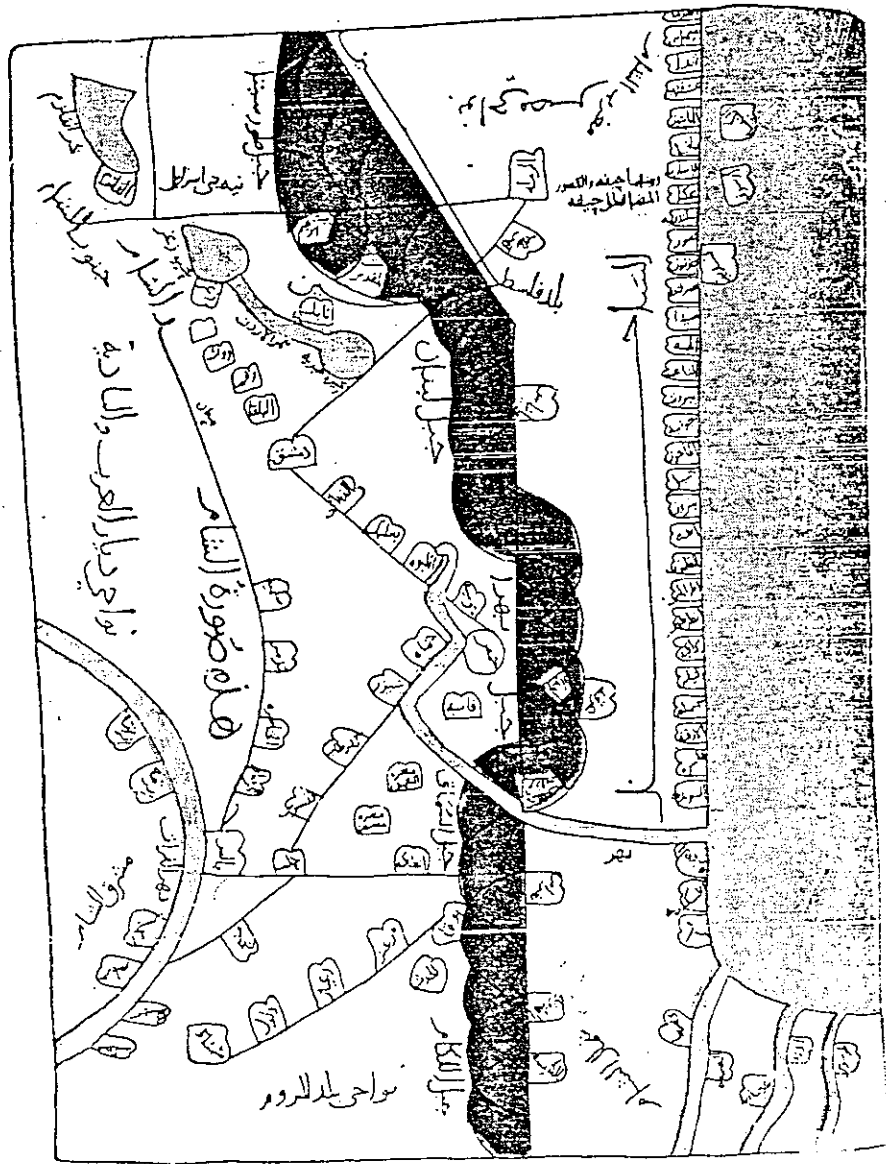
٥٨٤ - ٥٩٢ هـ	العادل سيف الدين ابو بكر	١١٨٥ - ١١٩٣ م
٥٩٢ - ٥٩٤ هـ	الملك المعظم عيسى بن العادل ( على الكرك وحدها )	١١٩٣ - ١١٩٨ م
٥٩٤ - ٥٩٦ هـ	الملك المعظم عيسى على دمشق والكرك معا	١١٩٨ - ١٢٢٧ م
٦٢٤ - ٦٢٦ هـ	الملك الناصر داود بن عيسى على دمشق والكرك معا	١٢٢٧ - ١٢٢٩ م
٦٢٦ - ٦٢٧ هـ	الملك الناصر داود على الكرك وحدها	١٢٢٩ - ١٢٤٩ م
٦٢٧ - ٦٢٨ هـ	الملك المعظم عيسى بن الناصر داود	١٢٤٩ - ١٢٥٠ م
٦٤٨ - ٦٤٩ هـ	الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر وابنه المعظم	١٢٤٨ - ١٢٥٠ م
٦٤٩ - ٦٥٠ هـ	وتابيهما فيها بدر الدين الصوري	١٢٥٠ - ١٢٥١ م
٦٤٨ - ٦٤٩ هـ	الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل	١٢٥٠ - ١٢٥١ م

ثانياً:

ملاحق حضارية لشرقي الأردن

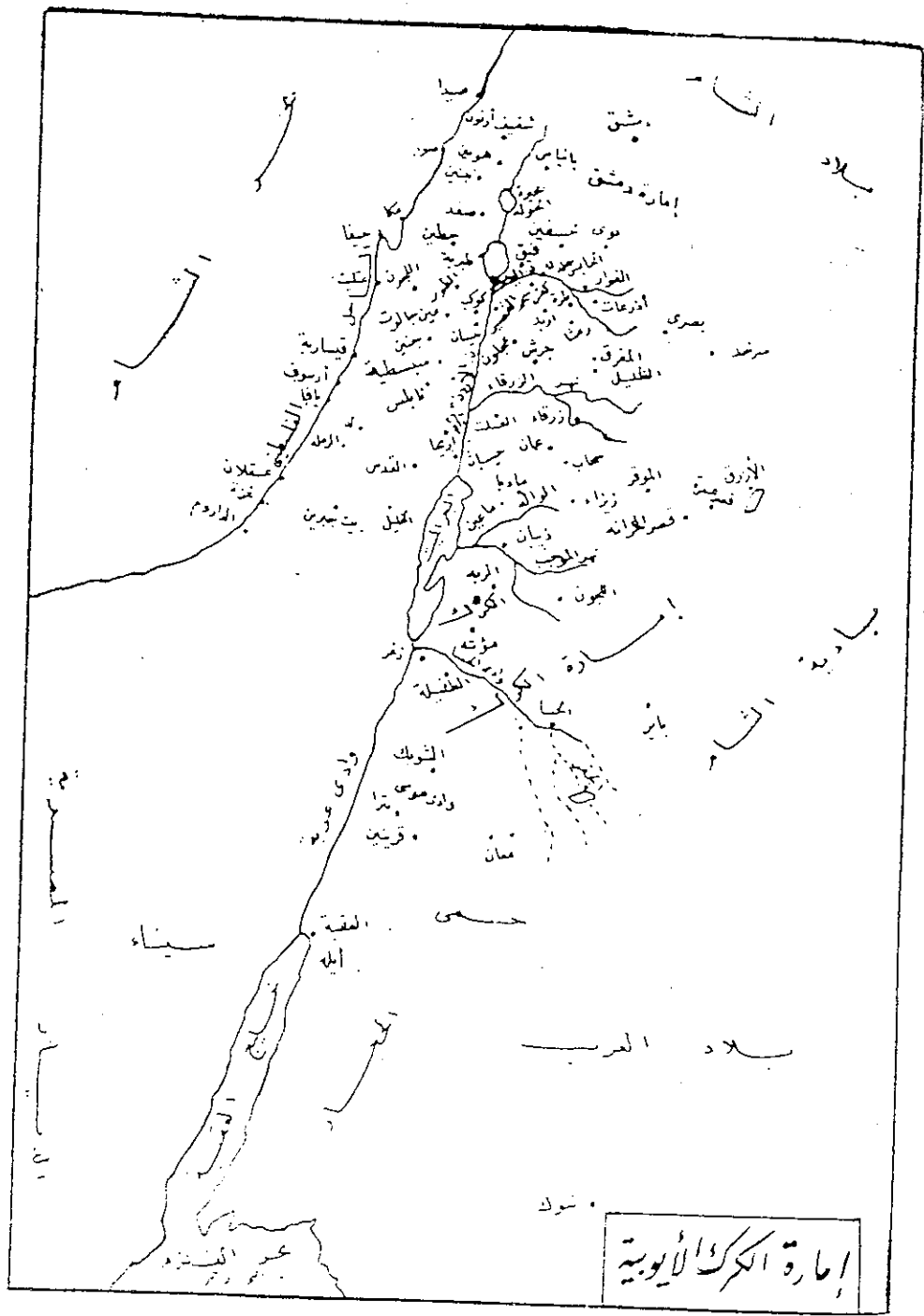


( خريطة ٦ ) التقسيمات الادارية في الفترة البيزنطية

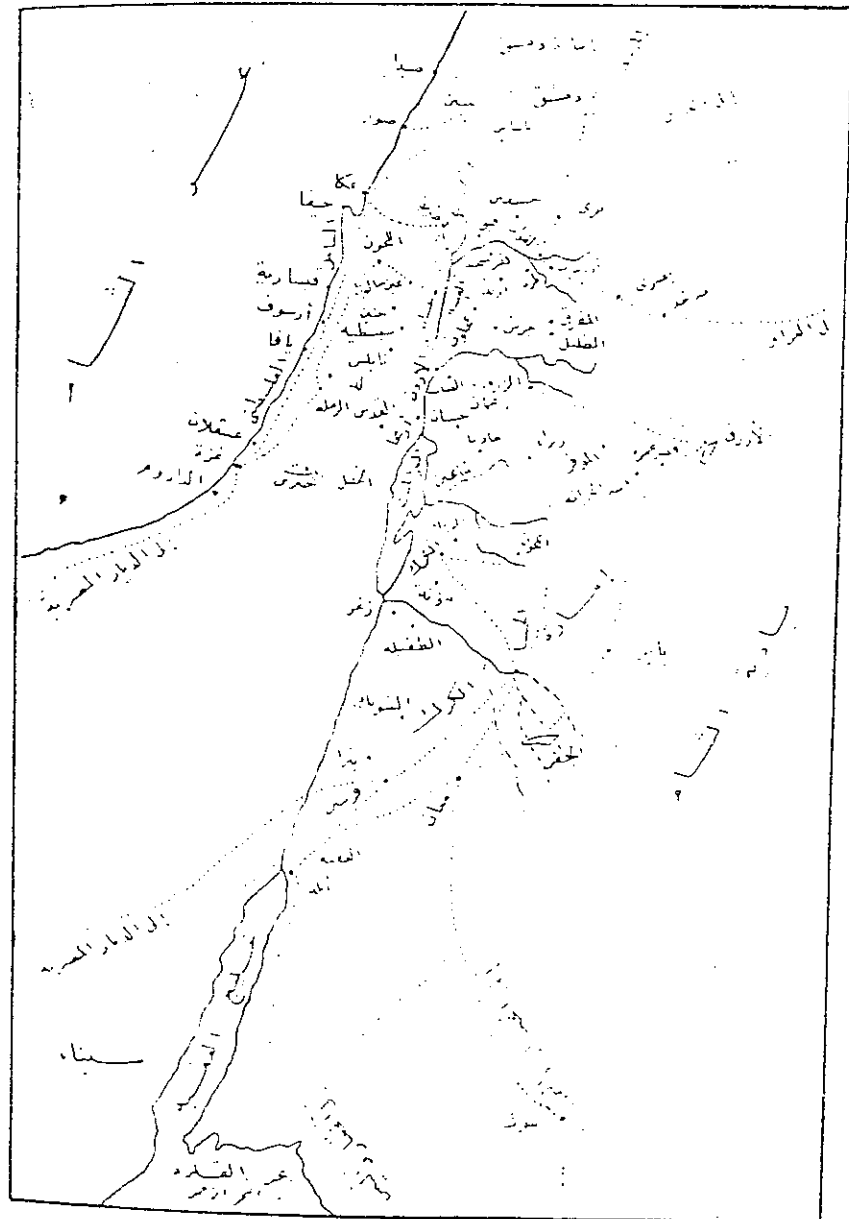


صورة الشام

روابط بين : بلاد الشام ، بلاد العرب ، بلاد الروم ، بلاد الهند ، بلاد الحبشة ، بلاد السودان ، بلاد المغرب ، بلاد المشرق ، بلاد مصر ، بلاد اليمن ، بلاد العراق ، بلاد فارس ، بلاد الهند الكبرى ، بلاد الهند الصغرى ، بلاد الحبشة الكبرى ، بلاد الحبشة الصغرى ، بلاد السودان الكبرى ، بلاد السودان الصغرى ، بلاد المغرب الكبرى ، بلاد المغرب الصغرى ، بلاد المشرق الكبرى ، بلاد المشرق الصغرى ، بلاد مصر الكبرى ، بلاد مصر الصغرى ، بلاد اليمن الكبرى ، بلاد اليمن الصغرى ، بلاد العراق الكبرى ، بلاد العراق الصغرى ، بلاد فارس الكبرى ، بلاد فارس الصغرى

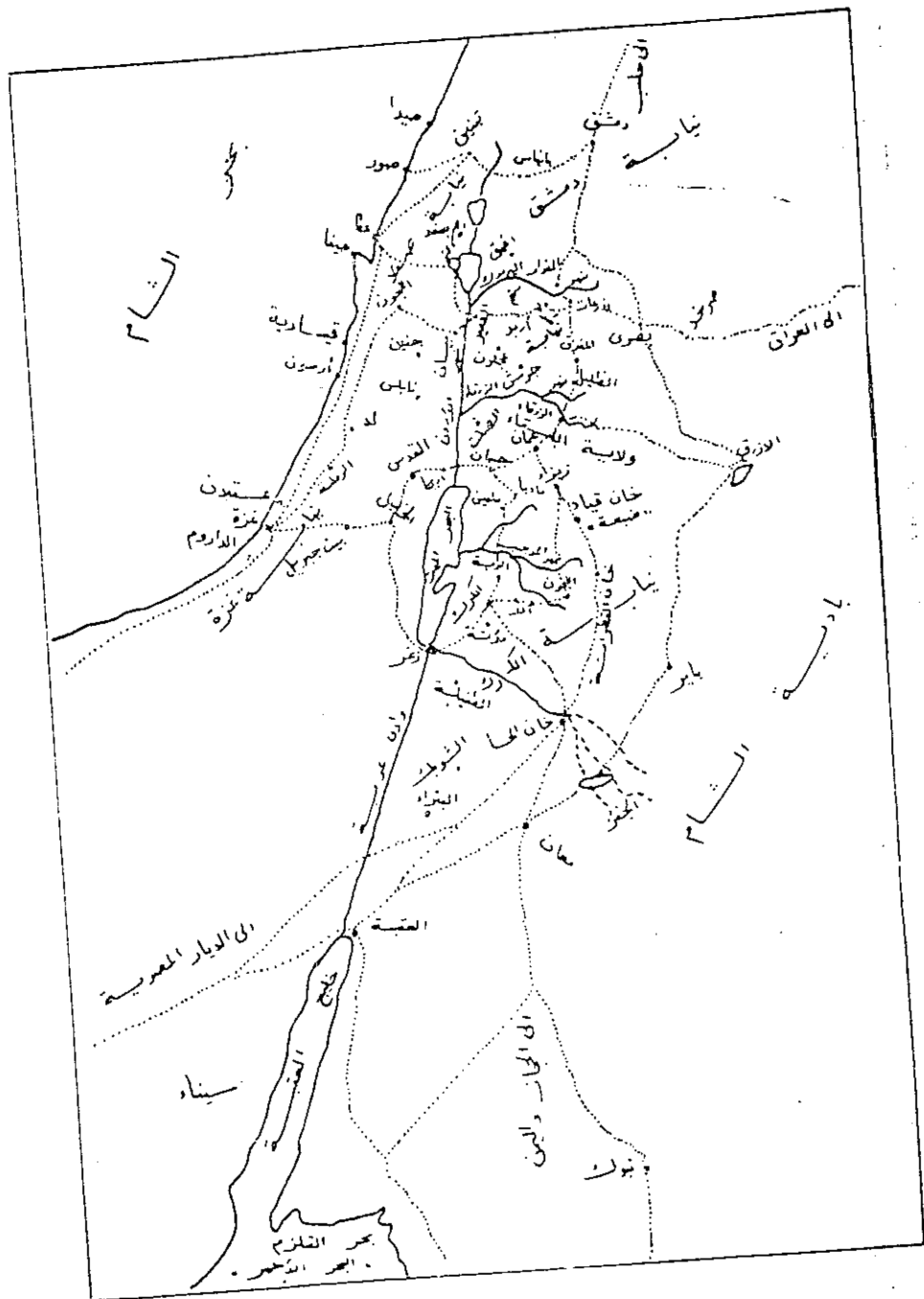


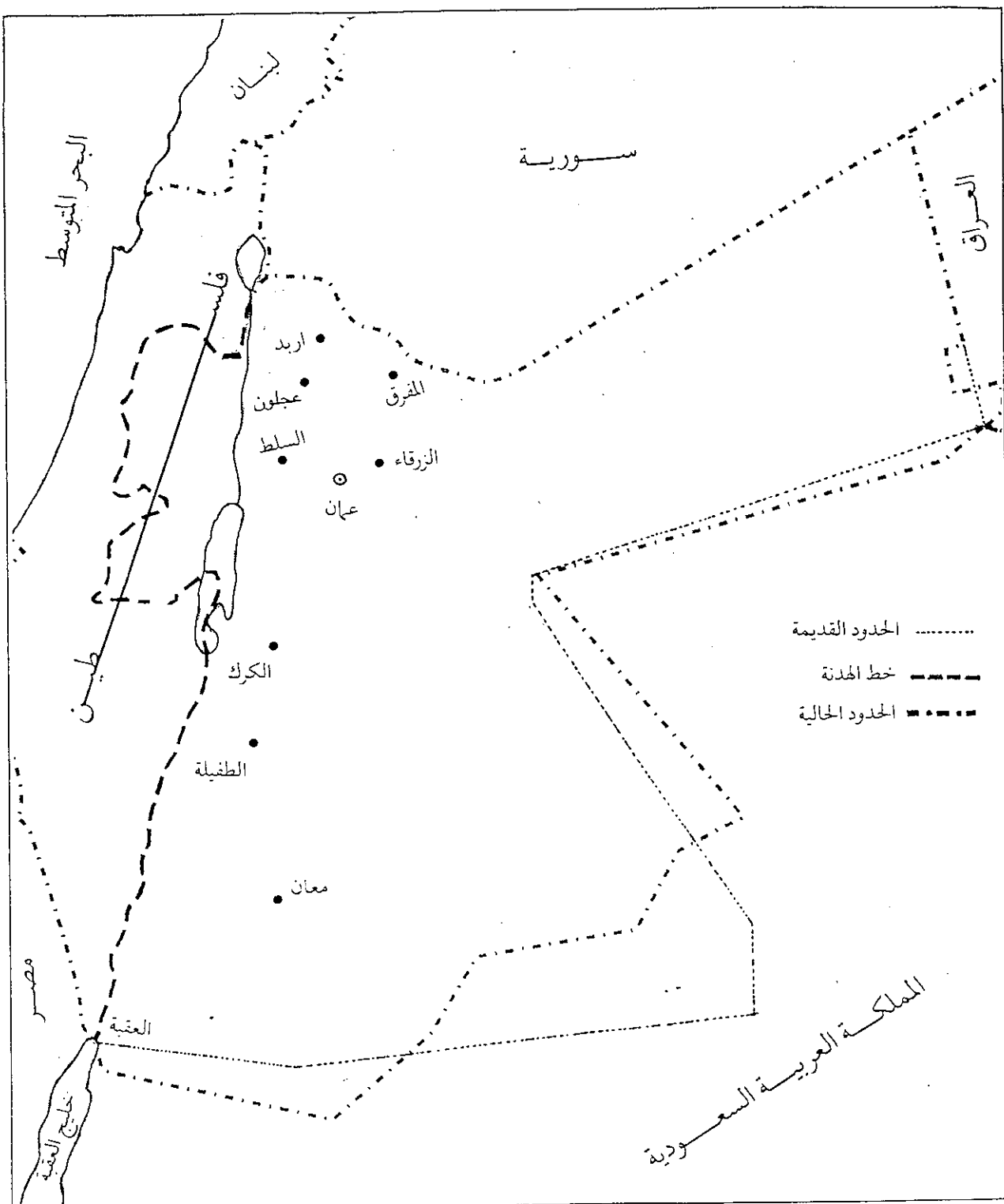
شبكة المواصلات وطرق التجارة في القرنين السادس والسابع الهجريين  
 رسمت على أساس الكوكب





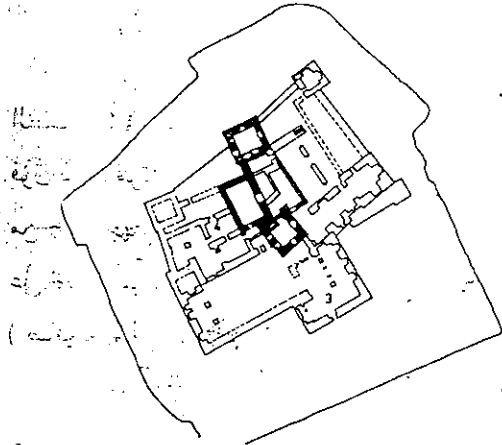
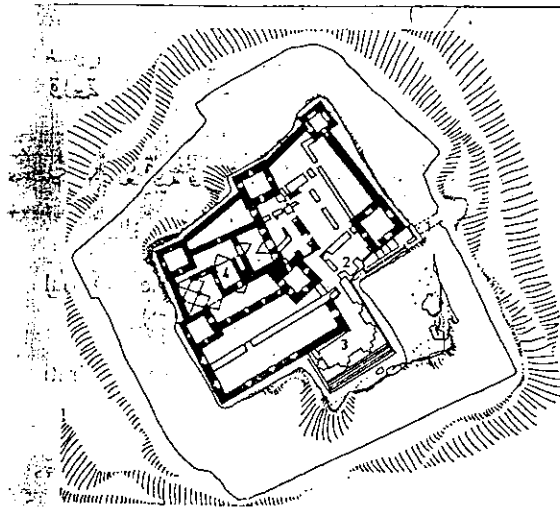
# شبكة المواصلات وطرق التجارة في منطقة شرقي الأردن في العصر المملوكي





الشكل (٥-١): تطور الحدود السياسية للأردن.





المخطط ١٣ : قلعة عجلون Qal'at Ajlun

مخطط أرضي للقلعة ، المقياس ١ / ٢٠٠٠ ( الطابق الأرضي إلى اليسار ، والطابق العلوي إلى اليمين ) . رسمت الأقسام العائدة إلى العام ١١٨٤ - ١١٨٥ باللون الأسود ، والإضافات العائدة للعام ١٢١٤ - ١٢١٥ غير مظلمة .  
١ - المدخل الرئيسي ، ٢ - غرفة البوابة الداخلية ، ٣ - البرج الجنوبي ، ٤ - القلعة الداخلية ( بالاستناد إلى س . ن . جونز ) .

المراجع :

الموسوعة الإسلامية ( ٢ ) ١ ، ٢١٤ ( د . سوردل

١٩٦٠ ) .

س . ن . جونز عجلون في القرون الوسطى : المجلة  
الفصلية لفرع الآثار في فلسطين ، ١ ، ١٩٦١ ، ٢١ - ٢٣ .

#### Bibliography:

Enc. Isl. (2) 1, 214 (D. Sourdel 1960);  
C. N. Johns, Medieval 'Ajlun', in: Quarterly of  
the Department of Antiquities in Palestine, I 1931,  
21-33.

مرحلة متأخرة . شقت القناة التي تحيط بالموقع  
بأكمله عميقاً في الصخر الأصم . والقلعة ما تزال محفوظة  
في حالة جيدة إلى حد ما .

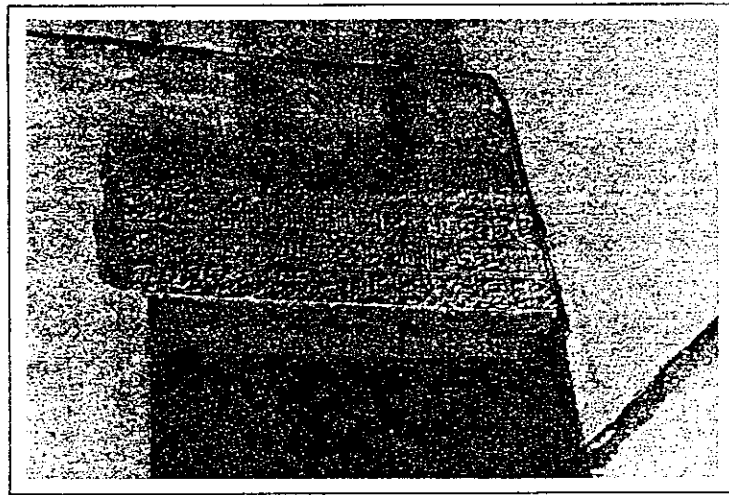
#### التاريخ :

١١٨٤ - ١١٨٥ أسس الأمير عز الدين أسامة  
القلعة لحماية الجناح الجنوبي الغربي لمنطقة دمشق ،  
وطريق المواصلات الحيوي بين دمشق والقاهرة  
( ويسمى درب الحج ) الذي كان ضعيف الحماية حتى  
ذلك الحين ، كذلك اعتبرت القلعة كثقل موازن  
لقلعة كوكب ( بلقوار ) الفرنجية . وتذكر المصادر  
العربية بأن هذا الموقع كان يشغله دير سابق .

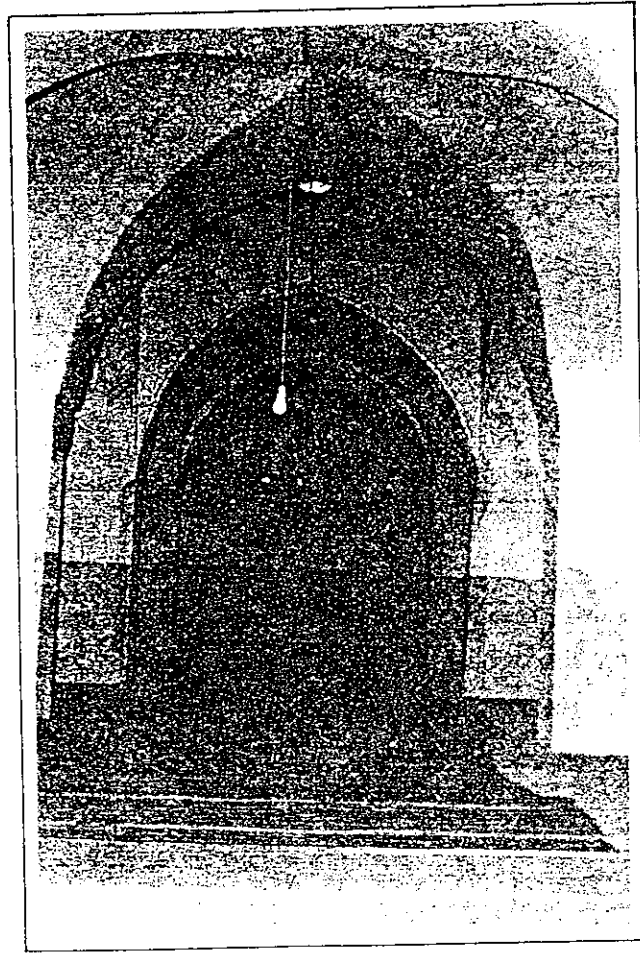
١٢١١ حوصرت القلعة لأن صاحبها رفض أن  
يقسم بين الطاعة للسلطان الجديد بعد وفاة صلاح  
الدين . ومنحت إلى أيك بن عبد الله .

١٢١٤ - ١٢١٥ أجرى صاحبها الجديد تحسينات  
معمارية مكشفة على القلعة وقوى الواجهة الجنوبية  
وسقف الفناء المكشوف .

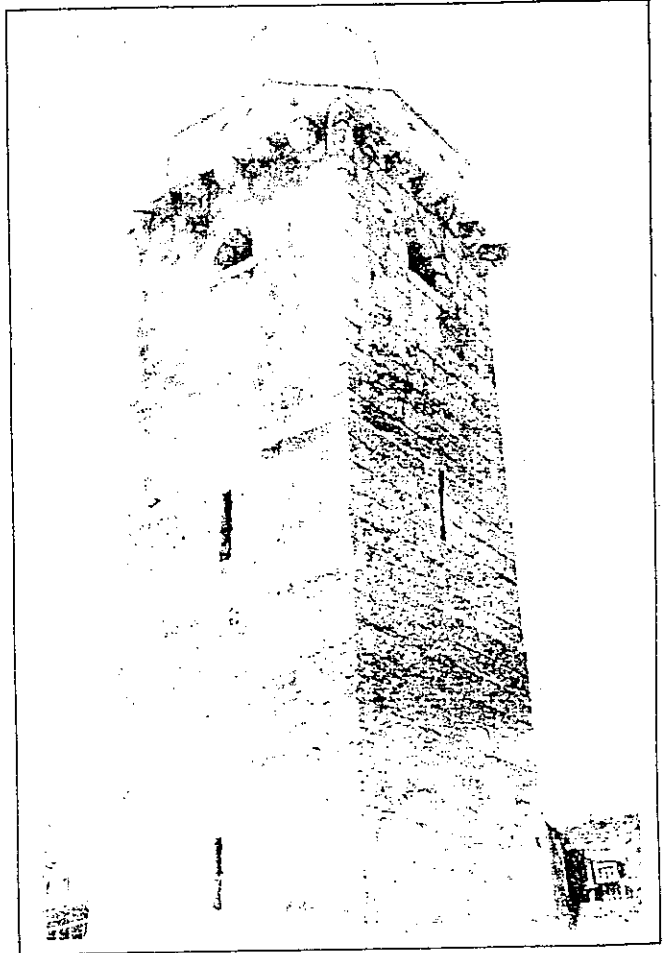
منتصف القرن الثالث عشر : بعد أن  
فقدت القلعة أهميتها الاستراتيجية بانتصار العرب في  
حطين ، أصبحت تستخدم كحطة للتوطين فقط ،  
ورغم ترميمها على يد الملك الظاهر بيبرس بعد أن  
خربها المغول في العام ١٢٦٠ ، لم تعد قلعة عجلون  
تلعب أي دور رئيسي ، ثم أصبحت مقراً لعسدة أسر  
عربية ، وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر .



نقش يثل اللوحة التأسيسية لبناء جامع عجلون في عهد السلطان الصالح نجم الدين  
أيوب سنة ٦٤٥ هـ



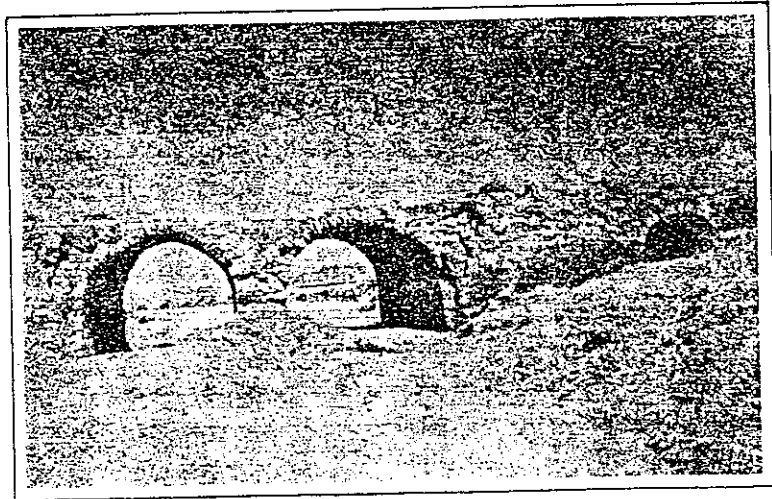
منظر لإحدى بلاطات بيت الصلاة في جامع عجلون والدعائم التي يقوم عليها



منذنة جامع عجلون من بناء الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ

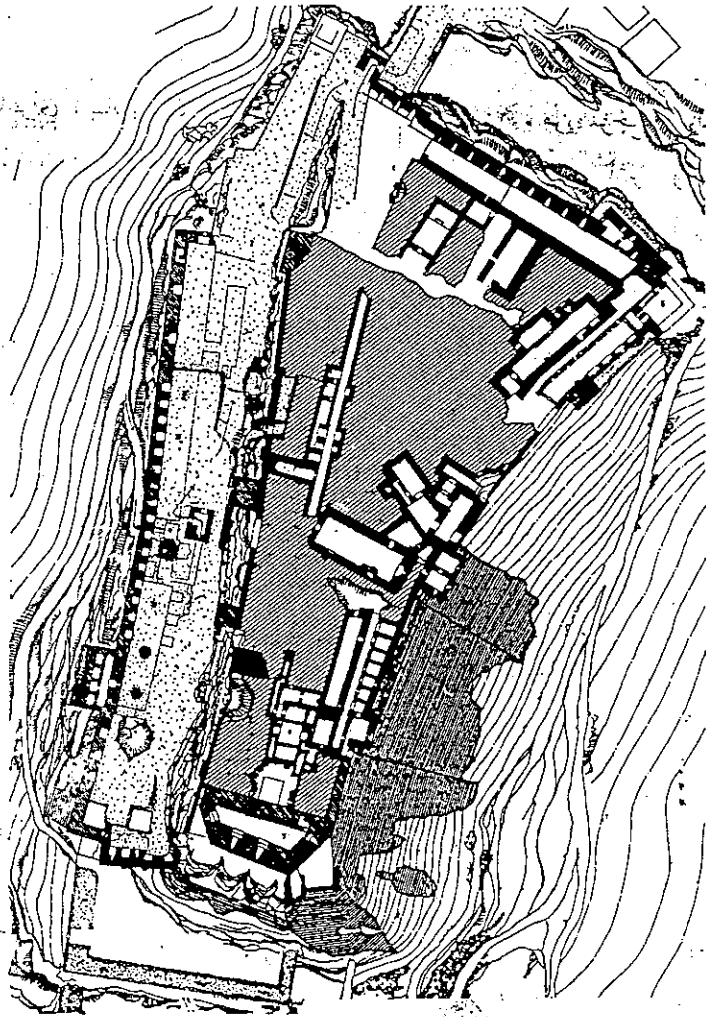


الطريق المعبد المار بجانب خان الحسا شمالا وجنوبا



منظر لجر الحسا الذي ذكرته المصادر العربية وعنده قباض المكوس





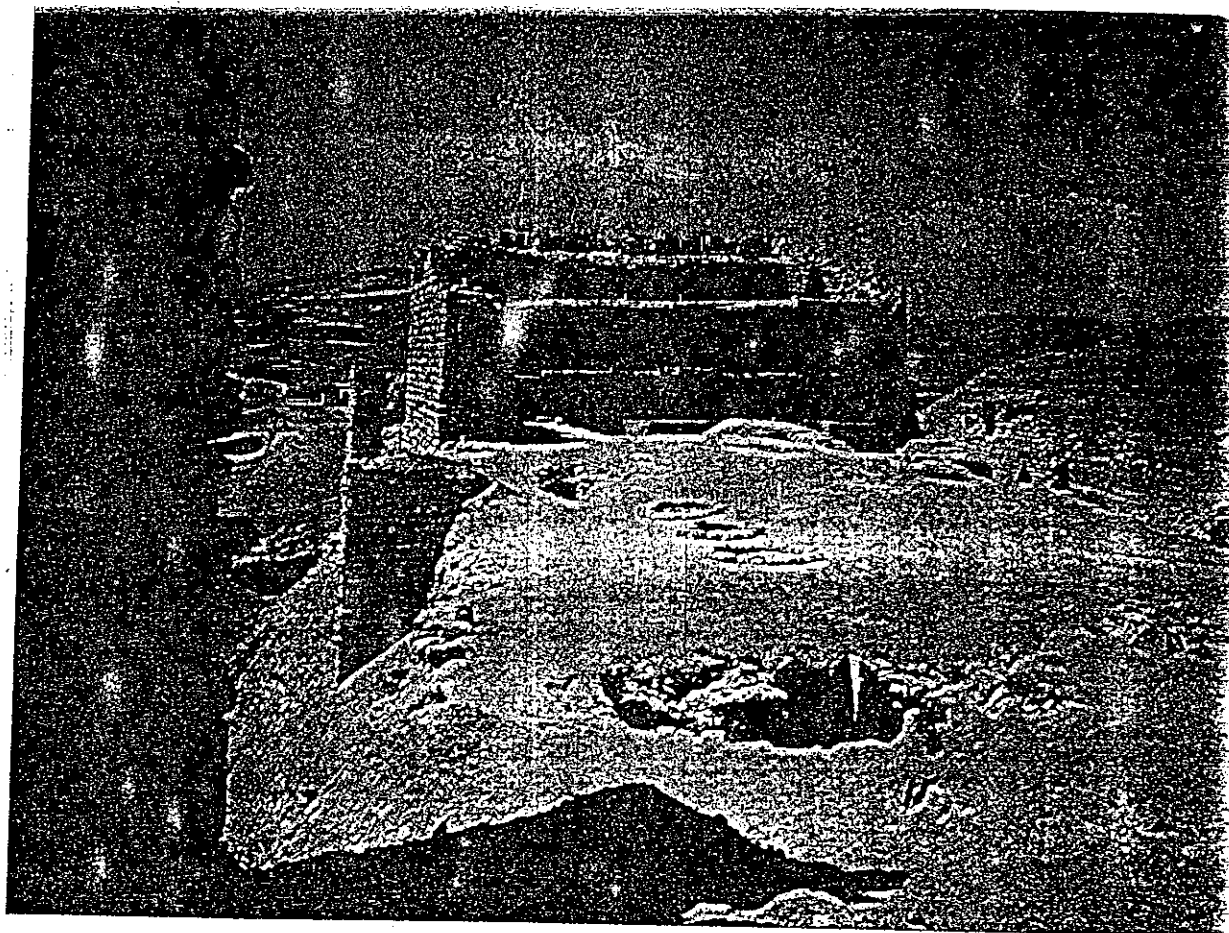
الخطة ٤ : الكرك AL KARAK

خطة أرضي للقلعة العلوية والسفلية مقياس

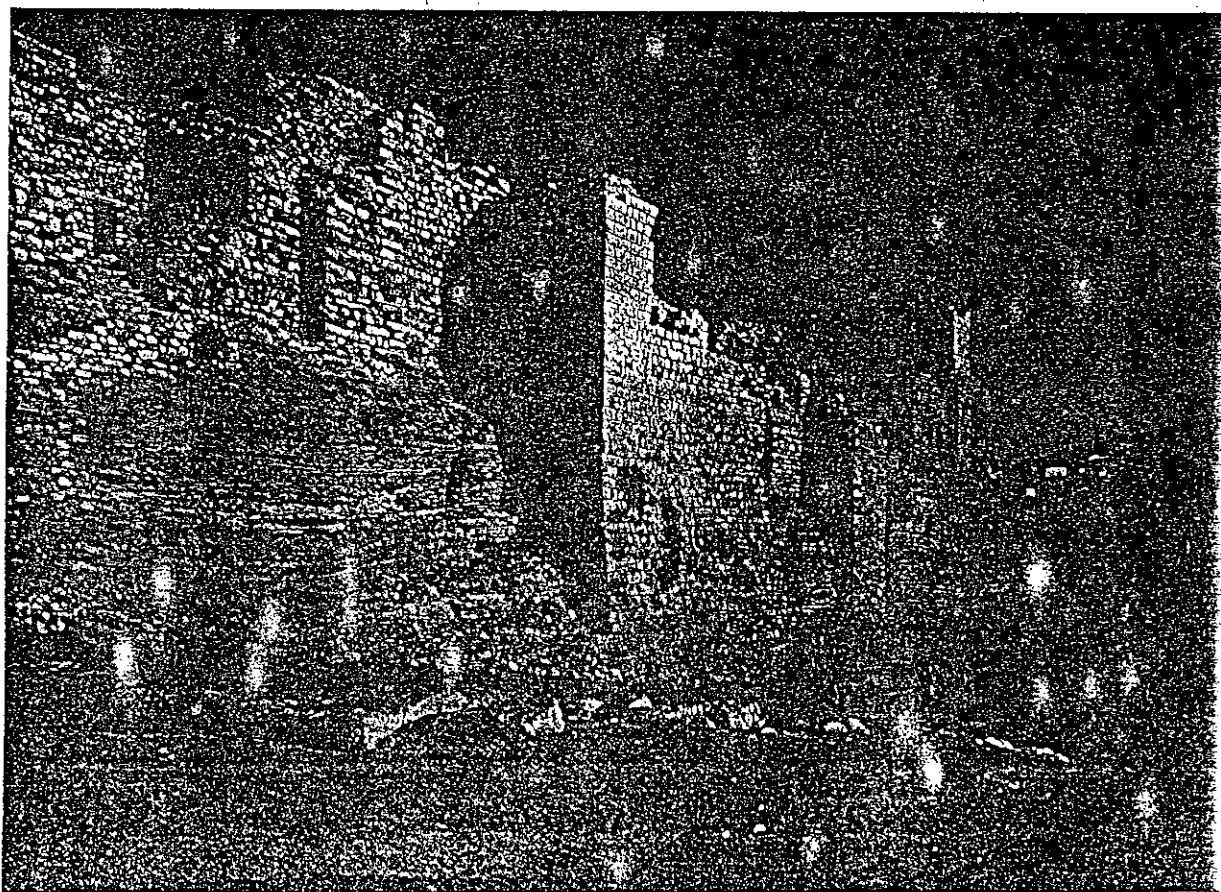
٢٠٠٠ / ١

- ١ - البوابة الرئيسية الحديثة ، ٢ - القلعة السفلية ، ٣ -
- البوابة السفلية ، ٤ - السور الخارجي للقلعة السفلية ، ٥ - البرج
- الزاوي الشمالي الشرقي ( خرب ) ، ٦ - المباني التابعة للقصر ، ٧ -
- برج محصن ، ٨ - جدار حاجز ( سائر ) .

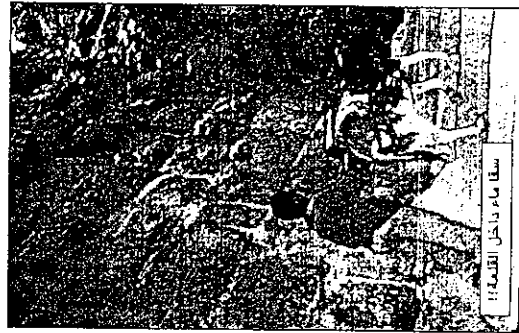
يبين المخطط المبنى والأراضي التابعة له التي تقع تحت مستوى الأرض من القلعة العلوية ، كذلك نفذت القلعة السفلى على مستوى الأرض لكشف الغرف تحت الأرضية التي أثير إليها بالرسم المنقط . وأشير إلى طوري البناء الفرعي الأول والثاني ( ١١٤٢ - ١١٨٨ ) باللون الأسود والتهشير المتقاطع ، كما أثير إلى الفترة العربية ( بعد العام ١١٨٨ ) بالتهشير المكثف بينما رسمت الأبنية التحتية المظلمة تحت التراب والصخر بالتهشير العريض



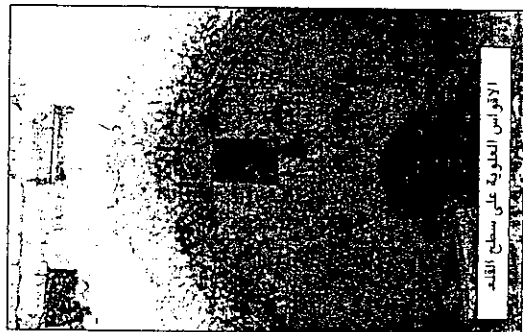
١٦ - الكرك



١٧ - الكرك



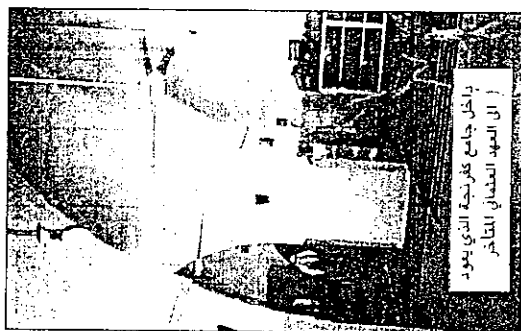
سلا ماء داخل القلعة!!



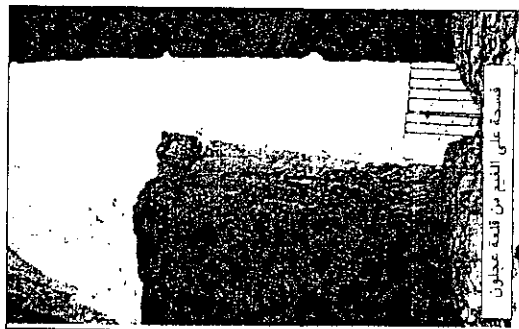
الاقواس العلوية على سطح القلعة



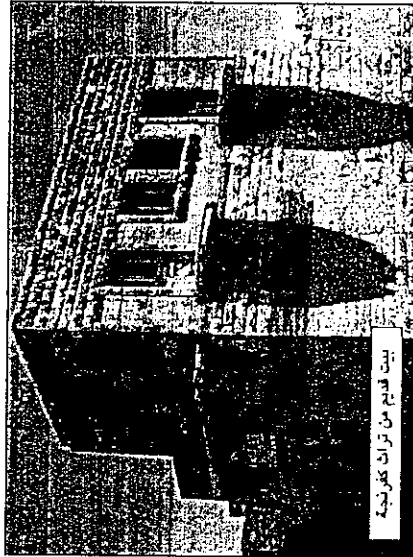
طاحونة ماء قديمة في وادي غرينية (الطواحين)



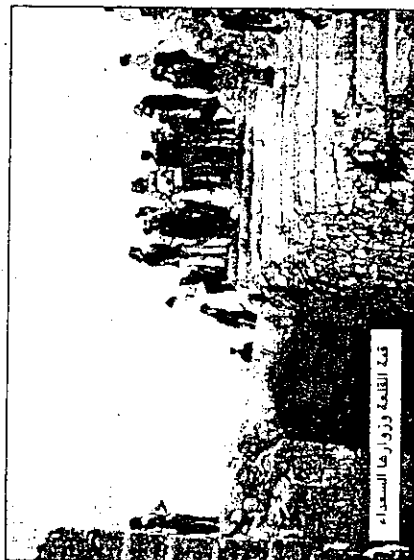
داخل جامع غرينية الذي يعود  
إلى العهد العثماني المتأخر



قسيحة على القسم من قلعة عجلون



بناي قديم في غرينية



قلعة القلعة وزوارها السعداء



من البرك الرومانية القديمة حول قلعة عجلون

ثالثاً:

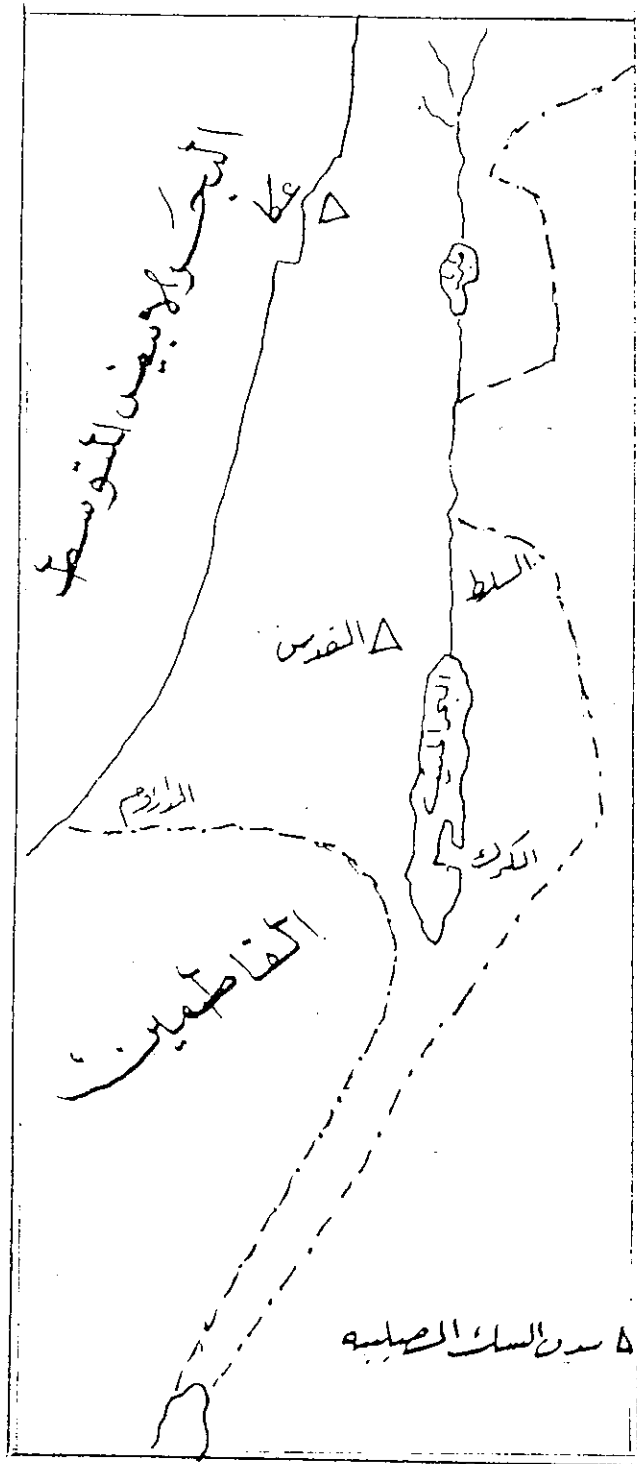
ملاحق حضارية فلسطينية

## الحملة الصليبية

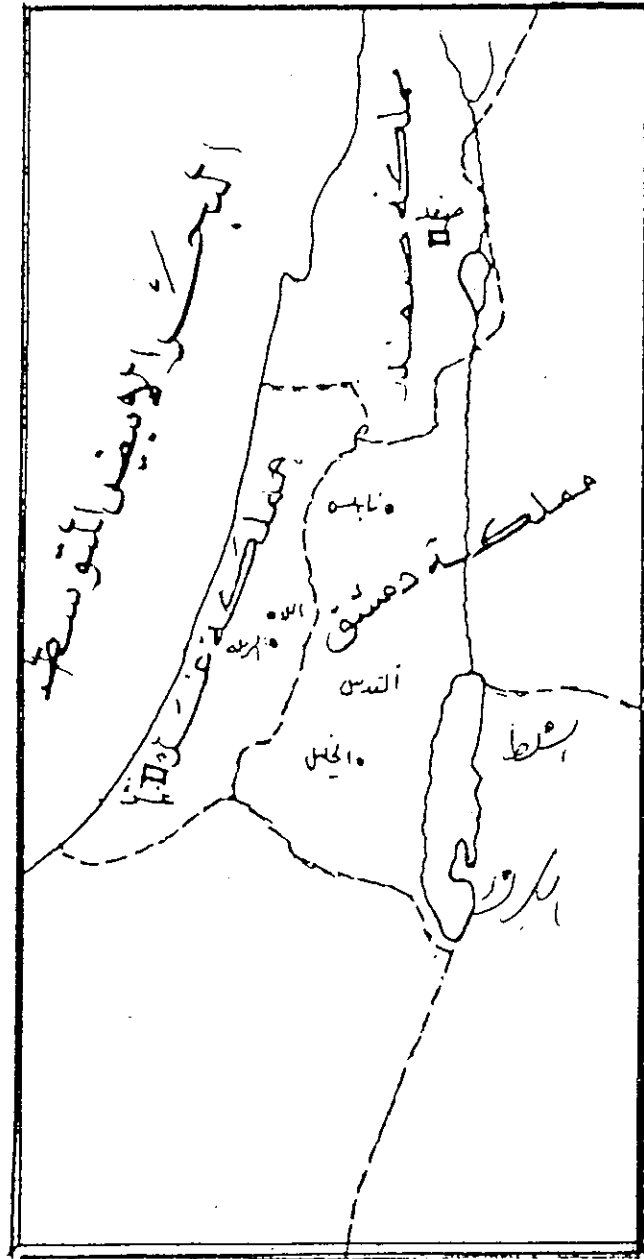
في هذه المرحلة

٤٨٩ - ٦٥٦

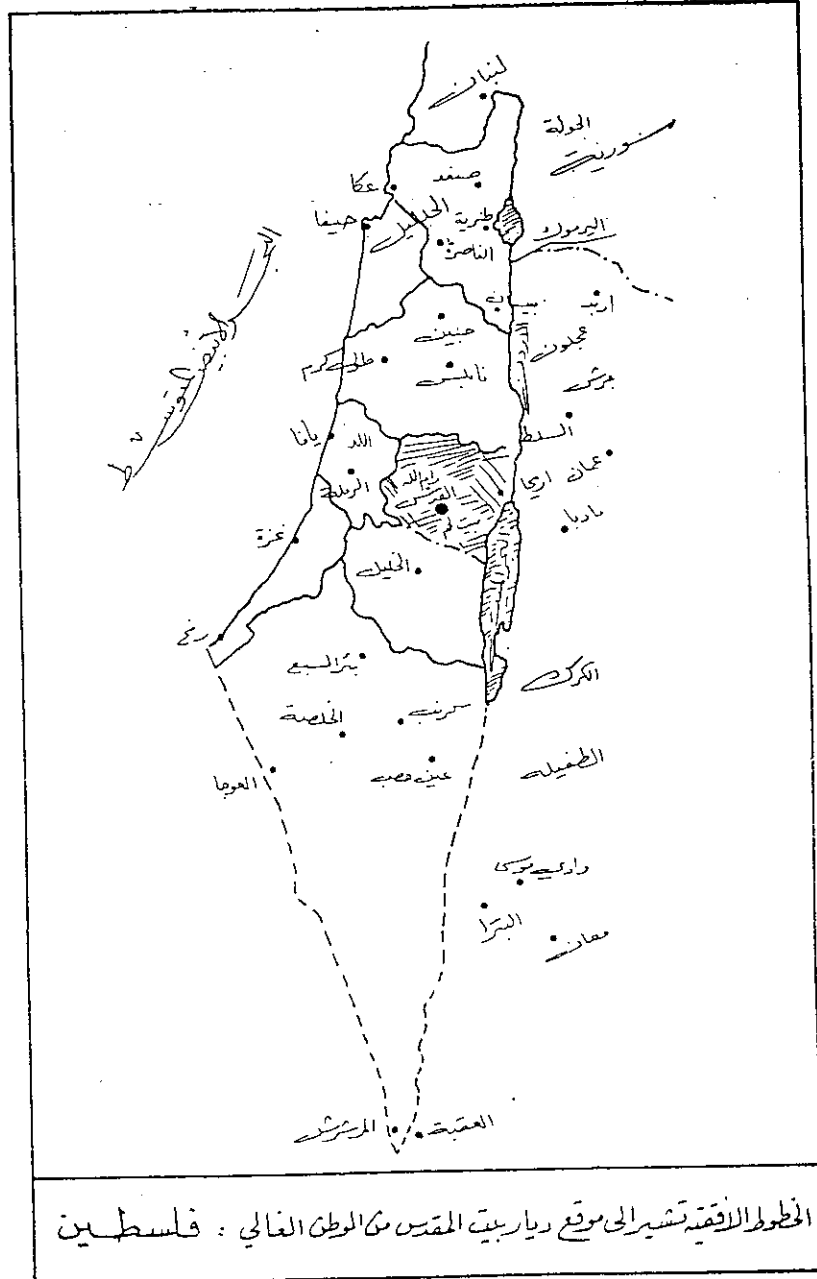
الحملة الصليبية	عام اليداية	القيادة	الأسباب	النهاية
الأولى	٤٨٩	بطرس الناسك - وأمراء	الحقد الصليبي	استقرت
الثانية	٥٤١	كونراد الثالث ملك ألمانيا	استعادة الرها	٥٤٩
الثالثة	٥٨٥	لويس السابع ملك فرنسا ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا	استعادة بيت المقدس وما أضاعه الصليبيون بحروبهم	
الرابعة	٥٩٤	فيليب اغسطس ملك فرنسا فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا	مع صلاح الدين الأيوبي	
الخامسة	٦١٥	أمراء فرنسيون ليوبولد دوق النمسا اندرية الثالث ملك هنغاريا	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام.	٦١٨
السادسة	٦٢٥	فريدريك ملك ألمانيا	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام	٦٢٦
السابعة	٦٣٧	ثيوب الرابع الفرنسي	دعت الكنيسة الى هذه الحملة عندما رأت ضعف المسلمين واختلاف بعضهم مع بعض	٦٣٩
	٦٣٩	ريتشارد كورنول الانكليزي	اتجهت الى تونس	٦٥٢
	٦٤٩	لويس التاسع ملك فرنسا		



"فصل ١٢" مملكة إسرائيل في أرضها

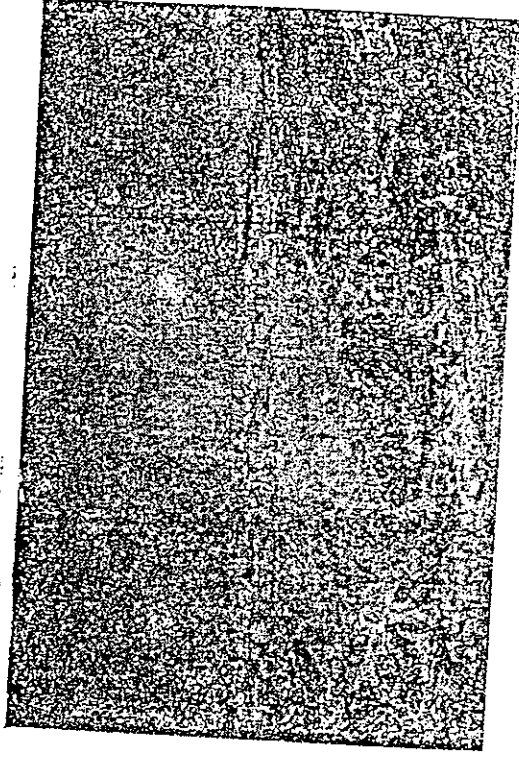


خريطة (١٥) عبود والممالك الفلسطينية في العصر المملوكي



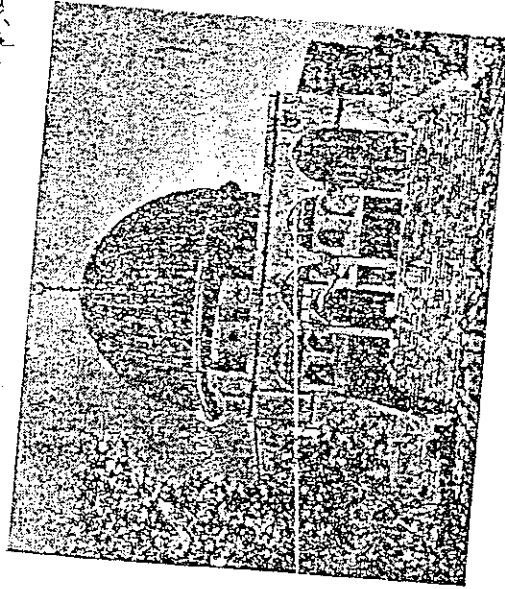


لوحة رقم ١



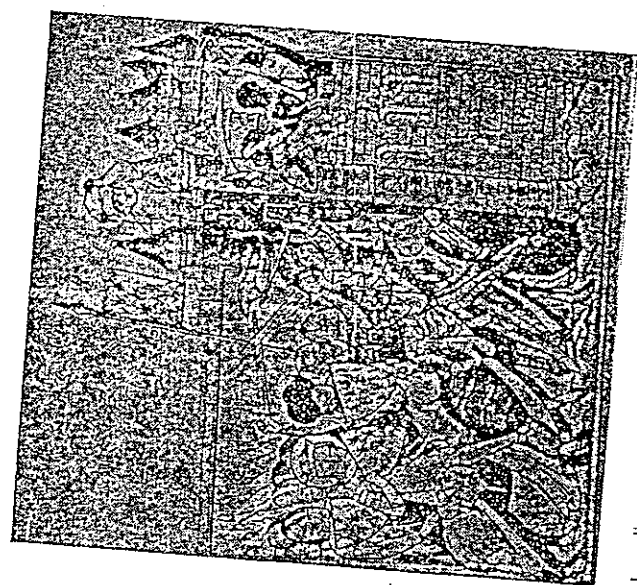
بيت المقدس كما يبدو من جبل الزيتون  
وتظهر في الصورة قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى اليسار،  
وكنيسة القيامة خلف قبة الصخرة إلى اليمين.

لوحة رقم ٢



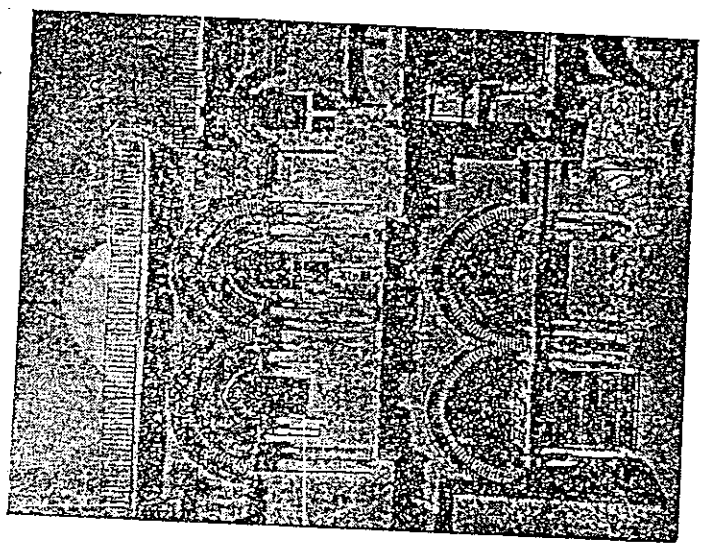
قبة الصخرة

لوحة رقم ٤



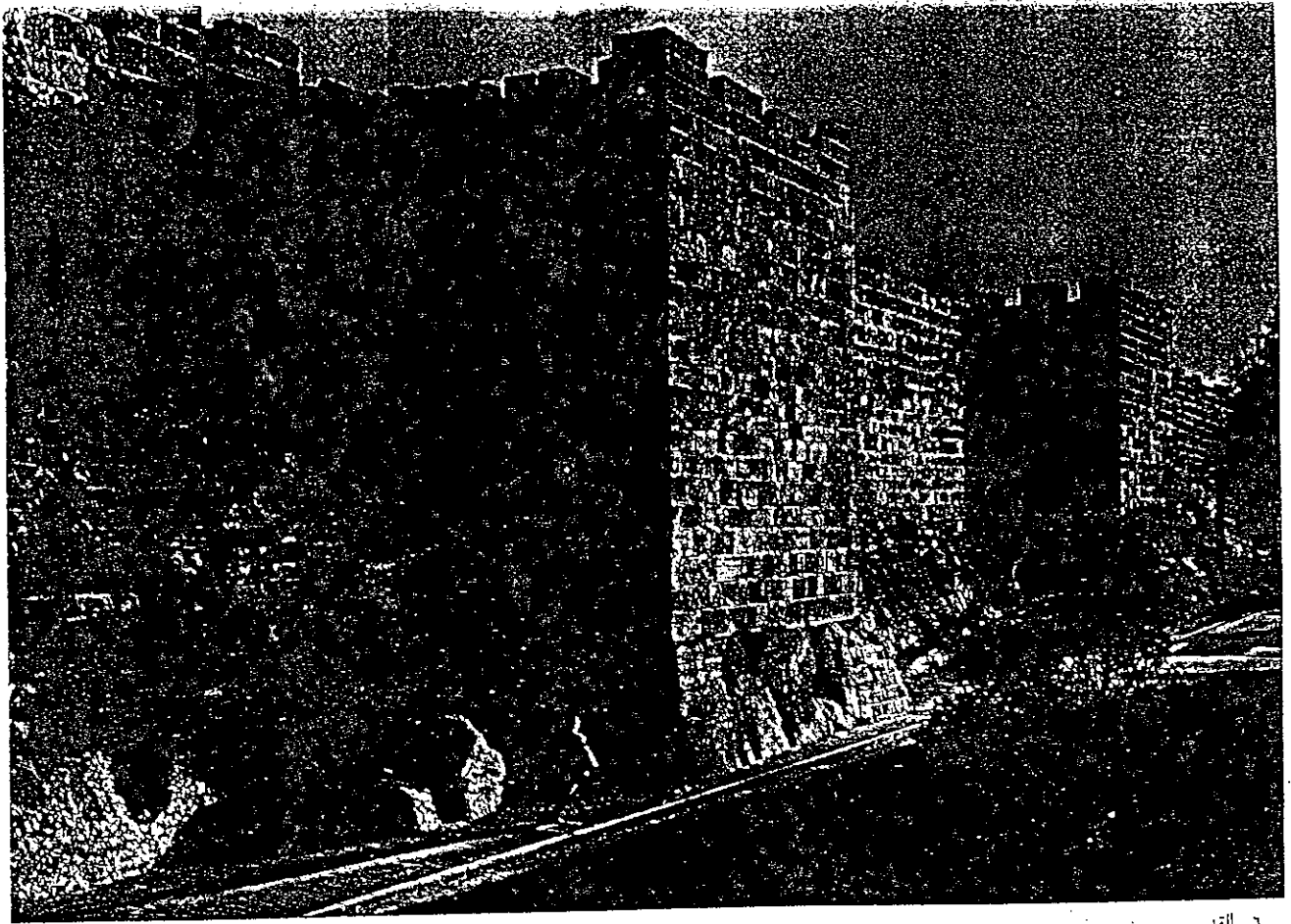
تضامن الجيش والشعب العربي في مصر ضد قوات العدوان  
 أثناء معركة النصورة  
 (منتصف ق ٨٧ / ق ١٣ م)

لوحة رقم ٣

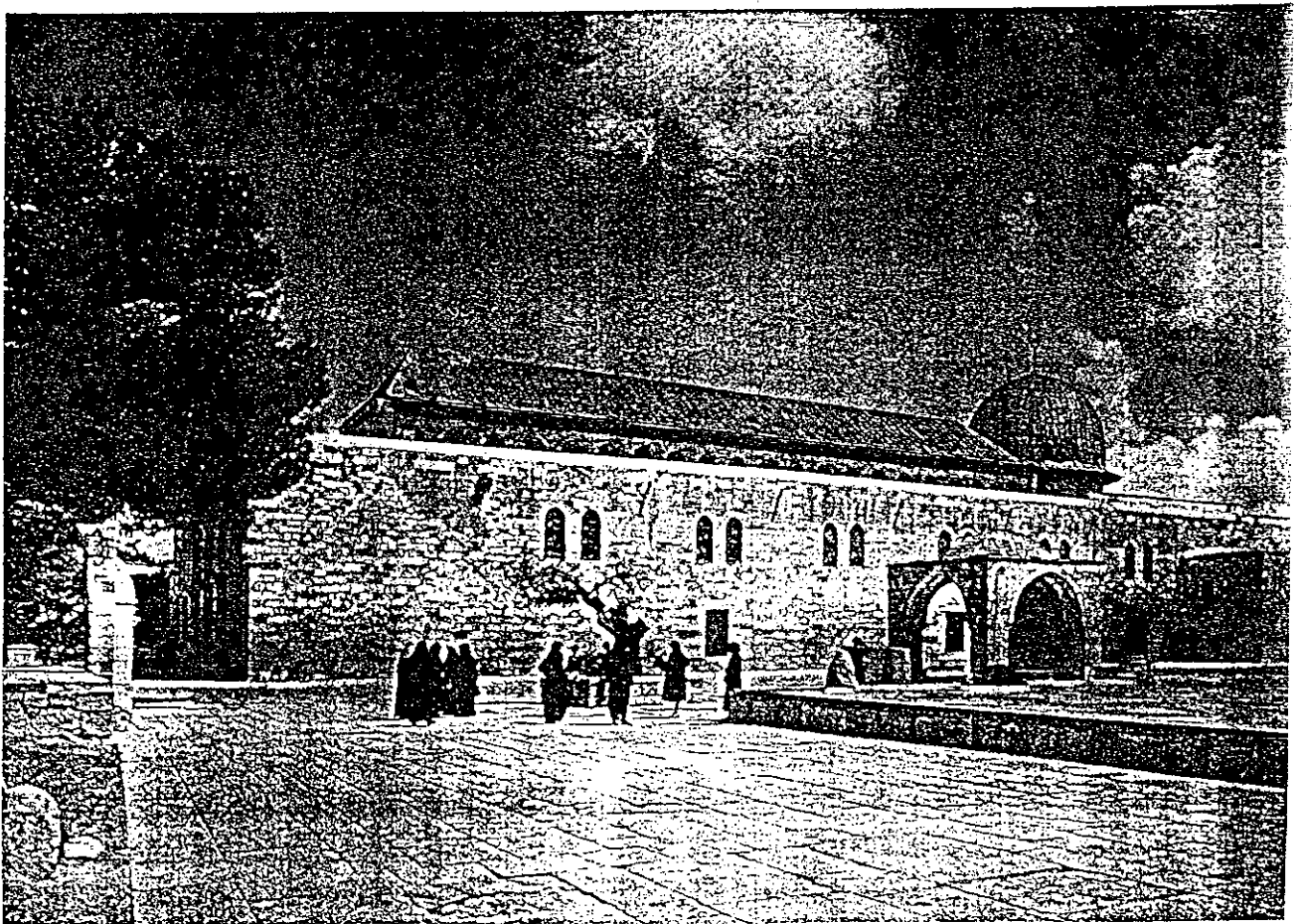


كنيسة القيامة

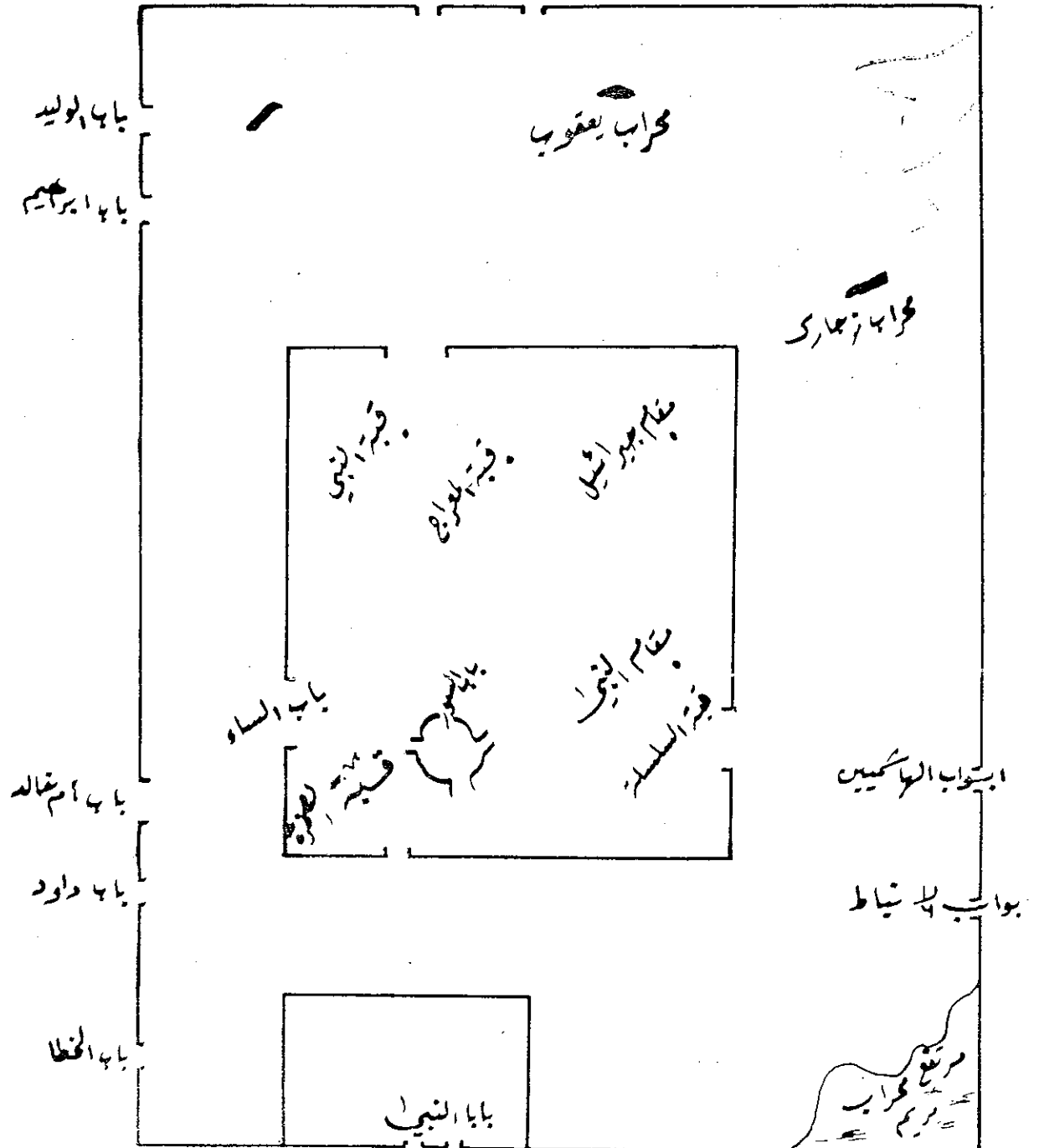
في كنيستين القديسين الذين كانا مع المسيح في الجحيم  
 في كنيستين القديسين الذين كانا مع المسيح في الجحيم  
 في كنيستين القديسين الذين كانا مع المسيح في الجحيم



٦ - القدس



٧ - القدس



مسجد القدس  
 "المسجد الأقصى"  
 صورة جغرافيو المسلمين القدماء  
 كما

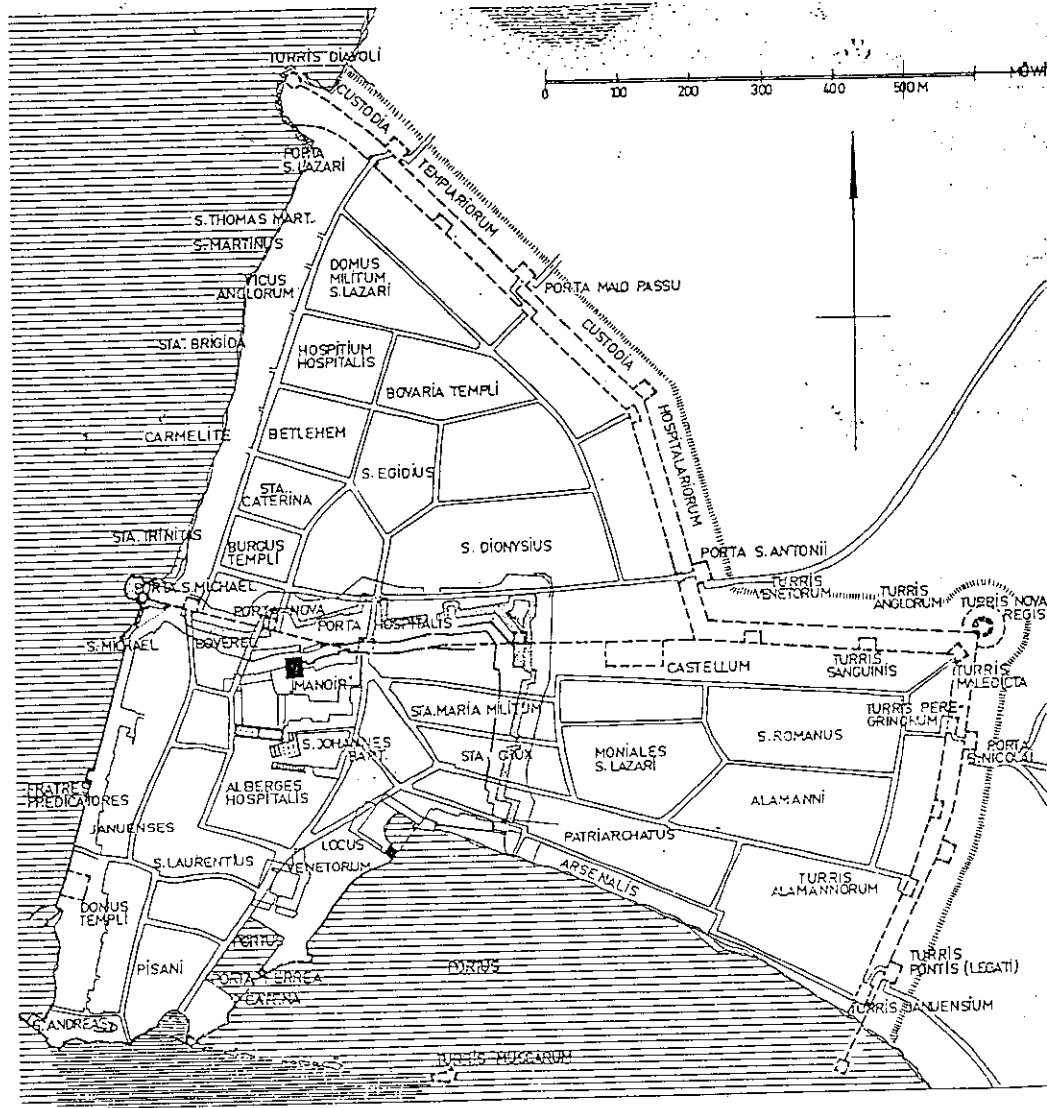
#### Bibliography:

Enc. Isl. (2) I, 351-52 (Fr. Buhl 1960);  
 Rey, *Arch. Militaire*, 171 et seq.;  
 Rey, *Les colonies franques de Syrie au 12e et 13e siècles*, Paris 1883;  
 Rey, 'Étude sur la topographie de la ville d'Acre au XIIIe siècle', in: *Mém. Soc. Ant. de France*, Vol. 39, Paris 1879;

Conder-Kitchener, *Survey I*, 160-67;

Deschamps, *Châteaux I*, 65-69, containing old plan of city (1686);

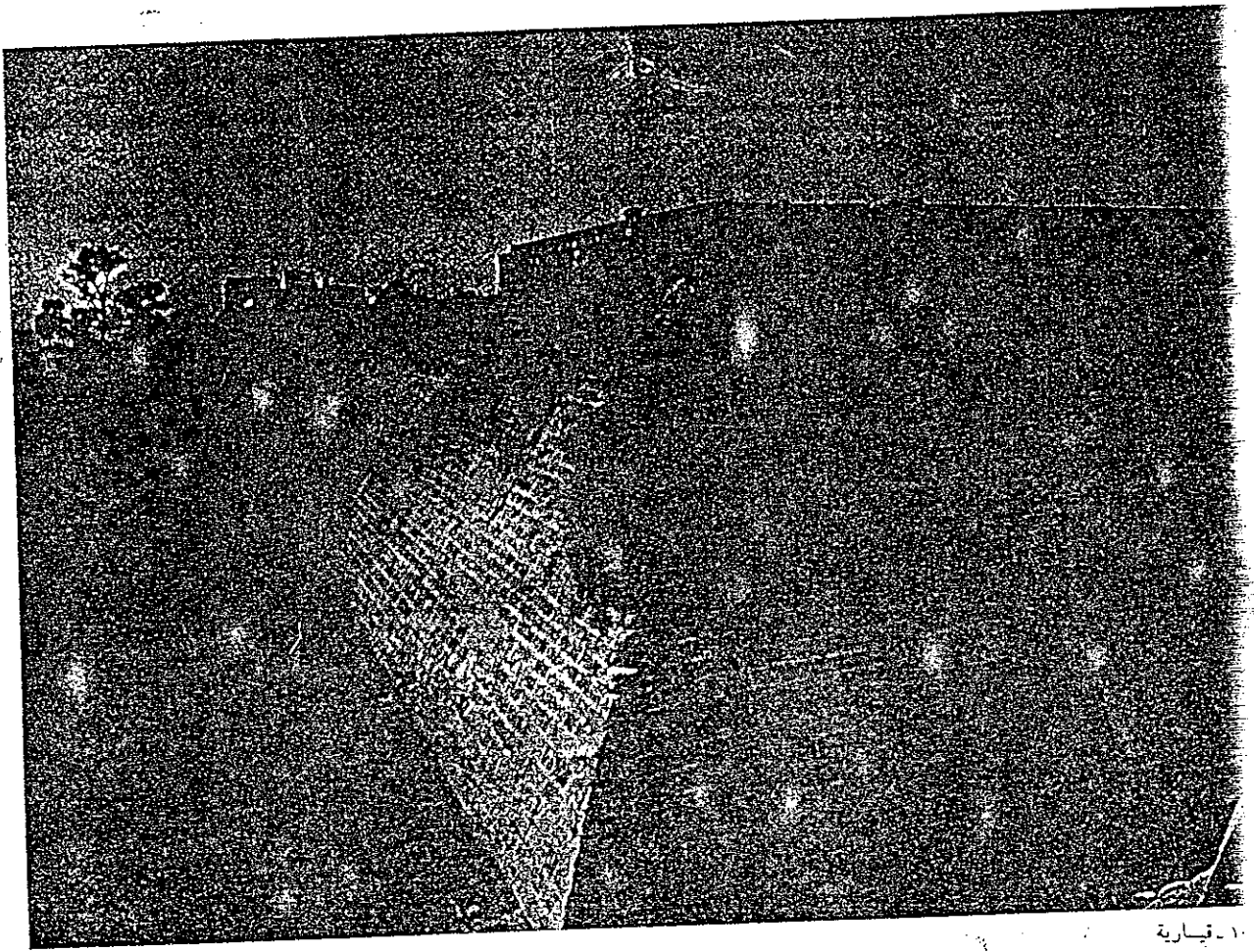
N. Makhoul - C. N. Johns, *Guide to Acre, Jerusalem 1946*, with exhaustive descriptions, plans and bibliographical data.



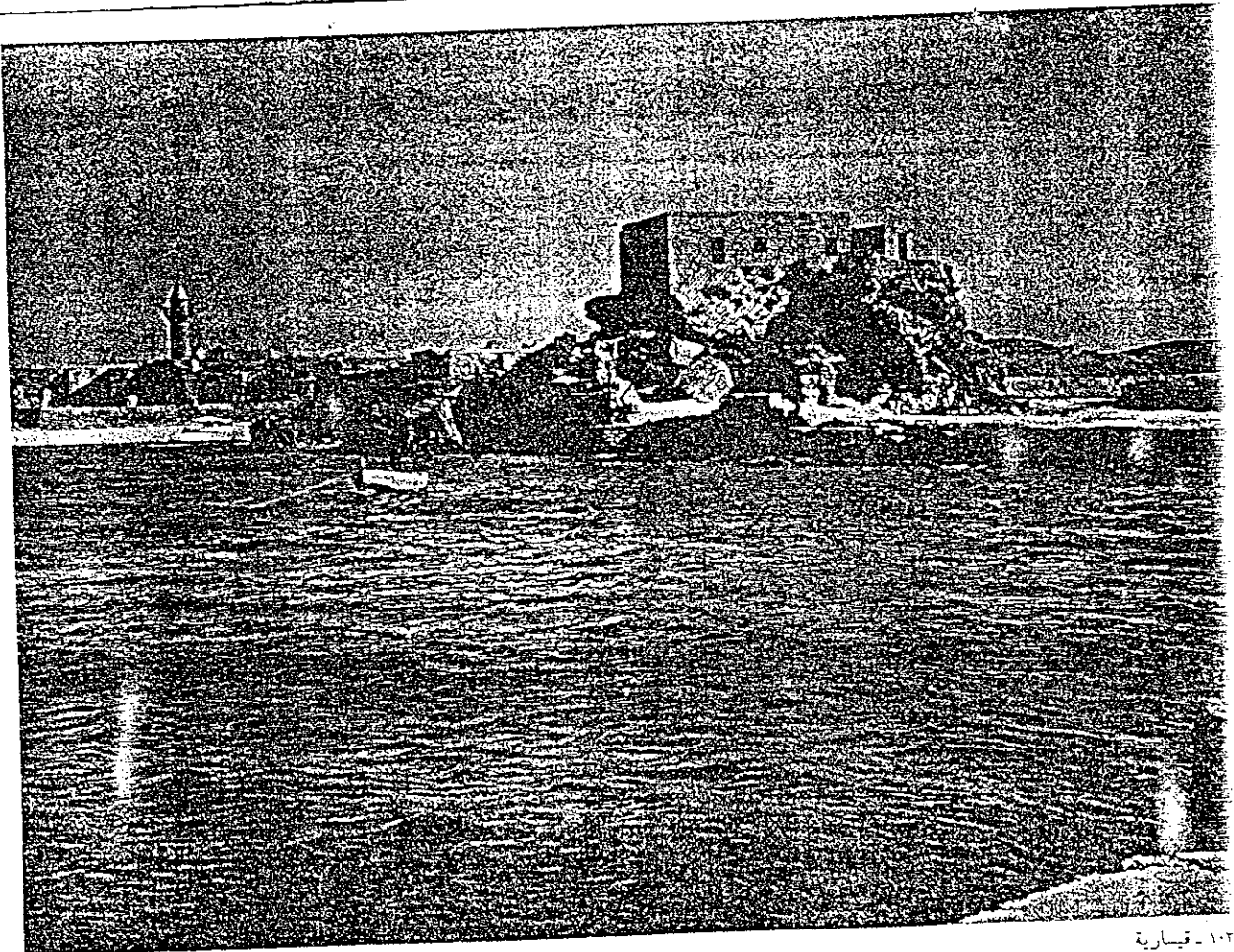
أسائها اللاتينية « الأصلية » !! . استند تمديد الشوارع على الخرائط المذكورة جزئياً وإلى الآثار المتبقية التي ما تزال قابلة للتمييز في المدينة الحديثة . إن المباني القائمة أو التي جرى التثبيت عنها مؤخراً مرسومة باللون الأسود ( أي بقايا حي الأستارية والبرج المسمى برج السلطان والذي ما يزال قائماً بجانب المرفأ ) .

مخطط ٢٢ : عكا Acre

مخطط المدينة يشمل محاولة لإعادة تركيب الأسوار دمية ، المقياس ١/١٠٠٠٠ ، بالاستناد إلى مخطط المدينة الحالي تشير إلى التحصينات الجديدة بخطوط متقطعة ( ولكنه يبين أحياء التي تشير إليها في الخرائط القديمة للمقرون ١٤ - ١٨ مع



١٠ - قيارية



١٠٢ - قيارية

وقفية المدرسة الاشرفية بالقدس، قائمة بأسماء العاملين بها ومقدار ما يحصلون عليه من مرتبات شهرية على النحو التالي:

الرقم	الوظيفة	الراتب الشهري	ملاحظات
1.	وظيفة المشيخة والتدريس	10 دينار ذهب اشرفي وظاهري <sup>(1)</sup>	
2.	قارئ الحديث		يصرف 4 أرطال مصرية خبز كل يوم <sup>(2)</sup>
3.	21 صوفي لكل واحد منهم	200 درهم	
4.	خادم مصحف		
5.	كاتب غيبة		
6.	الامام	300 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم
7.	المكبر	200 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
8.	قارئ المصحف الشريف	200 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
9.	قارئ البخاري	200 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
10.	البواب	600 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
11.	مفرق الربطة الشريفة	100 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
12.	الفراش، والوقاد	200 درهم	
13.	المزملاتي <sup>(3)</sup>	500 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم
4	الشاهد	250 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم
5	السقا	300 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم

(1) الدينار الأشرفي: نسبة الى الاشرف قياتاي والدينار الظاهري نسبة الى الظاهر برفوق.

(2) الرطل المصري: يساوي 12 أوقية، وكل أوقية تساوي 12 درهم أي انه يساوي 144 درهم: انظر فالترهنش، المكايل والاوزان، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، 1970، ص33.

(3) المزملاتي: هو القائم على تسهيل، ويشرف على توزيع الماء. انظر علي السيد علي، مدينة القدس في العصر المملوكي، دار الفكر القاهرة، 1986م، ص243.



جدول يوضح الأجور الشهرية للقائمين على البيمارستان مأخوذة عن وقفية البيمارستان القيمري<sup>(1)</sup> بالصالحية في دمشق 652هـ/1254م مجتمع بلاد الشام ص337 موجودة بديوان الاوقاف بدمشق "رقم 237" وثائق وحجج.

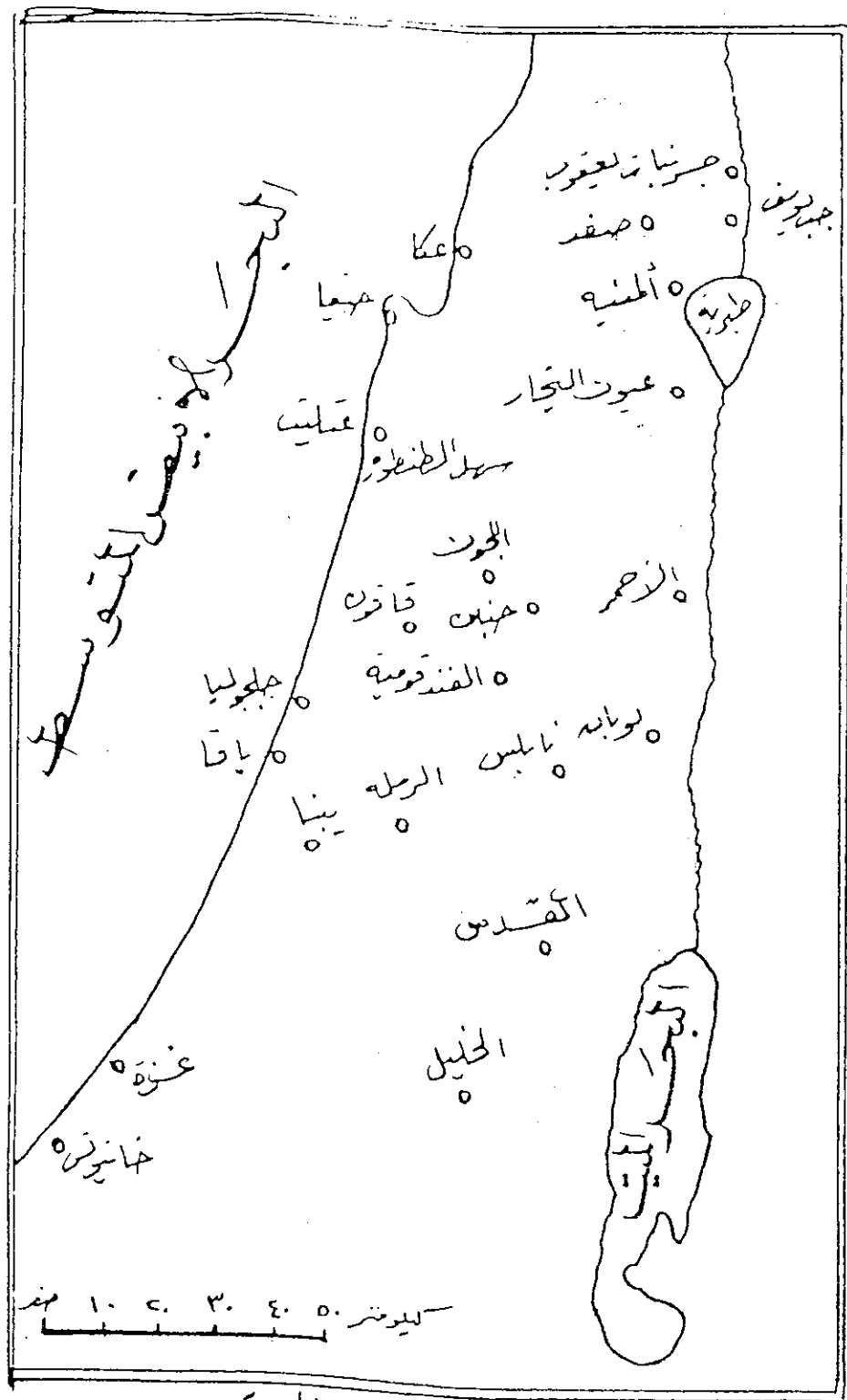
الرقم	الموظف	المرتب الشهري بالدرهم	حصة القمح والشعير الشهرية
1.	الطبيب	70-60	نصف غرارة قمح <sup>(2)</sup>
2.	المشارف	40	نصف غرارة القمح
3.	كحال	45	نصف غرارة القمح
4.	خادم	13	ربع غرارة قمح
5.	ممرضة	10	سدس غرارة قمح
6.	صيدلي	26	ثلث غرارة قمح
7.	ناظر الوقف	60	غرارة قمح و غرارة شعير <sup>(3)</sup>
8.	الإمام	40	ثلاث غرارة قمح
9.	بناء	12	ثلاث غرارة قمح
10.	عتال	8	سدس غرارة قمح
11.	مؤذن	25	سدس غرارة قمح
12.	الناظر	له عشر المغل	-

(1) زيادة : دمشق، ص124، وقفية البيمارستان القيمري بالصالحية.

(2) غرارة: تساري مكيال دمشقي، وتعني العدل من صوف او شعير، تتألف من 12 كيلو أو 72مداً. هنش: م س، ص64

(3) كان يصرف لناظر الوقف غرارة شعير لدابته، وذلك لطبيعة عمله. حيث يطلب منه التجول على أوقاف البيمارستان المختلفة للنظر فيها.





(خريطة ١٤) " خانات فلسطين في العصر المملوكي "



رابعاً:

ملاحق حضارية مملوكية وثائقية

# مصاريف مملكت الناصر مقدمة بالدينار الجيشي

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

٦٤

١. أمراء الألوف ومماليكهم = ٢٤٢٤ فارساً

مماليكهم ٢٤٠٠	{	١٠ أمراء	أ. نائب
			ب. وزير
			ج. ألوف خاصكية
			د. ألوف خرجية
		١٤ أميراً	
<hr/>			
٢٤٢٤ فارساً			

الرواتب:

(الدينار الواحد = ١٠ دراهم)	{	أ. ١٠٠.٠٠٠ دينار جيشي
		ب. ٨٥.٠٠٠ دينار جيشي
		ج. ٨٥.٠٠٠ دينار جيشي
		د. ٨٥.٠٠٠ دينار جيشي

٢. أمراء الطبائخانات ومماليكهم = ٨٢٠٠ فارساً

<div> <div>٨٠٠٠</div> <div>مماليكهم</div> </div>	{	أ. خاصكية ٥٤ أميراً
		ب. خرجية ١٤٦ أميراً
<hr/>		
٨٢٠٠ فارساً		

الرواتب:

(الدينار الواحد = ١٠ دراهم) <sup>(١)</sup>	{	أ. ٤٠.٠٠٠ دينار جيشي
		ب. ٣٠.٠٠٠ دينار جيشي

٣. أمراء العشرات ومماليكهم = ٢٢٠٠ فارساً

٢٠٠٠ <hr/> ٢٢٠٠ فارساً	مماليكهم	{	أ. خاصكية ٣٠ أميراً
			ب. خرجية ١٧٠ أميراً

(١) ليس في قائمة المقرري.

## الرواتب:

(الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

أ. ١٠.٠٠٠ دينار جيشي

(الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

ب. ٧.٠٠٠ دينار جيشي

= ٥٧٤ فارساً

٤. كُشَّاف الأقاليم ومماليكهم

المقريري	الأسدي
كاشف الإسكندرية	نائب الإسكندرية <sup>(١)</sup>
البُحيرة	البُحيرة
الغربية	دمياط
الشرقية	قوص
المنوفية	كاشف الغربية
قُطيا	الشرقية
الجيزة	المنوفية
الفيوم	الفيوم
البهنسا	البهنسا
الأشمونين	الأشمونين
قوص	الوجه البحري
أُسوان	الوجه القبلي
الوجه البحري	متولي قُطيا
الوجه القبلي	أُسوان

مماليكهم ٥٦٠

= ٥٧٤ فارساً

(الدينار الواحد = ٨ دراهم)

الرواتب: ٢٠.٠٠٠ دينار جيشي

(١) كان السلطان يعين أحياناً على الإسكندرية رجلاً من أمراء الألف.

٥. وُلاة الأقاليم ومماليكهم = ٧٧ فارساً

أ. وُلاة الطبلخانات  
ب. وُلاة العشرات

٧ أمراء  
مماليكهم ٧٠

٧٧ فارساً

الرواتب:

أ. ١٠٠٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ٨ دراهم)  
ب. ٥٠٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ٧ دراهم)

٦. مماليك السلطان والحَلقة = ١١ ١٧٦ فارساً

٤٠

أ. مقدّمو مماليك السلطان

١٨٠

ب. مقدّمو الحلقة

٢٤

ج. نقباء الألوّ

٢٠٠٠

د. مماليك السلطان

٨٩٣٢

هـ. أجناد الحلقة

١١ ١٧٦ فارساً

الرواتب:

أ. ١٢٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)  
ب. ١٠٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ٩ دراهم)  
ج. ٤٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ٩ دراهم)  
د. ١٥٠٠ - ١٠٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)  
هـ. ٩٠٠ - ٣٠٠ دينار جَيْشِي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

## ملحق رقم (١)

نص الكتاب المرسَل من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠ هـ الى الأمير قراستقر نائب دمشق يوصيه فيه ببلاد حوران بعد أن ظلم عماله أهلها، (من كتاب عقد الجمان للعيني، جزء ٢٢ قسم ١، لوحة ٢١٥ - ٢١٦ «مخطوط»):

إن الله تعالى مكننا في البلاد والعباد، وأمرنا بالعدل والاحسان، والنظر في حال الرعية. وقد بلغنا أن بلاد حوران قد خربت من كثرة الجبايات، وأنت تعلم أن بلاد حوران هي قوام دمشق، وقوام جندھا. وقد تقدم لك مرسوم منا بمساحة أهل حوران من الجبايات. ومن كان فيها رأس فتنة أو بادي شر، فقد أمرناك بقتله. ثم اتصل بنا أن أجناد دمشق قد هلكوا من عدم تحصلهم منها، ولا سيما أرباب النفذ، فهذا الذي جرى فيها سبب للخراب وزوال الدولة والأجناد هم عمد الملك، ولا يتم الملك إلا بهم، فإذا كانوا على هذه الحالة فكيف يقيمون البيكرات؟ وقد بلغنا أنكم قد جيتم حقوق البلاد، فلا الأجناد أعطيت، ولا إلينا حملتم، فمقصودنا نعلم أن هذه الأموال وصلت الى من؟ فتجعل بالك وتكشف أحوال الجند، وتوصل إليهم حقوقهم وتزيل ضروراتهم، وتقطع مادة الشكوى. وإياك وأخذ أموال الناس بغير حق، فهذا لا يخفى علينا، لأن من الشام من يطالعنا بذلك، وبكل ما تعملونه. وقد بلغنا أنه جاء إليك جماعة من شياطين حلب، ووليتهم أكثر أعمال دمشق. وكذا وليت ممالكك وظايف دمشق وبلادها وأعمالها. فالشاد الذي متولي من جهتنا ما يعمل، إذا كان ممالكك يستغلون الجهات؟ فساعة وقوفك على هذا الكتاب، تعزل ممالكك من الأعمال وكذا تعزل الحلبيين، وتحضر بأناس من أعيان الحلقة ومشايخها الذين

يخافون على أعراضهم وتوليهم الجهات والأعمال. وتكتب عليهم حججاً بأن يوصلوا إلى الأجناد حقوقهم. ولا تول أحدًا من شياطين الحلقة، لأجل حمل الأموال إليك، أو تولي أحدًا بالبرطيل فيفسد الدنيا. فإن لم تعملوا ما قلناه لكم، كشفنا بنظر العين عند وصولنا إلى الشام. ومع هذا أنت ما تحتاج إلى وصية مع علمك بالأشياء، فإن كان هؤلاء يعملون هذه المفساد وأنت لا تعلم ولا يعلمك أحد فقد أعلمناك، وإن كنت تعلم ذلك فأزله، فإن الشام لا يحمله هذا.



## ملحق رقم (٢)

نسخة كتاب المحضر المرسل من مدينة عجلون الى دمشق يتضمن الإشارة الى السيل الذي دهم المدينة وأخرب وهدم الكثير فيها سنة ٧٢٨ هـ (من كتاب نهاية الأرب للنويري، جزء ٣١ لوحة ٩٠ - ٩٢ «مخطوط»):

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي يرسل آياته تخويفاً للعباد، ويريم باهرات قدرته ليسلكوا سبل الرشاد، ويظهر لهم جبروته في ملكوته، ليحسنوا لأنفسهم الارتياح، وليعلموا ان الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله لا يخلف الميعاد، ثم يدركهم برأفته ورحمته ويكشف ما نزل بهم من المعضلات السداد. ولما كان في يوم الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، أرسل الله تعالى بقدرته ومشئته بمدينة عجلون ريحاً عاصفاً، فأثارت سحباً ثقالاً هطلت بهم بدوي وريح زعزع فلم تزل الأمطار متواترة المطل، والبروق تلمع، وأصداء الجبال والأودية بأصوات الرعود للقلوب تصدع، حتى ظن أهلها أنها قد أزفت الآزفة حق. فارتفعت الأصوات بأن ليس من دون الله كاشفة، ولفت الروس، ووجلّت القلوب، وذرفت العيون، وطاشت الألباب، وخضعت الرقاب، ومدت الأيدي بالدعاء الى من بيده أمر الأرض والسماء. وغانوا في ذلك اليوم هولاً عظيماً، وأشفقوا أن يكون الله أرسل عليهم عذاباً ألياً، فبينما الناس على ذلك الحال ذاهلين، يقولون: ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، إذ دهمهم سيل عظيم مأوه طام عبابه، هام سحابه، له دوي شديد قد اجتمع من عيون الجبال وبطون الأودية، وقرار الوهاد. فالتقى الماء على أودية بأمر قد قدر، إن في ذلك لآية فهل من مذكر. فارتفع العويل، وسكبت المعبرات، واشتد الخوف، وتضاعفت الحشرات، وفر كل من الناس يطلب

النجاة لنفسه، واحتسب عند الله جميع ماله وعقاره وغرسه. فأخذ هذا السيل العظيم ما كان في نمره من الدور والقياسير والأسواق، ودخل الطواحين والبساتين، وأخذ جانباً من حارة المشارة المجاورة للوادي. وأخذ المعرصة، وسوق الآدميين، وسوق القطنين، وبعض دور (الطعم)، وسوق الاقباعين، وسوق الخليج، وقيسارية التجار المعروفة بإنشاء الأمير سيف الدين بكتمر، والقيسارية القديمة، وأخذ من قيسارية ملك الأمراء الموقوفة على البيارستان بصفد عشرين جانباً، وضعف بقية الجدر، وهدم الأبواب، وهدم سوق الصاغة، وهدم سوق القامية الذي بقرب العين، وهدم وقف الجامع، وسوق السقطيين، وحوانيت الخبازين فإنه أخذه. وأخذ السوق المعروف بإنشاء الأمير سيف الدين الناب بقلعة عجلون. والحوانيت المعروفة بوقف القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية الموقوفة على مدرسته بنابلس. وأخذ المدرسة اليقينية وهدم رواق الجامع القبلي، وباب الجامع الشرقي، وهدم جانباً من الحمام الصالحى المعروف بأمر موسى، وبعض الحمام السلطاني، وأخذ طهارة الجامع والمربعة، والسلخ المعروف بابن معبد. وأخذ ما كان في مجراه من الجسور والقناطر والاقباء، التي كان يجوز الناس عليها عندما تمد الأودية. وعدم عجلون تقدير عشرة أبقار، وهذه قدرة الملك الجبار، فاعتبروا يا أولي الأبصار. وكان من بواتر الأمطار والسيل من أول ساعة من النهار المذكور الى وقت العصر، وفي ذيل المشروح خط جماعة من الشهود.

★ ★ ★

هذا ما أورده الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه، ونقل الشيخ علم الدين بن البرزالي في تاريخه، نسخة الكتاب الوارد من عجلون فقال:

الحمد لله الحمود في السراء والضراء، المشكور على الشدة والرخاء، الذي يخوف عباده بما شاء من معضلات اللواء، ويربهم باهرات قدرته في ملكوت الأرض والسماء ثم يعود عليهم برحمته ويجللهم بسوايغ النعماء. أحمده حمداً يزيد على الاحصاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العظمة

والكبرياء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء ومبلغ الأنبياء صلى الله عليه وعلى آله الأئمة وأصحابه الأتقياء، صلوة دائمة بلا نفاذ ولا انقضاء وبعد:

فإنه لما كان بتاريخ نهار بكرة الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، أرسل الله تعالى بقدرته ريحاً عاصفة، فأثارت سحباً والفة في خلاها بروق خاطفة، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة، فطبقت الوهاد، وجللت الأكام، وأطبقت على مدينة عجلون، وما قاربها من أرض الشام، ثم أرخت عزلها كأفواه القرب، حتى خيل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب. فلم يكن إلا كحلب شاة من الضان، أو ما قارب ذلك من الزمان. حتى صارت مدينة عجلون كما قال الله تعالى في كتابه المكنون: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر. فوجلّت القلوب لهول ذلك، وتصدعت وكادت الحوامل أن تضع حملها. وقد ذهل كل مرضعة عما أرضعت. واندھش أهل البلد عند معاينة هذا الهول الكبير، واختلفت همومهم، فكل إلى ما اشتمل عليه قلبه يشين. فمن بالك على ما في يده من متاع الدنيا الحقير، ومن مشفق خائف على ولده الصغير، ومن غريق عدم نفسه النفيسة، ما له من ملجأ يومئذ وما له من نكير ومن ناج يقول: أشهد أن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير. ومن ضارع إلى من ليس كمثل شيء وهو السميع البصير. ومن قائل ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ولسان الحال يتلو قوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. ولم تزل الأمطار متوافرة والسيول من كل فج متواترة، حتى تحير من حضر ذلك من الانس والجان، وشغلوا بما عاينوه عن الأموال والأولاد والاخوان، وظنوا أنهم أحيط بهم، وجاءهم الموج من كل مكان. فتلاقى على البلد واديان أحدهما من شمالها يسمى الجود، والآخر من شرقها يسمى جنان فأخرب وادي الجود بهذه الآية الخارقة جانباً من حارة المشارة. ودمر وادي جنان ما كان على جانبه من البنيان، ثم اختلطاً. فرأى الناس منها ما لا يطاق. وأخربا ما مرا عليه من: رباع، وقياسير وأسواق، فأخربا العرصة والمصبغة، والفرايين والعلافين، وحوانيت الدق، وسوق الآدميين، وسوق البز العتيق،

والاقباعية، والقطانين، وحوانيت البضاعة وما يليها من البساتين. وردم أمام دار الطعم بعد اضرار بعضها احجاراً وصخوراً، وكل ذلك ليتعظ أهل المكس وما يزيدهم إلا نفوراً. وذهب هذا السيل العظيم الطامي بجميع سوق الخليج لبكتمر الحسامي، وأخرب من قيسارية ملك الأمراء للتجارة نحو عشرين حانوتاً، وذهب بكل ما فيها من التجار. ثم ردم باقيها على ما فيه بالأخشاب والأحجار والطين، حتى رجعت قيمة ما سلم منه من المائة الى العشرين وأخرب ما جاوز بحيز المدينة من سوق أم معبد، واللحامين، ومن الوقف السقطيين والحصريين، وحوانيت العجز، وسوق الأمير ركن الدين. ثم دمر باقي وقف الجامع على ما فيه من الأمتعة والبضائع. ثم ردم العين بالأحجار والخشب والصخور حتى خشي عليها أهل البلد أن تغور. ثم أخرب حوانيت الطباخين، وجانباً من حمام الأمير موسى، وكان ذلك على من لم يرض بقضاء الله يوماً منحوساً. ثم أخرب الدباغة وجانباً من حمام السلطان، وما يلي ذلك من المطهرة، وسلخ المعز والضان. وأعظم من ذلك اضرابه المدرسة اليعقينية، والرواق القبلي من المسجد الجامع. وفي ذلك ما يحرق قلب كل مشيت وخاشع. وردم داخل الجامع بقايا السيل والطين والأخشاب. فاعتبروا يا أولي الألباب. وبلغ الماء في داخل الجامع الى القناديل المعلقة، وذلك بتقدير من يعلم ما في البر والبحر، وما يسقط من ورقه. ولم يخرب شيئاً من غالب ما ذكر إلا على ما فيه من الأمتعة والبضائع والأموال، حتى أتيح لكثير من أرباب ذلك أن يد يد له للسؤال. وكانت مدة استدامته من بكرة النهار الى وقت العصر. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا ساء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الهم. وكان غرض السيل قدر رمية بحجر، وارتفاعه عن بسيط الأرض قدر قامتين أو أكثر. وقدر ما ذهب فيه من الأمتعة والبضائع والأموال، وقيمة الأملاك هذا القضاء المبرم، فكان ذلك يزيد على خمس مائة ألف درهم. وذلك خارج عن الفلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر مدينة عجلون. إنا لله وإنا إليه راجعون. ومن جملة لطف الله تعالى بحبيته بالنهار فحذر الناس منه، فلم يعرف في البلد غريق إلا سبعة أنفار، ولو كان والعياذ بالله ليلاً لزادوا على الإحصاء في المقدار. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار، وليس الخبر في جميع ما ذكرناه كالعيان، ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان.

### ملحق رقم (٣)

نص وقف البستان والحمام بوادي الكرك للسلطان الأشرف شعبان في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٧٧ هـ (من وثيقة حجة وقف السلطان الأشرف شعبان رقم ٤٩ بدار الوثائق القومية بالقاهرة «مخطوط»).

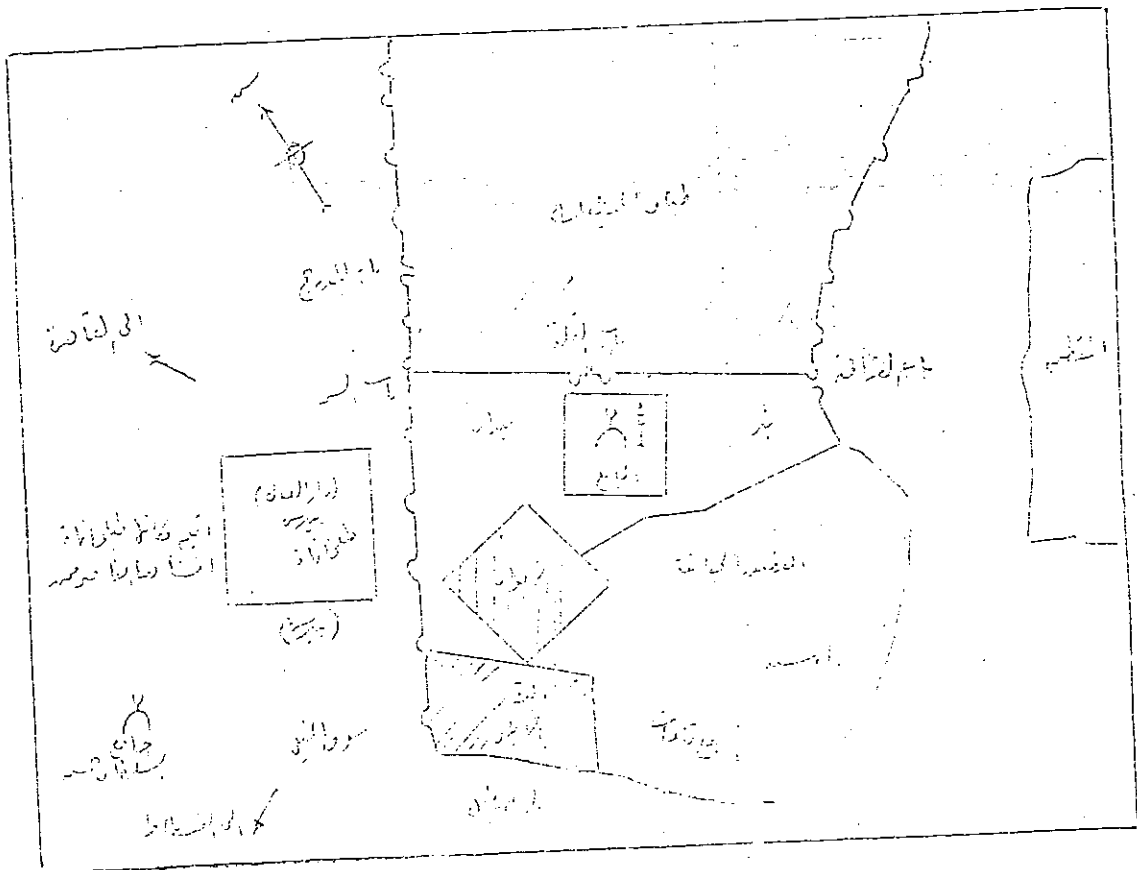
ومن الموقوف جميع البستان وأراضيه، وجميع الحمام الآتي ذكر ذلك وتحديده فيه. وهذا البستان المذكور والحمام بوادي الكرك المحروس من الخاص الشريف المشتمل البستان المذكور أشجار ثابتة بأراضيه هي: الحور، والرمان، والشمش، والتفاح، والورد، والتين، والعنب، والأترنج، والمُلب، وغير ذلك. وما به من الدور المعدة لسكنى مستأجره وهي ثلاث دور: الأولى، تشتمل على سفلى وعلو، فالسفل يشتمل على قبوين وإيوان معقود ذلك جميعه بالطين والحجر، وعلى بيت مسقف بالخشب والقصب. والعلو يشتمل على قبو معقود بالطين والحجر، يصعد إليه من سلم حجر من داخل الدار، ولها باب يفتح من جهة القبلة. والدار الثانية تشتمل على قبوين وإيوان معقود ذلك جميعه بالطين والحجر، ولها باب مفتح من جهة الشرق، وطابق هذه الدار المذكورة قبو معقود بالطين والحجر يفتح بابه مشملاً. والدار الثالثة في جهة الشمال من البستان المذكور، تشتمل على قبو واحد معقود بالطين والحجر، وطاقة باب يفتح من جهة القبلة المذكورة. والبركة المعدة لجمع الماء من العين المختصة بالبستان المذكور المعروفة بمحيص، هذه العين المذكورة بالبستان المذكور وأمام الحمام الآتي ذكرها فيه، فإن مساحتها بذراع العمل أربعة عشر ذراعاً طولاً وعرضاً، كذلك، وعمقها أربعة أذرع، وهي مبنية بالشيد والطين والحجر، والقاعة التي على حافة البركة المذكورة من

جهة القبلة، وبنى قاعة مستهدمة في داخلها قائم الجدران الأربعة، وهي شعسات، ويفتح باب القاعة المذكورة من جهة الغرب، والقبو الذي هو تحت البركة المذكورة من جهة الغرب معقود بالطين والحجر، يعرف بالطاحونة قديماً، وهي الآن عاطلة. يشتمل الحمام المذكور على مسلح بأربعة قناطر حجارة بجانب سراويل بجانب اتعشري، وعليه قبة معقودة بالطوب الأحمر، وبه ايوانان شرقي وغربي، معقود ذلك بالطين والحجر، وبها مقصورتان معقودتان بالحجر والطين، وفي وسطه فسفة برسم الماء البارد، وبالمسلح المذكور باب يتطرق منه الى بيت السخن في دهليز، وعن يمين الدهليز بيت البارد، يشتمل على قبة وحوض كبير. ويتطرق من الدهليز المذكور الى بيت وسطاني، يشتمل على قبة وحوض وخلوة فيه من جهة القبلة يشتمل على قبة وحوضين، ويتطرق منه الى صدر مشمن يشتمل على قبة كبيرة مضلعة ستة عشرية، وأربعة أحواض، وبه مقصورتان قبليّة وشمالية تشتمل كل واحدة منها على قبة وحوضين. وفي حايطة من جهة الشرق خزانة برسم الماء السخن موضوع بها قدرتان نحاسا برسم تسخين الماء احديهما كبيرة والأخرى صغيرة، وبدهليز الحمام المذكور ميضأة تشتمل على قبة. وجميع الحمام المذكورة مبلطة بحجر ما وغيره. ويتطرق الى الحمام المذكورة والى الأماكن المذكورة فيه من باب يفتح متشاملا، وللحمام المذكور مستودع، وهو قبة معقودة بالطين والحجر وعليها قبو معقود بالطين والحجر. وعلى سطح باب الحمام المذكورة بركة معدة لجمع الماء طولها ثمانية أذرع بذراع العمل، وهي مبنية بالشيد والطين والحجر ومساحة الحمام المذكورة ومستودعها وبركتها المذكورة بقصبة القياس التي طولها سبعة أذرع ونصف بذراع الحديد المعامل به يوم يذن بالكرك المجروس ست وأربعون قصبة، ومساحة خطة الحمام المذكورة بالقصبة اثنان وثلاثون قصبة. ويحيط بالحمام المذكورة حدود أربعة من القبلة البستان المذكور، ومن الشمال الوادي وفيه يفتح بابها، ومن الشرق البستان المذكور، ومن الغرب الوادي. ويحيط بالبستان المذكور وما هو في حقوقه حدود أربعة، الحد القبلي ابتداءً من جهة الغرب الوادي الكبير، ويستمر مصعداً على عقبة طريق يعرف بعقبة الحبيس، وهي درب سالك الى أن ينتهي الى الكوم المعروف بأولاد

اسحق بن يومصان، وشركتهم الفاصل بين البستان المذكور وبين الكوم المذكور  
حجارة حر ثابتا وهو انتهاء الحد القبلي. والحد الثاني هو الشرقي ابتداءه  
الحجارة الجمر..... الكرم العنب المعروف ..... «بقية الوقفية مفقودة».

اسم الدولة العباسية  
مركز الحكم العباسي

( بناء ملاح الدين القيس ٧٢٦ هـ - ١١١٢ م )



- الدولة مركز حكم السلاطين ، دارهم فيها القصور ،
- فيها قديروهم وبيرواتهم وفنانات العربهم والبيروهم ،
- وكان فيها حيواناتهم ونباتاتهم من الزينة ،
- حوت جميع المراكب البحرية والكوارب ،
- وأخذوا السلطان ببلادهم القديرة ،
- ونفذت إليها المياه بالسواقي ، للحرب والرياسة .

قال ابن الأثير : « وقد قلنا القاهر - في تاريخه » ( ١١٢٢ )





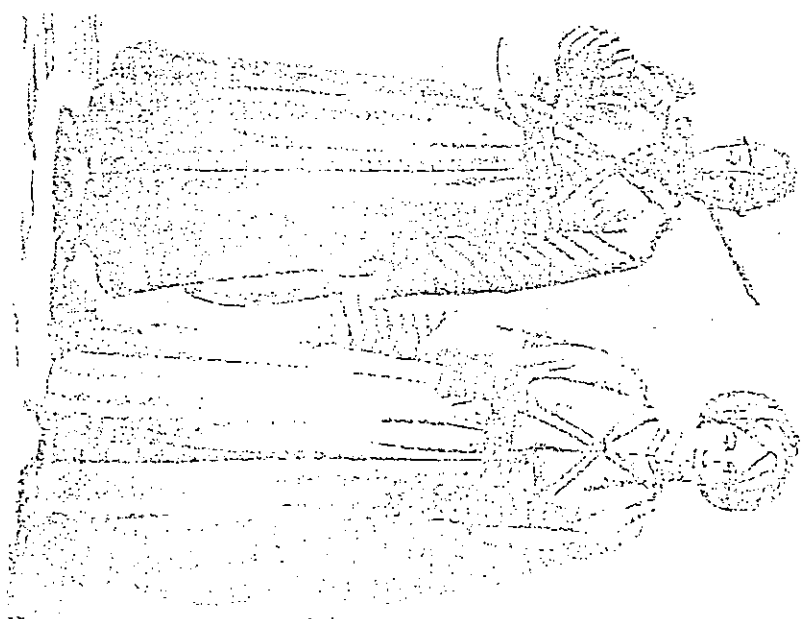
نقش برتن دریا مزردا و معطفا طویلا - نقلا عن :

Boase, Kingdoms and strongholds, p. 49.

سابق رقم ( ٢٠٣ )



أحد فرسان السالك بلبس ركب الخيل



جيت بان من جند السالك يرتديان الحية والقططسان

من كتاب الملايين في السنين النجلى والاسلامى ( لسان بلال ) عمل ٣٨ و ٣٩

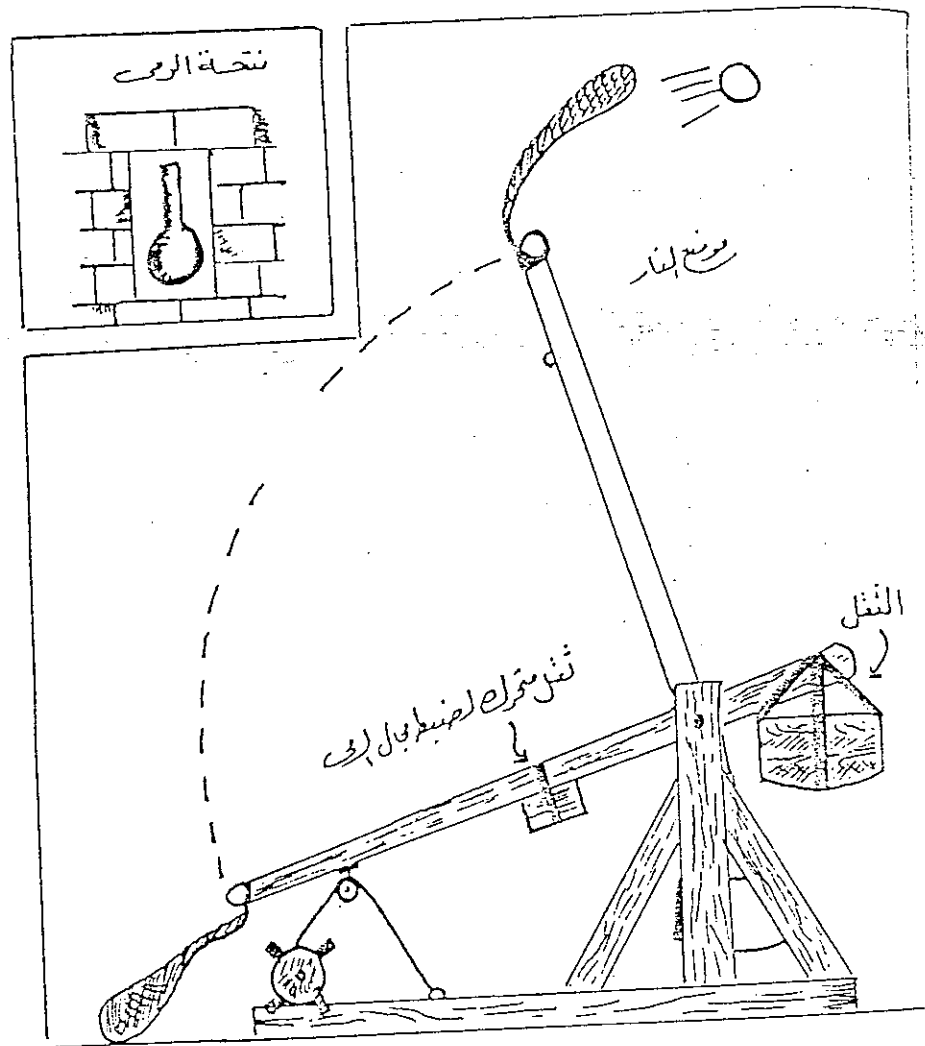
الاسم رقم ( ٧ )



مجموعة من المملوكين يملأون الحديقة

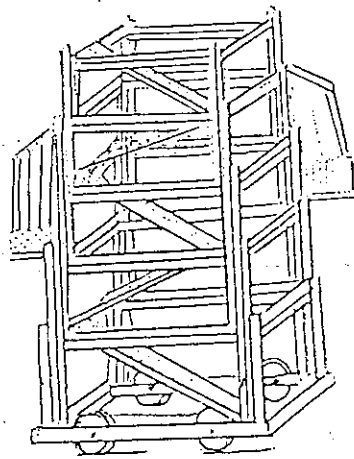
( يبدو أنهم يدخنون )

( من كتاب الملايين من المعجزات والاسرار - لثاء بلال ( شكل ٣٣ ) )

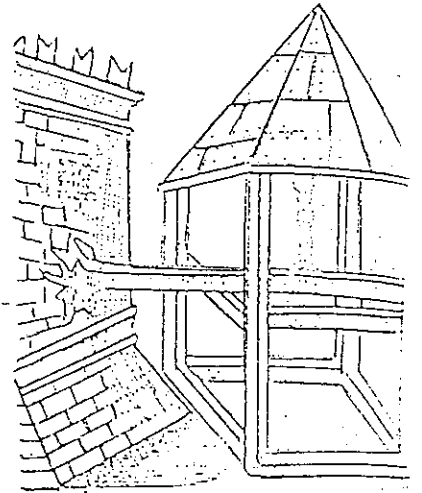


المنجنيق تتداعى

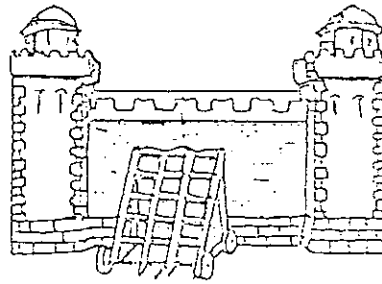
Silman, Castles and fortresses, p. 10



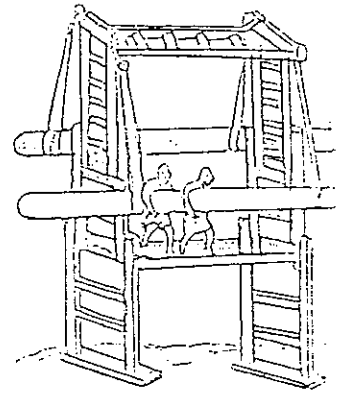
برج الحصار



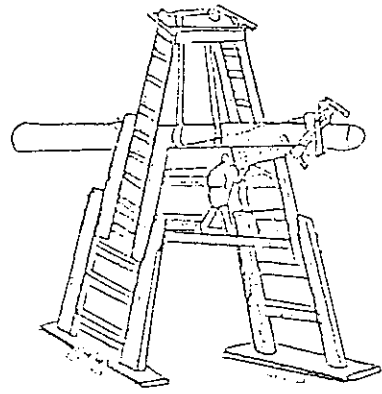
برج الزبد والكبح



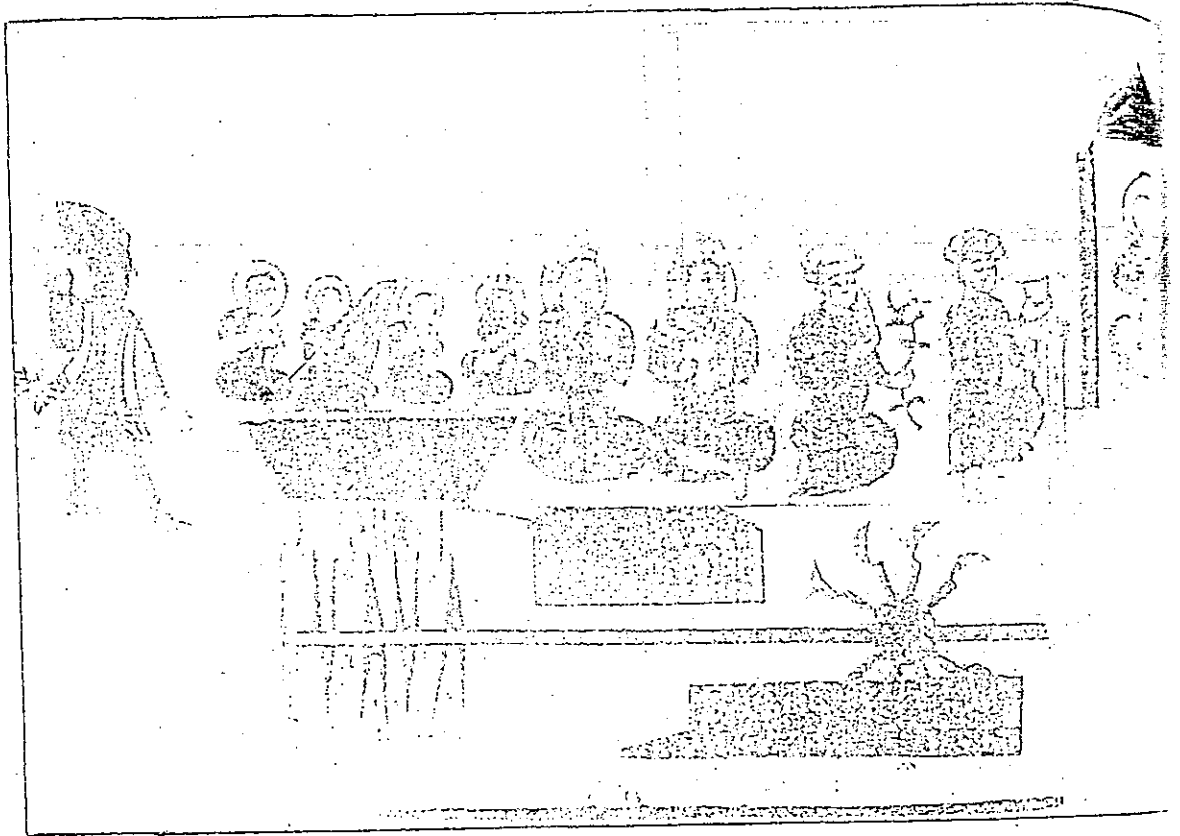
سور الحصار



الكبح



أبراج خشبية لأبراج الحصار والكبح



### مجلس الشراب والطرب

يعدو جانباً من الحياة الاجتماعية السلوكية

يؤخذ أمراء الممالك يجتمعون على دكة ، مع شيوخ ومساويرة يستمعون إلى الغناء والطرب  
تقدم الخدمة لهم كوثر الشراب ، ويلاحظ أن عادة الأمير الأسطورية الشكل تسخّلت  
وحجتها شيئاً ما عن عائد ، مسامحة - فهو أكبر - (شازن) دائماً عن عائد الخدمة .

من ميكرتيل : الرزاز : الجامع بين الطرب والمسابح (مخطوط) برقم ٥ صناعة أطعمة  
بشعبه . مخطوطات جامعة الدول العربية من القرن السابع الهجري -  
الثالث عشر الميلادي .



خامساً:

**ملاحق النقد ومدن السك**



درهم مزيف للصالح اسماعيل  
ضرب بمدينة عكا ( القرن ١٣ )



وجه دينار ضرب بمدينة عكا  
في خمسينات القرن ١٣ عليه  
مأثورات عربية اسلامية<sup>(١٠٥)</sup>

وبعدئذ عكا سك الصليبيون دنانير نقش عليها بالعربية عبارات مسيحية  
على هيئة حلقات على النمط الفاطمي جاء على بعضها<sup>(١٠٣)</sup> .

الوجه :

في المركز : إله  
واحد

على الهامش الأول : الأب والإبن + والروح القدس .  
الهامش الثاني : ضرب بعكا سنة ألف ومائتين واحد وخمسين تجسد ربنا المسيح .  
الظهر :

داخل دائرة : نفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به سلامتنا وبه قيامتنا وبه  
تخلصنا وعفينا .  
كما جاء مثل هذا الدينار الذي ضرب أيضاً سنة ١٢٥٠ م بمدينة عكا ذكره<sup>(١٠٤)</sup> في  
كتاب الذكور العش .

كما ضرب دينار آخر سنة ٦٤٢ هـ ( ١٢٤٥ م ) بمدينة عكا جاء عليه .

الوجه :

وفي المركز/إله  
واحد

الهامش/مقسم بواسطة صليب  
الظهر :

في المركز/صليب

الهامش/ضرب بعكا سنة ألف ومائتين وخمس<sup>(١٠٦)</sup> .  
ومعظم هذه النقود كانت قد ضربت بأمر من القديس لويس سنة ١٢٥٠ ميلادية وما بعدها تقليداً للنقود الأيوبية وقد تميزت في  
معظمها بعبارة التثليث ( الأب والإبن والروح القدس ) وشارة المسيحية على الظهر محاطة بعبارة « الله واحد هو الإيمان واحد  
والمعمودية واحدة » .

• انظر مجموعة النقود المرورة في كتاب : بول - كتالوج النقود العربية ص ٢٠٠ .

وقد ضربت من الذهب والفضة ، ويوجد بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة نماذج منها .

كما ظهرت على الدراهم الفضية بعض المأثورات ضمن مربع (١٠٧) :

الوجه : الأب والابن

والروح القدس

إله واحد

الهامش / لله المجد إلى أبد الأبدين آمين

الظهر :

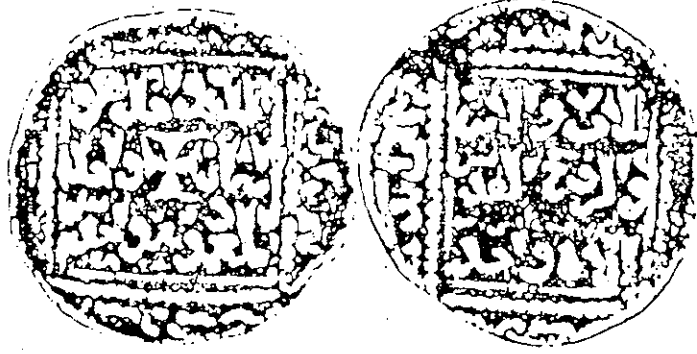
صليب ضمن دائرة حولها كتابة مربعة

في ثلاثة أسطر :

الله واحد هو

الايان واحد

المعمودية واحدة



حتى إذا ما اندحر الصليبيون من البلاد تركوها وقد أصاب اقتصادها من زراعة وصناعة الدمار فارتفعت الأسعار إلى ستة أضعاف ما كانت عليه من قبل (١٠٨) .

اليوم ( ٢٢ ) .

أما نفوذ صلاح الدين الايوبي فهذا نقشها وصورتها :



✓ وعندما اعتلى صلاح الدين الأيوبي عرش الحكم سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) ضرب له نقوداً في مصر في كل من القاهرة والاسكندرية أما في الشام فقد سك نقوداً في مدن دمشق وحلب وحماة . ضربها على النمط الفاطمي بحيث نقش على ظهر النقود اسم الخليفة العباسي بالإضافة لاسمه ومكان وزمان الضرب فضرب الدينار عليها كتابة على هيئة حلقات ثلاث جاء عليها (١١٠) .

الوجه :



بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بالقاهرة سنة سبعين وخمسماية ١  
لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو محمد ٢  
المستضى بأمر الله أمير المؤمنين ٣  
في المركز : الامام  
الحسن

الظهر :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ١  
ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله ٢  
الملك الناصر عال غايه ٣ ✓  
في المركز/يوسف  
بن أيوب

كما ضرب الدراهم الفضية ( الدراهم الناصرية ) والتي وصفت برءاءتها وارتفاع نسبة النحاس المخلوط بها أى بالفضة والتي قدرت بالضعف ، من هنا كانت قيمتها الاسمية القانونية تتفوق على قيمتها المعدنية حتى أطلق عليها الناس « الزيوف » مما كان له المردود الاقتصادي السيء على الناس .



وجه درهم (١١٢)

فقد ظهر على وجه الدراهم وعلى هيئة مربع في ثلاث سطور :

الإمام النا  
صر لدين  
الله  
أمير المؤمنين

وعلى الهامش وفوق كل ضلع من المربع  
لا إله الا الله / محمد رسول الله  
والظاهر :

اسم الملك على هيئة مربع في ثلاثة أسطر

الملك النا

صر صلاح الدين

يوسف بن أيوب

وعلى الهامش / ضرب دمشق سنة ٥٧٦ هجرية .

وهناك درهم آخر لصلاح الدين الأيوبي يحمل زخارف مميزة كتب نقوشه داخل نجمة سداسية مزخرفة جاء عليه (١١٤) :-

الوجه :

الامام

الناصر لدين

الله أمير المؤمنين

الهامش وفوق كل ضلع من أضلاع النجمة :

ضرب / لا إله الا الله / رسول الله ...

الظاهر :

الملك

الناصر صلاح

الدين يوسف ...

أيوب

الهامش / م ... / ضرب / ... /



أما بالنسبة لفلوس صلاح الدين فلم يظهر عليها اسم الخليفة بل ذكر اسم الملك الأيوبي فقط<sup>(١١٥)</sup>.

الوجه :

داخل دائرة : الملك

الناصر

الهامش / صلاح الدنيا والدين سلطان المسلمين  
الظهر :

داخل دائرة : يوسف

بن أيوب

الهامش / ... ضرب بدمشق ....



وبما هو لافت للانتباه العثور على قطعة نقدية نحاسية على شاطئ مدينة دير البلح<sup>(١١٦)</sup> تحمل ماثورات تناقض ما ألفناه من عدم وجود صور للملوك العرب المسلمين يبدو أنها ترجع لعهد صلاح الدين الأيوبي فقد ظهر عليها :

الوجه :

وجه صلاح الدين يوسف بن أيوب بلحيته وشاربه وعلى رأسه غطاء أشبه بطاقيّة مرتفعة . وأمامه وجه رجل ربما هو ريتشارد قلب الأسد وعلى رأسه اكليل من الغار يذكرنا بأكاليل الملوك الرومانيين واليونان ووجهه حليق .

الظهر :

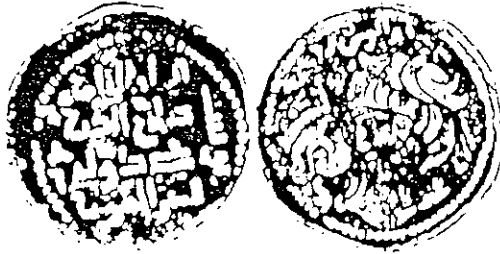
ظهرت عليه كتابة بالخط الكوفي الجميل داخل دائرة منقطة

الملك الناصر

صلاح الدين

دولة ....

أمير المؤمنين



ولا يوجد مكان ولا تاريخ الضرب ويبدوننا أن هذه القطعة النقدية ربما ضربت تذكراً لصلح الرملة بفلسطين بين صلاح الدين والصليبيين .

وفي عهد العزيز عماد الدين عثمان ( ٥٨٩ هـ ) ضرب هذا الفلس<sup>(١١٧)</sup> :

الوجه :

داخل دائرة عثمان

الملك العزيز

الظهر :

داخل دائرة : سيف

الملك الناصر

أبو



وهناك درهم نقشت عباراته داخل نجمة سداسية مزخرفة يرجع للظاهر غازي ( ٥٨٢ - ٦١٣ هـ )<sup>(١١٨)</sup> .

جاء عليه :

الوجه :

الإمام  
الناصر أحمد  
الملك العادل  
أبو بكر .



الهامش ... غير واضح ...

الظهر :

الملك  
الظاهر غازي  
بن يوسف بن  
أيوب

الهامش ... غير واضح ويعتقد أنه ضرب جلب مع بداية القرن السابع الهجري .

وفي عهد الملك العادل سيف الدين أبو بكر ضربت الدينار والدراهم والفلوس فقد ضرب دينار سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) جاء عليه (١١٩) .

الوجه :

داخل دائرة : الإمام أحمد

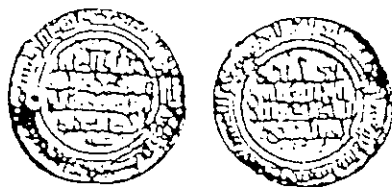
أبو العباس

الناصر لدين الله

أمير المؤمنين

الهامش/بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار

بالاسكندرية سنة ست وتسعين وخمس مائة .



الظهر :

داخل دائرة :

عال

الملك العادل

أبو بكر محمد بن أيوب

ولي عهده الملك

الكامل محمد

غايه

الهامش/محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وضرب دراهم فضية مزخرفة بأسلوب متميز حاد على ظهرها (١٢٠) :

سيف

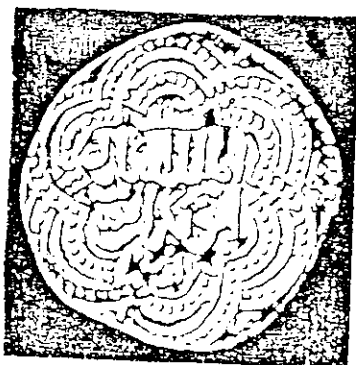
الملك العادل

أبو بكر بن أيوب

الدين

الهامش/ضرب دمشق/سنة/ثلاث عشر وستماية

ورنفس النمط ضربت دراهم للملك العادل جاء عليها (١٢١) .



الوجه :

المو  
الامام الناصر  
لدين الله أمير  
المؤمنين

الظهر :

الدين  
الملك العادل  
أبو بكر أيوب  
سيف



كما ضرب دراهم فضية ظهرت مآثوراتها داخل مربع جاء عليها (١٢٣) :

الوجه :

المستنصر

بالله أبو جعفر

المنصور بن ...

الهامش / ... غير واضح .

الظهر :

الملك العادل

سيف الدين

أبو بكر بن محمد

الهامش / ... غير واضح .

وهناك درهم ضربت نقشه داخل مربع جاء عليه (١٢٣) .

الوجه :

الامام المعتز

بالله أبو جعفر

المنصور بن أبي ...

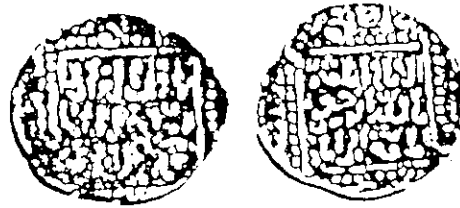
الهامش / ... غير واضح .

الظهر :

الملك العادل

سيف الدين

أبو بكر بن محمد .



كما ضرب فلوسا ضرب عليها اسمه دون الخليفة داخل دائرة ذات زوايا (١٢٤)

عديدة جاء عليها :

الوجه :

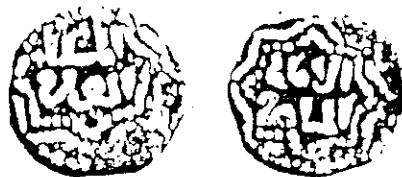
الامام

الناصر

الظهر :

الملك

العادل





وهناك فلس أيوبى متميز يزخارفه النادرة ظهر عليه (١٢٥) :

الوجه :

أبو بكر بن أيوب

الظهر :

فراغ في معظم أطرافه .

وظهر على جزء من الاطار : ثمان وسبعين .



وفي عهد الملك الكامل محمد بن العادل الذى اعتلى العرش سنة ٦١٥ هـ ١٢١٨ م قام بتعزيز مكانته الأسرية بتوحيد أواصرها ، فتمكن بذلك من الإطمئنان على وضعه الداخلى ، ثم اتجه اقتصادياً فأبطل الدراهم الناصرية سنة ٦٢٢ هـ ، وقام بضرب دراهم جعل الفضة تمثل  $\frac{2}{3}$  وزنها وخلط الثلث الآخر نحاساً (١٢٦) .

وقد انتشرت هذه الدراهم فى فلسطين كجزء من الدولة العربية الإسلامية ، وكذا الدينار والفيلس طيلة التواجد الأيوبى وحتى العصر المملوكى .

وعما مهد السبيل لانتشارها وشيوع استعمالها ، أنه أى الملك الكامل أمر الناس بالتوجه للصيارفة وتبديل ما لديهم من دراهم ناصرية على حساب كل رطل منها بدرهمين ونصف كاملية [ الدرهم الكامل ٣,٣٩ غرام ] أى ما يعادل ١٨ خرويه [ الخرويه ١,٩٤ غرام ]

وقد تميزت دنانير الملك الكامل بأنها ضربت على النمط الفاطمى فتركزت الكتابة فى وسط دائرة فى المركز أحاطتها شهادة التوحيد على الهامش على الوجه التالى (١٢٧) .

الوجه :

داخل دائرة : الإمام

المنصور أبو

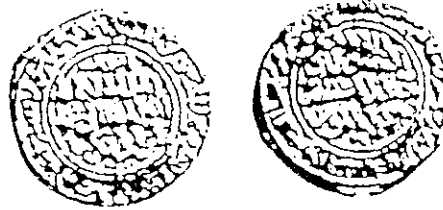
جعفر المستنصر

بالله أمير المؤمنين

الهامش / بسم الله الرحمن الرحيم ضرب

هذا الدينار بالإسكندرية سنة اثنين

وعشرين وستمائة .



الظهر :

داخل دائرة : الملك الكامل

أبو المعالى محمد

ابن أبى بكر بن أيوب

الهامش / لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وقد ضرب دراهم ظهرت على نمطين أحدهما كانت المآثورات داخل دائرة تشبه مآثورات الدينار السابق وآخر كان داخل مربع ، فقد ظهر على أحد الدراهم مايلى :

سوقد ضرب ببيرس نقوده في عام ٦٥٨ هـ متميزة بشعاره الجديد « رنك » وهو « الأسد » ولقبه الجديد « قسيم أمير المؤمنين فـضرب دنائير بمأثورات تشبه تلك التي على دنائير شجرة الدر حيث جاء عليها (١٤٥) :

الوجه

في المركز : لا إله إلا الله

محمد رسول الله

أرسله بالهدى

الهامش : ضرب . . . سكندرية سنة تسع وخمسون وستمايه

الظهر

في المركز : السلطان

الملك الظاهر

ركن الدنيا والدين

« أسد يعدو لليسار »

الهامش / . . . غير واضح .

وقد ضرب دنائير بمأثورات مختلفة جاء على بعضها (١٤٦) :

الوجه :

داخل دائرة : الإمام

المستنصر بالله

أبو القاسم أحمد بن

الإمام الظاهر أمير

المؤمنين

الهامش . . غير واضح

الظهر :

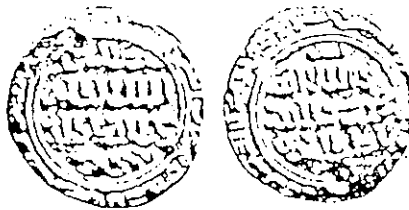
داخل دائرة : الصالحى

السلطان الملك

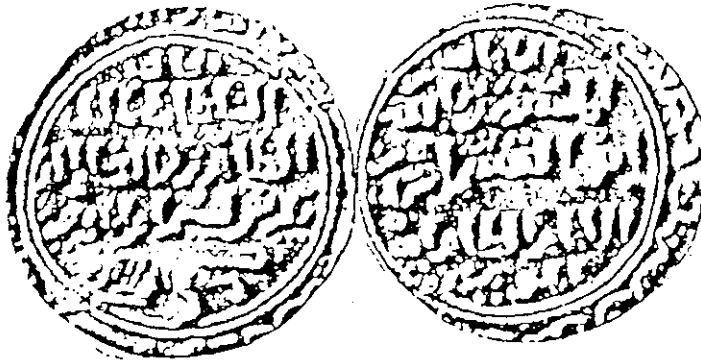
الظاهر ركن الدين والدنيا

بيرس قسيم أمير المؤمنين

« أسد » يعدو لليسار .



دينار ببيرس ضرب بالاسكندرية ١٢٦١ م





(خريطة ١١) \* مدن السك الفلسطينية \*

في العصر العباسي

والملوك والاعشيدي